

الجزء الأول

تفريغ الحلقات (1- 50) من تفسير القرآن الكريم
والمتضمنة تفسير:
سورة الفاتحة، والآيات (1 - 53) من سورة البقرة

لفضيلة الشيخ الوالد
أبي قتادة الفلسطيني
-حفظه الله ورعاه-

ذو القعدة 1443هـ - يونيو 2022م

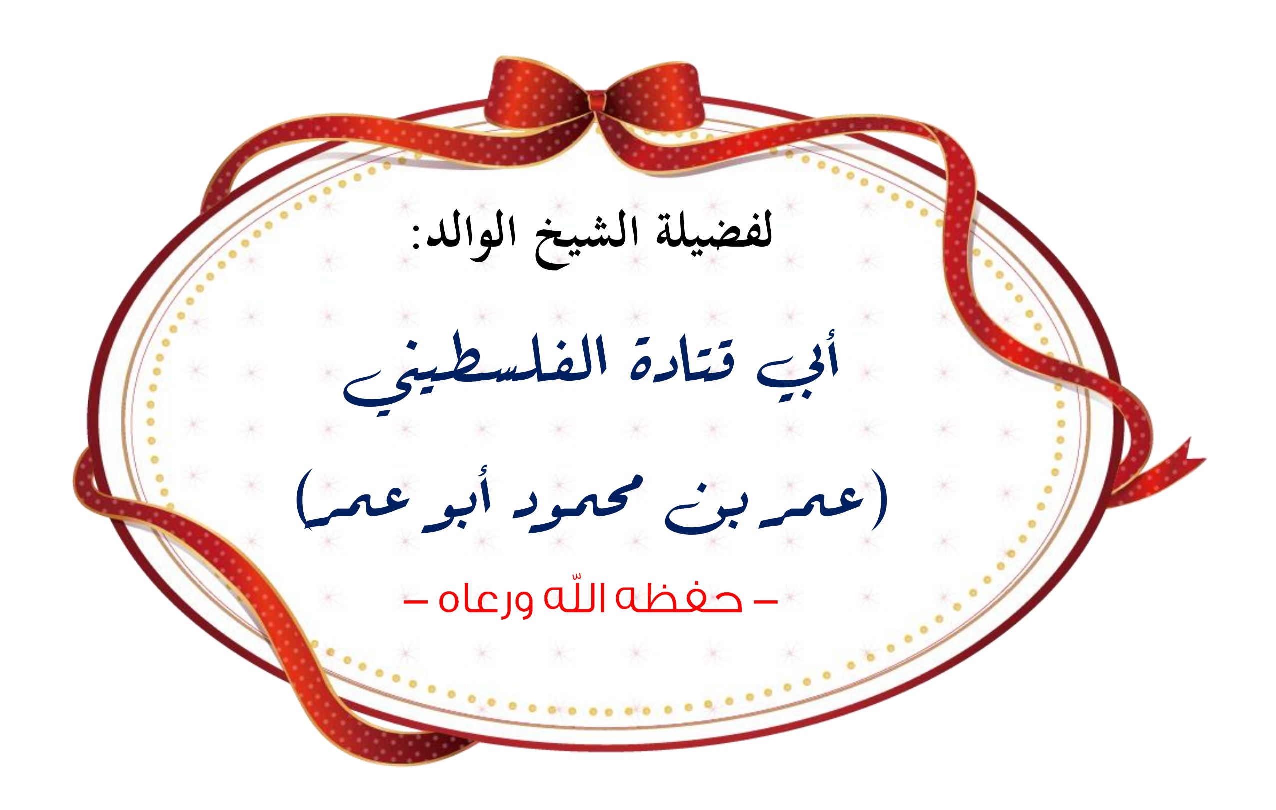


التيسير في التفسير

- الجزء الأول -

تفريغ الحلقات (١- ٥٠) من تفسير القرآن الكريم

والمتضمنة تفسير سورة الفاتحة، والآيات (١ - ٥٣) من سورة البقرة



لفضيلة الشيخ الوالد:

أبي قتادة الفلسطيني

(عمر بن محمود أبو عمر)

- حفظه اللّه ورعاه -

ذو القعدة ١٤٤٣هـ - يونيو ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحیم

مقدمة الناشر

الحمد لله، وأصلي وأسلم على رسول الله، وعلى صحبه ومن والاه واتبع هداه، أما بعد.

فهذا تفريغٌ سلسلة (تفسير القرآن الكريم) المباركة، من التراثِ المرئي الجديد لشيخنا الوالد «أبي قتادة الفلسطيني؛ عمر محمود أبو عمر» -حفظه الله-، والتي كنا نحرصُ على تفريغها منذ سنواتٍ عدة، ولكنَّا أخرناها لأهميتها، حتى تُعطى حقها في الخبرة والوقتِ، فقدمنا عليها موادًا أخرى.

فبعد جهد جهيد؛ يسرنا أن نزف لكم تفريغ الحلقات الخمسين الأولى من هذه السلسلة، والتي ألقاها الشيخ في اثنين وسبعين (٧٢) ساعة مرئية، فسَّر فيها الشيخ سورة الفاتحة في أول ثلاثة عشر مجلسًا، بينما كانت بقية المجالس الخمسين - وما يليها كذلك مما سنواصل تفريغه بحول الله وقوته - مختصةً بتفسير سورة البقرة، وقد توقف الشيخ في المجلس الخمسين إلى تفسير الآية رقم (٥٣) من سورة البقرة.

ويظهرُ من استماعِ هذا التفسير الذي مُلِئ بالفوائد العلمية والحركية؛ أنَّ الشيخ -سلمه الله- قد أطال النفسَ في تفسيره، فصال وجال في مسائل العلم المستنبطةِ من القرآن العظيم، وقرَّر أصول العلم على قواعدها المعتبرة عند العلماء، وحرَّر الفروع والمسائل؛ كل ذلك انطلاقًا من هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مِن خلفه، ولأجلِ ذلك فقد آثرنا أن نعطيَ هذا التفسير اسمًا يليق به؛ فكان عنوانه: (**التيسير في التفسير**)، لأنه يسَّر فيه التفسير لراغبه، تقبل الله منه وجزاه خيرًا.

وقد كان لنا بعضُ التصرّفِ في النص بما لا يغير المعنى بل يحفظه؛ كحذف بعض التكرار، وإضافة بعض أدوات الربط، وحاولنا كثيرًا أن نلتزم لفظَ الشيخ، اللهم إلا إذا كان التزام اللفظ لن يجعل النص المقروء مفهومًا فغيرناه على ما تقدم.

ومع وضعِ هذا الكتاب بين أيديكم-والذي استغرق العمل فيه قرابة ثلاثة أشهرٍ، ووقع في أكثر من ألف صفحةٍ بالخط الصغير - فإننا نسأل الله العليَّ القدير أن يجعله في مزيان حسناتِ شيخنا عمر أبي قتادة، وأن يبارك في عمره وعلمه، وأن يكتب لنا ولسائر القراءِ أجرَه، والله ولي التوفيق.

وكتب/ **أبو عبد الرحمن**

ذو القعدة ١٤٤٣ هـ

تفسير سورة الفاتحة

الدرس الأول

إن الحمد لله، نحمده حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين، حبيبنا وإمامنا وقائدنا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطيبين، وعلى صحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم.. آمين، آمين.

أيها الإخوة الأحبة، أهلاً وسهلاً بكم في أول لقاء لنا من دروس التفسير، وكنا قد شرعنا في تفسير سورة الأنعام في شهر رمضان، ولكن لم نتم هذا التفسير لأسباب منها ما هو شخصي.

وما يهمنا هنا أيها الإخوة الأحبة أننا في هذا اللقاء سنبدأ فقط في تفسير سورة الفاتحة، وبعد الانتهاء من تفسير سورة الفاتحة إن شاء الله نُقدِر ونستخير الله عز وجل؛ هل نتم ما وراء الفاتحة من سورة البقرة أم أننا نعود إلى سورة الانعام لنتم السورة وما فيها من فوائد(١).

والحمد لله قد انتشر ما تقدر من تفسير سورة الأنعام ووصلنا لقوله تعالى ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣)﴾ [الأنعام: ١٣]، والآن نحن نعود ليكون هذا التفسير منهجيًا ويكون إن شاء الله متتابعا عسى الله سبحانه وتعالى أن ينفع به القائم عليه وينفع به السامع.

عادة يبدأ أهل التفسير في مقدمة التفسير تتعلق بعلوم القرآن، تتعلق بعلوم التفسير، تتعلق بالتاريخ، تتعلق بتاريخ التفسير، وكذلك يكون الكلام عن مسائل يحتاجها السامع لهذه الدروس وهذه قد كثرت، والذي رأيته أن هذه المقدمات التي يقوم بها المشايخ في دروسهم وكذلك يقومون بها في مؤلفاتهم ومصنفاتهم، الكثير منهم يبدأ تفسيره بهذه المقدمة التي تتعلق بأصول التفسير وتتعلق بعلوم القرآن، فمنهم مكثر ومنهم مقل ومنهم من لا يفعل، فلو رجعتم لبعض التفاسير لا تجدون أي مقدمة لها سواء كانت من التفسير بالأثر أو التفسير بالرأي، فمثلاً: لو رجعتم لتفسير أبي السعود مثلاً القاضي العثماني المشهور فلا تجدون أية مقدمة، لو رجعتم لتفسير النسفي لا تجدون أي مقدمة، لكنكم لو رجعتك لتفسير الطبري تجدون كلامًا طيبًا في المقدمة.

والذي رأيته ألا أشرع في أي مقدمة إنما ندخل في التفسير مباشر وإذا عرض لنا مسألة من مسائل علوم القرآن ومهمات التفسير فإن شاء الله نعرج عليها ونبين ما هو لازم في الباب الذي نحن فيهن فهذا أفضل إن شاء الله تعالى.

---

(١) تابعَ الشيخ أبو قتادة في تفسير سورة البقرة في الحلقات التالية، وهو ما فرغناه في هذا الكتاب. [الناشر]

وإذا قدر لطالب العلم أن يسمع أو يقرأ أصول التفسير فهذا جيد، وقد تكلم فيها العلماء كلاماً طويلا وأفاضوا فيها وبينو ما فيه الخير العظيم.

وأريد أن أقول هنا فقط: بأن أول علم تعلمه الصحابة رضي الله عنهم هو علم التفسير، والمقصود بالتفسير أي الكلام عن القرآن، والكلام عن القرآن يتعلق إما بمبانيه في ألفاظه وإما بمعانيه، فالألفاظ الذي يسمى بعلوم القراءات التي تتعلق بالقراءات وبرواياتها وبتدقيق اللفظ فيها، وهذه نشأ لها علوم عند أهلها ومتخصصين فيها، وهناك علمٌ آخر وهو علم المعاني وهو علم التفسير الذي نحن فيه والذي يتعلق بتفسير القرآن الكريم، والصحابة لأنهم لم يتربوا إلا على مائدة واحدة وهي مائدة القرآن فبالتالي كان أول ما يحتاجونه هو أن يتعلمو كتاب ربهم، وهذا العلم نشأت بقية العلوم منه، هو العلم الأساس الذي انبثقت منه كل العلوم الإسلامية بعد ذلك، أي يترافق مع علم التفسير أن يتعلم المرء التوحيد.

من أين يأخذ التوحيد؟ ومن القرآن كيف يأخذه؟ من علم التفسير، فالفقيه عندما يريد أن يتعلم أحكام الشريعة فلا بد أن يذهب للقرآن، لا يمكن أن يذهب للقرآن إلا من خلال علوم التفسير، وكذلك اللغة التي اهتم بها علمائنا من أجل أن تكون آلة؛ إنما احتاجوا إليها من أجل علم التفسير.

فالقصد: بأن القرآن وهذه كلمة نكررها في كل درس وعلينا أن نعيد تشديدها لأن الناس قد هجروها وإن رفعوها شعاراً لكنهم هجروها فعلاً وهو أنه لا بد من العودة للقرآن أولاً.

إن أي عودة لا تبدأ بالعودة إلى القرآن المقصود بها إلى الإسلام أو أي عودة المقصود بها إعادة الاسلام وتشديده والعودة إلى نصرته إن لم تعد إلى القرآن فهي عرجاء وعمياء وإنها كسيحة، لا تنتج شيءٍ، لا بد من العودة إلى القرآن كما أن الصحابة رضي الله عنهم هم نتاج القرآن والقرآن هو المادة الوحيدة التي أنتجت الجيل الصحابي العظيم؛ فلا بد إذا أردنا أن نعيد بعض معاني هذا الجيل أن نعود إلى المصدر الذي رباه، وإذا عدنا إلى السواقي دون أن نعود إلى المصدر إلى الأنهار فسيدخل الدخل وإذا دخل الدخل دخلت العوائق.

هناك فقط شبهة يسيرة أمر عليها وهي أنهم يقولون:

النقطة الأولى: إن العودة للتفسير أو العودة للقرآن يحتاج إلى علوم، وهذه العلوم شاقة ولا يذكرون هذا الكلام من قبيل التشجيع على علوم الآلة التي تؤدي إلى فتح باب علم التفسير لا يقولون هذا الكلام على هذا المعنى، إنما يقولونه على المعنى الذي به يريدون إبطال الذهاب إلى القرآن؛ بمعنى يصعبون الطريق للوصول إلى القرآن من أجل أن يقولوا: إن الوصول إلى القرآن صعب، فيذهبون إلى غيره وهؤلاء في الحقيقة لا يعرفون القرآن ولا يعرفون سنن الله عز

وجل في إحياء هذه الأمة، ذلك لأن أي قضية يتعلمها المسلمون من أجل العودة إلى عزتهم تحتاج من العلوم أقل من علوم القرآن، يعني كيف يريد أهل الإسلام أن يعودوا للعزة دون أن يكون ثمة لديهم علم؟

ادعونا، هاتوا لنا علماً ما تزعمون أنه لازمٌ للنهضة، لازمٌ لزوال انحطاط المسلمين، فإن أي علمٍ تقولونه يحتاج إلى مشقة ويحتاج إلى جهود هي أكثر بكثير مما يحتاجه المفسر للعودة إلى القرآن، فلا بد من العلم ولكن هذه العلم يسير وسهل وليس شاقاً.

النقطة الثانية في هذا الباب: أن القرآن –وهذا ذكرته كثيراً ذكرته في سورة «الأنعام» وأعرج عليه هنا– معلومٌ أن القرآن هو مادةٌ عظيمة لغذاء القلب لكل مسلم ولكل البشرية، فبالتالي يستطيع كل مسلمٍ أن يستقي منه مادته اللازمة له فما عنده من العلوم وما عنده من المعارف وما عنده من الأدوات تصلح أن تعطيه المادة اللازمة من القرآن.

فعندما يذهب العامي لقراءة القرآن فإنه يذهب إلى السطح بمعنى إلى المعاني الجلية، البينة، الواضحة، التي قال عنها ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عندما ذكر أنواع التفسير فقال: «هناك من التفسير ما لا يجهله أحد»، العامي إذا قرء ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢]، يذهب إليها فيستقي منها من المعاني التي تلزمه والتي تليق بعقله والتي تليق بقلبه والتي تليق بحاله.

فإذا ذهب إليها آخر عنده من أدوات العلم أكثر من العامي فإنه يذهب إلى هذه الأرض العظيمة النابتة بالخيرات أو إلى هذه المنجم المليء بالكنوز فيذهب إليه بمقدار ما معه من ضوء ومن آلات فكلما ازدادت آلات المرء ذهب أعمق وذهب أبعد، وبالتالي القرآن مادة لكل الناس لكل أحد ولا يجوز لأحد أن يقول: إن القرآن شاق، وهذه أكذوبة إنما وضعت ليس فقط على القرآن وإنما وضعت على كل تراث هذه الأمة للأسف.

إذا جئنا إلى السنة قالوا: السنة أصعب من كلام الفقهاء، وإذا ذهبنا لكلام الفقهاء قالوا: كلام الفقهاء إنما ينفع لزمانهم، وإذا جئنا إلى القرآن قالوا: أنه عمومات أو قالوا بأنه لا يصلح له إلا بأن تكون كذا وكذا مع أن هؤلاء الذين يسمو بالمفكرين يذهبون إلى مناهج البحث والنظر ويتعبون في الدراسة من أجل الوصول إلى إدراك مصطلحات العلوم التي يتعلمونها الاجتماعية والسياسية والثقافية ما يبذلون فيه الجهد الكثير.

ومن راجع كتبهم وكلامهم يحس بالشفقة عليهم؛ أنهم بذلوا سنين طويلة من أجل تعلم المصطلحات التي يقولها فلان من المفكرين أو الفلاسفة ولو بذل هؤلاء من الجهد أقل مما بذلوه في هذه العلوم بذلوه في مادة آلات العلوم الشرعية اللازمة أو علوم الألة اللازمة لتفسير القرآن؛ لبلغوا من تفسير القرآن ما يحتاجونه من حصول النجاة وحصول المعارف الإيمانية.

فنحن في هذه الدروس نريد أن نقول بأن كتب التفسير إنما قيلت لمعاني زائدة عما يحسه العامي ومرات يتكلمون عما يحسه العامي لا يزيدون، أي إذا ذهبتم إلى كتب التفسير بعض الناس يذهب فيجد كلاماً هو يعرفه، وهذا ليس من العت، بل هذا يدل على أن هذا القرآن هو كالنهر العظيم الذي يستقي منه كل واردٍ عليه ما يحتاجه وينتفع من العلم والإيمان ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الروم: ٥٦]، فينتفع هذا الإنسان الوارد مهما كانت درجة علمه وتحصيله لأدوات وآلات العلوم فإنه إذا ذهب لهذا القرآن رجع من العلم حاملاً ورجع من الإيمان حاملاً ما معه من الآلات ما معه من الأواني التي تلزم لهذه القضية، هذه القضية يجب أن نفهمها من أجل أن لا يقول أحد: أنا أقرأ فقط القرآن من أجل أن أخذ الأجر في تلاوته فقط مع أن هذه التلاوة كذلك فيها الأجر العظيم حتى لو لم يفقه معناها.

هل هناك أمورٌ العامي يقف عندها؟ الجواب: نعم، بل هناك من معاني القرآن ما لم يعرفه أحد وهو تأويل الأخبار هذا لا يعرفه أحد الله استأثر بها كأسماء الله وصفاته فهذه لا يعرف كيفيتها أحد، لا نستطيع، وهناك من العلوم ما نهانا الشارع عن النظر فيها لا لأنها باطلة في أصلها بل لأننا لا نستطيع إلى فهم أعماقها، كقوله صلى الله عليه وسلم: (الناظر في القدر كالناظر إلى الشمس كلما ازداد نظرًا ازداد تحيراً)، أي هناك من العمق من المعاني ما لا يبلغه أحد ولا يستطيع أن يصل إليه أحد.

هذا مما ينبغي أن نهتم به وبالتالي هذا ما نقوم به، ونحن نحاول في هذه الدروس ولا نزعم اننا سنأتي بأشياء جديدة ولا نزعم بأننا سنفتح آفاقًا لم تفتح من قبل، إنما أطوف قبل هذا الدرس مع كتب أهل العلم فننتقي منها ما يلزمنا وما ينفعنا إن شاء الله وإن كان عامة ما يلقى في كتب أهل العلم هو نافعٌ وضروري لهذا الوقت ولكل وقت.

لكن ما هي فضائل مثل هذه المجالس؟ هي فضائل علم، هي فضائل الإيمان، إن أفضل ما يتدارسه الناس هو كتاب ربنا، هذا كلام الله عز وجل وكلامه الذي تضمن العلم الذي هو ضروريٌ لحياتك، فهذا القرآن وكلام الله يتضمن العلم الذي هو ضروري لحياتك الدنيا والآخرة وهو بيان لماذا خُلقت.

ولله المثل الأعلى عندما يصنع الصانع مادته وآلته فإنه يضع معها الإرشادات يسميها الناس «الكتالوج» من أجل أن يعرف كيف يمشي..

ونحن في هذه الدنيا لماذا خلقنا؟ فلا بد أن يكون هناك كتاب إرشادات يعرفنا كيف نعيش، هذا القرآن هو كلام الله ولأن الأمر عظيم لم يحمله إلا الكلام العظيم، أي المهمة التي خلقت من أجلها هي مهمة عظيمة يجب أن يحمل هذه المهمة وسيلة عظيمة هذه الوسيلة هي كلام الله، الوسيلة التي بها يصل الناس إلى مقصد وجودهم وكيفية حياتهم، ما هي هذه الوسيلة؟ هو كلام الله، لماذا؟ لأنها أعظم الإرشادات في الوجود ولأنها تحمل أعظم المقاصد في الوجود.

هذه المقدمة فقط سأستعجل وأقول إن أحد علماء الإسلام الذين لهم باعٌ طويل في البلاغة وفي التفسير قال: بأن هذه الإرشادات لا بد من يستدعى أولية معها ومن غير هذا الاستدعاء لا يمكن أن تلج إلى هذه الكتب -وأنه كتاب إرشاد هذه مني- ولكنه يقول عن الفاتحة: «لولا الفاتحة لما علمنا القرآن»، لنظرنا إليه.. ماذا يريد منا؟ هذا الشيخ دراز يقول هذه الكلمة، يقول: «أن الفاتحة تمثل الاستدعاء لما بعدها من مهمات الإرشاد اللازمة للحياة»، أي لولا وجود الفاتحة ما علمنا لماذا القرآن، فهي ضرورية، هي الفاتحة ما اسمها؟ الفاتحة، لولا وجود هذه المفتاح لكان ما وراء هذه الباب مغلق علينا لا نعرفه فهي فاتحة تفتح لك المعنى.

فالقصد: نحن نحاول أن نتذوق هذا الكلام، نتذوقه من خلال كلام الله لأن كلام الله يحمل علمًا ويحمل إيماناً، العلم هو الذي يغذي عقولنا والإيمان هو الذي يغذي إراداتنا، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الروم: ٥٦]، فلا بد من العلم والإيمان، وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: «إن أعظم ما جاء به القرآن هو العلم والإيمان».

فالعلم أين توجهه؟ توجهه إلى معارفنا، إلى عقولنا، وأين توجه الإيمان؟ إلى إراداتنا، فهذا القرآن يحمل العلم الحقيقي، وكذلك بالورود إليه لا بد أن تصدر -ليس فقط بالمعرفة- لا تصدر من القرآن فقط بالمعارف، لكنك تصدر كذلك بالإرادات من أجل النشاط لما يحبه الله وما يرضاه.

فالقرآن هو غذاءٌ ليس فقط للعلم، يعني عندما تذهب أنت إلى كتاب فلسفي ماذا تشتق منه؟ لو افترضنا أنه فقط فيه العلوم، والكتاب الفلسفي لا يكون فيه إلا مسائل العقل والنظر، بغض النظر عما تقول من حق وصواب، ماذا تخرج من هذا الكتاب؟ بمعارف، معارف عقلية، ولكن لا تخرج بمعاني قلبية، لا بد من نور، المعاني القلبية خاصةٌ بهذا الكتاب وما اشتق منه، اشتق منه مثل السنة مثل مواعظ العلماء ولكنه هو الأصل، ولذلك إذا جئت إلى القرآن من أعظم منافعه أنه يقدم لك العلم، وهذا العلم طريقه التدبر.

وأما الإرادة قال جل في علاه: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)﴾ [ص: ٢٩]، التدبر هو الذي يعطيك العلم، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، ما معنى التذكر هنا في هذا الباب؟ يذكرك بمآلات ما تصير إليه، لأنه في جنة وفي نار، في حساب في موازين، هذه الذكرى تذكرك بالمآل فتوجب عليك السلوك الصحيح إليها وتنشط إرادتك للذهاب إلى ما تريد منها.

فالقرآن مادةٌ عظيمة لا يوجد لها مثيل إذا أردت أن تقوي إراداتك من أجل الطاعات، عجزت عن قيام الليل، عجزت عن إدامة الذكر، عجزت عن الصلوات، عجزت عن إداء الزكاة فأكثر من قراءة القرآن، فهو يعالج هذه الإرادات التي هي مضادة للهو، قال الله عز وجل: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾، الظن يتعلق بالعلوم والهوى يتعلق بالإرادات، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾، هذا في مسائل العلوم، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]،

هذا فساد الإرادة، قال الله عز وجل: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)﴾ [النجم: ٢٣]، فالهدى لابد أن يعالج العلم ويعالج الإرادة، ولذلك إذا أردت الخير كله فعليك بقراءة القرآن، فإذا أردت العلوم تدبرت، وإذا أردت الإرادة قال: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾، يذكرك بالآخرة، يذكرك بلقاء الله وتنشط إرادتك للطاعات، ولذلك لما كان القرآن هو الذي ربى الصحابة رضي الله عنهم، لم يُنشئ لديهم معارف فقط، ولكن أنشأ لديهم المعارف وأنشأ لديهم الإرادات، لما الناس ابتعدوا عن القرآن وأخذو ذات اليمين وذات الشمال ويريدون الموعظة من هذا الكلام أو من هذا الكلام ولم يذهبوا للقرآن ربما نشأت لديهم المعارف الصحيحة في باب من الأبواب لكنها لا تنشئ لديهم الإرادات اللازمة للفعل، أنا أريد من إخواني لو تحضروا المصاحف لأريكم أن الآيتين، العيب على عدم التدبر ربطتا بالنفاق والردى، وهذه عادتنا في تفسير سورة «الأنعام» لأني أحب أن تقرؤوا بأنفسكم، أين جاء قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]؟

مع أن لفظ التدبر في القرآن جاء في مواطن متعددة لكن العيب على عدم التدبر أين جاء؟ في سياق من؟ هل جاء في سياق العلم أم جاء في سياق الإرادة؟ في أول سورة ورد فيها هذا في سورة «النساء»، انظر في سورة «النساء» –طبعًا نحن يمكن أن نقول رقم الآية وأساسًا المصاحف الوحيدة المنتشرة هي بخط عثمان طه فلا بئس أن نذكر رقم الصفحة وإن كان هذا ليس كما ذكرنا مرارًا في سورة «الأنعام» ليس هذا من الطريقة العلمية في نسبة الآية، الأصل الآية تنسب إلى رقمها والسورة فقط، ولكن لا تنسب إلى الصفحة لأن هذه هو العلم، انظر إلى الآية رقم [٨١-٨٢] وما بعدهما في سورة «النساء»، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء: ٨١]، عمن يتحدث؟ يتحدث عن المنافقين.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ أي بظاهرهم وألسنتهم، ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ ذكر النية بعد أن ذكر اللفظ ما هم عليه في موافقة المؤمنين، كشف البواطن، فعمن يتكلم من خلاف الظاهر للباطن؟ من هم هؤلاء الذين يخالفوا باطنهم ظاهرهم؟ المنافقون

قال سبحانه وتعالى: ﴿بَيَّتَ﴾ ذكر باطنهم، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ ذكر ما يقولون، قال تعالى: ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١]، ما ذكر يكتب ما يقولون لأن هذا شيء مقرر لكن هنا يكتب ما يبيتون وذلك لما فيه من شر، قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١)﴾ [النساء: ٨١]، إذاً السياق يتحدث عمن؟ عن المنافقين.

انظر إلى وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]، جعل علة النفاق عدم تدبر القرآن، المنافق لا يجهل الحق على الأغلب وإن كان بعضهم يجهل الحق، ولكن على الأغلب المنافق يعرف الحق ولكنه يعارضه هواه، فجعل رد الهوى الذي عارض به الحق الذي يعلمه عالجه بتدبر القرآن، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ

أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء: ٨٢]، إذاً جعل القرآن

ما أريد أن أقوله: أن تدبر القرآن جعله علاجاً للهوى، فليس القرآن فقط مجرد معاني ومعارف لكنه كذلك نور تحرق بهذا النور نوازع الهوى في النفس وتعطي الإرادة القوة من أجل النشاط للفعل في الطاعات وما يحبه الله ويرضاه، في هذا الموطن. أي هذا الموطن سياقه في الرد على المنافقين لأن الناس يظنون أن التدبر من أجل المعاني فقط.

فلو قيل لأحد تدبر القرآن من أجل أن تأخذ المعاني والمعارف، لكن هل تدبر القرآن يُنشئ لديك الإرادة للفعل؟ القرآن يقول هذا هو مقصده، بل لم يذكر هذا اللفظ وهذا السياق في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾، إلا في هذا الموطن وموطنٌ آخر هو كذلك مثله، انظروا إليه في سورة «محمد» أو سورة «القتال» صفحة «٥٠٩»، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ [محمد: ٢٠] انظر السياق عمن؟ وكيف أن النفاق ملتصق بالردة!

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣)﴾ [محمد: ٢٠-٢٣]، ماذا قال بعدها؟ ما الذي يعالج النفاق؟ بل ما الذي يعالج ما هو أعلى من النفاق بعد ذلك وهو الردة؟ القرآن، إذاً مشكلة النفاق سواء كان مما يتعلق بالعلم، لأن هناك منافقون كثر يتعلق نفاقهم بالعلم وهذه تحتاج إلى شرح، وهناك نفاقٌ يتعلق بالهوى والإرادة الذي يعالج ذلك هو القرآن، وإذا رأيت نفاقاً في بابٍ من أبواب العلم أو رأيت نفاق في بابٍ من أبواب السلك فاعلم أن سببه هو هجر القرآن وعدم النظر فيه وقراءته.

ولذلك هذا القرآن علامة الإيمان وحتى قال بعض أهل العلم: «إن أشق شيءٍ على المنافق أن يقرأ القرآن»، وفي الحديث (الجوف الذي لا قرآن فيه كالبيت الخرب)، البيت الخرب ماذا يكون فيه؟ يكون فيه قاذورات هذا نفاق ويكون فيه حيات وعقارب هذا نفاق لأن ليس فيه نور، فإذا أردت أن تطرد النفاق من حياتك وتطرد الكسل إلى الطاعات فعليك بقراءة القرآن، لا يمكن أن يجتمع حب القرآن والنفاق في القلب لا يمكن، ولا تجد رجلاً صاحب عزائم في دين الله إلا والقرآن هو مادته التي يستمد منها قوته ويستمد منها غذاء إرادته.

انظر، يقول سبحانه وتعالى بعدها: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾ [محمد: ٢٤]، الحديث هنا عن العلوم؟ أم عن الهوى؟ –انتبه هذه مهمة– إذا لم تنشغل بالقرآن فاعلم أن مادة قلبك ليست سوية، وإذا لم ينشغل طالب العلم والداعي إلى الله والعالم المفتي والمجاهد في سبيل الله، إذا لم يكن له انشغالٌ في بالقرآن فاعلم أن مادته فيما تقدم من الأمور مادةٌ غير نضيفه وغير صافية، وإنما يحصل الصفاء بمقدار تدبرك للقرآن الإتيان به.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ﴾ [محمد: ٢٤-٢٥]، انظر هذه الآية جاءت بين قضيتين، كأنها برزخ بين قضيتين تلصقهما في حالٍ واحدة، هنا جانب وهو جانب النفاق، وهنا جانب وهو جانب الردة، ما هو الشأن الجامع بينهما؟ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾.

من هنا تأتي أهمية العودة، الأمة التي لا يوجد فيها دروس ومحطات لتعليم القرآن هي أمة ضعيفة في فهمها لدين الله عز وجل وقيامها لحق الله عز وجل، والجماعة التي لا تبني أفرادها على الاهتمام بالقرآن جماعةٌ غير مهدية، ووضع العوائق أمام القرآن بما تقدم من أمثلة كون أنه لا يذهب إليه إلا من استوفى وكأن الذهاب إلى كتب الفلاسفة والمفكرين كأنها لا تحتاج إلا إلى رحلة صيد من أجل أن يفهمها مع أنه يتعب حتى يفهم هذه المصطلحات الغربية والمصطلحات الجديدة، وينفق من عمره الوقت الطويل من أجل بلوغ مراد أصحابها

فإذا قيل له: تعال إلى القرآن، جعل له العوائق، وأعظم العوائق التي وضعت كما وضعت على كل علوم الأمة على تاريخها، على شعرها، على أدبها، على تراثها؛ وهو التشكيك فيه، وأعظم تشكيكٍ وجدته في الجماعات الإسلامية، أعظم تشكيك يرد على الناس في مسألة القرآن هو قولهم: إن القرآن عمومات

هذه كبيرةٌ من الكبائر وفاقرة من الفروق، ومعنى فاقرة: هي أُخذت من الفقر، لأن الفقير إذا كسر فقاره لا يستطيع القيام من هنا سمية مادة الفقر؛ فهذه فاقرةٌ تكسر إرادات الأمة.

إذا قيل: إن القرآن فقط كتاب عمومات؛ أعرض الناس عنه؛ لأنه يقول: كتاب عمومات، إذًا من أين تُملأ هذه العمومات؟! أملأها من نفسي من اجتهادي من كلام العلماء إذًا اذهب إلى التفصيل مباشرة!

مع أن النبي صلى الله عليه وسلم -وهذه قلتها لكم من قبل وأكررها لأهميتها- لو اجتمع البشر جميعًا معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في واد وتشاوروا في أمرٍ من أمور الدعوة والجهاد والعلم والإيمان، فقال الناس جميعا قولاً وقال رسولنا صلى الله عليه وسلم قولاً؛ نجزم أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم -إذا جاءه من عند نفسه- لما هداه الله ولما أوتي من حكمة ولما أوتي من براءة الهوى، لو جاءه من عند نفسه وليس وحياً وفقط إنما قاله من جهة بشريته لجزمنا أن قوله هذا هو أصوب من قول الأمة جمعاً، ومع ذلك الله عز وجل نزع منه حق أن يقول قول من جهة رأيه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأحزاب: ٢].

فإذا قال له: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ونزع منه أن يقول شيئًا برأيه هل ترى أنه ترك له شيئًا ليملأ منه هذه العمومات؟ أي أنه أعطاه كتاب عمومات وقال له: املأها؟! كما تريد الجماعات والمشايخ اليوم، يريدون ملأ القرآن عمومات ولكن كيف نفعل؟ نذهب إلى أهوائنا وإلى آرائنا وإلى اجتهاداتنا!

وما سبب هذا؟ هو كمن جاء إلى قشرة الطعام فقط إلى القشرة، فرأى فيها مادة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص: ١] كافية، ليس كمثله شيء كافية، لكن أن تغوص فيها من أجل أن تجيب على أفراد والمسائل الفرعية في كل المسائل، هذه لا تذهب إلى القرآن، هذه تحتاج إلى نبط، تحتاج إلى حفر، ولأنهم لا يريدون الحفر في القرآن، لا يريدون النبط، لا يريدون التدبر، لا يريدون العيش مع القرآن فقالوا مثل هذه الكلمة الكبيرة العظيمة التي جعلت شباب الإسلام من أكثر ما يعرضون عن كتاب ربنا.

فيقرؤون لهؤلاء وهؤلاء وإذا سألتهم كم تبذل من ساعةٍ في قراءة القرآن؟ حين إذن ترى الجواب، كم ساعة تبذل؟ والشيء لا تعرف حقائقه ولا تعرف جوانبه ولا تعرف خفاياه إلا بالملازمة والمصاحبة.

أنت الآن تأتي هل يحق لك إن جلست معي جلسة واحدة أن تذهب وتتكلم عن كل جوانب إنسانيتي؟

الكرم، الشجاعة، معاملتي مع أهلي ...وإلخ، هل أنا صادق في تجارتي؟ هل أنا وفيٌّ في وعودي؟ لا تستطيع، كيف تستطيع أن تعرف كل جوانب حياتي؟ من المصاحبة والملازمة.

فإذا أردت أن تعرف.. –وتكلمنا– قلنا هذا كتاب الإرشاد لهذه الآلة التي خلقها الله لهذا الوجود الذي أقامه الله هذا الإرشاد لا يمكن أن تعرفه إلا بطول الملازمة، ولذلك أنا مع الأستاذ أبي الحسن الندوي رحمه الله لما قال وهو أصلاً والده مؤرخ وله قراءات في التاريخ رائعة ومن قرأ رسائله في رجال الفكر والدعوة في الإسلام عَلِم أنه يقرأ الرجال قراءة صحيحة وجيدة، قال: «أنا تعقبت جميع الذين نسبوا إلى التشديد في هذه الأمة فوجدت لهم قاسمًا مشتركاً واحداً وهو قيام الليل»، قيام الليل ليس بالركعة أو الركعتين يعني أورادهم في قيام الليل، ومن هنا جاء الحظ، من قرأ عشر آيات لم يكتب من الغافلين كما في حديث عبد الله بن عمرو العاص رضي الله عنه في صحيح ابن حبان (مَن قامَ بعشرِ آياتٍ لم يُكتَبْ منَ الغافلينَ، ومن قامَ بمائةِ آيةٍ كُتِبَ منَ القانتينَ، ومن قرأ بألفِ آيةٍ كُتِبَ منَ المقنطِرينَ)، وإذا لازمته علمته، فتح الله عز وجل عليك من النعم.

ولذلك أول ما ينبغي أن نهتم له هو أن نعيد الأمة إلى القرآن، أن نعيدها وحديث عثمان رضي الله عنه (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)، أبو عبد الرحمن السُلمي قال: «ما أجلسني في مسجد دمشق ثلاثين عامًا أعلم القرآن إلا هذا الحديث»، ثلاثين سنة وهو جالس في مسجد دمشق يعلم المسلمين القرآن أطفال ونساء وو.. ثلاثين سنة ما أجلسه إلا لقوله صلى الله عليه وسلم: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه).

و(خيركم) للأسف هذه مطلقة، بعض الناس يظن (خيركم) يعني في الآخرة فقط، (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)، بمعنى أنه إذا قيل من خيركم في العلوم هو من تعلم القرآن وعلمه، من خيركم في الفقه؟ من تعلم القرآن وعلمه، من خيركم في تعلم سنن الحياة؟ من تعلم القرآن وعلمه.

والذين يريدون فقط الذهاب للتدبر دون الذهاب إلى الحياة معه –الحياة معه أن يعيشوه– هؤلاء جهلة لا يعرفون، فقط هو يريد أن يأتي لساعة من أجل أن يتدبر في القرآن أو يأخذ درسًا في تفسير القرآن فيزعم أنه بهذا حصد التدبر، هذا باطل، لا بد أن يعيش معه، وهذا القرآن كتابٌ عزيز ومكنون، ومعنى مكنون: له كن أي مغلف، وإذا كان الشيء مكنونًا لا يذهب إليه إلا بالمشقة والذهاب والتعب؛ من أجل هذه أعظم من يستفيدون من القرآن من قاموا به، لأجل هذا ارتبط قيام الليل بالقرآن، وارتبط القرآن بقيام الليل، لأنه فيه مشقة أن تقوم من نومك فتفتح القرآن وتقرأ جزءً أو جزئين، وتقرأ نصف ساعة أو ساعة أو ساعتين إلى غير ذلك لأنه بالمشقة.

هذا القرآن أنزل من أجل العمل به، وهذا لا يمكن الوصول إليه حتى تتحرر إرادتك، الذي يحرر إرادتك هو القرآن، فهذا لا يكفي أن تقول أنا جئت وحضرت الدرس فحصل لي التدبر، هذه مقدمة، وبعد ذلك ما يدرس في داخل الأمة إنما هو من أجل إعادة التذوق للقرآن.

والله يفتح من المعارف والمعاني ما تصلح لك، والكثير ممن يقرأ القرآن ولا يعرف معانيه فيبكي، لأن الله عز وجل يقول: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، والجبال صماء عجماء ولكنه لهيبته، هل من الضروري أن يكون فهم لهذا السقف إذا جاءت عليه قذيفة أن تستشيره؟ أن يكون بينهم معرفة ليتم الفعل؟ لا، وهذا قرآن أعظم من القذيفة، هو قذيفة الحق تغزو القلوب ولكن لا بد من وجود هذا المعنى؛ وهو أنه كتابٌ مكنون، تذهب إليه من أجل المشقة، ولماذا عزيز، ما معنى عزيز؟

أعجب يا إخوة! وخذوها مني، لا يمكن لرجل يهجر القرآن ويظن أن فيه خير، من الذي يعرف الخير في القرآن؟ الذي يأتي إليه، لو واحد نظر قال: ماذا في القرآن؟! وقال الحمد لله رب العالمين، أمر عليه، فكلما هجره كلما قلت قيمة القرآن في قلبه، يقول: ما الذي في القرآن؟! لأنه بعيدٌ عنه، فقط هو كالناظر إلى صندوق، فإذا قيل له ما هذا؟ قال: هو مجرد إناء حديدي، متى يعرف قيمة ما فيه؟ حتى يذهب إليه وينقب وكلما ازداد النور في قلبه كلما ازداد اكتشافه لدقائقه.

وهذه الدقائق هي التي تجذب القلب إلى الله عز وجل، هذه الدقائق هي التي تحصل الرقي في درجة الإحسان، هذه الدقائق المهمة

ولذلك إذا ترو جماعة لا تهتم في بناء أفرادها أن يتعلقوا بالقرآن ليلا نهار، وفقط يقول لهم: ادرسوا كذا وافعلوا كذا وهكذا، الكتب جيدة –لا أضع مقابل– ولكن لا ينبغي أن يكون هذا هو الذي يحض عليه والقرآن هو كتاب عمومات ولا يعرفون منه شيءٍ ولا يحافظون على قراءته وليست لهم أوراد في قراءة القرآن.

وأنا أعجب واحد يريد أن يعرف مراد الله عز وجل عند النوازل ولا يعرف كتاب ربه عز وجل! كيف يعرف أن الله يريد كذا دون أن يعرف ما في الكتاب؟ وكيف يعرف ما في الكتاب إن لم يكن ملازمًا له، القرآن عزيز، قال صلى الله عليه وسلم: (تَعاهَدُوا هذا القُرْآنَ، فَوالذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ لَهو أشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإبِلِ في عُقُلِها)، ليس هذا فقط في ألفاظه، كذلك في معانيه، هذا عام، الحافظ إذا غاب عن القرآن فالقرآن يذهب منه، وكذلك الذي عنده العلوم من القرآن إن لم يأتِ إليه مرةً بعد مرة ويتذلل إليه لأنه عزيز، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١)﴾ [فصلت: ٤١]، الله سماه عزيزًا؛ فعليك أن تذهب إليه بتذلل فإذا ذهبت إليه بذل لك العطاء.

من هنا فلا بد من أن يهتم الذين يريدون إحياء الأمة بالقرآن، أن يعيدوا الأمة إليه، ولا حياة للأمة من غير القرآن، لا حياة للقلوب من غير القرآن، القرآن هو الذي أنشأ هذه الأمة، ما من معرفةٍ نشأت في تاريخ هذه الأمة، ما من هدايةٍ، ما من رجلٍ أحدث تاريخًا أو أحدث تحولاً لهذه الأمة أو أحدث تجديدًا لهذه الأمة إلا وكان قد استقى غياءه ومعرفته من القرآن.

فيجب أن يكون القرآن رفيقًا لك، في ليلك ونهارك، في حلك وترحالك، وهو كتاب مع عزته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]، هو للذكر إذا جئته تذللت إليه يسر مع عزته، هو عزيز فلا يبذل نفسه للمعرض عنه، فإن جئته أعطاك، وحين إذن ترى من المعاني العظيمة التي تشكر الله عز وجل عليها وتفرح لها، وحين تقرأها تتمنى لو أن الدنيا كلها عرضت عليك مقابل هذا المعنى الإيماني في القرآن، والله لا تقبل، لا تقبل أن تستبدل هذا بهذا، لا يمكن.

ويفتح الله عز وجل عليك من الأمور التي بها يتخذك إماما، لا يمكن أن تكون إمامًا في هذا الدين من غير القرآن لا يمكن، يكذبون، وهؤلاء الذين يقدمون فيما تسمعون كلامًا فيترب لهم الناس، أنتم رأيتم، وأنتم تعرفون هؤلاء، كم من الشيوخ ظهروا كأنهم نجوم ثم انطفأت أضواؤهم؟ كم خلال عشرين سنة؟ كم من الأسماء مرت؟ أين ذهبوا؟ كم بقي من كلماتهم النافعة للأمة؟ شأن كلامهم كشأن العلكة «اللبان» حلوة أولها وبعدها تنتهي إلى مجرد جلدة، لأنها ليست حقيقية.

أما إذا جاؤوا مع القرآن ومعارفه مع قوى القرآن هذه تتجدد، من هنا لما قال «فاوست» المفكر الألماني لما جاء لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال: هذا رجلٌ بذر في الأرض قنابل منها ما تفجر ومنها ما ينتظر التفجير، من الذي أعطى هذا الرجل أعطى لكلماته هذه القوة بأن تحيا مع كل محاولات إماتتها؟ من الذي أعطاها هذه القوة؟ هو نور القرآن، لأن الرجل كان يعيش مع القرآن، وهكذا، من الذي أبقى كلمات الشافعي رحمه الله إلى يومنا هذا؟ هو نور القرآن، من الذي أبقى كلمات أحمد رحمه الله إلى يومنا هذا؟ هو نو القرآن، ليس هناك شيء آخر، وما كان

في معناه بلا شك، لكن نتحدث عن الأصل، نتحدث عن الباب الأول، نتحدث عن النهر العظيم وهو كتاب ربنا بعدها تأتي السواقي، وما السنة إلا من سواقي التي أخذت من القرآن.

إن لم نفهم هذه المسألة بقينا في عجز وفي خلاف وو... إلخ، فمن الذي يعطي القوة للكلمات؟ هو القرآن، من الذي يعطي لهذه الكلمات القوة بأن تضيء وأن تحدث الأثر في العالم وأن تزيل الظلمات؟ هو نور القرآن، لأنه لا نور إلا منه، هذا الذي نريد أن نهتم له أيها الإخوة الأحبة، فإذا جئنا إلى التفسير فقط من أجل أن نكشف بعض الأثواب التي أكنت هذا القرآن، أثواب، هذا القرآن أثواب، ثوبٌ وراء ثوب لا تنتهي، لقوله صلى الله عليه وسلم: (وَلاَ يَخْلُقُ عَلى كَثْرَةِ الرّدّ)، وإن كان القرآن نزل مرةً واحدة، لكن تنزلاته لا تنتهي إلى يوم القيامة حتى يرفع، نزل مرة لكن تنزلات معارفه ومعانيه لا تنتهي إلى يوم القيامة.

وهذا الذي نريده لبعض هذه الدروس وإنما نأتي إليها:

أولاً: حتى نكشف بعض معاني هذا القرآن العظيم، فنتذوق هذه المعاني ويصبح لدينا الرغبة بأن نعود إليه وأن نقرأ فيه وأن نتلوه، ووالله أقول لكم: والله لو وقف الناس على شفير القرآن ما وقفوا، لم يعطوا منه أعظم ما يعطوا إلا إذا قرأوه في قيام الليل والصلاة –هذه قاعدة– إذا أردت معاني القرآن فعليك بهذا السبيل.

الأمر الثاني: وهو أن تعيش القرآن، من أكثر الناس عيشاً مع القرآن هم الذين يقومون به الليل والطائفة الثانية هم الذين يعيشون به النهار جهاداً، المجاهدون، من أجل هذا ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ولا سبيل لمعرفة الحق، ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ سبل من؟ أي سبيل الله عز وجل، وأين هو سبيل الله؟ ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾؛ أي إذا جاهدت علمت القرآن وإذا قمت الليل علمت القرآن.

الحمد لله رب العالمين، يكفي هذا وأنا قلت لا أريد مقدمة لكنها شيءٌ مهم حتى نذهب إليه وفي قلوبنا التشوف لبعض ما أكنه ربنا عنا وعلمه العلماء فنحن نذهب إليهم، نحن فقط عالة، لا نستطيع أن نأتي بشيء إلا إذا كان أصله في كلام علمائنا، من الصعب اليوم أن يأتي أحد بشيءٍ جديد إنما إذا أتى فيكون الأصل من كلام العلماء وأن نفرع، نأخذ من هنا ومن هنا، على عادة المتسولين والفقراء.

إذن أول علم تعلمه الصحابة رضي الله عنهم ومارسوه هو علم التفسير، لأنهم يريدون أن يعرفوا ماذا يريد الله عز وجل منهم، فإذا أرادوا الفقه جاؤوا للتفسير، إذا أرادوا التوحيد جاؤوا للتفسير، وهكذا.

والآن نبدأ بسورة «الفاتحة» أيها الإخوة الأحبة، وهذه السورة هي فاتحة القرآن، وأعيد كلمة الشيخ: عندما تريد كتاب الإرشادات أن يكون له مقدمة، التي تعرفك ما الذي تريده أنت؟ فأنت تكتب في هذه المقدمة، تكتب هذا الاستدعاء لماذا؟ هذا الإرشاد لكذا، وأريده لكذا، وبعد ذلك تأتي التفاصيل في الداخل، لكن في البداية لا بد من

العنوان، فسورة «الفاتحة» تمثل هذا الأمر، وهذه السورة -وأنا أقولها دائما- أن هذا القرآن لم يُنشئ فقط العلوم، لكنه أنشأ كيفية هيكلة وإنشاء العلوم، فمن الذي علم الأمة وجود مقدمات للكتب؟ سورة «الفاتحة»، لا نتكلم عن قضية ما في الفاتحة من معاني، لكن الذي علم الأمة كيف تكتب الكتب؟ القرآن، وبالتالي يكتبون المقدمة، عن ماذا ألفه؟ ما هي ظروف تأليفه؟ لمن يقدم هذا الكتاب؟ فذهبت إليه في المقدمة.

فالذي علم الأمة إنشاء المقدمات هو القرآن، لأن سورة «الفاتحة» كذلك، وهذه السورة عند علماء الإسلام حاويةٌ للقرآن كله، وهذه السورة كلها في جوف كلمةٍ فيها وهي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥].

هذا القرآن عند علماء الإسلام إنما كله في جوف سورة الفاتحة، وسورة الفاتحة كلها في مرتبة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، لأن الدين كله مبنيٌ على هذا، أن نعبد الله وأن نستعين به، كما سنبين أنها شاملة لقواعد الدين، وجميع قواعد الدين في هذه السورة، وسنتبين بالدليل وليس مجرد كلمات عامة، سنتبين أن هذه السورة شاملة لكل ما أتت به الشريعة من التوحيد والشرائع والمآلات، وما هو الحق في ذاته وما هو الحق في مقابل غيره، وهكذا سنرى، بل سنرى أنها شاملة لأنواع التوحيد، شاملة لتوحيد ربنا في ربوبيته، وشاملة لتوحيد ربنا في ألوهيته، وشاملة لتوحيد ربنا في أسمائه وصفاته.

فهذه سورة عظيمة والتفكر فيها واجب، -وهذه كلمة نكررها- «كلما كان الشيء ضرورياً كان أبذل»، هذه قاعدة كونية، وهي كذلك بالشرائع، ما معناها؟ «كلما كان الشيء ضرورياً كان أبذل»، من أكثر ضرورة الهواء أم الماء؟ الهواء أكثر ضرورة من الماء، إذن كلما ازدادت الضرورة كان أبذل، من أكثر الماء أم الهواء؟ الماء يبيعونه بيع، لكن الهواء لا يوجد أحد وضع صنبور على أنفك أو فمك لأنه ضرورة، فكلما كان الشيء ضرورياً كان أبذل، من أكثر أهمية الماء أم الغذاء؟ الماء، فلذلك هو أبذل، «فكلما كان الشيء ضروريًا كان ابذل».

ولما كانت الفاتحة وما فيها من معاني هي أعظم ما في كتاب ربنا وضرورية لهذا الباب، أي ضرورية لدين المرء، ضرورية لدينه وضرورية لآخرته وضرورية من أجل حياته، كانت أبذل، ولذلك هي أبذل من جهة القدر فهي كما ترون قبل أن تفتتح بسورة «البقرة» تفتتح بسورة «الفاتحة»، وكذلك أبذل من جهة الشرع، لو قيل لك ما هو أوجب سورةٍ عليك أن تتعلمها إن أسلمت؟ سورة «الفاتحة»؛ لأنه لا تقوم الصلاة إلا بها، انظر فهذه السورة هي أبذل؛ لأنها ضرورية فهي أبذل.

ومن هنا كان اسمها السبع المثاني، ما معنى المثاني؟ الذي يثنى، لماذا قيل ثنيَ هذا الشيء؟ تراكم مرة بعد مرة، لما أنت تثني الثوب أي جلعت شيءً فوق شيء، لأنه يتكرر فثني، فسميت السبع المثاني لأنها تتكرر، كم مرة تتكرر؟ بعدد ركعات الصلاة التي تصليها، يعني كم ركعة واجبة في اليوم؟ سبعة عشر ركعة -الفرائض-، والنبي صلى الله عليه وسلم كم كان يصلي في يومه من النوافل من غير الواجبات؟ ثلاث وعشرين ركعة، فمجموع صلاة النبي أربعين ركعة،

يعني كم مرة تثنى الفاتحة؟ إذا أراد المرء أن يقوم بما قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم من السنن والواجبات، يعني يثني أربعين مرة، فثني، فهذه التثنية هل هي للمجرد إذا امر الله بشيء وكرره علامة أنه يحبه أم أنه لا يحبه؟ إذا أمرك الله عز وجل أن تأتيه مرةً بعد مرة وأن تكرره أكثر من غيره علامة أنه يحبه أكثر من غيره، فهذا دليل على أن الله عز وجل يحب هذه السورة أكثر من غيرها.

ولذلك أعظم سورة في القرآن هي سورة «الفاتحة»، أما أعظم آية فهي ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ذلك لأن هذا القرآن أيها الإخوة الأحبة هو كلام الله عز وجل وأعظم ما في الكلام هو من يتحدث عن الله عز وجل، فأعظم آيةٍ اقتصرت في الحديث عن الله فيها عشر جمل كلها تتحدث عن الله عز وجل، وهي ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، لماذا أحب الصحابي رضي الله عنه سورة «الصمد»؟ لأنها صفة الرحمن.

قال صلى الله عليه وسلم لأبي يسأله: (أتدري أيَّ آيةٍ في كتابِ اللَّهِ معكَ أعظَمَ ؟ قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فضرب بيدِهِ في صدرِهِ وقال صلى الله عليه وسلم: لِيَهنِكَ العِلمَ أبا المنذِرِ)، هذا الرجل يتدبر لأنه يعلم أن أعظم ما يتحدث عنه القرآن هو الحديث عن الله عز وجل، يحدثنا عن الله عز وجل، نعم الحديث عن شرائعه شيءٌ عظيم، الحديث عن الجنة والنار والمآلات إلى العقاب شيءٌ عظيم، لكن أعظم منه هو أن يحدثنا ربنا عن نفسه، من أجل هذا قال الصحابي رضي الله عنه لما سأله لِمَ تحبها؟ قال: «لأن فيها صفة الرحمن»، ولماذا اكتشف أبي رضي الله عنه أن أعظم آية في القرآن ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾؟ لأنه علم أنها تتحدث عن الله عز وجل.

لكن علمنا أن أعظم سورة في القرآن هي «الفاتحة»، ذلك لأن الله أمرنا أن نكرمها، يحبها، يحبها فيحب أن يسمعها من عبيده ولأنه في هذه السورة يعطى من الأجور ما لا يعطى على غيرها، لماذا؟ لِمَ فيها من الفائدة، سواء فائدة الأجر، أو فائدة العلم، لما فيها من الفوائد العظيمة.

هذه السورة لعلها أكثر سورة في القرآن لها أسماء، والعرب عندهم قاعدة –وهذا شيء نفسي– كلما كثرت أسماء الشيء كان عظيمًا في نفس المتكلم، ما هي أعظم الأشياء عند العرب؟ السيف، كم اسم له؟ الحصان، كم اسم له؟

فكلما كبرت محبة الشيء عند امرءٍ كثر ترديده وكلما أكثر ترديده لا يحب أن يبقى على ذكرٍ واحدٍ له، لا بد أن ينوع الأساليب في وصفه وفي إطلاق الأسماء عليه، فهذه السورة لأن الله عز وجل يحبها ويحبها عبيده فأكثروا لها من الأسماء:

التسمية الأولى: أشهر أسمائها هو «الفاتحة»، لماذا «الفاتحة»؟ لما تقدم ذكره، لأن من غيرها لا تستطيع أن تدخل على القرآن، كما قال الشيخ دراز كما ذكرنا هذه عنه، وفيها مفتاح علوم القرآن، لا بد، وهي التي إذا أردت دخول القرآن تدخل من خلالها، تدخل من خلالها قراءةً، وتدخل من قراءتها علماً، الناس يقتصرون «الفاتحة» أنها

أول ما يدخل على القرآن من خلالها في القراءة، لكن في الحقيقة إذا أردت أن تدخل على القرآن علمًا لا بد أن تدخل من خلالها، من خلال سورة «الفاتحة»، فهذا أشهر أسماءها «الفاتحة».

التسمية الثانية: ومن أشهر أسمائها كذلك أنها أم القرآن، وهذا نفس المعنى، وإنما ينوع الناس الأسماء على حقيقةٍ واحدة، فأم الشيء أصله، أم الشيء أصله الذي يرجع إليه، ومنشأه، ولذلك سميت مكة بأم القرى، قال: لماذا أم القرى؟ قال: «لأنها أعظم القرى عظمةً، وأعظم القرى مكاناً عند الله، فهي أم القرى فيها العظمة»، وقال بعضهم أكثر من ذلك، حتى إن بعضهم زعم أنها أم القرى لأن الله عز وجل دحا الأرض منها؛ فهي مركز الكون، من جهة الوجود ومن جهة الجغرافيا، وهذا كلام منهم من يثبته إلى اليوم، إلى الآن يتحدثون عن هذا.

فالقرآن له أم يعود إليه ويذهب إليه من خلاله وهو أصل القرآن وهي سورة «الفاتحة»، فلذلك سميت بأم القرآن، كأن القرآن منشأه من سورة «الفاتحة»، كأن القرآن نشأ ما فيه من علوم ومعاني ومعارف وهداية وأنوار من أمه، هي التي انتجته، فالفاتحة هي أم القرآن.

التسمية الثالثة: السبع المثاني، وهذه سميت بالسبع المثاني للنص، النبي صلى الله عليه وسلم سماها بالسبع المثاني وهذه لها معاني عند أهل العلم، التثنية ذكرنا لكن السبع نأتي إليها إن شاء الله، وهل البسملة جزء من سورة الفاتحة؟ ومن احتج أنها جزء من السورة أنه لا يمكن أن تكون الفاتحة سبع آيات إلا بالبسملة، كما يقول الشافعي رحمه الله، وفيها كلام سنأتي إليه إن شاء الله.

فهذه هي أشهر أسماء هذه السورة، أولاً: الفاتحة، ولا تستقل هذه، فيا أيها الإخوة الأحبة الناس لا يعرفون قيمة الهواء حتى يفقدوه، وعلى قاعدة «كلما زادت الضرورة زاد البذل وكلما زاد البذل قل الاعتناء».

الشمس مبذولة لكل الناس، ولأنها مبذولة من يتفكر فيها؟ مع أنها أعظم مخلوقات الله عز وجل للإنسان من أجل حياته، من يتفكر في الهواء؟ فلكثرة بذله وانتشاره يقل الاعتناء به مع أنه ضرورة، قاعدة: «أنه لكثرة الضرورة كثر البذل»، وكان ينبغي أن يكون الأكثر تفكراً لأن الحاجة عليه، لكن حكمة الله عز وجل أنه يستر المعاني بمثل هذه الابتلاءات.

اعلموا: «ما من عطاءٍ إلهي إلا وهو مستورٌ بابتلاء»، لا بد من ابتلاء من أجل أن تدخل إليه فتفهم عليه، ومن الابتلاء هو البذل؛ أن الشيء العظيم بالتفكر فيه أنه من البلاء، أنه مبذول فيقل الاعتناء، إذًا من يعتني به؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، الليل والنهار وخلق السموات والأرض من يتفكر فيهم؟ قال جل في علاه: ﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ومن هؤلاء أولي

الألباب؟ ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ [آل عمران: ١٩١]، هذا العلم والإيمان، التذكر والتفكر، الذكر والفكر، وهذا يجب أن تربطوه بما تقدم.

القصد: أن من الابتلاء أن الله عز وجل ستر كثيراً من آياته العظيمة سترها بكثرة البذل، فالجاهل يمر عليها كل يوم ولا تثير اهتمامه، لماذا؟ لكثرة بذلها، ولكن من الذي يرقب أهميتها؟ من الذي يرصد قيمتها؟ العين البصيرة التي تعرف للأشياء قيمتها.

فهذه الفاتحة، انتبهوا كيف العلماء يجعلونها أعظم سورة، فإذا قيل لاحد ماذا تحفظ؟ يقول لك: الفاتحة، يتحدث كأنها شيء قليل، وإذا قيل له ما الفاتحة؟ يقول: هي الفاتحة كلنا نعرفها، مع أنها أعظم سورة، فالله عز وجل ستر ما فيها من العظمة لكثرة البذل لها، فهي الفاتحة وهي السبع المثاني وهي أم القرآن، لها أسماء كثيرة، يسمونها الكنز، ولها أسماء كثيرة يرجع للكتب لكن هذا ما نهتم به في الأسماء.

ما ينبغي أن نهتم به كذلك هو الحديث عند ذكرٍ قبل أن تقرأ القرآن، وهذا له علاقة فيما نحن فيه ونقف عنده إن شاء الله تعالى الدرس القادم وهو الحديث عن الاستعاذة، وإن كانت الاستعاذة ليست من القرآن، لكن الشيء إذا كان عظيماً لا بد من التهيؤ له، والتهيؤ له لا يكون منه، يكون من خارجه، فمن أجل هذا وضعت الاستعاذة للدخول في القرآن ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)﴾ [النحل: ٩٨].

نقف عند هذا إن شاء الله إلى الدرس قادم.

جزاكم الله خيراً وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثاني:

شرح الاستعاذة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين حبيبنا وإمامنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

وقفنا عند تجلية معنى الاستعاذة، وقد تقدم أن الاستعاذة ليست قرآنً بالإجماع، يعني قول القائل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هذه ليست من القرآن، بخلاف ما سيأتي في اسم كلمة بسم الله الرحمن الرحيم أي البسملة، والبسملة فيها خلاف عند أهل العلم نمر عليه إن شاء الله عندما نأتي إليه ونصل إلى بابه.

الآن هذه الاستعاذة هي أمرٌ إلهي عند قراءة القرآن، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)﴾ [النحل: ٩٨]، فهذا أمرٌ إلهي، واختلف العلماء على إنزال هذا الحكم، وهو أمر، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، فهو أمرٌ من الله عز وجل، وهذا الأمر كيفية تطبيقه يختلف من عالم لعالم، فهل هذا واجبٌ فقط في الصلاة أم خارج الصلاة –أي الاستعاذة–؟ هل عليك كلما أردت أن تقرأ القرآن في الصلاة استعذت؟ أم أنه يكفيك أن تستعذ بالله من الشيطان في أول ركعة؟ هذا خلاف بين أهل العلم.

وهذا الذي بين أيدينا مما يدل على أن العلماء يعرفون النص، ولكن حين يقع الاختلاف يقع من الوجهين، الوجه الأول كما تقدم، وهو معرفة مرتبة الحكم المأمور به، أو معرفة مرتبة الحكم المنهي عنه، لماذا يقع الاختلاف؟ أغلب اختلاف العلماء القدماء السابقين؟ اختلافهم إما في الحالة الأولى في توجيه النص ومرتبة دلالته على الحكم، وهذه مسألة من مسائل الأصول ولكننا نحاول أن نحصر هذه المسألة من أجل أن نفهم أن العلماء حين يختلفون فإنهم لا يردون النص، لأنهم أورع وأتقى من أن يردوا على الله عز وجل قوله أو على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله، كما يتصور الجهلة اليوم أن هذا العالم لا يأخذ بهذه الآية، العلماء يأخذون بها ولكنهم يختلفون على جهتين:

الجهة الأولى: في توجيه النص ومعرفة دلالته على الحكم، كما رأينا في قوله: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، هل هذا أمرٌ للوجوب؟ أم أمرٌ للاستحباب؟ أم أمر للإرشاد؟ لأن الإرشاد عند كثير من أهل العلم أدنى من الاستحباب.

الجهة الثانية: يختلفون بالاستعاذة في مواطنها، وكيفية إعمالها، بعد أن اختلفوا في حكمها يأتون فيقولون هل نستعذ بالله عز وجل في كل قراءة؟ وهل الصلاة شيءٌ كامل؟ فحيث شرعنا في الصلاة وقلنا: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» كانت على معنى واحد للصلاة؟ كما يختلفون في رمضان، هل رمضان شيءٌ واحد، فيكفيه نية أولى؟ في أول

ليلة أن تنوي جميع صيام أيام رمضان فيكفيك؟ أم أن كل ليلة لا بد من أن تقوم بنية، قبل الفجر؟ الحديث متفق عليه عند أهل العلم، ولكن يختلفون في إنزاله على الوقائع، وبلا شك أن هذه آية عامة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)﴾ [النحل: ٩٨]، ولكن هذه العموم لا ينبغي أن نأخذه دائماً فإن أفهام الصحابة له تقيد هذا العموم في مرات.

مثل: قوله جل في علاه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، هذا الاستماع الواجب أين؟ ابن جرير الطبري لم يذكر في تفسيره هذه الآية من أقوال السلف، إلا أن هذا الاستماع فقط في الصلاة، أي لا يجب عليك أن تستمع في خارج الصلاة، وإنما الاستماع الواجب في الصلاة، خارج الصلاة مستحب، ولكن هذه الآية نزلت في الصلاة، فمفهوم الصحابة رضي الله عنهم في التقييد وفي الفهم مهم جداً.

وهذه الاستعاذة بلا شك أنها في الصلاة وغير الصلاة لأنها أمرٌ عام، ولكنها في الصلاة أولى، فإذا قرأ القرآن فاستمعوا له- في الصلاة ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)﴾ [النحل: ٩٨]، هذه الأولى أن تكون في الصلاة، ولكنها عامة، فاذا شرع المرء في قراءة القرآن عليه أن يستعذ بالله عز وجل من الشيطان الرجيم، لماذا؟

لأن الاستعاذة حالها مع القرآن كحال الوضوء مع الصلاة، لأن الاستعاذة هي تدبير أولي لدخول المرء في القرآن على هيئةٍ تليق به، لا يمكن للمرء أن يدخل إلى الصلاة، إلى مقابلة الله عز وجل من غير أن يهيئ نفسه، حتى يقوم ويتوضأ فيطهر بدنه وكذلك يطهر قلبه بقوله: «الله أكبر»، فيطهر بدنه بالوضوء أو بغسل الجنابة، طهارة الحدث، وطهارة المكان الذي يصلي فيه، طهارة الثياب التي يصلي بها، والاستعاذة كذلك.

وقلنا هذا القرآن منجم عظيم للمعاني، وهو مصدر أنوار ربنا للوجود المعنوية، والوجودية، هذا القرآن هو كلمة الله عز وجل للبشرية، فالدخول إليه بهذا المقام الشريف ينبغي أن يتحضر له الإنسان، هذا التحظير هو بالاستعاذة، بحيث يدخل ولا صارف له عن هذا الخير الذي هو فيه، لأن الشيطان حضوره للخيرات أعظم من حضوره لما ليس خير.

تعرفون الطرفة التي تقال عن الصحابة وهذه عن ابن عباس رضي الله عنه، عندما شكا الصحابة في بعضهم البعض والتابعون عن الوسواس في الصلاة، فاليهود عيروا الصحابة رضي الله عنهم بأنهم لا يوسوَسون في صلاتهم، الصحابة يوسوَسون في صلاتهم، اليهود قالو: نحن لا نوسوس في الصلاة، فقال أبن عباس رضي الله عنه: «أي خيرٍ في قلوبهم حتى يوسوس إليهم الشيطان»، ما الذي عندهم.

فإذا دخل المرء إلى الشر هو يكفيه ما معه من الشرور، لكن إذا دخل إلى الخير لا بد أن يعمل الشيطان عمله من أجل صرفه عن هذا الخير، وبالتالي لا بد من التحصين بالدخول إلى هذا الحق من أجل أن يأخذ منه، وهذا الأخذ لا بد أن يدفع عنه الموانع، ومانع تحصيل الخير في القرآن هو الشيطان، ولا بد من الاستعاذة منه، فإذاً هو تحضير طهارة لهذا الإنسان من أن يعلق معه الشيطان بالدخول إلى معالم الحق في القرآن، وإلى معاني الخير فيه، فلا بد من الاستعاذة، فهذا هو شأنها، فأعظم ما يمكن أن تكون، إذا قلنا بأنها نازلة في غير الصلاة، فمن أعظم قراءة القرآن في الصلاة أم في غير الصلاة؟ قراءة القرآن في الصلاة، إذاً ينبغي أن تكون أكثر تأكيداً في الصلاة، فلو قلنا: بأنها واجبة لغير الصلاة، فهي أوجب في الصلاة، وإذا قلنا: إنها مستحبة في غير الصلاة، فهي واجبة.

ووقع الاختلاف هل تستعذ في كل ركعة؟ الذي عليه أغلب أهل العلم أنها فقط في أول ركعة، واختلفوا بعد ذلك، فمنهم من نفاها على اعتبار أن الصلاة شيءٌ واحد، ومنهم من قال: لا، فليستعذ استحباباً في كل ركعة وهذا أقرب الأقوال، لعله أعدل الأقوال بأن الصلاة هي شيءٌ واحد، فليستعذ بالله وجوباً إن دخل، لأنه ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يستعذ بالله من الشيطان إذا دخل في قراءة القرآن في الصلاة، وبعد ذلك في الركعات الأخرى يستحب له أن يستعذ بالله من الشيطان الرجيم، في الركعات الأخرى استحباباً لا وجوباً.

وهذه الاستعاذة –كما تقدم– شأنها أنها تحمي، إذاً ما هي الاستعاذة؟ هي حماية، وهي من العوذ، والعوذ هو الالتجاء، أعوذ: ألتجئ، لكنها استعاذةٌ من الشر، هل هناك لجوءٌ من أجل الخير؟ هنا لجوء هرباً من الشر، لكن إذا كان الهروب من أجل تحصيل الخير، سمي ألوذ، لوذ، هذا الفرق بين أعوذ وألوذ، فأما العوذ فهو الالتجاء من أجل مخافة الشر، وأما اللوذ فهو الالتجاء من أجل تحصيل الخير، ولذلك أنت تقول: «أعوذ بالله» إذاً أنت تلتجأ من شر، وهذا هو الذي في النص «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، إذاً أنت تلتجأ إلى الله عز وجل من هذا الذي هو مانعٌ من حصول الخير أو أن يعلق بك الشر عند دخولك لأنوار هذا الكتاب، ومنافع هذا الكنز الإلهي العظيم الذي أنزله للبشرية.

الاستعاذة كما هو بين أن المرء يلوذ، يعوذ، يلتجأ، فهذا دليل أولي على أن هذا الذي تعوذ منه أقوى منك في هذا الباب، فأنت لو كنت قوياً وقادراً على صرفه وقتله وغلبته، فإنك لا تلوذ بغيرك، لا تعوذ به، لا تلتجأ إلى غيرك، فتبارزه وتنتصر عليه، فلما كان من تهرب منه وتلتجأ إلى الله من شره، كان أقوى منك فأنت تعوذ بالله عز وجل، هذا أول.

وهذه فائدة أريد أن أقرأها من كلام ابن كثير رحمه الله عند الكلام عن الاستعاذة، وكأن ابن كثير في هذه الفائدة، كان فرحاً أشد الفرح، وسنتبين هذا من كلامه كيف أنه كحال من تُهدى إليه الجوهرة العظيمة، فيقلبها حيث وجد فرصة لأن يظهرها، وهذا من سر فن القراءة كذلك، حتى تكون مسألة واسعة، لأن قراءة القرآن هي قراءة تعبدية

فهي تحتاج إلى علم، وقراءة التفسير كذلك علم، ونحن هنا لا نُنشئ علوماً، بل نطوف مع الكتب من أجل أن نلتقط دررها وجواهرها ونعرضها بما قدر الله ويسر من الخير.

فإذاً أولاً: هذه النقطة أن الاستعاذة لا تكون إلى عند العجز، وابن كثير أرشدنا أن الاستعاذة من الشيطان الرجيم لها حالةٌ واحدةٌ فقط، تدل بمعناها على ما سنفسره، تدل بمعناها على أنه إياك أن تلعب أو تبارز الشطان في ميدانه، ستهزم، لا ينفع معه أن تبارزه، ما معنى هذا الكلام؟ أن تمتنع وأن تبتعد وأن تهتدي إلى ألا تبارز الشيطان في ميدانه ولا في ساحاته، لأنك إن فعلت فأنت مغلوبٌ حتماً، ولذلك من ساحاته الأسواق مثلاً، من ساحاته المعصية.

ماذا قال يوسف عليه السلام، للتدليل على هذ المعنى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣)﴾ [يوسف: ٣٣]، فاعترف يوسف عليه السلام مع أنه رأى برهان ربه وصبر على اللحظة الأولى من المعركة، إلا أنه اعترف أنه لو بقيت المعركة ممتدة بينه وبين هذه القضية فإنه سيصبو إليهن ويكن من الجاهلين، المعنى: سيكون من العاصين، لأن الجهل في القرآن لا يعني عدم وجود العلم إنما يعني وجود العلم مع المخالفة، كما يقول الناس فلان جاهل، أي أنه يتصرف بالتصرف السيء، هذا هو معنى الجهل في القرآن، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾، ولذلك الله صرف عنه كيدهن، بماذا؟ بأن سجنه، أبعده، ما قال أنا أصرف عنك كيدهن بأن أحمي قلبك، لأن هذا نعم هو يحمي قلبه، ولكن من السنن الإلهية في مثل هذا الميدان أن يبعدك عن موطنه كذلك، هذا ينفع أن تصبر على عدم إتيان المعصية، تصبر حين اللحظة الأولى، لكن دوام المعركة من السنن أنك ستهزم هذا مع الشيطان، هذه التي سنأتي إليها.

فميدان الشيطان لا يحارب فيه، النصر العظيم في ميدان الشيطان أن تهرب من ساحته، ما هو النصر؟ الهروب، هذا الذي نشرحه الآن سنأتي إليه من كلامه؟

فإذاً:

المعنى الأول: الاستعاذة تدل على أنك ضعيف، والله عز وجل أبعد يوسف عليه السلام أخذه ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾، وليس فقط الصرف معناه هنا بأن يبعد عنه محبة النساء لأنه رجل، فحل، فيه الرجولة، وفيه الإنسانية، والله عز وجل قال: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥)﴾ [يوسف: ٣٥]، هذا فعل إلهي، تقدير إلهي، بإبعاده عن ساحة المعركة، ساحة الفتنة، هذه ساحة الشطان، ابتعد عنها.

المعنى الثاني: في قضية الاستعاذة، أن الاستعاذة ركون، يعني أنت عندما تلتجئ، أنت تختبئ، إذاً هذا يلتقي مع هذا بأن الهروب هو التجاء، وترك المقاتلة، فالشيطان لا ينفع معه أبداً المقاتلة، إلا في صورةٍ واحدة وهو أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

الاستعاذة من الإنسان لها معنى آخر، الآن نذهب إلى كلام ابن كثير رحمه الله، وهو جوهرة من جواهر هذا التفسير العظيم الذي يجهله كثير من الناس، يعظمونه تعظيماً عاماً، لكنهم يجهلون كيفية صياغة التفسير عند ابن كثير، يجهلون كيف اختار الأقوال، كيف رجحها وكيف تكلم، وكيف غاص على المعاني وأخرج منها، فله فنون – ابن كثير رحمه الله– في هذا الباب، وأنا أكرر ابن كثير هذه الجوهرة كان يفتخر بها والدليل أنه كررها، وحتى في موطنٍ واحد كررها مرتين، وفي موطنٍ آخر كررها، سنأتي إلى كلامه رحمه الله، عندما جاء عليه رحمة الله في أول التفسير بعد المقدمة هي مقدمة التفسير، نحن لا نشرح تفسير ابن كثير، ولكن نمر من هنا ومن هنا بحسب فوائد كتب أهل العلم، من الأئمة الذين كتبوا في علوم القرآن مقدمة تفسيرهم ابن كثير، وعامة مقدمته كما هو معروف أخذها من مقدمة التفسير لأبن تيمية رحمه الله، ساقها بألفاظها، إلا في مواطن يسيرة، وإنما مقدمة التفسير لابن الكثير في بعض النسخ مطبوعة بمقدمة، وبعض النسخ غير مطبوعة، وبلا شك أن ابن كثير كتب التفسير على مراحل وفي نسخ متعددة، فتجد هنا قِلة وهناك كثرة، وهنا سبطٌ وهنا زيادة.

بعد أن انتهى من كلامه على المقدمة وتكلم عن فضيلة سورة «الفاتحة» وعن أسمائها، وهذا الكلام الذي قلته فتستطيع اشتقاقه من هذه الكلمات لابن كثير، وخذ المعلومة فهي مهمة جداً ولكن ينبغي أن تتعلم كيفية النبط، كيفية الحفر، لاستخراج مثل هذه الدرة من هذا المنجم، فلا يكفي أن تأخذها فقط بل تعلم كيفية استخراجها، هذا أهم، والحال كما يقول أهل العلم: «لا تعطي رجل قرشاً ليشتري حبة قمح، أعطه مئة ولكن من أجل أن يزرع القمح»، لا تعطيه ثوباً ليلبسه، أعطه مالاً ليشتري أدوات صناعة الثوب، هذا هو العلم، هذا في العلم وفي الحياة وفي غيرها.

وانظروا كيف جمع ابن كثير جمع القليل إلى القرين واستخرج لنا هذه الفائدة العظيمة، الكلام على تفسير الاستعاذة، يقول: قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾ [الأعراف: ١٩٩]، هذا الكلام عمن؟ عن الإنسان، الكلام عن الإنسان.

وهنا واضح منها أن الناس هناك من يأخذ بالعفو ويأمر بالعرف من سيستجيب لك، إلا أن يكون جاهلاً، هناك من إذا عاملته بالمعروف، ولم تشق عليه، كان من أولياءك وكان من أحبابك وكان تابعاً لك يا محمد صلى الله عليه وسلم، وهناك من سيعاديك، كما لا تفعل خذ العفو، ما قال خذ العفو وأمر بالعرف فسيكون كذا وكذا، لأنها بينة، هذا ينبغي حضوره عند تفسير القرآن، أن القرآن يأتي بالأمر ويترك العقل يسبح في نتائجه، يسبح في تصورات ما سيقع بعد ذلك، هذه طريقة قرآنية عظيمة، ولا يتكلم عنها لأنها مجالٌ لإبداع عقلك، مجالٌ لأن يركض عقلك في هذا الميدان فتجني أنت بنفسك المعاني، فقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، ما هي النتيجة؟ النتيجة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، إذاً

إن الحال خذ العفو، خذ العفو مقابل لماذا؟ مقابل لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، فإذاً لم ينفضوا من حوله بقوا عنده، ولكن هناك من سيكون جاهلاً، أنا أعرف أن هذا خارج الاستعاذة ولكن كله في مدار ما سيقوله لنا ابن كثير رحمه الله.

يقول تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾ [الأعراف: ١٩٩]، كلام عن الإنسان، انتهينا مع أحوالهم وأحوال المأمور به، قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)﴾ [فصلت: ٣٦]، وفي سورة «الأعراف» إنه سميع عليم، عندما جاء للشيطان ماذا قال؟ عامله حالة واحدة، الله عز وجل يقول ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾، إي يمكن بهذه الوسيلة الطيبة أن تجلب القلوب إليك، إذًا معالجة الإنسان، ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

لكن عن الشيطان ما قال له هكذا، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، أهرب، لو جاءك إنسان وأساء إليك، خذ العفو، خذ جانب العفو وأعف عنه، أساء إليك، جاء إليك مسيئاً في فعله، أعرض عن الجاهلين، افعل معك الخير، فإن لم يستجب فأعرض عنه، لكن في البداية أعمل معه الخير، لكن الشيطان إذا جاءك ماذا تفعل؟ ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أهرب، أهرب إلى الله، طيب أداري الشيطان، ألاعبه، أطعمه، أنصحه، أعظه، أجالسه، من أجل أن أقول له اتقي الله يا شيطان، ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، انظر إلى قوله نزغ.

فالناس المختصين بالتحاليل الآن لما يأخذوا قطعة يسيرة من بدن الإنسان، ماذا يقولوا: أخذو –كلها واحدة– أخذو خزعة، أخذو نزغة، أي بمجرد أن يرد عليك، مجرد ورود ولو يسير، نزغ، هو ما جاء وجلس، هو مجرد ما اقترب فحصل منه النزغ، قال لك أهرب ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ثم جاء للآية الثانية، قال: فقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦)﴾ [المؤمنون: ٩٦]، واضح أن هناك سيئة، جاءت سيئة، فماذا تفعل؟ ادفعها، بما تدفعها؟ بما تقدم، ادفعها بالخير، بما كان يدفع النبي صلى الله عليه وسلم شرور الناس؟ بالإحسان إليهم، بمناظرتهم، بالترفق بهم، أو بمقاتلتهم، إلى غير ذلك، بجوانب متعددة لكن الأول بمحاول جلب الذي يأتيك لعداوتك أن تجلبه إلى صفك، قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، ادفعها، أي سيئته بالحسنة، ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦)﴾ [المؤمنون: ٩٦]، ولما جاء الإنسان، قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨)﴾ [المؤمنون: ٩٧–٩٨]، مع الشيطان ما في ادفع، ولا إحسان، مع الشيطان ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧)﴾ [المؤمنون: ٩٧]، انظر إلى الهمز، نفس المعنى التي تعطيه كلمة نزغ، مجرد الهمز.

والهمز الآن هل يقال لرجل أدخل سكين في بطن رجل، يقال همزه بسكين؟ أم إذا ضربه فقط برأس السكين، يقال همزه؟ صحيح، نفس المعنى، قال: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾، أشد من ذلك، أشد من الهمز، وقال تعالى -هذه في سورة المؤمنون- وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، هذه تفسير لقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦)﴾ [المؤمنون: ٩٦]، هذه جاءت أكثر وبيان أعظم، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، فإذا الذي بينك وبينه، هذه الحسنة، ماذا أصبحت؟ غلبت سيئته إلى موالي، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت: ٣٤]، بعد أن كان عدواً صار ولياً، قريباً، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [فصلت: ٣٥]، أي بالدفع، دفع السيئة بماذا؟ ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾، الصبور هو الذي يدفع السيئة بالحسنة، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)﴾ [فصلت: ٣٥].

ولما جاء للشيطان قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)﴾ [فصلت: ٣٦]، المعنى واضح وبين، انظروا إلى فرح ابن كثير بهذه الجوهرة، ماذا فعل؟ جمعها ورأى هذا التنوع في التعامل مع الإنسان، تنوع، هذا ما يلتقي مع هذا، فقال رحمه الله: «فهذه ثلاث آيات، ليس لهن رابعة في معناها»، هذه الكلمة فقط من حق العلماء أن نقول، هذه الكلمة يقولها رجل من أهل العلم والتقوى ويفسر كلام الله، ومن كان كذلك فإنه لا يقولها إلا بعد أن استقرأ، انتبه فهذه الكلمات لا تلقى هكذا، هذه كلمات لا يوجد لها رابع في كتاب الله في معناها، دل على أنه مشى مع القرآن مرة ومرة، باحثاً عما يقارب هذا المعنى فلم يجده، ولكن هو يريد أن يقول أنا فرح بها.

قال: «وهو أن الله يأمر بمصانعة العدو الإنسي، والإحسان إليه ليرده عنه -أي الشر- طبعه الطيب الأصل، إلى الموادة والمصافاة»، يذكره ويعيده إلى أصله الطيب، قال: «ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة، إذ لا يقبل مصانعةً ولا إحساناً ولا يبتغي غيرها لا كابن آدم، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل، كما قال تعالى.. إلى آخره»، ولعله كتب هذا الأمر على أوقات مختلفة، فكرره ولكن يدل على أنه فرحٌ بها رحمه الله، ويحق من يُرشد لمثل هذا المعنى في القرآن أن يفرح به.

فبعد أن انتهى منها، وما كاد ينتهي من هذه المقدمة حتى رجع إليها، فصل معنى الاستعاذة، رجع إليها مرةً أخرى، قال رحمه الله: «ومعنى اعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أي استجير بجناب الله من الشيطان الرجيم، أن يضرني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أُمرت به، أو يحثني عن فعل ما نُهيت عنه، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله»، هو استعاذ بالله، ما يكفه عن الإنسان إلا الله، «ولهذا أمر الله»، فقط بينهما بحسب الطبع ثلاث صفعات فقط.

قال رحمه الله: «ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإزداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو في الأذى، وأُمر بالاستعاذة به -أي بالله عز وجل- من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة»، الإنسان يقبل الرشوة، بتصرف شره، «ولا يؤثر فيه الجميل»، هل الشيطان يؤثر به الجميل؟ «لأنه شريرٌ بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة»، نفس الكلام.

ثم في سورة «الأعراف» -نرجع إلى سورة «الأعراف»- ماذا يقول، لنرى فرح هذا الإمام بهذه الكلمة، في سورة «الأعراف» عند الآيات التي قرأناها، ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، قال رحمه الله: «فهذه الآيات الثلاث في الأعراف والمؤمنون وحم السجدة»، يعني المقصود فيها سورة «فصلت»، لأنها هي السورة الوحيدة في آل حم أو الحواميم التي فيها سجدة، بما نوجز، وأنا لا أرى فيه بأساً، أن يقال: حواميم، وإن كرهه الحسن البصري رحمه الله، وقال إنما ينبغي أن يقال آل حم، والصواب جوازه، لا يوجد حرج، وإنما ربما كرهه الحسن البصري رحمه الله لأن كلمة حواميم من الحرارة والنار والحميم، فربما كرهه من هذا المعنى، وليس فيه بأس إن شاء الله،

قال رحمه الله: «وحم السجدة لا رابع لهن فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف بالتي هي أحسن، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى، ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإنه لا يكفه عنك الإحسان، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبل»، إذًا الاستعاذة حصلت بسبب الضعف، وكذلك حصل الالتجاء بالسكون، لا تستطيع أن تدفع الشيطان بقواك، مالك غير أن تلتجئ إلى الله بما يلتجأ به إليه من الكلمات التي أحبها الله، أن تقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، هذه هي الاستعاذة.

وهناك باب ينبغي أن نمر عليه في موضوع الاستعاذة قبل أن نأتي إلى الكلمات وهو أنه نحن نقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، فأنت استعذت بالله لقراءة القرآن، لكننا نرى الاستعاذة بكلمات الله، أي أن نقول: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)، ومن المعلوم أن كلمات الله عز وجل إما أن تكون تشريعية وإما تكون كونية، فنحن نعلم قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس: ٨٢]، فما خُلق في الكون بالكلمة، من أجل هذا نقول: عيسى عليه السلام هو كلمة الله.

وقد يقول قائل: إذا كان عيسى عليه السلام كلمة الله، والجبال كلمة الله، والسماوات كلمة الله، فلم خص عيسى باسم الكلمة؟ هذا للتشريف، لأن كل شيء هو ملك الله عز وجل، فإذا خص ذكرُ شيءٍ بنسبته إلى الله عز وجل دل على تشريفه، مثلاً: هذا البيت لمن؟ لله عز وجل، كل شيءٍ لله عز وجل، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المائدة: ١٢٠]، لكن لماذا نقول عن المسجد هو بيت الله؟ مع أن كل البيوت هي ملكه، وإنما خص هذا

الملك للتشريف، فعيسى عليه السلام كلمة الله، إنما هو للتشريف، وإلا فكل شيءٍ خلقه الله قد خُلق بالكلمة، فهو كلمة الله.

القصد: أن الكلمة إما تكون كلمة تكوينية وهي التي يكون أثرها بالإيجاد، والكلمة التشريعية وهي التي يراد بها الإرشاد، إذًا عندنا الكلمة التكوينية التي يخلق بها، يوجد بها، الله عز وجل يخلق بها الكون ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)﴾، فهذه كلمة تكوينية، والناس كذلك يعلمون أن الله عز وجل تكلم مع موسى عليه السلام كلام الإرشاد، وتكلم القرآن كلام الإرشاد، فهو كلام هداية، وهذا يؤدي إلى تشريع، وهذا يؤدي إلى تكوين، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ﴾، الخلق بما وقع؟ بالكلمة، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، بما وقع كذلك الأمر؟ بالكلمة.

فما المقصود بـ (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)؟ هل يستعاذ بكلمات الله التشريعية، أم يستعاذ بكلمات الله التكوينية؟ أنت تستعيذ أي تلتجئ، فأنا أعوذ بالله من الشيطان، وأنت تستعيذ بالله من الشيطان، تقول لرجل: أعوذ بالله منك، بما تستعيذ؟ وهل بالكلمات التكوينية أم بالكلمات التشريعية؟ (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)، شر ما خلق أي شر ما خلق من الدواب، من الحيوانات، من المؤذي، إلى غير ذلك، ليس فقط الشيطان بوسوسته ونفخه وهمزه ونفثه، وإنما أنت تستعيذ كذلك من المعتدي.

لننظر في سورة «مريم» لنرى متى تكون الكلمات التشريعية التي يستعاذ بالله منها نافعة ومتى لا تكون نافعة إلا كلمات الله التكوينية، في سورة «مريم» ماذا قالت مريم عليها السلام؟ أنا أحب أن نقرأ من القرآن، لا بد أن ننظر في القرآن حتى نتعود النظر فيه، ولتذكر هذه الآيات عندما نمر عليها عند القراءة، قالت مريم عندما ظهر لها الملك بصورته البشرية: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨)﴾ [مريم: ١٨]، علقت مريم حصول فائد الاستعاذة بكون هذا الرجل تقياً.

قالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾، أي لو أنه لم يكون تقي لما كانت الاستعاذة نافعة، وهذا بيّن، فدل على أن كلمة أعوذ بالله منك، واحد يقولها لواحد فهي مع ما فيها من وجود شرورٍ في الفاعل، أو وجود ما يؤذي هذا القائل، قد يكون هذا شرير، قد يكون لا فيه هداوة، وقد يكون فيه دعوة على حق وقد يكون على باطل، وقد يكون استعاذته على باطل كما أن امرأةً تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت له: أعوذ بالله منك، وهذه ليست كلمة حق، لكنها قالتها، فمتى تنفع هذه الكلمة أعوذ بالله منك؟ تنفع كما تنفع كلمة اتقي الله، لأن اتقي الله، يعني أترك ما أنت فيه، أعوذ بالله منك أي اصرف ما أنت عليه قادم، لكن لمن تنفع هذه الكلمة؟ لا تنفع إلا للتقي.

فلو أن أحدهم قال لآخر: أعوذ بالله منك، فإن هذه الكلمة، لو كانت هذه الكلمة أعوذ بالله من، لا تأثر في قلب من وجهت إليه لما منعته من إتيان ما يضرك أو ما أنت خفت منه، لا تنفع، وليس شرطاً أن تقول لواحد يريد

أن يؤذيك: أعوذ بالله منك، فيحصل أثرها ذلك لأنها كلمةٌ تشريعية، أعوذ بكلمات الله منك، هنا الكلمة ماذا؟ تشريعية، والكلمة التشريعية مآلها أن يستجيب لها الطائع، وألا يستجيب لها العاصي، هذه الكلمة التشريعية، الكلمة التشريعية مثل أقم الصلاة، هناك من يصلي وهناك من لا يصلي، فهذه كلمة تشريعية، كلمة تشريعية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، هناك من لا يعبد الله وهناك من يستعين بغير الله، فالكلمة التشريعية التي رتب عليها الثواب والعقاب يقبل عليها الطائع، وينصرف عنها العاصي.

لكن الكلمة التكوينية، لا، هي ترد كل أحد مسلمٌ وكافر، ما معنى الكلمة التكوينية؟ تعني الخلق، يعني لما واحد يقول: أعوذ بكلمات الله التامات، فالله عز وجل يقدر له مَلَكًا يحميه ويصرف عنه الشيطان، فهذه كلمة تكوينية، فالكلمة التكوينية ترد المسلم وترد الكافر، لأن الفعل التكويني هو هذا حاله، لما في سورة «الكهف» لما بني السد، منعهم أو لم يمنعهم؟ هم أرادو ولكن منعهم، فالسد هو كلمة تكوينية خلقه الله عز وجل، منعةً لهؤلاء القوم، الذين هم بين السدين، وكذلك من الكلمة التكوينية أخذ الدواء، الدواء كلمة تكوينية، تصلح للرد سواء قبلها أو لم يقبلها، فإذا حصلت وقع فعلها، فالله جل في علاه لما قال: ﴿كُنْ﴾ أي خلقك، هل استأذن أحد في خلقك؟ هل استطاع أحد أن يمنع وجودك في هذه الدنيا؟ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس: ٨٢]، فلا يحتاج إلى إذن أحد وهذا الفرق بين الكلمة التكوينية والكلمة التشريعية.

الكلمة التشريعية المراد بها الأمر والنهي، فهي معلقة بإرادة الإنسان قد يستجيب وقد لا يستجيب، والكلمة التكوينية لا علاقة لها بإرادة المخلوق، إنما لها تعلق بإرادة الله عز وجل، وجوداً وعدماً، إما أن يأمر بها فتكون، وإما أن يأمر أن لا تكون فلا تكون، نحن قلنا هذه كلمة وهذه كلمة وهذه كلمة، فلذلك عليك أن تفرق بين الكلمة التكوينية والكلمة التشريعية، عندما تقول: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)، لو أنه قدر في القدر أن قلتها لعدوٍ لا يستجيب، الله عز وجل قد يحقق لك مرادك بأن يصرف عنك العدو، يصرفه بما يصرف به؛ إما أن يحضر لك من يمنعه، وإما أن يصرف قلبه وإرادته إلى غير ذلك، فهذه كلمة تكوينية.

والكلمة التي قالتها مريم، قالت: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨)﴾ [مريم: ١٨]، فإن لم يكن تقي لم يستجيب لقوله أعوذ بالله منك، لم يستجيب، تستعيذي أو لا تستعيذي، ومنهم من قال هذا للحجاج لما غزا الكعبة فأعلمه بعض الصحابة بحرمة انتهاك حرمتها، وأنه من عاذ بها عاذته، فالكعبة من عاذ بها ينبغي أن تقبل عوذه فيها، لكن ممكن أن يعصي ولا يعصي؟ لما عاذ بها ابن الزبير، ماذا فعل الحجاج؟ رماه بالمنجنيق، عاذ بها ولم يستجب، وبالتالي لما علمت مريم أن قولها: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾ هي كلمة تشريعية علقتها على إيمان الرجل، كما قالت المرأة للنبي صلى الله عليه وسلم، أعوذ بالله منك، قصة لها أسبابها، فلما دخل بها فقالت: أعوذ بالله منك، قال: (لقد

عذت بعظيم)، لو لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم عظمة هذه الكلمة لقال لها عذت أو لم تعوذي أنت زوجتي سأفعل بك كذا وكذا، ولا يمنعها لو قالت: أعوذ بالله منك، لا تنفعها.

فإذاً الكلمات التي نقول (أعوذ بكلمات الله التامات)، ينبغي أن نفهما على وجهها، والعلماء كما في شرح الطحاوية وكنت أحب أن أحضر النص، ولكن الوقت يُدرِك، فإنه ذكر بأن المقصود بهذه الكلمات: أي التكوينية، أي أعوذ بكلمات الله التكوينية من شر ما خلق، فأنت تستعيذ بالله، تستعيذ بهذه الكلمات التكوينية من شر ما خلق، ليصرف عنك الصارف، بما يصرفه من عالم الغيب أو عالم الشهادة.

ولما وقف الرجل، النبي صلى الله عليه وسلم كانوا في غزيةٍ فتركوا سمُرة للنبي صلى الله عليه وسلم عظيمة لينامَ تحتها، وجاء رجل وقد حمل سيفه على النبي صلى الله عليه وسلم، قال: من يعصمك مني يا محمد؟ قال صلى الله عليه وسلم: الله، فسقط السيف من يده، هذه رواية، وروايةٌ أخرى أنه تركه وجلس، فإما أن يكون سقط السيف، وهذا هو الفعل القدري، الله عز وجل أضعف يده وسلب منها قوة حمل السيف والضرب به، وإما أن الرجل لما قال له صلى الله عليه وسلم: الله ربما يكون معظم فتركه، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم السيف، وقال صلى الله عليه وسلم: (من يعصمك مني)، قال: كن خير آخذ، المهم جلس ولم يقتله النبي صلى الله عليه وسلم.

فالقصد: عندما قالت مريم: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾، هذا هو تفسيرها الوحيد، لا ما يقوله البعض أقوال أخرى.

الاستعاذة عند حضور المهمات العظمة، ضروري مهم جداً، مثلاً في ذلك افتح سورة «غافر» صفحة «٤٧٠» آية «٢٦» وما بعدها، سورة «غافر» أول سورة من «آل حم»، الحواميم، بعد سورة «الزمر»، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)﴾ [غافر: ٢٦]، هذه على خلاف تلك، انتبه، ماذا قالت مريم؟ ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨)﴾ [مريم: ١٨]، علقت حدوث العوذ والعصمة بأنه تقي، وهنا موسى يطلب العوذ من رجلٍ لا يتقي الله، للمعنى آخر، الذي ذكرناه وهو المعنى الذي فيه الكلمات التكوينية.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾ [غافر: ٢٧]، ومريم قالت: ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾، هو يستعيذ -موسى عليه السلام- بالله من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، فدل على أنه تستعيذ بالله عز وجل من التقي بلفظ تذكره به أن أعوذ بالله، وهذا يقع منه حديث صلى الله عليه وسلم: (من صلى الصبح في جماعة كان في ذمة الله)، هنا في ذمة الله ممكن تغفر أو لا تغفر، ما المقصود في ذمة الله؟ بعض الناس يظن أن الذي يصلي الصبح لا يؤذى، لا يقتل، ويضربون قصص بهذا، ينسبون أن الحجاج كان يسأل -وهذا

لا يصح– من يريد قتله، أصليت الصبح في جماعة، فإذا قال: نعم، قال: أنت في ذمة الله، هذا لم يحدث، غير الصحيح، وكم قتل من أقوام صلوا الصبح في جماعة بل قاموا الليل كذلك.

إذاً قوله صلى الله عليه وسلم: (من صلى الصبح في جماعة كان في ذمة الله)، أي مستعيذاً بالله، فهذا المقصود به، فإياك أن تخفر ذمة الله، هذا خطابٌ لنا، أما أن من صلى الصبح في جماعة يمكن أن تخفر ذمته، فيؤذى ويقتل ويعذب، لكن ما هو المقصود من الحديث؟ المقصود أن هذا الرجل أمره عظيم فلا تقترب منه، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، لماذا؟ لعظمته، ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)﴾ [الحج: ٢٥]، وهنا فمن كان مصلياً للصبح فاجتنب أن تخفر ذمة الله، اجتنب أن تؤذيه لأنه في ذمة الله، اجتنبت هو أمرٌ لك ألا تخفر ذمة الله، وقوله هنا ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٧]، وسيتبين هذا سنرجع إليها على أن الله جل في علاه هو رب المسلم ورب الكافر، على ما يتم والحمد لله رب العالمين.

إذن تبين لنا هنا معنى الاستعاذة للكلمات، وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ أنت الآن تريد أن تدخل إلى هذا الكلام العظيم، هذا الحق، هذه العبادة العظيمة، فعليك أن تستعذ بالله من الشيطان الرجيم، ما من فضيلة أو حالة أعطيت للنبي صلى الله عليه وسلم إلا وأعطيت لهذه الأمة، ليس على المعنى الكلي الذي أعطاه الله لرسوله، لكن على المعنى الجزئي، بمقداره، ما من فضيلة أعطيت لرسولنا صلى الله عليه وسلم ولا حالة من حالات الترقي الإيماني والفضل الإلهي، إلا وقد سرت هذه الحالة وهذه الفضيلة في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، بمقدار، ليس على المعنى الكلي، المعنى الكلي في شخص النبي صلى الله عليه وسلم، لكنها تسري في الأمة.

فأين نجد هذه الاستعاذة، مع أحوال النبي مع القرآن؟ فنحن نقول إذا أردت دخول القرآن فلا تدخل بما معك من شر، وأبعد عنك ما يمنعك من تحصيل الخير في القرآن، أبعد ما معك من شر، استعذ بالله، وادخل طاهر، وأبعد عنك موانع تحصيل الخير من القرآن، أبعدهم واطردهم، فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، هذه حالة نبوية هي في حق النبي صلى الله عليه وسلم أن يفعلها وكان يفعلها صلى الله عليه وسلم حين يقرأ القرآن في الصلاة وفي غيرها، فيستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وكذلك هي لأمته، لكن أين مصدرها، أين مصدر هذه الحالة من شخص النبي صلى الله عليه وسلم مع القرآن؟ نذهب إلى سورة «الحج»، لنرى هذا المعنى.

يا إخوة أنا أعطيكم فائدة، حتى إذا رأيت حالةً نبوية، لماذا أقول هذا؟ لأنك حين ترى حالةً نبوية ينبغي أن تبحث عن سريانها في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وبهذا تعرف قيمة الناس، ما فائدة هذا؟ حتى تعرف قيمة العلماء والشهداء والصديقين، فإنك حين تعرف هذه الحالة للنبي صلى الله عليه وسلم، فتبحث عن معناها في داخل الأمة تعرف مراتب الناس في دخولهم في هذه الحالة.

مثال على هذا: ما من نبي إلا وقد استُئذن قبل موته، وخير تريد الحياة أم تريد الموت، واستُئذن النبي صلى الله عليه وسلم، هذه حالة نبوية، شريفة، على ماذا تدل؟ على مرتبة شريفة، تريد الدنيا أم تريد الآخرة، تريد الدنيا تبقى إلى آخر الدنيا، ولا نبي اختار أن يبقى في الدنيا، ولا نبي، فكلهم كما قال حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم على المنبر والناس يسمعون: (رجلٌ خير بين لقاء الله وبين هذه الدنيا، فاختار الرفيق الأعلى)، هذه الحالة عظيمة تدل على شرف الناس وعلى قيمتهم، وهي في تجلياتها تصيب المعنى الكلي للأنبياء، أنهم يُستأذنون، لكن هذا المعنى الكلي لا يصيب كل أحد، فإذاً لا بد أن يصيبهم معنى جزئي، وكلما رأيت هذا المعنى الجزئي في الرجل علمت أنه قد اقترب من نهج النبي صلى الله عليه وسلم وسبيله وطريقه، كيف نستفيد؟

ما من عالم من علمائنا إلا وقد أصيب من البلاء في الدنيا ما يتمنى به الموت، ولذلك البخاري وضع باب تمني الموت والمنهي عنه هو تمني الموت هروباً من البلاء وعدم الصبر، وأما مثلاً تمني الموت هروباً من الفتن، فتن عظيمة يتمنى أن يموت حتى لا يصيبها أو تصيبه، ومن ذلك ما حدث مع عمر، عمر رضي الله عنه لما رأى الخيرات وفتح البلاد من قبل الصحابة رضي الله عنهم، علم أن بعد هذا الخير العظيم في دنياه هو بداية الفتن فصار يتمنى الموت، هذه حالة نبوية، هو لا يُستأذن، لكن يقول أريد أن أذهب.

فالبخاري لما عُودي حتى تمنى الموت، ذهب إلى قرية وتمنى الموت وهكذا، فهذه فائدة؛ وهو أنه عليك أن تبحث عن الأحوال النبوية الشريفة وتعرف مقدار إصابة الخلق لها، حين إذن تعرف مقدار هؤلاء العلماء مع هذه الحالة، من أجل هذا علينا أن نذهب إلى سور «الحج» لنرى أن قول العبد: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» من أين اشتقت؟ من حالةٍ نبوية، أين هي؟ نرجع إلى سورة الحج لنرى هذه الحالة النبوية، صفحة «٣٣٨»، آية «٥٢»، من سورة الحج، أذكّر –حتى لا ينتقدنا منتقد– ليس من المنهج العلمي أن تعزو الآية للصفحة، لكن عامة الناس الآن يقرؤون القرآن بخط عثمان طه، هذا هو الموجود، ولسرعة الوصول إليه، وإلا فالنسبة إلى سورة وإلى الآية–.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)﴾ [الحج: ٥٢]، ما من نبي إلا وحين حصول الأمنية، ما هو هنا إذا تمنى بمعنى قرأ، الأماني هي القراءة، كما في سورة «البقرة»، قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)﴾ [البقرة: ٧٨]، وإحدى تفسيراتها وهو أقرب أماني تعني قراءة، فقط يجرونه على ألسنتهم، فالأماني القراءة، ولما رُثي عثمان رضي الله عنه، قال: تمنى؛ أي قرأ.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢]، إذاً استعاذة حتى في القراءة، هذا مقام النبي، طيب واحد يسأل: مقام النبي هل يستطيع الشيطان لهذه الدرجة أن يدخل عليه؟ بلا شك، لو سأل سائل لماذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لو سلك عمر واديًا لسلك الشيطان واديًا

آخر)؟ لكن مع النبي صلى الله عليه وسلم، الشيطان هجم على النبي صلى الله عليه وسلم يريد حرقه، أصبح عنده الصباح فقال صلى الله عليه وسلم: (جاءني الشيطان هذه الليلة معه شهاب من نار فأراد حرقي فأخذته ولولا دعوة أخي سليمان لرأيتموه مربوط في سواري المسجد)، لماذا لم يهرب منه كما هرب من عمر رضي الله عنه، هل حال عمر أشد من حال النبي صلى الله عليه وسلم؟ يكون العداء بمقدار الحقد والغضب، فممكن الضعيف ينسى ضعفه إذا اشتد حقده على من قابله فيهجم عليه وهو يعلم أنه سيخسر، فينسى ضعفه من شدة وهجم عليه ويعلم أنه سيخسر، فهو حقده على عمر شديد، لكن حافظ عقله، الشيطان يحفظ نفسه، فلما يرى عمر رضي الله عنه يهرب، لكن من شدة حقده على النبي نسي نفسه، والدليل أنه أخذه النبي صلى الله عليه وسلم وأراد أن يربطه.

فحين يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢]، قد يقول قائل: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا النبي يلقي الشيطان فيه من أمنيته، لماذا لا يعصم؟ يعصم لكن يقع منه ما وقع مع الشيطان مع النبي صلى الله عليه وسلم في كل مرة أي يأخذه ويخنقه، ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، فينسخه يقع في كل مرة، ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)﴾ [الحج: ٥٢]، يقع الحق، في كل مرةٍ يهزم.

فالمطلوب –نرجع– هذا الحال من المعنى في الاستعاذة هو هذا الحال؛ أنك كلما أردت أن تدخل القرآن إنما تستعذ بالله حتى لا يلقي الشيطان في أمنيتك في قراءتك من الشر، وهذه كثيرة لا يمكن حصرها، ماذا يلقي الشيطان في قلبك من المعاني الباطلة عن القرآن، يقرأ القرآن فيأتيه الشيطان فيحدثه، يقيمه عن القرآن، يضيق قلبه، فإذا قرأه شعر بالضيق، هذا كله اصرفه بـ «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

لو سأل سائل أنت هنا الآن عظمت الشيطان وجعلتنا ضعاف أمامه، فكيف تجمع؟ واضح أن الشيطان قوي في هذا الباب ولا نقدر أن نعالجه في ساحته، بل علينا أن نهرب ونلتجأ إلى الله، ولا نحارب، وهذا المعنى أن لا تحاربه في ساحته عليك أن تتعلمه في هذه الحياة الدنيا، إياك، إياك أن تمتحن نفسك برميها في مهاون المعاصي، إياك، أحدهم يقول: أنا لا تأثر علي النساء، مستعد أن أراهم أمامي، أنا شجاع لو وقفت أمام أكبر الناس سأمره وأنهاه، إلى غير ذلك، نقول له: أنت لست أشجع من موسى عليه السلام، ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤)﴾ [الشعراء: ١٤]، فاهرب، لا تقول أنا سأذهب إلى هذا المكان وأنا أتحدى، هذا فعل الجاهل، هذا لا تصبر عليه، لا تعرف كيف تغلب عليك المعصية والشهوة، وكيف تتحكم في عقلك، فتُذهب عنك نور العقل وهداية القلب.

فكيف نجمع بين هذا القول وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)﴾ [النساء: ٧٦]، كيف نجمع؟ هذا في المآل، كيده ضعيف في المآل، من الذي ينتصر دائماً في معارك الحق والباطل؟ الأنبياء، واتباع الأنبياء،﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، فالشيطان ضعيف، الناس لا يرون هزائم الشيطان، كم مرة هزم الشيطان، كم ولي من

أولياءنا نفذ إلى جنان الرحمن إلى الفردوس الأعلى، كم نبي، كم صالح، كم مجاهد، كم عابد، كم ذاكر، كم مصلي، فالشيطان هزائمه كثيرة، هزائمه في التاريخ كثيرة جداً، ويكفي هزيمته ما تراه في يوم عرفة من غفران الله عز وجل لذنوب ابن آدم، هذا واحد، فمعارك الشيطان في عالم المادة مهزومة، لا حياة له، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، زاهق أي ميت لا قيمة له، جثة، رمة مرمية على الأرض لا قيمة لها، هذا واحد.

والمعنى الثاني: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)﴾ [النساء: ٧٦]، ما الذي احتجته من أجل صرف كيد الشيطان؟ قال صلى الله عليه وسلم: (إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لو قالَهَا ذَهَبَ عنْه ما يَجِدُ)، تجد الغضبان يسب ويشتم وتنتفخ أوداجه، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: (إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لو قالَهَا ذَهَبَ عنْه ما يَجِدُ، لو قالَ: أعُوذُ باللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، ذَهَبَ عنْه ما يَجِدُ)، جاء إليه الصحابي قال: «قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، قال: وهلْ بي جُنُونٌ، لأن الغضب والجنون شيء واحد مادتهما واحدة وهي ذهاب العقل، يكفي اليوم أيها الإخوة الأحبة بارك الله فيكم خاصةً أن هناك دروس في وقت آخر لبعض الإخوة بارك الله فيكم أيها الإخوة والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: مريم عليها السلام، لماذا اختارت الكلمة التشريعية ولم تختار الكلمة التكوينية؟

الشيخ: لعلمها أنها لا تنفع في دفع صاحب الشهوة، لعلم مريم أنها لو قالت: أعوذ بالله منك، فلم يكن تقياً، لعلمها أنها لا تنفع، خاصةً الشهوة.

السائل: لماذا لم تستعذ بكلمات الله التامات، أي الكونية؟

الشيخ: لعلمها أنها لا تنفع في هذا الباب.

السائل: عن قصة الغرانيق؟

الشيخ: قصة الغرانيق قصة موضوعة، مكذوبة، نعوذ بالله، الذي يحدث أنه، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢]، الناس يظنون ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ﴾، ما قال في قلبه، ولا قال في لسانه، الغلط الذي وقعوا فيه أنهم ظنوا أنه ألقى الشيطان في قلبه، في صدره، في معاني ما حدث معه من معارف إيمانية في قلبه، هذا غير صحيح، الله عز وجل قال: ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، بمعنى حين يقرأ ما هو موحى إليه من الله عز وجل، فيقع في أمنيته، كيف يقع هذا؟ إما أن الشيطان يصرخ فيهم صرخة من شدة غيضه فيصرخ، وتقع فيهم كلمات، وهذا ممكن أن يقع، وما ورد من نصوص أو ورد من أخبار، ربما تشهد بهذا المعنى وإن كان المعنى العام الذي هو عام في كل قراءة، ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، أي في معاني ما يقرأ، في أمنيته، عندما يقرأ فالشيطان يلقي معاني من الشر، لو كان كذا، كيف يقول كذا، لماذا يقول كذا؟ وهكذا يقع من أهل البدع، وأهل المعاصي وأهل الكفر، فالقرآن بدل أن يكون كتاب هداية، ويكون كلام الله عز وجل هو هداية للخلق، فيسمعه الكافر فيكون سبباً لإضلاله لماذا؟ لما يقع في هذه القراءة من معاني باطلة في قلبه.

فالغرانيق هذه مكذوبة نعوذ بالله، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]، هذا لا يجوز الاعتقاد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أو تكلم بلسانه كلمة باطلة، أو أنه حين قرأ القرآن على أصحابه زاد حرفاً مما أوحي إليه من قبل جبريل، هذا لا يجوز اعتقاده، وهناك ثمة روايات باطلة مكذوبة لا يجوز أن تقع بها.

السائل: هل هناك من معاني القرآن ثابتة وهل هناك متغيرة وما هو ضابط إن وجد هذا؟

الشيخ: هذا لا وجود له، بعد أن استقر كتاب ربنا وانتهى النسخ، ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وإن شاء الله نأتي إلى النسخ وما قال فيه أهل العلم، بعد أن استقر كتاب ربنا على ما هو عليه وانتهى عصر التشريع وتنزيل القرآن، لا يجوز لأحد أن يقول: إن هذا المعنى في القرآن الذي قاله الصحابة، هو حق، ولكنه تغير، وهذا المعنى صار باطلاً وغير حاضرٍ في هذا الزمان، هذه إذا قاله أحد يستتاب من هذه الكلمة ويقتل عليها بالإصرار، لأن القرآن الحق لا ينتج إلا حقاً، الحق لا يصدر منه إلا الحق، ولا يورث الحق إلا حقاً، ولازم الحق عند سلفنا لازم الحق حقٌ مطلق لا ينبغي أن يتخلف في لحظة.

ولما كان القرآن حقٌ مطلق في كل زمان ومكان، كانت المعاني تصدر منه هي حقٌ مطلق في كل زمان ومكان، نحن لا نتكلم هنا في الأحكام، هذا الحكم قد يطبق الآن وقد يتخلف لسبب، يمكن! لعدم القدرة، لوجود المانع، فيمكن ألا نقوم به، ولكن يبقى هذا الحكم هو شرع الله في القرآن الذي لا يجوز تغييره، وكما أن الشرع الذي جاء به القرآن ثابتٌ أزلي يتخلف تطبيق الناس له بحسب وجود الموانع، فكذلك المعاني القرآنية؛ لأن الشرع هو من معاني القرآن، والصواب القرآن حتى أخباره هي أحكام، القرآن كله أحكام، وكذلك المعاني القرآنية التي ينتجها القرآن في قلب المهتدي وهي حق، شرط أن تكون حق، فإنه لا يجوز أن تتخلف في وقت.

وأنا أعرف أن بعض الناس يقول: وتفسير الصحابة، مثل ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)﴾ [القيامة: ٤]، قالوا ما هو حق، يلائم معنى قدروا عليه في زمانهم، كان يقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: بلا قادرين على أن نسوي بنانه، أي قادرين على أن نجعل أصابعه كحافر الحمار، هذا معنى حق، قادر وهذا المعنى صحيح، ولا يتخلف.

لكن حين يخطئ، مثلاً: عندما نأتي إلى كلام ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، إلى قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠)﴾ [الدخان: ١٠]، فسرها ابن مسعود رضي الله عنه ما حصل لقريش من الجوع، لما دعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم سنين كسنين يوسف، جاعوا حتى أكلوا الجيف، ومن شدة جوعهم صاروا ينظروا إلى السماء فلا يرو إلا دخاناً من شدة الجوع، ففسر ابن مسعود كلام ربنا في هذه الآية على هذا، يقول واحد: لا، هذا عندما يأتي الدخان يوم القيامة، فتغير، فنقول أخطأ ابن مسعود، لقوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾، قال: ﴿مُبِينٍ﴾، يعني الدخان وليس تخيل الدخان، قال تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾، يعني الدخان يأتي من السماء وهو مبين، ابن مسعود هكذا فسرها، فلا يقال: تغير الفهم، يقال: أخطأ ابن مسعود، أخطأ!.

فنحن نشترط على المعنى الذي يثبت ولا يتغير أن يكون الذي قاله الناس حقاً، فهذا لا يجوز، لا يجوز لأحد أن يعتقد أن القرآن متغير، نعوذ بالله لا يوجد، لكن هل يوجد تجدد في المعاني بحسب ملائمة الناس؟ الجواب نعم، الناس يكتشفون في القرآن من المعاني العظيمة والجليلة ما تناسب عصرهم، فهذا القرآن هو كلمة الله عز وجل خالق البشرية،

وهو صالحٌ أن يُعجز الناس وأن يجدوا فيه من الخيرات ما حدث من المعاني في قلوب الناس السابقين وما يزيد كذلك، لأن القرآن (لاَ يَخْلُقُ عَلى كَثْرَةِ الرّدّ).

السائل: قد يكون عدم قدرة الإنسان على مواجهة خطر الشيطان لأنه يأتيه من حيث لا يحتسب فهو يهاجمه دون أن يراه، فكيف للإنسان أن يواجه عدوًا خفيًا عنه بهذه القوة الشيطانية، ما تعليق شيخنا على هذا؟

الشيخ: تعليقي أن هذا الكلام صحيح، لماذا يستعيذ العبد من الشيطان؟ من إحدى أسباب استعاذة العبد بالله من الشيطان، أنه لا يقدر على دفعه لخفائه، ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

ثانياً: القدرة التي فيه وليست في الإنسان، لذلك فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فهو يوسوس في القلب، ولا يستطيع أن يدفعه إلا بهذا، فما قاله الأخ صحيح، ونص عليه ابن كثير، في الموطن الذي قرأناه في الاستعاذة.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثالث

إن الحمد لله نحمده حمدًا كثيراً طيباً مباركاً فيه والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين حبيبنا وإمامنا وقائدنا وسيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أما بعد أيها الإخوة الأحبة أهلاً وسهلاً بكم في لقائنا الثالث في دورس التفسير، ونحن كنا قد شرعنا في الكلام عن الاستعاذة التي جعلها الله عز وجل مدخلاً للقرآن، وهناك إجماع كما ذكرنا سابقاً، كما أننا انقطعنا طويلاً عن المتابعة، نعيد بعض النقاط التي تكلمنا عنها في الدرس الفائت، قلنا بأن الاستعاذة ليست من القرآن، وهي عند جمهور أهل العلم على معنى الاستحباب، كما ذكر هذا ابن جرير في تفسيره وعامة أهل العلم على ذلك، لأنه من شرع في قراءة القرآن فيبدأ بها، وهناك من يرى وجوبها في الصلاة، بمعنى أن يفتتح قراءة الفاتحة بالاستعاذة، وهناك خلاف في هل هذه الاستعاذة واجبة في الصلاة أم لا، وهل هي واجبة في كل ركعة أم لا، وتكلمنا عنها باختصار لا نريد أن ندخل في مسائل فقهية، ولعل أقرب الأقوال للحق أنها واجبة في الصلاة في أول ركعة ثم تكون مستحبة بعد ذلك في بقية الركعات.

وقلنا بأن الاستعاذة هي كحالة التطهر للدخول في الصلاة، كيف يشرع المرء في الصلاة؟ لا بد له من مقدمة هي خارج الصلاة، من شروط الصلاة، هذه المقدمة هي الوضوء مثلاً، فالوضوء يسبقها، وهو حالة أي الطهور والوضوء حالة الطهارة، وتخلص من أدران البدن والآثام، لأنه إذا توضأ المرء خرج من ذنوبه، حيث تساقط قطر الماء من أماكن الوضوء، فهي تهيئة للدخول لمقامٍ شريفٍ جليلٍ عظيم، وكذلك الاستعاذة هي حالة تهيؤ من أجل الدخول على مائدة الرحمن في أمرٍ عظيم، فيقول المرء: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

وتكلمنا في الدرس الفائت بأن الاستعاذة تكون بكلمات الله التكوينية وكلمات الله التشريعية، وتكون الاستعاذة بالله عز وجل، ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨)﴾ [مريم: ١٨]، وقلنا بان أغلب أهل العلم على ما ذكرنا سابقاً لا نريد أن نعود، فيرجع إليها إن شاء الله في الدرس الثاني، وهناك قضية وهو أننا لم نجد في القرآن استعاذة بكلمات الله التامات، لا توجد، هذه لم ترد إلا في السنة، وإلا في القرآن كل الاستعاذة بالله عز وجل، الاستعاذة بالله سبحانه وتعالى.

وأما في السنة فوردت (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)، والاستعاذة بكلمات الله، هي استعاذة بالله، لقوله جل في علاه: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى: ١]، فأنت تسبح اسم الله عز وجل، وحين تسبح

اسمه تكون قد سبحته، لماذا؟ لأن الاسم هو صفة، وسميت أسماء الله حُسنى، لأنها دالة على صفات حقيقية وليست مجرد أعلام، يعني يمكن لرجل أن يقال عنه جميل، تسميه أمه أو والده يسمونه جميل، اسمه جميل، ولكنه لا يكون جميلاً، وهذا اسم علم، اسمه، ويمكن لرجل أن يسمى شجاع، ولا يكون كذلك، أو أفلح أو أنجح ولا يكون كذلك، لكن أسماء الله حُسنى، لأنها صفات، ودلالة الأسماء على الصفات، دلال التطابق، ودلالتها على غيرها، إما دلالة التزام أو دلالة تضمن، كما يقول أهل العلم.

فدلالة التزام أو تتضمن بأنك حين تقول: البيت يستلزم وجود سقف، وحين تقول البيت يتضمن وجود البيت وجود باب، فلا بد حين وجود الصفات أن توجد الذات، لا يمكن تصور صفة بلا ذات، فحين يقول جل في علاه: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى: ١]، فأنت تسبح أسمائه، ولأن الأسماء صفات، فأنت تسبح الصفات، ولأنه لا يمكن تصور وجود الصفة من غير ذات، فأنت تسبح الذات، فلما قال سبحانه وتعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى: ١]، فأنت تقول: سبحان ربي الأعلى، فأنت مأمور بأن تسبح الله عز وجل، لكن لماذا يقول تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى: ١]؟ هذا نأتي إليه في وقته إن شاء الله.

فلما نقول: (أعوذ بكلمات الله التامات)، أي الكلمات الإلهية صفة له، الكلمات الإلهية صفة من صفاته، فأنت تستعيذ بالله، ولكن لماذا يقال الكلمات؟ هذا من قبيل بيان كيفية فعل الله في الخلق، كيف يفعل الله عز وجل ويجري أحكامه وأقضيته في الخلق، فإنه يجريها بالكلمة، أي كيف خلق الله الوجود؟ بالكلمة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ [الأنبياء: ٦٩]، كُونِي، فقال: ﴿كُنْ﴾، فإذن كيفية إجراء الوجود بالكلمة.

لكن المخلوق –هذه ليست في الباب ولكن لا بد أن ننتبه لها– لكن المخلوق الذي أوجد بالكلمة ليس هو ذات الكلمة، وإن يسمى هو الكلمة من قبل التشريف، يعني عندما نقول بأن عيسى عليه السلام هو كلمة الله، لا يعني أنه هو ذات الكلمة، إنما هو وجد بمقتضى الكلمة، قال جل في علاه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩)﴾ [آل عمران: ٥٩]، فليس عيسى هو كلمة كن، هو مقتضى كلمة كن، كما أن الله عز وجل قال للجبال: كوني فكانت، فالجبال ليست هي الكلمة، ولكن مقتضى الكلمة، ومن هنا فعيسى كلمة الله، إنما يطلق عليه هذا من باب التشريف، أن أوجد بالكلمة.

لكن قد يقول قائل: كل شيءٍ أوجد بالكلمة، فلماذا اختص عيسى عليه السلام بالكلمة؟ نقول: من باب التشريف، وهذا ذكرناه، وكل البيوت هي بيوت الله، أي هذا البيت هو لله، مملوك له جل في علاه، لكن لماذا يسمى المسجد بيت الله؟ من باب التشريف، هو مملوك لكن من باب التشريف، فالنسبة هنا هي نسبة تشريف، وليست نسبة ملك فقط، وإلا فكل شيءٍ هو ملك الله عز وجل.

القصد: -نعود إلى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم- بأن قول القائل: أعوذ بالله، هي كقوله: أعوذ بكلمات الله، ولكن هنا تشريف للكلمات، كما يقول عز وجل: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى: ١]، تشريف لماذا؟ للاسم، تشريف لهذا الاسم الجليل، ولأن دلالة الاسم على الذات هنا دلالة تطابق، ذلك لأنك تقول: «سبحان الله»، لأن الاسم هو صفة والصفة دلالتها على الذات، لأنها تدل على الله عز وجل، فلا لا يمكن تصور الصفة بلا ذات، لا بأس هنا هذه ليست من قبل فالناس يتساءلون عنها، وأما الكلام عن أن الاسم هو عين الذات وهل الاسم هو المسمى، أو غير مسمى، هذه كلمات لا ضرورة لها كثير، ولكن نحن نعلم أن الاسم هو دليل على المسمى، وليس هو عين المسمى وليس هو المسمى، وإنما الاسم دليل على المسمى، اسم كلمة الحجر ليست هي الحجر، الحجر في حقيقته شيء والاسم شيء آخر، لكن الاسم دليل على المسمى، نحن نقول أعوذ بالله لما نفتتح نقول: أعوذ بالله السميع العليم، أو نقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وهي التي يميل إليها أكثر العلماء ومنهم ابن جرير، لأن هذا هو لفض القرآن، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)﴾ [النحل: ٩٨]، وورد في السنة كذلك صيغ أخرى.

الآن نريد أن نقف عند اسم الجلال العظيم اسم الذات الله الدال على اسم الجلالة، لأننا سنفسرها عند قولنا: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وذكرنا بأن الاستعاذة هي التجاء، خوفاً من الشر، واللوذ هو الالتجاء إلى من يجاب منه الخير، فرق بين الاستعاذة واللوذ، لاذ بفلان، أي ذهب إليه، والتجأ إلى فلان ذهب إليه، لكن الاستعانة ذهابٌ إلى الغير من أجل الأمان من الشر الذي هو مطلوب منه، واللوذ هو الذهاب إلى الآخر من أجل جناية الخير منه، فحين تلوذ بفلان أي أنك تذهب إليه لطلب الخير منه، لكن حين تذهب إلى فلان خوفاً ممن يطاردك فهذه هي الاستعاذة، هذا هو الفرق بين اللوذ والعوذ.

وهذا تكلمنا عنه فقط أنا أمر بسرعة فيها وقلنا بأن من سر هذه الكلمة الاستعاذة أنها تعني أن الذي يقولها يدل على دلالة ضعف من الطالب، لماذا أنت تذهب فتلتجأ؟ لأنك تخاف، فهذا دلالة ضعف، وبينّا بأن هذا الضعف يقتضي أن هذه المعركة أنت لن تربحها معه في قضية الشهوات، لذلك أنت تطلب من الله عز وجل أن يبعده عنك، لماذا؟ لأنه يجري منك مجرى الدم في العروق، فأنت تطلب الهروب منه.

وكذلك الاستعاذة تطلب السكون، وهذه فهمنا منها شيئاً جيداً من كلام ابن كثير رحمه الله، بأنه لا يجوز لك أن تقاتل الشيطان في هذا الباب، يعني لا تذهب إلى ساحته، وضربنا في قول يوسف عليه السلام ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣)﴾ [يوسف: ٣٣]، اهرب فهذه معركة لا يجوز لك أن تخوضها، وضربنا أمثلة في هذا، وقلنا فالذي يريد أن يتحدى الشيطان، انا مستعد أن أذهب إلى معصية ولا أقع إليها، هذا ليس من السنة، اهرب، هذه ساحة الشيطان عليك أن تبتعد عنها، وهذا تكلمنا عنه.

وقلنا كذلك من الأمور المهمة في قضية الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم على ما ذكر ابن كثير رحمه الله، من أن الشيطان لا ينفع معه ما ينفع مع الإنسان، الإنسان ادفع بالتي هي أحسن، يمكن أن تدفع شره عن طريق الإحسان إليه، وعن طريق المعاملة الحسنة معه، وعن طريق مقابلة السيئة بالحسنة، ولكن الشيطان لا ينفع معه إلا الهروب، أي لا تتعامل معه تعاملك مع القط يمكن أن تتقرب منه، إلا ما حصل مع النبي صلى الله عليه وسلم، كقوله صلى الله عليه وسلم: (إلا أن الله أعانني عليه فأسلم)، وهذا ليس لأحدٍ آخر، ما من أحد يطمع أن يسلم شيطانه، واختلف أهلا لعلم في إسلام شيطان النبي صلى الله عليه وسلم، هل أسلم بمعنى إنقاد للنبي مع بقايا الكفر، أم أسلم بمعنى دخل بالإسلام، على قولين لأهل العلم، ليس هذا موطنه.

فإذن تكلمنا عن هذا كله إن شاء الله، وتكلمنا عن كلمات الله التشريعية والكلمات التكوينية والاستعاذة بالله يكون بالأمرين معاً، تستعذ من هنا وهنا، وهنا لا بد أن ننبه، الطريقة التي نتبعها في التفسير، التي سنمشي عليها، ولكن سيلاحظها من يتابعنا، إذا بقي لنا في العمر بقية ووصلنا في الدروس، بأن طريقنا في التفسير ستكون شرحاً للألفاظ، لأنه لا يمكن أن تفهم الآية حتى تفهم المعاني الأولية للكلمة، فهناك كلمات نحن لا نعرف معناها، فنذهب إلى كلام العرب في شرح هذه المفردة، كقول: ﴿الصَّمَدُ﴾، ما هي الصمد؟ فلا بد أن نذهب إلى اللغة، ﴿أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ [الأنعام: ٧٠]، ما معنى أُبسل، ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢]، ما معنى واصبًا؟ فهذه كلمات لا بد أن تعرف معناها في لغة العرب، وكذلك عليك أن تعرف معناها في سياقها الآية، لأن الكلمة العربية لها دلالات، وهذا من شرف هذه اللغة.

وأنبه هنا على نقطة سآتي إليها، من شرف هذه اللغة كما يقول ابن تيمية رحمه الله، وأصلها من كلام الشافعي رحمه الله في الرسالة، «كلما اتسع ذهن المرء اتسعت عبارته»، ما معنى اتسعت عبارته؟ هل بمعنى فقط صار لديك معرفة الألفاظ الكثيرة؟ هل معنى ذلك أن يعرف ألفاظ كثير؟ هذا معنى صحيح، أبو عمر إمام العربية يقول ما وصلنا من اللغة أقل بثلث مما هي اللغة العربية، والناس يتعاملون فقط يمكن في خمسة بالمئة، والمتقن يتعامل بعشرة بالمئة مما هو موجود في لسان العرب، نحن وصلنا أقل من الثلث، ذهب خير كثير من اللغة، فهذا يدل على اتساع لغة العرب.

لكن هذا المعنى ليس الوحيد المقود فيمن اتسع ذهنه واتسعت عبارته، هذه كلمة ابن تيمية رحمه الله، وأصله في الرسالة للشافعي رحمه الله، يقول: «إذا اتسع ذهن المرء اتسعت عبارته»، لماذا؟ لأن اتساع الذهن يعني دخوله إلى مناطق جديدة، هذه المناطق الجديدة تقتضي -للغة- تقتضي ألفاظ، فلا بد من ألفاظ زائدة، لكن مرات الألفاظ نفسها يمكن أن يوسع المرء مداركها، عن طريق الاستخدام، لماذا نقول هذا الكلام؟ لأهميته، الآن سنأتي إليه، لا بد حين تتسع ذهنية المرء ويتسع أفقه ونحن أمام كلام العزيز، نحن أمام كلام الله عز وجل، الذي لا ينتهي علمه، ﴿قُلْ

لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩]، فالله سبحانه وتعالى علمه مطلق، وهذا القرآن هو كلامه، فإذاً الكلمة القرآنية كلمة ذات دلالات، دلالات متعددة.

من هنا مثلاً: يقول شيخ الإسلام رحمه الله في بعض مواطن كلامه وفي كتابه «تفسير آيات أشكلت» وأنا أعتقد أن هذا الكتاب هو آخر ما كتبه ابن تيمية، آخر ما كتبه في السجن هو هذا الكتاب، يقول: بأن الآية في احتمالها للمعاني المتعددة ليس هذا من قبيل الاشتراك، ولكن من قبيل الحقيقة، بمعنى أن اللفظ بنفسه يحتمل هذا المعنى، وهذا المعنى، وكلاهما مرادٌ لله، لكن ما في تناقض طبعًا لأنه كتابٌ محكم، والإحكام يعني عدم وجود التعارض، فلذلك لما يأتي واحد يفسر القرآن بهذا الوجه، وواحد بهذا الوجه، فكله حقيقة، حقيقة واحدة، من أين نشأ هذا؟ من أن اللفظ وضع في سياق يسمح بهذا التعدد.

إذاً لماذا قلت هذا؟ لتعلم أن المعاجم التي كُلفت في اللغة أعجز من أن تستوعب دلالة اللفظ الواحد الذي هو في القرآن، بل إن ما هو أدنى من القرآن وهو الشعر العربي لا تستوعب معاني اللفظ تلك المعاجم الموجودة بيننا، من ظن أن الكلمة القرآنية يمكن أن تفسر فقط بما ورد من معاني لها مستقلة، يعني أنت لما تذهب إلى المعجم هو يطرح الكلمة باعتبار دلالة اللغة فقط وليس القرآن، فمن ظن أن اللفظة القرآنية يمكن أن تفسر تفسيراً تاماً بمعانيها المتعددة بما ورد في المعاجم فهو مخطئ، لأن اللغة أعظم من أن تستوعب بهذه المعاني –اللغة التي هي اللفظ– أعظم من أن تستوعب في داخل المعاجم، وهذا بين واضح في طريقة تفسير الأئمة.

بل أنا قلت وسأعيدها، قلت: بأن لغة المعاجم المفسرة لألفاظ العرب أعجز من أن تستوعب اللفظ في شِعر العرب، أعظم، فشعر العرب يوجد فيه معاني لا توجد في المعاجم، وهذا الأمر أنا أضرب دائماً مثالاً وضربته كثيراً وأكرره لتعرفوا عمق مشكلة العصر، بأن الذين يريدون أن يفسروا القرآن أو يفسروا كلام الصحابة أو يفسروا الشعر العربي لمن هو مهتم به، أن يفسره من خلال المعاجم أنه سيقع في سقطات شديدة جداً، من أجل هذا نحن نقول: «بأن تفسير السلف أولى من تفسير المعاجم»، أي أنا لما أقول: القرآن يفسره العربي هذه كلمة صحيحة، يعني الصحابة رضي الله عنهم لما فسروا القرآن ما مفسروه إلا على وفق لغة العرب، ما خرجوا من هذا المضمار.

فإذاً علينا أن نعود للقرآن من خلال الآلة التي قالها الصحابة رضي الله عنهم، الجواب: هذا خطأ، السبب هو ضيق أفهامنا ومعرفتنا للغة العرب، ومن هنا فحين يقول العلماء المتأخرون: «بأن تفسير السلف أولا من تفسير اللغة»، ليس لأن تفسير السلف خارج نطاق اللغة، وهذا لم يفهمها بعضهم لما قلت: بأن القرآن يفسر على وفق لغة العرب، فأحضروا كلام أهل العلم بأنه، لا، كلام السلف أولى من لغة العرب، في الحقيقة هذه الثنائية المتناقضة لا وجود لها في الحقيقة؛ أي ثنائية تفسير السلف أي الصحابة رضي الله عنهم والتابعين، وتفسير اللغة، هذه ثنائية لكن ليست متناقضة، فحين يقول أحد: القرآن يفسر باللغة العربية فكلامه صحيح، وحين يقول: القرآن لا يفسر إلا

بتفسير السلف كلامه صحيح، وليس هناك ثمة تعارض ولا يجوز لأحد أن يقول: بأنه لا ينبغي أن نفسر القرآن تفسير العرب، نقول: لا، القرآن لا يفسر إلا بلغة العرب، ولكن بشرط اتساع لسان المفسر ليستوعب لغة العرب الذي يفسر به القرآن.

ومن هنا ضرورة العودة إلى ما قاله السلف، ضرورة العودة، لماذا؟ السبب؛ لأن المعاجم المعاصرة التي كُتبت –منذ أن كتب العين إلى ما بعدها– أعجز من أن تستوعب المعاني التي ورد فيها القرآن، بل والمعاني التي ورد فيها الشعر، لهذا الكلام أضرب لنا مثالاً بعيداً لنفهم، أنا دائماً أضرب مثالاً بالكلمة التي وردت في صحيح البخاري، وهي كلمة (هجر النبي)، تسمعونها؟ عندما يقولوا الشيعة: بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (قالَ ابنُ عَبَّاسٍ: يَوْمُ الخَمِيسِ، وما يَوْمُ الخَمِيسِ، ثُمَّ بَكَى، حتَّى بَلَّ دَمْعُهُ الحَصَى، فَقُلتُ: يا ابْنَ عَبَّاسٍ، وما يَوْمُ الخَمِيسِ؟ قالَ: اشْتَدَّ برَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ وَجَعُهُ، فَقالَ: ائْتُونِي أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لا تَضِلُّوا بَعْدِي، فَتَنَازَعُوا، وما يَنْبَغِي عِنْدَ نَبِيٍّ تَنَازُعٌ، وَقالوا: ما شَأْنُهُ أَهَجَرَ؟ اسْتَفْهِمُوهُ، قالَ: دَعُونِي فَالَّذِي أَنَا فيه خَيْرٌ، أُوصِيكُمْ بثَلَاثٍ: أَخْرِجُوا المُشْرِكِينَ مِن جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَأَجِيزُوا الوَفْدَ بنَحْوِ ما كُنْتُ أُجِيزُهُمْ. قالَ: وَسَكَتَ عَنِ الثَّالِثَةِ، أَوْ قالَهَا فَأُنْسِيتُهَا).

نذهب للروافض والجهلة يقولون «هجر»، يفتح لسان العرب مثلاً باعتباره جمع الكتب المعروفة في اللسان، من الصحاح وغيرها، فيذهب فيجد كلمة الهجر، هجر الكلام أي سيئه، هكذا يجد، يجد أن هجر بمعنى يقول كلاماً سيئاً، فيقول كيف يصفون الهجر للنبي صلى الله عليه وسلم؟ كيف يوصف الهجر بواحد صحابي وتقول الصحابة ثقات ويحترمون النبي صلى الله عليه وسلم ويعظمونه ويوقرونه، كيف يقول هجر النبي؟ وهذا كله من الجهل، هذا مما حذرنا منه في الابتداء، هذا حذرنا منه بأن الذهاب إلى لغة العرب، إلى معرفة الكلام من خلال فقط ما يحصره المعجم، هذا خطأ، والدليل هو كالتالي:

الهجر هو: الترك، هجرَ: ترك، دعك من لغة الكلمات في أصل وضعها واحد، بعد ذلك تطبق التطبيقات المتعددة، فحين يهجر المرء حسن الكلام إلى سيئه يقول: هجر، فصار هذا اللفظ في عرف الكثيرين لمن أساء يقول: هذا يقول كلاماً هجورًا؛ أي كلاماً يهجر الصواب إلى الغلط ويهجر الحُسن إلى القبيح، فهل أصل كلمة هجر تدل على هذا المعنى المحصور أم هي مستخدمة من قبل الناس في هذا الباب؟ مستخدمة، وإلا فأصل هجر هي تدل على ترك شيءٍ لشيء، فحملها على ترك الكلام الحسن للقبيح هذا من قبيل استخدام العرب لها، من قبيل استخدام الناس لها، وسأضرب مثال يوضع معنى الاستخدام حتى يصبح هذا الاستخدام أصل، لكثرة الاستخدام له لكن العربي يفهم أنه ليس هو الأصل، نحن لأننا نرث ما يقولونه نظن أنه أصل الكلام.

مثال: كلمة بهلول، واحد بهلول، الآن العرب العامي يسهل الكلمات، فبدل من أن يقولوا بُهلول يبدلون الضمة بالسكون لأنها تتعب الشفتان فيقولون بْهلول، من أجل هذا يبدؤون بالساكن، العوام يبدؤون بالساكن، لماذا؟ أريح،

واللغة العربية لا تبدأ بساكن، فكلمة بهلول، الأصل بُهلول، رجل بُهلول أي الرجل الشريف، الشجاع، الكريم، سيد قومه، ولذلك لما وصلت قريش قال: بهاليل من آل عبد شمس، والنبي بُهلول لما مدح، يعني مدح النبي من أنه البهاليل، لكن الناس استخدموا بُهلول بمعنى المجنون، وهم الصوفية صاروا يطلقونها على مجاذيبهم، فلان بُهلول يعني تعظيم له، الناس لا يعرفون بهلول، غير مستخدمة، فصاروا يظنون أن البُهلول هو المجنون، فنحن نرث ما استخدمت له في بعض صورها.

فكلمة هجر وجد الناس أنها في الشعر وفي الكلام هجر القول هو سيئه، فظن الناس أن كلمة هجرَ تعني الكلام السيء، وأصلها ليس كذلك، الهجر هو الترك، فحين يهجر المرء ما يحب من القول إلى ما لا يحب من القول يقال له: هجرَ، عندما هجر المرء حسن الكلام إلى قبيحه قال: هجرَ، فلما النبي صلى الله عليه وسلم قال الصحابي: أهجر النبي صلى الله عليه وسلم، أراد أنه ترك ما يحب إلى ما لا يحب، لأن النبي صلى الله عليه وسلم، هو يأبى الله ورسوله، أعطاهم كل شرف وذلٍ يكون لله هذا الشخص، لكن أما وقد تخاصمتم وألجأتموني لهذا، فهاتوا كتاب، قالوا: هجر، ترك ما يحب إلى ما لا يحب، بسببكم، فقال: هجر النبي، ففهموا منها ليست مسبة، فهموا منها أنكم ألجأتموه إلى ما لا يحب.

القصد: هذا المثال أضربه وهناك أمثلة كثيرة، أننا نذهب باللغة إلى المعاجم لنقيد كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، هذا غير صحيح، كلام الله سبحانه وتعالى أعظم من أن يحيط به استخدام واحد أو اثنين لما تجد به من وجه.

مثال آخر: سنجده عند تفسير سورة «البقرة»، الريب: هو يريد أن يقرب لك يقول: الريب هو الشك، تفتح كتب التفسير، فتجد ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، يعني: لا شك فيه، ولكن لما أنت تدقق في كلام أهل البلاغة، الشك في العلم، الريب يكون في العمل والعلم، وفسرها بما يمكن أن يحقق القرب لك، لأنه لا يقوم مقام هذه الكلمة كلمة أخرى مثلها، بحيث تؤدي كل المعنى.

من هنا فإن طريقة التفسير هو أننا لا بد أن نعرف الكلمة في أصل وضعها عند العرب، ثم بعد ذلك تنظر إلى استخدامها في هذا السياق، أي لماذا استخدمت في هذا السياق، فهذا تفسير أولي، هذا هي المرحلة الأولى لفهم المراد، فلا يمكن أن تذهب بعيداً حتى تفهم المراد، ثم لا بد أن تفهم المعنى الكلي من الآية، المعنى الكلي مرات يغيب المعنى الجزئي في المعنى الكلي، وفي «دلائل الإعجاز» للجرجاني لما جاء إلى بعض الأمثلة القرآنية قال: -بمعنى كلامه- «وهنا غاب المعنى الجزئي للكلمة ودخل في المعنى الكلي وصار له معنى آخر، جديد».

لما جاء المفسرون لحديث (أَيَأْتِي الخَيْرُ بالشَّرِّ؟)، ماذا قال ابن حجر؟ ذكر عن بعض شراح الحديث، قال: «وهذا المثل لا يمكن أن يفهم إذا جزء»، لا بد أن تأخذه جملة واحدة، إذاً لا يمكن فقط أن تقف عند الكلمة من أجل أن

تفهم المعنى، لا بد أن تفهم المعنى الكلي للآية، ثم أن تفهم هذه الآية في سياق السورة، ولا بد أن تفهم هذه الآية في سياق مثيلاتها، بل هناك ما هو أعظم من ذلك، وهو أن تفهم السورة في سياق مثيلاتها من السور، وهذا من أعظم الأمثلة له الْمُسبحات مثلاً، لا يمكن أن تفسر تلك المفاجئات التي تأتيك في الْمُسبحات، حتى تفهم الْمُسبحات كأنها سورة واحدة، ما هي الْمُسبحات؟ في البداية سورة «الإسراء» وفي النهاية سورة «الأعلى»، الاسراء ثم الحديد ثم الحشر ثم الصف ثم الجمعة ثم التغابن ثم الأعلى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى: ١]، فهذه الْمُسبحات.

وفي الْمُسبحات أنت تُفاجئ عندما يقول الله عز وجل: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤)﴾ [الصف: ١-٤]، وكأن هناك لا بد للمرء أن يشعر أن هناك مقدمة، ما الموضوع الذي يجعل هذا المطلع بهذه السورة؟ لا يمكن أن تفهمه، إلا بأن تضع هذه السورة في سياق الْمُسبحات، وهذه طريقة، وهناك طريقة أعظم، وهي طريقة المناسبة؛ وهي قراءة السورة بحسب ما تقدمها من السور، يعني العلماء من علوم المناسبة، هذا علم نشأ في علوم التفسير، ما معنى المناسبة؟ مناسبة الكلمة للآية، مناسبة الآية لما قبلها ولما بعدها، سياقها وسباقها، مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها، وهذا فن عظيم، ولا يخوض فيه إلا الكبار.

فلو أحد سأل: لِمَ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)﴾ [العلق: ١]، كانت قبل ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١)﴾ [القدر: ١]؟ تجد معاني عظيمة، لماذا تجد ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥)﴾ [الضحى: ٥]، في خاتمة سورة «الضحى»، ومطلعها بعد ذلك ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١)﴾ [الشرح: ١]؟

واضح بأن هناك سياق، لماذا تأتي هي ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١)﴾ [قريش: ١] بعد ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)﴾ [الفيل: ١]، يوجد رابط ومهم، لماذا بعد سورة «المرسلات» تأتي سورة «عمَّ»، هناك رابط.

القصد: أنك كما ترى أن التفسير كأنه مائدة عظيمة جداً، وأنت لما تأتي إليه من جانب فقد أتيت إليه من جزءٍ يسيرٍ جداً وليس من جميع الأجزاء، لا تستطيع، من الصعب على المفسر أن يأتي إلى الآية من جميع وجوه تفسيرها المراد به، هذا يكاد يكون مستحيل، إلا وتفوته جوانب من النظر إليها، ومن أجل هذا أنت تجد في كتب التفسير مناهج للمفسرين، هناك من يأتيها من جانب فقهي، وهناك من يأتيها من جانب لغوي، وهناك من يأتيها من جانب بلاغي، وهناك من يأتيها من جانب تربوي، وهناك من يأتيها من الجانب الموضوعي، وهي جوانب يسيرة جداً جداً مما يقذف على قلب العابد وهو يصلي ويقرأ القرآن، لا يستطيع.

ولذلك المرء في التفسير إنما فقط يأتي إلى زاوية، إلى نقطة يسيرة جداً في هذه المائدة العظيمة، وهو يحاول ألا يتوه، لأنه لو خرج عن هذا لتاه وما عاد يضبط كلامه، لذلك هو يقول: نمشي في هذا الخط من أجل أن يحفظ نفسه لئلا يتوه، وإلا فإن القرآن مائدةٌ عظيمة مليئةٌ بالخيرات والأنوار والهدى، مليئةٌ بالمعاني، مليئةٌ بالعطايا الإلهية، من حيث أتيت إليها شغلتك حتى ملئت عليك كيانك، هذا من عظمة القرآن.

ولذلك بالابتداء –الطريقة التي هي مسلوكة– فقط نأتي للكلمة لأننا في الحقيقة نحن إلى الآن هناك كلمات لا نعرفها، يعني الآن نحن نقرأ القرآن: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣)﴾ [الفلق: ٣]، أنت الآن مهمتك كمفسر أن تعرف ما هو الغاسق، ما هو إذا وقب، فقط، لكن لماذا هذه ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾؟ أنت فقط وقفت على اللفظ، لتفسر غاسق، وما معنى وقب، ثم لماذا يستعاذ بالله منه؟ وما هو فيه من أحداث؟ وكيف هو منّة إلهية؟ وكيف هو سياقه في داخل السورة؟ هذا الذي تستطيع أن تقف عنده في هذا الزمان، وإذا أخذت شيئاً قليلاً ذهبت فقط ولم تتعدى الشاطئ، لا تتعدى الشاطئ، لا تستطيع، إلا ما يقذف الله عز وجل في قلبك وأنت في حال إغشاءٍ من الأنوار.

وهذه مرات تأتي وهذه يعرفها العابدون والناظرون لكتاب الله ربنا عبادةً وإخباتًا وإنابةً وبكاءً بين يديه، يعرفونها، أنه تأتي عليهم من المعاني، هي معاني تغشاهم، وكأنها كما يوصف في بعض الأمثال، كأن النور الذي غشى؛ فلشدة النور أصيب بالعمى، هناك مغارة توصف بمغارة الأنوار، كلما دخلت إليها، ازدت نوراً، وبالتالي ازدت عمى، أنت تأتيك بعض المعاني وتحاول أن تلتقطها من هنا وأن تكونها من أجل أن تصبح لديك علماً في عقلك علماً واضحاً، تستطيع أن تعبر عنه بألفاظ لتعلمه الناس، تقول أنا جاءني هكذا وهكذا.

ومرات هي تأتيك بلحظة عبادة، فإذا ذهبت عن العبادة ذهب عنك هذا المعنى، بعدت عنه وقد كان في قلبك جلياً، بعدت عنه فلا تجده، وكأنه مربوطٌ بالطاعة، مربوطٌ بالإخبات، مربوطٌ بحالة التعبد العالية في الصلاة والسجود والقيام... إلخ.

فنحن نقف فقط على الشاطئ في قضية الألفاظ، نحن نقول أعوذ، هكذا نلتجئ، ولكن لما أنت تقف بين يدي الله تقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فيفتح الله عليك من المعاني ما هو على معنى النور، هذا ينبغي ألا تضيعه لأنه هو مقام اللذة، هذا مقام الذوق، مقام الذوق القلبي لهذا الكتاب العظيم، وهذا الذي من أجله إذا غشيك بكيت، وإذا غشيك تقشعر أبدانهم، جلودهم، يخشع القلب، تبكي العين، وهكذا، ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨)﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨]، تأتي من المعاني على هذه السياقات النورانية التي أنت بحاجة إليها، تمدك، هذه التي تمدك بالثبات، تمدك

بالعطاء، تمدك بذكر الدار الآخرة، تمدك بالمعاني والقيم، تمدك بأن تخرج من الصلاة وأنت عندك الإرادة أنك بعت نفسك لله.

ونرجع في قولنا في ما أمر ربنا ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)﴾ [النحل: ٩٨]، أجلنا تفسير هذا الاسم العلم الدال على الذات جل في علاه وهو الله، حين نأتي لأعوذ بالله، وهنا الباء لم يذكر إمام العربية سيبويه في كتابه الكتاب إلا أنها للإلصاق، حين تأتي الاستعانة وتأتي غيرها، ولكن المعنى الأول التي تشتق منه أكثر من اثنا عشر معنى للباء كلها ترجع إلى أن الباء للإلصاق، بعد ذلك للإلصاق استعانة، أنت تستعين بشيء تلتصق به، أستعين بالله، فهنا الباء للاستعانة، ولكن لا يمكن أن تقع الاستعانة إلا بالإلصاق ولذلك لم يذكر سيبويه في كتابه إلا أنها للإلصاق.

نحن نبحث في الباء! انظر هذه اللغة! نحن نبحث في معنى الباء! انظر هذا الحرف الذي يذكر أهل البلاغة من معانيه أكثر من اثني عشر معنى، ويمكن كلها أن تعود كما قلنا لما ذكره إمام العربية سيبويه رحمه الله أنها للإلصاق، فأنت تلتصق، تلتجئ بالله عز وجل.

وهنا تستعيذ بالله من الشيطان، تستعيذ بالله لأي شيء؟ من الشيطان، آمنا، لكن تستعيذ بالله في ماذا؟ من الشيطان، نعم، لكن ما الذي تريده؟ استعيذ بك قارئاً، أستعيذ بك في ماذا؟ قارءً، عاملاً، ذاهباً، ماشياً، هنا تستعيذ به في ماذا؟ تستعيذ بالله قارئاً من الشيطان الرجيم، وقلنا بأن حالة الاستعاذة هذه هي من أجل منع إيحاء الشيطان لحالة التنزلات الإلهية على قلب المؤمن خلال قراءته القرآن، وذكرنا مسألة مهمة -أكررها هنا- بأن العبد المؤمن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم له في كل ما يعمل من أعمال التعبد حالة مشتقة من حالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أي الأصل هو أن كل المعاني الإيمانية العظيمة أين تنزل؟ أول ما تنزل أين؟ على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، ثم تأتي الأمة بعد ذلك وتأخذ من هذا المحيط العظيم، تأخذ منه السواقي والأنهار والجداول، فمكثرٌ ومستقل.

فلماذا نحن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم؟ كما أن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)﴾ [الحج: ٥٢]، هذه الحالة النبوية يعيشها كل عابدٍ بحسبه، وحتى لا يحصل هذا، كما أن الشيطان يحاول أن يُنزل مع القرآن قرآناً آخر على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، فيحجبه ربنا، يمنعه الله عز وجل من أن يأتي بهذه الإيحاءات الشيطانية، في حالة تنزل القرآن، هذا المعنى موجودٌ في حالة كل عابدٍ مسلمٍ متبعٍ لمحمد صلى الله عليه وسلم، أنه كلما قرأ القرآن جاء الشيطان ليُنزل عليه المعاني الباطلة، هو لا يستطيع أن يُنزل كلمات باطلة، هو يقرأ، ولكن الشيطان يأتي لُينزل عليه المعاني الباطلة لترد على قلبه من القرآن، فالإنسان ماذا يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

فاستعاذة العبد بربه من الشيطان لئلا يحصل في قلب العابد القارئ المعاني الباطلة حال قراءته القرآن، فيقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

فما دام أن الشيطان يستعاذ منه، فهذا دليل على أنه قوي، فكيف قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)﴾ [النساء: ٧٦]، وقلنا بأن ضعف الكيد الشيطاني سببه سهولة رده، لسهولة رده، يعني الآن أنت تجد المرض العظيم إذا تمكن من العبد أهلكه، يمكن يحتاج إلى الاستئصال، لكن يقول لك: « درهم وقاية خير من قنطار علاج»، لأنك تتقي بطريقة سهلة ميسورة، سهلة، فالمرض العظيم إذا اتقي، اتقي بسهولة، لكن إذا تمكّن حين إذٍ تكون الصعوبة، فوصفه بأن كيد الشيطان ضعيف، لما يمكن رده ومنعه، لكن إذا تمكن من صاحب الهوى، كل يوم يطلع بشبهة، إذا جاءت المعاني الشيطانية والجاهلية في قلب العبد، ما الذي يخرجه منها، ما من بدعة تخرج إلا ويأتي ببدعة غيرها أكبر منها في قلبه ولا يرجع إلى ما كان عليه حتى يرتد السهم من فوقه، هكذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم المبتدع، قال: (لَا يَرْجِعُونَ حَتَّى يَرْتَدَّ عَلَى فُوقِهِ)، السهم إذا أطلقته هل يخرج إلى الأمام أو يرجع إلى الخلف، إذا سحبته فهو يمشي للأمام، فلا يمكن أن يرجع هذا عن بدعته حتى يرجع السهم من مكان خروجه، هل يرجع السهم من مكان خروجه؟! فلذلك وصف أنه لا يعود، هذا إذا تمكن في البدع، انظر كيف أن كيد الشيطان ضعيف بالنسبة لوجود الحِرز الإيماني في أثره، وكيف أثر الشيطان في وسوسته بعد تمكنه.

وقولنا نحن: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، الشيطان هو اسم لكن هذا الاسم إنما اشتق من معنى، كلمة الشيطان هذا اسم الان عندنا، فإذا قيل: الشيطان دل على اسمٍ معين، ولكن هذا الاسم هو وصف وهنا نأتي للقضية التي ذكرناها بأن الأوصاف ترتقي إلى درجة الأسماء، كيف؟

مثال ذلك: هذا يعود كذلك لم ذكرنا من كلمة هجر، مثال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢]، لو سألت فلان، يقول لك: فلان توفي، وفي الحقيقة توفي لا تعني الموت في أصلها لا تعني الموت، توفى من الاستيفاء وهو الانتهاء، واحد قال: وفني ديني، أي أنهي هذه القضية التي بيني وبينك وهي الدين، تقول له: أوفني، فيقول لك: أوفيتك أي أعطيتك كل ما كان بيني وبينك فانتهت القضية، فالوفى أصلها مأخوذة من الاستيفاء، ولأن الموت استيفاء عمر المرء، استوفى خلاص أنهى عمره، أنهى ما له من في هذه الدنيا من مأكل ومشرب وتنفس وعمره انتهى، فلذلك لما كان الموت استيفاء فصارت كلمة الوفى اسمٌ للموت بالرغم من أنها صفة له، وهي ليست كذلك.

ولذلك لما جاء القاديانيون ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، أني متوفيك لا تعني إني أميتك هنا، قالوا: لا، متوفيك يعني أماته أي أن عيسى عليه السلام مات، وهذا ما قالته المجانين، فمعنى متوفيك أي مستوفيك، مستوفيك أي أخذك إلي، وليس بمعنى أميتك.

فالشيطان هو وصف من الشطط وهو البعد، الشيطان أخذت من الشطط ومنه أخذ الشط والشط أخذ كذلك لأنه بعيد عن السابحين بعيد عن السفن وإذا أرادوه مشيًا بالسفن فالشط بعيد، فهو قال: شط فلان يعني ابتعد، فهذا شططٌ من القول أي بعيد من الحق بعيد من الصواب، فلذلك لما كان الشيطان بعيدًا عن الحق سمي شيطانًا والألف والنون انتبهوا هنا الألف والنون هذه مهمة في العربية لا يأتي هذان الحرفان في اللغة إلا دل على المبالغة الشديدة، كما يقول لك: عطشان فرق أن يقول لك، أنا عطش، الناس الآن يقولوا عطش وعطشان عندهم واحد لا يوجد فرق، لكن العربي يفهم أنا عطش أي ليس عطش شديد، لكن لو قال: عطشان فدلت هذه على المبالغة الشديدة.

ومن هنا فكلمة الرحمن كما سيأتي هي أبلغ من رحيم، لماذا؟ لوجود الألف والنون هذه يسمونها الألف والنون للمبالغة.

فالشيطان هو شطَ ولكن لما كان بعيدًا قيل له: شيطان، فأين ابتعد هذا؟ ابتعد عن الحق، ابتعد عن رحمة الله، ابتعد عن الحق هو السبب، ابتعد عن رحمة الله هي النتيجة، العاقبة، ولذلك هو شيطانٌ ببعده عن الحق وشيطانٌ ببعده عن رحمة الله ببعده عن الحق هي السبب المؤدي إلى بعده عن رحمة الله، وهذا يعني أنه لن يأتي منه خير، ما الذي نستفيده من كون هذا المخلوق شيطان؟ وهو ألا نأخذ منه، ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠)﴾ [الكهف: ٥٠]، لا نأخذ منه هذا بعيد عن الحق لا يأتي منه الخير ابدًا لا يمكن أن يكون ناصحًا.

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة: (صدقك وهو كذوب)، لماذا؟ لأنه يريد أن ينقذ نفسه، هو يريد أن يدفع ثمنًا من الحق لينقذ نفسه، لكن الشيطان لا يمكن أن يأتي ناصحًا، وهناك مثل انكليزي يقول: «كم يُخيفني الشيطان عندما يأتيني ذاكرًا اسم الله»، لا يأتيني ذاكرًا اسم الله إلا ووراءه مصيبة، يعني ممكن الشيطان أن يأتيك بالخير ليصرفك عن خير أكبر منه؟ يمكن أن يأتيك بالخير من أجل أن يوقعك بالشر؟ الجواب: نعم، والعاقبة عنده، مثلاً يقول لك: افعل هذا الفعل فهو خير لك من أجل أن يصرفك عما هو أعظم منه، الشيطان تاجرٌ ذكي، فهو إذا لم يستطيع أن يوقعك بالسيئة فلا بئس أن يبعد عنك هو أحسن لِمَ هو حسن، المهم استفاد منك.

وتأمل الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (إن الشيطان ليفرح إذا تثائب ابن آدم)، يضحك، تأمل في هذا الحديث أن الشيطان يفرح ويضحك عندما تتثاءب، والشيطان لا يمكن أن يضحك إلا لأمر، لماذا يضحك؟ في شيء، ولذلك العطاس من الرحمن والتثاؤب من الشيطان، فانظر إلى هذا أن الشيطان لا يمكن أن يتركك من غير صيد لابد أن يستفيد، هو يريد في نهاية الأمر أن يوصلك إلى جهنم وبئس المصير إلى الكفر النهائي لكن هو مرات يعرف أن الذهاب بك من قمة الإيمان إلى قعر جهنم هذه رحلةٌ طويلة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [النور: ٢١]، خطوه، خطوه، مثل التطبيع تسمعون بكلمة التطبيع؟ تطبيع خطوة، خطوة.

قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣٠]، ماذا قال له: ﴿فَطَوَّعَتْ﴾، انظر إلى كلمة طوعت بخلاف قول يعقوب عليه السلام قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾ [يوسف: ١٨]، من أدق وصف الإنسان للإنسان أم وصف الله عز وجل للإنسان؟ وصف الله عز وجل للإنسان، غضبان يعقوب عليه السلام قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾، بالرغم من أنهم قعدوا وتناقشوا، ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩)﴾ [يوسف: ٩]، فتناقشوا، يعني ليس بالتسويل القوي، لكن يعقوب عليه السلام قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ [يوسف: ١٨]، لم يقتلوه، من أشد جرما ابن آدم القاتل ولا إخوة يوسف من أشد جرمًا؟ ابن ادم القاتل، فلو كان وصف الإنسان للإنسان لقال: بل سولت لك نفسك قتل أخيك ولكن الله سبحانه وتعالى يعلم فقال: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾، الله عز وجل يقصد لم يأتي إليه هذا الشر دفعةً واحدة، طوعت له، كأنك طوعت الشيء جئت به قاسياً فصار طّيعاً بين يديك ولا يمكن أن يكون طيعاً بين يديك حتى يمر بحالة المقاومة، بخلاف ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾.

هنا إذًا الشيطان ليأخذك من حالة الطاعة إلى حالة المعصية لا يأتي دفعةً واحدة، ولذلك انت اقطع عليه، من هنا جاء الأمر لقوله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ الحلالَ بيّنٌ وإنَّ الحرامَ بيّنٌ وبينهما أمورٌ مُشتبِهاتٌ لا يعلمهنَّ كثيرٌ من الناس فمنِ اتَّقى الشُّبُهاتِ استبرأ لدِينِه وعِرضِه، ومن وقع في الشُّبهاتِ وقع في الحرامِ)، وقوله صلى الله عليه وسلم: (مازال الرجل يتأخر حتى يأخره الله)، خطوة، خطوة، ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [النور: ٢١]، واحدة، وأنتم ترون الناس هكذا.

مثال: وهو مثال واقعي نجد المرء إذا أخذت من لحيته، كيف يبدأ بها؟ قليل، قليل، بعد ذلك طوعت له نفسه وبعد ذلك أي في نهاية العاقبة يصبح ما كان مُنكرًا له في الابتداء مقبولاً له في الانتهاء، وهكذا يكون إذا تخلف عن تكبيرة الإحرام تعب وغضب ثم بعد تكبيرة الإحرام ثم يدرك ثم يذهب فيجد الصلاة منتهية ثم يصلي في البيت ثم يترك السنن وهكذا حتى تصبح الصلاة عالية فحينئذٍ يسهل قصفها والانتهاء منها فيؤجل ويأخذ بفتاوى الفقهاء بجمع الصلاة ثم يأخرها ثم يصليها صلاة بعض الحكام يجمع خمس صلوات بعد العشاء ثم بعد ذلك يتركها تستثقل نفسه عليه.

القصد: بأن هذا الشيطان هو بعيدٌ عن رحمة الله، وكذلك سمية شيطان أنه هذا مبالغة أنه ليس فيه الخير قط، لا تقبل منه نصيحة لا تقبل منه موعظة لا تقبل منه كلمة، اقطع عليه أعوذ بالله منك وانتهى، وكذلك اعلم أنه بعيدٌ عن رحمة الله عز وجل فهو شيطان.

الآن هذا وصفه الذاتي، إلى أن جاءت العقوبة هو ليس فقط شيطان كذلك رجيم هذا شيطان هو بعيد عن رحمة الله ولكنه كذلك رجيم، والرجم هو القذف بالعذاب، واحد يقذف بالعذاب فهذا رجيم وهي مأخوذة من الرجم، الرجم وهو الرمي بالعذاب، قد يرجم بالكلمة قد يرجم بالحجارة ... إلخ، وهكذا، فالشيطان حاله أنه بعيدٌ عن رحمة

الله، بعيدٌ عن اعطاء الخير للناس، بعيدٌ عن وجود الخير فيه، والواجب على الأمة أن ترجمه، أن تبعده، أن تطرده، فهو رجيم هذا هو وصف الشيطان.

وبلا شك أن اسمه هو الاسم العلم له هو إبليس، ومعنى كلمة إبليس هي من أبلس يعني يأس الإبلاس معناها اليأس، فهل اسمه صار دلالة صفة لهذا المعنى؟ لأنه يأس من رحمة الله فصار اسمه دلالة على اليأس وهذه مسألة لغوية ما هو أصل الكلام هل هو الفعل أم المصدر على خلاف بين المدرسة البصرية تقول: أنه المصدر والمدرسة الكوفية تقول: أنه الفعل، فهل هذا إبليس لما كان اسمه إبليس فصار دلالة على كل من يأس من رحمة الله فاشتق من اسمه صفة الإبلاس أم لأنه أبلس أطلق عليه صفة إبليس؟ الله أعلم أن الأولى هي الأقرب للصواب؛ أنه هو اسمه إبليس فلما كان كذلك صار اسمه صفة لمن بعده، فنحن نقول هو إبليس، واسمه بلا شك ورد في القرآن أنه إبليس، فلذلك نقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

وقد يقول قائل: أنت تستعيذ بالله من الشيطان فهل هذا استعاذة من كل شيطان لأن الشياطين كُثر في هذا وهذا داخلٌ فيه يعني الشيطان هذا الاستغراق بمعنى أن تستعيذ بالله من كل شيطانٍ رجيم، طبعًا وقولنا إنه شيطان أنه بعيد عن رحمة الله، بعيدٌ عن وجود الحق فيه وأنه رجيم هذه مع أنها اعتقادات كذلك أوامر أي عليك أن تعتقد هذا وألا تطيعه لأنه لا يأمر إلا بالشر ولا يأمر بالخير قط، وكذلك أن ترجمه بما هو مذكورٌ بكتب السنة وذلك بالاستعاذة بالله منه وعدم طاعته وإغلاق أبواب الشر عليه.

مثال إغلاق أبواب الشر عليه: أن المرء إذا دخل بيته قال: بسم الله، قال الشيطان: لا مبيت، فإذا أكل قال: بسم الله، قال الشيطان: لا مبيت ولا طعام، وهكذا، إذا نام العبد عقد الشيطان على قافيته ثلاث عقد عليك، ليلٌ طويلٌ فارقد، هذه أنت تقاومها لما تقوم من النوم تذكر الله ثم تتوضأ تكون الحلة الثانية ثم تصلي ركعتين ومن هنا يسن أن يبدأ المرء قيام الليل بركعتين خفيفتين ثم يصلي ما شاء له.

هنا لا بد من كلمة أن الكثير –وهذه نبه عليها الكثير من الأئمة– أن الكثير من الناس ينظرون إلى الجانب الشرعي في الأوامر أي بما يترتب عليها من حسنات وما يترتب عليها من دخول جنان وما يترتب عليها من أجر أخروي، حسنات أخروية، لكن لا ينتبهون إلى الجانب القدري للأمر والنهي وهذه يجب أن ننتبه لها أيها الإخوة الأحبة، يعني في القلب أشياء كثيرة حول هذه الكلمة.

من منافذ هذا الأمر هو هذه الكلمة أنت لما تقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، أنت أولاً طبقت أمر الله عز وجل في قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)﴾ [النحل: ٩٨]، فاستعذت فطبقت أمر الله فأنت لك الأجر، لكن لماذا لا تلتفت إلى الجانب القدري؟ ما هو الجانب القدري؟ أي لما تقول أنت: «أعوذ

بالله من الشيطان الرجيم» ما الذي وقع من الأقدار غير أنك امتثلت لأمر الله عز وجل فكانت لك الحسنة أو ابتعدت عنك السيئة ما الذي تحقق لك من الخير؟ أين الجانب القدري؟ الجانب القدري هو وقوع ما أمنته من ربنا جل في علاه، هذه لا نلتفت لها أن تقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» أي وقعت حِصانة ربانية عليك بأن لا يأتي الشيطان عليك وأنت تقرأ القرآن.

من هنا تكون الطاعة هي جانبٌ قدري لتحقيق المنافع لك ودفع الأعداء عنك، وهذه الناس لا يفهمونها، أنت لما تقول للمرء: لا تشرك بالله هذا كفر، فهو ينازعك، كفر أو غير كفر، يا رجل -لما تنصح هذا المرء- أنا أعطيك هذا الأمر حتى لا تقع في الهزيمة، لا أتكلم عن جانب أنك أنت كفرت أم لم تكفر، إن كان هذا الأمر لا يهم لديك من جهة أنه كفر أو غير كفر، فأعلم أنه معصية والمعصية هي السبب للهزيمة، بأن تحقق عندك أسباب الهزيمة، أي ينبغي على العاقل حين يقال له: هذا يضرك كضرر السم ببدنك، أن تتركه لهذا الجانب حتى لو لم يكن هناك إثم.

كما في الحديث: (أنَّ رَجُلًا أَكَلَ عِنْدَ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ بشِمَالِهِ، فَقالَ: كُلْ بيَمِينِكَ، قالَ: لا أَسْتَطِيعُ، قالَ: لا اسْتَطَعْتَ، ما مَنَعَهُ إلَّا الكِبْرُ، قالَ: فَما رَفَعَهَا إلى فِيهِ)، فماهي نتيجة ترك السنة؟ شلت يده، فالقرآن يبين أن المعاصي هي سبب الهزيمة هي سبب الخذلان، أنت لما تدخل بيتك أنت تقول: بسم الله أخذت أجر هذه حسنة، ولما أكلت قلت: بسم الله، هذه حسنة بسم الله ذكرت الله حسنة، لكن ما الذي تحقق من الجانب القدري؟ امتنع ذهاب البركة من طعامك أي امتنع وجود المرض في بدنك من أكلك هذا الطعام بتسميت الله عليه.

فلما أنت تقول للرجل في سبيل دينه وهو يعمل سواء في الدعوى أو أي جانب من الحياة تقول له: لا تعصي إياك والمعصية ينبغي أن يفهمها فوق درجة العابد بطاعته لربه أن يفهمها بأنها منعٌ له في أسباب حصول الخسران فيما يعمل، أنت لما تقول: لا تأكل الربا هو ينظر مسكين لجانب الإثم فقط، الله يغفر لنا، وهذا من غباءه هو ينظر أنه أكل الربا ويقول: أتوب بعد ذلك فيذهب عني الإثم، هذا من قمة الغباء لأنه لم يلتفت إلى الجانب القدري في هذه المعصية وهو أن الجانب القدري في هذه المعصية أنه سيخسر.

وعندما يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (اليمينُ الكاذبةُ مُنفِّقَةٌ للسلعةِ مُمحِقةٌ للبركةِ)، السلعة تذهب هو في النهاية يقول: أنا احلف وتمشي تجارتي ويتحقق الربح، ه في الحقيقة لم يتحقق الربح هو تحققت الخسارة، لا أتكلم من جهة الحسنة والسيئة، أتكلم من جانب تحقيق المنفعة الدنيوية فالمعاصي هي خسارةٌ للإنسان، الآخر يناقشك: لا، لا هذه ليست كفر، هذه ليست معصية، فأنت تنصحه كي لا يقع في هذه المعصية حتى يتحقق له مراده في هذه الحياة، ما مرادك؟ مرادك إذا كنت في قتال فتنتصر، مرادك إن كنت في تجارة أن تربح، مرادك إن كنت في زواج أن ترزق الولد وأن تسعد في زواجك، ما الذي يحقق لك هذا؟ هو الطاعة؛ لأن الطاعة لا تورث فقط الحسنة والسيئة إنما تورث العاقبة الحسنة لك.

ولماذا ذكرت هذا؟ ذكرت هذا لأن قصتنا نحن أي بني آدم مع الشيطان في أول لقاء صراع بيننا وبينه كانت النتيجة هكذا، عندما الشيطان جعل والدنا وأبانا يأكلوا من الشجرة الملعونة من الشجرة المذكورة في القرآن التي هي في الجنة، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾ [البقرة: ٣٥-٣٧]، غفر له ذنبه، انتهى الإثم خلاص، لكن ما الذي تحقق؟ العاقبة القدرية على هذه المعصية.

وهذا دليل أن العاقبة الشرعية للمعاصي ترفع إذا وجدت التوبة النصوح، ولكن العاقبة القدرية لا يمكن إلا أن تصيبك، إذا أنت أكلت الربا لا يمكن إلا أن يمحق الله الربا، لا يمكن إلا أن يمحق مَالُك، لكن تتوب ذهبت السيئة، لكن في الدنيا لا بد أن يمحق، لو أن رجلاً أكل الربا، ثم بعد ذلك تاب، فحسنت توبته، لا بد أن يجري عليه الحكم القدري وهو يمحق الله الربا، هذا حكم قدري وهذا الذي وقع، فآدم عليه السلام تاب إلى الله، ما قال له خلاص الآن تبت نبدأ من أول وجديد لا نخرجك من الجنة! وقع عليه الحكم القدري مما يدل على أن العقوبة القدرية هي حتمٌ وهي التي يقال فيها: ولن تجلس في انتظار هذا اليوم، ستمشي في إطارها السني ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود: ٥٦]، رغم أنف الذي يتوب أو الذي لا يتوب التوبة وعدم التوبة تتعلق بالحسنة والسيئة والعاقبة الآخروية، العاقبة الدنيوية ماهي؟

مثلاً: الآن نحن جئنا في هذا الزمان وتبنا من معاصي أباءنا وأردنا الجهاد هل نخرج مما نحن فيه من الحكم القدري بأننا في حالة عجزٍ من مواجهة عدونا، لما قال الله عز وجل لبني إسرائيل: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦]، لو أن بعد قوله هذا تابوا هل ينتهي التيه أربعين سنة، أم سيدخلونه رغم أنوفهم، سيدخلون التيه أربعين سنة حتى لو تابوا، في أول يومٍ حصل التيه، هذه العقوبة القدرية هذه لا مجال للهروب منها.

فلذلك لما أنت تتعامل مع الشيطان عليك أن تكون حذرًا، لما تقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ليس فقط لتحقيق الحسنة وابتعادك عن السيئة ولكن من أجل ألا يتحقق الشر فيك لأن مقصد الشيطان هو أن تخسر، ولذلك أنا أقول وأختم بهذه الكلمة، أقول: من أعظم ما يلد على عقل الإنسان أن الشيطان ينصح أولياءه لينتصروا، هذا غلط، بعض الناس يظن أنه ما دام الشيطان هو ولي للكافرين إذًا هو ينصحهم ليحققوا النصر، يأتيهم يقول لهم ديروا بالكم أنتم جماعتي، هذا الأمر لا تفعلوه وهذا الأمر افعلوه، هذا غلط.

وهو –الشيطان– بحسب خبرته التاريخية –الشيطان خبير تاريخي– وهو دارس السنن الإلهية حافظها عن غيب، يعني يعرف ما الذي يحقق النصر، ما الذي يحقق الهزيمة، ما الذي يحقق الرزق، هو خبير جرب البشرية، مرت عليه، ومن ظن أن الشيطان ينصحه ليحقق الرزق والربح هو خسران، ومن ظن أن الشيطان ينصح أولياءه ليحققوا النصر

فهو غلطان، واحد يقول: لا، الشيطان هو نصحني من أجل أن أنتفع في الدنيا وبعدها ندبر حالنا في الآخرة، وهذا واهم، والدليل ما الذي فعله الشيطان في بدر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨)﴾ [الأنفال: ٤٧-٤٨]، هو يعلم أن هذه الدموع لن تنتصر، هو عارف لكن ليموتوا على الكفر، هو فرح أنهم هزموا وماتوا على الكفر، لأن هذا الذي يريده.

فالشيطان هو دائماً في كل فعل وفي كل حدث، يقول لك: كل الربا، بعد أن يأكله يقول: إني بريءٌ منك، ويقول له: أين أنت؟ أنت الذي دعوتني لأكل الربا، أنت الذي دعوتني لشرب الخمر، يجلس ويضحك عليه، هو لا يحبك، ولذلك هو لا يدعوه لأخذ السنن التي تنفعه في هذه الدنيا، لأن السنن التي تنفعه في هذه الدنيا هي الطاعة، نحن نسميها الطاعة، ولو أغفلت جانب الحسنة والسيئة لما وجدتها إلا السنن النافعة في الوجود في تحقيق مراد الإنسان وهدفه ومقصده.

فإياك أن تظن أنك إذا حالفت الشيطان دلك على ما ينفعك في الدنيا، حتى ولو كان في ذلك خسران الحسنة والسيئة، هذا من قاله هو من أجهل الخلق، ولا يعرف الشيطان، ولا يعرف تاريخه في القرآن ولا يعرف تاريخه مع أوليائه، هو يتمنى أن يشرب الخمر من أجل أن يضحك عليه، حتى إذا بال على نفسه وتبرز على نفسه وتلعب به الصبيان، وصارت حاله بلا إنسانية الإنسان، جعل الشيطان يضحك، هو يعرف، وهذه العاقبة يعرفها، وإذا أراد الخير لنفسه فيما يحقق القوة، صرفه لا يريه الشيطان، الشيطان عدو للإنسان، الله عز وجل قال عنه: أنه عدو، وهل عدو ينفع عدوه؟ لا ينفعه، بهذا أيها الإخوة الأحبة أختم، أسال الله سبحانه تعالى أن يجزيكم خير الجزاء وأن يبارك فيكم، وإن شاء الله في الدرس القادم نبدأ في «بسم الله الرحمن الرحيم» وبهذا نكتفي والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: هل ما حصل لحزب النور والنهضة عندما قلت من خداع الشيطان؟

الشيخ: بلا شك الأخذ لما يستنفذ الشيطان أغراضه من العابدين له والطائعين له يرميهم كالقمامة، ينتهي منهم يصرفهم، ولا يتركهم من أجل أن يهتدوا ويتوبوا، التوبة كذلك هو لا يقبلها، ولكن يبقى في حالة إيحاء لهم ودعوتهم للشر، يعني بلا شك أن الذي وقع في حزب النهضة، قبل هذا في الحقيقة، الذي وقع فيه كبيرة من الكبائر، وهو أصلاً أتى المكفرات من أبوابها، حزب النهضة في تونس، في عدم دعوته إلى تحكيم الشريعة، وكذلك ما فعله حزب النور، انظر الآن كيف رموهم، كيف الشيطان استنفذ أغراضه منهم في واد وأوقعهم في شر ما هم فيه، ولكن نسأل الله أن يتوبوا لعل في ذلك غلبة للشيطان وقبول لهم، ولكن كما أقول إن الفعل القدري قد وقع، وإن مناصرتهم للطاغوت وللشرك وللمعصية، قد وقعت وأثارها ستكون طويلة الأمد على عالم المسلمين، وأما التوبة فهذا لا يجوز لنا ولا لغيرنا أن يحبسها عن أحد.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الرابع: شرح البسملة

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أيها الإخوة الأحبة هذا هو الدرس الرابع من دروس التفسير، وقد فرغنا من الاستعاذة بما تيسر، وإلا فكلمات ربنا سبحانه وتعالى لا يبلغها قاموس البحر وفيها من العظمة بما كان.

والآن نحن مع البسملة كما يقولون فيسمون بسم الله الرحمن الرحيم: البسملة، وهذه البسملة أي بسم الله الرحمن الرحيم عليها مسائل كثيرة وفيها مباحث متعددة نسأل الله عز وجل أن يعيننا على تزهية بعضها بما أمكن في هذه الدروس.

إن من الثابت أن الصحابة رضي الله عنهم أثبتوا البسملة في القرآن، لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يجردون القرآن عن غيره، ويمنعون إضافة أي كلمة في داخل المصحف، القرآن كتب كما تعلمون في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وجمعه الصديق من ما كان يكتب عليه من أمور متعددة، فجُمع في بيته، ثم تنقل حتى وصل إلى بيت حفصة رضي الله عنها، حتى جاء عثمان رضي الله عنه، ونسخه نسخاً واحداً، وجمع الناس على الرسم العثماني، والصحابة رضي الله عنهم أجمعوا على هذا الرسم، ومن خالف لأسباب خاصة به كبعض ما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه فإن هذا الخلاف هذا قد رفع وانتهى الأمر إلى إجماع الصحابة رضي الله عنهم وإجماع الأمة، وبالتالي أجمعت الأمة على أن البسملة للتسمية هي مما أثبت صورةً ونسخاً في القرآن الكريم، ولم تضاف إلى الرسم العثماني، بل كتبت في الرسم العثماني.

الخلاف أول ما يبدأ في موضوع التسمية أو البسملة، هل البسملة هي من القرآن أو ليست من القرآن؟ وإذا كانت من القرآن فما هو موضعها؟

إذاً أولاً: المسألة في البداية ثنائية، هل البسملة من القرآن؟ أو ليست من القرآن؟

ثانياً: هذه الثنائية تنشطر في المسألة الثانية وهي مالو كانت البسملة من القرآن فما هو وضعها؟

هناك مسائل اختلف عليها العلم بعد اتفاق كثير منهم أن البسملة من القرآن، قال الكثير من الصحابة والأئمة والعلماء: «أن البسملة من القرآن»، بعد ذلك اختلفوا، ما هو شأن هذه البسملة «التسمية»، هل هي جزءٌ من السورة؟

هذه المسألة افترعت على مسألتين، أي هل هي جزءٌ من السورة؟

الفرع الأول: من قال: بأنها جزء من السورة افترقوا على قولين:

القول الأول: أنها جزء من الآية الأولى، وليست آيةٌ مستقلة.

القول الثاني: لا، هي آيةٌ مستقلة.

الفرع الثاني: ممن قال إن البسملة من القرآن قال: «بأنها من القرآن وليست من السورة».

أعيدها بسرعة: المسألة ثنائية على قولين، هناك من أهل العلم من قال: أن التسمية ليست من القرآن، وإنما هي توضع للفصل بين السور، وتقابل البركة والتيمن، فقط، وهذا قول مروي عن أبي حنيفة رحمه الله وهو قول الأحناف، وهو كذلك مروي عن مالك رحمه الله، وهو مروي عن أحمد رحمه الله، وإن كان الحنابلة لا يأخذون به، وهو كذلك مروي عن الشافعي رحمه الله، والإمام ابن ثير رحمه الله مع نسبة هذا القول للشافعي، إلا أنه استنكره في أن يكون قولاً لأحمد أو قولاً للشافعي، لأن المشهورة عنهما أن البسملة هي جزءٌ من القرآن مما نزل من القرآن.

إذن:

القول الأول: أن التسمية ليست من القرآن، إلا ما جاء في سورة النمل: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١)﴾ إلى قوله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠)﴾ [النمل: ٣٠]، فهذه متفق على أنها من السورة، ولكن هؤلاء قالوا: غير هذه الآية من سورة النمل، فبسم الله الرحمن الرحيم التي في مطلع السور، ليست من القرآن، وليست هي من كلام الله عز وجل، ولهم أدلتهم والكلام على هذا يطول، لكني فقط أذكر أقوال أهل العلم، وأما الأدلة فلها مكانها وهي من المباحث الطويلة والكثيرة والتي كتبت فيها المصنفات.

القول الثاني: إن التسمية بسم الله الرحمن الرحيم، هي مما نزل من كلام ربنا، هي من القرآن، هؤلاء الذين قالوا هذا القول لم يتفقوا بعد ذلك على غير ذلك، صار هنا اختلاف، ما هو الاختلاف؟

قال بعضهم: هذه هي من القرآن وليست جزءً من السورة، هي قرآن، كانت تنزل من القرآن، ولوجود الأدلة أنها من القرآن لحديث ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: «كانَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ لا يعرِفُ فصلَ السُّورةِ حتَّى

تنزَّلَ عليْهِ بسمِ اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ»، فقالوا: تنزل بسم الله الرحمن الرحيم، لكن هي ليست من السورة، لماذا ليست من السورة، قالو انظروا إلى حديث:

(قسمت الصلاة بيني وبين عبدي) فلم تذكر التسمية، (قال: الحمد لله، قال: حمدني عبدي، قال: الرحمن الرحيم، قال أثنى علي عبدي، قال: مالك يوم الدين، قال: مجدني عبدي)، قالوا: إذاً لم تذكر في السورة فهي ليست جزءً من السورة، فهذا قول.

فالقول الأول: أنها من القرآن وليست جزءً من السورة.

القول الثاني: أن التسمية هي من القرآن وهي جزءٌ من السورة، هؤلاء افترقوا على قولين؛ قال بعضهم: هي آيةٌ مستقلة، وقال آخرون: لا، أنها جزء من السورة، وهذا المروي عن الشافعي رحمه الله، ومروية عن أحمد رحمه الله وهو المشهورة عنه في مذهبه.

القول الأول: أنها جزء من السورة وجزء من الآية الأولى، القول الثاني: هي جزء من السورة وآية مستقلة.

وهناك قول ثالث: أنها هي من القرآن، وليست جزء من السورة إلا الفاتحة، هذا قولٌ آخر.

الآن انتهينا من هذه الأقوال، تراجع لكنها بينة، والذي يقوله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على أن البسملة هي جزءٌ من القرآن وليست جزءً من السورة، وهذا قاله ابن تيمية رحمه الله وهو قول في مذهب أحمد رحمه الله، ونصره بعض الأحناف، كابي الحسن الكرخي من الاحناف، ولها في ذلك للعلماء مصنفات لا نأتي إليها، ولكن الذي ينبغي أن يعرف بأن القول الأقوى أنها أي البسملة هي جزء من القرآن، ثم يأتي بعدها الخلاف المحتمل بينهم، لأنها قد ثبتت أنها كانت تنزل، وللأسف هذا الخلاف ألقى بظلاله على الجهر بالبسملة، في الصلاة الجهرية، فأنتم ترون بأن الذين قالوا: بأن البسملة هي جزء من الفاتحة، فهم يجهرون بها، لأنها من الفاتحة، في الصلاة الجهرية، ولهم في ذلك أحاديث وهذا مذهب الشافعي رحمه الله وهو مذهب كذلك من بعض أهل العلم، وهو كذلك الجهر بها، وهناك من قال: بأنها ليست من القرآن فإنهم يسرون بها، وبعضهم قال: هي من القرآن وليست من الفاتحة، فحين إذن قولهم يتردد بين القولين والأغلب على أنهم لا يجهرون بها، لأنها ليست من الفاتحة.

فهذا هو الخلاف في هذه البسملة، والقرآن فيه مئة وأربعة عشر سورة، وفيه مئة وأربعة عشر تسمية، مع أن سورة «النمل» فيها بسملتان، وخلت سورة «براءة» من التسمية، لماذا خلت؟ هذه المسألة ربما نأتي إليها إن شاء الله إذا قدر الله عز وجل أن نصل إلى تفسير «سورة براءة» نفصل فيها إن شاء الله وماهي أقوال أهل العلم فيا وما هو الراجح في هذا الباب.

هذه البسملة هي تطبيق لقوله سبحانه وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)﴾ [العلق: ١]، فقال له ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، فقال: (بسم الله)، وكان النبي صلى الله عليه وسلم كما روي في بعض الآثار وإن كان فيها مقال، بأنه كان يقول أولاً: (بسمك اللهم)، ثم نزل قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، فصار يقول: (بسم الله الرحمن)، ثم لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠)﴾ [النمل: ٣٠]، صار يقول: (بسم الله الرحمن الرحيم).

وهذه التسمية «بسم الله الرحمن الرحيم» هي التي تشرع عند قراءة القرآن، وعند كتابة الكتب والرسائل، وأما غيرها من أعمالٍ يطلب فيها التبرك والتيمن والاستعانة بالله، فلا يقال: الرحمن الرحيم، فعند الأكل لا يشرع قول: «بسم الله الرحمن الرحيم»، إنما «بسم الله»، لم يرد، عند الشرب «بسم الله»، عند دخول البيت «بسم الله»، عند الخروج من البيت، عند دخول المسجد، وهكذا فيشرع فقط «بسم الله»، ولم تشرع «بسم الله الرحمن الرحيم»، إنما الذي يشرع من السنة فقط عند قراءة القرآن، وعند كتابة الرسائل، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كتبها في رسائله، وهي كذلك مثبتةٌ في المصحف الشريف في الابتداء.

هذه «بسم الله الرحمن الرحيم»، للعلماء عليها كذلك مباحث متعددة تتعلق بإعرابها، تتعلق بحروفها، وثم تتعلق بمعانيها، وسنأتي إليها إن شاء الله بالتفصيل.

هذه أولاً: ونحن نرى أنه بسم الله الرحمن الرحيم، وهذه هي الباء، أولاً نقول بسم الله الرحمن الرحيم، فهذا الحرف الذي هو في أول هذه الكلمة وهو الباء، وهذه الباء العلماء وقفوا عندها، والباء لم يذكر سيبويه في كتابه إلى الإلصاق، ثم جاء من بعده وفرع هذا الإلصاق، فمثلاً: الاستعانة، المصاحبة، وهو فقط مشتق مما قاله سيبويه في الكتاب أن الباء للإلصاق، جاء بعضهم وأوصلها إلى عشر معاني، الباء هذه حرف من حروف المعاني، الكلام العربي يقسم كما يعرف إلى ثلاثة أقسام، الاسم والفعل والحرف، فالحرف المقصود به هو الحرف الدال على معنى لا بنفسه ولكن بغيره، فلذلك تسمى حروف المعاني، بخلاف حروف الهجاء، يعني الآن كلمة اسم، سين في اسم هذا حرف، لكن هذا حرف هجائي، لكن لما تقول: في، تقول: بي بسم الله، تقول: على، هذه هي حروف المعاني، هذه للعربية إبداعٌ فيها، والتناوب فيها مجال عمل البلاغيين، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود: ٥٦]، لماذا لم يقل إن ربي بغير على –هذه ذكرناها في لحظات من القرآن– لماذا قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، لماذا قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، والتصليب يكون على جذوع النخل وليس فيها، وهكذا، فالحروف هذه مجال عمل البلاغيين، لماذا يستخدم المتكلم هذا الحرف في هذا الباب؟ وربما يقوم غيره في الظاهر مقامه؟ هذا باب فن البلاغي، وهو مجال الأئمة في التفسير.

فالباء هذا حرف الجر هذا له معاني، واختلف لجماله ولاستخدامه في هذا المقام الجليل من الاستعانة، أو من المصاحبة، اختلف أهل التفسير اختلافًا جميلاً جليلاً، الزمخشري قال: هنا الباء فقط للمصاحبة، وأتى كعادته بكلامه الطويل لإثبات أنها لا تصح للاستعانة، يعني أنت أول ما يتبادر إلى ذهنك أن «با» الباء هنا للاستعانة يعني أستعين بسم الله، تستفتح بأستعين، أقرأ بسم الله، أو بسم الله أبتدئ، على خلاف بين تقدير المحذوف هل هو فعلٌ أم هو مصدر، يعني هل ابدأ بسم الله أم بسم الله أبتدئ؟ على خلاف والإمام ابن كثير رحمه الله جوز الوجهين، واعتبر أن الوجهين هما من وجوه الإعجاز الذي يقوله هذا القرآن.

فهل الباء هذه في بسم الله الرحمن الرحيم، هل هي للاستعانة؟ أم أنها للمصاحبة؟

فانظر أنا الآن سأسوق لكم وجوه كلام أهل العلم لتروا أن لكل وجهةٍ هو موليها، ويقولها من جهة غلبة بعض المعاني على ذهنه، وتفوته المعاني الأخرى، فيأتي الآخر ويرده إلى المعاني، لماذا يا جار الله الزمخشري ترفض أن تكون للاستعانة؟ قال: الاستعانة آلة، عندما نأتي للاستعانة، يقول: استعنت أي كأنها آلة، والله عز وجل أشرف وأجل من أن تستعين به على هذا المعنى، وكذلك قال: ولأنني تعقبت فوجدت أن أغلب كلام العرب يستخدموا الباء للمصاحبة، يصطحبها ولا يستخدمها، ولا يستعين بها، هو أتى على هذه المعاني، وأجّل ما قاله هذين المعنيين، فقط، أن الاستعانة فيها نوع إهانة، وأنها بعبارة أنا تقسيم لأن الاستعانة تكون كأنها آلة، ويقول هو: أنه تعقب فوجد أن الباء أغلب من يستخدمها للمصاحبة وليس للاستعانة.

وهذا لم يعجب من تعقبه في هذه الأبواب، لأن العلماء في التفسير -وهذا أنبه عليه- العلماء لهم مذاهب في التفسير، فهذا الكلام لا يعني كثيراً ابن كثير رحمه الله ولا يلتفت إليه، لا يهمه كثيراً، لأن إبن كثير قلما يأتي إلى الوجوه البلاغية، لكن هذا يعني من يتكلم عن الوجوه البلاغية مثل الرازي، لأن كتاب الرازي «مفاتيح الغيب» عمدة كتابه مأخوذ من الزمخشري، البيضاوي، حتى إنهم يعتبرون أن تفسير البيضاوي هو مختصر للكشاف الزمخشري، يعتني به، وكذلك ممن يعتني بهذه الوجوه كثيرًا هو الآلوسي في «روح المعاني»، وجاء الآلوسي ووقف الزمخشري موقفاً صلباً ورد عليه اختياره، وقال: يا إمام الاستعانة التي تعتبرها إهانة جاء منصوصٌ عليها في القرآن، فلو كانت على معنى الإهانة كما تظن، لما استخدمها القرآن ولما أتى عليها نبي من الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف: ١٢٨]، فلو كان فيها نوع قدحٍ في الجلال الإلهي وفي العظمة الإلهية لما قالها القرآن، فإذاً أسكت هذا ليس هذا الوجه.

ثم قال ثانياً: بأن الاستعانة أولى من المصاحبة حين تقترن العبودية بالربوبية، يعني من أكثر مظهراً لوضع العبد مع الرب، أن يصاحب أو أن يستعين؟ أن يستعين، أنت في مقام العجز، مقام الضعف، مقام فراغك من القوة والحول، فمن أولى أن تستعين أم أن تصاحب؟ أن تستعين، فالأول نظر إلى المصاحبة على أنها شدة القرب، أي

قريب من الله عز وجل، الثاني نظر إلى جلال الربوبية وعظمتها، وضعف العبودية وفقرها، وبالتالي قال: لا، الأولى أن تقول: استعن مادام القرآن ... إلخ.

فكما ترون الملمح الذي أتى إليه مادام أن فيه النص فلا ضرورة لمثل هذا الاستدعاء الذي قال به جار الله الزمخشري، وبالتالي هنا الباء للاستعانة هي الأولى يعني أستعين بالله، لكن هذا المقدر المحذوف ما هو؟ على خلاف كما ذكرت كما قال أهل العلم، منهم من قال: ابدأ بسم الله، ومنهم من قال: بسم الله أبتدئ، والمقدر كما يقول أهل البلاغة والعلم: «المقدر أن يكون تالياً خيرًا من أن يكون سابقاً»، فلما قال الله عز وجل: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ [التوبة: ٤٣]، مقتضى الكلام أن يقدم المعفو عنه، ثم يبين الحال، فيقول: أنت عفا الله عنك أو أنت عفا الله، فلماذا قدم العفو على المخاطب؟ قدم العفو على ذكر المخاطب ليطمئن قلبه، فقال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] فلو قال: ﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ سيخاف القلب، لما أذنت لهم؟ ما الذي بعدها؟ عقوبة؟ ما لذي سيكون؟ فهو طمئنه قبل أن يذكر له الذنب، قال له: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾.

أي التقدمة لها مهمات ولها جلال ولها أهمية، لماذا يقدم؟ ولماذا قال الله عز وجل ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، لماذا لم يقل: وإذ يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت؟ لأن مقام الرجيلين لا يستوي في هذا الحال، من الذي يرفع ومن الذي يبني؟ إبراهيم عليه السلام، والآخر ما هو؟ مساعد له، فليس من الكلام البليغ أن يقدم كلاماً دون أن يبين الحالة بياناً دقيقاً، ويبين مراده على أجلى معانيه، التقدمة والتأخرة، كما يقول سيبويه: «فإن العرب لا تقدم إلا من له الاعتناء».

هذه قال بعض أهل العلم من البلاغيين: هذه قاعدةٌ تزول الجبال ولا تزل، العرب لا تقدم إلا ما له الاعتناء، فتقدم لمقصد، فعليك أن تبحث عنه، لماذا نرفض أن نقول: أبتدئ باسم الله، وإنما تقول: بسم الله أبتدئ، ينبغي أن يكون المقدر المحذوف سابقاً لأن الشرف المستعان به أهم من قضية المعونة، من هو الذي يستعان به؟ الله عز وجل، فشرف ذكره أهم، ولذلك لا ينبغي أن يقول أحد: المقدر هو أبتدئ بسم الله، هذه لا يقولونها ولا يمرون عليها، وأنت عندما تجد كلام أهل العلم في التفريق هل هو خبر أم أمر، أمر يعني ابدأ بسم الله، خبر يعني بسم الله أبتدئ، لا يقولون أبداً، ارجع إلى كتب التفسير، لا يوجد منهم أحد قدر المحذوف بقوله: أبتدئ بسم الله أو أستعين بسم الله، لا يقولونها، لماذا؟ لأنها معيبة، وإنما الشرف أن يقال: بسم الله أبتدئ، بسم الله أقرأ، بسم الله أفعل، وهكذا، لأن المستعان به أشرف وأجل وأعظم من موضوع المقدر المحذوف وهو الاستعانة أو القراءة أو الفعل، فقوله هنا الباء، فأي قول هو الصواب؟ قول الزمخشري في أنها للمصاحبة، أم أنها الاستعانة؟ بلا شك أنها للاستعانة كما يقول الآلوسي رحمه في «روح المعاني».

الآن هذه الباء أنك أنت تستعين بالله، لأي أمر؟ قلنا هناك مقدر محذوف بسم الله، لأي شيء أستعين؟ أستعين بالله عز وجل لأقرأ، وهي تطبيق لقوله سبحانه وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، والآن نأتي إليها، ثم تأتي إلى كلمة اسم، هذه كلمة وقف عندها العلماء، ما هو هذا الاسم، ومم اشتق؟ انت اسمك وهذا اسمه، فهذا لفظ الاسم مم اشتق؟ قال الكوفيون: هو من السِمة، والبصريون قالوا: هو من السمو، عليك أن تغوص في الكلمات من أجل أن تتذوقها حتى تعرف مكوناتها ثم تنظر إليها جملة واحدة.

-انتبهوا لهذا وهذا ما سنستخدمه- إذا أخذت كل كلمة على حدى، كأنت قطعت أوصال هذا الجمال، لكن لا يمكن لك أن تدرك هذا الجمال الكلي حتى تفهم أجزائه فهماً تاماً منفرداً واحدًا تلو الآخر، يعني الآن المهندس عندما يبني بيتاً، فشرطه أن يعرف كل حجر، مما يكون هذا الحجر، وكل شيء، فإذا نظر إليه نظرةً جزئية، كان حكيماً، لكنه لو أنه فقط نظر إليه نظرة جزئية دون أن ينظر إليه بعد اجتماعه لما عُد مهندساً، لما عُد ذكياً ولا جمالياً، فإذاً لا بد أن تنظر إلى آيات القرآن، وتقدم الربط الكلي وهنا مسألة أخرى، تقدم في درس فائت بأنك عليك أن تقرأ الكلمة وموطنها من الآية، والآية وموطنها مما سبق ومما لحق، وأن تنظر إلى الآية موطنها من السورة، وأن تنظر السورة إلى موطنها من مثيلاتها ومن ومما قبلها وبعدها ذكرنا هذا في درسٍ فائت.

هنا هذه التي أذكرها مسألةٌ ثانية، أولاً: عليك أن تذهب إلى كل كلمةٍ في القرآن، فتتأملها تأملاً منفرداً وتعرف كيف غاص إليها هذا المتكلم فأدرك سرها ومصدرها وما هو مصدر وجودها، ثم بعد ذلك تنظر إليها نظرة جمالية، فيغيب هذه الانفراد أمام هذا الكلي.

مثال ذلك: الذواق للطعام، الذي يستأجر في المطاعم الكبرى ليحكم على الطعام هل هو جيد أم غير جيد، إذا وضع اللقمة في فمه، ما الذي يطلبه؟ ألا يرى أجزاء كل واحد من المكونات لهذه اللقمة، بل عليه أن يذوقها جميعاً لتكون طعماً واحدًا، ذائقتًا واحدة، لكنه مع ذلك هذه المكونات لذائقته يعرف من أين أتت، فهو يعرف أفرادها، لكنه حين يتذوقها في نهاية الأمر لا بد أن يذوقها جملةً واحدة تنفي وتذهب هذه الأفراد.

فإذن لما نأتي نقول هذا الاسم مما كون، قال بعضهم: من السِمة، وقال بعضهم: من السمو، السمو فيه الرفعة، سما إي ارتفع، ومنها أخذت السماء، فالسمو هو الرفعة، فلماذا الاسم يكون فيه الرفعة؟ قال: لأنه يخرجه -هذه كلمات بعض أهل العلم- قال: لأن الاسم حين يطلق على المرء فيرفعه من حضيض الخفاء، إلى رفعة الظهور والجلاء، لماذا الاسم يؤخذ من الارتفاع؟ لأنه يخرج المذكور أي المسمى من حضيض الاختفاء إلى رفعة الظهور والجلاء، ولذلك كان الاسم مأخوذاً من العلو، لأنه يرفعه، فلذلك أخذ من السمو والارتفاع.

وأما التصريف أي كيف تحول السمو إلى اسم فهذا بابه في النحت الصرفي، وهو أحد علوم النحو، لأن علم النحو يقسم إلى قسمين الإعراب والصرف، هذه له مجاله ويرجع إليه وليس لنا وقفة معه، فهذا قول بعضهم.

وآخرون قالوا: لا، إن الاسم أخذ من السِمة أي العلامة، أخذ من العلامة، وهذا بيّن، لماذا الاسم أخذ من السمة العلامة؟ لأنه به يميز عن الآخرين، يعرف هذا حجر، ويعرف هذا إنسان، وهذا حيوان، فهذه التسمية ميزته عن غيره، جعلت بينه وبين الآخرين حداً يحصل به التميز بينه وبين غيره، فهذه كلمة اسم، لكن لماذا أذهبوا هذا الألف، هذا الألف هذا الحرف أذهبوه من قولهم: بسم الله، الأصل أن يقول كما لو ذهبت إلى القرآن وقرأت قوله تعالى ونظرت إلى كتابة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، تجد كلمة باسم بالألف، ولكن حين تذهب الى القرآن فتجد ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)﴾ [الفاتحة: ١]، بلا ألف، السب لأن «بسم الله الرحمن الرحيم» يكثر استخدامها، فلذلك أزيلت الألف، ليس لوجهٍ بلاغي.

بعضهم حاول فلو ذهبتم مثلاً إلى الشيخ البيضاوي رحمه الله في تفسيره، تجد عنده كلامً لا يروق لكم، لكنه في أزمنتهم له قبول في قضية أنه لماذا تمد الباء ولماذا تبسط السين ولماذا تزال الألف، لهم في هذا مذاهب ذوقية والناس لا يقبلونها في زمننا هذا، وكذلك هي ليست على أسسٍ علمية متينة من هذه التخريجات التي يقولونها، والصواب أن إزالة الألف من «بسم الله الرحمن الرحيم» إنما هو لكثرة استخدامها وكتابتها، لكن لما كان قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)﴾ [العلق: ١]، لا تكتب كثيراً، دائماً نحن نكتب «بسم الله الرحمن الرحيم»،

وهنا أنبه وكثيراً ما نبهت: لما تجد المتفلسفين والمتقعرين حين ينطقون كلمة «مائة» ويظنوا أنهم نطقوا كلمةً على أصول اللغة لأنها مكتوبة هكذا، فيظن أن كلمة «مئة» كلمة عامية، مبتذلة ولكن كلمة «مائة» هي كلمة راقية وعلمية، وهذا غير صحيح، وإنما كان يكتبون الألف في مائة لئلا تختلط في منه، لأن الهمزة لو كتب مئة فبين الهمزة والنقطة في الكتابات القديمة والحروف وعدم الضبط الذي عليه الآن الخط العربي، اليوم الخط العربي بلغ الذروة، ولماذا بلغ الذروة، لا بأس من هذه التخريجات مما نحن فيه، لماذا بلغ الذروة؟ بلغ الذروة لأن الإسلام منع الفن، منع النحت، منع التصوير، والعقل يريد الإبداع، لو ذهبت إلى اليونان وذهبت إلى دول الأوربية عندهم النحت، عندهم التصوير، ونحن شريعتنا تمنع هذا، والمرء يريد أن يتفنن، فما هو مجال فنه أين يذهب؟ فذهبوا إلى الخطوط.

أردت قلع عينها فأضاءت، كيف يضيء العقل؟ قالوا لقتادة –قتادة بن دعامة السَّدوسي كان أعمى– قالوا له: لماذا يعرف في العميان الذكاء؟ قال: لأن ذكاؤهم ارتد إلى عقولهم، لا يوجد عيون ترى، أين ارتد الذكاء؟ للعقل، وذلك إذا أنت ضيقت على الإنسان باباً، كالماء والعقل كالهواء، لا بد أن يبحث عن مخرجٍ آخر، فلما ضيق الإسلام من أجل جلال التوحيد وعظمته، (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي)، فلما ضيق بل منع التصوير والنحت، الهياكل المخلوقة، فذهب العقل يبحث، فأين ذهب إبداعه؟ ما وقف، ولكن ذهب يبدع، فأبدع في الخط.

ولذلك الخط العربي هو لا مثيل له في إبداعات فنه وتحولاته التصويرية، لا يوجد له مثيلٌ في كلام البشر، لا يوجد له مثير في حروفه.

فقديماً الناس يكتبون بخطوط دقيقة، الحبر قليل، والورق قليل، والحروف ليست متميزة كما هو الحال اليوم، يعني تختلط، فإذا كتب مئة، قريبة ستكون على منظر منه، فوضع لها ألفاً ليميزها منه، فكتبها للتمييز لا للقراءة، واليوم لذكائهم سووها من البلاغة، ومن النحو الجميل، فتجد خمسمائة، ستمائة، من أين أتت؟! وهكذا، فهذا خطأ.

فالقصد: أن إزالة حرف الباء في «بسم الله الرحمن الرحيم» إنما سببه هو كثرة استخدامها وقلة ما يستخدمه الناس، لكن السؤال هنا وهذه مسألة نقف عندها يسيراً لأهميتها، هل يجوز اليوم أن يكتب الناس القرآن بغير الرسم العثماني؟ مثلاً ككلمة ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾، اللام والواو والتاء المربوطة، وفوق اللام هكذا إشارة الألف الصغيرة هذه، فهل يجوز اليوم أن يقول أحد، لا، نكتب الصلاة بما استقر عليها، هذا لا يجوز، لأن الرسم العثماني فيه إبداعٌ وذكاءٌ غريب، وهناك بعض الأبحاث التي تبيّن عناية الله لهذا القرآن في قضية رسمه، لماذا هذه الكلمة هنا وليست هنا، كذلك لها وجوهٌ من الإبداع ووجوهٌ من البلاغة وجوهٌ من الإعجاز.

فلذلك لا يجوز لأحد أن يكتب القرآن ويقدم للناس القرآن على طريقة كتابتهم اليوم، فمن شرور هذا الفعل:

الأمر الأول: إزالة لمعاني أرادها الله بهداية من كتب القرآن بهذا الخط، فيه معاني، وهذا لا أريد أن أفصل فيها لكنها موجودة، هناك معاني بسبب هذا الرسم، فيه معاني وفيه هداية إلهية لأمر، هذا أمر.

الأمر الثاني: أن هذا يجعل هذا الرسم ألعوبة بيد الناس، لماذا منع مالك رحمه الله أن تهدم الكعبة، وأن تعاد على ما كانت عليه بعد أن هدمها الحجاج وهدم بناية ابن الزبير رضي الله عنه، لماذا؟ لئلا يتخذ الملوك الكعبة ألعوبة، وكذلك القرآن لأن اليوم الناس يتخذون القرآن ألعوبة، كل واحدٍ يكتب على مزاجه، فهذا لا يجوز، بسم الله تكتب هكذا على ما جرت عليه الناس، وكذلك الرحمن، كما سيأتي الرحمن هناك ألف، فهذه لا بد أن تبقى كما هي، هذا الرسم لا بد أن نحافظ عليه وهو الرسم الذي أجمعت عليه الأمة ولا يجوز فيه الاختلاف ولا الافتراق، ولا كذلك التغيير، إذن هذا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

الآن كلمة «الله» وهو اسم الذات، اسم الجلالة الدال على ذات الله عز وجل، «الله»، فهذا اسم اختص به ربنا جل في علاه، ولا يوجد أحد ادعى هذا الاسم، لا يوجد أحد، ومن معاني قوله سبحانه تعالى، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم: ٦٥]، أي اذكروا لنا من تسمى باسمي هذا، باسم الله، هل هناك أحد؟ لا يوجد أحد، ولذلك هذا اسمٌ خاصٌ يطلق على ذاتٍ واحدة هي الذات العلية الجليلة وهي ذات ربنا سبحانه وتعالى، فقط لا تطلق إلا عليه جل في علاه.

وهذا الاسم اختلف أهل العلم، هل هو مشتق أم جامد؟ على خلاف طويل بينهم، والصواب أنه مشتق، لأن أسماء الله حُسنى، ومن علم معنى حُسن الأسماء لا بد من أن تكون ذات معاني، ما معنى أسماء الله الحُسنى؟ أول معنى

من معاني أن أسماء الله حُسنى أن لها معاني، أي أنها دالة على الصفات، يعني رجل يسمى باسم حسن، وهو قبيح الوجه، فاسمه، لكن هل هي صفته؟ فحين إذن لا يكون اسمه حسناً، لأن حُسن الاسم يوجب صدقه، أولاً: لأن حُسن الاسم يوجب أن يكون صادقاً، وأن يكون صادقاً لا بد أن يكون دالاً على معنى، والمعنى هو الصفة، فلذلك أسماء الله صفات، هذا أول معنى من معاني الحسن، تأتي معاني أخرى، لكن أول صفة لصفات حُسن أسماء ربنا أن تكون ذات معاني، أي دالة على صفات.

فإذا كانت أسماء الله الأخرى التي نعلم بعضها ولا نعلم بعضها الآخر، كما في مباحث التوحيد، في مباحث التوحيد هل أسماء الله عز وجل فقط تسعة وتسعين اسم أم لا؟ كما يختلفون في هذا، والصواب أن الله عز وجل له أسماء غير هذه الأسماء أي التسعة وتسعين، وإنما خُصت هذه التسعة وتسعين اسم لقوله صلى الله عليه وسلم: (من أحصاها دخل الجنة، فقط هذه هي ميزتها)، فإذا كانت الأسماء الأخرى دالة على صفات فمن باب أولى أن يكون الاسم الجامع لكل الأسماء دالاً على صفة، بل أعظم الصفات.

فعندما نقول: الله المصور، هذا اسم لله عز وجل دال على معنى أنه له فعل التصوير، أنه يفعل هذا الفعل، أنه مصور، فهذا هو الواجب، فإذا كانت أسماءه التي هي له سبحانه وتعالى دالة على معاني، وهذه المعاني اشتقت منها أسماء، والأسماء اشتقت منه معاني، فمن باب أولى أن يكون اسم الذات الجامع لكل الأسماء والجامع لكل الصفات أن يكون دالاً على معنى، هذا معنى مشتق، معنى مشتق ما هو، أن كلمة «الله» مشتقة من صفة، وليست مجرد علم على الذات لا تدل على معنى في ذاتها، هذا معنى جامد، وإن قال به سيبويه وقال فيه شيخه الخليل يقول أنه مشتق وخالف شيخه، وعلى فكرة سيبويه ورد عنه قولان في هذا، والمشهورة أنه جامد عنده ولكن الأغلب من كلام أهل العلم على أن كلمة «الله» مشتق.

لكن من أين مشتق؟ ما هو مصدر هذا الاسم؟ على خلاف بين أهل العلم، لكن ما هي أجل صفةٍ في ربنا، أنه معبود، وهي صفة التأله، وهذه صفة التأله ليس عظمتها لما يفعله الآخرون، بل لما استحقت، التأله هو فعل الغير له، تأله ربه يعني عبده، فإذن هو الفعل واقعٌ للرب، واقع له تألهه، لكن هل عظمتها لوجود فعل المتأله أم لاستحقاق المتأله لصفة التأله؟ بلا شك أن هذه الصفة إنما كانت عظيمة في حق ربنا للمعنى الأول، وهو أنه سبحانه وتعالى استحق صفة التأله، فلما كان مُستحقاً لها، علمنا موجب الاستحقاق، لما علمنا أنه مستحق للتأله، بما استحق هذا التأله، ما معنى وجوب الاستحقاق، لماذا استحق ربنا هذه الصفة؟ هو مستحقٍ لها، بل هذه الصفة لا يجوز أن تصرف لغيره، ولو صرفت لغيره لكان ظلماً، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان: ١٣]، صرفت لغير صاحبها، أخذها من لا يستحقها.

فلذلك لماذا استحق ربنا أن يكون معبوداً؟ لما فيه من صفات الجمال والجلال، استحق الحمد لما فيه من صفاتٍ يستحق أن يحمد لها، ولذلك في القرآن الكريم لا تجد ذِكراً لتأله الله عز وجل إلا وقد سبقه فعله جل في علاه، قبل أن يطلب منك أن تفعل، هو فعل فيك، هو الذي خلق السماوات، وخلق الأرض، وخلقك، وأنعم عليك، وأعطى مما هو من خلقه جل في علاه الشيء الكثير، فبعد أن قال ولم ينازعه في هذا القول أحد، كما يقول القرطبي: «لما علم الله جل في علاه أن العبيد لا يستطيعون حمده، ولا يقدرون على الثناء عليه، تكفل الله بأن يحمد نفسه، فقال: الحمد لله»، يعني كلمة نأتي إليها في الحمد لله، لماذا الحمد لله؟ لماذا حمد ربنا نفسه؟ حمد ربنا نفسه لأنه علم إن غيره لا يمكن أن يقوم مقام الحمد التام له فقال: لما عجزتم عن حمدي كما استحق، توليت حمد نفسي لي، هذه كلمة القرطبي رحمه الله في «الجامع لأحكام القرآن».

وكذلك لما هنا نقول لما استحق ربنا سبحانه وتعالى أن يؤله؟ ما هي الموجبات؟ لأنه هو الخالق الوحيد، ولأنه هو الرازق الوحيد، ولأنه هو المعطي والمان الوحيد، وهذه الأمور لم ينازعه فيها أحد، هل هناك أحد يوم من الأيام سمعتم في التاريخ البشري كله، قال: أنا خلقت السماوات والأرض! لا يوجد، فلما قال ربنا: أنا الذي فعلت هذا، كان ينبغي أن ينسب له، فاستحق ربنا صفة التأله، استحقها كانت من حقوقه علينا استحقها يعني كانت من حقوقه على عبيده لما كانت فيه صفات الربوبية، فالذي أنشأ صفة التأله هي الربوبية ومن هنا جميع صفات ربنا له تصب في حالةٍ واحدة وهو أنه الله، جميع صفات ربنا نحن نقول هو الرزاق، المحيي، المميت، المعطي، المانع، الجبار، القهار، المصور، كل الصفات توصل نتيجةً واحدة وهو أنه الله، أي الذي استحق أن يعبد.

وكذلك يمكن أن تقول العكس، يمكن أن تقول: لما كان ربنا له صفة التأله، بما ينشأ التأله؟ بوجود المتأله، فسبحانه جل في علاه لاستحقاقه صفة التأله كان هذا الفعل منه، أي هي الصفات الأسماء التي نعرفها لربنا سبحانه وتعالى، مما ذكر في الكتاب والسنة، فهو إله لأنه رحيم، وهو رحيمٌ فيستحق أن يتأله، ومن هنا يستحق هذا الاسم أن يكون هو اسم الله الأعظم، عند من يقول به، لأن جميع الصفات تعود إليه، وجميع الصفات خارجةٌ منه، كيف يكون هذا؟

لو سألك السائل: يا عبد الله من الذي يمد الآخر الشرايين تمد القلب أم القلب يمد الشرايين ما الصواب؟ كل جوابٍ خطأ، القلب يمد الشرايين، والشرايين تمد القلب، فالله سبحانه وتعالى اسمه مشتقٌ من التأله، طبعا هناك كلام آخر لأهل العلم، ما يروى أنه من الإله أي المعبود، إله يعني معبود، وقال بعضهم: من الوله، هذه فسره بعض من أهل العلم، قالوا: مأخوذ من الوله، والوله يؤخذ من شدة الحب، مثلاً يقول لك: واحد ولهان من شدة الحب لماذا؟ لأنه إذا بلغ العبد في حبه لمحبوبه حباً ذاتياً كان هذا معبوداً.

هناك محبوبات ولهان محبوب لغيره، وهناك محبوب لذاته، كيف لغيره ولذاته؟ -فقط اشرح هذه في لحظة يسيرة إن شاء الله بما تيسر- بما صار الغني غنياً لافتقاره إلى ما يحصل به الغنى، واحد فقير ما معه مال فجاءه المال، فصار بالمال غنياً فهل الحقيقة خرج هذا الغني عن حد الفقر، في حقيقة الأمر هل خرج عن وصف الفقر؟ بقي محتاجاً للمال لاصطباغه بصفة الغنى، فلو ذهب عنه المال لبقي فقيرًا فحاجته إلى المال هي الفقر، إذن هنا نقول الفقر ذاتي ولا الفقر عارض؟ ذاتي أي لازمٌ له جاء المال هو فقير وذهب المال هو فقير، اي لو أن رجلاً كان فقيراً فسميناه غنياً، لما سميناه غني؟ لمجيء غيره إليه وهذا الشيء الذي جاء إليه عرض أم شيءٌ ثابت، عرض يعني مثل الدهان يذهب ويأتي مثل اللون، اللون ممكن يتغير، العرض مثل اللون مثل الرائحة، الوجود والعدم شيء عارض، أنا عارض وأنت عارض الآن أحياء غدًا أموات تذهب عنا الصفة، فصفة الحياة والموت عارضة، يقول لك: شيء عارض أي يعني يذهب ويأتي.

فإذن الفقر في الإنسان ذاتي لا ينفك عنه، والله عز وجل هو له صلة الغنى، هل صار غنيًا بعد أن خَلَق الخلق، أم أنه غني قبل أن يخلق الخلق؟ قبل أن يخلق الخلق؛ فغناها ذاته، والغنى الذاتي لا ينفك عنه، ليس بعارض، ذهب البشر كلهم، ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)﴾ [إبراهيم: ٨]، (ولو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملكه شيئًا).

فالله سبحانه وتعالى غناه ذاتي جل في علاه -هذا يترتب عليه شيء-، حين تحب أحدًا لما فيه من صفاتٍ منشأها الذات، أي الغنى الذاتي، العزة الذاتي، القهر الذاتي، فأنت أحببته لذاته، الحب الذاتي أي أنك عبدته، الحب أحببته لذاته أي أنك عبدته، لكن واحد يحب امرأة لأنها جميلة على وجهها مواد التجميل فوجهها جميل فأحبها لجمالها راحت غسلت وجهها، هرمت كبرت، ضربتها سيارة وحرقت، راح الجمال وراح الحب، فهل أحببتها لذاتها أم أحببتها لعرضٍ زائل؟ لعرضٍ زائل، فهذا حب بشري موجود، (وتنكح المرأة لأربع)، فهذا لا يكون تألهاً، هذا مما ينشأ بين الناس في فطرهم التي فطرها الله عز وجل.

ولذلك حين ينشأ الوله أي الحب لذات المحبوب فهذا هو التعبد، وإذا نشئ لعارض فهذا ليس من التأله، هذا يذهب ويأتي، وهذا الحب الذي يكون للذات هل هو عرضةٌ للمساومة؟ لا، فمن هو الذي فقط في الوجود يحب لذاته؟ الله عز وجل، فأنت تحب جبل لأنه جميل، تذهب عن هو الخضرة فينقلب إلى صحراء قاحلة جرداء، أنت تحب وردة جميلة نظرة ثم ثاني يوم تأتي إليها، فمن الذي يحب لذاته فقط؟ الله جل في علاه، الله جل في علاه هو الذي يحب لذاته، ولذلك الوله التام للذات هو الذي فيه التعبد.

وقالوا كذلك: الوله من الحيرة، يقول لك: واحد وله حتى تاه عقله، هو في الحقيقة الحب ينشئ الوله، الله سبحانه وتعالى صفاته مقيدة لها نهاية أم أنها مطلقة؟ صفاته مطلقة جل في علاه، الله عز وجل يخلق فهل يأتي يوم أو لحظة

يتصورها عقل إنسانٍ أو شيء في الوجود بأن الله يكل ويضعف عن وجود صفة الخلق له؟ حاشاه جل في علاه فصفاته مطلقة، وهذا من معاني أنها الأسماء الحُسنى، هذا من معانيها أنها مطلقة، والمطلق أي لا نهاية له ولا تصور للعقل له، لماذا؟ لأنك أنت محدود، ولا ترى إلا المحدود، ولا تدرك إلا المحدود، فتغيب عنك الأشياء إذا أطلقت، لا يمكن، بل ينتهي عقلك وإدراكه لقوانين الوجود حين تدخل كلمة ما لا نهاية، أعطيني معنى لا نهاية؟!! ما لا نهاية!!

فإذن أنت حين تدخل كلمة ما لا نهاية أي مطلقة أي دخلت في الحيرة، فربنا سبحانه وتعالى تحتار فيه العقول، لماذا؟ لأن له صفات الجمال وصفات الجلال المطلقة التي لا نهاية لها لا حد لها، هذا الذي قالوه في كلمة الله جل في علاه، وبلا شك أن الألف واللام هنا أصلية، يعني أنت تقول يا الله، لكن لا تقول يا الرحمن بل يا رحمن.

فلذلك هذا هو اسم الله الدال على الذات الإلهية، وهذه الذات لا تتصور، انتبه لما شيخ الإسلام رحمه الله يقول لك: «لا يتصور ذات بلا صفات»، هذه ليست فقط قضية كلامية من أجل أن يرد فيها على مبتدعاتنا في الصفات، ولكن لأنك تعلم أنه لم تنشأ هذه الذات المستحقة للعبادة إلا بسبب صفاتها، بسبب موجبات هذه الصفة، كما تكلمنا، ونحن نقف عند هذا.

الآن نحن قلنا بسم الله ووقفنا نأتي إلى الرحمن الرحيم، بلا شك أن هاتين من صفات ربنا سبحانه وتعالى، الرحمن الرحيم، وأنتم تعلمون أيها الإخوة الأحبة، هذه قلناها كثيراً لكن نأتي إليها لأهميتها في كل باب، أنه إذا كثرت عند العرب، وعند غير العرب، إذا كثر اسم الشيء دل على أهميته وعظمته، حضوره دائماً حاضر، حاضر في القلب، أو حاضر في العين، فهو يكثر الأسماء، فإذا كان المصدر قد اشتق منه لا اسمًا واحدًا، ولكن قد اشتق منه اسمين، يدل على ماذا؟ على عظمة هذا المصدر، يعني ما مصدر الرحمن الرحيم؟ الرحمة.

فلما كانت الرحمة عظيمة لم يشتق لها اسم واحد لربنا، ولكن اشتق لها اسمان، فاشتقاق اسمين لربنا من صفة الرحمة دل على أنها مُقدمة وعظيمة عند ربنا ومن هنا (إن رحمتي سبقت غضبي)، يقول أهل الذوق: الله عز وجل له صفات الجمال، وله صفات الجلال، هذه «بسم الله الرحمن الرحيم»، تدل على ما الْمُقدم صفات الجمال أم صفات الجلال؟ على صفة الجمال، صفات الجلال فيها الرهبة، فيها الخوف، فيها الخشية، صفات الجمال فيها الحب؛ ولذلك دل هذا (إن رحمتي سبقت غضبي) على أن ربنا سبحانه وتعالى تُقدم صفات جماله على صفات جلاله، وتقدم رحمته على غضبه، مع أن الغضب صفة من صفات الذات، ومن صفات الفعل والرحمة كذلك، لكن رحمته سبقت غضبه، ومع أن الغضب صفة من صفات الله لم يشتق لها اسم.

للذكر فقط: -لأن هذا مدخل- قال بعضهم: وسمي الاسم من السمو لرفعته عن الفعل والحرف، هذه كلمة صاحب القرطبي، كيف؟ هذه لأنها مدخل في الاسم والفعل، حتى تفهموا هذه المسألة جيداً، قال بعضهم: لماذا أخذ الاسم من السمو؟ لارتفاعه من حضيض الخفاء إلى العلو، إلى الجلال إلى الرفعة إلى الظهور، ولكن قال بعضهم: لا،

ليس هذا، انظر هذه كلها كلمات جميلة رائعة تدل على تذوق هؤلاء العلماء لمعاني الكلام، ولتذوقهم لهذه اللغة الشريفة التي تضع تلك المعاني الشريفة لهذه اللغة أن صبغت على كلام الله عز وجل.

فلا يمكن لك أن تتذوق القرآن دون أن تتذوق هذه اللغة الشريفة العربية، قال بعضهم: لماذا أخذ الاسم من السِمة؟ الأول انتهينا منه، قال: لا، أخذ الاسم من السِمة لارتفاع الاسم من مقام الفعل والحرف، فمن أعظم الفعل أم الحرف أم الاسم؟ هذا الجواب الآن ندخله، طيب حتى تفهموها بسيطة، على فكرة لا يقول أحد: هذا الكلام خطير وصعب، لا يوجد كلام أنشئ صعب، فقط أنت بني آدم والذي كتب الكلام بني آدم فقط الفرق بينكم «هو يشغل دماغه وأنت قاعد تريد اللقمة واصلة إلى فمك»، فاصبر معي.

إذن ما الأفضل للإنسان أن يفعل الفعل الجليل مرةً واحدة أو الفعل الممدوح في مقامه مرة واحدة أو أن يكون فاعلاً له في كل وقت ما هو الأفضل؟

مثال: ما هو الأجل في الإنسان أن يكون رحيماً مرة أو أن يكون رحيماً في كل وقت؟ في كل وقت، فإذا كان الموصوف بالرحمة قائمةٌ فيه كل وقت ينبغي أن يسمى به، يصبح اسم، بخلاف ما لو وقع الفعل، الفعل يدل على مرة مرتين ثلاثة لكن في النهاية لا يقوم مقام الاسم، فما هو الأجل في الغضب أن يكون دائماً أو أن يكون مرات ومرات لا؟ أي واحد دائماً غضبان هذا يمدح أم يذم؟ يذم، لكن رجل لا يغضب أو موصوفٌ لا يغضب يذم؛ لأنه خالي من المعنى هذا الذي فيه القدرة على تنفيذ غضبه.

ولذلك الاسم الجليل إنما أخذ من دوام الصفة، والفعل إذا كان ممدوحًا في حال، وليس ممدوحًا في حالٍ آخر، لا ينبغي أن تشتق منه صفة مع وجود بقاء صفة الفعل عليه بخلاف الاسم، وهذا يكون شرح لماذا الاسم أجل، فأنت حين تفعل هذا مرة ومرتين يوصف لأنك تفعله، لكن لا ينبغي أن تكون هذه الصفة دائمة لك، فإنك لو وصفت بها دائمًا لما كانت ممدوحة، لكن قدرتك على هذه الصفة هذا شيء جيد تفعلها أو لا تفعلها، ولذلك لا يستحق هذا، لا يستحق اسم، يستحق ماذا؟ وصفه بالفعل، ما معنى الاسم؟ صفة لصيقةٌ له لا تنفك عنه.

فإذن هل اسم تشتق منه الصفة؟ أي حين يكون الاسم حسناً تشتق منه الصفة أو لا تشتق، لكن هل الفعل لزومًا أن يشتق منه اسم؟ لا، من هنا كان الاسم أجل من الفعل، من أجل هذا قالوا: -نرجع إلى الكلمة الأولى التي هي مدخلنا الآن- قالوا: بأن الاسم اشتق من السمو لارتفاعه عن مقام الفعل وعن مقام الحرف، هذه انتهينا منها نرجعها إلى ما كنا عليه وثم ندخل فيما نحن فيه وهو الوقوف عند «الرحمن الرحيم» يكفي في هذا اليوم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

الدرس الخامس

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، آمين، آمين.

أما بعد فأهلاً وسهلاً بكم أيها الإخوة الأحبة في الدرس الخامس من دروس التفسير وما زلنا مع التسمية لقوله سبحانه وتعالى على وجهٍ راجح أنها من القرآن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿بِسْمِ﴾ بما يمكن تيسيره وإلا فالكلام عن الاسم كلامٌ كثير، وخاصةً يمكن ها هنا أن نذكر مسألة مهمة، كيف يُسبح الاسم؟ –فقد باختصار، لا أريد أن أطيل فيها، لأن المباحث فيها كثيرة والوصول إليها سهلٌ ويسير– وهو كيف أنك تُسبح الاسم ولا تُسبح الذات؟ والاسم ليس هو المسمى، كما يقول ابن القيم رحمه الله في كتابه «بدائع الفوائد».

ولم يرد عن نحوي قط أنه قال أن الاسم هو عين المسمى، لا يمكن لاسم أن يكون هو عين المسمى، والدليل أنه تكون هناك أسماء متعددة لمسمى واحد، فلو كان عينه لكان تعدد الأسماء يعني تعدد المسميات، وإذا أبدنا الاسم فلا يدل على إبادة المسمى، فالمسمى يبقى وجوداً، فيقول ربنا تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى: ١]، وقلنا –لا أذكر هذا هنا أو في مكان آخر– ولكن نقول: إن شرف الاسم إنما يشتق ويعرف من شرف المسمى، وهو قد يعبر عن المسمى بالاسم حين يكون هذا الاسم عظيماً جليلاً، وحين يكون دالاً دلالةً واحدة في ذهن السامع أنه المسمى، فلما أنت تقول: الله هذا اسمه، فما يدل إلا على ذات ربنا سبحانه وتعالى، وعندما تقول: السميع، البصير، الحكيم، العليم، الحليم، فإنها لا تدل إلا على الله جل في علاه.

فلما دل الاسم أولاً لشرفه، لشرف المسمى:

أولاً: صار للاسم شرف، لما كان المسمى شريفاً عظيماً جليلاً، فصار الاسم مُلتحقاً بهذا المسمى، فصار له الشرف.

ثانياً: لما صار الاسم دالاً في ذهن السامع على مراد واحد وليس متعدداً فصار إطلاق الاسم كأنه يراد به المسمى، وابن القيم رحمه الله في كتابه «بدائع الفوائد» وهذا كتابٌ جليل في التفسير.

وأنا أنبه على مسألة مهمة وهو أن بعض الكتب التي لم تعنون بأنها كتب للتفسير، إنما هي كتب اللمحات وصيد الخواطر والتنبيهات اليسيرة على المسائل العلمية وعلى النُكت القرآنية وعلى المعاني النبوية، فإنك تجد في هذه الكتب الكثير مما لا تجده في كتب التفسير التي خصصت للتفسير، وهذا دليل على ما قلناه، وابن القيم رحمه الله ليس له تفسيرٌ للقرآن، وكذلك ابن تيمية رحمه الله لم يرد عنه أنه فسر القرآن كتابةً وإنما عُلم عنه أنه فسر القرآن في مجلسه الذي كان يعقده بعد صلاة الجمعة في مسجد دمشق، أنه فسر القرآن للناس بكلامه، ولكنه لم يرد عنه أنه كتب، ولكنك تجد في الفتاوى، تجد في الكتب التي ألفها معاني قرآنية فريدة، وإن كان لابن تيمية رحمه الله كتابٌ سمي «تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء»، حتى لم يوجد في كتب التفسير فيها إلا الغلط، وهو من أواخر ابن تيمية رحمه الله.

فهذا الكتاب لابن القيم رحمه الله «بدائع الفوائد» لأهميته أخذه الشيخ السعدي وجعله مقدمة لتفسيره، اختصره، ليس الكتاب، لم يأخذ الكتاب كله، ولكن أخذ مختصره وأثبت فوائده القرآنية، والمعاني، وأصول التفسير أثبتها في مقدمة تفسيره، لأهمية هذا الكتاب، وفيه من النُكت العلمية الجليلة ما ينبغي أن يشد المرء الرحال إليها، وذكر ابن القيم رحمه الله عن شيخه ابن تيمية رحمه الله أنه سأله عن قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾، فقال: «سبح ربك ذاكراً اسمه الأعلى»، ماذا تقول أنت؟ سبحان الله، فذكرت الاسم؟ الله هو الاسم، فأنت تقول: سبحان الله، فقال معنى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾: «أي سبح ربك ذاكراً اسمه»، ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾، يظن البعض أن هذا تسبيحٌ للاسم، هو يقول: لا، ولكن هو تسبيح لله ولا يمكن أن تقول تسبيحاً لله حتى تذكر اسمه، «سبح ربك ذاكراً اسمه الأعلى»، أو «سبح ربك ناطقاً اسمه العظيم»، ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾ [الواقعة: ٧٤]، فقال هذا سبح ربك، وهذا بين وواضح.

وقال ابن القيم رحمه الله –وكأنه فرح بها– قال: مثل هذه الفوائد يسافر إليها، وتشد الرحال إلى مثل هذه المعاني، يكفي هنا ولا نريد أن نخوض فيما يخوض فيه المتكلمون، الاسم هو المسمى وغير المسمى أو إنه دليل على المسمى، والصواب ان الاسم ليس هو المسمى ولا غير المسمى، ولكنه دال على المسمى، لو أطق الاسم فإنما أراد به المسمى.

ونصل إلى قوله ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)﴾ [الفاتحة: ١]، في الحديث الذي قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، قال لما جاء لقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال: (حمدني عبدي)، ولما قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قال: (أثنى علي عبدي)، والحمد والثناء والتمجيد والمدح والشكر، كلها تلتقي في أصلٍ وجذرٍ واحد، هذا الجذر هو ذكر محاسن المذكور أولاً، فالمدح لا يكون إلا بذكر محاسن المذكور، والحمد لا يكون إلا بالإخبار عن محاسن المذكور، والتمجيد كذلك، والثناء كذلك، ولكن بعد ذلك يكون الاختلاف، فلما قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قال: (أثنى علي عبدي)، أثنى من التثنية، التثنية هو التكرار، فلما قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ رأينا أنه قد كرر صفة الرحمة، فهذه تستحق أن يقال:

أثنى، ماذا يصبح الثناء إذاً؟ يصبح الثناء هو الإخبار عن المذكور بالتكرار، وإلا فكلها تلتقي مع جذرٍ واحد وهو ذكر محاسن أو إخبار عن محاسن المذكور، والحمد لا يليق إلا به، وسيأتي الكلام عن التمجيد ولماذا، وباختصار حتى لما نأتي إلى حتى لا يشتبه.

ولكن التمجيد هو الإخبار عن محاسن المذكور بالعظمة، ولذلك نقول المجد، كلمة المجد عادةً بخلاف المدح، المجد فيها تعظيم، فيها ذكر المحاسن على جهة التفخيم، والتعظيم، ولذلك تقال: له المجد، فلما كان أمر الآخرة أنه مالكه، أنه مالك الآخرة، وأمر الآخرة أمرٌ عظيم، كان ذكر ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، يقابله (مجدني عبدي)، لأن فيه الآخرة والذي يليق بالآخرة؛ التمجيد والتفخيم والملك، الملك على ماذا عادةً يدل؟ على المجد وعلى العظمة وعلى التفخيم، ولذلك ناسب أن يقول: (مجدني عبدي)، والحمد سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

القصد: أن ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، لما قال ربنا في الحديث القدسي: (أثنى علي عبدي) أي ذكر محاسني ومكارمي وما يليق بي مرةً بعد مرة، وهو يناسب أنه قال: ﴿الرَّحْمَنِ﴾ فيها تكرار وإن كان على غير معنى التكرار الذي نفاه العلماء، تكرار ذكر نفس المعنى فقط من أجل التزويق والتزيين من غير ذكر معنى جديد وهذا لا يليق بالقرآن، وهذا الذي سموه الترادف؛ فالقرآن على الصحيح لا يوجد فيه الترادف، ما معنى الترادف؟ هو أن يذكر القائل كلمةً وراء كلمة، ولا يريد زيادة معنى، إنما يريد التزويق ويريد التأكيد ويريد فقط مجرد التثنية بالكلمة مرةً بعد مرة من غير زيادة معنى، وهذا لا يليق بالقرآن لأن من قواعد التفسير التي سنحتاجها كثيراً في دروسنا هذه، «أن التأسيس خير من التأكيد» –قلناه عدة مرات ونشرحها–.

فما الأولى هو أن تأكد الكلام أم أن تنشئ معاني جديدة؟ بلا شك إنشاء المعاني الجديدة أجل وأكرم وأعظم من أن تأكد الكلام مرةً بعد مرة، وخاصةً أن التأكيد له معناه ومعناه بأنه يكون لرد، فكلما كان الذي أمامك راداً لكلامك احتجت للتأكيد، وكلما كان الشيء عظيماً احتاج للتأكيد، والقرآن فيه التأكيد، كما نرى في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾ [الرحمن: ١٣]، فيها تتكرر، وكذلك نرى التأكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ﴾ [هود: ٤١]، فهذا تأكيد، اللام تؤكد، ولكن أن تأتي الكلمة وراء الكلمة على نفس المعنى من غير زيادةٍ في المعنى، فهذا لا وجود له في القرآن، ونفاه كبار الأئمة، ولم يرضوا له، ولا يرتاحون له؛ لأنه يعطل ذهن المتدبر لكتاب ربنا عز وجل، من أن يبحث عن المعاني الجديدة.

فإذن هنا ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هما صفتان، وابن عباس رضي الله عنهما له كلمة رائعة، يقول: «هما صفتان رقيقتان أحدهما أرق من الأخرى»، وهذه إذا تصح عن ابن عباس سنداً، فإنها تليق بكلام المتقدمين، لأن كلام المتقدمين على هذه الطريقة من قضية البلاغة وهي قضية اللمحة الدالة، ما هي البلاغة عندهم؟ البلاغة هي اللمحة الدالة، ابن عباس رضي الله عنه لم يجلس ويشرح، ولو كان من المتأخرين لجعل يشرح في هذه الكلمة ويذهب ويأتي ويفصل،

ولكن انظر إليه، «صفتان رقيقتان أحدهما أرق من الأخرى»، فهي تليق بكلام الأقدمين، يتركك كأنه يخاطب العالم الذي يفهم هذا الكلام.

وقلنا في الدرس الفائت، بأن اشتقاق اسمين للرحمة يدل على أنها أولى في تعامل ربنا عز وجل مع غيره، فإن الرحمة مُقدمة، والقرآن لماذا لا يفتتح بسم الله الجبار المتكبر؟ لماذا لا يفتتح بسم الله الجميل الجليل؟ وإنما افتتح بالرحمة، لأن الرحمة هي أوسع دوائر الفعل الإلهي، وهي أوسع دوائر الصفات الإلهية على غيرها، فأنت عندما ترى الحكمة وترى العدل وترى الجزاء فما هو أوسع من هذه الدوائر كلها؟ ما هو الْمُقدم العدل أم الرحمة؟ الرحمة مُقدمة ولذلك هي أوسع دوائر الفعل الإلهي وهي أوسع دوائر الجزاء الإلهي وهي أوسع في قضية التشريع الإلهي؛ فالرحمة شاملة لما يصدر من ربنا عز وجل نحو خلقه، شاملة وأوسع، كيف؟ الرحمة مُقدمة في الخلق، عندما خلق الله الخلق قدم الرحمة، كيف؟ عندما أنت ولدت ما الذي أوجده في قلب أمك نحوك فقط ما هو؟ هل أوجد العدل عندما تصرخ تضرب، عندما أنت تغضب تضربك، ماذا تفعل؟ فخلق في قلبها الرحمة نحوك فقط دون غيرها.

وكذلك وأنت في بطن أمك المقدم هو الرحمة فلا يوجد غيرها، فالرحمة في الخلق مُقدمة على غيرها، ما عدد من يموت من الأطفال وما عدد من يبقى؟ ما عدد من يأكل ويشرب ويجد الرزق وعدد المحروم في الوجود؟ من أكثر؟ فلذلك الرحمة مُقدمة في الخلق، والرحمة مقدمة في التشريع، فما المقدم في تشريع ربنا الرحمة أم الغضب؟ الرحمة، عندما يذب المرء الْمُقدم الرحمة، ما المقدم في الصلاة عندما أمرنا بالصلاة؟ كانت الصلاة خمسين صلاة ثم صارت إلى خمس صلوات، هذه رحمة، صيام رمضان، الحج، الزكاة، فالتشريع مُقدمٌ فيه الرحمة.

إذن:

أولاً: الرحمة مقدمةٌ في الخلق والتقدير.

ثانيًا: مقدمةٌ في الأمر والنهي والتشريع.

ثالثًا: الرحمة مقدمةٌ في الجزاء والحساب.

فإذن صفة الرحمة شاملة للوجود كله، شاملةٌ للخلق والتقدير شاملةٌ للأمر والتشريع شاملةٌ للجزاء والحساب، فالرحمة شاملة ومن هنا هو الرحمن الرحيم وقُدمت هذه الصفة لدفع اليأس عن قلوب الْمُتعبين والعصاة وهي من أجّل الصفات التي يتعامل بها العبد مع ربه، وإذا أنكرها وقع في الكفر، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)﴾ [يوسف: ٨٧]، ما هو ضد اليأس هو اعتقاد العبد في ربه أنه رحيم وأنه رحمن، فإذا سقطت هذه الصفة من قلب العبد سيقع في الشقاء ويكفي أنه يقع في الكفر وعامة من كفر مبعثهم في عدم إدراكهم لرحمة

الله عز وجل في هذه المعاني التي قللناها في الخلق والتقدير وفي الأمر والنهي والتشريع وفي الجزاء والحساب فالْمُقدم هو الرحمة.

وأنتم تعرفون بعد أن يذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، سبحانه جل في علاه يقول لأهل الجنة: اذهبوا إلى النار وأخرجوا من عرفتم من المسلمين، ويعرفوا من خلال جباههم بالصلاة حتى إذا أخرجوا من عرفوه من المسلمين في النار، قال: انتهيتم، قالوا: نعم، فيقبض جل في علاه قبضة من النار لم يعملوا خيرًا قط فيدخلهم الجنة، فالرحمة مُقدمة.

والذي قتل تسعة وتسعين نفسًا ثم تاب ثم أكملها للمئة ثم تاب، فتاب الله عليه، ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، فالرحمة مُقدمة، ولذلك في الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي)، وهذه الرحمة رضيها الله صفةً لنفسه وأمر بها عباده، فقال صلى الله عليه وسلم: (الراحمون يرحمهم الرحمن).

فإذا أردت أن تنال القسط الأوفر العظيم من الرحمة الإلهية فعليك بهذه الصفة الزمها في تعاملك مع نفسك ومع الأخرين، ارحم، وهذا الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه أصحابه رضي الله عنهم، فهو الذي قال لقريش: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)، ولم ينتقم لنفسه قط صلى الله عليه وسلم، الرحمة في قلبه، وقال سبحانه وتعالى عنه: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، لا يقبل أن يُعّنى هذا المؤمن ولا أن يصاب بمشقة بل هو يرحمه، وقال سبحانه وتعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، والعفو مبني على الرحمة، مما لا يشق عليهم العفو، ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾ [الأعراف: ١٩٩].

فلذاك هذه الصفة صفةٌ جليلة لربنا رضيها لنفسه وأمر بها خلقه وعلى الناس أن يهتموا بها وعلى المسلم أن يهتم بها، وأعظم رحمةٍ بالوجود في أن تُعملها فيهم وهو أن ترحم عليهم بأن تيسر لهم وتهديهم سبل الجنة، ليس فقط أن تطعمهم وهذه رحمة، قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨)﴾ [الإنسان: ٨]، هذه رحمه، ولكن أعظم الرحمة هو أن تأخذ بأيديهم إلى الجنة وأن تخرجهم من النار هذه من أعظم الرحمة.

هنا مادام أننا قلنا بأن الرحمة التي اشتق منها هذان الاسمان، لا يمكن أن يكون الأول هو الثاني ولا مؤكدًا له، ومن قال من أهل العلم: بأن الرحمن الرحيم، فالرحيم هو مؤكد أو هذه الصفة مؤكدة لصفة الرحمن؛ العلماء لم يقبلوا منهم هذا، وقال بعضهم، وصاحب الجلالين لم يذكر فيها إلا هذا الأمر وهو أنها تكرار وتوكيد، ويقول: هما بمعنى واحد، وهذا غير صحيح، والعلماء لم يقبلوا هذا، صاحب «المنار» شنع على هذا القول وإن كان بعض أهل العلم ذكروها ولكن لم يعجبهم، فإذًا ما هو الفرق بين الرحمن والرحيم؟ هم اختلفوا اختلافًا يسيرًا ولم يرجح أحدهما ترجيحًا

يسيرًا بل ترجيحًا قويًا حيث ضعف الآخر واستبعد، فبعضهم قال: الرحيم أبلغ من الرحمن وهذه لم يلتفتوا لها، وإنما الذي جعلوه أبلغ هي صفة الرحمن، فصفة الرحمن أبلغ من صفة الرحيم وذلك من جهتين:

الجهة الأولى: أنهم يقولون إذا جاءت الألف والنون فدلت على الكثرة؛ لأن أصل الألف والنون إنما جاءت للتثنية لتدل على التكرار، عندما تقول: الرحيم، تقول: الرحمان، كتاب تقول: كتابان، فوجود الألف والنون أصلاً إنما يدل على التكرار على الكثرة، فإذا أتيت بها على غير هذه المعنى –التثنية– ولكن على معنى الاسم فتقول: رحمان شبعان عطشان ...إلخ، فهي تدل على المبالغة، فقالوا: من هنا كانت الرحمن لأنها في هذه الصفة أبلغ من صيغة فعيل، رحمن: فعلان أبلغ من صيغة فعيل لما تقدم من ذكره.

الجهة الثانية: قال نحن وجدنا أنه لا تطلق أبدًا صفة الرحمن على غير الله عز وجل، لكننا رأينا صفة رحيم تطلق على العبد، ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة: ١٢٨]، هذا النبي صلى الله عليه وسلم، والناس يقولون: فلان رحيم القلب ...إلخ، ولكن الرحمن لم تطلق، إلا للأسف بعض العرب أطلقوها على كذاب اليمامة وقالوا في ذلك شعراً لا ضرورةً لذكره، وإلا فهذه الصفة لا تعرف إلا بأنها تطلق على الله عز وجل، بخلاف الرحيم، فإذا اختصت الصفة بأطلاقها على الله عز وجل والثانية يمكن أن تطلق على الخلق، فما الأعظم؟ ما اختص به أم ما اشترك به، أقصد الإطلاق، فما اختص به أعظم، ولذلك جعل الرحمن أبلغ من الرحيم، وهذا تفسير لكلمة إبن عباس رضي الله عنه، أحدهما أرق من الأخرى.

وهناك في الحقيقة دليلٌ ثالث، وهو أنهم يقولون: «بأن زيادة المبنى تدل على زيادة معنى»، فرحيم أربعة حروف، لكن رحمان خمسة حروف، فزيادة المبنى أي زيادة مبنى الكلمة يدل على زيادة المعنى، وهذا يذكرونه كثيراً وهم يصطرخون فيها، كلما أرادو أن يزيدوا في دلالة اللفظ، زادوا فيه حروفاً ليدل على المعنى المراد في نفس المتكلم، فلما قال: رحمان، مبني أكثر، فدلت على أعظم، وهذا بيّن وهو جيد.

لكن ما هو مقتضى هاتين الصفتين؟ فالرحمن أبلغ والرحيم هي بما تقدم أنها أقل دلالة على الرحمة من الرحمن وإن كانت عظيمة، فكيف تستخدم وفي ماذا تستخدم؟ هنا وقعوا في كلامٍ كثير، فقالوا: رحمن أي رحمته التي تشمل المؤمن والكافي والوجود كله، إنما أبلغ أن تشمل المؤمن والكافر، فرحيم لأنها أقل دلالة من هذا، فقالوا: تطلق فقط على إحسانه ورحمته على عباده المؤمنين يوم القيامة، هذا من أقوالهم.

هنا ملحظ انتبه إليه صاحب «المنار»، وقال: بأنه إذا أطلقت صفة الرحمن للدلالة على المبالغة في الرحمة، لا يعني أن أفرادها أقل أو أكثر مما تشير كلمة رحيم في دلالتها على بعض أفرادها، صحيح هيا في إطلاقها على الجميع أبلغ، لكن لا يعني أن كل رحمةٍ على كل أحد هي أعظم من كل رحمةٍ تُفعل أو تقع من صفة الرحيم، يعني صحيح

أن صفة الرحيم هي على المؤمنين، ولكن ما يقع لهم من أفراد الرحمة أعظم مما يقع على أفراد المؤمن والكافر في الدنيا، هذا ملحظٌ جيد.

وابن القيم رحمه الله في كتابه «بدائع الفوائد» قال كلامًا جميلاً ورائعاً وعامة من ينقل هذه الكلمة ينقلها عن ابن القيم رحمه الله ويسكت، وبل ابن القيم رحمه الله يقول في كتابه «بدائع الفوائد» وهذا المعنى لا تجده إلا في هذا الكتاب، في المجلد الأول، يقول كالتالي: «بأن الرحمن هي صفة ذات، والرحيم هي صفة فعل»، ويستدل على هذا بأن الرحيم نجدها تطلق على أفراد المرحومين على فعل، كقوله ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، يقال: رحيمٌ بعباده، لا يقال: رحمنٌ بعباده، فدل حين وقوع الأفراد منه جل في علاه، أفراد الرحمة أي أن تكون فعلاً، فحينئذٍ تستخدم صفة الرحيم.

إذن الرحيم عنده صفة فعل، ولكن الرحمن هي صفة ذات، لأننا لا نجدها تستخدم كفعل لا تستخدم في الكتاب ولا في السنة صفة فعلٍ للآخرين، فهي صفة ذات، وبلا شك أن صفة الذات أجلى وأعظم من أن تكون صفة الفعل، بل إن صفة الفعل لا تكون مشتقة إلا من صفة الذات، هذا المعنى عليه ملاحظات الذي قاله ابن القيم رحمه الله.

الأمر الأول: صاحب «المنار» وهو الشيخ رشيد رضا وعامة كتابه أخذه من شيخه محمد عبدو، يقول: أن أستاذه محمد عبدو كان يعكس المسألة، ويستدل على هذا باللغة، كيف؟ يقول: نحن نرى أن رحيم هي من صيغة فعيل، كقولك: عليم، حكيم، حليم، جميل، وأنت ترى هذه الصفات ترى أنها تطلق على صفة الذات في الموصوف، لكن بخلاف ما لو جئت إلى صيغة فعلان، كقولك: عطشان، فإنها تدل على الفعل، من جهة اللغة أننا إذا جئنا إلى صيغة فعلان، عطشان، جوعان ... إلخ، هذه الصيغة المشهورة في العربية، قال: نجد أنها تدل على فعل، وهذا الفعل لا يثبت يزول، يذهب ويأتي، بخلاف صيغة فعيل فإنها تدل على الثبات، كما تقدم ذكره، حليم، حكيم، عليم، جميل... إلخ، فهو يعكس المسألة، هذا الذي قاله، وهذا لغةً لو أننا أردنا أن نتابع اللغة لكان في كلام محمد عبدو القوة على كلام ابن القيم، ولكن لما يرجع فيها إلى استخدام -بغض النظر عن الصيغة- لكن عن استخدام القرآن لأمريهما، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [طه: ٥]، فإنها قامت مقام الذات، صفة الرحمن هنا قامت مقام الذات، وحين نرى الرحمن في القرآن؛ نراها على هذا المعنى وهي أنها تقوم مقام الذات، فدلت على الثبات، ما دام أنها تقوم على مقام الذات فدلت على الثبات، بخلاف ما استخدامها نجده في القرآن، ولذلك الاستخدام ينصر كلام ابن القيم رحمه الله، واللغة شأنها مع من قيل، هذا واحد.

الأمر الثاني: فقط للعلم أن ابن القيم رحمه الله صادق، وهذا يدل على أن العلماء حين يدخلون باباً واحداً يخرجون بجواهر متقاربة إن لم تكن واحدة، فنحن نرى كلمة ابن القيم أنه يقول: لا تجدها، هو يقول في «بدائع

الفوائد»: هذه كلمة لا تجدها بغير هذا الكتاب، فدل على أنه دخل منفذاً فريداً، ونحن نجزم أن هذا المدخل الفريد الذي دخل منه دخل منه علماء آخرون فخرجوا بجواهر متشابهة أو واحدة.

فلذلك سأقرأ لكم ما يشبه جوهرة ابن القيم في كلام أهل العلم ومن سبق ابن القيم في خروجه بنفس الجوهرة، نفس الجوهرة التي قالها ابن القيم رحمه خرج بها العلماء السابقون، فقط هذا حتى نعرف قيمة أهل العلم وقيمة التفسير وندقق في الألفاظ لنرى مقصدها، دعونا نتكلم على من يشبه جوهرته أولاً: في كتاب الإمام أبي حيان الأندلسي وله عدة تفاسير، وأشهر المشهور هو «البحر المحيط في التفسير»، وابن القيم رحمه الله توفي سنة «٧٥١» للهجرة، وأبو حيان رحمه الله توفي سنة «٧٥٤» للهجرة، هل تقابلا؟ يمكن، وعندنا أبو حيان اثنان، أبو حيان الأندلسي المفسر اللغوي الشهير البلاغي المعروف، وعندنا أبو حيان التوحيدي الذي ذكرناه، في دروس الألف كتاب، عندما جئنا إلى كتابه «الإمتاع والمؤانسة»، وهذا أبو حيان جاء دمشق، وجلس عند ابن تيمية رحمه الله وأعجب به، وكتب قصيدة مشهورة في مدح ابن تيمية رحمه الله، ثم اختلف هو وابن تيمية رحمه الله في مسألة من مسائل النحو والإعراب، فابن تيمية رحمه الله رد عليه رداً شديداً، حيث استهل أبو حيان بكلامٍ لسيبويه، فقال له ابن تيمية رحمه الله: سيبويه ليس بنبي، وإني لأعلم كذا وكذا، وذكر سبعين أو ما يقارب خطأ في كتاب سيبويه لا تعرفها أنت ولا غيرك، فغضب أبو حيان، وذهب وذم شيخ الإسلام وحصل بينهم ما يحصل بين الأقران، هذا فقط لتعريف.

يقول أبو حيان الأندلسي: «فمبالغة فعلان –لأن قلنا الألف والنون دالات على المبالغة– مثل غضبان وسكران، من حيث الامتلاء والغلبة، ومبالغة فعيل من حيث التكرار والوقوع بمحال الرحمة»، هذه يشبهها، فعلان من حيث الامتلاء فهي حديثٌ عن الذات، لما تقول: واحد ممتلئ فهو حديثٌ عن ذاته، لكن لما تقول: فلان يتكرر منه كذا، حديث عن فعله، هذه كلمة تشبه جوهرة إبن القيم، انتبه لها حتى تدقق.

وكنت في الدرس الفائت أريد أن أقف على كلمة لابن كثير من أجل بيان عِظم هذه الكتب التي يمر عليها بعض الناس ولا يعرفون قيمتها، تذكرون لما قلت لكم الباء للاستعانة والمصاحبة فيما اختلف فيه الزمخشري مع الآلوسي، فلما تذهب أنت إلى ابن كثير، لا يمكن –وهذه نقطة مهمة– لا يمكن أن تعرف قيمة هذه التفاسير حتى تعرف من ناقشه في هذه الكتمة، ويأتي لك بكلمة ويمر عليها، هو لا يقول لك أنا أريد أن أناقش فلاناً ولا أرد على فلان، ولا أنا أرجح كلمة عن كلمة، فعلمائنا لا يتبجحون في هذا الباب، لا يأتون بهذا القائل بهذا الكلام، وقائل هذا الكلام، ويذكرون الأسماء والأدلة ثم بعد ذلك يقولون: هذا قولنا، لا.

ولذلك لما ذكره الشيخ عبد الرحمن المعلمي صاحب «التنكيل»، قال: من تقوى وتواضع الشافعي رحمه الله أن من ذكره من المناظرين له المحاجين له في كتاب «جماع العلم»، أنه المقصود به محمد ابن الحسن، وأنا في الحقيقة تعقبت هذه الكلمة ووجدت أن ليس المقصود دائماً محمد ابن الحسن، مرات محمد ابن الحسن مرات غيره، والشافعي رحمه

الله لما دخل العراق ليس بشيء مقابل من؟ مقابل محمد ابن الحسن، ليس بشيء، محمد ابن الحسن في العراق لما دخل الشافعي بغداد كان يملئ الدنيا، وكان من تواضعه لا يقول: وقد ناظرته وسكت وكذا، إنما يقول: ناظرت أحدهم من باب التواضع، وهذا مهم جداً في هذه الدروس، أن نقرأ لندقق ونعرف من يناقش هذا العالم في هذه الكلمة، فاتتني هذه كثير، لكن في الأيام قادمة سنرى في هذا الكلام الكثير وخاصةً عند إبن كثير، أنه يأتي بالكلمة ولا يمكن أن تعرف قيمة هذه الكلمة حتى تعرف الأقوال الأخرى وكيف هو خرج بهذا القول، كأنه يرجح القول في المسألة.

نرجع إلى الكلمة الجميلة، كلمة أبي حيان، انظر إليها وتأمل وتذوق، يقول: «فمبالغة فعلان –على أساس رحمان– مثل غضبان وسكران، من حيث الامتلاء والغلبة»، فهي صفة ذات إذاً، هذا ما قاله ابن القيم، «ومبالغة فعيل من حيث التكرار والوقوع بمحال الرحمة».

وكلمة أخرى جميلة له أريدكم أن تتفكروا فيها، أنا سأقف ثواني وأكرر الكلمة وأنتم ترددوها في أذهانكم لترو كيفية المشابهة والمقاربة للكلام، وقال ثعلب: «الرحمن أمدح، والرحيم ألطف»، عندما قال: «الرحمن أمدح»، في الدرس الفائت ما قلنا ما هو الأمدح الاسم أم الفعل؟ الاسم، والاسم هي صفةٌ متعلقة في الذات ملتصقة بها على الدوام، «والرحيم» ألطف، اللطف يكون صفة ذات، وصفة فعل، فالرحيم ألطف، هذه مشابهة.

قلنا إنما تكون الجوهرة مشابهة وإما أن تكون هي عينها، فنذهب إلى كتاب الإمام البغوي هذا الإمام الشافعي العظيم صاحب «شرح السنة» وله كتاب في التفسير اسمه «معالم التنزيل» وهو من كتب التفسير التي مدحها شيخ الاسلام ابن تيمية وقال فيها مقالاً جميلاً. –ابن القيم ماذا قال؟ قال لا تجدها في غير كتاب– قال: «فالرحمن عام المعنى –وهذا أغلبهم يقولون المعنى العام والخاص باللفظ– فالرحمان عام المعنى خاص اللفظ والرحيم عام اللفظ خاص المعنى»، وقال كلمة وهذه كلمة سنقف عندها وهي خطأ، تكتبونها وتجدونها في كثير من كتب التفسير، وهذه خطأ، وسنبين بعض فضائل كتاب تفسير ابن سعدي في هذا الباب– قال: «والرحمة إرادة الله الخير لأهله»، هذه خطأ، ليس هذا الموضوع، نحن مضطرين لأن العبارة قرأناها لاضطرارها وربطها بما يأتي، وقال: «هي ترك عقوبة من يستحقها»، الرحمة إما إرادة الخير أو ترك العقوبة لمن يستحقها، هذه رحمة، إما أن تقدم له وإما أن تمنع عنه الشر، قال: «وإزداء الخير إلى من يستحق، فهي على الأول، –أي الرحمان– فهي على الأول صفة ذات، وعلى الثاني صفة فعل»، فهذه الكلمة التي قالها ابن القيم رحمه الله وجدت في كلام غيره ويكفي إلى هنا في هذا الباب.

إذاً نحن اقتربنا إلى أن الأغلب يقولون على هذا المعنى، وهناك من يقول: بأن بالرحمة في الدنيا والآخرة، والرحيم في الآخرة، الرحمن على المؤمنين والكافرين والرحيم على المؤمنين ... إلخ فيما تقدم ذكره، وليس هذا بابه وقد اكتفينا فيما تقدم.

أما الرحمة، نحن رأينا هنا كلمة كانت لنا مفتاحًا للوقوف عندها، من أجل أن نُجّلي صفات ربنا عز وجل وأسمائه على المعنى الصحيح، ورأينا كلاماً عن الإمام البغوي ونجده في كلام كثير من أهل التفسير، وهو أن الرحمة «هي إرادة الخير للعبيد»، أنتم تعرفون أن أهل السنة يثبتون الصفات على حقيقتها، أي أنها صفة حقيقية لله عز وجل، وسواء كانت الصفات متعلقة بالذات أو الصفات المتعلقة بالفعل، وهناك صفات هي عينها صفات ذات وصفات فعل، كالنور مثلاً هي صفة ذات وهو منور للخلق، ويصفه في الحديث صلى الله عليه وسلم بأن الله عز وجل حجابه النور.

وكذلك نحن رأينا أن الرحيم هي صفة ذات وصفة فعل، وهكذا، فهذه الصفة لله عز وجل، هناك من أصحاب المذاهب هروباً من المشابهة، زعموا أن جميع الصفات الإلهية تعود إلى صفات سبعة، ما يهمنا في هذا الباب من هذه الصفات هي صفة الإرادة، وجعلوا ما رأيناه من الصفات الذاتية الحقيقة جعلوها على معنى الإرادة فقط، مثلاً: صفة الله عز وجل الإحسان هي إرادة الخير للعبد، والرحمن هي إرادة الخير للعبد، إذاً الإحسان هي الرحمن، طيب ما هو الرؤوف؟ هو إرادة الإحسان على الخلق، فربطوا الكثير من الصفات التي هي لها تعلق في الآخر لصفة الإرادة.

فصفة الإرادة لله عز وجل هذه نثبتها الله مريد بلا شك، ولكن هذه الصفة أن الله عز وجل مريد حين لا تكون إرادة لمخلوق قبل أن يخلق الخلق ألم تكن هذه الصفة لله عز وجل؟ فما هي هذه الصفة قبل وجود مقتضاها من فعل الرحمة، ما هي كانت؟ هي صفة لازمة للذات، ولذلك الرحمة هي صفةٌ لربنا سبحانه وتعالى، نعم انتبهوا، ما من صفة إلا ولها مقتضى، ماذا يعني مقتضى؟ أي قضت هذه الصفة بوجود كذا، ومعنى قضت أي أوجبت، لزم من وجودها وجود كذا، وحين نتكلم عن المقتضى لا يعني أن نلغي الصفة، لأن المقتضى ليس هو الصفة إنما هو أثر من آثارها، كيف؟ نحن رأينا من مقتضى الرحمة هو أن يرحم الخلق وأن يعطيهم ويرزقهم، رأينا الرحمة في الخلق، رأينا الرحمة في التشريع، رأينا الرحمة في الجزاء والحساب، هذه من آثار الرحمة، لكن هل في ذات ربنا صفة الرحمة قائمة به جل في علاه؟ نعم، وهي صفةٌ حقيقيةٌ على معنى هذه الكلمة بالتمام.

وهذه نقولها، فلما نقول نحن مثلاً: هل الله له صفة اليد؟ الجواب: نعم، لكن حين نفسر اليد ببعض آثارها ومقتضاها لا يعني أن نلغي الصفة، كقوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]، ما معنى ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾، هذه قوة، لكن هل هذا يلغي أن لله صفة اليد؟ الجواب: لا، الله له صفة حقيقية اسمها اليد، من مقتضى هذه الصفة أن يكون قوياً جل في علاه، هذا باب من أبواب أسماء الله وصفاته، ولوجود هذا المعنى انظروا إلى ما نبه عليه الشيخ السعدي في «تيسير الكريم الرحمن»، فقط من أجل أن تعرفوا لماذا يذكر العلماء هذه الكلمات، لماذا يذكرونها؟ لماذا ينبهون عليها؟ لماذا يأتون عليها دون غيرها؟ لهم مقاصد في هذا، يقول: الرحمن الرحيم اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة، الرحمة صفة ذات صحيح؟ وصفة ملك، هو يملك الرحمة وهي صفة ذات، وكلمة ذو يعني صاحب، هل لها معنى آخر ذو؟ نعم في لغة طيء مثل قولهم: عمر ذو

جاء أي عمر الذي جاء، وإنما في غير لغة طيء فذو بمعنى صاحب، مالكها، وكلمة ذات مولدة لا توجد في كلام الأقدمين أخذت من ذو.

انظر للشيخ السعدي يقول: «الرحمن الرحيم اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة، التي وسعت كل شيء وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله»، إذاً هو عم وخص، هي رحمة شاملة ورحمة خاصة، «فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيبٌ منها»، هذه الكلمات ترد على تلك الذي قال: إرادة الخير، هذه إرادة الخير، هل الرحمة هي إرادة الخير أم أن مقتضاها إرادة الخير؟ مقتضاها، «وأعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها الإيمان بأسماء الله وصفاته وأحكام الصفات، فيؤمنون مثلاً بأنه رحمن رحيم ذو الرحمة التي اتصف بها المتعلق بالمرحوم، فالنعم كلها أثرٌ من آثار رحمته وهكذا في سائر الأسماء»، عرفنا عما يتحدث وعما يتكلم، لا نريد أن نقرأ ماذا قال ابن كثير يكفي هنا.

إذاً أيها الإخوة الأحبة «بسم الله الرحمن الرحيم»، قلنا بأن كلمة «الله» أنه اسم الذات الجامع لجميع الصفات، الله عز وجل أي الاسم الجامع لجميع الصفات، هل داخلٌ في اسم الله الرحمن الرحيم أم لا؟ نعم، إذن الرحمن الرحيم صفتان داخلتان في اسم ربنا جل في علاه، وهو الله، فلماذا يخص ذكرهما؟ ذلك لجلالهما في الباب، الباب الذي نحن فيه، وهذا من باب أهل العلم الذي يسمونه باب ذكر العام ثم بعده الخاص، أو باب ذكر الخاص بعد العام لأهميته، وهذه رد على من ظن أن الجمع يقتضي المغايرة، لا، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥]، فعملوا الصالحات هو من باب ذكر الخاص بعد العام، وليس عما الصالحات شيءٌ خارجٌ عن الإيمان.

وكذلك ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فالرحمن الرحيم صفتان لله عز وجل داخلتان في اسم الذات «الله»، ومع ذلك قد ذكرتا بعدها لأهميتهما في الباب الذي نحن فيه، أستعين به، أو بالله أستعين، أو بالله أقرأ وهو الرحمن الرحيم، ولذلك قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾ [الرحمن: ١-٢]، لماذا؟ ثم قال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن: ٣-٤]، لماذا ذكر تعليم القرآن قبل خلقه؟ الزمخشري أتى بأجل ما يقال، وقال: «بأن ذكر التعليم مقصد الخلق، فذكر المقصد قبل الفعل»، ما المقصد من خلق الإنسان؟ أن يعبد الله، أي أن يتعلم القرآن، فذكر المقصد قبل الخلق، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾، هذا هو مقصده في خلقه ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾، وأما وسيلته ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾، وما شابه ذلك ليكون له مقامٌ خاص في وجوده، يخالف بقية المخلوقين، بما تميز الإنسان؟ بما علمه البيان.

ولكن لماذا المقصد قبل الخلق؟ ذكرت هذا، ابن المنير أعجبته هذه ولكن قال: هناك وجهٌ آخر، ابن المنير المالكي علق على تفسير الزمخشري، والزمخشري للذكر له «تفسير الكشاف الكبير» الذي كتب فيه تفسير سورة «البقرة»، فمرات تجده قال: وهذا في التفسير الكبير، لأن الزمخشري سمي جار الله، لأنه أقام عابدًا مُتحنثاً مُختلياً مُجاوراً في مكة،

الكعبة، هو معتزلي وحنفي المذهب، لكن لا تظنوا معتزلي أي قليل دين، إنما فرغ نفسه للعبادة في مكة، وكتب خلال جواره في المرحلة الأولى تفسير سورة «البقرة»، ثم أراد الرجوع لبلده فتعلق به أهل مكة، أين تخرج؟ اجلس وأكمل تفسير القرآن، فاستأذنهم ليذهب إلى بلده لمدة قليلة ويرجع إلى مكة ليتم تفسير القرآن، وبالفعل أوفى بعده، ذهب لأهله ثم رجع وأقام مجاوراً مرة أخرة وأتم التفسير الذي هو بين أيدينا، وهو معتزلي والناس مع اعتزاليته احتاجوا إليه؛ لكثرة ما شقق معاني بلاغية في القرآن.

والزمخشري هذا من أين أتاه فن البلاغة؟ أتاه من شيخه عبد القادر الجرجاني وذكره في تفسيره مرتين، وولد الزمخشري قبل وفاة عبد القادر الجرجاني ربما باثنتي عشر سنة، أظن هكذا، ودل على أنه علمه وقرأ كتبه، وجاء لكتب عبد القادر الجرجاني التي أرست ورسخت قواعد البلاغة، ومن أين جاء بها عبد القادر الجرجاني؟ جاء بها من كتاب سيبويه، كتاب سيبويه هو أصل العربية، فأخذ منها هذه الفنون البلاغية، وكتبها في كتابه «أساس البلاغة»، وكذلك في «دلائل الإعجاز» وفي «الرسالة الكاشفة»، كتب مجموعة كتب يبين فيها بلاغة هذه اللغة الشريفة، فالزمخشري أخذ هذه القواعد وطبقها على كل آية، فعّلها فأخرج تفسيره، ولذلك في الحقيقة تفسير الزمخشري هو تطبيقٌ عملي لما قاله الجرجاني.

القصد: بأن الزمخشري أتى بالعجائب من التشقيقات البلاغية مع أنه معتزلي، الناس احتاج إليه، فجاء ابن المنير رحمه الله، المالكي تلميذ ابن الحاجب وذكره كثيرًا في تعليقه، وأخرج بالمنقاش اعتزاليات الزمخشري، في كتابٍ له سماه «الانتصاف»، مع أنهم قالوا: أنه أخرج الاعتزاليات بالمنقاش، إلا أنه قالوا: فاته، وكذلك قابل الإمام البيضاوي وكذلك قام بعملية مراجعة واختصار للكشاف، وفاته، مع ذلك فاته، لدقة ما كان يستخدم محمود جار الله الزمخشري من فنونٍ في قضية إدخال الاعتزال في تفسيره، يُخفي، يسترها.

القصد في هذا: لماذا قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾ ثم قال: ثم قال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣)﴾ [الرحمن: ١-٣]، لأن تعليم القرآن هو المقصد، فقدم المقصد على الخلق، ما الحاضر أول الخلق أم المقصد؟ المقصد حاضرٌ واقعاً على الخلق بل هو أجّل، الخلق إنما ارتفعت درجة جلالتهم بسبب مقصدهم، هذه ليست من اعتزاليات الزمخشري ولكنها كذلك وقف عندها ابن المنير، قال: لا، المقصود بذلك ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾، ذكر الأمر قبل الخلق، ذكر الأمر أي يا ناس تعلموا القرآن، ذاك ذكر الأمر القدري وهذا ذكر الأمر الشرعي، وأنا علقت في «لحظات مع القرآن» على أن كليهما مقصود، واحضرت كلام ابن تيمية رحمه الله: أن عامة ما يذكر في كتب التفسير مقصود لأن الآية لا تحتمل معنى واحد فقط ولا اثنين، تحتمل معنيين، وثلاث وأربع ... إلخ.

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)﴾ [الفاتحة: ١]، إنما ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هو من باب ذكر الخاص بعد العام، لماذا؟ لضرورته في الباب؛ أن القرآن أنزل برحمة الله، ولذلك لا يقرأ إلا بالاستعاذة بهذا الاسم، نحن

قلنا الرحمن الرحيم لقدره ولشرعه، فأساس خلق الإنسان هو الرحمة، وأساس شرع الله هو الرحمة، فالقرآن لم ينزل على الخلق إلا بالرحمة فلا يستعان على قراءته إلا برحمة الله، ومن هنا كان هذا الافتتاح الجليل في كل سورةٍ تتلوها فتقول: «بسم الله الرحمن الرحيم» وليس لغيره.

وهذه الصفة الرحمن الرحيم بعض أهل العلم وأشار لها عامة من كتب فيها أن العرب لا تعرف صفة الرحمن، وأخذوها من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠)﴾ [الفرقان: ٦٠]، قالوا: وما الرحمن، وكذلك في قوله تعالى لما سمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (يا الله يا رحمن يا رحيم)، فقالوا: هذا يدعو آلهة متعددة مثلنا، فنزل قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، فله الأسماء، ولكن هو واحد.

وفي حديث صلح الحديبية لما جاء سهيل ابن عمر وكتبوا صك المعاهدة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي: (أكتب بسم الله الرحمن الرحيم)، قال سهيل: لانعرف الرحمن ولا الرحيم، أكتب بسمك اللهم، فبعض أهل العلم قال: العرب لا تعرف الرحمن، ابن كثير في تفسيره لم يرضى هذا وذكر أشعار العرب أنهم يعرفون اسم الرحمن، والظاهر أن العرب ليسوا شيئاً واحداً، هناك من يقول بها وهناك من ينفيها، والأقرب إلى أنهم لا يعرفونها، وليس فقط في حديث صلح الحديبية، بل في حديث سعد ابن معاذ رضي الله عنه في بيعه مع أبي جهل -في قصته في صحيح البخاري في كتاب البيوع- كذلك رفض أن يكتب اسم الرحمن، ولذلك العرب لا تعرفه.

ويقول بعض أهل التواريخ وبعض أهل التفسير بأن صفة الرحمن هي أغلب ما خوطب بها أهل الكتاب، ولذلك تجدونها عند قوله تعالى في سورة «مريم» وسورة «الأنبياء»: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨)﴾ [مريم: ٨٨]، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦)﴾ [الأنبياء: ٢٦]، بينما نراها في سورة «البقرة» ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦]، وكذلك في سورة «يونس» وسورة «الكهف»، وأما في سورة «مريم» وفي سورة «الأنبياء» ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾، وهذا يشهد لما قاله بعض أهل التواريخ: بأن أهل الكتاب إنما يعرفون هذه الصفة، وهم أكثر الناس تعاملاً بها.

بعض أهل العلم قالوا: لماذا سورة «التوبة» لم تأتي فيها هذه الآية ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، هذا قول ضعيف ولكن يستأنس به، قال: لأن مطلع السورة يتعلق بالبراءة، والبراءة هي الطرد من رحمة الله، وهي العذاب والعقوبة، فكيف يقال: «بسم الله الرحمن الرحيم»، في الحقيقة لو صح هذا القول، فلماذا يقال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)﴾ [المسد: ١]، كذلك عذاب، ولكن لنمشي معهم فيها.

وأكثر سورة ورد فيها اسم الرحمن هي سورة «مريم»، ذكر فيها اسم الرحمن سبعة عشر مرة، لماذا قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم: ٤٥]، فالعذاب كيف يتوافق مع اسمه جل في علاه الرحمن، وأنا كتبت فيها

ولكن علق أحدهم كلمة ابنهُ في الحقيقة، ابن الشيخ رحمه الله رفاعي سرور –وهي كلمة جميلة، أنا درت حولها مع شيء من الزيادة لكني سأكتفي بكلمته لجلالها– قال كان أبي يقول: «لأن المرء لا يقع في موجب العذاب حتى تُستفرغ صفة الرحمة» –وهذا الذي ندور حوله– أي عندما يعذبك الرحمن تكون لا تستحق الرحمة أبداً، فأنت حين تستحق العذاب.

فمثلاً: الآن واحد يعلم أن أمه بارةٌ به أشد البر، رحيمةٌ به أشد الرحمة، ويعلم ذلك منها، فترى أنت تعرف هذه الأم أنها بمثل هذا البر والرئفة والرحمة والإحسان والقلب الرقيق والعطوف، فبعد ذلك تجد يوماً تضرب ابنها ضرباً شديداً، ماذا تقول؟ إنه لم يقع منها هذا الفعل حتى أتى هذا الطفل بشيءٍ عظيم، فخرجت الرحمة وحل محلها العقاب.

فلما قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ هي دعوةٌ له أن يتعلق برحمة الله الوسيعة، أن يتعلق باسمه الرحمن، فإذا وقع عليه العذاب يكون قد استفرغ أسباب هذه الرحمة، بهذا نقف وبارك الله فيكم نحن الآن نتكلم عن أفراد كل آية، وبعد ذلك ننظر إلى الآية نظرةً كلية كما سنفعل مع سورة «الفاتحة».

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس السادس

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أما بعد، فالحمد لله، أهلاً وسهلاً بكم أيها الإخوة الأحبة في الدرس السادس من دروس التفسير، وما زلنا مع آية ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وقد تقدم أن الأقرب إلى الصواب والله تعالى أعلم أن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هي آية من القرآن، على أن الخلاف فيها موجود وله وجوه من النظر، وقد اختلف فيها على قولين، والقول الثاني كذلك تفرعت عنه أقوال، فكما تقدم:

القول الأول: بأن بعض أهل العلم يقول بأن «بسم الله الرحمن الرحيم» ليست من القرآن، وهي إنما جُعلت للتبرك.

القول الثاني: أنها من القرآن، وهذا القول الثاني تفرع عنه قولان:

القول الأول: أنها من السورة.

القول الثاني: أنها ليست من السورة.

والقول الأول: أنها من السورة تفرع عنه قولان، القول الأول: أنها جزء من الآية الأولى، والقول الثاني: أنها آيةٌ مستقلة، فهذا خلاصة ما ذكر فيها.

وقد وقفنا عند قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، وهتان الصفتان لله عز وجل اشتقتا من مصدرٍ واحد وهو الرحمة، وإذا اشتق من المصدر الواحد صفات متعددة دل عند أهل العلم على عظمة هذه الصفة، هو المصدر الرحمة، كما في الحديث: (لما خلق الله الرحم تعلقت بقوام العرش)، الرحم: كالأم والبنت والأخت والعمة والخالة، فتعلقت بقوام العرش، وقالت: (هذا مقام العائذ بك من القطيع)، استعاذت بالله أن تقطع وذلك لحاجتها وضعفها وعدم قدرتها على القيام بنفسها على نفسها، فاستعاذت بالله من أن تقطع، وهي أرادت الاستعاذة القدرية أن لا يحصل لها قطيع وأن تبقى على الدوام محمية من الضعف، فقال لها الله عز وجل: (أما ترضين أني اشتققت لكي اسماً من اسمي)، فالله

اسمه الرحمن الرحيم، وهي سميت الرحم، فاشتق الله عز وجل لها اسماً من أسمائه، (وما ترضين أني اشتققت لك اسماً من اسمي، وأن أصل من يصلك، وأن أقطع من يقطعك).

فدل هذا على أن هذه صفة لله عز وجل وهي مشتقة من الرحمة، وما دام أنه اشتق من هذه الصفة اسمان، ليس اسم واحد، يعني السميع من السمع، اشتق اسم واحد، البصير اشتق من البصر، اسم واحد، لكن هذه الرحمة لعظمتها اشتق منها اسمان، الرحمن الرحيم، وتقدم الكلام بأن الرحمن هي صفة ذات، صفة ربنا أنه الرحمن، وأما الصفة الفعل الواقعة على العبيد فهي الرحيم.

ولذلك كما يقول ابن القيم رحمه لم نرى في القرآن تعلقاً بفعل ربنا نحن خلقه إلا وقد ذكر الرحيم ولم يذكر الرحمن، قال تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة: ١٢٨]، ما قال رحمن.

وهذه الصفة أيها الإخوة الأحبة من مزيد فضلها أنه ورد في القرآن أن يُسأل ربنا بها، لأن الله عز وجل يُتوسل إليه، أول ما يُتوسل بأسمائه وصفاته، يعني إذا أردت أن تسأل الله بشيء تسأله بأسمائه وصفاته، تقول: يا رحمن أسألك برحمتك، أسألك بموجبات رحمتك، أسألك بمغفرتك، ولا بد من وجود علاقة بين ما تسأله وما تسأل به، أي لا يجوز لك أن تقول: يا جبار اغفر لي، فهذا لا يليق بالله عز وجل، فإنك إذا أردت الرحمة الله عز وجل سألته باسمه الرحمن، باسمه الرحيم، وإذا أردت المغفرة سألته باسمه الغفار الغفور، وهكذا، فلا بد من العلاقة بين الذي تسأله وبين ما تسأل به، ما تتوسل به.

فقلنا بأن القرآن جعل هذه الصفة مسؤولٌ بها، أي وسيلة إلى الله عز وجل للتقرب، وجعلها غاية للسؤال، الرحمن هذه صف الرحمة –أعيد الكلام حتى يفهم– هي مقصودةٌ للعبد بذاتها، وبما أوجبت، فالعبد يسأل ربه الرحمة، وكذلك يسأل الله سبحانه وتعالى بالرحمة، لنرى هذا في القرآن نفتح على سورة «الأعراف» حتى نرى على عادة الطريقة التي نتبعها إن شاء الله فيها الخير، فموسى عليه السلام في سورة «الأعراف» –نحن نضطر في كل مرة أن نبين حتى لا نرمى بالجهل في صغائر الأمور، وإلا فالجهل فينا حقيق، نحن جهلة ولا شك لكن هناك من الجهل ما هو عيب وعار– ففي الصفحة «١٦٩» وإن كان العزو إنما يكون للسورة وللآية وليس للصفحة، ولكن لأن الآن المصحف الذي نقرأ به تقريباً متفق عليه للقراءة وهو خط الأستاذ عثمان طه.

ففي الصفحة «١٦٩» انظر إلى موسى عليه السلام ماذا يقول: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)﴾ [الأعراف: ١٥١]، فجعل الرحمة وسيلةً للسؤال وجعلها مقصداً للسؤال، فموسى عليه السلام سأل الله برحمته أن يدخله في رحمته، فالرحمة مقصودةٌ للعبد وبها يتوسل العبد لربه لبلوغ حاجته.

وفي آيةٍ أخرى، وهذه الصفحة احفظوها، سنعود إليها لأن الصفحة التي تليها فيها كذلك فائدة فيما يتعلق برحمة الله، في سورة «النمل»، صفحة «٣٧٨» ماذا يقول سليمان عليه السلام؟ يصف الله عز وجل سليمان فيقول: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾ [النمل: ١٩]، فجعل سليمان عليه السلام الرحمة وسيلة.

وبهذا أيها الإخوة الأحبة يعلم العابد، يعلم المسلم، بأن يتعلم التقرب إلى الله سبحانه وتعالى في طلب حاجته بأن يتوسل إليه بهذا الاسم الجليل، والله يحب ذلك، فصفة الرحمن محببة إلى الرحمن، ويجب أن تكون في العبد، وخلق الوجود على وفق قانون الرحمة، والعبد والعباد محاسبون على وفق قانون الرحمة، -انتبهوا- الخلق وجد على وفق قانون الرحمة، هذا الوجود العطاء الإلهي على وفق قانون الرحمة، ويتنعمون به على وفق قانون الرحمة، وشرعت الشرائع على وفق قانون الرحمة، ويحاسب العبد يوم القيامة على وفق قانون الرحمة.

ولذلك كما وعدناكم في سورة الأعراف في صفحة «١٧٠» يقول موسى عليه السلام: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] الله رد على هذا الدعاء، قال: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، هذا على وفق القانون القدري، هل كل شيء، المسلم والكافر والبار والعاصي والخلق جميعاً هل هم خُلقوا وعلى وفق الرحمة ويعيشون وفق الرحمة؟ الجواب: نعم، فإذاً القانون القدري في الوجود، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، كل شيء، هذه «كل» من ألفاظ العموم، لم يدخل الخصوص أبداً، كل شيء مخلوق على وفق الرحمة، لكن بعد ذلك هناك رحمة خاصة، هناك يوم القيامة رحمة خاصة، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾ [الأعراف: ١٥٦]، هذا وجهٌ من وجوه التفسير.

ووجهٌ آخر من وجوه التفسير: أن الرحمة كان أمرها أن تسع الناس جميعاً، لكن بعض الخلق لم يقبلوا هذه الرحمة ولم يستحقوها، ولم يأتوا السبيل إليها.

الوجه الأول: ذكرنا أن رحمة الله وسعت كل شيء على الوجه القدري، ثم يوم القيامة تكون الرحمة خاصة لمن استحقها، فيما ذكرت صفاتهم في الآية هنا، ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، هذا وجه من وجوه التفسير.

الوجه الثاني: أن الرحمة كان ينبغي أن يدخل فيها الخلق، لكن هناك من دخلها وأتى سبيلها وهناك من أعرض عنها وتركها، ولذلك قال تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾، هي وسعت كل شيء على جهة الأصل، ولكن لم يأتها أقوام ولم يستحقوها، وذلك لمخالفتهم أمر الله عز وجل، فلا يستحقون الرحمة، هذا وجه من وجوه التفسير الآخر.

لكن هنا أريد فقط أن أتي إلى نقطة مهمة، وهو لماذا ذكر هنا فقط الزكاة؟ هذه هنا فقط نحن نمر ولا نريد أن نمشي بطريقة أكاديمية فقط نقتصر عما نحن فيه، لكن إذا جاء شيء من الخير ندخل فيه، حتى لو كان خارج ما نحن فيه من السياق، لما فيه من فوائد، يخدمنا نحن من قضية الرحمة التي هي بين أيدينا، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، والتقوى عامة يدخل فيها المزكي، يدخل فيها الحاج، يدخل فيها الصائم، يدخل فيها المصلي، فلماذا ذكرت فقط الزكاة هنا؟ لأنها الموافقة للرحمة، على قوله صلى الله عليه وسلم: (الراحمون يرحمهم الرحمن)، وأعظم درجات الرحمة هو أن تبذل من مالك، ما أغلى عند الإنسان المال أم النفس؟ المال؟ ولذلك المرء يموت في سبيل ماله، ففي الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (من قتل دون ماله)، فالمرء يبذل روحه من أحجل أن يصد المعتدي والصائل على ماله، ولذلك جاء ذكر الزكاة هنا لأنها الأقرب والأعلق بقضية الرحمة؛ كون الزكاة مظهر من مظاهر العبد الذي يستحق هذه الرحمة.

والامر الثاني: نحن ما زلنا في سورة «الأعراف»، نحن نعرف دائماً أننا نجد المغفرة ثم الرحمة، كما في الآية التي قبلها، قال موسى عليه السلام: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وهذا الذي تجري عليه الآيات، دائماً تجري الآيات على قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩)﴾ [المؤمنون: ١٠٩]، دائمًا المغفرة ثم الرحمة لأن الرحمة لا يستحقها إلا من غُفر له، ولأن الرحمة لا يتعلق أمرها كما ينبغي حتى تقع المغفرة، ولأن العبد يحب المغفرة أكثر من الرحمة كون المغفرة هي حق الله عز وجل، والرحمة هي حق العبد، المغفرة هو اسقاط الذنب، المغفرة حق الله، الله غضب لأنك أنت عصيته، لأنك أنت لم تصلي، لأنك أنت عصيت أمره، فالمغفرة هي حق الله عز وجل، والرحمة هو أن ينزل عليك عطاءه فهي حقك، فيقدم العبد عادةً حق الله على حقه، وهذا قانون وجودي، أن «الواجبات قبل الحقوق»، أي قبل أن تسأل حقوقك المطلوب منك أن تقدم واجباتك.

لكن نحن نرى فقط في آية واحدة في القرآن نجد أن الرحمة مطلوبةٌ من سائلها قبل المغفرة، وذلك في سورة «الأعراف»، الصفحة التي قبلها صفحة «١٦٨»، يعني أن عبد بنو اسرائيل العجل، وقعو في هذه الجريمة المنكرة، فعلموا أنها معصية وقعت، فما الذي قالوه؟ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)﴾ [الأعراف: ١٤٩]، هذه هي الآية الوحيدة في القرآن الذي تقدم فيها ذكر الرحمة على المغفرة، لماذا؟ هناك أسباب يمكن أن نستطلعها:

أولاً: أن الحديث هو عن بني اسرائيل وهذا شأنهم، الحديث عمن في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾؟ الحديث عن بني اسرائيل، والقرآن عندما يقدم بني اسرائيل يقدمهم على الوجه الذي يستحقونه، فشأنهم أنهم طلبوا الرحمة قبل المغفرة، فهذا يليق بقلوبهم، والناس إنما تعبر ألسنتهم عما في قلوبهم، تبين عما في صدورهم، فإذا كان

الإنسان في قلبه طلب القرب من الله عز وجل أكثر من طلب حاجته فماذا يصنع؟ يقدم طلب الله عز وجل وحق الله عز وجل على ما يريد، على ما يحب.

فاللغة إبانة عما في النفس، هذا تكلمنا عنه كثيراً، لما فسرت سورة «الأنعام» تكلمت فيه، يعني مثلاً في سورة «المائدة» أيها الإخوة ماذا قال الحواريون لما طلبوا المائدة، ماذا قالوا؟ ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ١١٣]، فطلبوا الأكل أولاً، لكن لما جاء عيسى عليه السلام هل قدم الأكل عند سؤاله المائدة من ربه؟ قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)﴾ [المائدة: ١١٤]، ما قال نأكل منه، قال: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾، عبادة، العيد العبادة، العيد في الأمم عبادة فقدم أن تكون عبادةً لله، فانظروا الفرق بين هؤلاء وبين هؤلاء، فالذي يليق في هذا أنه يليق بهم؛ أنهم طلبوا حاجتهم قبل أن يقدموا حق الله وهو المغفرة.

وهناك قول آخر يمكن أن العذاب نازل عليهم في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ وسوء العذاب فوقهم، فلما رأوا العذاب طلبوا الرحمة أولاً، لأنها هي المطلوب في الحال، وبعد ذلك المغفرة، الآن ارحمنا وأصرف عنا عذابك ثم بعد ذلك تحقق، هذا وجهٌ آخر في هذا البيان، وهنا نقول ما قلته في الدرس الفائت، لما جاء في الحديث القدسي، قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢)﴾، قال ربنا عز وجل: (أثنى علي عبدي)، أثنى أي كرر ذكر المحاسن، كررها فلم يذكرها مرة، ما قال: الرحمن، وما قال: الرحيم، بل قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

وهذه الآية العظيمة، هذه سر، هذه مفتاح الوجود، فلذلك على المرء أن يستفتح بها حياته، ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، أن يفتتح بها حياته، إذا أراد أن يقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، إذا كتب رسالة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، إذا أراد أن يأكل «بِسْمِ اللَّهِ»، ولأن هذه الكلمة تطرد الشيطان، فإن رجل قال: تعس الشيطان، قال صلى الله عليه وسلم: (دعك منها فإنك إن قلتها تعاظم الشيطان) -وهذا من فضائل «بسم الله الرحمن الرحيم»، (تعاظم الشيطان، ولكن قل «بسم الله» فيخنس الشيطان)، فمعها يخنس الشيطان، خلاص، لا تلتقي تسمية الله عز وجل الفاتحة للخير المانعة للشر، لا تلتقي مع الشيطان، والشيطان لا يأتي إلا باب وسبيل المعصية، ولذلك على المرء أن يتعلق بهذه الكلمة وإذا أكل «بسم الله»، إذا نام «بسم الله»، إذا خرج من بيته «بسم الله»، إذا أتى أهله «بسم الله»، وهكذا لأنها هي مفتاح الخير، وتكلمنا بما فيه إن شاء الله المنفعة لا أقول الكفاية لا يوجد كفاية مع كتاب ربنا عز وجل.

وهنا مسألة، نحن نعلم أن الفاتحة هي السبع المثاني، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: (هي السَّبْعُ المثانِي، والقُرْآنُ العَظِيمُ الذي أُوتِيتُهُ)، لكن نحن -وهذا وجه- لما نأتي إليها، فإما أن نعد ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ آية فيكون عددها سبع آيات، قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الفاتحة: ١-٧]، ونحن مرات نرى أن بسم الله الرحمن الرحيم لا تعد، نجد أن عدد آياتها ستة، وبعضهم يعد ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ويفصل بينها، والذي عندي أن المسألة قريبة، أن هذه السورة لجلالها ولعظمتها نزلت أكثر من مرة، فنزلت على هذه الوجوه، قراءات، فالمسألة ليست معقدة ولا شديدة، وإذا كان أمر سورة «الفاتحة» عظيماً استحقت أن تنزل عدة مرات لجلالها ولعظمتها وللتنبيه عليها، وقد ورد في ذلك آثار أنها نزلت في مكة والمدينة، ولذلك وفقوا بين القولين، هل هي مدنية أو مكية؟ والصواب أنها مكية، لكن هل نزلت في المدينة؟ والله أعلم أنها نزلت عدة مرات والله تعالى أعلم.

وفقط أختم بهذه الكلمة، وهو أنه ما دام أن القرآن نزل برحمة الله فلا بد أن يستعان عليه قراءةً وفهماً وعملاً، لا بد أن يستعان على هذه الرحمة المهداة بالرحمن الرحيم، ولذلك هي ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ويكفي أن عنوان تعامل العبد مع الله هو هذه الكلمة الجليلة، عنوان تعامل العبد مع الله وهو أنه رحمن رحيم، وأن رحمته سبقت غضبه، والله يحب أن تشيع هذه الصفة بين العباد، فقال صلى الله عليه وسلم: (الراحمون يرحمهم الرحمن)، وكلما أردت أن تتقرب إلى الله عز وجل، فتقرب إليه بالعفو والمغفرة وبرحمتك على الخلق.

والآن نأتي إلى الآية التالية أيها الإخوة الأحبة الآية الثانية التي بين أيدينا في سورة «الفاتحة» وهي قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢]، الحمد أيها الإخوة الأحبة، هو ذكر خصال الخير في المحمود في المذكور، أن تذكر خصاله، وذكر هذه الخصال تفرح الله عز وجل، وكأن ذكر هذه الخصال تؤدي حمداً لله عز وجل على ما أولاك وأعطاك، لأن الاعتراف بعطاء الله عز وجل لك، والاعتراف بما أعطاك الله وأكرمك، إنما هو ثناءٌ عليه، إذن هو ثناء، ما معنى ثناء؟ قلنا تكرر، وهو أنك ترد ما أعطاك الله عز وجل من مكانٍ وعطايا أن ترد عليها ما يوجبها عليك؛ وهو أن تثني على من أعطاك إياها.

وتقدم الكلام أيها الإخوة الأحبة في كلام القرطبي رحمه كلام رائعاً جميلاً، قال: «لما علم الله جل في علاه أن العبيد لا يستطيعون حمده، ولا يقدرون على الثناء عليه، تكفل الله بأن يحمد نفسه، فقال: الحمد لله»، لما علم الله أن عبيده أعجز وأجهل من أن يثنوا عليه كما ينبغي فيما خلق وأوجد وأعطى وأكرم، لما علم أنهم أضعف وأعجز وأجهل من أن يحمد الله، ما الذي فعله؟ تكفل جل في علاه بأن يحمد نفسه بنفسه، فقال: الحمد لله؛ ذلك لأن العبيد لا يمكن أن يحصوا ثناءً على الله، كما جاء في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (لا أُحصي ثناءً علَيكَ أنتَ كما أثنَيتَ علَى نفسِك).

لماذا يعجز العبد؟ لأنه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾، هناك آيتان، الآية الأولى قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل: ١٨]، طب لماذا غفور رحيم؟ ما

العلاقة بين ذكر نعم الله التي لا تحصى أي لا تعد، وبين قول الله عز وجل: ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؟ شرحت في آية أخرى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فلِمَ عجز العبيد؟

أولاً: ظلوم بما ينسى من النعم، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ﴾، لماذا ظلوم؟ لما ينسى.

ثانيًا: كفورٌ بما يجحد، ﴿كَفَّارٌ﴾ لماذا؟ لما يجحد، يعني الظلوم ينسى، ولكن الذي يكفر يذكر ولا يعترف ويجحد.

فالإنسان هذا حده مع النعم، هل يستطيع أن يحصي نعم الله؟! فإما أن ينساها، وإما أن يعلمها فيجهلها، وفي كلاهما لا يعدها ولا يحصيها، فلذلك قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾، لماذا لا تحصيها؟ إما أن تعلمها فتجحدها وإما أن تأتيك فتنساها، ولذلك هذه الآية ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم: ٣٤]، يقابلها: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل: ١٨].

إذن أيها الإخوة الأحبة، لما علم الله نعود لهذه الكلمة الجليلة، وهذه كلمة الحمد، أيها الإخوة الأحبة: هذه الكلمة كلمةٌ عظيمة، وفي الحديث (أعظم الذكر لا إله إلا الله، وأعظم الدعاء الحمد لله)، لماذا؟ يعني أعظم الذكر مفهومة أن توحد الله معلومة أنها ذكرٌ لله، «لا إله إلا الله» هي ذكر، لكن كيف يكون حمد الله دعاء؟

الدعاء أيها الإخوة الأحبة كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، إما أن يكون دعاء مسألة وإما أن يكون دعاء عبادة، والحمد لله جامعة لدعاء العبادة ودعاء المسألة، قال: (والحمد لله هو أعظم الدعاء)، الحمد لله هي دعاء عبادة، لأنها ثناء على الله عز وجل، أنت تثني على الله عز وجل، فهذا حقه، فهذه عبادة، وأن تنسب كل خيرٍ له وكل وجودٍ له وأن تنسب كل عطاءٍ له وأن تنسب كل مكرُمةٍ له وأن تسبحه؛ فتبرءه من كل الدنس، ومن كل ما يطرأ على أذهان البشر من الغلط، تبرء الله عز وجل، فهذا هو تأليه الله عز وجل، وهو «لا إله إلا الله» أي لا يستحق العبادة إلا الله، بما استحق العبادة؟ لأنه هو أوجد كل شيء، وهو الذي خلق كل شيء، ولا يحصل من نعمةٍ في الوجود إلا من يده، لذلك هذه ثناءٌ على الله؛ فهذا دعاء العبادة، الحمد لله هنا ثناء على الله فهي دعاء العبادة.

لكن كيف تكون دعاء مسألة، لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فحين يحمد العبد ربه ويثني عليه يكرمه بالعطاء، فيكون هذا الثناء سبباً للعطاء، فهو دعاء مسألة، فإذا أردت عطاءً من الله عز وجل، فأكثر من حمده جل في علاه، حينئذٍ يُكثر العطاء لك، ومن هنا الحمد لله أفضل الدعاء، إذا أردت باباً من أبواب الخير فعليك بهذا الحمد.

وهذه الكلمة الجليلة لابد أن نعرف معناها، ولكن ابتداءً لجلالها قارن العلماء في كتبهم بين فضيلتها وفضيلة كلمة التوحيد، هناك من أهل العلم من جعل هذه الكلمة الحمد لله أجّل وأعظم من كلمة التوحيد، ومن هؤلاء ابن

عبد البر رحمه الله، والصواب أن هذه الكلمة هي أعظم العبادة، فنحن نقول «لا إله إلا الله»، ما معناها؟ معناها: لا معبود بحق إلا الله، يعني لا يستحق العبادة إلا الله، وأعظم العبادة الحمد لله، فالحمد لله هي تطبيقٌ واقعي وكاملٌ وعظيم لكلمة «لا إله إلا الله»، أي لا يستحق العبادة إلا الله، حينئذٍ يسأل العبد ما هي أعظم عبادة؟ أريد أن أعبد الله؟ فيقول قل: الحمد لله، فقد أتيت بأعظم العبادات، فتطبيق «لا إله إلا الله» هو «الحمد لله رب العالمين».

و«الحمد» أيها الإخوة الأحبة هذه كلمة لا بد من الوقوف على معانٍ كثير لها وعلى مسائل متعددة لها، يكفي أيها الإخوة الأحبة أن هذه الكلمة هي أول كل شيء في تعبد العبد لربه، وهي خاتمة الوجود، وهي ما يختم العبد في الجنان كل موقفٍ له وعطاءٍ يحصل له، ونفتح الآن القرآن لنرى أنها هي في الأول الحمد لله وفي الآخر الحمد لله، والحمد لله في السماوات والأرض، والحمد لله في كل حال وفي كل موطن يبتدأ بها ويختتم بها، انظر إلى قوله تعالى، فقط لنرى كيف أن القرآن جعلها فاتحة كل شيء وخاتمة كل شيء، نفتح سورة القصص صفحة «٣٩٣» انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)﴾ [القصص: ٧٠]،

فإذن مبتدأ كل شيء هو الحمد، وهنا سنقف عندها، أن الله استحق الحمد قبل أن يُنعم على الخلق –هذه سنأتي إليها– أن الله جل في علاه استحق الحمد أن يكون محموداً جل في علاه وأن يحمده الخلق قبل عن يُنعم عليهم بالوجود والخلق والإمداد والنعم قبل كل شيء، هذا سنبينه لأن الحمد ليس هو فقط ذكر الممدوح ولا المثنى عليه فقط بما يُعدي على الخلق من نعم، لا، لا، هو أجل من ذلك، الحمد أجل من ذلك بكثير، انظر كيف أن الله ذكر الحمد هنا في الأولى والآخرة، انظر في مطلع سورة «سبأ»، صفحة «٤٢٨» الآية الأولى، قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١)﴾ [سبأ: ١]، ولو قال قائل: فأين الحمد في الأولى؟ أي لماذا قال فقط هنا الآخرة ولم يقل الحمد في الأولى والآخرة؟ لأن قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هي هذه الأولى.

وافتحوا على سورة «يونس» وانظر إلى قوله تعالى على ما قلنا، قلنا إن الحمد في الأولى والآخرة كما قال ربنا جّل في علاه، وقلنا أن أخر موقف ينتهي به العبد في الدنيا وآخر كل موقف يقفه في الآخرة وآخر كل عطاءٍ يعطى يوم القيامة في الجنان هو أن يقول: الحمد لله، انظر إليه، صفحة «٢٠٩» ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩)﴾ [يونس: ٩]، فقط في ثلاثة مواطن ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ ثلاث مواطن فقط في القرآن، وإلا في بقية الآيات في القرآن قال تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي الجنة، وأما من تحتهم أي تحت العبيد تجري الأنهار، الموطن الأول هو في هذه السورة سورة «يونس»، والموطن الثاني في سورة «الكهف» –فقط هذا من أجل الهوامش من الفوائد للحفاظ حتى يعرفونها وينتبهون إليها– قوله تعالى في سورة الكهف صفحة «٢٩٧»: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الكهف: ٣١]، والموطن الثالث في سورة

«الأعراف»، صفحة «١٥٥»، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وإلا بقية الآيات في القرآن قال تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي الجنة الضمير يعود للجنة، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ﴾ أي أهل الجنة.

والآن نرجع للحمد انظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩]، هداهم إلى أين؟ إما أن هداهم لـ ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾، هذا يهديهم ربهم بإيمانهم إلى أين؟ إلى الجنة التي تجري من تحتهم الأنهار، هداهم بأعمالهم إلى الجنة، في هذه الجنة ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠]، يتنعمون، يفعلون ما يفعلون، قال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠]، هذا من النعيم، ثم قال تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس: ١٠]، خاتمة كل موقفٍ يقفوه حتى في الجنة، حتى في الجنة هذه ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، وسنأتي إلى ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، هذه ما معناها هل هي كلمتان أم كلمة واحدة؟ سنأتي إليها إن شاء الله إذا لم ننسى ويذهب عنا هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أفضلُ الذِّكْرِ: لا إله إلا اللهُ، وأفضلُ الدعاءِ: الحمدُ للهِ)، انتبه حتى تعلم أن الحديث مفسرٌ للقرآن، وأنه ما من علمٍ أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو مأخوذٌ من القرآن، هذا هو القول الأصوب في المسألة، ما من حديثٍ إلا وله أصلٌ في القرآن، قال تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فجعل الحمد دعاء، انتبه هذا كلام عن الجنة، هذ الكلام أيها الإخوة الأحبة عن الجنة، بمعنى آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين، بعد أن يفرغوا من النعيم يحمدوا الله فبحمد الله يحصل النعيم الآخر بعد ذلك في الجنة، فما الذي يُحصّل النعيم في الجنة؟ ليس فقط في الدنيا، ما الذي يُحصّل النعيم بعد النعيم في الجنة؟ هو حمدهم لله عز وجل.

وسنأتي إلى بقية الحمد ومواطنه ومواقفه الزمانية والمكانية، هذا القرآن أيها الإخوة الأحبة، أعظم ما في القرآن هو صفات ربنا، أعظم ما في القرآن هو صفات الله، وما نزل هذا القرآن إلا من أجل أن يُعلم العبيد المحجوبين من هو الله، ماذا يحب ما هي صفاته أولاً، من هو؟ ما هي عظمته؟ فأبان عن نفسه جل في علاه، ولذلك الصحابة لما فهموا هذا فهموا أن هذا القرآن إنما جاء من أجل أن يُعلمهم من هو الله، علموا أن أعظم الآيات فيه وأن أعظم السور فيه هي من تحدثت عن الله، ولذلك لما سُأل من النبي صلى الله عليه وسلم أُبي، قال له: (ما أعظم آية في كتاب الله)، كيف اهتدى أُبي أنها هي آية الكرسي؟ لأنها هي الآية العظيمة وهي أطول آية تحدثت فقط عن الله عز وجل، فقط، فعلم أن أعظم آية في القرآن هي التي تتحدث عن الله عز وجل، فنظر فيه فرأى أنها هي آية الكرسي، فقال: هي أعظم آية.

ولما سأل النبي صلى الله عليه وسلم إمام مسجد قباء لما كان يقرأ فيهم سورة «الإخلاص»، وكلما أراد أن يقرأ سورة بدأ بـ «الإخلاص» ثم ثنى بسورةٍ أخرى، فقال له أصحابه من المأمومين: إما أن تقرأ بالإخلاص وإما أن تقرأ بغيرها، فقال: هذا الذي عندي إما أن تقبلوا بي أو أن أترك إمامتكم، فشكوه للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم: (ما الذي دعاك لذلك)، فقال: «هي صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها»، قال صلى الله عليه وسلم: (حبك إياها أدخلك الجنة)، لِمَ أحبها؟ لأنها صفة الرحمن، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص: ١-٤]، فحبه لهذه السورة ادخله الجنة.

ولذلك أعظم ما ينبغي على العبد أن يفعله هو أن يحمد الله، أن يثني عليه الثناء وراء الثناء وراء الثناء مع شرط المحبة والإخبات، وهذا الذي يفرق بين الحمد والمدح، فقد يمدح العبد غيره ويذكر فيه من الصفات، لكن هذه صفاتٌ يذكرها، قد يُصدق وقد يكذب ولكنه يثني عليه بهذه الصفات، وليس من شرطها أن يكون لها محلٌ من في القلب، بخلاف الحمد، فإنه لا يكون ذكر صفات المحمود على جهة الثناء وأن تكون حمداً إلا بشرط أن يكون فيها الحب في القلب، ولذلك هو يحمده، هذا هو الفرق بين الحمد والمدح، فالمدح هو ذكر خصال الخير في الممدوح، أن تُعدد محاسنه، والحمد أن تعدد محاسنه، لكن ما الفرق بين الحمد والمدح؟ شرط الحمد هو أن يكون في القلب حب وأن يكون في القلب عبادة وأن يكون في القلب إخبات ولذلك لا يجوز أن يُحمد إلا الله؛ لأنه لا يجوز أن يُعبد إلا الله، لكن أن يمدح الكثير، نعم يمدح الكثير.

وما الذي يطفئ غضب الله؟ هو حمده، أن تنال رضاه، هنا رأينا في قوله تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ١٠]، يدعون بالحمد الله لماذا؟ ليتجدد العطاء، ليتجدد الكرم، لتتجدد النعم، فيحمدونه بعد انقضائها لحصول نعمةٍ أخرى فيحمدونه لتحصل النعم، وهذا بيِّن، هذا من أجل الرضا، لكن من أجل إطفاء غضب الله فلا يكون إلا بالحمد، ولذلك في حديث الشفاعة العظمى يذهبون إلى الأنبياء وكلهم يقولون: نفسي، نفسي، ويذكرون ذنوبهم إلا عيسى عليه السلام، فيأتون إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فيقول صلى الله عليه وسلم: (أنا لها)، فيسجد تحت قوائم العرش فيثني على الله ويحمد الله من المحامد مالم يفتحها على أحدٍ من قبل ولا بعد، فيسكن غضب الله، فحمد الله يسكن غضبه، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل: ١٨]، من أجل أن يذهب عنه صفة الكفر والظلم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾، هذه فيها فائدتان وأكثر، هذه الذي معنا الآن، جعل الحمد دعاءً وجعله سبباً لتجدد الكرم الإلهي، ومن أعظم الناس مقاماً يوم القيامة؟ صاحب الشفاعة العظمى، هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما هو لوائه يوم القيامة؟ لواء النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة هو لواء الحمد، فبالحمد يحصل الرقي، هذا شيءٌ آخر، الدعاء لإذهاب غضب الله عز وجل، وبالحمد يحصل الرقي، انظر في الحديث، تأمل، قال صلى الله عليه وسلم: (ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِن مَحَامِدِهِ وحُسْنِ الثَّنَاءِ عليه شيئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ علَى أحَدٍ قَبْلِي)، إذاً ما هو مجال السبق

إلى ولاية الرحمن؟ ما هو مجال السبق إلى قرب الرحمن؟ ما هو السبق إلى رضوان الله؟ هو أن تكثر الحمد، وكلما كثر الحمد كلما كثر القرب إلى الله عز وجل، هذه هي المحامد.

ولذلك أيها الإخوة الأحبة مسألةٌ مهمة الحمد لا تقيد عليه، لا يجوز لأحدٍ أن يزعم أن ألفاظ الحمد توقيفية فيما يذكره من موجبات الحمد، ولا في تكثير الحمد والتثنية به، لا يجوز، والدليل، يعني هنا يقول لك الشرع أبدع، أظهر ما في قلبك من شكر الله وحمده، هنا اذهب أركض، أركض، هذا مجال الركض، هذا هو مجال السبق، من أين؟ لما وقف الرجل من الركوع ماذا قال: «الحمد لله حمداً كثيراً»، هذا حمدٌ جديد، لم يسمعه هذا الصحابي من النبي صلى الله عليه وسلم، هذا حمدٌ أبدعه لسانه وأبان بهذا اللسان الجليل عما في قلبه من جلال الثناء على الله في القلب.

فهذا اللسان ليس فقط من المهم أن تكون عالماً بالشيء، العلم بالشيء هو أول الدرجات، ثاني درجة أن يصبح عندك القدرة عن الإبانة عليه، لأنه كثير من الناس يرى شيء جميل ولا يعرف أن يعبر عنه، ما الفرق بين الشاعر وغير الشاعر إذا أحس كلاهما بنفس المعاني؟ الشاعر يبين، من أعظم ديناً وتقوى وعلماً بالله موسى أم هارون عليهما السلام؟ موسى أعظم من هارون عليهما السلام، ولكن كيف افترق هذا عن هذا؟ هارون مع أنه أقل مرتبة في العلم، إلا أنه كان لازماً وكان ضرورةً لمساعدة موسى عليه السلام في الإبانة عن هذا العلم الذي لا يكاد يبين ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢)﴾ [الزخرف: ٥٢]، ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤)﴾ [القصص: ٣٤]، فالإبانة ضرورة.

إذن مراتب العلم هي:

المرتبة الأولى: العلم، العلم بشيء

المرتبة الثانية: الإبانة عنه.

المرتبة الثالثة: هو رد الطاعنين عليه، يعني في واحد يعرف ويبين فإذا جاءته الشبهة لا يستطيع أن يرد عليها، فهي مراتب كلها مراتب في العلم.

فهذا الصحابي لما قال، هذا فيه شيءٌ في قلبه، انظر إلى هذه المقامات، انظر إلى هؤلاء القوم الذين يتسابقون، اليوم يتسابقون في أشعار الخنوثة والخنى والمعصية ويتسابقون من عنده الشعر الذي يمدح به الملوك والسلاطين، والصحابة رضي الله عنهم بما يتسابقون؟ من الذي يثني على الله أعظم، من الذي يثني على الله أكرم، من الذي يثني على الله أحب إلى الله، فقال: «الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيءٍ بعد، عدد خلقك ورضا نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك»، النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل له هذه بدعة، لأن هذا مجال سبق، أثني على الله، ماذا أبقى هذا الرجل؟ ولولا علمنا بالحديث أن الله يفتح على رسوله يوم

القيامة عند سجوده عند قوائم العرش من المحامد ما لم يفتحها على أحدٍ قبل ولا على أحدٍ بعد؛ لظننا أن هذا هو منتهى الحمد.

فانظر: «الحمد لله حمداً كثيراً طيباً، كثيراً طيباً مباركً فيه»، أي الكثرة مع الطيبة، قالوا لماذا جاء بعجل، قالو لو جاء بخروف لكان لحمه طيب لكن ليس كثير، ولو جاء ببقرة لجاء بها كثيرة لكنها ليست طيبة، فجمع العجل بين الصفتين كثرة اللحم وطيبه، فقد يكون الشيء كثيراً ولكن ليس طيباً وقد يكون الشيء طيباً ولكنه قليل، لكن هذا الصحابي رضي الله عنه قال: «حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه»، ثم قال: كذلك يزكو وينمو ولا ينتهي ويؤتي ثماره ويتجدد أمره ولا ينتهي، قال: «حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه»، وهذا الحمد الكثير يتجدد بماذا؟ «ملء المساوات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيءٍ بعد»، هذا كله عظيم إلى ما لا نهاية، وما لا نهاية هو «عدد خلقك ورضا نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك».

وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ، ما أدْنَى أهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً، قالَ: هو رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ ما أُدْخِلَ أهْلُ الجَنَّةِ، الجَنَّةَ، فيُقالُ له: ادْخُلِ الجَنَّةَ، فيَقولُ: أيْ رَبِّ، كيفَ وقدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنازِلَهُمْ، وأَخَذُوا أخَذاتِهِمْ، فيُقالُ له: أتَرْضَى أنْ يَكونَ لكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِن مُلُوكِ الدُّنْيا؟ فيَقولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فيَقولُ: لكَ ذلكَ، ومِثْلُهُ، ومِثْلُهُ، ومِثْلُهُ، ومِثْلُهُ، فقالَ في الخامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فيَقولُ: هذا لكَ وعَشَرَةُ أمْثالِهِ، ولَكَ ما اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، ولَذَّتْ عَيْنُكَ، فيَقولُ: رَضِيتُ رَبِّ)، فالعشرة تضرب بعشرة، وهكذا تتجدد أضعافاً مضاعفة، «حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيءٍ من بعد، عدد خلقك ورضا نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك»، لولا وجود هذا الحديث، وهو أنه يفتح عليه من المحامد، لقلنا هذا منتهى الحمد، ليس من بعده حمد، لكن هل هناك حمدٌ أعظم من ذلك؟!

وانظر إلى هذا الرجل الذي قال: «الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك»، فنسب الحمد لصفات الذات ولصفات الفعل، لصفات الذات ماذا قال؟ «لجلال وجهك»، جلال الوجه الذي لا ينتهي، عظمته لا تنتهي بركته لا تنتهي وهيبته ومجده لا ينتهي، وهكذا، «لجلال وجهك»، قال: «وعظيم سلطانك»، (فقال الملك: كيف أكتبها؟ فقال تعالى: اكتُباها كَما قالَ عَبدي حتَّى يَلقاني فأَجْزيَهِ بها)، من أجل هذا لعدم انتهاء التعبد بمثل هذه الكلمات، العطاء الإلهي لا ينتهي، (فيها ما لا عينٌ رأت)، هذا الذي قلناه حمدٌ لا ينتهي، ولا يتصور ولا يمكن أن يخطر مقداره على العقل ولا على القلب، ولذلك كان جزائه (فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر).

انظر الآن إلى أمكنة الحمد، في آخر سورة «الزمر» –لا إله إلا الله– صفحة «٤٦٧»، هذا خاتمة الموقف يوم القيامة، وانقلاب الناس إلى أمكنتهم، انظر هذا كل هذا الحمد الزماني، بعد أن ذكر ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ

زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١]، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، كلٌ إلى مقامه ومستقره، طبعاً أهل الجنة قبلها ماذا يقولوا في الصفحة التي قبلها «٤٦٦» ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)﴾ [الزمر: ٧٤]، فالموقف هو موقف الحمد.

وقال تعالى في خاتمة المشهد في دخول الناس الجنة ودخول الناس النار، هيبة المشهد بما تنتهي؟ بأعظم ما فيه، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥]، يسبحون بحمد الله، هل هما كلمتان؟ -باستعجال لأنها ستمر كثيراً، فنضطر أن نستعجل بشرحها- هل يسبحون بحمد الله، هل هما كلمتان؟ أي يقولون: سبحان الله الحمد لله، أم تسبيحٌ بحمده هي كلمةٌ واحدة؟ الذي عليه وذكر وهذا أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه «غريب الحديث» أنها كلمةٌ واحدة تتضمن الأمرين، يسبحون بحمد ربهم، كلمة واحدة لكنها تتضمن التسبيح والحمد، انظر للكلمة، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، ما معنى التسبيح؟ التسبيح هو التنزيه، وهو درء وصرف النقائص عن الذي سبحته، سبحته أي نزهته، برأته عن النقائص وعن الدنايا هذا هو التسبيح.

فأنت جعلت هذا الذي سبحته على صفة الكمال بما أثنيت عليه من التنزيه، وأنت بعد ذلك تقول: الحمد لله، والحمد لله فيما يقول المتأخرون ما هو الحمد عندهم؟ -وهذه سنرد على بعض أهل العلم فيها- انظر واحدة تشرح واحدة، إن كل قضيةٍ تتبع الأخرى فإذا فقدتها لم يتصل لديك الكلام، يقولون: الحمد هو الثناء الحسن على الجميل الاختياري، هكذا يفسرونه، والإمام بن جرير الطبري رحمه الله جعل الحمد هو الشكر، قال: هما على معنى واحد، ويقول: بأن الحمد هو الثناء، ويجعل الحمد هو نفس الثناء، ويعلق ابن كثير رحمه الله بأن العلماء من المحققين من المتأخرين وهم الأغلب يقول: لا، الحمد ليس هو الشكر، فبينهما عمومٌ وخصوص، الحمد أوسع في الشكر في باب -من أجل تفصيل كلمة الثناء الحسن على الجميل الاختياري، ما معنى الجميل الاختياري؟- والشكر أوسع من الحمد في باب، كيف؟ قالوا: الحمد يكون على أمرين، والشكر لا يكون إلا على أمر، والشكر يكون بثلاث آلات والحمد يكون بآلتين، من أوسع في بابها الأول، الذي حمل على الحمد أم الذي حمل على الشكر؟ قالوا: الحمد أوسع مقتضى، لأنه ثناءٌ على المحمود على أمرين وهو لِمَ فيه من خصال الجمال، ولِمَ فيه من خصال العطاء المتعدية على خلقه، كما رأينا «الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه» وجلال الوجه صفةٌ غير متعديةٍ عليك، فأنت تحمد ربنا لأنه هو الجميل، وقلنا بأن الرحمن هي صفة ذات، والرحيم صفة فعل، فأنت تحمد الله على أنه الرحمن، لأنها صفة ذات، وأنت تحمد الله على أنه سبحانه وتعالى السميع، وتحمد الله على أنه البصير، هذه الصفات غير متعدية، لكن الرحيم صفةٌ متعدية تقع عليك، يقع موجبها عليك، وكذلك الباسط، القابض، الرازق، هذه صفاتٌ متعدية.

فإذن يحمد ربنا سبحانه وتعالى على الصفات الاختيارية، على الجميل الاختياري وعلى الجميل المتعدي، لكن الشكر لا يكون إلا على الجميل المتعدي، ومن هنا افترق الحمد عن الشكر، فمن أوسع مقتضى الحمد أم الشكر؟ الحمد، فقالوا: بأن الحمد أوسع، أعم من الشكر في سببه الموجب له.

لكن الشكر يكون باليد، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، فالشكر يكون باليد لكن الحمد لا يكون باليد، إنما يكون فقط باللسان وبالقلب، ولكن الشكر يكون بالجوارح بالعمل ويكون باللسان ويكون بالقلب، فمن هو أوسع آلة الشكر أم الحمد؟ الشكر، ومن هنا بينهما كما قال الإمام ابن كثير رحمه الله، «بينهما عموم وخصوص»، فالحمد أوسع مقتضى وأضيق آلة والشكر أضيق مقتضى وأوسع آلة، هذا بيّن الآن، فهل موجب حمد الله أنه أنعم علينا؟ أم أننا نحمده قبل أن يُنعم علينا؟ واستحق الحمد قبل أن يُنعم علينا؟ قبل أن يُنعم النعم هو يستحق الحمد جل في علاه.

أيها الإخوة الأحبة نرجع إلى قضية التسبيح، «سبح بحمد»، –ما زلنا معها– إذن التسبيح هو التنزيه، الحمد كان، على المعنى الأول على معنى الجميل الاختياري، أنت حمدت الله لما فيه من صفات الكمال، ألم نقل أن الحمد هو الثناء الحسن على الجميل الاختياري وعلى الجميل المتعدي، إذاً الجميل الاختياري أي الجميل الحسن والصفة الحسنة فيه هي معناها براءته، معناه أنه بريءٌ جل في علاه من الدنايا ومن النقائص ومن الخطأ ومما يعتري البشر ومما يعتري غيره جل في علاه، فهو له صفة الكمال وله الكمالات جل في علاه، فلما كانت له الجمالات وكانت له الكمالات جل في علاه، ماذا قلنا؟ قلنا: سبحان الله، فإذن أنت تسبح بحمده، قلنا الحمد هو أن تثني عليه بما فيه من صفات الكمال، والتسبيح صرف الصفات الدنايا والنقائص عنه، فأنت «تسبح بحمده»، فإذا حمدته سبحته، لكن أنت حين تقول: سبحان الله أثنيت عليه، ونزهته، لكن عندما قلت الحمد لله، فأنت سألته بذكرك تنزيهه، حين سبحته أثنيت عليه، وحين حمدته سألته بما أثنيت عليه.

ومن هنا ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس: ١٠]، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٨]، أي أساله بأن تنسب له صفات الكمال، فهذا هو حمدك له، فأنت تسأله بما أثنيت عليه، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾ [الزمر: ٧٥]، إذا غيب الفاعل أطلق للنفس مجالات تصوراتها البعيدة من أجل أن تبلغ ما تريد، ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ، إذا قلت: الملائكة فنعم، إذا قلت: العبيد في الجنة فنعم، وإذا قلت أن الله هو قيل: الحمد لله فنعم، فحين يطلق الضمير دل على الاستيعاب، ضع في ذهنك ما يخطر عليها مما يليق في المقام.

نرجع إلى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢]، الآن ذكرنا بعض هذه المقامات، ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ١٨]، فهو محمودٌ في السماء ومحمودٌ في الأرض، وله الحمد جل في علاه في الأولى والآخرة، وله

الحمد جل في علاه فوق العرش، كتب الله كتاباً فهو عنده فوق العرش، فهو محمود فوق العرش، وهو محمود من قبل عبيده، ولذلك من أعظم عبيده؟ هو محمد صلى الله عليه وسلم؛ فسمي محمد صلى الله عليه وسلم، فأعظم العبادة هي أن تكون حامداً لله، فأعظم الكلمات التي ينبغي أن تطرأ على قلبك وأن تلاقي ملمسها الجميل هو أن تسمع كلمة «الحمد لله».

ولذلك ابن القيم رحمه الله، لما جاء إلى تبسم النبي صلى الله عليه وسلم في حادثة الإفك، فلما نزلت آيات براءة الصديق عائشة رضي الله عنها، فقال لها أبو بكر رضي الله عنه: «قومي احمدي رسول الله»، فقالت: «والله لا أحمده ولا أحمده غيره، ولا أحمد إلا الله»، قال: (فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم)، قال ابن القيم رحمه الله تعليقاً عليها: «فرح النبي صلى الله عليه وسلم أن نسبت الحمد لمن يستحق».

هذه السورة الحمد لله، ذكرنا الفرق بين الحمد والشكر، ذكرنا خلال السياق من غير أن نقسم التقسيمات المعهودة والفرق بين الحمد وبين المدح، ويكفي إلى هنا وفقط أنبه على نقطة، وهو أن عامة العلماء يذكرون أن الحمد هو الثناء، كما ذكرنا، حتى الذي يجعل هذا من الترادف كابن جرير رحمه الله، أن الحمد هو الشكر والحمد هو الثناء، والذين يفسرون من الأكثرين كما قال ابن كثير رحمه الله: بأن المتأخرين من العلماء يجعلون الحمد هو الثناء الحسن على الجميل الاختياري، فرأينا بعض العلماء المعاصرين يقول: لا، لا ينبغي أن يكون الثناء هو الحمد، وأتوا إلى حديث الصلاة، حديث قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، ذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي قال: قال: عبدي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، قال: (حمدني عبدي)، ولما جاء إلى ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال: (أثنى علي عبدي)، ولما قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾، قال: (مجدني عبدي)، وتقدم الكلام على ما تقدم، وقلنا: أن التمجيد هو ذكر عظمة المذكور، عظمة الممدوح، عظمة ذكر المحاسن التي تعظمه، ولذلك التقى المجد مع قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، ولما كان ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ تثنية وتكرير للممدوح، قال: (أثنى علي عبدي)، ولما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، اقتصر على أنها الحمد فقال: (حمدني عبدي)، فقال: «إذن الحمد ليس هو الثناء»، وهذا خطأ غير صحيح، الصواب أن الحمد هو الثناء، والحمد هو ذكر المحمود بما فيه من صفات يستحق بها الحمد والثناء كذلك لما تقدم.

فهذا عند أهل العلم يحتاج إلى تفصيل فقط يسير في أن العلماء قد يكون اللفظ يقوم مقام اللفظ، إذا أُقتصر عليه، وهذا الذي قاله العلماء، وإذا اجتمع حصل بينهما الافتراق اليسير، أي الحمد فيه تمجيدٌ لله وفيه ثناءٌ على الله وهو ذكر محاسن المحمود فهو كله، ولكن حين اجتمعت هذه الصفات حصل بينها افتراق يسير على ما تقدم، وكلها يجتمع فيها جذرٌ واحد، هذا الجذر هو ذِكر محاسن المذكور، لما قال: (حمدني عبدي)، ما هو الحمد؟ أصله هو ذكر المحاسن، كما قلنا في المدح، ما هو المدح؟ هو ذكر محاسن الممدوح، ما هو الثناء؟ ذكر محاسن المثنى عليه، وما هو

التمجيد؟ هو ذكر محاسن، فكلها تلتقي مع هذا الجذر، فحين تفترق؛ اللفظ الواحد يكون جامعاً لها، وحين تجتمع كل واحدةٍ تختص بمعنى خاصٍ بها دقيق يلتفت إليه.

نختم حتى لا نطيل عليكم مع الاعتذار، هذه السورة أيها الإخوة الأحبة هي أول سورةٍ تفتتح بالحمد، وهي أول سورةٍ في القرآن، فأجل ما يفتتح به هو الحمد، وهذا يحتاج إلى تفسير، وبعد ذلك ما هي السور التي افتتحت بالحمد؟ هي خمس سور، وهذه هي الأولى، وهذا الحمد في سورة «الفاتحة» وهي سورةٌ مكية، وبعد ذلك الحمد في سورة «الأنعام» وهي سورةٌ مكية، وفي سورة «الأنعام» قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ﴾ [الأنعام: ١]، وسورة الحمد الثالثة هي سورة «الكهف» قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، والحمد الرابعة هي ما تقدم في سورة «سبأ»، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١]، الحمد لله الذي له، هناك خلق في الانعام، وفي سبأ له، والحمد الخامسة في سورة «فاطر» قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ﴾ [فاطر: ١]، انظر للعلاقة في الحمد: في سورة «الفاتحة»: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وفي سورة «الأنعام»: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾، وفي سورة «الكهف»: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ﴾، وفي سورة «سبأ»: ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، وفي سورة «فاطر» ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ﴾، فهذه خمس سور، وكل المحامد في الوجود ومنها ما في القرآن هو داخلٌ في الحمد التي في «سورة الفاتحة»، فسورة «الفاتحة» ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢]، حاويةٌ لكل محامد الوجود وبهذا نختم نسأل الله عز وجل أن يغفر لنا ولكم وأعتذر عن الإطالة جزاكم الله خيراً وبارك الله فيكم.

الأسئلة

السائل: قول النبي صلى الله عليه: (الطُّهورُ شطْرُ الإيمانِ، والحمدُ للهِ تملأُ الميزانَ، وسُبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ تَملآنِ ما بين السماءِ والأرضِ)، **ما الفرق بين تملأ الميزان وبين تملآن ما بين السماء والأرض؟**

الشيخ: هذه تحتاج إلى توسع ولكن أبينها لك بياناً يسير: انتبه، هذا أولاً كمسألة علمية وبعدها للمعنى، قال: (الحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض)، والحديث الآخر الذي ذكرته (الطُّهورُ شطْرُ الإيمانِ، والحمدُ للهِ تملأُ الميزانَ، وسُبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ تَملآنِ ما بين السماءِ والأرضِ)، هناك مسألة –فقط حتى تفهم بعض وجوه الخطاب القرآني والنبوي– انتبه لأن ذكر هذا سيأتي في القرآن وسيأتي في السنة، عندما قال الله عز وجل في سورة «فصلت» ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩-١٢]، فأنت لو جمعتها تكون ثمانية، لكن ما هو وجهها الصحيح؟ هي ستة أيام، لكن بما داخل آخر يومين؟ في أربعة أيام، كأن تقول: أنا مشيت من هنا إلى عمان في ساعتين، من هنا إلى مأدبة أربع ساعات، فأنت لا تجمع ساعتين وأربع ساعات، من هنا إلى عمان ساعتين يعني من عمان إلى مأدبة أربع ساعات، واضح؟ هذا وجه يجب أن نفهمه.

كذلك في حديث وعلى الصحيح، قال صلى الله عليه وسلم: (من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله)، هذا لا يعني أن الفجر قام الليل كله لوحدها، يعني من صلى الفجر والعشاء في جماعة فكأنما قام الليل كله، وجاء هذا مُفسر في حديثٍ آخر.

والقصد: أن ندخل هذا في هذا، الوجه العلمي هو أن تدخل المتقدم في المتأخر ولا تجعله منفصلاً لوحده، فإنك لو فصلته اختل عندك العدد، هذا هو الجواب الأول.

الجواب الثاني: وهو مهم جداً قوله صلى الله عليه وسلم: (الطهور شطر الإيمان)، ما هو الإيمان؟ وهذا ليس في باب الذي سألت عنه لكن من أجل أن نعرفه، الإيمان هو براءتك من الدنس وفعلك للطاعات الخيرة، ما هو الإيمان؟ تركك للمعاصي أو تنظيفك منها بعد فعلها وفعلك للطاعات وقيامك بها، قولٌ وعمل، فالطَهور ما هو الطَهور؟ هو تطهيرٌ من الخطأ الذي اقترفته، الذي لم تفعله انتهينا منه، والذي فعلته من الخطأ تطهرت به، فنصف الإيمان هو الطَهور، واضح الكلام، الطَهور وليس الطُهور، لأنه اسمٌ للفعل وليس اسمٌ للماء والماء هو الطُهور، (البحر هو

الطُهور)، كالغَلول والغُلول، الطَهور هو الفعل أي الوضوء، والطُهور هو الماء المستخدم في الطَهور، كالغَلول والغُلول، قال صلى الله عليه وسلم: (الطَهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان)، لماذا تملأ الميزان، لأن الميزان له كفتان، كفة العطاء الإلهي فماذا يقابلها؟ يقابلها الحمد لله.

فلذلك ما أعطاك الله من النعم، وما أنزل عليك من العطاء يقابلها الحمد لله، وهنا تحظر كلمة علي بن الحسين، السجاد الملقب بزين العابدين وتروى عن محمد الباقر، وكلهم من أئمة آل البيت رضي الله عنهم، أنه ضاعت له ناقة، فقال: لإن عادت لأحمدن ربي حمداً عظيماً، وذكر من الحمد الشيء الكثير، فلما عادت إليه قال: الحمد لله، وجعلوا ينتظرون ماذا سيقول، قال: الحمد لله، فلم يأتي بغيرها، فسألوه أين الحمد الكثير؟ قال: أنا ألم أقل الحمد لله، ذلك لأن الحمد هي ألف ولام هذه للاستغراق، أي استغرقت جميع المحامد، فالحمد لله استغرقت جميع العطاء الإلهي الذي هو في الكفة الثانية، فالحمد لله تملئ الميزان.

(وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض)، السماء والأرض تملآن ما بينها، أي شاملة للسماء وشاملة للأرض وشاملة لما في السماء، وشاملة لما في الأرض، فما في السماء وما في الأرض، إنما قام على وجه الحكمة وليس فقط هذا، وقام على وجه النعمة، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، فهذا هو وجه النعمة، وقامت على وجه الحكمة أي الإحكام، بلا اضطرابٍ فيها ولا خطأ ولا تضارب، فقامت على وجه الحكمة في وجودها كوناً وفي وجودها مقصداً لما بعدها، فلذلك هي سبحان الله على هذا المعنى وعلى معنى النعمة الحمد لله، فالحمد لله وسبحان الله والحمد لله يملآن ما بين السماء والأرض، الآن أنت تقول: أن الميزان هو يسع السماوات والأرض، نفس المعنى، ماذا قدمت؟!، فأين التعارض ما في تعارض والحمد لله رب العالمين.

السائل: هل الإمام الشافعي رحمه الله اعتبر الحمد نعمة من الله لما قال: «إذا حمد المرء الله عز وجل فهو بحاجة إلى حمدٍ آخر»؟

الشيخ: هذا من أجل ما ذكر في كلام أهل العلم من المحامد، ما ذكره إمام العلماء الشافعي رحمه الله في كتابه الرسالة، نحن ماذا قلنا عن الحمد؟ هو بابٌ للسبق مفتوح، قل ما تشاء، اسبق، تعلم، انظر إلى ما أعطاك الله وأحمد ربنا، احمده على ما أولاك من نِعم.

وسؤال قبل كل شيء، ما هو الأعظم أن تحمده على النعم أن تحمده على لجلال الوجه؟ ما هو الأجّل؟ الأجّل أن تحمده لما فيه من خصال، أجّل من أن تحمده لما أولاك من نعمة، أجّل؛ فالحمد لله لجلال وجهه أعظم من قولك: وعظيم سلطانه، وأن تحمده لما فيه من جمال، وما فيه من عظمة، وما فيه من مجد، وما فيه من ثناء، وما فيه من

محاسن، أسمائه الحُسنى، أجل من أن تحمده لما أعطاك من نعمة، ذلك لأن الحمد للجلال والجمال لا ينتهي، وأما الحمد للنعمة، فإن كان عظيماً لا تحصونه لكنه ينتهي، وما النعم إلا من تلك، فالحمد على الأصل أجل من الحمد على الفرع، ولذلك لما الشافعي رحمه الله بانت هذه المعاني له، فقال كلمة عظيمة في الرسالة، يرجع إليها ومفادها أنه لا يبلغ حمد العبد لربه، لا يمكن أن يبلغ المنتهى، لماذا؟ لأنه ما من حمدٍ لربنا إلا وهو نعمةٌ منه توجب حمداً جديداً، أي أنت حمدته فهذا توفيق إلهي، فهذا التوفيق الإلهي يحتاج إلى حمد جديد، وهذا الحمد هو توفيق إلهي... وهكذا، فكل حمدٍ يوجب حمداً فلا يمكن أن يبلغ حمد العبد لربه منتهاه، لا يمكن، هذه كلمة جميلة له.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس السابع

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً بكم أيها الإخوة الأحبة في الدرس السابع من دروس التفسير وما زلنا مع قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢].

وصلنا إلى أن «الـ» هنا الاستغراقية بمعنى أن جميع المحامد هي لربنا واللام هنا لام الْمُلك ولام الاستحقاق بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يستحق الحمد، وهذا اللفظ أيها الإخوة الأحبة الحمد لله وإن جاء عند أهل العلم على صيغة الخبر «الحمد لله» الله يحمدنا، فهو خبر، وكذلك فهو أمر، أي إن الله سبحانه وتعالى يأمر عبيده أن يحمدوه، وكما أنه حمد نفسه جل في علاه، وهذا هو الذي يراد بهذا اللفظ أولاً، وكذلك هو أمرٌ بعبيده أن يحمدوه بما حمد الله به نفسه من معاني وكلمات وألفاظ، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، إذاً أنتم فقولوا: «الحمد لله».

وقلنا بأن الحمد هنا هي أول سورة في القرآن، وهذا الحمد في سورة «الفاتحة» استغرق المحامد كلها في القرآن، فإن الله سبحانه وتعالى هنا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، والرب جل في علاه هو الذي خلق، هو الذي ملك، هو الذي رزق، هو الذي أحيا، هو الذي أمات، وهو الذي شرع، وتقدير كل شيءٍ بيده، فلذلك قوله سبحانه وتعالى كما سيأتي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هذه رَبِّ ﴿الْعَالَمِينَ﴾ استغرقت كل المحامد في القرآن.

وقلنا بأن هذه السورة هي إحدى خمس سور، افتتحت بالحمد، وتوزع الحمد في مطالع السور على استغراق أفعال الله عز وجل في الوجود، وعلى تشريعه وتقدم الكلام أنه رحمنٌ رحيمٌ بماذا؟ بما خلق، بتقاديره، ورحمنٌ رحيمٌ بشرعه، ورحمنٌ رحيمٌ بعقابه وعذابه وحسابه وثوابه –هذه قلناها– قلنا هو رحمنٌ رحيمٌ عندما خلق، فما خلق شيءٍ إلا على جهة الرحمة، فإنه يعطي الرحمنة في قلوب الأمهات، في قلوب الناس، إن الوجود كله قائمٌ على الرحمة، وكذلك شرع الله عز وجل شرعه على وفق الرحمة، وكذلك تنصب الموازين يوم القيامة على وفق رحمة الله، فما استحق به وصف الرحمة الجامع لكل ما رأيتم، أي التقدير والتشريع والحساب والثواب والعقاب، ما استحقه من أن يكون رحيماً به استحق الحمد، فهو محمودٌ لما خلق، إذن جاء قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، إذن هو قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)﴾ [الفاتحة: ١]، فهذه العلاقة بين الرحمن

الرحيم وبين الحمد على هذا المعنى، أنه لما كان رحمنًا رحيمًا في ما تقدم ذكره استحق الحمد جل في علاه لما تقدم ذكره من كونه رحمنًا رحيمًا.

فلذلك ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أولاً جاءت لاستغراق أنه حُمد لِمَ خلق، فقال سبحانه وتعالى في أول سورةٍ بعد سورة «الفاتحة» التي هي مطلعها ﴿الْحَمْدُ﴾ قوله في سورة «الأنعام» وهي سورةٌ مكية وهي أول سورةٍ مكية بعد «الفاتحة»، فبعد «الفاتحة» أول سورة ماهي؟ «البقرة» مدنية، و«آل عمران» مدنية، و«النساء» مدنية، و«المائدة» مدنية، فأول سورة مكية تأتي بعد هذه السور المدنية تأتي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، فهو محمودٌ لما خلق، وتقدم أنه خلق الخلق على وفق صفة الرحمة، فهذه العلاقة ما بين مطلع السورة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)﴾ [الفاتحة: ١] وبين ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ١] وهذه هي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢].

ثم السورة الثالثة التي فيها الحمد بعد سورة «الفاتحة» وبعد سورة «الأنعام» هي سورة «الكهف»، وهي تتكلم عن حمده لما شرع، تتكلم عن حمده لما رحم، رحم لما خلق، ورحم لما شرع، فجاءت السورة الثالثة حمده لِمَ شرع فقال سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١)﴾ [الكهف: ١] فجاء حمده لما شرع.

وبقي الحمد له لِمَ حكم بين العباد في الفصل يوم القيامة في سورة «سبأ» في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ [سبأ: ١]، أرأيتم هذا التقسيم الإلهي العظيم لهذه المحامد في السور ثم بعد ذلك جاء الحمد في سورة «فاطر»، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾ [فاطر: ١]، ذلك لأن الملائكة هي وسيلة الخلق والتقدير وهي وسيلة إنزال الكتب ووسيلة إيصال التشريع.

فكان حمده جل في علاه ملائماً لما قدر في رحمته، وكان حمده قد استغرق الوجود كله، واستغرق أفعال الله عز وجل، واستغرق صفاته فيما نعلم، لأن هنالك من الصفات لله عز وجل مالا نعلمها، هذه قضية أخرى ربما نأتي إليها عند الكلام عن أسماء الله الحُسنى، لماذا حجب ربنا سبحانه وتعالى أسماءً له؟ مع أنه أراد منا تمام العبادة، وحجب اسمٍ له ينقص العبادة، فلماذا؟ وهذا السؤال نجيب عنه فيما يقدر ربنا سبحانه وتعالى فيما يأتي.

والقصد: إذن هذه كلمة الحمد استغرقت جميع محامد ربنا في القرآن، ومحامد ربنا في القرآن محامد لما شرع، محامد لما خلق، محامد لما أقام الوجود لحكمة الجزاء يوم القيامة، وهذه أركان القرآن وكلها في سورة «الفاتحة»، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ٢-٤]، استغرقت هذه الكلمات العظيمة استغرقت الشريعة كلها، استغرقت القرآن كله.

فإذن الآن ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢] هذه كلمة ثناءٍ على ربنا في سورة الفاتحة استغرقت جميع المحامد، استغرقت الخلق، استغرقت التشريع، استغرقت الجزاء والحساب يوم القيامة والجنة والنار، وكذلك استغرقت أين مكان الحمد؟ ليس سبب الحمد، أين يكون الحمد؟ ففي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿الْعَالَمِينَ﴾ هو ليس سبب الحمد لكنه محمودٌ كذلك لأنه رب العالمين، ومحمودٌ في العالمين، هو محمود، الحمد لله، لأنه ربنا، لأنه الله، ومحمودٌ لأنه رب العالمين، رب العالمين لإنه خلق، رب العالمين لإنه شرع، رب العالمين لأنه قضى وفصل بين العباد يوم القيامة، وكذلك يُحمد في السموات والأرض حتى فوق العرش، فعنده فوق العرش كتاب مكتوب (إن رحمتي سبقت غضبي)، وهي موجبة الحمد كما رأينا في سورة «الفاتحة»، فله الحمد في السماوات والأرض، كما أن له الحمد لأنه ملك السماوات والأرض، كما أن له الحمد لأنه خلق السماوات والأرض فهو محمودٌ في السماوات وفي الأرض.

فلذلك هذه الكلمة لا يوجد ما يتقرب إلى الله بأعظم منها، وفي حديث الأسود بن سريع في السنن وفي المسند أنه وقف الأسود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا رسول الله: إني أنشدك محامد حمدت بها ربي، ماذا قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: (إن ربك يحب الحمد)، فإذا أردت أن تتقرب إلى الله وأن يحبك الله وأن تُفرح الله فعليك بحمده، وقلنا وإذا أردت أن تطفئ غضب الرب فعليك بالحمد، ما بقي شيء، وإذا أردت أن ترفع عنك إثم عدم الحمد لأن ما هو الذي يقابل الحمد؟ الذم، والشكر يقابل الكفران، الذي يقابل الحمد، الذم، فهو يتعلق بالصفات، هذا يرجعنا إلى قضية تقدمت بأن الحمد يتعلق بصفات الرب في نفسه لأنه يقابلها الذم لكن الشكر يقابله الكفران فالشكر يقابله النعمة.

فالحمد هو الثناء على الله عز وجل من غير أن يتقدمه إحسان بخلاف الشكر، وبخلاف المدح، الشكر فأنه يكون عقب الإحسان، تشكره لما أحسن إليك، ولكن الحمد ليس من شرطه أن يتقدمه إحسان، ولذلك العبد إذا أراد أن يطفئ غضب الله عز وجل فعليه بالحمد، بما يغضب الله عز وجل؟ يغضب إذا ذُم، وقال سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١]، يُحمد ليس لما أعطى من نعمة ولكن لما جلت صفاته وما تنزهت صفاته وأسمائه، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، حمد اثني عليه من الثناء أنه لم يتخذ ولدا، وعدم اتخاذ الولد يعني البراءة من الحاجة لأن الولد هو مظهر حاجة الإنسان لأنه يموت، لأنه يحتاج، وهكذا، ولذلك لما مدح الله نفسه قال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣)﴾ [الإخلاص: ٣]، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾.

وينبغي أن تتذوق هذه المعاني ولذلك لما تقوم أنت من الركوع من السنة أن تقول: (سمع الله لمن حمده)، فأنت تقول: (ربنا ولك الحمد)، فهذا وقت الدعاء، فيقول: (سمع الله لمن حمده)، الله يسمع لمن حمده، فأنت تقول: (الحمد لله)، ثم يأتي السؤال، ولذلك يسن في الدعاء أن يفتتح العبد دعاءه بالحمد لأنه إذا حمد الله، قال له الله: سل، وتقدم في الدرس الفائت ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس: ١٠]، فالحمد دعاء هو الذي يفتح

العطاء الإلهي، يفتح عليك كنوز وخزائن ما عند ربنا سبحانه وتعالى من العطاء، فأنت تقول: «سمع الله لمن حمده»، أنت تقرر ربنا، وكأنك تقول يا رب اسمع فأنا أحمدك وكأنك تقرر أنك قلت إنني أسمع لمن حمد، فتقول: «ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً» ثم تبدأ بالثناء على الله وهذا الثناء دعاء.

يسأل سؤال يقول: لماذا يتقدم التسبيح على الحمد؟ ذلك لقاعدة «التخلية قبل التحلية»، هذه قاعدة من قواعد الوجود وقواعد الشريعة، «التخلية ثم التحلية»، أي أنت إذا دخلت بيتاً وأردت أن تضع فيه أشياء جميلة، وأن تطيبه وأن تعطره لابد أولاً من أن تزيل منه ما يقذره، فإنك لو وضعت الجميل ووضعت الحسن في هذا البيت مع القاذورات والأوساخ وما فيه من أغلاط وما فيه من مفاسد فلا يستقيم الجمال معه، لابد أن يكون أولاً شرط الجمال عدم وجود القبح، لكن النفي لا يوجب الإيجاب، هذه قاعدة: «فإن النفي لا يوجد الإيجاب»، أي لما تقول هذا بيتٌ ليس وسخ لا يعني أنه نظيف ولا يعني أنه جميل.

ولذلك من قواعد أسماء ربنا وصفاته أنها قائمةٌ على الإثبات والنفي في القرآن قليل، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، لكن الإثبات هو أصل المدح القرآني لربنا، فالسميع، البصير، القدير، الخبير، العليم وهكذا، فالإثبات هو الذي به يتم المدح، وأما نفي السلب فلا يفيد هذا الإجاب في المدح، فلذلك أنت لما تقول: هذا بيتٌ ليس وسخ لا يعني أنه جميل، ولا يعني أنه حسن، ولذلك أولاً لابد من التخلية، ما هي التخلية؟ أي أن تنظف وبعد أن تخلي أن تزيل ما فيه بعد ذلك تحلي، تضع ما تريد أن تحلي به هذا الشيء، فإذن أولاً أنت تقول: سبحان الله، سبحان الله تنزيه، والتنزيه هو نفي القبح والدنس والدنايا عن الذي يُسبح وهو الله جل في علاه، فتقول: سبحان الله.

واسم الله القدوس لم يرد إلا في سورتين من القرآن، أولاً في سورة «الحشر»، والثانية سورة «الجمعة»، في سورة «الحشر» قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وفي سورة «الجمعة» قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾ [الجمعة: ١]، والجامع لهما أن كِلا السورتين من المسبحات، فسورة «الحشر» أولها: قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)﴾ [الحشر: ١]، فهي المسبحة، ورأينا في سورة «الجمعة» قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١)﴾ [الجمعة: ١]، والتسبيح تقديس، قدسه أي نفى عنه ما يشينه، ونفى عنه ما لا يحبه، ونفى عنه ما لا يجوز له، وهذا هو التسبيح.

فإذن التسبيح نفي لأنه تنزيه، ولكن الحمد إثبات، ما هو الحمد؟ قلنا هو تعداد الخصال الحسنة في المحمود، أن تعد ما فيه من محاسن، فأثبت له المحاسن، الحمد هو إثبات المحاسن لربنا والتسبيح نفيٌ، فإذن ما الذي ينبغي أن يقدم أولاً؟ التخلية، هذه قاعدة: «التخلية قبل التحلية»، دائمًا القرآن يأتي عليها، وهذا هو منطق الوجود في قضية إقامة

الحق بغير وجود نقيضه فيه، فنقول سبحانه، وتبين في الدرس الفائت كيف يسبح بحمده، انتهينا منها، لا نريد أن نعود إليها.

الآن لما أثبت لربنا المحامد، أحدهم سأل قال: قال تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩)﴾ [الإسراء: ٧٩]، فالنبي هو أمته أمة الحامدين، ولوائه يوم القيامة، لواء الحمد، والنبي صلى الله عليه وسلم هو مُحمد، ذلك لأنه محمود من أهل الأرض ومن أهل السماء، وهو أعظم الحامدين لربهم، لأنه تجوز الصيغة أن تكون صيغة فاعل وصيغة مفعول أي هو محمود كما أرادها جده أن يكون محمودًا وهو كذلك حامد لربنا، ولذلك أستحق هذا النبي صلى الله عليه وسلم أعظم مقام، وهو عسى أن يبعثك مقام لا يشركه فيه أحد، و كما قال إمام المفسرين وحبر القرآن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما ﴿عَسَى﴾ في القرآن موجبة، في غير القرآن لا تكون موجبة، في غير القرآن عسى للترجي، ولكنها في القرآن موجبة لأنها وعد الله عز وجل، ووعد الله عز وجل يقع، فلذلك هي موجبة، فما ذكر بعدها واقعٌ لا شك فيه.

ولكن أقول فوق ما قال: رأيت عسى في القرآن لها شرط التعليق على طاعة، على أمر، هذا أمر لم يقوله أحد ولكنني وجدت أنه لم ترد كلمة عسى في القرآن إلا وقد علقت على شرط فهي وعد والوعد لابد له من وجود شرطه، إذن ما المقام الذي يليق بهذا النبي صلى الله عليه وسلم الحامد المحمود وله لواء الحمد وأمته الحامدون ما الذي يليق به من مقام؟ ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩)﴾ [الإسراء: ٧٩]، وهذه هي الصواب وهي الشفاعة العظمى التي لا ينالها إلا واحد وهو رسولنا صلى الله عليه وسلم، هذا كله من أجل أن تعلم هذه الكلمة، في حديث النبي صلى الله عليه وسلم (إن ربنا يحب الحمد)، وهذه أمة حمادة لله، تحمد الله، إذن المطلوب منك أن تدين، ولذلك (إن الله يحب من العبد إذا أكل الأكل أن يحمده عليه، وإذا شرب الشربة أن يحمده عليها)، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)﴾ [الأحقاف: ٢٠]، حتى لا تُسأل يوم القيامة عن هذا النعيم، فأنت تحمد الله.

وبقيت مسألة كيف أن كل حمدٍ في الوجود لمحمودٍ إنما يعود حمده إلى الله عز وجل؟ ذلك لأنه لا يقع شيءٌ من الجمال في الوجود، ولا من الخير في الوجود إلا وهو عائدٌ إلى الله هو الذي أوجده وهو الذي منَّ على العبيد به وهو الذي أعطى، أنت لو أردت وإن كان هذا لا يجوز ولكن لو أردت أن تحمد أمك على خصالٍ حسنة من الذي قدم هذا الحمد؟ من الذي أعطى الجمال للجميل حتى يحمد؟ الله عز وجل، فحمد كل شيءٍ يعود إلى الله، ولذلك كلمة الحمد لله تستغرق الحمد في القرآن وتستغرق الحمد في الوجود فلذلك كانت هذه الكلمة العظيمة، وهذا الافتتاح

الجليل، أعطت هذه الكلمة –لو تفكرتم فيها قليلاً– أعطت هذه الكلمة في افتتاح هذا القرآن جعلت هذا الذهن المسلم الذي يتفكر فيما يقرأ وما تعطي هذه الكلمات من معاني في الوجود جعلته مستغرق الوجود كله.

فلما تقول: الحمد لله أين يذهب ذهنك؟ ذهب ذهنك إلى الله عز وجل، كما قال ابن عمر رضي الله عنهما في الصحيحين وكان يطوف في الكعبة فجاءه رجل يطلب منه ابنته للزواج قال: «يأتيني أحدكم بحاجته ونحن في أمرٍ والله بين أعيننا»، يعني يذهب هذا الإنسان الذي يعيش مع الله ويعيش مع نعمته ويعيش مع الصفات الجمال الإلهي ويعيش مع العطاء الإلهي ويعيش مع الخير في هذه الكلمة عندما يقول: الحمد لله، ولذلك ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، يسبح بحمده ينزهه تنزيها يستحق به الحمد، فمآل كل طاعةٍ هو أن تحمد الله، إذا أردت افتتاح عبادة فعليك بها، فأكثر من الحمد، وكلما أكثرت من الحمد كلما أكثر الله عز وجل من العطاء.

إذن هذه الكلمة في سورة «الفاتحة» ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢] استغرقت كل المحامد، استغرقت التشريع، استغرقت التكوين، استغرقت الجزاء، وهذا كله ستفصله هذه السورة كذلك، في داخلها كذلك ستفصل هذا، فقال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ولكن هنا أريد فقط نقول الحمد مادتها هي مدح كما ترون، حمد؛ مدح، هي نفس الحروف.

وذكرت شيئاً سريعاً في الدرس الفائت وقلت: إن من اعترض على أن تفسير الحمد هو الثناء الحسن واحتج بحديث النبي صلى الله عليه وسلم في أنه قال: (لما قال: الحمد لله، قال حمدني عبدي، ولما قال: الرحمن الرحيم، قال: أثنى علي عبدي ولما قال: مالك يوم الدين، قال: مجدني عبدي)، وقال: فالحمد غير الثناء، قلنا أن جذر الحمد وجذر الثناء واحد، وهو أن الحمد والثناء كلها في أصلها تقوم على ذكر محاسن المذكور، لكن الثناء مع التكرار والحمد من غير تكرار، فإذن التقت في جذر، والتقاء الكلمات في بعض جذور معانيها يجيز استخدام هذا مكان هذا.

الآن هل كلمة الحمد تقوم مقام الشكر؟ تقوم مقامه، هل الشكر يقوم مقام الحمد؟ يقوم مقامها؛ لالتقائها كلها في جذرٍ واحد، لكن إذا أجتمع الحمد والشكر لابد أن يفترقا، ومن هنا فإن ابن جرير الطبري مثلاً –هذا ذكرناه في الدرس الفائت– قال: «الحمد هي الشكر»، فقط، لا يوجد فرق، واستدل بقوله أن العرب تقول: حمدت الله شكرا، أبو حيان الأندلسي القرطبي قال: هذا الدليل الذي ذكره ابن جرير ضده، قال: هو ظن أن حمدت الله شكرا، يعني بأنها كما تقول قتلته قتلى، أكلته أكلا، من أجل أن الجذر واحد وأن المعنى واحد، قال: لا إنما يقول القائل: حمدت الله شكرا تقييداً لنوع الحمد، لنعمةٍ أعطاك إياها، كون الشكر يكون لنعمةٍ أعطاك إياها،، وهذا كذلك اعترض عليه ابن كثير وذكرنا هذا في الدرس الفائت.

والآن نأتي إلى هذه الكلمة –وذكرناها– من أجل أن نبين أن سورة «الفاتحة» شاملة لكل ما في القرآن وهي محيطة لكل ما أتى به القرآن من أركان ومن قواعد، وذلك كما قال الشيخ محمد عبد الله دراز رحمه الله صاحب كتاب

«النبأ العظيم»، يقول: بأن الفاتحة أشبه بالاستدعاء، بأنك لولا وجود الفاتحة ما عرفنا ما الذي يريده القرآن، والشيخ دراز هذا رجلٌ له ذوق عظيم في القرآن، ومن الناس الذين لهم كلمات وبصمات ولهم تجليات مع القرآن، يقول: لولا أن الفاتحة قُدمت لنا كأنها استدعاء، عندنا ملف كبير فأولاً نريد أن نعرف ما هو نوع هذا الملف، ما الذي يدور حوله هذا الملف؟ فهذه ورقة الاستدعاء الأولى، فورقة الاستدعاء الأولى هي سورة «الفاتحة» التي تعرفك ما هو القرآن، ما الذي يريده؟

ولذلك سورة «الفاتحة» تشمل كل معاني القرآن، رأينا بعض وجوه هذا الأمر، رأينا أنه الرحمن الرحيم ورأينا أنه لماذا الحمد، فنأتي الآن إلى كلمة «لله» في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وتكلمنا بما فيه إن شاء الله الكفاية، عندما قلنا بسم الله أن اسم «الله» هو اسم الذات، هو اسمه جل في علاه الذي لا ينبغي إلا له ولم يتسمى أحد به إلا واحد وهو ربنا سبحانه وتعالى، وهنا ننبه للفائدة قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ -وكلمة «الله» في بسم الله الرحمن الرحيم تكلمنا عنها- الآن لها موطنٌ أخر ولها فائدةٌ أخرى غير ما تقدم، وهو أن جذر كلمة الله من التأله وهي العبادة، وجذر كلمة الرب من التربية، فكلمة الله أي الذي يستحق العبادة، لأنها من الألوهية، فإذن لما تقرأ القرآن وتقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢] إذن الله هنا تتحدث عن حق الله عز وجل على عبيده، ورب العالمين فعل ربنا في عبيده.

فكلمة «لله» في ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي أنك عليك أن تعبده، وقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا فعله فيك ماذا فعل، فالله عز وجل هو رب العالمين وقلنا كثيراً وسنقول بما استحق ربنا أن يكون إلهاً معبوداً بحق ولا يستحق العبودية غيره بما؟ بأنه رب العالمين، بما أستحق الإلهية؟ لأنه رب العالمين، ويقول بعض أهل العلم وهذه كلمة لأبي حيان الأندلسي يقول: بأن كلمة رب تأتي بمعنى مالك لكنها على الأغلب تأتي بمعنى الإصلاح، وهذه كلمة غريبة وتحتاج إلى تفكر وتحتاج إلى شرح، فعندما يقول جل في علاه: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أول ما يطرأ على البال أن كلمة رب تستخدم بمعنى المالك، رب العالمين يعني مالك العالمين، لما تقول أنت: من رب هذه الإبل؟ ماذا قال يوسف عليه السلام للرجل؟ ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠].

وهنا فقط مسألة إذا أطلقت كلمة رب فلا تنصرف إلا على الله عز وجل، فمن جوز -لأن هناك من لا يجوز وسأذكر هذا- من جوز إطلاق كلمة رب على غير الله لابد أن يقيدها، لا يطلقها، لا يجوز له أن يطلقها وهذا شرط أول فلذلك فقال: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ ما قال ارجع إلى رب، أو إلى الرب، لأنه لو أطلقنا لا تصرف إلا إلى الله، لكن لما قيدها عَلِم أنه يذهب إلى سيده، فالمقصود ارجع إلى ربك هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني: إذا لم تعرف بالـ التعريف فما قال: ارجع إلى الرب، قال: ارجع إلى رب مقيدة له، ولكن إذا أطلقت كلمة الرب فلا تنصرف إلا على الله، وهذا كثيرٌ في أسماء الله وصفاته في التفريق ما بين تعريفها الدال على الاستغراق

والدال على العهدية أو الذي يطلقها، فأنت يجوز لك أن تقول فلان سميع، لكن إذا قلت السميع الدالة على استغراق معنى السمع للمذكور فلا تصرف إلا إلى الله، هذا من المعاني التي ينبغي أن نهتم بها.

فالقصد: بأن كلمة الرب قال بعض أهل العلم: إذا تأملتها أفادت الإصلاح، ونحن نعلم أن الرب هو الذي خلق فلا يكونوا رباً بإطلاق هذه الكلمة على ما تقدم ذكره من الإطلاق التام والعهدية إلا لمن خلق ولمن رزق ولمن أمد وأعطى ولمن أوجد وأفنى، فكيف هي الإصلاح؟ نحن قلنا الرب الأصل أن تطلق على المالك، من رب هذه الإبل؟ ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]، أي إلى سيدك إلى مالكك، فإذن رب هي تفيد الْمُلك.

فكيف قال هذا العالم –وهو أبو حيان– كيف أفادت في كل معانيها الإصلاح؟ ذلك لأن الذي على يقوم على الشيء إيجاداً هو مصلحٌ له، والذي يقوم على الشيء إمداداً هو مصلحٌ له، الآن حتى تُفهم، الله عز وجل في سورة «البقرة» وهذا تفسير لقوله جل في علاه في سورة «غافر»: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، أين تفسير هذا؟ في سورة البقرة، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)﴾ [البقرة: ٢٨]، طيب أول ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ فوصف عدم الإيجاد بالموت، عدم الوجود موت، والموت هو ذهاب الإصلاح، كيف يموت المرء؟ لعدم وجود ما يصلحه؛ فإذن إذا أوجد الشيء دل على إصلاحه يعني أخرجه من عالم الفناء الموت إلى عالم الإيجاد، وعالم الإفناء وعالم الموت هو ضد الإصلاح وإيجاده هو إصلاح، إذن ثبت أن الإيجاد إصلاح وأن الخلق إصلاح.

فإذن رب الشيء –هذه أنا أقولها لفائدة– أن رب الشيء هو ما يصلحه، فلما سمو ربانيون؟ لأنهم يقومون على إصلاح الكتب، سمو ربانيين لأنهم يقومون على الإصلاح، نسبوا إلى الرب تكريماً وتشريفا ذلك لأن فعلهم يقوم على الإصلاح، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩)﴾ [آل عمران: ٧٩]، فوضح أنه الرباني هو الذي يقوم على الإصلاح، فلا يكون المرء ربانياً حتى يقوم على الإصلاح، وربنا عز وجل سمي بالرب لأنه قائمٌ على إصلاح الوجود ومن إصلاح الوجود أنه أوجده.

ولذلك أولاً: هو رب كل شيء، بمعنى هو خلقه، إذن هذه كلمة الرب تقدم ذكرها أنها دالة على هذه المعاني، وجذرها، فما الذي اشتملته هذه الكلمة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ﴾؟ اشتملت ألوهية الله، ذلك لأنه الله، وذلك في قوله تعالى في سورة «الزخرف» ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤)﴾ [الزخرف: ٨٤]، أي هو الذي يُعبد في السماء وهو الذي يُعبد في الأرض، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]، أي يُعبد في السماوات وفي الأرض.

فلذلك الحمد لله أي الحمد له بأنه مؤلهٌ لا إله سواه، وهو استحق هذا التأليه لأنه رب العالمين، فاشتمل هذا الأمر على ذِكر أمرين: على توحيد ألوهية ربنا وعلى توحيد ربوبية ربنا، هذا ما اشتملته أول سورة «الفاتحة» أنها ذكرت ألوهية الله عز وجل وذكرت ربوبيته.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢]، فالعالمين هي جمع عالم، كل العوالم غيره سبحانه وتعالى هي من العالمين وهو ربها، الآن ماذا أفادت في قولك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿الْعَالَمِينَ﴾ هذه ماذا أفادت؟ أفادت أنه سبحانه وتعالى قائمٌ على كل الوجود والوجود كله قائمٌ به، وأجّل الصفات التي لا يمكن أن تكون هناك صفة لله دون هذه الصفة وهي كونه سبحانه وتعالى قائمٌ على كل نفس، ولذلك الحي القيوم ورد في بعض الآثار بأنهما الاسم الأعظم لربنا، وكثيرًا ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو: يا حي يا قيوم، يا حي يا قيوم.

فقيامه رب العالمين أنه رب العالمين هو قائمٌ على كل نفسٍ بما كسبت والقائم لا بد أن يكون حيًا، فكل الصفات الأخر كما يقول ابن القيم رحمه الله: كل الصفات الأخرى قائمةٌ على هاتين الصفتين الحي والقيوم، ولا يمكن أن حيًا وقيومًا إلا أن يكون ربًا، فهو رب العالمين.

إذن الحمد لله بما استحق الحمد؟ نحنا قلنا دائمًا الحمد لابد له من علاقة في أمرين: هو محمودٌ في تأليهه ومحمودٌ في ربوبيته، فقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، و ﴿الْعَالَمِينَ﴾ اذهب إلى كتب التفسير لا تجد إلا تفصيلات لتدل على شيءٍ واحد وهي جمع لعالم فخذ من العوالم ما شئت مما ذكره الله، مما تعلم ومما لا تعلم فهو ربها، هو رب الإنس والجن هو رب الدنيا والآخرة، وهو رب كل شيء، هو رب الملائكة ... وهكذا، هو رب كل شيء، رب العالمين، فلم يخرج عن ربوبيته شيء.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أثبت الله عز وجل ربوبيته لكل العالم، فدل على أن الربوبية أمرٌ قدري لا ينكره أحد، بخلاف الألوهية، فالألوهية جذرها فعل العبد تجاه ربه بأن يطيعه، بأن يوحده، بأن يخلص له، بأن يمتثل له، فهذا فعل العبد، وهل هناك عُصاة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، ولما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فاعترف القرآن بوجود ألهةٍ أخرى غيره تعبد وتصرف لها العبادة، لكن في الربوبية لم يعترف بربوبية أحدٍ غيره، ولذلك قال سبحانه تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فالكل تحت سلطانه وربوبيته، الكل المؤمن والكافر، من قَبِل ومن رفض، لا يمكن أن يخرج أحد عن ربوبية الله سبحانه وتعالى.

وهذه السورة تقرر لنا أن الربوبية أمرٌ قدري لا يمكن للعبد أن يخرج عنه، لا يمكن، ولما قال سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ –نعيدها لأهميتها لأنه أتى وقتها الآن وقد تقدم ذكرها لفائدتها في بابٍ آخر– قلنا: بأنها تستغرق كل المحامد في القرآن، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ﴾ [الأنعام: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، هذا من أفعاله جّل في علاه، وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هنا نقول: استغرقت جميع محامد القرآن، الحمد في الفاتحة استغرق كل محامد القرآن، جّل في علاه، فالحمد لله لألوهيته والحمد لله لأنه رب العالمين.

أعيد وأكرر: هذا خبرٌ من الله عز وجل بأنه حمد نفسه على ما قاله بعضهم: لما علم الله عز وجل أن عبيده أعجز من أن يثنوا عليه الثناء الذي يستحقه، تكفل ربنا بحمد نفسه وعلمنا هذا الحمد، قال صلى الله عليه وسلم: (لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أنت حمدته لألوهيته ولربوبيته، الآن بقي على ما يقسم العلماء بأن تحمده لأسمائه وصفاته، ورب العالمين جرى الوجود على الرحمن الرحيم، من هنا كانت الرحمن الرحيم ليست تكرارًا، في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قلنا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾؛ لأن القرآن نزل على وفق الرحمة فلا بد من الاستعانة بالرحمن الرحيم الذي أنزل القرآن على وفق الرحمة، فهذه استعانة بالرحمن الرحيم، أما في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)﴾ [الفاتحة: ٢–٣]، فأنت تحمد الله على أنه الله وأنه رب العالمين وتحمده لأنه الرحمن الرحيم، أولاً انت تستعين به أنه الرحمن الرحيم، ولآن أنت تحمده على أنه الرحمن الرحيم.

وهذا التكرار في اللفظ مع اختلاف المعاني هو من أعظم ما ينبغي أن يلتفت إليه الناظر للقرآن، هذا يفتح علينا باب نقف عنده قليلاً لنتعلم لماذا يأتي التكرار فيظن الظان أن هذا تكرار إنما هو للتأكيد، وهو ليس كذلك، هو لشيءٍ جديد، لنأتي لبعض الأمثلة:

في سورة «العنكبوت» صفحة «٣٩٧» قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧)﴾ [العنكبوت: ٧]، هذه جاءت بعد ماذا؟ بعد قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦)﴾ [العنكبوت: ٥–٦]، الحديث عن الذين: قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت: ٢]، الحديث عن الفتنة، فتنة العبيد فالحديث عن الآخرة ماذا سيقع لمن صبر بأنه فتن بسبب إيمانه فالنتيجة: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧)﴾ [العنكبوت: ٧]، هذه الآية متوافقة مع قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥)﴾ [العنكبوت: ٥].

والآية التي بعدها تتحدث عن الفتنة أول فتنة -وإن كان هذا ليس في الباب ولكن لا بأس- فبدأت الفتن، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت: ٢]، فأول فتنة؛ فتنة الوالدين، لما الإنسان يقبل على الله ويريد الدين فأول من يأتي له إذا كانوا على غير دينه والداه فينهيانه ويمنعانه ويزجرانه وتبدأ فتنة الوالدين، فماذا قال ربنا عز وجل؟ قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)﴾ [العنكبوت: ٨].

الآن بعد يفقد الإنسان والديه ما الذي يبقى؟! فهو فقد -لنسميها حاضنة- يعني أول شعوره بإنسانيته أن يكون له رفقة وأقرب رفقةٍ له ينبغي أن تكون هي عائلته وأرحم الناس عليه في عائلته هم والداه، فإذا فقد الوالدين يعني فقد كل شيء، لكن جاء الجزاء، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩)﴾ [العنكبوت: ٩]، أنشأ القرآن له عائلةً جديدة: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾، فقد والديك تخلى عنك قومك صار لك قومٌ جديد، أنت تظن وتقول: ما المشكلة هنا يتكلم عن الكفار وهنا عن المؤمنين، هنا ترى المؤمنين لهم جزاء، وهنا المؤمنين لهم جزاء، هـ١١ الجزاء يختلف عن هذا الجزاء بحسب ماورد فيها من سياق.

وللذكر بعد فتنة الوالدين تأتي فتنة الأصدقاء قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢)﴾ [العنكبوت: ١٢]، هذه فتنة جديدة.

وهذا حتى نعرف أن الاختلاف ليس للتأكيد ولكنه لتأسيس معاني جديدة تتوافق مع السياق.

في سورة أول «الحج» في الصفحة «٣٣٢»، يتحدث عن نوع من أنواع المفتونين، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣)﴾ [الحج: ٣]، تفتح الصفحة الثانية وتجد قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨)﴾ [الحج: ٨]، فتظن أن هذا تكرار، وهو ليس كذلك، وهذا حديثٌ في الآية الأولى عن نوع من الناس المقلدين يتحدث عن المشركين المقلدين، لكن في الآية الثانية قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨)﴾، هذا حديثٌ عن الأئمة المتبوعين وليس التابع فهذا ليس تكرارًا وهذا كثير في القرآن ولو أتيت عليه تجد الكثير منه في القرآن.

مثلاً حتى يفهم السامع: نذهب إلى «سورة الاسراء» في الصفحة «٢٨٤» قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢)﴾ [الإسراء: ٢٢]، ابتداء الأمور تحتاج إلى إرادة للطاعات، فبشرك لا يمكن أن تنشأ إرادة الطاعات، لا يمكن، فقال تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾، قال: مذمومًا لعدم قيامك ومخذولاً لعدم قدرتك على القيام، فالرجل بإشراكه لا تنشط إرادته للطاعات ولا لعمل الخيرات ولا لفعل الحسنات، بعدها في الصفحة «٢٨٦» وهذا ليس تكرارًا -ودائمًا في هذا الباب تكون الآيتان في نفس السورة-، قال سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا

أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩)﴾ [الإسراء: ٣٩]، هناك لا تنشط نفسه للطاعات، هنا جزاء السيئات جزاء، فهذا ليس تأكيدًا، ولكنه تأسيسٌ لمعاني تتوافق مع السياق.

ونعود الآن –لماذا ذكرنا هذه الأمثلة– لما قال ربنا جّل في علاه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)﴾ [الفاتحة: ١]، كانت كلمة الرحمن الرحيم لها معانيها الدالة على هذا الافتتاح، منها أن الله عز وجل أقام الوجود على وفق الرحمة، وأقام كتابه على وفق الرحمة، وأنت استعنت به وقلنا الباء هنا للاستعانة على الصحيح وذكرنا ما ذكرنا في ذلك، وما دام أن القرآن قام على وفق الرحمة فلابد أن تستعين بالرحمن الرحيم على قراءته، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لتقرأ، وقلنا الباء هنا تعلقها للاستعانة؛ بسم الله أبدأ، بسم الله أقرأ، بسم الله استفتح، وقلنا إنها آية من القرآن إما أنها من سورة «الفاتحة» أو ليست آية من «الفاتحة».

ولكن لما جئت إلى قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢] قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)﴾ [الفاتحة: ٣]، إذن هنا ما المقصود بالرحمن الرحيم؟ ما تعلق بقوله: الله المعبود فهو الرحمن الرحيم، وما تعلق بأنه رب العالمين فهو الرحمن الرحيم، وهذه تعلقها لما هو قريب، أما تعلقها لما هو أبعد فالحمد له لأنه الرحمن الرحيم. هناك في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ استعنت به لأنه الرحمن الرحيم، وهنا في ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حمدته لأنه هو الرحمن الرحيم.

وكأن بين الرحمن الرحيم الأولى وبين الرحمن الرحيم الثانية هو عملك الذي استغرق حياتك، عملك، فأنت في الابتداء تقول: يا رحمن يا رحيم استعنت ثم أنت حمدته لأنه الرحمن الرحيم. فكأن خاتمة الشيء أنك حمدته لأنه كان رحمنًا رحيمًا معك، انظر مسيرة الرحمن الرحيم من الأول إلى النهاية كأنها مسيرة الوجود كله من ابتداءه إلى نهايته، في الابتداء تستعين وخاتمته أن تحمده لأنه الرحمن الرحيم، رأيت الفرق؟ فلا تقل هذه الأولى هي الثانية.

المعنى الثاني الذي يجب أن نقف عنده أننا قلنا: إنه محمودٌ لأنه الرب، ومحمودٌ لأنه الإله، ومحمودٌ لما له من أسماءٍ جليلةٍ عظيمة ومنها الرحمن الرحيم، إذن هذا هو ما يسمى التوحيد بتقسيماته الاستقرائية، إذا استقرئنا القرآن الكريم واستقرئنا السنة النبوية وجدنا أننا نوحد الله عز وجل بربوبيته، وهذا التقسيم استقرائي، نقول ما دليله؟ دليله استقراء، واستقراءٌ كُلي، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)﴾ [الفاتحة: ٢–٣]، رأينا أنها تستوعب توحيد ربنا بألوهيته وبربوبيته وبأسمائه وصفاته، فهو الرحمن الرحيم، وتقدم أن الرحيم يمكن أن تطلق على العبد –وهذا وجهٌ– والرحمن لا يمكن أن تطلق على العبد، فهي خاصةٌ بالله عز وجل، وهذه قاعدةٌ من قواعد الأسماء والصفات؛ أن هناك من الأسماء التي تليق بربنا عز وجل وهي من أسمائه الحسنى، هي له جّل في علاه لا يجوز أن تطلق على غيره لِمَ فيها بذاتها من صفات الكمال التي لا تكون إلا لله عز وجل.

وهنا كلمة هي مفتاح الباب، وتذكرون في الدروس الفائتة قلنا الاسم أجّل من الفعل، وهناك كلمة للإمام البيضاوي رحمه الله قال: «لأن الأسماء والصفات دالة على الغايات وأما الأفعال فهي دالةٌ على البدايات»، وهذه كلمة جميلة وجليلة للإمام البيضاوي رحمه الله، فالأسماء والصفات دالة على الغايات، النهايات، فلما تقول: هذا اسمه كذا، فلا يمكن أن يطلق عليه الاسم حتى يبلغ الغاية في هذا الاسم، المعنى في هذا الاسم، فلما تقول أنت: الرحمن، فقد بلغ الموصوف بهذه الصفة وهي صفة الرحمة، الغاية فيها، لكن لو قلت: صفة فعل، الرحيم، فهي دالةٌ على البدايات، ولو قلت: فلان سمع، فهي يكفي أن تطلق على مجرد السماع، فلو سمع مرة تقول: سمع، على بدايتها، ما دام أنه وقع الفعل حتى لو في بدايته صح نسبة الفعل له، لكن أن تكون اسمًا له وأن تصبح صفةً له لا يمكن أن تكون إلا دالة على الغاية، الغاية التي تدل عليها هذه الصفة.

وانظر إلى ما أفادتنا ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، أفادتنا بقاعدة: أن هناك من الأسماء ما يمكن أن تطلق على مجرد وجود الفعل في البدايات، وهناك من الأسماء ما لا يمكن إلا أن تطلق على الغايات والنهايات، هذه قاعدة ودلها قوله سبحانه وتعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

ماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي لما جاء إلى قول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؟ قال: قال تعالى: (حمدني عبدي)، ولما جاء إلى ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قال: قال تعالى: (أثنى علي عبدي)، فكرر الثناء، إذن ما هو المطلوب؟

المطلوب من العبد أن يأتي الفعل كما أمر الله عز وجل به في بدايته وأن يأتي به على وجهه الصحيح في نهايته، أن يبقى دائمًا فيه، وهذه تعلمك أيها العبد بأن لا تقف عبادتك حتى يأتيك اليقين، فلذلك قال: (أثنى علي عبدي)، وأثنى من ثنى الشيء أي كرره.

الحمد لله، نحنا قلنا هي فعل العبد لربه، وفعل العبد تعبُدِه لله، هذا يقتضي شريعة -هذه لابد أن تذكروها- فدلت كلمة الحمد لله على وجود الشرع، يعني أنت لما تقول: «الحمد لله» هذا مألوه، هذا لابد أن يُعبد، فكيف يُعبد فلابد من الشريعة، فدل أنه مألوه أنه لابد أن يشرع لعبيده شرعًا يعبدوه بهذه الشريعة.

انظر إلى سورة «الفاتحة» ماذا استغرقت؟ استغرقت أولاً من هو المرسل؟ وهو الله عز وجل، وتأمل أن هذه السورة كما قال النبي في الحديث القدسي قال تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، ما للعبد هو نصفها وما في الصلاة نصفٌ آخر هو ذكر صفات الله عز وجل، وذكر صفات الله منها ما تقدم أنه سبحانه وتعالى هو المعبود بحق، أنه سبحانه وتعالى هو الرب على ما تقدم ذكره وأنه سبحانه وتعالى رحمنٌ رحيم على ما تقدم، إذًا ماذا بقي؟ لابد أن

نعرف ما هو المشرع، ما هي هذه الرسالة؟ عرفنا المرسل، المرسل هو بهذه الصفات التي ذكرت (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي)، فبقي أن نعرف أن هناك ثمة رسالة.

من أين أتينا بهذه أنه ثمة رسالة؟ أتيناها من تأليه، وهل الرسالة خاضعةٌ لتأليه الله، لتألهه على عبيده؟ أم خاضعةٌ لربوبيته على عبيده؟ للإثنين فهي من جهة صدور الشريعة منه فهو رب ومن جهة استجابة العبد لهذه الشريعة فهو إله، الرسالة هذه تخضع من جهة صدورها من الله عز وجل فهو رب، ومن جهة امتثال العبد لها هذا هو إله، فلذلك هي خاضعة للألوهية وخاضعة للربوبية.

وإن شاء الله في الدرس القادم نأتي إلى قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ٤]، فذكرت صفات الله عز وجل، حقه على عبيده، أفعاله في عبيده، الصفة الجامعة التي هي محيطةٌ بصفاته جل في علاه وهي الرحمة في كل ما تقدم، وبقي أين الجزاء؟ وهو ذكر يوم القيامة، وهذا ما سنبينه إن شاء الله في الدرس القادم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرا والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: هل تعريف معنى كلمة الرب أنه المالك الازم من لوازم المعنى الاصلي الحقيقي لما فرعون سأل موسى عليه السلام ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾ [طه: ٤٩-٥٠]، **فالخلق والهداية فمن خلق هو يملك، هل هذا هو الصواب في الكلام؟**

الشيخ: أنا فقط ما أحاول أن أقربه لذهني ولذه السامع، بأن منطلق الكلمة وجدل الكلمة يُتفنن فيه عند العلماء، يعني عادةً تطلق كلمة الرب في اللغة في أغلب مجراه تجري على الملك، رب الشيء مالكه، صاحبه، سيده، هذه هي كلمة رب، وقال شيخ الإسلام: «كانت جائزة في الأمم السابقة وهي لا تجوز في هذه الأمة» أن تطلق كلمة رب، ولكني وجدتها في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم استخدمها، في قوله صلى الله عليه وسلم: (من رب هذا الجمل).

فالرب كلمة مُلك، لكن لما يأتي عالم ويقول: أنا تأملت فوجدت أن كلمة الرب تأتي الأصل أنها تجري على معنى الإصلاح، كيف تسلل وتغلغل هذا المعنى في نفس هذا العالم؟ فهذا أشرحه فقط، وليس من أجل مصادمة، لأن هذا لا يصادم ما يقوله هذا وما ويقوله هذا، فلو قال قائلٌ له: أنت قلت هذه الكلمة يا عالم؟ فهل لها وجه صحيح؟ طبعًا هذا ليس غريبًا عنه أن كلمة الرب تأتي على معنى الْمُلك، فلماذا قلت الأصل الإصلاح؟

فوجهت كلمة هذا العالم أنه حمل كلمة الرب على الإصلاح فيما معناه أن المالك هو الذي يصلح ويقوم على الشيء يصلحه، وهو الذي خلقه فكيف يكون الخلق إصلاح؟ ذلك لأن عدم الوجود موت والموت نقص، فهذا الذي أردته.

السائل: نريد زيادة إيضاح لقاعدة الخراج بالضمان؟

الشيخ: الخراج بالضمان هذا ليس في الدرس لكن معناها بسيط جدًا وسهل وميسور، من يضمن يعني إذا هلك الشيء في يده كان ضامنًا له هو الذي يستحق المنفعة، هذه القاعدة، الخراج بالضمان فقط، أما تطبيقاتها الحياتية فهذه مثلاً: النهي عن بيع ما لا يملك، النهي عن بيع الثمر قبل أن يصفر ويحمر، فكلها تدخل فيها.

فالخراج بالضمان معناها: الخراج هو المنفعة، يعني لا يجوز لك أن تنتفع بشيء، حتى تكون ضامنًا له إذا هلك، فأنت إذا كنت ضامنًا له عند هلكته في يدك أو في يد غيرك كانت المنفعة من حقك، ومن أجل هذا، هذه القاعدة

منعت بيع ما لا يملك، إذا باع الرجل ما لا يملك المنفعة لمن له، لكن لو هلك على صاحبه فكيف استوى هذا مع هذا؟

الآن الْمَدين، المنفعة لمن؟ له، يعني واحد دينك مئة دينار، ذهبت وتاجرت فيها وربحت المربح لمن؟ لك، المربح ليس للدائن، فلو هلكت، هلكت عليك، يعني لو أن رجلاً أخذ من واحد مية دينار دين وهو خارج سرقوا من الذي يضمنها؟ المدين، فلما كانت المنفعة له كان الضمان عليه، هذه قاعدة يعني باختصار يسير وقلت لك هي تدخل فيها أبواب كثيرة من مسائل الفقه. نعم.

السائل: هل من حفظ القرآن ونسي منه يحاسب عند الله عز وجل؟

الشيخ: نعم، من الكبائر وصح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم (من الكبائر أن يحفظ المرء القرآن وأن ينساه).

الحمد لله رب العالمين وجزاكم الله خيرًا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس الثامن

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أما بعد أيها الإخوة الأحبة هذا الدرس الثامن من دروس التفسير ونحن مازلنا مع سورة «الفاتحة» ووصلنا إلى قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ٤].

وورد عن النبي صلى الله عليه وسلم لفظان في الحديث القدسي، قال صلى الله عليه وسلم: قال تعالى: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي)، وثم وصل إلى قوله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ قال: (مجدني عبدي)، وفي رواية (فوض إلي عبدي).

والمجد كما ذكرنا إنما تطلق على ذكر صفات الممدوح وعلى خصال الممدوح فيما يتعلق بالتعظيم والتفخيم، لأن المجد لا يطلق إلى لمن له الفخامة والعظمة وله الإجلال، ولذلك هذا ناسب أنه سبحانه وتعالى هو مالك يوم الدين، فإن من له الملك العظيم يكون له المجد، ويكون له العظمة، فقوله صلى الله عليه وسلم، في الحديث القدسي عند قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: (مجدني عبدي) ذلك لأن يوم القيامة تتجلى عظمة الله عز وجل بلا منازع.

وهذه كلمة بلا منازع هي الجواب على من قال: لِمَ خص مُلكه ليوم القيامة مع أنه رب العالمين؟ يعني هو مالك الدنيا، ومالك العالمين، والآن الْمُلك له جل في علاه قبل يوم القيامة، هو مالك كل شيء، هو مالك السماوات ومالك الأرض، هو مالك عالم الغيب وعالم الشهادة، فهو مالك كل شيء، فلِمَ خص بقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، نحن نتكلم عن مالك، لكن ذكر يوم الدين سيأتي الكلام عليه، فلماذا خص بأنه مالك يوم الدين؟ ذلك لأن الْمُلك يومئذٍ لا منازع له فيه، لا يوجد منازع.

ولذلك في سورة «غافر»، قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، وفي الحديث يقولها الله عز وجل لما قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما قال: (يوم القيامة يقول الله عز وجل لمن الملك اليوم؟) فلا يجيب أحد ما في أحد، كلهم قضت أرواحهم كلهم موتى ما بقي إلا وجهه، قال تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)﴾ [الرحمن: ٢٧]، فالله يجيب.

ودائماً أيها الإخوة الأحبة انتبهوا إلى هذه القضية، الله يسأل وهو يجيب، لأنه سبحانه وتعالى له الحق، أن يقول: الحق، يعني عادةً الناس يعرفون أنه لا بد من الاستشهاد بالآخر من أجل تصويب قول المتكلم، فيُسأل المرء من أجل الاعتراف من أجل تصويب قولك، فيُسأل، والله عز وجل استشهد، فقال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]، فاستشهد بأولي العلم، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فاستشهد بالملائكة واستشهد بأولي العلم، وقال: لكن الله يشهد بما أنزله إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون، فاستشهد بالملائكة، لكنه قبل ذلك، هو سبحانه وتعالى يشهد بالحق، لأن الذي له أن يشهد الحق على نفسه ولا يحتاج إلى شهادة غيره لما معه من الحق، هو الله وحده، لا يوجد أحد.

فلا يجوز لأحد أن يقول بمجرد قولي أنا هو الحق، لا يوجد، هذا حقٌ خاص لربنا سبحانه وتعالى، لا يجوز أن ينازع فيه، يعني عندما يقول أحد: بما ثبت أن قولك هو الحق، يقول: بقولي أنا، هذه الكلمة لا تجوز إلا لله عز وجل، وهنا ترون أن الحق هو الله وبمجرد أن يقول الله أمراً فهو الحق، هذا هو منتهى الجلال ومنتهى العظمة، فهو الحق، لكن الله يشهد بما أنزله إليك، لكن الله يشهد، فأعطيت قيم الحق لما قاله الله لأن الله قاله، بما ثبتت قوة الحق؟ مع أنه الحق في نفسه، لأن الله قاله.

لكن هنا مسألة ينبغي ان ننتبه لها، لو بقي الأمر هكذا لوجد من ينازع ربنا سبحانه وتعالى في ربوبيته وفي جلاله وفي عظمته كما في قصة إبراهيم عليه السلام الذي نازعه، ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فنازعه في عظمته، نازعه في ألوهيته، حتى هنا نازعه في ربوبيته أنه يخلق، فيوجد، لكن ها هنا لابد أن ننتبه لقضية مهمة جداً –وهذا أيها الإخوة الأحبة بمنتهى الجلال وأعظم درجات المدح في الوجود– بعد أن علمنا (أن الحق يثبت أنه الحق بقول الله له) يكفي أن يكون كذلك أن يرفع الله درجة العبيد بأن يجعل شهادة هؤلاء الناس هي كذلك تثبت أنه الحق، هل هناك أعظم من هذا المقام؟!

لأن الله عز وجل يقول: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، فقلنا: أن الحق ثبت بأن الله عز وجل قاله، ولكن كذلك أن يرفع درجة الملائكة بأن يكون، وكأن الملائكة لا يقولون إلا الحق، كما ان الله لا يقول إلا الحق، والحق يثبت أنه كذلك لأن الله قاله، والملائكة شهادتهم بمجرد شهادة الملائكة على أمرٍ أنه الحق، وليس كذلك فقط، ويقول تعالى: ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾، فكأن أولي العلم لا يقولون إلا الحق، لأن مجرد شهادتهم على شيء تثبت أنه الحق، أي درجة من العظمة ومن الجمال ومن المقام، أي درجة أعظم من هذه الدرجة؟! بأن يصبح أناس خلقهم الله هم دليل الحق.

ولذلك افتحوا على سورة «الحديد»، لتروا هذه آية حقيقة من يمر عليها ولا يقشعر بدنه لها، فينبغي أن يراجع فهمه لها، ولمعرفته بما يَعظُم البشر، بما يَعظُم الناس، بما يكونوا عظماء، انظروا في سورة «الحديد» فترى هذه المعاني

هي التي تجعلك نظيف النظر، وهي التي تجعلك عالماً بالناس ومقاماتهم، من هم أولي العلم؟ هم أهل القرآن، هم أهل السنة، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الروم: ٥٦]، هم أهل الإيمان، من هم أولوا العلم؟ الذين ينظرون إلى الدنيا وكأنها لا شيء، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠)﴾ [القصص: ٨٠].

انظر، فلما ترى أناسًا لهم تعلق بالله عز وجل عملاً وسلوكاً وذكراً وإخباتاً وطاعةً وإخلاصاً لله، يصبح مقامهم هو مقام الحق، بأن تكون شهادتهم في الوجود هي شهادةٌ للحق أنه الحق وللباطل أنه الباطل، هي أصلاً لمن تعود هذه المرتبة لمن تعود؟ تعود إلى الله عز وجل، فإذا ذهبت للبشر، ذهبت على جهةٍ نسبية، طبعاً ليست المطلقة، ولكنها تذهب هذه الصفة التي أرادها الله له من أجل معيارية الحق، جعلها في أقوامٍ أنظارهم للوجود هي أنظار الله عز وجل، وأما أنظار الذين يريدون زينة الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩)﴾ [القصص: ٧٩]، لكن أنظار أهل الدين، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠)﴾ [القصص: ٨٠].

وماذا يعظم الله عز وجل الدنيا أم الآخرة؟ فأنظارهم للوجود هي أنظار ربنا سبحانه وتعالى لما وضع في صدورهم من العلم والإيمان، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الروم: ٥٦]، في صدورهم العلم وفي صدورهم الإيمان، فهم يصدرون في أحكامهم بهذا المعيار وهو العلم والإيمان.

لنذهب لسور ولمواطن تجعل البدن يقشعر هيبةً لمقام هؤلاء الناس أن الله يقول لهم يكفي أنه الحق أنه شهد به هؤلاء، يكفي أنه حق أن شهد به هؤلاء، الحديث لما قالوا بقرةً تتكلم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أشهد أنا على هذه وأبو بكر وعمر)، ليس لأحد أن يتكلم على الجميع أن يسكت.

وفي سورة «الحديد» انظر وتأمل، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ [الحديد: ٨]، يقول: لهم كيف لا تأمنون وهذا الرجل هو الذي يدعوكم، مالكم لا تأمنون وتعلمون أنه الحق والذي يدعوكم لهذا الأمر هو من؟ هو هذا الذي تعرفونه، فجعل شخص النبي شاخصاً منصوباً فوق الحق، يعلمه الناس ولا يخطؤونه.

والحق يمكن أن يأتي من غير طريقه؛ فتنةً للناس، يعني هل يمكن لجوهرة أن تخرجها من العذَرة؟! يمكن، ولكن هذه فتنة، ولكن أساس الحق له طريقٌ مرسوم، لا يأتي إلا من هذا الطريق، فإذا جاء من غيره فتنةً لهؤلاء وابتلاءً للناس، من أجل معيارية الحق، لأن هؤلاء بشر يخطؤون ويصيبون، ويمكن أن يخطئ العالم بربه، وقد تفلت يد العبد وهي بيد الله عز وجل، من أجل أن يتوب ويستغفر فتتحقق في هذا العبد مقامات العبودية بالتوبة، ولكن انظر إلى

هذه الآية، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ [الحديد: ٨]، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم شاهد الحق.

ونذهب إلى سورة «الأحقاف»، آخر «آل حاميم»، وهنا لفتة مهمة جداً -بعدها لا ندري هل نأتي لهذه الآيات، يطيل الله في العمر ويمد في الأجل- لكن انظر موقع هذه الآية بعد قوله جّل في علاه: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، أولوا العلم هؤلاء يعلمون الحق من خلال حقيقته الجارية في التاريخ، أولوا العلم يعلمون الحق وخصاله ورجاله وهيئات أهله ومناهج العاملين فيه وما هو الحق في نفسه من خلال تكرر صورته في التاريخ، فلما قال: سبحانه ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾، أي أنا جاري على سنن الأنبياء السابقين، فمن يدرك أنني نبي؟ الناظر إلى سنن الأنبياء السابقين، فيرى أنني على منوالهم وعلى ما أتوا به من الحق، وفي هذه نبه لما سيأتي من الآية التي تأتي بعدها من الربط، قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)﴾ [الأحقاف: ١٠]، فشهادة هذا الرجل من بني اسرائيل ممن عَلِم جريان سنة الحق بهذه الطريقة، شهادته تثبت أنني الحق، أي رسول الله هو الحق.

إذن هنا نريد أن نقول: -وهذه قضية مهمة- لما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ٤]، فلما نوزع في الوجود في هذه الدنيا، نوزع في الملك فأثبت له الحق عبيد الله، فعُلم أنه الحق لأن هؤلاء هم العلماء، هذه انتهينا منها ونرجع إلى ما نحن فيه.

إذن فقوله هنا: (مجدني عبدي)، أي ذكر خصال المجد، العظمة، ولما كان يوم الدين، هو أعظم ما في الوجود، من هو أعظم يوم الدين أم هذه الدنيا وما فيها؟ يوم الدين، الخلق تنوعوا وتوزعوا منذ آدم عليه السلام إلى يوم القيامة، هذا الخلق جميعاً يُجمع في مقام واحد هذا من جهة الإنسان، والحيوانات تحشر في هذا المقام، والملائكة صافون، ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ [الصافات: ١]، من هم الصافات هؤلاء، فسرت في أخر السورة، القرآن يفسر بعضه بعضاً، ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١)﴾ [الصافات: ١]، من هم؟ في أخر السورة ما هو، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥)﴾ [الصافات: ١٦٥]، أي الملائكة، فالملائكة صافون، وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢)﴾ [الفجر: ٢٢]، كل الملائكة الذين خلقوا في هذه الأرض على هذه الأرض المحشر، والشمس والقمر يجمعان في القيام في جهنم، الوجود تصور الشمس والقمر وكل شيء يرمى، فكل ما خلق الله عز وجل حاضرٌ في هذا اليوم في لحظةٍ واحدة وفي مكانٍ واحد وفي زمنٍ واحد، فما الأجّل إذاً؟ هذه الدنيا وما فيها أم يوم القيامة؟ من أكبر هيبة، من أعظم هيبة؟

ويقول صلى الله عليه وسلم: (يوم لا ظل إلا ظله٩، العالم مكشوف لبعضه البعض، فهذا يوم عظيم، ولذلك هو ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، فإذا قيل: لما ذكر ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وهو رب العالمين؟ قيل: لأنه نُوزع، وقيل: لأن يوم

الدين يومٌ عظيم فخص ذكره على قاعدة: ذكر الخاص بعد العام لأهميته، هذه قاعدة من قواعد التفسير، وهي أن يذكر الخاص بعد العام لأهميته.

مثل: وهذا كثير في القرآن، لكن أحب دائماً أن تنتبهوا للآيات التي بين أيديكم، نذهب إلى سورة «الحج»، لأن المقام مقام عظيم فيها وهو مقام السجود لله عز وجل، الصفحة «٣٣٤»، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحج: ١٨]، طيب الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والناس في السماوات وفي الأرض، فلما يذكر هؤلاء بعد ذكر العام؟ لأهمية ذكرهم، لأهميتهم.

وهنا –فقط أمر– الجبال عادةً لها اختصاص؛ لأنها من الآيات العظيمة الجليلة في خلق الأرض، ولذلك تُختص بالذكر، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، الجبال لها ذكر خاص، هذا ليس موطنه.

فقال سبحانه وتعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)﴾ [الحج: ١٨]، ومن هنا فقط تنبيه، الذين احتجوا بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥]، أن الصالحات ليست من الإيمان، وبالتالي الإيمان فقط هو التصديق على عادة المتكلمين والاشاعرة كلامهم غير صحيح؛ لأن هذا من باب ذكر الخاص بعد العام لأهميته، للتدليل عليه والتنبيه عليه، لأن النفس قد تغفل عنه فينبه عليه، ولأنه مهم فلا بد أن يأتي إليه.

فقوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ٤]، جل في علاه من أجل بيان اختصاصه، ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)﴾ [الانفطار: ١٩]، ما في أمر أحد، ما في أمر ملوك، ما في أمر أب لأبنه، ولا أمر سيد لسيده، ما في أمر لأحد، ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)﴾ [مريم: ٩٥]، الناس خشعاً يوم القيامة، والأمر له، فلذلك هو مالك يوم الدين.

وكذلك ذكر هذا من أجل بيان عاقبة ما تقدم من ذكر ألوهيته وربوبيته، عندما قوله جّل في علاه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢]، هذا يقتضي وجود رسالة، يقتضي وجود عابدين، فأين الجزاء؟ يوم القيامة، ولذلك في آيةٍ من القرآن نبهت لنا، هذه مهمة، نبهتنا على أن الكفر بيوم القيامة هو كفر بالله عز وجل.

وقد يقول قائل: ذلك لأن الكفر بيوم القيامة هو كفرٌ بخبر السماء، يمكن، يعني قد يأتي ويقول قائل: لما الكفر بيوم القيامة كفر بالله؟ فيرد عليه المجيب، يقول: ذلك لأن الكفر بيوم القيامة رد على الله عز وجل خبره، يرد خبر الله عز وجل، هذا يمكن، وهذا جوابٌ صحيح، ولكن هناك ما هو أجل منه، أن الكفر بيوم القيامة هو كفرٌ بالله.

فلنذهب للآية الخامسة في سورة «الرعد»، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥)﴾ [الرعد: ٥]، فاللذين نفوا يوم القيامة كفروا بالله، وقلنا يمكن للمجيب أن يقول: أن السبب لأنه رد على الله خبره، ورد خبر الله كفر بلا شك، وهذا رد الخبر كفر الاعتقاد، لكن هناك ما هو أجّل لهذا الجواب، وهو أن تصور هذا الخلق الذين نعيشه في هذه الدنيا من غير يوم القيامة هو سبٌ على الله عز وجل، إن من يتصور أن هذا الوجود الذي يعيشه الناس وهذه الدنيا التي يحياها الخلق، لو لم يكن هناك يوم القيامة لو تصورها العبد لكان في تصوره هذا سبٌ على الله سبحانه وتعالى؛ لأنه فيه إثبات عدم الحكمة، وإثبات الغلط، وإثبات الظلم، وإبعاد الحكمة عن خلقه جل في علاه.

أي لو أن الناس يعيشون كما ترون في الحياة ولم يكن هناك يوم القيامة، فالحياة عبث، ولذلك أين قوله تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فقال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)﴾ [المؤمنون: ١١٦]، تعالى أي: ترفع، فلو أنكم قلتم بأن هذه الدنيا عبث، عبث أي لا ترجعون إلى الله عز وجل، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، فإثبات أو تصور عدم رجوع الناس إلى الله للحساب والجزاء والعقاب والثواب، إنما هو إثبات العبث في فعل ربنا وفي خلقه، فقال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾، تعالى أن يخلق هذا الخلق ولا يكون هناك يوم قيامة.

ولذلك يوم ذكر القيامة ملائم أنه رب العالمين وهو أول ملائم أنه رب العالمين، وقلنا: إن الرب عند بعض أهل العلم هو المالك القائم على ما ملك بالإصلاح، ونبهنا عليها لأهميتها، وقلنا: إن الرب ليس فقط المالك السيد، ولكنه القائم على ملكه بالإصلاح، ما هو أعظم إصلاحٍ لهذا الوجود، هو أن يكون هناك يوم القيامة، وذلك لإصلاح تصور كلمة رب العالمين وإتيانها على أتم وجهها وعلى أحسن ما فيها من معاني أن يكون هناك يوم الدين، وهو سبحانه وتعالى مالكه.

فكيف تلتقي كلمة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ مع أنه ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، كيف تلتقي؟ لأن يوم القيامة هو دار الجزاء، وبه تشفى الصدور، وبه الناس يفرحون، ويومئذٍ يفرح المسلمون ويفرح المؤمنون برؤية الله ومن مُتعهم ومن رحمة الله لهم يوم القيامة بأن يروا أعدائهم في النار، هذه من الْمُتع التي يحياها المؤمنون في الجنة أن يروا أعدائهم في النار، فهذا من تمام رحمته.

ولذلك في الحديث، كم قسم الله رحمته؟ مئة قسم، أنزل في الدنيا رحمةً واحدة، رحم بها الخلق، وزعها بين الناس يتراحمون فيما بينهم، ووزعها على الخلق، حتى الدواب، حتى إن الدابة لترفع رجلها لأن لا تطأها رضيعها من رحمة

الله من الجزء، ويوم القيامة يَعُم برحمته تام الخلق، ومن أعظم ذلك أن تكون هذه الرحمة بتمامها وكمالها لأهل الجنة، وفيها أن يروا أعدائهم في النار.

فإذن ربنا هو ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ٣-٤]، فربنا هو: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ، هذا هو موطنها، وهي تثبت يوم القيامة، قال تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، فربنا عز وجل ما قال: يوم القيامة وما قال: يوم التغابن في هذا الموطن لأن كلمة الدين شاملة لمعنيين؛ المعنى الأول: الخضوع، والمعنى الثاني: الجزاء، دان: خضع، دان له أي: خضع له، ومنه أخذت كلمة الدين، ذلك لأن المدين يخضع للدائن بمقدار دينه فسمي الدائن والمدين لأنه دين، ولأن يوم الدين هو يوم الجزاء، فاجتمع فيه تمام الملك وتمام العطاء والثواب والعقاب.

انظر إلى كلمة ﴿الدِّينِ﴾ اختصت بالذكر لأنها جامعة لتمام الخضوع، ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، الكل خاضع، لا منازع، لا يوجد نزاع، فهي ملائمة لكلمة ﴿الدِّينِ﴾، ولأن يوم الدين هو يوم الجزاء، يوم الثواب والعقاب، فجمعت ما في هذا اليوم من أجّل خصاله، أجّل خصاله أنه يوم الدين.

وكلمة الدين، مادام أن فيها الجزاء والعقاب فإذن هناك شريعة، إذن في هذه الدنيا يوجد شريعة، هناك أوامر، هناك أخبار، فلذلك هي متضمنة لما يجب على العبد في الدنيا، فهي حاويةٌ لمقصد وجودك، ولذلك أكرر هذه الكلمة لجلالها، الشيخ دراز لما يقول: «الفاتحة هي ورقة الاستدعاء»؛ لأنها حاوية لكل ما في القرآن، كل ما في القرآن من كلام عن يوم القيامة حاوية لكلمة يوم الدين، الثواب والعقاب، سواء كان من ذكر الجنة والنار، سواء من ذكر أوصاف يوم الدين، سواء من قضية خلوص الناس إلى رب العالمين هو يوم الدين، وهذا يوم الدين اقتضى أن هناك دين على العبيد كان عليهم أن يؤدوه في هذه الدنيا تصديقاً لخبر السماء وطاعةً لأمر الله فهذا هو يوم الجزاء، فسبحانه وتعالى هو ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

وهذا الآن بعد أن تعلم ما في يوم الدين، بعد أن يجتمع كما ذكرنا، علمت ما معنى المجد، ثم بعد أن رأيت أن الناس أقبلوا على الله عز وجل من أجل أن يعطي المحسن إحسانًا وأن يعطي المسيء إما رحمةً وإما عذاباً، وأن يعطي الكافر عذاباً، فإذن معناه فوضوا أمورهم له، يعني واحد يقول: أنا فوضت أمري إليك يعني أسلمت، فافعل ما شئت بي.

ففي الدنيا ترك للناس مشيئة، فالكافر يكفر والمؤمن يؤمن والناس يأكلون ويشربون فلهم مشيئة وإن كانوا خاضعين لمشيئة الله، إلا أن لهم مشيئة، لكن إذا صار يوم القيامة هو يوم الدين، ليس لأحدٍ مشيئة، ليس لأحدٍ فعل، ليس لأحد اختيار، لا يمكن لأحدٍ أن يختار، ولا يمكن لأحدٍ أن يذهب مذهبًا على ما يريد، كلهم يسلمون أحوالهم وجزائهم وثوابهم وعقابه إلى الله عز وجّل، ولذلك في الحديث، (فوض إلي عبدي).

فيوم الدين، ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، لله، (فوض إلي عبدي)، فوضه في الحديث أي مجدني، وأنا أقول: لعل النبي صلى الله عليه وسلم قال: فوض ومجد؛ لأنها ملائمة، أو أن الراوي سمع إحدى الكلمتين فقال الثانية من تمام فقهه، لأن الراوي يمكن أن يروي الحديث بالمعنى، فإما أن هذه اللفظة رويت من النبي صلى الله عليه وسلم، بفوض ومجد في موطنين وإما في موطنٍ واحد -هذا كله يجوز- وإما أن الحديث جاء بفوض، فقال الراوي: مجد، وإما أنه قال صلى الله عليه وسلم: مجد، فقال الراوي: فوض، فدل هذا -إن كان ذلك- فكله يدل على إما أن النبي صلى الله عليه وسلم قالها، فعلى ما قلنا، وإما أن يكون الراوي ذكره بالمعنى، وهذا يدل على أن الراوي من أفقه الرواة، لأنه أقام اللفظة التي تناسبها.

وقوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، طبعًا نحن نعرف مالك وملك، كلهما من الْمُلك، والملك هو السيد الذي يملك الشيء سيده، أي يتصرف فيه، الذي يملك شيء يتصرف فيه، فيوم القيامة هو المتصرف، أبو حيان الأندلسي له كلمة رائعة في التفسير، يقول: لا يوجد في اللغة اسمٌ -غير الأسماء الأعلام مثل يوسف وغيره، لا- اسمٌ بهذا التركيب الغريب، وهو بأن تكون الفاء فيه الياء وأن تكون الواو عين، على وزن فعل إلا يوم، وما تصرف فيه، قال: في اللغة لا يوجد، نحيل عليه، ومن يرد رده عليه.

فقوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، دل على مقصد هذا الوجود على ما تقدم، فإذن الفاتحة شاملة لألوهية ربنا ولربوبيته، لأسمائه وصفاته، للرسول لأنه يقتضي وجود رسول، شريعة، ووجود رسالة شريعة، وبعد ذلك يدل على جزاءٍ وعقاب، وهذه هي أركان القرآن كله، وكلها تتعلق بحق ربنا سبحانه وتعالى، تتعلق بحق الله عز وجل.

ومن هنا نأتي إلى كلمة مهمة، لا يمكن لأحدٍ أن يفهم القرآن، أي أن يفهم ما فيه من أحكام، يفهم ما فيه من شرائع، يفهم ما فيه من أوصاف وأخبار، يفهم ما فيه من إنشاء، لا يمكن أن يفهمه حتى يكون عالماً بأسماء الله وصفاته، فكل ما صدر عن الله جل في علاه، إنما له تعلقٌ بأسماء الله وصفاته، يعني لو واحد سأل من أين أتت مغفرة الذنوب؟ لأنه الغفور، ومن أين أتت الصلاة؟ لأن الله المتكبر، لا بد أن تخضع له لأنه المتكبر فلا بد أن تخضع له، ولو واحد سأل من أين أتى الدعاء؟ لأن الله مالك الملك ولأن الله كريم، فالكريم هو الذي يُسأل ولا يُسأل غلا من كان غنيًا عنده ملك، بما أقام الله الخلق والوجود؟ على مقتضى الحكمة، بما أقام يوم القيامة؟ على مقتضى العدل والرحمة على ما تقدم.

فما من شيءٍ خلقه الله، وما من شرعٍ شرعه الله إلا وهو من مقتضى أسماء الله وصفاته، فكلما كنت عالم بربك، كلما كنت مدركاً لحكمة الأقدار وحكمة التشريع، لا يجوز أن تعزل الفرع عن الأصل، ما هو الأصل؟ هو معرفتك بربك، هو خضوعك لأمره، هو اخباتك له، هو إخلاصك له، هو أن تلقي نفسك بين يديه ذليلاً عابداً خاشعاً سائلاً، فإذا فهمت هذا وعلمت ربك، علمت بعد ذلك شرعه، وعلمت بعد ذلك قدره.

ولذلك انظر إلى أرقى ما يمكن أن يصل إليه البشر هو حضور الله لهم في فهمهم لشرعه في التعامل معه، انظر الآن الناس لما يفقدون هذه القضية، كيف يقعون في البهيمية، في الحديث لما النبي صلى الله عليه وسلم قال: (على المرء أن يمنع عورته إلا على أهله وما ملكت يمينه)، قالوا له: يكون الرجل خالياً، يكون الرجل ليس عنده أحد، الحديث عن العورة، والعورة هي مأخوذة من العار، يستعر منه، العورة يستعر منها، هل هناك أقبح من عورة الإنسان؟ قبيحة، ولولا أن جعل الله اللذة في الإنسان، والشهوة بحيث يذهب جزء من عقله، لما أقبل عليها أحد، لقذارتها، فالله ركب اللذة حتى يقع النسل، وإلا هي عورة مما تستقبح، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (فالله أحق أن يُستحيى منه)، هذه كلمة لا يمكن أن يفقهها إلا من نظر إلى الإنسان في أرقى مقامات ذوقه لوجوده في هذه الدنيا، انظر هؤلاء البهائم، كلما الإنسان تخلى عن نظر الله إليه، تخلى عن قيم إنسانيته، والإنسان ما هي قيمته؟ الحياء، (فالله أحق أن يستحيى).

ولذلك الحياء لا يأتي إلا بخير، الله خلقك ورزقك، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠)﴾ [الرحمن: ٦٠]، ما دافعه؟ الحياء، ترك المعصية ما مقامه؟ الحياء من الله عز وجل، فرق الخوف من الله عز وجل، ما هو أعظم أن تستحي منه، ألا تفعل المعصية، حياءً منه أم خوفاً منه، ما هو الأجّل؟ حياءً منه، لأنك تحبه، لأنك تحبه، والحبيب يأنف من أن يرى الحبيب منه ما يستقذره وما لا يحبه، فالله أحق أن يستحيى منه، وكلما فقد الإنسان إنسانيته، كلما تخلى عن حيائه، لماذا يتخلى عن حيائه؟ لأنه يفقد نظر الله إليه، يفقد درجة الإحسان، ما هو الإحسان؟ (أن تعبد الله كأنك تراه)، وأن يراك الله أحق أن يستحيى منه.

إذن شرع الله عز وجل على ماذا يقوم؟ يقوم على أساس فهمك لأسماء الله وصفاته، لماذا هذه الأقدار التي تجري في الوجود؟ حين يدرك المرء أسماء الله وصفاته على حقيقتها، يصبح قريباً، قريباً من نظر الله لهذا الذي خلقه وهذا الذي شرعه، ومن أجل هذا عمر الخطاب رضي الله عنه وافق ربه، لأي معنى وافقه؟ لأن عبودية هذا القلب لابن الخطاب رضي الله عنه ارتقت حتى صارت ترى بنور الله عز وجل فتدرك ما يحب الله وما يكره.

ومن أجل هذا بكى الصحابة لما مات النبي صلى الله عليه وسلم، فلما زار الصحابة أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، زاروا أم هانئ فجعلت تبكي، قال: «مالك تبكي يا أم هانئ؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله»، أي تبكين فقده في هذه الدنيا؟ هل خسر شيء تبكينه؟ والعجيب أن الصحابة يعلمون حب أم هانئ للنبي صلى الله عليه وسلم، والدليل هو ما قالوه لها، قالوا: «ألا تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله؟»، ذلك لأنهم يعلمون محبة أم هانئ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، يعني هي تبكي أنه فقد، كما نقول نحن: مات مسكين، وهذه الكلمة نحن نقولها لما يأتي في قلوبنا أنه فقد شيئاً من الدنيا، فقد الأهل وفقد الأولاد، وفقد الدنيا التي تعب فيها، وما تنعم مسكين ما تنعم في هذه الدنيا، فنبكي لأنه فقد شيءٍ لشيء أخر، فهم يعلمون محبة أم هانئ لرسول الله صلى الله

عليه وسلم، فيقول لها: «أتبكين؟ أما تعلمين أن ما عند الله خيرٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟»، يعني هي كانت تحب الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبقى لأنه فقد، وهي لا تبكي لهذا، قال: «أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله صلى الله عليه وسلم»، قالت: «والله إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكني أبكي أن الوحي انقطع من السماء»، هذه القلوب التي تتعلق بالله، هذه القلوب التي تعيش مع الله، هذه القلوب التي تدرك كيف تتعامل.

وماذا قال أبو بكر رضي الله عنه في صلح الحديبية، قال: «إنه رسول الله»، هذا عِلمٌ لمقام النبوة، ولكن الأجل منه، «ولن يضيعه الله»، وهذا عِلمٌ لمقام الربوبية، ولذلك في سورة «الأحقاف»، كيف نبه الله عز وجل على جلال شأنه وعلى استجابته لعبده؟ فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف: ٥]، أنا لا أعلم آية أرجى من هذا الآية للعابدين والمبتلين، هو يقول: هؤلاء ضلال، لا يوجد أضل ممن يدعوا من لا يستجيب له، وهو تنبيه على ماذا؟ ما هو الأجل من هذا؟ بأن يخبر عن ضلال هؤلاء، أم عن نفسه واستجابته لمن يدعونه؟ بأن يخبر عن نفسه واستجابته لمن يدعوه، فالمخفي أجل، قال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، من دون الله لا يستجيب له إلى يوم القيامة وأما الله فيستجيب له.

إذن هو أساس هذا الوجود، أساس تعاملك مع الله، أساس فهمك لهذا الوجود، هو أن تعلم الله، أن تعلم أسماء الله وأن تعلم صفاته، وكلما ازددت معرفةً وعلماً بربك، وكلما ازددت عملاً بطاعته، كلما كشف لك معارف شرعه، وكذلك حقائق كونه، صرت تعرف هذا الوجود كيف يجري، ولذلك لا تجزع من مقام ولا تهتم لما يقال، ولو وقعت الدنيا فأنت تعلم، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم وهو في غار الثور، قال: (مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا)، استحضار، ماذا قال إبراهيم عليه السلام عندما ألقي بالنار؟ قال: (حسبي الله ونعم الوكيل)، استحضار، هذا هو الدين، إن لم تفقه هذا، هذه البقية كلها حركات بدن من أجل إصلاح القلب، فإن لم تصل لهذا المقصد راجع هذه العبادة، أن تستجيب لله، ولذلك قال يوسف عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، استحضار في وقتٍ، لا نريد أن نفصل حضور الشهوة وحال لا يعلم به إلا الله، ومع ذلك ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ [المائدة: ٢٨]، ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، العلم بالله عز وجل.

ولذلك يكرر يعقوب عليه السلام في سورة «الزمر» قال تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [البقرة: ٣٠]، دائماً يكررها، مع إنه ابتلاء، لا تفكر أنه زعل الوحي، لا فهو عايش في ابتلاء هو ممتحن، ولذلك غضب أيوب عليه السلام على زوجته –على ما ورد من روايات، روايات متعددة– ولكن في قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤]، أي اضربها، فلماذا؟ لأنها سألت ما لا يريد أن يقوله في حق الله، هو لا يريد أن يقول هذا الكلام، كما قال لأبي بكر، أنحضر لك الطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني، خلاص الآن وقت الموت تريد تعالجه! لذلك

الآن ما في مقام غير مقام الصبر، ما في مقام الدعاء ربي نجيني، هذا مقام الصبر اثبت الآن، وحينئذٍ يتوافق أمر الشرع مع أمر القدر.

إذن كنا مع قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ٤]، ويكفي إلى هنا، ونأتي إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، هنا أول ما يتكلم عنه البلاغيون، يقولون: هنا التفات، وهناك من البلاغة شيء يسمى الالتفات، ما هو الالتفات؟ الناس الذين يقرأون القرآن ولا يعرفون البلاغة يتعجبون من هذا! فنشرحه قليلاً حتى تعرفه من القرآن، فإذا مررت به لم ترى فيه شيئاً غريباً، هنا الالتفات كان الحديث حديثًا عن الغائب، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ٢-٤] إلى أن صار حديثاً عن الحاضر، قال: ﴿إِيَّاكَ﴾ [الفاتحة: ٥]، اختلف الكلام.

ومن ذلك مثلاً: انظروا في سورة «العنكبوت» –فقط أمثلة حتى تنتبهوا لها وتتعلمها، وهذا لأهل العلم معروف– صفحة «٣٩٨»، لماذا اسمه التفات، أي رجل يتكلم هكذا، عن فلان غائب، ثم يلتفت إليه فيتكلم معه، هذا اسمه التفات، أو يتكلم معه ثم يتكلم عنه، هذا التفت، مصطلحات وضعها البشر لتوافق المعاني التي يتعاملون بها، في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ﴾ [العنكبوت: ٢٣]، الحديث عن الغائب، ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ [العنكبوت: ٢٣]، فكان الحديث عن الغائب، فصار حديثاً عن المخاطب، طبعاً هذا له أسباب، سنأتي عليها لكن بعد أن أمر على الأمثلة الشهيرة في القرآن.

مثال ذلك: نذهب إلى سورة «يونس»، صفحة «٢١١»، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ [يونس: ٢٢]، ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ حديث مخاطب، حاضر، ﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾، ومقتضى الصياغة أن تقول وجرينا بكم، يسيركم، جرينا بكم، هذا التفات، وهذا اختلف أهل البلاغة بسببه، وبعضهم قال: والمقصود به ترك الإملال، بحيث لو بقي جريان النفس على ما هو له للمخاطب والغائب فيؤدي إلى الإملال فينبهه، يتغير الخطاب فينتبه، فالكلام إذا كان جارياً مجرى العادة حصل به الإملال وعدم الانتباه، فإذا تغير المجرى انتبه المرء، في شيء جديد.

وبعضهم أنكر هذا، كابن الأثير قال: هذا كلام لا يطرأ على القرآن، لا تطرأ عليه هذه المعاني، وكان لا بد من الرجوع إلى كتب التفسير التي تتحدث لم حصل من الالتفات، لا لما تقدم ذكره، الذين فسروا على ترك الإملال وعدم الانتباه بحيث يحصل الانتباه، ولكن هناك أسباب، وذكروا أشياء جميلة ويمكن الرجوع إليها، ولكن أتكلم عما عندي.

مثلاً: في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ [يونس: ٢٢]، النعمة عامة، هو يريد أن يتحدث عن النعمة، نقرأ الآية كاملة حتى نفهم الكلام، ﴿هُوَ الَّذِي

يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢] فالكل تقع عليه هذه النعمة، لكن الوصف القادم ليس على الجميع، ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢]، واقعة على جميع من يخاطب به القرآن، لكن لما قال جل في علاه: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ﴾ [يونس: ٢٢-٢٣]، هذه لا تقع من الجميع هذه تقع من البعض.

وهذه نأتي إليها، من جماليات القرآن وهذه يقولها ابن كثير رحمه الله كثيراً، أن الكلام يكون مرات ليس على اللفظ، يكون الكلام على المعنى، ومرات يكون الخطاب في ابتدائه مقصودٌ به قوم، وإذا اضطرد وقع على آخرين، وهذا يضرب به المثل كما يقول السيوطي في كتابه «الإتقان»، والمقصود في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، هذا جاء على الجميع، ولكن الذي يقع منهم قوم آخرين فصار الخطاب للغائب لأناس آخرين إجلالاً من أن يخاطبوا بهذا، لأنه لا يقع من الجميع، لكن الانتباه إلى أن الخطاب يتنوع، الخطاب هذا ينبغي أن يفهم، مرات أنت تتعجب! هذا خطاب لمن؟ فيأتي ويخبرك المفسر بأن هذا الكلام لشيءٍ حاضر في الذهن أو لمعنى اقتضاه في الداخل وليس في اللفظ، ونضرب أمثلة سريعة على هذا:

نذهب إلى آخر سورة «الأعراف» -هذه من كلام السيوطي ثم نأتي إلى بعض كلام أهل العلم- في صفحة «١٧٥» قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، هذا كلام لجميع الخلق، والفرق بين الخلق والجعل هذا يأتي لوقته وهناك كلام طيب لأهل العلم نأتي إليه إن شاء الله عند الحاجة، لكن ما يهمنا بعد قوله هذا، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾، هنا ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، هذا كلام عن بعضهم وليس عن كل الإنسان، وهو كلام عن واحد منهم لا عن كل الإنسان، ولذلك هذا لا ينبغي أن يحمل كما حملهم بعضهم على آدم أنها وقعت من آدم، التي بعدها، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾، هذا يدخل فيها آدم وكل أحد، كلكم كذلك، وقد تحمل على آدم أنه جعل منه زوجها، أي جعل منه زوجه، والجعل هو ما يتحدث عن الأعراض والخلق هو أيجادٌ من الأصل، هذا له مقام آخر.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠]، ومن هنا تجد بعض الذين تكلموا بالتفسير بلا علم، وموجود في بعض كتب التفسير، يتحدثون عن آدم أن آدم وقع منه الشرك، لما ولد له الحارث، كلام لا يجوز أن ينسب لنبي، ولا يجوز أن ينسب لصالح، ليس لنبي أن يشرك، وهذا حديث عن آخر، كان الحديث جارياً عن من؟ عن الجميع، ثم صار الحديث عن بعض هؤلاء، واضح، على ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ [يونس: ٢٢] صار الحديث عن بعضهم.

إذن أول ما قلنا في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، هذا أول معنى بلاغي، وهو أنه انتقل من خطاب الغائب إلى خطاب الحاضر، لماذا؟ السبب، هل على ما قاله بعضهم وهو من أجل التنوع، ولتنبه من الإملال لو أنه لصدق قولهم، فهنا لا يوجد إملال، أين الإملال؟ آيات قليلة فأين الإملال؟ ولكن ذلك لجلال الكلام، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾، ذلك لجلال من وقع عليه الفعل وهو الله عز وجل، فما قال إياه نعبد، فمن أولى في ذكر العبادة، أن تتكلم معه حاضراً أم تتكلم معه غائباً؟ فإذا أردت مدحه، ما الأجّل أن تمدحه حاضراً أم أن تمدحه غائباً؟ من جلال المدح أن يذكر غائباً ومن جلال الإخبات والتعبد أن يذكر حاضراً، ولذلك قال هناك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢]، هو يمدحه ويمدحه من أجل أن يسمع الخلق، وهو يمدح نفسه جل في علاه، وقلنا والصواب أنها إخبارية، وهي إنشائية، قلنا الحمد لله هي إخبارٌ من الله عز وجل عن نفسه أنه يمدح ذاته؛ لأنه لا يمدح أحداً ربنا، كما يمدح ربنا نفسه، وهي كذلك إنشائية أي أمراً لعبيده، فهو مدح له، فلما جاء إلى أمر التعبد كان لا بد من الالتفات إليه مخاطباً بالحضور لأنه أمر الإخبات والتعبد، لا يوجد حاجز، هو حديث عنه، حاضر، هذا هو ا لمعنى الأول.

المعنى الثاني: في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، من البلاغة، هنا قدم الضمير على الفعل، ما قال: نعبد إياه، ندعو إياه، ولكن قدم الضمير قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وعادةً الناس يقولون: قتل فلان، أكل فلان، عبد فلان، استعان فلان، الأصل أن يقدم الفعل على المفعول، ولكنه قدم هنا المفعول الضمير قدمه على الفعل، فقال ﴿إِيَّاكَ﴾ للاختصاص، ذلك لو أنه قال: نعبد إياه، لما كان في ذلك نفياً لعبادة غيره، هو يعبده، لكن يمكن أن يعبد غيره، لو قال: نعبده، لما نفت أن يكون عابداً لغيره، ، وهذه تفسير لكلمة ابن عباس رضي الله عنه، أي أنا أخلص لك العبادة وأخصك بالعبادة، فإياك نعبد حملت على أنه لا يعبد إلا إياه، ولا يعبده العابد القائل لهذه الكلمة إلا إياه، فقُدم الضمير على الفعل لماذا؟ للقصر والاختصاص، قصر؛ قصر العبادة عليه جل في علاه، هاتان اللفتتان في موضوع ما تقدم من البلاغة.

وفي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، بعض أهل العلم قال: إن القرآن كله في الفاتحة، ونحن رأينا هذا، وإن الفاتحة كلها في هذا المقام، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فما جاء القرآن إلا ببيان إياك نعبد، فلا نعبد إلا إياك ولا نسأل إلا إياك، كل ما في القرآن والفاتحة مقامها في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فلا يمكن أن يعبد إلا من يستحق العبادة ومن يستحق العبادة؟ الرب، الرحمن، الرحيم، الغفور، هذه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فكل مقام ما في القرآن هو في الفاتحة، وكل الفاتحة في هذه الكلمة الجليلة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهي على ما قاله الأعرابي، (جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ: عَلِّمْنِي كَلَامًا أَقُولُهُ، قالَ: قُلْ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ، لا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا باللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ قالَ: فَهَؤُلَاءِ لِرَبِّي، فَما لِي؟

قالَ: قُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي)، فهذه شاملةٌ لما هو حقٌ لله وما هو حاجةٌ للبشر، في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هي شاملةٌ لما قال العبد، هذا لربي فماذا لي؟ ولذلك قال في الحديث: (هذا لعبدي ولعبدي ما سأل)، فقسم ربنا هذه الآية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هذه له جل في علاه، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، هذا هو حاجة العبد، ما يحتاجه.

وفي ذلك هذا المعنى يدلنا على أن ما أعطاه الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم من الحق والخير والقرآن ليس فقط لما هو حقٌ لله عز وجل، وهو الذي ينبغي أن يكون، ولكن من رحمته أنه جعل فيه رحمةً للبشر، ولذلك في الحديث قال: ما حق الله على العبيد؟ ما هو حق الله على العبيد؟ قال: (أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً)، فقال: ما حق العبيد على الله؟ قال: (ألا يعذبهم)، ليس من حقك الجنة، أن لا يعذبك فقط، قال: الحق، انتبه، فما فوق الحق هو من الرحمة والعطاء والزيادة والمنة، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، هذه زيادة، لكم الحسنة وزيادة، على ما فُسرت فيها رؤية الله عز وجل، ولكن على المعنى العام، هي زيادة، وأما الحق أن لا تعذب، فأساس ما وجدت له هو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وأما ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فإنما هو لحاجتك ورحمة الله عليك، وإلا فالأصل فقط أنت عليك أن تعبد الله.

ومن رحمته في هذا المقام أن جعل العبادة، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، هذا الدين، أن جعل أجّل ما في الدين، هو أن تؤدي حقه الذي له وخالصٌ له جل في علاه، وكذلك أن جعل من عبادته بنفس المقام أن تسأله ما هو لحاجتك وما هو لك، هذا رحمن رحيم، فجعل العبادة مقسومة لشطرين، أن تؤدي حقه الذي جل في علاه يستحقه في أن تكون عابداً له، وكذلك جعل من العبادة شطراً وهو أن تسأله حاجتك، وهذا كله من رحمته جل في علاه، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: شيخنا سؤالي من الدرس الماضي، قلت: من أنواع الحمد لله: حمدًا يكافئ نعمه ويوافي مزيده، صحيح هذا؟

الشيخ: بلا شك أن العبد يطمع أن يبلغ هذه المنزلة؛ أن يقول حمدًا لله يكافئ هذه النعم التي تعطى ويوافي المزيد من هذه النعم التي تعطى والتي تزيد، وأن يكون هذا الحمد زيادة، فهذا حمدٌ جليل، حمد عظيم يجوز، يجوز للعبد أن يقول هذا الحمد وأن يتمنى أن يقبل الله عز وجل منه حمدًا وأن يجعل حمده له يوازي هذا.. كما يقول الشافعي رحمه الله، ولا بأس سنقرأ كلمة الإمام الشافعي رحمه الله في كتاب «الرسالة»، وطبعًا نحن رأينا ان الشافعي يقر ويعترف أن هذا لا يقع، لا يمكن أن يقع، ولكن كأن هذا القائد الذي يريد أن يحمد الله عز وجل حمدًا يكافئ نعمه ويوافي مزيده، كأنه يريد أن يسبق الحمد على النعمة أن يجعل الحمد مسبوق على النعمة ويمكن هذا يمكن؛ لأن الله حمد نفسه قبل أن ينعم على خلقه، ولكن هذا هل يقع من العبد؟ هذا عجز.

انظر لكلمة الشافعي رحمه الله وهذه كلمة جميلة للشافعي يقول: «الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، والحمد لله الذي لا يؤدى شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمةٍ منه -فالحمد نعمة- توجب على مؤدي ماضي نعمه بأدائها نعمةً حادثةً يجب عليه شكره بها، هذه نعمة الحمد توجب عليه أن يحمد الله عز وجل على هذه النعمة»، إذًا متى يبلغ الحمد ذلك؟ وبعدها قال رحمه الله: «ولا يبلغ الواصفون كُنهى عظمته الذي هو كما وصف نفسه وفوق ما يصفه به خلقه، وأحمده حمدًا كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله... إلى آخره»، بارك الله فيكم، هذه كلمته رحمهم الله.

السائل: شيخنا -السؤال خارج عن موضوع تسير الفاتحة- في سورة الكهف في قصة صاحب الجنتين قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧)﴾ [الكهف: ٣٧]، فما أدراه أن الله عز وجل خلقه من تراب؟

الشيخ: هؤلاء أتباع الأنبياء، يعني هذا مذكور عندهم، ولو كان هؤلاء بعد موسى عليه السلام فالتوراة ذاكرة هذا، والتوراة في أصلها صحيح، التوراة التي بين أيدينا في أصلها صحيح لكنها محرفة، والتوراة في السفر الأول -الذي هو سفر التكوين- ذكر خلق آدم، بلا شك أنهم يعلمون هذا.

السائل: ما الذي يمنع وقوع الإدراج في القرآن؟ وما الفرق بين القرآن والحديث من جهة السند؟

الشيخ: سؤال ما الذي يمنع وقوع الإدراج في القرآن؟! عليه أن يفصل لنا معنى الإدراج حتى انتهي من كلمة الفرق بين القرآن والحديث في السند.

القرآن متواتر والتواتر في القرآن لما تأتي إلى كلمة لكل علم مصطلحاته الخاصة به، فلا ينبغي أن نستخدم مصطلحات علم على آخر وإلا نقع في الخطأ، مثلاً كلمة السنة في أصول الفقه غير السنة في الفقه، ففي الفقه لما نقول: سنة يعني مستحب، لكن لما نقول سنة في أصول الفقه ونقول سنة في الحديث المقصود بها كل ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم سواء كان من الواجب أو الأركان وما شابه ذلك، فالمصطلحات مهمة جدًا.

فما هو معنى التواتر: لا يكون شيئًا من القرآن متواترًا حتى يجمع الشرائط التالية:

الشرط الأول: أن تكون –هذه القراءات المتواترة– له سند صحيح، والآن أسانيد القرآن تروى واحد عن واحد للقراءة، يعني علي بن أبي طالب عبد الرحمن السلمي وهكذا، ولكن هذه متواترة شرطها أن تكون هذه القراءة مروية، لأن هناك ألفاظ يمكن أن تقرأها على جهة العربية لكن لا يُعرف لها رواية، يعني تحتملها اللغة لكن لا تُعرف هذه الرواية.

مثلاً: وإن كان المعنى يختل بلا شك، عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤٠]، فلو قال أحدهم: وكلمة الله هي العليا صحت لغتًا، أي جعل الله كلمة الكافرين وجعل الله كلمة كلمته، فتصح، لكن هذه لا تعرف، اللغة تحتملها ولكن لا تعرف هذه في الرواية، فشرط أول أن تكون مروية بالطريق الصحيح.

الشرط الثاني: أن تكون موافقة للرسم العثماني.

الشرط الثالث: أن تحتملها اللغة.

انتبه كلمة التواتر هنا لا تلتقي مع كلمة التواتر في الحديث، فالتواتر في الحديث هو أن يرويه جمعٌ عن جمعٍ يمنع تواطأوهم على الكذب، العدد غير محدد فقط جمع، المهم جمع ليطمئن القلب أن هؤلاء لا يمكن أن يكذبوا، دخلوا في العدد فأخطأوا ووقع الخلاف، لكن هذا ليس هو التواتر في القرآن، يعني في سند القرآن عاصم بن أبي النجود عاصم بن البهدلة، عاصم بن أبي النجود هذا عند أهل الحديث مضعف، أي حديثه قد يرتقي لدرجة الحسن وفيه مقال وقد يرده أهل الحديث لضعفٍ، فيه فهذا عند اهل الحديث كذلك وهو رجل من أسانيد القرآن وروايته متواترة، فهذا فرق، فبهذا التواتر بلغ سند القرآن إلينا.

لكن وهذا نحن الآن نتحدث من جهة العلم، من أجل أن يأتي أحد ويقول: أنا أريد أن أقرأ لكم حرفًا من القرآن، اليوم طبعًا لا يوجد لكن قديمًا كان يوجد، يأتي لغوي أو نحوي فيقول: أقرأ قراءةً تحتملها اللغة، فيقول: أقرء

لكم حرفًا تجيزه اللغة، نقول له: لا يجوز لك، فهذا من الضلال ويعاقب وربما يستتاب لأنه قرأ القرآن بغير روايةٍ صحيحة التي جرى عليها، إذن هي من اجل العلم.

لكن في الحقيقة هذا القرآن قرأته جموع المسلمين، صحيح هؤلاء الجموع يرجعون لواحد، واحد لواحد، لكن هؤلاء الجموع الآلاف هم الذين أثبتوا القرآن أنه لم يغيب، ولذلك قاعدة: التاريخ هو الحجة التي بها يثبت الحق أو تعدم صفة الحق عن الشيء، الآن بما نحتج على أن التوراة ليست صحيحة؟ بالتاريخ في انقطاع في ظلمة، فهناك زمنٌ لم التوراة، أثبتوا لنا وجود التوراة في هذا الزمن، فلا نجد أحد ذكرها ولا أحد قرأها ولا أحد رواها، لا نجد، هي حقبةٌ زمنيةٌ مظلمة غابت فيها التوراة، وبعد ذلك يأتي واحد ويقول: أنا أخرجت لكم التوراة، أين أبوك أين جدك؟ أين الناس؟ أين كانت هذه حتى أخرجتها؟ والخروج من الظلمات مظنة التهمة، بل هي التهمة.

ولذلك يعترف القارئون والباحثون في التوراة بأنها بالفعل لما هُجر اليهود من فلسطين إلى السبي البابلي غابت التوراة فقدت، ولما رجعوا من السبي بدأوا يعيدونها وبدأوا يكتبونها فوقع هنا التحريف، هنا وقع التحريف، وأنا لا أريد أن أتكلم في هذا كلام طويل، لكن إذن هذا الزمن لغياب السند التاريخي هو الذي أوقع الناس في الحيرة؛ فبذلك نفوا الصحة.

أما القرآن متى وقع له هذا الغياب؟ لا وجود، ولذلك لما يأتي واحد يقول لك: ماذا فعل عثمان بن عفان رضي الله عنه؟ وهل عثمان رضي الله عنه أحضر قرآن وهؤلاء الآلاف ومئات الآلاف من المسلمين، وربما الملايين في عصره الذين يقرأون القرآن في المشرق والمغرب والجيوش والبلدان، هؤلاء الذين يقرؤون القرآن، يعني كيف يستطيع شخص واحد أن يقول: لهم أنا أخرج لكم مصحفًا لا تعرفونه؟! والناس هم الناس، والجيل الذي يتعامل معه هو الجيل الذي سمع القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم، فما فعله عثمان رضي الله عنه هو أنه جمعهم على شيءٍ يعرفونه، ربما يخالف الحرف والحرفين، ولكن هذان الحرفان الذي يخالف أحدهما بقيت مثبتة، مثبتة ما قالوا: لا.

ولذلك قلت لكم حتى نرجع للتاريخ في سورة «يونس» صفحة «٢١٠»، -وهذه احفظوها لأنها مهمة- في مواطن في القرآن تثبت حجية التاريخ، التاريخ حجة يا قوم، انظر في سورة يونس صفحة قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس: ١٥-١٦]، قال لهم بمعنى أنتم تعرفون كيف أتكلم أنا وكيف أحكي وكيف أعيش ولا يوجد مقدمات، لأن المرء حين يبلغ القمة يدرك الناس كيف سعى إليها يعرفون كيف وهو يبحث في بدايتها ويقع كما أنت تدرك ابنك لما يقوم ويمشي، فأنت تقول لابنك أصورك اليوم يا ابني، فلو قال -ابنك-: أنا الآن خرجت فأنا أركض نقول له كذاب أين خرجت تركض؟ رأيناك وأنت تحبي، فواحد يأتي

بهذا القرآن العظيم وهم يعرفون كلامه ثم يأتي مرةً واحدة القضية فيها شيء، لكنه لو تدرج لبلوغ هذا الذي رآه الناس كيف يتدرج يقول ويتكلم الشعر، وهو لا يتكلم الشعر ولا البلاغة ولا...، فجأة قال لهم: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، هذا كله لإثبات حجية القرآن، فأثبت حجية أن القرآن من عند الله عز وجل كون أن النبي صلى الله عليه وسلم يعيش بينهم وتاريخ النبي بينهم معروف.

ونذهب إلى سورة «لعنكبوت» الصفحة «٤٠٢»، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)﴾ [العنكبوت: ٤٧-٤٨]، فهم يعرفون الكتاب وما فيه من أوامر هذا يشبه ما جاء به، فالتاريخ حجة.

إذن هذا القرآن لم يحدث قط أن غاب عن الأعين بل لم يحدث قط أن غاب عن طرف من المسلمين، أي لا يوجد مدينة غاب عنها حتى تأتي مدينة وتقول هذا كان عندنا ولم يكن عندكم، فهذا التواتر ما نحتاجه لإثبات صحة القرآن بين أيدينا أنه ليس فيه كلمة ولا في أي يوم قالت مدينة هذه الآية عندنا وليست عندكم، ولا هذه كلمة عندنا وليست عندكم، كل المدن وكل القرى وكل الناس متفقون على حروفه وكلماته وحركاته وسكناته، وما اختلفوا فيه أقر بعضهم بعضًا عليه أنه صحيح، لأنه اختلفوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم على القراءة، وقال لهم: (كلكم مصيب)، ولكن في مسائل العلم الدقيقة يرجع إلى التواتر بالمعنى الذي ذكرناه.

وقد يقول قائل: هذا أنتم تزعمون التواتر، نقول: هذا التواتر من أجل خلاف العلماء لرد على من يريد أن يقول: يجوز لما ذكرناه، يجوز أن نقرأ هذه على وجه لإجازة اللغة، نقول له: لا، فالقراءة قبل أن تجيزها العربية يجب أن تكون رواية متواترة، فهذه مسألةٌ تتعلق بالعلم، وأما مسألة إثبات أن القرآن من عند الله عز وجل وأن هذا الذي بين أيدينا هو من النبي صلى الله عليه وسلم، فهذه الأخرى التي هي أقوى، هذه الثانية التي ذكرناها أقوى لإثبات أن هذا القرآن الذي بين أيدينا هو القرآن الذي نزل على رسولنا صلى الله عليه وسلم وقرأه الصحابة رضي الله عنهم، قرأوه جيلاً بعد جيل فهذا هو التواتر، تواتر أمة ليس فقط أجيال ولا جمع تواتر أمة.

وأما الحديث وسنده فهذا يدرس في مصطلح الحديث وإثباته بالرجال والسند والطريقة، أما إذا قصد من كلمة الإدراج في داخل الحديث، فالإدراج هو أن يروى في الحديث كلمة لغير النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا كثير، وألف العلماء فيه والخطيب البغدادي له كتاب في الإدراج والسيوطي له كتاب في الإدراج والإمام ابن حجر له كتاب في الإدراج؛ وهو أن يروي الراوي كلمةً فيظن السامع أنها للنبي صلى الله عليه وسلم وليست وهي كذلك، مثل قول أبي هريرة رضي الله عنه عن الإسباغ: «فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل» فكان أبو هريرة رضي الله عنه يغسل يديه إلى ساعديه، وروي أنه هكذا فظن من ظن أن هذا من الحديث النبوي المرفوع للنبي صلى الله عليه وسلم يقول:

«من أراد منكم أن يطيل غرته فليفعل»، فقال: أبو هريرة رضي الله عنه هذا من كيسي، هذا مني انا، وهذا كثير ونقف إلى هنا.

فإذن قصد الإدراج لا يوجد في القرآن إدراج، كيف توضع كلمة؟! لا توضع كلمة تفسيرية بينها ويقول: هذه مدرجة وضعها الراوي لأن الصحابة كانوا يجردون القرآن، القرآن يجرد من أي كلمة تزاد عليه، ولكن روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يضع كلمات مفسرة فيظن الظان أنها من القرآن كقوله: «فصيام ثلاثة ايام متتابعات»، وقالوا: هذا من تفسير ابن مسعود رضي الله عنه وليست هي من الرواية.

السائل: هل تُعامل أسانيد التفسير بنفس معاملة أحاديث الأحكام؟ وغيرها فهل لا يزال الشيخ يرى خطأ من حاول تصفية السيرة وكتب الأدب وغيرها؟ وهل رأي الشيخ ببشار عواد معروف المحقق لم يتغير؟

الشيخ: أما أن أسانيد التفسير يشترط فيها ما يشترط في الأحاديث الصحيحة فهذا غير صحيح، لماذا؟ لأن كثيرًا مما ورد في التفسير هو من اللغة، فإذا قبلنا ما يقوله الأصمعي بلا سندٍ عن امرؤ القيس ويقبل، فمن باب أولى أن يقبل في الرواية، رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس صحيح انه لم يقابله لكن هذه الرواية يعني العلماء أخذوها على جهة على جهة القبول، ولذلك كان يقول ابن حنبل رحمه الله: يقول ثلاثة لا أصل له منها التفسير، المقصود بأن أغلبها لا يصح سنده كما يصح ما نشترطه في الحديث الصحيح والأحكام المتعلقة بالحلال والحرام، فكثير من التفسير إذا كان المقصود بالتفسير ما تعلق باللغة، ما تعلق ببعض المعاني العامة فهذا يقبل، لكن ما تعلق التفسير بالرواية كأسباب النزول مثلاً، فهذه وإن تُسمِح فيها لكن يكون مرت فيها أخبارٌ منكرة، وهناك فرق بين النكارة وبين الضعف.

أنا ذكرت مثلاً في حياة الصحابة رضي الله عنهم لو أُخرج من الأحاديث المنكرة، المقصود هناك أخبار فيها نكارة بمعنى أنها تخالف ما عليه الحق، سواء كان من رواية أخرى، سواء كان مما علم من قضايا الدين كقولهم: «إن عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوًا» هذه رواية ليست ضعيفة هذه روايةٌ منكرة، عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه من المبشرين بالجنة يدخل الجنة حبوا، والبقية كيف يدخلون؟! فهذه رواية منكرة تُرد، لكن ليس كل ضعيفٍ في التاريخ والأخبار وسير الصحابة رضي الله عنهم يُرد، فينبغي هذا الاعتبار وهذا كلامٌ يطول، يعني أنا أختصر اختصارًا فأقول: إن أسانيد التفسير لا يشترط فيها ما يشترط في الأحاديث الصحيحة التي تتعلق بالأحكام بالحلال والحرام والعقائد، بل أنا أقول كما قلت في شرحي على «الموافقات»: إن شروط الدليل ينبغي أن توافق درجة المدلول –وهذه شرحناها– كلما كان المدلول المطلوب عاليًا فعلينا أن نشدد.

فمثلاً: إذا تعلق بتفسير الحروف وتفسير الكلمات ومعانيها، فلماذا نشترط ما يُشترط بالحلال والحرام؟! ونحن نقبل ما لا سند له، يقول فلان هذه الكلمة فنأخذ هذا المعنى.

السؤال الثاني وهل لايزال الشيخ يرى خطأ من حاول تصفية السيرة وكتب الادب وغيرها؟

الشيخ: بلا شك هذا خطأ، نحن علينا أن نتعامل لما وضعت له العلوم، وأول سيرة وضعت لم يشترط، حديث عروة ابن الزبير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم هذا حديث مرسل، وعروة بن الزبير وضع السيرة وسيرة موسى بن عقبة، أول سيرة وضعت في التاريخ فيما يذكر ووصلت إلينا سيرة موسى ابن عقبة، وعامتها من رواية عروة بن الزبير عن النبي صلى الله عليه وسلم وهي مرسلة، وكان الإمام مالك رحمه الله يمدحها، وانظر لشروط مالك في الموطأ شروط عظيمة وجليل لأن تعلقها بالأحكام، وأما ما ذكر فيه من أحاديث ضعيفة فهذا له وجهٌ آخر يحتاج إلى شرح، وأهل العلم يعني الحمد لله قاموا به وإن كان كذلك يحتاج إلى مزيد بيان.

فأن يمدح الإمام مالك رحمه الله سيرة موسى ابن عقبة مع أن أغلب ما فيها من الروايات المرسلة فدل على أن العلماء كانوا يقبلون من السيرة ما فيه إرسال، لتوافقه؛ لأن الحاجة للسيرة ولأن المطلوب من السيرة غير ما هو مطلوب من الحلال والحرام، أبواب علم أخرى. ولذلك من نفى فقه السيرة هو غلط، وزعم أن فقه السيرة هو المطلوب في الفقه، هذا غير صحيح، فالسيرة فيها من الفقه ما هو خارج الأحكام الشرعية.

عندما مثلاً واحد يقول: من حِكم النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل مثلاً عند وقوع الخصومات بين الناس، أنه جد بهم المسير، هذه أين تجدها في كتب الفقه؟! فهذا من فقه السيرة، أنه لما وقعت الخصومة في بين الصحابة رضي الله عنهم على ماء المريسيع، قال: «فجد بنا المسير، فما أن وجدنا برد الأرض حتى نمنا»، فهذا فقه، أين تجده في المجموع؟ أين تجده في المغني؟! أين تجده في المحلى؟! فهذا فقه السيرة، وأكبر دليل مما يرد عليه ما ألفه ابن القيم رحمه الله في «زاد الميعاد»، «زاد المعاد» فيها من فقه السيرة ما هو خارج فقه الأحكام الشرعية التي يقولونها، فأنا ما زلت على هذا ولم أغير، وليست المسألة طويلة الزمن حتى أغير من قريب كنا نتكلم عنها.

أما كلامي عن بشار عواد فلم يتغير يعني ما في ضرورة الآن نشغل أنفسنا بالكلام عن الأشخاص، وبهذا نكتفي.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس التاسع

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

وصلنا إلى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، وفقط تكلمنا عن نقطتين في هذه الآية الجليلة، وهما نقطتان بلاغيتان، النقطة الأولى: مدارها على ما يسمى الالتفات عند البلاغيين، قلنا هذا، وأن الخطاب كان في السورة من أولها خطاب الغيبة، ثم انتقلت في هذه الآية إلى خطاب الحضور، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ٢-٤]، والآن قال تعالى: ﴿إياك﴾ صار خطاب الحضور.

وقلنا: إن الداعي لذلك رداً على من قال: إن سبب الالتفات فقط هو ترك الملال والتنوع في الخطاب لمجرد التنوع، قلنا: لا، فهناك معاني ثابتة لهذا الالتفات؛ وهو أن المدح والثناء والتمجيد عند الغيبة أجل وعند العبادة لا بد من الحضور، فلا ينبغي أن تقول: أنا أعبده، وإنما الأجل يحضر لقلبك فتوجه الخطاب إليه مباشرة، بخلاف المدح والثناء، فإنك إن مدحته وهو غائب كان هذا أصدق، لأن المدح عند الحضور فيه تهمة، ولكن العبادة لا ينبغي أن تكون إلا عند الحضور، هكذا قلتُ، وهذا -كما ترى- هنا وجهاً جديداً، السابقون تكلموا على هذه المسألة كلاماً جميلاً رائعاً رائقاً، وأجل من رأيته تكلم عنها كلاماً رائعاً هو ابن كثير رحمه الله.

وهذا من مهمات دروس التفسير أن نجليَ الكتب، أن نبين ما فيها من كلمات جميلة وعظيمة ولا ينبغي لطالب العلم أن يقرأها قراءة الجريدة، ينبغي أن يدقق في كلام أهل العلم، وكلما دقق في كلام أهل العلم كلما اقتنص الفوائد، وعلم مقدار هؤلاء العلماء مع هذا الكتاب العظيم، ولذلك ربما سأضطر إلى قراءة كلام ابن كثير رحمه الله لتعرفوا فضل هذا التفسير، لأن الكثير يمر عليه يقول أنا لا أجد فيه أشياءً جميلة، أريد أكثر، وهو لا يعرف قيمة هذا الكتاب، تفسير ابن كثير رحمه الله من أجّل الكتب التي تعني بالتفسير وله فرائد وله كذلك منهج، ابن كثير ليس على طريقة بعضهم من المتأخرين يريد أن يحضر الأقوال ويناقش الأقوال وبعد ذلك يقول هذا القول الأقوى ويرد، مرات يرد، لكن منهجه في الأصل هو اقتناص الفائدة وذكر الخصيصة له دون التعريض بغيره، هذا هو المنهج العام وإن كان هو يمر راداً، كما ذكرنا سابقاً في موضوع ابن جرير في موضوع الحمد والشكر، هما معنى واحد.

ولكن انتبهوا إلى هذه الفريدة التي أتى بها في هذا الموضوع وهو موضوع الالتفات، تكلمنا عنها لكن أنا أحب أن أقرأ لكم هذه الكلمة له، يقول هنا «وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب -هذا شرحناه تحول الخطاب من الغيبة إلى المواجهة- الحضور بكاف الخطاب، إياك، أي بكاف المخاطبة، أنت، فعلك، وهو مناسِبة»، يصح هذا يعني أن أقول لا بد أن نشرح هذا السبب، أو أن قال وهي مناسِبة أي هذا الالتفات للموضوع، من المناسَبة أن يكون هذا التنوع في الخطاب، من المناسَب أن يتنوع هذا الخطاب، لماذا مناسب؟ يقول: «لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى»، انظر هذا الجمال وهذه الروعة وهذا الكلام الرائع، قال: كأنه أولاً أثنى على الله عز وجل فلما أثنى عليه حصل له الحضور، لما أثنى عليه ومجده وحمده وفوض إليه، لما ذكر هذه الخصال عن الله عز وجل صار قريباً من الله عز وجل، فاقترب من الله عز وجل، فلا بد من هذا الاقتراب أن يحصل به الحضور، فحينئذٍ تم قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فخرج من الغيبة التي هي مجال التعبد والتقرب فكأنه كان خارج الباب، ولما أثنى عليه فتح له الباب فحصل الحضور عند الله عز وجل فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، هذا ذوق.

وقال: «وهو مناسبة» لأنه لما أثنى على الله عز وجل فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى، فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، لأنه حضر، فُتح له الباب.

كلمات العلماء كما ترون هي تفسيرٌ لمواد علمية لا يمكن أن يتذوقها إلا من كان مالكاً لهذا الأدوات العلمية، يعني العامي لو مر على هذه الكلمة لا يفهمها، لأنه لا يعرف الالتفات، ولا يفهم ماذا يريد أن يقول، وبالتالي من لا يفهم لا يرى الجمال، الجمال منبعه العلم، لا يمكن للمرء أن يتذوق جمال شيءٍ حتى يعلم، ولذلك الإخوة مرات في حديث، نجد أنك تتحدث عن رياضة ما، ويستقذرها ولا يحبها، فإذا علم قوانينها تعجب منها فأحبها، فمفتاح حب الشيء والتلذذ به هو أن تدركه، من غير إدراكٍ له لا تعرفه، هو عندك مجرد صندوق مغلق خفيٌ عنك، ومن هنا تأتي ضرورة العلم، لأنه بالعلم يحصل الذوق ويحصل الفهم، فهذه لو قرأها عامي، فيتساءل ماذا يريد أن يقول؟ لا يفهم عليها شيئاً، على الرغم أنها كما ترونها جوهرة عظيمة جليلة، جوهرة ينبغي الوقوف عندها.

ونحن تكلمنا لما جئنا إلى قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قلنا هي خبرٌ اقتضت الإنشاء، لكن هي اختلف فيها من اختلف فيها، فقال بعضهم: هي خبر -ذكرنا هذا، نحن مبني قليلاً، قليلاً- الله عز وجل يخبر ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أنه خبر الحمد لله، العبد يثني على الله، وكذلك فيها أمرٌ يا عبد الله احمدني، لكن هي في الأصل هي خبر، والأجّل أن تكون خبراً فهو محمودٌ قبل أن يحمدَهُ العبد، وهو محمودٌ حمده العبد، أجاب على الحمد أو لم يجب، فجلالها أن تكون خبراً، أنه محمودٌ جل في علاه، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ واقعاً هو له الحمد، سواءً حمده العباد أو لم يحمدوه جل في علاه.

فهنا انتبه كيف استثمر هذا المعنى ابن كثير في قضية الحضور والغيب، يقول: «وفي هذا دليلٌ على أن أول السورة خبرٌ من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة، بجميل صفاته الحُسنى، وإرشاد لعباده أن يثنوا عليه بذلك، ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك، وهو قادر عليه، إلى قوله ... لا صلاة لمن لم يقرأ فاتحة الكتاب»، استثمرها لهذا المعنى.

وهذا الكلام الذي قاله ابن كثير، قاله قبله البيضاوي، وتفسير البيضاوي، وإن قال بعضهم: إنه مختصر للكشاف فليس كذلك، فيه فرائد وعليه مؤاخذات، ميزة إبن كثير أنه يفسره على طريقة السلف، وفيه الآثار، وابن كثير معرفته بالآثار أفضل من معرفة البيضاوي، لان إبن كثير محدثٌ عالمٌ بالآثار والأخبار، وكذلك من ميزاته أن ابن كثير ليست فيه مسحة أهل الكلام، في بعض التأويل الأسماء والصفات إلى غير ذلك، وهذه لا نريد أن نقف عندها ولكن عمدة تفسير البيضاوي أخذه من الزمخشري «الكشاف»، وأخذه من كتاب الرازي، ولكنه كذلك زاد عليه فرائد وغرائب جميلة وكذلك أخذ مادته اللغوية والبيانية أخذها كذلك من غيره، ولكن كذلك اختص بفرائد جميلة.

ولنرى هذا المعنى كيف يتردد بين أهل العلم، نتكلم عن معنى الالتفات، هذا الذوق العظيم في معنى الالتفات، انظر إليه ماذا يقول: قال: «عند قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ثم إنه لما ذكر الحقيقة بالحمد -أي من الذي يتحقق له الحمد؟ هو الله عز وجل- ووصف بصفاتٍ عظام تميز بها عن سائر الذوات، تعلق العلم بمعلومٍ معين، فخوطب بذلك» انظر هذه كم كلمة قال؟ أقل من سطر بكثير، لكن انظر إليه كيف صاغ هذا المعنى الذي قاله ابن كثير؟ ولكنه بطريقة أخرى وفيه كذلك فرادة، قال لما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فأثنى عليه وجعله مختصاً بهذه الصفات وهي أنه له الحمد، وأنه هو ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، من غيره رب العالمين؟ لا أحد هو رب العالمين، وأنه ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، من غيره الرحمن الرحيم الجامع لهتين الصفتين؟ لا أحد إذاً هو الله عز وجل، فلما كان الأمر قد فرغ على هذا المعنى من اختصاص هذه الصفات الجليلة لربنا، حينئذٍ فرغ العبد أن يكون عابداً له فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، بعد أن ثبت أن له هذه الصفات واختص بهذه الصفات ولم يشاركه في هذه الصفات أحد حينئذٍ -هذه المناسبة- جاء ذكره ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فإذن من اختص بمثل هذه الصفات هو الذي ينبغي أن يعبد فإياك نعبد، هذا كلام عظيم.

قال: «أي يا من هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدل على الاختصاص والترقي»، هذه كلمة إبن كثير، انظر لهذه الكلمات الجميلة، قال: «يكون أدل على الاختصاص وللترقي من البرهان إلى العيان، والانتقال من الغيبة إلى الشهود»، عند ذكر صفاته جل في علاه كأن المرء وهو في حالة الغيبة فحضر له العيان، حينئذٍ يقول: أنت العظيم، أنت بهذه العظمة، وهذا الاختصاص، وأنك أنت رب العالمين وأنك أنت الرحمن الرحيم، وأنك لك الحمد كله، فحين إذ حصل بهذا الحضور وحصل بذلك الخطاب المباشر بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، له كلمات جميلة بعد ذلك.

قال: «ليكون أدل على الاختصاص وللترقي من البرهان إلى العيان، والانتقال من الغيبة إلى الشهود» –كل هذا التفسير لماذا؟ للالتفات– وفي الحقيقة تفسير البيضاوي للأسف إلى الآن لم يطبع طباعة جيدة، وفيه كل الطباعة إنما الطباعة القديمة وهذه أول طبعةٍ له كثر فيها الأخطاء، «وكأن المعلوم صار عياناً، والمعقول مشاهداً والغيبة حضوراً بنى أول الكلام على ما هو مبادي حال العارف من الذكر والفكر، والتأمل في أسماءه والنظر في آلاءه، والاستدلال بصنائعه على عظيم شأنه ... إلخ»، حتى يقول وهذه كلمات صوفية هو يقولها: «وهو أن يخوض لجة الوصول ويصير من أهل المشاهدة، فيراه عياناً ويناجيه شفاهًا، اللهم اجعلنا من واصلي العيان دون...» وهكذا، الكلام عن المعنى الذي يريده ولا نريد أن نعلق عليه، ففيه مسحة تصوف نقف عندها، إذن هذا فقط تعليق على الالتفات، هذا واحد، فقط زيادة عما تكلمنا عنه في الدرس الفائت.

النقطة الثانية التي وقفنا عندها وتكلمنا عنها، وهو أن الآية قدمت الضمير على الفعل، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، والأصل «نعبدك»، فلما قدم الضمير بقوله: «إياك»، أي المقصود هو الله، على الفعل وهو ﴿نَعْبُدُ﴾، قلنا دلت على القصر والاختصاص، فلو قال العبد: أعبدك لما كان في ذلك نفياً عن عبادة غيره، فلما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، جعل العبادة خاصة له جل في علاه، وقاصرة عليه جل في علاه، ولذلك قال وهذا تفسير لكلمة لابن عباس رضي الله تعالى عنهما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، أي لا نعبد إلا إياك، من أين قوله لا نعبد إلا إياك، لهذا المعنى.

من هنا الألفاظ إنما تأتي دالة على المعاني، ما المقصود، لماذا يتفنن المتكلم بالخطاب؟ لا لمجرد التفنن، المتكلم في اللغة العربية، وهذا ما شرحه عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة، إن التوكيد لا يكون مثلاً إلا عند الشك، وكلما قوي الشك جاء التوكيد أكثر، لماذا يأتي ضمير الشأن، وهو الضمير الفاصل، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ﴾، فلماذا يأتي هذا الضمير؟ من أجل الدلالة على الاختصاص، هذا اسمه ضمير الشأن، ما معنى ضمير الشأن، إن الله هو الجبار، لو قلت: إن الله الجبار، لما في ذلك نفيٌ لهذه الصفة عن غيره، لكن هذا الضمير يسمى الضمير الشأن، يستخدمه المتكلم من أجل أن يقصر هذه الصفة على المذكور، إن هذا هو الرجل، هذه الصفة في كمالها نفيٌ عن غيره، لكن لو قال: فلان رجل، لو قلت: فلان شجاع، لما في ذلك نفي عن غيره، لكن لما أحضرت هذا ضمير الشأن وقلت: إن فلان هو الشجاع، فدل على أن هذا المذكور فيه صفة الشجاعة الخاصة التي لا يشاركه فيها غيره.

من أجل هذا وجود الألفاظ في اللغة العربية هو دال على المعاني، كاشفة لمراد المتكلم، فلما قدم سبحانه وتعالى، لما فسر ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: معناها ألا نعبد إلا الله، فهل هو تفسير لإثبات العبودية لله التي أرادتها الآية أم أمرٌ زائد عليه؟ زائد عليه، لماذا هو أمر زائد عليه؟ لاستخدام هذا اللفظ دون غيره، ما قال: نعبد إياك، ولكن قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فدلت على الاختصاص والقصر.

وهذا معنى من المعاني، وجدت بعض أهل العلم، وهو صاحب «روح المعاني» الآلوسي، وله فرائد، والحقيقة لا بأس اليوم ربما فيه ذكر كثير من مناهج المفسرين، ولا نريد أن نقف عند المناهج بحيث نذكر الكتاب وما فيه، ولكنك تستطيع أن تجد في «روح» المعاني للآلوسي تفسيراً اختص به لم يقله السابقون، وهذا دليل على أن الرجل أراد هذا، أي أراد أن يقول شيئاً جديدًا، إن بعض العلماء يأخذ، يعني يأتي للسابقين، يفسر كلامهم أو ينقل كلامهم، فلو أنت ذهبت إلى «زاد المسير» لابن الجوزي، تكاد تقول بأن مؤلفه وهو ابن الجوزي حاول أن لا يترك قولاً علمه في تفسير الآية إلا وذكره، ولذلك هو جامع، هذا «زاد المسير» تقريباً يجمع كل ما وصل إليه في تفسير الآية من كلام العلماء، ربما يرجح في بعض المرات وربما يسكت، ويذكر كما هو، لكن الآلوسي وهو متأخر، يعني ليس من المتقدمين، هو علامة العراق، كان شافعياً كما ذكر في مقدمة «روح المعاني»، ولكنه صار حنفياً، كما ذكرت سابقاً لم يكتب في وقتٍ واحد، وكتبه وهو قاضي، ثم لما ترك القضاء كتب وتغير أسلوبه بين الأولى والثانية على ما سنذكر في كلامٍ قادم.

لكنك تجد في «روح المعاني» بعض الأقوال اختص بها، نظر فيها نظرةً لوحده، وهذا كثير في كلامه، فلما جاء إلى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ماذا أفادت عند الأوائل؟ أفادت تقدير الضمير على الاختصاص والقصر، وأما عنده فهو جرى على مجرى ما يقتضيه التقديم في لغة العرب، ونحن قلنا كلمة سيبويه السابقة، «فإن العرب تقدم ما من شأنه للاعتناء به»، هذه كلمة شهيرة له في كتابه «الكتاب»، عند العرب تقدم في كلامه ماله شأن الاعتناء، إذا أرادت أن تعتني بشيء ماذا تفعل؟ قدمته، هذا على الجملة، فذلك أجرى على هذا المعنى، وقال: وإنما قدم الضمير للاهتمام، هذه كلمته، قال قدم الضمير إياك للاهتمام، لأنه هو الذي ينبغي أن يهتم به، وحضور ذكر الله، كما في قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، ما هو الأولى لما تذكرون ما هو المقدر، تعلقها، هل نقول: أبدأ بسم الله أو نقول: بسم الله أبدأ؟ الزمخشري قال: لا، ينبغي أن يبقى اسم الله متقدماً على ذكر ما هو مقدر، فقال: بسم الله أبدأ، ولا تقول: أبدأ بسم الله، بسم الله أبدأ، وهو قال: «إنما ذكر الضمير هنا للاعتناء به لتقدمه».

بعد أن فرغنا من هذ اللفظ الجليل وما قيل فيه، وهناك كلام كثير مثلاً في قضية البلاغة، وسأقرأه وهو من كلام ومميزات ابن كثير، لماذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؟ ولم يقل: إياك اعبد؟ هنا ابن كثير تراه قد بسط الكلام وفي الحقيقة في بداية التفسير تجد لابن كثير هذه المعاني تجد هذا البسط في بداية التفسير، ونقرأ ما يقول لأهميته.

إذاً السؤال هو حول لماذا جاء بضمير الجمع؟ وكل هذا موقوف عند اللفظ وما يدل من معاني، يعني ما دخلنا في معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، كل هذا تحليل لماذا جاءت الألفاظ هكذا، رأينا حضوراً بعد الغيبة، ورأينا تقدمة للضمير على الفعل، طيب الآن نرى شيئاً عجيباً، ونرى أن هناك العابد يقف مصلياً، (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي)، فهناك عبدٌ واحد، فينبغي أن يقول: إياك أعبد، فلماذا جاء بضمير الجمع؟ هذا ينبغي أن تهتم له، وأن

تنتبه له، ويمكن أن تقول: كلاماً جميلاً، والعوام يقولون مرات أنا أسمع منهم مثلاً بعض القصاص يقولون: وإنما أراد الله بهذا وهذا، هذا معناه موجود، الناس في تفننهم في إدراك المراد الإلهي على طبقات ودرجات وخلاف وكله مقصودٌ لله عز وجل، والمرء إنما يغوص أو يأتي لنا بالجواهر بمقدار ما يغوص.

فتجد بعضهم يقول: إنما جاء بضمير الجمع؛ لأن العبادة جماعية، يعني ينبغي أنت أن تكون عابداً ومُعبداً لغيرك، وعابداً على صيغةٍ جماعية، أي مثلاً صلاة الجماعة، هم يحتجون بهذا على صلاة الجماعة، أن الناس يقفون في صلاة جماعة إياك نعبد، يقولون هذه المعاني.

ولكن لنرى ماذا قال ابن كثير في هذا، قال: «فإن قيل: فما معنى النون في قوله إياك نعبد وإياك نستعين؟ فإن كانت للجمع فالداعي واحد، وإن كانت للتعظيم فلا تناسب هذا المقام»، ما معنى الكلمة هذه وإن كانت للتعظيم فلا تناسب هذا المقام؟ يعني العبد في مقام التذلل والاستكانة وفي مقام الخضوع فهل يأتي بلفظ الجمع، ولفظ الجمع إنما هو للتعظيم، نعبد، نحن فلان.

ولذلك –هذا من كلام أهل التفسير– لا يأتي في القرآن ضمير الجمع في الدلالة على الله، إلا وفي هذا الفعل الذي ذكر فيه ضمير الجمع أفعال لا فعلاً واحداً، كقوله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ [يوسف: ٢] إنا ضمير جمع، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١)﴾ [القدر: ١]، فلا يأتي ضمير الجمع في الدلالة على الله في موطن من المواطن إلا وهذا الموطن فيه أفعالٌ متعددة لله عز وجل لا فعلاً واحداً، مع أن هذا يليق بالله عز وجل، أن الله عز وجل يتكلم بضمير الجمع لأن ضمير الجمع هو للتفخيم والتعظيم وذكر الجلال، ولكنه كذلك دال على أنه ليس فعلاً واحداً، ولكن هناك أفعال متعددة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، هل هو فعلٌ واحد؟ أفعال متعددة، ما هو هذا الفعل؟ هو تكلمه جل في علاه، وهو أمر به الملائكة، أنزله إلى اللوح المحفوظ ومن اللوح المحفوظ أسمعه لجبريل، وهكذا، فهو ليس فعلٌ واحد، ولكنه أفعالٌ متعددة، هذا ينبغي ان تنتبه له، لا يذكر ضمير الجمع في فعل من أفعال الله إلا وهو دالٌ على تعدد هذه الأفعال.

يقول إبن كثير هنا: فلماذا تذكر النون؟ فإذا كان الداعي فهو واحد، وأما إذا ذكر للتكثير والتعظيم فالمقام لا يقتضيه، لا يجوز، لماذا؟ لأن المقام مقام ذلة، فكيف يذكر جمعاً؟ هذا تساؤله، يقول: وقد أجيب بأن المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد والمصلي فرد منهم، أي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، المقصود نحن جنس العابدين، فلذلك هو يذكر عن الجنس والداعي واحد منهم والمصلي فرد منهم، ولا سيما إن كان في جماعةٍ أو إمامهم، فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين، بالعبادة التي خلقوا لأجلها وتوسط لهم بخير، لكن انتبه لأن تكون هنا للتعظيم، من أجمل ما يمكن أن يطرأ على عقل الباحث والناظر والمتأمل في كتاب الله، هل يمكن أن تكون ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ذُكرت النون هنا نون الجمع من أجل التعظيم؟ لا تنفي دون أن تتأمل ماذا يريد المتكلم بها.

قال: «ومنهم من قال: يجوز أن تكون للتعظيم كأن العبد قيل له إذا كنت في العبادة فأنت شريفٌ وجاهك عظيمٌ فقل: إياك نعبد وإياك نستعين، وإذا كنت خارج العبادة فلا تقل نحن ولا فعلنا ولا كُنت في مئة ألف أو ألف ألفٍ لافتقار الجميع إلى الله عز وجل»، قال: يمكن أن تكون للتعظيم لماذا؟ لأنك بعبادتك لله صرت عظيماً، لأنه يفيد في كونك في مقام العبادة صرت جمعاً، فإن خرجت من العبادة كنت واحداً، لكن في مقام العبادة أنت في موضع الجمع، هذا هو التأمل يثبته على هذا المعنى، وهو معنى ولا شك رضيٌّ مقبول، وهذه كلها مما يتأمل فيها الناظر لكتاب ربنا.

قال: «ومنهم من قال: ألطف في التواضع من إياك نعبد» ألطف، إذاً قول العبد إياك نعبد ألطف، لماذا؟ قال: «لما في الثاني إياك نعبد من تعظيمه نفسه، من جعله من نفسه وحده أهلاً لعبادة الله الذي لا يستطيع أحد أن يعبده حق عبادته، ولا يثني عليه كما يليق به، والعبادة مقامٌ عظيم، يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى كما قال بعضهم:

لَا تَـدْعُـنِي إِلَّا بِـيَـا عَـبْـدَهَـا فَـإِنَّـهُ أَشْـرَفُ أَسْمَـائِـي

وقد سم الله رسوله بعبدي في أشرف مقاماته فقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١] ... إلخ»، قال: هذه ألطف، لماذا ألطف؟ قال: لأنه في مقام التعبد، فيقول: معنى أنا عليه فأنا عبدكَ، كأن الجمع بين خطاب العظمة نعبد بخطاب الجمع، ومع العبادة فكأنها غلبت العبادة مقام التعبد، فلو كان الأمر هو أمر العظمة نعبدُ فلا يليق إلا بأن نكون عبيداً لك يا ربنا، ننتهي من هتان القضيتان في الآية وهو الالتفات والثاني القصر، وذكرنا قضية ثالثة وهي مجيء الخطاب بالجمع، انتهينا الآن تقريباً من النظر فيها من جهة اللفظ.

الآن نأتي إلى تفسيرها وما المقصود بها، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ما هي العبادة أولاً؟ مأخوذة من التذلل، والناس الآن تقول: عبدت الطريق، كيف عبد الطريق؟ أزال الأشواك وأزال المطبات، سهلها، جعلها سوية، سهلة للمشي عليها، فالتعبيد هو التذليل، ذللها، أخضعها من أجل المشي عليها، من أجل أن تصبح له ذلول، وأن تصبح له خاضعة، فإذن العبادة مقامها هو مقام الذلة والخضوع، العبادة، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، أساس كل عبادةٍ تقوم على الذلة والخضوع، أن تتذلل لله ظاهراً وباطناً، والخضوع هنا لا ينبغي أن يكون فقط في الظاهر، بل يجب أن يكون ظاهراً وباطناً.

إذن العبادة هي الذلة والخضوع، فمن أجل أن يمشي عليها ماذا؟ فالطريق من أجل أن يمشي عليها الدواب وتمشي عليها المراكب ويمشي عليها الإنسان وهكذا، فلم يُذلل العبد؟ من أجل أن تمشي عليه أقدار الله، ومن أجل أن تمشي عليه أوامره وشرعه، فلا تعترض، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ

أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)﴾ [النور: ٥١]، لا يعترض، يمشي عليه الشرع فيقول: سمعنا وأطعنا، يأتي إليه الأمر الإلهي فيقول: سمعنا وأطعنا، يأتي عليه النهي فيقول: سمعت وأطعت، إذن هو صار لا تعترض نفسه.

ولذلك في الحديث قال النبي الله صلى الله عليه وسلم، لما نزل قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾ [البقرة: ٢٨٥] ذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما جاءه الأمر ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فقالوا يا رسول الله: حُملنا ما نطيق وها نحن نُحمل ما لا نطيق، قال: (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين: سمعنا وعصينا، قولوا سمعنا وأطعنا)، وفي الحديث في الصحيحين، قال: (فذلت لها ألسنتهم)، يعني هم يعجبون كيف يُكلفوا ما لا يطيقون، فوجدوا الصعوبة لا الكراهة، وجدوا الصعوبة في امتثال هذا الأمر، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال: (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين سمعنا وعصينا، قولوا: سمعنا وأطعنا)، قال: (فذلت بها ألسنتهم)، يعني قلوبهم ما زالت لم تفهم.

وانظر إلى الراوي ماذا قال؟ ما قال: ذلت بها قلوبهم أو ذلوا بها أو قبلوها، بل وصف وصفاً دقيقاً تاماً، قال: «فذلت بها ألسنتهم»، القلوب على ما هي عليه، على قاعدة، قال يا رسول الله: إني أكره الاسلام، قال: (أسلم وإن كنت كارهاً)، لأن الكراهة هذه يجب أن لا تمنعك من الإقبال على العمل، فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥)﴾ [الأنفال: ٥]، وهكذا تبدأ الأمور، هناك الكثير من الأمور المرء لا يفهمها، ولكن عليه أن يطيع وأن يلتزم، فحينئذٍ قال: «فذلت بها ألسنتهم»، النتيجة أن الله عز وجل رفع عنهم الإصر ورفع عنهم ما ظنوه من الأوامر التي لا يطيقونها، فاستوى قبول الظاهر مع قبول الباطن، صارت قلوبهم كذلك قابلة لما قبلت بها ألسنتهم، المرء في البداية ماذا يفعل؟ يجبر نفسه على الفعل، وبعد ذلك يستقيم له القلب، وهكذا، ولكن العبادة لا تكون إلا باستقامة الظاهر والباطن، ما معنى استقامة؟ يعني أن يذل باطنك كما يذل ظاهرك لله عز وجل، وأن تخضع لأمره في الظاهر والباطن.

ومن هنا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أساس هذا الأمر هو أن تخضع لله عز وجل، تمام الخضوع، تمام الذلة، الآن هي مرتبة من مراتب التعبد، لما جعلنا الخضوع باطناً لا بد أن نزيد شرط، هذا غير كافي، العبادة فقط أن تقول: أن أخضع وأذل لوحدها هذا غير كافي، لا بد من شرطٍ ثالث للعابدة، لما جعلنا الخضوع والتذلل شرطاً للباطن، إذاً لا بد أن يكون القلب قابلاً لها، وهذا القبول هو الحب، لو كان مجرد الذلة الظاهرية والخضوع الظاهري، لما اشترطنا الحب، لكن لما كانت هذه العبادة لا تستقيم على معنى العبودية التي تليق بربنا والتي يجب على العبد أن يمتثلها إلا بخضوع الباطن وتذلل الباطن له، إذاً كان لا بد من شرط الحب.

ومن هنا فمن شروط العبودية لله، أولاً: الخضوع، ثانيًا: أن يخضع، أن يتذلل، ثالثًا: أن يحب، هذا هو كمال العبودية، وهذه العبودية هي عمل القلب، فدل هذا على أن عمل القلب هو أساس كل طاعة، ولا يمكن أن تنشأ أعمال البدن إلا بإرادات القلوب، لا يمكن أن تنشأ الطاعة البدنية إلا بإرادات القلوب، ولا يمكن تصور طاعة ظاهرة إلا بطاعة باطنة، ولا يمكن أن يتصور وجود الطاعة الباطنة مع خلاف الظاهر، لا يمكن، ومن هنا ما هي علاقة الظاهر بالباطن؟ علاقة تلازمٍ غير مطلق، هذه قاعدة من قواعد العلم، علاقة تلازم غير مطلق، لماذا غير مطلق؟ يوجد إكراه، ويوجد نفاق، المنافق ظاهره غير باطنه، والمكره ظاهره غير باطنه، ولكن الأصل إذا لم يكن ثمة نفاق ولم يكن هناك ثمة إكراه فلا بد أن يكون الباطن كالظاهر والظاهر كالباطن.

فالعبادة منشأها هو إرادة القلب، الآن إذا آمن ظاهر المرء، كان دليلٌ على إيمان باطنه، ووجود إيمان الباطن لا بد أن يترجم إلى إيمان الظاهر، هذه النقطة مهمة جدًا ويترتب عليها أحكام كثيرة في الشريعة، لكن لا بد أن نفسر، نحن هنا قلنا ما هي أعمال الباطن؟ الحب، الخضوع، الذلة، هذه تُنشئ الإرادة.

الحب: هو الذي يدفعك للطاعة وهو الذي يدفعك للامتثال.

التذلل له: هو الذي يدفعك إلى امتثال أمره إلى عدم معصيته، إلى ترك ما نهى عنه.

الخضوع: هذا أنك خضعت له، خضعت بظاهرك وباطنك.

إذن ما هو الكفر؟ لما قلنا بأن نتيجة الحب، نتيجة الخضوع، نتيجة الحب هو أن تنشئ إرادة قلبية بامتثال أمر الله وطاعته فيما أمر وترك ما نهى عنه جل في علاه، وعدم الخضوع لغيره وعدم الحب لغيره، هنا وصلنا إلى نقطة مهمة جداً على أن الإيمان هو إرادة وأن الكفر هو إرادة، فمنشأ طاعة صراع إرادتين، ومنشأ المعصية صراع إرادتين، كيف؟

هنا هوى أنت مركبٌ يا عبد الله على الهوى، ومركبٌ على الشهوة، ومركبٌ على حب العاجلة، هكذا الله حكم علينا نحن البشر أن نكون هكذا، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠)﴾ [القيامة: ٢٠]، والإنسان مركبٌ على الهوى وعلى الشهوة، فحين يأتي أمر الله عز وجل على القلب، القلب يصبح عنده صراع، بين ما أنت مركبٌ عليه من حب العاجلة، قد تكون بسبب كسل وبطالة، يعني الإنسان يقوم ويصلي ما الدافع له ألا يصلي؟ هو الكسل والبطالة، هذه إرادة ألا تنشأ هذه الطاعة، وسببها الكسل والبطالة، ويمكن لآخر أن يقول لك: خذ مال ولا تصلي، فتنشأ عندك إرادة قبول هذا العرض مقابل قبول عرض الله عز وجل أطعني أنت عبدي، فحينئذٍ تنشأ الإرادة، فلما يقوم العبد بالطاعة تكون إرادة الإيمان قد انتصرت لديه على إرادة الهوى وإرادة الشهوة وإرادة الشيطان، فإن انتكس

وترك طاعة الله إلى طاعة الغواية والشهوة أو العرض الذي جاء من الشيطان أو من جنده تكون قد انتصرت إرادة من؟

إذن منشأ الأعمال والأحكام كلها الإرادة، القدرة مسألةٌ أخرى، القدرة وجودها شرط للتكليف وهي حين يوجد العمل دليل على وجودها، فإذا تخلفت القدرة لم يتخلف الحكم في أصله وتخلف الحكم في فرعه وهذه لها شرحٌ آخر.

لكن أريد أن أقول: بأن الإيمان هو إرادة، والكفر هو إرادة، كيف ينشأ الضلال في مفهوم العبادة؟ ينشأ الضلال في مفهوم العبادة –للحكم في الظاهر– حين تفسر أعمال الظاهر بشرطٍ لها يظهره المرء على لسانه، لا في كونها دلالة على الباطن، ما معنى هذا الكلام؟ وهذا كلام مهم جداً، عندما رجل لا يصلي، فأنت تحكم عليه ظاهراً وباطناً، رجلٌ ترك الصلاة، لا تحكم عليه فقط في الظاهر، هو ترك الصلاة في ظاهره وهو دليلٌ على تركه إرادة الصلاة في باطنه، فإن حكمت عليه مثلاً بأن تارك الصلاة كافر، هل يجوز لك أن تحكم على ظاهره دون باطنه؟ ما الذي أنشأ الظاهر هذا؟ الذي أنشأه الباطن، ولولا وجود الباطن لا يمكن أن يكون الظاهر، الظاهر هو مظهر ظل حركة الباطن للإرادة، فحين تحكم على رجلٍ بظاهر، لا يجوز لك أن تخلف عنه الحكم في باطنه إلا في حالتين، هما النفاق والإكراه، وفي غيرهما ينبغي أن يحكم على المرء ظاهراً وباطناً.

إذن الإيمان إرادة، والكفر إرادة، كيف نشأت الإرادة هذا ما فسرناه بها، يأتي البعض ماذا يفعل؟ يريد أن يشترط للحكم على باطن المرء أن يظهره لساناً وأن يقر به لساناً، لا بمجرد العمل فقط.

يعني مثلاً رجل سب الدين، هذا ناقضٌ لقضية الخضوع والذلة، والحب، ناقض للحب، فإن من سب حقرَ، وأهانَ، ولم يسبح، ولم يأتي بالفعل على وجهه، فلما سب هذا دليل على نقضه لأركان العبادة، فقد كفر، فقد أشرك، فقد أتى بالمعصية، يأتي آخر يقول: لا نحكم بهذا الظاهر على باطنه حتى يقر بلسانه أن هذا موجودٌ في باطنه، هذا شرط باطل، هذا شرط مكذوب، وزائد، لا يتصور، لماذا؟ لأنه يعلق حكم الظاهر على غير حقيقة عمل الباطن، نحن قلنا الإيمان هو إرادة، والكفر هو إرادة، فيأتي آخر يقول: لا، إنما الإيمان هو الاعتقاد، وهو وجوب تعظيم الله، أنا أعتقد أنه يجب أن أعظم الله، فلما يسب يقال لماذا سببت؟ يقول: أنا لم أكفر، يقال له لماذا سببت إذًا؟ قال: يكفي أن أخبركم أنه يجب أن يعظم الله! من أجل صرف الكفر عنه، وهذا منتهى الجهل، هذا لا يقول به عالمٌ من أهل السنة، يقوله الجهلة، هو ليس مجرد اعتقادك أنه يجب تعظيم الله كافٍ لصرف الفعل عنه، وقد أتيت به، لأنه لم يقع منك هذا الفعل، إلا وقد انتقض أصله، ما هو أصله؟ الحب الخضوع والتذلل له، فلما انتفى الحب وانتفى الخضوع وانتفى التذلل، انتفى عبادة الله عز وجل.

إذًا ما معنى العبادة؟ نقرأ ماذا يقول ابن كثير عن العبادة –هذا على ما شرحناه– قال: «والعبادة في اللغة من الذلة، يقال طريقٌ معبد، وبعيرٌ معبد، أي مذلل، وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف» هذا

الذي أردناه من هذا، وهناك كلمات جميلة أنا أمر عليها، الآن قدم سبحانه وتعالى العبادة، قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فدلت على أنه لا يجوز أن يعبد غير الله، وإذا عبد غير الله فقد دخل في غير العابدين له، «من صرف عبادة لغير الله فقد نقض كل عبادةٍ أتى بها لله»، لأنه لا يجوز أن يعبد إلا الله عز وجل.

ولكن السؤال بعد ذلك قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وابن تيمية رحمه فسر في كتاب «العبودية» العبادة، فسرها على معنى آخر، لكنها خاضعة لهذا الكلام، قال رحمه الله: «العبادة هي اسمٌ جامع لكل ما يحب الله ويرضاه، وهي خاضعة لقضية الخضوع»، هذا تفسير لكلمة الخضوع، تخضع لماذا؟ لجميع أوامره، أن تأتي لجميع ما أحبه الله، وأن تنتهي عن جميع ما منعه الله، فإذن إذا أتيت بفعل أحبه الله فهي عبادة له، وإذا تركت فعل كرهه الله لهذا المعنى، أي لكراهية الله له كنت عابداً له، هذا هو تفسير، قال رحمه الله: «العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه»، فحينئذٍ تكون العبادة هي امتثال أمره جل في علاه، هذه العبادة في معناها العام.

لكن العبادة في معناها الخاص عند الاصطلاح تطلق على النسك، الآن من العبادة إزالة الأذى عن الطريق، هذا عبادة لأنه يحبه الله ويرضاه، بر الوالدين من العبادة، ولكن هذا بمعناه العام، كما هو تفسير الإمام ابن تيمية رحمه الله، لكن هناك كلمة العبادة في معناها الخاص الاصطلاحي، وهي: «أعمال النسك، وهي ما سميت عبادة ونسكاً ولا يجوز أن تصرف لغير الله عز وجل»، لا يجوز، «فإذا صرفت لغير الله هذه الأعمال كانت شركاً بالله عز وجل».

فكيف نفرق بين هذه وهذه؟ لو أن رجلاً –يتصور هذا في الواقع– لو أن رجلاً أتى إلى أذى في الطريق وأزاله ولم يستحضر نية التقرب إلى الله عز وجل، يمكن هذا!، الرجل يطعم زوجته يحظر الطعام ويضع هذا الطعام في فم زوجته، يمكن ألا يستحضر نية التقرب إلى الله عز وجل، ويمكن أنه يريد أن يتقرب إليها، فإذا قيل له: هل أردت وجه الله؟ يقول: والله ما استحضرت هذا الأمر في قلبي، فيمكن تصور هذه الأعمال على غير معنى العبادة، لكن هذا العمل لما قام به لإرضاء زوجته، هل كان عبادة لزوجته؟ لا، ليست عبادة.

لكن هناك أعمال لا يمكن تصور القيام بها إلا على معنى النُسك والعبادة، لا يمكن، ومن ذلك الدعاء، فلا يمكن تصور الدعاء أن تستغيث، استغاثة، طالباً المدد من غائبٍ إلا وفي هذا العمل معنى العابدة النُسك، ومن ذلك الذبح، وهذه أعمال سموها أعمال غير معقولة المعنى، تعبدية نُسكية، ومن ذلك الحج والصلاة، فهذه أعمال لا يجوز أن تقول: أنا لم أقم بها بغير نية نُسك؛ لأنه لا تتصور هذا الأعمال إلا نسكًا، فبالتالي لا يجوز أن تصرف لغير الله عز وجل، ولا يمكن تصور قيام العبد بها إلا بنية العبادة والنُسك، لا يمكن، بخلاف ما ذكرنا.

من هنا العلماء والفقهاء فرقوا بين العبادات والعادات والأخلاق، فجعلوا مثلاً البيوع مما يجوز فيها القياس، لماذا يجوز في البيوع القياس؟ لأنها ليست عبادة، وأما أعمال العبادة فلقياس يكاد يكون معدوماً، لا يقاس، ولما جاءوا إلا توحيد الإلهية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ توحيد العبادة، توحيد النُسك، جعلوها ليست قسماً واحداً، جعلوها أقسامًا ثلاثة، توحيد الإلهية أن تطيع الله، أن تألهه، فهناك أوامر يجب أن تصرفها له، وهناك أوامر يجب أن تطيعه فيها، من هنا جاء التقسيم، فجعلوا توحيد الإلهية ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وهو توحيد النُسك، ويمكن أن تقول توحيد العبادة، بأن لا تصرف هذه الأعمال إلا لله عز وجل.

القسم الثاني: هو توحيد الشرائع، توحيد الشريعة الذي سمي عند المعاصرين بتوحيد الحاكمية، أي توحيد القضاء والتشريع ألا يكون إلا من الله، «فمن شرع شريعةً على غير شريعة الله فقد عبد غير الله»، فهذا قسم منها.

القسم الثالث: هو توحيد الولاء والبراء، وكل هذه تقسيمات لتوحيد الإلهية أو توحيد الألوهية، فإذاً فرقوا هذا، نريد أن نرى التفريق والفرق بين النُسك وغيره في أن غيره يتصور أن يقام به على نية إرضاء الآخر ولا يكون شركاً لكن يفقد معنى القربة إلى الله عز وجل، ولكن توحيد النسك لا يتصور إلا على معنى الخضوع والتذلل والعبادة.

ثانياً: أن توحيد النسك ما كان خالياً من القياس أو القياس فيه ضعيف، فعادةً القياس لا يكون، ولذلك يقال: هذا غير معقول المعنى.

فلما الإمام الشافعي رحمه الله قال عن الذبح مثلاً، قال: «الذبح عبادةٌ غير معقولة المعنى»، أي غير مدركة العلة، وإذا لم تدرك العلة كانت نُسكاً، يعني لماذا قال الله عز وجل لنا: صلوا الظهر أربعاً، هل نقيس عليها قياس؟ لا نقيس، فغير معقولة المعنى، فما كان غير معقول المعنى، هذه تعبيرهم تعبير أهل الأصول في اصطلاحهم، إذا قيل عن الشيء أنه غير معقول المعنى أي أنه امتنع منه تعديته قياساً لا علة له، فكيف يُعدى؟! وإنما تتم التعدية من خلال العلة، العلة هي التي تعدي، من الأصل إلى الفرع، فهنا لا علة، فيقال: غير معقولة المعنى.

الآن قدم سبحانه وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لا نعبد إلا إياك، وبهذا إثباتٌ أنه الله، نحن قلنا الحمد لله، وقلنا إن كلمة «الله» إنما أساسها وجذرها هو التأله، وكلمة الرب جذرها هو الربوبية، فحينئذٍ لما كان الله جل في علاه هو ربنا وجذر هذه الكلمة هي صفة خاصة بألوهيته، حينئذٍ ما الحق على العبد فيها؟ أن يعبده، لماذا يعبده؟ لأنه الله، فكيف نشأ حقه سبحانه وتعالى في ألا نعبد إلا إياه؟ نشأ لأنه الله، وقلنا بأنه استحق العبادة؛ لأنه رب العالمين، بما نشأ حق التأله؟ لماذا له الحق أن يؤله دون غيره لماذا؟ لأنه هل هناك خالق غير الله عز وجل؟! هل هناك رازقٌ غير

الله؟! لا يوجد، فلما كان هو الرب الذي هو رب العالمين كان لا ينبغي أن نعبد إلا إياه، فبما نشأت حق الإلهية؟ بالربوبية، فلما كان هذا الحق كان على العبد أن يعبده فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

ومن هنا أيها الإخوة الأحبة التفريق بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية أن توحيد الإلهية هو فعل العبد لربه، هو فعل العبد لله، والربوبية هو فعل الله الذي اختص به في خلقه، فعله جل في علاه على عبيده وخلقه ورزقه وأسماءه وصفاته كلها هذه هي ربوبيته جل في علاه، فحين تقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إنما نشأ هذا الحق لكونه الله جل في علاه، وهذا الحق إنما نشأ لأنه هو رب العالمين، فإياك نعبد، وهذه دلت على اختصاص، هذا بعد ذلك حقه، وفي ذلك نفي الشرك، أي يا رب أنا لا أشرك بك، وهذه تفسيرٌ يفسر به في قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)﴾ [الكافرون: ١-٢]، فقط إياك أعبد.

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، الاستعانة، نحن ذكرنا الآن شيئاً مهماً وهو أن الاستعانة هي من العبادة، فلما يختص ذكرها؟ انتبهوا والاستعانة هي من العبادة، والعبادة هي نفي الشرك عن الله، ولكن هنا تذكر الاستعانة على جهة الاختصاص دون غيرها، فبعض أهل العلم قال –على القاعدة تقدمت–: «إنما يذكر الخاص بعد العام للأهمية» هذا وجه، ذكرنا هذه، وهذه سنذكرها كثيراً ذكر الخاص بعد العام، والخاص ضمن العام، ولكن يذكر من أجل الأهمية، ومثلنا على ذلك فيما قال الله عز وجل في سورة «الحج»، نذكر فقط ما مثلنا به وإلا هذا في القرآن واسعٌ جداً ومليءٌ جداً، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥]، فالصالحات من صفة الإيمان لكنها ذكرت للاختصاص، ذكرت للأهمية، وهكذا، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ذكرت الجبال لأهميتها، وهكذا، فقال بعض أهل العلم، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، إنما ذكرت الاستعانة من أجل أهميتها في هذا الباب، هذا وجهٌ جيد، ولكن هل هناك وجوهٌ أجود منها؟

لنقرأ ما يقول ابن كثير رحمه الله وهو على هذه القاعدة ابن كثير التي ذكرناها ولكن يذكر لها أدلة جميلة ورائعة، وهو ذكر الاستعانة بعد العبادة، وقلنا أن الفاتحة هي حاوية وهي التي فسرت في القرآن والقرآن مفسرٌ لهذه الفاتحة، وقلنا: إن لب الفاتحة هو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، يقول رحمه الله: «وهذا المعنى في غير آيةٍ من القرآن كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾ [هود: ١٢٣]، –الاستعانة هي التوكل–، وقوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)﴾ [المزمل: ٩] اعبده وتوكل عليه، وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]».

المهم في هذا أن ذكر ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بعد ذكر العبادة تقدم ذكره في درسٍ فائت، وتقدم الكلام في أن حق الله على العبيد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، فما حق العبيد على الله؟ ألا يعذبهم، وهذه من رحمة الله عز وجل،

وكأن هذا القرآن لا يحقق فقط رضى الله، مع أن رضى الله المطلوب في خلق الإنسان، يعني لماذا خلقنا الله؟ من أجل أن نعبده، لِمَ خلق الله الملائكة؟ لأن الله سبحانه وتعالى يحب أن يحمد، كما في حديث الأسود ابن سريع رضي الله عنه الذي ذكرناه، قال صلى الله عليه وسلم: (فإن ربك يحب الحمد)، الله عز وجل عظيم يحب الثناء يحب أن يثنى عليه، يحب أن يتذلل العبد له، أن يخضع له، ولذلك خلق الملائكة، خلق الكون وهو يسبح له، فجل في علاه يحب أن يثنى عليه، ويحب ويفرحه هذا، الله يفرح لهذا، وأن يأمر جل في علاه لأنه المتكبر، فيحب أن يأمر، وإلا لما أصدر أمراً، فربنا يحب أن يأمر، وكذلك يحب أن يطيعه سامعه من المأمورين، يحب ذلك، فهذا القرآن وهذا الدين هو تحقيقٌ لعبودية الله فيما يفرح الرب وفيما يسعده وفيما يضحكه، فربنا يضحك، وكذلك هذا القرآن وهذا الدين كذلك فيه سعادتك، فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

أي لا يحقق فقط رضا الله، إنما يحقق أمراً زائداً ما هو؟ هو سعادتك أنت وفرحك أنت وراحتك أنت، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤)﴾ [طه: ١٢٤]، هذا إذا أعرض عن أمر الله، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣)﴾ [طه: ١٢٣]، وكما سيأتي في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦]، لم يخلقك الله عز وجل فقط من أجل أن تعبده فتحقق له فرحه وتحقق له رضاه، ولكنه كذلك أعطاك ما يحقق سعادتك فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، فقسمت الصلاة بين الله وبين عبده، يثني فيه على الله عز وجل ويسأل العبد فيها ربنا سبحانه وتعالى في هذه الصلاة ما يحقق سعادتك وحاجتك ورضاك.

صحيح أن ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هي جزءٌ من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وذكرت لأهميتها لكنها كذلك من أجل أن تنبهك على أن فيما هذا القرآن هو من أجل سعادتك، ومن أجل راحتك ولكنها كذلك تبين على أنه لا يمكن أن تحقق سعادتك وأن تحقق راحتك وأن تحقق مرادك إلا من طريق الله عز وجل، هذا دائماً.

مثلاً: في سورة «التوبة» لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يحرض المؤمنين على القتال، أريد أن أحتج بموطنين من سورة «التوبة» لما فيها من هذا معنى ومعاني أخرى سنأتي إليها إن شاء الله، في صفحة «١٨٨»، الصفحة الثانية من سورة «التوبة»، لما حرض ربنا المؤمنين على قتال الكافرين، فحرض المؤمن أن يقاتل الكافر لما حضر من صنائع الكافر على المؤمن، أي قاتل إن لم تقاتل يا عبد الله من أجل عبودية الله، فقاتل من أجل سعادتك من أجل مصلحتك، مع أن هذا لا ينبغي أن يكون فقط لوحده ولكن هو من باب التحريض، قال سبحانه وتعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩)﴾ [التوبة: ٨-٩]، أولاً ذكر حالهم معكم ثم قال تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ

اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾، فحرضهم على أمرين بسبب ما يفعلونه بكم وبسبب ما يفعلونه من صد عن سبيل الله من وقوفهم أمامكم.

وقال تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣)﴾ [التوبة: ١٣]، فذكر حق الله نكثوا أيمانهم، وذكر حق الرسول، وذكر حق العبيد المؤمنين، فهذا الدين لا يحقق فقط عبوديتك لله، بل يحقق كذلك سعادتك.

وإن كان كذلك سورة «التوبة» عند ذكره للكافرين في صفحة «١٩٠»، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾ [التوبة: ٢٨-٢٩]، فحرضهم على حق الله، حرضهم بسبب حق الله عز وجل، هذا معنى.

المعنى الثاني في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، لماذا جاء ذكر الاستعانة بعد العبادة؟ لأن القاعدة تقول: «الواجبات قبل الحقوق»، مع التجوز لكلمة الحقوق، لأنه ليس من حقك حين تعبد الله إلا أن لا تعذب، ولكن الله أوجب على نفسه أن يجيبك وأن يعطيك، فلا ينبغي للعبد أن يسأل ما هو أمر الله معه حتى يُسأل العبد ما أمره مع الله عز وجل، أولاً ينبغي أن تقدم العبادة لله عز وجل أن تقدم حق الله عز وجل فإذا قدمت حق الله عز وجل فسألته كانت الاستعانة مقبولة، كما في سورة «البقرة» عند آيات الصوم صفحة «٢٨»، أنا أعرف الآية لكن ينبغي أن نعرف المواطن لأن في ذلك معاني، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)﴾ [البقرة: ١٨٦]، فجعل سبحانه وتعالى سبيل إجابته لدعاء عابديه أن يستجيبوا له أن يؤمنوا به.

لكن قد يسأل سائل، هل يستجيب الله سبحانه وتعالى للكافر حين الاستغاثة؟ هذا دل في القرآن دل على أنه يجيب المضطر إذا دعاه، هذا عام، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾ [النمل: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢-٢٣]، فيستجيب لهم، ولكن شرط الاستجابة أن يكون بإخلاص.

القصد من هذا: أن الله عز وجل قدم العبادة على السؤال لأن الله عز وجل يطلب من العبد إذا أراد أن يستفيد من خزائن الله عز وجل؛ فأولاً: أن يعبد الله عز وجل أن يقدم حق الله عز وجل، ولذلك يستجيب الله عز وجل للعبد وقت المحنة إذا كان العبد قد استجاب لله عز وجل وقت الرخاء، فقلال صلى الله عليه وسلم: (تعرَّفْ إلى اللهِ في الرخاءِ يعرفُك في الشدَّةِ).

ونمر على بعض الكلمات في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، أنا قلت لكم اليوم ابن كثير في هذه أتى بأشياء خاصة به ورائعة، يقول هنا رحمه الله، «والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين –ما هما؟ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، أن لا نعبد إلا الله ولا نتوكل إلا عليه– وهذا كما قال بعض السلف الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾»، وهذه كلمة لابن تيمية رحمه الله، ومرات ابن كثير يمرر كلمات لابن تيمية دون أن يعزوها ومعه حق، في وقت من الأوقات في حياة ابن تيمية كانت كلمات ابن تيمية تثير الغضب عند بعضهم، قال: «فالأول –أي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾–: تبرؤٌ من الشرك، والثاني: تبرؤٌ من الحول والقوة»، ماذا يريد هذا المتكلم الأولى تبرؤٌ من الشرك والثاني تبرءُ من الحول والقوة، ما الذي يريده؟

الصوفية لهم روائع في هذا الباب، مضطر أن أذهب إليهم وهو أن أجّل صفة الرب هي الغنى المطلق، وأخص صفة للعبد هي الفقر المطلق، الغنى الذاتي لربنا والفقر الذاتي للعبد، ما هو أخص خصائص الرب؟ الغنى الذاتي، وهذا الغنى هو الذي يجعله جل في علاه الصمد لأنه غني عن غيره، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)﴾ [الإخلاص: ١-٢]، وما هو الصمد؟ لغةً مأخوذة من المصمت، المصمت هو الذي لا جوف له، والذي لا جوف له، يكون قوي صلب لا يحتاج لغيره، ومن هنا من الصمد أخذت الصمود، ففلان صامد، أي يستطيع أن يدفع غيره ويستطيع أن يقوم بشأنه، لا يحتاج لغيره أن يقوم بشانه، وكذلك يستطيع أن يرد غيره، ويقال كذلك: صمد الملك أي حين يجلس على مجلس كرسيه من أجل استقبال حوائج غيره، ولذلك لما سأل الإمام ابن العباس رضي الله عنهما حبر القرآن قيل له ما الصمد؟ قال: «السيد الذي كمل سؤدده».

فالصمد هو الذي يحتاجه كل أحد ولا يحتاج أحد، ويقدر أن يدفع عن نفسه دون حاجة لأحد، فنحن نقول صامد، ثابت، إذاً الغنى الذاتي وهو أخص خصائص الرب، ولذلك الصوفية يدندنون حولها كثيراً، وابن القيم رحمه الله تكلم في «مدارج السالكين» كلاماً طيباً في هذا الباب وأخذه منهم، وأخص خصائص العبد الفقر الذاتي، فمن كان أخص خصائصه الغنى الذاتي، فما حقه؟ حقه أن يعبد، أخص خصائص الغني غناً ذاتياً، الغنى القائم بنفسه والقائم على غيره ولا يحتاج لأحد، أخص خصائصه أن يُعبد، والفقير الذاتي أخص خصائصه أن يسأل.

انظروا كيف يتذوق هذا العالم هذه الكلمة فيصل إلى هذا المعنى العظيم فيقول، –هذه الكلمة لأبن تيمية رحمه الله–: فالأول إياك نعبد تبرؤٌ من الشرك لأن خصائصه أن يُعبد ولا يُعبد غيره، لا يوجد إله غيره، فأخص خصائصه

الغنى الذاتي التي توجب ألا يعبد إلا إياه، والعبد ما هي أخص خصائصه؟ الفقر، فما هو المطلوب؟ أن تبرء من حولك وقوتك، أن تسأل والسؤال معناه أنك قد خرجت من حولك وقوتك، أنك تبرأت من حولك وقوتك، فتقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وهذا حقك، لأن صفاتك التي أوجبت لك هذه العبادة، والآن حقي ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فهذا هو شأني أني أنا ضعيف، أني أنا لا شيء، أني أنا أحتاج كل شيء.

قال رحمه الله: «فالأول تبرؤٌ من الشرك والثاني تبرؤٌ من الحول والقوة والتفويض إلى الله»، ما هي الكلمات التي تقولها عند النوم، فإذا مت في منامك في تلك الليلة مت مسلماً موحداً، هذه من لم يقلها في كل يوم فقد غفل عن أعظم درجات التعبد، (اللهم إني أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك ووجهت وجهي إليك وألجأت ظهري إليك)، ماذا بقي لك؟ لا شيء، يكفي اليوم هذا أطلنا عليكم، والحمد لله رب العالمين، ما زال في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كثيراً من الكلام إن شاء الله نتمه في الدرس القادم، جزاكم الله خيراً وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس العاشر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

أيها الإخوة الأحبة هذا هو الدرس العاشر من دروس التفسير، وما زلنا مع قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، وقد تكلمنا بفضل الله عز وجل عنها بما قال به أهل العلم، فيما استطعنا استقصائه من كلامهم الطيب العظيم في تفسيرها، وإن كانت هذه الكلمة كما تعلمون هي لب الفاتحة، والفاتحة هي خلاصة القرآن، فخلاصة ما عليه المرء في سبيل دخول الجنة وتحقيق العبودية لله هو أن يعبد الله عز وجل، ولا يعبد سواه وأن يستعين به ولا يستعين بسواه سبحانه وتعالى، هذا هو خلاصة الدين.

وتكلمنا عما يمكن يكون عبادة بمعنى النُسك وأنه لا يجوز أن يصرف إلا لله عز وجل، وتكلمنا على أن العبادة بمفهومها الشامل هي الطاعة، أن العبد إذا أطاع الله عز وجل في كل عمل فإنما هو يعبده، ولكن تعلمون أن ليس كل طاعة عبادة، وإن كان المرء حين يطيع ربه إنما يعبده لأنه امتثل لأمره، والأمر الشرعي له مراتب في العبادة، فقبول الأمر الشرعي ركنٌ من أركان العبادة، بمعنى من لم يقبل أمر الله عز وجل فقد كفر، وقد خرج عن أصل العبادة، فقبول الحكم الشرعي ركنٌ من أركان التعبد لله فمن نقضه نقض ركناً، وبنقض الركن ينتقض الأصل؛ لأن الركن عند أهل العلم ما كان داخل في ماهية ولا يصح الشيء إلا به.

فلذلك الذي يأتيه الأمر الإلهي، ويقول: أنا لا أقبل هذا الأمر، هذا نقض التوحيد ونقض العبادة، نقض أصل العبادة، وهذا الذي فعله إبليس، فإن الله عز وجل أمره بأن يسجد لآدم فلم يسجد، هل كفر بترك السجود؟ أم كفر برفض الأمر؟ كفر برفض الأمر وعدم قبوله، إذن أولاً القبول، ورد الأمر والاعتراض عليه هو الذي ينقض أصل العبادة.

المرتبة الثانية في الامتثال للأمر، أي وهو من العبادة، هو أن يعمل بها، العمل بها لا بد أن ننظر إلى العمل ومرتبته، فالقبول مرتبة واحدة، أي لو أن رجلاً رفض أمراً من أوامر الله مهما كان هذا الأمر سواء كان هذا الأمر واجباً من واجبات الشريعة أو ركن من أركان الشريعة أو أنه مستحب من مستحبات الشريعة نقض أصل الإيمان، نقض العبودية، لو أن رجلاً قال: أن لا أقبل حكم الله في طاعة الوالدين، يكفر، لو أن رجلاً استهزأ بالسواك والسواك مستحب، لكنه استهزأ به يكفر، والاستهزاء هو رد الأمر، لكن حين نأتي إلى العمل والعمل إيمان وعبادة، فالذي يتسوك طاعة للرسول صلى الله ليه وسلم فقد عَبَدَ الله، والذي يصلي عَبَدَ الله، والذي يطيع والديه عَبَدَ الله، لكن هذه الأعمال الثلاثة ليست مرتبةً واحدة في العمل وإن كانت هذه الأعمال مرتبةً واحدة في القبول.

فهذه الأعمال الثلاثة مع أن واحدة منها ركن من أركان الدين، والصواب أن تارك الصلاة كافر ينقض أصل الإيمان، فالصلاة ركن، وبر الوالدين واجب والسواك مستحب، هذه لها مرتبة واحدة في القبول، بحيث لو ردها واحد على الله عز وجل لكفر، لكنها في العمل تختلف بحسب مرتبتها في الشريعة، فتارك الصلاة كافر، على الصواب، سواء جحدها أو لم يجحدها، أي جحد أمرها أو لم يجحد، ومن ترك بر الوالدين أثم ولم يكفر، إن قبل الحكم، إن قال: نعم هو حكم الله عز وجل الذي يجب علي أن أمتثله ولكنه عصا بعدم بره لوالديه، فهذا لا يكفر هذا عاصي، فالعمل يختلف، بقيت المسألة الثالثة وهو السواك، من ترك السواك لا يأثم وإن فعله أجر، فاختلفت مراتب الفعل في العمل، واتفقت الثلاثة في مرتبة الحكم للقبول.

إذن مراتب العبادة لله عز وجل:

المرتبة الأولى: القبول؛ أن يقبل المرء هذا الأمر الإلهي مهما كانت مرتبته.

المرتبة الثانية: العمل، ورأينا الفرق بينهما.

المرتبة الثالثة: هو التسليم، التسليم القلبي التام، وهذه مرتبة من مراتب الشريعة واجبة ومستحبة، وكل ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾ [النساء: ٦٥]،

وابن القيم في «مدارج السالكين» قال: «هذه مراتب قبول العمل».

والمرء قد يعمل عملاً –وهذا ذكرناه في الدرس السابق– قد يعمل الطاعة وهو كارهٌ لها، فهل له الأجر؟ الجواب: نعم، لأن هذا كقوله صلى الله عليه وسلم في حديث (فيما يختصم الملأ الأعلى)، قال: (والمكاره على النفس)، وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (حفت الجنة بالمكاره)، فالمرء يعمل وهو كاره ولكنه يجبر نفسه عليها، وهناك خلاف بين أهل العلم ما هو المرتبة الأعلى أن يقوم المرء راضياً مُحباً للعمل والطاعة أم أنه يقوم بها وهو كاره ويجبر نفسه عليها، لأن هناك تعلمون قول عائشة رضي الله عنها: «أحب الأعمال إلى الله أحمزها»، أي أشدها، بمعنى أنه كلما اشتد العمل على النفس كان أجره عظيماً، أحمزها، أي أشدها، فما هو الأحب إلى الله؟ وهذا خلاف، والصواب أنه لا يقدم هذا على هذا ولا هذا على هذا، وإن المرء لا يبلغ في الطاعة أن يحبها حتى يمر في سبيل المجاهدة حتى تصبح مقبولة لديه ومحبوبة لديه، فهذا له أجره وهذا له أجره والخلاف في الدرجات.

ففي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فرقنا بينما هو عمل من أعمال النُسك فإذا صرف لغير الله كان شركاً، كما ذكرنا في الاستغاثة والدعاء والصلاة والنحر وغير ذلك، وهناك ما يدخل في العبادة على معناها العام فيما يسمى بالطاعة، أي كل طاعة، وبعضهم من المعاصرين للأسف من الجهلة يجعل كل طاعةٍ عبادة، وهذا خطأ فهناك

من الطاعات التي لا تخضع للعبادة، كإطاعة الأجير لسيده، فعلي رضي الله تعالى عنه أجر نفسه ليهودي، كما في الصحيح، أجر نفسه ليهودي وعمل عنده وهو يأمره ويقول له: افعل كذا وكذا حتى يأخذ الأجرة، وهذا ليس من العبادة، فليس كل طاعةٍ عبادة، ليس كل امتثال أمرٍ عبادة، بل هناك من الأوامر ما هي من قضايا الحياة.

فالله عز وجل أمر ببر الوالدين والإحسان إليهما، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)﴾ [لقمان: ١٥]، فأمره بالإحسان، الأمر بالإحسان مع ترك طاعته في الشرك دل على أن طاعته في غير الشرك من الإحسان، أي أن يطيع الرجل والديه في غير الشرك هذا من الإحسان، فدل على أن ليس كل طاعةٍ هي عبادة، وخاصةً إذا أدخلنا أن المرء مطلوبٌ منه أن يطيع من أمر الله عز وجل بطاعته، يعني الله عز وجل أمر بطاعة الوالدين، فأنت تطيع والديك لأمر الله عز وجل، الله عز وجل أمرك أن توفي بالعقود، فهذا أنت تقوم به لطاعة الله عز وجل، فإذاً هو داخل في هذا المعنى الذي ذكرناه من قضية العبادة العامة.

فقط بقي بعض الأقوال في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وللعلماء كلام طويل في هذه الآية الجليلة العظيم يرجع إليه في مواطنه ونحن نكتفي أو نمر على بعضها مروراً، وذلك مثلاً لماذا قدم حقها ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على الاستعانة، قلنا بأن الابتداء هو أن تقدم حق الله عز وجل، بل لا تتحقق الاستعانة إلا بتوحيد العبادة، فلذلك قدم الله عز وجل حقه على ما ينبغي أن تطلبه منه جل في علاه بل لا يصح أن تطلب منه وأن يتحقق مفهوم توحيد الاستعانة حتى تحقق توحيد العبادة.

كذلك مما قيل في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أنها شاملة، وهذه من كلمات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، أن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ شاملة لنوعي الدعاء، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هذا دعاء العبادة، لأنك أنت تقول: الحمد لله، وفي الحديث الحمد لله دعاء، فالعبادة التي ليست استعانة إنما هي دعاء العبادة، أن تدعو الله عز وجل دعاء العبادة، فهذا يتحقق في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وأما ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيتحقق بها دعاء الاستعانة، فهي شاملة للدعاءين، دعاء العبادة الذي ليس فيه إلا مجرد الثناء على الله عز وجل، لأن الثناء على الله عز وجل هو دعاء وهذا بيناه في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فهذا دعاء العبادة، وثانياً هو دعاء الاستعانة وهو السؤال، فأنت تسأل الله عز وجل.

الأمر الآخر في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: أهل العلم: لماذا تكرر لفظ ﴿إِيَّاكَ﴾، وكان يمكن أن يقال لغةً إياك نعبد ونستعين؟ أول شي لتأكيد الباب لأهمية كل واحد فخص له ذكره، لم يقل إياك نعبد ونستعين، بل قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فهذا مهم، ثم مقداره أن يقال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ وذلك للتنبيه عليه ولأهمية كل واحد، لا للتكرار، ولكن هذا لأن ﴿إِيَّاكَ﴾ الأولى المقصود بها أن تصرف عملك لله عز وجل، والثاني ﴿إِيَّاكَ﴾ أن أسالك

إياك، فدل على أن الحالتين تختلفان، لو قال إياك نعبد ونستعين، فدل عل حالةٍ واحدة، ولكن لما كانت العبادة صرف عملك لله والاستعانة هو سؤالك من الله عز وجل، فدل على أن الحالين مختلفين، فهذا أنبه وأفضل بأن يذكر الضمير متكرر.

بقيت قضية، لما قال الله عز وجل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، هذه أطلقت، فكل عبادةٍ لا تصرف إلا له، وكذلك نستعين، وهنا أطلقت هنا لفظ الاستعانة، يعني تستعين بما؟ تستعين بماذا؟ ما الذي تستعينه؟ ما الذي تريده؟ فهنا أطلقت الاستعانة، وقال أهل العلم: أطلقت الاستعانة هنا من أجل أن تدل على كل مسؤول وعلى كل ما تريده وتستعين الله عز وجل عليه. أي أطلقت فما قال إياك نعبد واياك نستعين لديننا، أو لدنيانا، أو لآخرتنا، أو لصلواتنا، وهذا دل على إطلاقها.

وهنا قضية مهمة جدًا في القرآن، إذا أطلقت دلت على الشمول، الإطلاق في القرآن يدل على الاستيعاب وعلى عدم الحصر، وتركه من أجل أن تذهب به النفس كل مذهب فيكون صادقاً في الذكر عليه، أي ما يطرأ على النفس من أمور وما يطرأ على الحياة من أمور فيكون هذا اللفظ صادقاً عليه، ما الذي تريد أن تستعين بالله عليه؟ تريد أن تستعين على أكلك، على شربك، على نجاحك، على مشيك، على قيامك، على نومك، على أي شيء تريد أن تستعين؟ فأطلقت من أجل كل هذا.

وهناك من أهل العلم من أراد تقييدها، وقيدوها بحسب ورودها في هذه السورة، فبعضهم قيدها بما تقدم، وبعضهم قيدها بما تأخر، كيف؟ بعضهم قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، أي إياك نعبد وإياك نستعين على عبادتك، وقالوا: وإن الأجّل أن تكون مقيدة بما هو حاضرٌ في اللفظ، فلما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فمع هذه العبادة أنت فقير، لا تستطيع أن تقوم بها على وجهها، وأنت لا تستطيع أن تشكر الله عز وجل حق شكره، فأنت تقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على العبادة، هذا قول.

القول الثاني ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، مفسر لهذه الاستعاذة وهو ما بعدها وهو قوله جّل في علاه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦]، فأنا أستعينك على الصراط المستقيم، وهذا القول الأول عام وأشمل، ولكن القول الثاني فيه عظمة المسؤول وجلال المسؤول، يعني ما هو أعظم ما تستعين ربك عليه؟ أن تعبده، أعظم ما تسأل الله عليه بأن يعينك عليه، أن تعبده، وأعظم ما في العبادة هو أن تقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، صحيح أن الاستعانة شاملة لكل ما تسأله لله عز وجل، ولكن كذلك من أجّل ما يُسأل ربنا سبحانه وتعالى أن يعان على عبادته، كما قال صلى الله عليه وسلم: (لا تدعَنَّ دبرَ كلِّ صلاةٍ أن تقولَ اللهمَّ أعنِّي على ذكرِك وشكرِك وحسنِ عبادَتِك)، فهذا أفضل ما يسأله المرء هو أن يسأل الله عز وجل على هذا الأمر، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وبهذا أظن أننا قد استوعبنا على أن المرء إذا قرأ هذه الآية العظيمة، فهم منها أعظم ما ينبغي أن يفهمه وهو لماذا خُلق؟ وما هو حاله في هذا الوجود؟ ومن هو في هذا الوجود؟ أولاً: هذه الآية دالة على أنه عبد، وهو عبد لعظيم، هذا العظيم هو الذي خلقه، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وتقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أنه له الحمد وأنه رب العالمين، وأنه الرحمن الرحيم، فهذه تبين حالك أيها الإنسان أنك عبد وهذه العبودية لله عز وجل، وكذلك تبين شأنك في هذه الحياة، ليس فقط عبوديتك، ولكن تبين فقرك، وأنك لا تستطيع أن تقوم بأي شيءٍ في هذه الحياة إلا بمعونة الله عز وجل لك، هو الذي أعطاك، فلما أنت تقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، هذه تعيدك إلى أن له الحمد.

فأنت ما هو مقامك في هذه الدنيا؟ مقام العجز، مقام الضعف، مقام الفقر، ولذلك هم يتغنون كما قلنا في الدرس الفائت، يتغنى الصوفية بقول: «أتيناك بالفقر يا ذا الغنى»، والإنسان مظهر عبوديته هو فقره، وكلما أظهر فقره كلما ازداد تقرباً إلى الله عز وجل، وكلما ابتعد عن هذا الباب وهو إظهار الفقر كلما حصل في نفسه ما يبعده عن الله عز وجل وهو الكبر، ما هو أساس الكبر؟ هو ظن العبد أنه مستقلٌ في الوجود والحاجة، مستقل عن غيره عن الله عز وجل، فكلما ازداد شعور العبد أنه فقير، كلما ازداد قرباً إلى الله عز وجل، وازداد تواضعاً، وازداد إخباتاً لله، وازداد أخلاقاً مع الناس، فيصبح هو العبد، كما قلنا تمر عليه الأوامر والأقدار من غير اعتراض، أساسه هذا هو أنك عبد، وهذه العبودية شاملة لظاهرك وباطنك، ظاهرك في حركة بدنك في حركة عينيك، في سماعك، في كلامك ونطقك، وشاملة لباطنك لما فيه من إيمان ومن قبول لأوامر الله، ما فيه من حب وإخبات، وما فيه من تواضع، وما فيه من خشية، وما فيه من رغبة في الدار الآخرة، هذه هي العبادة.

فهذه الآية تبين من أنت أيها الإنسان، وما هي علاقتك مع غيرك، وهو الله سبحانه وتعالى، الله هو مصدر كل حق، وهو مصدر كل خير، وهو كذلك لا يحصل من خيرٍ منك في هذه الدنيا إلا بالله، ولا يصرف عنك شر إلا بالله، (لا حول ولا قوة إلا بالله)، هذه ينبغي أن نستحضرها وأن نتقرب إلى الله بها ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهي كذلك الفاصل، (قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل)، وهي تبين (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي)، قسمت، صار قسمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، أنت أتيت بحق الله واستعنت، لكن مع قيامك بشأنك أنت تتعبد الله عز وجل، وأنت تقوم بشأنك، أنت تستعين به، أي أنت أديت حق الله عز وجل ثم لا تفرغ لنفسك، بل وأنت تفرغ لنفسك أنت محتاجٌ إلى الله عز وجل، أنت تظهر عبوديتك لله.

وهنا يأتي الباب الآخر تمام عبوديتك لله عز وجل هو تمام حريتك وتحررك من الآخرين، هذا الإنسان العظيم لا يمكن أن يُنشئ شيئاً في الوجود إلا بعد أن يتحرر من عبوديته لغير الله، بتحرره من عبودية غير الله، هو يلتصق ويقوم بعبوديته مع الله سبحانه وتعالى، وكلما كان العبد ممتثلاً لله عز وجل كلما كان متحرراً من الأشياء ومتحرراً من

الأصنام، متحرراً من الأوثان، متحرراً من الأهواء، هذا يبين ما هو عماد هذه الشخصية المسلمة، ما هو ركنها؟ العبودية، ما هو ركن الشخصية المسلمة؟ العبادة.

الآن فهمنا أن القرآن إنما جاء من أجل أن يحقق هذا، فليس في القرآن إلا ما يحقق هذين الأمرين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، كل ما في القرآن، أعطني آية لا تحقق العبودية!! كل ما أمر به الله عز وجل يحقق العبودية، كل ما ذكر عن نفسه يحقق العبودية، كل ما ذكر عن سنن التاريخ مع الأقوام المؤمنين ومع الأقوام الكافرين من أجل أن يحقق العبودية لله، وما ذكر فيها من خيرات وما ذكر من قدرة الله عز وجل في الوجود، هو الذي ينشأ السحاب وهو الذي خلق الجبال وهو الذي ينزل الغيث ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وهو الذي سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وهو الذي سخر لكم الأرض، كل هذا يؤدي بك أن تستعين به وحده،

إذن القرآن من أجل تحقيق عبودية الله عز وجل وأعلمك ما في الوجود من أشياء من أجل أن تسأله هو، إذاً ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أعطتك أمرين، أعطتك كيف تتعامل مع عالم الغيب، وهو الله عز وجل، وتتعامل مع عالم الشهادة، تعاملك مع الله عز وجل وهو عالم الغيب المطلق وهو الله بأن تعبده، وتعاملك مع عالم الشهادة أن تستخدمه بمعونة الله لك، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

والاستعانة تكون على أمرين، إما لجلب خير وإما لدفع شر، الاستعانة تكون إما لجلب خير وهذا (لا حول ولا قوة إلا بالله)، حول من أجل أن يصرف الله عنك الشر، والقوة من أجل أن تفعل ما تريد، لا حول ولا قوة، الحول لماذا؟ الحول من التحول، أي لا تحول الشر عنك؛ أي لا تبعده، ولا قوة أي تحقق لك الفعل الذي تريد إلا بالله عز وجل.

إذن ما هو عماد شخصيتك أيها المسلم في هذه الحياة؟ هو العبودية لله عز وجل، هذا الأصل كل شيءٍ ظلٌ له وليس العكس، أكرر هذه النقطة؛ لأن العالم اليوم وكثير ممن يكتب في الإسلام، يتحدث عن الإنسان الفاعل كأنه خُلق في هذه الدنيا لأشياء، هذه الأشياء تحقق العبودية وليس العكس، كما سماها بعض أهل العلم «كالنظر في المرآة» فهو لا يرى صورته الحقيقية ولكن يرى صورة الصورة، صورة الجسم، والذي ينظر إلى المرآة يرى شخصاً آخر، يرى اليمين محل اليسار واليسار محل اليمين، لا يرى الصورة الحقيقية، يرى صورة الصورة.

وكثير من الناس عندما يتكلمون عن المسلم، يتكلمون عن مظاهر وجوده في هذه الحياة، لا مظاهر ارتباطه مع الله عز وجل، أي يتحدثون عن الإنسان الفاعل في هذه الدنيا، ماذا يفعل ماذا يقول؟ يتحدثون عنه أنه مُصلح، يتحدثون عنه من أجل عِمارة الأرض، يقولون: الإنسان جاء من أجل عِمارة الأرض، يقولون: جاء الإنسان من

أجل أن يتعاون مع الناس، هذا كله مظهر العبودية والأصل هو العبودية، لا تستمع إلى أي كلمةٍ فيها طاعة وأن يكون ليس المصدر فيها بكونه أن يكون طاعة.

فعندما أنت تريد أن تقاتل، بعض الناس يقول: نعم، أنا أقاتل من أجل دفع الشر عني، وفي دفع الشر عبوديتي، هذا قلب القضية، الأصل أني أقاتل لأني عبدٌ لله، لأن الله عز وجل أمرني ومن مظاهر عبوديتي أن أدفع الشر عني، هذا هو الأساس، إذن الشخصية المسلمة عمادها هو العبودية لله عز وجل، وهذا قد يبدو عند بعض الناس، قد يبدو أنه مسألة تصورية، لا، لا، هذه ليست مسألة تصورية، هذه مسألة كذلك تفرز فقهاً وواقعاً وسلوكاً، عندما يبحث المرء ويسعى من أجل أن يحقق العبودية لله عز وجل، فحينئذٍ هو همه الأول ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦)﴾ [ص: ٤٦]، وهو لا يفعل على صورة النبي صلى الله عليه وسلم، على صورة الصحابة رضي الله عنهم.

انظر إلى الصحابة رضي الله عنهم، لا تجد إلا شخصيةً متدينة، شخصية عابدة، شخصية إن قاتلت ذكرت الله، إن صامت ذكرت الله، وإن تصدقت وأحسنت هي عابدة، الشخصية التي نسعى إليها شخصية النبي صلى الله عليه وسلم، كما وردت في القرآن وشخصية الصالحين، وهو أنهم يحققون العبودية لله عز وجل، وهذه إن لم تفهم بعد ذلك تنقلب الصورة، توضع الأمور في غير موضعها.

ومن هنا أيها الإخوة الأحبة هذا الذي نقوله هو الذي جعل ضرورة الدين أعظم ضرورة في هذه الحياة، أعظم من ضرورة النفس، أعظم من ضرورة المال، أعظم من ضرورة النسل، أعظم من ضرورة العقل، أعظم ضرورة في هذه الدنيا هي ضرورة الدين، وكل هذه الضرورات يجب أن تسعى وتكون خادمة لتحقيق ضرورة الدين، لا أن يستخدم الدين من أجل منافع هذه الأشياء، لا أن يستخدم الدين من أجل أن تتجلى هذه الأشياء بتجلياتها الجميلة، فتضعف رابطة الدين، وتضعف ضرورة الدين في الحياة، إن فهمنا هذا رأيت صورة العابد كيف يكون، رأيت صورة المجاهد الذي يقوم الليل، رأيت صورة المجاهد الذي يعطف على الناس، رأيت صورة الذي يسعى ويأكل ويشرب وهو يبذل من أجل أن يتصدق لأن نظره إلى الله عز وجل كيف يحقق العبودية.

فأساس بعثة الأنبياء عليهم السلام أساس هذا الدين هو تحقيق العبودية، تحقيق العبودية أن تكون ذاكراً له، أن تكون شاكراً له، أن تكون مُخبتاً له، أن تكون خاضعاً له، أن تكون محباً له، أن تشغل حياتك كلها له جلّ في علاه، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ [الأنعام: ١٦٢]، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، الاستعانة ما هي الاستعانة؟ تقوم بشؤون حياتك، تريد أن تأكل، تستعين بالله عز وجل تريد أن تأكل، وتريد أن تشرب، وتريد أن تتزوج، ويريد أن يبني بيتاً، يريد أن يحافظ عل أهله، إذاً حتى وأنت في شأنك أنت عابد له وتعلم أن كل ما تقوم به لا يمكن أن يأتي إلا باستعانتك بالله عز وجل.

وهذا يوجب أنك تنظر أن الاشياء هي بيد الله عز وجل وأن هذا عطاء لله عز وجل، توجب شكره وتوجب حمده وتوجب الثناء عليه، هذه قضية مهمة، وأنا أنبه عليها لأنها للأسف بسبب صياغتنا الدينية المعاصرة التي تقوم على الحديث على الحاجات والدنيا وعلى منافع الدين في الدنيا، فمنافع الدين في الدنيا طمست معالم التعبد في نفوس الناس، لا ترى صورة المتدين، لا ترى صورة العالم الذي فيه التعبد والإخبات، لا ترى فيه صورة الصدقة، لا ترى فيه صورة الدعاء، الاستغاثة بالله وهو يسأل، لا تجد هذه الصور، هذه الصور ضعيفة اليوم، صور الإنسان العابد فقدت في زماننا إلا القليل، إلا من رحم الله، وهذا نحن نتكلم عن الصورة العامة الغالبة، ما تُنشئه الجماعات الإسلامية من تربية للأفراد للأسف بعيدة عن هذا المعنى، الاهتمام بقراءة القرآن، الاهتمام بالسجود، كثرة السجود لله عز وجل، كثرة البكاء بين يديه، كثرة الدعاء.

أنا أسأل هؤلاء –الآن نتكلم بعيداً فقط عن تحديد المسائل العلمية– كم من الناس في داخل المساجد مسلمين من المصلين؟ وكم من الناس في المساجد مما يسمى من أبناء الدعوة وأبناء الجماعات الإسلامية؟ كم تراهم في حالة إخبات لله عز وجل، في حالة تعبد، في حالة ذكر لله، في حالة طاعة لله، يديمون الصلاة، يديمون قيام الليل، يديمون ذكر الله، يديمون البكاء بين يديه، كم ترى هذه الصورة؟ بسبب ضعف هذه الصورة الموجودة فينا قَلَّت فاعليتنا في العالم، لأننا ابتعدنا عن مصدر قوتنا وعن مصدر صورة الصحابي الفاعل الذي يغير التاريخ.

فالآن لو أردت أن تبحث عن صورة الصحابي، ما هي الصورة التي تراها في للصحابي؟ ترى صورة الصحابي العابد لله، وفي عبادته يجتاح الأمم ويحطم الممالك والإمبراطوريات، وفي عبوديته لله وإخباته لله، هذه الشخصية الآسرة مثل شخصية أبي بكر رضي الله تعالى عنه، كيف ترونها؟ كيف يعطى هذا الرجل هذه الهداية العظيمة؛ بأن يكتشف مالم يكتشفه كبار الصحابة في قضية حروب المرتدين؟ من أين جاء استمداد هذه المعاني في هذا الفهم؟ هل تستطيع أن تقول كما يقول بعض الدارسين: هذه عبقريةٌ لأبي بكر، أم تقول هذا يقينٌ في قلب أبي بكر؟ ما الذي تقدم به أبو بكر عن غيره؟ هل تستطيع أن تقول هو أذكى؟ أم أننا من خلال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نقول: هو أعبد، أنه أفهم لكتاب ربنا، أنه أكثر طاعة قرباً من الله عز وجل.

فكلما اقترب المرء من الله عز وجل كلما فتح الله عز وجل عليه من المعارف والمعاني، ليس على طريقة الصوفية، المعاني التي يستغرقون بها من أجل أن يغيبوا عن الواقع، ولكنهم يكونون مع العبادة التي بها يحققون العبودية لله عز وجل، ما هي صورة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، كيف ترونها؟ كيف ترون هذه الصورة؟ كيف ترون صورة عثمان رضي الله عنه؟ كيف ترون صورة علّي رضي الله تعالى عنه؟ كيف نرى صور هؤلاء العلماء؟ ثم كيف نرى صورة الفقهاء؟ صورة الإمام مالك رحمه الله، كيف نراهم؟ هل نراهم على ما يراد منا أن نُنشئ إنساناً بعيداً هكذا في الهواء، عبقرياً ذكياً مفكراً، أن نرى صورة العابد على هيئتها وعلى صورتها الصحيحة، ليس على صورة العابد من المفهوم

الصوفي، يعني الذي يغيب عن الحياة ليستغرق فقط في شؤون الآخرة بعيداً عن أن يفهم الوجود كله كمل أراده الله عز وجل، كيف تتحقق المعرفة؟ من خلال حقيقة التعبد بالله.

فما نريده هو أن يكون الإنسان: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي)، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، هذه الصورة التي نريدها، وكل كلماتنا إذا بقيت في الدماغ صنعت منا فقط معارف، كيف؟ مثلاً: يأتيك خبر، معلومة، كيف تنفعل مع هذه المعلومة؟ تنفعل معها قليلاً ثم تذهب، يقال: هذا جارك فلان له حساب في البنك، معه مئة ألف دينار في البنك، معلومة جديدة، تفرح بها، تصبح في ذهنك تحللها، كيف هو اشترى وكيف عمل، ثم تنتهي هذه المعلومة ولا تنزل إرادةً في قلبك، ولا حركةً في حياتك، فقط تنتهي هذه المعلومة، هذه العلوم التي تقدم بهذه الطريقة بعيداً عن تحقيق صورة العابد وحقيقة العابد لأمتنا، هذه مثالها ما تقدم ذكره، فقط معلومات في الذهن.

أما حركة الإرادة الفاعلة لا يحققها إلا أن تفهم أنك عبد لله وأنه لا يمكن أن يحصل لك الخير إلا بطاعتك لله وأنه كلما اقتربت من الله كلما اقترب ربنا عز وجل منك، (من أتاني يمشي أتيته هرولة)، في كل شيء، في عطاءه، في علمه، في كرامته ... إلخ، هذه نقطة إن حققناها فقد وضعنا أيدينا على العلم الصحيح، ووضعنا أرجلنا على الطريق الصحيح، علينا أن نراقب أنفسنا، كم نحقق من عبوديتنا لله عز وجل؟ وكم نرفع أيدينا سؤالاً لله عز وجل؟ كم نسأل وكم نبكي؟ كم نستغيث به؟ هل عندما تحضر الأشياء والمصائب نستغيث به؟ هل عندما نريد أن نأكل نستغيث به؟ هل عندما نريد أن نشرب نستغيث به، هل عندما نقع في الكوارث نستغيث به، أم نذهب إلى غيره؟!! هل في حياتنا نستغرق العبودية لله؟ هل يحضر الله في قلوبنا دوام الحضور؟ هل دائماً الله عز وجل في قلب أحدكم؟ هل ذكرت الله خالياً؟ (ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) قبل أن نقول فاضت عيناه، هل حقاً تذكر الله خالياً؟ قبل أن ترتقي إلى أن تصل أن تذكر الله خالياً فتبكي، هل حاولت لما خلوت أن تذكر الله عز وجل فقط، إذا خلوت لشأنك أن تقرأ القرآن، إذا خلوت لشأنك أن ترفع وتبكي بين يديه؟

هذه الصورة للأسف اليوم تُقزم! تُقزم عن طريق ما يسمى الفكر، يعني العابد غير المفكر، والعابد غير الفاعل، والعابد هو فقط المخبت الذي يعيش في زاويته ويعتزل الحياة، هذه للأسف هذه الصورة حينئذٍ ندخل في صورةٍ مشوهة، نحن نريد العبادة كما شرحها القرآن، الآن لما نفتح القرآن نريد أن نرى العبادة كما أرادها الله عز وجل في كتابه، نفتح القرآن، ما هي العبادة؟ هو حضور الأوامر لأن تكون فاعلاً في بيتك مع زوجك وأهلك مع أبناءك، مع الناس، مع المحيط، مع الكافر مع المؤمن، أن تكون فاعلاً.

والتجديد في أمتنا لا يكون بما ترون بكثرة الكلام والفكر في الأذهان بعيداً عن القرآن، وبعيداً عن الهداية الربانية، هذا لا يحقق شيئاً، هذا كلام موضوع في الكتب، يوضع كلام، الناس يذكرونه وتوضع كلمات في الكتب، وتوضع ثم تقرأ فيتمتع بها ويقول: ما شاء الله، هذا كلام جميل، ثم ينصرف كل واحدٍ إلى شأنه، كم ترقى؟

ومن هنا علم السلف يختلف عن علم الخلف، علم السلف هو الذي كان يحقق العبادة، وعلم الخلف هو الذي يحقق الكلام، فقط!، وللأسف هذه صورة يستهزأ بها اليوم، صورة لا تجدها في الجماعات، وقليل من يتحدث بها، بل إن بعض الجماعات تستهزئ بهذا المعنى وتسميه دروشة، فيقولون في بعض نصوصهم: نحن لا نريد لجماعتنا أن يكونوا دراويش، طب كم يقرأون من القرآن؟ (الجوف الذي ليس فيه قرآن كالبيت الخرب)، يعني كيف يقومون الليل؟ وأول أمرٍ من أوامر الله عز وجل بعد التوحيد والدعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)﴾ [المزمل: ١-٢]، أين هؤلاء من ذكر الله؟ كم أورادهم في الصباح والمساء؟

والصحابة يُسألون كم حزبكم في القرآن؟ كيف كنتم تحزبون القرآن؟ سؤال للصحابة جميعاً، كيف كانوا يحزبون القرآن؟ كانوا يحزبونه قراءة القرآن كله في كل أسبوع، ثلاثاً وخمساً وسبعاً وتسعاً وإحدى عشر وثلاثة عشر ثم من سورة «ق» إلى آخره، هذه صورة الصحابي، ثم هذه صورة المجددين في تاريخنا، هذه صورة المجدد الذي يحدث الأثر في الحياة، الذي يغير سبيل الحياة، هؤلاء هم، بسرٍ بينهم وبين الله عز وجل، بأمرٍ بينهم وبين الله عز وجل يفتح عليهم المعارف ويوفقهم ويجعل لكلماتهم كأنها القنابل.

والناس يذكرون علماءنا وما معهم من قوةٍ في ظاهر الأمر، لكن لا يعرفون سر هذه القوة، يرون قوة الشافعي رحمه الله في الحجاز، لا يعرفون سر هذه القوة، والعبودية بينه وبين الله عز وجل، لا يعرفون سر العبودية عند مالك رحمه الله، كيف يلتجأ إلى الله وكيف يُخبت إلى الله حتى يفتح الله عز وجل من العلوم الخاصة، ولا يُعرف في تاريخ أمتنا عالمٌ أحدث خيراً عظيماً إلا وله سرٌ خاص في حياته، سر خاص! وإذا أردت التوفيق فعليك بهذا الطريق وبهذا السبيل، يتحدثون عن ابن تيمية رحمه الله، هل يتحدثون عن ابن تيمية في إخباته وطاعته؟ أن هذا العلم الذي قاله ماذا أحدث في حياته، أو هذا العلم كيف تحصل؟ هل فقط في طريق القراءة أم طريق السؤال والإخبات والطاعة؟

فجذر وعماد صورة المسلم التي يريدها القرآن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وكلما اقترب العبد من هذا الأمر كلما كان أخذاً بالقرآن، وكلما ابتعد عن هذه الصورة صورة التعبد دل أنه بعيدٌ عن القرآن، ويعني أنه بعيدٌ عن القرآن؛ أنه بعيدٌ عن الهدى، بعيدٌ عن النور، بعيد عن الحق، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، هذه يجب أن تبقى عندنا أن ننظر إليها، كم تتحقق في حياتنا.

ثم يقول سبحانه وتعالى بعد قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦]، وقد تقدم الكلام على أن أعظم ما يستعان به ربنا سبحانه وتعالى أن يُسأل الصراط المستقيم، وفي كلمة ﴿اهْدِنَا﴾، هناك كلام كثير وأجمل ما رأيت كلام يُراجع وربما نقرأه إن شاء الله، ما معنى ﴿اهْدِنَا﴾؟ ولها معاني متعددة، ولكن العلماء يجملون الهداية بنوعين من الهداية، هناك هداية شرعية وهناك هداية قدرية.

أما الهداية القدرية فنوعين: نوعٌ يجري مجرى الفطرة، ومجرى الخلق، ونوعٌ آخر يجري مجرى التوفيق والتسديد، هذه الهداية تقسم عند اهل العلم إلى قسمين، هداية شرعية، وهداية قدرية، الهداية القدرية تقسم إلى قسمين، هداية على معنى ما خلق الله من فطر الأشياء أي جرت مجرى الفطرة والخلق والتقدير، ومن الهداية القدرية الهداية التوفيقية والتسديدية.

أما الهداية الأولى فهي كقول سبحان وتعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾ [طه: ٥٠]، فالله عز وجل خلق الأشياء، خلق اليد، خلق العين، خلق الأذن، خلق اللسان، خلق الحيوان، خلق المعدة، خلق القلب، فالله خلق كل شيء، ثم قدر لهذه الأشياء أعمالاً، هذه الأعمال تقوم بها بخلقتها، وهذا القيام لما خُلقت له هذه الهداية، قيام المخلوقات، لما خلقت له قدراً هي الهداية، يعني الله خلق العين فما هي هدايتها؟ هدايتها البصر، الله خلق اليد، ما هي هدايتها؟ القدرة والبطش، وهكذا، والأذن، الله خلق الأذن، وما هي هدايتها القدرية في هذا الباب؟ هو أن تسمع، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، هذه هداية قدرية كما ترون، وهذه شاملةٌ لكل ما خلق الله، فالله خلق الأرض جعلها للأنام، فما هو هدايته سبحانه وتعالى للأرض؟ وهو أن تصبح نافعة للإنسان، يمشي عليها، ينتفع بها، يأكل منها، يزرعها، وهكذا، ولو أنه حُرمت هذه الأرض هدايتها لما استقرت على هذا الحال، كانت الأرض تفجرت وفسدت ... وإلخ، وكذلك لو أن الله حرم الأذن هدايتها لما سمعت، ولو حرم العين هدايتها لما أبصرت، هذه الهداية التقديرية وهي شاملةٌ للخلق جميعاً.

الهداية الثانية توجب علينا أن نشرح الهداية التشريعية، الهداية التشريعية: وهو أن الله عز وجل أنزل الهدى وهو شرعه من أجل أن يمشي الناس عليه، وهذا الذي يسأل العبد إياه ابتداء بقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، بمعنى أولاً عرفنا إياه ما هو، عرفنا ما هو الصراط المستقيم، فما هو الصراط المستقيم؟ شرعه، وسيتبين أن كلمة الصراط في القرآن لم تأتي إلا مقيدة -هذا سيأتي، سنذرها- لأن أكثر سورة ذكر فيها الصراط المستقيم وكلمة الصراط هي سورة «الأنعام»، ذكر فيها لفظ الصراط ست مرات.

فإذاً ما هي الهداية التشريعية؟ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾ [الشورى: ٥٢]، هل النبي صلى الله عليه وسلم يهدي إلى صراط مستقيم؟ نعم، لأنه يدعو الناس إلى أن يتبعوا الشريعة، ويتبع الناس الحق، والحق هو الصراط المستقيم، إذاً ما هي الهداية هنا في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؟ الهداية التشريعية، أي أنه سبحانه وتعالى علم الخلق وهداهم الصراط المستقيم، وسيأتي أنه هو هذا الدين، هذه هي الشريعة، ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وهو طريق النبي صلى الله عليه وسلم، وطريق أبي بكر وعمر وعثمان وعلّي رضي الله عنهم -كما سيأتي ذكره-.

فهذا الصراط المستقيم شرعاً للعمل به، الأولى الهداية التقديرية هو قيام ما خلق الله على ما قدر الله خلقاً، ما هي الهداية القدرية الأولى التي ذكرناها؟ هو قيام الشيء على ما خُلق له قدراً، لكن هنا قيام العبد على ما هدي إليه شرعاً هذا هي الهداية التي يسأل العبد إياها ربه، وهي جزءٌ من الهداية القدرية، وهي التوفيقية، إذن قيام الشيء على ما خُلق له قدراً هذا أمر، قيام العبد على ما هُدي إليه شرعاً هذا هي الهداية التوفيقية، وفي هذا رد، يعني لما يقول ابراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠)﴾ [إبراهيم: ٤٠]، هو دعا الله أن يجعله هو وذريته من أهل الصلاة، هذا توفيق، الأمر بالصلاة هداية تشريعية، أمرهم بالصلاة، لكن أن يقوم العبد بالصلاة، لا يمكن أن يقوم بها حتى يوفق، هذه هي الهداية، فقيام العبد على ما هُدي إليه شرعاً هذه هدايةٌ توفيقية، والعبد يسأل، الأولى قدراً موجودة وقد يحرم منها العبد ابتلاء، كأن يعمى الإنسان أو لا يسمع أو كأن تشل يده، أو كأن تفجر الأرض براكين فيعذب، والأرض لم توضع لهذا، لكن هذا يقع موقع الابتلاء.

وأما الهداية التشريعية فقد تقع كذلك ابتلاءً بأن تمنع، وهم من أهل الفترة، أهل الفترة لا يتعلمون، أو أن يحرموا منها لعدم استعدادهم لها، وذلك قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩٧] وقال بعدها: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا﴾ [التوبة: ٩٧]، لما لم يكونوا هم محل لهذه الهداية، فمن الخير أن يحرموا ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩٧]، لماذا؟ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، ما هي ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ هنا؟ هداية توفيقية، ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)﴾ [الأنفال: ٢٣]، ثم انظر لأنه ليس محل للهداية التشريعية يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩)﴾ [الجاثية: ٩]، فهذا يحرم وهذا لا يعلم.

ومن هنا جاء الأمر من الله سبحانه وتعالى للنبي صلى الله عليه وسلم، بأن من كان هذا حاله ألا يعلمه، واستدل على ذلك ابن تيمية رحمه الله في قوله تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢]، وهذا دليل كما قال ابن تيمية رحمه الله يبين أنه يجوز للعالم إذا جاء الرجل مستفتياً ألا يفتيه إذا كان هذا حالهم، رجل يعرف عنه الفجور، ويعرف عنه الفساد، وإذا علم من آياته شيئاً لا ينتفع بها، فهذا لماذا تعلمه؟ وكأن يأتي إليك مستفتياً من أجل أن يوقعك بالشر، كما يفعل بعض –عناصر– الناس، يسألك من أجل أن يوقعك بالشر، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (مَن كتمَ علمًا ألجمَهُ اللَّهُ يومَ القيامةِ بلجامٍ من نارٍ)، لا، لا هذا من الخير أن لا تعلمه، لا تُعرفه، ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٤٢]، إذن لا يجوز لك أن تقول الباطل، لا يجوز لك أن تقول لهم الغلط، هذا هو الدين، الدين لا يجيز لك قول الباطل، ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل

عمران: ٢٨]، وهذه التقية بالعمل لا بالسان، وأن تظهر أنك معه ولا تقل بلسانك، لأن القول باللسان شديد في دين الله عز وجل وفيه خداع في الشريعة، فلذلك هذه الهداية التشريعية يجوز لك أن تمنعها.

والهداية التوفيقية مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، أسمعهم هنا الإسماع العلمي أم التوفيقي؟ الإسماع التوفيقي، شوف شدة كفرهم، لو أسمعهم إسماع التوفيق لما استجابوا ولا قبلوا، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾، ليس فقط أسمعهم أعلمهم الحق، هم يعلمون الحق علماً على مستوى المعرفة الذهنية، هم يعرفون ما تدعو إليه، لأن الحجة لا تقوم إلا بالمعرفة، لكن ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾، فهذه مراتب الهداية، والله عز وجل هدى.

والهداية إيها الإخوة الأحبة، الهداية ضد الضلال، وبالتالي هي ضد الظُلمة، فمن هنا وضع الله عز وجل دينه هداية فسماه نوراً، لأن الهداية هي سلوك الطريق البيّن الواضح، وإلا لا يكون الرجل مهدياً يكون ضالاً، والضلال الله وصفه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢)﴾ [النجم: ١-٢]، فكان ضد الهداية إما أن يكون غير عالمٍ بها فهو الضلال، وإما أن يكون عالماً بها غلب عليه هواه فهنا الغواية، إذًا ما هو ضد الهداية؟ ضد الهداية ليس شيئًا واحداً، ولذلك قال سبحانه وتعالى في هذه الآية –وأنا اسمي سورة «النجم» أسميها سورة «العلم» لأنها أرست قواعد العلم وهذا قد كتبته يرجع إليه إن شاء الله– فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، الظن يتعلق بمعرفة العلم أو عدم معرفته، ومستوى معرفته.

فلو أن رجلاً يعلم الشيء على خلاف ما هو عليه، هذا ظن، أو أنه جاهلٌ لا يعرفه، لأن الأول هو جهلٌ مركب، أن يعرف الشيء على غير ما هو عليه، هذا جهلٌ مركب، وهو يظن يعرف، لكنه يعرف الباطل ولا يعرف الحق، ويظن أن الباطل هو الحق، هذا جهلٌ مركب، والجهل البسيط ألا يعرف، إذا سُئل يقول: لا أدري لا أعرف، ولكن الأول إذا سؤل يجيب ويظن أنه يجيب بالحق، وهو لا يجيب بالحق يجيب بالغلط وبالباطل، فهذا هو الظن.

وفي الثاني: قال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وليس هذا سبب الفساد، سبب الفساد قد يعرف الحق، الأول يظن أن الباطل الذي معه هو الحق، أو أنه لا يعرف، القسم الآخر – وهذا في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الفاتحة: ٧]– ولكن بعضهم وهم الأغلب يعرفون الحق، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ [الأنعام: ٣٣]، وكما قال سبحانه وتعالى في سورة «العنكبوت» ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)﴾ [العنكبوت: ٣٨]، ماذا يعني مستبصرين؟ أي يعلمون الحق، ولذلك قال سبحانه وتعالى عن فرعون: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ

يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠١-١٠٢]، يعني أنت مبصر لهذا الحق كما أنا أبصره، وتعلم ما أنا عليه من الحق كما أنا أعلمه.

فهؤلاء إذن ما الذي منعهم اتباع الحق بعد معرفته؟ الهوى، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم: ٢٣] ما الذي يقابله؟ لا يقابله شيئان! يقابله شيء واحد، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)﴾ [النجم: ٢٣]، فالهدى يقضي على الظن لأن هو حقٌ بذاته والهدى هو توفيق الله عز وجل في القضاء على الهوى، يمنع الهوى، هذا القرآن لا يعرفك الحقيقة فقط ولكنك إذا دخلت فيه كشف لك كيف تسلك طريق الحق بعد معرفته كذلك.

من هنا تكون قراءة القرآن قاضية على الهوى كما هي قاضية على الظن، هي تقضي على الجهل كلما قرأت القرآن، قال صلى الله عليه وسلم: (يُقالُ لصاحِبِ القرآنِ: اقرأ وارتَقِ)، مع القرآن ترتقي إرادتك، وفي الحديث الذي يقرأ القرآن وهو ماهرٌ به يكون صاحبًا لنوعٍ آخر من الخلق، هم من؟ هم السَّفَرةِ الكِرامِ البَرَرةِ وهم الذين لا يعصون الله ما أمرهم، قال صلى الله عليه وسلم: (الذي يَقرَأُ القُرآنَ وهو ماهِرٌ به مع السَّفَرةِ الكِرامِ البَرَرةِ، والذي يَقرَؤُه وهو يَشتَدُّ عليه فله أجْرانِ)، انظر كيف يرتفع، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في حديث حنظلة: (لو تبقون كما أنتم عندي لصافحتكم الملائكة في الطرقات وعلى الفرش)، شوف الصحبة أين تذهب؟ هذا كلام النبي صلى الله عليه وسلم، هذا ليس كلام تهويمات ذهنية وكلام دراويش، هذا كلام الحق، هذا كلام النبي صلى الله عليه وسلم، (تصافحكم الملائكة) هكذا تكون صحبتك.

وقال صلى الله عليه وسلم: قال تعالى: (أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي، وأنا معهُ إذا ذَكَرَنِي، فإنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وإنْ ذَكَرَنِي في مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ في مَلَإٍ خَيْرٍ منهمْ، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ بشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ ذِراعًا، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِراعًا تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ باعًا، وإنْ أتانِي يَمْشِي أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)، أنت تصبح مذكورٌ عند الله عز وجل، هذا هو العلم، هذا هو أساس الحق.

إذن الهداية هنا، هذا الذي ذكرنا، إما هداية قدرية على معنياها، وإما الهداية التشريعية، والعبد يسأل ربه هذه الهداية فيقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وهذه قطعًا أنه لا يسأله الهداية القدرية بالمعنى الأول، لأن هذه هدايةٌ يصاب بها البشر عطاءً من الله، ويصاب بها المؤمن والكافر، المؤمن يرى ويبصر بعينه، والكافر يبصر بعينه ويسمع بأذنه، فهذه هداية قدرية، واذا وقع تخلف نعمة من هذه النعم يكون هذا الابتلاء، وعلى المرء أن يصبر، على المؤمن أن يصبر، والكافر يعني بلاء من الله فوق بلاء عليه، وأما المؤمن فقوله صلى الله عليه وسلم: إنَّ اللَّهَ قالَ: (إذا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بحَبِيبَتَيْهِ، فَصَبَرَ؛ عَوَّضْتُهُ منهما الجَنَّةَ) يُرِيدُ عَيْنَيْهِ.

إذاً ماذا يطلب العبد في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؟ هل يسأل الله سبحانه وتعالى أن يعرف علمًا ما هو؟ أن يعرفه إياه؟ أيقول: ﴿اهْدِنَا﴾، هل بمعنى دلنا؟ لأن المعنى الشرعي؛ دلنا على الصراط المستقيم، عرفنا إياه، ما هو؟ هذا معنى صحيح، وهذه الأمة مهدية في هذا الباب، والدليل هو التالي، في الحديث، وسأذكر نصين وإن كان هناك كذلك أخبارٌ أخرى تدل على هذا المعنى، النص الأول يتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم والنص الثاني يتعلق بهذه الأمة، لما عُرض على النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة الاسراء والمعراج، لما عرض عليه الماء –كما ورد في بعض الروايات– لما عرض عليه اللبن والماء والخمر، وأنت تقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، لذلك ميزه، قال تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الفاتحة: ٧]، فاذا كان المقصود وهو اختيارك أنت، هل هذا الاختيار الذي تقوم انت به، له دورٌ في حياتك، وفي الشريعة التي تنزل عليك.

النبي صلى الله عليه وسلم لما أسري به في ليلة الاسراء والمعراج عرض عليه اللبن والماء والخمر، فماذا اختار النبي صلى الله عليه وسلم؟ اختار اللبن، ماذا قال له جبريل عليه السلام؟ قال: (اخترت الفطرة، ولو اخترت الخمر غوت أمتك)، السؤال ما هي العلاقة بين اختيار النبي صلى الله عليه وسلم، يعني هنا هُدي، النبي صلى الله عليه وسلم هل هو فعلها من جهة نفسه دون هداية من الله أم هي هداية من الله؟ بهداية من الله، (لو اخترت الخمر غوت أمتك)، فكان اختيار النبي صلى الله عليه وسلم هو اختار أمراً لم يكن فيه تشريع، يعني الخمر ما زال لم يحرم، فكلاهما مباح، ولكن هذا الاختيار الذي وقع بهداية الله له كان له تأثيرٌ في وقوع الشرع عليه، من أين جئنا بهذا؟ في المثال الثاني، قال: (غوت أمتك) هذا موضوع الآن يبينه.

كيف وقعت صلاة الجمعة؟ هل وقعت ابتداءً بالتشريع أم وقعت بالاختيار؟ يعني الصحابة لما اختاروا يوم الجمعة من أجل أن يجتمعوا فيها؟ هل جاء الشرع قال لهم: جمعوا يوم الجمعة، جمعوا: أي صلوا الجمعة، الحديث لسعد بن زرارة رضي الله عنه الشهير، أنه جمعهم سعد بن زرارة رضي الله عنه وهو أول من جمع الصحابة في المدينة، ومن غير إخبار السماء، ومن غير التشريع، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (اختار اليهود يوم السبت، واختار النصارى يوم الأحد واختار المسلمون يوم الجمعة، وفيه ساعة إجابة)، انظر هذه الهداية! هل لما اختار اليهود يوم السبت عوملوا به شرعاً؟ قال لهم: قبلتم الاختيار وأنا أعاملكم به شرعًا، وقع أم لم يقع؟ وقع، فلما اختاروا يوم السبت وقع لهم شرعاً، ولما اختار النصارى يوم الأحد وقع لهم شرعاً، ولما اختار الصحابة يوم الجمعة وقع لهم شرعاً، فصارت أحكام الجمعة، فمن الذي وفق وهدي إلى اليوم وهو غرة أيام الأسبوع ألا فيه ساعة إجابة وفيه خلق أدم وفيه خرج من الجنة وفيه تقوم الساعة، فمن اختار اليوم الأفضل في أيام الأسبوع؟ المسلمون، فهذه هداية.

فهل عندما يقول العبد: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، يعني هل يا ربنا اهدنا من الشرائع ما هو خلاف ما عليه اليهود والنصارى المغضوب عليهم والضالين، على هذا المعنى الذي ذكرناه؟ الجواب: نعم، أنهم يطلبون من الله عز

وجل أن يعرفهم الصراط المستقيم، من هو الصراط المستقيم يوم الجمعة أو يوم الأحد أو يوم السبت؟ ما هو الصراط المستقيم في اختيار التعبد في يوم من الأيام والعمل به على وفق العبادة التي يفرضها الله عز وجل ويسنها النبي صلى الله عليه وسلم لأمته في يوم الجمعة؟ هو هذا الذي يحقق هذا الأمر.

فالعبد من الناس يسأل الله عز وجل يقول: ﴿اهْدِنَا﴾ –هذا في زمن النبي– أي اهدنا من الشرائع التي توافق فطرة الحق، وحتى تفهم أكثر هذه الصورة، هل هناك شرعٌ –الصراط المستقيم هو على معنى الشرع– هل هناك من التشريع ما فرض على الأمم السابقة ليس لأنه في نفسه حلالٌ وحرام –الحلال والحرام يعني أنه طيب وخبيث– هل هناك شرعٌ وقع على الأمم السابقة على غير هذا المعنى؟ التي حرمت عليهم، هناك من المحرمات على الأمم السابقة لماذا حرمت عليهم؟ عقوبةً لهم، لما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، هذا التشريع هل هو لأنه الحق في ذاته أم أنه عقوبة لهم؟ ما هو الأرحم؟ هو ما نصنع نحن وهو التوبة ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾، انتهى، نتوب، أخرج من معصيتك.

فهناك من الشرائع ما فرضها على اليهود والنصارى وهي ليس على أساس ما هي فيها من الحق ولكن على أساس العقوبة الشرعية الموافقة لحالهم القدري، والدليل أنه إذا أخذنا ببعض وجوه التفسير أنهم لما قال سبحانه وتعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، لو أنهم قالوا: سمعنا وعصينا لألزموا بهذا الحكم –على إحدى وجوه التفسير– لألزموا بهذا الحكم عقوبةً لهم، وبالتالي سار هذا في أمته على قول جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم: (لو أخذت الخمر غوت أمتك)، فالأمم تتبع بعضها بعضاً.

والذين عاقبهم الله عز وجل في التيه ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة: ٢٦]، هل هي حرمت فقط على الجيل الذي عصا أم على الجيل الذي عصا والذي تلاه، أربعين سنة؟ على الأبناء، فالعقوبات القدرية تسري في الأمم، والعقوبات الشرعية تسري في الأمم، بغير الإثم، فالإثم لا يسري إلا على فاعله، لكن العقوبات القدرية تجري والدليل نحن بما نحن فيه، العقوبات القدرية تجري، والعقوبات الشرعية تجري، يعني من الذي عصا في بني اسرائيل؟ الأوائل، فكيف جرت بعد ذلك؟ على الأبناء، وبقيت فيهم لأنهم هم عصوا في الابتداء، وبالتالي قول العبد من المؤمنين في الصلاة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، يحتمل هذا المعنى، وهذا من رحمة الله، أن هذه الأمة هديت إلى الصراط المستقيم، أي جاءها من الشرائع ما وافق الحق في نفس الرب مما يحب ويبغض، فالله يحب هذا قال: لهم هذا حلال، وأبغض هذا قال: لهم حرام، وليس لاعتبار أخر، فهذا الصراط المستقيم على هذا المعنى، يبقى المعنى الثاني،

المعنى الثاني في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وهو الهداية القدرية التي هي الاستعانة، التي هي التسديد، التي هي التوفيق، فهل هذا من السؤال يقول: يا رب: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾، لأن هذا بدل يعني ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ثم بين ما هو ضده وهذا من أجل بيانٍ جليٍ عظيم واضح، هذا الصراط هل هو توفيق؟ الجواب: نعم، وهذا يحتاج مزيد بيان في معنى كون قول العبد: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، المقصود به كذلك الهداية التوفيقية.

وقد يعترض المعترض ويقول: كيف هداية توفيقية وأنت تقول: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؟ هنا لا بد من بيانٍ مهم، مهم جداً في هذا الباب، وهو أن أولاً: الهداية التوفيقية –التسديدية– هذه لا تقع إلا بعد وقوع الهداية الإرشادية، يعني أنت تقول: يا رب أعني على الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم، مع وجود هدايةٍ تشريعية، وقد انتهينا من الهداية التشريعية أي بينا وجهها، لكن هنا يقول العبد: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هداية توفيقية، فإذا صح هذا كيف يقول: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؟ لا يريد طريق المغضوب عليهم، هو أعطاك الكتاب غير المغضوب عليهم، فكيف يصح؟ مفهوم الاعتراض؟ أعيده:

يقول المفسر: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ المقصود به الهداية التوفيقية، ذكرنا الهداية التشريعية مع وجود الكتاب فقد هدية الأمة، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فقد هديت بالتشريع؛ لما وافق من نفوسها من الحق، وما وافق نبيها صلى الله عليه وسلم، فالله عز وجل وفق نبيها وهذا من فضل النبي صلى الله عليه وسلم علينا، لكن الآن نأتي إلى الهداية التوفيقية، يقول المقصود بـ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي قونا احمل إرادتنا على الصراط المستقيم، كقول ابراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠]، فهذه هداية وهداية توفيقية وكذلك بعث للإرادة، هذه لا يمكن أن تكون إلا بعد وجود الهداية الإرشادية، الكتاب، فكيف يستقيم هذا المعنى مع قوله بعد ذلك: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾؟ فأنت تطلب طريقهم والطريق موجود.

يعني هذا كأنك تقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ويجوز أن تقول هذا أي يا رب احملني على الصراط المستقيم ولكن ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، بيّن، فكأنك تسأل شيئاً موجوداً أنت تقول اهدنا القرآن والقرآن موجود، فصراط الذين أنعمت عليهم ما هو؟ طريقهم بينت في القضية الإرشادية، فإذا كانت توفيقية فكيف تجعلها محمولة على قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الفاتحة: ٧]؟

هنا نأتي فقط إلى حالة تبين هذا الاعتراض، وهو هل ضل النصارى وغضب الله عز وجل على اليهود مع وجود الكتب بين أيديهم؟ –لأن الضالين النصارى والمغضوب عليهم اليهود، وهذا فسره النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا من تفسير القرآن بالسنة– فهل ضلوا وخرجوا عن هداية الطريق المستقيم مع وجود الكتاب؟ إذن: نعم، إذن ما الذي تطلبه مع وجود الكتاب؟ هو أن تُحمل عليه حقاً، لأنك تقول: يا رب احملني عليه حقاً كما حملت النبي محمد صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم من قبل عليه، ولا تحملني على هذا الكتاب كما حملت الضالين والمغضوب

عليهم على كتبهم، وكأنك تقول: إن إدراك ما في الكتاب –هذا الكلام عن صورة أخرى الآن– إن إدراك العبد لما في الكتاب بعيداً عن سبيل الضالين والمغضوب عليهم؛ إن حملك على هذا يحتاج توفيق إلهي ويحتاج إلى علمٍ خاص فلا يكفي أن يكون بين يديك الكتاب الإرشادي، لا بد أن يكون في قلبك هداية تتغلغل معك وبك في هذا الكتاب لتصل به إلى حقيقته.

ونحن قلنا أول هداية إرشادية سألت الله اهدني الصراط المستقيم على المعنى الذي ذكرناه الإرشادي، والآن كيف هداية توفيقية؟ وكيف هداية توفيقية وهو موجود؟ فإذا كانت هداية توفيقية فلا يصح أن تقول: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؟ نقول: نعم، المغضوب عليهم كان عندهم الكتاب وكان بين أيديهم ولم يحصل لهم الهداية في الحمل عليه، الهداية التي بها التوفيق والتسديد للقيام به، فأنت تسأل الله سبحانه وتعالى أن يحملك على هذا الكتاب حملاً صحيحاً وهو صراط الذين أنعم الله عليهم، بعيداً عن صراط ما تعامل به أهل الكتاب مع كتبهم، بعيداً عنهم.

وهذا أيها الإخوة الأحبة يبين أن الكتاب يحتاج إلى هداية، يحتاج إلى أن تدخل فيه دخول الطلب، طالب الهداية، وأنه يمكن وهذا نقوله: وإن منع الله من أن يحرف الكتاب –أن يحرف لفظه– لكن لم يمنع الله عز وجل من أن يحمل كلامه على الباطل، والدليل قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧]، أنت تسأل الله أن يعافيك من هذا الزيغ، لئلا لا تحمل على هذا الكتاب فلا تخرج به إلا بالباطل، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ﴾ من أجل أن يوافق الهوى، ﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾ هنا يتبعون ما في هذا الكتاب، لكن يتبعون المتشابه، يعني الذي يحتمل معاني عدة، فلا يأخذون منه إلا المعنى الذي يوافق زيغهم، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧].

فإذن أنت تسأل الله عز وجل في ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، أن يدلك على الحق، وهل هذا ما زال موجود؟ هل أنت ما زلت تسأل الله أن يدلك وأن يرشدك على الحق؟ أليس من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم يا عبد الله في قيام الليل، بماذا كان يستفتح النبي صلى الله عليه وسلم من صلاة الليل؟ بقول: (اللهم رب جبرائيل واسرافيل وميكائيل، عالم الغيب والشهادة، فاطر السماوات والأرض، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اللهم اهدني لما اختلفوا فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم)، أنت ما زلت في هذا اليوم بحاجة إلى أن تعرف الهداية، فأنت تسأل الله هذه الهداية؛ لئلا لا تشابه اليهود والنصارى.

وكما قال شيخ الاسلام رحمه الله: «ما ضل عابدٌ إلا وشابه النصارى، وما ضل عالمٌ إلا وشابه اليهود»، ضلال علمائنا بمشابهة اليهود المغضوب عليهم يعرفوا الحق ويزيغوا، ضلال عُبادنا بالجهل لا يعرفونه، والقرآن بين أيديهم والسنة بين أيديهم، فأنت تسأله الله عز وجل: يا رب دلني على الحق، والآن أنتم ترون هذا التنوع في الدعوة والدعوات

والاختلاف فيها والقتال حولها، فأنت بحاجة إلى أن تتعلم الحق، بحاجة أن تعرف الحق، فأنت تسأل الله عز وجل: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فإن علمته سألت الله أن يقيمك عليه، وأن يعينك عليه على ما تقدم من ذكره، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: –شيخنا السؤال من دروس فائتة– عندما ذكرت عن أهل العلم، فأرجو منكم ذكر من هم أولو العلم وما هي صفاتهم وما ينطبق عليهم هذا الوصف، خاصةً ما نراه من كثير ممن ينسبون إلى أهل العلم من علماء الطواغيت وغيرهم من الغلاة؟

الشيخ: نرجع إلى القرآن، القرآن يقرر من هم أهل العلم، وأهل العلم ذكروا في مواطن، مثلاً في قوله في سورة القصص، لما خرج قارون على قومه، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩)﴾ [القصص: ٧٩]، من الذي أجابهم على هذا؟ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠]، فهؤلاء هم أهل العلم، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]، فأهل العلم هم أهل الإيمان بالآخرة، أهل ذكر الدار الآخرة، معاييرهم في الحق والصواب هو مقدار ما يقربهم إلى الله عز وجل، هؤلاء هم أهل العلم، أهل العلم هم الذين علموا الكتاب على ما هو عليه على طريقة ما فهمه الصحابة، وعلموا السنة على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العمل، والإتباع لها على ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم.

وهنا النقطة: لا يستطيع أحد أن يقول أنا على ما عليه الصحابة رضي الله عنهم، هم يقولون: نحن نتبع الكتاب والسنة، لكن الكثير يقولون هذه الأيام: نتبع الكتاب والسنة على طرائق جديدة وعلى فهمٍ جديد وعلى تفسيرٍ جديد، فلو أنهم أرادوا الكتاب والسنة التي هي الحق لكانت صورتهم هي صورة الصحابي، هي صورة التابعي، هي صورة العلماء كما نعرفهم في التاريخ، فإذا تمثلت فيهم الصورة هذه من العلم واتباع الحق والصبر عليه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر: ١-٣]، فمن وجدت فيه هذه الصفات يكون عالماً، وهذا هو الذي يتبع.

وهذا الأمر أيها الإخوة الأحبة لا ينبغي فقط أن تأخذوه على أنه مجرد شهادة تُملئ بها الخانات صح خمسين في المية ستين في المية، ليس الامر كذلك، يعني البعض يريد مني ويريد من الناس أن نضع له «كتالوج»، من هو العالم؟ فيقال: فلان، ما هو شأنه؟ يقول: كذا، صح خمسين في المية ستين في المية أربعين في المية، وبعد ذلك يخرج بنتيجة عالم أو غير عالم، العلماء ليسوا هكذا، العلماء في تاريخنا مسألة قلوب.

لما هارون الرشيد جالس مع زوجته زبيدة وكان يزيد بن هارون في مجلس من مجالس العلم فعطس فحمد الله، فشمته أهل المجلس، شمته، فصراخ كبير، مئة ألف يجلسون في حلقة تحديثه، فضجت بغداد، فسألوا من هذا قالوا هذا يزيد عطس فحمد الله فشمتوه، فقالت زبيدة لزوجها هارون الرشيد: والله لست أنت السلطان هو السلطان.

وعبد الرزاق الصنعاني لما حج، فأول يوم جلس ما جاء أحد للسؤال ولا سمعوا حديثه، في اليوم الثاني كذلك ما جاء أحد يسمع حديثه، في اليوم التالي وقف في الليل قال: يا رب أأنا كذاب؟ لا يُسمع لي؟ فتدافع عليه الناس في ثالث يوم، تدافعوا عليه حتى امتلأ مجلسه، من الذي قذف في قلوب الناس محبة هؤلاء؟ الله عز وجل لما يعلم عندهم من الحق، ولما يعلم عندهم من الصدق ولما يعلم عندهم من اليقين، بما أجمع الناس الصحابة على أبي بكر رضي الله عنه، بما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يأبى الله ورسوله والمؤمنون)، بما جمع الله عليه القلوب؟ لأمرٍ فيه، هذا تكلمناه لما تكلمنا على الإمام النووي، لم أحب الناس كتبه؟ لسرٍ فيها، بما تنتشر كلماته؟ بسرٍ فيها.

ولذلك مسألة العلماء ليست شهادات تعطى لهم هذا عالمٌ وهذا جاهل وهذا شيخ... ليس هكذا، هذا فقط من أجل الصورة الظاهرة، وأما فحقيقة الأمر هو قذفٌ في قلوب الناس لإتباع واحد، كيف يحبونه؟ كيف يحب هذا العالم؟ لو ذكر هذا العالم هل يحب، ما الذي يحبه الصالحون؟ يبغضه من؟ من الذي يتقرب إليه؟ من الذي يدعوا له؟ من الذي يتبرأ منه؟ هذا هو ميزان، وهذا الميزان يجب أن ننتبه له، ويكفي لهذا، وأما التعريف بالعلماء الربانيين فله شأنه الأكبر ولكن أنا اقتطف الأهم إن شاء الله في هذا الباب.

السائل: ما الذي تنصح به من ينظر في «السنن الكبرى» للبيهقي وقد نصحتم بها طويلب العلم، وسؤال آخر: هل سقي الزرع من مياه المجاري جائز؟

الشيخ: أما «السنن الكبرى» للبيهقي فهذا هو كتاب الفقه، فيقال بأن الإمام الشافعي رحمه الله له يدٌ على كل عالم، والبيهقي له يدٌ على الشافعي، وذلك لأنه خدم مذهبه، وكتاب «السنن الكبرى» للبيهقي هو من أركان كتب أهل العلم الحديثية، أي إذا أراد طالب العلم أن يكون عالماً لا بد أن يقرأ هذا الكتاب قراءة طالب علم، ليس قراءة مرور فقط كأنه يقرأ القصة أو جريدة، ولكن يقرأ لأن هذا الكتاب شاملٌ لأدلة الإمام الشافعي رحمه الله في المسائل، ولغيره، فعليه أن يقرأه، والكتاب فيه الصحيح وفيه الضعيف بلا شك، «السنن الكبرى» للبيهقي لم يشترط الصحة ولكنه ذكر فيه أدلة الفقهاء في المسائل وخاصةً أفعال الصحابة وأقوال الصحابة رضي الله عنهم، أما كيف أنصح؟ أنصح أن يجتمع طلاب علم على عالم ويقرأه لهم ويبين ما فيه من أحاديث موثقة وأحاديث ضعيفة وكذلك أخبار الصحابة وأحكام الصحابة رضي الله عنهم، يعني هذا الذي أستطيع أن أقوله فيه.

وعلينا أن نجتنب ما علق به التركماني، التركماني في تعليقه على البيهقي كان متعصباً حنفياً وقع في أخطاء يعرفها طلبة العلم، ووقع في معيبة على الكوثري في بعض مسائله في نقضه لكتاب «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي، يكفي هذا وإلا نحن نعطي فقط مدخل والبقية عندكم لطالب العلم يعرفها أهل الشأن فيه.

أما عن سقي الزرع بمياه المجاري، فالصواب أن هذه لا أحرمها لكنها مكروهة على قاعدة الجلّالة، وهي الدواجن التي تأكل العذِرة، الدواجن كالدجاج والحيوانات والغنم التي تأكل العذِرة، النجاسات، فهذا حكمها أنها مكروهة وعلى أهلها أن يطيبوها بالحبس على النجاسة حتى تطيب، وكذلك المزروعات فإذا كان اعتمادها على المجاري الصافية وليس على الأنهار التي يختلط فيها النجاسات وغيرها فتغلب الماء عليها، أما إذا اقتصرت على المجاري فهذه مكروهة، هنا انتهينا هذا حكمها كالجلّالة عند جمهور أهل العلم.

ولكن كذلك هنا مسألة وهو أن العلم يثبت أن قيام المزروعات على النجاسات يؤثر فيها، يؤثر في طعمها ويؤثر في شرها، يؤثر في مفاسدها وهكذا، فتجتنب هذه لأنها مكروهة إلا أن تنقى، يعني كيف تنقى؟ كما أن الجلالة تحبس فلا تطعم إلا الطيب وكذلك لو كانت هناك مجاري تمشي على الأشجار كالعنب وغيره، فتحبس هذه المجاري، وتسقى بالماء الطاهر النقي، فحينئذٍ جاز ذلك وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين وجزاكم الله خيراً.

السائل: لو أن عاميًا تتبع أقوالاً صحيحة في المذاهب، لكن بحث عن الأسهل بكل مذهب وأخذ به هل يعتبر هذا زندقة؟

الشيخ: نعم، الأخذ بالرخص هذا فعل المبطلين، تتبع رخص العلماء زندقة، هذا تحلل من الدين، لأنه يذهب إلى المذاهب ولا يبحث عن الدليل ولكن يبحث عما يسقط عنه التكليف، الرخص يعني إسقاط التكليف، لو جاء مثلاً يذهب إلى المذاهب فيقول هناك من يقول لا زكاة في التجارة، وعامة الأموال التجارة، اليوم ما في مزارعين إلا القليل، في البلاد لا يوجد زراعة، فيقول أنا لا أتصدق، طبعاً هو مال القنية ليس عليه زكاة، مال المصانع كحمار الكراء ليس عليه زكاة، ومال التجارة ليس عليه زكاة فلا يزكي، المهم لا يزكي، ثم يأخذ القول في الذهب، حُلي النساء، القول الذي يقول: لا يوجد زكاة على حُلي النساء، تجارة ما فيها زكاة، حُلي النساء ما في عليه زكاة، هذا خلاف، وأخذ بالأسهل، وأخذ بالإجماع أن مال القنية ما عليه زكاة، السيارة واللباس وهكذا، وحمار الكراء ليس عليه زكاة، يعني المصنع والسيارة العاملة إلى آخره، إذن انتهت الزكاة، يحول ماله إلى ذهب لزوجته لكي يسقط الزكاة.

ومثلاً يأخذ بأقوال العلماء في الحج، يقول الترخص بأن الحج ليس على الفور ولكنه على التراخي، ويكون عنده المال والقدرة وغير ذلك ويُسهل له الطريق ومع ذلك لا يحج حتى يموت، وأقول أنا على التراخي حتى يأتي ثم تدهمه الأمراض أو تمنعه الموانع، فسقطت انتهى، ثم يأخذ بالصوم ويأتي إلى أقوال في الصوم ضعيفة وغيرها ويتلقى، وهكذا،

فحينئذٍ هو يتخفف من الأحكام الشرعية ويهرب منها، فهذا في الحقيقة زندقة كما ترون هو إسقاط للأحكام الشرعية والخروج منها، لكن من يختار من أقوال العلماء ما عليه الدليل، فهذا هو الطريق العلم الصحيح أما تتبع رخص العلماء وزلات العلماء فهذا زندقة كما قال علماؤنا.

السائل: يقول أخ: أنهيت دورة شرح الدرر المضية والإيمان والفرق، ما هي الدورات القادمة التي تنصحون بها؟

الشيخ: يعني الدورات كثيرة، هناك دورة التوحيد، شرحت قطعة منه حتى وصلنا إلى السمعيات في كتاب «شرح العقيدة الطحاوية»، شرحت «شرح موقظة» للإمام الذهبي، وشرحت قطعة من «تقرير القواعد» للإمام ابن رجب، إذًا في التفسير يا مشايخ.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الحادي عشر

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

مازلنا أيها الإخوة الأحبة وهذا هو الدرس الحادي عشر من دروس التفسير ومازلنا مع سورة «الفاتحة» وعند قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦]، وتقدم القول في ﴿اهْدِنَا﴾: بأنه ربما تكون الهداية هدايةٌ قدرية، وهو الذي يسمى بالإلهام، بعض أهل العلم يسميه بالإلهام، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾ [طه: ٥٠]، أي هدى خلقه لما خُلق له، فالله عز وجل أعطى اليد لهذا الإنسان وهداها لما خُلقت له، وهي القدرة والحمل والضرب والدفع إلى غير ذلك، العين، البصر، الحيوانات كما أوحى الله عز وجل لها؛ فهي خُلقت لأمرٍ وهديت له، فهذه هدايةٌ قدرية.

وهذا ليست مقصودة، لأن هذه الهداية القدرية شاملة لعموم الخلق، فتعطى للمحسن وللمسيء، فالكافر مهديٌ هداية قدرية باعتباره إنساناً يأكل ويشرب وتتحرك جوارحه وهكذا، والحيوانات كذلك، فهذه ليست مقصودة فلا تطلب لأنها من الكون القدري في إعمال المخلوق لما خُلق له، فالله سبحانه وتعالى لا يخلق مخلوقاً ثم ينزع منه سبب خلقه، وعلة خلقه، لا ينزعه منه وإلا لتعطل الوجود، لكن ما يخلق الله سبحانه وتعالى من أمور ومن صفات ومن وجود يتعطل فيه الخلق إنما هو محنة.

فالله عز وجل خلق العين للبصر، فهديت للبصر، هداية العين بعد خلقها أن تبصر، لكن هذه قد تُعطل فيكون صاحبها أعمى امتحانًا له وعبرةً لغيره، الله عز وجل يمتحنه ليصبر أو لا يصبر، وعبرةً لغيره من أجل أن يحمد، من أجل أن يتفكر، وتنوع الخلق أيها الإخوة الأحبة دليلٌ على قدرة الخالق جّل في علاه، التنوع دليل على قدرة الخالق سبحانه وتعالى، ووحدة الخلق دليلٌ على وحدانية الخالق جّل في علاه، هذا اجتماعٌ غريب لا يقدر عليه إلا الله عز وجل، ما هو؟ أن الخلق على معنًا واحد.

فمثلاً: الإنسان مخلوق من الخلية الحيوانية، الحيوان مخلوق من الخليلة الحيوانية، كلها خلايا حيوانية، فكلها مخلوقة من نوعٍ واحد، يتنوع ما فيه من الأعراض ولكن أصل الوجود واحد، وهذا دليل على ماذا؟ دليلٌ على وحدانية الخالق، فلو خلق الإنسان إله، وربٌ، وخلق الحيوان ربٌ آخر؛ لتنوع الخلق، لكان له صفة على غير الخلقة التي خلق عليها،

لكن الإنسان مخلوق من خلية، الحيوان مخلوق من خلية، الشجر مخلوق من خلية، تختلف لكنها خلية، فهذه الوحدانية في المخلوق تدل على وحدانية الخالق، العين مخلوقة من خلية، واليد مخلوقة من خلية، خلية العين غير خلية اليد، خلية اليد غير خلية الدماغ، لكنها خلية، فوحدة الخلق دليلٌ على وحدانية الخالق، هذا الآن فهمناه شيء واحد في أصله، ثم تنوع فدليلٌ على القدرة.

فلو لم يخلق ربنا سبحانه وتعالى إلا شيئاً واحداً لقال القائل: إن الله لا يستطيع أن يخلق إلا هذه الصفة، فلما تنوع الخلق بعد أن كان في أصله واحد، دليلٌ على وحدانيته، تنوعت هذه الوحدانية دليلٌ على قدرته، فهو الواحد الخالق، وهو القادر سبحانه وتعالى الذي خلق.

وتنوع الخلق مذكورٌ كنعم في القرآن، وابن القيم رحمه الله يجعل سورة «النحل» قال: فيها أصول النعم، ولذلك ذكرت كلمة نعمة في سورة «النحل» أكثر من إحدى عشرة مرة أو أزيد، مذكورة في سورة واحدة، لأن أصول النعم مذكورة في هذه السورة، ولم تذكر بصيغة الجمع، ليست بصيغة نعماءه ولا بصيغة نِعم، ولكن جاءت بصيغة نعمة، وهذا دليل عند أهل البلاغة على أن الإفراد مرات يكون فيه الكثرة، الإفراد نعمة وإنما يراد به الكثرة، هذا من أدلة ما يقول أهل البلاغة أن الإفراد لا يكون دليلاً مرات على القلة بل هو في أكثر المرات دليلٌ على الكثرة.

ولكن هنا ﴿اهْدِنَا﴾ يبقى لها حالتان:

الحالة الأولى: وهو الإرشاد، وهذا تقريباً إطباق أهل التفسير عليه، أن المقصود بـ ﴿اهْدِنَا﴾ أي أولاً الإرشاد أي أرشدنا للصراط المستقيم، وتكلما في الدرس السابق عن عوارض هذا المعنى ورددنا على على هذه العوارض، وقلنا: كيف يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهو مهديٌ بالقرآن؟ فرددنا على هذه فالمقصود ﴿اهْدِنَا﴾ أي أرشدنا، وهذا المطلوب ليس فقط عند أصل التشريع الذي جاء به رسولنا صلى الله عليه وسلم، لا، هو مطلوبٌ في كل وقت.

فأنت الآن لك أن تطلب بل عليك أن تطلب، بل من هذه الفاتحة تدعوك أن تطلب أن يرشدك الله عز وجل إلى الصراط المستقيم، أي إلى العلم الحق الذي هو عند الله عز وجل ومن عند رسوله صلى الله عليه وسلم، ذلك لأن الفتن كثيرة وفي كل زمانٍ، في كل زمانٍ تحدث الفتن ويحتاج الناس فيها إلى هداية إرشادية، وأنتم تعلمون ما حدث عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وحدث ما حدث من وفاته فكاد الناس أن يفتنوا حتى قال بعضهم: لم يموت ولكنه ذهب إلى ربه وسيعود، وغير ذلك مما قاله الصحابة رضي الله عنهم، ولكن هُدي إلى ما كان موجوداً ولكنه غاب عند الفتنة والغمرات.

ومن هنا أيها الإخوة الأحبة يمدح أهل العلم الكبار بأنهم أنزع الناس لآية، ما معنى أنزع الناس لآية؟ هذه ليست قضية سهلة، يعني المرء يحفظ القرآن، لكن عند وجود الحاجة لآية من القرآن أن يستدل بها المستدل تلك مزيةٌ عظيمة، ماذا قال عمر لما قرأ أبو بكر رضي الله عنه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، كم مر عليها عمر رضي الله عنه على هذه الآية؟ الكثير، وكان يحفظها وعمر رضي الله عنه من حفاظ كتاب ربنا، وكان يقرأ على المنبر على الناس بسورة «النحل»، ويؤم بهم بسورة «يونس» وسورة «يوسف»، يفتتح بسورة «يوسف» ثم بسورة «يونس»، وكان يحفظ كتاب ربنا، هذا الإمام العظيم، ولم تخطر على باله عند حدوث النازلة، والسبب إما أن المصيبة كانت عظيمة فأذهلته عنها، وهذا وجه، ووجه آخر ربما يمر المرء على الآية ولا يستنفذ كل أغراضها.

فالحفاظ يحفظون الآية لكن لا يستنفذون كل أغراضها، وهذا معروف، وكيف كان يتميز العلماء في الدراية، كلهم يحفظون الآية وكلهم يحفظون الحديث، ولكن من هو الذي يتميز في غوصه إلى المعاني التي يريدها الله عز وجل من هذا الآية؟ ليس كل واحد، فهذا يحفظه وهذا يحفظه، لكن الذي يستنبط غير الذي لا يستنبط، فربما عمر رضي الله عنه من شدة البلاء نسيها، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد مات، فنسيها، وربما كان يمر عليها ولا يستنبط منها ما أخذ أبو بكر رضي الله عنه منها، ولذلك لما قال، قال: «كأنني لأول مرة أسمع هذه الآية»، مع أنه يحفظها.

ولذلك أنزع الناس لآية، وهذا وصفٌ كان جلاً في الصديق رضي الله تعالى عنه، ثم وصف به الإمام مالك رحمه الله، الإمام مالك رحمه الله وصف بأنه أنزع الناس لآية ووصف به كذلك ابن تيمية رحمه الله، والناس يحفظون الحديث والقرآن ولكن الذهبي يصف ابن تيمية رحمه الله قال: «كأن القرآن والسنة بين عينيه»، والمرء يتكلم فتذهب عنه الآية ويذهب عنه الحديث، يذهب عنه بيت الشعر، ولكن الله عز وجل يعطي أقوامًا هذه المزية، هذه مزية عظيمة.

والقصد هنا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ من هداية الإرشاد هو أن يعلمك الله عز وجل ما تحتاج من الحق عند حضور النوازل، لما تحدث الفتن ما هو الحق؟ ما هو الصواب؟ هذا من الهداية، القرآن يدلك عليه، السنة تدلك عليه، وربما غابت عنك السنة فأنت تقول: اهدنا الصراط المستقيم، وربما غابت عنك الآية فتقول: اهدنا، علمنا أرشدنا هذا الحق في هذه النازلة، أرشدنا ما نحتاجه من العلم في هذه النازلة.

ولذلك الذين يأخذون العلم هم أكثر الناس إصابة لهذا الدعاء، لماذا؟ لأنه قد تحقق فيهم أن هداهم الله عز وجل إلى الصراط المستقيم، الجهلة لا يعرفون، ولذلك سمى الله عز وجل: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣]، هؤلاء أهل الذكر الذين هم يذكرون الله عز وجل ويعرفون ما يحب الله عز وجل ويعرفون ما يبغض الله عز وجل ويعرفون الصواب الذي يوصل إلى الجنة، ويعرفون الضلال الذي يوصل إلى النار.

فلذلك العبد يسأل ربه اهدنا الصراط المستقيم، لا أريد أن أعود إلى الاعتراض لو كانت كذلك فما هو جمعها ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، هذا ذكرناه في الدرس الفائت لا أريد أن أعود إليه.

الحالة الثانية: الهداية الثانية المقصودة بهذه الآية هي هداية التوفيق –هذا قلناه وأنا أعود عليه فقط للتذكير لأن الوقت قد طال في البعد عنه– فهداية التوفيق بمعنى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد: ١٧]، الله عز وجل يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم عن هداية الإرشاد: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾ [الشورى: ٥٢]، فالنبي يهدي إلى صراط مستقيم، بل لا يُعرف الصراط المستقيم إلى من طريقه صلى الله عليه وسلم.

ولكنه لما جاء إلى هداية التوفيق وهو بعث الإرادة لما يحبه الله عز وجل –وضع الإيمان في القلب– قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، هو بيّن لعمه أبي طالب الحق وعلم أبو طالب ما هو الحق، علم أن ما يدعوا إليه إبن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق، هو الدين الصحيح، ولكنه لم يوفق إلى الهداية، وهي هداية التوفيق، وهداية التوفيق يعني بعث الإرادة للطاعة وهذه بينة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، لا تهدي، لا يمكن لك أن تضع الهداية في القلوب، لا يمكن أن تضع الإيمان في القلب، لا يمكن أن تحرك الإرادة ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (٢٢)﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢] فقط ﴿وَذَكِّرْ﴾ فقط أنت تذكر ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ ليس لك عليهم سلطان.

بل الشيطان يوم القيامة يقول هذا، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فهو ليس له سلطان إلا أن دعوتكم، فقط دعوتكم، مع أنه قال قبلها: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ [الإسراء: ٦٢]، ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ أي لأقبضن على حنكه، والدابة إذا أردتها أن تقاد من غير معارضة فهم يضعون لها على حنكها لأنه يؤلمها إذا شدت، ومع ذلك يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾.

أما الهداية فهي وضعٌ رباني، وقانونها قانونٌ عظيم وهو سر من أسرار الله عز وجل، يعني قد يقول قائل: لماذا لا يضع ربنا سبحانه وتعالى الهداية في كل القلوب؟ ولو شاء ربك لوضعها، وإنما يضعها في قلوب أقوام ويمنع أقوام عنها، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، فهدى ومنع، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، هذه الهداية الإرشادية، وقال تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)﴾ [الإنسان: ٣]، هنا الشاكر هو الذي هُدي الهداية التوفيقية، والكفور حرم من هذه الهداية التوفيقية.

فقد يقول قائل: ما هو سر العطاء والمنع للهداية القدرية؟ يقال هذا بيد الله عز وجل ولا نعلم سره، لا يوجد أحد يعلم، هذا من الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: (الناظر في القدر كالناظر في الشمس كلما ازداد نظراً

ازداد تحيراً)، القانون هو أن هذا يستحق الهداية فأعطاه الهداية هكذا نقول وهذا حق، وهذا لا يستحق الهداية لان الله عز وجل الحكم العدل، لا يجوز لمسلم أن يعتقد في ربنا الظلم، بل فعل الرحمة أشمل من العدل، يعني دوائر الفعل الإلهي: أولاً: الحكمة أنه خلق كل شيءٍ على وفق الحكمة، ثم أقام كل حُكمٍ على وفق العدل، ثم جعل أشمل من العدل الدائرة التي تحيط بالحكمة وتحيط بالعدل هي الرحمة، فالله عز وجل لا يعامل الناس بعدله وإنما يعاملهم برحمته، الرحمة هي الأسبق -وهذا تكلمنا عنه-.

فقد يقول قائل: لماذا أعطى ومنع؟ يقال: هذا لعدله جل في علاه فهو الحكم العدل، فعلى أي وفق هذا؟ كيف خُلق هذا كافر، وكيف خُلق هذا مؤمن؟ هذا سرٌ قائمٌ على العدل لا بد أن يكون قائم على العدل ولا يجوز لك أن تشك فيه، ولكنه سر مكنون لرب العالمين وليس لك فيه إلا التسليم، هذا يستحق وهذا لا يستحق، أبو طالب مات كافراً لأنه يستحق، مع أنه نصر الإسلام والعام الذي مات فيه سمي عام الحزن؛ لما جرى على النبي صلى الله عليه وسلم من لأواء ومن ألم ومن ضعف لموته.

وكيف يسلم رجلٌ آخر ربما لا يقدم للإسلام شيئاً ولكنه يعبد الله لوحده على جبل ولا ينفع إلا نفسه في عبوديته لربه، فما هو القانون؟ القانون: هو أن تسلم لربك، القدر فيه سرٌ إلهي كما في بعض الشرع سرٌ الإلهي، الناس يظنون فقط في الشرع، وهو في الشرع والقدر، يعني لو قال قائل: لم صلاة الفجر ركعتين؟ لما صلاة المغرب ثلاثة؟ لما الحج يطوف سبعاً..... وهكذا، هذه يقال فيها كما قلنا سابقاً في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، قلنا: بأنها مبنيةٌ على التسليم، علة أحكام التعبد: التسليم، إن قالها فقد صدق، انتهى هذه هي العلة، علة أحكام التشريع المتعلقة بالنُسك التسليم لا علة لها ولذلك غير معقولة المعنى، كما أن هذه غير معقولة المعنى وعلتها التسليم، كذلك في القدر، عليك أن تسلم، ومع أيمانك ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود: ٥٦].

وهناك بعض العلماء من حاول أن يفسر في تعظيم جانب الربوبية ووقعوا في أخطاء، وهذا جانب ينبغي الحذر منه، أن الزيادة في الإثبات عما أثبته الله عز وجل يصل للتجسيم، والزيادة في التنزيه عما أمر الله عز وجل يوصل للتعطيل، فينبغي أن تنزه على وفق ما نزه الله عز وجل؛ لتكون أنت موحداً ومسبحاً لربك، وعليك أن تثبت لربنا ما أثبت لنفسه ولا تزيد، لتكون موحداً ومثبتاً مؤمناً، فإذا زدت في هذه خرجت عن حد الاعتدال، لا يجوز الزيادة، وإذا زدت في التنزيه والنفي خرجت عن الحد إلى التعطيل وهكذا.

وكذلك في أمرو الربوبية، هناك من قال كلمات لا أحب أن أقولها ولكنها موجودة في كتب أهل العلم، فيقول مثلاً: بأن الله يجوز أن يعذب الطائع، لأنه هو الملك، ومن تصرف في ملكه فلا يعد ظالماً -هكذا قالوا- ويجوز أن يثيب العاصي، وهذا لا يجوز لأن الله عز وجل قال على لسان نبيه هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود: ٥٦]، فالله عز وجل أوجب على نفسه أن لا يفعل هذا، فكيف تجيزه؟ قال: أن لا أجيزه شرعاً ولا يقع

ولكن يجوز في حق الله عز وجل، إذا أجزته في حق الله عز وجل فقد أجزت فيه الظلم، أجزت فيما سماه الله عز وجل ظلماً، ولكنه لغلبة الربوبية على نفوسهم ذهبوا أبعد من الحقائق.

والقصد من هذا: أن نقول أيها الإخوة الأحبة في ﴿اهْدِنَا﴾ أن العبد يطلب من الله عز وجل أن يهديه وأن يوفقه، والعلماء وقفوا هنا موقفاً قالوا: كيف للعبد أن يطلب الهداية وهو في الهداية؟ فهل هو التثبيت عليها فقط؟ هذا معنى، يعني المرء في الصلاة يقول: ﴿اهْدِنَا﴾، وهذا في حديث (قسمت الصلاة) وهو في الصلاة، يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وأنت في الصلاة فأنت مهدي، والله عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]، فطلب الله عز وجل من عبيده المؤمنين أن يؤمنوا، وكذلك العبد يكون في الهداية فيطلب الهداية بأن يثبته الله عليها، هذا مطلب، أن يقول: يا رب اهدنا الصراط المستقيم أي ثبتنا عليه وأقمنا عليه، ولا تجعلنا نبدل ولا نغير، فهذا مطلب.

والمطلب الثاني: وهو زيادة الهداية، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد: ١٧]، ولذلك لا يوجدُ حد للهداية، أعظم الناس هم الأنبياء عليهم السلام، ومع ذلك هم أحياء في قبورهم ومر النبي صلى الله عليه وسلم على موسى وهو قائم يصلي في قبره، وهو في قبره يزداد إيماناً، فليس هناك حد للإيمان، ليس هناك حد للهداية، لا يستطيع أحد أن يقول: هذا حدٌ هو منتهى ما يحصله العبد من هداية، الله عز وجل هو المطلق، والمطلق لا نهاية له.

فمن الهداية الخوف من الله، لنقل مثلاً من أمثلة الهداية في القلوب هو أن تكون المخافة في قلب العبد، كيف تحصل الهداية؟ بمزيد الخوف، فهل هذا الخوف له منتهى؟ الخوف ليس له منتهى، لماذا؟ لأن العبد يخاف من الله عز وجل، والله عز وجل عذابه ليس له منتهى، ولذلك الخوف ليس له منتهى، ما دام أنه يخاف من الله عز وجل، والمخوف منه هو الله سبحانه وتعالى فإذًا العبد لا يمكن أن ينتهي خوفه بل يزداد.

كذلك حبه لله عز وجل، الحب من الهداية، المرء يحب الله عز وجل، فهل للحب منتهى؟ لا منتهى لهذا الحب، ولذلك ذكرنا في الحديث عند قول الحمد لله بأن النبي صلى الله عليه وسلم يفتح الله عز وجل عليه من المحامد ما لم يفتحها على أحدٍ من قبل، هذا من الإيمان ليس له منتهى، وقلنا عند قوله تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس: ١٠]، المزيد، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٥-٢٦]، هذه كلمة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ لا منتهى لها، لا يوجد لها نهاية، والدليل أن العبد في الجنة لا يموت ولا يحيى، وكلما تقدم به الأمر ازداد علمًا بربه وازداد عطاء الله له لما حقق من عبادة.

القصد: أن الهداية لا منتهى لها، لا يجوز لأحد أن يعتقد أن هداية الله عز وجل قد كمُلت عنده أو كمُلت في أحدٍ من البشر نعم هناك كمالاتٌ إنسانية ما حققها الأنبياء عليهم السلام، كمالات العبودية في الإنسان في هذه

الدنيا أعظم من حققها رسولنا صلى الله عليه وسلم، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم وهو في قبره يصلي عليه العبيد ويسلموا عليه العبيد، وما معنى الصلاة عليه؟ زيادة العطاء الإلهي، الصلاة ليست الثناء، الصلاة أعظم من ذلك، فلما يصلون عل النبي صلى الله عليه وسلم يزداد رفعه ويزداد عطاءً ويزداد قيمةً عند الله عز وجل، ولا يمكن لأحد أن يزداد عند الله مقامًا حتى يزداد الإيمان في قلبه، هذه قاعدة: لا يمكن لأحد أن يزداد عند الله عز وجل قيمةً ومقامًا حتى يزداد الإيمان في قلبه، حتى تزداد الهداية في قلبه، هذا قانون، فالعطاء الالهي بالمكرمات -العطايا والجزاء- مربوطٌ بسببه، هذا قانون لا يُعطى شيء بلا سبب.

فلذلك ﴿اهْدِنَا﴾ قولك: يا رب أقمنا، أول شيء أرشدنا إلى الصراط المستقيم، فمن الإرشاد:

أولاً: أن تعلم كتاب الله عز وجل أن تعلم ما فيه وأن تعلم ما في سنة النبي صلى الله عليه وسلم ثم بعد ذلك أن تُرشد ما فيها من معاني عند حلول النوازل.

ثانيًا: هو أنك تطلب من الله عز وجل أن يقيمك على الحق وإذا كنت عليه أن يثبتك عليه، ﴿اهْدِنَا﴾ هذا السؤال كما ترون جاء بعد قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، فدل على أن أعظم ما ينبغي أن يستعين العبد ربه عليه هو أن يهديه الصراط المستقيم، أعظم ما في هذا الوجود هو الصراط المستقيم، ولذلك الله عز وجل أرسل الرسل ومن الرسل من قتل، وأنزل الكتب وأقام الجنة وأقام النار وأقام الحروب بين البشر على أساس هذه القضية على قضية الهداية من حُرمها فقد حرم كل شيء ومن أعطيها فقد أعطي كل خير.

فعلى العبد أن يهتم بهذا وأن يبحث عنه وأن يسال ربه إياه سؤال المخبت الذي يستشعر عظمة ما يسأل، فالناس يسألون المال، يسألون الزوجة، يسألون الولد، يسألون النعيم في الدنيا، لكن أعظم سؤال يتكرر من العبد سبعة عشر مرة فريضة في كل يوم أن يسأل الله عز وجل ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، هذا أمرٌ عظيم، ﴿اهْدِنَا﴾ وفقنا، أقمنا عليه، ثبتنا على هذا الصراط؛ لأنه هو سبيل الجنة.

ولابن كثير رحمه الله فائدة عظيمة وهي تتعلق بأدب الدعاء هنا: أن الدعاء يكون مقبولاً وأدعى للقبول إذا تقدم حسب القرآن، هذه القراءة قرآنية من ابن كثير وهذه من فوائد هذا الإمام العظيم وأنا أنبه على فائدة هذا الكتاب وأهميته دائمًا لأنه كتابٌ فريد وهو كتابٌ سهل، تفسير ابن كثير هو كتابٌ سهل، ولسهولته يظن الناس أنه ليس غنيًا بل هو يمكن أن يقرآه العامي أو المبتدئ أو ما يقال له المثقف غير الدارس لعلوم الشريعة، لكن كلمات هذا الأمام جزلة وكذلك مفعمة بالعلم، يعني ما شرحناه الآن من الهداية التوفيقية والهداية الإرشادية في كلمتين، فقال: «والمقصود هداية التوفيق وهداية الإرشاد»، لكن حتى تعلم هاتين الكلمتين لابد أن تكون عالماً بمعاني ما هي الهداية الإرشادية وماهي الهداية التوفيقية.

ثم جاء إلى أدب من آداب الدعاء وهو مهم جدًا والأدب في القرآن كامنٌ في ألفاظه والحقيقة أن أدب التعامل مع الله عز وجل، أدب الدعاء، أدب العبادة هذا لا يصرح به تصريح الأوامر الواضحة البينة كالإيمان والصوم والصلاة والزكاة بل هو كامنٌ في الألفاظ.

مثال ذلك: من الأدب مع الله عز وجل –وهذا ذكره العلماء ليس شيئًا جديدًا– وهو أنك لا يجوز أن تنسب الشر إلى الله عز وجل والشر ليس إليه، من أين هذا ؟كما في سورة «الكهف» لما موسى عليه السلام مشى مع الخضر والخضر أولاً خرق السفينة وثاني أمر أنه قتل الفتى وثالثًا أنه أصلح الجدار، انظر أول أمر أنه خرق السفينة، الخرق فيه إفساد مع أن هذا الإفساد مآله الصلاح يعني قال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩]، ولكن لأن العمل فيه إفساد لم ينسبه إلى الله عز وجل فنسب إرادة خرقها وهو فساد مع أن مآله صلاح قال: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، ما قال فأراد الله مع أنه أمر الله عز وجل ولكن لما كان في الفعل فساد مع أن مآله صلاح لكن لمجرد هذا الأمر تأدب الخضر ولم يقل فأراد الله أن يعيبها.

وكذلك في الفتى قال: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨٠-٨١]، ﴿فَأَرَدْنَا﴾ فنسب الفعل إليه لأن فيه فساد مع أن نتيجته وعاقبته الخير أكرر هذه الكلمة ولكن لأن ظاهره فسادٌ فيه قتل فلن ينسبه إلى الله عز وجل، لكن لما جاء إلى إصلاح الحائط هذا ليس فسادًا هذا إصلاح فلما كان العمل إصلاحًا نسبه إلى الله عز وجل فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، رأيت الأدب كيف تغلغل في اللفظ، هذا الأدب مع الله وهذا كثيرٌ في القرآن كثير جدًا في القرآن، الأدب مع الله عز وجل يتغلغل في ألفاظ العابدين يدخل في ألفاظ العابدين ولا يعرفه إلا من تأمل وقرأ كلماتهم ودعائهم وذكرهم لله عز وجل وهكذا.

ولما نوح عليه السلام نادى ربه، قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥)﴾ [هود: ٤٥]، قال: ﴿فَقَالَ﴾ فهذه الفاء عندي والله أعلم بما أقول هل هو حق أم باطل، أو حق أو قريب من الحق، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ﴾، وهذه الفاء لِمَ؟ يريد أن يعرفنا ماذا قال نوح فهذه الفاء تدل على أنه تلجلج، أن نوح عليه السلام قدم رجلاً وأخر أخرى لم يقذف بها قذفًا سريعًا، ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ﴾ علامة أنه في زمن وإن كان قليلاً، والفاء عندهم للتعقيب ليس فيها شيء من التراخي إنما هي الفورية لكن مع ذلك فيها شيء من الوقت وفيها شيء من التعقيب فهذا من الأدب وهذا دلالة على أنه لم يقذف بها.

قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ فهذا أدب مع هذا التردد انظر إلى هذه العبارات، وهكذا الأدب في القرآن يتغلغل كلمات العابدين يتغلغل فيها.

فهؤلاء يدعون الله عز وجل يقولون: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، نرجع لابن كثير رحمه الله، كل هذا مقدمة لتعلم أدب الدعاء، ماذا قدم العابد في أعظم دعاءٍ في الوجود وأعظم سورة في كتاب ربنا؟ –فأعظم سورة في القرآن هي «الفاتحة»– فماذا قدم في الدعاء؟ قال: القرآن علمنا في هذه السورة علمنا أن نقدم مدح الله عز وجل في الدعاء، قبل أن يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قدم الثناء، التمجيد، الحمد، التفويض لله عز وجل، فلما قدم هذا أفرح الله عز وجل وهذا على قاعدة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾، أعطى حق الله فأفرحه، قال: يا رب أنا أطلب حاجتي، قال: خذ (هذا لي ولعبدي ما سأل)، لكن أولاً قدم حق الله عز وجل، وفي هذا كما قال ابن كثير رحمه الله: «تأديبٌ للعابد إن أراد الدعاء أن يقدم الثناء» تعليم لهذا العابد لما ترفع يديك وتطلب سؤالك فقدم كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢)﴾ [المجادلة: ١٢].

وكان ابن تيمية رحمه الله إذا خرج لصلاة الجمعة أخذ معه ولو كسرة خبز –قطعة خبز– وتصدق بها وقال: «إن الله أمرنا إذا ناجينا الرسول أن نقدم الصدقة فكيف إذا ناجيناه».

فأولاً عليك أن تثني على الله عز وجل تثني عليه الحمد لله، تجده يحمد ويذكر عطاء الله ويذكر أفعال الله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الأحزاب أثنى عليه بأمور عظيمة جليلة، فقال: (اللهم منزل الكتاب مجري السحاب هازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم) فماذا قدم؟ ثناء على الله عز وجل، تعلم هذا، تعلم الثناء على الله عز وجل، ومن هنا هذا الأدب تعلم الثناء ماذا تقول عن الله عز وجل، هذا يقربك من الله عز وجل هذا الأدب في اللفظ والتنوع فيه والثناء على الله عز وجل كما قال في الحديث الأسود بن سريع الذي تقدم، قال يا رسول الله: إني أريد أن أنشدك بمناشد حمدت بها ربي، قال: (إن الله يحب)، احمده فإذا قدمت ما يحب فتثني على الله عز وجل فحين تثني يفرح فإذا فرح وسألته؛ أعطاك، هذا من الأدب.

وقال من أدب القرآن كذلك هو أن تقدم حاجتك، ﴿إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص: ٢٤]، ذكر حاجته تقول: يا ربنا أنا عبدك الفقير هذا من أداب الدعاء يذكرها ابن كثير رحمه الله في تفسيره باسترشادٍ بهذه السورة ويقول: من أدب القرآن كذلك أن تذكر حاجتك، وانظر إلى ما قاله ابن تيميه رحمه الله كما نقل ابن كثير دون أن يذكرها لابن تيمية قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ نفي الشرك عن الله، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نفي القدرة عن العبد، وهذه شرحناها لما قلنا الغنا اخص خصائص الربوبية والفقر أخص خصائص العبودية، فهنا كذلك أنت تقدم نفسك تطرح حاجتك وتطرح فقرك وتطرح عبوديتك وتطرح ذلتك أمام الله عز وجل، فلذلك تتعلم كيف أنك تطرح هذا.

وكذلك يذكر ابن كثير رحمه الله من أدب الدعاء وهو أن يقدم ذنبه انظر العبد بين حالتين بين حالة الضعف وبين حالة الذنب، هذا هو العبد، وضرب مثالاً بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾

[الأنبياء: ٨٧]، هذا دعاء لأنك أظهرت ذنبك وإظهار الذنب علامة الحاجة أنك تسال: يا رب هذا أمري وهذا شأني فالله يقبل ذلك، انظر وكلها جامعها هو إظهار كبرياء ربنا سبحانه وتعالى فهذا من ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وهذا ينبغي أن نهتم به وأن نتأمل ما طلب الأنبياء عليهم السلام.

أما قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد: ١٧]، فهذه من أجّل ما ينبغي أن يسعى لها العبد وهي على قاعدة السنة التي قالها النبي صلى الله عليه وسلم: (مازال الرجال يتأخر حتى يؤخره الله)، إذا اليوم أنت تأخرت فاعلم أن غدًا ستزداد تأخر فإياك لا تتأخر، أقل القليل تثبت على مكانك أما تتأخر، كنت تصلي كذا ركعة فتقلل كنت تقرأ كذا جزء من القران فتقلل، كلما قللت علامة (مازال الرجل يتأخر حتى يؤخره الله)، وهذا المرء يجده في نفسه يجده وهو في حالات التعبد والإقبال على الله عز وجل يتعجب! كيف أنا كنت في لحظة كذا لا أفعل هذا الفعل!! هكذا المرء يأنس للحالة التي هو فيها ويبررها... والعبد إذا قام الليل يعجب أنه كيف كانت تفوتني صلاة الصبح جماعه!! وإذا فاتته جماعه إذا كان الرجل يصلي جماعه يعجب أنه كيف كانت تفوته الصلاة!! وإذا فاتته الصلاة في وقتها يعجب كيف كان يصلي قيام الليل!! وهكذا في كل حالةٍ يعجب من الحالة التي كان عليها!!

فعلى المرء أن يهتم بأن يزداد طاعة وهذا من عطاء الله عز وجل، وكله داخلٌ في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، والله يا إخوة أن المرء إذا عصى الله، مثلاً: لو أنه زنى أن نفسه ستبغض إليه الزنا في أول الأمر ويراها عظيمة ولو قيل له الزنا ستنفر نفسه ويقشعر بدنه من هول هذه الكلمة، فاذا وقع فيها ندم فإذا استمرأها بعد ذلك يصبح باحثًا عن مبررٍ لها، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)﴾ [الروم: ١٠]،..ترى المرء الذي يستمرئ الزنا يستهزئ بالزواج ويستهزئ بمن يحرمه ينتهي به أولاً الزنا معصية لكن ينتهي به هذا الاستهزاء إلى الكفر والشرك والاستهزاء بالطاعة والاستهزاء بالأمر وهذا هو كفر المآل.

وتجد المرء إذا كان محافظ على صلاة الجماعة فإذا فاتته يتعب وبعد ذلك إذا فاتته واستمرأ على ترك صلاة الجماعة لا يراها شيئًا ولا يهتم لها، لا يقيم لها شأنًا، وإذا فاتته الصلاة بالكلية فيصبح يستهزئ يقول: لِمَ يصلون هؤلاء؟ أولاً يتعب نفسه تؤنبه لوامة تلومه ثم بعد ذلك يستمرئ حتى يترك الصلاة وإذا ترك الصلاة استهزئ بالمصلين وإذا استهزئ بالمصلين ختم الله على قلبه حتى يصل إلى القفل ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾ [محمد: ٢٤]، لا يميز بين منكر ولا بين معصية ولا بين طاعة.

ولذلك عليك أن تطلب من الله عز وجل دائمًا ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، أن يثبتك الله عز وجل على ما أنت عليه وأن يزيدك هدى لما يحبه الله وقلنا هذا لا نهاية له، ويكفي إلى هنا هذا تقريبًا عموم ما يقوله أهل العلم في

قضية ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وفي ذلك دليل أيها الإخوة الأحبة على أنه لا يمكن للعبد أن يُقدم على الطاعة إلا بهداية من الله عز وجل ولا يمكن أن يُحرم من الطاعة إلا بحرمان الله له بما استحقه من أمر قلبه.

تصور أن رجل يقال له: إن الملك طردك، فيقول: أنا لا أهتم له، أو أحد يقول: أنا طردت الجلوس مع الملك، فالناس يستهزئون به، وهذا الذي يُعرض عن الوقوف بين يدي الله عز وجل، يُعرض عن السجود لله عز وجل، يُعرض عن ذكر الله عز وجل، يُعرض عن قراءة القران، يُعرض عن الصدقة، يُعرض عن الصيام، يُعرض عن طاعة الله عز وجل؛ هذا محروم، هو يستهزئ يقول: أنا الذي اعرضت، والشاعر يقول:

أيــهـا المـــــــــــُـــــــعـرِضُ عــنّـا إن إعـــراضـــكَ مـــــــــنّــا

إياك أن تظن أن أحدًا أعرض عن الله عز وجل إلا لمقت الله له، وفي بعض أثار الحديث إن الرجل الذي لا يحبه الله لا يقوم من الليل فيقول له الله نم لا يحب أن يسمع صوته ولا أن يقرأ قراءة ولا أن يناجيه لا يحب يحرمه، وإن الرجل الذي يحبه الله يبعثه من فراشه لأنه يحبه يقيمه، فانظر أين أنت؟ انظر أي المقامين أنت؟ وكله يعود إلى ما في قلبك، فإياك أن يرى منك الله عز وجل شيءٍ يبغضه فيحرمك الوقوف بين يديه ويحرمك من هداه ويحرمك من عطاءه، إياك هذا سرٌ بينك وبين الله عز وجل، والله لا يموتن أحدٌ على معصية إلا وفي قلبه سر بغض الله له لأمرٍ أسره في نفسه بينه وبين الله، وليس هناك أحدٌ يوفق إلى طاعة إلا لسرٍ بينه وبين الله ان الله يحب أن يقيمه في هذه الطاعة وأن يراه فيها.

فإياك إياك أن تخون الله عز وجل، إياك وذرة كبر، إياك وذرة معصية، خيانة في قلبك ولو كانت ذرة ستحرم بسبب هذه الذرة من طاعات ومن توفيق ومن عطاء ومن هبات ومن هدايةٍ ربانية، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)﴾ [العنكبوت: ٦٩]، هذا جهاد أن تنظف قلبك، هذا جهاد أن تزيل ما في قلبك من الشر هذا جهاد، الجهاد أن تحب المسلمين، جهاد أن تدافع عن أعراضهم، جهاد أن تموت في سبيل الله عز وجل، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

فالمرء حين يحرم التوفيق ويحرم الطاعة فلا يظن بهذا أنه مُعطى وأنه مُكرم، لا، لا، ولذلك كان علماؤنا القدماء ينظرون إلى العابد العالم، قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦]، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، كيف يُهدى هذا المرء إلى ما يحب الله عز وجل وهو لا يقرأ كتابه؟ كيف يُهدى هذا المرء وهو لا يذكر الله عز وجل؟ كيف يُهدى هذا المرء وهو يأكل الربا؟ كيف يُهدى هذا المرء إلى الحق وهو ينظر للحرام؟ كيف يُهدى هذا المرء وهو يبيع دينه للطواغيت والأمراء والسلاطين ولأكلي الربا وللمعاصي كيف يُهدى؟ ولذلك أنت في قولك: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، عليك أن تعلم أنه كلما رأيت العبد مُقبلاً على ربه؛ أن الله عز ودجل يريد له

الخير أنه مُوفق للهداية، سواء كان في طاعة، سواء كان في خير، وهذا لا بد أن تشده يومًا طاعة الله عز وجل إلى ما فيه الخير، هذا بابٌ عظيم ينبغي أن تهتم به ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ولما تقف بين يدي الله عز وجل وتسأل هذا الدعاء لا تمر عليه مرور الكرام دون اهتمام ودون رعاية ودون استغاثة بالله، بل اسأل الله عز وجل وأعظم ما يمكن أن تسأله هو ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

يقول الله عز وجل: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، والصراط هو الطريق، زعم بعضهم أنها لغة غير عربية وهذا من غرائب ما يقوله بعض أهل التفسير ولا يهتم له وهو غلط عليهم، والصراط هي كلمةٌ عربية دالة على الطريق والطريق هذا الصراط في القرآن لم يأتي مطلق، إنما جاء دائمًا مقيد، ما في كلمة الصراط لوحدها ولا السبيل لوحده، مثلاً على كلمة السبيل كقوله جل في علاه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، فالسبيل لا بد أن ينسب لأحد، والصراط لا بد أن ينسب لأمر فليس مجرد الصراط وليس مجرد السبيل لا بد من تقييده وليس مطلقًا أين التقييد؟ وهو الصراط المستقيم، المستقيم أي لا اعوجاج فيه.

الله يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦]، أقمنا عليه وثبتنا عليه وأرشدنا إليه وزدنا عطاءً منه، ما هو هذا الصراط المستقيم؟ انظر مع أنه بيّنٌ أنه مستقيم والقرآن يبين أن الصراط المستقيم واحدٌ في الوجود، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فالصراط المستقيم واحد لا يتعدد ولا يتبدل ولا يتغير ولا يتنوع هو واحد وأما سُبل الباطل فكثيرةٌ لا تنتهي بعدد البشر، يعني في التاريخ البشري عدد أقوال الباطل في أي مسألة من مسائل الوجود كمسائل القدر، كمسائل الربوبية الإلهية، كمسائل الغيب، كمسائل الإنسان من هو الإنسان؟ لا تنتهي ولا يمكن أن تنتهي إلى يوم القيامة لكل أحد رأي أهواء، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

ولماذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ هذه الآية دليلٌ على أنه لا يكفي أن تمشي السبيل مستقيم، ليس كافيًا، بل لا بد من مفارقة سبل الباطل، لأنها لو حضرت سُبل الباطل إلى سبيل الحق لأبعدته؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾، أي أمشوا عليه، لكن هذا ليس كافيًا لتحقيق الأمر الالهي هو أن تمشي على الصراط المستقيم فلا بد أن تفارق سُبل الباطل ولذلك قال عز وجل: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ فإنها لو حضرت هذه السبل مع سبيل الحق لنازعته وطردته لعدم قبول الباطل للحق، الباطل لا يقبل بالحق، قال تعالى: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، تبتعدون عن سبيله.

فالأولى انتبه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)﴾ [الكافرون: ١-٢]، فليس أن تقوم على عبادة الله عز وجل فقط ولكن كذلك أن تعرض عن عبادة غيره، هذا شرطٌ ودائمًا هذا الشرط وهو حتى مع أهل الباطل قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، أولاً يبتعدون وثانيًا ينهون عنه، وعادةً مرات كثيرة نجد

الأقوى يُقدم مثل هذا القول، يعني لماذا الأول هو ينهون عنه وينأون عنه هو الأول ينئون عنه ثم ينهون عنه يعني أول يتعدون عنه ثم بعد الابتعاد عنه يبدأ بنهي الناس عنه والابتعاد عنه، ولكن هذا نجده في القران أنه يتكرر ما هو الأقوى والأهم والأوضح بل يتقدم ما هو الغاية والنهاية كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨]، ما هو المستقر؟ للمستقر هنا ثلاث أقوال ولا نريد أن نقف عندها ولكن الأشهر في أقوال أهل العلم، المستقر: هو بطن المرأة ورحم المرأة، وهذا يطول فيها ولذلك سمى مستقر، لكن ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ الحالة فيه قليلة وهو وجود المني في الرجل، فوجود المني في الرجل قليل، حالته قليلة، لكن وجود هذا الإنسان في رحم المرأة أطول، فقدم الأطول، مع أن وجود المني في الرجل أسبق، لكن لأن المستقر أطول، أهم.

وكذلك نقول نحن: «القضاء والقدر» مع أنه زمنياً القدر مقدمٌ على القضاء، القدر من التقدير، يعني عندما تذهب أنت للخياط أول يقدر يأخذ قياسك، بعد ذلك يقضيه يعمله حتى ينتهي منه، فما الذي أول؟ التقدير، يقدره، ثم بعد ذلك يقضيه أي ينتهي منه يقوم بشأنه، لكن نحن نقول: «القضاء والقدر» فقدمنا القضاء لأنه هو المقصود وهو المطلوب.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، هذه الثنائية من الازم أن تفهم، لا يمكن أن يقبل الباطل فقط أن تبقى على الباطل، كذلك لا بد أن يسوقك، ومن ذلك الشيطان، الشيطان ما الذي أقسم عليه؟ هو بقي على الباطل، لكن أقسم ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢)﴾ [الإسراء: ٦٢]، لأسوقنهم، كذلك هنا في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾، لا يكفي للمرء أن يقوم على الحق، من هنا ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦]، لا يكفي أن تكون عليه بل ذكر ما يعارضه، فقال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، لا يكفي، ومنه ما تقدم من قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣]، هذا أمرٌ أنه أمشي على الصراط المستقيم، هذا أمر لك، لكن كذلك هذا لا يكفي أن تكون على صراطٍ مستقيم، لا بد أن تهجر سُبل الباطل، لأنك لو أتيت بها لنازعك الباطل في بقائك على الحق، الباطل لا يقبل.

فبعض الناس –وهذا في الحياة القدرية موجود– بعض الناس يظن أنه يمكن له أن يجمع بين الحق والباطل ذلك لأن الباطل قبل بك، وهذا كذب، حتى في العمل السياسي المعاصر في هذا الزمان ثبت، هم يتخذون المسلمين عند الحاجة، الأحزاب الإسلامية والجماعات الإسلامية يأخذونهم عند الحاجة؛ لأنهم يملكون المدد الذي يحقق دفع الإرادات للفعل، هم من أين يأتون بأناس يموتون في المعارك؟ من أين يأتي بأناس يضحون بأموالهم وأوقاتهم وجهودهم من أجل إقرار ما يريدون؟ أهلهم مربون على الدنيا، أبناءهم يدرسونهم في الغرب حتى يحضرونهم للقيادة والرئاسة

ويضحون بهؤلاء المساكين، فتأتي هذه الجماعات من أجل أن تلتقي مع الباطل، ظانا أن الباطل يقبلها، وبعد أن يستفرغ منها وينتهي الأمر من حاجتها، أي تنتهي الحاجة لها، ينقلب عليها ويفرمونها، يذبحونها.

وكذلك الشيطان، هو يقول لك ابقى على ما أنت عليه، ولكن تعال، ولذلك الله عز وجل قال: ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، لا يجوز لك أن تذهب مع الظلمات إلى النور، بل قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، كذلك لا ينبغي للرجل القرآني المهتدي بهدي القرآن أن يمشي بالنور فقط لوحده بل يجب عليه أن يمشي بالنور الذي معه في الناس، ما قال بين الناس، قال: ﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ ، النور الذي معك والهداية التي معك يجب أن تمشي بها في الناس، وهذا من أعظم الأدلة على أن الإنسان القرآني يجب أن يُزيل الباطل، لا أن يتعايش معه، بل أن لا يقبل وجوده في الأرض، وهذه طريقة الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩]، وانظر إليه قال تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾، هذا دليل على أن الله عز وجل نسب فعل المنكر حتى للساكت، فقال: ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾، من الذي ينهى؟ ينهى الذي لم يفعل، لكن لما يكون ساكت يكون فاعلاً له، فإذا أنكر لم يكن فاعلاً، بالنكران أنت تخرج من مُسمى عمل المعصية بإنكارك هذه المعصية.

فالقصد: قوله سبحانه وتعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦]، أيها الإخوة الأحبة المعاصي والفتن ليست على درجة واحدة من الوضوح، وسلفنا قالوا كلمة عظيمة، قالوا: «عندما تقبل الفتن لا يعرفها إلا العلماء»، وهنا هذه الآية ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، لا يعرفه إلا هؤلاء الذين عندهم الهداية، وكلما ازداد نور الله في قلبك كلما كان كاشفاً للخفايا، الآن أنت دخلت هذه الغرفة أيها الاخ الحبيب، وكان النور ضعيف، فأنت لا ترى إلا الأشياء العظيمة، ترى الأشياء الكبيرة، ترى الطاولة، لكن لو كان هناك إبرة لا تراها، لو كان هناك أفعى لا تراها، لو كان هناك عقرب لا تراه، النور ضعيف، فلا ترى إلا الأشياء العظيمة، وكلما ازداد نورك كنت كاشفًا لدقائق الخفايا في الغرفة، ولذلك لماذا العلماء يكتشفون؟ لما عندهم من نور العلم ولما عندهم من نور البصيرة، العبادة لله عز وجل والإخبات والزهد وعدم محبة الدنيا، هذا أمر مهم.

ومن هنا يأتي دور العبادة في كشف ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، من هنا يأتي دور العالم العابد في كشف الحقائق، فإذا أقبلت الفتن لم يعرفها إلا هؤلاء، لكن لما تدبر الفتن ماذا يقول الناس؟ كلهم يعرفوها، ومن هنا أنت تستطيع أن تدرك في التاريخ كيف كشف العلماء دقائق الفتن، هم الذين كشفوها، الآن نحن نقول: ما شاء الله العالم الفلاني كشفها، في وقتها كانت فتنة، أكلت الأخضر واليابس، وخاض فيها من خاض،

وصار فيها الخصومات، لكن الآن أنت بسبب انتهائها صرت تعرف ما هي عليها وتقول قال فلان وعلان وغير هذا، صرت تعرف! لماذا؟ لأنها انقضت.

القصد: أيها الإخوة الأحبة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦]، والصراط المستقيم هنا مهما اختلف فيه أهل العلم فإنما يعني القرآن والسنة، وهذا في مجاله العلمي فقط، العلماء يقولون: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، أي الكتاب والسنة، ويصفونه هنا المجال العلمي، ما هو الحق المطلق في مجاله العلمي؟ هو الكتاب والسنة، لكن هذا غير كافي، فتجد بعض أهل العلم يصفون الصراط المستقيم برجاله، فيقولون: الصراط المستقيم هو صراط النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان وعلّي رضي الله عنهم، هذا كلام عجيب!

فيريد بعض الناس أن يجعل الصراط المستقيم مجرد حالة ذهنية غير مرتبطة بالرجال، غير مرتبطة بالجماعات، غير مرتبطة بالوجود القدري له مع أن الوجود القدري قد لا يكون بمقدار وضوح الجانب العلمي، قد لا يكون، والبشر لهم أعمال فتنة، يعني النبي صلى الله عليه وسلم من فتنة الله لقريش، أنه كان فقيراً، من فتنة الله لقريش أنه كان يتيماً، ولذلك قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف: ٣١]، لماذا جعل هذا الإنسان الفقير نبيًا؟ جعل الإنسان الفقير نبياً فتنة لهم، لأن هؤلاء القوم لا يعظمون إلا أهل المال، فلا يعني أن يقبل القرآن مطالبهم –انتبهوا هذه مهمة– القرآن لا يأتي على وفق مطالب الناس فيما يأتي به من حق بل يأتي بالحق على وفق ما هو حق، ويكون في هذا الحق ابتلاءً لرافضيه، يعني عندما قال الله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فبعض المشايخ اليوم منهجهم في طرح الحق واختيار اختلاف الفقهاء ما وافق عليه الناس، ما أحبوه، يقول نريد أن نسهل على الناس، ما المقصود بالتسهيل؟ أي ما يحبه الناس، أي هذه مسألة يحبها الناس فيأتون عليها، هذه مسألة يريدها الناس فيختارون هذا القول، القرآن يقول: لا، منهجه يخالف ذلك تماماً، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ فتنة، لماذا جاء موسى عليه السلام ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢)﴾ [الزخرف: ٥٢]، وأخيه هارون ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي﴾ [القصص: ٣٤]، هو فصيح، لكن أخوه أفصح منه، حتى يكون هذا فتنة لفرعون، رجل رغم أنه مغرور فيريد أن يتعلق، فقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣)﴾ [الزخرف: ٥٢-٥٣]، يريد واحد معه يأتي ويضع في يديه ذهب حتى يتبعه، لأن الرجل هذا منهجه، الذي يريده في قضية قبول الحق، القرآن لا يقبل هذا، لا يقبله.

ولذلك عندما يأتي السلف ويقولون: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، يعني الكتاب والسنة يعني الإسلام يعني الدين يعني الشريعة، هذا كلام جيد، تجد آخرين من العلماء يقولون: الصراط المستقيم هو صراط أبي بكر وعمر وهكذا،

فلا يذكرون فقط الحق في مجاله العلمي كما هو، بل يذكرون الحق في مجاله القدري الوجودي المتمثل بمن هم، من هم هؤلاء؟ طبعًا أنت تقول: الكتاب والسنة، يكفينا خلاص الكتاب والسنة، هذا غير كافي، لا بد أن تقيده بشخوصه ورجاله فيما تقدم وفيما تعيش به، من هم؟ وهنا كما ترون واقع هذا الدين مربوطٌ بعضه ببعض، من هم؟ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، هؤلاء الذين يفهمون شريعة الرحمن، وهؤلاء الذين يموتون من أجلها، هؤلاء الذين يدعون لها، هؤلاء الذين يعيشون معها، هؤلاء الذين يذكرون الله عز وجل، ومع علاقة مع الله عز وجل دائماً بـ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وهذا كما ترون بين، هذا يجيبكم ويجيب كل أحد على من أكون، مع من أكون؟

ونحن الآن يمكن أن نتكلم عن رجالٍ مضوا فلا يكون فيهم الخلاف والفتنة تكون قليلة مع أنها موجودة، يعني الآن لو جئت لرافضي، وقال لك: أنا أقبل الكتاب والسنة دون أبي بكر وعمر رضي الله عنهم، هل تقبله؟!! أعوذ بالله، إن أذهبت أبا بكر وأذهبت عمر وأذهبت الصحابة، فما أبقيت من الصراط المستقيم؟ لو أن رجلاً جاء مثلاً وهذه حدثت، يأتي يقول لك: أنا أقبل كل ما جئت به لكن أنا أكره إبراهيم عليه السلام، إبراهيم عليه السلام لا أحبه!!

وهذا مرة أحدهم أخبرني، قال: كنت أتكلم في أمريكا أمام جموع، خليط من الناس، وتكلمت عن إبراهيم عليه السلام، فانبرا لي واحد وقال لي: أنا أكره إبراهيم عليه السلام -أنا ضربت مثال إبراهيم عليه السلام لأنه وقع مع أحدهم- فهل تقبل منه هذا؟ ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، والقرآن يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾ [الحشر: ١٠]، هذا سند متصل بالرجال وليس فقط متصل بالبيان، هذا متصل بالرجال، ولذلك عندما ترى في كلام السلف ذكرى السابقين من العلماء يعني أن هؤلاء من الصراط المستقيم قد ارتفعت درجاتهم حتى صاروا جزءٌ منه.

ونحن ذكرنا هذا في درس من الدروس، قلنا من أعظم ما رفع الله به درجة العلماء أن جعلهم معياراً للحق، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ [الحديد: ٨]، ألا يكفي أن تعرفوا الحق الذي من عند الله أن جاء به هذا الرجل -الرسول صلى الله عليه وسلم-؟ بمجرد أن جاء به هذا الرجل كان ينبغي أن تعرفوا أنه الحق، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)﴾ [الأحقاف: ٩-١٠]، جعل شهادة هذا الرجل من بني اسرائيل وهو عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه دليل على الحق، هذا فتنة لهم، فتنة في زمانهم وهو فتنة في كل وقت، عندما يقول عمر رضي الله عنه: «فما رأيت حتى شرح الله صدر أبي بكر فعلمت أنه الحق»، لما اختلفوا في قضية قتال المرتدين.

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول لأبي بكر وعمر رض الله عنهما: (والله لو اتفقتما على أمرٍ ما خالفتكما)، يعني أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لا يمكن أن يتفقا على غلط، وكما في الحديث الحسن (في كل قرن سابقون).

فالصراط المستقيم هو الذي جاء به الكتاب والسنة، وعندما تعجز عن رؤية الكتاب والسنة فانظر من يمشي عابداً ذاكراً، شاكراً، مخبتاً، وبهذا يتم لك الجلاء والوضح، أنت تهدي ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

إذن قلنا لم يأتِ الصراط إلا مفرداً والمستقيم جاء من أجل بيان أنه لا عوج فيه، ومن دلائل عدم العوج؛ أنه ثابتٌ لم يتغير، ومنه أخذ أهل العلم، بل نراه في واقع أهل البدع فيما قاله أهل العلم: «أن طريق البدعة كل يوم يتغير»، الصراط مستقيم واحد لا يتغير، والعجيب أن أهل البدع عندما تقرأ سيرهم في التاريخ وتقرأ مناهجهم تجد شيئاً غريباً! هذا الشيء الغريب أنه كلما مات واحدٌ فيهم قام آخر وغير ما هم عليه!! وبدل!! بل لا يظهر فيهم واحد حتى يغير ويبدل! وهكذا مناهج الباطل، وأما منهاج الحق فواحد، ومن هنا قال الله عز وجل لرسوله: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، هو طريق واحد، الذي عليه إبراهيم عليه السلام والذي عليه موسى عليه السلام، هو الذي عليه عيسى عليه السلام، ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ واحد.

وكذلك هذا الدين يرثه العدول الثقات الذين يحملونه ويبلغونه الناس على وفق هذا المعنى فاهدنا الصراط المستقيم، ثم جاء بعد ذلك في بيانٍ زائد، قال أهل العلم: «هذا بدل»، وقال بعضهم: «هو عطف بيان»، هذا لا يهم المهم المعنى واحد، ما هو هذا الصراط المستقيم أيها الإخوة الأحبة؟ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، بعد أن جرده –وهذا الذي نقوله– بعد أن جرده علماً بأنه مستقيم في نفسه أثبت وأقام أنه الحق بالرجال الذين مشوا عليه، بالرجال الذين حملوه، بالرجال الذين اهتدوا به، فقال تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهنا من تفسير القرآن للقرآن أن تنظر من هم الذين أنعم الله عز وجل عليهم؟ ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩)﴾ [النساء: ٦٩]، إذا من هم الصراط الذين أنعم عليهم؟ هؤلاء، وفي ديننا من هم؟ هذا هو القرآن والتاريخ لكن في أمتنا من هم الذين أنعم الله عليهم؟ أنعم الله على أبي بكر وعلى عمر وعلى عثمان وعلى علّي وعلى الصحابة رضي الله عنهم، هؤلاء هم الذين أنعم الله عليهم، فالقدح فيهم قدحٌ في ذات الصراط، والقدح فيهم لأنهم شخوص قائمة هو من أجل تحريف الصراط، كل من قدح في الصحابة رضي الله تعالى عنهم هو قدحٌ في الصراط نفسه، ولذلك أنا مع الذي يقول بأن من كفر أبا بكرٍ فهو كافر، مرتد، لا يبقى له دين، أنا أعجب!! يعني المسألة واضحة، من الذي يريد أن يكفر أبو بكر، يقول عنه كافر؟ ما الذي بقي من الدين ليثبته في الدين نفسه؟ ما الذي بقي؟ لا يوجد، خلاص انتهى الدين، فأبو بكر قاتل المرتدين ولا يرى أن قتاله شرعي، إذًا هو لا يريد أن يقاتل المرتدين، إذًا هو يريد أن يمدح المرتدين، وهذا نجده من قبلهم يمدحون المرتدين، الروافض والزنادقة يمدحون المرتدين.

ومن التفسيرات العجيبة وذكرها الحلي كما في «منهاج الكرامة» كما سماه، وسماه شيخ الإسلام «منهاج الندامة»، ذكر أن أبو بكر رضي الله عنه قاتل الذين هم على الحق، تصور أن يكون المرتدون هم الذين على الحق، من كفر أبا بكر وعمر ماذا بقي من الدين؟ هؤلاء الذين أقاموا منارة الدين ونشروا الإسلام وفتحت البلاد في عصرهم وهم الذين حملوا هذا القرآن وهم الذين مهدوا للسنة عملاً واقعاً، فإذا كُفر هؤلاء...!!

ومن هنا أيها الإخوة الأحبة من طرق الزندقة والضرب بالدين هو ضرب شخوص الحق، بعضهم لا يستطيع أن يأتي إلى الحق نفسه، لا يستطيع أن يقول هذا غلط، ولكنه يضرب حملته ليسقط، وهو يريد أن يشوه رجاله ليسقط، وهذا ما زال إلى يومنا هذا، هو لا يستطيع أن يضرب الحق ولا يستطيع أن يواجهه فلو واجهه مواجهة علمية لظهر جهله وظهر بطلان ما يقول وظهر فساده وانهزم، ولكن يأتي إلى البشر والبشر هم بشر، ومن هنا لما أراد المنافقون أن يضربوا الدين أين ضربوا؟ في زوجة النبي في حادثة الإفك صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنها، ما مرادهم في حادثة الإفك؟ هو إسقاط زوجة النبي صلى الله عليه وسلم الصديقة فقط؟ هو إسقاطٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إسقاط لمن؟ للدين، هذه قضية مهمة.

الآن لا يستطيعون، أعطيني أي مناظرة علمية بين ما يدعوا إليه أهل الحق، ولذلك كلهم يهربون من المناظرة العلمية، يأتي إليك فإما أن يقول: أنك إنسان وإما أن يكذب عليك بأنك شيطان، ما معنى أنك إنسان؟ ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧)﴾ [الفرقان: ٧]، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم كان من صوره يأكل الطعام، تصور أن شيخاً الآن يدعوا إلى الحق يصور وهو يأكل، ماذا سيقول أعدائه؟ انظر الناس تموت وهو يأكل!! يعني حتى وفي تصويره وهو يأكل، في تصويره وهو يلبس!!

ومن هنا من المناظرات الجميلة كما ذكر الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد لما أُرسل الإمام الباقلاني لمناظرة النصارى، فالمهم بعد قصة جميلة في كيف دخل، ودخل من جهة ظهره، أراد النصارى أن يحاججوا المسلمين، فأرسلوا للسلطان أن أرسل لنا عالماً ليناظر علمائنا، فقالوا: من؟ فلا يوجد إلا الباقلاني هو إمام المناظرة عليه رحمة الله، فأرسلوا لهم الباقلاني، فسأل الإمبراطور هذا القيصر والكل يدخل عليه ويسجد، قال: هذا إذا دخل علي يسجد؟ قالوا: لا، المسلمون لا يسجدون، قال: إذاً أنزلوا الباب، صغروا الباب حتى يدخل ساجداً راكعاً رغم أنفه –ولا تنسوا جئناها لمناقشة الشخصية وليس مقصود بها فقط مجرد رواية الخبر مع ما فيه من فوائد– فلما جاء الباقلاني، عبقري من عباقرة الوجود، فعلم الحيلة، فدخل إليه من جهة ظهره، وليس من جهة وجهه، فالمهم جعل يسلم عليهم، ويسأل البطارقة، الخوارنة، ما كان في ذلك الوقت بروتوستانت كلهم لا يرون زواج القسيس وغيره، فجعل يسلم كيف حال الولد كيف حال الزوجة، وهم ينخرون، يعني هذا يعتبرونه إهانة أن يكون لهؤلاء زوجة وأولاد، هم لا يتزوجون، فقالوا: هذا جاهل

هو لا يعرف في ديننا أننا لا نتزوج ولا يكون لنا أولاد، قال لهم لِمَ؟ قالوا: هذا إهانة لنا، قال: إهانة لكم وتكون الزوجة والولد لله ليست هذه إهانة.

فالمهم بدأوا بمناقشة شخصه، المقصود شخص النبي صلى الله عليه وسلم، قال له: هل صحيح ما اتهمت به زوجة نبيكم من الزنا؟ هو يريد القدح، أنها اتهمت، فقال: امرأتان اتهمتا بالزنا، إحداهما جاءت بولد والأخرى لم تأتي به، فمن أولى بالزنا؟! يعني مريم اتهمت بالزنة من قبل اليهود عليهم لعنة الله، وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً وإثماً عظيماً، هذا المقصود به، وجاءت بولد، وعائشة اتهمت فلم تأتي بالولد، فقالوا له: أكان يقاتل نبيكم؟ قال: نعم، قالوا: ينتصر ويهزم؟ قال: نعم، قالوا: كيف نبي ينتصر ويهزم؟ قال: يهزم خير من أن يقتل، ذلك لأن عيسى عندهم قتل، وهكذا.

القصد: أن المناظرة في قضية الأشخاص هي سبيلهم، الأشخاص، يأكل، يشرب، يتكلم، انظر كيف يفعل، ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾، يريدون نبي خاص بهم، لا يأكل الطعام ولا يمشي في الأسواق، حتى إذا جاءهم على هذا المعنى قالوا: هذا ليس بشرًا وليس مجال اقتداء، يعني حتى هذه حجة من أجل إسقاط بشريته ليخلوا لهم الجو أن لا يفعلوا ما هو مطلوب منهم من الامتثال، وهكذا.

فالقصد من هذا: أيها الإخوة الأحبة أن صراط الله المستقيم هو علمٌ وعمل، هو علمٌ في مجاله العلمي وهو تمثلٌ في رجالٍ له، جماعات وأشخاص ورجال ولا يقصد به واحد، هذا لا يوجد، أي لا يقصد فيه فقط أبو بكر رضي الله عنه، بل أبا بكر وعمر وعثمان وعلّي رضي الله عنهم، أما كشخصٍ واحد هو الحق المطلق فيما فعل، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤)﴾ [النجم: ٣-٤]، هو الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن المقصد في كل وقتٍ يكون هناك حقٌ يتنوع، أسأل الله تعالى أن يوفقني وإياكم بما يحب ويرضى، وأسال الله أن يبارك لنا فيما تعلمنا وأن يسمع قلوبنا جل في علاه، آمين، آمين.

وبارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس الثاني عشر

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أيها الإخوة الأحبة أهلاً بكم في درسٍ جديد وهو الدرس الثاني عشر من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «الفاتحة» في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦]، تقدم الكلام، ولا أقول الكثير ولكنه مناسب لما نقدر عليه ولكن بقيت هناك بعض الأمور عند هذه الآية الجليلة العظيمة.

طلب الهداية أيها الإخوة الأحبة: -تقدم الكلام لا أريد أن أرجع عليه وهو موجود بين أيديكم- طلب الهداية هنا ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هذا يدل على جلال المطلوب من الله عز وجل فهو أول دعاءٍ يدعوا به العبد ربه بعد أن قال: (ولعبدي ما سأل) فجعل أجّل ما يُسأل العبد ربه أن يهديه الصراط المستقيم، ودل هذا كذلك لما يسأل العبد يدل على أنه لا يستطيع بنفسه أن يملك القدرة على أن يسلُكه لوحده فهذا السؤال دليل العجز، والعجز ينشأ لأسباب وكلاهما لعدم القدرة فالعجز هو عدم القدرة لكن إما أنه ينشأ لخفاء المطلوب لشدة خفاءه وإما أنه ينشأ ابتداءً لعدم القدرة عليه، لعدم وجود العلم الكاشف له، وقد يجتمع، وبينهما كذلك اطراد فيكون خفاء الشيء يخفى عليه لعدم وجود القدرة على إيجاده.

فإذن هذا السؤال الذي نكرره لربنا في كل يوم سبعة عشر مرة يدل على عظم هذا ما نسأله وهو الصراط المستقيم وكذلك يدل على خفاء هذا الصراط وعلى أنه دقيق، كيف يجتمع هذا الكلام في أنه خفيٌ دقيق مع أنه واضحٌ بيّن؟ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]، وكل الآيات التي جاءت في القرآن إلا في موطن واحد آيات بينات ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ [يونس: ١٥]، فالآيات بينات إلا في موطنٍ واحد ليس مجاله مجال البيان والإيضاح ولكن مجاله ذكره ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا﴾ [الأنفال: ٣١]، ففقط هم يتكلمون عن القدرة على الإتيان بمثله، وإنما جميع الآيات في القرآن ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ فالآيات بينات ولماذا لا يهتدي بها الخلق لبيانها؟ هذا المقصود به الآيات البينات بعد نزول الوحي، وأما قبل نزول الوحي فالإنسان سُدى، وكما فسر الإمام الشافعي رحمه الله معنى سُدى أي متروك لا كتاب له يهديه ولا مرشد له يبين له ويأخذ بيده إلى الحق فالإنسان لم يترك سدى.

فإذن البيان عند الانسان لم ينشأ من داخله ولا يمكن للبيان والحق أن ينشأ من داخل الإنسان والدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، ثم قال سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ [البقرة: ٣١]، فالإنسان متلقي لا ينشأ شيءٌ من داخله، لا يوجد عند الإنسان قيم يستطيع بها أن يثبت الحق فإن قيل لك: فأين هذا من الفطرة، الفطرة هي أصل الخلق، أصل الخلق هو الإسلام، لكن هذه الفطرة ليست عالمة ولو ترك الإنسان من غير وحيٍ لكان جاهلاً لما انتجت نفسه وداخله شيئًا علميًا، قال تعالى: ﴿أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].

إذن البيان وضوح الحق إنما كان بعد وجود الأنبياء لا قبل الأنبياء وإنما قبل الأنبياء يكون الإنسان في تيه ويكون في خصومة ولا يمكن وهذا رد على الفلاسفة أو رد على فلاسفة المسلمين الذين زعموا أنه يمكن أن ينتج العقل الداخلي والإنسان بقيمه الداخلية أن ينتج حق يوازي القرآن لا يمكن قصدي في قيمه وليس في ألفاظه وليس في حقائقه لا يمكن انظروا إلى القول في القدر من هو الإنسان هل هو مسير أم هو مخير لم يتفق الناس، والناس تكلموا فيها ولم يهتدي فيهم أحدٌ إلى الصواب إلا من أخذ من قبس النبوة، من مشكاة النبوة.

فإذن دل هذا على أن الصراط المستقيم خفي ولخفائه يسأل العبد غيره، وصاحب البيان في هذا هو واحد، ليس هناك من أحدٍ يستطيع أن يبين لك الصراط المستقيم إلا الله عز وجل لا يوجد أحد، والأنبياء من غير النبوة الله عز وجل وصفهم: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، لا يعرف الأنبياء شيء، كذلك النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة لا يعرف الحق حتى تأتي إليه النبوة فيعرف الحق وهذا بيّن في سورة «يوسف» بيّن في سورة «القصص» وفي آيات أخرى النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)﴾ [يوسف: ١-٣]، فالنبي لا يعرف شيئًا قبل النبوة فلذلك لخفاء هذا الأمر فإنه يحتاج المرء فيه إلى الهداية، هذا إذا أتى إلى القرآن والسنة إلى الإسلام بمعنى ما هو الحق في مقصد خلقنا؟ من نحن في هذا الوجود؟ نحن عبيد وهناك إله يجب أن يعبد يجب وأن يوحد.

فلو أنك أبصرت هذا فما هي الهداية المطلوبة بعد ذلك وأنت مسلمٌ قائمٌ على هذا التوحيد وهذا الاتباع؟ يعني هل هناك هداية أخرى فوق هذه الهداية أو أدق من هذه الهداية؟ نعم، أنت تسأل الله سبحانه وتعالى في كل يوم هدايةً وراء هداية لأنه بعد أن تهتدي للإسلام أنت بحاجة إلى الاهتداء إلى السنة، فأهل الإسلام يفترقون ويختلفون فأنت بحاجة إلى هداية زائدة عن هداية الإسلام أنت تدعوا الله عز وجل أن يثبتك عليها وأن يهديك إليها فـ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، هذا الصراط المستقيم وهو صراطٌ واحد تناوشه وتعاديه وتخالفه سبلٌ كثيرة، وهذه الكثرة تصنع

الحيرة ولها أمارات التزيين كما قال الله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، يعني هذه السُبل ليست خفية بلا تزيين بل هي مزينة تدعوا الناس إليها، بل زينت وحببت إلى النفس وهي ملائمة لهوى الإنسان وبالتالي الإنسان منازعٌ في إقامته على هذا الصراط بشيئين: بحب نفسه لغيره لأن هذا الصراط هو صراط البلاء والصبر ومنازعة نفسه عليه لخفائه عليه؛ فهو يحتاج إلى هداية ربه إليه وذلك لدقته.

إذن لما نقول نحن: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، أول شيء الإسلام بين بقية الأديان خفي إلا على من هداه الله والدليل أن بعث أبناء آدم يوم القيامة من كل ألف تسعمئة وتسع وتسعين إلى النار؛ ذلك لخفائه، وأهل السنة في أهل الإسلام بين أهل البدع كذلك هم قليل، وافتراق هذه الأمة كذلك حاصل، ولذلك بحاجة الإنسان أن يطلب من الله عز وجل أن يهديه الصراط المستقيم وليس أي صراط، لابد أن يكون مستقيمًا وهذا الصراط المستقيم دقيق، وكلما كان الشيء خفيًا زادت المشقة في تحصيله، أي عندما تحتاج الهداية إلى الإسلام فالنور يأتيك قوي واضح بيّن، نور الكتاب، نور الإسلام بين أنوار الباطل واضحة، ونور السنة في داخل الإسلام أشد خفاء فتحتاج إلى هداية أزيد من الأولى، أكثر، لماذا؟ لأنها دقت وكلما دق الشيء زادت القدرة اللازمة لتحصيله، لا بد أن تزيد، وإذا كان بين أهل السنة والمسائل الخفية فحينئذٍ تحتاج إلى نورٍ زائد.

من هنا فإن أكثر الناس معرفةً بالصراط المستقيم هم أكثر الناس التجاءً إلى الله وتحصيلاً للنور الإلهي، أكثر الناس تحصيلاً للهداية وللصراط المستقيم فيما خفي على الناس وخفي على أهل الإسلام هم أكثر الناس جهادًا، أكثر الناس تضحيةً، أكثر الناس إخباتًا وذكرًا لله عز وجل، ومن هنا ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، يعطيهم الله عز وجل النور، النور لا يتحصل إلا بالجهد والمشقة والتعب فلذلك لما يقول العبد: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وبعض أهل العلم قال: لماذا هنا فقط نقرأ بعض الكلام للفائدة العلمية فوق ما نحن عليه أنا أحب كما وعدتكم أن نطلع على تفاسير أهل العلم ونرى مناهجهم ونرى نفوسهم في داخل كلامهم –هذا تكلمنا عنه وهذا مهم– طالب العلم لا يكفي فقط أن يعرف الخبر ينبغي أن يعرف وعاء الخبر، يعني أنت عليك أن تعرف مناهج المفسرين وليس فقط ما يكتب في الكتب، يعني الأمام الطبري منهجه أنه يفعل كذا وكذا فيما هو ظاهر، لا، أنت ينبغي أن تذهب إلى كتب التفسير وتوغل في داخل نفس المفسر فإنك إن أوغلت في داخله كأنك عشت معه، وهو يكتب كأنك جالسٌ في قلبه تتبع إراداته ما منشأها، كيف تتحرك ماذا يريد؟

ووجدت عند الإمام أبي حيان الأندلسي في «البحر المحيط» لفتة وتكشف شيئًا من سر نفسه وجدت عنده كلامًا عندما جعل الصراط مغيبًا ولم يقل اهدنا صراطك المستقيم بل قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وجعله مغيبًا وليس مخاطبًا، أي لماذا لم يقل اهدنا صراطك المستقيم بل قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؟، فله كلمة هنا نحن

نقرأها لفائدتها وإن شاء الله نشرح ما فيها وتكشف نفس هذا الإمام الجليل، وهذا الإمام أبو حيان الأندلسي القرطبي إمام لغة ولذلك اهتمامه باللغة كثير، وهو مشغولٌ -هذا نجده لمن يطالع كتابه سيجده كذلك- وهو مشغولٌ هذا الإمام كثيرًا بالتعقب والتفتيش وراء الزمخشري يعني يتعقبه ويخالفه.

والشيخ الدكتور رحمه الله محمد عبد الخالق عضيمة في كتابه «دراسات لأسلوب القرآن الكريم» وجد عنده شيئًا وهو أنه مرات يرد عليه في قولٍ قاله الزمخشري ثم يجده يتبنى هذا القول في موطنٍ آخر، وكأن الشيخ يريد أن يقول: بأنه فقط مشغولٌ مهمومٌ في الرد على الزمخشري والكلام ليس على عقائد الزمخشري، هنا الكلام ليس الرد على الزمخشري في عقائده، الرد على الزمخشري في اختياراته النحوية والبلاغية واللغوية، لأن الزمخشري معتزلي كما هو معروف ومن أهل القدر.

فلذلك هذا بعض منهجه في كتابه وكذلك هنا أمام لفتة داخلية في داخل كتابه وهو من أعيان القرن الثامن الهجري وهو معروف ذكرت عنه أنه قابل ابن تيمية وحدث معه ما حدث، فلنقرأ عند التغيب، لماذا غيب الصراط فكان خطابًا ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ولا نقول اهدنا صراطك المستقيم؟ لما فيها من فائدة في كشف هذه الفائدة التي اختص بها، ونستطيع أن نقول أشياء غير ما قال ولكن نريد أن نقول هو ماذا قال؟ وبهذا نكتشف كذلك بعض كلامه ونكتشف منهجه الدقيق في بعض لما يقول.

هنا فقط فائدة: أهل العلم يفرقون بين الصوفية والمتصوفة فيجعلون الصوفية هم أهل الصوفية الحقيقيين إذا قيل صوفية فالمقصود به الحقيقيين وإذا قيل المتصوفة فهم المنتسبين لهم، فقيل المتصوفة هم الذين ينتسبون إلى التصوف، والتصوف أصناف منهم ما هو فلسفي منهم من هو عرفاني ذاتي ... إلخ.

قال: «وروي عن المتصوفة في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أقوال، منها قول بعضهم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بالغيبوبة عن الصراط لئلا يكون مربوطًا بالصراط»، ما معنى هذه الكلمة؟ يقول: جاء الغيب عن الصراط لئلا يكون مربوطًا بالصراط، هذه من يقولها؟ هنا تأتي مسألة علمية يجب عليك حين تحلل كلمة عالمٍ أن تعرف منهجه، أن تعرف من هو؟ وإلا أخطأت في فهمك لكلامه، لو قالها غير صوفي لفسرتها تفسيرًا آخر، وربما سأذكر لو قالها غير صوفي بم يمكن أن تفسر، لكن أن يقولها صوفي لا بد أن تفهمها على منهجه ليس على منهج غيره وإلا أخطأت، لابد حين تقرأ كلمة لعالمٍ أن تفسرها على طريقته في منهجه طريقته في فهمه لما يقول.

فالصوفية قالوا: لماذا غيب الصراط؟ قال: لئلا يرتبط بالصراط، أي ليكون لما غيب الصراط كأنه بعيد عنه، فلو قال اهدني صراطك لكان قريبًا، لماذا يقول الصوفية هذا؟ ذلك لأن الصوفية المتصوفة لا يريدون أن تنشغل بالوسيلة عن المقصد، والصوفية عندهم هذه تجدها في كلامهم وفي كتبهم وفي أقوالهم تجد هذه العبارة تتردد «إياك أن يشغلك

السبيل عن المقصد، إياك ان تشغلك الوسيلة عن الغاية»، الوسيلة هي الصلاة، الوسيلة هي الذكر، الوسيلة هي العبادة، والغاية هو الله عز وجل، فعليك أن تكون مشغولاً بالغاية، فالسراط ينبغي ألا تنشغل به فكأنه لما غيب أن تجعله بعيدًا لئلا تلتصق به من أجل ألا يشغلك عن الغاية وهو الله عز وجل، هذا معنى كلام الصوفية.

وهذا كلام كما ترونه جميل، يعني المرء يقول: عليك أن تنشغل بالله، لكن السؤال: هل يمكن للمرء أن ينشغل بالله عز وجل وهو مقصد عبادة العابد دون أن ينشغل بالوسيلة المقربة إليه؟ وهو كذلك التفريق بين الوسيلة والغاية هنا تفريقٌ غير صحيح؛ فإن تسبيح العبد لربه عبادة والتسبيح وسيلة لكن هي استحضار الرب في القلب، فهذا الكلام غير صحيح.

ثانيًا هذه الكلمة احتج بها بعض من يقال لهم من الصوفية بالملامتية من هم الملامتية؟ أُخذت هذه الملامتية من «لا ملامة» بمعنى أنه لا يقوم بالعبادة كونه مشغول بالرب فلا ينبغي أن ينشغل بالعبادة ومن هنا فسر بعضهم بعض الزنادقة من الصوفية ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)﴾ [الحجر: ٩٩]، فقد حضر حضور الله في قلبك فلا تنشغل بغيره فخلاص وصلت، «قيل له: يقولون وصلنا، قال: نعم وصل ولكن إلى جهنم».

نرجع فالمقصود لما قال جعل لفظ الغيبة هنا لماذا؟ لئلا يكون انشغال العبد بالصراط عن الغاية، هذا منهج المتصوفة، وأنا أريد أن أقول كلمة إخواني هذه قلتها كثيرًا في درس الأصول: «لا يمكن أن تقرأ تراثنا إلا بأدوات» هذه الأدوات تبدو شاقة لكنها ضرورية والدعوة إلى إلغاء هذا التراث للعودة إلى الكتاب والسنة بم عندنا من أدوات مهلكة وأي مهلكة، هذه تقال للصحابة عندهم أدوات الفهم، عندهم اللغة العربية، عندهم رؤية الحق وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتابعون عندهم رؤية الحق وهم الصحابة، اليوم ماذا نملك نحن للعودة للكتاب والسنة؟ لا بد من أدوات لا بد من آلات، وهذه الآلات رغم أنوفنا لها مفاتيح، هذه الأدوات التي نلج بها إلى الكتاب والسنة لها مفاتيح هذه المفاتيح لغة القوم التي نتكلم بها، مفتاح الكتاب والسنة باللغة العربية، مفتاح كلام علمائنا اللغة التي تكلموا بها –كيف تكلموا– فإذا أنت لا تعرف لغة الأصوليين كيف يمكنك أن تفهم الأصول، أنت لا توافق على هذه اللغة لك ذلك لكن بعد أن تستوعبها وبعد أن تفهمها وبعد أن تصل إلى المقصد اتركها واهملها وقل: هذه لغةٌ لا تصل إلى المقصد، يمكن أن تصفها بلغةٍ أخرى غير منطقية، غير كلامية، لك ذلك، هذا جيد، هذه طريقة لا بأس بها، لكنك أولاً عليك أن تصل إلى الغاية ولا يمكنك اليوم الوصول إلى الغاية من تراثنا إلا بهذه المفاتيح، هذا واجب.

وهذه أكررها لأهميتها لأنها منهج قراءتنا لكتب التراث والاستهزاء بكتب التراث لإسقاطها كأننا وضعنا الكتاب والسنة على القمر وقطعنا بينه وبيننا السبل، الكتاب والسنة، فأين السلالم للصعود إليه؟ لا يوجد.

قال: «وقول الجنيد أن سؤال الهداية عند الحيرة من أشهار –وهذه اللفظة لا أدري هل هي مضبوطة أم لا؟ يرجى لمن كان طالب علم يعرفها أن يشرحها، لكن لو ذهبت لما ضر في فهم الكلام– قال: وقول الجنيد أن سؤال

الهداية عند الحيرة من أشهار الصفات الأزلية، فسألوا الهداية إلى أوصاف العبودية لئلا يستغرقوا في الصفات الأزلية»، هذه الكلمة التي قالها جُنيد ضد ما تكلمنا به، الجنيد هو يسميه الجميع في الحقيقة سيد الطائفة، على أساس أنه هو أول من شهر التصوف السني، ذلك لأن من أقدم الكتب التي وصلت هو كتاب «اللمع» الطوسي كتاب الصوفية ماذا يقول؟ وسيق الصوفية إلى الوالي فأمر بقتلهم جميعاً على الزندقة إلا الجنيد، فإنه تستر بالفقه، فأول من سوق الصوفية سنياً هو الجنيد، ولذلك يسمونه سيد الطائفة، ويحتجون بكلامه أن الصوفية ملتزمة بالكتاب والسنة، لأنه مزج الصوفية والإسلام، أول واحد هذا، طبعاً في قبل الجنيد في متصوفة، يعني أول من ذكر في التاريخ من الصوفية شخص اسمه أبو هاشم، هذا أول من ذكر من الصوفية، ما يهمنا.

فالقصد: أن الجنيد يمدحونه، حتى أهل السنة يمدحونه، على أساس أنه جعل الصوفية مسلمة، على أساس أن الصوفية قبل الإسلام موجودة في كل الأديان، ماذا قالوا في الأول: غيب الصراط من أجل حضور المقصود، الآن، لا، ماذا يقول الجنيد؟ قال: «سؤال الهداية عند الحيرة من أشهار الصفات الأزلية فسألوا الهداية إلى أوصاف العبودية لئلا يستغرقوا في الصفات الأزلية»، في الحقيقة هذه الكلمة لو أردنا أن نفسرها بتفسير أعداء الصوفية لحملت على وحدة الوجود، يقول له: ابقى مقيم على شأنك في العبودية أنك عابد إياك أن تذوب في صفات الأزلية، الذوبان في صفات الأزلية عندهم يعني أن تستشعر صفات الربوبية فيك، استشعار صفات الربوبية فيك هي التي نطق بها الحلاج، وهو المعاصر، الحلاج معاصر للجنيد، والجنيد شهد صلبه، الجنيد شهد صلب الحجاج، وقال له: كنا نحمل الكلمة نقرأها في السراديب، حتى جئت أنت حتى فكشفت العذار، كشفت السر، هذا الذي عابه.

المهم والجنيد كان ممن أفتى بقتل الحلاج، يعني وقع على وثيقة قتل الحلاج، والسبب أنه هو يقول له: لأنه كشف العذار، كشف السر.

بالسر إن باحوا تُباح دماؤهم وكذا دماء البائحين تباح

وهذا الكلام كله من أعداء الصوفية، لو حمل على المعنى الآخر الذي يريده دائماً ابن القيم رحمه الله في كتابه «مدارج السالكين»، فإنه يحمل هذا الكلام على معنى آخر، وهو أنه يحسن الظن بهم، ولا بأس نحن الآن لا يهم أن نلبسهم لباساً رغم أنوفهم، نمضي على ما يقولون، فيقول: «فسألوا الهداية إلى أوصاف العبودية لئلا يستغرقوا في الصفات الأزلية»، إذاً هم لما سألوا من أجل أن يبقوا في مقام التعبد لئلا تستغرقهم الأزلية، كيف يمكن أن تستغرقهم الصفات الأزلية؟ سيبقى السؤال قائمًا، وهو كيف تستغرق العابد مهما بلغ في عبوديته أن يستغرق في الصفات الأزلية، هذا محمد ابن عبد الله صلى لله عليه وسلم إمام العابدين، متى استشعر هذه الصفات الأزلية، صفات الربوبية، صفات الكبرياء والعزة متى؟

وهذا كله شرح على الهامش فقط، يعني لا أهمية له كبيرة فيما نحن فيه، لكن أنا أريد تسمعوا الآن إلى قراءة منهج أبي حيان الأندلسي القرطبي في كلامه، قال: «وهذه الأقوال ينبو عنها اللفظ»، ينبو: أي يهجره، لا يقبلها، لا يرضاها، لماذا؟ لعدم صحتها، لعدم علميتها، وهو هنا إنما يريد أن يقول لعدم وجود دلالةٍ بينةٍ واضحة لها، ذلك لأن كلمات الصوفية كلمات ملغزة، أول من أدخل اللغز إلى الشعر العربي هم الصوفية، أول من تكلم باللغز، وإلا فكلام العرب لا يحمل الرموز، هناك بلاغة، هناك تعريض، لكن ليس هناك رموز، فالرموز هذه من أدب الأغيار، ولكن الصوفية أتوا بالرمز، صاروا يشيرون إلى حب الإله بالخمر، يشيرون إلى المحبوب ليلى، وهكذا على هذه الطريقة.

يقول: هذه الألفاظ ينبو عنها هذه الكلمات وهذه الجمل وهذه العبارات ينبوا عنها اللفظ، فهذه لا معنى لها صحيح، مستقيم يحمل على الحق، قال: «ولهم فيما يذكرون، ذوقٌ وإدراكٌ لم نصل نحن إليه بعد!!»، هذه أتركها ولا أريد أن أعلق عليها «وقد شحنت التفاسير بأقوالهم ونحن نلم بشيءٍ منها لئلا يُظن إنما تركنا ذكرها لكوننا لم نطلع عليها»، يعني لو أراد رجل طالب علم أن يقرأ هذه العبارة فأنتم ترون سطوة الصوفية في عصره، يعني هذا العالم، إمام في اللغة، إمام في النحو، إمام في البلاغة، ويأتي يقول: هناك كلمات لا نفهمها، ولها ذوق وإدراك ونحن لم نصل إليها بعد، أنت تفسر كلام الله عز وجل ثم تأتي لكلام الصوفية وتقول كلام لم نصل إليه بعد، هذا ماذا يدل؟ يدل على سطوة الصوفية في عصره، انتبه هنا وحدة المنهج، المنهج الواحد يؤدي إلى كلامٍ واحد، وأنت تفسر كلام الله العظيم البلاغي الذي أعجز الخلق أن يأتوا بمثله، وأنت تقف هنا تفسره وتحاول أن تلج في داخله لتخرج منه اللآلئ والدرر والخير العظيم، ثم تأتي لكلمات رجل فتخاف منها وتقول: هذه لم نصل إليها!!؛ فهذه هي سطوة المجتمع، سطوة التصوف في عصره ولا شك.

وثم بعد ذلك يقول: هذه التفاسير اطلعنا عليها، وهذه في تفسير سورة «الفاتحة»، وهو يقدم لك تفاسير الصوفية اطلعنا عليها، ذلك لأن المغرب هو أساس أئمة التصوف، من أين جاء أبو العباس المرسي؟ من أين جاء ابن عربي الطائي؟ عبد الكريم الشاذلي من أين جاءوا هؤلاء؟ كلهم من المغرب، بل التصوف الفلسفي وليس فقط النُسكي، كان منتشراً في الأندلس ويكفي هذا، وهذه فقط فقرة في قراءة منهج عالمٍ من كتب التفسير.

الآن يقول الله عز وجل: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦]، يطلب من العبد أن يطلب هدايته للصراط المستقيم، ثم لم يكتفي ربنا سبحانه وتعالى بأن يطلب العبد الصراط المستقيم ولكنه بينه، من هنا الآن نحن نقول ونعيد هذه الكلمة حتى ننتهي من سورة «الفاتحة» سنعيدها في كل درس، وهو أن القرآن تفسير «الفاتحة»، فهذا الذي يقوله من قال: بأن الفاتحة كتاب استدعاء، أي كأنه يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

فإذا حُملت على المعنى الشرعي وهو حملٌ أنكره بعض أهل العلم والصواب أنه صحيح، بمعنى اهدنا علمنا الطريق الذي نعبدك به، وطريق الحق الذي يوصلنا إليك، هذا على ماذا يدل؟ يدل على أن كل ما جاء في القرآن من

الصراط المستقيم هو شرحٌ لهذه الكلمة، يعني عندما أعلمنا الله بالصلاة هي شرحٌ لـ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، عندما أعلمنا الله سبحانه وتعالى بالزكاة، بالحج، بالذكر، أعلمنا بالطاعات كلها، هي كلها تفسيرٌ لقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، كاشفة، فأنت عندما تقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فأنت عليك أن تبحث، وأولاً أن تعرفه، أن تعرفه قبل أن تقف عليه، وأن تعرفه قبل أن تسلكه، فأين هذه المعرفة له؟

قال: أدخل إلى الكتاب، ومن هنا ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١-٢]، قال بعدها: ﴿هُدًى﴾ [البقرة: ٢]، فالكتاب يبدأ بالفاتحة، ومن ثم ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى﴾ [البقرة: ١-٢]، فهذا هو ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، إنما بدأ الكتاب بـ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، هذا كتاب الهداية، أسلكه، أقم فيه، فجميع ما في الكتاب إنما هو بيانٌ للطريق المستقيم وللصراط المستقيم الذي سألته ربك.

فكيف يستقيم ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، كيف يستقيم وأنت لا تقرأ الكتاب؟ فهذا دعاء اعتداء، حين تقول في صلاتك وتكرر سبعة عشر مرة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ثم تعلم أن ما بعده كله إنما هو شرحٌ لهذا، وهو بين يديك، ثم لا تأتي إليه فهذا دعاء اعتداء، ولذلك «الفاتحة» هي التي تحملك على الدخول في الكتاب، وما في الكتاب استجابة لربك، أدخل هنا لترى هداية الله عز وجل لك، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

فلم يكتفي ربنا سبحانه وتعالى بأن فقط طلب ولكن كشفه وبينه وقلنا في الدرس الفائت لم يبينه فقط في مجاله العلمي، ولكن بينه في مجاله المثالي المتمثل بالأشخاص، فماذا قال؟ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وأبو حيان من فضائله ومن ميزاته، قال: إن بعضهم قال: الصراط الثانية غير الصراط الأولى وهذا غير صحيح، الصراط الأولى هي: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، هذا المستقيم من هو؟ هو صراط، لكن من هو المستقيم؟ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، فـ ﴿الَّذِينَ﴾ هذا اسم موصول يعود إلى المستقيم، فهؤلاء الذين سلكوا الطريق المستقيم، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

أنت تقول: ﴿اهْدِنَا﴾، وتكلمنا على أن هذا دليل أنك عاجزٌ أن تنتج الهداية من نفسك، فهذه القاعدة فقط لك أيها التابع أم هي قاعدة المتبوع كذلك؟ الآية تفسرها، فقال: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، إذًا بم حصل لهم سلوك الطريق المستقيم؟ بنعمة الله عز وجل، فهؤلاء الشخوص، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [مريم: ٥٨]، فملكوا النعمة من الله عز وجل؛ ذلك لأنهم سلكوا سبيلها الذي أنت عُلمته وهو أنهم سألوا الله عز وجل.

ولذلك هم لم يستقلوا، لم يملكوا حقيقة الصراط المستقيم من جهة أنفسهم حتى وهم أئمة، حتى وهم أنبياء، حتى الأنبياء لم يملكوا سلطة إنتاج الحق، بل الحق الذي عندهم من نعمة الله عليهم، فبم حصلوا النعمة؟ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، الطريق واحد، ولذلك قال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، هذا دليل على أن الأمر بيده لا بيد أحد،

ما زال بيد الله عز وجل، وقوله النعمة مأخوذة من السهولة، حتى نحن نقول: ناعمة أي سهلة، ومنها تأتي النعامة لأنها ناعمة ولأنها تحصل رزقها بنعومة، النعامة سميت بهذا الاسم، وهذه نعمة الله، والنعمة وردت سنأتي في مجالها وقلنا أن أكثر سورة ذكرت فيها كلمة النعمة هي سورة «النحل»، ذكرت فيها النعمة إحدى عشرة مرة، وذكرت بكلمة نعمة، نعمة بالإفراد وهذه عند أهل البلاغة دليل التكثير وعدم الحصر، نعمة الله، فقال سبحانه وتعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ﴾، وهنا الخطاب ما زال إلى الله عز وجل ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أنت الذي أعطيتهم.

هنا هؤلاء منهم النبيون وهؤلاء مصطفون، هل وصولهم لدرجة النبوة كان باختيارهم؟ لا، هل كان بقدرتهم بعبادتهم؟ لا، إنما هو اصطفاء، لكن الله عز وجل يعلم حيث يجعل رسالته، لولا وجود الاستعداد لتلقي هذه النعمة التي رافقها البلاء، (أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ)، التي رافقها البلاء لما أعطاهم هذه النعمة، فهؤلاء هم الأنبياء، ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

إذن بعد أن بيّن أنه مستقيمٌ في نفسه، ، الله عز وجل قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، هو بيانٌ لحقيقة السبيل، ثم أقام المعالم عليه بالسالكين عليه، فقال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، إذن الحق ليس فقط يكون حقاً في نفسه بل لا بد أن يكون القائمون عليه على هدايةٍ منه، وعلى وضوحٍ فيه، ولذلك يقول العبد لربه سائلاً إياه: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)﴾ [الفرقان: ٧٤]، جعل الله عز وجل هؤلاء مع الحق، يسيرون معه وجعل وجودهم في هذا السبيل دليل أن هذا الصراط هو الحق، وهذا ذكرناه في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ [الحديد: ٨]، جعل هذا الشخص الذي تعرفونه صادقاً وتعرفونه أميناً وتعرفونه حكيماً، جعله إماماً لهذا السبيل، دليل أن السبيل حق، الأصل هو الانعكاس.

الناس يسرفون في قولهم: «إن الحق لا يعرف بالرجال بل الرجال تعرف بالحق»، هذه الكلمة يسرفون فيها كثيراً، هذه كلمة قالها لما يكون التنازع بين علي وبين طلحة وبين الزبير، لكن أن يكون التنازع بين رجلٍ لا يقيم لله شأناً وبين رجل عابد، حينئذٍ يقول: أنا لا أتبعك فأنت لص، أنت سراق، أنت لا تعبد الله، أنت كذا وكذا، ولذلك كان مما رجح علمائنا في بعض المقالات أن يكون أكثر عبادة وأقرب إلى الله من الآخر، والدليل محبة الإمام أحمد رحمه الله لبن أبي ذئب رحمه الله أكثر من محبته لمالك رحمه الله.

انظر هذه تمايز بين طريقين، هما في الحق سواء، كفرسي رهان، من يتقدم رأسه ولو للحظات عن الآخر في السبق، هذه مسائل كما قلنا في ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، تكون هناك المسائل الخفية وهنا كذلك يكون السبق خفياً، فكان الإمام أحمد رحمه الله يقدم ابن أبي ذئب رحمه الله على مالك رحمه الله، ويقول: «إن ابن أبي ذئب رحمه الله قوالٌ للحق آمرٌ للمعروف ناهيٌ عن المنكر»، كان يهجر بلاط السلاطين يهجرهم وينهاهم وإذا وقف أمامهم

زجرهم وأمرهم ونهاهم، والإمام مالك رحمه الله في هذه المسألة أقل من الإمام ابن أبي ذئب رحمه الله، وكان يقدمه عليه الإمام أحمد رحمه الله.

فهنا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فبعد أن عرّفه في نفسه أنه مستقيم، عرّفه برجاله الذين يسلكونه، فقال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ومن هنا فالاقتداء بالرجال هذا سبيل القرآن، من هنا وقع ابن حزم رحمه الله في بعض الأخطاء، قال: لما كان الصحابة في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم أجاز لصحابيٍ أن يقتدي بصحابيٍ آخر مع وجود النبي صلى الله عليه وسلم، ما فائدة وجود القمر مع وجود الشمس؟!! لكن حين غياب الشمس، مات النبي صلى الله عليه وسلم، هل يكون للقمر شأن؟ فكيف يقال: لا يقتدى بأبي بكر رضي الله عنه!! لا يقتدى بعمر رضي الله عنه هؤلاء أئمة، لكن مع وجود النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١)﴾ [الحجرات: ١]، لا تقدموا، لكن عند غيابهم هؤلاء اقتدوا بالذين من بعد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، يصبح هؤلاء معالم.

وأنا أنبه على هذا لأن كثيرًا من الشعارات قيلت في وقت وتحمل على غير مجالها، انتبهوا لهذه الكلمة واحفظوها ستجدون أنفسكم تحتاجون إليها في كل وقت، في لقاءٍ غير التفسير قلت لكم: «لا يوجد كلام فوق الزمان والمكان إلا كلام من هو فوق الزمان والمكان؟ وهو كلام الله»، فلو أننا أردنا أن نفسر كلام الله أنه خاضع لبيئةٍ –الأحكام التي حكم الله بها– أنها خاضعة لبيئة معينة؛ فدل أن كلامه خاضعٌ لبيئة والكلام صفة المتكلم، فدل هذا أن المتكلم خاضعٌ لهذه البيئة زماناً ومكاناً، ومن هنا كان كلام الله عز وجل فوق الزمان والمكان، ونحن نقول: إنما الذي أمر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم قبل ١٤٠٠ سنة هو الذي أنت مأمور به في هذا الزمان وهو المأمور به الإنسان قبل يوم القيامة، بل عند يوم القيامة، ذلك لأن كلام الله عز وجل فوق الزمان والمكان، الآيات والأحكام والأحاديث، الأحكام الشرعية فوق الزمان والمكان والإنسان يجب أن يخضع لها في كل وقت.

فإذا جاء مفتريٍ وزعم بأن هذا الحكم مناسب لبيئة غير بيئتنا فيقال له: كذبت، هذا يدل على أنك جعلت القرآن كلام متكلم خاضع لبيئته وهذا لا يليق بالله عز وجل، لكن الإنسان عندما يتكلم في أحكامه وفي قراراته وفي حِكمه تكون حِكمه خاضعة لبيئته، خاضعة لوقته، فيأتي واحد ويريد أن يحمل هذا الكلام الذي هو إنتاج بيئة، إنتاج وقت يعيشه، الحِكمة التي عاشها في زمانه، كيف نتجت الحكمة عنده؟ نتجت الحكمة من خلال معيشته لزمانه، ومعيشته لظرفه، فمحاولة البعض حمل هذه الكلمة لتكون فوق الزمان والمكان خاضعة لكل زمان ومكان هو حمل لهذه الكلمة إلى مستوى القرء، وهذا لا يجوز.

الأمثلة يسيرة وكثيرة، يعني الآن لما يأتي واحد ويقول: أنا أريد أن أطبق الهُجران ويأتي الإمام مالك رحمه الله والإمام مالك كان في زمانه يرفض مناظرة أهل البدع، بل إذا دخل مبتدع ولو ببدعة يسيرة من مسجد يخطأ خطأ

يسير في المسجد، يأتي بالشرطة ويأمر بحمله ورميه خارج المسجد النبوي، هذه بيئة كانت السنة غالبة كان أهل العلم متوافرون، كان مالك، مالك النجب، هذه الكلمات والتصرفات خاضعة لوقته، خاضعة لزمانه، أن يرى أحد أن هذا الفعل الذي أتى به مالك هو فعل الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحكم القرآني هذا غلط هذا باطل، وهذا ينبغي أن نفهمه، ذلك لأن الكثير يأتي بكلام العلماء السابقين ويطبقه على وقته.

فمثال ذلك الآن: قال: «بيننا وبينكم يوم الجنائز» (١)، اليوم يخرج طاغوت ويشيعونه، فأكبر جنازة ممكن في العالم العربي، جنازة الطاغوت جمال عبد الناصر أين بينكم وبينكم يوم الجنائز؟ هذا دليل؟ هذا لوقته، هذا لزمانه تحمل على وقته على كلمته، ليست آية وليست حديث، وقد يموت الصالح في بيئةً لا يُعرف، فلا يشيعه إلا أهله، ومن أعظم قيمة؟ جمال عبد الناصر أم حسن البنا؟ حسن البنا مشى معه امرأتان وثلاث رجال، وعبد الناصر مشى معه الملايين.

فالقصد: أن هذه كلمات ينبغي أن تحمل على بيئتها، وعلى زمانها، وألا تطرد.

القصد من هذا: أنا أريد أن أقول: عندما قال الله عز وجل: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، هنا قد يقول قائل: الصحابة رضي الله عنهم من الذين أنعم الله عليهم، نعم من الذين أنعم الله عليهم، فيأتي أحد ويقول هل للصحابة أن يقلد بعضهم بعضاً؟ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعتبرون هذا، بل النبي صلى الله عليه وسلم يقول لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: (لو اجتمعتما على أمر ما خالفتكما)، نعم هذا ليس في التشريع لأن المشرع حاضر، ومن هنا اختلف في النبي صلى الله عليه وسلم، هل يجوز له الاجتهاد أم لا؟ مُختلف فيه، في النبي صلى الله عليه وسلم هل يجتهد أم لا؟ والمجمع عليه أن غير النبي صلى الله عليه وسلم عليه أن يجتهد، واجبٌ عليه أن يجتهد، وهكذا.

إذن في كل زمان لا بد من وجود أئمة يعيشون وهكذا يتصل هذا الدين بالعلم كما يتصل بالرجال، تكلمنا عن هذا الأمر في بابٍ آخر ويكفي ها هنا المهم نقول: الله عز وجل بعد أن عرف بالصراط في ذاته أنه مستقيم عرف برجاله، قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾ [الرعد: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: ١٨]، وهكذا.

قال تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، هنا انظر هذه النعمة إلهية، وقلنا النعمة في أساسها هي السهولة، انظر هذا الاختيار الإلهي لكلمة ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ما قال: تفضلت عليه، ما قال: أكرمتهم، وكلها في

((١)) هذه مقولة مروية عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى، رواها عنه الدارقطني بسند صحيح؛ حيث قال: «سمعتُ أبا عليٍّ الصَّوَّافَ يقولُ: سمعتُ عبدَاللهِ بنَ أحمدَ، يقولُ: سمعتُ أبي رحمه اللهُ، يقولُ: «قولوا لأهلِ البدعِ: بيننا وبينكم يومُ الجنائزِ». وسمعتُ أبا سهلِ بنَ زيادٍ يَذكرُ ذلك».

ظاهر الأمر تقوم بنفس المعنى، لكن اختيار كلمة ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، والغريب أنهم هم الذين يتكلمون، هم الذين يقولون، قال الله عز وجل: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، من الذي أكملها؟ من الذي أكملها العبد أم غيره؟ العابد السائل أم غيره؟ قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، من الذي يقول؟ لو الله عز وجل يقول صراط الذين أنعمتُ، أنا أنعمت عليهم، لكن العبد يقول: يا رب ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وفي ذلك إقرارٌ لهذا السائل، بعظم الأئمة الذين سبقوه ومهدوا له هذا الصراط، لأنه يعرفهم، ويقدرهم، ويقول يا رب: هؤلاء سبقوا إلى الخير فاحملني على ما حملتهم عليه، هذا إقرار منه، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

فكيف عَلِمَ؟ عَلِم لما رأى كرامة الله عز وجل لهم، بماذا؟ بما ختموا عليه من خير، وبما حدث لهم من صيت حسن، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤)﴾ [الشعراء: ٨٤]، لما الإنسان يرى أن هؤلاء قد رفع الله مقامهم، فهو يعلم أنهم على الحق، لما يعلم أنهم قد انتصروا وقد حقق الله لهم غايتهم في الدنيا يعلم أن هؤلاء قد أنعم الله عليهم، ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فهو يرى هذه النعمة ويعلم أن هذا الصراط نعمة.

وفي هذا ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ كلمة النعمة، في هذا دليل على أن هذه الشريعة نور ونعمة إلهية للخلق، فمن غير هذه الشريعة سيكون الإنسان مجرد دابة، بهيمة لا قيمة لها، هذه الشريعة هذه نعمة من الله عز وجل، فهذا فرق، فرق أن ترى التشريع تكاليف ثقيلة عليك وفرق أن ترى أن هذه التكاليف نعمة عليك، نعمة لك، تنزل عليك من الله، كيف هي نعمة؟ هذه الشريعة تخرجك من مرتبة الدواب إلى مرتبة الإنسانية، أنت من غير هذه الشريعة لا تملك صفات الإنسانية إلا بشكلك أنك إنسان، لكن ما الذي يحقق الأُنس في الوجود لتكون إنساناً، من؟ الشريعة، النعمة الإلهية، فهي نعمة إلهية لأنها تحقق إنسانيتك، الشريعة الإلهية نعمة لأنه ما من أمر إلا وهو سبيل يحقق لك بابًا من أبواب الجنة، النهاية هي الجنة، فهي نعمة.

أنت ترى أمامك جنة عظيمة، (فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) ثم بعد ذلك لا تعرف السبيل إليها، أي عذاب أنت فيه؟ فإذا هديت فأنت أعطيت النعمة، هذه نعمة عظيمة، بهذه النعمة أنت تحقق المقامات في الجنة، ليس فقط السبيل إليها؟ لكن هذه كلما كثرت النعم، تعددت أسباب دخولك الجنة، تعددت الخيرات لك بتحصيل إرضاء الله عز وجل، أنك تحقق رضى الله عز وجل، ولأن النفس تمل.

لو الإنسان فقط يعبد الله بذكرٍ واحد سبحان الله، سبحان الله، لما علم فضل الله في قوله: «الحمد لله»، ولما علم فضل الله بقوله: «لا إله إلا الله»، ولما علم فضل الله في قوله: «الله أكبر»، فإذا كثرت هذه الأحكام، فهي لك،

ولذلك (لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً)، إذاً هو يزيد مُلك من؟ هذه النعم تزيد مُلكك أنت، أنت محتاجٌ إليها فهي نعمة، وهذه النعمة سهلة.

ولذلك من الكلمات المنتشرة اليوم وهي خطأ، قولهم الواجبات أكثر من الأوقات، هذه الكلمة غلط، نعم المعنى الذي أراده صاحبها وهو قضية التعاون، تعاون أنت وإخوانك فالمهمات عظيمة وهذا المعنى صحيح، ولكن هذه الكلمة لا تصح من جهة الأصول، لأن الحقيقة الواجبات أقل بكثير من الأوقات، وإذا قلنا بأن الواجبات أكثر من الأوقات، فهذا يؤدي إلى قول: أن الإنسان مكلف فوق طاقته، والله عز وجل لم يكلفه فوق طاقته، عندما حكم عليك بخمسين صلاة يعلم أنك يمكن أن تقوم بخمسين صلاة، رحمك وأنعم عليك وجعلها خمس صلوات على أجر خمسين صلاة رحمةً بك، فأنت تستطيع أن تقوم بأكثر من هذا، لكنه وسع عليك، وأعطاك من الأجور العظيمة.

فـ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، هؤلاء من هم؟ هم بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم والصحابة هم الأنبياء وأتباع الأنبياء، هؤلاء الذين يقرؤونها فيستذكرون نوح عليه السلام، ويستذكرون إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى عليهم السلام، يستذكرون هؤلاء الأنبياء، يستشعرونهم، يحضرون معهم في عبادتهم، وهؤلاء هم أئمتك، وقد قضي وفصل لهم بالخير أن الله أنعم في الدنيا وأنعم عليهم في الآخرة، فهؤلاء يعيشون النعمة.

وكما أن الله عز وجل فصَّل في صفاته فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ٢-٤]، فصل في سبيله الموصل إليه والموصل إلى رضاه، فقال لو تقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ترى الموضوع يكفي، حينئذٍ تعرف الصراط المستقيم مم ذكر ولكنه كما ذكرنا ولا نريد أن نُعيد، بل هنا وهذا ينبغي أن يراعى فإنه كذلك بيّن المخاصمين له والمعرضين عنه على جهتين من وجوه الإعراض والترك لهذا السبيل، فقال سبحانه وتعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، وبين المخالف لذلك، طبعاً هذه الآن الشريعة، هذا الصراط المستقيم هذا شريعة الله، ومالك يوم الدين هذه الجنة والنار، وهذا الذي أنعم الله عليهم للجنة.

والآن نبين الآخر وهو ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الفاتحة: ٧]، ذلك لأن الإنسان يترك الصراط المستقيم لأمرين، إما لمعرفته له فيعرض عنه من أجل الهوى، وموانع اتباع الحق بعد معرفته أعظم ما يمنع هو الهوى، هنا المشكلة مشكلة إرادة، وإما أن يمتنع عن سلوك سبيل الحق لأنه لم يهتدي إليه، فالضالون هم الذين لم يعرفوا الحق، والذي لا يعرف الحق لا يسلكه، والمغضوب عليهم علموا الحق فسلكوا غيره، لماذا؟ لعوارض، منها عوارض الهوى، عوارض الحسد، عوارض الكبر، وهذه أعظم العوارض.

فبما عصا إبليس؟ بالكبر، ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، عارض الكبر، بما تم أول قتل في الوجود؟ الحسد، طب بما عصا آدم؟ بالشهوة.

وهذه المعاصي الثلاثة، هذه أول معاصي في الوجود.

المعصية الأولى: معصية إبليس، تمت بسبب الكبر، وكلها لا تتعلق بالاعتقاد، كلها تتعلق بالأمر، هذا رد على الذين لا يرون التكفير إلا بالاعتقاد، كلها لا تتعلق بالاعتقاد، أول معصية هي معصية إبليس تمت بسبب الكبر، يعلم الحق؟ يعلم الحق، يؤمن بيوم القيامة؟ قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]، مقر لربوبية الله عز وجل، ولكنه جاء إلى الأمر فتكبر عليه ولم يرضى، هذه أول معصية، معصية الكبر، فإذا كانت المعصية سببها الكبر قال صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر).

المعصية الثانية: هي معصية آدم، تمت بسبب الشهوة، أنه قال له إبليس هذه شجرة الخلد وملك لا يبلى فاشتهى أن يكون ملكاً وأن يكون دائماً لا يبلى، إنه الخلد، شهوة، وإذا كانت بسبب الشهوة مع التوبة والإنابة هذا حاله حال أبينا وكلنا كذلك، (كلُّكُم خطَّاءون وخيرُ الخطَّائينَ التَّوَّابونَ).

المعصية الثالثة: هي معصية ابن آدم وسببها الحسد، هذه كما يقول الإمام مالك رحمه الله كما ذكر عنه صاحب «التمهيد» أبو عمر بن عبد البر رحمه الله: هذه أسباب كل معاصي الوجود، الكبر من إبليس، الشهوة والهوى من آدم، والحسد حسدَ أخاه، وهي معصية ابن آدم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، والمغضوب عليهم هؤلاء علموا الحق ولم يأتوا إليه، فمغضوبٌ عليهم، ما سبب كفر اليهود؟ الحسد، حسدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهم يريدون الخير لهم، يريدون النبوة أن تكون فيهم، فحسدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكون النبوة في غيرهم، في غير أبناء اسحاق، فحسدوه، وكذلك كفر قريش، حسدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبو جهل عَلِم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فحسده، فهذا من الموانع وكلها من موانع اتباع الحق بعد معرفته.

والهوى هو من أعظم الأسباب، والكبر والحسد بعد معرفة الحق، وهذا في الحديث أئمة هذه المعصية أئمتهم الذين يعرضون عن أمر الله وهم مغضوب عليهم كثيرون، كثيرون في التاريخ وفي الوجود وفي الحاضر، لكن أئمتهم في الوجود هم اليهود، من تمثلت فيهم صفة الإعراض عن الحق بعد وضوحه بصيرةً بينةً كالشمس هم اليهود، فقال: هم اليهود، طبعاً لماذا لم يضرب في قريش؟ لاختلاط الأمرين فيهم، وثانياً: لأن الناس بعدهم أي بعد ذهاب قريش وإسلام قريش ما بقي للناس مثالاً في الناس، في معارضة هذا الصراط المستقيم ودخولهم في المغضوب عليهم ولا الضالين، ما بقي لهم مثال إلا اليهود والنصارى، أهل الإسلام من يضلهم؟ اليهود والنصارى فهم أئمتهم.

وقال الله عز وجل: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠]، وصفهم دائماً بالمغضوب عليهم، وأما الضالون فهم النصارى لأنهم لم يعلموا الحق، جهلوه، لم يعلموا هذا الحق، ولذلك الله عز وجل لما سماهم قال: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [المائدة: ٧٧]، فجعل فيهم الضلال وعدم الهداية.

ومما يستشهد على هذا المعنى الذي بين أيدينا وهو في سورة «النور» وهذا من إحدى وجوهها وإلا لها وجوه أخرى، أنه لما جاء ربنا سبحانه وتعالى إلى اللاعن لزوجته، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩)﴾ [النور: ٦-٩]، من إحدى وجوهها لماذا قال الله عز وجل عنها ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾، ذلك لأنها تجزم بغير جزم الرجل، الرجل في النهاية رأى، وقد يقع منه هذا الحكم، أي هذا اللعن، وقد يقع فيه مع الشك، لكن مع غلبة الظن، يعني قد يكون فيه بعض الشك ويقع منه، لأنه يشاهد، لكن المرأة إذا فعلته أي إذا ردَّت إيمان الرجل تكون عالمةً باليقين لأنها صاحبة الفعل، ولذلك كان الغضب عليها ذلك لأن جزمها في الفعل أشد من جزم الرجل، هذا إحدى الوجوه وإلا فهناك وجوه أخرى، إذا قدر الله نأتي إليها.

فوقع عليها غضب الله ذلك لما يقع على اليهود، اليهود هم يجزمون بالحق وخالفوا، والمرأة هنا تجزم بالحق معرفةً به لأنها فاعلته ومع ذلك تحلف الأيمان الكاذبة، فوقع غضب الله عليها، طبعاً لو قال قائل: من أشد اللعن أم الغضب؟ الصواب اللعن، واستطرادًا لو قيل لِمَ جاء اللعن فيه والغضب عليه؟ ذلك لأن المعصية منه ما لو وقعت كانت أشد.

مثلاً: لو أن رجلاً رمى زوجته بالزنا، وامرأة ردَّت، فدوافع المعصية أي شدتها وثقلها في دفعها عن نفسه، أو اتهام الآخر بها، من أشد الناس جريمة؟ الرجل حين كذب أم المرأة حين ردت؟ الرجل، المرأة حين ترد تكون عوامل الرد فيها يعني لا أقول قوية ولكنها موجودة، يقال لها: أهلك، يقال لها: أولادك، يقال لها: تجلدين، يقال لها: ترجمين، ولذلك يوجد ما يضغط به عليها، ولذلك جعل عليها الغضب.

فالمرأة حين ترد تهمة الرجل، تكون الضغوط عليها في الرد أقوى، أنت ما الذي دفعك إلى أن تتهم زوجتك بالفاحشة؟ ما الذي دفعك، أين الضغط عليه؟ يستطيع أن يستر إن لم يكن هناك ولد، أن يقول: لا أريد هذه الزوجة ويطلقها وانتهى الموضوع، لا يوجد عليه ضغط صحيح؟ وهو لا يفعله إلا تحت ضغط واحد وهو وجود الولد لينفي النسب، لكن إن فعلها كاذباً وهو يعلم أنه كاذب، كانت جريمته أشد لعدم وجود ضغوط، فالمرء يعفى عنه إذا كانت المشقة عليه شديدة، فما الأعظم معصية الرجل الذي يبحث –وهذا فيه أحاديث– الرجل الذي يبحث عن معصية ويتقفرها وهو يستطيع أن يهرب منها، أم الرجل يأتي إلى أمر فيلزم به ويقع عليه من الضغوط ما يؤدي به إلى المعصية؟

من أشد الناس إثماً؟ الأول، فالمرأة حين دفعت عنها كانت تحت ضغوط، فالغضب عليها، وأما هو فأشد فاللعنة عليه، ولذلك في الآية قُدِّم، ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]، فجعل اللعنة مقدمة على الغضب.

هذه فقط زيادة عما نحن فيه، ولكننا نحتج بأن المرأة وقع عليها الغضب على وجهٍ آخر، لماذا وقع عليها الغضب؟ لأنها بنفيها الفعل وهي صاحبته وقد فعلته على يقينٍ أنها تكذب، بخلاف الزوج، يبقى في الأمر ما فيه، هذا بعض وجهه.

الأمر الثاني: تبين أن الذين يعبدون الله على جهالهم أشبه بالضالين، والذين يعلمون الحق فيعرضوا عنه فأشبه بالمغضوب عليهم، ولذلك يقول شيخ الإسلام: «من ضل من هؤلاء العلماء –أي من هذه الأمة من العلماء– فهو أشبه باليهود»، لأن العلماء يعلمون الحق، ولكن يعرضون عنه، ولكن النصارى لا يعلمون فقال: «وأشبه الناس بالضالين في هذه الأمة هم العبّاد»، فضلال علماء أمتنا يدخلهم في اليهودية، وضلال عباد هذه الأمة يدخلهم في النصرانية، قال صلى الله عليه وسلم: (لتتَّبعنَّ سَننَ من كانَ قبلَكم حذو القُذَّةِ بالقُذَّةِ حتَّى لو دخلوا جحرَ ضبٍّ لدخلتُموه. قالوا: اليَهودُ والنَّصارى؟ قالَ: فمَن)، هؤلاء هم نماذج الأمة في المعصية.

وهنا استخدام القرآن نعتذر لهذه الكلمات استخدام القرآن، بناء القرآن، وهذا اعتذر عنه ابن عطية رحمه الله وجدته فقط الوحيد الذي اعتذر وقال: نعم هي كلمات ليس المراد بها الذي يريده المعتزلي، وكلمات تقال لكن جرت على ألسنة الناس، فيقال استخدام، وهو كلمات الله، لكن هكذا تجري الكلمات، واعتذر عنها، وقال: بأنها لا بد أن تقع من المتكلم، لأنها تؤدي المراد مع وجود المعنى البين لها، القرآن قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

أولاً: هنا نرى تغاير، فقال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وقال: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، وقراءة لعمر رضي الله عنه غير المغضوب عليهم وغير الضالين، هذه القراءة لعمر، لكن القراءات المشهورة التي بين أيدينا ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فلماذا تميزت أدوات الاستثناء هنا؟ يعني يستطيع أن يقول: غير المغضوب عليهم وغير الضالين، بل يستطيع أن يقول غير المغضوب عليهم والضالين، وكلها تقوم بنفس المعنى في ظاهر الأمر، لكن هذا التغاير في أداة الاستثناء له معنى، وهو أنه لو كان الاستثناء بأداةٍ واحدة لكان كل واحدٍ يقوم مقام الآخر وليس كذلك، فإن الضالين غير المغضوب عليهم، فاستخدام أداةٍ مخالفة يعني أن له معنى آخر، يعني لو قال: غير المغضوب عليهم وغير الضالين لعلم أن هذا فساده كفساد هذا وهذا معناه في الخروج عن الصراط، معناه كالخروج عن الصراط هذا، فلما غاير بوسيلة الاستثناء دل على أن كل واحدٍ قد خرج عن الصراط المستقيم بمعنى خاصٍ به.

ثانياً: قال سبحانه وتعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾، هنا كما قلنا من غير تطويل أن هنا ذكر رجالاً وذكر أئمةً، كما أنه قال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ذكر أئمة للصراط، ما قال: صراط الغضب وصراط الضلال، بل جعلها في الرجال، ومن هنا فإن: «البراءة من الفعل لا تقتضي البراءة من الفاعل، لكن البراءة من الفاعل تقتضي البراءة من الفعل»، يعني أنت قد تتبرأ من الفعل ويبقى بينك وبين الفاعل بعض القرابة بعض الصلة، لكن حين تتبرأ أنت من الفاعل فلزوماً يكون البراءة من الفعل، لأن سبب البراءة من الفاعل هو الفعل، ولكنه زاد حتى صار هو ملتصق بهذا الفعل فانسحب الحكم عليه كما انسحب الحكم على الفعل.

فلذلك قال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، بقي المقام هو مقام جماعة ومقام أفراد ومقام أديان ومقام طوائف ومقام رجال، ومن هنا الأنبياء كلهم، فإبراهيم عليه السلام قال: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الممتحنة: ٤]، فتبرأ منهم قبل أن يتبرأ من عبادتهم، ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ﴾، فينبغي الهجران وينبغي الترك، فلما قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، هذا زيادةٌ في الابتعاد عنهم، ليس فقط عن سبيلهم ولكن زيادة حتى بالبراءة من شخوصهم ورجالهم وأحزابهم وجماعاتهم وبلادهم وديارهم.

فيقول سبحانه وتعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾، الآن هنا لا بد من شيء مهم جداً وهم أن الحق كما يجب بيانه في نفسه يجب كذلك بيان المخالف له، لا يكفي أن يقول القائل وهذا تنبيه على بعض ما تقع به الجماعات أنهم يقولون: نحن فقط نأمر بالمعروف، نبين فقط الحق، نبين الصلاة، نبين الزكاة، نبين الحج، وأما الباطل فإننا حين نبين الصلاة كأن الكلام فيها بيان لتارك الصلاة، عندما نبين الزكاة كأن في ذلك بيان لتارك الزكاة، هذا لا يكفي، بل لا بد للمسلم حين يبين الحق أن يبين معه الباطل المقابل له؛ لأنه حين يكون الحق واضح يكون الباطل واضحاً، لكن عندما تختلط الألوان فإنه لا يعرف إلا بالصفاء المطلق، ما معنى هذا الكلام؟

الآن الفرق بين الأبيض والأسود فلو أحضرت الأبيض لعلمت ضِمناً لعلمت أنه مفارق للسواد، لكن حين تكون المسألة بيان مراتب الأبيض، فمم تعرفه؟ تقول له: أبيض، يقول لك: أريد أن أعرف مرتبته، فلا بد أن تبين له المقابل في مرتبته في داخل هذا اللون، أي لو أردت أن تعرف مراتب البياض، لا يمكن أن تعرفها إلا بإحضارها جميعاً، الآن كيف تريد أن تعرف أن هذا أبيض من هذا؟ لا بد من الآخر، لكن هل تقول: أبيض وأسود؟ ربما يتم هذا البيان.

فأن يقال بأن الإسلام فارق النصرانية في قضية الإلهية فهذا بيّن، يعني يكفي أن تقول: الله واحد فمن قال غيره فقد أشرك، فأنت تستطيع أن تضع في تفسير هذه الكلمة فقد أشرك الكثير من قال، لكن حين تريد أن تبين المراتب

الدقيقة في الخلاف بين الإسلام وغيره حينئذٍ لا بد أن تعرض غيره أمامه، ومن هنا جاء الإسلام ليس فقط للأمر بالمعروف، ولكنه جاء بالنهي عن المنكر، ولم يأتِ ببيان الحق فقط، ولكنه كذلك جاء ببيان الباطل، كشفه.

وهذه الآية ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الفاتحة: ٧] شاملة لكل ما قاله الله سبحانه وتعالى في كتابه عن اليهود والنصارى، بعد أن قال ربنا سبحانه وتعالى عن الإنسان مؤمن في آيات، ثم قال عن الكافر ثم المنافق ١٢ آية، بعد ذلك أين التفصيل؟ قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾ [البقرة: ٤٠]، سورة «البقرة» وما فيها من بيان، سورة «المائدة» وما فيها من البيان، سورة «التوبة» وما فيها من بيان لليهود والنصارى وما قالوه في الله عز وجل، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، هذا كله لماذا؟ بيان للمغضوب عليهم، بيان لطريق الضالين يبينه لنا، يبين طريق النصارى، يبين لنا طريق اليهود، وكيف ضلوا، يبين لنا تحايل اليهود، كيف تحايلوا في الشريعة، يكشف لنا تحايلهم، ويكشف لنا تاريخهم مع الأنبياء، يكشف لنا تاريخهم مع أنفسهم، انه أمرهم ألا يسبي بعضهم بعضاً وأن لا يقتلوا بعضهم بعضاً ففعلوا غير ذلك وكيف تلعبوا، يكشف لنا كيف طلبوا من أنبيائهم مُلوكاً ليقاتلوا معهم وماذا حدث معهم، هذا الخبر القرآني عنهم هو كشفٌ لحقيقة المغضوب عليهم والضالين.

ومن هنا كما أنه يجب عليك التفصيل في بيان الحق، يجب عليك التفصيل في بيان الباطل، والدليل هذا، قال تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فجعل مقابل النعمة طريقين اثنين وهو الضالين والمغضوب عليهم، عليك أن تبينه، عليك أن تفصله، فلا يكفي فقط العبارات الكاملة، دعك فقط بين الحق ودع الباطل الناس سيعرفونه من أنفسهم... لا، لا، لأن الناس يحبون أن يجمعوا مع الحق، هؤلاء أهل الإسلام عادةً يحبون أن يجمعون مع الحق الباطل، الكفار هم على الباطل المطلق، لكن أهل الإسلام أين مشكلتهم؟ ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤)﴾ [الإسراء: ٧٤]، ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ﴾ [المائدة: ٤٩]، هذا ينبغي أن تعرفه فيهم وأن تعرف الطريقة التي ضلوا فيها.

قال تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، انظر إلى الحكم النهائي، وطبعاً المغضوب شدة الغضب يعني شدة العذاب عليهم، والله عز وجل يغضب، طبعاً هنا إثبات صفة الغضب لله عز وجل، ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، من الذي غضب عليهم؟ الله عز وجل، وهي إثبات صفة الغضب التي تنشأ بسبب وجود مقتضاها في العبد، و ﴿الضَّالِّينَ﴾ الضلال هو ترك الهداية، ضل أي لم يهتدي، فالضلال كثير، الذي في الأمة كثير، والذين في هذا التاريخ كثير.

بهذا إن شاء الله نقف ها هنا أسأل الله عز وجل أن نكون قد أوفينا هذه السورة بعض حقها، وما نزال إن شاء الله نعود في إجمال ما تقدمت به هذه السورة وما بيّنه الله عز وجل فيها بطريق الإجمال والعودة إليها فيما تقدم تفصيله، أرجو من الله عز وجل أن يغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: هل القول بأن العلماء متفقون في العذر بالجهل، ولكن اختلفوا في تحقيق المناط في المعين جيد؟

الشيخ: لا، غير صحيح، يعني كأن السائل يريد أن يقول: بأن القاعدة العلمية واحدة عند الجميع ولكن اختلفوا في تنزيلها على الأعيان، هذا غير صحيح، يعني العذر بالجهل إعذار الجاهل في بعض المسائل نفس هذه المسألة مختلف فيها في أصلها العلمي قبل إنزالها على المعينين، يوجد خلاف ويوجد اضطراب ولذلك المحققون من أهل العلم يجعلونها مسألة خلافية.

مثلاً: عندما يأتي كلام شكري الآلوسي بعض كلمات لابن عبد الوهاب ما يذكر عن شيخ الإسلام في قضية المقيمين على القبور، فكيف هو حالهم؟ هناك من يتوقف فيهم، يقول الله أعلم بقلوبهم، وهناك من يقول: إنهم كفار ومشركون، اقصد المقيمين أي الذين يسجدون لهم ويستغيثون بهم ويذبحون لهم ليس عندهم، أنا أدقق هنا فبعضهم يجعله مشركًا ولا عذر له، وهناك من يتوقف وهناك من يعذره ويقول الله أعلم بحاله ويعذره.

ولذلك المسألة في أصلها مختلف فيها هذه، بعد وجود أصل الإسلام، أصل السلام أي أن يدخل في لا إله إلا الله ومحمد رسول الله ويقول: وأنني أنا لا أعبد إلا الله ولا أتبع إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني هذا هو أصل الإسلام فإذا دخل المرء فيه فبعد ذلك يصبح مجال للخلاف بين الناس، ومسألة خلافية، لكن إذا جهل المرء لا إله إلا الله ومحمد رسول الله فهذا كافر، وبعد ذلك يقع التفصيل في الدنيا نسميه كافرًا ولكن استحلال المال والدم يقع بعد البلاغ وفي الآخرة على خلاف بين أهل العلم والصواب أنه يمتحن يوم القيامة، هؤلاء لأنهم من أهل الفترة. وهؤلاء تقام عليهم الحجة بالبلاغ، أي بالكلمة يقال لهم قولوا: لا إله إلا الله ومحمد رسول الله، مع شرحها لمعناها فقط المجمل، فقد أقيمت عليهم الحجة، لقوله: (لا يسمع بي يهوديٌ ولا نصراني)، فبمجرد السمع، أما المسائل التي دون ذلك فكل مسألةٍ تقل عن ذلك تحتاج إلى بيانٍ أزيد وأكثر، والله تعالى أعلم.

السائل: إكمال للسؤال الأول، مثل ظهور هذه المسألة في بعض الأوقات بشدة فلما لا تعاد طباعة وتلجؤون إلى وإضافة ما يكون إضافته بما أحدثه الغلاة؟

الشيخ: والله أما أنها تظهر فواضح أن أناس يحبون التميز، يعني هذا الرجل المسمى بالحازمي، أنا سمعت لبعض أخص تلاميذه كيف ظهرت عنده هذه البلية؟ أنه لا يعرف وواضح أنه لا يعرف في المسألة جيدًا وأقول لكم أنه جديد عليها ففوجئ بما فيها فقال مقالات الشر وكان يفتخر وهذا من انحرافه أنه يفتخر بأن المسألة حازمية، معنى أنه يحب أن ينتسب إليها، وقد اعترف أنه كفر نفسه وقال أنا كنت كافرًا لما كنت في مصر وكان يعذر بالجهل، فهذا هذه التغير والتبدل هي سمة غير المتمكنين وهي سمة الجهلة.

لكن أضرب لكم مثالاً لتعرفوا جهل هذا الرجل في مسألة من مسائل التي دخل فيها من غير بصيرة، مسألة النُسك، مسألة النحر، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢)﴾ [الكوثر: ٢]، هذه المسألة قد يجهل المرء أنها عبادة، ولا تصل إلى درجة العبادة، ولكنها عند عموم المسلمين يعلمون أنها نسك وقد يجهل البعض يعني قد يحصل في البوادي والقرى البعيدة يجهلون هذا، فهذه المسألة التي يقع فيها الخلاف لكن لنبقى في مسألة عموم المسلمين يعلمون أن الاستغاثة عبادة فمن استغاث بغير الله فقد عبد هذا المستغاث به، وهذه مقررة معلومة، أنا أسأل هذه الانتخابات ومسائل البرلمانات هل يعلمها الناس ما هي؟ لا يعلمونها، الناس في توصيف واقعها مختلف بخلاف اتفاقهم على معنى أن الدعاء هو العبادة أي أن أهل الإسلام يعلمون أن العبادة هو الدعاء وذلك بالآيات البينات، الدعاء هو العبادة كما في الحديث: (ادعوني استجب لكم)، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ [غافر: ٦٠]، فمعلوم أن الدعاء هو العبادة.

هذا المقرر لكن أين يجد الناس الانتخابات؟ قد يأتي رجل يقولوا له: انتخب، يقول: ما الانتخابات؟ يقولوا له؟ نحن نريد فقط أن نضع واحدًا منكم في هذا البرلمان من أجل ان يصلح لكم الشوارع وأن يعبد لكم إياها وأن يبني لكم البيوت وأن يوزع الثروة عليكم، فيقول: نعم أنا انتخب، ألا يوجد إلى هذا اليوم من يعتبر الانتخابات على هذا المعنى؟ إلى يومنا هذا أن البعض لا يعرف من الانتخابات من الناس بل عموم المسلمين لا يعلمون الانتخابات إلا هذا، لا يعرفون أن هذا مجلس تشريعي، إذًا هو توصيفه لا يعرفونه، ومع ذلك يرى هذا الرجل كفر كل من انتخب ولا يُعذر بجهله ليس هنا بالتوحيد، ولكن الجهل بهذا الشيء ما هو؟ يعني الانتخابات تقع في أفعال جائزة، يعني لو أن اهل الإسلام اتفقوا على أن لا يولوا أميرًا عليهم في بلدة أو سلطان حتى ينتخبوه، هذا الفعل جائز أو غير جائز؟ جائز، ما في حرج. وهذا فعل عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه لما ولى عثمان قال وجدت يا علي الناس يجمعوا على عثمان، لا يقدمك أحد على عثمان، فشاور الناس.

والآن لو الناس ينتخبون للبلدية بصورتها المجردة من غير وجود أي معنى تشريعي، يعني رجل من أجل أن يقوم بشؤون هذه البلدية في إصلاحها وتوزيعها وغير ذلك، هذا الانتخاب هل يكون كفرًا؟ لا يكون كفرًا، لكن لماذا نحن نكفر البرلمان؟ ليس للانتخابات؟ نكفر البرلمان لأن البرلمان هو إعطاء حق التشريع لغير الله، الناس يجهلون هذا، يجهلون يعني فرق أن تقول فلانٌ يجهل أن التشريع على خلاف الشرع كفر، فهذا جهلٌ بالشريعة، عندك جاهل بالتوحيد، بالرغم أن هذا بعيد، لكن لنسايره إلى ما يريد.

فلو قال قائل: أنا أجهل أن التشريع على خلاف الشريعة كفر، لصح قوله هو بأن هذا جاهلٌ بالتوحيد فكفر، على قوله جاهلٌ بالتوحيد على أساس أن من أركان التوحيد أن يعلم العبد أن المشرع للحلال والحرام والتحسين والتقبيح هو الله عز وجل، فهو جاهلٌ بالتوحيد فهو كافر، لكن هذا لا يعلم أن البرلمان يمثل هذا النوع من الشرك، لأنه شيءٌ جديد، ومع ذلك يكفرون كل من انتخب، لماذا؟ لأنه جانب التوحيد، هذا الكذب على حقيقة هذا الشخص الْمُكفر، لأنه ليس هنا –الرجل كافر والمرء المنتخب– ليس هنا هو جاهلٌ بالتوحيد، هو جاهلٌ بهذا الأمر ما هو؟ ذلك وأن الانتخاب كما قلنا يقع على معاني كثيرة في حياة الناس، هذه الصورة أنا ما كنت أظن أن أحدًا من طلبة العلم يمكن أن يقع فيها، لكن من أخص تلاميذه من قال لي: نعم، هو يكفر من انتخب ويرى أن جهله بالانتخاب هو جهلٌ بالتوحيد، فلما سمعت هذه كبرت عليه أربعًا وقلت هذا ميت هذا لا قيمة له في العلم؛ لأنه جاهل وواضح أن الرجل في مثل هذه المسائل يعني فرح بشيء وجده فطار به، هذا واحد.

الشيء الثاني: الغريب أن كثيرًا منهم ينشر أقواله أو أقوال أهل العلم، ويحمل الكلام على التوحيد، التوحيد وهو «لا إله إلا الله ومحمدٌ رسول الله»، على مسائل خلافية ومسائل يمكن أن يقع فيها الموحد لا يعلم ما هي، لا يعلم أنها تناقض التوحيد، ويحضرون الأقوال الكبيرة لينزلوها على المسائل المختلف فيها، أي يحضرون كلام للأئمة أن الذي يجهل التوحيد هذا الذي يعذر جاهل التوحيد هذا جاهلٌ بالتوحيد، والكلام على توحيد الله وهو «لا إله إلا الله ومحمدٌ رسول الله»، وهو قول العبد: أنا لا أعبد إلا الله.

لكن الناس هنا اختلافهم في معنى العبادة، اضرب لكم مثالاً آخر غير ما تقدم: لو أن رجلاً قال: إن السجود يحتمل التعظيم ويمكن تصور السجود من غير عبادة، يصح قوله أو لا يصح؟ يصح، والدليل أن الشارع في وقتٍ من الأوقات كان يأذن بالسجود، أذن بالسجود كان الناس يسجدون لبعضهم البعض، فالسجود يمكن تصوره من غير عبادة؟ يمكن تصوره.

فلو جاء رجل ونازع أن سجودي ليس عبادة إنما هو تعظيم لهذا وسلام من غير تعظيمٍ يصل لحد العبادة، هذا ينازع في هذه العبادة أنها تدخل في التوحيد أو لا، ينازع فيها، فرجلٌ ينازع في فعلٍ أنه لا يصل إلى ما يسمى العبادة التي بها يكفر، ينازع في هذا، هنا تأتي المسألة وهنا يأتي الخلاف، رجلٌ يتصور أن هذا يمكن أن يقع بغير عبادة، لفعلٍ

من الأفعال، وأنا ضربت مثالاً في السجود، يقول: أنا أسجد سلامًا، أسجد تعظيمًا لا يصل لحد العبادة التي بها يكون المرء قد عبد أي سواء سجد لله فعبده أو سجد لغير الله فعبده، فهذا موحد وهذا مشرك، فهنا يأتي الخلاف في هذه المسألة، وليس في تصور أن الذي يخالفك قد أجاز عبادة غير الله بتسميته مسلمًا نعوذ بالله، من قال هذا الكلام؟ هذا الجهالات.

انظر لهذه المسائل كما ضربت في مسألة الانتخابات، وأرجو أن تكون قد فهمت، والآن في مسألة الصلاة أفهمت جيدًا؟ فيأتي هكذا يحملون شعار الشيخ فلان مشرك، لماذا؟ قال: أجاز عبادة غير الله، أعوذ بالله يا رجل، من اجاز عبادة غير الله عز وجل فهو مشرك كافر نعوذ بالله، لكن المخالف لنا في بعض المسائل لا نكفره لأنه لم يفهم أن هذا الوجه هو عبادة، لا يفهم أن هذا عبادة، يأتي من يلبس عليه ويقول: هذه ليست عبادة، أنت لا تعبد هذا الشيء، يعني الأمثلة كثيرة وطامة فيها، والناس عندما نازعوا في التكفير، نازعوا في هذه المسائل، ولم يأتوا إلى الأصل وقال: نحن نعم نجيز عبادة غير الله عز وجل.

طبعًا بلا شك أن كل مسألةٍ فيها ما يقبل وفيها ما لا يقبل، بمعنى لو أن رجلاً قال: أنا أقول فلان يرزق وليس هو الله، وليس هو الرب، نقول: تكذب، فلان هو الذي يستطيع أن يرزق كل سائل، كما يقول الشيعة عن أئمتهم، أو هذا يستطيع أن يجيب سؤال كل سائل بما يريد، إذا طلب الزوجة يعطي إذا طلب الولد يعطي، فهذا لو قال بعد ذلك أنا أرى أنه يعطي وهذا ليس رب، نقول له: كذبت لأن هذه لا تليق إلا بالرب، هذا التصور لا يليق إلا بالرب، فقولك: إني لا أنسب له صفة الربوبية لغوٌ من الكلام.

وكما التأويل، التأويل فيه ما هو كفر لو أن رجلاً أول الصلاة –وهي أمر– بأنها هي التسبيح في الطرقات ولا أريد أن أذهب إلى المسجد ولا أركع ولا أسجد وليست هي الصلاة المعروفة بين المسلمين، هذا تأويله ماذا يقال له؟ كفرت، هذا التأويل لا يقبل ولا يستساغ لأنه مجمعٌ على رده، لكن لو أن رجلاً جاء وأول عملاً من الأعمال، مثلاً: لو أنه أول صفة من صفات الله عز وجل، وقال: أنا أنفي وجود صفة اليد الحقيقية لله ولكن أقول: هي القدرة، هذا نقول له: أنت مخطئ، هذا ضلال، لكن لا نكفره ما أحد المؤول.

ووجد من الجهلة اليوم من يكفر هؤلاء ويقال: الجهمية كفار، وجد في الحقيقة من الضالين المعاصرين من غال في تسمية هؤلاء كفارًا وعلى هذا يكون النووي كافر ويكون ابن حجر كافر لأنهم أولوا وابن الجوزي مؤول وأئمة الحنابلة من آل قدامة ومن بعدهم الكثير يرون التفويض، والتفويض عند من يقول بالإثبات شرٌ من التأويل، وهؤلاء أئمتنا فليس كل تأويل يقبل، وفي هذا الباب كذلك ليس كل من زعم أن هذا لا يكون إثبات للربوبية، هذا يكذب.

مثلاً: واحد يأتي يقول: هذا الشيخ يعلم حالي ويعلم العالم وما فيه وهو على فراشه، ثم يقول: وهذا ليس إصباغ صفة الربوبية على هذا الشيخ، نقول له: كذبت، هذا ما قلته أنت هو ما قاله النصارى في عيسى عليه السلام، وثم

يقولون هو ابن يعني هناك من النصارى من يقولون: هو ابن بمعنى هو تابعٌ له، ملحقٌ به، لأن النصارى يختلفون في عيسى عليه السلام، ومقامه في مقام الأب كابن مقام الأب، هناك من يقول: هو كالأب في كل شيء، وهناك من يقول هو تابعٌ له، الله اعطاه هكذا، ومع ذلك هو عندهم على الحقيقة رب، وهم يعبدونه وينسبون له صفات الربوبية، حتى لو زعموا أنه تابع.

فالقصد: أن هؤلاء يجهلون، ويقذفون بالعبارات الكبيرة، هؤلاء يجيزون عبادة غير الله، ويسمون المشرك مسلمًا، نعوذ بالله يا رجل، هذا جهل، لكن ماذا نصنع اليوم؟ ولا نريد أن ننشغل بهم، وهذا واحد.

النقطة الثانية: لماذا ينتشر هذا الامر؟ السبب هو أن هذا أسهل للناس هذه من المسائل التي تُعظم وتجعل للرجل شأنًا، بدل ما ينشغل بما هو شرك مجمع عليه ونقاتل من كفر بالله ونقاتل من عذب المسلمين فهذا الشيطان يأتي ويؤز الناس وقت ماذا؟ وقت انتصار الإسلام وقدوم الشباب على الدين، فيأتي الشيطان ليفرق الناس، ومن أراد أن يعرف كيف الشيطان يفرق فليقرأ سيرة الأمة بعد انتصار الإمام أحمد في فتنة خلق القرآن، كيف وزعهم في مسألةٍ لفظية؟ بعد أن نتفق هذا شرك يأتي واحد يقول: لا ولكن هنا مسألة شرك أخفى وأنت لا تعرفه، شرك أخفى أنا اعرفه وأنت لا تعرفه، وعلى ضوء ذلك أنت لا تعرفه؛ فأنت مشرك، فيبدأ الاقتتال هذا كله من تلبيس الشيطان، ومن إشغال الناس فيما بينهم، ومن الفتن العظيمة التي ينبغي أن نبرأ إلى الله عز وجل منها.

وانظر إلى ماذا يصنعون؟ يكفرون عموم الناس، يكفرون بلاد كاملة من المسلمين، وأحدهم يسأل هل أهل مصر كفار؟ قال: ما العجيب يعني؟ ما العجيب أن يكون أهل مصر كلهم كفارا؟ فأهل الصين كلهم كفار وأهل مصر كلهم، ما هي المشكلة؟!! هذا جرءة على دين الله وجرءة على الناس وجرءة على التوحيد الذي عليه أهل الإسلام، نعوذ بالله من الشيطان فهذا من الشيطان وهذا من تلبيس الناس للتفرق، بعد أن يجمع الله عز وجل القلوب على شيء يأتي الشيطان ويذهب ببعضهم وللأسف هذه تنطلي على الصغار والناس يحبون الجديد، يحبون التميز، يحبون أن يقولوا: نحن هذا الذي تعرفه نحن نعرفه من زمان لا تتكلموا به هذا بيّن تعالوا إلى هذه المسائل التي لا تعرفونها وبها يتم التمييز بين المسلم والكافر!! هكذا يأتون.

السائل: ما هو الراجح في حكم قراءة المأموم للفاتحة في الجهرية؟

الشيخ: هذه المسألة تعرفونها من المسائل التي خاض فيها العلماء الكبار وألف فيها الأمام البخاري كتابًا سماه القراءة خلف الإمام وألف فيها البيهقي، ومن المسائل الطويلة الكثيرة المتشعبة، والاقرب كما يقول ابن تيمية رحمه الله الذي يجمع أغلب الأدلة، لا نقول كل الأدلة، لا يوجد قول يجم كل الأدلة المختلف فيها، أن الإمام إذا قرأ في الصلاة السرية لا يكفي للمأموم لابد أن يقرأ في السرية مع الإمام إلا للمسبوق، أما في الصلاة الجهرية فقراءة الإمام له قراءة

والله تعالى أعلم، وهذه المسألة من يخالف، يخالف ومن يريد أن يأخذ بمذهب الشافعي رحمه الله ومن معه من الأئمة، كالإمام البخاري وغيره، فله ذلك، والله تعالى أعلم، بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا.

السائل: هل قراءة ملك يوم الدين أبلغ من مالك يوم الدين؟ لا، لا يوجد انتبهوا مما وقع فيه بعض الأئمة وعلى رأسهم إمام أهل التفسير الإمام الطبري رحمه الله أنهم يفضلون قراءة على قراءة وهذا غير صحيح، القراءة آية أجمع أهل التفسير على أن القراءة آية، هذه آية وهذه آية يعني هذه نزلت وهذه نزلت فلا تفضيل، لا ينبغي أن يفضل، هذه آية وهذه آية، هذه فيها معنى وهذه فيها معنى، فلا تفضل قراءة على قراءة، ويقع فيها الإمام ابن جرير نراه يقدم قراءة على قراءة، والصواب أن هذه قراءة وهذه قراءة وكلاهما، مالك يوم الدين آية ملك يوم الدين آية، أي عندنا في الفاتحة هذه الآية ليست آية واحدة هذه آيتان لكن لا يمكن للمرء إلا أن يقرأها آيةً واحدة، القراءة آية.

السائل: هل يعمل بالقياس في باب الحدود مثل قياس حد شارب المخدرات؟

الشيخ: نعم أعمله الصحابة رضي الله عنهم، الحدود أعمل الصحابة رضي الله عنهم فيه القياس، ولا يمكن إعمال التعزير إلا بالقياس على الصحيح، ذلك لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: (لَا يُجْلَدُ فَوْقَ عَشْرِ جَلَدَاتٍ إِلَّا فِي حَدٍّ مِن حُدُودِ اللَّهِ)، هذا محمول على من لم يكن له أصل.

الدرس الثالث عشر

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

هذا أيها الإخوة الأحبة هو الدرس الثالث عشر من دروس التفسير، وربما يكون هذا اليوم هو خاتمة الكلام عن السورة الجليلة العظيمة وهي فاتحة الكتاب، وقد تكلمنا بما قدرنا عليه، وإلا فالكلام عن سورة «الفاتحة» هو كلامٌ عن القرآن كله، وهذا قد ذكرنا عليه إشارات وملامح، لا نستطيع أن تستغرق هذا البحث، لأن كل آية لو قرأتها في كتاب الله عز جل وبحثت عنها في سورة «الفاتحة» لوجدتها داخلة في معنى من معاني سورة «الفاتحة»، ويكفي أن تعلم أن كل أسماء الله عز وجل في كتابه تعود إلى أنه الله، وأنه رب العالمين، وأنه الرحمن الرحيم وأنه مالك يوم الدين، الحديث عن القيامة عن كل مشاهد القيامة في القرآن داخلة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ٤]، الحديث عن كل شريعة الرحمن داخلة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، وداخلة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦]، الحديث عن كل الأعداء المعادين للرسل المتنكبين طريق الحق يدخلون في قوله سبحانه وتعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الفاتحة: ٧].

فإذن هذه السورة مستوعبة لمقاصد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، ومستوعبة للرسالة، ومستوعبة أولاً لأمر الْمُرسل، من هو هذا الْمُرسل؟ ويكفي الجلال والعظمة أن يفتتح أمر الْمُرسل بذكره بأن له الحمد، وكما تقدم الكلام لم يكن له استحقاق هذا الحمد إلا بسبب أنه هو الخالق ولا خالق سواه، وأن ما خلقه ورعاه وأمده في الوجود إلا وهو خاضع لرحمته، وما شرع شرعًا إلا برحمته، ولا يحاسب حساباً يوم القيامة بل لا يحاسب في الدنيا ولا في الآخرة إلا على وفق الرحمة.

فانظر هذا الترتيب العجيب في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢]، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أنه رب العالمين، وما من عالمٍ في الوجود من ذكر الملائكة، من ذكر الإنس، من ذكر الجان، من ذكر الشجر والحجر والأنهار والشمس والقمر إلا وهي داخلة في قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هذه عوالم، الله عز وجل هو الذي خلقها، هو الذي أوجدها، هو الذي يمدها، هو الذي يهلكها إذا أراد، هو الذي يفنيها إذا أراد جل في علاه.

فإذن أولاً هو رب العالمين، ولو تسائل المرء ما هو أساس وفق هذه الربوبية؟ هل هو الطغيان؟ هل هو الأخذ بلا عطاء؟ فإن الملوك يزعمون أنهم يعطون شعوبهم، أو أنهم يرعون البلاد التي يحكمونها، لكن على أي وفق؟ على وفق حاجة المالك لهؤلاء أو على وفق الرحمة بهؤلاء؟ ولذلك الإمام الفخر الرازي في تفسيره له كلمة رائعة قال: «المربي إما أن يربي شيئاً ليعود بالفائدة على المربي»، يعني الإنسان لما الآن يربي دابة لماذا يربيها؟ يربيها لأنه يعتقد أن التربية تقع على هذه الدابة لتعود بالمنفعة عليه، هو يربي الضأن من أجل أن يأكله، يربي الإبل من أجل أن يتاجر فيه، وهكذا، فهو يربيه من أجل إعادة المنفعة عليه، الأغلب ويوجد غير ذلك لكن الأغلب.

فالأب يربي ابنه من أجل أن ينتفع الْمُربى لا المربي، بل ربما يقدم له روحه، ولذلك (من مات دون أهله فهو شهيد)، المرء يموت دون موت ابنه، فعادةً لوجود الرحمة يربيه من أجل أن تعود المنفعة عليه، ينفق عليه يطعمه ويسقيه ويرسله إلى الجامعات ويدفع له الأموال وربما يُنشيء له المصالح الدنيوية، لماذا؟ من أجل منفعة الْمُربى لا المربي، لا يريده وربما يكون غنياً، ثرياً، وإنما من أجل أن تعود الفائدة عليه هو.

وقطعاً أن تربية الله عز وجل، أنه رب العالمين في هذا المعنى ليس لمنفعةٍ تعود على الله عز وجل، فهو الغني قبل خلقه، وهو المحمود قبل أن يوجد نعمة يعطيها لمنعم عليه فيحمده، هو محمود هو يحمد ذاته، ولذلك انظر أيها الأخ الحبيب إلى جلال الموقف، هذه الكلمة لما يفتتح ربنا سبحانه وتعالى ويقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قلنا كلمة الإمام ونقلها عن غيره الإمام القرطبي، قال: «لما علم الله عز وجل عجز عبيده عن حمده تولى حمد نفسه»، علم أن العبيد لم يستطيعوا ـن يحمدوه، فانظر هذا الجلال أن يفتتح هذا القرآن بهذه الكلمة، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وأنت لو ذهبت لتستوعب موجبات الحمد وبم استحق الحمد؟ وما هي مراتب هذا الحمد البالغة لما لا ينتهي من الغايات؟ تعلم جلال هذه الكلمة، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، تعرف كيف يفتتح القرآن بهذه الكلمة الجليلة، فهو سبحانه رب العالمين، وأقام هذه الربوبية على وفق الرحمة، واستغرقت رحمته الله خلقه وشرعه وحسابه وعطائه، استوعبت هذه الرحمة فعل الله عز وجل في الْمُربى وهم العالمون جميعاً.

ثم بعد ذلك بين أيها الأخ الحبيب بأن الله عز وجل هو الحق، أيها الإخوة وأنا أكرر هذه الكلمة وأنا أظن أني قلتها، من أنكر البعث أنكر حكمة الله عز وجل، وأنكر ربوبية الله عز وجل، وانكر حكمة الله عز وجل، ولذلك نجد –وسنرى في بعض المواطن الآن أعود إليها فقط للتذكير– نجد أن عبثية الوجود مربوطة بنفي الغيب، وبإثبات أن الله عز وجل هو الحق، والحق يقابل الباطل، فأولاً الحق هو شيءٌ حقيقي، انظر اجتماع حقيقة مع حق، وربما تكون الحقيقة هو شيء لا يحمل دلالة باطل ولا دلالة حق، حقيقة، أي أنت عندما تقول: هذا خمر، ويكون خمراً فتقول هذه حقيقة، ليس لها علاقة بكون هذا من الخير أو هذا من الشر، ليسه له علاقة، الحقيقة هو إثبات الشيء على ما هو عليه، حتى لو كان إساءة، فعندما يقول الباحث: وهذه حقيقة، هو قد تكون هذه الحقيقة هي اكتشاف جريمة

فعلها فلان، فتقول هذه حقيقة لوجود أدلةٍ لها، فكلمة الحقيقة تعني أن لها الأركان، أركان الوجود الثابتة لها، فانظر هذا الاجتماع بين كلمة الحق والحقيقة.

فإن أصل كلمة الحق أن يكون الحق ثابت الوجود، ولكن هل يكفي ذلك؟ هل يكفي أن يكون الشيء حقاً أن يكون فقط حقيقة أم هو شيء زائد عن الحقيقة؟ هل يكفي أن يكون الحق شيء يسمى أنه الحق أن فيه الحقيقة فقط، أم أن يكون حقيقة ويكون فيه الكمال كمال الشيء في الخير لا في الشر؟ فلما يأتي ربنا سبحانه وتعالى إلى نفي عبثية الوجود تكون في سياق إثبات اليوم الآخر.

إخواني قضية اليوم الآخر هي مناط هذه الشريعة، أمران يحكمان هذه الشريعة، أنا أتكلم عن الشريعة باعتبارها فقهاً، الفقيه الذي لا ينظر إلى هذين الأمرين لن يصيب الحق أبدًا، أولاً: أن يعلم نفس الرب، فإذا علمت نفس الرب علمت ما أحب، فيكون ما شرعه من التحليل ومن الوجوب ومن الاستحباب على وفق هذه المحبة التي يحبها الله عز وجل، إذا علمت ما يحب علمت ماذا سيشرع، وكذلك إذا علمت ما يبغض، وهو من معرفتك لنفسه، ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، فلذلك إذا علمت نفس الرب علمت ماذا تُبغض، وماذا تُبغض يخرج منها المكروه، المكروه هذا يبغضه الله عز وجل، والحرام يبغضه الله عز وجل.

ولكن كذلك لا بد من نقطة ثانية وهو معرفة الدار الآخرة، معرفة الموازين، هذا الميزان الذي سينصب يوم القيامة، والجزاء والعطاء والحساب، الجنة والنار، والرضا الإلهي والغضب الإلهي، الرضا الإلهي المتمثل بالجنة، والغضب الإلهي المتمثل بالنار، فلا بد من الدار الآخرة.

مثلاً: لنفتح القرآن مثلاً على سورة «المؤمنون» –على الحكاية يعني– وأظن هذه قرأناها لكن لا بد أن نعود إليها، لنرى أيها الأخ الحبيب أنه لا يتحقق نفي عبثية الوجود الذي نعيشه ونفي العبثية التي هي ضد الحكمة إلا بإثبات الدار الآخرة، في آخر سورة «المؤمنون» انظر إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥)﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٥] ، هذا الخطاب الجاري بين الله عز وجل وبين المنكرين للبعث، ثم إلى الشاهد فيها قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ما الذي نفى العبثية؟ أنهم سيرجعون إلى الله عز وجل، نفى أنهم خلقوا عبثاً، ولذلك نفي اليوم الآخر هو إثبات لعبثية الوجود وهذا ينافي الحكمة الإلهية، ينافيها، لأن الله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود: ٥٦].

لكن انظر ارجع إلى سورة «الحج»، وهي التي قبلها، في أولها، انظر، ولا أريد أن أمر على المشهد كذلك هو مشهد العظيم في الحديث عن الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢)﴾ [التكاثر: ١-٢]، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، قال تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤)﴾ [الفجر: ٢٣-٢٤]، هذه ليست شيء هذه مشهدها مشهد ضعيف هزيل قلق لا قيمة له، فانظر إليه بعد أن قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾ [الحج: ٥]، بدأ هذا الخطاب الإلهي في قضية إثبات البعث، فإنه ذكر تطور خلقة الإنسان أين؟ في بطن أمه وانتهى المشهد، ثم ذهب بالمشهد بعد ذلك إلى الآخرة، وكأن هذه الدنيا لا وجود لها، لا تستحق أن تذكر في هذا المشهد العظيم، فبعد ذلك قال في الآية السادسة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦)﴾ [الحج: ٦].

فالله عز وجل الحق بإثبات اليوم الآخر، فقضية اليوم الآخر قضية تحكم شريعة الله عز وجل في هذه الدنيا، محكومة، ولو واحد سأل يعني كيف؟ أول ما يحكم الشريعة بكونها محكومة للدار الآخرة أن هذه الشريعة هي شريعة ابتلاء، مع أنها نور ومع أنها روح، وكذلك أوحينا إليك روحاً، فالبدن من غير روح ميت، فالذي يجعل للبدن حياة وجود الروح، لكن ما الذي يجعل للروح روح من أجل أن تكون حية؟ هو القرآن، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا﴾ [الشورى: ٥٢]، هذه الروح روحٌ لماذا؟ روحٌ للروح التي يحيا بها البدن، فالله عز وجل قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦)﴾ [الحج: ٦]، هذا الحق أن الله عز وجل هو الحق لا يمكن أن يقوم إلا بإثبات أنه أقام هذا الوجود من أجل اليوم الآخر.

فإذا قيل: إن الشريعة محكومة باليوم الآخر فأعطنا مثالاً على ذلك؟ الابتلاء، الشريعة أُمرت أنت بأوامر من أجل تحقيق الابتلاء، فإذا سأل شخص وقال: لِمَ الابتلاء؟ ما هو الجواب؟ من أجل اليوم الآخر، الابتلاء في الشريعة مع أنها نور وأنها هداية وأنها روح وأنها من أجل ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ﴾ [النحل: ٩٧]، مع أن الشريعة تُنشئ الحياة الطيبة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤]، الإعراض عن الشريعة تحقق المعيشة الضنكا.

لكن مع ذلك هذه الشريعة ابتلاء، قال صلى الله عليه وسلم: (بشرِّ المشائينَ في الظلمِ إلى المساجدِ، بالنورِ التامِّ يومَ القيامةِ)، ما هي الكفارات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، ماذا يكون في الجهاد؟ الابتلاء مفارقة الأهل، مفارقة الأوطان، قتل النفس.

فإذن الشريعة محكومة على الابتلاء، فهمنا هذا، فهمنا خطأ الفقهاء الذين يجعلون معنى التيسير الخروج من التكليف، لا نريد أن نفصل فيها لكن يكفي أن نأخذ هذا الأمر الآن لنعلم خطأ من ظن أن التيسير في الشريعة

معناه الخروج من التكليف، لأن الخروج من التكليف يعني الخروج من الابتلاء، والخروج من الابتلاء لأن الإنسان ينظر إلى الدار الدنيا، فحينئذٍ يقدر؛ أين المصلحة في هذه الدنيا؟ فإذا علم الدار الآخرة، هل يختلف الحكم؟

فلو أنه فقط نظر إلى قضية الربا، وهي أعظم فتن الوجود، منذ أن نزل الإنسان إلى الأرض إلى يوم تقوم الساعة من أعظم فتن الوجود هو الربا، المال، الربا هذه جريمة من جرائم الوجود، والله عز وجل علق هلاك بني اسرائيل بأكلهم الربا، فهذا الربا لو نظرت إليه بعين الدنيا فقط دون الآخرة، لوجدت أنه يمكن أن تقول به، ما الذي يمنع المرء من الربا؟ لو أخذت مصالح الدنيا في الكسب وأن يكون المال دولةً بين الأغنياء فقط وأن يصبح فقط هناك جماعة قلة من البشر هي الحاكمة على ملايين الناس وعلى أقواتهم وعلى طعامهم وعلى شرابهم، لوجدت في ذلك على قاعدة آدم سميث: «دعه يعمل دعه يمر» أترك الناس وما هم فيه.

لكن عندما تعلم الدار الآخرة حينئذٍ تعلم قيمة ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، تعلم هذه القيمة –وهذه دائماً أكررها لأنها مهمة– المرء يغلق دكانه حتى في قضية الصلاة، لما يأتي الأذان ويغلق دكانه مع أن جاره يفتح الدكان للبيع والشراء، هنا يأتي أمر النداء الإلهي «الله أكبر، حي على الصلاة، حي على الفلاح»، ما الذي يُنشئ مصدر الحكم في ترك البيع والشراء؟ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، ما الذي يجعل المرء يستجيب لهذا النداء؟ هو الدار الآخرة مع أن فيه الابتلاء، فالشريعة لا يمكن فهمها إلا على قاعدة الابتلاء ولا يمكن فهم معنى الابتلاء إلا بربط هذه الشريعة بالدار الآخرة، هذه قاعدة أيها الإخوة الأحبة علينا أن نفهمها.

إذن لو أراد المرء أن يأتي ويدرس دراسة خاصة له ويأتي إلى سورة «البقرة» ويأتي إلى أي سورة وينظر إلى مواضيع هذه السورة، سواء كانت مواضيع مختصة بكل آية أو المواضيع المختصة لكل سورة، يجد أن جميع ما في القرآن يمكن إدخاله في سورة «الفاتحة»، هذه السورة التي تكشف لك عريضة القرآن، ماذا يريد هذا القرآن منا؟ فهذه كاشفة لنفس الرب، كاشفة له، تُعلمنا من هو الله عز وجل، كيف استقصت، انا قلت لكم عن الدوائر أول دائرة هي دائرة العدل، وفيها دائرة الحكمة، لكن ما هي الدائرة التي تشمل العدل والحكمة؟ وأوسع من دائرة العدل والحكمة، ما هي؟ دائرة الرحمة، فإذا تحدثنا عن الرحمة تحدثنا عن الحكمة، إن إثبات صفة الرحمة لا يمكن أن تقرر في نفس إنسان إلا بعد إثبات صفة العدل، هل يمكن تصور صفة الرحمة في أحد دون أن تتصور صفة العدل فيه؟ لا يمكن، لأنه لو قال: أنا أرحمك، كما يفعل بعض الطواغيت يخرج إلى شعبه يقول: أنا رحمتكم، وهو في الحقيقة يأكلهم، وهو ربما لا يعطيهم العدل، بل يعطيهم بعض العدل ويزعم أن هذا بعض العدل يسميه رحمة، ولكن الحقيقة أن الرحمة لا تكون إلا بعد العدل لأنها فوقه، فلا بد من تصور العدل تصوراً صحيحاً.

وهذه الرحمة لو أنها وقعت على غير مستحقها أكانت عيباً أم لا؟ كانت عيباً، ولذلك لا تتصور صفة الرحمة إلا مع صفة الحكمة، فهل تتصور الرحمة من الضعيف على القوي أم من القوي على الضعيف؟ لا يمكن أن نتصور الرحمة قد نشأت من نفسٍ ضعيفة على نفسٍ علوية عظيمة، بل العكس، إذن صفة الرحمة هذه تدل على الربوبية وتدل على القدرة، وهذه الرحمة هل تدل على الفقر أم على الغنى؟ الذي يرحم يعطي ويمن ويكرم، فهذا غني، ورأينا أنها رحمة تسع كل شيء، أي ما من شيءٍ وجد إلا وفي وجوده قبل أن يزيد على وجوده شيءٌ آخر، وجوده هو مقام على الرحمة، الله أقامها على الرحمة.

وهذه إن فهمناها أيها الإخوة الأحبة، فهمنا الرد على المجرمين من الفلاسفة الذين ظنوا ان الله عز وجل خلق البشر لأمرٍ غضبي في نفسه، نحن أيها الإخوة الأحبة من لا يعرف الباطل لا يمكن أن يعرف قيمة الخير ومن لا يعرف كيف عاشت الأمم في تعبها ومشقاتها وفي آلامها في البحث عن الحقائق لا يمكن أن يعرف رحمة الإسلام، أنت لما تقرأ تاريخ الأمم السابقين ممن فكروا في وجودهم، ما هو الوجود؟ وخرجوا فقط بآرائهم دون هدي النبوة، دون أن يأتيهم كتابٌ يعطيهم الحق ويبين من هم، ومن هو الذي خلقهم وعلى أي وفق خلقهم، لماذا خلقهم؟ ترى لهم كلمات يعني هي التي تُنشئ فيهم القسوة، تُنشئ فيهم الإجرام، تُنشئ فيهم الأمراض النفسية، تُنشئ فيهم السلوك الذي لا يمكن أن يتصور.

فاليونان أيها الإخوة الأحبة لما تقرأ أدبهم، الأدب الذي كتبوه كـ «الإلياذة والأوديسة» ترى أن العلاقة بين الخلق والخالق هي علاقة عدائية، عدائية! هناك صراع بين الإنسان وبين الأرباب، هناك رب للمطر وهناك رب للجمال وهناك رب للفنون وهناك رب للنار وهكذا، فتجدون صراعاً، الإنسان يصارع هذا الإله ويأخذ منه ما يأخذ بالقوة وبالغصب وبالغلبة وبالصراع، فيزعمون أن النار اقتبسها الإنسان لما غلب إلهها، وأن المرأة الجميلة تصارع ربة الجمال «فينوس» كما يسمونها، هذا الإنسان قلق، هذا القلق عادةً أيها الإخوة ماذا يُنشئ؟ يُنشئ الإجرام، وبالتالي أنتم ترون هذه المجتمعات في تاريخها مع غيرها أنشأت شعور الاستعلاء، أنهم هم الذين غلبوا الإله، أجدادهم من أحضروا النار، أجدادهم من حققوا الجمال، أجدادهم من غلب الآلهة، هذه أعطتهم شعور الاستعلاء على البشر، هذا الاستعلاء مع القلق في قضية الصراع، أنشأ لديهم هذه المجازر التي فعلوها في خصومهم.

هذا تاريخ، أنا الآن أجمل وأمر على التاريخ بإجمال سريع جداً، وتستطيع أن ترى هذا الكلام بيناً واضحاً مبسوطاً تمام البسط في تاريخهم، ولكن تأمل، تأمل حالة الصحابة رضي الله عنهم مع الأقوام الآخرين، تأمل رحمتهم، تأمل تلك الرحمة التي يعيشونها، العبودية في داخل أنفسهم أنهم عبيد لله، وأن الله عز وجل خلق الوجود على وفق الرحمة، ويقول لهم صلى الله عليه وسلم: (الراحمون يرحمهم الرحمن)، كيف نشروا الخير وكيف تعاملوا مع الناس في أسمى درجات

–لا نقول الإنسانية لأن كلمة الإنسانية لا تعبر عن المدلول– ولكن لأقصى درجات التعبد لله عز وجل، لأنهم يعلمون أنهم عبيد لله.

فانظر إلى المرء لما ينظر أنه عبد لله، هو ينظر لنفسه أنه عبدٌ لله، وينظر أن الناس ينبغي أن يكونوا عبيداً لا له، هو يغلبهم، ويقهر سلاطينهم، وفراعنتهم وطواغيتهم، لا ليدخلهم في سلطانه، ولا في ملكه ولا في عبوديته، إنما يريد أن يحررهم من عبوديتهم من طواغيتهم ومن أنفسهم، من كل الأوثان ليكونوا عبيداً لله عز وجل، كما أنه هو عبدٌ لله عز وجل، وتجدون القسوة –في إنجاز هذه التسمية وهذا اللفظ– تجدون القسوة في حركة الصحابة رضي الله عنهم في الجهاد لأنهم يرون موانع وسدود قاسية وشديدة يكبل الناس أنفسهم بها والطواغيت يكبلون بها شعوبهم، فهم يأتون لهذه القيود يأتون إليها ويحطمونها، من أجل ماذا بعد ذلك؟

فانظر كم امتد زماناً بين كسر الصحابة رضي الله عنهم لقيود طواغيت فارس حتى نشأ من فارس أعظم العلماء في دين الله عز وجل؟ كم المدة الزمنية؟ قليل جداً، أبنائهم يعني والد سيبويه عليه رحمة الله كان لا يستطيع أن ينطق العربية، وهو إمام العربية، يعني أبوه دخل في الإسلام والابن حقق أعظم المراتب في دين الله عز وجل، وهكذا أئمة الحديث تعرفونهم من أين؟ وبالتالي هذه تُنشئ الحياة، فلما نقول نحن الآن لا ندري نتعامل مع الأحكام الشرعية ومع هذه المقررات القرآنية نتعامل معها كأنها فقط من أجل الإنسان، يعني أنت تُنشئ لديك الآيات القرآنية الاطمئنان، هذا مطلوب.

ففي البناء هذا لا يكفي أن تكون فقط اللبنة قوية، يجب أن تكون العلاقة بين اللبنات قوية، لو افترضنا أن كل لبنة مصنوعة من حديد هو قوي وصلب ولكن لم نجمع بين اللبنة واللبنة ماذا سيكون الحال؟ بنينا هذا البيت يأتي واحد برجله يهيل هذا البيت ويزيله؛ لأن العلاقة بين هذا اللبنات القوية غير قوية، فلا يكفي أن يكون الإنسان فقط، هذا يريده منا التصوف، ويريده منا بعض دعاة الانعزال، يريدون إنشاء مسلم مطمئن وليست حياة مطمئنة، لا يمكن أن تكون مطمئناً وهناك الربا، لا يمكن أن تكون مطمئناً والعلاقة في داخل المجتمع غير مطمئنة وغير مريحة، لا يمكن أن تكون مؤمناً والعلاقة في داخل المجتمع غير مؤمنة.

ومن هنا لما يقول سيد رحمه الله أو يقول أهل العلم: «المجتمعات جاهلية» لا يتحدثون عن الفرد، لا يتحدث عن الفرد أنه جاهلي، وقد يوجد أفراد جاهليون كثر، لكن لا يتحدثون عن هذا الباب يتحدثون عن العلاقة بين اللبة واللبنة، كيف هي العلاقة في داخل المجتمع، ما الذي يحكم الناس؟ انظر إلى الإطار، هو إطار دولة قُطرية، إطار دولة تنفصل عن دولة أخرى ليس على أساس الإسلام، انظر هذا هو أساس بنائها ومجتمع المدينة يُنشئه علاقة الإيمان الناشئة بسبب الإيمان وموقف الناس منه وهي الهجرة والنصرة، لماذا هاجر الناس؟ بسبب الإيمان، لماذا استقبل الناس المهاجرين؟ لماذا؟ بسبب الإيمان، فمجتمعات تنشأ على الإيمان.

ما نتكلم به هذا هو موجود ولكننا نكشفه والفرق بين عالم وغير عالم، ربما أمك تعيش اطمئنان الإسلام والإيمان خيراً منك، مطمئنة، مرتاحة، وإذا رأتك شغوفاً بجمع المال -ألا تروها في أمهاتكم- الكثير في أمهاتنا ترى ابنها شغوف ويقاتل ويريد المال وربما يأخذه من حله ولا يضعه في محله وو ... إلخ، يا ابني الحمد لله، احمد الله يا ابني، اطمئن، ارتاح، رزقك يأتيك -الكلام عن القدر- فكلمة الحمد لله لما يقولها العبد، ماذا تعني؟ هو خروجٌ منك، إلغاءٌ لنفسك أنك أنت لا شيء.

ولذلك كان يقول ابن تيمية رحمه الله -يستشهد بكلمته في هذا الحال-: «ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا في شيء»

أنا المكدي ابن المكدي   هكذا كان ابني وجدي

المكدي يعني: الشحاد، من الكدية والكدية تعني التسول، أنت لما تقول: الحمد لله، انظر أنت عندما تأكل تقول: بسم الله، هذا الشيء لا يُنشئ بركته إلا ببسم الله، وعندما تنتهي من هذا الشيء تقول: الحمد لله، أين أنت؟

تصور هذا الإنسان الذي ينشئه هذا القرآن كيف يكون حاله، انظر هذا المجتمع بعد ذلك الذي يُنشئه هذا الإيمان وهذه المعرفة، كيف يكون حاله؟ هذا المجتمع الذي تُنشئه هذه المعارف الإيمانية كيف يكون؟ هذه كلمات ليس فقط تقال هكذا، لكن انظر إلى آثارها في الوجود وأعظم من حقق آثارها في الوجود هم الصحابة رضي الله عنهم، هم صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، ذلك لأنهم رأوها في أسمى كمالاتها وغاياتها في شخص الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، قال صلى الله عليه وسلم: (كُنْ في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ أو كعابرِ سبيلٍ)، كأنك غريب، هذه الأشياء أنت ترحل، الحمد لله، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٤-٥]، كأنك غريب، يوم سيأتي اليوم، غريب أنت، أنت تنظر إلى ما يأتي (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)، هذه تُنشئ هذه المعاني.

ولذلك سورة «الفاتحة» هي عنوان المسلم، هي رقية المسلم من كل أمراض الوجود، عند الناس يقولون: هي الرقية، يتحدثون عن سورة «الفاتحة» أنها الرقية، لماذا؟ لأنهم يستشفون بقراءتها من الأمراض، واحد مريض فيأتي فيقرأ «الفاتحة»، هذه رقية عظيمة، لكن هذه «الفاتحة» رقيةٌ لأمراض الوجود كلها، لأمراض الإنسان كلها، لا توضع هذه «الفاتحة» وهي كلمة الله عز وجل الحاوية لكل معاني القرآن، لا توضع على مرضٍ في الوجود إلا وأبرئته.

ولذلك يذكر ابن القيم رحمه الله في «مدارج السالكين» أنه اكتفى بها أياماً طويلة بالفاتحة فقط من أجل الغذاء، فقط، كان يقرأ «الفاتحة» من أجل الغذاء، هذه رقية، ما معنى رقية؟ رقى، ورقى بنفس اللفظ نفس البناء تعني ارتفع، رقى المرء ارتفع، وتقول: رقى يعني قرأ عليه رقية، كلاهم واحد، فكأن الرقية إخراج المرء مما هو فيه من المرض، إخراجه

ليرتفع من هذا المرض ويكون مرتفعاً عليه، ولا يستطيع المرض إصابته، ولما يقرأ المرء هذه الفاتحة، ترقي الأمم ترقي صاحبها.

وهناك كلمة عظيمة فتحت كثيراً من المعاني، يقول ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري»، يقول عن قيام الليل معنى كلامه رحمه الله: إن قيام الليل –أنا أريد منها المعنى مع ما في كلمته من الخير– يقول: «إن قيام الليل يحقق من المعاني ما لا يطلبه ولا يعرفه إلا الذي يقوم الليل»، كيف تفتح لنا هذه الكلمة من المعاني؟ هل الكافر الذي رقاه الصحابة بالفاتحة فبرأ يؤمن بالفاتحة؟ لا يؤمن بها، لو أن رجلاً أجبر على أخذ الخمر تفعل فعلتها أو لا تفعل فعلتها حتى لو كان مكرهاً؟ وهكذا هذا النور.

الناس يقولون من الذي يقرأ هذه الفاتحة ويتفكر في هذه المعاني ظاناً أن هذه المعاني لا يمكن أن يدركها المرء إلا بأن يكون عالماً بها؟ نقول له: لا، أن تكون عالماً بها هذا يحقق أعظم وأعظم وكلما علمت منها أمراً زادك رقياً فيها، ولكن ابتداءً فإنها –أي هذه «الفاتحة»– تُفعل نفسها في نفس قارئها حتى لو لم يدرك مراميها، وبالتالي نجدها في أباءنا في العوام نجد هذا الاطمئنان في الصلاة، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ [الرعد: ٢٨]، نجد هذه المعاني في نفوسهم، ولكن كذلك من أجل أن تتحقق فيها المعاني أكثر لا بد من النظر إلى تلك المعاني التي تحققها هذه السورة في نفوس الناس.

انظر أيها الأخ الحبيب الحمد لله، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢] هذه الكلمة كيف يقولها الله عز وجل عن نفسه، وكيف أنت ترددها بترديد الله عز وجل لها، وانظر علاقتك معها ثم بعد ذلك ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ٣-٤] وبعد ذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، أين مصدر الرحمة هنا؟ ما قال: نعبد إياك، ذلك لأن العبادة هي طلب الرب فيما هو خاصٌ به ولم يكفي أن تفي الله عز وجل من رحمته أن طلب منك الأعمال التي تليق به، ويختص بها عملاً منك، بل قال: وأنا كذلك تقوم بهذا وكذلك أعطيك ما تسأل، انظر المقام، مقام الغنى المطلق في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، مقام الألوهية التام، إياك، قلنا ما قال: نعبد إياك، لا نعبد إلا إياك، انظر كيف مقامها هو فقرك، وهذا الفقر رفعه عنك بالاستعانة به، ولذلك أنت فقير دائماً، لكن يرفع عنك فقرك وحاجتك بالاستعانة به.

فأنت في فعلك لما يختص به الله عز وجل عابدٌ له، وأنت في سؤالك لما تحتاج إليه عابدٌ له، مقام العبودية، هذا المقام، لا يمكن أن تخرج عنه، ولمقام العبودية الذي يقوم على الفقر يتحقق هذا المعنى، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، هذه الشريعة بعد ذلك ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

أنا أريد أن أقف هنا على نقطة، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، الناس يعرفون أن المستقيم هو أقرب طريق بين نقطتين، هذا أول مبدأ من مبادئ الهندسة، أقرب طريق بين نقطتين هو الطريق المستقيم، وماذا يقول العبد؟ كأنه يقول: إن شريعة الرحمن هي التي تحقق وحدها الوصل للهدف، هذه ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ليس فقط خروجٌ عن طرق الشر؛ ولكنها كذلك تحقيقٌ للخير وكذلك هي منعٌ للبدعة ومنعٌ للإحداث، انظر إلى ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ماذا تحوي؟ هي منعٌ من أن تُحدث طرقاً أخرى لأنها هي الطريق ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، هل هناك صراط مستقيم آخر؟

جاء التعريف المعهود الذي يقتصر به على المعنى فقط على المعهود وهو كتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، فالصراط المستقيم ماذا؟ إذا سلكته يعني أنك هاجرت كل الطرق المبتدعة، فأنت ماذا تقول؟ كأنت تقول: أنا عبدٌ لك، ما زلت في مقام العبودية، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وأن ما أعطيتني إياه يوصلني لمرادي، سواء كان هذا المراد في عبادتك بتحقيق الأجر، أو بسؤالك بتحقيق المنفعة التي أريدها وأحتاجها في الدنيا.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، ﴿اهْدِنَا﴾، ﴿أَنْعَمْتَ﴾، يعني هؤلاء الذين تحققت لهم النعمة إنما سلكوها، بأي شيء؟ سلكوها بقولهم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأنها نعمة، والنعمة معلومةٌ من هذا النص، وهي سورة «الفاتحة» بأنها لا تكون إلا من الله عز وجل، من أين؟ من قوله: ﴿نَسْتَعِينُ﴾، هذه نعمة من أين علمنا أنها كانت بسؤالهم لربهم؟ النعمة حين قال تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، هذه النعمة التي حصلت لهم كيف حصلت لهم؟ حصلت لهم بتطبيقهم ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، استعانوا بالله عز وجل، ﴿اهْدِنَا﴾، فسألوا الله عز وجل الهداية، فمسألة سؤال الله عز وجل الهداية سؤال العبيد نحن أهل الإسلام الهداية ليست خاصة بنا، لكنها سبيل كل الأنبياء من قبل، هي سبيل الأنبياء وهي سبيل أتباعهم وهي سبيل الصديقين والشهداء والصالحين، لماذا؟ لأنه لا يمكن أن يحققوا النعمة إلا بالاستعانة، والاستعانة أين تفسيرها؟ في ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، سألوا الله عز وجل.

ومن هنا يمكن أن تفهم أن أول ما فعله الإنسان في خلقه في الوجود سواء الذي جرى في السماء أو في الدنيا أنه عُلم ثم جرت منه المعصية، يعني كيف بدأت رحلة الإنسان في هذه الدنيا، بم بدأت رحلة الإنسان في هذه الدنيا؟ بالمعصية، ولذلك هو محتاج إلى الله عز وجل، أي الإنسان محتاج إلى الله عز وجل، آدم عليه السلام كان محتاجًا إلى الله عز وجل، فسأل الله عز وجل ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وهكذا.

والمعصية في هذه الدنيا تحملها الآية بأمرين فقط؟ المعاصي في الوجود لا تقع إلا بأمرين، إما بغياب العلم، أو بغياب الإرادة، إما بغياب العلم فهو الجهل، وإما بغياب الإرادة فهو الذي يرثي الغضب، يعني يمكن أن تعلم فلا تسلك سبيل الحق، ويمكن أن تجهل سبيل الحق فتسلك سبيل الباطل، فكلاهما في الحال سواء، أما هذا سلك سبيل

الباطل لأنه لم يعلم الحق، وهذا سلك سبيل الباطل لأنه علم الحق فلم يرده لصراع إرادةٍ في نفسه، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، إذاً الصراط المستقيم شاملٌ لما قال الله عز وجل: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، انتبه الظن هو عدم العلم، وما تهوى الأنفس هو صراع إرادة باطلٍ غلبت إرادة الحق بعد معرفتها الحق في نفسها.

ولذلك قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، وفي هذه الآية بيان على أن عدم معرفة الحق في هذه الدنيا لا يمنع تسمية صاحبها بما تلبس به، هذه قاعدة من قواعد الدين، يعني المشرك الذي لا يعرف ربه ولا يعرف توحيد الله ع وجل ولا يعرف الرسل، هذا نسميه في هذه الدنيا مشرك، حتى لو كان السبب الْمُنشئ لهذا هو الجهل، فعلينا أن نسميه باسمه.

ثم هذه الآية ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ تبيّن عند أهل العلم أن الحكم للغلبة، ماذا يعني هذا الكلام؟ قال أهل العلم: نحن نجد أن بعض النصارى يعلمون الحق، يعني يعرفونه، ومع ذلك ضلوا ويدخلون في قوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾، وعلمنا أن الضلال هو عدم معرفة الصواب، فلماذا أدخل جميع النصارى في الضلال؟ ذلك لأن حال أغلبهم هو ذلك، إذاً الحكم لماذا؟ للأغلب، فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: عن المغضوب عليهم هم اليهود وقال عن الضالين هؤلاء النصارى؛ ذلك لأن الحكم للأغلب، قال تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾.

وكذلك في هذه السورة من آداب الخطاب الذين ينبغي أن يتعلمه المرء –وتكلمنا عن بعضه– هذه السورة تعلم، فلو قال قائل: ما هو مفتاح الأدب في القرآن؟ لقال: كان ينبغي أن يكون الجواب أن سورة «الفاتحة» هي مفتاح الأدب، بم تم الالتفات؟ بالأدب، –وشرحنا الالتفات– لماذا وقع الالتفات؟ كان حديثٌ عن العظيم، فلما جاء أمر التعبد صار الخطاب المباشر، فهذا أدب، من العدل ألا تقول غير المغضوب عليهم وغير الضالين، هذا ليس من العدل لماذا؟ لأن معصية الضالين غير معصية المغضوب عليهم فغاير اللفظ بتغاير الحال، الأدب، لا تجعل هذا مثل هذا، فهذا يفارق هذا، ومن هنا جاء اللفظ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، ولم يقل غير الضالين، لما اختلف فساد هذا عن فساد هذا غاير في اللفظ، هذا من الأدب في القرآن.

وهذا تجده مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، لماذا لم يقل وإذ يرفع ابراهيم واسماعيل القواعد من البيت؟ هذا أدب؛ لأنهما لو ذكرا معًا لتوهم السامع أن كليهما على حالٍ واحد وقوةٍ واحدة في بناء البيت والمقدم يقدم قليلاً لكن الحال ليس كذلك، الذي يبني حقيقةً هو من؟ إبراهيم عليه السلام، والمساعد له في إحضار الحجارة ومناولته إياه هو إسماعيل عليه السلام، فهذا الأدب هذا يعلمك الأدب.

ولذلك لما قال الرجل: مَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسولَهُ، فقَدْ رَشَدَ، وَمَن يَعْصِهِمَا، فقَدْ غَوَى، فَقَالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: (بئْسَ الخَطِيبُ أَنْتَ! قُلْ: وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسولَهُ)، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [النساء: ١٤]، هي توهم مع أنه ورد في اللفظ، ورد في سنن أبي داوود تحت باب الخطبة على المنبر أو هكذا الخطبة بالعصا، –نسيت الآن– قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ومن يعصهما)، فإما أنها محمولة على خطاب الراوي في اللفظ، لأنهم يروون بالمعنى، أو لأنها بقول النبي صلى الله عليه وسلم لا توهم هذا المعنى بخلاف ما لو قالها آخر، فلا يعرف حال القائل فيها فينبه، «ومن يعصهما» أجعلت لله عز وجل ندًا؟! ليست معصية الله كمعصية الرسول، أي من الأدب، انظر هذا المفتاح العظيم.

وكذلك من الأدب الذي تعلمناه أنك إذا أردت حاجةً أن تقدم لها حسن الكلام في المخاطب، ورأينا كيف أن العبد لما بدأ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، قدم لها المدح، هذا المسؤول العظيم، مدحه بأعظم ما فيه، فإن مدح المسؤول بأعظم ما فيه، موجبةٌ لا للإيجاب فوق ربنا بل هو الذي يجيب عن نفسه لا أحد يجيب على الله عز وجل شيئاً، فقدم الثناء على الله عز وجل، قدم التمجيد له، قدم التفويض له، قدم التمجيد الثناء الحمد له، فحينئذٍ يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فعليك أن تقدم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: ١٢]، هذا من الأدب، أدب الدعاء.

إذن هي حديثٌ عن الْمُرسل شاملٌ لكل ما حوى القرآن من صفاتها، رأينا هذا، فلما جاء إلى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال رسولنا صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: (قال تعالى: مجدني عبدي)، هذا المجد الذي لا يمكن أن يكون إلا بقوة، وقوة مطلقة، ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] ليست لأحد، هذا مالك يوم الدين ومالكه مدبره والحاكم فيه والقاضي فيه، وهذا صفات ربنا في هذه السورة، فهو حديثٌ عن الْمُرسِل وحديثٌ عن هذه الرسالة، وحديثٌ عن حالات العبد عمن هو الْمُرسَل إليه، من أنت؟

انظر ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾، ما هو أجلى مقام الإنسان في هذه السورة؟ الفقر، الحاجة، أنت شأنك أن تستعين، وكيف ذكر الإنسان فيها ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؟ ذكر الإنسان فيها عبد، أنت عبد، مرات هذه الكلمة تجري في نفس السامع على غير معناها الذي إذا خوطب بها في حياة الناس، يقال: أنت عبد، فأنت عبد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لم يذكر الإنسان في هذه السورة لم يأتي له ذكر هذا الإنسان إلى بكونه عبد لله عز وجل، مقامك العبودية، مقامك السؤال.

ولذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، هل يمكن للمرء أن يخرج عن هاتين الحالتين؟ لا يمكن، ولا في أي صورة، هو يستعين، ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم لفهمهم أنهم داخلون في كل حياتهم بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، كانوا يسألون الله عز وجل حتى الملح، لو أنهم فقدوه يسألون الله عز وجل، يسألونه هذا هو مقام الاستعانة، لو أن

أحدهم قطع شسع نعله لسأل الله، هو بمقام الاستعانة، فإذا احتاج لشيء استعان بالله عز وجل، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾، مقام الاستعانة، أين أنت أيها الإنسان في هذه الصورة؟ انظر كيف يوصف الله عز وجل؟ وانظر إليك أنت، انظر إلى حالك، فأنت في مقام الاستعانة، إما مقام العبودية له بأن تؤدي إليه ما طلبه منك وأن تؤدى إليه وحده، فأنت تكون في مقام الاستعانة، حتى وأنت تعطي في مقام الاستعانة.

قال صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ ما اهْتَدَيْنَا ... ولَا تَصَدَّقْنَا ولَا صَلَّيْنَا فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وثَبِّتِ الأَقْدَامَ إنْ لَاقَيْنَا) الصدقة عطاء، وأنت تعطي أنت محتاجٌ إلى الله في العطاء، ليس فقط في الأخذ، يعني قد يقول القائل: أنا أحتاج إلى الله عندما أكل، أحتاج إلى الله عندما أكون فقيراً، وأنت محتاجٌ إلى الله عندما تتصدق، محتاجٌ إليه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ ما اهْتَدَيْنَا ... ولَا تَصَدَّقْنَا ولَا صَلَّيْنَا)، حتى وهم ينتصرون، ينسبون النصر إلى الله عز وجل، ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة: ٢٥٠]، فهم يسألون الله عز وجل مقام النصر.

وهكذا أيها الإخوة الأحبة هذه سورة جميلة تبين الوجود، هذا الوجود وما فيه، وكذلك تبين الرسالة، ما هو أعظم وصفٍ لهذه الرسالة؟ لو سألك سائل ما هو أعظم وصفٍ لهذه الرسالة؟ تقول له: الهداية، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، هداية، هذه الشريعة هداية، توصلك إلى المقصود، تريد الحياة السعيدة توصلك، تريد الاطمئنان توصلك، تريد الغنى توصلك.

وهذه الكلمة بحاجة أن نفهمها اليوم، لأنه يمكن أن نفهمها في قضايا الحياة الخاصة، لكننا للأسف نجد أن الجماعات لا يطبقونها، بل إننا نجد هذا التساؤل، وأنا أسمع هذه الكلمة كثيراً وأقرأها، حتى البارحة كنت أسمع أحداً يقولها، يقول: اهجروا السياسة -انتبهوا لهذه المفاهيم التي هي بعيدة عن معنى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾- يقول: اهجروا السياسة، يقول شيخ: لماذا؟ يقول: لأن السياسة خصمك سيستخدم المكر، ويستخدم الكذب، ويستخدم الحيلة، وهذا لا يجوز لك في دين الله عز وجل -هذا كلام صحيح وهذه المقدمة صحيحة مع أن كلمة الحيلة عليها كلام في الحرب (فالحرب خدعة)، لكنها كلمة صحيحة لكن ما هي النتيجة التي يقولها- يقول: وبالتالي هو بهذا أقدر منك على الوصول إلى غاياته فلن تنتصر بمبادئك، انظر إلى النهاية، والمقدمة أين! والنتيجة أين!

هل هذا يناقض قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وقد علمنا أن الصراط المستقيم يوصلك إلى مرادك بأقرب الطرق، الآن نحن نسأل هل خصوم النبي صلى الله عليه وسلم كانوا من أشد الناس مكراً؟ قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦)﴾ [إبراهيم: ٤٦]، مكروا ليقتلوه، ومكروا مكراً شديداً ليغتالوه، واليهود هم اليهود، والمشركون هم المشركون، ولاحقوه ليقتلوه وهكذا، وكادوا له بأن جمعوا كل العرب والأوباش في الخندق، هل انتصر النبي صلى الله عليه وسلم أم هزم؟ إذا قال قائل: إن نصر الله عز وجل لرسوله خاص، فإن الآية ترد عليه، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٥١].

وهذه كلمات سريعة لكنها للأسف تنتج مناهج، إما مناهج العزلة، كما يقول هذا الشيخ أو الشيوخ والشيوخ كثر، يقولون: إن عددوك يستخدم المكر، الكذب الحيلة، الخداع، وأنت لا يجوز لك ذلك، وبالتالي إما أن تدخل في واديه، وفي منهجه للوصول قبله أو مُغالبته وإما أنك ستهزم، هذا خطأ، إما أن تعتزل وهذا الذي أدعوك له، وإما أن تشارك بالطريق التي يريداها بأمكر منه وأكذب منه، وأفسد منه لتصل قبله، وكأن الطرق التي توصل فقط إلى المراد في النصر والتمكين لا تكون إلا بالباطل، هل هذا كلام يستقيم مع قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؟ هل يستقيم؟ لا يستقيم.

النبي صلى الله عليه وسلم لما وصل إلى النصر، هل وصل بطريقٍ مستقيم؟ هل أعداؤه استخدموا كل أنواع الكذب؟ الجواب: نعم، فأنت اذهب للطريق المستقيم، اذهب إلى الصدق، واذهب إلى التوحيد قبل كل شيء، وإلى المفاصلة، نعم، ستتألم، ذلك لأن الجنة حفت بالمكاره، أي الجنة هي مقصد، وكل مقصد للمسلم في هذه الدنيا كالجنة، التمكين كالجنة، حف بماذا؟ ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت: ٢]، فإذن الفتنة، فأنت اصبر، الصبر، قبل كل شيء التوحيد، البيان، الأخلاق، وأنت ستصل ولكن الذي يحدث كالتالي: هو أن الناس إما أن يعتزلوا وإما أن يقولوا: لا يمكن إلا أن نمشي مثلهم، لا بد أن نكذب، لا بد أن نفتري، لا بد أن نسلك طريق الباطل، لأن هؤلاء يستخدمون وهكذا، وبعد ذلك لا يصلون، فتفرق بكم عن سبيلي، ينحرفون يذهبون يمين شمال ولا يصلون إلى الجنة،

إذن ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هذه منهج، و ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الفاتحة: ٧]، انظر –وأنا أكرر– البراءة ممن؟ البراءة من شخوص تمثلت بهم الصفات، (ما زال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عن الله كذاباً)، يعني يصبح إذا ذكر الكذب ذكر فلان، الآن لو ذكر الصدق ذكر الأنبياء عليهم السلام، لو قيل لك من الصادق؟ الأنبياء عليهم السلام، وإذا قيل من الكذاب؟ قيل مسيلمة الكذاب، وإذا أردت أن تصف رجلاً بالكذب قلت عنه مسيلمة، ليس من الضرورة عن أن تقول: عنه كذاب تقول: هذا مثل مسيلمة، فإن أشخاصًا يرتفعون بالحق حتى يصبحوا أئمة في الحق، وإن أناسًا يرتفعون بالباطل حتى يصبحون أئمة بالباطل، ولذلك قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، ما قال الطرق، انتهت مسألة الطرق الصراط المستقيم، لأنه صراط الله عز وجل، الآن صارت النسبة لأشخاص وجماعات وطوائف والنبي سماهم اليهود والنصارى.

فمثلاً: إذا ذكر الآن ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، ولو قيل لرجلٍ في الحديث هذا يهودي، كلمة يهودي دالة على هذا المعنى، وكلمة نصراني دالة على هذا المعني، لو قيل نصراني فإنها تدل أنه ضال، حتى الناس تقول: يلعن أبو خشبتك، ويقصدون أنه جاهل يعبد خشبة، ويقصدون أنه يعبد صليباً قتل عليه إلهه، عجيب يعظم شيئاً قتل به إلهه!! هذا ضلال.

وأمة محمد فيها مثل هؤلاء يعني أشبه الناس بالضالين هم من؟ هم الروافض، لو قيل في الحكم على أمة محمد وما افترق وخرج عنها من فرق وطوائف، وقيل: من أشبه الناس بالضالين المذكورين بهذه الآية من هم؟ الروافض، ضلال عجيب! وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً! انظروا إليهم كيف يضربون أنفسهم، بالضرب والجلد بالجنازير وقتل أنفسهم، هذا ماذا يقال له؟ ضال، أشبه الناس بهم هم أهل الضلال، وأشبه الناس بالتحايل على الدين والكذب والافتراء ويعرفون الحق، وإذا حاججتهم قالوا: والله يشيخ نعرف، ويخرجون يقولون في بيان لهم: إذا لا تزيد لنا الحكومة الراتب سنقول الحق على المنابر، هؤلاء المغضوب عليهم.

فيصبح أشخاص هم إذا نسب الناس إليهم نسبوا إلى الصفة، ارتقوا من درجة شخوصهم إلى درجة الصفة التي إما يحبها الله عز وجل وإما يبغضها، قال صلى الله عليه وسلم: (ومَثَلُكَ يا أبا بَكرٍ كمَثَلِ عيسى ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة: ١١٨]، وإنَّ مَثلَكَ يا عُمَرُ كمَثَلِ نوحٍ ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦)﴾ [نوح: ٢٦])، فشبههم بالأنبياء؛ لأنه ارتفعت درجة الشخوص ليدخل فيها العابد متمثلاً بهذه الشخوص الإيمانية.

فلذلك أيها الإخوة الأحبة هذه سورة القرآن التي تجمع تلك المعاني التي ذكرت في كتاب ربنا، بقي حتى نختم بها بقيت بعض الأحكام أيها الإخوة الأحبة نأتي إليها، هذه السورة القول الصواب أنها ركنٌ في الصلاة، وهناك خلاف بين أهل العلم في ركنية قراءتها في الصلاة، وهناك من العلماء من لا يراها ركناً ولا شرطاً، على اعتبار المعنى واحد في قضية إبطال الصلاة في الركنية والشرطية مع الاختلاف بين الركن والشرط، بأن الركن ما كان داخل في الماهية، والشرط ما كان خارج عن الماهية، فيرى الأحناف عليهم رحمة الله بأن الفاتحة ليست ركناً في الصلاة، بل فقرأوا ما تيسر منه، في قاعدتهم في العموم والخصوص وغير ذلك، والصواب أن الفاتحة ركنٌ في الصلاة، وفي ذلك أحاديث يرجع إليها في كتب أهل العلم وهي مشهورة، وهذه المسائل التي كثر فيها الخلاف بين أهل العلم، والأدلة فيها مجموعة كثيرة، حتى الإمام ابن كثير رحمه الله قد توسع في ذكرها، وكذلك الإمام القرطبي رحمه الله وكذلك الفخر الرازي، كلهم تحدثوا عن هذه المسألة وبينوا ما فيها والصواب أن الفاتحة ركن.

ومن هنا فإن أول ما يجب على المرء حين يسلم أن يحفظ الفاتحة، يعني لو قيل له من أين تبدأ؟ هل يبدأ بالفاتحة أم يبدأ بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؟ هل يبدأ بالفاتحة أو يقرأ بـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾؟ إذاً أول القرآن الواجب حفظه على المكلف هو أن يحفظ سورة «الفاتحة»، فإذا تميز الطفل يجب على والديه أن يحفظاه «الفاتحة»، وكذلك إذا أسلم الكافر فالواجب ألا نعلمه شيئاً من القرآن حتى نعلمه «الفاتحة»، وهي مسهلة كما ترونها مسهلة، الأطفال يحفظونها والصغار، والمسلم في بداية الأمر ليس الأمر بشاق إن شاء الله تعالى، هذا واحد.

المسألة الثانية كما قرر الإمام الشافعي رحمه الله في كتابه «الأم»، أنه يجب أن تُقرأ الفاتحة على ما أنزلت، فهناك بعض العوام يقرأون الفاتحة على غير وجهها مما يفسد عليهم صلاتهم، ومن ذلك ترك الشدات، منها قوله: إيّاك، يقولون: إياك، وللأسف حتى بعضهم ممن معه إجازة، تصلي وراءه فتجده إيّاك يشدد ثم إذا جاء الثانية إيّاك نعبد وإياك نستعين، هكذا يمر عليها بسرعة وهذا حقيقة من الخطأ، فمن ترك شدة كأنه لم يقرأ الفاتحة على قاعدة الإمام الشافعي رحمه الله، بل يقول: «من ترك شدة من القرآن بطلت صلاته»، وهناك حرف مقروءٌ به بغير تشديد والعلماء ردوا عليه وقالوا: إياك من غير تشديد تعني شعاع القدر، فهذه تغير المعنى، ولذلك على المرء أن يقرأها على وجهها الصحيح وأن لا يغير فيها ويفسدها.

الأمر الآخر من المعلوم كما قلنا في هذه السورة أنها رقية، وبالتالي يعني من أوراد بعض أهل العلم قديماً أنهم يكثرون قراءتها، فالمرء إذا لم يكن حافظاً لكتاب الله عز وجل وله وردٌ يقرأه، فمن الخير له أن يكثر قراءة هذه السورة، وبها تقضى الحوائج كما أنها رقية كما قلنا للبدن كذلك رقية لقضاء الحوائج، وذكرنا لكم حال الإمام إبن القيم رحمه الله وقد ذكر بعض أهل العلم فيها أنه من وقع في بلاء، وقع في مشكلة، وقع في غمرة من الغمرات؛ فإنه يكثر.

والعلماء والعباد لهم وسائل عند الوقوع في المصائب للخروج منها، فمنهم من إذا وقع في المصيبة لا يفتر لسانه عن الصلاة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكما في الحديث: قلتُ يا رسولَ اللهِ! إني أُكثِرُ الصلاةَ عليك، فكم أجعلُ لك من صلاتي؟ فقال: (ما شئتَ)، قلت: الربعَ؟ قال: (ما شئتَ، فإن زدتَ فهو خيرٌ لك)، قلتُ: النصفَ؟! قال: (ما شئتَ، فإن زدتَ فهو خيرٌ لك)، قلت: فالثُّلُثَيْنِ؟ قال: (ما شئتَ، فإن زدتَ فهو خيرٌ لك)، قلتُ: أجعلُ لك صلاتي كلَّها؟! قال: (إذًا تُكْفَى همَّك، ويُكَفَّرُ لك ذنبَك).

وهذا بعض أهل العلم يقول: أنا إذا وقعت في مشكلة أو مصيبة فأنا لا يفتر لساني وتسأله ماذا تفعل؟ يقول لك: أبقى فقط أصلي على النبي صلى الله عليه وسلم حتى يرتفع البلاء عني، وهذه الطريقة مسلوكة، الناس لهم في هذا أبواب، لأن الخير والجنة، الجنة دائماً تمثلوا أن كل خيرٍ في الوجود حاله كحال الجنة، هل الجنة لها بابٌ واحد أم أبواب؟ أبواب، كذلك الخير له أبواب كثيرة، فقضاء الحوائج له أبواب، من أبوب قضاء الحوائج الصدقة، (داووا مرضاكم بالصدقات)، أنت عندك حاجة؟ تصدق، لك مريض تصدق، وكذلك من قضاء الحوائج الدعاء، من قضاء الحوائج الرقية، قراءة القرآن وهكذا، فأبواب كثيرة للجنة، أبواب كثيرة للخيرات.

فبعض الناس إذا وقعت به ضائقة ما، لا يترك الصلاة على النبي حتى تقضى، وكان بعض السلف إذا وقعت فيه ضائقة أو وقع فيه أمر لا يفتر لسانه عن ترديد سورة «الفاتحة»، تعلم هذا، وهي أمر كما ترى يسير، لكن (كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان)، قيل: فإذا كانتا كذلك أي خفيفتين على اللسان فلم يشق المرء القراءة عليهما؟ لأن هذا أمر قلوب، شاقة على النفوس، لأنها لا تحب ذكر الله، لا تأتلف مع ذكر الله، لا تعرف قيمة ذكر

الله، ولا يأتلف لسانها مع هذه الكلمة، فعلى المرء أن يكثر ذكر الله، فبعضهم كان إذا وقعت فيه ضائقة أن يكثر من هذه السورة حتى ترتفع ضائقته، وحتى ينزل به ما يحب من الخير.

ولذلك من أراد خيراً عظيماً وقع في شيء منع من خير منع من رزق، فهي بابٌ من أبواب الرزق، بابٌ من أبواب العطاء الإلهي أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقني وإياكم.

بقيت كلمة، نقرأ كلمة نقولها عقب قراءة سورة «الفاتحة»، وهي «آمين»، هذه بالإجماع أنها ليست من القرآن، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم علم الصحابة أن يقولوها عقب الفاتحة، آمين، ومن عجائب هذه الكلمة أنها موجودةٌ في كل اللغات، كل من يدعوا فإنه يختم دعائه بآمين، في كل اللغات تجدها في الإنكليزي في الفرنسي في الألماني، لا يقولون: إلا آمين بلغة العرب، وهذا يدل على أشياء كثير، يعني منها ما هو ظاهر وبين ومنها ما هو خفي، ولذلك بعد أن يقرأ المرء الفاتحة يقول: آمين ويجوز له أن يمد بها صوته آآمين آو آمين، يجوز هذ المد والقصر، وتعني اللهم استجب، يعني قول العبد: آمين بعد الفاتحة يدل هذا على أن: (قال: ولعبدي ما سأل)، دعاء، آمين: استجاب، وكذلك فيها الرد أي معنى أن يستجب.

وهناك من شددها وهم الصوفية، هذا المذكور عن ابن عربي الصوفي أن يقول: آمّين، آمّين لا تأتي بمعنى آمين، آمين: اللهم استجب، آمّين أي: قاصدين، أمّ البيت الحرام أي قصده، ذهب إليه، هذا هو يفسرها تفسيرات خاصة به على طريقته من التفسيرات الباطلة الصوفية التي تخالف اللغة، تخالف الحديث، تخالف ما عليه الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

بقيت مسائل فيها لا أريد أن أقف عندها، هذه أبوابها أبواب الفقه، هل تقرأ في الصلاة الجهرية، على الخلاف الشديد فيها أن تقرأ فقط في المأموم والإمام، على أقوال عدة هل هي واجبة على المأموم والإمام في الصلاة السرية والجهرية، أم أنها فقط واجبة على الإمام دون المأموم، هذا كما هو قول الأحناف لو أن قراءة الإمام لك قراءة في السرية والجهرية، أم أنها فقط واجبة على المأموم في الصلاة السرية دون الجهرية وأما الجهرية فقراءة الإمام له قراءة، هذه أقوال أهل العلم وهي مبسوطة في كتب الفقه، وليس هذا وقتها.

هذه أول سورة وعادةً عند تحزيب القرآن الصحابة رضي الله عنهم لا يعدون الفاتحة، ما المقصود بهذا؟ يعني عندما سُأل الصحابة كما بمسند أحمد بسندٍ صحيح، قيل: كيف تحزبون القرآن؟ قال: ثلاثاً وخمساً، فالفاتحة لا يعدونها، ثلاثاً ما المقصود؟ «البقرة» و «آل عمران» و «النساء»، ولا يعدونها، إذن هي كأنها شيءٌ خارج عن هذا الإحصاء مع أن الترتيب فيها علَّم العلماء «الفاتحة»، وهي مقدمات الكتب، من الذي أدب علماء الإسلام حتى جعلوا لكل كتابٍ مقدمة؟ حتى أن بعض الكتب صارت مقدماتها أشهر من الكتب، كما مقدمة إبن خلدون، مقدمة

إبن خلدون هي مقدمة لكتابه «التاريخ»، فصارت المقدمة أشهر من «التاريخ»، فقليل من الناس يعرفون أن ابن خلدون له «التاريخ» أو أنهم قراؤه إلا المتخصصين، ولكن المقدمة يعرفها القاصي والداني ولها شهرة منهم من يعرفها بالاسم ومنهم من يعرفها بالموضوع والصفة.

فهذه السورة كأنها افتتاحية القرآن، فعلمت العالم المسلم والعالِم المسلم، علمتهم هذه الفاتحة أن يقدموا وأن يبينوا ما هو هذه الكتاب؟ وكأن الفاتحة هي هذه المقدمة لهذا الكتاب.

بقيت مسألة نتركها للدرس القادم إن شاء الله تعالى، وهي ما يسمى بعلم التناسب، أي ما هي المناسبة بين هذه السورة والتي تليها، بين سورة «الفاتحة» وبين سورة «البقرة»، هذا من علم التناسب إن شاء الله نتحدث عنه في الدرس القادم وسنشرع إن شاء الله في سورة «البقرة»، هذا الآن ما يحضرني فيها وأرجو من الله عز وجل أن يغفر خطايانا وذنوبنا وتقصيرنا فإن كلام الله عز وجل لا يمكن للمرء أن يحصي معناه ولا أن يبلغ مداه، بل هو وإن توقف تنزيل القرآن،لكنه لم يتوقف تنزلاته، تنزلات القرآن لم تتوقف، ما هي تنزلاته؟ هداه ونوره وعطاياه وبركته، ما زالت سورة «الفاتحة» تعطي معانيها لأهل العلم وللعباد، هم يقرؤونها ويستلذون بها في قارئتهم، ويتمتعون بها أسماعهم بسماعها من غيرهم، أسال الله عز وجل أن يجعلنا من أهل القرآن في الدنيا والآخرة وأن يحشرنا مع أهله برحمته إنه هو القادر عليه وهو الرحيم بنا والحمد لله رب العالمين..

الأسئلة

السائل: شيخنا ذكرت أن المرء قد يدرك المعاني وهو لا يعلمها، وقلت: إن حتى الكافر قد ينتفع بالقرآن، أين هذا من قول الله عز وجل: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢)﴾ [الإسراء: ٨٢]؟

الشيخ: هذا بالنسبة للاهتداء بهديه، بمعنى عندما كانت تنزل الآيات القرآنية، أضرب لك مثالاً بسرعة، يسأل يقول: كيف هذا يجتمع وقولك بأن الكافر لو سمع القرآن لانتفع به، في المعنى الذي ذكرته وهو أنه ينتفع به في الاستشفاء لأنه قرء عليه، بل ذكر بعض أهل العلم تجربة عجيبة، وهو أنهم أحضروا مرضى الصرع، مجموعة من مرضى الصرع ولا يعرفون العربية ولا يعرفون الإسلام، فأدخلوهم في داخل الغرف، وتعرفون الصرع يعرف فيزيولوجياً بكثرة الطاقة في البدن، أي تكون الطاقة على الدماغ أعلى من الطاقة للإنسان العادي، وتوضع مجسات على رأس الإنسان وعلى بدنه، وتوضع على آلات محددة تقيس الطاقة، فيعرف الناس أن هذه الطاقة زائدة، فيُعرف أنه مصاب بالصرع، والإنسان الطبيعي العادي عادي.

فأحضروا هؤلاء المرضى ولا يعرفون العربية ولا يعرفون القرآن ولا يعرفون الإسلام، وأحضروا مسجل للقرآن ووضعوا عليهم المجسات، وكانت هذه المجسات تعطي إشارة عالية، تفيد أنهم مرضى بمرض الصرع، فقرأوا عليهم القرآن فوجدوا أن نسبة الكهرباء والطاقة في أبدانهم وأدمغتهم قد نزلت، تأثروا وهم لا يعرفونه، إذن هذا المعنى موجود.

المعنى الآخر الذي ذكرته أن المسلم العجمي الذي لا يعرف معاني القرآن وهو مسلم، فحين يقرأ القرآن هل يصيب الرحمة في تنزل القرآن؟ هل يصيبها أو لا يصيبها؟ يصيبها، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال لأُبي وهو يقرأ الكهف: (تلك الرحمة تنزلت للقرآن)، تلك الملائكة وهو لا يعرف، تنزلت، حتى أنه خاف على ابنه الذي بجانبه أن تدوسه دابته، فجعل يقرأ كل ما يقرأ تقترب الغمامة، وإذا سكت ذهبت، فحتى خاف، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بالخبر، قال: (تلك الرحمة، تلك الملائكة)، وهو لا يعرف، تنزلت، الآن لما العامّي وهو لا يعرف هذه المعاني التي يذكرها العلماء، ولكن هل يصيب الرحمة بهذه القراءة؟ الجواب: نعم، ولو لم يعرف هذه المعاني، تصيبه هذه الرحمة، هذا المعنى الآخر.

فكيف هذا يجتمع مع قوله تعالى بالنسبة للكافر: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢)﴾ [الإسراء: ٨٢]، أي تُنزل القرآن؟ الجواب: نعم، ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، ما هو معنى زَادَتْهُ ﴿هَذِهِ إِيمَانًا﴾؟ من معانيها حين تأتي آية فيها حكم، هذا بعض معانيها وليس كله، وإلا هناك معاني أجّل، فحين

تأتي آية فيها حكمٌ شرعي من الأحكام فيعمل بها العبد، هل يزداد إيماناً أم لا؟ لأن الإيمان قولٌ وعمل، فبزيادته لهذا العمل يزداد إيمانًا، فلما نزلت هذه الآية فصدقها وأحبها ازداد إيماناً، طيب ما هو في المقابل؟ إذا نزلت آية على المنافق أو على الكافر ازداد بغضاً للقرآن، ازداد بعداً عنه.

مثلاً: جاء الأمر بتحريم الخمر، بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)﴾ [المائدة: ٩٠]، ماذا فعلت هذه الآية بالمؤمنين؟ زادتهم إيمانا، أي ازدادوا باباً من أبواب الخير وقرباً من الله امتثالاً لطاعته، أما المنافق والكافر ماذا فعل؟ كرهها، فازداد بغضاً، فزادته ظلاماً، والآية زادته عداءً، لا لأن القرآن فيه ظُلمة، فيزيد ظُلمة على الكافر، ليس هذا، بالرغم أن القرآن فيه إيمان، فبه يزداد المؤمن إيماناً بالقرآن، ولكن لأنه يزداد بعداً، المنافق يزداد بعداً وبغضاً، فبفعله يزداد ظُلمة، لا لأن القرآن فيه ظُلمة على الكافرين، القرآن ليس فيه ظُلمة على الكافرين إلا بمعنى واحد وهو أن الله عز وجل يُكلف المؤمن بعذاب الكافر، يكلف المؤمن كما أنه فرض على المؤمنين الجهاد، فجعل هذا الجهاد عذاباً على الكافرين، فبهذا المعنى يمكن حمله أن القرآن عذاب على الكافر على هذا المعنى.

السائل: يقول هل عبثية الوجود التي تكلم عنها الشيخ المقصود بها الإلحاد أو نظرية فلسفية تعترف بحقيقة خلق الله عز وجل للعباد وتنفي محاسبته لهم؟

الشيخ: كلاهما من العبثية ولكن الكفر دركات، ويسأل السائل يقول: ما قلته في الدرس من أن نفي اليوم الآخر هو إثبات لعبثية الوجود، وفي ذلك قدحٌ بسبوحيته، من أسماء الله سبوح، فأولاً لا يليق به فعل الغلط ولا العبثية، ولا يليق به الخطأ ولا يليق به العبث، ولا يليق بالعبد أن ينسبه له، فإذن عندما قلت بأن الذي ينفي اليوم الآخر هو إثبات لعبثية الوجود، وهو نفيٌ لحكمة الله عز وجل، نفيٌ لعلمه، نفيٌ لقدرته، نفيٌ لحكمته، ونفيٌ لشرعه، ونفْيٌ لخبره، خبر الجنة والنار، فالجنة والنار كلها تعلق بقضية اليوم الآخر، فمن قال: بأن الله عز وجل ليس موجود، وهؤلاء في الحقيقة من أضل خلق الله، ولا يوجد لهم بالتاريخ إلا مثال ما نراه اليوم مما يسمى بالشيوعيين والملحدين، هذا ليس عبثي الوجود، هؤلاء خرجوا من هذا الحد إلى ما هو أعظم من ذلك.

لكن من زعم وهو أغلب قول الفلاسفة –هذا القول الثاني– كما يسمون العلمانية المؤمنة، هناك تسمية العلمانية المؤمنة، ويسمون الوجودية المؤمنة والوجودية الملحدة، ما الفرق بين الوجودية كمذهب بدعي فلسفي، ما هي الوجودية المؤمنة؟ قال: يؤمنون بوجود الله، يقول: الله موجود، بعدها؟ قال: بعد ذلك خلق الخلق على وفق سنةٍ ثم تركهم، وتركهم سدى، وهذا مخالف لقوله جل في علاه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، هذا نفي، المهم

هؤلاء نعم، يثبتون عبثية الوجود، والقائلون بنفي وجود الله عز وجل أصلاً هؤلاء أشد ضلالاً، فكلاهما من العبثية ولكن هناك العبثية درجات لأن الكفر دركات.

السائل: يقول أيهما أضر على طالب العلم، الجهل بالواقع أم الجهل بحكم الله في ذلك الواقع؟

الشيخ: هذه كلمة لأبن تيمية وكلمة لأبن القيم وكلمة للعز بن عبد السلام وكلمة للشاطبي، وهي كلمة كل عاقل: بأن الفتوة مركبة من ركنين:

الركن الأول: معرفة الواقع.

الركن الثاني: معرفة حكم الله عز وجل في هذا الواقع.

وهذه عملية كما تروها في كلمتين، لكن الحقيقة هي كلمة معقدة، أضرب لكم مثال كيف التعقيد، وهذه يجدها بعض المفتين وبعض المحكمين، أي عندما يأتي شخصان للتحكيم، فكل واحدٍ يتكلم كلاماً كثيراً ويظن أن كل كلمة تأثر في الحكم، ويمكن أن تجعل الحاكم أي القاضي بينهما أن يقول بما معه.

وهذه نكتة عن الشيخ علي الطنطاوي، يقول لما كنت قاضياً في العراق، وكذلك كان مدرساً في العراق، لكن كان قاضياً في الشام، قال كان يأتي إلّي أحدهم مع زوجته، فأقول: ما المشكلة؟ وهو يقول إنني وصفت بالقاضي القاسي الصلب الشديد، قالوا له: لماذا أنت وصفت بهذه الصفة؟ قال: تأتيني المرأة أريد أن نتحدث عن قضية الطلاق، طلقك أم لا وماذا قال لكِ؟ وأنتَ ماذا قلت لها وما هي نيتك؟ –يعني في هذا الباب– قال: فتبدأ المرأة في سرد قصته معه، فتقول: هو تزوجني وضحك علي، فقال: أُفهمها دعك مما مضى، لما تخاصمتما في اليوم الفلاني، ماذا قال لك وماذا قلت له؟ فتتكلم عن المهر: كان أبي يريد أن يسجل ٥٠٠ مائة لكن دخل وسائط وخلاها ٤٠٠مائة، فيقول: لا إله إلا الله مرة مرتين وبعدها ينادي للشرطة ويقول خذوها إلى السجن، ما المقصود من هذه؟

المقصود أن كثيراً من الأمور التي تقال ليست علة لإنشاء الحكم، بمعنى لما نقول معرفة الواقع، للأسف إن كثيراً من الناس يعلقون أحكاماً على غير مناطاتها لأن هذه المناطات ليست عللاً شرعية معتبرة، يعني عندما أنت تريد أن تنظر إلى بيع ما وتراه هل وافق الربا أم لا؟ فأنت لا تنظر إلى نوع البضاعة، إلا إذا كان مؤثراً، إذا كان مؤثر من النقدين، لا تنظر أين أنشأ العقد على جبل أو في صحراء، يعني واحد يقول: وكنا في الصحراء وماشين وأرهقني، أدخل بالموضوع كيف تم العقد بينكما، ما هي الصفقة وكيف تمت؟

ومثلاً لنفترض ما يقال في هذا الباب، يقال: فلان عميل، وهذه كلمة الآن تقال، لو سأل المرء كيف أنشأت هذا الحكم لا يدري، وهذه نجدها في كلمات الناس، فلما نقول: لا بد من معرفة الواقع، بمعنى أن تعرف العلل المؤثرة فيه التي تُنشئ الأحكام، ليس هناك أي قضية في الواقع تُنشئ الحكم الملائم لها، بل ربما تتدافع العلل، تكون علة ما

لو انفردت يكون لها الأهمية، لكنها لو نُزعت لكانت الثانية، وهذا بين في قضية المواريث مثلاً، لو انفرد الابن بالميراث، لكان له حكم، لكن لو كان له ابنٌ وبنت؟ لو كانت البنت مع أخيها؟ لها حكم، لو كانت البنت لوحدها؟ لها حكم، لو كانت ابنتان فما فوق، لهم حكم.

فإذن هناك علل تتدافع، فطالب العلم لا يكفي أن يقرأ جريدة فيقول: أفهم الواقع، ولا أن يقول كلاماً كثيراً ليقول: أنا فاهم الواقع، ينبغي البحث عن العلل المؤثرة، هذا ذكرته فقط لأهميته، فإذن الفتوة مركبة على ركنين:

الركن الأول: معرفة الواقع بمعنى أن نعرف العلل المؤثرة في الأحكام الشرعية، وإلا في أشياء كثيرة لا تؤثر في الحكم.

الركن الثاني: معرفة حكم الله عز وجل في هذه الواقعة، في مثيلاتها، كيف؟ لو جئنا مثلاً ونريد أن نقول: ماذا في هذا؟ لا بد أن نعرف أن في هذه الكأس ماء أو خمر أو زيت أو بول، فلا بد من معرفة الواقع، لكن مثلاً العلل غير المؤثرة، لو قال لك: أنا وضعتها في كأس، فيبدأ الشرح الزجاج كيف يكون، وهذا الزجاج.... ما دخله؟!! أنا أريد ما الذي في داخلها؟ تضعها في زجاج تضعها في بلاستيك، في حديد، في نحاس، المهم أنا أسألك عما في داخلها، فهمتم المؤثرة وغير المؤثرة، فهذا كلام كثير.

وقد يأتي هذا مؤثر في باب، يعني لو قال رجل: هل يجوز لي أن أشرب الماء حدد حلال، انتهينا من الماء والذي في داخله، وجاء فقال: هل يجوز لي أن أشرب ماء في كأس خمر معين فيه، ما لو رؤيت أشرب فيه الماء، لظن الناس أني أشرب الخمر؟ حينئذٍ صار للإناء حكم، وقد تحدد الماء، فإذن لا بد أن تعرف من المسؤول عنه.

ثانياً: أن تعرف حكم الله عز وجل فيه، هذه الفتوة، معرفة الشق الثاني يسمى فقيه، الشق الثاني الذي هو معرفة أحكام الله عز وجل يسمى فقيه، هذا الفقيه لا يستطيع أن يحكم حتى يكون بصيراً بالواقع، عالماً بما هو فيه، فحينئذٍ يسمى حاكم أو يسمى قاضي، فالفرق بين الحاكم والقاضي أن القاضي ملزم، قوله ملزم عنده شرطة، اسجنوه، هذا هو الحكم، ويلزمه بنفاذه، أما الحاكم أي المحكم بين اثنين برضاهما لا يملك سلطة الإلزام إلا برضاهما، والقاضي لا يختار من قبل المتخاصمين، أما المحكم لا يجوز له أن يدخل في الخصومة حتى يقبل به الخصمان، قد ينشأ الخطأ من عدم معرفة الواقع، فأن يكون المسؤول عنه في حقيقته ماء وهو يظن أنه خمر، فيحكم عليه بالحرمة، وقد ينشأ الخطأ بجهله لحكم الله عز وجل، فقد ينشأ الخطأ من هنا وقد ينشأ الخطأ من هنا، فهذا جهل، جهلٌ بالواقع أو جهلٌ بحكم الله وحينئذٍ لا يصيب حكم الله ولا تكون فتواه موافقة لحكم الله ولا توقيعاً عن رب العالمين جل في علاه.

السائل: هل تحسين الحديث بمجموع طرقه وإن كانت لا تخلوا كلها من ضعف صواب وهل هذا خلاف صنيع المتقدمين؟

الشيخ: لا، لا، الحقيقة من أقوال هذه المسألة تشرح بدروس، المسألة التي سأل عنها وهي قضية تحسين الحديث الضعيف بكثرة الضعيف ولارتقابه بالحسن، هل هي طريقة غير مقبولة جملةً عند المتقدمين، وهل هي طريقة المتأخرين فقط؟ فيما نراه من كلام السيوطي ومن معه ومن وراءه حتى ابن حجر والسخاوي والإمام النووي، كل هؤلاء يحسنون الحديث إذا جاء من طرق ضعيفة ليس فيها نكارة، الشرط ليس فيها نكارة، فالمنكر منكر لا ينتفع، ما معنى المنكر؟ المخالف للحق، المخالف للصحيح، هذا لا يجوز أن ينتفع به، حديث منكر لو كان رجاله رجال الصحيح، لكنه منكر.

هل في صحيح مسلم منكرات؟ نعم، «خلق الله التربة يوم السبت»، هذا حديث لا أقول بالإجماع لأن هناك من حسنه، لكن أغلب أهل العلم على أنه منكر، يعني يخالف الآية، فهذا حديث في صحيح مسلم رجاله إذا أُفردوا هم رجال القبول، ولكن الحديث غير مقبول في متنه فهو منكر، والمنكر لا يقبل بحال، لكن الحديث إذا خف ضعفه وهو الذي يقول: إن راويه مقارب الحديث، ما معنى مقارب؟ -يعني هذا درس في الحديث يا شيخ....-.

مقارب، الطريقة كالتالي: الرجال هناك طبقة تسمى تجاوزت المرحلة وتجاوزت القنطرة، بمعنى لا يجوز البحث فيهم وقد صاروا أئمة ثقات من خلال الاختبار ومن خلال شهادة معاصريهم، الاختبار أولاً اختبروا حديثهم، كمن؟ كسالم عن أبيه، من أبوه؟ ابن عمر، ومرة واحد سأل يحيى بن النعيم، فيحيى بن النعيم يتكلم عن الرجال يعني تضعيفاً وتصحيحاً، لأن أول من جلس لنقض الرجال هو شعبة ثم سرت وكان الإمام يحيى بن نعيم وهو إمام عصره في الكلام عن الرجال، فأظن -لإني نسيت- أظن أنه سؤل عن أحمد فقال: ضعيف، فقال الناس: تقول عن الإمام أحمد ضعيف؟!! فنبهوه: أنه يسأل عن أحمد، قال: أعلم من سألني عن أحمد يجاب عليه هذا الجواب، يعني قلت ضعيف لواحد مثله، فماذا تأثر هذا الرجل السائل، ضعيف، صحيح، هو جاهل لا يعرف الإمام أحمد، كواحد جالس في النهار يقول: يا ترى في شمس، مشرقة الدنيا فيها شمس؟ فال له: لا توجد شمس، لا يضر علم وجود الشمس أو لم يعلمها.

وهناك رجال لطول الصحبة لأئمتهم كالتابعين، كسعيد بن المسيب، كالحسن، أنا اتكلم هنا عن التوثيق، كالحسن، كسفيان، كعلقمة، فهؤلاء تجاوزوا القنطرة؛ لطول الصحبة ونقد العلماء للحديث، ماذا نقدوا؟ يعني وجدوا أحاديثهم الصدق، كسالم، كنافع، هؤلاء، كمسروق الأجدع، عن عبد الله بن مسعود وهكذا، هؤلاء صار حديثهم معيار الصواب.

وهناك أناس أقل منهم مرتبة، نُقلت أحاديثهم فوجد أغلبها الصدق وفيها الخطأ، أقل، طبعًا ما من عالمٍ إلا وأُخذ عليه شيء، حتى مالك النجم أخذوا عليه، وجمع الإمام الدار قطني كتاباً في أخطاء مالك وهو النجم، فهؤلاء صارت أحاديثهم معيار، نأتي لمن أدنى قورنوا بهم فوجدوا أن أخطائهم أكثر منهم، فهذه نزلت مرتبة، لكن وجدوا أقوام يقاربون

هؤلاء، يقاربونهم في ماذا؟ في الصواب، ولكن يخطؤوا هؤلاء إن أخطأوا رددنا حديثهم، بما علمنا أنهم أخطأوا؟ بمقارنة حديثهم بحديث من سميناهم: طالت صحبتهم وثبتت ثقتهم، ومحصت أحاديثهم، طلت صحبتهم لأئمتهم لشيوخهم، فإذا وافقوا انتهى الموضوع، وإذا خالفوا ردوا.

فإذا انفردوا؟ جاءوا بأحاديث انفردوا بها، هنا السؤال؟ إذا وافقوا قبلت انتهى؛ لأنهم وافقوا الثقات، وإذا خالفوا ردوا لأنه خالف جاء بلفظٍ مخالف لما رواه الثقات، سند خالف فيه وهو معروف أنه ليس كالمرتبة الأولى، قورن بالأولى فرد، سواء في السند أو المتن، لكن إذا انفردوا؟ هنا وقعت المشكلة، فإذا لم يأتي إلا من جهتهم وقع عليهم كلام، حتى وقع الكلام على من انفرد من الطبقة الأولى، ويظن بعض الناس أن الانفراد ليس علة، لا عند بعض أهل العلم الانفراد علة حتى من الطبقة الأولى، وهذا مذهب أحمد، أحمد كان يتوقف في الحديث ولا يأخذ به حتى لو انفرد به الثقة.

ولذلك الانفراد عند كثير من أهل العلم أنه علة، وليس كما استقر عند المتأخرين، حتى قال بعضهم: إن كتاب «الكفاية في علوم الرواية» للإمام الخطيب هو أول من دخل في منهج الفقهاء والأصوليين على الحديث، أقصد بالأصوليين أي المتكلمين، لأن أغلب الأصوليين كانوا من المتكلمين، دخل فيهم، فهو قال: بقبول رواية المنفرد مطلقاً، وسرت في المتأخرين وظنوا أن هذا مذهب في الحديث وليس كذلك.

الآن الانفراد، بعضهم يرد إذا انفرد، وبعضهم يتوقف فيه، لا أتكلم على الطبقة الأولى في الانفراد، أتكلم على الطبقة هذه التي أصابت وأخطأت، أصابت علمنا، أخطأت علمنا، لكن إذا انفردت ماذا نصنع؟ هؤلاء يقال لهم مقارب الحديث، لماذا حكمنا عليهم مقارب الحديث، ليس بهذا الانفراد، حكمنا عليهم بمقارب الحديث بما أصابوا.

تفسير سورة «البقرة»

الدرس الرابع عشر

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين حبيبنا وأمامنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى إله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

اليوم إخواني هذا هو الدرس الرابع عشر من دروس التفسير ونبدأ اليوم بفضل الله عز وجل برحمته وبمعونته، في تفسير سورة «البقر» وهي أول سورة من سور القرآن بعد سورة «الفاتحة» وهي من الطوال، وأول الطوال وأكبر الطوال، والطوال كما تعرفون هي السور الأولى من القرآن الكريم التي يليها المئين، والمئين يعني السور التي بلغت المئة، والطوال هي «البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف» هذه هي الطوال، ثم تبدأ المئين بسورة «الأنفال» واختلفوا لماذا وضعت الأنفال في المئين وهي ليست منها، إذا وصلنا إليها نتحدث في هذا الباب إن شاء الله عز وجل على خلاف بين أهل العلم.

لكن سورة «البقرة» كما تعلمون هي السورة الجامعة لأحكام القرآن الكريم وهي السورة الأولى وهي سورةٌ المدنية، وذلك فيها الأحكام الكثيرة لا يوجد سورة في القرآن الكريم احتوت على الأحكام كما احتوت عليها سورة «البقرة»، ولذلك فيها عن الجهاد وعن الطلاق والزواج وعن الرضاعة وعن الصوم وعن الصلاة، وفيها من الأخبار غير ما ذكرنا ومن الأحكام، فيها من الأخبار أخبار بني اسرائيل، أخبار الأنبياء عليهم السلام، أخبار إبراهيم عليه السلام، وأخبار موسى عليه السلام، وهكذا فيها من الأخبار الكثيرة، وفيها كذلك من الأحكام النهائية، فآخر ما نزل من القرآن على قول هي آية الربا، التي نزلت في آخر سورة «البقرة» هي من آخر آيات الأحكام في القرآن الكريم.

وفي هذه السورة آخر آية نزلت في القرآن الكريم على قول وهو الأشهر والأقوى وهي ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾ [البقرة: ٢٨١]، هذه على قول: بأنها –وهو الأقوى والأصوب– أنها آخر آية نزلت من القرآن الكريم، فهذه السورة سورة عظيمة جليلة، كان النبي صلى الله عليه وسلم يميز من حملها على من لم يحملها فأنه كان يولي من يحمل هذه السورة، وكذلك يقدم في القبر إذا جمع عددًا من القتلى من الشهداء في قبرٍ واحد يسأل عن من حمل سورة «البقرة» أو عن من حفظ أكثر من القرآن من أخيه فيقدمه، لأن هذه السورة من علمها على علم الصحابة فيها، أي عالمين بما فيها من أحكام يكون عالماً بالقرآن.

وانظر إلى جلال تحدي الله عز وجل في تسميتها بالبقرة، وهي تسمية حيوان خلقه الله عز وجل، وهذا من جلال تحدي الله عز وجل فيما يسمي، وهذا موافق لأول تعليمٍ أن لا يسأل الرب عما يضرب به من أمثال وعما يتحدث به، لأن الله عز وجل قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، فهذا يتناسب هذا القول في هذه السورة وهو أول تعليم في هذه السورة للخلق كيف يتعاملوا مع كلام الله عز وجل، أن هذا الكلام هو كلام الجليل، ولذلك لا تعاملوه معاملة بعضكم لبعض، فإن الإنسان يتعامل مع الأشياء بحسب قيمتها، أو بحسب تسميتها ونوعها، فهذا حيوان وهذا إنسان، وهذا جبل وهذا وادي، ويتعامل مع الذهب بغير ما يتعامل مع الحديد، ويتعامل مع الحديد بغير ما يتعامل مع العذرة، وكلها خلق.

ولكن الله عز وجل أراد أن يعلمنا بأن الله عز وجل لما خلق جرت القُدرة في الخلق على معنى واحد، وبالتالي ما أجرى الله من القُدرة في خلق الذباب والبعوضة، هي القدرة التي جرت في خلق الإنسان على تعقده، وعلى ما فيه من قدرة عظيمة في الإنسان فهناك ما هو أكثر منه، وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، فالإنسان يشعر أنه عظيم لأن هذا هو الإنسان، لكن لو قورن بما خلق الله من الجبال لكان صغيراً لكان ضعيفاً، لو قدر أن يقارن نفسه بما خلق الله عز وجل من البحار والمحيطات وما فيها من الحيوانات والدواب، لعد صغيراً هذا الإنسان من جهة الخِلقة وجريان القدرة فيها واحد، الله عز وجل خلق هذا وخلق هذا، وجرت حكمته في هذا الخلق المتعدد المتنوع على معنى واحد فلا تعاتبه ولا تعامله في تعامله فيما يضرب كما تعامل أنت الإنسان يضرب مثلاً بشيء عنده حقير لكنه في الخلقة عند الله عز وجل هو على معنى خلقة العظيم.

ولذلك انظر إلى هذا التحدي، هو أول التحدي أن يقال: هذه سورةٌ عظيمة هي سورة «البقرة»، ليست سورة «الإنسان»، وهذه التسميات على ما فيها من خلاف يعني بلا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم سمى سورة «البقرة»، أن البقرة سميت في لفظه، وهناك سور لم يرد فيها أحاديث، ولذلك صار الخلاف بين أهل العلم، هل سور القرآن توقيفية، أم أنها وضعية اجتهادية؟ هناك خلاف، ولا شك أنه لم يرد لنا من النبي صلى الله عليه وسلم النص في كل سورة أن هذا اسمها ولذلك وقع الخلاف في أسماء السور أو ليس الخلاف وقع التعدد، لا يوجد خلاف في الأسماء، ولكن يوجد تعدد، هناك بعض السور كالفاتحة لها أسماء متعددة، البقرة، الزهراء، فسطاط القرآن تسمى هذه تسمية سورة «البقرة»، وكذلك سورة «محمد» تسمى «القتال» و«محمد»، سورة «المؤمن» تسمى «غافر» و«المؤمن»، وهناك من السور ما لها أسماء أكثر من أسمين، وسورة «الفاتحة» لها أكثر من أسمين وثلاثة وأربعة لها أسماء متعددة كما تعلمون وكما ذكرنا.

فبعض أهل العلم يرى أن التسمية جاء بها الحديث لأن النبي صلى الله عليه وسلم سمى قال: (الفاتحة)، وقال: (البقرة)، وقال: (آل عمران)، هذه سماها النبي صلى الله عليه وسلم، وهناك سور لم يرد فيها اسمها من النبي صلى الله

عليه وسلم فوقع الخلاف، وكذلك لو قيل: اجتهادية، هذا لوقوع الخلاف قالوا: هذا يدل على أنها اجتهادية، الذين قالوا بالاجتهاد قالوا: لو أن الاجتهاد وقع في تسمية السور لكان الأولى بأن تسم السور بما هو علامة فيها واضحة وبينة.

مثلاً: سورة «الحج» يمكن أن تسمى بسورة السجدتين، لأن الأميز فيها أنه وقع فيها سجدتان، فمن الأولى أن تسمى بسورة السجدتين، ومع ذلك تسمى بسورة «الحج»، بل تعالوا إلى سورة «يونس»، لا نجد فيها ذكر هذا النبي العظيم إلا في آيةٍ واحدة، ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: ٩٨]، وفيها خبرٌ طويل عن نوح عليه السلام وعن موسى عليه السلام، ثم لا نجد سورة باسم نبي الله موسى عليه السلام، مع أنه مذكورٌ أكثر ما يذكر في القرآن، وقصته في القرآن طويلة وكثيرة.

فقالوا: هذا يدل على أن الناس لم يجتهدوا ولكنهم كانوا يسمون السور بما تلقوه، الصحابة رضي الله عنهم علموه للتابعين والتابعون علموه لمن بعدهم وهكذا، وأعدل الأقوال أننا نستطيع أن نجزم أن هناك ثمة سور قد سماها نبينا صلى الله عليه وسلم وتلقاها الناس عنه بهذا، وهناك أسماء لا نستطيع أن نجزم بها، ولذلك في المسألة بعض الشيء.

ولكنني هنا أتكلم عن قضية جلال هذا الاسم، وتحدي الله عز وجل، يعني الناس الآن كلهم المسلمون في مشرق الأرض ومغاربها ومن سنين طويلة وهم يقولون هذه سورة «البقرة»، ولا يحسون بحرج، وينسبون كلام الله عز وجل ينسبون له عنواناً بأعظم سورة أنها سورة «البقرة»، ألا ترون هذا التحدي؟ من أين نشأ هذا التحدي؟ من كون أن البقرة عظيمة عند الله فتسمى سورة باسمها، ما الفرق بأن تسمى بسورة الجبال أو السماوات أو الأرض أو البقرة أو الإنسان أو العرش أو الكرسي، فكله خلق الله عز وجل.

وهذا أدب القرآن، فتحه لنا في هذه السورة وكان اسمها دلالة على هذا الفتح، وتطبيق لهذا الفتح، في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، فلو سميت هذه السورة بسورة البعوضة لما كان في ذلك أي اعتراض لأنها آية من آيات الله عز وجل وشيءٌ عظيم، ولا شك أنها سميت بهذه الاسم لأنه قد ورد فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، فسميت بهذه السورة لهذا الاسم.

القصد: أن هذه السورة هي سورةٌ مدنية، وفيها الأحكام العظيمة والجليلة والتفصيلية، ولذلك وقع عند أهل العلم الكثير من التفاوت أو بعض التفاوت في قضية ما هو عمود هذه السورة، هل يوجد شيءٌ جامع لها؟ ما الذي يجمع هذه الصورة؟ ما الشيء الجامع لهذه السورة؟ فبعض أهل العلم قال: -وهذا الأقوى- أن هذه السورة هي سورة العبودية، ومما يدل على هذا أن أول أمرٍ في القرآن ورد فيها بهذا الأمر، يعني نحن قلنا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢] هو خبر لكنه فيه دلالة الأمر، فعندما يقول عن المؤمنين ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٢-٣]، هذا خبر ولكن فيه أمر بإقامة الصلاة والإنفاق مما رزقه الله، ففيها أخبار وهي أحكام.

لكن أين الأمر بلفظ الأمر؟ هذا الحديث فإن أول أمرٍ في القرآن بلفظ الأمر الصريح البين هو في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، فلذلك مما يأتي بعدها هو دال على هذا.

إذن يقول بعض أهل العلم: بأن الخط الجامع لكل ما في هذه السورة هو المتضمن لهذا الأمر، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، فهذه السورة جامعة لهذه العبودية فما فيها هو عبادة لله عز وجل، ما فيها هو تحقيقٌ للعبادة، والعبادة هي تحقيقٌ لما قال الله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة: ٢].

فالله عز وجل بعد أن ذكر صفات المؤمنين وصفات الكافرين وذكر صفات المنافقين قال بعدها جل في علاه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)﴾، ﴿طبعًا خَلَقَكُمْ﴾ هذه الآية هي مقدمة لما بعدها، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠]، يعني يريد أن يعرفنا كيف خلقنا وكيف تمت الخلقة – وهذا سيأتي لا أريد أن استعجل–.

ولما كان المقام مقام تشريف لم يذكر أصل خلقة الإنسان في هذه السورة، في هذه السورة عند موطن ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، لم يذكر أصل خلقة الإنسان لا من طين ولا من ماءٍ مهين ولا من حَمَإٍ مَّسْنُونٍ؛ لأن المقام هو مقام تشريفٍ لهذا الإنسان، وذلك لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾، لماذا خلقكم؟ لعبادته فالمقام مقام تشريف، الحديث عن التشريف.

القصد: أن أقول أن عماد هذه الصورة هو هذا الأمر الإلهي وهو أول أمرٍ على ما قاله بعض أهل العلم في القرآن الكريم، أول أمر هذا هو، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، فالسورة تحويه هذه العبادة، فإذا فهمت هذا وإذا ربطت هذا علمت أن كيف أعبد الله، وكيف كذا، وكيف كذا، وقال بعض أهل العلم في هذه السورة: كيفية تحقيق النجاة، لذلك أول ما ذكر شأنه الإنسان وخلقته، ثم ذكر شأن بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ [البقرة: ٤٠]، فهو بيان كيفية النجاة في هذه، إذن عمود السورة هو – وليس بينهما فرق ليس بينهما خلاف– فإما أن يكون عمود السورة هو العبودية وإما أن يكون عمود السورة هو كيفية النجاة، لأنها شاملة للمتقين، ما معنى المتقين؟ أصل الاتقاء هو الترك، اتقاه يعني تركه ودعه ابتعد عنه، وهذا يلائم قضية النجاة، فإن النجاة لا تحصل إلا باتقاء طرق الهلكة.

إذن هذه السورة أيها الإخوة الأحبة اسمها فيه دلالة التحدي الرباني بقضية قدرة الله عز وجل التي هي واحدة في قضية إنشاء الخلق، وبالتالي هذا يعلمنا أن نتعامل مع هذا القرآن مع نفس الرب لا مع أحكام البشر فيما بينهم، ما هو قانون الناس في التعامل؟ شيء آخر، مثلاً بعض قانون الناس مثل ما قال بنو إسرائيل: ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فهذا قانونهم، قانون المال، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف: ٣١]، هذا قانونهم، فلماذا لا يسمى باسم رجل عظيم؟ باسم محمد صلى الله عليه وسلم، فإذا كان العظمة عندك لماذا لا يسمى باسم رجل تاريخي؟ لماذا لا يسمى باسم ... إلخ.

فإذن الناس لهم قانونهم، وقانون الرب وسنته فيما يعلم البشر؛ له سنته وطريقته المخالفة، فلما قال سورة «البقرة» إذ بدأ من هنا كأنه يضربكم في قوانينكم، أنا أسمي ما أشاء، وإذا أردتم هذا التحدي فكل شيءٍ عندي جرى على معنى القدرة، هذا البقرة خلقت عل وفق القدرة، وأنت خلقت على وفق القدرة وخلقت السماوات والأرض على وفق القدرة.

وهذه السورة أيها الإخوة الأحبة تقدم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُمهر بها حتى، بمعنى أنه لو جاء رجل أراد أن يتزوج فيمهر هل معك شيء من القرآن؟ فيقول: معي سورة «البقرة»، فيمهر بسورة البقرة، يمهر ويجعل المهر بينه وبين زوجته هو سورة «البقرة» لجلالها، ولعظم هذه السورة مع أختها سورة «آل عمران»، يأتيان يوم القيامة كالغمامتين يدافعان عن صاحبهما، يدافعان يوم القيامة تأتي وهذا من عجيب خِلقة الله عز وجل.

ونحن تكلمنا مرةً كيف يتحول النور إلى مادة فيجلس عليه الناس، النور ليس مادة، النور طاقة، ولكن يوم القيامة يجلس المتحابون في جلال الله عز وجل على المنابر من نور، فكيف يتحول النور إلى عرض، إلى شيء مادي يجلس عليه، هل هو لتغير طبيعة النور وكثافته وقوته؟ هل هو إذ النور تكاثف بدرجة عظيمة مبهرة؟ لأن نور يوم القيامة ليس كنور الدنيا، وفي الحديث: (حجابه النور) عن ربنا سبحانه وتعالى، حديث عبد الله بن مسعود: (أن الله عز وجل حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)، النور الذي به يوم القيامة يعيش الناس له حالة أخرى غير ما نحن فيها، فهل يتكاثف النور حتى يصل إلى درجة التكاثف أنه يمكن للناس أن يجلسوا عليه؟ أم أن الناس تختلف أجسادهم؟ فلا ندري.

ولكن انتبهوا هذا قرآنٌ هو كلام الله عز وجل، ونحن نقرأه بأصواتنا ونسمعه بأذاننا ونكتبه بحبرٍ مخلوق على ورق مخلوق وبأيدي مخلوقة لكن هذا الكلام، حتى الكلام الذي نقوله نحن ولله المثل الأعلى، هذا الكلام كيف يتحول إلى غمامة؟ الكلام يتحول الى غمامة، والموت يتحول إلى كبش (يؤتى بالموت على صورة كبش)، يعني كيف؟ الموت حالة عرضية عرض من الأعراض، والعرض لا يقوم بذاته، هل اللون يقوم بذاته، هذه الأعراض، اللون لابد أن يكون فيه

مادة حتى يسمى هذا لون، فالعرض لا يقوم بذاته، العرض: سمي عرض لتحوله ولضعفه لأنه يعرض فيتغير، فهذا يسمونه عرض، فالعرض لا يقوم بذاته يقوم بغيره، هل العلم يقوم بذاته؟ هل يوجد شيء اسمه علم هكذا؟ لا يوجد، الجهل لا يمشي لوحده الجهل يمشي في إنسان، يمشي في مخلوق، موجود في كتاب، فلا يوجد شيء اسمه علم هكذا، فهذا يتحول إلى عرض.

فانظر الموت، الموت شيءٌ حقيقي، ولكنه يتحول إلى شيءٍ مادي وشيءٍ له كثافة ويموت ويحيا، قال صلى الله عليه وسلم: (يُؤْتَى بالمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أمْلَحَ، فيُنادِي مُنادٍ: يا أهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ ويَنْظُرُونَ، فيَقولُ: هلْ تَعْرِفُونَ هذا؟ فيَقولونَ: نَعَمْ، هذا المَوْتُ، وكُلُّهُمْ قدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنادِي: يا أهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ ويَنْظُرُونَ، فيَقولُ: وهلْ تَعْرِفُونَ هذا؟ فيَقولونَ: نَعَمْ، هذا المَوْتُ، وكُلُّهُمْ قدْ رَآهُ، فيُذْبَحُ، ثُمَّ يقولُ: يا أهْلَ الجَنَّةِ، خُلُودٌ فلا مَوْتَ، ويا أهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فلا مَوْتَ)، خلاص انتهى الموت، الموت مات فينتهي وجود الموت في الوجود، فكيف ينتهي الموت؟ وهذا من التحول.

والأعمال، كيف توزن الأعمال؟ أنت لما تقول: «سبحان الله» هذه حسنة، الحسنة يعني عندنا هكذا يبدو لظاهره الأمر عندنا وهي شيءٌ حقيقي، لكنها شيءٌ معنوي، كلمة مدح، لكن هذه الحسنة تصبح مادة توزن، ويؤتى بالحسنات وتوزن، ويؤتى بالسيئات كذلك مثل الحسنات وتوزن، فكيف تتحول؟ هذا خلق الله، الحسنات مخلوق والسيئات مخلوق، والموت مخلوق، ولكن هذا كلام الله كيف يصبح غمامة؟ كيف يصبح غياية؟ كيف يصبح سحابة؟ فيستظل بها الناس يوم القيامة، أصحابها.

وهذا من العظمة، هذا تحول، هذا دليل لأهل الإسلام على أن بعد الموت حياةٌ أخرى، وقوانينٌ أخرى، وسننٌ أخرى، أيمكن أن ندرك بعضها في الدنيا، كقوله عز وجل: ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)﴾ [الحج: ٤٧]، يمكن أن ندرك بعضها كيف أن المرء لو مشى نورًا كيف لو قضى دقيقة فأنه يكون قد قضى مئة عام، وهكذا يمكن أن تدرك هذه من خلال ما يسمى بنظرية النسبية، وهناك أمور لا نعرفها نسلم لها، كما نعلم أن موسى عليه السلام مر عليه النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلي في قبره، ثم صلى به إمامًا في المسجد الأقصى ثم قابله في السماء الرابعة، كيف يصبح هذا الإنسان بهذه الحالة؟ نسلم.

الأمر الثاني أننا نعلم هذه السورة من قرأها في بيته لا يدخله الشيطان، (من قرأ سورة البقرة في بيتٍ لا يدخله الشيطان في هذا اليوم)، وفي رواية (ثلاثة أيام)، لا يدخل الشيطان في البيت ثلاث أيام إذا قرأ المرء البقرة في بيته، والله تعالى أعلم.

وكذلك أن هناك بعض الآيات في هذه السورة لها خصوصية، مثل آية الكرسي، فآية الكرسي كما في حديث أبي هريرة: الشيطان علمه إذا قرأها المرء لا يقربه شيطان، إذا قرأ في ليله قبل نومه إذا قرأ المرء آية الكرسي ثم نام لا يقربه شيطان في ليلته هذه، ما هو الأعظم ألا يدخل الشيطان البيت بالكلية أم ألا يقربه في منامه؟ فدل هذا على

أن قراءة السورة أعظم وأجل، هذا كله من جلال هذه السورة ومن عظمتها ومن أهميتها، وهي بلا شك عند أهل العرفان بها أنه من حفظها يسهل عليه بعد ذلك حفظ القرآن، من حفظ هذه السورة ولذلك يطلب من الحفاظ أن يحفظوها ابتداءً فإنه سهلٌ عليهم أن يحفظوها.

الأمر الأخر نحن تكلمنا عن سورة «الفاتحة» وقلنا في الدرس الفائت لابد أن نبين أولاً علاقة سورة «الفاتحة» بسورة «البقرة»، لما يسمى بعلم التناسب، أي ما هي مناسبة أن ترد سورة «الفاتحة» ثم تأتي سورة «البقرة» بعد ذلك، أولاً قلنا في الدرس الفائت أيها الإخوة الأحبة قلنا شيئاً مهماً وهو أنك تستطيع أن تأتي إلى أي آية في كتاب الله وتضعها في سورة الفاتحة، إذن في الحقيقة هناك علاقة بين سورة الفاتحة وأي سورة، يعني الكلام الذي قلناه يدل على التالي على أن هناك ثمة علاقة بين سورة «الفاتحة» وبين كل سورةٍ في القرآن، أي البحث ليس لخصوصية –هذا عودة– البحث فيما نحن فيه ليس عودة لاختصاص «البقرة» بعد «الفاتحة» فقط، ولكن لأن «الفاتحة» هي فاتحةٌ لكل سورة، فأنت تستطيع أن ترى المناسبة بين سورة «الفاتحة» وبين سورة «آل عمران»، وتستطيع أن ترى المناسبة بين سورة «الفاتحة» وبين سورة «النساء» وهكذا، فهذه «الفاتحة» هي الوعاء الجامع لما فصله القرآن بعد ذلك في القرآن كله.

إذًا ما هو المناسبة بين هذه السورة وبين «الفاتحة»؟ نحن قلنا بأن هذه السورة تبين عبادة الله عز وجل، وهو يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، يعني في مجمل السورة عمودها الذي يجمعه هو عبادة الله، وفيها على المعنى الثاني كيفية النجاة، ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الفاتحة: ٧]، ففي الجملة هذه السورة تبين لنا كيف نعبد الله عز وجل، لأن الله عز وجل قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فكيف نعبدك يا رب؟ لو سأل سائل يا رب كيف نعبدك؟ فقال: هنا الجواب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].

وكذلك هذه السورة بينت لنا أعظم وأجّل سمة في هؤلاء الذين وصفهم الله بأنه أنعم عليهم وحققوا إخلاص العبادة وإخلاص السؤال له، هذه سورة «الفاتحة» علمتنا أنه يجب علينا أن نخلص العبادة له، نخلص السؤال له وأن نجتنب ما يضاد هذا؛ فبينت هذه السورة أجّل صفة تطلق على من حقق هذا في قوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة: ٢]، لأنها تقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، من هم الذين أنعم الله عليهم؟ ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ ولذلك جاء وصف المتقين ﴿والْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، العاقبة لمن يصفها القرآن؟ للمتقين.

فأعظم وصفٍ، وصف به أهل الإيمان هو التقوى في الدنيا، وأعظم نتيجة في القرآن أكثر من اثنين وسبعين مرة ربما ذكر قوله: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾، فالتقوى لحالهم في الدنيا والفلاح لحال نجاتهم في الآخرة، أي بينت الحالة في الدنيا وهو عملهم، ما هو عملهم؟ التقوى ما هي نتيجتهم؟ الفلاح، ومع أنه قال عنهم أوصاف كثيرة، ومن ذلك السعادة وردت فقط في موطن واحد في كلمتين السعادة، الناس يبحثون عن السعادة ويحبون هذه الكلمة، لكن الفلاح أعظم،

الفلاح أعظم من السعادة لأنه يتضمن السعادة وأعظم منها، لأن السعادة قد تنشأ من فراغ، يعني واحد سعيد ليس عنده شيء وهو سعيد، فهي حالةٌ نفسية، لكن الفلاح لا يمكن أن ينشأ إلا من امتلاء، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨)﴾ [هود: ١٠٨]، ﴿سُعِدُوا﴾ فقط، وأما الفلاح فقد ورد كثيراً حتى قيل أكثر من اثنان وسبعين والله تعالى أعلم.

القصد من هذا: أن أعظم وصف ويعيشونه هو التقوى، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، فجعل خير الزاد وجعل العاقبة لهم، هؤلاء هم المتقون، فإذن هذا الكتاب هو هدًى لهم يعلمهم ويرشدهم ويهديهم، فلذلك جعله الله عز وجل.

فإذن المناسبة بين سورة «الفاتحة» وبين سورة «البقرة» بيّنٌ واضح سواء كان في موضوعها كله أو في مطلعها، ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة: ٢]، وهذه جامعة بينها وبين كلمة ﴿اهْدِنَا﴾ فإذا أردت الهداية فهذا هو.

نحن تكلمنا عن قضية الأسماء ويبقى قضية الترتيب يقول الإمام النووي رحمه الله في «التبيان في آداب حملة القرآن» -وهذا ليس من الواجب بل هو من المستحب-: وهو إذا أردت أن تقرأ القرآن أن تقرأه مرتباً على ما هو في المصحف الشريف، على ما رتبه الصحابة، قلنا وقع الاختلاف في التسمية، ولكن هل ترتيب السور توقيفي أم أنه اجتهادي، لم يقع اختلاف بين أهل العلم أن أول سورة بعد «الفاتحة» هي سورة «البقرة»، وإن وقع اختلاف بعد ذلك في مصحف ابن مسعود وفي أنه كان يقرأ «البقرة» ثم «النساء» ثم «آل عمران»، وقع منه هذا ولهم كلام في هذا مما يدل على أن الترتيب السور هو اجتهادي، ولكن اتفاق الصحابة رضي الله عنهم في عصر عثمان رضي الله تعالى عنه، ثم بعد ذلك إجماع الأمة على أن هذا هو ترتيب القرآن، هو يجب المصير إليه، ولا يجوز تغيير القرآن على ما كان عليه عندما اجتمع عليه الصحابة رضي الله عنهم بما جمع عليه الناس عثمان رضي الله تعالى عنه.

فهل ترتيب السور توقيفي أو وضعي؟ على خلافٍ بين أهل العلم وأقرب الأقوال أنه توقيفي، لكن لو قيل أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يقرأون هذا، يقدمون ويأخرون كما كان من شأن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه كان يقرأ سورة «النساء» ثم سورة «آل عمران»، أو كما كان يقرأ عمر رضي الله تعالى عنه سورة «يوسف» ثم يقرأ سورة «يونس» فهذه قالوا: دليل على جواز ما يسمى عند الفقهاء بالتنكيس، يسمونه التنكيس، والتنكيس درجات منه ما هو كفر، من الكفر هو أن تقرأ السورة من آخرها إلى أولها هذا كفر، لو أن رجلاً قرأ الفاتحة والضالين وهكذا فهذا كفر؛ لأنه يبطل، وكذلك مثله أن يقرأ الآية ثم الآية التي قبلها والآية التي قبلها، فهذا لا يجوز، وأما تنكيس السور ففيه خلاف بين أهل العلم، هناك من يكرهه كراهة شديدة، وهناك من يجيزه وهناك من يراه خلاف الأولى، والمقصود به أن يقرأ السورة التي في ترتيب المصحف بعد السورة في الصلاة أو في غير الصلاة.

ويقول النووي رحمه الله في هذا: «والمستحب هو أن يقرأ القرآن على ما رتب عليه، لأن في ذلك معاني»، لما يتكلموا يقولوا في ذلك معاني أي هناك أسرار لهذا الترتيب، هناك أسرار لهذا الترتيب يدركها الناس يحسونها ويشعرون بها ويحسون بهذه المعاني من أنوار عظيمة لهذا الترتيب، بمعنى أن المرء إذا أراد أن يقرأ القرآن فليقرأه بما رتب عليه في ما اجتمع عليه الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فلذلك معاني فيه خير عظيم وهذا هو المطلوب. يعني يكفي هنا أنا لا أريد، أحب أن أدخل في الموضوع ومن خلاله إن شاء الله نكتشف الكثير من أحكام القرآن فيما نتكلم عنه من السور ومعاني الآيات.

نحن تكلمنا أيها الإخوة الأحبة عن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ولا نريد أن نعود إليها فيكفي ما تكلمنا عنه في هذه الآية في سورة «الفاتحة» التي تقدمت.

يقول الله عز وجل: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة: ١-٢]، يعني هنا أول شيء يبحث في هذا القول الإلهي العظيم وهو هذه الحروف المقطعة، ﴿الم﴾ ألف لام ميم، علينا أن نبحث هذه، والعلماء على قولين، وكل قولٍ فيه أقوال متعددة، ومن أراد استيعاب ما قيل فيها فإني رأيت أن أوسع من تكلم في استيعاب الأقوال الداخلة في القولين كما سأذكرهما هو الفخر الرازي في تفسيره «التفسير الكبير» فإنه حاول أن يجمع كل الأقوال في تفسير ﴿الم﴾ وهذه الأقوال المتعددة الكثيرة مجموعة في قولين:

القول الأول: وهذا عليه بعض أهل العلم أن ﴿الم﴾ استأثر الله عز وجل بعلمها فهذه لا نعلمها ونكلها إلى الله عز وجل، وهذا قول بعضهم، فالقول الأول خلاص ﴿الم﴾ الله أعلم بمراده وهذه تجد بعض المفسرين كما هو شأن مثلاً صاحبي الجلالين يقول الله أعلم بمراده وخلاص انتهى الموضوع لا نبحث فيها.

القول الثاني: أن ﴿الم﴾ لها معنى وحينئذٍ الذين يقولون لها معنى اختلفوا على أقوالٍ متعددة، إذن هما قولان القول الأول نحن علينا أن نكل أمرها إلى الله عز وجل، فلا نبحث في معناها لأن هذا مما استأثر الله عز وجل بعلمه، لا ندري ما المراد به ونسكت عنه، والقول الثاني: قالوا: لا بل لها معاني فإذا سئلوا ما المعاني؟ حينئذٍ وقع الخلاف الكبير والطويل والعريض، هل لها دلالة في نفسها؟ أم ليس لها دلالة في نفسها وإنما تدل على غيرها؟ وأنا سأذكر بعضها لا كلها.

إذن:

القول الأول: الله أعلم بمراده ونسلم ونسكت، **القول الثاني**: قالوا بأن لها معاني –وسنذكر بعض ما يقولونه– فإذا قيل ما معناها؟ ذكروا لنا، ومن هذا القول لها معاني يقولون من معانيها أنه ليس فيها معنى في نفسها ولكن فيها

معنى في دلالتها على غيرها، كيف؟ لننتهي من الأول كونه سهل ويمكن إدراكه، وأما من قال: بأن لها معاني في نفسها فهؤلاء اختلفوا اختلافاً طويلاً وكثيراً.

فالذين قالوا: فيها معاني في غيرها، قالوا: شيئاً واحداً وهو اختيار جماعة من أهل العلم وممن اختاره هو ابن جرير الطبري ويميل له ابن كثير وهو اختيار سيد قطب رحمه الله في الظلال إلى غير ذلك، يقولون: بأن المقصود أن هذه الحروف بيان شأن التحدي، في أن القرآن ركب، أنا أكرر هذا حتى لا يفهم أننا نطلق ألفاظاً يمكن أن يفهم منها القول بخلق القرآن، فالإمام ابن عطية في «المحرر الوجيز» في بداية كتابه مع دقته قال: سامحونا على هذه الإطلاقات لا نريد بها هذا لكنها جرت بها الألفاظ، يعني ركب كقوله: جعل كقوله: استخدم هذا اللفظ، فبعض الناس إذا أخذها على ظاهرها فإذا قيل استخدم القرآن وهذا اللفظ يعني أنه مخلوق، وإذا قال: الله جعله يقول لك: مخلوق، وركب يقول: لك مخلوق كأنه خلقة وهذا غير صحيح، واعتذر ونحن نعتذر بما اعتذر به إمامٌ عظيم وهو ابن عطية الأندلسي رحمه الله في أول مقدمة كتابه «المحرر الوجيز» واعتذر اعتذاراً جميلاً جيداً واختص به ورفع عنا الحرج هذا الإمام الوحيد الذي رفع عنا الحرج في هذا الباب.

القصد: نرجع إلى أقوالهم في معنى ﴿الم﴾ لمن قال فيها معنى، قال الأوائل في قولهم أن فيها معنى قال: ليس في ذاتها، هي لا تحمل أي دلالة في معنى هي حروف لا تحمل أي دلالة، ماذا يراد منها؟ ما الذي يراد من هذه الكلمات ﴿الم﴾، ﴿حم﴾، ﴿كهيعص﴾، ﴿الر﴾، ما المراد؟ قالوا: المقصود بها بيان التحدي، ذلك لأن القرآن الكريم نزل بهذه الحروف وبالتالي هذه الحروف بين أيديكم ائتوا لنا بقرآنٍ من هذه الحروف التي ركب منها هذا القرآن.

وقالوا: مثال ذلك أن ﴿الم﴾ وهي أول سورة فيها هذه الحروف استوعبت جميع مخارج الحروف في الفم، ألف من الحلق واللام من رأس اللسان والميم من الشفتين، يعني شاملة لكل مخارج الحروف في الفم، فهذه الحروف ما بين ﴿الم﴾ أما ألف لا تحمل دلالة في ذاتها، ولام لا تحمل دلالة في ذاتها، وميم لا تحمل دلالة في ذاتها، وإنما المقصود بيان أن القرآن جاء بهذه الحروف مُعجزاً لكم وهذه الحروف بين أيديكم فائتوا بمثل هذا القرآن، إذن قالوا: ليس فيها أي دلالة إلا أنها بهذا المعنى، هذا المعنى الأول من القول الثاني.

واستدل هؤلاء الذين قالوا بأن المقصود بهذه الحروف بيان التحدي أنهم وجدوا أن أغلب الآيات التي فيها ذكر الحروف المقطعة جاء عقبها ذكر الكتاب، أن أغلب لا كل لكن أغلب السور التي كان مطلعها ذكر هذه الحروف جاء بعدها ذكر الكتاب، وذلك مثل بين الذي بين أيدينا ألف ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة: ١-٢]، وفي بداية الأمر يقال ذلك؛ لذلك ﴿الم﴾ هو الكتاب، ﴿الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: ١-٣]، ﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢)﴾ [الزخرف: ١-٢]، ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١)﴾ [النمل: ١]، وهكذا.

فنجد أن ذكر الكتاب يعقب ذكر هذه الحروف المقطعة، وإن كان هذا ليس كُلياً ليس استقراءًا كلياً وإنما هو قراءة أغلبية، ذلك لأننا وجدنا أن بعض السور ليس فيها ذلك، ليس فيها ذكر الكتاب، وذلك في سورتين في سورة «العنكبوت» وفي سورة «الروم»، لا نجد فيها ذكر الكتاب فقوله تعالى: ﴿الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ١-٤]، فقالوا: هذا ليس استقراءًا كاملاً، إذن هو يوجد لكن هذا اختيار كثير من أهل العلم بأن هذه حروفٌ مقطعة ولا تحمل في ذاتها أي دلالة وإنما هي مرادة للتنبيه على ما كون به القرآن وما نطق به ربنا من هذه الحروف المكونة من هذه الكلمات فأتوا بسورة مثله على ما جرى به التحدي من سورة أو عشر سور إلى أخر، أو مثله انتهينا الآن من المعنى الأول من القول الثاني.

الآن نأتي للمعنى الثاني، هذا الكلام قال به كثير من أهل العلم واختلفوا، قالوا: المقصود به وهذا قريب من المعنى الأول من القول الثاني، قالوا المقصود به التنبيه، وهذا يدخل فيه أنها ليس فيها معنى إنما التنبيه، يقال كلمة ليقصد بها مطلع شيءٍ لينبه عليه، وافترقوا على أقوال في هذا القول، أقوال متعددة منها قالوا: بأنه تنبيه للسامع حتى ينتبه لأمر لا يعرفه، يعني عندما يعرفون أن هذا النبي العظيم هذا الرسول يقولون أنه جاء بكتاب من عند الله وجاء برسالة ثم هم يعني يستمعون له ويقولون: لا نريد أن نسمع ماذا يقول، فإذا قال: ﴿كهيعص (١)﴾ [مريم: ١]، ماذا يقول هذا الرجل؟ فيكون سبباً لتنبيههم لإخراجهم من غفلتهم أو من إعراضهم من أجل أن ينتبهوا إلى ما بعدها فقط هو التنبيه، وهذا داخل في المعنى الأول، داخلٌ فيه وإن كان مخالف له في وجهٍ من الوجوه.

المقصود: هو أن ينبههم، أن يقرعهم، أن يقول لهم: انتبهوا هناك كلام عظيم لا تعرفونه ﴿حم﴾، فيسمعون بعد ذلك ينتبهون ما الذي يريده؟ فيأتي بعد ذلك ذكر ﴿حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢)﴾ [فصلت: ١-٢]، فينتبهون، هذا قول كثير من أهل اللغة وكثير من أهل التفسير، المقصود بمطالع هذه السور هو أن ينبه السامع إلى عظمة ما سيتلى عليه، وقالوا: والدليل على هذا أننا لا نجد هذه المقاطع من الحروف المقطعة إلا في مطالع السور، لا نجدها في وسط السورة، فلو كان فيها دلالة في نفسها لكانت ذكرت في وسط السورة ليعلمنا على دلالة معينة.

مثلاً: لما يأتي بعضهم يقول: أننا يمكن أن نجمع منها أسماء الله وصفاته فاكتشفنا أشياء ولم نكتشف أشياء.

مثلاً: ألف لام راء حاء ميم نون ماذا تجتمع؟ الرحمن قالوا: هذا يمكن، دلت على أنها يمكن هذا أن تجمع الكلمات، بعضهم قال: هي للدلالة على أسماء الله، ألف يعني الله الأحد وهكذا، واللام هو على ما يأتي من لطيف، والميم على ما يأتي من منان وهكذا، جعلوا لها معاني، أو قالوا: بأن العرب تطلق حروفاً على معاني، علينا أن ننتبه لها ما هي، مثال: العرب تقول: جبل «ق»، الذين يصبغون الصباغون أو البائعون نقد يقولون عنهم «ص»، يسمون السحاب «غ»، يسمون الناقد «ع»، فقالوا: هذه دلالة وبعد ذلك نبحث هذه كلمة تدل على معنى فنبحث عنها،

لكن الأوائل قالوا: لا، إنما يراد بهذه الكلمات التنبيه هي لا تحمل دلالة إلا دلالة التنبيه، وأما هي فلا تحمل دلالة من المعاني، بهذا هذه الأقوال تقريبًا الجامعة لما وقع فيه الاختلاف من قوله تعالى: ﴿الم﴾.

طبعاً أهل اللغة هنا ظهر أمرهم، يعني تجد أن المفسرين ينقلون كلام سيبويه وينقلون كلام شيخه الخليل وينقلون كلام قطرب، وينقلون كلام المبرد لماذا؟ هنا المسألة التي ينبغي أن نهتم لها أن أغلب المفسرين ينقلون كلام أهل اللغة في هذا الباب، لماذا؟ لأنه أولاً لا يوجد عندنا نص حديث حتى يحسم المسألة وإن كان الآن سنذكر نصاً ربما يكشف لنا المعاني، فلا يوجد عندهم نص ولا يمكن أن ينقذهم من هذا الخلاف وهذا الإشكال إلا بأن يروا، هل العرب تكلموا حروفاً مقطعة؟ وإذا تكلم العرب بالحروف المقطعة على أي وجهٍ تكلموها؟

الآن لما نقول: أن العرب قالوا: عن الجبل «ق»، قالوا عن السحاب «غ»، قالوا: عن النقدين «ع»، قالوا: عن الصواغ: «ص»، وهكذا تجد أنهم يطلقون حروفًا على معاني، فهذا استعانة بالعرب، استعانة باللغة، فحينئذٍ برز أهل اللغة واهتم المفسرون بكلامهم لأنهم يحتاجون إلى كيفية تعامل العرب معها، يعني نحن بحاجة –وهذا الذي يمكن أن يكون فاتحة– نحن بحاجة أن نعلم حال الوليد بن المغيرة لما قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة «فصلت» التي تسمى ﴿حم﴾ السجدة وهذه من الأدلة لمن يقول: بأن هذه أسماء السور.

فسيبويه والخليل يقولون: هذه أسماء السور، وضعت أسماء للسور هذا من دلالتها، من دلالات هذه الحروف على أنها معاني السور، قالوا والدليل؟ يقول تعالى: ﴿الم (١) تَنْزِيلُ﴾ [السجدة: ١-٢] لسورة السجدة، فيجعلون ﴿الم﴾ اسمًا للسورة، يقول: ﴿حم﴾ السجدة المقصود بها سورة «فصلت»، ويقال سور الطواسين يسمونها بالحروف المقطعة التي ابتدأت بها السور، هذا ممن يقول بهذا وإلا فالأقوال كثيرة جداً، أهل اللغة هم الذين يأتون إلى هذا الباب،

لكن نحن بحاجة أيها الإخوة الأحبة أن نعرف عندما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم لما أرسل الوليد بن المغيرة من أجل أن يسمع القرآن فيقول فيه قولاً تجتمع عليه قريش، نحن بحاجة كلنا اليوم أن نعرف عندما سمع الوليد بن مغيرة ﴿حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢)﴾ [فصلت: ١-٢]، كيف تلقى كلمة ﴿حم﴾؟ ماذا فهم منه؟ هل هي كلمة جعلته ينتبه ماذا يقول؟ هل هي أعطته فقط هذا الانتباه؟ أم أوقعت عنده عظمة ما؟ أن الحاء والميم لها دلالة معينة في نفسه يعرفها يتكلم بها أهله فعلم معناها، يعني نحن نريد لا يمكن أن نعرف إلا بمعرفة ممن نزل عليهم كيف تعاملوا بها، ولذلك وقع الخلاف على من بعدهم وورد عن بعض الصحابة بأحاديث لا تصل لدرجة القطع، ودرجة القبول وحسم المسألة وإلا لقنا بأن تفسير الصحابة في هذا لو صح لكان قاطعاً في الباب.

الذي يوقفنا في هذا يعني مع أن القول المنتشر اليوم والذي يظن البعض أنه قد حسم الكلام في تفسير ﴿الم﴾، أنهم يقولون: المعنى الأول أنه لا دلال في نفسها إلا بكونها دلالة على غيرها، أي بأن القرآن الذي بين أيدينا مُعجَز ومُعجِز للأخرين ومُعجَز هو في نفسه فبهذه الحروف تعالوا إليها فأتونا بقرآنٍ مثله، هذا الكلام يمكن للمرء أن يميل

إليه، وخاصةً أننا كما يقول: أدلة غالبة، لكن الذي نراه أن بعض السور لا تقول بهذا، كما ذكرنا من سورة «الروم» وسورة «العنكبوت».

الأمر الآخر وهو الذي يوقفنا أنه صح عنه صلى الله عليه وسلم أن شعاره في بعض غزواته كان الصحابة يقولون –لهم شعار بدل ما يصرخوا– (حم لا تنصرون)، واختلف في (حم لا تنصرون)، هل هي استعاذة؟ أم مجرد اسمٍ وشعار؟ يستعيذ ويقول: (حم لا تنصرون)، أي نستعيذوا بكلمات الله ألا ينصروا، وهذا المعنى هو الذي رجحه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه «غريب الحديث» هذا الكتاب العظيم الذي هو أول كتاب ألف في غريب الحديث وكان الإمام أحمد لما قرأه فرح به وأمر ابنه وعبد الله أن يحفظه، فأول من كتب في غريب الحديث هو الإمام القاسم بن سلام عليه رحمة الله.

ففيه يقول (حم لا تنصرون)، هل هي دعاءٌ واستعاذة؟ أم هي مجرد اسمٍ وشعار؟ على معنى كلامه وحمله على أنه استعاذة يعني يقول: (حم لا تنصرون)، يستعينون بكلمات الله ألا ينصروا، ونحن نعلم أنه لا تكون الاستعاذة إلا بكلمات التامات، والدليل أن العبد يقول: (أعوذ بكلمات الله التامات)، فإذن ﴿حم﴾ كلمةٌ تامة ولا يمكن أن تكون كلمة تامة إلا بدلالةٍ على معناها، إلا بدلالة في ذاتها، لا تكون تامة لأنه لو كانت دلالة على غيرها لما كان فيها قوة الذي يستعاذ به ليحمي المستعيذ به من غيره، فهذا يدل على أن فيها معنى.

ولذلك ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه وإن لم يكن على درجة عالية من الصحة والأقرب أنه ينبغي أن يُبحث عن معاني هذه الكلمات، ولكن الذي يفهم أن ما دام وقع الخلاف الشديد بين أهل العلم في هذه الكلمات إذن ليس عندهم دلالة مقاربة، فإما أن تدل على أسماء الله وإما أن تدل على خلقة الله أو تصرفه مع عبيده، هكذا بعض أهل التفسير حملها، فهذا إذًا خلاف شاسع كبير، فإذن لا بد أن يكون في دلالة هذه الحروف دلالة لما بعدها الذي بعدها يدل عليها.

ولذلك لما يأتي بعض أهل العلم يقول: هي تنبيه، فهي ليست فقط تنبيه لأن تسمع فقط، ولكن تنبيه لعظمة الإعجاز لأن فيها إعجاز، مادام أنها كلمة تامة هي معجزة هذه الكلمة، لكن كيف يكتشف المرء أعجازها؟ لابد حين يلقي سمعه إلى ما بعدها، لما يأتي يقول واحد: يقول النبي صلى الله عليه وسلم للوليد بن المغيرة يقول له: ﴿حم﴾، هو لا يدري ما الذي يراد، سوى أن يتنبه أن هناك شيئاً عظيماً في هذه الكلمة، هذا لا يدرك عظمته لو قالها واحد ثم قال بعدها كلاماً سخيفاً لا قيمة له لو قال: حاء ميم، ثم قال كلاماً سخيفاً بعدها لسقطت قيمة حاء ميم حينئذ لكن يعرف السامع قيمة هذه الكلمة عندما يقرأ ما بعدها، فإذا جاء ما بعدها ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣)﴾ [فصلت: ٢-٣]، فيسمع هذه الآيات حينئذٍ يعلم عظمة هذه الحروف المقطعة، هذا الكلام الذي قلته الآن يقرب أن يكون جامعاً لأغلب الأقوال، لأن شعار الصحابة (حم لا

تنصرون) أنه استعاذة دل على أنه كلمات تامة عظيمة بليغة معجزة لكن وقع فيها الخلاف الكبير في هذا فإنما يدل على ذلك أن تجمعها لما بعدها فتعود إليها فتشعرك بعظمة هذه الكلمة التي نطقت بها، فهذا كلام جامع بهذا المعنى.

وهنا سأقرأ نصاً سأقرأ ليس من «الكشاف» ولكن من ابن كثير، وإن كان «الكشاف» موجود وهو من الكتب المقربة والحبيبة لما فيه من فوائد وفرائد، ولكن العلماء جمعوا هذه الحروف ووجدوها مجموعة لمن أراد أن يحفظها، وجدوها مجموعة في قولهم: «نص حكيم قاطع له سر» وقال غيرهم: غير ذلك –لا أريد أن أضيع– لكن جاء الآلوسي جمعها في نصوص متعددة، فيها الدلالة على هذا ولكن أجمل ما تجمع عليه هذه الحروف هذه الكلمة «نص حكيم قاطع له سر» وهو دل على هذا القرآن، الحروف كذلك لها سر، فهذا ما يجمع هذه الحروف في ذلك.

ونأتي إلى ما يقوله الزمخشري من فوائده ونقلها ابن كثير في تفسيره نقرأها لكم، طبعاً نحن قلنا أيها الإخوة الأحبة بأن هذه الحروف ليست إلا في مطالع السور، هناك بحث لا بأس أن أتي إليه قبل أن أقرأ كلام الزمخشري من ابن كثير، وهو ظن بعض الناس لو ذكرت لأحضرت لكم النص من كتاب «البرهان» للإمام الزركشي رحمه الله، يظن بعض الناس أن الإعجاز العددي مع أن كلمة الإعجاز العددي كلمة غير صحيحة؛ لأن الإعجاز المقصود به البياني هذا الإعجاز، لكن هل في الأعداد في القرآن فيها دلالة أن القرآن من عند الله عز وجل، لنفرق بين الإعجاز وبين دلالته، ما الفرق بين الإعجاز والدلالة؟

هل هناك في القرآن دلالات وعلامات وبينات أنه من عند الله عز وجل؟ هذه الدلالات والعلامات والبينات في القرآن ليست هي الإعجاز، لأن الإعجاز قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]، اكذبوا، حتى اكذبوا، –هذه المسألة بالرغم من أني شرحتها في تفسير سورة «الأنعام» لكن لا بأس أن أتي إليها حتى يفهم منها– عندما يأتي أحدهم ويقول: الإعجاز العلمي هكذا يسمونه، الآن انتشرت هذه الألفاظ فقط ننبه على دقة الألفاظ، ولا نريد أن ندخل في معارك مع الآخرين يعني لتبقى هذه الكلمة، ولكن على طالب العلم أن يعرف الفرق بين الدلالة وبين المعجزة.

فهناك دلائل في القرآن على أنه من عند الله عز وجل، ومن أدلة ذلك ما يسمى بالإعجاز العددي بمعنى أننا نجد في القرآن أن عدد كلمة الدنيا تعادل كلمة الآخرة، عدد السماوات تساوي عدد الأرض، وهكذا، يبحثون في هذا بحثًا جيداً يجمعون، وهذه دلائل على أن هذا القرآن من عند الله عز وجل، هذا دليل لكن هذا ليس إعجازًا.

فمن الإعجاز العلمي هو الإعجاز الطبي، أن القرآن كشف لنا علم الأجنة يسمونه إعجاز علمي لكن هذا ليس إعجازاً، هذا دليل على أن هذا القرآن من عند الله عز وجل، إما الإعجاز وهو بشيء يملكون القدرة على إدارته ولكن لا يبلغون هذا المقدار، لو أن العربي هو لا يعرف أن في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [الحج: ٥]، هو لا يعرف العلقة، فأين التحدي؟ هو لا يعرف

أنه كان علقة ثم مضغة ثم عظامًا ثم كسا العظام لحماً هو لا يعرف هذا إذًا ليس هو مجال لتحدي، فأين التحدي؟ هو البيان.

ولذلك قال لهم: لا ضرورة بأن تأتوا بالحق في البيان، ولكن أتوا بإعجاز البيان حتى لو كان مكذوباً، يعني ضربت مثالاً مرة لما العربي قال: أليس من الكلام الجميل العظيم الرائق والبلاغي العالي أن يقول العربي:

ملأنا البر حتى ضاق عنا ... وماء البر نملؤه سَفينا

وأين مصداقية هذا الكلام على أرض الواقع؟! كذاب، هذا كلام مفترى، لكن هذا كلامٌ جميل يباري فيه الشاعر، الشاعر، ويقول: كلامي أبلغ من كلامك، وكما لما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يلمعنَ بالضّحى ... وأسيافنا يقطرنَ من نجدةٍ دما

فقالت له الخنساء: بئس ما مدحت به جِفان قومك، هلا قلت جِفاناً، ذلك لأن الجفنات جمع تقليل، فهو يكذب سواء له جفنات أم ليس له، هي عاملت الكلام معاملة البلاغة، هل هو يمدح مدحاً جميلاً، أو لا يمدح مدحاً جميلاً أما مصداقية هذا الكلام للواقع فهذا بحثٌ لا قيمة له عند الكلام على البلاغة.

فلذلك العربي لما تحداه القرآن أن يأتوا بمثله تحداه فيما يتقنه، وهو ماذا؟ صناعة البيان، هذا الفرق بين الدلالة وبين الإعجاز وهذا مهم جداً، وبعض الناس يظن أن مسألة مع ما قلنا بين قوسين بين مسألة الإعجاز العددي في القرآن يظنون أنه جديد، بمعنى أن قضية تعدي الحروف كما عندما يأتون إلى سورة «ص» مثلاً، فماذا تكلم عنها القدماء؟ تكلموا عنها من جهتين سورة «ص» وعلاقة مطلع السورة بها، تكلموا عنها من جهتين، ما هو دلالة حرف ﴿ص﴾ عند العرب؟ ماذا يعني عندهم؟ ثم ثانياً ما هو أكثر الحروف التي استخدمت فيه من الحروف التي تستخدم خلاف حرف الألف والياء والواو، ما هو أكثر حرف استخدم في كلماتها؟ لو قورن بغيرها قال هذا الإمام الزركشي، والإمام الزركشي من أعيان القرن الثامن الهجري، يعني كلام قديم، فوجدوا ما قاله الناس، قالوا حرف «صاد» إنما يعني عند العرب الخصومة، ونجد أن سورة «ص» فيها الخصومة، ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ [ص: ٢١-٢٢]، ففيها الخصومة.

فسورة «ص» فيها الخصومة فدلالة حرف الصاد على ما فيها من معاني بينة أن ﴿ص﴾ تدل على الخصومة والسورة تجري على معنى الخصومة.

والثاني وهو ما يتحدث عنه من الإعجاز العددي، ما يتحدثون عنه أنا أستخدم ألفاظهم الإعجاز العددي، هل عدوا حرف الصاد في السورة قديمًا كما عدوها اليوم؟ نعم عدوها وذكر هذا الإمام الزركشي ذكر هذا الكلام في كتابه أول كتاب ألف في علوم القرآن وهو كتاب «البرهان في علوم قرآن» للإمام الزركشي الإمام الشافعي رحمه الله.

وحتى ننتهي من هذا الموضوع «الإعجاز العددي»، بعض الناس يبالغون في الحدين، فهناك من يقول: أصلاً هذا العدد هذا غير صحيح، ومسألة بحث أعداد الحروف والكلمات وما فيها يعني مثال ذلك سورة «البقرة» مئتين وستة وثمانين آية، هذا من مما بحثوه –هذا ليس مني هذا مما قالوا– فيقولون مثلاً: عدد آيات سورة «البقرة» مئتين وستة وثمانين آية، يكون نصفها مية وثلاث وأربعين، فقالوا: فنجد أن في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، هذه فائدة فيقولها القائل ليس من أصل العلم لكن من مزيناته، يعني الآن جمع عدد حرف صاد في سورة «ص» أو حرف قاف في سورة «ق»، هذا ليس من أصل العلوم وليس من أصل التفسير، هو من مزيناته، المرء يزين به.

مثال ذلك: لما نأتي إلى سورة «هود»، فنجد قوله تعالى في التحدي: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]، نجد أن سورة «هود» هي السورة الحادية عشر، فكأنه إشارة للعشر سور التي مرت، يعني عشر سور أين؟ ما نجد عشر سور في سورة «يونس»، ما نجد عشر سور في سورة «البقرة» لأن هذا الذي ورد فيه في العدد، سورة مثله كما في «يونس» أو سورةٍ مثله في سورةٍ في «البقرة»، وبعشر سور مثله مفتريات في «هود»، فيأتي واحد يقول: انظر!! فهذا ليس من أصول العلم، وإنما هو من مزيناته، فيأتي أحدهم ويرفع النكير ويجعل هذا من الضلال، ومن تفسير القرآن بالباطل، وأنه من التفسير الذي لا يعرفه الصحابة رضي الله عنهم، ولم يتكلم به النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يعرفه الأوائل ويجعل معركة كبرى في قضايا بينة أنها من مزينات العلم، وأنها من الأمور التي تزين العلم ليست من أصوله ولكنها تزين ما بعد هذه الأصول والقواعد، فهؤلاء في الحقيقة لا يفهمون ويبالغون في الرد أكثر مما ينبغي.

ولكن هناك أناس يجعلون كذلك مثل هؤلاء الذين يكتشفون هذه الاكتشافات يجعلون هذا هو الإعجاز، وهذا هو الإعجاز الذي اكتشفناه ولم يعرفه الأولون، طبعاً ما قرأوا كلام الزركشي في «البرهان» لم يعرفوا أن المسألة قديمة، فيظنون أنهم قد أتوا بما لم يأت به الأوائل حتى أن بعضهم زعم أنه وقد كفر وأرتد الذي يسمى برشاد خليفة عندما كتب الإعجاز العددي قال: أنه علم من القرآن ما لم يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويظن أن هذا هو الدين وهذا هو العلم وأن هذا من جهله فلا يعرف القرآن، أين ذهبت؟! فهذا حدٌّ باطل وهذا حدٌّ باطل، والصواب أن هذا من مزينات العلم.

ويدخل في هذا المعنى قضية الاستفتاح بالقرآن، –يعني قد يبدو هذا الكلام مني غريباً ولكن هذا واقع موجود– الآن يوجد ناس من الطوائف أهل البدع، حتى الرافضة هم أكثر الناس عملاً به، يوجد شيوخ يجلسون في أماكن

خاصة فيذهب إليهم العوام المساكين، ويريدون مثلاً الاستفتاح بالقرآن، واحد يريد أن يتاجر تجارة ما، أو يريد أن يسافر سفرة ما أو يريد أن يتزوج، فيأتي للشيخ ويدفع له المال ويقول له: استفتح لي بالقرآن، هذا يفعله الرافضة ويفعله بعض الصوفية في بلادنا.

وبعض الناس يفعله لا يذهب للصوفية هو يفعله إذا أراد شيئاً استفتح بالقرآن، يسمونه الاستفتاح بالقرآن، كلما أراد شيئًا ذهب إلى القرآن وفتح أو يأتي بطفل صغير أو يأتي بهذا ويقول له افتح فيفتح، هو يريد أن يتزوج فيقرأ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٨-٦٩]، ويبدأ يقرأ في السورة التي خرجت –خرجت معنا سورة «الأعراف» ثم مثلاً يأتي إلى قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [الأعراف: ٧٢]، فيقول: انظر فيها دلالة على أن المسألة فيها نجاة وفيها رحمة فأسلكها، هذا الاستفتاح بالقرآن.

الاستفتاح بالقرآن على الطريقة التي يفعلها أهل البدع مرفوضة، وهي إلغاء لمبدأ صلاة الاستخارة، الأصل استخارة، (اللهم إنك تعلم ولا أعلم وتقدر ولا أقدر)، أنت تبرأ من قوتك وحولك وعلمك وتقول: يا رب أنا أسلم، والله عز وجل يدبر لك، فهذا إلغاء، ثم في ذلك تجارة باطلة، وثانيًا جريان سنة جديدة لم تعرف عند الصحابة، هذا إحداث لطريقة لا تعرف ولباب باطل ولجريان سنة بدعية سنة باطلة أمام سنة حسنة، لكن أنا أسألكم أليس من النبوة الاستبشار؟ أليس من النبوة أنه كان يتفاءل بالاسم الحسن؟ عندما جاء سهيل بن عمرو، ما هو الربط بين أمرٍ كوني وبين هذا الاسم؟ لا يوجد دلالة كونية ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل الحسن، فقال لسهل بن عمرو: (الأمر سهل)، ولما فسر النبي صلى الله عليه وسلم رؤيا قال: (طاب أمرنا ولنا العقبة ولنا الثناء والرفعة)، على اسم الرجل.

الآن ميزنا الحالة الأولى أنها باطلة، وأنها لا تجوز على الحالة التي يجرون عليها، لكن لو أن رجلاً كان يتشكك في أمر، جئنا لأمر النبوة واحد يمسك يأتي يستبشر، يريد أن يتفاءل يتيامن أو يتشاءم فيأتي بحمامة ويطلقها فإذا ذهبت إلى اليمين يتفاءل، وإذا ذهبت لليسار تشاءم لأنها ذهبت للشمال، هذا الفعل يجوز أم باطل؟ لا يجوز، لكن لو أن رجلاً سمع رجلاً يقول كلمة فتفاءل بها كما تفاءل رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم سهيل بن عمرو، انتبهوا للفرق بين الحالتين أنه أراد فعلاً فرأى شيئاً فيه ملمح التفاؤل فتفاءل به يجوز أو لا يجوز؟ يجوز، إذن هنا الفرق بين الحالتين.

نرجع لقضية القرآن، الذي يريد أن يجعل الشيء أصيلاً هذا –انتهينا من قضية العدد، هنا نتكلم عن قضية التفاؤل بالقرآن– أنا أضرب مثالاً على هذا –مع إني أعلم أن هذا ليس من التفسير في شيء، وليس هذا القرآن والقرآن لم ينزل لهذا– ولكن لما جاء بعض الناس وقرأوا تفاؤلاً ليس تفسيراً، ليس استدلالاً ليس تشريعاً، ليس رداً لخصومة مخالف، واستدلوا في أحداث ١١ سبتمبر على سورة «التوبة» أنها ثمانية وسبعة تساوي إحدى عشر وهو

تفاءل أنها خير، فأنت لماذا ترد هذا التفاؤل، نتكلم عن التفاؤل ليس تفسيراً، وليس رداً للخصومة، يعني لو واحد قال: هذا فعل لا يجوز، فلا يجوز للأخر أن يقول: هي موجودة في القرآن، لا، كذبت ليست موجودة في القرآن، لكن كذلك لا ينبغي أن تبطل تفاؤله في هذا الأمر، رأيتم الفرق بين الأمرين؟ هناك فرق.

وذكر عن ابن تيمية رحمه الله من خادمه أنه كان يستفتح في القرآن، وهو عامي، هذا كاتبه عامي، طبعاً عامي يعني واحد يصاحب ابن تيمية وهو عامي لابد أن يكون فيه علم فكان يستفتح، وابن تيمية رحمه الله ينظر إليه ويضحك، لا ينهاه، لا يقول له: فعلت شركاً فعلت باطلاً، فعلت جريمة فسرت القرآن أنزلته على غير ما أنزل، لا يفعل هذا؛ لأن ليس هذا هو المقصود وإنما هو يتفاءل، رأينا الفرق بين الأمرين، أرجو أن أكون قد بلغت هذا الأمر وقد بان والحمد لله رب العالمين وجزاكم الله خيراً وبارك الله فيكم.

الأسئلة

السائل: شخص يلبس الجورب دون حاجةً له في الشتاء والصيف، والقصد من لبسه له هو أن يمسح عليه طوال اليوم ولكنه يفعل ذلك دون حاجةٍ له، فهل يصح فعله بالمسح طوال اليوم؟

الشيخ: الجواب بإجماع أهل العلم القدماء أن المسح على الجوربين حكم جاءت به آية وعند الأصوليين أنها رخصة غير مقيدة بضرورة ولا حاجة، وهنا استدل في التفسير بالتفسير، وأنا أريد أن أنبه طلبة العلم لأنني قرأت لبعض المشايخ ورددت عليهم في إحدى التغريدات، رددت عليهم هذا التأصيل، قرأت لهم يقولون: بأنه من لبس الجوربين من أجل فقط أن يمسح عليها مكروه، وهذا من أغرب الأقوال لم يقل به عالم قط من السابقين! هذا قول محدث اليوم! أنبه هنا عندما قال الله عز وجل: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]، ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ بكسر اللام في كلمة ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾، قراءتان صحيحتان وكل قراءةٍ آية يعني هذه نزلت وهذه نزلت، فقال: أهل العلم وهذا هو القول الصواب أن آية الكسر ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ محمولة على المسح على الخفين، أي الرجل بدك تمسح عليها، على ماذا تمسح؟ على الخفين، فإذن هذه الآية نزلت على مسح الخفين، فالمسح على الخفين حكمٌ أصلي.

الأصوليون بعد ذلك قالوا هي رخصة لكن غير مقيدة بحاجة، لأن هناك رخص غير مقيدة بحاجة، ومن ذلك المسح على الخفين بالإجماع أنه يجوز للمرء أن يمسح على الخفين بغير حاجة بغير بخلاف المسح على الجبيرة عند من يقول بها، لأن بعض أهل العلم يقول المسح على جبيرة لم يثبت، حديث علي يضعفونه أنه يمسح على الجبيرة يضعفونه، لكن نتكلم عن الفرق بين هذا وهذا.

فإذن آية الكسر في قوله: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ هي نصٌ صريح وصحيح وهو آية في المسح على الجوربين، إذا ما في ضرورة يقول واحد: أنت لبستها فتريد أن تمسح عليها فلا يجوز لك إلا عند الحاجة، من قال هذا الكلام؟ هو آية أنك إذا لبست الجوربين على طهارة فيجوز لك أن تمسح عليها، وجدت حاجة أو لم توجد، وجدت ضرورة أو لم توجد، ليس فقط حاجة، وجد استحسان أو لم يوجد، هذا واحد.

النقطة الثانية: هل يمكن للمسح على الخفين أن يكون واجباً؟ نحن انتهينا هو جائز من غير ضرورة، من غير حاجة، بل لو لبس المرء الجوربين فقط للمسح عليه أو الخفين للمسح عليها فقط، من أجل أن يمسح لا ضرورة، ولا برد ولا يوجد مرض في رجليه ولا شيء هذا جائز له ما في حرج، لأن هذه آية نزلت في حقه، نعم هناك حالات ذكرها ابن النقيب المصري في عمدة السالك في مذهب الشافعية يجب على المرء أن يمسح الخفين ومن ذلك ما أذكره

الآن مما ذكره حين يشك المرء في المسح على الخفين فيجب عليه أن يمسح عليها، وهذا قاله غيره، يعني لو واحد متشكك يمسح الخفين أم لا يمسح، يجوز أم لا ما يجوز، أوجب عليه العلماء أن يمسح لأن شكه مُبطلٌ لحكمٍ ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي الشريعة، من حديث جرير بن عبد الله البجلي وكان أصحاب عبد الله بن مسعود يفرحون بحديث جرير لأن حديث جرير نزل بعد «المائدة»، لأن آيات المائدة هي خواتيم الأحكام، فقوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ على أساس الرجلين يتم بها الغسل، فهي حكم نهائي، فلو لم يوجد حديث المسح لكان وجوباً على المرء أن يغسل لأنه لا يمكن الجمع بين الآيتين إلا بالأعلى، لو أن رجلاً مسح لا يستوعب الآية الأخرى الغسل، لو لم يوجد المسح على الخفين.

فلذلك جرير ابن عبد الله البجلي رضي الله تعالى عنه أسلم بعد «المائدة»، وهو الذي روى حديث المسح على الخفين فدل على أن المسح على الخفين لم ينسخ بالآية وإنما بعدها، ولذلك كان أصحاب عبد الله بن مسعود يفرحون بحديث جرير لأنه يصرح أنه ما أسلم إلا بعد «المائدة»، يسألونه يقول: أنا ما اسلمت إلا بعد «المائدة»، إذن هذا حالة.

الحالة الثانية لو وجد عندك ماء لا يستوعب الغسل، تغسل يدك ووجهك عند رجليك لا يكفي الماء، فوجب عليك أن تمسح على الخفين، وإذا وجد الوقت الضيق وهكذا وهذه أمثلة ذكروا فيها وجوب المسح على الخفين، وعلى كل حال ففتوى ابن جبريل في «سؤال وجواب» لأن بعضهم نقلها عندي في الموقع فاضطرت أن أرد عليها أصولياً بأنها خطأ وهذا مثبت أن شاء الله في موقعي.

السائل: ما حكم استخدام عداد التسبيح المنتشر وإلزام النفس بوردٍ معين ورقمٍ معين من الذكر دون اعتقاد ميزة العدد؟ فهل هذا الفعل بدعة؟

الشيخ: بل هو سنةٌ مستحبة، أولاً أتكلم عن قضية إلزام المرء فإن إلزام المرء بوردٍ له هي طريقة النبي صلى الله عليه وسلم وطريقة الصحابة رضي الله عنهم، ذلك لأن عمل النبي صلى الله عليه وسلم كان ديمة، كما في حديث عائشة رضي الله عنها في الصحيحين «كان عمل النبي صلى الله عليه وسلم ديمة»، فالمرء حين يكون له ذكر وورد معين عليه أن يداوم عليه في الليل والنهار له ذكر في الليل عدد من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عدد «من سبحان الله، الحمد لله، لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير»، مئة مرة، مئتين مرة، ألف مرة، ألفين مرة ثلاث آلاف مرة، إذا الزم المرء نفسه بذكر فهذا هو السنة، السنة أن يلزم المرء نفسه بأمرٍ يتابع عليه، كأن يكون له ورد من قيام الليل من السنة أن يتابع عليه.

مثلاً: أنه يقوم بست ركعات خلاص يداوم عليها، وله ورد من عشرين ركعة يداوم عليها، «فعمل النبي صلى الله عليه وسلم ديمة» إياك يوم تصلي ستة ويوم ثمانية ويوم أربعة، لا، معنى عملك ديمة أنك تصلي الضحى أربع ركعات داوم عليها، فعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ديمة هذه السنة، فرجل له ورد من السنة أن يداوم على ورد معينٍ.

تبقى المسألة الثانية وهي مسألة استخدام الآلة للتسبيح، فهذه لا خلاف فيها عند الأقدمين، هذه وسيلة، يعني الوسائل في فعل الصحابة هل تتوضأ بإناء يصب عليك أم تغرف غرف أم يصب، أم أنت تصب على نفسك، هذه وسائل أن تذهب للمسجد ماشياً أو تذهب إليه راكبا، أن تذهب راكباً في السيارة أو تذهب راكباً بالحمار، أو راكباً تستأجر رجل، يعني يمكن الرجل يعمل كما الناس يحجون ويطوفون ويضعون وهكذا، فهذه وسائل، فاستخدام هذه الوسائل جائز، سواء كان بمسبحة، بالمسبحة المعلومة هذه التي لها عد، أو بالآلة الجديدة والآلة الجديدة أحب إلي، وأما قول بعض المفتين من المشايخ نسبوا إليهم أنهم يجيزون المسبح ويكرهون آلة العدل، لماذا؟ لا أدري، وأنا أرى أن آلة العدل هذه «الأوتوماتيكية» خير لأمور:

الأمر الأول: أن فيها الإخلاص والسرية أكثر، يعني واحد حامل مسبحة فيها الظهور، لكن الناس قد يعتادون عليها، ويجدون أنفسهم أنشط بالعد بالحب، فالعبرة بما يقوم به دينك، وما يقوم به مقصدك، ما هو مقصدك، فبعض الناس ممكن أن يتعب منها ويرى المسبحة أهون له ومذكرة له أكثر، لكنني أحب الي هذه الآلة للسبب الأول أنها فيها الإخلاص يمكن إخفائها في المسير في الطرقات في الشوارع.

الأمر الثاني: أنها تضبط العد يعني مثلاً إنسان له ألف تسبيحة في النهار أو ألفين تسبيحة كيف يفعل؟ فربما لو عد من المسبحة يتوه وينسى لكن هذه تعينه ويبقى الرقم موجود ويتابع عليه لذلك هي أحب إلى من غيرها والله تعالى أعلم.

السائل: هل مجرد الحكم بغير ما أنزل الله عز وجل يُعد كفراً، وحتى لو أعتقد الحاكم أنه واجبٌ عليه الحكم بما أنزل الله وأنه الواجب لكنه لم يفعل ذلك لأي سبب كان، هل هذا كفرٌ أكبر مُخرج من الملة؟

الشيخ: الجواب كلمة الحكم فيها ما يدخل من الأعمال دخولاً أولياً، انتبهوا لهذا وستفرحون وستنعمون وبإذن الله ستلاقون الله عز وجل وأنتم على السنة، الحكم بما أنزل الله أو الحكم بغير ما أنزل الله، كلمة الحكم فيها من الأحوال ما يدخل دخولاً أولياً وفيها ما يدخل دخولاً تبعياً ناقصاً جزئياً، الآن أضرب أمثلة حتى يتضح المثال:

يقول ابن حزم رحمه الله: «ومن عَمِل فقد حكم»، أي من شرب الخمر فقد حكم بأن شرب الخمر له ليس جائز لكن حكم على نفسه أنه شرب الخمر، فالفعل حُكما، كما يقول ابن حزم هنا انتبهوا، أنا استدللت بابن حزم حتى لا يرد علينا بكلام الناس وما يقوله الشيخ فلان وعلان، اليوم كثير الكلام وبطل واحد يعني يلحق من الدروس

والذي يبطله كلام ابن عباس وكلام طويل أنا أعطيكم الخلاصة أن شاء الله عز وجل، وأحب دائماً أن تأخذوا القواعد لا تأخذوا الفروع، الفروع لا تنتهي يا أخواني، إذا لم يكن لك قاعدة تعود إليها فإن الفروع ستختلط عليك.

لما قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٤]، كلمة الحكم هذه لها معنى كلي ولها معنى جزئي، فالمعنى الكلي يلحقه الحكم الكلي وهو الكفر، والكفر الأكبر لا يوجد لا ابن عباس رضي الله تعالى عنه ولا أحد في الدنيا يخالف في هذا، والآن سأبين، وكررته كثيراً ولا بأس اليوم أن أسجله ويستفيد منه الطلبة.

لكن يقول ابن حزم: «من عمل فقد حكم»، واحد شرب الخمر هل يدخل في قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾ [المائدة: ٤٤]؟ الجواب: نعم يدخل فيها، لكن كما أنه دخل في الحكم دخولاً جزئياً بغير ما أنزل الله فيلحق به الكفر جزئياً، فلذلك هو في الكفر الأصغر.

الآن الحاكم نسأله ما المقصود بالحاكم؟ واحد شيخ ذلك اليوم مسكين على قد حاله الله يغفر له، قال: ائتوني بقول عالم أن من حكم بغير ما أنزل الله مع وجود الاعتقاد بوجوب الحكم بما أنزل الله، ولكن أخذته الشهوة، أعطوني بقول واحد عالم أنه قال: كفر؟ لا يعرف إلا هذا أنه كفر، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه –وهذا سند صحيح كالشمس لابن مسعود رضي الله عنه– لما سألوه عن الرشوة في الحكم؟ قال: «ذاك الكفر»، وسُئل عن غيره من المعاصي، قال: «قبول الهدية»، في ماذا؟ «في الشفاعة»، قالوا له: ما هو بغير ما انزل الله؟ قال: لو أنك حكمت بالحق أو شفعت بالحق فقبلت الهدية فهذا كفر أصغر هذه معصية، قالوا: فما هو الرشوة في الحكم؟ –الرشوة في الحكم إي يحكم–، قال: «ذاك الكفر».

ويقول أتونا بكلام صحابي عارف!! الرشوة في الحكم كفر بمعنى أن الرجل أرتشى فحكم بغير ما أنزل الله، هذا الحاكم لا يعلم أن هذا هو الذي أنزله الله وهذا الذي حكم به مخالف له؟ يعلم ما الذي دفعه لهذا؟ الرشوة أي الهوى والشهوة في الدنيا، قال: «ذاك الكفر».

فلذلك على الصحيح من حكم بنازلة واحدة –أنا أتكلم عن المفتي وأتكلم عن الحاكم القاضي وأتكلم عن الحاكم الذي بين اثنين– لو علم الحق فقال بخلافه فقد كفر، فالذي يفتي بغير الحق الذي يعتقده كافر، هذا كلام ابن تيمية رحمه الله وليس كلامي، يقول هكذا –معنى كلامه– لو أن العالم وافق الحاكم فيما يقوله، يعني في تحليلٍ أو تحريم وافقه، ماذا يعني تحليل تحريم يعني يعتقد أنه هذا حلال وهذا حرام أم في قضية الحكم؟!! قال: فقد كفر إجماعاً، يتكلم عن الإجماع.

ولذلك لو قاضي جالس ودخل إليه واحد قال له: هذا شرب الخمر ...وو، فقال له: أذهب أدفع مئة دينار واخرج، غرامة عليك، هذا كفر بالله؛ لأن هذا الفعل يدخل في كلمة الحكم دخولاً كليًا أولياً هذا هو الحكم، لا يعرف

الحكم إلا بهذا، لكن الآن لو واحد شرب الخمر ماذا قال ابن حزم؟ هذا الذي يقال هذا كفرٌ دون كفر؛ لأن الفعل يدخل في الحكم دخولاً جزئياً، هو نوع من أنواع الحكم، أي أرادته حكمت بأن يشربها لا في تحليلها ولا تحريمها بأن يشربها، فهذا الكفر الأصغر.

وعلى هذا يُحمل كلام ابن عباس رضي الله عنه يا قوم من أضل الطرق حمل كلام العلماء على المطلقات -هذه قلتها مئة مرة- المطلق هو الكتاب والسنة، العلماء مفتون، يفتون في نوازل فلما تحدث خصومة فرق بين أن يقول له ماذا تعني هذه الآية؟ لو رجل سأل رجلاً قال له: ماذا تعني هذه الآية؟ فيقول له تعني الآية كذا وكذا، لكن لما أنا أحتج ببن خصومة لك، واحد يأتيني يقول لي: علمنا بعسكر وعلي قد كفروا، نسأل نحن الآن أنفسنا سؤالاً مهماً، ما الذي فعله عسكر وعلي ليقول هذا القائد قبل أن يكون خارجياً، ليس خارجي لأنه واحد عادي، ما الذي فعله عسكر وعلي؟ وعسكر معاوية لأن يسميهم هذا القائل بأنهم كفار؟ معصية من المعاصي، وإلا لو قلتم الحكم فأعطوني أو أعطوا العالم أو أعطوا الدنيا حالة واحدة حكم فيها عسكر وعلي ومعسكر معاوية وعسكر معاوية بالحكم بغير ما أنزل الله؟ أعطوني حالة واحدة؟ ليقول ابن عباس رضي الله عنه: هذا الكفر الذي تذهبون إليه إنما هو كفر الأصغر، كفرٌ دون كفر أعطوني؟ إنما هو حديث عن واقع، ابن عباس لا يقول عن الآية كفرٌ دون كفر هذا الكلام وسياق الكلام يدل عليه، هو وافقه أن هذا حكم على معنى أن هذا الفعل يكون يسمى يدخل في الحكم يدخل، لا أيريد أن أناقشهم في هذا.

ومن نظر إلى مناظرة ابن عباس للخوارج رأه أنه تجاوز بعض الأمور لأنه يتكلم مع علماء ويفهمون اللغة، ولذلك قال: ذاك الكفر، قالوا: ليس هذا الكفر تذهبون إليه، هذا الفعل لا يدخل الكفر الذي تذهبون إليه، وليس حمل الآية على الكفر الأصغر، ابن عباس أجل من أن يحكم هذه الآية على الكفر الأصغر، أن يأتي لهذه الآية ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾ [المائدة: ٤٤]، ثم يقول ابن عباس واللغة لا تفييده لا تخدمه، ليقول: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ كفراً أصغراً!! أجّل ابن عباس، لكن هو يناظرهم قال له: كفروا، هو يعلم على ماذا يقولون، يقولون على المعاصي يقولون عن أحوال عن أحداث، قال: هذا ليس الكفر الذي تذهبون إليه، هذا الفعل لا يدخل في هذه الآية دخولا كلياً.

وأما إذا أردنا ما معنى الحكم بالدخول الكلي فهذه كلمة ابن مسعود رضي الله عنه، وليست كلمة ابن مسعود رضي الله عنه تعارض كلمة ابن عباس رضي الله عنه حتى يقال ما هو الأقرب؟ يعني واحد يقول: من أقرب كلمة ابن مسعود رضي الله عنه ولا كلمة ابن عباس رضي الله عنه؟ لا، في الحقيقة كلاهما واحد، والجمع بين الأقوال خير من إهمال أحدها أو إعمال التضارب بينها والتضاد.

والحقيقة الآن لا يتكلمون عن هذا يتكلمون عن التشريع يقولون: بأن هذا حلال وهذا حرام، ليست قضية في الحكم يعني عندما نأتي للخلاف عند المتأخرين وهكذا نأتي للخلافة فيقول الحاكم الذي يحكم بما أنزل الله ثم دخل فغلبه الهوى، فحكم بغير ما أنزل الله في هذه الواقعة وليس بتشريع تحليل الحرام وتحريم الحلال في قانونه، يقول: هذا كفرٌ أصغر، مشوها مع مخالفة للصواب لما فسره ابن مسعود وما تفيده الآية في معناها البين الواضح، سواء كان الظاهر أو النص، ولكننا نتحدث الآن عن التشريع يا قوم المجمع عليه، لا نتحدث عن رجل يقول نحن نتحدث عن تشريع وعن قواعد وعن قوانين ملزمة يلزمون بها أنفسهم، ويلزموكم بها الناس ويقاتلون عليها ويحاربون خرجنا من هذه المرحلة إلى مراحل أخرى.

إذا كان السؤال من أجل هذا لما قال: لو حكم الحاكم وكذا فأردت أن أبين ما معنى حاكم، فعلى الصواب إذا قلنا: إن الحاكم إذا حكم في نزاعٍ ما بغير ما أنزل الله في واقعة واحدة فقد كفر بهذا الفعل، قد يقول قائل: بما يسلم؟ بما يسلم به الناس، إذا خرج المرء من باب كفر فيه يعود من الباب الذي خرج منه يعود إليه، «لا يعود المرء من باب كفر منه إلا من ذلك الباب، حتى يغلقه ويعود مسلمًا»،

السائل: من قيل له صلي على النبي صلى الله عليه وسلم فلعنه فما حكمه، وهل يحتمل وجود عدم القصد أو الخطأ لشدة الغضب؟

الشيخ: لا يجوز، لا ينبغي، هذا يقتل، هذا كافر وأما إسلامه بأن يتوب، يمكن أن يتوب ويسلم، لو قال: أنا لا أعرف ماذا قلت ذاهلاً عن قولي فهذا يقتل، ولو قال: ذاهل أنا عن هذا فهذا يقتل لقوله هذا الفعل، وأما تكفيره إذا ذهل عن قوله، ما معنى ذهل عن قوله؟ لا يعرف معناه، كعجمي أخرج كلمات لا يعرف معناها، فهذا شرطه هذا يعذر كقوله اللهم أنت عبدي وأنا ربك، إذن لا يعرف معنى هذه الكلمة التي قالها، وأما فهؤلاء فهو قوله: كفر ولا يُعذر بالغضب إلا إذا لا يدري ما يقول كالمجنون، والناس لا يصلون لهذا، في هذه الحالة التي تقولها، لأنه لماذا لا تتصور؟ لأنه قال له: صل على النبي فهو علم هذا المعنى والدليل أنه سبه.

السائل: جل المهتمين بعلم المناسبة قالوا: بتوقيف الترتيب لما رأوه من معاني عظيمة ناتجة عنه والقول: بأن ترتيب المصحف غير توقيفي يفتح باب الحديث في علم المناسبة، -يغلق قصدك- لأن ترتيب المصحف غير توقيفي يغلق المناسبة، فهل تجزأ هذه المعاني بذاتها كدليل على التوقيف؟

الشيخ: يعني أنا من الذين أميل إلى أن ترتيب المصحف توقيفي، لكن هناك فرق بين ترتيب المصحف وبين وجوب قراءته على وفق ترتيبه، يعني لا يوجد ما يوجب أن يقرأ المرء القرآن على وفق ترتيبه، لكن لا يجوز في أن يتدخل الناس في وضع السور على غير ما وضعه الصحابة وما أجمعوا عليه، لكن لو أن المرء أراد أن يقرأ سورة

«المائدة» قبل أن يقرأ سورة «النساء»، فجاز له ذلك لا يوجد ما يمنع من هذا، وإن كان بعض أهل العلم لما منع من هذا في الصلاة كما تعلمون هو قول الشافعية والمالكية.

السائل: هل يصح القول: أن التشريع بدعة وهل ذكر أحد من العلماء الإجماع على أن التشريع كفر أكبر؟

الشيخ: الإمام الشاطبي في كتاب «الاعتصام» للجواب على السؤال الثاني هل هناك من العلماء من قال: أن التشريع بالإجماع كفر؟ نعم هذا إجماع مذكور في كتب أهل العلم ومن ذلك «الاعتصام» أرجع للاعتصام، عندما جاء الإمام الشاطبي -انظر للعلماء العظام- انتبه هذه الفذلكة العلمية من الامام الشاطبي في كتاب «الاعتصام»، عندما أراد الإمام الشاطبي أن يتكلم عن البدعة، قالو له: البدعة تشريع، والتشريع كفر، وهنا أريد أن أيد على أحد الجهلة في جعل الشرط مانعاً، والإمام الشاطبي بـ «الموافقات» قال: «لا يمكن أن يكون هناك في نفس الحالة شيءٌ شرط وهو مانع»، أي لا يتصور، «الشرط هو لتحقيق الفعل والمانع لعدم وجوده».

مثلاً: نقول: من شروط الصلاة الوضوء، هل يمكن أن يكون الوضوء مانع من وجوب الصلاة؟ لا يتصور اجتماع الشرط مع المانع، لما جاء الإمام الشاطبي في كتاب الاعتصام إلى قضية البدعة والتشريع، قال: إن التشريع كفر، فقال: لماذا لا تسمون البدعة؟ فجعل مانع تكفير المبتدع هو اعتقاده أن هذا هو حكم الله عز وجل، يعني رجل يبحث عن حكم الله فأخطأه فقال: هذا سنة وقال: هذا دين، وواقع الأمر أنه ليس ديناً، فهذا يسمى بدعة، لكن هو في حقيقة الأمر مشرع أو غير مشرع؟ مشرع يعني جاء بشريعةٍ على خلاف الشريعة، فالأصل أن يقال: أنه كافر هذا كلام الشاطبي، لكن لماذا منعنا عنه الكفر؟ لأنه متأول هو ظن أن الآية تفيد هذا، أن السنة تفيد هذا، أن الحديث يفيد هذا، أن قواعد الشريعة تفيد هذا، فأتاه، فلظنه هذا امتنع إلحاق حكم الكفر به.

وقال ابن تيمية رحمه الله: «والإنسان متى حلّل الحرام المجمع عليه أو حرم الحرام المجمع عليه أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافراً مرتداً باتفاق الفقهاء»، هذا هو التشريع، ما هو التشريع؟ كلمة تشريع تعني إصلاحًا لو رجعت إلى كتب الأصول تجد هذا المعنى، تسمية الشيء حراماً ونزع حكم الحرمة عنه، أو تسمية الشيء حرامًا ونزع حكم الحل عنه، هذا هو التشريع، وهذا هو الذي يسمى التحسين والتقبيح في كتب الأصول، وهذا هو الذي يسمى الحاكم، لما تذهب إلى كتب الأصول، من هو الحاكم؟ الله عز وجل، من الذي له حق التحسين والتقبيح؟ الله عز وجل، ولكن اختلفوا هل العقل يفيده أو لا يفيده و ... إلخ.

لكن الاتفاق على أن الذي يملك أن يقول للشيء حسنًا هو الله عز وجل، فإذا نوزع في هذا الحق كفر، لأنه نازعه في ربوبيته وفي ألوهيته، في ربوبيته كون هذا الحق له، وفي ألوهيته في كونه عصاه في طاعته لهذا الأمر الذي أمره

به، ليس فقط في الإلهية التشريع كفر بالربوبية وكفر بالإلهية، لأن التشريع حق من؟ فعل من؟ فعل الله عز وجل فمن فعله نازع الله عز وجل في ربوبيته، ثم لما نازعه في عدم طاعته كان كفراً في ألوهيته.

الآن نرجع فإذن هذا إجماع، التشريع على هذا الإجماع، انتبهوا لهذا الضال المعاصر اليوم؟ كيف يخالف كلام الإجماع؟ ما الذي منع إلحاق الكفر بالمبتدع؟ هو اعتقاد المبتدع أن هذا هو حكم الله عز وجل، الأصل نقول: المبتدع كافر، أفعل كفر؟ نعم لأنه شرع ديناً، لكن لماذا لم نكفره؟ لتأوله ولاعتقاد أن هذا حكم الله عز وجل، هذا المانع من التكفير جعله هذا الجاهل شرطًا للتكفير، حيث قال: بأنه لا يكفر المرء حين يحلل الحرام ويحرم الحلال إلا بشرط إذا جعل هذا الكلام هو حكم الله عز وجل، أي أتاني من الله يعني الله أتاني إياه، فجعل هذا الشرط من أجل إلحاق حكم الكفر به وهو في الحقيقة، هو هذا الشرط هذا مانع.

فلو أن رجلاً متدينًا جاء هو عنده وقال: هذا حرام، والناس يعلمون أن هذا حلال، هو قال: حرام، والناس يعلمون أو طالب العلم وأهل الإسلام يعلمون أن هذا حلال، وهو يقول: حرام، ثم قال: وهذا هو حكم الله عند هذا الجاهل ما هو؟ كافر لأنه شرع ونسب الشرع إلى الله، والصواب أن هذا لا يكفر.

مثلاً: الذي يقول: إن المولد النبوي مستحب، يعني الله يحبه الله شرعه، هذا معنى شرعه أي سماه حسناً، فهذا لماذا لا نكفره؟ لأنه ظن أن هذا هو حكم الله عز وجل، فقال: هذا هو حكم الله، رأيتم الفرق بين من جعل المانع للتكفير شرطاً للتكفير، وهذا منتهى الضلال، أرجو أن تكون قد فهمت.

وبارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

الدرس الخامس عشر

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين حبيبنا وإمامنا محمد وعلى إله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

هذا هو الدرس الخامس عشر أيها الإخوة الأحبة من دروس التفسير، وكان الدرس الفائت يتعلق بقوله جل في علاه في مطلع سورة «البقرة»، ﴿الٓمٓ﴾ وتكلمنا بما ترجح والباب واسع، بل إن بعض أهل العلم كابن فارس رحمه الله، قال: إن هذه الأقوال كلها مقصودة، يمكن أن تكون مقصودة، بمعنى أنها إعجاز وأنها أسماء للسور وأنها دلالة على كلمات اختصارًا وهكذا، يكفي ما تكلمنا به ونحن نعتقد أن هذه كلمات لها معاني في ذاتها ولها معاني في الدلالة على غيرها، لها معاني في ذاتها؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وفي غزواتهم كانوا يستعيذون بها في حروبهم (حم لا تنصرون) فيها استعاذة، ولا يتم الاستعاذة إلا بكلماتٍ تامة، ولا تكون الكلمات التامة حتى يكون فيها المعاني العظيمة، وهذه فيها معاني عظيمة ويكفي هذا الاختلاف فيها عند أهل الإسلام ليعلم عظمة هذه الكلمات.

والغريب جداً أنه لم يُنقل قط أن المشركين على عتوهم وعلى منابذتهم لهذا الكتاب، وعلى تركهم لسماعه خوف التأثر منه، قد ناقشوا النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الكلمات وقالوا: هذه كلمات عي وكلمات ضعف ما قالوا، بل بهرتهم وأسجدته وجعلتهم يتفكرون فيها أنها كلمات عظيمة، والنبي صلى الله عليه وسلم قرأ سورةً -كما ذكرت في الدرس الفائت- قرأ سورةً في مطلعها هذه الحروف وقرأ «فصلت» وهي «حم السجدة» لأنها هي السورة الوحيدة من الحواميم، على وجود الكراهية عند الحسن البصري رحمه الله، من تسمية هذه السور بالحواميم، وأنا قلت مرةً: لعله كره هذا الاسم لما في الحواميم من إشارة إلى الحميم، وإلا فالصحيح أنها كلمة صحيحة لا شيء فيها، أو «آل حم» ممكن كما يقول الاكثرون، فهي السورة الوحيدة من الحواميم التي فيها السجدة، لا يوجد في بقية سور الحواميم السجدة، فتسمى «حم السجدة»،

فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه السورة على الوليد بن المغيرة، وحدث ما حدث من ذهابه إلى قريش وأخبارهم، وكنت قد وعدت أن أقرأ في الدرس الفائت كلامًا للزمخشري، وهذا الكلام مع جماله قد نقله الكثيرون وعلق عليه الكثيرون، هذا من كلام الزمخشري في هذه الحروف نقله من نقله، ونقله ابن كثير ولم يعلق عليه بشيء

وقبله، ولكن الزركشي في «علوم القرآن» نقل هذا النص بعينه من «الكشاف» للزمخشري، نقله وعلق عليه تعليقاً طويلاً.

والحقيقة أنا أغتنم هذه الفرصة بنُصح طالب العلم للإقبال على كتب الزركشي الشافعي، لأن هذا الرجل كان كثير الاطلاع وكان أكثر يومه يجلس مع الوراقين، الوراق يعني الذي ينسخ، فهو يجلس معهم ويستقرض الكتب ويشتري الكتب، وكان عامة ما يأخذه من هؤلاء الوراقين، تأتي إليهم الكتب الخاصة والصغيرة فيأخذها ويستعيرها وينقل منها ويعيدها، ولذلك كثرت في كتبه النقولات العجيبة، حتى أن في كتبه من النقولات ما هي مفقودة إلا من كتبه، يعني هذا الرجل عجيب في كتبه وفي كثرة استيعابها لأقوال الآخرين.

فلما أنت تقرأ كتابه «البحر المحيط في أصول الفقه» قد لا يفوتك قولٌ في مسائل الأصول، لأنه يستوعب وكذلك هو أول من ألف في علوم القرآن كما هو معروف، ولذلك السيوطي لما شرع في كتابته «الإتقان في علوم القرآن»، وقال: إن هذا العلم أي الكتابة في علوم القرآن على غرار مصطلح الحديث لم توجد من قبل، ثم أطلع على كتاب الزركشي، هو يقول: اطلعت أنا في هذا الكتاب، يكتبها المصنف الذي يصنف هذا الكتاب، اطلع على كتاب الزركشي واعترف بأنه مسبوقٌ به، ولا شك أن كتاب الزركشي في علوم القرآن أفضل من كتاب السيوطي، أفضل ويستوعب أكثر.

القصد: بأن الزركشي أخذ هذه الجملة من كلام الإمام الزمخشري من «الكشاف» وعلق عليها تعليقات طويلة يعني يرجع إليها، استدرك عليه أمورٌ، ولكن أنبه فقط على ما وعدت فقط لأني وعدت بهذا وسأقرأ لكم كذلك الإشارة التي نبهت عليها في الدرس الفائت لما في كتاب «البرهان» للزركشي من قضية علاقة السورة بمطلعها، إذا كان من الحروف المقطعة، أنه كيف العلماء بحثوا هذا في علاقة السورة ومواضعها في مطلعها بالنسبة للحروف المقطعة الهجائية، وسأقرأ النص باختصار لبعضها لأننا سندخل الآن إلى ما نحن فيه.

نقل ابن كثير معجباً بهذه الكلمة، بعد أن ذكرنا بأن هذه الحروف المقطعة موجودة في «نص حكيم قاطع له سر» مجموعة في هذه الجملة، ونبهنا على أن هناك من جمعها بغير هذه الصياغة، وتلون كعادته وتفنن، تلون، تلون العلماء وتفنن في جمعها على معاني من الخير في عنوان هذا الكتاب، وهو الآلوسي، الآلوسي تفنن في ذكر صيغ أخرى تدل على هذا المعنى، ولكن هذا في الحقيقة هو أجمل نصٍ أو أجمل كلمةٍ تجمع هذه الحروف «نص حكيم قاطع له سر» حتى أنها تتناسب مع هذه الحروف، وهو كلمته له سر فهذه الحروف لها سر، فكذلك تشير إليه.

يقول الزمخشري: «وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أنصاف أجناس الحروف يعني من المهموسة والمجهورة ومن الرخوة والشديدة» وهذا معروف عند علماء الترتيل، وللذكر أول من كتب في نطق الحروف وكيفيتها هو سيبويه، وهذا أقوله لتعرفوا قيمة أئمة اللغة، لأن بعض الناس لا يعرف قيمة أئمة اللغة، يعني هو يهتم بعلمه الذي هو فيه،

فأول من كتب فيها هو سيبويه، وسيبويه أخذ هذه العلوم من شيخه الخليل بن أحمد الفراهيدي، وذكر صفات الحروف كيف تنطق الحروف، فأول من كتب في صفات الحروف وكيفية نطقها هم أهل اللغة، لأنهم ذهبوا إلى اللغة من أجل دينهم، لأنهم ذهبوا إلى اللغة من أجل القرآن من أجل السنة، ذهبوا إليها من أجل أن يخدموا القرآن الكريم، وبالتالي ما كتبوه في اللغة إنما هو خدمة لهذا الدين، ولذلك أول من كتب في صفات الحروف هو سيبويه، وكل علوم اللغة أخذت من هذا الكتاب، هذا سر عجيب! هذا يدلك على شيء عظيم أن الأوائل أناسٌ قد جمع لهم الله عز وجل الخير، وكل من بعدهم هم سواقي لهذه البحار العظيمة، إياك أن ترفع أحدًا من المتأخرين عن المتقدمين.

مثلاً: البعض لما يذكر مناظرة أبي حيان الأندلسي لابن تيمية، فالمناظرة هذه صيغتها أختلف أبو حيان وهو إمام من أئمة النحو واللغة تناظر مع ابن تيمية وكان يعظمه، يعني أبو حيان يعظم ابن تيمية وذكر فيه شعراً وقصيدة فقال له: أبو حيان لابن تيمية ليسكته، قال له: هذه قالها سيبويه، فقال له ابن تيمية على طريقته في الحدة والمناظرة، قال له: سيبويه ليس بنبي، وفي كتابه من الأغلاط أكثر من ثمانين غلطًا لا تعرفها لا أنت ولا غيرك، فغضب أبو حيان وصار منافرًا له وخصماً له.

ما يهمني يظن بعض الناس على طريقة إذا خالف ابن تيمية الشافعي أنه يظن أن ابن تيمية أفضل من الشافعي وأعلم من الشافعي، وهنا يظن البعض أن ابن تيمية هو أعلم من سيبويه، إذا رد المتأخر على المتقدم أو رد الطفل في الإسلام على شيخ الإسلام لا يعني أنه أعلم منه، وهذا ليس تقليل لابن تيمية ولكن لوضع الرجال مراتبهم، فلولا هؤلاء العلماء ما صنع شيءٌ المتأخرون، المتأخرون لم يصنعوا شيء، فالمتأخرون على ما فيهم من قدرة لمناظرة الأوائل إنما استفادوا هذا العلم من الأوائل، من أين أتوا بقدرتهم على مناظرة الأوائل؟ من تعليم الأوائل، وهذا من إخلاص الأوائل، وقطعاً كذلك من متابعة المتأخرين للأوائل، فهذا فضلٌ مشترك ولكن الفضل يبقى للمتقدم.

ولذلك كل علوم اللغة أخذت من كتاب سيبويه، أخذ من كتاب سيبويه علم النحو، الصرف، البلاغة، والإعراب، الإعراب يعني النحو بشقيه الذي هو الإعراب والصرف وأخذ منه كذلك البلاغة، هذه العلوم كلها أخذت من كتاب سيبويه، وأخذ منه كذلك مخارج الحروف في علم الترتيل، وهذا الكتاب هو شيءٌ يسير من علم الخليل، كما يقول محمد بن نصر الجهضمي قال لي سيبويه: تعال لنحي علم الخليل، فنشط وكسلت فكتب كتابه «الكتاب»، «الكتاب» هو فرع يسير من علم الخليل، حتى قيل أنه بعد الأنبياء لن يمشي على الصراط أعقل من هذا الرجل، وكان من عقله وفكره أنه يخرج من بيته فيبقى متفكراً في المسألة حتى يصل إلى الصحراء ولا يعرف أين هو.

القصد من هذا: –هذا ليس درس في علم التجويد فيرجع لها أئمة التجويد– هذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أنصاف أجناس الحروف، يعني من المهموسة والمجهورة ومن الرخوة والشديدة والمطبقة والمفتوحة، ومن المستعلية والمنخفضة ومن حروف القلقلة، وقد سردها مفصلة، أي هو سرد الشيخ ثم قال: «فسبحان الذي دقت في كل شيء

حكمته، وهذه الأجناس المعدودة ثلاثون بالمذكورة منها وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله»، هذه دائماً لا تأخذ فقط المعلومة، إياكم طالب العلم إذا اكتفى بالمعلومة عن قاعدتها وتأصيلها لا يمكن أن يرقى أبدًا، يبقى حاله كحال المسجل، الذي يوضع فيه الكلمة فيخرجها، حاله حال المسجل أو حال الكتاب يكتب فيه الكلام فينقله فقط.

أما الأصول ينبغي هي التي يعتنى بها لأنها تدخلك في باب العلماء، تصبح أنت تنتج كما أنتج غيرك، طبعاً في النهاية تصبح منهم حتى لو قلت كلمة، أو فتح الله عليك بمعنى من المعاني فهذا خير عظيم، ولذلك هنا قال هذه الكلمة: «بأن الشيء بمعظمه ينزل منزلة كله»، ولذلك حتى العرب يقولون: عشر سنين وربما تكون هي تسع سنوات وسبع شهور فينزل فهذه من قواعد اللغة.

ثم ابن كثير ينبهنا على قضية وهي مأخوذة في هذا الباب مأخوذة من ابن تيمية في مباحثه في علوم القرآن، وهو يقول: «بأنه لا يجوز اعتقاد مسلمٍ ما أن في القرآن ما نزل من أجل امتحان بالتسليم بلا فهم»، لا يوجد في القرآن ما نزل من أجل التعبد بلا فهم، من أجل الامتحان بلا فهم، لا يوجد، هذه لا يجوز اعتقادها، فإن القرآن ميسر للذكر، وأول تيسير لذكره أن يُفهم، ربما يدرك الناس هذا الشيء وربما لا يدركه، لكن لا يوجد في القرآن أبدًا ما لا يُدرك معناه، فإذا قيل ما المتشابه؟

والقرآن ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)﴾ [آل عمران: ٧]، والسلف على الوقوف والمتأخرون اختلفوا، لكن لا يُعرف عن السلف إلا الوقوف، بل أن بعضهم ذكر الإجماع على وجوب الوقوف، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾، وأن الواو هنا استئنافية وليست عاطفة، ما معنى استئنافية؟ أي ابتداء تستأنف يعني تبدأ من جديد، ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ﴾ وليست والراسخون معطوفة على اسم الجلالة سبحانه ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾.

فإذا قيل: إن الراسخون في العلم يقولون: آمنا به، فزعم البعض بأن هناك من القرآن ما هو متشابه على هذا المعنى أي لا يفهم، وبالتالي دور العالم أن يسلم مع إضافة (عدم العلم)، ويسلمون الكل يسلم، من علم ومن جهل لكنهم يقولون: إن المتشابه هنا بابه ألا يعلمه العالم ويسلم له، والقرآن يثبت هذا ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾.

وهنا نأتي إلى قاعدة علمية مهمة جداً وهو عدم جواز تفسير الكلام إلا بمراد صاحبه، لا بمراد سامعه، لا يجوز أن تفسر الكلام بمرادك أنت، ولا بمعانيك أنت ولا بتنزيل بيئتك أنت، بل يجب عليك أن تفسر كلام المتكلم بما أراده، كلمة المتشابه كلمة حصل فيها تطور، مثل كلمة التأويل حصل فيها تطور، هناك كلمات تتطور لأن اللغة كائنٌ حي يتطور، هل القرآن طور اللغة العربية؟ بلا شك، هذا التسهيل في كلام العرب الذي أحدثه هو القرآن،

هناك كلمات كثيرة لم تصل إلينا ماتت، لأنه لم يعد لها استخدام في كلام الناس، والقرآن كما ترون سهل اللغة، فلما تقرأ القرآن تسهل وإن كان أهل النقد يقولون: بأن الشعر الجاهلي –وهذا صحيح جربه أنت– يقولون: بأن الشعر الجاهلي أسهل في الفهم من الشعر الأموي والعباسي وهذه صحيحة.

الصعوبة كما ذكرت هذا في كتاب «فن القراءة»، الصعوبة في الشعر الجاهلي أغلبها تقوم على الأماكن، والناس لا يعرفون أن هذه أماكن، مثل شعر امرؤ القيس:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

أين الصعوبة فيها؟ خاطب بها ابنك يفهمها، «بِسِقْطِ اللِّوَى» يقول: عن ماذا تتكلم أنت؟ يقولوا له: لا هو يتكلم عن عمان! ويتكلم عن الزرقا! هو يقول قفا نبكي في الزرقا!! هذه هي المشكلة أسماء الأماكن وهكذا يعني هذا باب،

القصد: أن اللغة تتطور فالمتشابه في لغة القرآن يعني هو غياب بعض معانيه لا كل معانيه، ما المقصود ببعض معانيه؟ الشيء إما له حضور واقعي، هذا كتاب له حضور في الكون، وله حضور لفظي كما يقول المناطقة أنا أفسر كلام المناطقة في هذا الباب وهو كلامٌ صحيح، والشيء له حضور ذهني تصوري، وله حضور كتابي يعني كلمة كتاب تكتب كتاب، في ذهنك كتاب، وعلى لسانك كلمة كتاب وفي الواقع يوجد كتاب، فالشيء قد يكون له وجود لفظي أو وجود كتابي ولا يوجد له حضور ذهني، وهذا له دور في المعنى.

يعني عندما تقول: فلان مات، في الحقيقة أنت لا تُدرك كل معنى هذه الكلمة، أنت هناك شيءٌ من المتشابه فيها الذي تجهله، يعني الآن لو قلت: فلان مات، ودعونا نأتي على كلمة موت لا نأتي على زمانها ولا نأتي على مكانها، ولكن نأتي على معنى كلمة الموت بالتمام، تقول: الموت هو خروج الروح من البدن، الآن أنت هذه كلمة خروج الروح من البدان أنت لا تعرفها، فأنت تجهل كيفية الموت، كيف خرجت الروح، كيف سلت من هذا البدن، فأنت تجهل، فجهلك بكيفيته هو جزءٌ من جهلك بماهيته، وإن كنت تعلم بعض معانيه تقول: مات يعني خلاص انتهى من هذه الدنيا وفقد الوجود وانفصل الروح عن البدن، لأن الإنسان لا يكون إنساناً إلا باجتماع الروح مع البدن، هنا خلاص صارت الروح في مكان وصار الجسد في مكانٍ آخر، فأنت تدرك بعض معانيه وتجهل البعض الآخر، ما تجهله هو الكيفية.

وما له تعلق بالغيب تجهله، سواء كان هذا الغيب نسبي بالنسبة إليك، أو كان مطلق بالنسبة للبشر، ومن ذلك الغيب الذي تجهله أنت تعرف كلمة الملائكة لو سألتكم الآن ما معنى كلمة الملائكة؟ فوراً تقول: هو خِلقة إلهية مخلوقة من نور، ولها أجنحة وتعرفون وتذكرون ما لها من صفات في الكتاب والسنة، لكن أنتم هل أحدًا منكم رأى

الملائكة؟ أنتم تجهلون كيفيتها، طيب كيف الملائكة تكون بيننا ولا نراها؟ فهذا ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧].

إذن ما نجهله من المتشابه هو كيفية الأشياء، وقد يكون من كيفيتها زمن وقوعها فهل الساعة من المتشابه أم لا؟ هي غيب فهي متشابه، أنت لا تعرفها ولا تعرف كيفية وقوعها، فإذن المتشابه هنا ما هو؟ ما هو المتشابه بالنسبة للأخبار؟ هو كيفية وقوعها، ولذلك من هنا تأويله، التأويل هو الوقوع.

لكن هناك كذلك من المتشابه ما لا يدركه عقلك، فلما سألوا عن الروح قال تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، بخلاف ما يقوله ابن القيم، كتاب «الروح» يقول: المقصود به جبريل، يقول: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، يعني جبريل، يقول: لأن كلمة الروح لم ترد في القرآن إلا بمعنى جبريل، وهذا يعني ناقشت بعضه في تفسير سورة «الإسراء».

لكن الآن هذه الروح في كيفيتها -نحن نعرف الروح أنها خلقة إلهية ما- لكن نحن نجهل كيفيتها، ونؤمن بوجود الروح، فنجهل كيفيتها لكن نُدرك آثارها، وهي أنها تُنشئ الحياة، الروح هي التي تنشأ فندرك آثارها ونجهل كيفيتها، فإذن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ هي إما أن تجهل الشيء بالكلية، لا تعرفه وهذا لا وجود له في القرآن.

فالمتشابه في القرآن الذي يجهل الناس معناه بالكلية فيسلمون له تعبداً من غير إدراك معناه لا وجود له، لكن هناك متشابه في القرآن ما هو المقصود؟ المقصود البعض من معانيه هذا تجهله، تجهل هذا البعض، فهو يبقى عندك متشابه فتعيده إلى المحكم فيظهر معناه، هو إذا استقل يكون متشابهاً، بمعنى يمكن أن يحمل على هذا المعنى، وعلى هذا المعنى، يشتبه معناه على الناظر إذا استقل، ولكن يكشف معناه ما لو جمع بالمحكم، إذا انتهى المتشابه إلى أن يكون مُحكماً.

فإذا قيل: فلماذا لا يعلمه إلا الله عز وجل؟ قيل: هذا المتشابه الذي هو كون الشيء قبل وقوعه، كونه قبل أن تراه وقبل أن تدركه ككون الملائكة، ككون الجن، ككون آيات الغيب التي لم تقع فهذه كونها لا يعلمها إلا الله عز وجل.

القصد من هذا: ينبهنا ابن كثير على ما نبه عليه وهو منقول من كلام ابن تيمية رحمه الله أنه لا يوجد في القرآن ما يُجهل معناه بالكلية لكن قد يختلط معناه بمعنى آخر، فيأتي فيحسم.

ولكن ها هنا نقطة كذلك، إياك أن تظن أن آية في القرآن ما لو استقلت يمكن أن تُنشئ فهماً خلاف مراد الرب منها، هذا تنبيه على كلمتنا أنها لو استقلت احتاجت إلى المحكم، لا يوجد آية ما لو استقلت يمكن أن يحتج بها مُبطلٌ على باطله إلا وفي الآية ما يرد عليه، لكن هذا يكون خفيًا يعلمه من يعلمه.

والآن نأتي إلى ما يذكره العلماء من التمثيل هو الذي يبّين، عندما يأتي المعتزلي ويقول: قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فيجعل المثلية عامة في الأسماء وفي التأويل، الاسم يعني التسمية في أنه يقول: لا يجوز أن يسمى الله سميع، لا يجوز أن يسمى الله بصير، يعني صفةً له، فهو ينفي الاسم وهذا هو الذي يقوله، بخلاف ما أهل السنة يثبتون الاسم وينفون مشابهة الكيفية، هم يقولون: لا، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، فلا هذه مطلقة فهي تنفي مشابهة الاسم ومشابهة الكيفية.

ماذا قال ابن تيمية رحه الله في الرد عليهم؟ قال: أتموها –أي أتموا الآية–: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ [الشورى: ١١]، لكن كيف يدرك العالم أن هذه تنبيه على خطأ الآخر، هنا يأتي دور مراتب العلوم.

مثال آخر فقهي يعرفه مشايخ الفقه في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ [الطلاق: ١]، هذه الآية أحتج بها بعض أهل العلم على أن –وهذا قول الأحناف– احتج بها بعض أهل العلم على أن الطلاق البائن كذلك المرأة لها حق السكنة، لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق: ١]، إذن هي عامة، إذن هي منطبقة على أنه لا يخرجن ولا يجوز لك أن تُخرجها، وهي عامة ولذلك كان عمر رضي الله عنه يقول بها، يقول: بأن المرأة المطلقة طلاق رجعي –متفقين عليها في الطلاق الرجعي– بأن لها حق السكنة، لكن المرأة التي بانت بينونة كُبرى أو طلقت طلاقًا بائناً، مثل من مثلاً الطلاق البائن؟ كالفسخ مثلاً، كالخلع هذا بائن عند من يقول به، فهل هذه لها حق السكنة؟ الآية شاملة للجهتين.

لكن ماذا كانت تقول فاطمة بنت قيس في هذه الآية؟ وهم يحاجونها في هذه الآية، وهي تقول: طلقني فلان بائناً فلم يجعل لي رسول الله لا نفقة ولا سكنة، يقول: لا نترك كلام ربنا لامرأةٍ لا ندري أصابت أم أخطأت، هي ماذا ترد عليهم تقول: بقول الله تعالى: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١)﴾ [الطلاق: ١]، –انتبه للأخيرة– ما الذي يحدثه الله لمن بانت منه زوجته؟ ما الذي يحدثه؟ امرأة بانت لا يجوز أن يرجعها، فكيف في خاتمتها: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾؟ إذن هذه الإشارة ترد على من جعل الآية تُنزل على المرأة التي بانت، لأنه لا يمكن أن يعود إليها لا يجوز، التي بانت عليه لا يجوز أن تعود إليه إلا بعقدٍ جديد، ومهرٍ جديد، أرأيتم أنه لا يحتج مخطئ أو مبطل على باطله بآية إلا وفي الآية ما يرد عليه من نفس الآية، لكن تكون الإشارة مرات خفية يدركها العلماء.

وعدناكم أن نقرأ كلام الزركشي في قضية دلالة الحروف على معاني السور وما فيها، يقول الإمام الزركشي: «وتأمل السورة التي اجتمعت على الحروف المفردة: كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف؛ فمن ذلك: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١)﴾ [ق: ١]، فإن السورة مبنية على الكلمات القافية من ذكر القرآن ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١)﴾، سيأتي مثال وما شهدته من أحدهم، ومن ذكر الخلق وتكرار القول ومراجعته مرارا، والقرب من ابن آدم وتلقي الملكين

يعني ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ [ق: ١٦]، بالقرب، ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: ١٧]»، انظر هذا هو التكرار ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾.

هذا الذي قلته من زعم أن كثرة الحروف هو صناعة معاصرة، الأوائل يا إخوة ينبغي أن نقرأ قبل أن نجزم، يقول: «أنا أتيت بها، وكثير من الذي ترونه عند المتأخرين عند البحث تجدونه عند المتقدم، قال: وقولي العتيد وذكري الرقيب وذكري السابق والقرين، والإلقاء في جهنم والتقدم بالوعد ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨)﴾ [ق: ٢٨]، وذكر المتقين وذكر القلب والقرن والتنقيب في البلاد، وذكر القتل مرتين وتشقق الأرض وإلقاء الرواسي فيها وبسوق النخل والرزق وذكر القوم وخوف الوعيد وغير ذلك، تكرر الكلمة أكثر من غيرها» انتهينا منها، هذه القاف حملها على هذا المعنى.

قال: «وسرٌ آخر وهو أن كل معاني السورة مناسب لما في حرف القاف من الشدة والجهر والقلقلة والانفتاح، وإذا أردت زيادة إيضاح فتأمل ما اشتملت عليه سورة «ص»»، انتهى من قضية الحرف وتقلبه على ما جرى في المقدمة، الآن يريد أن يجعل العلاقة بين الحرف وبين معناه، معنى الحرف عند العرب ومعاني السورة، المعنى الذي جرت عليه السورة.

قال: «فتأمل ما اشتملت عليه سورة «ص»، من الخصومات المتعددة فأولها خصومة الكفار مع النبي صلى الله عليه وسلم، وقولهم: قال تعالى: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥]، –تناسبت الخصومة– إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخصمين عند داوود عليه السلام، ثم تخاصموا أهل النار ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم، وهو الدرجات والكفارات، ثم تخاصم إبليس واعتراضه على ربه وأمره بالسجود، ثم اختصامه ثانياً في شأن بنيه وخلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم».

ولو سأل واحد عن سورة «ن»، قال: وكذلك سورة ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ [القلم: ١]، فإن فواصلها كلها على هذا الوزن، مع ما تضمنت من الألفاظ النونية» كلها على النون، ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١)﴾ [القلم: ١]، إلى آخره، قال: «وتأمل سورة الأعراف، زاد فيها صاد، لأنه ﴿الم﴾ إلا سورة «الأعراف» ﴿المص﴾، وهذه فتحت بابا من أبواب السر لاختيار الكلمات عند من يتكلم عن بلاغة القرآن، هذه الكلمة فتحت لمن بعدهم كلمات عظيمة، لماذا تأتي الكلمة هذه دون الكلمة الأخرى، وسنضرب إذا قدر الله مثالاً.

قال: «وتأمل سورة الأعراف، زاد فيها «ص» لأجل قوله: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ [الأعراف: ٢]»، ما قال في قلبك، مرة أحد القراء يقول لي وهو يحفظ السورة قال: ولكن أنا جئت ﴿المص﴾، وما أدري ما التي بعدها ولما جئت إلى قوله ﴿فَلَا يَكُنْ فِي﴾، في ... قلبك، قال: فتذكرت «ص» فعلمت أنها ﴿صَدْرِكَ﴾، ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ وذكرني بها ما تقدم من قوله تعالى: ﴿المص﴾.

قال: «وشرح فيها قصص آدم فما بعده من الأنبياء» وهكذا، ويكفي هنا وإن شاء الله نأتي إلى اختيار الكلمات في بابٍ آخر، وسيأتي إن شاء الله هذا الباب لماذا ذكر الكسب دون كلمة الفعل، فعل، كسب، عمل، فهذا سنأتي إليه إن شاء الله مما يدل عليه كلام الإمام الزركشي فيما نحن فيه.

يقول تعالى جّل في علاه: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾ [البقرة: ١-٥]، جئنا إلى قوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، ﴿ذَلِكَ﴾ اسم إشارة ويجمع أسماء الإشارة في كثيرٍ منها حرف ذ فيقال: ذلك ويقال: ذاك، ويقال: هذا، فأصل هذا هو ذا، وأصل ذلك ذا، وأصل ذاك وكلها أسماء إشارة.

فهنا قال العلماء لماذا أشار إليه وهو حاضر، باسم الإشارة البعيد، ولم يقل: هذا الكتاب هو بين يديه، فلماذا لم يقل هذا الكتاب؟ وهذا معهود بأنه يشار عندهم للبعيد ذاك أو ذلك وللقريب هذا، بعض أهل العلم حسمها وقال: يوجد التقارب أو التناوب في هذا، وارتاحوا، قالوا: والعرب تستخدم هذا بمعنى ذلك أو بموضع ذلك أو ذلك موضع هذا وقالوا: والدليل على هذا إنك حين تؤدي لرجلٍ دينًا، تقول: ذلك دينك، يقول: يستخدمونها، ذلك دينك، أو ذاك الذي سألت، فيقول: يوجد هذا وهذا الذي قاله بعض أهل العلم موجود وهذا اختيار الإمام ابن كثير مثلاً في تفسيره على هذا المعنى ويقول: يوجد في كلام العرب هذا التقارب والتناوب بين هذين الاسمين من أسماء الإشارة.

وبعضهم قال: ليس هذا هو المقصود، ولابد أن المعنى فيه إشارة، قالوا: إنه مع هذا الذي يثبته ابن كثير ويثبته أهل اللغة، أنهم يستخدمون وهذا كذلك ترجيح صاحب الآلوسي يقول بهذا، يقول: بأن هذا النقاش ليس له أهمية بين «هذا وذا» ذلك لأن الأسماء «هذا وذلك وذاك» هي من مصدرٍ واحد وهو «ذا» فلا أهمية لأن يوضع قبلها الهاء أو يوضع بعدها الكاف أو اللام والكاف لا ضرورة، إنما اسم الإشارة هو «ذا» فهو على معنى واحد هذا الذي يقولونه.

وآخرون قالوا: لا، بحثوا في معنى آخر، قالوا: نعم، هو حاضرٌ بين يديك، فيقال له: هذا، لكنه عظيمٌ يشار إليه بالبعد لعظمته، فهو ليس بمتناول يديك على معنى هذا الذي يشير إلى أنه متناول بين يديك كالأشياء لكنه عظيمٌ بما فيه، فلذلك أشار إليه بالبعيد، هذا الاستخدام للضمائر والاستخدام كذلك لأسماء الإشارة، له هذا المعنى وتكلم بعض أهل العلم في آيات في القرآن على هذا المعنى.

فمثلاً في سورة «الأعراف» نرى أن المقصود ليس البعد والقرب البدني لكن له معنى البعد والقرب لمعاني أخرى، أول سورة «الأعراف» طبعًا نحن نستخدم بالإشارة إلى الصفحة في المصاحف وهذه طريقة غير علمية ولكنها سريعة لما اتفقت عليه المصاحف بين أيدينا من رسم واحد أو من وجه واحد، وإلا في الحقيقة النسبة تكون للسورة وللآية ونحن نستخدم الصفحة للسهولة، صفحة «١٥٢»، أنا أكرر هذا لأنه ممكن أن يأتي واحد يسمع الشريط هذا ولا يسمع شريط آخر، ويطلع بيان شديد اللهجة في هذا الأمر.

في سورة «الأعراف» انتبه لآية عشرين لتدلك لماذا أستخدم اسم الإشارة في موطن وفي موطن آخر وهو أقرب منه للمتحدث لشيءٍ آخر لأبعد منه، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠)﴾ [الأعراف: ٢٠]، الشيطان يقول: «هذه».

لكن لما تحدث الله عن هذه الشجرة في آية اثنين وعشرين وماما بعدها، قال تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، من أقرب للشجرة الله عز وجل أم إبليس؟ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦)﴾ [ق: ١٦]، الله أقرب بإرادته، أقرب برعايته، أقرب بخلقه، أقرب بإمداده، ومراده فيها أقرب من مراد إبليس، فانظر كيف الشيطان أستخدم «هذه» وكيف ربنا سبحانه وتعالى قال: ﴿تِلْكُمَا﴾، فهذا لابد أن ننتبه له، وأن نراعيه ونبحث عن سببه إن قدرنا.

أهل العلم لهم كلام عجيب في هذا! قال بعض أهل العلم: وإنما الإشارة لأنها شجرة معصية، فلم يجعلها الله عز وجل قريبة له، بخلاف الشيطان لأنها معصية فهي قريبة له، فقال: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾، فهي قريبة له، فجاء اسمه إشارة بالقرب ليدل على قرب المتحدث عنها وكأنها قريبة منه، لكن لما تحدث الله عنها، قال: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾، لأنها شجرة معصية، وكأنها إشارة لبعيد عنه لا يحبه ولا يرضاه، فهذا قول من طريقة في قضية إدراك البلاغة القرآنية وبلاغة الكلام.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ٢]، هنا جاء ربنا عز وجل إلى اسم من أسماء القرآن وأسماء القرآن كثيرة، لكن أشهر اسمين لهذا الكلام الإلهي هما الكتاب والقرآن، وبهذا يتم شمول أحوال هذا الكلام، لا يمكن أن يخرج هذا الكلام، إما أن يكون مكتوباً أو يكون مقروء، فهذا مكتوب ولما أنت تتلوه فهو مقروء، فبالقراءة جاء اسمه القرآن، وبالكتابة جاي اسمه الكتاب، وكلاهما أي كلا الجذرين لكلمة الكتاب والقرآن يدلان على معنى واحد، لو تذهب إلى كلمة الكتاب ما أصل معنى كتاب من أي مصدرٍ أخذت؟ أو إذا أردنا لأن البصريين يقولون أصل الكلمة هو المصدر، والكوفيون يقولون أصل الكلمة الفعل، فلو قلنا بأن أصل الكلمة المصدر هو كتب، فما معناها؟ من الكتابة،

المصدر كتابة الفعل كتب، فمعناه الجمع، ومن هنا أخذت اسم الكتيبة؛ لأنها مجموعة جمع إنسان تسمى كتيبة، فكلمة كَتَبَ أخذت من الجمع، وكلمة القرآن أخذت من القرء وهو الجمع فكلاهما في المعنى واحد، لكن هذا جُمع بحروفه كتابة على الورق وهذا جُمع بحروفه تلاوة على اللسان، ولكن المصدر واحد.

فالكتاب والقرآن معناهما واحد في أصل الجذر وأصل المعنى، هذا يبين لكم ضلال -ابتداءً طبعًا المسألة أعظم من هذا- وفساد من فرق بين القرآن والكتاب، تعرفون هذا الكاتب المجرم الذي كفر وخرج من الملة وهو المسمى بمحمد شحرور، ألف كتابًا ضخماً سماه القرآن والكتاب، وجعل أساس إبطال القرآن هو التفريق بينهما أن هناك ثمة قرآن وهناك ثمة كتاب، أي هذا القرآن فيه شيءٌ يطلق عليه كتاب وهناك شيء يسمى كتاب، فبعضه مما لا نلتزم به ليس من الشريعة في شيء، وبعضه هو ملزم لنا وهكذا تلاعب بهذا وكتابه مشتهر وهذا الرجل تلقفته الدوائر العلمانية من أجل إبطال الشريعة، يعني كل اللعب وكل الفساد يدور حول إسقاط التكليف عن الإنسان ما في ضرورة للصلاة ما في ضرورة للزكاة ما في ضرورة للوضوء هذه أحكام قديمة ومتحولة على هذه الطريقة التي يقولها.

القصد من هذا: لما يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، أو يسمى قرآنًا وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨)﴾ [القيامة: ١٨]، قال تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١)﴾ [ق: ١]، فالمقصود الجذر الواحد ولكن أحواله في الوجود، إما أن يكون مكتوباً وإما أن يكون مقروءاً وكلاهما جمع الشيء مع نظيره، فلماذا سمي كتاب، هنا وقعوا في خلاف، وهذا ليس من الخلاف الذي به يتم التصادم، هذا الخلاف الذي هو كله يدل على معنى واحد، لماذا كله يدل على واحد؟

هناك كلمة لابن تيمية رحمه الله في الفتاوى يقول: «لا يوجد آية في القرآن تدل على معنى واحد، بل الآية تدل على المعنيين وعلى الثلاثة وعلى العشرة وعلى الأكثر، وهذه المعاني كلها حق» هنا اتبع كلامه هذا بكلامٍ آخر وهو قوله: «بأن هذا المعنى حقيقي»، ليس بمعنى هذا الأول حقيقي والثاني مجازي!! كل هذه المعاني مرادة في نفس الوقت لهذه الآية، كلها مرادة وكلها حقيقية فليست هي من المشترك اللفظي وليست هي من المجاز والحقيقة أبداً، كلها وليس هناك أولي وثانوي، كلها أي هذه المعاني مرادةٌ في نفس الوقت.

فعندما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، فما المقصود بما جمع فيه هنا؟ أول شيء هو هذا مجموع الحروف، فالحروف جمعت فيه لأن أي كتاب هنا تقول هو كتاب؛ لأنه جمعت فيه الحروف بعضها إلى بعض، أو جمعت فيه الكلمات بعضها إلى بعض، أو جمعت فيه المعاني بعضها إلى بعضه وكلها جمع تؤدي إلى أن تكون كتاباً، فهو كتاب هل لأنه جمع الخيرات والفضائل؟ هذا معنى الصحيح، هل لأنه كتاب لأنه جمع ما تكلم الله عز وجل به لهذه الأمة؟ الجواب: نعم، فكلها على هذا المعنى فهو كتاب.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، هذه كلمة «ال» بلا شك هنا لابد أنها عهدية لأنه يخاطب هذا الكتاب ولا يخاطب كل كتاب وليس كل كتاب، إنما يخاطب كتاباً معهوداً في الذهن وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا وهو القرآن فيقول ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، فقوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، إشارة إلى كله، هل يمكن أن يحمل على بعضه أو على ما تقدم لقوله: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، أي ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ هو ﴿الم﴾؟ هناك من قال هذا وهو معنى قريب يمكن حمله على معاني صحيحة كذلك يمكن حمل ذلك الكتاب على «الفاتحة»، (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي)، يمكن أن يحمل عليه، والأول هو الأقوى بأن المقصود بهذا اسم إشارة؛ إنما يشير إلى كله إلى كل الكتاب من «الفاتحة» إلى سورة «الإخلاص».

وفي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، هنا نأتي إلى قراءتين مشهورتين، وإن كان هناك من رجح أحدهما على الأخرى وقوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، هنا كما ترون عندكم في رسم المصحف، يوجد ما يسمى بوقف التعانق، ما المقصود بوقف التعانق؟ المقصود يمكن أن تقف على الأولى ولا تقف على الثانية، ويمكن أن تقف على الثانية ولا تقف على الأولى، هذا المقصود هناك تناوب بين هذين الوقفين، فأنت تقول: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ﴾، ﴿فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾، هذا وجه، الوجه الثاني ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾.

وابن كثير رحمه الله يرجح الثانية، يقول: هي أبلغ، لأنه لو قال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ﴾، فإنها لا تحمل دلالة لأنه كتاب، أي عندما يقول: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ﴾، تكون حينئذٍ فقط كلمة الكتاب هي دالةٌ على شيءٍ عظيم، ولو جُردت من هذا المعنى لما أشارت إلى فضيلة، كأن تقول: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ﴾، وهل هناك ثمة مناقشة حول أن هذا كتاب، لا يوجد هناك منازعة، المنازعة في قوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، أين المنازعة؟ هل في كون هذا كتاباً، هل هناك منازعة أنه كتاب؟ المنازعة أن ذلك ﴿الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، أي لا ريب في كون هذا الكتاب هدى للمتقين، فلذلك عندما يقول: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، إنما الريب واقعة على نفي ضد الهدى،

هنا كلمة الكتاب فقط هذه قضية يعني ننتبه لها وأنا نبهت في درسٍ فائت عندما سئلت ما هو الأرجح في القراءتين؟ ولا شك أن هذه جائزة وهذه جائزة وبهذا نزل القرآن، ولكن بعض أهل العلم يرجح قراءة على قراءة، وقلت في درسٍ الفائت بأن ترجيح القراءتين كون القراءة آية، ومثلت في قوله: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وقلنا هذه آية نزلت وهذه آية نزلت، هاتان قراءتان، فهذه آية وهذه آية، هذه آية يحمل لها حكم وهو إذا كانت ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ بالجر كانت محمولة على المسح على الخفين، وإذا كانت ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالفتح فهي على الغسل، وقلت: لا يرجح؛ لأن هذه آية وهذه آية ولا يرجح بينهما.

لكن لو سُئل هل هناك آية أفضل من أخرى؟ ولا شك أي القرآن أفضل؟ أي السورة أفضل؟ ولا شك أن أهل السنة والآن نذكر بعض أدلتهم النصية على أن القرآن آياته تتفاضل وكذلك سوره، ومن الدليل على هذا أن سورة «الصمد»، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص: ١]، تعدل ثلث القرآن، ولما سئل أي آيةٍ في كتاب الله أعظم، قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فإذن التفاضل موجود، لكن الترجيح مرفوض، ماذا يحمل معنى الترجيح؟ كأن الأخرى ضعيفة وهذا مرفوض، «فالترجيح مرفوض والتفاضل مقرٌّ به».

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، بلا شك أن القرآن لم ينزل كتاباً، بل نزل مُفرقاً، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، -وهذا فقط للهامش- لماذا قال سميت بالفرقان؟ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: ١]، فأهل العلم على أنه فرق بين الحق والباطل، وقال بعضهم: لا، المقصود فرقان لأنه نزل مفرقاً، ذلك لأن مطلع هذه الآية في سورة «الفرقان» ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، والتي فيها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ﴾ [الفرقان: ٣٢]، ما قالوا الكتاب، قالوا: القرآن انتبه لهذه الألفاظ هذه مهمة جداً لماذا يأتي هذا اللفظ دون هذا اللفظ، ذكرنا بعض معاني من قضية المناسبة في المطلع بينها وسيأتي أسباب كثيرة، لماذا هذا اللفظ دون هذا اللفظ؟

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، فمن هنا قالوا: سميت سورة الفرقان؛ لأنه تفرق والدليل على هذا في هذه السورة قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)﴾ [الفرقان: ٣٢-٣٣]، والحق أن الفرقان أولى للمعنى الأول ليس لهذا المعنى، لماذا؟ يعني لو سأل أحد ما هو الأقرب من القولين؟ وكلاهما مقصود القرآن فرقان لأنه نزل مفرقًا فسمي فرقانًا، وسمي فرقانًا لأنه يفرق بين الحق والباطل، ما هو الأولى؟ الثاني.

لكن لو قال لك أحد: أن المناسبة بين هذا المطلع في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: ١] يتناسب مع قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، لكان الرد سهلاً - وهذا ذكرتها كثيراً في سورة «الصمد»، بأن السورة الواحدة تجمع معاني الكلمة الواحدة، -حتى هذا ذكرته في تفسير سورة «الأنعام»، وأنا أعرف الكلمات لما تشرح تصبح أسهل- أن السورة الواحدة تجمع المعاني المتعددة للكلمة الواحدة، ما أريد أنا ذكرت هذا في تفسيرٍ عام فقط أمر عليها سريعًا وإلا الأمثلة كثيرة، عندنا مثلاً: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠]، كم مرة ذكرت في سورة «يوسف»؟ ذكرت في سورة «يوسف» مرتين، فهو في قوله يوسف عليه السلام: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ [يوسف: ٤٠]، فعُلم أن المقصود به الحكم الشرعي هنا، وفي كلام يعقوب: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يوسف: ٦٧]، فعلم أن المقصود به الحكم القدري، انظر السورة الواحدة جمعت بين مقصدين.

وكذلك لما قال: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)﴾ [يوسف: ٨٧] وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ﴾ [يوسف: ١١٠]، ففهم أن اليأس هنا غير اليأس هنا لأنه لو يئسوا لا يصح، فإذن هناك معنى أخر وهكذا.

فلذلك لما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، فهذه لها معنى أجّل وهو أنه يفرق بين الحق والباطل، يفرق بين التوحيد والشرك، يفرق بين الصواب وهكذا ويفرق بين المؤمنين والكافرين، ومن معاني الفرقان، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، فهذا أولى في الصواب.

نعود إلى بداية ما بدأنا به، وهو أن القرآن لم ينزل كتاباً، يعني موسى عليه السلام ذهب إلى الطور فأخذ الألواح فيها الكتاب، لكن هذا القرآن نزل آية، آية، ومع ذلك يسميه ربنا الكتاب، ومن هنا فيمكن للمرء أن يفهم ارتباط هذا القرآن بالقدر الإلهي العظيم.

وخذوا أيها الإخوة الأحبة هذه قاعدة من قواعد حياتكم تتعلموها، ما هي؟ «إذا أراد الله عز وجل لأمر خيرًا أقام له أقدار الخير، وإذا أراد الله عز وجل لأمر فساداً ودماراً أقام له أقدار الفساد والدمار»، أقام له الأقدار على وفق سنن الوجود.

تفسير هذا الكلام:

الآن نحن نعلم أن هناك بعض الأمور للنبي صلى الله عليه وسلم جبلية، ومن ذلك أنه يحب أكل الكتف، هل النبي صلى الله عليه وسلم محبوبٌ إلى الله عز وجل؟ محبوب الى الله عز وجل هو حبيب رب العالمين، بل لم يخلق الله عز وجل في الوجود أعظم من محمد صلى الله عليه وسلم، فماذا سيختار له من الأقدار حتى الأقدار الجبلية لا نتكلم هنا عن الأحكام الشرعية ولا عن تصرفات السنة إنما نتكلم عن تصرفات الجبلية، هل هذه التصرفات الجبلية موافقة لما يحبه الله عز وجل ولما هو الخير؟ حتى ما جرى معنى الجبلية، وما كان يجري مجرى الجبلية فإن الله عز وجل يختار له ما هو خير.

ومن هنا الذين يسبون على نساء النبي صلى الله عليه وسلم إنما يسبون على حكمة الله عز وجل، يعني لو افترضنا كلامهم لا نريد أن نناقش الكلام من كل الزوايا ولكن من الزاوية التي نحن في صددها وفي الحديث عنها، إن الله عز وجل أحب محمداً صلى الله عليه وسلم أكثر من بقية الأنبياء عليهم السلام فجعل أصحابه خير الأصحاب، وأحب محمداً صلى الله عليه وسلم فجعل له زوجات هن خير الزوجات في الوجود، فإن الله عز وجل إذا أراد شيئاً وأحبه أقام له من الأقدار ما تحفظه وترعاه.

الآن هذا الكتاب هو كتابه فيسميه الكتاب، فيقيم له من الأقدار، –وهذا كله فقط من هدي كلمة الكتاب هنا– عندما جمعه الله كتابا من الذي جمع هذا الكتاب؟ الصحابة، أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة النبي صلى الله

عليه وسلم لأنه كان يمتنع أن يجمع في زمان النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه يتنزل فكيف يجمع، فلما جاء أبو بكر رضي الله عنه وخاف ذهاب القرآن جمعه، فمن الذي قام بهذا الفضل؟ من اختاره الله لهذا الفضل، قلنا قاعدة: يقيم له من أقدار الحق ما يحفظ به ما يحبه، فأقدار الحق هذه هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وعلى رأسهم أبي بكر رضي الله عنه، فحين تقول: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، فعليك أن تتذكر شيئاً ثانياً بعد ذكر الكتاب وهو أبو بكر رضي الله عنه؛ لأنه به تحقق معنى الكتاب كُلياً، ما الذي تحقق به معنى كلمة الكتاب، ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ ما الذي تحقق به؟ هذا المعنى الكامل من؟ هو أبو بكر رضي الله تعالى عنه.

فانظر هذا الارتباط العظيم، ما نزل مرة واحدة، ترك الله عز وجل تحقيق أسماء هذا الكتاب وتحقيق ما يريده الله عز وجل تركه للبشر، فأقام أقواماً على ما هم عليه من الضلال والفساد، وأقام أقواماً ليحققوا ما يحبه الله عز وجل من أقدار الحق، وهؤلاء هم الرجال الذين يحبهم الله عز وجل، فقوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، على هذا المعنى.

لما نرجع إلى التاريخ ونبحث عن أدلة الصحابة رضي الله عنهم لما جمعوا الكتاب لا نجدهم يحتجوا بهذه الآية، لا نجد أبا بكر رضي الله عنه يحتج على عمر رضي الله عنه بهذه الآية، يقول له: نريد أن نجمع القرآن في كتاب، نجمعه جمعاً، فيقول له: عمر لا أنا أخاف كيف نفعل ما لم يفعل النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول: ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، ما سمعنا هذا، ما وردت، ولكن انظر إلى هذه المعاني القلبية التي تحدث في قلبه لتحقق معنًا قرآنياً، هو في قلبه أو لا ندري في قلبه أو ليس في قلبه؟ ولكن تجري عليه الإرادات التي توافق الحق وتوافق مراد الله عز وجل في الوجود، ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾.

فإذن: هذا دليلٌ لنا نحن على عظمة ما فعل الصحابة رضي الله عنهم وعلى رأسهم الصديق رضي الله عنه مع هذا الكلام الإلهي العظيم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ﴾ [البقرة: ٢]، لما تذهب إلى كتب التفسير تجدهم يقولوا في معنى ﴿لَا رَيْبَ﴾: لا شك، وهذا معنى قاصر، قولهم: لا شك هي معنى ﴿لَا رَيْبَ﴾ هذا قولٌ قاصر، الريب فيه الشك، ولكن هو أعظم من الشك فما هو الشيء الزائد في كلمة ريب عن كلمة شك؟ قال بعض أهل العلم الريب شكٌّ مع الشر يعني كلمة الريب عادةً تطلق على الظنون الفاسدة، يعني لو أن رجلاً قيل له: فلان متصدق أو غير متصدق فيقول: لا، لا يقال له: فيه ريب، لأنها لا تجري على معنى الشر، لكن لو قيل: له فلان فاسق فلان زاني فتشك في هذا فيليق بها كلمة الريب لأنها شكٌّ في شيء باطل.

فإذن كلمة الريب كما يقول هذا كثيرًا من أهل العلم، والرازي في تفسيره «التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب» رجح هذا، وكذلك ذكر ابن كثير هذا من غير أن يعزوه، وقاله غيرهم على أن الريب هو شك، لكنه بزيادة ما يقع على معنى الباطل.

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: «الشك يكون فقط في مسائل الخبر، والريب يكون في الفعل والخبر»، يعني له تعلق بالإرادة، الشك يعني واحد يقول له: فلان مات فيشك في كلامه، فلان سرق فيشك في كلامه، فلان سافر فيشك، فالشك تليق بما هو خبر، لكن الريب هي شك لكن لها تعلق بمعنى الإرادة: أسلك هذا الطريق أو لا أسلكه؟ فهنا ريب، أشرب هذا الماء أو لا أشربه؟ فهذا ريب، أقتل هذا الرجل أو لا أقتله؟ فهذا ريب، إذن الريب مجالها الإرادة والمتابعة وعدم المتابعة، أخذ كلام الآخر من أجل الفعل أو عدم الفعل، ولكن الشك يتعلق فقط في الخبر، إذن كلمة الريب أعظم من كلمة الشك.

فقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، كلمة أعظم من أن يقال كلمة شك، هي أزيد من ذلك لكن هنا نأتي لمسألة مهمة جداً وهو كيف يفسر العلماء الكلمات القرآنية؟ فهذا إن شاء الله نبحثه في الدرس القادم إن شاء الله تعالى، وجزاكم الله خيرًا.

الأسئلة

السائل: شيخنا بالنسبة لسورة «الأعراف» عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، **هل نستطيع أن نقول: يقرب فعل المعصية لسيدنا آدم، فمثلاً: إذا أراد أحد أن يجعل أحدهم أن يبات في مكان فاسد، لا يقول له أذهب إلى ذلك المكان،** يقول له: أدخل، يعني يقرب إليه الأمر، أما إذا أراد أن ينهاه عن شيء يعظم له الأمر، فبما أنه قلنا: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ٢] **للبعيد فيه تعظيم للأمر، فتعظيم في النهي، أنه قال:** ﴿تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]؟

الشيخ: هذا المعنى الأول أنه استخدام لفظ الإشارة لمعنى لابد له معنى في نفس متكلمه، فلما قال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، إنما إشارة إلى شيءٍ عظيم، فيشار إليه بالعلو والارتفاع، الذي قلته أنت موجود هذا كلام صحيح، وفي النهاية هو كما يقال في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم: (حواليها ندندن)، أي الكلام كله حول هذا، يعني أن الشيخ يقول: ﴿هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ هو تسهيل لها، ومنها أنه قربها إليه أو جعلها قريبةً منه، قريبة المنال، لما قال له: ﴿هَذِهِ﴾ هذا كله من المخرج الذي تقوله، لما يقال حتى لشيء بعيد يقول: هذه، فإنما هي تسهيل له، كما يقول الرجل: لبيان العظيم أنه صغير والصغير أنه عظيم، قال: أنا علي الأكل وأنت عليك جمع الحطب، فهي تكون الشجرة بعيدة عنه، يقول له: هذه الشجرة يا رجل يعني من أجل أن يقول: «مقرط العصا»، حولها ندندن، كلها حولها ندندن، جزاك الله خير.

السائل: شيخنا ما ردكم على من قال: أن هذه وتلك أو هذا وذاك أنها مترادفة وكلها بنفس المعنى، لما قالها العرب، لم يكتفوا بواحدة؟

الشيخ: يعني هنا هذا شأن البلاغيين، البلاغيون لا يقبلون هذه الكلمات ولكن بابٌ مهم جداً أنه لابد من النظر إلى أساليب العرب، يعني هل العرب استخدموا هذا؟ فربما يستخدمونه، هل استخدموه –انتبه هنا يأتي دور البلاغي– هل استخدموه لأن هذا أصل أم استخدموه للضرورة؟ يعني الاستخدام المفرق هذه متفقين عليه، نتكلم عن قضية استخدام التقارب والتناوب، يعني هذا يقوم بدل هذا، وهما لهما اتجاهان مختلفان، فهل استخدام هذا على معنى الأصل؟ عادة يجري هذا ولا يدل على معنى أن يجري على معنى الضرورة، كما يقال ضرورة شعرية، فيمكن ها وهذا، ولكن البلاغيين على الجملة لا يقبلون هذه التفاسير، لابد أن يتأملوا ويعمقوا ويأتي هنا دور التنافس في هذا الباب.

السائل: بالنسبة للكلمات المتقطعة بعض العلماء قالوا: علمها عند ربي، وهذا مما لا يعلمه إلا الله، فهل يقال في الرد عليهم ما قلته؟ أن قريش كانت تتربص بمحمد صلى الله عليه وسلم فلو لم يفهموا منها شيئاً لوقفوا عندها؟

الشيخ: هذا تكلمنا عنه في الدرس الفائت شيخنا أبو الحسن، قلنا: ما يسعى إليه علماء التفسير هو أن يعرفوا ماذا وقع في نفس الوليد بن المغيرة عندما سمع كلمة ﴿حم﴾.

السائل: يقال: إنه من دلائل النبوة ومن دلائل أن هذا القرآن من عند الله عز وجل أنه سماه بالكتاب باعتبار ما سيكون؟

الشيخ: يمكن هذا ولكن يعني يمكن أن يقال: كذلك هو كتاب لما جمعت كلماته على المعنى الذي قلناه وهذا صحيح بلا شك أنه ذلك الكتاب هي إشارة لما سيكون عليه وهذا من الدلائل على ما اتفقنا عليه التفريق بين الإعجاز وبين الدلائل.

السائل: تعليق فقط شيخنا بالنسبة لموضوع التناوب في أسماء الإشارة هذا موجود عند أهل البلاغة ويقاس عليه أيضا حروف النداء، أيضا كان هناك حروفٌ للنداء، كما نقول مثلاً: «يا» تستخدم للبعيد وأحيانًا يستخدمها الإنسان لينادي بها قريباً، يريد به معنًا آخر وهو التحقير، فكان بين الشعراء النقائض الفرزدق والأخطل وجرير فكان الفرزدق ينادي جرير في مجلسه يقول: يا جرير فينادبه بالبعيد يريد به أن يحقره، وأيضا في مسألة بين العبد وربه، فقد ينادي بالبعيد وهو يعلم أن الله عز وجل قريب، فلا يستخدمها.

الشيخ: نعم يعني التناوب ليس فقط في أسماء الإشارة فتناوب حروف الجر فبعضهم من يقول به، وبعضهم لا يقول به جزاكم الله خير هذا شيء جيد هذه المشاركة الله يحفظكم.

السائل: هل كلمة القرآن مشتقة أم هي اسم جامد كما حكى في أحد الأقوال عن الشافعي؟

الشيخ: نعم، المنسوب إلى الشافعي رحمه الله هو أنه يرى أنه اسمٌ جامد والصواب أنه مشتق، الصواب أن كلمة القرآن مشتقة وليست اسمٌ جامد، ينسب للشافعي رحمه الله، وكما ينسبون لمن ينسبون له أن الله قد ذكرناها عندما جئنا إلى «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وجئنا إلى «بسم الله الرحمن الرحيم» وقلنا الله عند بعضهم هو اسم العلم وأنه جامد وقلنا هذا كلام غير صحيح، والصواب أن الأسماء إنما تعرف عظمتها بالاشتقاق، لأنها دالة على معاني، فلو كانت جامدة لا تحمل دلالة، كلمة حجر ما هي دلالتها؟ دلالتها في أصلها لا تحمل مدحاً، لكن عندما تكون الكلمة في أصلها تحمل مدحاً، فإنه يكون للاسم حُسناً فتسمية القرآن بهذا الاسم لابد أن فيه الحُسن، ولا يمكن أن يُحمل هذا الحُسن إلا بأن يكون له معنى حسن في هذا الاستنباط.

السائل: عن حكم لعن المعين المسلم؟

الشيخ: اختلف أهل العلم في لعن المعين غير المشرك والكافر والمسلم العاصي الفاسق على قولين، الجمهور على منعه، الجمهور على منع لعن المعين، أنهم يقولون: يلعن النوع كالعنة الله على الفاسقين، كالعنة الله على الكاذبين، وأما فلان الفاسق وفلان الكاذب فلا يلعن، هذا لأنهم يرون أنه ربما يتوب وربما يكون له من الحسنات ما تعفو عن سيئاته، على قاعدة الفاسق الملي التي ذكرها شيخ الإسلام وارجعوا إليها في كتاب «منهاج السنة النبوية»، ذكر عشرة أسباب تمنع لحوق الإثم بالمعصية، يعني يقع المرء في المعصية ولا يلحقه الإثم، ومنها التوبة، الاستغفار، استغفار الملائكة، رحمة الله، استغفار النبي صلى الله عليه وسلم له، استغفار الأنبياء عليهم السلام لهذه الأمة، الحسنات تذهبن السيئات ... إلخ، ذكر عشرة أسباب عليه رحمة الله.

فإذن هذا يطبق على الذي يفعل به، والذي عندي أنه يلعن ولكن لوجود حكمة، على قولين: القول الأول: يلعن، والقول الثاني: لا يلعن، الجمهور على أنه لا يلعن وهذا اختيار الغزالي وأغلب من يستدل من هنا يأتي دور الأخذ دون العزو، أغلب من يستدل بعدم لعن المعين يأخذونه من كتاب «الإحياء للغزالي»، وهذا كذلك قول النووي وأخذه من الغزالي، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، واختيار كثير من المتقدمين والمتأخرين.

وهناك من يجيز لعن المعين مطلقاً، إذا ثبت عليه الفسق من الكبائر فيلعن، ويستدلوا بأحاديث والنظر إلى هذه الأحاديث كقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أمره لمن أذاه جاره أن يضع ثيابه في الطريق)، فكان الناس يمروا عليه ويلعنونه، وفي الحديث: (العنوهن فأنهن ملعونات)، عن النساء الكاسيات العاريات قال: (العنوهن فأنهن ملعونات)، فأخذ من أخذ به على جواز لعن المعين، والذي عندي أن اللعن إنما إذا كان له سبب بيّن، كأن يُنفر عنه، كأن يتميز بهذه المعصية، كأن يخاف من غفلة الناس عنه، يعني يجالس الناس فيفسدوهم، فحينئذٍ لا بأس بهذا، والذي أميل إليه هذا القول وإن كنت كثيراً ما أميل إلى جواز لعن المعين، ولكن كما تعلمون (المؤمن ليس باللعان ولا الطعن).

فعندما نقول نحن: هذا الجواز جائز بسبب لا ينبغي للمسلم أن يجري على لسانه كلما رأى فاسقاً يلعن شغال بدل أن يسبح يلعن، اليوم قرأت دعابة، طرفة أمير لأحد الإخوة في بيت مضافة يتكلمون عن النساء، فالأخ يقول: الزواج، الزواج، الأمير قال له: الذكر، الذكر، وهكذا هي الطرفة، فكذلك يقال في هذا المجلس: بدل ما تشتغل باللعن أدعو له كذا، لكن الجواز جائز إذا حضر له سببٌ موجبٌ له مرجح للعنه كحال ترك بعض الناس الصلاة عليهم مع جوازها للعموم، هذا هو الأقرب إلى الصواب الله تعالى أعلم.

السائل: هل للبيهقي شرط في سننه وأي السنن أحق بإدمان النظر فيها على الصحيحين؟

الشيخ: لا ليس له في الحقيقة شرط، هو يذكر الأحاديث الصحيحة والضعيفة، ولا يشترط الصحة في سننه، ولكنه أراد بالاستقراء أراد في سننه أن يستحضر أدلة الشافعي لفقهه، ولذلك قالوا: هذه الكلمة المشهورة «الشافعي له يدٌ على كل صاحب محبرة، والبيهقي له يدٌ على الشافعي» لأنه نصر مذهبه بما ألف من كتب وعلى رأسها «السنن الكبرى للبيهقي»، فإذا أراد طالب العلم أن يعرف أدلة الفقهاء في المسائل الفقهية وأصول الأدلة فليرجع إلى «سنن البيهقي».

ومن هنا تأتي أهمية هذه السنن فلا يعد الرجل فقيهاً يستدل حتى يقرأ هذا الكتاب، وأما تعليقات ابن التركماني عليه فيها ظلم، انتبهوا أول ما طبعت في الهند، وقام على طباعتها الأحناف فاحضروا تعليقات ابن التركماني ووضعوها في أسفل السنن، وكثيرًا ما يقع فيها الأخطاء، بل أنه يخطئ في الأسماء لتضعيف بعض أصول الشافعي المقصود أدلة الشافعي، فيخطئ فيها كثيرًا ان التركماني، فالبيهقي أجل من ابن التركماني، وانتقادات ابن تركماني على سنن البيهقي فيها إجحافٌ وظلم.

أما أجل السنن بعد الصحيحين فبلا شك أنها سنن أبي داوود، وفيها وصف من كان عنده هذا الكتاب فكأن في بيته نبيٌ يتكلم، لكن أعلى السنن الأربعة صحةً فهي سنن النسائي ولو سمي كما سماه بعض أهل العلم من المغاربة صحيح النسائي؛ لما أبعدوا، نعم في بعض الضعيف ولكنه قليل جداً، وأغلبه اختيار أبي عبد الرحمن النسائي من السنن الكبرى له ولذلك الصواب أن يسمى هذا بالمجتبى فهو أعلى درجات السنن صحةً، لكن أشمل الكتب للفقه هو كتاب الإمام أبي داود رحمه الله سنن أبي داوود.

السائل: هل السمع والبصر صفة ذات أم هي صفة فعل؟

الشيخ: السمع والبصر صفة ذات ويقع فيهما الإرادة، أي: الله عز وجل لا يغيب عن سمعه شيء، وبصره لا يغيب عن بصره شيء، فهي صفة ذات ويعرف التفريق بين صفة الذات وصف الفعل بوجود المخالف أي وجود الإرادة، بعضهم يعبر بهذا اللفظ، وبعضهم يعبر بهذا اللفظ وكلهما صحيح، إذا تعلقت الصفة بالإرادة وجوداً وعدماً سميت صفته فعل، وإذا لم يكن لها تعلق بالإرادة كالحياة، لا يصيح اليوم نتصور أنه ميت فإذا أراد أن يكون حيا فهو حي ويمكن أن يريد أن يكون ميتًا غير حي فلا يتصور فالحياة صفة ذات، ويعبرون عن هذا بوجود الضد، يعني الآن صفة الكلام إذا أراد الله عز وجل أن يتكلم تكلم وإذا أراد أن لا يتكلم لا يتكلم، فيوجد الضد ومن هنا فصفة السمع والبصر صفة ذات،

السائل: هل الأثر أنه من قُتل من قبل أهل الكتاب له أجر شهيدين ضعيف وهل يمكن تقويته؟

قتيل أهل الكتاب ورد فيه حديثٌ ضعيف، ورد فيه أنه بمنزلة شهيدين ورد فيه حديثٌ ضعيف، ولا يمكن تقويته ومن قواه فقد أخطأ.

جزاكم الله خيرا وبارك الله فيكم، والحمد لله رب العالمين.

الدرس السادس عشر

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى إله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

هذا هو الدرس السادس عشر من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» وفي قوله تعالى: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة: ١-٢]، تكلمنا في الدرس الفائت عن قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿الْكِتَابِ﴾ دل على أنه معهود في الذهن، وهنا لابد أن له دلالة بلاغية وهو المدح، فإذا عُلم عن الشيء هذا اللفظ في قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، فدل على أن هذا الاسم مُشتهر والتعريف به هو ذكر اسمه، فكونه فقد ذُكر الاسم بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، فدل على أنه شيءٌ عظيم.

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢)﴾ [النبأ: ١-٢]، مع الخلاف بين أهل التفسير في النبأ العظيم هل هو أمر الساعة أم أمر القرآن، والصواب والأقوى أن المقصود بالنبأ العظيم هو أمر الساعة ولكن المقصود من هذا بيان على أن ذكر الكتاب بهذا التجريد دون الذكر باسمه المعين به دلالة على أن هذا الكتاب عظيم، وأن شأن ذكره في الذهن معهوداً على أنه حاضرٌ حين يطلق، لقولهم: ذلك الرجل، فإذا قيل: ذاك الرجل كل الرجل، فإذا قيل: الرجل وكأنه صار هذا الاسم وهو دلالة تعظيم أي الرجل صار علامةً على واحد فاختص به، وإذا قيل: الكتاب فدل على أنه دل على واحدة قد اختص به، الذي قد تحصل فيه اسم الكتاب من حيث اشتماله على صفاته، وإذا قيل: الكتاب لأنه هو مشتمل لهذا المعنى الكلي، ما هو المعنى الكلي؟ أنه كتابٌ جامع، فإذا قيل: ما كتاب الحكمة الذي حوى كل الحكمة؟ قيل: الكتاب، وإذا قيل: ما الكتاب الذي جمع كل الهدى ولا يخرج عنه شيءٌ من الهدى؟ قيل: الكتاب أي القرآن، وإذا قيل: ما هو الكتاب الذي لا يصل إليه شأن كتابٍ آخر في عظمته وجلالته ونوره وهداه فيقال: الكتاب.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، قلنا: إن الريب هذه كلمة ليست مساوية لكلمة الشك، بل هي أعظم دلالة من كلمة الشك، ذلك لأن الريب إنما يكون فيه القلق والريب يكون فيه كذلك ما يطعن، فأنه عادةً لا يقال عن الشك ريباً إلا إذا كان فيما فيه مطعن، وكأن يقال: رابني فلان، أي أطلق لدي معنًا سيئاً، أشار إلى معنى سيء في موقفه وعمله، هذا من حيث جهة دلالة اللفظ على المعنى.

ومن حيث دلالة اللفظ على المقتضى أي اشتماله فالشك لا يكون إلا في الأخبار، والريب يكون في الأخبار وفي الأحكام، أي ما يتعلق في العلم والإرادة، فلو قيل لرجل: اعمل الصلاة، فيصلي أو لا يصلي فهذا ريب، لأن هذا يتعلق بعمل ولا يقال شك، لو أن رجلاً أتى للقرآن من أجل أن يعرف الهدى، أيسلك أو لا يسلك؟ فالقرآن يُسلكه سبيل الهدى، ويُذهب عنه تردد الإرادة، لا يُذهب عنه فقط أن هذا صدق أو غير صدق.

إذا جاء المرء إلى القرآن، فإنه لا بد له من أمرين، لابد أن يحصل له أمران:

الأمر الأول: أن هذا القرآن يطلقه من شكه فيما يتعلق بالخبر، فيما يتعلق بأمر التصديق يطلقه من الشك، ويجعله على أعلى درجات التصديق واليقين، كلمة الهدى هذه فقط تبين لك وتكشف لك الحق أين هو؟! أم أن القرآن يدفع إرادتك إلى ترك التردد والإقبال الجازم على الحق، هذا هو الفرق، لو قيل لا شك فيه فأنه يقضي على الحالة الأولى، وهي المتعلقة بنفي التردد في تصديق الخبر، لكنها لا تحتوي على المعنى الثاني.

الأمر الثاني: أن هذا القرآن يقضي على موانع إرادتك في إقبالك على الحق عملاً، فالريب أشمل مقتضى من كلمة الشك، وأوسع في دلالته أو لنقل في الحقيقة أضيق في دلالته على ما يتوجه إليه، لأننا قلنا الشك يقع على الحق وعلى الباطل، الشك يقع على ما فيه قلق وما فيه عيب وما فيه عار وعلى غيره، فيقال: شك، لو أن رجلاً أخبرك بمسألة لا عيب فيها، فأنت تشك، ولكن إذا أخبرك خبراً فيه أمرٌ يتعلق بشر على صديقٍ لك على أمرٍ تحبه فهذا أمرٌ فيه مطعن.

فالريب له تعلق فيما فيه مطعن أي شكٌ فيما فيه مطعن، إذن هو أضيق في هذا الباب كما ترون، أضيق من الشك، وهو أوسع في المقتضى من أي جهة؟ إنه كما يقضي على التردد في قبول الخبر يقضي على التردد في الإرادة في إقبالها على الحق عملاً، هذا مهم جدًا لنعلم أن هذه الكلمة لا يقوم مقامها كلمة أخرى في هذه الدلالة، فالقرآن من أوله يقول لك: هذا كتابٌ يتم لك كل الخير من كل الجهات التي تتعلق بك أيها الإنسان، والإنسان إما أن يُدمر من جهة خبره، وإما أن يُدمر من جهة إرادته، والرجل قد يصدق الخبر ولكن لا يستطيع أن يمشي، يعني رجل يأتي إلى الصحراء وهو تعب لا يستطيع أن يمشي، فيقول: ما هي طريق السلامة؟ فيقول له رجل: هذه هي الطريق، هو علم الحق لكنه لا يستطيع أن يمشي لا يقدر، إرادته تمنعه.

فهذا الكتاب يقضي على ما يتعلق بمسائل العلم الضالة ويقضي على معوقات الإرادة، في نشاطك إلى الحق وسلوكك إلى الهدى، وهذه من التفصيل الذي قلناه في المرة الفائتة ولكن نفصله بأشد منه هنا وبأوسع، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وقلنا هنا وقوف تعانق ويرجح الإمام ابن كثير على أن قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، هي أصوب من قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ﴾، لأن نفي الريب عنه أن لا يكون في هذا الكتاب

من أحكام وأخبار ووعود وحقائق فنفي الريب عنها أولى من نفي الإشارة إلى هذا الكتاب المعهود في الذهن تماماً، وأنا أعتقد بأن كليهما سواء لأنه إذا نُفيت الإشارة لهذا الكتاب أنه هو الكتاب فهي دلالة نقصٍ فيه، وإذا أحتمل وجود الريب فيه فهذا نقص فيه، فالمعهود في الذهن أن هذا الكتاب هو الذي أحتوى الحق كله، والصدق كله ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، فاحتوى كل هذا، فلما بلغ الناس أن هذا الكتاب كحية الوادي كما توصف، يعني التي لا يقف أمامها شيء، والكتاب الذي لا يكون أمامه أي كتاب، فحين يكون الكتاب كذلك فأنه قد بلغ التمام.

فقوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ﴾، أي لا ريب في أن هذا الكتاب الذي تم به كل الحق، وإذا قيل: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فقد نفى عنه أي باطلٍ فيه، فكلاهما يؤدي إلى نفس المعنى في ظني والله تعالى أعلم.

الآن بما ينشأ الريب أيها الإخوة الأحبة؟، مما يُنشئ الريب: من المخبر، من المعلم، من الحاكم، وكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، فليس هناك ثمة نظر ابتداءً إلى الخبر، ولكن نظرت إلى المخبر، وكما ترون في هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾، أقامك الشارع موقف الوسط الشاك، الذي لا يميل إلى النفي ولا يميل إلى الإثبات، أقامك هنا مع أنه فاسق، لأنه قد يصدق الفاسق، فلذلك الشارع من حكمته وعدله أقامك موقف الشاك الذي لا ينفي ولا يثبت.

وثم بعد ذلك قال: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾، التبين بعد ذلك له أساليبه وله طرقه في كل خبرٍ تعرفه، يعني ممكن أن تبحث له عن صادق يصدقه، ترسل رجل أخر ليأتي لك بالخبر، فإما أن ينفيه وإما أن يثبته وهكذا، وإما أن تدرس الخبر بنفسه، هذه الطرق تتعلق بعلم الرواية، ولذلك علم الحديث هو شق علم الحياة، الشق الأول علم الحياة، ما هو علم الحياة الأول؟ هو علم الحديث؛ لأنه يتعلق بتنقيح الأخبار قبولاً وردا، وبعد ثبوتها، طبعاً هذا تجميع للمادة فأولاً تجمع المادة وتنظر فيها، تدرسها دراسة تتعلق بالأخبار، تتعلق بالمخبرين لهذا الخبر، وتتعلق بذات الخبر، بعد أن يثبت لديك الخبر ثم يبدأ بعد ذلك التحليل، واستخراج المعاني منه، والعبر منه، والدلالات فيه، فيأتي بعد ذلك علم أصول الفقه.

فعلما الحياة هما: علم الحديث وعلم أصول الفقه، لأن أصول الفقه هو الذي يعرفك كيفية الاستنباط، كيف تستخرج الأحكام والدلالات والمعاني، كيف يضبط لك معاني هذه الألفاظ إلى المفاهيم، يرفعك إلى المفاهيم، فبالتالي الريب إما أن ينشأ من جهة المخبر، وهذا ممتنع عن القرآن لأن الله عز وجل هو الحق المبين، فالله سبحانه وتعالى لا يأتي منه إلا الحق، الله عز وجل إذا قال فقوله الصدق، وإذا حكم فحكمه العدل، فلذلك لا ريب، لأنه من جهة رب العالمين، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود: ٥٦]، والله عز وجل هو الحق ومعيار الحق إنما إذا جاء منه، نحن نعرف الحق إذا جاء من الله عز وجل.

وإما أن ينشأ الريب بعدم الإحكام، إما أن ينشأ الريب من المخبر، مُنشئ الخبر، موصل الخبر، وأما أن ينشأ الريب من الخبر نفسه، وذلك بعدم إحكامه، ولذلك القرآن قال: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١]، ما معنى أحكمت هنا؟ أحكمت يعني يأتي ما يناقض فيه بعضه بعضاً، لا يوجد فيه تناقض أحكم، لما تقول بناءٌ مُحكم، كلامٌ مُحكم بمعنى أنه رتب بلا تناقض، لا يوجد فيه تناقض.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء: ٨٢]، ولم يقل اختلافًا واحدًا بل قال اختلافًا كثيراً، لماذا؟ لأن هذا القرآن يشمل حياة البشرية، ويتكلم عن تاريخ البشر، قبل أن ينزلوا إلى الأرض، يتكلم عن الإنسان وهو في السماء، يتكلم عن قبل وجود الإنسان وهو كلام الله عز وجل مع الملائكة، ثم يتكلم عن قضايا غيبية لا يطلع عليها الإنسان، يعني هذا الحوار الذي جرى بين الله عز وجل وبين إبليس، لم يطلع عليه البشر ليكتبوه، فلذلك لو كان من عند غير الله لكانت هذه الأخبار تكلم فيها من لا يعرفها، وكذب فيها وقال فيها الشر وقال فيها الكذب، ولكن هذا الكتاب محكم، فلا يوجد فيه اختلاف، لا يوجد فيه تناقض؛ لأن الله هو الذي تكلمه، وهو سبحانه وتعالى القادر والحكيم.

ولذلك نفى القرآن بقوله: ﴿لَا رَيْبَ﴾ نفى أولاً عن الذي تكلم به، ثم نفى الخطأ عمن وصل إليه وهو رسولنا، انظر لأنه قد يأتيك الخبر الصحيح ولا تضبطه، أو قد يأتي للرجل الخبر الصحيح فيكذب فيه، والله عز وجل قال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣)﴾ [النجم: ٣]، وها هنا كلمة، ﴿وَمَا يَنْطِقُ﴾ هي أوسع من قضية البلاغ في القرآن؛ لأن الناس يقولون: تلى القرآن تلاه، ويقولون: تكلم بالقرآن، ولكن لا يقول: نطق بالقرآن، فالنطق أوسع من القراءة، وأوسع من التلاوة، وإنما النطق فيما ينشأ من نفس المتكلم، ينطق، وهذا دليل على أن ما يقوله رسولنا صلى الله عليه وسلم من السنة هو يشمل هذا الوعد، بأنه ليس فيه الهوى، ﴿وَمَا يَنْطِقُ﴾ هي أوسع.

وحتى بالاستقراء مثل الذين يقولون: الذكر في القرآن يعني القرآن هذا فيه تجوز، الذين يقولون: إن الذكر هو من أسماء القرآن هذا فيه تجوز، فإن كلمة الذكر في القرآن بالاستقراء تدل على الكتاب وعلى السنة، فقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر: ٩]، هذا ليس فقط القرآن، هذا القرآن والسنة، فحفظ الله عز وجل القرآن والسنة، أما القرآن والكتاب فيطلق على هذا الذي بين أيدينا وهو كلام الله عز وجل المعجز المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم المبدوء بسورة «الفاتحة» المنتهي بسورة «الناس»، الْمُتعبد بتلاوته ... إلخ، ما يعرف به أهل العلم كلام ربنا والقرآن الكريم.

فإذن:

أولاً: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذا تزكية لمن تكلم به، وسبحانه وتعالى هو الذي يزكي ولا يحتاج لأحد أن يزكيه وإنما يتعبد المرء والعابد ربه بتسبيحه، وإلا فهو غير محتاج لأحد.

ثانياً: أن هذا الكتاب نفي أي شكٍ في مبلغه؛ لأنه يقول: هذا الكتاب هو يشير إلى ماذا؟ هذا الكتاب الذي بين أيدينا لا ريب فيه، يقول: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فدل على أن مبلغه لا ريب فيه، من مبلغه؟ هو رسولنا صلى الله عليه وسلم، فهذا مدح، يقول لكم: هذا الكتاب الذي بين أيديكم الذي تقرؤونه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وسيبقى هذا الحكم قائماً ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، كلما قرأ العابد هذا الكتاب وهو يقول: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

ثم هذا كذلك مدحٌ للصحابة رضي الله عنهم، كيف مدحٌ للصحابة رضي الله عنهم؟ لأنه يقول لهم: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، نحن عندما نقرأ هذا الكتاب ما الذي بلغنا إياه؟ هم الصحابة رضي الله عنهم، فحملوه كما بلغهم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وهذا دلالة إعجاز في قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ كلما قرأ العبد هذه الكلمة إنما يشير إلى هذا الكتاب الذي بين يديه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فهذه الآية هي أول كلمةٍ في هذه السورة تدل على حفظ الله عز وجل لهذا الكتاب، وتدل على أن هذا الكتاب لا يجوز لمسلم أن يعتريه النقص أو يعتريه الزيادة أو التبديل والتحريف؛ لأنه لو وقع هذا لما صح أن يقول: ذلك الكتاب لا ريب فيه، أين هو؟ وإنما يقول: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، هذا الذي بين يديك لا ريب فيه، فهي هذه باقية إلى قيام الساعة حتى يأتي يومٌ يصحوا الناس فلا يجدون القرآن الكريم، يسري بين أيديهم كما في الحديث وأن كان فيه ضعف.

وإلا فالذي يقول بالزيادة والنقص والتحريف هو كافرٌ بأول آيةٍ من القرآن الكريم بعد سورة «الفاتحة» هو كافرٌ بها، ولا يستطيع أن يقول: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا يستطيع.

وبعد أن علمنا هذا الأمر نأتي إلى قضية الريب بعدم وجود الإحكام فيه، وهذا نفيٌ، فهذا الكتاب محكمٌ وحينئذٍ فمن امتحان الله عزر وجل لقارئ هذا القرآن أن يبحث عن دلائل إحكامه فيه، فإن وجد فيه ما يظن أنه متناقض فإنما التناقض في ذهنه وليس في الكتاب، وطرق إزالة التعارض بين الآيات كثيرة، أول من علمنا إياها هو رسولنا صلى الله عليه وسلم، وأول من شهرها هو حبر هذه الأمة وترجمان القرآن هو ابن عباس رضي الله عنه لما علم نافع ابن الأزرق كيفية الرد على اضطرابه في فهم الآيات، وهذا يستطيع أهل العلم أن يرجعوا إليه.

النبي صلى الله عليه وسلم رفع كثيراً الإشكال والاضطراب، لما جاء إليه وقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢)﴾ [الأنعام: ٨٢]، خاف الصحابة رضي الله عنهم من هذه الآية، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه، وحملوا الظلم هنا على الظلم الأصغر، مع أن سورة «الأنعام» هي سورةٌ مكية، والسور المكية لا تتحدث إلا عن غايات الأحكام، الذي قاله الإمام الشاطبي في «الموافقات» هو عام لكل القرآن، وأخص ما يكون في الآيات المكية، فالآيات المكية لا تتحدث عن الأحكام الجزئية، وإنما تتحدث عن الأحكام الغائية، فعندما تقول:

كلمة الظلم، يقصد بها الظلم الغائي والظلم الغائي هو الكفر، الفسق الغائي هو الكفر، ولما يقول: ﴿مُجْرِمُونَ (٢٢)﴾ [الدخان: ٢٢] إنما هو يقصد به الغائي من الإجرام وهو الكفر.

فمع أن هذه الآية في سورة «الأنعام»، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ فظن الصحابة أن الظلم مقصود به مطلق الظلم وليس الظلم المطلق، فظنوا أن أي الظلم يمنعهم من الهداية، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، فظنوا أن أي ظلمٍ يلحقه المرء بنفسه يمنعه من هذا الوعد الإلهي، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: (ألم تسمعوا قول الرجل الصالح ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان: ١٣]).

وأنا كما قلت لكم سابقا بأنه لا يوجد أحدٌ يحتج بآية على باطل إلا وفي الآية نفسها ما يرد عليه، أي النبي صلى الله عليه وسلم أتى بغيرها ليكون في ذلك الوضوح والبيان ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان: ١٣]، المقصود به الكفر، المقصود به الشرك، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ﴾ ما المقصود؟ يعني بشرك، يعني أشركوا، ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، فهل في هذه الآية وسياقها ما يدل على هذا المعنى؟ الجواب: نعم، كما قلت لكم فهي في سورة «الأنعام»، وسورة «الأنعام» لا تتحدث إلا عن الكفر الغائي، وهي سورة مكية والآيات المكية لا تتحدث إلا عن هذا.

إذن من الذي رفع الإشكال والاضطراب؟ النبي صلى الله عليه وسلم، وهكذا قصة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مع نافع مشهورة.

إذن قوله: ﴿لَا رَيْبَ﴾، فالقرآن يدفع العبد لتمام العلم الحق وتمام الإرادة الجازمة من أجل بلوغ الهدف، ومن هنا قال بعدها سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة: ٢]، الآن ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هي كافية لما قدمنا من أدلة أن فيها نفي الضلالة والظلمة، لأن الريب لا ليس فيه ظلمة، وكذلك هي نفيٌ للباطل في إرادات الناس في نواياهم في مقاصدهم في تربيتهم في سلوكهم في عملهم.

فقوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾، هي زيادة بيانٍ لقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، ولكن مع هذه الزيادة في البيان فيها معاني أخرى داخلة في ذلك، يعني ليس فقط تأكيد، ونحن نقول دائما هذه القاعدة: «إذا تعارضت التأسيس مع التأكيد فالمقدم هو التأسيس»، هذه يجب أن نعلمها، أي بمعنى أنه لا يوجد آية في القرآن مثل الأخرى بلا معنى زائد، هي مثلها فقط لا يوجد هذا، ولا يوجد كلمة في القرآن إذا أردف عليها كلمة أخرى أنها بنفس معناها، لا يزيد في المعنى شيء، هذا لا وجود له في القرآن، الترادف في القرآن ممنوع، بل التكرار بلا زيادة معنى وهداية كذلك ممنوع، نعم هم يقولون: تكرار، ولكن لا يقصدون بالتكرار وهو الشيء نفسه، لا، يكون فيه معنى زائد.

فإذا تعارض التأسيس مع التأكيد ما المقدم؟ التأسيس، فقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾، الآن كان الحديث صفة عن ذات هذا الكتاب، ثم صار الحديث عن أثره في غيره، كان الحديث في الأول صفة عن هذا الكتاب قال: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، ثم صار الحديث عن أثر هذا الكتاب في غيره، ما هي الهداية؟ هي الموصلة للمطلوب، لما يقول: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾، فالهداية هي الموصلة للمطلوب، لماذا؟ لأن الذي يقابل الهداية في القرآن دائماً ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤)﴾ [سبأ: ٢٤]، فالذي يقابل الهدى هو الضلال، فالضلال هو الذي يمنع الوصول إلى المطلوب، الغاية غير واضحة وغير بينة وهو يمشي في تيه في سبل متعددة لا يستطيع أن يصل إلى مطلبه، فالهداية هي التي توصل المطلوب.

ونحن تكلمنا عن الهداية بأنواعها في قوله تعالى في سورة «الفاتحة» ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾، فما معنى الهداية؟ الهداية أولاً لابد أنها موصلة للمطلوب، وليس فقط، ذلك لأن الهداية كلمة مدحٍ في نفسها، وليس كلمة مدحٍ فقط فيما تحصله لغيرها، فهي أولاً تحمل معنى المدح في ذاتها ومعنى المدح في ذاتها أنها الطريق الأقصر في الوصول للمطلوب وهي الطريق الأقوم في الوصول للمطلوب في نفسها، وكذلك هذا عملها في غيرها، عملها في غيرها أنها توصل، فهي الدلالة الموصلة في أقصر الطرق للمطلوب.

الآن تكلمنا عن كلمة هداية ويكفينا ما تكلمنا عنه ولكن ها هنا ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، ما معنى المتقين؟ كلمة الاتقاء تحمل معنى السلب، الفلاح يحمل معنى الإيجاب، أي رجلٌ أفلح أي بلغ مراده، لكن رجل أتقى تحمل معنى الابتعاد عما يسوئه، فمعنى الاتقاء هو الذي يجتنب ما يضره، اجتناب، لكن الفلاح هو مَلَكَة أن يملك أن يسيطر.

فقوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، انتبه كيف اجتمع أنه هدى وصولٌ لمطلوب، فمعنى الهدى: الدلالة الموصلة للغاية، والاتقاء هو ترك المعوقات الموصلة للغاية، فقوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، انظر ماذا جمعت؟ جمعت أنها توصلك للغاية، وتمنع عنك معوقات الوصول لهذه الغاية.

فالمتقين عندهم الهدى، فالقرآن ينفعهم؟ هذا التساؤل سأله العلماء، أليس من أجدر أن يقال هدى للضالين؟ يعني هو ضال فيهيده، يعني الأصل أنا متقي فتقي هو الذي اهتدى، فكيف يكون هدى له؟ فلو قيل: هدى للضالين لعلم أن السائل عن الهداية وهو ضال فهذا الكتاب يقول له: هذا الجواب.

للعلماء في هذا كلام ويعجبني كلام الزمخشري في هذا أنه قال: الضالون قسمان، قسمٌ إذا علمته الحق فيستجيب لك، ففي نهاية الأمر هو متقي، فيقول: كأن الكلام له هو هداية للضال الذي طلب الحق فاتبعه، فانتهى إلى قوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾، وأما الآخرون الضالون لو كان لهم أن أعطوا الهداية فلم يستجيبوا فلا يستحقوا اسم التقوى، فإذن هو هداية للمتقين، فلو قيل هداية للضالين لما كانت مستوعبة للمراد كله، لأنه هناك ضالون لا يستجيبون، فإذا قيل: هدى لهم، لسأل سائل: هذا ضال فلم يهده؟ لعد هذا نقصاً في توجه هذا الخطاب لكل الناس، فقال: لما

كان هذا الخطاب هدى للمتقين الذين يستجيبون للحق فيحصل لهم التقوى فإذن سميت الهداية إلى الغاية التي وقعوا فيها، وأما الذين لم يستجيبوا فلا يستحقون هذه الهداية، هذا مورد.

والمورد الثاني مورد أهل العلم يقول وهذا بيّن في الكتاب، ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)﴾ [الذاريات: ٥٥]، وهذا المعنى القريب يعني ليس بعيداً عما يقوله الزمخشري، ولكن هذا من تنوع الخطاب والحالات عند الخطاب فقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)﴾ [يونس: ٥٧]، هذا القرآن هدى وشفاء، لكن من الذي ينتفع به؟ كم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فهذا هدى للمتقي أي السائل عن الهداية، وفي هذا ترفعٌ لهذا الكتاب إن يتنزل لاحقاً –هذه قضية مهمة– أن يتنزل لاحقاً المعرض عنه.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١)﴾ [فصلت: ٤١]، كيف عزيز؟ بمعنى لا يلحق المعرض عنه، بل إن الحافظ له لو تركه لتركه، فإن هذا القرآن كالإبل المعلقة، إذا تعاهده وجده، وإذا أهمله ذهب عنه، ولا يمكن أن يعود إليه حتى يذهب هو إليه، وهذا من عزة القرآن، فقوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ لو لم يكن كذلك لكان هو الذي يلحق الناس ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم لما كان يجزع عندما يرى المشركين يعرضون عنه، الله يقول له: أنت أعرض عنهم ليسوا هم يعرضوا عنك أنت أعرض عنهم، ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء: ٣]، جهنم تسعهم.

ولذلك ليس من أسلوب الدعوة أنك تترجى فيه، أسلوب الدعوة تقدم له الحق بحكمة وآنا ورأفة به ولكن لا تلاحقه، هو يهرب وأنت تأخذ به تلاحقه؛ لأن هذا ليس من عزة هذا الدين.

فكما ترون أنه لما يقول: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ يعني كأنه يقول: الذي يبحث عنه سيجده، والذي يريد التقوى سيجده، والذي يستمع إليه ليهتدي به سيجد، وأما الذي يغلق أذنيه؟ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤)﴾ [فصلت: ٤٤] إذا حملناها على معنى هذه الدنيا والصواب بمعنى الآخرة أنهم بعيدين عن رحمة الله.

إذن كما ترون هذه المقدمة الجليلة وللعلماء وقوف جميل على بعضه قالوا: لماذا قال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؟ وأخر الظرف ﴿فِيهِ﴾ ما بعد ذكر ﴿لَا رَيْبَ﴾؟ وهذا خلاف ما قال سبحانه وتعالى عن الجنة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧]، ما قال: لا غول فيها، ومن أحق بمثل هذه النظرات عادةً؟ الزمخشري هو صاحب هذا الفن في هذه التأملات الجميلة؛ لأنه يطبق مبادئ البلاغة والإعجاز على القرآن، الزمخشري ماذا فعل؟ طبق مبادئ البلاغة التي تعلمها من كتاب «أسرار البلاغة» للجرجاني طبقها على القرآن، لابد أن ينتبه القرآن يقول: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾، ما قال: لا غول فيها، فالظرف هذا تقدم عن المنفي وذكره، وهنا في القرآن: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ تأخر هذا الظرف ﴿فيه﴾.

وله كلام طويل في هذا ولكن اشرحه باختصار يناسب الحال، يقول: بأن هناك ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ وإنما أراد أن ينفي الغول لأن هناك ما يقابله من خمرة فيها غول وهو خمر الدنيا، يعني قال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾، ما معنى غول؟ ما يغتال العقل، أي الخمر يوم القيامة لا تغتال العقل يشرب ولا يذهب عقله، ومن كلمة الغول أخذت عند الغرب كلمة الكحول، كلمة الكحول أصلها من كلمة الغول، ونحن أخذناها من عندهم، هكذا الدنيا المنتصر يصبح عالياً والعالي هو الذي يصب في الأدنى، فلما كانت أمتنا هي العالية كانت تصب في الأخر فوصلتهم كلمة غول قالوا: كحول، «alcohol» نحن بعدين لما تحولت الدنيا فصرنا نأخذ منهم وإلا فكلمة كحول أخذت من كلمة غول يعني الذي يغتال العقل لأن الخمر تغتال العقل.

وحتى كلمة كَفَر «cover» بمعنى الغطاء مأخوذة من العربية، لأنها من الكُفر، والكُفر هو الغطاء الستر، ونحن الآن أخذناها نقول: كَفَر، هكذا هي سنن الحياة.

فلنرجع إلى ما بسطه جار الله الزمخشري رحمه الله في هذا الموطن، وقال: بأنه لما كان هناك خمرٌ في الدنيا فيها غولٌ فنفى الغول ابتداءً لأن لئلا تشابه هذه الخمر في الدنيا، لكن لما لم يكن إلا هذا الكتاب، فأبعد ظرفية النفي عنه، لماذا؟ لأنه لا يوجد كتاب آخر، هل هناك خمر أخرى غير خمر الآخرة؟ يوجد، ومن هنا فتوجه النفي إليه، هذا من معانيه ما قال عليه رحمة الله.

انظروا أيها الإخوة الأحبة إلى هذا المطلع الجليل في الكلام عن هذا القرآن، والحديث في القرآن كله إنما يدخل في هذا الباب ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾، هذا المطلع في الحديث عن القرآن بمثل هذه العظمة، وبمثل هذا الجلال، وبمثل هذا الإثبات وهذا النفي، أين النفي؟ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ نفى، ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ هذا إثبات.

وهنا رد على الزمخشري لما «بيخبص» عند قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢)﴾ [التكوير: ٢٢]، أسمحوا لي بكلمة «بيخبص» لأن العلماء قالوا أكثر من هذه الكلمة عنه، أساء، حتى لما وصل السبكي وكان يدرس «الكشاف» فلما وصل وقرأ كلامه عند قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾، فقال: الزمخشري كأنه يشير انظر كيف مدح الله الملائكة وكيف مدح رسوله؟ قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾، هذا من كلامه الذي يعاب عليه، وذلك لأن الزمخشري من المعتزلة، والمعتزلة يقولون: بأن جنس الملائكة خير من جنس البشر، فانظر كيف مدح الله عز وجل الملائكة؟ ماذا قال عنه؟ ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥)﴾ [النجم: ٥]، ولما مدح رسوله قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢)﴾ [التكوير: ٢٢]، هذا من جهلته.

وهنا في هذه الآية وإن لم ينتبه لها ولم يتكلم في هذه النقطة أحد، ننبه لما كان الكلام عن الذات كان الكلام متعلقاً بصيغة النفي، فقال: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، لكن لما تعلق الكلام في أثره على الغير، جاء بصفة الإثبات فقال:

﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، النفي الذي فيه إزالة النقائص عن ذات الشيء مع وجود الأثر التام في الغير هو تمام المدح، فعندما ينفي عنه الجنون ثم يقول: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣)﴾ [النجم: ٣] وما ينطق نفي، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥)﴾ [النجم: ٣-٥]، انظر هو لم ينتبه لهذا الزمخشري إذا علمه شديد القوى، فإذا كان المعلم هو هذا فكيف الشأن الْمُعلَم؟ فكيف شأن الرسول صلى الله عليه وسلم؟ فهذا مدحٌ للنبي صلى الله عليه وسلم وليس كما قال الزمخشري في هذه النقطة.

القصد: أيها الإخوة الأحبة الله عز وجل في هذه الآية ذكر أمر كتابه أمراً عظيماً، وهنا فائدة لا بأس أنا أحب هذه الأمور لأنها هي مما تدلك على ترابط هذا الكتاب هو يقول: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، والقرآن يقول: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، قال: فهو بالنسبة إليهم أبعد ما يكون عن الريب، يعني المشركون لا يرتابون فيه، لذلك قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، فلما لم يأتوا دل هذا على أنه لا ريب في قلوبهم أن هذا القرآن من عند الله عز وجل.

ولابن كثير كلمة يقول: «لا ريب فيه وإن كانت بصيغة الخبر لكنها بصيغة الأمر لا ترتاب فيه»، وأنا أعتقد أن المسألة أكثر من ذلك، فإن أمر ترك الريب لا ينشأ من الأمر، أي لا يقال لأحد: لا ترتب، فلا يرتاب، أمر نفي الريب لا ينشأ من الأمر، قل: لا ترتاب، فلا يرتاب، هل هكذا؟! فقولهم إن قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أمر هذا قولٌ بعيد، ضعيف، فيه ضعف؛ ذلك لأن الريب لا ينشأ من الأمر إنما ينشأ من ثقته بأدلة النفي، أي هو عندما يقرأه يقول هذا كتاب الله، وذلك ليس من الأمر الذي أمره ألا يرتاب فيه، ولكن من تمحصه فيه وتلاوته فيه وتأمله فيه وتدبره له.

وما يهمني هنا أن أقول كلمة: هذا البناء العظيم المتوجه إلى نفس تالي القرآن في امتلائه إلى أنه بين يدي الكتاب الذي يجمع الحكمة كلها والهدي كله والحق كله، عندما يدخل المرء في بهذه النفسية مع هذا الكتاب، انظر إلى آثار هذا الكتاب على نفسك، وانظر إلى عزة هذه النفس التي تتلقى هذا الكتاب عند تلاوته، وعند سماعه وعند العمل بأحكامه، هذه آية وإن كانت تجليةً لحقيقة الكتاب وتجليةً لعظمة الكتاب وتجليةً لمرتبة الكتاب أنه كلام الله وأن فيه ما فيه مما ذكر، لكنها كذلك تدل على أثر هذه المعاني في نفس تاليه وفي نفس المؤمن، هذا الذي يهم، القرآن أعظم ما فيه هو بناء نفسية المؤمن له، ما هو أعظم ما في الكتاب؟ هو بنائه لنفسيتك أنت، لعزتك أنت، ما الذي تملكه بين يديك؟ ما الذي تتلوه؟ ما الذي تقرأه؟ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة: ٢].

وقوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾، هنا هذه الكلمة العظيمة هذه مدح عظيم، أن يسعى المرء ليبلغ هذه المرتبة، أن يبلغها وكل ما أبتعد المرء عن هدي الكتاب ضلت به الطرق، وطالت به المسافات، وكثر تلاعب الشياطين فيه، أما إذا أتى إلى هذا الكتاب بهذه الحقائق فأنه يصل إلى مراده إن شاء الله تعالى.

يقول تعالى: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ١-٣]، الآن جاء التفصيل وهنا يأتي باب مهم جداً في القرآن علينا أن نتعلمه، هم يسمونه الاستطراد لهم تسميات لا أحبها هناك من نفاها ومن أثبتها من علماء البلاغة ولا أريد أن أخوض في هذا فهذا مجالٌ آخر ويتسع له دروسٌ أخرى، لكن هنا لابد أن تنتبه إلى قضية فتح الأقواس، قد يكون هذا الذي شرع فيه هو مقصود السورة، ومقصود الحديث، وقد يكون إنما هو فتح قوسٍ لتفسير ثم العودة إلى سياق الأمر.

أي عندما أنت تأتي إلى سورة من السور فعليك أن تعرف ما هو عمود السورة؟ سماها سيد شخصية السورة، وكلمته جميلة لا بأس فيها، السورة لها شخصية، طبعاً الشخصية ليست فقط تتعلق بالموضوع الذي هو الرئيس فيها، أي عمود الصورة فيها، عمود البحث فيها، عمود الموضوع فيها، نحن قلنا: إن بعض أهل العلم عد العبادة عمود سورة «البقرة»، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، وقد يأتي أحدهم يقول: إنما المراد هو شرح ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾، وسيتنوع الحديث في السورة كيف يهدي سبحانه وتعالى المتقين في هذا الكتاب، وكيف سيبين المعرضين عن هداه، وكيف سيكون حالهم.

فقضية فتح الأقواس إما أن تقول لك: هذا موضوعٌ ليس هو المراد، ولكنه فتح فلابد أن أجيب عليه، وإما أن يكون هذا هو بداية الشرح للقضية كلها، وهذا تستطيع أن تدرك الفرق بينهما عند قراءتك للسورة، تتأمل السورة وما وراءها، وأنا سألني البعض وهذا كثير في القرآن، سألني فقال: اضرب مثالاً؟ فقلت: اذهب إلى سورة «فصلت»، لأني أنا كتبت عن سورة «فصلت» ومراتب المعرضين أو مراتب المنافقين والكفار مع القرآن، فموضوع سورة «فصلت» عن مراتب الناس مع هذا القرآن، مراتب المعرضين عن القرآن في هذا القرآن، ﴿حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧)﴾ [فصلت: ١-٧]، ذكر مراتبهم، ولكنه خلال السياق يفتح أقواس لقضايا تفتح في داخل السورة.

فقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ من هؤلاء؟ فجاء وصفهم وفتح لنا شارحا بأن القرآن إنما هو الذي له الحق إن يبين هذه الكلمات وما معناها، وتفصيل هذه الكلمات وما هو واقعها، القرآن هو الذي له الحق إن يذكرها، فمن هؤلاء المتقون؟ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

انظر هنا كلمة الإيمان هذه هي أول كلمة إيمان مذكورة في القرآن، أول كلمة إيمان تذكر في القرآن هنا ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، ومن المعلوم أيها الإخوة الأحبة قالت العرب: «إذا كثرت أسماء الشيء دل على عظمته عند مسميه»، لأن الناس عندما يحبون الشيء يكثرونه ذكره ولأنهم يكثرون ذكره لا يحبون أن يأتوا باسمٍ واحد لابد أن

يعددوا له الأسماء، لأنهم لا يحبونه إلا لكثرة منافعه، لكثرة جوانب الخير فيه، فحين تكثر المنافع تكثر الأسماء فدل هذا على أنه عظيم، من هنا فالخيل كم اسم لها؟ السيف كم اسم؟ الخمر؟ مع أنها حرام، لكن الخمر لها أسماء كثيرة، يحبونها يشتهونها، ولها منافع عندهم، الله عز وجل اعترف ببعض المنافع فيها، فكثرة الأسماء تدل على عظمة المسمى.

ومن هنا فالله عز وجل له الأسماء الحُسنى، قال صلى الله عليه وسلم: (إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة)، هل هناك أسماء أخرى؟ له أسماء غير التسعة وتسعين في الحديث (اللهم إني اسألك بكل اسم هو لك سميته نفسك أو أوحيت به إلى أحد من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك)، فله أسماء استأثر بها وعلمها لبعض أنبيائه دون بعض، ولبعض الأمم دون بعض، وهناك أسماء لم يعلمها أحد استأثر بها سبحانه وتعالى.

كذلك حين يكون الاسم جامع لعدة معاني، هذا الذي يسموه الكلام الجامع، ما معنى الكلام الجامع؟ قال: أوتي جوامع الكلم، يعني الكلام الجامع، هو الكلام المفرد القليل ولكنه الدال على المعاني العظيمة، إذن من عظمة الكلمة أن تدل على معاني متعددة، وأعظم كلمة تدل على معاني لا يمكن لكلمة أخرى أن يكون فيها هذه المعاني، كما هي كلمة إيمان في الكتاب والسنة، ما هي أعظم كلمة استوعبت معاني لا تستوعبها كلمة أخرى ولا يوجد معاني في كلمة أخرى كتلك المعاني أو ما يقارب هذه المعاني؟ كلمة إيمان، ولأن هذه الكلمة عظيمة على قاعدة دائما العظماء يحصل فيهم الاختلاف.

في كلمة للعقاد عند حديثه عن عبقرية علّي رضي الله عنه، لا بأس هو ذواق مع ما فيه ما فيه مما ذكرناه في مواطن أخرى، يقول: إن الرجل العظيم هو الذي يختلف الناس فيه، فحتى أن بعضهم يؤلهه وبعضهم يكفره، هو عظيم فالناس حين يختلفون على رجل هذا الاختلاف دل على عظمة.

وأول خلافٍ حصل في هذه الأمة هو الخلاف حول كلمة الإيمان، وذلك لأن هذه الكلمة شاملة لأمورٍ عظيمة جداً، وهذه الأمور العظيمة درجات ومراتب، فهناك من يخرج منها بعض معانيها، وهناك من يرتب المعاني فيها على غير ترتيبها، هو هذا أساس فساد الناس في كلمة الإيمان ما هو أساس فساد الناس في كلمة الإيمان؟ أعيد أولاً إخراج بعض المعاني منها، هذا واحد، وهذا فعله أناس جاؤوا إلى بعض معانيها وقالوا: لا يدخل في كلمة الإيمان.

وهناك أناسٌ أتوا إلى معاني فيها فرتبوها على غير ترتيبها، فهذا هو أساس الفساد، فأول مسألةٍ وقع فيها الخلاف في أمتنا هو الخلاف حول مفهوم الإيمان، وباختصار لأن هذا مبحث خارج إطار التفسير لكن للأهمية نمر عليه سريعاً، الإيمان هناك خلاف عند أهل العلم هل الإيمان تعني التصديق، على قوله تعالى لما إخوة يوسف قالوا: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا﴾ [يوسف: ١٧]، فجعلوا الإيمان مقام الصدق، فإذن أمن بمعنى صدق.

وهناك من العلماء من يعتبر أن كلمة الإيمان ليس معناها التصديق، كما ذكر في كلمة الريب فإنها لا تدل على الشك فقط، لها معاني أخرى، وبحثوا هذه من جهة العامل فيها فتقول أمن بي وتقول صدق أو صدقه، فلا يقال: أمنه، لكن تقول: صدقه، وتقول: أمن به، تقول نعم أمن به، وتقول: صدق به، تقول: نعم صدق به، ولكن لا يمكن أن تقول: أمنه، فقالوا: فدل هذا على أن كلمة الإيمان ليس في معناها كلمة تعادل التصديق لكن من الإيمان هو التصديق، فتستخدم لأن من معانيها التصديق تستخدم مقامها، لأنه يجوز أن تستخدم الكلمة في بعض جوانبها.

فإذا كانت الكلمة دالة على عدة معاني فهل يجوز أن تستخدم في أحد هذه المعاني؟ يجوز وهذا كثير في العربية يستخدمون الكلمة على بعض معانيها، وليس على كل معانيها، ومن هنا يقولون: الكلمات تتداخل، أي قد يشتركان في معنى ويختلفان في معنى، كما رأينا في الشك والريب، الأمثلة كثيرة ولكن حتى لا نأتي إلى كل مسألة نضرب مثالاً آخر فيطول الوقت، فرأينا كيف الشك يلتقي مع الريب، يلتقيان في جانب، فهذا الجانب المشترك يجوز أن تستخدم الريب مكان الشك، والشك مكان الريب، لاشتراكهما في هذه الكلمة.

ولذلك من هنا نشأ الافتراق عند الاجتماع، والاجتماع عند الافتراق هذه القاعدة نشأت وعليها رتب كثير من مسائل الأسماء والأحكام في شريعتنا، رتب عليها الكثير من هذا، كيف؟ مثلاً: اختلفوا في الإسلام والإيمان، هل الإسلام هو الإيمان، والإيمان هو الإسلام؟ هل هما واحد؟ فهناك من قال: الإسلام هو الإيمان، ومن ذلك هذا قاله الإمام محمد بن نصر المروزي في كتابه «الإيمان»، وقاله الإمام البخاري، وهناك من نسبه لبعض أهل العلم.

وقال الآخرون: لا، الإيمان والإسلام في حديث جبريل يدلان على شيئين مختلفين، ولذلك الله عز وجل يقول: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، مع ذلك هذه الآية حملوها على معاني أخرى، يعني كيف حملوها؟ كالإمام البخاري قال عند قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، قال: يعني ليس أسلمنا أي دخلنا في الإسلام، ولكن أسلمنا منعًا للقتل، يعني استسلمنا منعًا للقتل، كدفع الجزية وغيرها هذا عندهم.

العلماء قالوا: لا، أنه يمكن أن يقوم الإسلام مقام الإيمان عندما يفترقان في الذكر، فإذا اجتمعا في الذكر دل كل واحدٍ على معنى، ففي حديث جبريل اجتمعا في اللفظ فاختلفا في المعنى، مثل ما قلنا عند الافتراق والاجتماع، ففي حديث جبريل اجتمعا فدلت كل كلمة على معنى مختلف، ولكن عند الافتراق عندما توجد كل كلمة لوحدها فالإيمان يدخل فيه الإسلام وإلا لا يصح، والإسلام يدخل فيه الإيمان لأنه لا يصح إسلام الرجل حتى يؤمن، لكن إذا قيل الإسلام والإيمان فدل على معنى مختلف، ومن قوله تعالى رأينا في هذه الآية قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا

غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦)﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦]، فأقام كلمة الإسلام مقام كلمة الإيمان، مع أن هذا كذلك فيه معنى بلاغي آخر.

والآن لما نأتي إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥]، فهنا الإيمان هل هو غير العمل الصالح؟ الجواب نعم، لاجتماعهما، فدل الإيمان ما يتعلق بمسائل الاعتقاد بمسائل الخبر، والإسلام ما تعلق بمسائل العمل، هذا وجه آخر أن هذا من باب ذكر الخاص بعد العام لأهميته؛ لأنه عادةً إذا ذكر العام هكذا فقد يذكر أشياء ولا يذكر المراد الذي بعده، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج: ١٨]، لماذا ذكرها؟ مع أنها من الأرض الجبال، لماذا؟ لأنه قد يقال: الأرض ويسكت ولا يعرف الجبال وأمر الجبال أمره عظيم فدل على ذكره المهم، وهذا كثير.

فالقصد: بأن كلمة الإيمان هذه عندما تطلق فإنما يراد منها كل ما جاء به من عند الله عز وجل، كل ما جاء به هو الإيمان، ولذلك قال: الإيمان قولٌ وعمل، قول ماذا؟ قول اللسان وقول القلب، ما هو قول القلب؟ الاعتقاد وعمل الجوارح وعمل القلب، عمل الجوارح الصلاة الصوم الزكاة قول القلب لا إله إلا الله الأذكار ... إلخ، عمل الجوارح: الصلاة، الجهاد، الصدقة، وعمل القلب: الحب، البغض، الولاء، البراء هذا كله من أعمال القلوب.

فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، هنا نأتي إلى مسألة مهمة، الكلمة إذا أطلقت دلت على جميع معانيها، وإذا قيدت دلت على أن المراد ما قيدت به، هناك فرق بين الأطلاق والتقييد، وهذا يرد بهذا ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، فلو قال: الذين آمنوا لعلمنا أن المقصود به الإسلام جميعًا، ولكن لما قال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ فقيد فلم يأت إلا المعنى الذي يتعلق بعمل القلب وقول اللسان، عمل القلب وقول القلب وقول اللسان، فقال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

نعود لهذه النقطة لنشرحها؟ ما معنى الكلام؟ هو اللفظ المفيد، إذن هو ماذا أول الكلام ما هو؟ لفظ، فما يجري في النفس من حديث لا يقال له: كلام؛ لأن الكلام شرطه أن يكون ملفوظاً، فكيف يقول عمر رضي عنه: «زورت في نفسي كلاما»، إذًا انظر إليه قيدها، في قوله: «زورت في نفسي»، فإذا أطلق الكلام لا يكون إلا بما يلفظ المرء به، وإذا قيد فحينئذٍ يحمل على المعنى الذي قيده عليه، وهذا يرد على من قال: بأن الكلام –في كلام الله ع وجل– هو المعنى النفسي القديم، واحتجوا بكلمة عمر رضي الله تعالى عنه، عندما قالوا: عمر رضي الله تعالى عنه يقول عن الحديث النفسي وعن المعنى النفسي يقول: كلام، والدليل أنه يقول: «زورت في نفسي كلاما»، ولذلك هذه كلمة لا يجوز أن يحتج بها وإن كان معناها في بعض معانيه وجوانبه الصحيح، قال:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الكلام دليلا

هو لا يقصد هنا الكلام بمعناه الاصطلاحي التام المطلق، وإنما هو يريد أن يقول بأن مصدر الكلام هو ما تشهره النفوس من حديث وبعد ذلك يخرجه المرء ليدل على كلمة الكلام تامة.

ومن هنا قال: معنى الكلام: لفظٌ مفيد، كيف تنشأ الإفادة؟ من معنى النفس الذي تُنشئه، معاني نفسية تنشئها، بماذا تنشئها؟ باللفظ، فلما قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، إذن قيد والمقصود به الذين يصدقون أخبار الغيب، كلمة الغيب تقابل عالم الشهادة، الغيب من غاب، غاب عنه، والشهادة هي الحضور، فعالم الغيب هو ما لا نراه، وطريق معرفته فقط شيءٌ واحد هو الخبر، والغيب كثير، أعظم الغيب هو الله عز وجل، الله عز وجل من عالم الغيب، وإنما تعرفوه بماذا؟ بخبره وتعرفه بآثاره الدالة عليه، «وفي كل شيءٍ له آية تدل على أنه الواحد».

فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ هذا مدحٌ لهم ودل هذا ابتداءً على إنسانيتهم، ليسوا دواباً، ما الفرق بين الدابة والإنسان؟ الدابة هي التي لا تصدق إلا ما تراه، والإنسان هذا احترامٌ لعقلك، لإنسانيتك عندما يقول سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ هذا رفعة لك بأنك لست دابة وليس فقط أنت تؤمن بما يحيط بك كافرًا بما هو حقيقة وموجود، وهو أعظم ما فيه هو والله عز وجل.

ومن أخبار الغيب كثيرة، هذه آية ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يدخل فيها ما جاء في القرآن بعد ذلك من ذكر ربنا أنه الغيب، من الغيب يوم الدين، القيامة، من الغيب عذاب القبر، من الغيب الجن والجنة والنار والملائكة وما أخبرت به الرسل، أخبرت الرسل بأشياء كثيرة من عالم الغيب، وهذا هو أول وصفٍ للمتقين أنهم يؤمنون بالغيب، والحقيقة الإيمان بالغيب يا إخوة هو حفاظ على إنسانيتك، تكلمنا عن قضية نفي عبثية الوجود بإثبات يوم الدين، قلنا: أن نفي عبثية هذا الوجود إنما بإثبات يوم الدين، وإثبات إنسانية بقولك: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، فإذا أمن المرء بالغيب خرج من طور بقية الخلق الذي خلقه الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)﴾ [الإسراء: ٧٠]، هذه لما ذكرنا يرجع إليها ابن حزم جعلها دليلاً والمعتزلة جعلوها دليلاً على أن الملائكة خير لماذا؟ لقوله تعالى: ﴿عَلَى كَثِيرٍ﴾، إذن بقي فمن هو المقصود ببقي؟ قالوا: الملائكة، وهذه الآية جعلها أهل السنة دليلاً على أن الإنسان خير من الملائكة، ويرجع إلى مظانه وليس هذا مكانه.

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، هو أولاً إثباتٌ لإنسانيتك، وثانياً إثباتٌ لما تعلق به ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فلو قال قائل: كيف يتعلق الريب ونفي الريب كيف يتعلق بالإيمان بالغيب؟ والإيمان بالغيب هو أقل درجة من درجة الإيمان بعالم الشهادة، عالم الشهادة يراه ويشهده وعالم الغيب يغيب عنه، فكيف هذا الذي يؤمن بالغيب يصل إلى درجة نفي الريب وأنه هدى له؟ ذلك لقوة تصديقه ويقينه على خبر السماء.

ومن هنا فلماذا سمي الصديق صديقاً؟ وذلك لأن الإيمان بالغيب امتحن نفسه، قال له، يأتي وذهب وأسرى وذهب في ليلة واحدة إلى بيت المقدس، وصعد إلى السماء ورأى كذا وعاد في نفس الليلة، ماذا جعل معيارية الحق؟

فقال: «إن قالها فقد صدق»، فسمي من ذلك اليوم رضي الله عنه صديقا، صديق، فهو ليس فقط يصدق ولكنه صديق أي درجة بمبالغة لكل ما يأتي إليه، ولدرجة إيمانه ولأمر وقر في قلبه من التصديق، فدل هذا على أن الإيمان بالغيب عند المؤمن يعيشه أكثر مما يعيش واقعه.

فمثلاً: الرجل عندما يقف في المتجر ويأتيه رجل يريد أن يشتري منه فيسمع أذان الجمعة، يصبح حينئذٍ البيع حرام، الصراع هنا بين عالم الغيب وعالم الشهادة، عالم الشهادة قرش يأتي مربح، يأتيه ربح، وعالم الغيب يأتيه أجر، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا﴾ [الجمعة: ٩]، هذا أجر، وعالم الشهادة ما هو؟ مال نقد بين يديه، ما الذي يغلب في نفس هذا المؤمن؟ عالم الغيب.

ومن هنا فإن عيش المؤمن بعالم الغيب أشد من عيشه في عالم الشهادة، بل إن عالم الشهادة بالنسبة إليه محكومٌ بعالم الغيب، عالم الشهادة بما هو محكوم؟ بما يعطي هو؟ لحكم عالم الشهادة، بما يمنع بما يبذل نفسه وروحه؟ بما يقوم من الليل؟ لحكم عالم الغيب عليه، عالم الغيب لما نتكلم عن الجنة والنار والأجر والصراط والميزان إلى غير ذلك، فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، فعالم الغيب ارتفع عن عالم الشهادة بالنسبة إليهم.

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣]، وأظن يكفي إلى الآن إن شاء الله نكمل الحديث عن قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ في درسٍ قادم، جزاكم الله خيرًا.

الأسئلة

السائل: ما الفرق بين الكفر بآيات الله عز وجل والتكذيب بآيات الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾ [البقرة: ٣٩]؟

الشيخ: الكفر أوسع من التكذيب، لكن هنا نحن على قاعدة: إذا اجتمع افترق، فهنا افترق، فلما جاء الكفر والتكذيب دل على كل واحد، الكفر هو طمسٌ للحق تغييب له، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ طمسوها، وهذا يدخل فيه من سترها، وهذا المعنى المراد، كفروا بآياتنا ماذا يعني؟ ستروها، والذين كذبوا هم الذين جحدوها، أي واحد كما أمر بالتبليغ لهذه الكلمة، أمر بإعلانها فسترها ماذا يقال هذا؟ كفر عند اجتماعها مع كلمة كذب، وكذب بمعنى نفاها.

ولذلك قال سبحانه وتعالى في سورة الأنعام قال ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، الكفر هو إبعادٌ للآخر عنه، والتكذيب هو إبعادٌ للتصديق الذاتي عنه، هذا هو الفرق بينهما.

السائل: قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)﴾ [البقرة: ٢٥٤]، **هل يعني أن في القرآن كلما ذكر الظالمون أنه يقصد بهم الكفار؟**

الشيخ: إذا ذكرت كلمة الظالم هكذا فيقصد بها الكفار، لأنه كما يقول العلماء: أحكام القرآن غائية، لكن في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢)﴾ [فاطر: ٣٢]، العلماء على قولين: أن الظالم هو الكافر، وقولٌ آخر وهو قول أُمنا عائشة رضي الله عنها وهو الصواب وهو الذي رجحه ابن القيم، ورجحه أهل العلم كابن كثير وغيره وأفاض فيه ابن القيم في «طريق الهجرتين» على أن هنا الجميع هم أهل الإسلام، والدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، فهؤلاء كلهم اصطفوا وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: «وأنا من الظالم لنفسه».

فالقصد: أن قوله تعالى: ﴿ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ ليس هو الظالم، فإذا أطلقت كلمة الظالم في القرآن دلت على الكفر الأكبر.

السائل: ما الفرق بين المنافقين والذين في قلوبهم مرض في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩)﴾ [الأنفال: ٤٩]؟

الشيخ: كل المنافقين في القرآن هم النفاق الذين لم تؤمن قلوبهم، قالوا بألسنتهم لا إله إلا الله وقلوبهم لم تؤمن، ففي القرآن لا يوجد الكفر إلا النفاق الأكبر، وفي السنة نفاق أكبر ونفاق أصغر، كقوله صلى الله عليه وسلم: (آية المنافقين ثلاث)، وهكذا حدث فهذا نفاقٌ أصغر، في القرآن لا يوجد نفاقٌ أصغر، في القرآن لا يوجد إلا النفاق الأكبر، فهذا هو.

والمريض من هو؟ المريض ليس منافق، هو مسلم ولكن هذا المسلم في قلبه مرض، والمرض قد يغلب حتى يشل الآلة فيصبح كافر منافق وقد يضعف حتى لا يقوى على الحمل لكن هي حية، هو مسلم، لكن لا يقوى على حمل المطلوب وإما أن يشتد بعد ذلك ويقوى ويتوب فيصبح مؤمناً حقا، واضح الفرق، يعني المنافق في القرآن هو كافر، ولكنه يُظهر الإسلام بالتعامل معه بالتعامل بالظاهر، لكن الذي في قلبه مرض مسلم؟ مسلم ولكن في قلبه مرض، هذا المرض منعه من حمل الحق الذي وجه إليه.

السائل: شرح التأسيس والتأكيد؟

الشيخ: ذكرنا مثال عند قوله: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١)﴾ [الفاتحة: ١] ذكرنا أمثلة كثيرة عند قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١)﴾ [الفاتحة: ١] وقلنا الرحمن غير الرحيم، لأن هذا من التأسيس، وعند قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)﴾ [الكافرون: ١-٢]، هذا من باب كذلك التأسيس أولى من التأكيد.

السائل: هل قال البخاري رحمه الله بكفر الخوارج وإن ثبت قوله فكيف يستقيم الأمر؟

نعم لأن البخاري يروي عن الخوارج كعمران بن حطان، الصحيح هو أنه وضعه تحت باب، والإمام البخاري مُشكلٌ في تراجم كتبه، والعلماء بذلوا جهودًا كبيرة في بيان ترجمة كتبه، عناوين الترجمة أي العناوين في الأبواب، هناك مشكلة كبرى في قضية المعاني التي تستمد من فقه البخاري من عناوين الكتب، والبخاري رحمه الله يعرف عنه التلغيز بخلاف تلميذه الإمام مسلم، مسلم سهل يعني إذا أردت شيئاً من مسلم تجده سهلاً، انظر إلى مقدمة كتابه مقدمة الصحيح، سهلة بينة، يبين مراده بوضوح ويسر، البخاري مُشكل وكأنه يتعامل مع أعلى طبقات العلماء، حتى في كتابه «التاريخي الكبير» الذي قال عنه بعض العلم كابن حجر: أنه قل الاستفادة منه بسبب طريقته، ويحتاج إلى استقراء ليُعرف مراد البخاري في كلماته وفي تصنيفه، ومن ذلك التراجم،

مثلاً: في باب سنة الجمعة القبلية ثم لا يذكر حديثًا، فهل يدل هذا على أنه يثبتها أو ينفيها؟ هذه مسألة وبحثها ابن القيم في «زاد المعاد»، على أنه عندما يقول: باب سنة الجمعة القبلية لا يعني أنه يثبتها لا يوجد حديث على أنها غير موجودة هكذا يعني المراد، فجاء البخاري إلى حديث الخوارج، ووضعها تحت باب قتال الملحدين وو ... إلخ، فبعضهم فهم أن الإمام البخاري يكفر الخوارج.

أنا في الحقيقة في شك من هذا، في شك بأن البخاري يكفر الخوارج، والدليل أنه يروي عن خارجي وهو عمران بن حطان يذكره، في شك من هذا والصواب أن الخوارج ليسوا كفاراً على كل حال، بل يقول أهل الحديث: «أصح حديثٍ هو حديث الخوارج»، لأنهم يكفرون الكاذب، فكيف الخارجي يكذب؟! ولأن أحاديثهم قليلة منتقى.

والقصد: أني في شكٍ من تكفيره، والباب لا يدل على المراد، بل لابد من النظر فيه على معنى آخر، والله تعالى أعلم.

السائل: هل قول القائل إنه يُفّرق بين الكفر المجمع عليه وغيره يستقيم بين قوسين ابن حجر في كتاب «نزهة النظر»؟

الشيخ: العلماء لا تؤخذ منهم الأحكام الكاملة لهذه الكلمات ولكن توضع هذه الكلمات التي تقال من قبل الأئمة على تفسيرها لواقعهم، يعني ما المراد؟ لما جاء ابن حجر إلى شروط الراوي، وأن الراوي لا يكون كافراً لكن في بعض المسائل عند علماء الحديث هم علماء السنة، هم علماء الدين، فهناك من العلماء من يكفر أقوالاً ويكفر رجالاً، والعلماء الآخرون لا يكفروهم، انتبهوا لهذه المسألة التي نراها لا تصلح لقاعدة يأتي إليها واحد فيطبقها على الدين كله، الآن نبين كيف هذه المزالق، ولا بأس من هذه الأسئلة الجيدة.

فمثلاً: يأتي بعض أهل العلم يكفر في مسألة من المسائل، يرى أن فاعلها كافر، هو يُسأل عن فلان فيقول: كافر، والعلماء لا يكفرونه لا يرونه كافرًا، فهذا يرد حديثه أو لا يرد؟ فحينئذٍ يقال: بأننا لا نرد إلا حديث من اتفق على تكفيره، ما المقصود اتفق على تكفيره؟ يعني من قبل العلماء، لئلا يتخذ مجرد تكفير عالمٌ لواحد ردٌ لحديثه كما هو الحكم على أنه كذاب، هذا بيّن، لكن هذا ليس معناه إذا أختلف الناس في تكفير واحد، اختلاف السني مع البدعي، واختلاف الدليل مع غير الدليل أنه لا يُكفر حتى يجمع عليه، كيف؟

أمثلة على هذا: لو جئنا للمختار بن عبيد الثقفي لوجدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه لا يكفره، بل زوجه ابنته، ولا يكفره وكان يقول: ما يروى عن المختار كذب وافتراء، ولا يُصدق ما يقال عنه، لاختلاط الناس في زمانه، ابن عمر رضي الله عنه رأى العجائب في اختلاط الناس والكلام فكان لا يكفره، فهل الآن لو جاء حديث عن المختار على قاعدته هذه، لو جاء حديث عن المختار لوجود الخلاف فيه نرده، نرد قصدي تكفيره لوجود الخلاف ونأخذ حديثه، أم أن المختار كافر؟

الصواب المختار كافر، وهو غير مجمع عليه، ومن خالف؟ خالف إمام عظيم كابن عمر رضي الله تعالى عنهما، الفرق بأن هناك نزاع بين أهل العلم في تكفير مسائل، ونزاع بين أهل العلم في تكفير أفراد، فالصواب لا يلتفت لهذا التكفير، إلا إذا كان هذا الذي لم يُكفر أو الذي كفر دليله هو الأقوى.

حتى أن الشوكاني في «السيل الجرار» عندما رد على شيخه في «السيل الجرار» في تكفير المتأولين، هو نفس القضية يعني هؤلاء الزيديين يكفرون المتأولين المخالفين، ويقول: هذا غير مجمع عليه وهذا تكفير خطأ، وكذلك يقال لمن كفر من العلماء، واحد من العلماء كفر آخر على طريقته، فرد حديثه نزعه رماه، لماذا رميت حديثه؟ يقول: هذا كفر، لماذا كفر؟ قال: القرآن مخلوق، فيرد عليه بأن هذا كفر غير مجمع عليه وهذا رجل غير مجمع على تركه، فحديثه مقبول، وليس طريقة لئلا يُكفر إلا الإجماع عليه، وخاصةً عند ظهور أهل البدع يعني يوجد من أهل البدع لا يكفرون الملحدين، يوجد في زماننا من لا يكفر اليهود والنصارى، فلا يقال هؤلاء غير مجمع على تكفيرهم فلا يُكفروا، هذا طريق غير صحيح.

السائل: ما الصحيح في حف الشارب؟

الشيخ: يعني الحديث في ذلك كله يقوم على الإحفاء، والإحفاء ليس الحلق، والإحفاء مأخوذ من حافة، يعني أن يكون على حافة الشفة، وأما الحلق بالكلية فالحقيقة لا يُعرف، وإن كان بعض أهل العلم قد قال به، والأحناف يقولون به، الأحناف يقولون: بأن الشارب يجوز حلقه كحلق العانة وغير ذلك، والصواب أن الشارب على الصحيح إنما يحف، والحف حتى لو أخذ منه أخذًا شديداً، كما كان يفعل ابن عمر رضي الله عنهما، ابن عمر رضي الله عنهما كان يأخذ من شاربه أخذاً شديداً لكن لا يصل لدرجة الحلق، أن يحلقه كما يحلق عانته بالموس، والصواب في ذلك هو أن يحفه ما شاء لكن من غير حلق.

السائل: سؤال هل قول الرجل لزوجته إن دخلتي بيت أختي فأنت طالق من الطلاق المعلق؟ وهل يقع وهل تعتبر النية في مثل هذا؟

الشيخ: يعني يوجد خلاف شديد أنتم تعرفون مسائل الطلاق فيها خلاف شديد والصواب في هذه المسألة عندي والله تعالى أعلم أن هذا يعود إلى نيته، توسيعاً للناس بأن لا يقع منه الطلاق وخاصةً عندما تجرؤا وقل الدين وصار الجهل، وصار الناس يستخدمون الطلاق كاليمين، يعني الناس الآن أغلب الألفاظ الطلاق يستخدمونها كاليمين، ومن أرادها فيريدها على حقيقتها فهم قلة، بمعنى أن يقول: أنت طالق، علّي الطلاق، أنت طالق أن فعلت أو كذا ويراد بها التهديد.

فالصواب أن النية معتبرة في هذا الباب مع أن كما تعلمون ابن القيم في «إعلام الموقعين»، لما جاء لهذه المسألة الطلاق المعلق بشرط، نثر كنانته في بيان أدلة الفريقين بينه وبين شيخ الإسلام بين شيخه وبين السبكي، والسبكي ألف في ذلك كتاباً كبيراً ثم بعد ذلك، قال: انتهى إلى قوله وهذه المسألة يعني في النهاية الخصمان يجتمعان عند الله

فيقضي بينهما، فمسألة كبيرة، ولكن الأقرب إن شاء الله تعالى، وإلا المسألة عميقة ليست بسهولة أنه يُنظر إلى النية، فإذا نوى الطلاق وقع وإذا نوى التهديد لم يقع وإنما هو على معنى اليمين والله تعالى أعلم.

السائل: إذا قال الزوج لزوجته أنت علّي حرام هل تفهم على المعنى اللغوي، أم يرجع إلى عرف المتكلم وأظن إن قال هذه الكلمة أراد الطلاق؟ وهل تجب عليه الكفارة؟

الشيخ: لا في الحقيقة الناس في زماننا لا أعلم أنهم يقولون علّي حرام أنها طلاق، الله عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]، هذا يمين وانتهى الموضوع، فقط لأن الطلاق شرطه لفظه، فإذا قال: أنت علّي حرام فالناس يقصدون بها الابتعاد والمنع، ويقصدون به المنع والطرد وغير ذلك، والصواب أنه يمين وهذا قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

السائل: يقول هل يقع الطلاق في حالة الغضب؟ وما هو ضوابط الإغلاق؟

الشيخ: الطلاق ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: هو الطلاق الذي يقع من الناس على الاعتياد، فلا أحد يطلق وهو فرحان ويشرب شاي وقهوة، فهذا الطلاق العادي يقع، هذا الطلاق بالغضب العادي يقع، واحد غضب من زوجته وهو غضبان يعني الغضب العادي فهذا يقع.

المرتبة الثانية: التي فيها الخلاف الشديد **والمرتبة الثالثة** تقريباً خلاف أيسر وهو الطلاق في إغلاق هو أنه يصل لدرجة لا يدري ما يقول، فهذه تقريباً شبه باتفاق على أنه لا يقع، هذا الرجل غضب حتى بعد أن انتهى قيل له طلقت قال: والله ما أدري ما قلت، فهذا لا يقع، لكن لو أن رجلاً طلق في حالة غضبٍ شديد وهو يعلم ما يقول ليس كالحالة الأولى التي ذكرناها الغضب العادي ولكنه حين قالها فذهب عنه الغضب ندم وعلم أنه قالها من جهة الغضب، هذه مسألة فيها خلاف، هذا الغضب فيه خلاف، والصواب أنه لا يقع الصواب أنه يُحمل على المعنى الأول، أنه طلاق في إغلاق فلا يقع، والله تعالى أعلم.

السائل: في قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)﴾ [ص: ٢٩]، هل التدبر هنا للوجوب؟ وإن كان كذلك فما هو مقدار تدبر القرآن بالنسبة للعامي كيف يسقط عنه واجب التدبر؟

الشيخ: التدبر ليس واجباً، لأنه لو قيل واجب، لوجب على كل الناس لوجب على العامي الذي لا يعرف ووجب على العجمي الذي لا يعرف العربية وإلخ، لكن هناك كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: القرآن على أربعة أضرب، الضرب الأول يعلمه كل الناس، فلو قيل لأي مسلم: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، يقول لك: واضح معناها، لو قيل: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، يقول لك: نعم يعني الإيمان بالله وملائكته كتبه يعلم معناها، فهناك مرتبة

يعلمها كل أحد، وهناك مرتبة لا يعرفها إلا العلماء، والمقصود به علماء السنة، يعني كيف يقيمون الأحكام كقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، فيعلم العامي بأن هذا حكم شرعي في الميراث، لكن التفصيلات فيه يعرفها العلماء هذا القسم الثاني.

القسم الثالث يعلمه أهل اللغة مثلاً: ﴿أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ [الأنعام: ٧٠]، ما معنى ﴿أُبْسِلُوا﴾، لازم يعرف العربية يعني جوزا، كقوله تعالى: ﴿وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣)﴾ [الواقعة: ٧٣]، المقوين ما معناها؟ وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١)﴾ [النجم: ٦١]، هذه غريبة علينا، فيعرفها علماء اللغة، ﴿سَامِدُونَ﴾ يعني لاهون، المقويين يعني المسافرين، وقوله تعالى: ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ﴾ [البقرة: ٦٨]، ما الفارض؟ فهذه يعرفها أهل اللغة هذه المرتبة الثالثة.

المرتبة الأولى: يعرفها كل أحد.

المرتبة الثانية: يعرفها العلماء.

المرتبة الثالثة: يعرفها أهل اللغة.

المرتبة الرابعة: لا يعلمها إلا الله عز وجل، وهو تأويل الأخبار أي حقائقها وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ﴾ [طه: ١٥]، كيف الساعة؟ متى الساعة؟ لا يعلمها إلا الله، فالتدبر بحسب الناس، العامية المرتبة الأولى من تدبره، العالم بالمرتبة الثانية بتدبره، اللغوي بالمرتبة الثالثة من تدبره، والرابع ما لنا إلا السكوت، والنظر إليها من أجل إظهار عجزنا.

لكن مثلاً: كلمة الساعة يعلمها العامي يعلم أن هناك يوم ينتهي به هذا الوجود، خاتمة هذا الوجود، هذه يعلمها، لكن متى هي؟ لا يعلمها إلا الله عز وجل، تأويلها لا يعلمها إلا الله عز وجل، العالم اللغوي يعرف كلمة الساعة، العالم الشرعي يعرف الحديث، ما هي وكيف تتم الساعة كيف تقع؟ كيف الصرخة والصاعقة الأولى والصاعقة الثانية، والخلاف في صعقة ثالثة أم لا، فتقع هذه المعاني، فالتدبر كله يشمل كل واحدٍ بمرتبته فيما ذكرنا والله تعالى أعلم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خير والحمد لله رب العالمين.

الدرس السابع عشر

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين حبيبنا وإمامنا وسيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

هذا الدرس السابع عشر من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» وذلك عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾ [البقرة: ٣].

كما تقدم كان الاستهلال عظيمًا في الحديث عن القرآن، وذلك لأن كل خير وكل صفةٍ ممدوحة إنما تؤخذ من العمل بالقرآن، وكذلك فإن كل صفةٍ مذمومة إنما هي من معارضة القرآن، فلذلك هذا المطلع الذي افتتح به القرآن فيما يتعلق بما هو مُفصل، تقدم أن في سورة «الفاتحة» تعلق الكلام بذات ربنا قبل كل شيء، وهنا السورة هذه افتتحت بتعلقها بالمرسل، وهو الكتاب هو القرآن، وهذا الاستهلال بهذا التعظيم الذي تقدم يدل على عظمة هذا الكتاب.

ثم بعد أن بين ما في هذا الكتاب من خصالٍ في ذاته ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، بين خصاله في غيره، فقال: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة: ٢]، ثم جاء إلى ذكر المتقين من غير ذكر الخلاف في هذه الموصول ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٣]، أين تعلق هذه الصلة؟ من غير دخولٍ في هذا الخلاف، والصواب أن نقول: بأن الذين يؤمنون هي وصفٌ للمتقين، هي تفصيلٌ لحال المتقين، من هم؟ وهذه التقوى هي أول صفةٍ كما تقدم قد ذكرت على صفة المدح لأهل الإيمان، التقوى، والله عز وجل مدحها، وقال: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، فهي خير زاد.

وهنا هذه الطريقة القرآنية أيها الإخوة الأحبة في رفع الخبر مما هو جارٍ على مجرى شيءٍ دنيوي إلى ذكر ما هو أفضل منه، هذا موجود في القرآن، ومن ذلك قوله هنا: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ والمقصود بهذا الحديث عن الحجيج؛ لأن أهل اليمن جاءوا وليس معهم شيء في حجهم فسئلوا، فقال: نحن متوكلون، فأمرهم الله عز وجل بالتزود، أن يأخذوا زادهم من الطعام والشراب والكفاية، فقال: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾، ثم جعل النظر يتوجه إلى ما هو أعظم من الزاد من الطعام والشراب والكسوة وغير ذلك، فقال: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ وهذا موجودٌ في كتاب الله عز وجل.

ومن ذلك كما في سورة «النحل»، ففي أول السورة بعد أن ذكر النعم التفصيلية من ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل: ٨]، قال بعدها: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ [النحل: ٩]، انتقل من الحديث عن النعم المادية إلى أعظم نعمة وهي نعمة القرآن ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾، يعني

هناك سبيل واحد وهو أن هذا تفسير هذه الآية هو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾، أي سبلٌ أخرى جائرة، ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩)﴾ [النحل: ٩].

فانظر كيف جُعلت هذه الآية بين آياتٍ فيها الحديث عن النعم التفصيلية، حتى لا يظن أحد ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ هي حديثٌ عن النعم المادية، لا، هذه هي كقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، تزودوا يعني الطعام والشراب ثم رفع أنظارهم إلى ما هو أعظم من الطعام والشراب فقال: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾، أي تزودوا كذلك التقوى.

وهنا كذلك في سورة «النحل» قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، دلالة على أن ما ينبغي أن تلتفتوا إليه من النعم أعظم من هذه النعم الدنيوية التي ذكرتها لكم في قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل: ٥-٨]، ثم قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩)﴾ [النحل: ٩]، ثم بعد ذلك جاء ذكر الماء ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠)﴾ [النحل: ١٠]، هذه طريقة قرآنية ننتبه لها لأنها مهمة، وهذا كثير، نمر عليه إذا قدر الله عز وجل.

القصد: أنه سبحانه وتعالى أول ما مدح في هذا القرآن مدح المتقين، والمتقين من الوقاية، وقلنا في درس فائت هي في أولها صفةٌ سلبية، أو سلوبيه، فيها السلوب علامة التقوى فيها الترك، ويمكن أن ينعكس الترك إلى ترك المعصية، أي ترك معصية ما أمر الله عز وجل، يعني هي جامعة للأمرين، هي ترك للمحظورات، الاتقاء هي وقاية، هي تركٌ لما حرم الله وكذلك ترك لمعصيته ما أوجب الله، يعني المرء يتقي ربه بترك المحرمات، ترك الزنا، ترك الكذب، ترك الخيانة، ترك السرقة، فهذا يتقيها.

وكذلك من التقوى أن يترك غضب الله بعدم إتيانه ما أمر الله تركه، هذا لو أنه ترك الصلاة فهل اتقى غضب الله؟ لم يتق غضب الله، فذلك التقوى وأن كان في أصلها أنها صفة سلوبية تعني الترك، فكذلك هي تحمل على ترك غضب الله عز وجل، أن يعرض المرء عن غضب الله عز وجل، ويعرض المرء عن معصية الله عز وجل فهي شاملة الأمرين، ولذلك التقوى هي فعل الطاعات وترك المحرمات.

واختلف أهل العلم سابقاً، هل فعل الصغائر تقدح في التقوى؟ مع اتفاقهم وإجماعهم على وجوب التوبة من الكبائر والصغائر، أي اتفقوا وأجمعوا على أنه على المرء المتقي أن يتوب من الكبائر وأن يتوب من الصغائر، ليس

فقط من الكبائر لكن لو أن رجلاً اقترف الصغائر فهل باقترافه الصغائر يخرج من التقوى وهذا يدلنا على مسألةٍ مهمة على أن التقوى ليست درجة واحدة، هو عنده تقوى ولكنه ترك ولأن الحديث لا يبلغ المرء درجة المتقين حتى يترك ما به بأس مما فيه بأس، يترك ما لا بأس به خوف أن يقع مما فيه بأس، ولذلك الصغائر هي وسيلةٌ للكبائر، والكبائر وسيلةٌ للكفر، ولذلك إذا أراد المرء والتقوى فليترك الصغائر، ومن الصغائر النظر إلى غير ذلك، هناك صغائر كثيرة معروفة والكبائر معروفة هذا بابٌ آخر من أبواب العلم.

فقوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة: ٢]، يعني كيف يهدي المتقين هو؟ إما بأن يزيدهم تقوى وإما بأن يدلهم على ما يوصلهم إلى مرادهم، هم يريدون أن يتقوا غضب الله عز وجل، يريدون أن يتقوا النار، فهذا القرآن يوصلهم إلى هذه التقوى، إلى هذه الغاية، وهو عدم اقتراف ما يوصلهم إلى النار إلى غضب الله عز وجل فيهديهم، وهذا دليل على أن المرء مبنيٌ في قضية ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، مبنيٌ على الخوف، أساس انطلاق الإنسان أن يبنى على الخوف، وهذه ليست مذمة أن يبنى على الخوف، بل بنيان الإنسان على الخوف هو الأساس الذي يرتقي منه إن طلب بعد ذلك المحبوبات، يعني الخوف من النار قبل أن يطلب النار.

وأنتم تعرفون قاعدة: «التخلية ثم التحلية»، هل يمكن للمرء أن يدخل الجنة دون أن يخرج من النار، فإذن ما هو المطلوب أولاً قبل أن يدخل الجنة؟ وقبل أن يدخل في محبة الله عز وجل؟ عليه أن يخرج من غضب الله عز وجل، فالإنسان ابتداءً في أفعاله هو مبنيٌ على الخوف مما يؤذيه، والمرء قد يترك ما يحب؛ رجاء أن يبتعد عما يعذبه، والدليل أن الناس يتركون مثلاً: من الأمثلة الشائعة هذه الأيام أن يتركوا كثرة الطعام مخافة أن يؤذيهم فيصابوا بالأمراض، فيتركوا المحبوبات مخافة الوقوع فيما يؤذيهم، فالأساس هو الخوف أساس حركة الإنسان وأساس انطلاقته هو الخوف، وبعد ذلك تنشأ من الابتعاد عما يخوفه المعاني الأخرى، هذا الأساس.

لكن قد يقول قائل: ألم تقولوا يوماً بأن الحب هو أساس حركة الإنسان؟ الجواب: نعم، لكن هذه درجة الحب لا يبلغها إلا بعد أن ينطلق ابتداءً من قاعدة الخوف، بعد أن يخرج من دائرة الخوف ويرتقي ويتحصل هذه الدائرة وهذه الدرجة بعد ذلك يرتقي في الطاعات، أولاً يترك ما يغضب، وبعد ذلك يرتقي في الطاعات بحسب مرتبته.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، تكلمنا وقلنا بأن الغيب يقابل الشهادة، وهناك الغيب عند أهل العلم لهم كلام طويل عليه ونختصر اختصارًا، فهناك غيب مطلق لا يعلمه أحد إلا الله عز وجل، كعلمه بنفسه جل في علاه، حتى الملائكة تؤمن بربنا بالغيب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧]، هذه الآية تفيد أن الملائكة لا يرون ربهم، بل يؤمنون به وهذه أول من قال بها الزمخشري، والفخر الرازي قال في تفسيره: لو لم يكن في «الكشاف» إلا هذه الفائدة لكفت، لأنك لو رجعت إلى

كتب التفسير الأخرى، لماذا يذكر الإيمان للملائكة الذين يحملون عرشه، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، أغلبهم يذكر الإيمان من قبيل الشرف، هذا أغلبهم يقول هذه الكلمة.

قال: لماذا هم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، ولماذا ذكر ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧]، فلماذا ذكر الإيمان؟ أغلب من تكلم فيها قال: إنما ذكر الإيمان هنا على سبيل التشريف للملائكة والتشريف مرتبة الإيمان، أي ليذكر شرف ما عليه أنهم يؤمنون بالله، يذكرون هكذا، ولكن الزمخشري لم يقبل هذا، وقال: بأن ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، يعني هذا دليل أنهم لا يرون ربهم، لأن الإيمان لا يكون عما يبصر، بل لا يكون إلا بالغيب، يقول الفخر: لو لم يكن في «الكشاف» إلا هذه الفائدة لكفت.

إذن الغيب إما أن يكون مطلقًا كالإيمان بربنا –لا نريد أن ندخل في كلام كثير للمفسرين في هذا الباب– كذلك من الإيمان المطلق الذي لا يعلمه إلا الله؟ الإيمان بالساعة، الساعة متى هي؟ متى الساعة؟ هذا من الإيمان الذي استأثر الله عز وجل من الغيب الذي استأثر به ربنا سبحانه ولم يطلع عليه أحد، هذا من الإيمان المطلق، وهناك الغيب النسبي يعرفه خلقٌ ولا يعرفه آخرون.

ماذا قال الله عز وجل عن الجن؟ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] فإذن الجن يرى بعضهم بعضاً، الملائكة ترى بعضها بعضا، ولذلك الملائكة بالنسبة لبعضهم ليس من عالم الغيب لكن الملائكة بالنسبة إلينا من عالم الغيب، وهناك من الغيب النسبي ما يكون بسبب الحضور، يعني أنت الآن هنا هذه الجلسة بالنسبة إليك من عالم الشهادة، لأنك تحضرها، ويقابلها أن هناك من غاب عنها فهي بالنسبة إليه غيب.

فما هي طرق معرفة الغيب؟ طريقان، الطريق الأول: الخبر، والطريق الثاني: الدلائل، الآن كيف تعرف ربك؟ بدلائله وآثاره على الوجود:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

فانظر إلى آثار رحمة الله، فأنت تعرف الغيب «البعرة تدل على البعير» أنت عرفتها من خلال أثرها، وكذلك من خلال الخبر، فالملائكة جاءوا وحملوا الأخبار للأنبياء والرسل، والرسل أخبروا بهذا، وقالوا للناس هذا الخبر، فما هي دلالة صدق هؤلاء الأنبياء عليهم السلام؟ آثار ما قالوا، يعني لو سأل سائل ما هو دليل صدق النبي صلى الله عليه وسلم؟ هو آثار ما قال، ما معنى آثار ما قال؟ أي صدق ما قال، تصديق الحقائق له، فهو لم يحدثهم بما هو خارج العقول لما حدثهم أنهم مخلوقون وأن الله هو الخالق، هل حدثهم بما يعجزون عن فهمه، حدثهم بما هم يقرون به ولا يستطيعون دفعه، فخاطبهم بعقولهم.

فإذن الغيب يعرف إما من خلال الأثر، وإما من خلال الخبر، وبالتالي ما يقع من فساد إما من جهة الخبر، أن يكون خبر كاذب، وإما أن يكون الأثر لا يدل، مثل: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]، هذا أثر كاذب، كيف عرفنا أنه أثر كاذب؟ يعني أكله كله ولم يأتوا بقطعة من لحمه أتوا فقط بقميصه، وقيل: إنهم أحضروا قميصه من غير تمزق، فهذا أثر كاذب لا يدل عليه وهكذا.

القصد: أن هؤلاء يؤمنون بالغيب، انتبه لهذه قال الله عز وجل: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢-٣]، من أجل الذين يؤمنون بالغيب لأنه في الدرس الفائت قلت: الذي لا يؤمن بالغيب ليس من الإنسانية في شيء، ودليل أن خروج المرء وصف التقوى هو خروجه عن الإنسانية، قال الله عز عن القرآن هنا: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة: ٢]، وفي السورة نفسها في سورة «البقرة» عند آيات ذكر الصيام، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وكأن الإنسان الذي يستحق هذا الوصف لكونه إنساناً هو المتقي، فكيف الآخر، قال الله عز وجل عنه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)﴾ [الفرقان: ٤٤]، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢)﴾ [محمد: ١٢]، هذا وصف القرآن أنهم أنعام لا يستحقون وصف الإنسانية.

ولذلك أول وصف يخرج الإنسان عن درجة هذه الدابة أن يكون مؤمناً بالغيب، وهذه قضية تشريف، فالبشرية من غير إيمان بالغيب هي بشريةٌ مجرمة، في سياستها في اختيارها في أفعالها في خصوماتها في أي شيء، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)﴾ [غافر: ٢٦]، هذا أي فساد هذا فساد فرعون؟ فساد سياسي، طاغوت يقتل يفسد، يفعل، أين علق موسى علة هذا الفساد؟ في الآية التي تليها، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾ [غافر: ٢٧]، من أين صدر هذا التكبر وهذا الطغيان والكذب الفرعوني؟ من عدم الإيمان بيوم الحساب، من عدم الإيمان بالغيب.

فأساس حركة الصلاح في الوجود هو الإيمان بالغيب، وكلما أرتقى المرء بإيمانه بالغيب كلما كان أكثر تقوى، أي أكثر أثراً في هذا الوجود، الإيمان بالغيب له آثاره، الإيمان بالغيب له حياته في المرء، وكلما اقترب المرء من الإيمان بالغيب وتعلق يقينه به، كلما ازداد تقوى فاستحق معالم القرآن واستحق هدايته ولذلك أول معالم الشخصية قرآنية، وركن الشخصية الأولى الشخصية الإسلامية القرآنية هو الإيمان بالغيب، ما هو أول ركن من أجل أن تكون أنت بناء قرآني وتعيد إحياء البناء الإنساني القرآني؟ هو الإيمان بالغيب، أن تعيش مع عالم الغيب أكثر مما تعيش مع عالم الشهادة، بل يكون عالم الشهادة هو ظل إيمانك بالغيب، فأنت تعطي وتتصدق لأنك تؤمن بالغيب، تقوم الليل

لأنك تؤمن بالغيب، تجاهد وتموت في سبيل الله لأنك تؤمن بالغيب، فأنت تجري في هذه الحياة مع شوقك ورغبتك بالدار الآخرة، فهذا الركن الأول ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

ثانياً: يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] ويكفي إلى هنا لا نريد، وإلا فالحديث عن هذا الباب حديثٌ طويل يمكن أن يدخل في باب المواعظ لأن المشكلة –انتبهوا لهذه القضية لأني تكلمت فيها سأختصر في هذا الدرس– البعض يظن أن حديث الإيمان بالغيب فقط هو حديثٌ وعظي، –أعيد الكلام– إن البعض يظن أن الحديث عن الإيمان بالغيب هو في مجال الحديث عن المواعظ من أجل أن ترق القلوب تدمع العيون، من أجل أن نتأثر وهذا خطأ، هو وعظي بمفهوم العلم كله، لا يمكن لك أن تختار الفقه الموافق لما يحب الله عز وجل، مما هو واجبٌ ومستحب، وأن تترك العمل الذي يغضب الله عز وجل من حرامٍ ومكروه؛ حتى يكون إيمانك بالغيب صحيح.

ولذلك فساد الفقيه الذي يفسد، هو بسبب عدم إيمانه بالغيب، والفقيه الذي يصيب بسبب إيمانه بالغيب، وأنبه على نقطة عشناها طويلاً من الجهل كنا نظن أن مجرد الاعتقاد الكلامي كافٍ في عصمة الشيخ من أن يضل وأن يكذب وأن يفتري وأن يزور، كنا نظن هذا الظن، كيف؟ كنا نظن أنه بمجرد أن يثبت الرجل الأسماء والصفات على طريقة السلف، وأن يعرف أقسام التوحيد، توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وكنا نظن أنه بمجرد أن يعرف المرء أن توحيد الإلهية هي مقصود بعثة الأنبياء عليهم السلام، كنا نظن أنه بمجرد هذه المعارف العلمية عند الشيخ وعند العالم وأن يثبتها ويقاتل عليها كافية لردعه من أن يكون مزوراً للدين أو تابعاً لحاكم أو مفتياً بباطل، مانع، كنا نظن هذا الظن.

كنا نظن أن سبب فساد بعض الشيوخ لأنهم لا يعرفون التوحيد معرفةً صحيحة ولا يثبتون الأسماء على طريقة السلف ولا يثبتون التوحيد بأقسامه على طريقة العلماء وهكذا فلفسادهم العقدي بين قوسين بالطريقة الكلامية، هو الذي أورثهم سلوكاً فاسدًا، وفي النهاية اكتشفنا أن هذا مجرد خداع، ما أن امتحن هؤلاء الشيوخ الذين يتكلمون عن التوحيد كلاماً، ما أن امتحنوا حتى رأيناهم يسقطوا كما سقط الآخرون، وإذ العاصم من ذلك هو ماذا؟ الإيمان بالغيب، اليقين على الآخرة، الخوف من الله عز وجل، الخوف من غضب الله عز وجل، الخوف من النار، محبة لقاء الله عز وجل، محبة الجنة.

فما مظهر محبة الآخرة؟ كما النبي صلى الله عليه وسلم خير رجل بين الرفيق الأعلى وبين الدنيا فأختار الآخرة، ولما أنت ترى الرجل يقبل على الدنيا ويقبل على شهواتها وعلى ملذاتها ولا ترى عنده النشاط والهمة للآخرة كما كان عليه السلف؛ فهذا هو سبب فساده، وليس أنه لا يعرف معنى التوحيد ولا يعرف هل يثبت الأسماء والصفات على طريقة السلف وعلى طريقة الخلف، أو طريقة المفوضة أو المؤولة، هذا لا علاقة له، هذه لها آثارها بعد هذا الأمر، هذه مسائل لها آثارها متى؟ بعد الإيمان بالغيب.

فالقضية الأولى حركة المسلم مع هذا القرآن تنطلق من إيمانك بالغيب، وإذا لم يوجد الإيمان بالغيب، فحينئذٍ هذا القرآن يمكن أن يؤول تأويلاً باطلاً، الله عز وجل عصم هذا الكتاب من التحريف والتبديل، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر: ٩]، فهذا القرآن: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾ [القيامة: ١٨-١٩]، خلاص ما في مجال، القرآن بقراءته لا يمكن أن يُحرف ولا يزاد عليه ولا ينقص، لكن هذا القرآن يمكن أن يؤول تأويل المشركين وتأويل المبطلين وتأويل المبتدعة وتأويل الفاسدين، ممكن فالقرآن قال هذا، قال تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧].

إذن القرآن لا يوجد فيه العصمة أن يُحمل على الباطل، وليس معنى ذلك أنه يمكن أن يحمل على الباطل فلا يرد عليه بالحق الذي فيه ولكن أقصد أنه من يريد أن يتعامل مع القرآن تعامل المبطلين يمكن له ذلك، ويرد عليه بالقرآن ويبطل كلامه بالقرآن ولكن هذا التحريف موجود، قدريًا موجود، وبالتالي إذا لم يبدأ المرء دخوله للقرآن بالتقوى والإيمان بالغيب فإن دخوله للقرآن لا يهديه ولا يؤدي إليه إلا منافع عكسية، بل ضلالات عكسية.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣]، الصلاة أيها الإخوة الأحبة العلماء ينشطون كثيراً في معرفة أصول الكلمات وكيف انتقلت من مجالها اللغوي الذي يعرفه العرب قبل الإسلام، ثم بعد ذلك استقرت هذه الكلمات مصطلحات لها دلالتها، أي قبل الإسلام كانت الصلاة كلمة تعني شيئاً معيناً وبعد الإسلام صارت مصطلحاً تحمل دلالة مشهورة ومعروفة لا يجهلها مسلم، وهنا وقع الخلاف بين أهل العلم، هل الإسلام والقرآن والسنة جاءت بالكلمات العربية من مصدرها يعني فيما يعرفه العرب من معانيها، جاءت إليها من مصدرها وحملت حملاً مختلفًا آخر إلى المصطلح الشرعي؟ نحن عندنا إما المصطلح اللغوي وإما مصطلح الشرعي والمصطلح العرفي، والأعراف إما أن تكون عامة وإما أن يكون خاصة، والمصطلح الشرعي.

فهل الإسلام، هل القرآن، هل السنة، حملت المصطلحات من فضائها اللغوي وأخذتها نزعًا إلى مجالها الاصطلاح الشرعي؟ أم أن المصطلح اللغوي بقي على دلالته اللغوية إلا أنه قُيد بمعاني؟ لأن المصطلح اللغوي يمكن إطلاقه على معانيه كثيرة، لكنه يلتقي مع جذرٍ واحد، لأنه لو قال: الصلاة من الصلة، الصلاة من الدعاء، لو عُلم –وهذا قول أكثرهم قول أكثر أهل العلم– أن الصلاة أخذت من الدعاء، فإذن العربي يفهم أن كلمة الصلاة تعني الدعاء، لكن هذا الدعاء له أحوال مختلفة، له صيغ مختلفة لكنه يبقى دعاء، فإذن هذا تقييد، أي كلمة دعاء كلمة مطلقة فقد يقيد في صور معينة ولكن مع بقاء اسم الدعاء عليه فيقيد.

فهل الشرع حمل الكلمات من دلالتها اللغوية إلى دلالتها الاصطلاحية الشرعية، نقلها؟ أم أنه قيدها مع بقائها على معانيها؟ الجمهور من أهل العلم وهو الصواب على أن القرآن والسنة لم يحمل الكلمات من دلالتها اللغوية ناقلاً إياها إلى دلالة مصطلحاتها ومعانيها الشرعية، وإنما قيدها بقيت على دلالتها، كالزكاة، الزكاة ماذا تعني؟ تعني النماء

وتعني البركة، الزكاة من الشيء الزاكي يعني فيها بركة، يزكوا الشيء أي يطيب، يزكوا الشيء ويزكوا يعني ينمو، فهل الزكاة التي يفعلها المسلم تحمل هذا المعنى؟ لكنها مقيدة، وهذا هو الصواب، هذا واحد.

النقطة الثانية بعض أهل العلم قال لا تشغلون كثيراً في البحث عن الدلالة اللغوية قبل استقرار المصطلح الشرعي على المعنى الذي يريده الشارع، لماذا؟ لأن دلالة الشارع تغنينا بعد أن بان ووضح، تغنينا عن أن نبحث عن معانيه اللغوية، ولكن العلماء لا يقبلون هذا، وهذا الباب هو ليس من أركان العلم بل هو من فضوله، ولذلك وقع الخلاف الصلاة من أين؟ قال بعضهم: من الدعاء، وقال بعضهم: من صلى الشيء النار، صلى الشيء يعني حرقه، قالوا كيف؟ قال: لأن الصلاة تحرق الذنوب، الدعاء مفهوم أن الصلاة هي الدعاء، (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي)، فالصلاة دعاء.

وقال بعضهم -وهذه غريبة، ومن هنا فأنا أنبه على أن الزمخشري له شذوذات لأنه يحب الغريب فيذهب- قال: إنما هو من الصلوين، قال: كالزكاة من زكى والصلاة من صلى وهي من الصلوين وهما عضلتان تتحركان بجانب الإنسان عندما يصلي والعلماء قالوا له: ابتعدت كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ [هود: ٧١]، ﴿فَضَحِكَتْ﴾ بمعنى ماذا؟ في اللغة تأتي بمعنى الحيض يعني بعيد، هي موجودة في اللغة، لكن أين تذهب أنت؟ وهذا من غرائب المفسرين في هذا الباب.

والقصد: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣] فمعروف أن كلمة الصلاة تعني الذي عليه الشارع وبمصطلح الشارع، فلا يجوز لأحد أن يحملها على معنى لغوي ولا على معنى خاص، ما معنى لغوي ومعنى خاص؟ أي لا يجوز لواحد أن يقول: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ المقصود به الدعاء كما يفعل الزنادقة، يقولوا: يكفي أن تدعو فيتحقق معنى قوله تعالى يقيمون الصلاة، هذه زندقة، يعني لا يجوز للمرء أن يجعل كلمةً قرآنية على غير المعنى الذي أراده الشارع، بل يجب حملها على مراد الشارع، فإذا جاء أحد وقال: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ المقصود فيها مطلق الدعاء، ماذا يقال له؟ هذه زندقة.

وما هو المعنى الخاص؟ الباطنية، ما هي الباطنية؟ الباطنية تقوم على هذا الركن؛ وهو على دلالة الألفاظ الباطنية، فللألفاظ دلالتان: دلالة ظاهرة التي يعرفها العوام أمثالنا، ودلالة باطنة وهي التي يعرفها الإمام، وبالتالي ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يمكن أن يقول لهم أي شيء، يعني مثلاً يقول لهم إن ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يعرفون صلتهم بإمامهم هذا معناه، ونحن ننبه على هذا الكلام، وإن كان الآن لا وجود له ظاهر، موجود طبعاً الإسماعيلية السبعية موجودة، الدرزية موجودة وهي من الباطنية وهي في أصله لا تنتمي للإسلام لكن موجودة.

لكن أين المشكلة؟ المشكلة في محاولةٍ جديدة يقوم بها البعض على تفسير القرآن على غير مراد الشارع الذي فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فإقامه الصلاة هنا ما الذي بينها لنا؟ ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، فالذي بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يجوز لأحد أن يحمل الكلام على مراده هو، وبالتالي نشأت كتب جديدة ودعاة جدد من الزنادقة يزعمون أن القرآن يجب أن يفسر تفسيراً جديداً على هذا الأساس، أشهر هؤلاء هو صاحب «القرآن والكتاب» محمد شحرور يقوم على هذه الطريقة ويفتح باب لزنادقة كثر، مثلاً: ابن أحمد أمين هذا صاحب «دليل المسلم الحزين» حسين أحمد أمين، نفس الشيء في كتابه «دليل المسلم الحزين»، يقوم على هذا المرتكز طبعاً لا يصل إلى كفر، ومن كلاهما في الكفر سواء ولكن الكفر دركات، كما أن الإيمان درجات، فهذا شحرور يذهب أبعد مما يريده حسين أحمد أمين وكذلك شخص اسمه عشماوي عبد الرحمن وكذلك العشماوي المستشار كذلك له تفسيرات من هذا القبيل وكلها تقوم على عدم تفسير القرآن بنسبة تفسيره للنبي صلى الله عليه وسلم وإنما بالتفسير إما اللغوي مما يحملون على اللغة، وإما ما يحملون على المعاني الباطنة التي يظنونها، -وهذه قضية أخطر- وهو حمل الكلمات على تاريخية النص ويمكن إلغائه بتغير هذا التاريخ.

ونحن قلنا دائماً ننبه عليها بأن القرآن فوق الزمان والمكان، دائماً نقول القرآن ليس فتوى، القرآن هو حكمٌ مطلق يستغرق الزمان والمكان، ما الفرق بينه وبين الفتوى؟ الفتوى معاملة لحادثة، يحكمها ظروفها، في موانع، في شروط، في دوافع، تتنازع الحسنة مع السيئة وخاضعة لزمانٍ ما وظرفٍ ما وجرافيا ما، يعني كيف جغرافيا ما؟ الشرع يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، فهذا حكمٌ، الآن ظرف ما؛ بأن لا يوجد الماء، فالشارع يقول: في أحكام التيمم، فالقرآن فوق الزمان والمكان، فوق الظرف، ينبغي أن تكون أحكامه فوق الزمان والمكان، لكن الفتوى محكومة الزمان والمكان، ولذلك لا يقال هذا الرجل الفقيه خالف الكتاب والسنة لا يقال هذا، لأنه أعمل الكتاب والسنة ولكن أعماله ضمن ظروفه وضمن شروطه.

فهؤلاء ماذا يقولون؟ -نرجع إليهم هؤلاء الزنادقة- يقولون: بأن القرآن نزل ضمن ظرفٍ تاريخي ما، ولما تغير الظرف التاريخي ينبغي أن يتغير الحكم، إلى أي درجة وصلوا في هذا، زعموا مثلاً: أن القرآن نزل على قومٍ الماء عندهم قليل، ولذلك قال: لهم توضؤوا، لكن اليوم الرجل الذي يقوم الصبح ويغتسل ويتنظف بالشامبو وكذا، لماذا يطلب منه أن يتوضأ لكل صلاة؟ وهكذا، انظر فهؤلاء يعطلون الشريعة تحت هذا الباب، ننبه على هؤلاء المجرمين.

ولذلك عندما نتكلم عن قواعد تاريخية أو أحوال تاريخية لا نظن أن هذه الأحوال قد ذهبت وبادت بل ما زالت موجودة، فراخهم ما زالوا موجودين إلى الآن هذه الفراخ ما زالت موجودة.

القصد: أن الصلاة معروفة ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، وهنا القرآن دائماً إقامة الصلاة، وإقامة الصلاة فرق بينها وبين المصلي، فإقامة الصلاة ليس فقط أن يأتي بالصلاة ولكن أن يقيمها، لكن لابد أن يقيمها وذلك بأن يقوم بها على

ما أمر الله عز وجل من شروط وأركان وسنن ومستحبات، فدائمًا الشارع يأتي يقول: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، إقامة الصلاة لأن إقامة الصلاة أمرٌ زائد عن الصلاة.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾ [البقرة: ٣]، انظروا هذه من رحمة الله قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ هنا «ومن ما» تبعيضية، فالشارع لا يطلب منك أن تنفق كل ما رزقت ومن هنا جاء التبعيض، يعني هي ومن ما رزقناهم ينفقون، فهنا جاء التبعيض من أجل أن تدل على أن الإنفاق لا يكون لكل ما رزقك الله، وإنما لبعض ما رزقك الله، وإنما النفقة تكون إما واجبة وإما تكون مستحبة، الواجبة: مثل الزكاة المفروضة، والنفقة على نفسك، هذا واجب، النفقة على من تعول على زوجتك على ابنك هذه كلها من النفقة الواجبة.

كذلك مما يدخل فيها النفقة المستحبة وهذا معروف، هناك نفقات مستحبة كثيرة، وحتى نرى بعض الفوائد في هذا، في التفريق بين قوله تعالى: ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥]، ولكن لم يذكر كلمة «معلوم» في سورة «الذاريات»، قال تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات: ١٩]، ما الفرق بينهما؟ لما تروا سياق القرآن هذا القرآن مبني بناء الإحكام والروعة والعظمة، وكلما تفكرت فيه تعلمت.

بعض الناس يظن أن هذا الإحكام فقط من أجل أن تكتشف روعة القرآن وهذا حق، لكن ليس هذا فقط، بل عليك أن تتعلم أنت كيف تتكلم، عندما تكتشف طريقة القرآن وكيف يتكلم الرب مع عبيده تتعلم أنت كيف تتكلم مع الناس، يعني تذكرون لما قلت لكم: أين الأدب في القرآن، كيف يبث القرآن الأدب؟ يبثه مخفياً، لما ذكرنا مثلاً في سورة «الكهف»، كيف بث الأدب؟ عندما جاء إلى قضية خرق السفينة ماذا قال الخضر؟ ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] نسبها لنفسه، لما جاء للقتل ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا﴾ [الكهف: ٨١]، لكن لما جاء لإصلاح ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ [الكهف: ٨٢] الأدب مبث في القرآن بثًا، هذا أسلوب قرآني يعلم الأدب فيه أن يبث في الكلام، يعلمك كيف تبث الأدب، الأدب لا يكفي أن تقول لرجل تأدب، ولكن الأدب يبث في حركتك في عطائك.

فالآن لو أن رجلاً يملك مال وجاءه فقير، وأعطاه مالاً، إما صدقة واجبة زكاة مال وأما صدقة مستحبة، أن تعطيه مما أتاك الله عز وجل مما لا يجب عليك، ولكن هنا كيف يبث الأدب في هذا الفعل؟ حركة هذا الفعل بإعطاء المال، الآن هنا كيف يبث الأدب في داخل الفعل كما تعلمنا القرآن كيف يبث الأدب؟ هل يظهره كشعار أم يبثه.

مثلاً ماذا قال عن أدب إبراهيم في إكرام الضيف؟ بثه قال: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ [الذاريات: ٢٦]، ﴿فَرَاغَ﴾ هذا أدب، كيف يعني ﴿فَرَاغَ﴾؟ الروغان هو سراً وبسرعة، ذهب سرًا وبسرعة، وكيف قال: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ ذهب هو ما نادى العبد، الأدب بث في الفعل، والآن لما أنت تتصدق، لما رجل صاحب المال يتصدق أين الأدب يكون؟

داخل الفعل، فأنت لا تراه عنواناً وإن رأيت الفعل، الفعل هو الصدقة تراه، لكن الأدب في الفعل كيف يكون؟ مبثوثًا، الأدب يبث في داخل الفعل، يكون سراً في داخل الفعل، وهو ملاحظ ولكنه بخفاء، الأدب يبث بخفاء.

كذلك الأسلوب القرآني يعلمك كيف تتكلم فيلاحظك العظماء في هذا الكلام، والجهلة لا يرون هذا، هو ينظر إلى هذا وينظر إلى هذا فلا يرى لأن عنده عمى ألوان، لا يفرق بين هذا الفعل وهذا الفعل، لأنه جاهل لكن العالم يعلم ومن هنا أيها الإخوة الأحبة لا يعرف قيمة الكلام إلا العلماء ولا يعرف كلام العلماء إلا العلماء، يعرفون ويميزون بين ما هو حسن وما هو رديء، يميزون. أما اليوم فإذا جهل الناس صابهم العمى، عمل ألوان لا يميزون بين ما هو حسن وما هو سيء، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)﴾ [الذاريات: ١٥-١٦]، إذن حديث في سورة «الذاريات» عن المحسنين، ليس الحديث عن المؤمنين ولا عن المسلمين عن درجة عالية.

فإذن الإحسان هو دخول في طبقة عالية من طبقات التعبد، والدخول في طبقة من طبقات التعبد هل يكون الحديث عن الواجبات أو يكون الحديث عما هو فوق الواجبات؟ ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)﴾، ما قال: صلوا، الحديث عما هو أعلى من الواجب، ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات: ١٧-١٩]، لم يذكر ﴿مَعْلُومٌ﴾ إذن هو حديثٌ عن غير الزكاة الواجبة، لأنه غير معلوم، ولو كان معلوماً لكان الزكاة الواجبة.

لكن لما كان في سورة «المعارج» ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣)﴾ [المعارج: ١-٣]، ماذا كان مجرى الحديث؟ هل كان الحديث للدخول في طبقة عالية من طبقات التعبد؟ أم الخروج من موجبات الهلاك؟ رأيتم الفرق، الأولى في سورة «الذاريات» دخولٌ في طبقةٍ عالية من طبقات التعبد، الدخول في المحسنين، لكن في سورة «المعارج» خروجٌ عن موجبات الهلاك، يعني واحد خرج عن الهلاك، إذًا أين سيكون الحديث؟ حديث عن قيام ليل أم حديث فقط عن أنه يصلي؟ حديث عن زكاة زائدة أو عن صدقة زائدة أم عن الزكاة الواجبة؟ بما يخرج المرء من الهلكة؟ بإتيانه بأدنى درجاته ما يخرجه من الفرائض، هذا من تأديب القرآن.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾ [البقرة: ٣]، هناك خلاف عقائدي كبير في مفهوم الرزق، أُجمِله باختصار، بين المعتزلة وبين أهل السنة، المعتزلة يقولون: الرزق، ويحتجون بهذه الآية للذكر، قالوا: الرزق هو المباح فقط، وأما ما تأكله وتنتفع به من الحرام فليس رزقك، وإنما صار حراماً لأنك أخذته وهو ليس من رزقك، لأن المعتزلة لا يرون إلا الجانب الشرعي في الأمر، الجانب القدري، فهم من القدرية، الإنسان يخلق أفعاله إلى آخره، ومشيئة الله عز وجل لا يعرفون إلا المشيئة الشرعية لا يعرفون المشيئة القدرية، فإذن ما هو الحرام عند المعتزلة؟ أن يأكل المرء ما ليس رزقه، تعرفون صراع الإرادات، هذه مما ذكر في احتجاجاتهم، لما قالوا: إنسان يخلق فعله، والإنسان يشاء ما لا يشاء الله، هذه نظرية

المعتزلة، مبدأ المعتزلة أنهم يقولون: يمكن للمرء أن يشاء ما لا يشاء الله، يعني مشيئة من في الدنيا عندهم؟ مشيئة الإنسان.

ونحن نقول: لا يكون هناك مشيئة للإنسان إلا بإذن من الله عز وجل بمشيئةٍ ربانية، هذا هو الحق ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)﴾ [التكوير: ٢٩]، هذا هو الحق، فهناك عندنا مشيئتان لله عز وجل مشيئة شرعية التي شاء ربنا أن نُصلي، شاء ربنا ... هذا الأمر والنهي الذي بها تعلُق الحساب والعقاب، وهناك مشيئة قدرية، المشيئة القدرية تعلُق بالإرادة، فالمشيئة الشرعية هل يمكن أن تتخلف؟ نعم، لأن الله عز وجل أمر وبها تعلق العذاب والعطاء والمنع، الجنة والنار تعلق بها، فيمكن الله أن يأمر قوماً فلا يستجيبون له، كما كفر الكفار ببعثة الأنبياء عليهم السلام فكفروا، ردوا على الله عز وجل أمره أي أمره الشرعي، لكن هل هذا الذي وقع منهم وقع بإذنٍ قدري أم بغير إذن قدري؟ بإذنٍ قدري.

فما هو الرزق عند المعتزلة إذًا؟ الرزق عند المعتزلة هو فقط ما كان حلالاً، الحلال هو الرزق، وأما الحرام، طيب واحد يأكل، هذا من رزقه؟ قال: لا، لأنه أكل من غير رزقه فهو حرام، أهل السنة يقولون: لا يأكل المرء إلا رزقه، ولكن ممكن أن يكون رزقه حلالاً وممكن أن رزقه حرامًا.

فهنا احتج المعتزلة قالوا قال تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾ [البقرة: ٣]، انتبهوا لهذا لأنه لابد من الوقوف عنده لبعض الفوائد، قال تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾ [البقرة: ٣]، قالوا: لو كان الرزق بمفهومه العام يعني ما يقع حلال وحرام، ونحن قلنا أهل السنة يقولون: الرزق ما يكون حراماً وحلالاً، رزق، هذا رزقه، لأن الله شاء له أن يكون مما رزق، لكن إما أن يرزق بطريق حلال وإما أن يرزق بطريق حرام، قالوا: كيف لو كان كذلك كيف يمدح أنهم ينفقون منه؟ هؤلاء المعتزلة، أنتم تقولون إذن: رزقه حلاله وحرام، ممكن يكون حلال أو حرام، فكيف يمدح أنه ينفق من رزقه وبعض رزقه يكون حراماً.

الجواب على هذا ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾: لما قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، سألناهم هذا الغيب عما هو مُخبرٌ به من قبل السماء أم يدخل كل غيب؟ الجواب: الذي أخبر من قبل السماء أي مقيد، الغيب الذي أخبرت به الأنبياء عليهم السلام، وجاءت به الكتب وليس كل غيب، ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، يؤمنون بالغيب مقيدًا أي الذي جاءت به الرسل والكتب والأنبياء، فإذن هو مقيد الغيب، ولما قال تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣]، الصلاة التي أمر الله عز وجل بها، هل يقيمون أي الصلاة؟ أم هي الصلاة التي علم أمرها من قبل الأنبياء أنها الشرعية؟ وعندما قال تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾ [البقرة: ٣]، فمن الذي ينفق من الحرام.

ثم ثانياً هل الإنفاق هنا هو مطلق الإنفاق وخاصةً أن النفقة لغةً تطلق عما نفق، يعني زال، يقال: نفقت الدابة يعني ماتت، ومنه أخذ النفق، لماذا النفق؟ لأنه يدخل منه ويخرج، فما خرج منك هو النفقة، ولذلك سمي النفق بالنفق، لماذا؟ لأنه يخرج منه، ونفقت الدابة أي خرجت من الحياة ماتت انتهت، وسميت النفقة نفقة لأنها تخرج من يدك، فإذن ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، طيب ما يأكله المرء داخلٌ في هذا المدح أم هو مرادٌ ثانوي فيها؟ ما هو المراد الأصلي فيها المقصود فيها الإنفاق للمساكين الإنفاق للفقراء إذن هو مقيد، فقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ يعني الرزق الحلال هذا واحد.

الشيء الثاني: هل من علم القرآن فيما تعلمون أنه ينسب أفعال الباطل للإنسان إلى الله عز وجل؟ لما قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، لمن نسب إعطاء الرزق؟ لمن هو الضمير؟ رزقناه من الذي قام بها؟ هنا هذا الضمير يعود على من؟ يعود على الله عز وجل، فهل أنتم تنسبون إلى الله عز وجل أن يُنسب إليه أنه رزقك رزق الباطل، هذا في واقع الأمر صحيح ولكن في الحديث (والشر ليس إليه)، فلما كان الرزق الحرام حراماً مكروهًا إلى الله عز وجل، فلا ينبغي أن ينسب إليه رزقاً، لما كان الحرام من الشر فلا يجوز أن ينسب إلى الله عز وجل.

فقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، هذه جاءت على جهة المدح، والدليل أن الضمير جاء هنا بصيغة الجمع وليس بصيغة الأفراد، ما قال: ومما رزقتهم ينفقون، أو مما رزقهم ينفقون، وإنما قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، جاء بضمير الجمع وضمير الجمع في القرآن لا يأتي إلا على جهتين -هذه تهتم بها دائمًا- كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ [يوسف: ٢] في صيغة جمع، فضمير الجمع حين يأتي في القرآن ويراد به ربنا سبحانه وتعالى فإنما يحمل على معنيين:

أولاً: على التعظيم، تعظيم الله عز وجل.

الأمر الثاني: يدل على أن هذا الفعل الذي جاء معه ضمير الجمع إنما لم يقع فيه فعلٌ واحد وإنما أفعالٌ متعددة.

نشرح الكلام: ضمير الجمع معروف في اللغة يقول «إِنَّا» فهذا تعظيم، «نحن» تعظيم، فإذن الصيغة الأولى هي صيغة التعظيم والصيغة الثانية نضرب مثال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ [يوسف: ٢]، هل وقع فعلٌ واحد أم أفعال؟ الإنزال فعلٌ أم أفعال؟ فدل على أن فيه أفعالاً كثيرة وقعت فيه، فالإنزال يعني أنه تكلم به، حمله الملائكة، الملك قرأه على النبي صلى الله عليه وسلم وهكذا، مع الرعاية والعظمة وما فيه، فلم يقع منه فعلٌ واحد، إنما وقع منه أفعال.

فقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ [البقرة: ٣] تأمل ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾، هل وقع فعل واحد الرزق، لو افترضنا مثلاً: بأن الرزق كان نباتاً وزرعا، هل هو فعل واحد فقط؟ كم وقع فيه؟ أفعالٌ كثيرة؛ فلذلك تأتي صيغة الجمع في القرآن وهي تعود إلى الله عز وجل للدلالة على أفعالٍ متعددة وقعت بهذا الفعل، نعود إلى قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ هذه صفة

مدح فيها بيان المنة الإلهية، فهي صيغة منٍ ومدحٌ الإلهي، فهل هذه هي يدخل فيها ما هو شر وأخذه على جهة القبح والحرام والمذمة والسوء؟ لا يدخل فيها، مع ما تقدم، فقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾ [البقرة: ٣].

ومن خلال الحديث ما هو الرزق في اللغة؟ الرزق في اللغة هو الحظ، لو واحد تكلم بعيداً عما استقر عليه معنى الرزق وهو ما تحصلته، ما ملكته، ما قدرت على التصرف في، هذا كله من الرزق، لكن أصل كلمة الرزق في اللغة هي الحظ، رزق الرجل أي حظه وأظن التوافق بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاح الذي استقر على كلمة الرزق واضح، فهذا حظك، هذا حظك في الحياة.

وهنا في الحقيقة لا أريد أن أتكلم لأنه سيأتي يعني في آيات أكثر وضوحًا في قضية أن الصلاة والزكاة من أركان الإسلام فمن ترك الصلاة فقد كفر ومن ترك الزكاة فقد كفر، هذا على الصحيح عندي ونتركه إلى مقامه إن شاء الله تعالى.

هنا قال سبحانه وتعالى بعد قول: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾ [البقرة: ٣]، فلماذا لم يأتي قوله: وينفقون مما رزقناهم؟ لماذا قدم المعمول على الفعل والعامل، لماذا؟ لما ذكرنا، قلنا هنا «مِن» تبعيضية وإنما هي لبيان أن الإنفاق جزئي، فقدم هذا من الرحمة الإلهية أنه قدم التبعيض، حتى لا يقال: وينفقون، ولكن طمأنهم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، طمأنهم أن ما هو مطلوب من الإنفاق هو مما رزقتم ولكن لو قال المرء يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون، لسأل بعد ذلك، ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٥]، جاء القرآن ماذا قال؟ ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ما العفو يعني؟ ما زاد عن حاجتك، فلذلك قدم قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ للاطمئنان حتى يطمئنك أيها العبد، يعني مطلوب قليل ينفقون فاطمئن، لكن لو قال: وينفقون؟ فوقع الخوف والوجل ربما يطلب منه جميع أمواله.

نقف عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، في الحقيقة لمن تأمل والقرآن يفسر بعضه بعضاً سنرى أن هذه التقدمة وهي تقدمة الإيمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم على ما جاءت به الرسل عليهم السلام ليس فقط خاصاً بهذه الأمة ولكن بجميع الأمم، وخاصةً من أدرك بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فوجب عليه ابتداءً أن يؤمن بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، قبل أن يؤمن بما جاء به رسوله، أين هذا؟

أنا بحسب استقرائي لا أدري قد يأتي واحد ويظهر له كذلك مواطن أخرى، أما أنا باستقرائي للقرآن وجدت هذا الأمر في ثلاثة مواطن وهو تقدمة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم عما جاء به الرسل عليهم السلام، حتى عند خطابه لأهل الكتب الأخرى.

الموطن الأول: أول خاتمة سورة «آل عمران»، آية مئة وتسعة وتسعين لأن آل عمران مئتين آية كما تعلمون، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ قبل ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾.

الموطن الثاني: في سورة «النساء» لما ذكر أهل الكتاب وما هم عليه بعد أن قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠)﴾ [النساء: ١٦٠]، ودائماً القرآن بعد ذكر الأمر الشائع والصفة الشائعة في الكتاب يستثني، ليسوا سواء يستثني، في البقرة سيأتي بعد أن ذكر أهل الكتاب ماذا قال؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٢]، هذه ذكرت كذلك من أجل بيان أن منهم من صلح، دائماً يستثني القرآن في هؤلاء ولا يجعلهم شيءً واحداً، ثم قال سبحانه وتعالى بعد ذلك في سورة «النساء» ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [النساء: ١٦٢]، فقدم الإيمان بما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم قبل الإيمان بما أنزل عليهم، وهو يتحدث عن الذين هادوا، وسيأتي إن شاء الله لماذا جاء هنا ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ١٦٢]، ماذا قال سيبويه وغيره فيها.

الموطن الثالث: في سورة «المائدة»، هذا الذي وجدته وهذا جعل ابن زيد من أئمة التفسير للأسف يجعل هذه الآية من سورة «البقرة» لأن الحديث عمن؟ كما رأيتم في سورة «آل عمران» الحديث عمن؟ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، وفي سورة «النساء» ماذا الحديث عمن؟ ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، وهنا حديث كذلك عمن؟ عن أهل الكتاب ممن أمن، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [المائدة: ٥٩]، فقدم الإيمان، ابن زيدان قال: لأنه قال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، ثم بعد ذلك قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٤]، فهي داخلة في الإيمان بالغيب هكذا ظن ابن زيد ظن في قوله أن هذا داخل، فلما خُص؟ قال: لأن الحديث هنا حديث عن أهل الكتاب ويمكن أن يحتج له وهو لم يذكر هذا وربما نقل عنه نقلاً مختصراً وإنما يُحتج له بأن ذكر الإيمان بما أنزل إلينا ثم ما أنزل إليهم على ما جرت به الآيات أنها حديث عن أهل الكتاب في مواطن أخرى.

أعيد العبارة: ظن هذا العالم من المفسرين ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] انتهت، فلماذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٤]، يعني صدق الرسالة التي جاءت إليك داخلة في قوله –هكذا ظن نحن نتكلم عن ظنه– ولذلك قال: الأولى يدخل فيها أهل الإيمان من أهل الإسلام الذين هم اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، فالمقصود في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾ [البقرة: ٣]، اتباع النبي

محمد صلى الله عليه وسلم، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، المقصود به أهل الكتاب، هذا قوله وهذا سنبين أن هذا القول مرجوح، لا نقول خطأ لكن نقول مرجوح.

وبما يحتج له؟ بما ذكرنا من أن من ذُكر عنهم الإيمان بما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم قبل الإيمان بما أنزل على غيرهم فيما رأيناه المقصود به من أهل الكتاب، هذا لم يذكره هو ولكن أنا أقول لكم يحتج له بهذا أنه يُذكر هذا دائما عمن؟ الذي يقدم الإيمان بما أنزل إلى من قبل النبي صلى الله عليه وسلم، قبل أن يذكر الإيمان بما أنزل على من قبله وهم أهل الكتاب ويحتج له بهذا وسنبين أن شاء الله ضعف هذا القول فيما يأتي.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: السؤال في مسألة الغناء، هناك من جوز الغناء أو السماع للموسيقى، كما يقول البعض أن ابن حزم أجاز الغناء وأظن أيضا أنه الشوكاني، يعني الكلام شخص يقول: إن ابن حزم والشوكاني والقرضاوي حديثاً أجازوا الغناء، فهل هناك من أدلة؟

الشيخ: يعني ابن حزم ينفي كل الأدلة على حرمة الغناء والحديث الذي في البخاري، الذي يستحلون الحرى والحرير والمعازف، فيضعف الحديث ويجعله من معلقات البخاري، والرد عليه الحديث روي موصولاً من طريق أخرى والاسماعيلي في تخريجه في مستخرجه على البخاري وصله والمستخرج مطبوع، في المستخرج على البخاري، والصواب أن الحديث الصحيح، فيستحلون دلالة على حرمته، ثم هناك أحاديث أخرى نعم لا تصل لدرجة الصحة العالية التي عليها البخاري ومسلم، ولكنها كافية لإنشاء الحكم، وهؤلاء الذين ينفون هذه الأحاديث يحتجون بمثل هذه الأحاديث على بعض الأحكام لكن لا يقبلونه لما جاء للغناء، يعني لابد أن يأخذوا بمثل هذه الأحاديث التي فيها النهي عن الكوبة، والنهي عن الغناء والآنك يصب في أذنه ... إلخ، فهذه أحاديث وإن كانت لا تصل لدرجة الصحة التي في البخاري ومسلم، لكن يحتج بمثلها على الأحكام، في درجتها يحتج بالإحكام. و

لذلك الصواب أن الغناء حرام، والعلماء والسلف ينفونه ولهم كراهية شديدة فيه، والكراهية عند القدماء تعرف ماذا تعني، الكراهية عند الأوائل تعني التحريم في الأصل، وإن كانت قد تدل على مرتبة أدنى من درجة كلمة التحريم، فالصواب أن الغناء حرام لكن ابن حزم مشى على هذا الأمر، وأحبه من أحبه وابن حازم يكرهونه في كل شيء، إلا في مثل هذا وما شابه هذا.

السائل: التفريق بين الغناء والموسيقى؟

الشيخ: بلا شك المقصود به الموسيقى، الكلام عن المعازف، وإنما الغناء بدون معازف هذا صوت، لكن أنا أحرم ما يسمى بالمؤثرات الصوتية لأنها نفس المعنى، ليس العبرة بالآلة، لأن الآلة إما أن تكون بنفخ –الآلات الموسيقية– وإما أن تكون بقرع، وإما أن تكون بوتر، هذه ثلاثة أنواع الموسيقى كما يذكر مشايخ الموسيقى، كابن سينا في كتابه «الموسيقى»، يقول الموسيقى: هذه أصولها، فهذا نفخ، هذا إما نفخ وإما قرع بلسانه فهي نفس المعنى، ولذلك هذا حرام.

وأما الشوكاني فلا أعلم أن الشوكاني حرمها، هذا جديد علي، ربما قرأته ونسيت لكن لا أعلم أن الشوكاني، وأما المعاصرون فلا يؤخذ منهم، والسبب أنهم يشتهون فيبحثون عمن يؤيد شهوتهم، يعني هم يريدون ويشتهون أن يكون

كذلك فيبحثون ويقولون كلاماً هم يعرفون أنه خطأ، وعند العلم لا يظهرون إلا أن فلان قال، أن فلان من الناس أن فلان من العلماء ومن أخذ بذلت كل عالم كما يقول السلف وهذا مذكور في كتاب «الإحكام» لابن حزم: «من أخذ بزلة كل عالم فقد تزندق»، فلم يبقى في ديننا إلا الحلال ما في حرام.

والغريب من بعض المعاصرين قالوا كلمة غريبة، قالوا: كيف نقدم الإسلام لمن يحب الموسيقى إذا قلنا له أن الإسلام يحرم الموسيقى، يعني هذه حجة الجهال، أنا أقدم الإسلام ثم نقدم لهم مراتبه، رجل يريد أن يعصي الله في الموسيقى يعصيه، لكن لا نخرج الإسلام على ما يوافق به أهواء الناس، وإلا بعد ذلك الربا.

ويقال: بأن بولس الذي هو «الشاول» الذي غير الديانة النصرانية التي جاء بها عيسى عليه السلام، يقال: أن أول أساس حل الخنزير أنه لما دخلت النصرانية في بعض القرى في شمال الأناضول فدخلوا النصرانية فكان عامة أموالهم من الخنازير، فاستفتوا يقتلوا الخنازير، والخنزير لا يجوز أكله في الديانة اليهودية، فطلع المذهب الجديد وهو قضية أن التحريم كان بسبب المعصية ولما حصل الخلاص بالفداء والصلب فتخلص العالم من المعصية فلم يعد هناك شيء حرام، فالخنزير حلال، وقالوا له الذين أسلموا جدد طهرهم لأن في الديانة اليهودية يوجد الختان، الأديان كلها فيها الختان ما عدى النصرانية، فجاؤوا إليه بالختان وقالوا له: كيف ندخل النصرانية ونختتم، أمر صعب على الذين عمرهم خمسين أو ستين سنة، فكذلك قال لهم كانت هذا تؤخذ عقوبة للذبح فانسوا الموضوع.

فإذن أساس تغيير الدين كما رأيت مثال الخنازير ومثال الختان وإزالة القلفة إنما سببه هو الهوى، وزعمهم أن هذا تخفيف على العالم، ويتغير الدين بهذا، واليوم لا يجيزون فقط الغناء، رأينا من يجيز الربا، ومن يجيز الكفر يعني أنت رأيت قبل مدة بعض المشايخ أجاز القتال مع الأمريكان لما قاتلوا طالبان، ولكن خففوها، قالوا: يكون ردءاً وكأن الردء أخف في هذا الزمن، والمباشر مرات أخف فعلا في هذا الزمان من الردء، يعني أعطيك مثال الطيارة الأمريكية لما تطلع وتقصف الذي يحرك الطيارة والقصف هو الردء وليس المباشر، يعني من كاليفورنيا بتم كبسة على الزر الصاروخ ليقذفه إلى مستقره، ومع وذلك يوجد هذا، فلا قيمة لكلامهم في الحقيقة ولا ينتبه له ولا يقام له الشأن.

السائل: في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾ [البقرة: ٣]، **أليس فيه تقدم حدوث الرزق مِنّة على الإنفاق؟**

الشيخ: يعني أنا أعطيتكم فأنفوا منه، بلا شك هو ذكر المنة قبل ذكر الأمر، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، هذا ذكر المِنّة الإلهية، وإنما ينفق المرء ما ليس من ملكه في الحقيقة ملك كل شيء يعود إلى الله عز وجل على الحقيقة، وملكنا نحن هو ملك مؤقت هو ملك جزئي وملك انتفاع وأما الذي خلقه ورزقه فهو الله عز وجل هذا بلا شك هذا المعنى موجود.

السائل: هل يجوز مس المصحف والقراءة فيه من غير وضوء؟

الشيخ: قراءة القرآن من غير وضوء الأمر فيها يسير، علينا أن نفرق بين المس والقراءة، والخلاف يسير جداً، بل في الحقيقة لو قال أحد بأن الإجماع قائم على جواز قراءة القرآن بغير وضوء لصح وإنما هم يذكرونه من آداب قراءة القرآن أن يكون على وضوء، انتبه نتكلم على غير وضوء ليس على جنابة، ونتكلم على القراءة وليس على المس، فعلينا أن نفرق بين الأمرين، فقراءة القرآن بلا وضوء فالله أعلم أنه الإجماع، أنا لا أعرف أحداً خالف، لكن يعني نتقي أن نقذف أنفسنا في أشياء مثل هذه فلا بأس به.

لكن مس المصحف على غير وضوء فيه خلاف، والصواب جواز مسه بغير وضوء، يجوز أن يمس المصحف بغير وضوء، أما الكلام عن قراءة القرآن مع الجنابة أو مس المصحف بالجنابة فالخلاف فيه كبير والذي عندي أنه لا يجوز مس المصحف على الجنابة، لا يجوز مس المصحف والمرء جنب سواء الذكر أو الانثى لا يجوز أن يمسه وهو جنب، وأما القراءة فكذلك الجنب لا يقرأ القرآن ويخفف على الحائض والنفساء إذا كانت من الحفاظ من أجل بقاء ذكره ومداومة القراءة عليه.

السائل: شيخنا الميزان الذي يوزن به الأعمال هل هو متعدد أم واحد؟

الشيخ: الصواب أنه يوجد ميزان وموازين، أنت تسأل عن الغيب في الآخرة، نعم ذكرها الإمام وهو كتاب رائعٌ عظيم وهو كتاب «التذكرة في أحوال الموتى والآخرة» الإمام القرطبي أن هناك موازين وليس ميزان واحد، أكثر من ميزان، ولكن ولا شك أن هناك ميزان عظيم توزن به الحديث كما يقال يحضر حسناته وسيئاته، ولكن واضح أن هناك موازين أخرى لأعمال أخرى، تقبل أو لا تقبل سيئة وحسنة وإن كان هناك ميزان أعظم توزن به بقية الأعمال، وربما لكل امرءٍ ميزان، يعني نحن يوم القيامة الناس كل واحد يذهب إلى ميزانه ولا يقف الناس طابور على ميزانٍ واحد.

السائل: شيخنا الميزان هل يكون له كفتان؟

الشيخ: الميزان لا يكون ميزاناً إلا بكفتين.

السائل: الذي يوزن فيه هل هو العمل أم الصحائف؟

الشيخ: لا، بلا شك هذا ذكرته سابقًا بأن الاعمال تتحول إلى أعيان، كما ذكرت عن الموت، لما قلنا الموت يصبح كبش، فما هو الموت؟ الموت له حقيقة نجهل ما هي لكن يتحول لكبش، سورة «البقرة» يوم القيامة تصبح غيمة، غمامة تظل صاحبها، فلذلك الأعمال تصبح لها حقائق أخرى، ومن ذلك أنها توزن، الآن نحن نعرف كلمة حسنة لكنها يوم القيامة يصبح لها وزن، والسيئة يصبح لها وزن وتوزن حقيقة وليس فقط الصحائف.

السائل: شيخنا وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إِنَّه لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَومَ القِيامَةِ، لا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَناحَ بَعُوضَةٍ)، وقالَ: اقْرَؤُوا ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف: ١٠٥].

الشيخ: مقيدة قال صلى الله عليه وسلم: (لا يزن عند الله جناح بعوضة)، ليس بمعنى أنه ليس له وزن، الحديث عن وزن مادي وعن وزن له قيمة، فيوم القيامة يأتي الرجل العظيم لا يزن عند الله عز وجل، يعني هو له وزنه، ولكن لا يزن عند الله عز وجل لا قيمة له، كما يدخل الرجل العظيم وزناً وما معه من ثقل ولا يزن عند الناس فلا يحترمونه يعني لا يعدلون به قيمة لا بال.

السائل: من مراتب القدر العلم به، هل صح أن الله عز وجل علم كل شيء وكان فيما ذلك أنه علم أفعاله وأفعال عباده؟

الشيخ: قد اتفقنا على أنه جل في علاه يعلم ما سيفعل عبيده قبل أن يخلقهم وعلم أنه سيخلقهم، فسؤالك هو يعلم علم نفسه؟ لا شك، هذا مما لا شك فيه، علم أفعاله وعلم أفعال غيره، كيف ينفى علمه جل في علاه عن نفسه؟ هل يقدر أحد من البشر أن ينفي أن الله يعلم ما سيفعل؟ هذا توهم باطل.

السائل: ما هو الفرق بين علوم القرآن وأصول التفسير؟

الشيخ: أصول التفسير يعني القواعد التي يجب أن تكون عند المفسر من أجل أن يفسر القرآن.

مثلاً: من أصول التفسير أن يكون عالماً بالناسخ والمنسوخ، أن يكون عالماً بقواعد التفسير، نحن نذكر مثلاً بعض القواعد مثل ذلك أن كل قراءة هي آية، هذا من علوم التفسير، أن كل قراءة آية كقولنا: «التأسيس مقدم على التأكيد»، هذا تفسير، أن يكون عالماً بالعربية هذا أصول التفسير، أن يكون عالماً بكلام السلف وكلام العلماء في الآية، لئلا يحدث أقوالاً جديدة أو يبطل أقوال صحيحة، فأن يكون عالماً، فهذه أصول التفسير.

لكن علوم القرآن أوسع، يعني الآن مثال ذلك: الحديث عن نزول القرآن، لو قال رجل: كيف جمع القرآن، هذا من علوم القرآن، لو حُدث في جلسة كيف تم جمع القرآن؟ وكيف تم كتابته؟ وكيف تم تاريخه؟ تاريخ جمعه وتاريخ كتابته وتاريخ توزيعه وعلى من ذهب ... إلخ، فهذا من علوم القرآن لكن ليس من أصول التفسير، يعني ليس واجباً على المفسر أن يعلمه من أجل أن يفسر الآية، فعلوم القرآن أشمل من أصول التفسير ولكن كذلك ليس شرطاً أن يكون الرجل عالماً بالقرآن قادراً على التفسير، لأنه يمكن أن تأتي بكتاب «البرهان» فتحفظه أو تأتي بكتاب «الإتقان» فتحفظه ولا تقرأ التفسير، لأنك فاقد لماذا؟ مثلاً لا يوجد في داخل هذه الكتب التي تتعلق بعلوم القرآن لا يوجد فيها خبر الناسخ والمنسوخ، فيها الكلام عن الناسخ والمنسوخ، لكن أن تعلم الناسخ والمنسوخ من القرآن هذا من أصول التفسير.

السائل: يقصد الأخ القراءة من المصحف بغير وضوء؟

الشيخ: النظر ليس فيه حرج، حتى الحائض والنفساء تستطيع أن تنظر للقرآن ما في حرج في هذا، يعني لو نظرت إليه ولم تجري القرآن حروفاً على لسانها، فهذا بالإجماع جائز، بالإجماع ما في خلاف، يعني لو أن الحائض النفساء والجنب نظروا إلى القرآن نظر فتأملوا وأجروا عيونهم على حروفه دون أن يجروا حروف القرآن على ألسنتهم، هذا ما في خلاف فيه، لا تسمى هذه القراءة.

السائل: هل هناك دليل على منع مس المصحف غير ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)﴾ [الواقعة: ٧٩]؟

الشيخ: قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾، لا تصلح دليلاً عند أهل العلم الذين قالوا: بعدم الجواز وإنما هذه الآية عندهم ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ المقصود به اللوح المحفوظ والمقصود به المطهرون وهم الملائكة، وإنما الحديث على حديث عمرو بن حزم وهو رسالة النبي صلى الله عليه وسلم: (وأن لا يمس القرآن إلا طاهر)، الكلام حول هذا النص (وأن لا يمس القرآن إلا طاهر)، فاختلفوا قول طاهر يعني مسلم، ولا طاهر من الطهارة الحكمية هذا الخلاف الذي وقع، أما الآية فهي خارج النطاق، إلا قياساً، أما نصًا فلا يمسه والمقصود به الضمير يعود للوح المحفوظ، الذي هو في السماء، وإلا المطهرون المقصود به الملائكة، فقياساً قالوا فكل ما كان عظيماً في شأن الله عز وجل يجب أن لا يمسه إلا طاهر، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢)﴾ [الحج: ٣٢]، فقياساً بعضهم أدخلوا في هذا.

طبعًا يوجد من المتأخرين من أحتج بالآية، لكن العلماء يرفضون هذا، حتى العلماء الذين يأخذون بحديث عمرو بن حزم في رسالة النبي صلى الله عليه إليه: (ألا يمس القرآن إلا طاهر)، حتى العلماء كابن كثير مثلاً: يقول بعدم جواز مسه لأنه شافعي ومع ذلك يجعل هذه الآية لا تصلح دليلاً لما أحتج به من أحتج من المتأخرين.

السائل: رؤية الله عز وجل يوم القيامة رؤيتان في العرصات بعد دخول الجنة وهل العرصات لجميع الناس؟

الشيخ: لا، بلا شك أن الله عز وجل قال: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥)﴾ [المطففين: ١٥]، أحتج بها إمامنا الشافعي رحمه الله على أن الكافر لا يرى ربه، وأحتج به على أن المؤمنين يرون ربهم، ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾، فدل على أنه لما حجب عن هؤلاء لم يكن محجوباً على غيرهم، وهذا مفهوم المخالفة وهو مما أحتج به كثيرًا الإمام الشافعي رحمه الله، فهذا واحد.

الشيء الثاني فأما الكلام عن المنافقين، الذين في الحديث يأتي كل طاغوت فيتبعه كل عابد في جهنم ولا يبقى إلا هذه الأمة ومن معها من المؤمنين والمنافقين، فيظهر لهم الله عز وجل فلما يظهر لهم على حقيقته جل في علاه، فيريد المنافق أن يسجد فلا يستطيع فدل على أن المنافق يراه، ولكن لا شك أنها ليست رؤية النعيم لأن الله عز وجل

قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، والمنافقون ليس لهم هذه، فدل على أن هناك نظرة فيها النضرة ونظرة ليس فيها نضرة، وأنا أختصر بسرعة وإلا فكل مسألة لها ذيولها عند أهل العلم.

السائل: هل قول المالكية بعدم العذر بالجهل في الفروع مرجوح؟

الشيخ: هذه المسائل ليست مالكية ولا شافعية ولا غيرها، هذه المسائل العلماء تكلموا عنها بكلامٍ عام، فالتفصيلات كلام عام، نحن تكلمنا عنها في موطننا السابق، وهذا لا يقال مالكية وغير مالكية يعني مثلاً: الإمام الطبري ابن حجر وإسحاق بن رهويه هؤلاء أين تضعهم؟ ابن الحجر آمنا شافعي، وكلهم يقولون من القرآن كابن جرير كثيرًا ما يقولها: على أن الجاهل والعالم الذي يخالف ويعاند كلاهما سواء عند جهلهما بالله ورسوله، هذا ليس كلام شافعية وحنفية هذه لا ينبغي أن تذكر كمذاهب فقهية فيها خلاف، وإنما فيها اتفاق على مسائل مجمع عليها، من المسائل المجمع عليها من جهل الرسول كافر، من جهل الإله كافر هذه مجمع عليها، وهذه قبل أن نتحدث عن قضية العقاب يوم القيامة، هذه متفق عليها من جهل لا إله إلا الله، لم يعلم لا إله إلا الله هذا كافر مشرك، من عاش ولم يسمع بالرسول صلى الله عليه وسلم وبقي على شركه هذا كافر مشرك، وإنما الحديث عن من سمع وأتبع ثم جهل بعض ما جاء به الرسول، هذا موضوع ثاني لا تعلق له بالمذاهب.

السائل: هل تكفير المرتدين من ضروريات الدين؟

الشيخ: بلا شك لكن المقصود ماذا؟ كأفراد المنصوص عليهم بالكتاب والسنة، مما وصلك طبعاً لأن البعض لا يصلك النبي كفر فلان بعينيه، لكن مثلاً: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)﴾ [المسد: ١]، فأبو لهب كافر، من لم يكفر أبا لهب فهو كافر، لأن هذا منصوص عليه، كما لو علم المرء من السيرة أبو جهل علم المرء من السيرة فمن لم يكفر أبا جاهل فهو كافر، من لم يكفر الوليد ابن المغيرة فهو كافر وهكذا، مسيلمة الكذاب من لم يكفره فهو كافر، لأن هذا من السنة والنص عُلم كفره فمن رد كفر هؤلاء رد على النبي صلى الله عليه وسلم أمره، ومن رد كفر أبي لهب فقد رد على القرآن خبره، فهذا مجمع عليه، فمن لم يكفر هؤلاء فهو كافر.

ثانياً: الذين أجمعت الأمة على كفرهم، هناك أناس كالمختار الثقفي وإن حصل خلاف في زمانه، لكن استقر الأمر على أنه كافر، وأدعى النبوة، فهذا من لم يكفره كافر، هناك أناس مختلف فيهم، يعني نحن لا نكفر من لم يكفر الحلاج، وعلى الرغم أن العلماء والقضاة كلهم وقعوا توقيعات على أنه أرتد وكفر وحكموا عليه لكن حصل خلاف بعض الناس اعتذروا له أنه مجنون، اعتذروا له أنه يقول عند غلبة العقل: أنا الله سبحاني ما أعظم شأني، فاعتذروا عنه بهذا الاعتذار، هذا لا نكفرهم لأنه هذا ليس مجمع عليه، وهذا ليس منصوص عليه، فحصل خلاف لا يقول أحد:

من لم يكفر الحلاج فهو كافر، لأن تكفير الملحدين ضرورياً من ضرورة الدين وهذا نقض ضرورياً، فمن نقض الضرورية فهو كافر، لا يقال هكذا.

إذن:

الأول: قلنا المنصوص عليه.

ثانياً: مجمع عليه.

ثالثاً: تكفير النوع، تكفير الملحدين يعني كلمة ملحدين من لم يكفر الملحدين كافر، كلمة الملحدين يعني لو أن رجل قال هل تكفر الملحدين؟ نعم، ومن لم يكفر الملحدين كافر، ثم بعد ذلك يأتي من يدخل في الإلحاد ومن لا يدخل، الآن من الملحدين واحد يسأل رجلٌ لا يكفر اليهود والنصارى نقول له: كافر، لأنه من الملحدين الذين ألحدوا ليس بالمفهوم المعاصر ملحد يعني لا يؤمن بالله ورسوله، ألحدوا أي مالوا، اللحد هو الميل، فهؤلاء مالوا عن الحق، عن أصل الحق وهو الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم، فهذا من ضروريات الدين تكفير اليهود والنصارى، من ضروريات الدين تكفير الملحدين الذين لا يؤمنون بالله، تكفير الملحدين الذين يشتمون القرآن، هذا ضرورية من ضرورة الدين، فهؤلاء نعم من لا يكفرهم فهو كافر.

يبقى هناك مسألتان:

المسألة الأولى: وهو المختلف فيه، واحد مختلف فيه مثل ما ذكرنا الحلاج، المختار بن عبيد الثقفي، ابن عمر رضي الله عنه لم يكن يكفره، وزوجه ابنته، واختلف الناس فيه، ناس كفروه وناس لم يكفروه، الحجاج اختلف الناس فيه، الحجاج بعض أهل العلم كفروه وبعضهم لم يكفره، فالمختلف فيه لا يقال: أنت لم تكفر الكافر، هذا جهل نحن أمام جهل، يقال: هذا كافر فأنت لم تكفره، واحد يذهب ويكفر عالم من العلماء وشيخ من الشيوخ أو رجل من الرجال، أمثلة كثيرة، أو يكفر حزب من الأحزاب ويقول: أنت لا تكفر الملحدين.

فالآن لو واحد يسأل تعال على الرافضة، وانتشار مذاهب الكفر فيهم، هذا أمرٌ نسبي، يعني لو جئت قبل أربعين سنة إلى رافضيٍ من بغداد، وأنا أتكلم عن خبرة، أنا أعرف أن بعض الناس خلاص الآن يقول: أصلاً ما أسلموا حتى تكفروهم، لكن بعض الرافضة من أهل بغداد قبل أربعين سنة او خمسين سنة لا يعرف مذهبه، ما مقصد مذهبه؟ حتى لا يعرف زواج المتعة، أنا رأيت عجائز من الرافضة في بغداد لا يعرفن زواج المتعة، اليوم أكاد أجزم أنه لا يوجد رافضي لا يعرف زواج المتعة، أكاد أجزم أنه لا يوجد رافضي لا يعرف التكفير الصحابة رضي الله تعالى عنهم، تكفير أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، تحريف القرآن إلى آخره، قديماً الجهل كان موجود.

واحد يأتي ويقول كلام أهل العلم قديماً في عدم تكفير الرافضة، يعني لو ذهبت لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لا تجد تصريحاً في أنه يكفر الرافضة هكذا على العموم، لا تجد له هذا التصريح، فهل يقال: لعدم تكفيره الرافضة فيما علم من حالهم وليس العقيدة التي عليها مذهب الرافضة في أصله، فهؤلاء لا يقال: لم يكفر الكفار ففلان كافر.

مثلاً: اليوم واحد يأتي يكفر لي حاكم من الحكام لنفترض مرسي مثلاً، يقول لك: مرسي طاغوت وكافر ومرتد، وأنت تخالفه، فيقال: أنت لم تكفر الكافر فأنت كافر، والذي لم يكفرك كافر، هل هذا منصوص عليه؟ قد يقول قائل: منصوص على نوعه، متفقين منصوص على نوعه إذا وافقتك وقد أخالفك حتى النوع أنا أخالفك، يعني بمعنى يقول رجل: من يحكم بغير ما أنزل الله فهو كافر، نقول لك: هذا نوع صحيح لكن هو لا يدخل فيه، يعني مرسي لا يدخل في نوعٍ كفري، أنا أتكلم على الواقع، يقال: نوع عمله أنه لا يستطيع أنه لا يقدر أنه معذور، وأما الحكم بغير ما أنزل الله حتى هذه المسألة الحكم بغير ما أنزل الله ليست على مرتبةٍ واحدة عند من يقول بها، وإن كنت أعتقد أن الحكم بغير ما أنزل الله كلياً يلحقه حكماً بالتكفير كلياً، فلما نقول تكفير ملحدين ضرورياً من ضرورة الدين يجب تقييد هذه تقييداً علمياً على ما عليه علماؤنا، وبهذا أن شاء الله نختم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثامن عشر

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركا فيه والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين، حبيبنا وإمامنا وسيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

هذا هو الدرس الثامن عشر من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» وفي أولها في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)﴾ [البقرة: ٣-٤]، قلنا وانتهينا من تفسير قوله تعالى بما تيسر وبلا شك ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾ [البقرة: ٣] واعلموا أن حرف الفاء إن كان هو الفاء في الفعل والفاء هو عين الفعل يعني جاءت كلمة نون فاء، نفى فإنها تدل على الذهاب والخروج، مثل: نفر، نفق، نفس، لماذا سمي النفس نفساً؟ لأنه في تنفس، تتنفس، نفس لأنه في خروج ذهاب، نفق، نفذ، ما الفرق بين نفد ونفذ؟ نفد اخترق، نفذ انتهى، وكله يدل على الذهاب والخروج، هذا من سر العربية أنه إذا جاءت كلمة كان الفاء فيها نون والعين فيها الفاء فما جاء بعدها لا يضر وكلها تدل على الذهاب والخروج.

ووقفنا عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)﴾ [البقرة: ٤]، قلنا: إن بعض أهل العلم جعل هذه الصفات أي في هذه الآية جعلها صفات لأقوامٍ آخرين، كأهل الكتاب مثلاً، والأولى لمؤمني النبي صلى الله عليه وسلم من العرب، وهؤلاء للمؤمنين من أهل الكتاب الذين آمنوا برسولنا صلى الله عليه وسلم، فجعل المدح الأول لصفات المؤمنين لقوم، وهذه لقومٍ آخر.

وشجع هذا ونصره ابن جرير الطبري في تفسيره، وقال: بأن المقصود في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾ [البقرة: ٣] هم المقصود بهم مؤمنون العرب، وقوله تعالى: والذي والذين يؤمنون بما أنزل اليك} هم مؤمنون أهل الكتاب، وذكرنا ما يمكن أن يحتج لهم به.

وهناك من يقول: لا ما زالت هذه وهذا، والصواب الذي يعني يدل عليه السياق وسنبين أن هذه الصفات هي صفاتٌ أخرى غير الصفات التي تقدمت، لأن السبب الذي يجعل العلماء يوزعون الخطاب على أقوامٍ مختلفين هو تشابه الخطاب في كثيرٍ من جوانبه، بمعنى أنهم رأوا وظنوا أن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣]، هي تعادل قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، هي تعادلها، فلما جعلوها

على معنى التعادل في المعنى أو تقارب التعادل في المعنى فحملوا كل آيةٍ على موضعٍ مختلف، ليقولوا: بأن هذه الآية يخاطب بها أقوام والمقصود بها اقوام وهذه الآية مقصودٌ بها أخرون، هذا هو السبب.

وإذا تبين لنا أن هذه الآية لا تعادل في المعنى بل هي شيء زائد عما تقدم؛ دل على أن هذا المقصود به كل من أمن بالنبي صلى الله عليه وسلم، سواء كان عربي أو عجمي فهو مطلوبٌ منه أن يؤمن بما تقدم من خصال الإيمان وأعمال التقوى والصلاح كإقامة الصلاة والزكاة وكذلك المطلوب منه أن يؤمن بهذا الذي جاء في هذه الآية، فلو اتحد الخطاب، لماذا يتحد الخطاب؟ قال: لاختلاف المخاطبين، إذا اتحد الخطاب على المعنى فلماذا يتكرر؟ قال: لا، هذا لا يتكرر ولكن هذا لاختلاف المخاطبين به، فلو اختلف الخطاب لما اضطر إلى هذا التفسير وهذا المنحى.

فإذن هل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤] هي خطابٌ آخر؟ الجواب: نعم، فإذا كانت خطابًا آخر لا تكون خطابًا لآخر، إذا لم تكن هذه الآية خطاباً لأخر لأنها خطابٌ آخر يختلف المعنى.

فما معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٤]، الأولى الذين يؤمنون بالغيب والناس لا يتنازعون فيما رأوا فيما حضر وشهدوه، وإنما يتنازعون في الغيب، فكلما غاب عنهم تنازعوا فيه، والمؤمنون آمنوا بالغيب، لأن الله عز وجل أخبرهم به عن طريق الرسل، والأخرون لا يؤمنون بالغيب، فانتهى هذا الكلام في الغيب.

فما هو الشيء الأخر الذي جاء به الأنبياء من غير مفهوم الغيب فآمنوا به؟ من غير مسائل الغيب فآمنوا به؟ فإذن دل على أنه الأمر.

الأول: هو الخبر، ما تعلق بالخبر، ويكون خبر الغيب.

والثاني: هو أمر الإله لهم.

فإذن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، المقصود به الأمر، الذي فيه العدل كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فعالم الغيب مما خلق الله امتحنوا به فآمنوا به، لأنه تعلقٌ بالخبر، وهذا أمروا به فآمنوا به لأنه تعلقٌ بالأمر، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، والله تعالى أعلم أن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤] دل هذا على شيءٍ آخر، سوى ما تعلق به الخبر وهو ما تعلق به الأمر، وهذا دليل عند من تفكر فيه وصدقه واتبعه على أن الأمر هو مطلوبٌ به الإيمان، وليس فقط الإيمان هو التصديق أي ما تعلق فقط بالخبر وإنما كذلك الإيمان ما تعلق بالأمر.

وما هي مرتبة الإيمان بالخبر؟ هو التصديق به واليقين عليه، فما هي مراتب الإيمان بالأمر؟ أي عندما يأتي المرء خبر فيصدقه فآمن به، لكن عندما يأتيه أمر فيؤمن به هل الإيمان بالأمر إيمان؟ الجواب: نعم هو إيمان، فما هي مراتبه؟

أولاً: القبول له، أن يقبله، والقبول درجات أعلاها على أن يُسلم له تسليماً مطلقًا تاماً ولا يعترض، فهذا أن يسلم، فإذا رد هذه المرتبة وهي مرتبة القبول لا عبرة بعد ذلك بدرجة الأمر، وإنما له مرتبة واحدة في معارضته وهو الكفر.

لو جاء أمر من أوامر الشرع ولا عبرة بمرتبة هذا الأمر، قد يكون هذا الأمر ركن من أركان الدين، وقد يكون واجباً من واجبات الدين، وقد يكون مستحباً من مستحبات الدين، لكنه في موضوع وفي مقام القبول كلها في مرتبةٍ واحدة، هو أن يقبلها، أن يقول أنا قبلت هذا الأمر، فإذن أن يقبله، القبول.

ثانياً: الآن تأتي الدرجة الثانية وهي درجة العمل، العمل به، أن يعمل به، حينئذٍ عند العمل تختلف درجة المرء في الرد، فإذا قبله ولم يعمل به ننظر إلى مرتبة هذا العمل في دين الله عز وجل، فإذا كان مستحباً ترك مستحبًا، يكون تارك لمستحب فليس عليه إثم وله أجر، وإذا ترك واجبًا فترك الأجر وعليه الإثم، وإذا ترك ركنًا من أركان الدين كان كافرًا، وليس له أجر بتركه العمل ذهب عنه الأجر.

يا إخوة العمل الصالح له قوتان:

القوة الأولى: هي تحصيل الأجر، عندما تعمل صالحاً ماذا تحصل؟ الأجر، هذه قوة أولى.

القوة الثانية: أن يدفع عنه الوزر ما لو تركه؛ لأنه لو تركه لم يذهب عنه الأجر فقط، إنما وقع عليه الوزر إذا ترك واجبًا، فلو فعل الواجب لتحصل الأجر وماذا؟ وخرج من الإثم الذي يقع على مثل تاركه.

إذن مرتبة الخبر هي مرتبةٌ واحدة، التصديق أو عدم التصديق فإذا صدق أمن وإذا لم يصدق وكذب كفر، الآن جاء العمل، العمل له مرتبة القبول والالتزام، أن يقبله هذه مرتبة واحدة، يقبل أو لا يقبل، فإذا قبل فحينئذٍ يكون مؤمناً في هذه المرتبة، وإذا رده فيكون كافراً ولا عبرة بمرتبة هذا العمل كما قلنا، لا عبرة بمرتبته، ثم نأتي إلى مرتبة الالتزام والعمل والإتيان بالفعل، فحينئذٍ ننظر إلى مرتبة العمل، فإذا كان مستحبًا وتركه ذهب عنه الأجر، وإذا كان واجباً ترك الأجر وحصل عليه الإثم وإذا ترك ركنًا ترك الأجر وصار كافراً.

هل هناك أعمال تركها كفر؟ الجواب: نعم، هناك أعمالٌ قولية تركها كفر، وهناك أعمال قلبية تركها كفر، وهناك أعمال بدنية تركها كفر، يعني لو أن مرءً ترك عملاً من أعمال القلوب مما هو ركن من أركان الدين، ماذا قال الله عز وجل؟ ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ﴾ [يوسف: ٨٧]، هذا عمل فعله العبد وترك به واجباً من الواجبات، وهو ماذا؟ اليقين على موعود

الله عز وجل، فلو أنه كذب بموعود الله عز وجل فيما تعلق به العمل، فلو قال له الشارع: أن لك في الصلاة كذا فرد هذا الأمر فقد كفر لأنه عمل من أعمال القلوب، الحب لو خرج حب الله عز وجل كله من قلب العبد ماذا يكون؟ كافرًا، لو أنه تبرأ من المؤمنين تبرأ تاماً، لو أنه والى الكافرين يكون كافرًا؛ هذا عمل من أعمال القلوب، ولو أن رجلاً ترك لا إله إلا الله ترك القول: لا إله إلا الله وهو قادرٌ عليها، يعني لا يكون أخرساً فيكون كافرًا، ترك عمل، والصواب: أن ترك الصلاة كفر، وهذا الذي عليه إجماع الصحابة.

فإذن هناك أعمال هي من أركان الإيمان بالنسبة للأعمال، فقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٤]، بعد قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] دل على أن هذا هو أمرٌ آخر غير الخبر، لأن الأخبار كلها لها تعلق بالغيب وإلا لا يحصل فيها الخصومة، المشاهدة لا يحصل فيها، لو قال رجل: الإيمان بالرسل، هل هو من الإيمان بالغيب؟ نعم، لأن الرسل يقولون: جاءتنا الملائكة أوحى لنا الله فهم يخبرون بأمرٍ غيبي؛ فالإيمان بالرسل هو من الإيمان الغيب، الإيمان بالكتب هل هو من الإيمان بالغيب؟ نعم، يأتي ويقول هذا الكتاب من عند الله عز وجل، هذا من الإيمان بالغيب، لم يرى أن الكتاب نزل عليه، لم يرى الوحي وهو ينزل عليه، رأى آثاره لكن لم يرى الوحي، فهذا كله من الإيمان بالغيب.

فإذن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، إنما هذه المقصود بها الأوامر، فيجب على المسلم الذي يتبع النبي محمد صلى الله عليه وسلم، يجب عليه أن يؤمن بالأوامر التي نزلت عليه، على أي مرتبة؟ الذي قلناه: وهي مرتبة القبول لها أن يقبلها وألا يردها.

وثانياً: أن يلتزمها، بما تكلمنا به هناك إيمانٌ واجب، وهناك إيمانٌ مستحب وهناك إيمانٌ شرط من شروط الإيمان أو ركن منه أركان الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، كيف يؤمن بما أنزل من قبله، وهو ولا يلتزم فعلاً إلا بما أنزل إلى رسولنا صلى الله عليه وسلم؟ الجواب: عليه أن يصدق أن هناك كتب أنزلت على الأنبياء السابقين، وأوامر أنزلت عليهم فيجب عليه أن يؤمن بها على الجملة، وأن يؤمن بما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم، أو يؤمن بما جاء فيه القرآن، قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ [المائدة: ٤٥]، وهكذا، فهذا مما أخبر الله عز وجل به، فيجب عليك أن تؤمن به.

وهناك أوامر كثيرة لا نعلمها إلا إجمالاً أن هناك تشريعات نزلت على الأمم السابقة، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، تغيرت الأحكام بحسب الأمم هناك من أُحلت لهم أحكام رحمةً بهم، هناك من حُرمت عليهم أمور عذابًا لهم.

ولكن أقف عند نقطة سآتي إليها في نقاشي لبعض الكتب، إن بعضهم زعم أن الله أحل الفواحش والخبائث لأمم، هذه كلمة كبيرة لا تصدر إلا من جاهل، ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، الله لا يحل الخبائث، لا يأمر بالفحشاء وقوله: ﴿لَا يَأْمُرُ﴾، بعضهم ظن يعني يأمر بها أمر الوجوب فجازى أن لا يكون أمراً ويكون جائزاً، وهذا من تمام الجهل، وهذا إن شاء الله نبسطه في مكانٍ آخر؛ عندما نرد على بعض من زعم الإتيان به، فإن الله لا يأمر ولا يُحل الخبائث أبدًا، قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا)، لا يقبل، وكيف يحل ربنا سبحانه وتعالى الطيب الحق الله الحق، وهل يتصور من الحق المبين جل في علاه أن يجيز خبيثة من الخبائث لأمةٍ من الأمم؟!

فما علمنا في القرآن إلا أن الله عز وجل حرم بعض الطيبات على بعض الأمم عقوبةً لهم، حرم الله عز وجل عليهم ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، هذا لما جاء عيسى قال: لبني إسرائيل أنه ليحل لهم بعض ما حرم عليهم، وإنما حرم عليهم لمعاصيهم، حرمت عليهم ما حرم الله كما يقول القرآن إنما هو لمعصيتهم، فالله عز وجل لا يجيز لعبدٍ أن يأخذ الخبائث.

وزعم هذا القائل بأن الخمر كانت حلالاً لبعض الأمم!! العجيب أن هذا الزعم يقابله زعمٌ مقابل وهو أن الأمم السابقة مجمعٌ عندها تحريم الخمر، في كتب الأصول وذكر هذا الشوكاني نقلا عن غيره أن الخمر مجمعٌ على تحريمها عند كل الأمم التي جاءتها النبوة، فينظرون إلى الزاعمين، واحد يزعم أن الله حرم الخمر ومجمع على تحريم الخمر، وواحد يزعم أن الله أحل الخمر لبعض الناس! لا ندري من أين جاء هذا أن الخمر قد أحلت لبعض الناس لا نعرف هذا الكلام، إلا إذا توثق هذا القائل بما تنقله التوراة عن بعض الأنبياء كذبًا أنهم كانوا يسكرون ويشربون كما ذكرت التوراة عن سكر نوح عليه السلام وسكر لوط عليه السلام كما يقولون من أكاذيبهم وسبهم على الأنبياء، هذا كله من الباطل، الله لا يحل الخبائث قط، فالله لا يحل لأمةٍ من الأمم إلا الطيب.

القصد: وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، فالمقصود به أن هناك ما أخبر به اتباع النبي صلى الله عليه وسلم من تشريعات لأممٍ سابقة فما أخبر بها صدَقوه، ولكن هنا نأتي إلى مسألة يعني تحتاج إلى وقفة قليلة وإن كان بابها هو الأصول، هل شرع من قبلنا شرعٌ لنا؟

قبل الحديث عن هذه المسألة لابد من تصورها، يعني نحن نؤمن بما أنزل على الأنبياء السابقين، فهل الشرع الذي جاءهم شرعٌ لنا؟ هل شرعهم شرعٌ لنا؟ قبل أن نتحدث عن الجواب: نعم أو لا، علينا أن نتحدث عن أي شرعٍ نتحدث، هل الشرع الذي جاءت به التوراة المحرفة، هل الشرع الذي جاءت به رسائل بولس، شاوول، هذه، هل الشرع الذي جاءت به أخبار أهل الكتاب من قبل من أخذ من بعض الصحابة كعبد الله بن عمر بن العاص رضي

الله تعالى عنهما من كتب أهل الكتاب، ما هو الشرع الذي نتحدث عنه؟ هل هو شرعٌ لنا أم ليس شرعًا لنا؟ نريد أن نعرف ما هو، ولابد أن نحرر المسألة قبل الحديث.

أولاً: هناك اتفاق بأن ليس هناك ثمة حديث على أن الشرع الذي جاءت به لا التوراة ولا جاءت به أخبار أهل الكتاب، ولا جاءت به أخبار رسل النصارى، لأن الذي أحل المحرمات في التوراة هو من؟ هو شاوول هو أحل لهم كل شيء كما ذكرنا سابقًا في حديثنا عن حِلي الخنزير، هو الذي أحل لهم الخنزير، هو الذي أجاز لهم عدم الختان، هو الذي رفع عنهم الختان، وإنما الأمم كلها من بعد إبراهيم عليه السلام كلها تختتن، أول من اختتن إبراهيم عليه السلام بالقدوم كما في الحديث.

فإذن ما هو الشرع الذي نتحدث عنه؟ نتحدث عن الشرع الذي أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وسكت عنه، ولم يأتي في القرآن أو السنة نسخه، هذا هو الشرع، نتحدث إذن عن شرع من قبلنا هو الشرع الذي أخبر به القرآن أو أخبرت به السنة، وسكت عنه الشارع ولم يأتي شرعٌ يخالفه من كتاب ربنا ومن سنة نبينا صلى الله عليه وسلم، هذا الشرع على الصحيح هو شرعٌ لنا، وإخبار النبي صلى الله عليه وسلم أو إخبار الكتاب به، كقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ [المائدة: ٤٥]، هذه الآية بالإجماع أنها من حجة أهل الإسلام للقصاص، لماذا احتجوا بها؟ مع أنها إخبارٍ عن الأمم السابقة، ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾، يعني على اليهود، التوراة.

قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)﴾ [المائدة: ٤٥]، فالعلماء مجمعون على أن النفس بالنفس، لو أن امرأةً قتلت رجلاً لقتلت به، ولو أن رجلاً قتل امرأة لقتل بها، من أين احتجوا؟ بهذه الآية، وهذه الآية كما هي بينة في لفظها نزلت في أهل الكتابين، أهل التوراة والإنجيل.

الآن بماذا احتج ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، بماذا احتج على قتل الذي اللائط الذي يفعل فعل قوم لوط؟ احتج بفعل الله عز وجل عليهم، كما أن الله عز وجل فعل بهم فنحن نفعل بهم، فما فعله الأنبياء السابقون في أممهم هو حجةٌ علينا، أن هؤلاء الأنبياء فعلوا في أقوامهم ونعيد ونكرر، لا يأتي أحد ويقول: تريد أن تحيي العمل بالتوراة، نحن نحيي ما جاء في الكتاب والسنة، ما هو الذي جاء بكتاب السنة؟ أي أخبر به رسولنا صلى الله عليه وسلم على جهة الإقرار له لم يأتي بنفيه.

ومن ذلك ما يحتج به على قصة الفتى والساحر يحتج بفعله؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما ساقها مساق المدح، ساقها النبي صلى الله عليه وسلم لهذا في هذا الفتى مساق المدح، وهذا إقرارٌ منه صلى الله عليه وسلم، فأن يقول النبي صلى الله عليه وسلم خبراً ما عن الأمم السابقة ثم يسكت عنه، ولم يأتي في شريعتنا ما ينفيه أو أنه أُستبدل

بغيره فهذا يجب علينا أن نفعله، وأعظم دليل؛ لماذا ساق الله عز وجل علينا أخبار الأنبياء السابقين في كتابه؟ ونحن نعلم أن الأخبار في القرآن كلها أحكام، هذه قاعدة: لا يوجد خبر في القرآن ليس حكماً، «كل أخبار القرآن أحكام»، لم يخبر ربنا سبحانه وتعالى بخبرٍ في القرآن عن نبي من الأنبياء إلا وفيه حكمٌ شرعي يقتدي به نبينا صلى الله عليه وسلم، ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ومثال من الأمثلة على هذا: أن يأتي أحد فيقول: إن يوسف عليه السلام عندما يصبح الخلاف والمبارة شديدة بين فعل يوسف عليه السلام، هل يوسف عليه السلام عندما تولى الوزارة بملكٍ كافر؟ فيأتي أحد ويريح نفسه ويقول: بأن شرع من قبلنا ليس شرعًا لنا، خلاص ما فعله يوسف جاء ما ينافيه، والغريب أن هؤلاء حين يحتجون بهذا يجعلون تولي الوزارة كفرًا، يعني على قاعدتهم أن تولي يوسف عليه السلام الوزارة بأحكامنا نحن كفرًا، مع أن الكفر شيءٌ واحد في الأمم السابقة وفي الأمم اللاحقة، الكفر الذي به ينتقض عقد الإيمان والإسلام في زمن آدم هو الكفر الذي ينتقد به عقد الإسلام والإيمان في زمننا هذا، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، هذه قاعدة، فهذا من الجهل، من الغلط.

والذي يحتج بها على جواز دخول الوزارة المعاصرة كذلك هو جاهل لأن هؤلاء يعلقون الأحكام على الأسماء دون تبيّن واقع هذه الأسماء، لا يبحثون واقع هذه الأسماء، كالذي يسأل ويقول: هل يجوز الإيجار لكافر؟ فيقول أحد: نعم جائز، ولا يبحث موضوع الإجارة، فلو قيل له هو استأجره من أجل صناعة صنم.

كما في الحديث الصحيح: علّي رضي الله تعالى عنه أجر نفسه ليهودي على كل دلوٍ، يأخذ حبة تمر، فجاز إذن مع الكراهة عند جمهور العلماء لأن في ذلك استعلاء الكافر على المؤمن، لكن بحاجة كان جائعاً ورأى الجوع والأذى والألم في وجه النبي صلى الله عليه وسلم، فذهب وأجر نفسه ليهودي من أجل أن يستقي من البئر الماء على كل دلوٍ يأخذ حبة تمر.

فيأتي واحد ويقول: هل يجوز أن يؤجر المسلم نفسه ليهودي؟ فيقول: نعم، فيسأل شيخ فهل يجوز أن يؤجر المسلم نفسه لكافر على أن يصنع له التماثيل أو يبني له الكنائس؟ فيقول: نعم لأن إجارة المسلم فعلها علّي رضي الله عنه عند اليهودي هل يصح هذا؟! هذه إجارة وهذه إجارة ولكن هذه إجارة على شيء وهذه إجارة على شيء.

كلمة الوزارة اليوم لها مدلول، يجب عليك أن تبحث واقعها من أجل أن تتكلم فيها، يجب أن تبحث فيها، ليس ما تولاه يوسف من كلمة الوزارة أي واقع الوزارة، واقع هذه الكلمة ليس هو الوزارة الذي يتولاها الناس اليوم، تختلف، لا شك أنها تختلف، وأنا لا أريد أن أتكلم الآن ما هي الوزارة في زمنه والوزارة في زمننا ولكن قطعًا تختلف فعليك أن تبحث، لا يكفي اتخاذ كلمة الوزارة في الحالين دليل على اتحاد الحكم، لأن الوزارة هنا على معنى وهنا على معنى.

القصد من هذا أيها الإخوة الأحبة أن البعض يتخفف ويستريح ويقول: إن شرع من قبلنا ليس شرعًا لنا، ورأيت أحدهم يقول بعد أن تكلم فيها كلامًا أراح نفسه، وكأنه حسم المسألة، وأتى بالعلوم من قرنها فأذلها وخضعت لقوله، فيقول: بعد هذا القول بأن شرع من قبلنا هو شرعٌ لنا، هذا قول باطل وجاهل ويبدأ بشن المعركة، وهذا غير صحيح، إن شرع من قبلنا هو شرع لنا ولكن بعد تحقيقنا لما هو الشرع الذي نتكلم عنه، لا نتكلم عن التوراة، لا نتكلم عن أخبار الإخباريين من أهل الكتاب، نتكلم عما جاء به الكتاب، أخبرنا الكتاب بأمر، فسكت عنه ولم يغيره، جاءتنا السنة بأمر فأقرته فحينئذٍ هو شرعٌ لنا، نتحدث عن هذا الباب وإلا لم يحصل الاتساع، ولم يقع قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٤]، هنا كما ترون في كلمة عظيمة وهي أنزل، والإنزال لا يكون إلا من علٍ؛ فدل على أن الحق فقط مصدره –مهم جداً هذا– أن الحق مصدره هو ما نزل من السماء فقط، معيار الحق هو ما نزل من السماء، ودل قوله تعالى: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، دل على أن الحق في تاريخ البشرية هذا هو سنته، الحق لا يصدر من نفوسهم، وهذا سيأتي تقريره وبيانه بأكثر من هذا عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

لا يمكن للبشرية أن تنتج حقًّا بنفسها لا يمكن، بل لا يمكن أن تتفق وعدم الاتفاق بين كل البشر دليلٌ على عدم وجود الحق لأنه لا يستطيع أحد أن يحسم الكلام فيها، لا يوجد أحد، فقوله تعالى: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، دل على أن هذا نزل من عَلٍ، وهذا النزول من عَلٍ أيها الإخوة الأحبة فيه إشارة إلى ما يقال في الأصول: أن الحكم الإلهي هو حكمٌ فيه الاستعلاء، الحكم الشرعي من صفاته الاستعلاء، ماذا يعني؟ صدر من عَلٍ إلى أدنى، ومن هنا يكسب قوة التعبد والامتثال، لأنه لو صدر من مساوٍ لكان إرشاداً، فقط إرشاد تأخذه أو لا تأخذه، ولو صدر من أدنى إلى أعلى يكون رجاء، يرجوه، يطلُب منه، لكن هذا نزل من فوق، دل على استعلاء هذا الحكم وهذا القول، فقوة هذا القول أنه نزل من عَلٍ.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، أنا هنا أريد أن أنبه على شيء تقدم الكلام عليه في سورة «الفاتحة»، تحدثنا حديثاً كافيًا عندما أتينا إلى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، تكلمنا على أنها جاءت بصيغة الجمع، تذكرون، عندما قال الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ووقف عندها أهل العلم والبلاغة على الخصوص لماذا جاءت بصيغة الجمع والمتحدث واحد؟ وتكلمنا بما فيه الكفاية.

وانظر هنا أن الحديث يدور حول الجماعة قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٣-٤]، فإنما الحديث هو حديثٌ عن جماعة، وليس الحديث عن فرد، فهذا مهم لأن بناء القرآن إنما يقوم على تكوين أمة؛ فالخطاب هو خطاب أمة، لما كان هذا

القرآن المقصود به أن إيجاد أمة؛ فالخطاب هو خطاب أمة، لأن الذي سيقابل طائفة النفاق هي جماعة، والنفاق الحديث عنهم جماعة والقرآن يفصل هذا، فيقول تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، ويقول تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧]، فيبين أن التأخي موجود.

ولذلك يقول: ﴿قَوْمٍ﴾، فكثيرًا ما يقول القرآن: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وكلمة قوم أيها الإخوة الأحبة تأتي أصلها من قامة، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، وأخرج النساء من القوم، لأن المرء لا يقوم بالنساء، قال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]، فالأصل وإن كانت تدخل المرأة مرات في القوم تبعاً لا أصالةً، كما يدخل العبيد، العبيد يدخلون في القوم تبعاً لا أصالةً، فقوله تعالى: ﴿وَلَا نِسَاءٌ﴾، دل على أن النساء ليسوا من القوم، لماذا؟ لأن القوم ما يقوم به الإنسان، بماذا تقوم أنت؟ تقوم بمن معك بمن يقومون بك فيهم العصبة، فيهم القوة، فيهم الشأن، أنك لو احتجتهم قمت بهم أو احتاجوك قاموا بك، فأخرج النساء لأنهن لا يصلحون لذلك.

فلذلك لما قال سبحانه وتعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فجعل الإيمان كأنه هو الذي يصلح به قِوام هذه الأمة، كما أن الكفر كذلك يقوم به أقوام ويجتمع عليه أقوام فيكون قد قاموا به فكذلك ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، هذه دلت على أن بناء القوة في داخل هذه الأمة –القوة التي بها قام– قوم إنما هو أساسه الإيمان، ما هو الشيء الذي يجتمع حوله ليكونوا قوم؟ ليس النسب، ليس الأرض، ليس الجاهلية، وإنما هو الإيمان ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

فهنا الحديث كله عن جماعة لأن المقصود أول القرآن يلقي في ذهنك من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حتى الحديث هنا عن جماعة الإيمان وعن المفلحين وعن الذين هم هدى للمتقين هؤلاء المتقون، إنما يتحدث عن جماعة لأن مقصود القرآن هو بناء أمة، مهمات القرآن لا تقوم إلا بالأمة، لو أن مفهوم الأمة غاب ولم يعودوا قومًا، هؤلاء المسلمين لم يعودوا قومًا، هل يستطيعون أن يقومون بالزكاة على وجهها؟ من الذي يجمع الزكاة؟ طيب هل يستطيعوا أن يقومون بالصلاة على وجهها صلاة الجماعة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩]، كيف يقومون بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، كيف يتحقق حرب رسوله لهؤلاء الذين أكلوا الربا من غير قوم، من غير جماعة من غير أمة.

فأحكام الشريعة إنما تتمثل في أفقها وجلاءها الأعظم عندما تكون هذه الشريعة في يد أمة يمثلهم قوم قاموا به.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٤]، ونحن تكلمنا في الدرس الفائت عن النماذج القرآنية عن الآيات التي دائماً تقدم الإيمان بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل إليه على الإيمان بالرسل المتقدمة، وقلنا هذا في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقال

تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [النساء: ١٦٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩)﴾ [المائدة: ٥٩].

فإذن المقصود: أولاً: هو الإيمان بالرسل، بنبينا صلى الله عليه وسلم، لأن الأمة الآن لا يمكن أن تؤمن بالرسل إلا من خلال إيمانها بمحمد صلى الله عليه وسلم، اليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى، والنصارى آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد، من الذي يؤمن بجميع الرسل؟ أمة الإسلام فقط لأن النصارى لا يؤمنون بجميع الرسل وهم آخر الأمم قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم واليهود لا يؤمنون بجميع الرسل، ودل سورة «الشعراء» على أن الكفر برسول هو كفرٌ بكل رسل، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، من قبل نوح؟ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥)﴾ [الشعراء: ١٠٥]، فلماذا كذبوا المرسلين؟ لتكذيبهم بالرسول فقد كذبوا جميع الرسول، فالتكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم هو تكذيب بعيسى عليه السلام لأنه ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ﴾ [الصف: ٦]، فقد كفروا، هم كفروا بالرسول، ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾ [آل عمران: ٨١].

فالله أخذ الميثاق على كل نبيٍ من الأنبياء أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأنه إذا جاءه محمد صلى الله عليه وسلم وهو حي أن يكون تابعا له، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، فكتاب محمد صلى الله عليه وسلم مهيمن على كل الكتب، وكان على كل الأنبياء قبل النبي وعلى كل أتباع الأنبياء قبل النبي عليهم الصلاة والسلام جميعاً، أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، انظر ولو كفروا به لكفروا بأنبيائهم وهذا الواقع، فاليهود والنصارى هم كفار بعدم إيمانهم برسولنا صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، نحن الآن أمام شيء عظيم ترى هنا شيء الحديث عن المتقين ثم تختم المتقين كيف بدأوا، ونحن قلنا: الاتقاء هو كيف تمشي، فهي صفة السلوب أن تتقي، وفي النتيجة ما هي الأخيرة؟ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾ [البقرة: ٥]، ففيها ذكر البدايات: التقوى، وفيها ذكر النهايات: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، فهي حديث عن المتقين، وهي حديث عن المفلحين، فهي كما تقدم حديثٌ عن جماعة.

وهنا في خفاء هذه الجماعة، يظهر ضميرٌ عظيم به تعلق أصل الإيمان، بعد الإيمان بالله، ما هو؟ ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، وعادةً أيها الإخوة الأحبة يعني الخطاب كما قلنا: هو خطاب للمؤمنين، هذا خطاب ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾، فهو خطاب للمؤمنين، ثم كأن هذا الخطاب هو فقط خطابٌ لرسولنا

صلى الله عليه وسلم وكأنه هو المقصود في الخطاب كله مع أنه حديثٌ عن المؤمنين جميعًا، مع أن هذا المخاطب غير حاضر إلا في الذهن، هذا المخاطب من هو؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أين ذكره أين هو؟ يعني عندما يأتي المرء إلى القرآن، أين هذا ينزل إليك؟ الخطاب له، هو وصفٌ للمؤمنين وهو خطابٌ له.

وهذا الخطاب إنما خص به لعظمة هذا المخاطَب مع أنه عام لكل الناس، هذا الخطاب لكل الناس، لأن خطاب الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم هو خطاب لأمته، أي عندما يقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق: ١]، هذا خطابٌ للنبي صلى الله عليه وسلم أم خطاب لأمته؟ هذا خطاب لكل أمته، وهذا الذي يسميه الإمام الشافعي رحمه الله في كتاب «الرسالة» «خاص أريد به العموم»، من الخاص؟ النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الطلاق: ١] ما المراد به؟ عموم أمته يعني يا أمة النبي، ولكن لماذا يختص بذكر النبي صلى الله عليه وسلم هذه لها مقصدها، فخطاب الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم هو خطابٌ لكل أمته، ولكن هنا الخطاب كأنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والحديث كأنه عنه، وذلك لعظمة شأن هذا النبي، فخفاء هذا الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو تمويه كأن هذا القرآن موجه لرسولنا صلى الله عليه وسلم وإنما كانت عظمته أن يوجه إلى هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وبعد ذلك يسري لأمته.

بما يعرف عظمة الرسالة؟ ليس فقط بعظمة المرسِل، ولكن لعظمة المرسل إليه، يعني العظيم إنما يخاطب من يستحق الخطاب، ولذلك هذا الخطاب قال: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾، تعظيمًا له، أنا لا أعطيه لغيره لأنه لا يستحق هذا الخطاب، فهذا أعطيته للمتقين، وأمام المتقين في الخطاب هو رسولنا صلى الله عليه وسلم، فالخطاب إليه.

هنا هذا الخطاب الشرعي العظيم الذي تجلت عظمته بخطاب الله عز وجل لرسولنا صلى الله عليه وسلم وعندما سيأتي الحديث في سورة «البقرة» بعد ذلك، عندما يأتي ذكره شأن الخلق وما بدأ الله به، من إخبار الملائكة على هذا الأمر جاء الخبر لرسولنا صلى الله عليه وسلم دون بقية الخلق، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠]، ما قال: ربكم، مع أن هذا الحديث هو خبر وخطاب وحديث للعالم أجمع للمسلم والكافر حتى يعلم كيف بدأ الخلق وكيف نشأنا نحن، ولكن لما كان هذا العظيم هو كأن الخطاب له، أنا أخاطبه لعظمة هذا الخطاب ولعظمة هذا المخاطب وما عليكم إلا أن تسمعوا لما اسمعه لهذا العظيم، عندما تتوجه أنت إلى واحد وأنت تخاطبه تعظيمًا له والكل يعلم أن خطابك له هو خطابٌ لهم ولكنه على جهة السماع منهم وعلى جهة التكريم له، هذا التعظيم، انظر هذه العظمة.

وأنا عندما أمر على هذه الآيات، يجعلك تتيه حقيقة ويقشعر بدنك، كيف كان يتلقى الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم هذا الخطاب وهو يقرأه؟ يعني ما هي هذه النفس العلوية العظيمة الشريفة المتواضعة الكريمة، التي لو أحسن إليها عبدٌ بحسنةٍ ولو يسيرة لوقعت منها موقعًا عظيمًا، فما هو شعورها وهو يقع عليها أن خطاب الله لك، أنت عين هذا الإنسان الذي أخاطبه وما خطابي للآخرين إلا تبعًا لخطابي لك، كيف كانت تقع هذه على قلب

النبي صلى الله عليه وسلم؟ أي شعور كان يتجلى ويغشوا قلب النبي صلى الله عليه وسلم من امتنان؟ هو محمد، يعني عندما يشكر الله هذا هو محمد، يشكر الله خطاب الوجود له.

كيف يقع على قلب النبي صلى الله عليه وسلم إني كنت امتحن أباك إبراهيم بالإيمان بك؟ ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ [آل عمران: ٨١]، منهم إبراهيم، كيف يقع على قلب هذا الحبيب الشاكر الحامد وهو يعلم أن الله عز وجل امتحن والده آدم بالإيمان به؟ هذا العظيم هو الذي جعله الله عز وجل رسول هذه الأمة من أجل أن تقتدي به، ومن أجل أن يتأسوا به، ومع ذلك يذهبون فيتأسون ويقتدون بزبالة البشر والكلاب والذين لا قيمة لهم مما قال الله عز وجل: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤]، كيف يترك الناس هذا النبي العظيم الذي يخاطبه الله هذا الخطاب؟ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، هو حاضر صلى الله عليه وسلم في هذا الخطاب.

قال تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)﴾ [البقرة: ٤]، قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ مع أنه تقدم قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، ومن أعظم الغيب وهو غيبٌ مطلق معرفة الساعة، وأما الإيمان بها أنها آتية فهذا إيمانٌ أمتحن الله به الخلق جميعًا، على أن الآخرة يومٌ موعود لابد أن يأتي، والآخرة سميت لأنها تكون آخر هذه الدنيا، فلما كان بداية هذه الأيام التي ستأتي إنما تبدأ بأخر يومٍ في هذه الدنيا، متى تبدأ الحياة الآخرة؟ تبدأ الحياة الآخرة عندما تنتهي الحياة في هذه الدنيا، فهي آخر يوم من أيام الدنيا تبدأ الحياة القادمة فسميت بالحياة الآخرة.

ويقال كذلك: لأنها هذه لا نهاية لها، أي آخِر هي الآخِر تكون آخِر شيء، الحياة الآخرة التي لا حياة بعدها، وكذلك تقابل الحياة الدنيا الحياة الأولى فهذه الحياة الأولى وتلك الحياة الآخرة، وإنما ذكرت هذه لعظمتها فهي من الغيب وقال الله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)﴾ [البقرة: ٣-٤] وهنا خصت بالذكر لعظمتها، لأنها أعظم في الغيب، وإنما خلق الله الخلق لها، خلق الله الخلق لماذا؟ للآخرة، ولذلك الحياة الآخرة هي التي على المرء أن يسعى لها،

قال تعالى: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤)﴾ [الفجر: ٢٤] بمعنى أن هذه الحياة لا ينبغي أن تقدم لها شيئًا، وإنما العاقل هو الذي يجعل هذه الحياة سبيلاً ومنفذاً من أجل الحياة الآخرة، لأن هناك حياة هي الحياة التي لا مفر ولا مترك لها ولا تغيير لما أنت عليه فيها، ما في تغيير، في الحياة الدنيا تكون من مرضٍ إلى صحة ومن صحةٍ إلى مرض، ومن غنى إلى فقر ومن فقر إلى غنى، ومن عزةٍ إلى ذلة ومن ذلةٍ إلى عزة، هذا تحول، ولذلك هذا التحول الله نسبه لنفسه فقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، نسبه لنفسه، هذا ليس لك، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥] نسبه لنفسه، أي بمعنى

من الذي يغني؟ الله عز وجل، من الذي يفقر؟ الله عز وجل يمنع عنك الغنى، يمنع عنك العطاء، من الذي يبتليك بالصحة؟ الله عز وجل، يبتليك بالشر والخير، من الذي يبتليك بالعجز؟ الله عز وجل.

فأنت ما هو المطلوب منك في هذه الحياة؟ هو العمل؛ أن تصبر وتشكر، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥)﴾ [إبراهيم: ٥]، الصبر على المكاره والشكر لما يأتيك من خيرات ونِعم، فأنت تصبر وليس الصابر صبار وشكور كثير الشكر وكثير الصبر، لكن الآخرة إنما هي تُصنع منك بإعمالك في الدنيا ولا تحول فيها، الآخرة لا تحول فيها، ولا أعمال هناك، الأعمال التي ليس فيها المقصود الأعمال التي تحاسب عليها، ففي الجنة دوام حياةٌ ولا موت وفي النار حياةٌ ولا موت، فما تصنعه من أحوال في الآخرة إنما نتيجة لما تعمله من أعمال في هذه الدنيا، وليس لما تعيشه من أحوال، يعني لا تدخل الجنة لأنك فقير، ولا تدخل الجنة لأنك غني ولا تدخل الجنة يوم القيامة لأنك ضعيف فقير، ألا يقولوا لك: الفقراء يدخلوا إلى الجنة، لا، في فقراء في جهنم خالدين فيها أبدًا، وفي متبوعين في جهنم وفي تابعين في جهنم، قال تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤)﴾ [الغاشية: ٣-٤]، عاملة وناصبة، وفي النهاية ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤)﴾، فلا يظن أحد أنه الفقراء يدخلون الجنة، المرضى مساكين يدخلون الجنة، لا، هناك مرضى يدخلون جهنم.

تعرفون هذا العالم الإنجليزي الذي يقال: هو أعلم رجل في الرياضيات، كيف حاله؟ شلل تام لا يستطيع أن يتكلم، لا يستطيع أن يأكل، لا يستطيع أن يحرك ولا عضلة، ومع ذلك يؤلف الكتب في عدم وجود الله عز وجل، فهذا لا يقال: لأنه والله مريض ومسكين وما تلذذ في هذه الحياة الدنيا، هذا لا قيمة له، إنما يُدخل المرء الجنة يوم القيامة أعماله الصالحة، ويُدخل المرء النار بأعماله الفاسقة والظالمة والكافرة، ولذلك عليك هنا أن تقوم بالأعمال من أجل أن تتحقق دخول الرحمة، أما في الآخرة ما في أعمال خلاص، هذه قاعدة من القواعد.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، هذه دلالة على أن الله عز وجل ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، لا نفرق هذه قاعدة من قواعد القرآن، ستأتي في آيات كثيرة كما في خاتمة هذه السورة وهذه الآية هنا ما يجمعها مع آخر خاتمتها، خاتمة سورة «البقرة»، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء: ١٥٠]، ولذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، فالإيمان بالرسل من قبل النبي صلى الله عليه وسلم هو شرطٌ من شروط دخولك في المتقين ونتيجة هذا هو الفلاح.

قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)﴾ [البقرة: ٤]، اليقين هي مبنى ومعنى في الإتقان، الإتقان هو تمام الشيء أن تأتي به على أوفى ما يؤتى به، واليقين أن تأتي به عارياً سليماً من الشك والريب، الإتقان أن تأتي به عاريًا من الفساد، تقول: الرجل أتقن، وأيقن على معنى واحد، أتقن وأيقن على معنى واحد، الإتقان هو سلامته وبراءته من

العيب، واليقين سلامته وبراءته من العيب، ما هو العيب في اليقين هو الشك والريب، ولذلك هو عملٌ من أعمال القلوب تظهر أثاره على الجوارح،

فقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)﴾ [البقرة: ٤]، كيف يوقنون بها؟ يعني لا يأتيهم الشك فيها، ولذلك لما قال الله كما يأتي من تفسير هذا اليقين في سورة «البقرة» لما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، بعض الناس ظن أن هذا السؤال من إبراهيم عليه السلام كما سيأتي ظن أنه حديثٌ عن إحياء الموتى وإنما سأل إبراهيم عن كيفية أحياء الموت، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ﴾، هو يريد أن يعرف كيف؟ وأما يقينه بأنه قادر على أن يحيى الموتى هذا لا شك فيه، ولذلك ﴿قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

وهنا يأتي الكلام على أن الاطمئنان مرتبة أخرى غير مرتبة الإيمان، هناك إيمانٌ ممتحن وهناك إيمانٌ غير ممتحن، ما هو الأعظم؟ كلاهما له درجته من العظمة والقبول عند الله عز وجل.

مثال ذلك: لو أن أمةً أمنت من أعدائها فلم يأتيها الأعداء، وبقيت في عبادتها سليمة، فهذه أمانها غير مبتلى، فلو جاءها الأعداء فصدتهم إيمانٌ مبتلى، فالذي تأتيه الشبهات واحد يأتي إليه سواء من شياطين الإنس أو من شياطين الجن، واحد لا يأتي يعيش في بلدٍ مؤمن لا يأتي الشك فيها والريب أبداً، فهذا إيمانٌ غير ممتحن، وهو إيمان لكن لو جاءت الشبه فردها فهذا إيمانٌ ممتحن، حاربها وردها وصدها بقوةٍ ويقين، فهذا إيمانٌ ممتحن، الإيمان الأول هو إيمانٌ لا يصد ولا يقاتل وهذا يقال له إيمانٌ مطمئن، وإما الذي تأتيه النوازع والشبهات فيردها فهذا إيمانٌ ليس فيه اطمئنان ليس مطمئن.

ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ [النحل: ١١٢]، لماذا جمع بين الأمان والاطمئنان؟ لأنه قد يكون هناك أمان ولا يوجد اطمئنان، كيف؟ ألا ترون أن جماعة تعيش وهم وجود الأعداء، فهي آمنة على الحقيقة في حقيقة الأمر آمنة لا أعداء عندها، ولكنها تعيش الخوف، يوجد أم يوجد من الناس؟ يعني الآن هل يوجد في الوجود ناس أغنياء، لو أنهم أنفقوا في كل يوم ألف دينار سيموتون أثرياء، ومع ذلك لا يطمئنون لغناهم، كل يوم هم في شغل وفي خوف من الفقر، فهم في أمان حقيقي، ولن يصيبهم بلاء في قدر الله ولكنهم في غير اطمئنان، وهناك أقوام يشعرون بالطمأنينة وهم ليسوا في أمان –مثل أحوالنا– مطمئنين وجالسين والأمة مبتلى لكن لجهلهم يشعرون بالاطمئنان وفي حقيقة الأمر ليسوا في حال الأمان، فالاطمئنان مرتبة أخرى غير مرتبة الإيمان، هذا نأتي إليه أن شاء الله عند حديثنا إن قدر الله عن قصة إبراهيم عليه السلام وسؤاله عن كيفية أحياء الموتى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)﴾ [البقرة: ٤]، هذا إيمانٌ بالآخرة ليس فيه شبهة وليس فيه عوارض، وكيف يكون اليقين؟ تأتي أثاره على القلب، هل اليقين يمد العمل، أم العمل يمد اليقين؟ أي عندما المرء يعمل الصالحات هل يزداد إيمانه ويقينه؟ وهل يقينه يجعله يزداد في الأعمال الصالحة؟ الحال بينهما كحال القلب مع الشرايين، القلب يكون قوياً فيمد الدم للشرايين وتكون الشرايين قوية والدم قوي، فيكون القلب قوياً، ولا تدري من هو الذي يقوي الآخر، هذا يقوي هذا وهذا يقوي هذا، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد: ١٧]، كلما عملت عملاً صالحاً ازداد إيمانك، وكلما ازداد إيمانك (وما زال الرجل يتأخر حتى يؤخره الله)، هذه قاعدة، ــإذا أتاني يمشي أتيته هرولة)، الله يعطيك وكلما ازددت هذا العطاء كلما ازددت عملاً صالحاً فكلاهما يمد الآخر بالقوة، وكذلك يمده بالضعف، ضعف اليقين يؤثر على ضعف العمل وضعف العمل يؤدي إلى ضعف اليقين وهكذا.

بعد هذه الخصال القرآنية التي قالها الله عز وجل وأنتم كما ترون أن الله عز وجل أجمل ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أجملها، ولكن عندما ذكر سابقاً ذكر الصلاة والزكاة على وجه الخصوص لأهمية هذين العملين، ودائماً في القرآن قرن الصلاة مع الزكاة؛ لأن الصلاة هي حق البدن والزكاة هي حق المال، ولذلك أنت وما تملك ينبغي معناها أن تكون لله، (إن صلاتي)، هذا أن تكون لله هذه الصلاة هي أنت والزكاة هو ما تملكه، أن تؤدي حق ما تملكه بالزكاة، وتؤدي حقا ما أنت فيه في الصلاة؛ لأن أعظم ما يؤدى هو الوقت، ما هو الإنسان؟ هو الوقت، فإذا أنت قمت بالصلاة أعطيت أعظم ما أنت فيه، فأعظم ما أنت فيه وهو الوقت، قدمته لله قرأت القرآن صليت، ركعت، سجدت، والزكاة هي حق المال ما تملكه، ما تملك تؤدي حقه، ولذلك جاء الخصوص بها وأجمِل أمر الغيب بعد ذلك بهذا الإجمال، وذكر أمر الآخرة لأنه أهم ما في الغيب، وفي هذه الآخرة كل الغيب، متى يكون الميزان؟ في الآخرة، متى تكون الجنة؟ في الآخرة، متى تكون النار؟ في الآخرة، متى ترى الملائكة؟ في الآخرة.

ولذلك في الآخرة كل غيبٍ كان عنك صار شهودا ظل غيب في الآخرة يصبح شهود.

قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤-٥]، بعد أن ذكر خصالهم ذكر حالهم وحكمهم، وذكر حالهم بأعظم ما يُذكر به، فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾ [البقرة: ٥]، انتبه لكلمة هذه ﴿عَلَى﴾ التي تأتي على الاستعلاء، ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾ وكأن الهدى مطيةً قد امتطوها، ﴿عَلَى﴾، ما قال: أولئك في هدى إنما قال: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾، فجاء هذا الحرف وهو من حروف المعاني ﴿عَلَى﴾ وهو الدال على الاستعلاء؛ دلالة على أنه امتلكوا الهدى فصارت الهدى مطيةً لهم خادمةً لهم في وصولهم إلى مبتغاهم.

ومن هنا السلف ماذا فسروه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾ [البقرة: ٥]؟ قالوا: على نور قد وصلوا إلى مستقرهم، ماذا قالوا؟ قالوا عندما فسروا أولئك على هدى على ماذا؟ قالوا: على نور هذا في حالهم، لكن أين يوصلهم؟ إلى مستقرهم إلى الجنة؛ ذلك لأنهم امتطوها فصار أمرهم على هذا الهدى كأنهم قد ملكوه فهو خادمٌ لهم،

كأنه خادمٌ له، ولذلك يقال: فلان على ضلالة، انظر دائمًا تطلق، وفلانٌ على سبيل نجاة، فلان على نجاة، وهكذا، للدلالة على عظمة هذا الأمر في أنه إذا ملك المرء هذا الشيء ملكاً تاما جاء بهذا الحرف دالاً عليه، ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥].

ثم نحن رأينا عند ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦]، وقلنا: هذا الصراط المستقيم لا يأتي أبداً في القرآن، لا يأتي الصراط إلا منسوباً وإلا لا يأتي هكذا صراط، لا يأتي عليه الحق إلا منسوبًا إلى الله عز وجل منسوباً للاستقامة منسوباً للجنة، منسوب، وهنا انظر إليه كيف جاء قال: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾، ولكن هنا جاء بأن نسب الهدى إلى الله عز وجل تشريفاً وتعظيماً له وتأكيدًا على أن مصدر الهدى الذي يتحقق به النور ويتحقق به الوصول للمقصود لا يكون إلا من الله عز وجل، ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥].

ونقف نحن عند كلمة ﴿رَبِّهِمْ﴾؛ لأن لنا معها وقفات إن شاء الله في الدرس القادم، ومتى تستخدم كلمة الرب في القرآن؟ ومتى تستخدم كلمة الإله؟ إن شاء الله في الدرس القادم نقف عندها، وهي إن شاء الله سنناقش بها بعض من خالف في ذلك في وقتها.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾ [البقرة: ٥]، فيها بيان ما هم عليه، وبيان العاقبة، قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾، وكلمة الفلاح جاءت في القرآن أكثر من سبعين مرة، كلمة الفلاح في القرآن هي الدالة على النجاح، والدالة ليس فقط على النجاح وعلى الخروج من عواقب الشر؛ فأفلح، وسنبين إن شاء الله بعض ما جاءت فيه في الدرس القادم، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم، واعتذر اليوم عن الأسئلة لبعض المهمات.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس التاسع عشر

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

هذا هو الدرس التاسع عشر من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة»، وذلك في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾ [البقرة: ٥].

النقطة الأولى: التي تكلمنا عنها في الدرس الفائت على حرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾، ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وقلنا: بأن الإتيان بهذا الحرف على دون بقية الحروف ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾، دلالة على تحكمهم وتحكم الهدى بهم، وعلى أن هذا الاستعلاء كأنهم امتطوا الهدى فصار موصلاً لهم إلى بغيتهم من غير شك ولا ريب ومن غير اضطرابٍ ومن غير انحراف، فلم يقل: أولئك في هدى من ربهم، بل قال: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

ولما يكون الشيء مُستعلياً على شيءٍ آخر دل على تمكنه منه ودل على ملكه له تمام الملك، فلذلك هذا مدحٌ عظيم من الله عز وجل لهؤلاء بأن الهدى الذي أعطاهم الله عز وجل إياه بعد أن أتوا بأسبابه وما تقدمت من صفاتهم، في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)﴾ [البقرة: ٣-٤]، خلاص، النتيجة هو حصول الهدى على الصحيح، أنه قد حصلت لهم الهدى، وهنا الهدى هو النور والبصيرة التي توصلهم إلى مرادهم، ومراد الإنسان في هذه الدنيا هو إرضاء الله عز وجل، والخاتمة كما سيأتي وهي دخول الجنة.

فأولاً: هنا وصف ما هم عليه، ووصف ما سيؤول أمرهم إليه، قال: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾ هذا وصف حالهم الذي هم عليه في هذا الأمر، ثم قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾، وصف عاقبتهم.

النقطة الثانية: هنا نرى بعض الكلمات التي تحتاج إلى وقوف وانتباه، كما ترون تكرر هنا لفظ ﴿أُولَئِكَ﴾، كان ممكن أن يقول: أولئك على هدى من ربهم والمفلحون، لكن تكرر هذا الاسم، اسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾، وهو أولاء جمع ذا كما ترون على غير القياس، أولاً: تكرر؛ ذلك لاختصاصهم بكل أمر، ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾، اختصوا بهذا الأمر فهو لهم دون سواهم، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾ أي اختصوا بالفلاح دون سواهم، فلو لم يقل كذلك؛ لدل هذا على أنه يمكن لغيرهم أن يكون على هدى، أو يمكن لغيرهم أن يكون مفلحًا، وهذا لا يمكن،

وهذا اسم إشارة جاء مكررًا في هذه الآية ليدل على اختصاصهم بكل صفةٍ عقبه، طبعاً أولئك تعود على هذا ما تقدم من الصفات على الصحيح مع خلاف، ذكرنا أن بعضهم قال: بأن الوصف الأول يعود إلى المسلمين العرب، والوصف الثاني لمسلمي الكتاب، وهذا قول رددناه بما أمكن إن شاء الله عز وجل، هنا واحد، إذن النقطة الأولى لماذا أستخدم ﴿عَلَى﴾.

النقطة الثانية: لماذا تكرر اسم إشارة ﴿أُولَئِكَ﴾، فعلمنا الاختصاص، وهذا الاختصاص أيها الإخوة الأحبة مهم، لماذا مهم؟ لأنه فيه كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ماذا قلنا فيها؟ قلنا: لو قال: نعبد إياك لما كان فيها القصر، فلما تقدم المعبود إياك على الفعل نعبد، على ما هو الفعل الذي سيقع؟ نعبد وفاعله دل على الاختصاص، وهنا لما قال ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]، فدل على اختصاصهم أنهم فقط لا يوجد أحد مهدي إلا هؤلاء، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾ [البقرة: ٥] لا يوجد أحد مفلح إلا هؤلاء.

النقطة الثالثة: لماذا جيء بحرف العطف «الواو»، وفي سورة «الأعراف» لما قال الله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿أُولَئِكَ﴾ ولم يأتي بحرف «الواو»، وهنا قال: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾ [البقرة: ٥]، في سورة الأعراف قال سبحانه وتعالى عن الكافرين: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿أُولَئِكَ﴾، ما قال: «و».

السبب: أن الأمر الأول الذي اتصف به هؤلاء هنا في هذه الآية من سورة «البقرة» وهو أنهم على هدى مغايرٌ على قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، لأن «الواو» بالإجماع تقتضي المغايرة، بإجماع أهل اللغة، هل تقتضي الترتيب، الحقيقة هي تقتضي مطلق العطف، مطلق الاجتماع ولا تقتضي الترتيب ولا غيره، ولكنها بالإجماع «الواو» إذا جاءت بين أمرين دل على تغايرهما، فلما جاء «واو» هنا ﴿وَأُولَئِكَ﴾ [البقرة: ٥]، دل على أن الأمر الأول غير الأمر الثاني، ولذلك قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾ [البقرة: ٥]، فالفلاح خير، وقلنا: هذا جمعٌ بين الحال وبين المآل.

النقطة الأخرى انظر ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ﴾ [البقرة: ٥]، هذه ﴿هُمْ﴾ عادةً إذا جاءت بين اسمين معلومين تسمى عند أهل البلاغة بضمير الفصل، لأنها تفصل بين المبتدأ والخبر لئلا يتوهم أنها صفة، المبتدأ والخبر أقوى من كون الشيء وصفته، لأن الشيء وصفته لا يقتضيان الاختصاص ولا القصر، يعني لو قلت: فلان أسود، فلا يعني أن السواد مقتصر عليه، لو قلت: فلان طويل، فلا يدل على هذا الأمر، لا يدل على أن الطول مقتصر عليه، لكن لو قلت: فلان هو الطويل، انظر فأنت كأنك تقول: فلان هو، هو، وكأن هذا قصرٌ على هذا الأمر ولذلك الخبر أقوى من أن يكون صفة، فمجيء الضمير هو الذي يسمى عند أهل اللغة بضمير الفصل هنا من أجل أن يبيّن أن العلاقة بينهما هي علاقة المبتدأ مع خبره وليست علاقة الموصوف مع صفته، ولذلك قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ﴾، لو قال: وأولئك

المفلحون، من غير ضمير الفصل هذا ﴿هُمْ﴾، لما جاء هذا القصر، لما أفادت القصر، ولما جاء هذا ضمير الفصل فدل على أن الأول ﴿وَأُولَئِكَ﴾، إنما هو مبتدأ، ﴿وَهُمْ﴾ هو ضمير الفصل و﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ هو الخبر وهذا الضمير هو الذي يفيد هذا المعنى فيما تقدم.

النقطة التي سنقف عندها بعض الوقوف وربما تستغرق أكثر هذه الجلسة وهي مهمة عند الوقوف، تكلمنا عن الهدى ما هو، الهدى في ديننا –هنا نقطة مهمة ذكرناها سابقاً في الدرس الفائت– لكن الهدى في القرآن ليس فقط مجرد النور الذي يكشف لك، لكنه الدافع الذي يقيم إرادتك على اتباع الحق، ولذلك جعل الله عز وجل الهدى تقابل الظن وتقابل الهوى، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [الأنعام: ١١٦]، والظن في أي شيءٍ يقدح؟ الظن يقدح في العلم، إن ﴿يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، والهوى يقدح في الإرادة، يعني يمكن للمرء أن يكون خاليًا من الظن ضعيفاً في إرادته أن تقيمه لاتباع الحق؛ لأنه يتبع الهوى، فهو يعلم الحق ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، يعلم الحق لكن إرادته بسبب محبتها للعاجلة، أو لسبب كسلها، أو لسبب عجزها أو لسبب استمتاعها بالمعصية، لا تتبع هذا الحق، هذا ضربٌ من دروب علة الإرادة لا علة العلم.

فجعل الله عز وجل الهدى تقابل الظن الذي هو علة العلم وتقابل الهوى الذي هو علة الإرادة، فقال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)﴾ [النجم: ٢٣]، فالهدى تقابل الظن وتقابل الهوى، فليس فقط الهدى هو النور الذي يبصرك بالحق لكن كذلك هو النور الذي يدفعك لاتباع الحق، وهذه ميزة القرآن، يعني ميزة هذا القرآن أن من قرأه واهتدى به لا يعرف الحق فقط، ولكنه يعرف الحق ويسلكه بعد ذلك، هذه ميزة هذا القرآن، يقيمك، بما يقيمك؟ بما فيه من نور، بما فيه من روح، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ما الذي يقيم البدن؟ الروح فيها، فما الذي يقيم الروح من أجل أن تحيا الروح؟ هو القرآن.

فالقرآن هو روح الإنسان الذي يقيم الروح من أجل صلاحها، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾، سماه الروح لأن هذا القرآن يسري في روح الإنسان فتحيا، وإلا فكثير من الناس لهم أرواح مخلوقة وهم أموات، قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)﴾ [الفرقان: ٤٤]، قال صلى الله عليه وسلم: (مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي والميت)، وقال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الذي ليسَ في جوفِهِ شيءٌ مِنَ القرآنِ كالبيتِ الخربِ)، (وأقرا القرآن في بيوتكم ولا تجعلوها مقابر) أموات.

فالقرآن لا يُعّرف الحق فقط، أي القرآن هذا الذي بين أيدينا ليس فقط هو كتاب معارف؛ من أجل أن يعرفك المعارف، التي تغيب عنك، لا، هو يعرفك المعارف التي تغيب عنك ويعلمك إياها وكذلك يقيمك على الحق الذي فيه صلاح أمرك في الدنيا والآخرة، فلذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]، هذا ليس فقط كاشفاً للحقائق لكنه يدفع الإرادة من أجل اتباع هذه الحقائق.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]، شرحنا الهدى وتكلمنا عنها بما يدور حول هذا المعنى الذي وقفنا عنده الآن، لكن نحن نقف عند كلمة رب.

كلمة الرب أيها الإخوة الأحبة ترد في القرآن يعني أكثر من ألف مرة ﴿رَبَّ﴾، وهي لا ترد إلا مضافة، وقد تقدم وأنا أقف هنا عندها بالرغم أنه تقدم ذكرها في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢]، وقد وردت كثيراً بإضافتها إلى العالمين، كلمة رب إن ترد مضافة إلى العالمين كثيراً في القرآن، اربطوا هذا الكلام سأقوله مع الدرس الفائت عندما جئنا إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، عند ذكر هذا الرسول صلى الله عليه وسلم برغم أنه ليس موجود له ذكر سابق يعني الذي ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، وكأن الخطاب كله لرسولنا صلى الله عليه وسلم، كأن هذا الخطاب شرفه لرسولنا صلى الله عليه وسلم، كما أنه لما أقيم الوجود ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠] إنما جاء بخبر ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾، ما قال: ربكم، قال: لمحمد، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ وكأن الوجود أقيم خطابه من أجل خطابٍ خاص لرسولنا صلى الله عليه وسلم لعظمة هذا النبي، وعندما جاء الميزان في قضية الشريعة قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ﴾ [البقرة: ٤]، الخطاب له لشرفه.

ولما يستقرأ المرء كلمة ﴿رَبَّ﴾ في القرآن إلى أي شيءٍ أكثر أضيفت في القرآن؟ يجد أنها مضافة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعني أكثر من ألف مرة ذكرت رب في القرآن مضافة، ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)﴾، ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿رَبُّكُمُ﴾، ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ...، لكن أكثر ورودها في القرآن إنما جاءت مضافة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، هذا يدل على شرف المصطفى صلى الله عليه وسلم، على شرف النبي العظيم صلى الله عليه وسلم.

وهذا نؤكده لأنه إذا لم تعرف أنت هذا الشرف فاتك خير عظيم، فاتك باب عظيم من أبواب الرضا الإلهي، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، لا يحصل الاتباع الحقيقي إلا بالحب الحقيقي، ولا يمكن أن ينشأ الحب في مثل ما نحن فيه إلا بعد أن يتمثل المحب صفات المحبوب، وبعد أن يعلمها، بدون أنت على صفات المحبوب، أنت كيف تحبه؟ أتحب خيال؟! تحب غائب عن ذهنك! فإذا علمت صفات المحبوب عظم حبك بل كان حبك حقيقياً.

ومن هنا فحب الله عز وجل منشأه في القلب هو أن تعلم صفاته جل في علاه، وكذلك أن تعلم مقام النبي صلى الله عليه وسلم عند الله عز وجل من خلال قراءتك لهذا الكتاب العظيم القرآن، فتعلم من هو هذا النبي العظيم ومقامه، تعلم مقامه عند الله عز وجل.

فقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]، إذن أكثر ما ورد في القرآن مضافة لرسولنا صلى الله عليه وسلم، في خطاب الله لرسولنا ﴿رَبِّكَ﴾، بحسب موطنها من العامل الذي تقدم قبلها.

الموضوع الآخر في هذا ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾، كلمة الرب في الحقيقة لا يوجد نزاع –وهذا إن شاء الله أفصل فيه أكثر من هذا الموطن في موطنٍ آخر قادم ليس في التفسير في مباحث أخرى– لا يوجد نزاع عند الأوائل أن مقام الربوبية هو الذي يوجب مقام الإلهية، هو الذي يوجبه هذا لا خلاف في ذلك، ما معنى هذا الكلام؟ معنى هذا الكلام أن إقرار العبد بصفات الربوبية إقراره هو الذي يلزمه أن يكون متألهًا لهذا الواحد وهو الله عز وجل.

ومن هنا حديث القرآن في أغلبه حديثٌ عن ربوبية الله عز وجل، وسنبين ما هي هذه الربوبية في أقسامها التي جاءت في القرآن، فحين يتحدث عن هذه الربوبية يقول لهم: لأنه الرب فيجب عليكم أن تعبدوه، فبما استحق ربنا سبحانه وتعالى أن يُعبد؟ لأنه الرب، فلازم، يلزم العبد –أنا لا أتكلم عن لزوم القدري أتكلم هنا عن اللزوم الشرعي لأنه يمكن أن يوجد اللزوم الشرعي ويتخلف اللزوم القدري، ويمكن هذا– فلازمٌ على العبد شرعاً حين يقر بالربوبية المطلقة لربنا عز وجل لله جل في علاه؛ فيجب عليه أن يعبده لازمٌ عليه أن يعبده وألا يعبد إلا هو، ولذلك حديث القرآن عن النعم الإلهية، حديث القرآن عن الخالق الوحيد للوجود، حديث الرب عن قيامه جل في علاه على كل موجود، حديثه عن تصرفه بالكون وجوداً وعدماً وإمداداً، فكل هذا من أجل أن يقول: فلما تعبدون غيره؛ فالذي يستحق أن يعبد هو الذي خلق.

الآن كلمة الرب هذه لو نظرنا إليها لوجدنا ترِد في القرآن على معاني، وعند العرب على معاني، لكن البحث هنا ما هو الأصل وما هو الفرع؟ هناك جهل كبير في أساليب استخدام العرب للكلمات، نحن كثيراً ما قلنا وهذه قاعدة من قواعد اللغة في أن الكلمة قد تستخدم في بعض معانيها؛ لأن الكلمة ليست معنى واحد، فقد يكون فيها معاني متعددة وهذا الذي يسمى الظاهر، النص ثلاثة لا تفييده إلا معنى واحد ثلاثة، عشرة ما هو اسمه؟ نص، يعني لا يفيد إلا معنى واحد، ولكن أغلب كلام العرب يفيد معاني متعددة، وهو كذلك هذه الكلمة مراتب متعددة.

الآن اضرب مثال: كلمة الجار هل لها مرتبة واحدة أم مراتب؟ يعني الآن في جار لصيق في جار بعيد، في جار قريب بل هناك جارٌ أقرب من الذي هو عليه اسم مطلق الجار وهو الشريك، بل الزوجة جار، لأنها تجاور، والشريك يجاوره.

فالمقصود: هو النظر إلى الحالة هل موجودة أو غير موجودة وإن كان في أصلها دل على معنى واضح في ذهن سامعه من العرب، فإذن للكلمة معاني متعددة، مراتب متعددة الكلمة، وكذلك الكلمة تستخدم في مواضع متعددة بما يوجد من هذا المعنى ولو معنى قليل، وهذه بلاغة العرب هذه بلاغتهم، من بلاغتهم أنهم يأتوا إلى المعنى الخفي في داخل الكلمة ويستخدمونه وأنا ضربت لكم أمثلة في قضية مثلاً الوفاة، الوفاة لا تعني الموت، لكن استخدمت للموت

لأنها تشترك مع الموت في بعض معانيها، الوفاة من الاستيفاء الأصل وفى الشيء يعني أخذه، وفاه أي انتهى منه وانقضى، وفني ديني أي أعطني إياه، ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥] يعني أخذك، رجل أوفى دينه يعني دفعه جميعه، استوفاه أي قبضه كله، فهذا هو معنى والأصل الوفاء، لأنه ماذا في الوفاء؟ فيه انقضاء ما قال من الوعد، قضى ما قال من الوعد، فهناك وعد وهناك وفاء، هناك عهد وهناك وفاء، هناك عقد وهناك وفاء، كله يدل على الانتهاء.

فلما كان الموت يشارك كلمة الوفاء في بعض معانيها أستخدم لفظ الوفاة في الموت، ذلك لأن الموت ما هو؟ هو الانتهاء والانقضاء، أو هو قبض الروح لأنه استيفاء أي الله عز وجل أخذه قبضه، ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، أي يقبضوا ما عندكم أي الروح يقبضها، فلما اشتركت كلمة الوفاة مع كلمة الموت في بعض معانيها استعيرت لها، يعني أعاروها إياها، قالوا لها: خذي استخدميها، هذا معنى استعارة، كلمات ما تستثقلوا منها كثيراً يعني استعارتها قالت: أعطيني إياها أريد أن أستخدمها أنا، لأن العربي يتفنن، العربي مهجته وروحه ومعركته وذكاؤه لا عنده أصنام يصنعها حتى التماثيل لما صنعها كانت على أشكال غبية جداً، يعني ما اللات والعزة؟ صخرتين، اللات صخرة فلا توجد عنده الفنون التي كانت عند اليونان مثلاً، فالعربي لا يتفنن ولا رسم، لا يعرف يرسم، فنونهم كلها مبذولةٌ في كلمتهم، تسيل قرائح أذهانهم على ألسنتهم، هذا هو مجالهم، هذه معركتهم وهذا فنهم.

ولذلك نزل القرآن بهذا الذي اتقنوه، فيقول: أعرني إياها لهذه الكلمة لأتفنن فيها، وأرمز بها هذا الترميز الذي هو فني ولذلك يقول الشافعي رحمه الله في «الأم»، بمعنى الكلام الذي يقوله: وكلما أوغل المتكلم في سر بيانه كان متقناً حاذقاً، كلما أخفى المعنى كلما عُد حكيمًا كلما عُد بيانياً شاعراً عظيماً أو حكيماً كبيراً أو بلاغياً مجلياً، فاستخدام الكلمة مكان الكلمة موجود، لماذا؟ لهذا الاشتراك، ومرات هذه أساليب أخرى أنا ذكرت بعضها.

فمثلاً: تسمية الشيء على ما يؤول إليه، كقوله تعالى في سورة يوسف قال: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦]، أين خمرا؟! هو يعصر عنب؛ لكن لأن العنب مقصود العصر هو الخمر فسمى شيء باسم ما يؤوله إليه وهكذا، هذا جانبٌ عظيم لا ينتهي في العربية، لكن أول ما قلناه هو الأجلى والأعظم.

وهنا طريقة لكشف الأصل وما آل إليه، وأنا سابقًا لا أريد أن أعود إليه ذكرت لكم جهالة الروافض عندم قال: «هجر النبي»، ذكرناها هذه مرة، وقلنا: الهجر هو الترك، فصار لفلان يهجر فالأصل الهجر هو الترك، فهجر فلان وربما يهجر والعادة يهجر من الأحسن إلى الأسواء، فيقال: فلانٌ يهجر يعني يقول كلاماً سيئاً يقول: كلام ليس عِدل، كلام ليس مستقيم، هجره ترك ما ينبغي أن يسلكه من السبيل الأقرب في الحديث، ولكن الهجر كذلك هو أن يترك المرء ما يريد من الكلام إلى ما لا يريد، ولكن الهجر أن يهجر المرء كلاماً يريده إلى ما لا يريده هذا الذي وقع للنبي صلى الله عليه وسلم، قال: «هجر النبي» أي أجبرتموه أن يترك شيئاً كان يريده إلى شيء لا يريده لا يحبه لكنكم أجبرتموه عليه، هذا الهجر.

الآن حتى نفهم هذا لأن هناك جهالات معاصر عجيبة، كلمة رب لما تذهب أنت فتجدها عند أهل اللغة تدخل في ثلاث مستويات، انظر إليها:

وهم لا يهمهم أن يرتبوا، أنت الآن ترتب، لأن بعضهم يرتب ويقول الأصل كذا –كما سنبين– ولكنها قيلت ... إلخ، ولكن الكثير منهم لا يرتب، لأنهم يكتبون للعلماء، فأنت الآن مطلوب منك أن ترتب، كلمة الرب كيف تنشأ هذه الكلمة من معنًا أصلي ثم تتدرج إلى لوازمها من المعاني، الآن المثال هو يشرح هذه القضية.

يقال: الرب هو المالك والمتصرف –أنت الآن مطلوب منك أن ترتب– والرب هو المالك والأمر، المالك المتصرف وهو السيد الأمر وهو الخالق المربي حتى يصل الشيء إلى تمامه، هذه هي المستويات، هم قد يجدون كلمات أخرى تدخل فيها وقد يظن الظان أن كل كلمة تعني معنى آخر غير ما يراد ولكن هذا غير صحيح، وهذا من كلماتهم يقولون: الرب تطلق على هذه المعاني، بعضهم يقول: خمسة ستة، الآن نحن كم ذكرنا؟ ذكرنا أنه مالك ومتصرف وسيد وأمر وخالق ومتمم في التربية حتى تتم، يعني ذكرنا ست صفات، لكن هي الآن بالترتيب:

المالك هو الذي يتصرف، والسيد هو الذي يأمر، والخالق الذي يربي حتى يتم الأمر إلى نهايته،

والآن كلمة الرب في أصلها إلى أي شيءٍ تعود؟ ثم يكون بعد ذلك من هذا الأصل ينتج منه هذه المعاني الأخرى، هل المرء يأمر قبل أن يملك، لماذا يأمر؟ واحد لا يملك لا يأمر، إذن لا يكون الأمر إلا نهاية، الأمر هو النهاية، فسيدٌ آمر لا ينشأ إلا من مُلك، والملك يوجب قدراً واحد مالك لا يكون مالكاً إلا بالتصرف، نتكلم عن مالك تام الملك غير منازع، فإذن نهاية الأمر في الرب أن يكون أمراً، الوسط بينها أن يكون مالكاً متصرفاً ولكن ما هو الأصل في الرب؟ هو الذي أوجد وربى لأن الأصل في كلمة الرب هي التربية، أي الذي اعتنى بما أوجد حتى تم، فهو رب.

إذن ما هو الأصل في كلمة رب؟ وما هو الفرع الذي نتج عنها لزوماً بعد ذلك ونحن نتحدث عن ربٍ تام في ربوبيته مطلق، أنت رتبتها لوحدها هي ترتب نفسها، لكن المشكلة في قراءة كلام العلماء، هذه مشكلة كبيرة نحن ما زلنا نعاني منها، وكل يوم يخرج لنا من يستدل بكلام لأهل العلم لا يعرف كيف يبنى، وهذا إن شاء الله فقط أتيت عليه هنا لأمر وسأتي عليه في موطنٍ آخر.

القصد: أن كلمة رب أصلاً في جذرها الأول في معناها الأصلي حيث أطلقت إنما تكون على من أوجد، وعلى من ربى فهو رب، وبعد أن أوجد لأنه هو أوجد هو صار مالكا لها، هو مالك، والمالك يكون متصرفاً، والمتصرف يعني يأمر وينهى فهو سيدٌ تام في سؤدده، فهمنا إذن الرب كيف نشأ نهاية الأمر ولم ينشأ نهاية الأمر إلا من أوله، فهل يمكن بعد ذلك وقد فقهنا القاعدة الأولى إن شاء الله، هل يمكن لرجل أن يقول: معنى رب إله، يمكن أو لا

يمكن؟ يمكن؛ لأن الإله هو الذي يعبد، يعني يطاع تمام الطاعة، فمن الذي يطاع تمام الطاعة؟ هو الرب الذي له الحق أن يأمر.

الآن ما الإله؟ الآن نرجع لكلمة إله، ما هو أصل كلمة إله؟ المعبود الإله هو المعبود، الآن بما أستحق أن يكون معبوداً؟ بما له من صفات الربوبية، صار له الحق أن يُطاع ويُعبد، لأنه نحن قلنا: الرب يأمر، طيب الآن نتكلم عن الفاعل الذي وجه له الأمر، الآن نتحدث عن فعل الرب في غيره أو قول الرب الشرعي والقدر في غيره، القدري: أي كن فيكون، هذا قول، أمره أن يكون، فكان، وأمره أن يصلي فيجب أن يصلي، ويمكن أن يعصي إذا كان له الخيار من خلق الله كالإنسان والجان، وإن كانت الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، فإذا وجه لهم الأمر الشرعي أجابوا من غير تردد.

الآن الآخر ماذا يفعل؟ يحب، والآخر يطيع والآخر يتأله، فبما حصل هذا الفعل لهذا الذي هو متأله؟ لأنه رب، هل يجوز حينئذٍ أن تستعار كلمة الرب مكان الإله وكلمة الإله مكان الرب؟ يجوز أو لا يجوز؟ يجوز؛ لأنه لا يكون رباً حقيقياً إلا وله حق العبادة والتأله، ولا يكون إلهاً حقيقياً له حق التأله على عبيده إلا وهو رب، فإذن يمكن هذه أن تقوم مقام هذه بالاستعارة، فقط أنا أقف عند هذه وإن شاء الله لها موطنٌ آخر في الشرح.

ومما يدل على هذا أن القرآن لم يأتي أبدًا فيه أنه كما قال رب العالمين، طب لو كان هو الرب أي بمعنى الإله معنًا تاماً، لا أتكلم على قضية اللزوم أتكلم عن الرب بمعنى الإله، أي الذي يُعبد من كل العالمين، هل الله يعبد من كل العالمين؟ لو كانت الرب بمعنى المتأله، بالمعنى التام ليس بالمعنى الذي ذكرناه، فحين يقول ربنا عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢]، فهو ربهم جميعًا المسلم والكافر؛ لأن هو الذي خلق، وهو الذي ربى حتى أتم أمره في التمام والبناء وهو الذي ملك وتصرف وهو الذي أمر وساد على عبيده، وهذا إن شاء الله نشرحه في موطنٍ آخر أكثر من هذا لكن يكفي إلى هنا.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾ [البقرة: ٥]، المفلح والمفلج واحد سواء كان استخدمت الحاء أو الجيم على معنى واحد والفلاح هو إصابة المراد والنجاة من غيرها، يعني كلمة الفلاح، الناس لا ينظرون إلا إلى إصابة، الإصابة لما يريد وينسون أنه ينجو مما يخاف، هو يصيب ما يريد، ولا تكونوا إصابته لما يريد إلا بنجاته مما يخاف، وهذا ملائم لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة: ٢].

ومن هنا فهذا الوصف الإلهي للمؤمنين حمل أولاً ما بدأوا به وخُتم وصف المؤمنين بما انتهوا إليه، أما ما بدأوا به فقوله: ﴿الْمُتَّقِينَ﴾، وما ختموا به ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾؛ ذلك لأنهم اتقوا والاتقاء قلنا هي صفة سلوب، أي ترك، واحد يتقي يعني وقاية، أي من ترك ما يؤذيه الذهاب والنجاة مما يؤذيه، أو محاولة الذهاب مما يؤذيه، فانظر إليه هو اتقى

فأفلح، ولذلك ذكر في هذا الوصف الإلهي للمؤمنين ذكر أمر المؤمنين في الابتداء، وذكر أمر المؤمنين في الانتهاء، فأما أمر المؤمنين بالابتداء فهم المتقون، يعني يتقون غضب الله، يتقون معصيته يتقون زللهم خطأهم، فإذا كانوا على ما هم عليه من الصفات، حصل لهم الفلاح فالنجاة، والفلاح هو إصابة المطلوب والنجاة مما يخاف أو مما يؤذيه، هذه هي صفات المؤمنين كما تقدم ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾ [البقرة: ٥].

وقلنا وأكرر: بأن قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾ [البقرة: ٥]، هذا وصفٌ لحالهم وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾ [البقرة: ٥] وصفٌ لمآلهم، وصف الحال والمآل، والمتقون هو وصفٌ للابتداء فأتت هذه الخصال التي تقدمت في هذه السورة عن المؤمنين أتت على حال المؤمنين وما هم عليه،

ومما يذكر هنا إيها الإخوة الأحبة في هذه الصفات للمؤمنين، لم يذكر فيها إلا الفعل بالرغم أنه يؤتى في صفات السلوب، كما هم ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢]، ﴿لَا يَشْهَدُونَ﴾ إذن صفة سلوب يعني ترك، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢)﴾ [الفرقان: ٧٢]، تحتمل هذا وهذا، ولكن المقصود: أن القرآن يصف المؤمنين بصفات الإيجاب، الفعل ويصفهم بصفات السلوب.

وفي قواعد العقل والمنطق من أولى مدحاً؟ من أولى في المدح؟ أن يوصف بصفات السلوب حتى وإن كان مآل هذا السلب هو المدح أم بصفة الإيجاب، ما الأولى أن تقول فلان ليس فقير أم تقول فلان غني؟ من الأولى بالمدح؟ فلان غني.

ومن هنا أيها الإخوة الأحبة القرآن لا يتحدث عن ربنا إلا بصفة الإيجاب، فاعل ويخلق ويفعل وقيوم و ﴿قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٦] ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ٤]، وحين أتى إلى صفات السلوب قال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وكانت قليلة، كانت صفات السلوب في ذكر ربنا قليلة؛ ذلك لأن صفات الإيجاب أن تذكره بصفات المدح أولى من أن تنفي عنه صفات الذم،

مثلاً: تصور واحد رجل –ولله المثل الأعلى– تريد أن تصفه بالعفة فتقول: فلان لست زانٍ، هذه ليست من صفة المدح، وإن كانت في ذاتها أنه عفيف، مثل لو أراد قائل أن يقول: أنا أردت أن أقول أنه عفيف، لكن لا تليق، فصفات الوجوب أولى من صفات المدح، فتأمل بعد ذلك في هذه الصفات كيف جرت كمقدمة لذكر صفات المؤمنين في القرآن، هل جرت على معنى الوجوب أم على معنى السلب؟ انظروا إليها، ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)﴾ [البقرة: ٣-٤]، فلذلك أتت على قواعد الحق في نفس الإنسان.

فالصلاة هي التي تستغرق وقتك وبدنك لله، والزكاة هي التي تستغرق ما تملك لله والإيمان بالغيب هو هذا المقصد الذي يدفعك في الابتدائي وفي الانتهاء من أجل أن تحصل مرادك فيه إن شاء الله تعالى.

وبهذا نختم عن صفات المؤمنين وكما ترون هذه الصفات هي صفات مليئة عظيمة، قاعدة لمنطلقات التعبد الذي يريده الله عز وجل من العبد، وأركان الشخصية المسلمة فيما ذكرنا، ما هي أركان الشخصية المسلمة؟

أولاً: توحيد ربنا، التوحيد.

ثانيًا: الاتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً: الإيمان بالغيب.

وكما ترون أنها آيات قليلة العدد لكنها مليئة بالمعاني عن المؤمنين، ثم يأتي ربنا سبحانه وتعالى إلى صفات الكافرين.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ [البقرة: ٦]، أول ما يجابه الناظر لهذه الآية العظيمة، أنه بعد أن جرى الأمر على ذكر من هم المؤمنون، يعني الآيات التي تقدمت جاء فيها من هم المؤمنون، فكأن المرء يريد أن يتوقع بعد ذلك الحديث من هم الكافرون، يعني هو يقول: المتقون يؤمنون بالغيب يقيمون الصلاة يؤمنون بما أنزل إليك يؤتون الزكاة ... إلخ، فعرفنا جل في علاه سبحانه وتعالى ما هي صفات المؤمنين، ونحن نتوقع إن يأتي إلينا الآن ما هي صفات الكافرين؟

ولكن لا يأتي إلى صفة الكافرين ولكن يأتي إلى واقعهم وحالهم مع الحق، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٦]، وكأن أمر الكافرين معهود، من أين معهود؟ أتيت به من خلال ما تقدم من صفات المؤمنين، من أين أتيت به؟ وكيف تعرف؟ كيف تعرف أنت ما هي صفات الكافرين؟ من أين تأتي بها؟ هي مناقضة لما تقدم من صفات المتقين وصفات الذين هم على هدى من ربهم وصفات المفلحين، فإذا خرجوا من هذه الصفات، وكأن الحديث ما زال عن المؤمنين إذا انتقلوا إلى حالٍ آخر أو من ناقض الإيمان في صورته الأخرى وهي الكفر.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٦] أين هؤلاء ومن هم؟ يقول: ذكرتهم لك، وهذه من أعظم ما ينبغي أن يشد المرء خلال قراءته للقرآن، هذا الأمر وهو أن تربط الآيات وأن تتأملها على نسقٍ واحد، هذا الذي يجعل للقرآن كأنه حديثٌ واحد، ولا يوجد شيء اسمه يا إخوة ما يسمى ببيت القصيد، ولا يوجد في الشعر أصلاً لأن القرآن نزل على وفق لغة العرب، كيف يتكلمون ونحن قلنا معنى كلمة الشافعي رحمه الله: أنه كلما كان المتكلم خبيراً قوياً متملكاً للغة كلما أسر، وهكذا يأتي القرآن، والقرآن -وهذا كلمة يجب أن تحفظها- القرآن هو أعظم كتابٍ في الوجود يمتحن قارئه، كما أن القرآن يهدي قارئه كذلك القرآن يمتحن قارئه، لماذا؟ لأن الله كما يقول إمامنا الشافعي رحمه الله يقول:

كما أن الله امتحننا بالنص امتحننا بالاجتهاد، أي الله عز وجل يريد منك أن تعبده ومن عبادتك في قراءتك للقرآن أن تبحث عن مراد الله يمتحنك.

هذا امتحان عليك إن تبقى متفكرا حاضراً، فلو قال قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ﴾ أين صفات الكافرين؟ نقول له: تقدمت، يقول: أين تقدمت؟ نقول له: كما أنه ذكر صفات المؤمنين، فعليك أن تعرف ما هو النقيض، هذا امتلاء النص بجهدك أنت وتفكرك، هذه من أعظم طريقة بناء الذهن والعلم والاجتهاد.

يعني لو واحد سائل قال: في سورة «يس»، عندما يأتي ربنا عز وجل إلى ذكر الرجل الذي جاء من أقصى المدينة، ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ [يس: ٢٠]، في نهاية الأمر قال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ [يس: ٢٦-٢٧]، نحن لم نعرف ما الذي حصل؟ لما قال: ﴿إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)﴾ [يس: ٢٤-٢٧]، ما الذي حصل؟ هذه نتركها لك، كيف تعرفها؟ تعرفها من سياق السنن التي جرت في أمثاله يعني قتلوه، لكن هذا مشهد لا قيمة له ليس موقف مؤلم؛ ولذلك في سورة «آل عمران» لا يوجد أبدًا لموقف الألم عند القتل، ولا كأنه موجود، هذا المشهد ليس له قيمة، يتألموا ويضربوا بالسيوف، بقروا بطن حمزة رضي الله تعالى عنه أخرجت هند كبده ولاكتها، هذا منظر لا قيمة له، هذا شيء عادي في الوجود، أما هم كيف أطاعوا؟ كيف تحدثوا عن الإيمان؟ كيف تحدثوا عن الموت؟ كيف بعد ذلك دخلوا الجنة؟ هذا هو الحديث أما تألموا انهزموا قاموا هذا مشهد عادي وطبيعي في هذه الحياة لا يقف عنده القرآن؛ لأنه ليس شيئاً مهما لو كان شيئاً مهماً لوقف عنده.

القرآن أيها الإخوة الأحبة من أعظم ما فيه أنه يُلغي ما عظم في نفوس الناس ولا يتحدث عنه، لأنه فقط يتحدث عن الإيمان وفاعليته وعاقبته، فقط، هذا هو الذي تحدث عنه، يعني الآن لما نحن نرى رجل ذو القرنين، أين هذا ذو القرنين؟ ذهب وأتى والناس مختلفين عنه، طيب كم جيوش في التاريخ مشت بين الجبال وسارت في المشرق والمغرب؟ لا قيمة لها، لا أهمية لها؛ لأن الإيمان ليس موجوداً في داخلها، فالآن لو كان هناك مشهد أمامك لحادثة غزوة أحد، ما الذي سيوقفك أيها الإنسان؟ هو الألم فقط لأنك ضعيف، ستنسى كل شيء فقط أنهم قتلوا بكت فلانة مسكينة وهم يتحدثوا عنها بتفصيل، والقرآن لا يتحدث عنها ولا كأنها موجودة ماتوا.

فما الموت في القرآن؟ يعني الله العظيم ما الموت عنده؟ ما الموت عندنا نحن؟ فقدان الأحبة بكاء على الأطلال بكاء على المفقودين والألم وتذكر الجزع الذي سيصيبنا حين يغيب عنا مثلاً المعيل أو يغيب الحبيب، لكن ما الموت عند الله؟ من حياة لحياة، فلماذا يقيم له شأن ولماذا يتحدث عنه؟ يعني أن تموت أنت بسيف فتقطع رقبتك أو بمفخخة تحولك أشلاءً، أو على فراشك وتموت، في النهاية إنك مت، فلماذا هذا الحديث المؤلم والمتسع ويجلس الراوي ليحدثنا أنه مسكين فتتوقف مشاهد الحدث عند هذا الألم فقط، ما قيمته؟

وما توقف القرآن ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾ [آل عمران: ١٦٥]، أمشي ولما أن جاء ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١]، وهنا يأتي ما يسمى –أنا لا أسميه لكن هم يسمونه– هنا يأتي التفصيل وحتى يسميه بعض البلاغين بالاستطراد، يوسعون، ويتعجبوا ما الحديث؟ الحديث هذا مهم، هنا الحديث تأمل، ولا بأس أكرر عليك الكلمة مرة ومرتين وثلاث وأربعة لأنها جمال، لأنها عظيمة، هنا يقف، أما واحد مات بقرت بطنه ما المشكلة مات في النهاية خلاص جثة وماتت.

فلذلك القرآن يترك لك هذه المساحة من التأمل من أجل أن يمتحنك وتذهب نفسك مع هذا القرآن وكلما ذهبت معه أي فيما ذكره وفيما غيبه من أجل أن تستحضره، كلما شعرت بعظمة هذا الكلام، شعرت بعظمته، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٦]، لا أحد يقول ما في ذكر أين شرحهم؟ لا، موجود، الذين كفروا، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآن من هم هؤلاء؟ خلاص تقدمت صفاتهم، اذهب إليهم هناك.

نقف هنا فقط عند بعض المواطن منها، طبعاً تكرر هذا الوصف القرآني لحال الكافرين، –أيها الإخوة الأحبة قبل أن أمشي لأن هذا مهم وأنا كنت أريد أن أؤجله لكن لا بأس– أنت ترى أن الخطاب ليس للكافرين، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦] ما زال الحديث عن إمام الهدى، هؤلاء كانوا غير موجودين عند الحديث عنهم، وأنت تعرف هذا من كلامك ومن طريقتك حين تحتقر الذي تتحدث عنه فإنك تعرض عنه للحديث عنه مع آخر، وهو الذي تريده هو أن يفهم، والآخر يتعجب لماذا لا تلقيه لي؟ أنا تحدث معي، يقول: أنت لست بشيء، لا قيمة لك، فلذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾، هو الحديث ليس معه، وكأنهم لا يستحقون الالتفات من أجل الخطاب لا يستحقون.

ثم هذا الحضور ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾، الحديث عمن؟ عن إمام الدعوة، الحديث عنك أنت، إذن هو بعد أن تحدث عن المؤمنين كيف يصيغون أنفسهم وإراداتهم وإنفاقهم كيف يتحدثون عن أموالهم، كيف يتعاملون بها، هناك في حياة أخرى في حديث عن جماعة آخرين يعيشون معك لابد أن تنتبه وأن تعرف من هم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٦-٧]، الآن بعد أن سمعت هذا الكلام ما هو أول شيءٍ يخطر على قلب سامع هذه الآيات؟ هو احتقار هؤلاء.

إذن هذه الآية ما زالت هي بناءٌ نفسي، بعد أن تقدم البناء المعرفي ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، وبعد أن تقدم البناء السلوكي ﴿يُنْفِقُونَ﴾، بعد أن تكلم عن قضية السند وهذه قضية مهمة السند قضية قرآنية مهمة، تجريد الكافرين وخصوم القرآن من سندهم الذي ينتسبون إليه من أجل رفعة أنفسهم في الوجود القرآن يقصها ويهدمها، ومن ذلك

قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ [آل عمران: ٦٨]، ما المقصود بها؟ المقصود بها قطع سبل الاعتماد، وقطع سبل الاتكاء، وقطع سبل الدلالة، بما أنت لك ذلك؟ قال: لأني كذا، القرآن جرده قال له: لا تستحق، ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾ [آل عمران: ٦٨]، أنتم ليس لكم شرف الاتباع ولا الانتساب له.

وهذه قضية الصراع في الانتساب قضية قرآنية مهمة، بمعنى من أنت؟ هذه من أنت بمن تنتسب؟ لأن من أعظم ما ينتسب به الناس الأسماء القديمة يتكئون عليها، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، لأن إحدى المهمات الانتساب للآباء، مهما كانت باطلة لكنها إحدى المهمات وإحدى أركان الجاهلية في تثبيت نفسها، هي إحدى أركان الجاهلية في دعواها استحقاق القيادة، من أنت؟ أقول: أنا فلان، أنا هذا تاريخي، فيأتي القرآن يقول: أي تاريخٍ أنت؟ يقطعه.

ونعود لقوله تعالى وإن كان هي أصرح في غير هذا الموطن، لكن نأتي لما تقدم من قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، في سلسلة، من أنت؟ من أنت يا محمد أنا سلسلتي منتهية إلى آدم عليه السلام الحديث، أنا الأصل أنا التاريخ، أنتم حالةٌ طارئة على الوجود، الكفر حالة طارئة على الوجود، وهذا انتسابكم باطل، فبعد أن تحدث القرآن عن حال المؤمنين في بنائهم، ما ذكرنا حتى التاريخي، البناء التاريخي والبناء النفسي والبناء العلمي والبناء المعرفي والبناء العملي بعد ان تحدث عن هذا تحدث عن البناء النفسي أمام خصوم هذا الحق، فأراد أن يملأ نفسك في هذا الباب، وهو أعظم، هنا النقطة هذه الطريقة القرآنية هي علاج لأعظم مرض موجود في داخل الشخصية المسلمة على مدار التاريخ.

ماذا أقصد؟

للأسف دائمًا هذه موجودة في البشرية جمعاء، وهل هي في رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ القرآن في معالجته للنبي صلى الله عليه وسلم يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشعر بها، يظن الداعي والذي يأتي الحق، ولذلك لطيبته ولأن أباه طيب ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١)﴾ [الأعراف: ٢١]، الشيطان حلف يمين «الشيطان معط يمين صدقوا آدم»، وفي سورة «التوبة» كم مرة ويحلفون سيحلفون ويحلفون هذا هو، الكفر يحاول أن يتزيا، الكفر يحاول أن يتزيا بزي العلم من أجل أن يعطي لنفسه الحجة لماذا ترك الحق، ولذلك ماذا قالوا؟ ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣)﴾ [هود: ٥٣]، فلما واحد يسمع ما جئت ببينة، والله أنا مقصر! لا أحضر حجج أكثر هذا ليس كافي، ما الذي يصيب هذا الداعية؟ يصيبه وهذه موجودة فينا كلنا أن المخالف ربما تقصير الداعي هو الذي أوقعه في هذا الشرك وهذه المعصية، يعني عنده بعض

علمية، عنده بعض العدل ما زلت لم أصبها أنا في النقاش، أو لم أصبها في الأدلة التي أنا قلتها له، فيبقى هذا ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ [الشعراء: ٣]، فيبقى هذا الشعور ملازم.

وهذه أعظم قضية يعالجها القرآن في قلب المؤمن بالنسبة إلى نظره إلى أعداء الدين، كذابين، أفجر خلق الله في أنفسهم يعرفون الحق، قال تعالى: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)﴾ [العنكبوت: ٣٨]، ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٣-١٤] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦]، كما سيأتي في سورة «الشعراء» وفي سورة «يس»، ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس: ١٠-١١]، فهذا رفعة لك أيها المؤمن أن لا تهتم لما يقولون، كل ما يزعمونه من عدم اتباع الحق بسببك أو عجزك أو ضعفك أو معصيتك هذا كله غير صحيح.

حتى في احتجاجهم بأفعالك التي هي عندهم حجة في أنك خالفت الحق الذي هو متفق بيني وبينكم، ما الذي حدث؟ كما يأتي هذا في سورة «البقرة»، حدث إن قتل أحد المسلمين أحد المشركين في الأشهر الحرم، فضجوا لهذا فعل، ولما ذيع للصحابة رضي الله عنهم يعني في الأشهر الحرم وقتل هذا ومعاهد ... إلخ، والقرآن قال: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ثم قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، هذا أين ذهبتم عنه أنتم؟ يعني أنتم كذب، ولكن هذه طريقة الجاهلية، والقرآن ينبيك من أجل ألا تهتز أمامها، وانتبه هذه المرحلة أن تهتز أمامها، تجبن هذه لا يقبلها القرآن منك، أن تهتز أمامها بأن تضعف أمام حججها هذا لا يمكن أن يوجد في داخل مؤمن، هؤلاء ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، هؤلاء القرآن يسميهم، الذين يضعفون أمام حجج الجاهلية في دعواها هؤلاء ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، لا قيمة لهم.

القرآن يريد منك ألا تقبل لهم تبريراً وألا تتصور في قلوبهم تبريرًا أو شبه الدليل على ما هم عليه، لا يقبل منك هذا، هذه مرحلة كما تراها أعلى وأجل وأعظم، لا تتصور أن الجاهلية وأن الكفار أخطأوا الحق بسببك أنت، بسبب ضعف حجتك أو بسبب فساد سلوكك كما يزعم بعض المسلمين اليوم، يعني بعض المسلمين اليوم كأن أوروبا كانت قد وقفت على حد الإسلام فجاء هؤلاء المخربون والإرهابيون ورجعوها، ما شاء الله، أوروبا كانت واقفة كان بدها تسلم، بس هؤلاء خربوا صورة الإسلام، أو أن هؤلاء نحن ضعاف.

فالآن بعض حديث المشايخ دون أن يدعوا –أنا أتكلم على حسن النية وليس عن سيء النية– هؤلاء حسنوا النية يقع من كلامهم كأنهم يعذرون الكفر أنه لا يتبع الحق بسبب ضعفنا، بسبب جهالتنا بسبب معاصينا، بعض المسلمين يقع منهم هذه الكلمات للأسف، كيف سيسلمون ونحن كذلك، ما المشكلة؟ هذه فتنة، كما أن قوم نوح أسلموا وهم ضعاف فقراء مساكين مهانون وعبيد وسوقة، ففتنة كان لهؤلاء الملأ، يعني لماذا لا يسلموا ويتبعوا الحق

ويكونوا هم أهله؟ لماذا يكون هم أهل الحق الأقوياء الأذكياء العلماء، لماذا لا يكونوا؟ فتجد في كلام هؤلاء إعذار لهم كأنه يجوز لهم ذلك.

القرآن هنا يبدأ ببنائك النفسي، هؤلاء أنهم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)﴾ [الفرقان: ٤٤]، ما زال هذا خطاب لك لا لغيرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٦-٧]، وقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ [البقرة: ٧]، وكذلك هذا فيه دلالة على أنهم لا يستحقون الخير، انظر هو ما زال خطاب الاستعلاء الإلهي، يعني:

أيها المعرض عنا إن أعراضك منا

يقول لوالده يا أبي أنا لا أريد أن أنام عندك، كأنهم هم لما أعرضوا عن الدين قل لا نريد الحق، والقرآن يقول: أنتم ما أردتم الحق؟! أنتم لا تستحقون الحق، هم يقولون: لا نريد الحق ولا نريد اتباعكم، ماذا يقول القرآن لهم؟ أنتم لا تستحقونه، فمن المستعل في الخطاب؟ هؤلاء بتركهم، واحد ترك شيء كأنه لا قيمة له، فيعرض عنه ويدعه لعدم قيمته أم أنك أنت لا تستحق حمل هذه الأمانة، لا تستحق حملها، فما زال هو خطاب المؤمنين لك.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٦]، سواء يعني استواء، هذا قول بعضهم ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾، يعني استواء، استوى هذا مع هذا لا فرق بينهما، كلاهما سواء يعني قد تعادلا، عدلٌ بينهم، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ﴾، أي عدلٌ، سمعوا أو لم يسمعوا أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، قلنا في سورة «يس» موجود هذا حتى نفسر القرآن بالقرآن، في سورة «يس» في الآية العاشرة، سورة «يس» فيها تفصيل لا نقف عندها كثيراً، لماذا لو سأل سائل لماذا لا يؤمنون؟ الجواب: في سورة «يس»، لماذا ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ [البقرة: ٦]، لماذا؟ قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩)﴾ [يس: ٨-٩]، أغلق عليهم منافذ الهدى: البصر والسمع.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩)﴾ [يس: ٩]، قال: بعدها تفسيره لذلك ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠)﴾ [يس: ١٠]، إذن الإنذار لمن؟ ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١)﴾ [يس: ١١].

وفي سورة «الشعراء» في آية مئة وخمسة وثلاثون، عن هود عليه السلام مع قومه، أي قوم عاد قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)﴾ [الشعراء: ١٣٥]، ماذا قالوا؟ هذا وصف القرآن لهم، هم قالوا بألسنتهم هنا، ﴿قَالُوا

سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦)﴾ [الشعراء: ١٣٦]، ما الذي يردهم ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧)﴾ [الشعراء: ١٣٧]، هكذا خلقنا.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ [البقرة: ٦]، والآيات كثيرة في القرآن تدل على أنهم لا يسمعون، قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)﴾ [الأنفال: ٢٣]، وفي سورة «الإسراء» قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا﴾ [الإسراء: ٤٥]، هذا القرآن لا ينتفع به إلا الذين يؤمنوا بالآخرة كما في سورة «الأنعام»، في أخرها بعد قصة إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٩٢]، الذي لا يؤمن بالآخرة لا ينتفع بهذا القرآن.

نرجع إلى سورة «الاسراء» يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦)﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦].

القصد من هذا: -نختم بهذا- أن الكفار لا ينتفعون بهذا القرآن وهو خطابٌ لنا بأن تمتلئ نفوسنا امتلاءً لدرجة اليقين أن الحق الذي جاء به رسولنا صلى الله عليه وسلم بيّنٌ واضح، وحجته قائمةٌ على المعرض عنه، ويأتي أحد يقول: لو أنك فعلت كذا، لو غيرت كذا، لو بدلت، والقرآن ينفي عنه، وهذا سنأتي له في الدرس القادم أن القرآن يمنع رسولنا صلى الله عليه وسلم من أن يغير أو يبدل أو أنه يتنازل عن بعض ما أنزل إليه عن بعض، وعن المداهنة ينهاه عن ذلك كله بل يمضي في طريقه ولا يظن أن هذه الأساليب تؤدي إلى تغيير النتائج بسرعة لا يمكن النتائج هي بيد الله عز وجل وقائمة وآتية بنصرته في قيامه على الحق وبيانه فيه وجلاءه أمام خصومه ومفاصلته لإعداد الله، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)﴾ [الكافرون: ١-٢] ... الآية.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم.

الأسئلة

السائل: شيخنا ذكرت ألا يظن الإنسان أنه متسبب بكفر إنسان، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠)﴾ [الكهف: ٨٠]، **فإذا عاش ألا يكون متسبب في كفر أهله؟ فالإنسان قد يتسبب بكفر إنسان كما في الآية؟**

الشيخ: أين في الآية؟! لا يوجد في الآية ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠)﴾ [الكهف: ٨٠]، لا يوجد أنه هو كان سبب لكفرهم، يرهقهما بسبب كفره وطغيانه يجعل عليهم الرهق أي التعب والمشقة، لا يجوز لأحدٍ ولا يوم القيامة جائزٌ لأحدٍ أن يحتج على كفره بأن فلاناً أضله، حتى أضله، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [البقرة: ١٦٦] حتى الإتباع، لا يوجد في الوجود عذر على الكفر، حتى على عدم اتباع الحق، لا يوجد.

السائل: القصد قد يتسبب إنسان بكفر إنسان؟

الشيخ: كيف يتسبب؟ لا يجوز، وإذا تسبب في كفره –أنا أتكلم عن الإعذار، أما أن يدعو واحدٌ واحدًا للكفر فيستجيب له، هذا يمكن، أن يلجئه إلى أن يكفر يمكن، لكن أتحدث هل هذا عذر؟ هنا الحديث، الحديث عن الإعذار، أما أن يوجد أحد في الدنيا يدعو آخر إلى الكفر فيكفر، هذا كثير في الوجود، وإنما الكفر ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩)﴾ [الأنعام: ١٢٩]، فهذا موجود، ولكن الحديث عن العذر هذا ليس يوم القيامة عذرًا أن فلان أضلني هذا ليس عذر.

السائل: شيخنا ذكرت أن أعظم فن عند العرب كان الكلام أو هو الفن الوحيد فهل هذا الفن ممدوح أم مذموم؟

الشيخ: ليس الفن الوحيد لكن أعظم فنونهم، لأن العرب من فنونهم تدجين الخيل كان موجود عندهم، فلا أستطيع أن أقول هو فنهم الوحيد ولكن فنهم الأعظم الذي لا مثيل له.

السائل: شيخنا وهل هذا الفن ممدوح أم مذموم أي الشعر حتى أن الإمام الشافعي رحمه الله قال:

وَلَولا الشِعرُ بِالعُلَماءِ يُزري ... لَكُنتُ اليَومَ أَشعَرَ مِن لَبيدِ

الشيخ: إن صح هذا فالأشعار المنسوبة للشافعي فيها كلام، لكن انتبهوا هذا سؤال آخر دعك من قضية الشعر، والشعر كلام كما في الحديث: (الشعر كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح)، الآن نتحدث عن قضية المعاني هنا،

نتحدث عن قضية الذكاء العربي في بيانه، يعني حتى عندما يصف الفاحشة ويريد أن يقرب لك المعصية يتكلم عن إتقانه في لغته التي يتحدث بها عن المعصية.

ومن هنا مثلاً فإمام الشعر في العالم العربي كله هو امرء القيس ومع ذلك شعره فاحش سيء، فيه حديث عن معاصي، فهذا فرق بين إتقانه للشعر وبين حديثه عن موضوع الشعر، ولكن الأمر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن من البيان لحكمة، وإن من الشعر لحكمة)، الآن يذم هذا أو لا يذم الحقيقة كلما اتسع ذهن المرء اتسعت عبارته، هذه كلمة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، يقول: «كلما أتسع ذهن المرء اتسعت عبارته»، ولاتساع عقول العرب باتساع عبارتهم كانوا هم محط القرآن، يعني الخصال التي جعلها الله عز وجل في العرب من أجل أن يكونوا مادة الإسلام الأولى خصال كثيرة، أعظمها عندي الشجاعة والكرام، وبعضهم قال: الشهامة والصدق، كما قال الشيخ الفراهي، وبعضهم قال: اللغة، أن العرب عندهم البيان والإبانة والحق أن الإبانة هي نتيجة عن ذلك، فإن البخل ينتج الكذب، وإن الجبن ينتج الكذب وعدم الوضوح، تضيق عبارته، كما قال صلى الله عليه وسلم: (الْمُتَشَبِّعُ بما لَمْ يُعْطَ كَلابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ)، الثوب الأول للناس يزور على الناس، الثوب الثاني لمن؟ له يزوره.

فالعربي سالت حكمته على لسانه، هذا له أسباب نفسية، فكان هذا الأمر هو من أسباب اختيار الله عز وجل لهذه الأمة، من أجل أن تحمل الحق لغيرها، فهذا من الأمر الممدوح، بل إن هذه اللغة هي لغة شريفة، ويعجبني أن يقال: بأن الله كما حفظ القرآن والسنة، وهما الذكر، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر: ٩]، فكذلك حفظ اللغة العربية، يعني اللغة العربية محفوظة بحفظ الله، لأنه لا يمكن أن يحفظ الكتاب إلا بحفظ اللغة، فاللغة محفوظة وهي بعناية الله، فالعربي يمدح بكونه على هذا الأمر الذي هو فيه والله تعالى أعلم.

الشيخ: ما هي الأسئلة الخارجة؟ تفضلوا.

السائل: ما هو مذهب الصّرفة عند النظّام وتلميذه الجاحظ وما الفرق بينهما؟

الشيخ: الجاحظ لا يقول بالصّرفة هذا خطأ، من نسب الصرفة للجاحظ فقد أخطأ، والجاحظ ألف كتابًا في إعجاز القرآن لم يصل إلينا فيه الرد على شيخه النظّام في القول بالصّرفة، ما معنى الصّرفة؟ باختصار وإن شاء الله، إذا قدر الله نعمل دورة كاملة على قضية هذا الموضوع وهو إعجاز القرآن لأهمية، نشأ قوم من العرب أو من المولدة، وخاصةً ما فيهم شعوبية وزعموا أن القرآن ليس مُعجزاً بذاته، وإنما صرف الله إرادة العرب أن يأتوا بمثله.

طبعاً المعتزلة يقولون: القرآن كلام الله، ولكن هنا النسبة نسبة ملك، لا نسبة صفة لموصوف، يعني الله يملك الكتاب كما تقول: بيت الله، تقول: كلام الله، بيت الله يعني مملوك لله، مشرف بنسبته إليه لكنه مملوك، ويقولون: القرآن كلام الله يعني مخلوق، لكنه مملوك إلى الله وهو منتسبٌ إليه نسبة التشريف.

فإذن أين الإعجاز؟ قالوا: الإعجاز في القرآن ليس بعدم قدرة العرب على الإتيان بمثله من جهة ذات الفعل، ولكن الإعجاز أن الله صرف العرب على أن يأتوا بمثله، مفهوم ما هو الموضوع؟ واضح، ولكن هذا من أقبح ما يقال، لا يجوز لعربي يفهم القرآن أن يقول هذا القول، وهو قولٌ قبيح ولا يجوز نسبته للجاحظ وهو للنظّام لشيخ المعتزلة وهو شيخ وصديق جداً للجاحظ، والجاحظ رد عليه، هذا باختصار وهذا قولٌ باطل.

والصواب أن القرآن معجز، ومعجز أن يأتي العرب بمثله، والقرآن أعطاهم أن يفعلوا فلم يستطيعوا، فعدم القدرة على الإتيان وليس لأنهم قادرون ولكنهم صرفوا عنه، والدليل على هذا أن البعض حاول أن يأتي بمثله، يعني مسيلمة الكذاب حاول أن يأتي بمثله فلم يستطيع، هذا الجواب باختصار حتى نمشي على أغلب الأسئلة.

السائل: يقولون عن اشتقاق كلمة الإعجاز: أنها تحمل معنيين متضادين وهو العجز والقدرة ويستدلون على ذلك من الآية والحديث هل هذا الرأي صواب أم خطأ؟

الشيخ: يعني الآن هو مُعجز بلا شك أنه العجز في غيره والقدرة فيه، فقوله: أنه مُعجز أي أنه قادرٌ قدرة يعجز عن أن يأتي بمثلها غيره هذا المعنى، فإذا جاز هذا أن العجز وإنما باحتمال القدرة فيه واحتمال العجز في غيره، فهذا هو المتصور لا غير، ولذلك يمكن هذا أن يقال: أنه معجز بمعنى أنه يعجز الآخرون أن يأتوا بمثله لقدرته لما فيه من قدرة، ودعكم من موضوع الإعجاز، الحديث ربما يعني نفرغ له بعض المقالات إلا إذا كانت هناك أسئلة سريعة مثل هذه، وإلا فالكلام عن الإعجاز كبير والكلام عن الإعجاز طويل وفيه مباحث جميلة وعظيمة، وكيف بدأ العلماء يكتبون في الإعجاز من الباقلاني والرماني وثم جاء إلى الإعجاز الجرجاني ثم غيرهم إلى آخره، والخطابي حتى وصلت إلى مصطفى صادق الرافعي والشيخ دراز، نعم كلهم لهم مباحث رائعة وجميلة في قضية الإعجاز.

السائل: هل يجوز لمن ليس له عقب أن يهب جميع تركته لغير وارث كابن أخيه؟

الشيخ: لا، لا يجوز، لأن إن لم يكن له عقب فهناك وارثون غير الفرع الوارث، يعني من لم يكن له ابن وبنت وارثين فيوجد له أخ وارث، يوجد له أب وارث، يوجد له زوجة وارثة، فلا يجوز له أن يتصرف إلا بمقدار الثلث والثلث كثير كما في حديث سعد ابن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه.

السائل: ما الفرق بين الاستنصار بالكافر أو الاستعانة والإعانة وهل الأول جائز وما ضابطه؟

الشيخ: وهذا كلامٌ محدث جديد، والوقت يقصر على أن نفصل، قضية الإعانة والاستعانة وطلب المعونة وكل هذا كلام جديد لا يوجد عند الأولين وهو كلام اضطر إليه البعض من المتأخرين من مشايخ الدعوة الوهابية، اضطروا إلى هذا التفصيل ولكن الأوائل لا يقولون به لا وجود لهذا، والمسألة مسألة فقهية وقد تصل إلى الكفر ولكنها مسألةٌ فقهية ينبغي أن تبحث في هذا الإطار، أما الفرق بين الذين يتحدثون هكذا ولما تسمع يقول: ولكن أنت تعرف

هناك فرق بين الإعانة والاستعانة، هناك بين الاستنصار والاستعانة وهذا لا وجود له في كتب الفقه، نعم يرجعون إلى «درر السنية» ويرجعون إلى كلام المذاهب المعاصر والمشايخ للتفريق، نعم هذا موجود، ولكن الأوائل لا يقولون به، لا وجود لهذا التفريق، باختصار هنا أنا أكرر باختصار.

السائل: ما حكم الوصية الواجبة وهل يجوز العمل بها عند الضرورة مثل الفقر؟

الشيخ: الوصية الواجبة عند الإمام أحمد وعند ابن حزم موجودة يقولون بها، أنا أجيب من غير تفصيل، ما معنى الوصية الواجبة؟ هو يعرف ويقولون بها ولعلها أقرب إلى الصواب الوصية الواجبة.

السائل: هل حديث الشاب الأمرد صحيح وهل يجوز رد الحديث الصحيح إن خالف أصلاً مجمعٌ عليه؟

الشيخ: المقصود أن الله عز وجل ينزل كشابٍ أمرد، أهذا الحديث؟ هذا باطل، هذا حديث لا يصح باطل سنداً ومتنًا، أعوذ بالله، كل كلمةٍ فيها تشبيه ربنا أو صفات ربنا بخلقه باطلة، ومن هنا فحديث الصورة، أن الله خلق آدم إلى صورة الرحمن هذا حديث باطل، ومعناها لا يقبلها وهذا فرق بين إثبات الصورة لله وبين تشبيه صورة الرب أو صورة العبد بصورة الله، انتبه الفرق بينهما، أما القول بأن الله ينزل يوم عرفة على جملٍ أورق في صورة شاب أمرق، نعوذ بالله هذه أحاديث مكذوبة باطلة، والعلماء حكموا عليها بالبطلان والكذب سنداً ومتناً.

السائل: يقول جاء في شريط قديم للشيخ بعنوان «كونوا عظماء» أثر أن صحابياً زار بلال بن رباح رضي الله عنه بعد رحيله عن المدينة فسأله بلال: كيف تركت عمر، فقال: بخير إلا شدةً فيه، فقال بلال: ماذا يفعل، قال الصحابي: يحمل ذروته ويطوف بالأسواق يلحق الواحد منا، فقال بلال: إني أعلم كلمة لو قيلت له لترك قل اتق الله إلى آخر الأثر فقد بحثت عنه في الموسوعة ولم أجده؟

الشيخ: موجود في «حياة الصحابة» ليرجع إليه، لا الموسوعة الشاملة ولا كذا، كان يأتينا أحد الإخوة أرسل له للتصحيح فيقول حديث رواه البخاري، فيقول: لا يوجد في البخاري، فأقول له: أين بحثت، فيقول: إلى الموسوعة الشاملة فاضطر أن أذهب له إلى البخاري، لا تعتمدوا على الشاملة كثيراً، موجود الحديث في «حياة الصحابة» فليرجع إليه.

السائل: في الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ [الأنعام: ١٦٢]، **هل المقصود في ممات الشهادة في سبيل الله؟**

الشيخ: هذا المعنى الصحيح، وكذلك من معانيها أن الميت يوصي بأن يكون مماته لله، كأن يدفن كأن تقام عليه الشعائر الإسلامية، يعني لو أن رجلاً في مماته أوصى بأن يبنى على قبره، فهذا لم يجعل مماته لله، أو جعل أنه مثلاً ينفق

على قبره الأموال فهذا لم يجعل مماته لله، بعد الموت كذلك يجعل العبد المسلم مماته لله، بأن يوصي أن يكون على الخير وأن يجعل كذلك سبب وفاته على الخير.

السائل: في سورة العنكبوت آية: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤)﴾ [العنكبوت: ٢٤]، **هل يمكن أن تنورنا على بعضٍ من هذه الآيات؟**

الشيخ: يعني أنا قلت تفسيرها في سورة «العنكبوت» وأنا لي تفسير لسورة «العنكبوت» وموجود، يعني هذه فيها أمور، الأمر الأول: ذكرت من بعض وبينة في معناها، وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ هذا حصر علامة أنه لم يناقشه، ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥)﴾ [الأنبياء: ٦٥]، يعني هم سلموا فلما بدأ يذمهم قال: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨)﴾ [الأنبياء: ٦٨].

فكان الجواب كما هو جواب فرعون لموسى في الأول ماذا قال؟ قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨)﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨]، في الأولى موقنين، والأخيرة تعقلون أي ما ضل، بعد هذا ما ضل عقل، ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)﴾ [الشعراء: ٢٩]، وهذه طريقة الطغاة، يحلون ما هو الدين وحقائق عن طريق الظلم وعن طريق القتل وعن طريق المجابهة المادية والأصل أن العلم يجابه بالعلم والحقيقة تجابه بالحقيقة، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

وأنا قلت سابقاً: أن الصالح يبدأ من الأعلى إلى الأدنى، عند الشر وعند الخير العكس، الخيّر يقول: يا ولد أعطيه خمسة قروش، فيقول: يا ابن الحلال ماذا تفعل هذه خمسة قروش حرام عليك زيد لك نص ليرة، فيقول لك: يا لله ليرة مرة وحدة، فيبدأ من الأدنى إلى الأعلى في الخير، يزيد كما يقوم المرء يقول والله بدي اقرأ لي جزء، فبعد الجزء يقول: بقي لنا نص ساعة كمان جزء، فيبدأ من الأدنى إلى الأعلى هذا الصالح والتقي.

وفي الشر يبدأ بالشدة ثم ينزل، يقول والله لأذبحه يقول: حرام يا رجل أضربه كفين، ولذلك ماذا قالوا إخوة يوسف عليه السلام: أقتلوه، لماذا تقتلوه أطرحوه أرضاً، فبدأوا بالأعلى ونزلوا إلى الأدنى، هؤلاء مجرمون، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤]، قالوا: لا، لا لا نقتله؟ ﴿حَرِّقُوهُ﴾، من طغيانهم وهذا من استخدام الطغاة لأساليب الصدمة والترويع، يعني واحد وزنه، يعني متصور إبراهيم كم وزنه والأنبياء ليس فيهم سُمنة؟ ستين كيلو، خمس وستين كيلو، سبعين كيلو، خاصةً أنه كان فتى لم يحمل اللحم ولم يكبر، فكم يحتاج للحرق؟ خشبتين حطهم تحت وأحرقوه، لكن كيف فعلوا؟ قال: حرقوه، ولذلك أشعلوا ناراً واشتركت الدواب فيها حتى إن الوزغ لينفخ عليها لتشتعل، ومن هنا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الوزغ لأنهم نفخوا على إبراهيم، وقال من قتله في أول ضربة له

كذا وكذا له أجر أعظم من أن يقتل الوزغ بضربتين، والحديث في الصحيح وهذا شرحته لماذا في هذا وأظن في صبغة الله الصمد.

القصد: أنهم أشعلوا ناراً عظيمة، لماذا؟ هذا للصدمة والترويع، هم يريدون قتله أولاً بنفسه بالتخويف، وتخويف غيره، ليس فقط إحداث الترويع في نفوس الآخرين، ولكن هو غل القلوب كذلك، غل الكافر على المؤمن هذا جزء من ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦]، هذا جزء من بنائك أيها المسلم، لما نحن نتحدث عن الكافر لا عقل عنده وليس له اختيار ينبئ عن هدايةٍ ولو تفكر للحظة، لا تظن أن الكافر يتفكر للحظة، ثم عليك أن تعلم أنه ليس للكافر رحمةً عليك أبدًا، والله لو قدر عليك، قال القرآن: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠]، القتل، لا يحتمل.

ولذلك بعض المسلمين بخفاء هذا الهدي القرآني عنهم يصدموا لماذا يفعل الكفار بنا هذا، صباح الخير!! أو على رأي أحد إخوانا المصريين كان يقول لي دايماً صباح الخير في الليل!! يعني كل هذا التاريخ ما هداك، كل هدي القرآن ما علمك ماذا يفعل الكفار بأهل الإيمان، القتل والذبح وغيره، فقال: ﴿حَرِّقُوهُ﴾، فاستخدموا أسلوب المجرمين في كل وقت، فبنوا هذه النار العظيمة.

والله عز وجل أنقذه منها، ﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ [العنكبوت: ٢٤]، وفصلت هذه النجاة بقوله النجاة من النار يعني لو واحد سأل كيف نجى؟ ربما رمي فلم يأت فيها، ربما نجى أنه لم يرمى، لكن القرآن، لا، فصل هذا بقوله: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فالقي فيها فتحولت النار بأمر الله الذي جعلها مادة للحرق، جعلها مادة للسلامة، يا نار كوني برداً سلاماً على إبراهيم فقط والآخرين لا يرون إلا الاشتعال، لا يرون الحرق، ﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤)﴾ [العنكبوت: ٢٤]، والحديث عن قوم يؤمنون تحدثنا عنها، لماذا؟ ليصبح الإيمان قوم، وقوله: ﴿آيَاتٍ﴾ ليس آية واحدة، بالرغم أنه فعل واحد، آيات من ذلك ما هي الآيات العديدة فيها؟ هو صبر إبراهيم، عندما قال حسبي الله ونعم الوكيل هذا صبر، من آيات الله عز وجل أن أنجاه، وهو فتى من آيات الله أن جعل النجاة ليس فقط النجاة، النجاة هو هروب مما يؤذيك لكن جعلها برداً وسلاماً، نعيم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤)﴾ [العنكبوت: ٢٤]،

وبقيت المؤمن أريد أن أفسرها، يوجد لي كتاب أرجو أن يقرأ اعتبره يعني مما فتح الله في السجن يعني وللسجن هكذا أمور عجيبة، يعني أنا قلت: لو أن إبراهيم كان في زماننا، وأحدث ما أحدث كيف سُتقرأ قصته؟ هذا الذي كتبته «على خطى الخليل»، أرجو أن تقرأ هذه، وإن كانت مختصرة لأنه كان الوضع حرج اختصرتها، ماذا لو وقعت

قصة الخليل في زماننا هذا؟ كيف سيصبح تحليل الخبراء لهذا الحدث، أول حاجة يقولوا هو كسر الأصنام لماذا؟ من اجل أن يشغل صناعة أبوه، يقول لك: ماذا صنع إبراهيم؟!

هنا الغفلة عن مشكلة الصراع، والنظر إلى الجوانب الخفية التي لا قيمة لها ولكنها تبرز، لو واحد قال: ماذا صنع إبراهيم؟ ما فائدة ما صنع؟ أول حاجة عطل الدعوة إلى الله، فأخرجوه راح هرب وتركهم ترك قومه، هو لا يفهم معنى الصراع، الآن يقول لك: يا أخي لو أنك تقربت إليهم، يوم الزينة يعني أنت رحت نكدت عليهم الزينة يعني ماذا تتوقع منهم؟ ما لقيت غير يوم الزينة، ماذا تتوقع منهم؟ اذهب إليهم وتكلم معهم، وهكذا.

وأرجو أن تقرأ هذه «على خطى الخليل» في هذه المعاني التي ترد على شبهات المبطلين في عمل أهل الحق وصراعهم مع الباطل الذي يزعم نرجع إلى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦]، يزعمون أن تحرك الجاهلية وقسوة الجاهلية سببها أنتم، دائماً يعزون أن السبب قسوة وتنمر وتوحش الجاهلية هوما تفعلونه أنتم، ما المطلوب؟ المطلوب أن نكون نعاجاً؛ حتى لا يتم الصراع، والأصل أن يتم الصراع أن تتم المواجهة، يحرق إبراهيم ويحرق فلان ويحرق وبعد ذلك يتم الصراع، لأن كلمة الحق ولأن فعل الحق ولأن إدامة الصراع هي التي تولد النصر في نهاية الأمر، وأما السكون فلا يولد صراعاً، وإذا لم يتولد الصراع لا ينشأ النصر، النصر منشأه الصراع،

السائل: هل رؤية الله في المنام جائزة؟ وهل هو في قوله سلف؟

الشيخ: نعم، لا بأس أقول هذه تحدث بنعمة الله، كنت أنفي رؤية الله في المنام، حتى رأيته.

وجزاكم الله خيراً وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس العشرون

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين وإمام المتقين حبيبنا وإمامنا سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة وهذا هو الدرس العشرون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ [البقرة: ٦-٧].

تكلمنا قليلاً عن بعض ألفاظ هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ونفسر الآن بعضه الآخر لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، كفر في اللغة بمعنى ستر، وكل شيءٍ يستر غيره قد يسمى كافر، قد يسمى ولذلك البحر العظيم يسمى كافر، الليل يسمى كافر لماذا؟ البحر العظيم لأنه يستر ما تحته وكذلك الأرض البعيدة فتسمى كذلك كافر والزراع يسمى بالكفار، كما في سورة «الفتح»، ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، والمقصود به يعني الزراع، لأنهم يسترون الحبة في الأرض، فالكافر بالستر، إذا ستر يسمى كفر، وهذه لغة العرب، ومن هذا المعنى المطلق في الستر قُيد بمعنى اصطلاحي في الشريعة.

هنا مسألة فقط أمر عليها سريعًا ونتكلم بها كثيرًا، هل الشريعة أخذت الكلمات العربية فنقلتها من معانيها العربية إلى معاني جديدة، أم أبقتها على معانيها العربية وقيدتها؟ الذي عليه الأكثرون من الأئمة المحققون أن الشريعة قيدت الكلام ولم تنقله، يعني لم تأخذ الكلمة إلى معاني جديدة، لا، وإنما قيدت الكلمات، فمثلاً: نحن هنا نرى في كلمة كفر مطلقة لمن ستر، لكن الشريعة تطلقه على ستر مُعين مُضيق، وهو ستر الحق، فكل من ستر الحق الذي جاء به الأنبياء عليهم السلام فهو كافر.

والستر: رده، ولذلك الكافر في الشريعة هو كل من رد الحق، والرد هنا عدم القبول وعدم الالتزام، الإيمان كما تقدم هو القبول والالتزام، فالكفر يناقض ذلك، كيف يناقضه؟ كل من رد الحق ولم يلتزم به أي قال: أنا ملتزم به وأما أن يأتي النقض بسبب الهوى كما حدث مع أبينا آدم عليه السلام أي نقض الالتزام ببعض صوره فيما لا يكفر به فتلك مسألةٌ أخرى، ولكن الكفر هذا معناه، وسيأتي إن شاء الله صور كثيرة من الكفر التي يقع بها المشركون مثلاً من رد الرسالة، لا يؤمنون بالرسول بالكلية، فهؤلاء ردوا الرسالة ومنهم من يرد بعض الشريعة، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ

نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، فيرد بعض الشريعة.

وكذلك سنرى حتى في سورة «البقرة» نرى كفر المآل كيف تجتمع الذنوب حتى تنقل العامل المسلم إلى أن يكون كافراً بالمآل، قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)﴾ [البقرة: ٨١]، كما سيأتي، هذا كفر المآل.

فالكفر أنواع في صوره ولكنه في حقيقته هو نقدٌ للقبول والتزام، فمن نقض الإيمان فقد كفر، والكفر إما أن يكون أكبر وإما أن يكون أصغر، والقرآن لا يجد فيه إلا الكفر الأكبر، لم يأتي إلا بالغايات في الأحكام، أتى بغايات الأحكام، ولا يوجد في القرآن الكفر الأصغر، وسنناقش إذا قدر الله من زعم أن قوله تعالى في سورة «المائدة»: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾ [المائدة: ٤٤]، سنبين خطأ من زعم أن كلمة ابن عباس تحمل هذه الآية كلياً على الكفر الأصغر، هذا شرحناه من قبل ولكن سيأتي وقته.

ونقول هنا: ليس الكفر الأكبر هو الكفر الاعتقادي والكفر الأصغر هو الكفر العملي، هذا غير صحيح، هذا التفريق ليس صحيحًا؛ لأن الكفر الاعتقادي كفرٌ أكبر وكفرٌ أصغر، والكفر العملي كفرٌ أصغر وكفرٌ أكبر، هناك من العملي ما هو كفرٌ أكبر، مثل: سب الأنبياء عليهم السلام، فهذا لا علاقة له بالاعتقاد، الذي يسب لا علاقة له بالاعتقاد، ما معنى الاعتقاد؟ أي ما تعلق الخبر به، هذا اعتقد يعني صدق به، فهذا السب لا علاقة له، قتل النبي كفر، من قتل نبياً كفر، فهو لا علاقة له هذا بالاعتقاد، قد يقتله مع اعتقاده بأنه رسول الله ولكنه يكفر وهكذا،

وهناك من الأعمال ما هي كفرٌ أصغر، وهذا وجد في الحديث، (اثنتانِ في الناسِ هما بهم كفرٌ: الطعنُ في الأنسابِ، والنِّياحةُ على الميِّتِ)، فسمى النياحة على الميت كفرًا، وهذا لا يقول مسلم بأن في النياح على الميت يخرج من الملة، وكذلك الاعتقاد منه ما هو كفرٌ أكبر وهو رد النص، ومنهم ما هو مرض، هذا سماهم ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، هذا الذين في قلبوهم مرض، أصيب بهذا، أصيب ليس بالشك الذي ينقد ولكن في قلبه مرض، كما لو سُئل ما المرض في القلب؟ قيل لك: كالمرض في البدن، لا يقدر على حمل المهمات فهذا نفس الشيء.

القصد: بأن تقسيم الكفر إلى كفر اعتقادي أنه كفرٌ أكبر، وكفر عملي أنه كفرٌ أصغر، بهذا التفريق هذا غير صحيح، هنا المقصود ولا شك أن كما قلنا نعمل القاعدة أن القرآن لا يأتي بالكفر الأصغر قط، الكفر الأصغر جاء في السنة، وكيف يعرف في السنة هذا كفرٌ أكبر وكفرٌ أصغر؟ بالقرائن، إي جاء في الحديث فيقول: هذا كفر؛ فنعرف بالقرائن، من القرائن أن يأتي الكفر معّرفاً، فالكفر المعرف كفر أكبر، ومن هنا فقوله صلى الله عليه وسلم عن تارك الصلاة: (العَهدُ الَّذي بيننا وبينهم الصَّلاةُ، فمَن ترَكَها فقد كَفرَ)، هذا يمكن بالرغم أنها كلمة العهد هناك قرينة، (العهد الذي بيننا) أي التي تعصم الدم، (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة)، هنا قرينة، كلمة العهد التي يرفع بها بين

الرجل وبين الكفر هنا، انظر الكفر بين الرجل وبين الشرك في رواية بين الرجل وبين الكفر فجاءت معرفة، وقد تدل القرينة عليها كقول ابن مسعود: «وما منا» عندما قال: (الطيرة شرك)، ثم قال ابن مسعود: «وما منا»، فقرينة دلت على أنها تصيب كل أحد، فدلت على أنها ليست من الكفر الأكبر، وهكذا فالقرائن في السنة تدلنا على هذا المعنى.

فقوله تعالى بعد أن تكلم جل في علاه عن المؤمنين جاء إلى صفات الكافرين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٦]، وسواء كقوله تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً﴾ [فصلت: ١٠]، ماذا تعني؟ متساوية، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٦]، يعني لا فرق، متعادل، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ [البقرة: ٦]، ما معنى النذارة؟ النذارة هي الإخبار بالعذاب، ويقابلها الإخبار بالنعيم، وهي البشارة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥)﴾ [الإسراء: ١٠٥]، فالمبشر أي الإخبار بالنعيم، الإخبار بالأجر والجزاء أي النعيم، والنذارة الإخبار بالعذاب والعقاب، الفرق بين النذارة والبشارة هو الإخبار، بماذا تخبر؟ فإن أخبرته بما يخوف به فهو نذارة، وإن أخبرته بما يفرح به فهو بشارة.

وما الفرق بين النذارة والإشعار؟ أشعره، اليوم يقال إشعار لما يحمل رجل شيء لإغلاق دكانه أو لإخراجه من بيته فيقال هذا إشعار، فما الفرق بين الإشعار وبين الإنذار، هو وجود الزمن الذي به يقدر المرء على التغير، يعني فإذا جاءت النذارة وفيها زمن من أجل أن يتغير، تنذره ليتغير فترتفع النذارة، لكن الإشعار تخبره بما سيقع بلا زمن.

نعيده، إذا جاء الخبر بالتخويف مع وجود الزمن للتغير تعطيه زمناً في إمكانية أن يتغير فهو إنذار، ينذره يقول له: هذا إنذار، عليك إن تتغير، لكن إذا جاء إليه خبرٌ يخوف بالعقوبة وليس فيه إلا ثمة الوقوع بلا تغير، هذا يسمى إشعار، فهمنا الفرق بينهم، فإذن عندنا النذارة وعندنا البشارة وعندنا الإشعار.

وبلا شك أنه في القرآن في مواطن متعددة، النبي صلى الله عليه وسلم ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩]، ﴿وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ﴾ [يس: ٧٠]، ﴿وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢)﴾ [الأحقاف: ١٢] وهكذا، فكثيراً ما جاء في القرآن هذا الأمر مما يدل على أن موضوع الغيب في البشارة والنذارة هو مقصد بعثة النبوة، ما هو مقصد بعثة النبوة؟ من مقاصدها بيان مقام الناس بعد الوفاة، وهذا كثيراً ما يأتي في القرآن.

نعيد الكلمة الأولى نريد أن نقول بأن يدل على أن مقصد بعثة النبوة هو بيان الناس بعد الموت، هذا أولاً؛ لتكرر هذا الأمر والتنبيه عليه لأهميته ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩]، وهكذا كثيرًا ما يأتي القرآن بوصف النبي صلى الله عليه وسلم أنه مبشر ومنذر والأنبياء مبشرين ومنذرين، فدل على أن المقصد الأول للأنبياء هو تخويف الناس، إيعادهم ووعدهم، ما الفرق بين الإيعاد والوعد، الإيعاد هو بالشر، والوعد بالخير، الإيعاد بالشر كأن تنذره بالعقوبة فهذا

إيعاد، وأما توعده بالجائزة أن أحسن فهذا وعد، فالأنبياء جاءوا بالإيعاد والوعد، مما يدل على أن هذا مهمة الأنبياء الأولى وهو بيان أمر الآخرة.

وهذا يدلنا كذلك على أمرٍ مهمٍ آخر، أن موضوع التبشير والإنذار ليس من المواعظ التي هي تحمل عند بعض الناس على معنى التخفيف من قيمتها، وكأن الحديث عن الجنة والنار أو الحديث عن العذاب وعن النعيم عن الجزاء الأخروي كأنه حديثُ وعظي، وليس هو أساس الدعوة، وليس هو أساس النبوة وهذا غير صحيح، بل إن الحديث عن النار والحديث عن الجنة والحديث عن مقام كل واحدٍ ومقره بعد الموت، هذا من مهمات الأنبياء.

الأمر الثالث: أن بعض الناس للأسف يقتصروا على أحد الأمرين دون الثاني، والواجب هو بيان الأمرين، بيان أنه بشير ونذير يعني بعض الناس يقول لك: بشر ولا تنذر، لا، فعليك أن تبين له، وهنا يدل على أن بعض المقامات يُقدم فيها أحد الأمرين، ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤)﴾ [الأنعام: ٥٤]، أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم كما في سورة «الأنعام» إذا جاءه أهل الإيمان أن يبشرهم، وأن يبين لهم الرحمة ولا يبين لهم مقامات ما عملوا من صلاح جهاد وقيام ليل وصلاة وذكر وزكاة، لا، بل قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ﴾، حتى وهم على المعصية ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فماذا قدم في ذكر المؤمنين؟ البشارة، أن يبشرهم.

وهنا كما ترون ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ [البقرة: ٦]، ما قال: أأنذرتهم أم بشرتهم، لأن المقام الذي هم فيه يوجب تقديم النذارة، المقام الذي هم فيه هل يمنع أن يبين لهم بشارةً ما لو تركوا؟ هذا حق، لكن ليسوا أهل هذا يقول لهم: لو تغيرتم تكونوا، فهو يجوز له أن يبشر الكافر ما لو تاب، ولكن الأصل أن ينذره فيما هو عليه من الحال.

ولذلك هنا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ [البقرة: ٦]، فلذلك جعل الأمر الأول أو الغالب في حديث الأنبياء عليهم السلام مع خصومهم من الكفار هو النذارة هو الأول، وهناك مسألة مهمة هل هناك ثمة شيء واجب في هذا الباب؟ الجواب: لا، بمعنى هل يجب على الداعي على المؤمنين أن يبدأهم بالبشارة؟ لا، وإنما هو يتخولهم بالموعظة، فربما يجد من الأنسب في هذا الوقت أن ينذر ويشدد في الإنذار؛ فإذا وجد منهم تكاسلاً وجد منهم ميلاً للمعصية ووجد منهم خوفًا، وجد الخوف من أن يقدموا على معصية، فيحذرهم، كأن يدخلوا في أرض فيخاف أن يأكلوا الربا، يدخل في مكان يكثر فيه النساء فيخوفهم، فهذا الأمر يرجع إلى حكمة الداعي.

القصد من هذا: أن النذارة ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ هي الأليق بالتنبيه لما في الكفار.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ [البقرة: ٦]، نحن تكلمنا في اللقاء السابق في الدرس الفائت على أن هذا الخطاب هو للنبي صلى الله عليه وسلم، لأنه هو المقصود، والمقصود من هذا الخطاب وهو بنائه النفسي، أن الإعراض ليس بسببك وليس بتقصيرك، وليس لعدم اقتناعهم، يعني هذا ينشأ في نفوس الدعاة للأسف إلى زمننا هذا يظنون أن الكفار لهم عذرٌ في كفرهم بسبب تقصيرنا في الدعوة، أو بسبب عدم إقامة الحجة البالغة عليهم، القرآن: يرفع هذا، ويدعو النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يهلك نفسه في هذا الأمر.

ولذلك الشعار الأول أن يعلم أن أمر الهداية من الله عز وجل، وليس بيده وعليه أن يعلم أن الحجة قائمة عليهم، ولكنهم قوم يعرضون، ولذلك الله عز وجل جعل قلوبهم لا تتسع للحق، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فالمسألة ليست لك هي من الله عز وجل، وهذا فيه دليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ [البقرة: ٦]، دل هذا على أن مسألة الأقدار قد حسمت، فمن كُتب كافراً عند الله فهو كافر لا تنفعه الهداية، ومن كتب مؤمناً هو الذي سيستجيب.

والسؤال بما تمت الكتابة؟ بحكمة الله وعدله ورحمته، الحكمة والعدل والرحمة، علم الله فهذا الأمر انتهى وقضي وليس هو بيدك ولا بيد أحد، ليس بيدك خُتم عليهم انتهى هذا، لا مجال للتغير، نأتي إلى أعظم مسألة هل هذه الآية تصلح دليلاً لأحدٍ من الدعاء وعلى رأسهم الأنبياء بأن لا ينذروا أقوامهم؟ الجواب: يقينًا لا، بل هو مع علمه أن الكافر لن يهتدي إذا كتب الله له الموت على الكفر لكنه كيف يحسم النبي أن هذا يستجيب أو لا يستجيب؟ هذا ليس من شأنك.

ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم دعا الكفار للإسلام فأصبحوا صحابة، أهل المدينة كانوا كفاراً، فدعاهم فأسلموا فهذا لا يجوز لأحدٍ أن ييأس منه، وهذا النص الإلهي العظيم ليس مانعاً من أن يقوم الداعي بالدعوة إلى الله عز وجل؛ لأنه قد يسلم في أخر لحظة، كما حدث مع الفتى اليهودي عندما دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى الله فأسلم، وكما حدث مع خالد بن الوليد رضي الله عنه حارب الإسلام، وكما حدث مع عكرمة وحدث مع عمرو بن العاص، وحدث مع المؤلفة قلوبهم من أهل مكة، فإنهم أسلموا بعد طول قتال مع النبي صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان وهند بنت عتبة فلذلك هذا النص لا يجوز لأحد أن يتخذه ذريعة في ترك الدعوة.

ماذا نستفيد هنا نص؟ نستفيد نصاً مهماً وقاعدةً شرعية يجب أن نتعلمها لا يجوز أن يتخذ الفعل القدري أو المشيئة القدرية حجة على ترك الفعل الشرعي، هذه قاعدة، ما هذه القاعدة؟ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧]، ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف:

٢٠]، احتجوا بالقدر ما دام أن الله أذن لنا، ونحن نفعل هذا وما دام أن الله هو الذي يوزع الأرزاق فلما نتدخل في قدر الله.

فلا يجوز لأحد أن يتخذ الحكم القدري مانعاً، من تطبيق الحكم الشرعي، عندما تقول هذا كتب الله عليه الفقر من أدراك أنه بمالك الذي تتزكى عليه يرتفع عنه الفقر، ما الذي جعلك أنت تقوم بعبادة الملائكة؟ هذه في سورة «الزخرف» ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠]، فاحتجوا بالقدر الذي هم فيه على إبطال الحكم الشرعي، في أمرهم بأن ينتقلوا من عبادة الملائكة إلى عبادة الله عز وجل، فالحكم القدري لا يجوز أن يعطل الحكم الشرعي.

كيف نستفيد؟ أمثلة على هذا: غير ما ذكرنا أمثلة كثيرة، لو سألكم سائل بما استحللتم أن تغنموا الطفل الصغير إذا كان من أبوين كافرين، وغنمتم والديه أو أنكم دخلتم بلدهم على سبيل القوة يعني بالجهاد؟ هل يجوز أن يغنم الطفل الصغير أو لا يجوز؟ الطفل الصغير الكافر يعني لو إن أهل الإسلام غلبوا أهل قريةٍ كافرة، فأخذوها أما على جهة الفيء أو على جهة الغنيمة، وأنتم تقولون: كل مولود يولد على الفطرة، فبما أجزتم لأنفسكم أن تغنموني وتعتبروني ملحقاً بوالدي في أحكام الأموال والدماء، وأنا ليس لي خيار أنا لم أختر أن أكون كافراً ولم أختر أن أكون بين هذين الوالدين، ولم أبلغ حتى أختار ربما لو تركتموني حتى أبلغ لاخترت الإسلام، يعني الاسلام لا يؤجل هذا الطفل من أجل أن يغنم حتى يكبر فيختار الكفر أو الإسلام، فإن اختار الإسلام ارتفع عنه حكم الغنائم، وإذا اختار الكفر غنم لاختياره، أحكام الكفار هل يفعل هذا؟ الجواب: لا، لماذا؟ لهذه القاعدة أن هذا حكم ما الذي جعله من أبوين كافرين هل هو اختياره أم تدبير ربنا؟ تدبير الله عز وجل، فلا يجوز هذا التدبير الإلهي الحكم القدري أن يمنع حكماً شرعياً في غنيمته مثل والديه.

ومن هنا يترتب مسألة كذلك، مثل هذه المسائل كثيرة، الآن يتساءل الناس مثال: لو أن بلادٍ –طبعاً هنا نتكلم عن الحكم الأصلي، ولكن هذا الحكم الأصلي يجب تطبيقه باعتبار الحكمة، لأن قضية الغنيمة حتى ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤]، يعني على الأمير وعلى إمام المسلمين أن يختار في هذا الباب ما هو الأصلح؛ لأن أعمال الإمام منوطة بمصلحة الرعية، بمصلحة الأمة، ومصلحة الدين هي المقدمة على كل شيء.

الآن لو كان أهل الذمة في بلادٍ مسلمة، فهؤلاء لهم ذمة، لا يجوز للمسلم أن يغنمهم؛ لأنهم أهل عهد، أهل ذمة أهل عهد، وأهل الذمة وأهل العهد شرطهم الشرط القدري أن يكونوا تحت حكم المسلمين، فلو ذهب حكم المسلمين؟ لعادوا كفارًا حربيين، لو ذهب اسم أو حكم دار الإسلام عنهم لذهب عنهم مسمى أهل الذمة، لأن أهل الذمة شرطهم أن يكونوا في بلاد المسلمين، في دار مسلمين، قد يقولوا: ما علاقة لنا نحن لم نُذهب دار الإسلام لتصبح دار الكفر: نقول: هذا، الحكم القدري لا يغير الحكم الشرعي، القاعدة: «الحكم القدري لا يجوز أن يغير الحكم الشرعي» وفي ذلك تطبيقات كثيرة نكتفي بهذا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ [البقرة: ٦]، الخطاب خطابٌ لرسولنا صلى الله عليه وسلم ترى الآيات خطاب ﴿أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، وهنا ﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦]، وفي هذا كذلك دليل علينا أن نفهمه أن كل خطابٍ لرسولنا صلى الله عليه وسلم هو خطابٌ لأمته، يعني سواء أأنذرتموهم يا أهل الإيمان ولكن الخطاب لرسولنا لتشريف الرسول صلى الله عليه وسلم، وبيان أن هذا من عظائم الأمور، هي تشريف لرسولنا بذكره، فإنه إذا ذكر أن الأمر له هو تشريفٌ له.

ولذلك ماذا قال فرعون؟ قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩)﴾ [طه: ٤٩]، قال فرعون وقد دخل عليه موسى وهارون، ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا﴾ وجعل الخطاب للعظيم، ولذلك ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا﴾ ولم يسكت وإنما كان اتجاه خطابه وكلامه إلى العظيم منهما وهو موسى، فهذا تعظيم لمن؟ للمخاطب لأنه هو العظيم، وكذلك لما هذا مؤداه أن يكون خطابًا العظيم هو تعظيم الخطاب، ما دام أن هذا المخاطب هو عظيم فدل على أن الخطاب الموجه إليه عظيم، من أجل هذا جاء الاختصاص بذكره صلى الله عليه وسلم دون ذكر بقية أمته.

أولاً: لتعظيم شأن النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: لتعظيم شأن الخطاب أنه موجه من الله عز وجل إلى أعظم خلقه، فمن باب أولى أن يكونوا الأتباع داخلين في هذا الخطاب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ [البقرة: ٦]، والآن يأتي السؤال، لماذا يا رب سواء أنذرهم الرسول أم لم ينذرهم لا يؤمنون؟ طبعًا هذه أيها الإخوة الأحبة كما تروا قبل أن نمشي هذه تقدم الكلام أن سورة «البقرة» مدنية، ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ [الشعراء: ٣]، خطابٌ له وهو في مكة هذه نزلت في سورة «الشعراء»، وسورة «الشعراء» مكية، فهو رفعٌ لنفسه ألا يهلكها، وفي المدينة ثبات الأمر على أن تجري معهم مجرى ما أمرت به جديداً وهو قتالهم، يعني هو لا يقول لعلنا نؤجل القتال ولذلك ما في تأجيل، يقول: لعلهم أصبر عليهم قليلاً، يعني قد يقول قائل أصبر لئلا نقتلهم، فماذا يقول الله له؟ ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فهذا الخطاب أن يتقدم في المدينة من أجل قطع علائق النفس في أمل ترك الحكم بالتعاون معهم من خلال الجهاد والقتال.

هناك لا تهلك ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ [الشعراء: ٣]، ادعو ولكن ابقى لا تهلك نفسك، وهنا ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فعليك أن تمضي إلى ما أمرت به، ولذلك أعطى الشارع في البلاغ العام أعطى لكل أمة أن ينذرهم ثلاثة، أسلموا تسلموا ثلاثًا فقط، ولا يزيد لا يجوز له أن يزيد، وهذه الآية تقول له: دعهم، الآية تقول له: انتهى الموضوع.

فلو سأل سائل لما هؤلاء يستوي خطاب الدعوة والنذارة إليهم مع عدم وجود خطاب النذارة ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، مع علم الله بأن لا يؤمنوا أقام عليهم الحجة، بأن بعث الرسل، فمن باب أولى أن تفعله أنت، وأنت لا تعلم النتيجة، يعني الله عز وجل علم أن فرعون سيموت كافراً، ومع ذلك قال: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٤٣]، علم وقال: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ﴾، ويعلم أن هذا الذهاب لن يغير من حقيقة فرعون، لكن لماذا؟ من أجل إقامة الحجة عليه بوجود الصراع بين الحق والباطل لهلكته؛ لأنه لا تقع الهلكة إلا بعد الحجة في الدنيا، حتى يقع الصراع بين الحق والباطل فيتم إقامة الحجة في هلاكهم، وحتى تقع الحجة عليه يوم القيامة، لو قالوا: ما جاءنا من رسول؟ يقول: كذبتم جاءكم رسول، فانتهى الأمر قطعت الحجة، ولكنه بالنسبة للدنيا حتى يقع النصر بإقامة الحجاج عليه.

ومن هنا وإن كان كفر الكافر لا يحب، ولا يجوز أن يحب، لكنه عند أهل الإيمان سبيلٌ من أجل الاستبشار بالنصر، بعض الناس يعجبون أن ما ذكره ابن تيمية رحمه الله في «الصارم المسلول» أن أهل الإسلام إذا غزوا حصنًا فسمعوا سب النبي صلى الله عليه وسلم استبشروا بفتحه، هذا ليس من قبل فرحهم بسماع سب النبي، لا يجوز، ولكن هذا من قبيل أنه قد تمت الحجة عليهم بهلكتهم.

ولذلك عندما نسمع من عالم مثلاً: يخطئ بالعبارة، يقول: أنا فرحٌ لما يقع في هذا، فيظن أنه فرحٌ للمقتل أو للذبح، لا، هو على هذه القاعدة استبشروا، على قاعدة لما يكثر المجرم من إجرامه يستبشر أنه قد اقتربت هلكته ودماره بإقامة الحجة عليه، لما ترى الفسق والفجور والإجرام في بلد من البلاد مما تعادي الإسلام وتراها قد تجاوزت الحد في الظلم والهلكة، فهذا أن الله عز وجل يريد بها الدمار يريد بها الهلاك.

والآن لماذا هؤلاء يستوي عندهم النذارة وعدم النذارة؟ قال سبحانه وتعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، قبل كل شيء هذه الآية يجب أن نفهمها فهماً صحيحاً قبل أن ندخل في الألفاظ:

أولاً: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، تضع نقطة هنا، الصواب: فالختم ليس على الأبصار، والأبصار لا يختم عليها، إنما يُغشى عليها، الختم إنما هو على القلوب وعلى الأسماع يختم عليها، وأما الأبصار فلا يختم عليها وإنما يغشى عليها، ويشهد لهذا ما قاله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]، انظر القرآن يفسر بعضه بعضاً، فالغشاوة هي على البصر، فهذا ينبغي أن ننتبه له أولاً، فقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾، خلاص هذا الختم على هذا، وأما على أبصارهم فعليها غشاوة.

ما هو الختم؟ الختم هو الطبع، طبع عليه، والختم هو نهاية الشيء، هذا إبداع العرب وتفننهم في الكلام، يعني الخاتم ليس هو الأصل في كلمة الختم، لكن لما كان نهاية كل شيءٍ بأن يطبع عليه، أن خاتمة كل شيء يطبع عليه بماذا كان يطبع عليه؟ بألةٍ هي الخاتم، فالخاتم الذي نسميه خاتم إنما هو لاستخدامه في الطبع بعد ختم الأشياء، بعد انتهائها، بعد أن انتهى من الشيء يُطبع عليه، بما يطبع عليه؟ بما يختم عليه؛ فسمي خاتم، وعادةً لبسه الناس فصار خاتماً.

ومن هنا فهذا اللفظ هو دليل في الرد على المجرمين الذين زعموا أن النبوة لم تختم، قوله صلى الله عليه وسلم (أنا خاتم النبيين)، هذا يقر بهذا الحديث، لكنهم يحملونه على الشرف أن خاتم الشيء هو الشرف، يعني أنا أشرف النبيين واللغة لا تخدمهم، صحيح الخاتم عند الناس خاصٌ بالرجل، لأنه خاص له، أي الناس يتخذون هذا الخاتم له من أجل أن يدل عليه، عندما يختم أنه ختمه، وإقراره كما يسمى اليوم توقيعه، يعني وقع عليه، أي أعطاه شرف اسمه ومن هنا سمي العلماء بالموقعين عن رب العالمين.

ما معنى موقعين عن رب العالمين؟ ما معنى وقع عن رب العالمين؟ أي أوقع الأمر باسمه فأعطاه صفة الاهتمام والقبول، وقع عليه، وضع اسمه فأعطاه صفة الانتساب له، فلما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (أنا خاتم النبيين)، ما معناها إذًا؟ ليس معنى ختم هنا مأخوذ من الخاتم، الخاتم مأخوذ من كلمة ختم، وختم يعني أتم كما تقول: ختمة القرآن، وكما تقول: ختم الشيء انتهى منه، وبعد الانتهاء يتم الطبع، بما يتم الطبع؟ بآلةٍ تدل على هذا الختم على هذا الانتهاء.

إذن قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، انتبه ليتلاءم الأمر، لما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٦]، يعني ما هي عاقبة الأمر بالنسبة لهم؟ الكافر الذي يسلم هل خُتم على قراره وعلى حالته، ما زال هناك في عمل له في تحول مما هو عليه إلى شيءٍ آخر، أنه يتحول من كافر إلى مسلم، فبقي هناك تحول ولم يُختم، لكن لما كان هؤلاء الكفار الذين ذكرهم الله لا يتغير حالهم وافق قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾، أنتهى أمرهم وكان المسألة بالنسبة إليهم قد انتهت فلا تغير لحالهم.

قال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، هنا طبعًا وقبل أن نأتي إلى قوله تعالى ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، الختم هو عدم التغير، انتهاء الأمر على ما هو عليه، والغشاوة هي إحاطة الشيء من كل جانب، فقال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١)﴾ [الليل: ١]، ما معنى يغشى؟ أي أحاط بكل شيء، ما ظل بقاء للشمس، ما بقاء لنور الشمس، غشي الليل كل شيء، فغشى الشيء أي أحاط به، ولذلك أخذت كلمة الغطاء من الغشاء، الغشاء هو الغطاء أخذ من الغشيان وهو إحاطة الشيء بالشيء.

إذن الختم هو بنفس المعنى لكلمة غشاوة، لكنها لا تليق بالبصر، السمع يُختم عليه فلا ينفذ منه شيء، والقلب يختم عليه فلا ينفذ إليه شيء، والبصر حالةٌ أخرى لا يختم عليه، ولكن يغشى عليه فلا يبصر شيء جديد، فتلاءم هذا مع هذا كما ترون.

قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، هنا أيها الإخوة الأحبة هذه المذكورات الثلاثة هي منافذ العلم، التي هي السمع والبصر والفؤاد، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ﴾ [الإسراء: ٣٦]، والسمع والبصر، والقرآن لم يكن إلا في يمكن موطن ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ [مريم: ٣٨]، وإلا فعامة ما يذكر في القرآن تقديم السمع على البصر، ومن هنا أحتج ابن قتيبة رحمه الله في كتابه «المعارف» على أن السمع مقدم على البصر، ولذلك مما قالوه من الاحتجاز قالوا: يمكن أن يأتي نبيٌ أعمى، لكن لا يمكن أن يأتي نبي أصم، فدلالة السمع أنه أهم من البصر، هذا مما قالوا ونتركه إلى خصوماتهم وإن كان الجويني في «الغياث» استقبح هذا القول، وقال فيه كلام بخصومات بينهم.

هناك في القرآن أيها الإخوة الأحبة ورد الطبع، ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، والطبع كما رأينا يعادل الختم، وورد أم على قلوبٍ أقفالها، وقالوا قلوبنا في أكنةٍ مما تدعونا، وورد على القلوب أحوال متعددة، قال مجاهد: «أشدها القفل» لأن الختم ممكن أن يزال لكن القفل انتهى الموضوع، وهو أشدها والله تعالى أعلم، فأشدها هو هذا.

قال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧]، ما هي أداة الفهم؟ هل هي القلب أم العقل؟ الله يقول: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾ [محمد: ٢٤]، فجعل القلوب محطة الفهم آلة الفهم، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤)﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، على القلب، فما هو المقصود؟ الناس يقولون: القلب ويعرفون الآن ليس فيه أدوات التفكر، وأدوات التفكر وقبول الشيء وهو أن تفهم الشيء أو ألا تفهمه هو العقل، آلات العقل هنا.

وقبل أن نخوض في هذا نقول: بأن القرآن لم يأت قط بكلمة العقل وإنما أتى بفعلها ﴿يَعْقِلُونَ﴾، ما في كلمة العقل لا في القرآن ولا في السنة، وكل أحاديث العقل موضوعة في فضائل العقل لا يوجد، لا يوجد في الكتاب والسنة كلمة العقل لكن موجود ﴿يَعْقِلُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ موجود، فلماذا؟

قبل كل شيء يوجد نظرية وهذه نظرية باطلة تعتقد أن هناك ثمة كائن اسمه العقل له مقررات ذاتية تقرر الحقائق وتبطل الباطل، هذا طبعاً أفرز ديناً ومذهباً ما يسمى بالعقل الكلي، توزع هذا العقل الكلي بقيمه التي صدرت من العقل الأول إلى عقولنا وتحمل هذه العقول المقررات، طبعاً كما ترون هذا المذهب هو مذهب العلمانية، هذا المذهب أساس هذا القول: بأن العقل يحمل قيمًا لتقريرات الحق وأبطال الباطل في نفسه، هذه التي جعلت للعلمانية، التي

أرسخت للعلمانية مذاهبها بمعنى أن العقل قادر على أن يعرف بنفسه الحق والباطل بنفسه، الآن أنا أتكلم هذا بمقدار هنا وسنفصلها عند قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، أنه لا يوجد هناك لا يوجد شيء اسمه مقرراتٌ عقلية تنشأ من ذات العقل، العقل لا يملك مقررات ذاتية تقرر الحقائق، العقل مَلَكةٌ مكتسبة تمارس هي أداة تمارس النظر في الأشياء فهماً، ولا تقرر الحقائق.

ولذلك كما هو معروف الحارث لمحاسبي وهو من أهل السنة في هذا الباب قال: «العقل آلة، مَلَكة»، هو لا يستطيع أن يفرز الحق، لا يستطيع أن يقرر الحق ولا يبطل الباطل لا يملك هذا الأمر، لا يملك هذا العقل لا يملكه، وإنما الذي يعطيه إياه هو الله عز وجل من الفطرة وما يعطى بعد ذلك من خلال الوحي والنبوة، وهذا سنبينه في قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

إذن كلمة العقل، لما واحد يأتي يريد أن يمدح العقل فيها إشارة إذا مدحت العقل كأنك مدحت كائنًا يملك مقررات الحقائق، العقل هو ماذا؟ آلة، مَلَكة، هو لا يملك مقررات هو بذاته العقل هذه كلمة العقل لا تملك المقررات، أي بمعنى نقول: العين هي آلة، مَلَكة، النظر آلة ترى فيها هل هي تُنشئ الأشياء المرئية في داخلها أم هي تبصر الأشياء إذا وجدت؟ تبصر، فالعاقل يدرك ما يطرح عليه ولكنه لا يملك إنشاء الأشياء التي في داخله الحقائق لا يملك الإنشاء.

وطبعًا بلا شك أن فلاسفة المسلمين لمن انتسب لأهل الإسلام والفلاسفة أو من المسلمين الذين انتسبوا للفلاسفة، للأسف وقع منهم هذا الفساد، مثلاً: ابن طفيل واحد من الفلاسفة الذين تأثروا بفلسفة اليونان هذه الفلسفة التي نتكلم عنها، وأنشأ قصة اسمها حيي بن يقظان، طبعًا القصة كتب فيها الكثيرون حتى ابن سينا له حيي بن يقظان، ما مقرر هذه القصة أن طفلاً رُمي في جزيرة لا يوجد فيها أحد وتوصل لنتائج ما توصل إليها الأنبياء عندما بقي لوحده، لا يوجد عنده نبوة لا يوجد عنده أحد في النهاية اكتشف الحقائق التي جاء بها الأنبياء في المدنية، ومُثلت بطريقة ما، وغفل من مدحها على مقصد واضعها، غفل أنه هو يريد أن يقرر أن الإنسان قادرٌ على اكتشاف ما جاءت به النبوة ما لو فرغ من الهوى، هذا لماذا؟ لأنهم يعتقدون أن العقل في داخله علوم.

من هنا هل العقل يمدح أم آلية العقل التي تمدح؟ انتهينا، وصلنا كل هذا الكلام لنصل لهذه الكلمة، ما هو الذي يستحق المدح إعمال العقل أم إنتاج العقل بما هو فيه من حقائق؟ لا يوجد فيه حقائق حتى ينتجها العقل، لكن فيه آلية عمل، العين لا تنتج لكنها فيها آلية ما لو وضعتها فيها تنتج البصر، السمع يمدح السمع لماذا؟ لأنه آلية، فمن هنا جاء مدح يعقلون ولم يأتِ مدح العقل، هذه قلناها مقدمة على قضية مهمة وهي أين القلب من هذا؟

نحن قلنا يا مشايخ من قبل بأن الجهل في القرآن ليس هو عدم العلم، الله عز وجل جعل الهدى مقابل الظن والهوى، فالجهل منشأه ظنٌ وهوى، فإذن لو مدحت آلية العقل، ﴿يَعْقِلُونَ﴾، يتفكرون أنه هذا حق أم باطل، فهم في موقف الخروج من الظن لكن بعد ذلك هل هذا كاف أي النتيجة كافية للحكم عليهم بالمدح، أنا أتكلم عن النتيجة، كآلية العقل فعلها المرء بأن أدرك الحقائق وخاطب نفسه أن يكون مع هذا ولا يكون مع هذا، هذه تمدح، ولكن في عاقبة الأمر ما الذي يمدح في القرآن هل هذا فقط أم نتيجته وهو أن يقبل على العمل بما قرره العقل من حقيقةٍ وردت عليه.

الآن الفهم لما هو حق ﴿يَعْقِلُونَ﴾، اتباع الحق لا تصح للعقل، ليس فيه تعمل العقل، إنما اتباع الحق إنما هو عمل القلب الإرادة، ولذلك القرآن يعلق الفقه لأن الفقه في القرآن هو اتباع الحق وليس مجرد إدراكه فقط، وإلا القرآن يقرر أنهم ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)﴾ [العنكبوت: ٣٨]، ﴿جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٣-١٤] يعرفون، فهل يمدحوا لمجرد أنهم علموا أنه الحق؟ أم يمدحوا لأنهم اتبعوا الحق؟ فإذن ما الآلة التي تحمل ما أتى من تقرير الحق في نفوسهم أنه الحق من أجل أن يتبعوه؟ هو الإرادة، أين منشأ الإرادة؟ القلب ما الذي ينشأ الإرادة؟ القلب، القلب هو منشأ الإرادة.

ومن هنا جاء بيان معرفة الحق للقلب لأن اللازم الممدوح في ذلك هو إرادة اتباع هذا الحق، الممدوح، ومن هنا ننهي هذا إذا صح هذا الكلام وأظنه يصح، وابن حزم في «الإحكام في أصول الأحكام» في المجلد الأول في أوله يتكلم بجملةٍ واحدة فيما شرحناه هذا التطويل في جملة كبيرة، وإنما وبقية العلماء حين يتحدثون عن القلب والعقل للأسف يجعلون خصومة، هل الذي يفقه على معنى يعلم هل هو العقل أم القلب؟ لا، الذي يعلم الحق هو العقل، لكن الذي يجعل المرء يتبع الحق بعد معرفته هو الإرادة التي تنشأ من القلب، ومن هنا جاء المدح إليها، فحينئذٍ حسمت المعركة انتهى، هذا الذي جعلوه خصومة بين القلب والعقل في الحقيقة هذا الذي يقرر والله تعالى أعلم.

فقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، لو قال: على عقولهم، على ما نحن فيه لكان مفهوم هذا الكلام أنهم لم يعلموا الحق، جاءهم الحق فلم يعلموا، لكن لما قال: ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾.

الآن نأتي بنفس الكلام ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾، بعض المشايخ باختصار وأنا سأختصر اليوم مع الاعتذار، بعض المشايخ للأسف يجعلون عدم السماع، ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾، يجعلونها حجة على أن الحجة الإلهية عليهم قائمة حتى لو لم يسمعوا بمعنى لم يعلموا، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]، ما معنى الفقه هنا؟ -ضرورةً أن أتكلم ضرورة الفهم- هل كفار قريش جهلوا بمعنى لم يعلموا ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فردوه دون أن يعلموا مراده؟ أم أنهم علموا مراده فلم يتبعوا؟ فالفقه إذا هو ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ يعني أن يتبعوه، لأن الفقه الممدوح في القرآن هو الاتباع.

فإذن ما معنى السمع هنا؟ هو ما قلناه في معنى القلوب، ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، ليس المقصود بذلك أنهم لم يسمعوا يعني كان النبي يتكلم فلا يسمعونه، وإنما مقصوده أنهم سمعوه فعلموه ولم يأخذوا ما سمعوه على ما ينبغي عليه السمع، ولذلك العوام يقولوا والله فلان ما يسمع كلامي هذه كلمة صحيحة، عندما يقول العامي عن ابنه أو يقول عن النافر يقول: هذا لا يسمع كلامي، ما معنى لا يسمع كلامي؟ يعني لا يتبعه لا يأخذه، معناه لا يرد عليه، لا يطيعه.

فإذن هو قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، المقصود هنا ليس السماع الذي به يتم معرفة ما يدخل في أذنه من كلام، المقصود أنه ختم عليهم كما ختم على قلوبهم بعدم الاتباع، ختم على سمعهم بعدم الانقياد.

هنا الله يقول: ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾، في الآيات أنهم هم ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥]، ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧]، هم الذين يفعلون، هنا قال الله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، والفعل بعدم الهوى هو منسوبٌ إليهم، يعني من الذي يتحمل نتائج هذا الختم؟ هم، لماذا؟ لأنهم هم فعلوا، هذا هو الأصل، أن ما وقع من الختم يعني الذي قلنا بما تقدم من كلام أنهم يعلمون الكلام ويعلمون الحق فلا يتبعونه، ويسمعون الحق ويعلمون أنه الحق فلا يتبعونه، فهذا فعلهم، ولكن أن يقول الله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾، وذلك لأمور:

الأمر الأول: لبيان قبح ما فعلوه، فجاء الفعل من الله عز وجل لئلا يخرجوا منه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٣٧]، فلو نُسب الختم لغيره لكان في إمكانية لكن لما كان الختم منه دل على الانتهاء.

الأمر الثاني: ذلك لبيان عدم استحقاقهم الرحمة من الذي طرد الثاني، هم يستحقونه، لكن من الذي طرد؟ الله عز وجل، وكأن الله يقول: هم لا يستحقون ذلك، فختم الله، الله الذي طردهم، لعدم استحقاقهم ولذلك قال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: ٢٣]، فهم لا يستحقون، هؤلاء لا يستحقون أن يسمعوا ولو استحقوا لأسمعهم، لكن لا يستحقون فكان الفعل منه هو الذي طردهم، ولو نُسب لهم لكان هم أصحاب الاختيار، وكأن يعني تركوا شيئاً باختيارهم أنه لا قيمة له، ولكن لما طردهم دل على عِظم ما طردوا من أجله.

وعند أهل السنة قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، فيها دليلٌ عظيم على أن الهداية والإضلال من الله عز وجل، ما قانونها؟ قانونها الذي ندركه هو أن الله عز وجل يعطي الهداية لمن يستحقها، ويعطي الإضلال لمن يستحق الإضلال، وبعد ذلك نأتي بحديث (إذا ذكر القدر فأمسكوه)، لا نعرف بعدها شيء، أي تعمق بعد ذلك هو كقول ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «الناظر في القدر كالناظر في الشمس، كلما ازداد بصراً ازداد تحيرا».

فهؤلاء بما طبعوا عليه من الخير والشر، ما هو قانونه؟ نعلم أنه ما طبع عليهم إلا بعدله، بل برحمته وأنه بعد ذلك على ماذا هذا أعتمد نسكت ولا ندري ونستشهد بكلامه صلى الله عليه وسلم: (إذا ذكر القدر فأمسكوه)، وبكلام ابن عباس رضي الله عنهما «الناظر في القدر كالناظر في الشمس، كلما ازداد بصرا ازداد تحيرا»، في أشياء في عالم الغيب، وفي نفس الرب نحن نجهلها، علومنا تقف عندها، بل في الحقيقة في أشياء في نفوسنا نحن لا نعلمها وهي الروح، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)﴾ [الإسراء: ٨٥].

قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، في القرآن السمع والبصر، عادةً يأتي ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ﴾ [الإسراء: ٣٦]، الأسماع والأبصار، فتتعدد هنا وهنا، وكله له موطنه في هذا وسنأتي عليه.

قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، فهذا هو الختم قال: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، هنا قوله: ﴿خَتَمَ﴾ وهنا ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ﴾ يعني وجعل على أبصارهم غشاوة، هو الذي جعل، وقلنا: هذه منافذ العلوم، ما هي منافذ العلوم؟ السمع والبصر والفؤاد.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ [البقرة: ٧]، بعد أن بيّن ما هم فيهم الأحوال بيّن ما لهم من عاقبة، نرجع نحن ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ [البقرة: ٧] تقابل ماذا في المؤمنين؟ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾ [البقرة: ٥]، فكما حكم الله عز وجل على المؤمنين في العاقبة بالفلاح النتيجة بالفلاح في إصابة مرادهم في الدنيا والآخرة، وهنا. بين عاقبته في الآخرة، قال جل في علاه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ [البقرة: ٧].

أقتصر على هذا اليوم ونتابع وقد شرع ربنا سبحانه وتعالى بعد ذلك في بيان حال قسمٍ ثالث من بشر وهم المنافقون، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٨]، وكما ترون فإن الحديث في هذه السورة عن الكافرين بعد أن تقدمت آيات أربعة وخمسة يعني في أربع آيات تقريبًا من سورة «البقرة» في بيان المؤمنين وفقط آيتين في الكافرين، وتحدثت ليست عنهم فقط وتحدثت بما هو نافع للنبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه، هنا ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ [البقرة: ٦]، هو حديثٌ لكم، وما زال حديث لهم أي للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته، ثم بيان ما هم عليه ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ [البقرة: ٧]، بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرا والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (من نوقش الحساب عُذب)، **فيوم العرض ألا يناقش الله عباده في أفعالهم؟**

الشيخ: ما المقصود بنوقش؟ يعني أن يعرض عليه عمله حالا، لكن أن يقال: ناقش له، لم فعلت كذا وقد فعلت كذا، فهذا إما أن هذا هو عذاب، وإما أنه هذا مقدمة ليعذب بما فعل، أما أن يعرض عليه مجرد أن تعرض عليه الصحائف الأعمال وفيها المعاصي فهذا عرض آخر غير النقاش هذا أمرٌ آخر.

الشيخ: ما هو الاعتراض في ذهنك؟

السائل: في العرض، أنت فعلت كذا، أنت فعلت كذا.

الشيخ: هذا ليس نقاش، ليس في كل أحد، أن يعرض، كل إنسان يأخذ صحيفته، بعضهم بيمينه، بعضهم بشماله، بعضهم وراء ظهره، كما ورد في القرآن، بعد ذلك يبدأ الناس فإما أن يمضي بلا نقاش فيغفر الله له، وإما أن يناقش مناقشة العتاب، أن يُعاتب فيغفر له، وإما أن يناقش فيعذب، ما في تعارض.

السائل: من نوقش الحساب يمكن أن يعذب ويمكن لا يعذب؟

الشيخ: يمكن، مناقشة العتاب، أن يعاتبه على ما فعل.

السائل: يقول: أنا سترت عليك.

الشيخ: كما يقول: انظر أما فعلت كذا وكذا أنا سترته عليك في الدنيا وأنا أستره عليك اليوم فهذا مناقشة العتاب.

السائل: شيخنا هل هناك ارتباط بين العقل والفطرة؟

الشيخ: الفطرة ليست العلم الذي به يتم الإثبات، لكنه العلم الذي يتم به الدفع، أشرح لك الكلمة هذه، الله عز وجل قال: ﴿أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨]، قرر أنه قد خرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم، ما عندنا علم، إذن لما يقول النبي: (كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرةِ)، إذن ليس هو العلم، ما هي هذه الفطرة؟ هي سلامتها، وسلامتها يعني عدم وجود الغلط فهو الإسلام، عدم وجود الغلط هذا هو الإسلام، أن يأتي العلم الحق فيتوافق مع الفطرة التي هي السلامة، إذن الفطرة لا تثبت علماً، لكن هي يتم بها لعدم ملاءمته يتم دفع الباطل،

فالفطرة يدفع بها الباطل لسلامتها، سليمة لا تقبل، كما أنك هذا البدن لو وضعت عليه -لأنه سليم وليس ميت وليس بمشلول- لوضعت عليه شيئاً كره رده، كما لو ضربته إبرة ماذا يفعل؟ يرده ينتفض ويتركه، فلماذا؟ لسلامته، لكن هذا لا يملك علماً وقوة دفعٍ وقوة إثباتٍ لحق، لماذا؟ لأنه لا يعلم شيئاً.

فلذلك سلامة المرء يخلق البشر حنفاء ليس فيها البشر لا يخلق فيهم تشوه ولا يخلق فيهم باطل ولا استعداد للباطل بل يخلق على السلامة، والسلامة هي الإسلام، السلامة يعني البراءة من العيب هو الإسلام، لكن هل الإسلام فقط هو السلامة من العيب أم هو كذلك زيادة حقٍ عليه، هذا هو الذي يحتاجه من النبوة ﴿أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾، وهذه هي التي تتحول تتغير هذه الفطرة بماذا؟ تتغير بما يقع عليها من ماذا؟ يقع عليها من باطل، (فأبوه يهودانه) ولم يقل: يسلمانه، لأن ما يأتي عليه موافق للفطرة، فإذا جاء الإسلام إلى هذه الفطرة لا يغيرها فلم يقل يسلمانه، لأن يسلمانه يعني يغيرانه، فكأن الفطر مخالفة لها رأيت الفرق.

السائل: هل يمكن تصفية أصول الفقه من مباحث علم الكلام؟

الشيخ: نعم ممكن سهل جداً سهل، لكن قلنا أكثر من مرة: إن تصفية علوم أصول الفقه من الكلام أول طريقٍ هو أن تعرف أصول الفقه على ما هي عليه، في وجهتها التي وضعت من قبل الأوائل، وكيف وضعت عند المتأخرين وما هي التأثيرات، وهذا يمكن وليس بعيد، ولكن لا يجوز لأحد أن يقول: أريد أن أنشئ علوم أصول جديدة، دون أن يبصر طرق الأوائل في أمرها.

وحتى ابن حزم لما جاء إلى كتابه «الإحكام» وهو يمدحه الظاهرية والشباب المعاصر يحبون ابن حزم ويظنون، هو في الحقيقة ألف كتاب «الإحكام» بعد كتاب «تقريب حد المنطق»، ولذلك في أول كتابه «الإحكام» جاء على طريقة المتكلمين في قضية التعريفات، أجل الحد وأجل للواجب والمستحب والعلم الضروري وعرف على طريقة الأوائل في التعريفات، وجعل كتابه «تقريب حد المنطق» مقدمة لكتابه «الإحكام»، ولذلك هو عنده هذا، فليس كتاب «الإحكام» الذي جاء به ابن حزم بريئًا من علم الكلام، يعني فيه علم كلام.

وبعضهم زعم جهلاً بأن الإمام الشافعي متأثر بعلم الكلام وهذا باطل، الإمام الشافعي بريء، وكان يرى أن حكم أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم ويقال: هؤلاء من خالفوا سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن نستطيع أن نقول مثلاً: كتاب «الفقيه والمتفقه» خالي من علم الكلام، كتاب «جامع بيان العلم وفضله» خالي من علم الكلام، وهكذا.

السائل: هل الأشاعرة يقولون بالجوهر الفرد؟

الشيخ: نعم قضية الجوهر والعرض أساس عند المتكلمين في إثبات واجب الوجود وممكن الوجود، أساس عندهم فالمتكلمون من الأشاعرة من المتأخرين يعتقدون بقضية وجود الجوهر، والمقصود بالجوهر والعرض من أجل إثبات قضية الواجب وغيرها، وإذا قصد بالجوهر الفرد الذي تنبثق منه الجواهر الأخرى فلا يقولها أهل الإسلام إنما يقولها المشركون.

إذن المقصود بالجوهر الفرد أي الذي لا يتعدد كذا عند الأشاعرة يقولون بها، يعني الذي لا يحصل فيه الانقسام ومن هنا نفوا قضية الإرادة وتعددها، وأرجعوا الصفات كلها إلى الإرادة، الصفات العملية، الصفات الاختيارية، كالإحسان إرادة النعمة، والرحمة إرادة الخير وهكذا، فإذا مقصود جوهر الفرد بهذا يقول به الأشاعرة، ولكن يوجد عند الفلاسفة كلمة الجوهر الفرد الذي انبثقت منه الجواهر الأخرى، وهذا هو شركٌ وكفر ولا شك.

السائل: هل يرى الشيخ رجحان جواز يغتسل الرجل بفضل المرأة والعكس؟

الشيخ: نعم يجوز ذلك وإنما قيل هذا على سبيل الإرشاد، أما يجوز للرجل أن يغتسل لفعله صلى الله عليه وسلم (دعي لي) هو وأمنا عائشة رضي الله عنها كان يغتسلان من إناءٍ واحد ويقول: (دع لي ودع لي)، فيجوز للرجل، وحديث أبي هريرة محمول على الإرشاد في أفضل أحواله،

السائل: هل كتاب «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» كتاب عقائد وهل يصلح للإفتاء والقضاء؟

الشيخ: لا أبدًا الدرر النجدية ليس فيه إفتاء وقضاء، الدرر النجدية هو رسائل الأئمة فيه مسائل التوحيد يعني ليس كتاب فقه، وفيه مسائل فقهية ولكن منذ وقت طويل وأئمة الدعوة النجدية يفتون بكتاب «كشاف القناع» مع أن شيخهم ابن عبد الوهاب يرى أن فيه بعض الاختيارات تخالف أصل المذهب، والدرر النجدية ليس كتاب فقهي يعني هذا السائل الأخ غفر الله لنا وله، له نظرة في الكتاب فتحه فقط سريعاً وجرى به بجرد لا يراه كتاب فقه، وإن كان في مسائل فقهية بعض الاختيارات الفقهية نعم، لكن هو ليس من كتب الفقه التي تجري على مجرى الفقه المعروف عند العلماء، كالمغني والمحلى والمجموع والبداية والهداية، للحنفية شرح البداية وغيرها.

السائل: ككتاب عقائد؟

الشيخ: فيه مسائل هو كتاب عقائد في أغلبه.

السائل: شيخنا حفظك الله ما صحة مقولة أن ابن تيمية رحمه الله من أهل الكلام أنه كان يتكلم به وتعلمه؟

الشيخ: ما المقصود بأهل الكلام، بعض الجهلة طبعًا هناك من ألف كتاب أن ابن تيمية من المتكلمين، وظن أن استخدام ابن تيمية لطرق المتكلمين في الرد عليهم يقتضي أنه منهم، هذا غير صحيح، استخدام طرق العقلية في النقاش لا تعني أن رجل من أهل الكلام، هذا مفهوم خطأ لمفهوم الكلام، ابن تيمية له كتاب «الرد على المنطقيين»

يكشف أن المنطق ليس كما قالوه: هو الواجب للعقل لحفظه من الزلل، المتكلمون هم أصحاب مذاهب، نسبت إليهم أقوال تنسب إليهم، ابن تيمية ليس منهم، لكن استخدام ابن تيمية مثلاً: في كتابه «درء تعارض العقل والنقل»، استخدامه لعباراتهم في نقضها أو إثباتها أو بيانها أو التفصيلي فيها بين الإثبات والنفي، لا يعني أنه من أهل الكلام، فإن الرجل لا يجوز أن يتكلم مع أحد إلا بلسان قومه.

يعني عندما أنت تريد أن تتكلم مع الفلاسفة في إثبات باطلهم بأي أسلوب تتكلم؟ بلغتهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، والمقصود ليس اللسان فقط اللغة يعني اللغة العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية أو فارسية، ليس المقصود، ولكن عليك أن تتكلم بما يفهمون، فإذا ناقش رجل الفلاسفة وأراد أن يرد عليهم فيجب أن يتكلم بلغتهم، بعباراتهم بمصطلحاتهم، ويستوعب هذه المصطلحات، فلا يقال إذا أستخدم رجل هذه المصطلحات في بيان صوابها وخطأها: أنه منهم، وإلا لقلنا: بأن ابن تيمية فيلسوف، من الفلاسفة، ولا يقول أحد بهذا؛ لأن الفلاسفة لهم شارات ولهم أمارات.

فابن تيمية استخدم مصطلحات وطرق علم الكلام في الإثبات والرد، وفي التقرير ولكنه وكذلك بين عوارها وبين فسادها ومن خلال أسلوبهم تعامل معهم، على هذه القاعدة القرآنية.

السائل: الذي يعرف لفظ الجلالة الله أنه عَلَمٌ على الذات واجب الوجود المستحق لجميع المحامد المنزه عن جميع النقائص، هذا يعني تعريف؟

الشيخ: صحيح؛ لأننا سألناهم وقلنا لهم هو اسم على الذات هذه كلمة صحيحة متفق عليها، فهو اسمٌ لذات ربنا المتضامنة للمحامد ... وإلخ، لكن نأتي لكلمة واجب الوجود، فسألنا الذين وضعوها، كلمة مُحدثة ليست في الكتاب والسنة، لكن سألناهم ما المقصود بها؟ قالوا: كلمة واجب الوجود تقابل وهي قسيم، وقسيم الشيء ليس قسمه كما شرحناه في «الموافقات»، قسيم الشيء ليس قسمه، يعني قسيم الشيء ما يقابله وليس جزء منه.

فلما جئنا إليهم وسألناهم ما المقصود بها؟ قالوا: ما لا يتصور غيابه، وممكن الوجود يعني يتصور غيابه وحضوره، والعالم مقسومٌ إلى قسمين إلى ما لا يتصور غيابه وهو الله عز وجل، وهذه كلمة صحيحة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦)﴾ [الأنعام: ٧٤-٧٦]، فجعل ابراهيم عليه السلام غياب هذا الكوكب دليل سقوط ربوبيته وألوهيته لا يستحق الإلهية ولا الربوبية، إذن الغياب.

فإذن واجب الوجود هو ما لا يتصور غيابه، هو موجود، ولا يتصور فنائه، لا يتصور، لا السابق ولا هذا، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]، فهو الأول ليس قبله شيء والآخر وليس بعده شيء، فمعنى كلمة واجب الوجود معنى صحيح وليس خطأ، فعلينا أن نفهم عندما يقال كلمة على مراد أصحابها فنقرها على مراد أصحابها إن كانت توافق الحق أو ننفيها بما قاله أصحابها إذا كان فيها الباطل.

فكلمة واجب الوجود معناها صحيح، لكن للأسف هؤلاء المتكلمون مرات يتركون كلمة الله ويضعون دائماً واجب وجود واجب وجود فتصبح كأنها بديلة عن كلمة الله، ولو قالوا: الله، لو قالوا: رب العالمين، لكان هذا أليق ولكن كتب الكلام تتقيد بما يلزم به في كلامهم، فإنهم يلزمون خصومهم في قضية إثبات الله تحت هذه القاعدة، أن الشيء هذا الشيء الذي نراه يقولون: نحن نرى الأشياء التي نراها من الخلق ممكنة الوجود لأنها كانت ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١)﴾ [الإنسان: ١]، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)﴾ [البقرة: ٢٨]، فلستم موجودين، المخلوقات كلها تفنى وتبيد، طب هذه التي تفنى وتبيد، العقل يوجب أن وراءها من لا يفنى ولا يبيد، ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣].

ولذلك قال الطحاوي أبو جعفر في متن العقيد الطحاوية: «لا يفنى ولا يبيد»، يعني الأول والآخر، فهي كلمة صحيحة ولا غبار عليها، وإنما يعاب كثرة استخدامها بما ينسي التسمية الشرعية لربنا جل في علاه.

جزاكم الله خيراً وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الواحد والعشرون

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه من خلقه، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى آتاه اليقين وتركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على المحجة البيضاء والطريق الواضح ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ولا يتنكبها إلا ضال أما بعد...

أهلاً وسهلاً بكم أيها الإخوة الأحبة مع درس التفسير الحادي والعشرين وما زلنا مع سورة «البقرة»، وقد كنا مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ [البقرة: ٦-٧]، ثم أتينا إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)﴾ [البقرة: ٨].

من أهم ما ينبغي أن يفسر به القرآن من جهتين: الجهة الأولى ما علمنا هذا القرآن من صفات ربنا، فكل آيةٍ على المفسر أن يبتدأ بالنظر إليها إلى كشفها إلى حقيقة نفس ربنا، والله عز وجل ورضاء نفسه له نفس جل في علاه (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك)، (عدد خلقه ورضاء نفسه)، فالقرآن يعلمنا إما بطريق المباشرة، وإما بطريقٍ غير مباشر عن ربنا عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، من هذا الباب تعلمنا عن صفة من صفات ربنا، وهو أنه يعلم الشيء قبل وقوعه، ويعلم الشيء إذا وقع بسبب، ما لو تخلف السبب كيف يكون، هذه التي يقولها «يعلم الشيء على ما هو عليه ويعلم الشيء قبل كونه موجودًا، ويعلم الشيء غير الموجود ما لو وجد كيف يكون»، يعلم الشيء الذي لا يكون، والذي لن يكون، لكنه لو صار يعلمه كيف سيكون، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، أعلمنا وسيكون حالهم ما لو أسمعهم مع إنه لم يسمعهم، والمقصود إسماع العلم والفقه.

وهنا كذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فأعلمنا جل في علاه أنه يعلم ما سيكون أمرهم، ما لو أنذروا أو لم يُنذروا، فإذا أنذروا لا ينتفعون بالنذارة، وإذا لم يُنذروا فالأمر لن يختلف في العاقبة فهو علم الشيء قبل وقوعه، ولو وقع ومع أنه أنذرهم، لكنه قال له: لو أنك لم تنذرهم لن يتغير الحال، فهو

علم الشيء، الذي لم يكن وهو عدم الإنذار كيف سيكون ما لو وقع، وهذا هو علمهم المحيط جل في علاه، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ولكن المعلوم من سنة الله عز وجل أنه لا يعذبه إلا به بعد إقامة الحجة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النحل: ٣٦]، وهنا كما يُسمى بأهل الفترة وحديثها صحيح، ولكن الأصل هو إقامة الحجة أن الله عز وجل أقام على الخلق ولا يُعذب بالفطرة، ولا يُعذب بما علِم، ولكن يُعذب بما وقع، لا يعذب بما علم، فهنا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، هو علِم أنه لو لم ينذروا لكان حالهم ما لو أنذروا، لكنه لا يعاقبهم إلا بالنذارة فهو لا يعاقبهم بعلمه، ولكن يعاقبهم بما وقع.

وهذا يعلمنا بابًا من أبواب الأصول وهو أن أفعال الله عز وجل يحتج بها إلا فيما جاءت الخصوصية به، هذا من علم الأصول، ما هو علم الأصول؟ هل أفعال الله عز وجل يحتج بها؟ هذه المسألة لم تذكر كثيرًا في كتب الأصول، وإن مروا عليها مرورًا فهي موجودة ولكن لا يقفون عندها وقوفاً طويلاً، والعز بن عبد السلام مر عليها في كتابه «قواعد الأحكام»، وهو هل أفعال الله يحتج بها؟ يعني هل يجوز لك أن تفعل فعل الله في غيره؟ الصواب نعم، إلا ما جاء الاختصاص به، كقوله صلى الله عليه وسلم: (لا يعذب بالنار إلا ربها)، فهذا لا يجوز أن تعذب بالإحراق، واختلف أهل العلم في قضية العقوبة والتماثُل فيها فلو أحرق رجلٌ رجلاً هل يقتص به بالحرق أم لا؟ على خلاف، والصواب نعم المثلية في الشريعة على الصواب وقول الجمهور خلاف الأحناف وبعض أهل العلم على أنه إذا حرق الرجل غيره يحرق وكذلك إذا رضخ رأس آخر رضخ رأسه، يوضع بين حجرين ويضرب حتى يهشم رأسه، فكذلك فعل النبي صلى الله عليه وسلم باليهودي.

والقصد من هذا: أن نبين أن أفعال الله عز وجل يحتج بها ومن ذلك ما أحتج به حبر هذه الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما في عقوبة من فعل فعلت قوم لوط، فإنه احتج بأنه يؤخذ إلى أعلى مكان ويرمى ثم يلحق بالحجارة حتى يموت، واحتج بما فعل الله بقوم لوط، الله فعل بهم فيفعل بهم، فهذه عقوبة لأن الله العدل فهذا هو العدل.

وكذلك يحتج هنا بأن الله لا يعذب بعلمه ولكن يعذب بالدليل بالواقع، وهذه حجة تضاف عند أهل العلم على أنه لا يجوز للقاضي أن يقضي بعلمه، المسألة خلاف ولكن الصواب هذا هو الذي عليه أهل العلم المحققون بأن القاضي لا يجوز أن يقضي بما رأى، ولا بما علم، ولكن يقضي بما جاءت به الأدلة، واستدلوا على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحكم على المنافقين بالقتل وهو يعلمهم، عُلم بعض المنافقين وألقى أسماءهم إلى حذيفة أمين سر النبي صلى الله عليه وسلم ومع ذلك عَلَمَ أمته أن لا يقيموا الأحكام إلا بما جاء به الدليل وليس بما علموا.

لكن هل يجوز للقاضي أن يحكم على خلاف علمه؟ الصواب لا، ولو جاءت الأدلة وإنما يؤجل المسألة حتى يظهر الحق الذي يعلمه يقيناً، يعني لو جاءه رجل عليه أدلة أن فلاناً سرق وهو يعلم السارق رآه، وجاء من شهد وجاء المزكون وزكوا هؤلاء الشهود، فهو لا يجوز أن يقطع يده وهو يعلم أنه على حق وأنه غير سارق، فينبغي أن يؤجل المسألة وهكذا، فلا يقضي بغير علمه ولكن لا يجوز أن يقضي بعلمه.

واتفقوا – ذكر هذا اللفظ في كتب العلم واتفقوا– على أنه لا يقضي بعلمه في الدماء، مع خلافهم في الأموال وغيرها، ولكن اتفقوا على أنه لا يقضي بعلمه في الدماء، يعني في القتل لا يقضي بعلمه لا يجوز حتى تأتي الأدلة، وذلك رفعاً للشبهة؛ لأن الشريعة جاءت ليس فقط من أجل إقامة الحق ولكن كذلك لنشر الصلاح فلو قضى القاضي بعلمه دون أن يبصر الناس الحق ويعرفونه لأدى هذا للفتنة، واستدل كل قاضي بعد ذلك بأنه يعلم، ورأيت وكذا ولا يجوز.

القصد: أن الله عز وجل لا يعذب بما عَلِم، ولذلك أرسل الرسل مع أنه يعلم ما سيكون الناس عليه، من مؤمنٍ وكافر، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (اعملوا فكل ميسرٍ لما خلق له)، خلاص اعملوا حتى تقرأ الحجة الإلهية على المحسن وعلى المسيء.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، هذه تنبئنا في قراءتنا لصفات ربنا في القرآن أن الله يعلم الشيء قبل وقوعه، ويعلم الشيء الذي لن يقع لو وقع كيف سيكون، هذه بينه في هذا الباب.

وصلنا إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)﴾ [البقرة: ٨]، بعد أن تكلم ربنا عز وجل في هذا المطلع العظيم، ودائماً انتبهوا إلى مطالع السور، حسن الاستهلال هذا يسمى في البلاغة بروعة الاستهلال، على المرء في كلامه أن يستهل بأعظم ما عنده وأجمل ما عنده لأنه الوجه، هو الذي يجذب السامع والناظر إلى ما بعد ذلك فلو استهل بأمرٍ ضعيف لكان في ذلك صرفٌ للناس أن يسمعوه أو أن يتابعوه.

ولذلك براعة الاستهلال انظر ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ١-٢]، ثم بعد ذلك بين أصناف الناس، ماذا سيكون عليه الناس؟ وسورة «البقرة» مدنية، فتبين ما استقر عليه الحال الذي سيكون عليه الناس بعد ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ٨-١٠]، هذه سنقف عندها الوقوف المهم إن شاء الله تعالى بما يليق.

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾، كلمة الناس أختلف أهل العلم في أصلها، من أين جاءت كلمة الناس؟ هناك رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها من النسيان، وإن كانت هذه أضعف لأنها لا تصح عن ابن عباس رضي الله عنهما ولكن قيلت في كتب اللغة أن الناس أخذت من النسيان، فإن الله عز وجل حمل آدم فنسي فسمي إنسان، فقالوا: إذن أصل الإنسان هو النسيان، وقال بعضهم: الناس من الاستئناس، لأنه يأنس من الأُنس، والأُنس هو ضد الوحشة، وهذا هو في الأصل أن المرء يأنس للمرء، ولكن عوذ الناس حين يصبحوا وحوشاً يصبح قول الشعر هو الشعار، يقول:

عَوى الذِئبُ فَاِستَأنَستُ بِالذِئبِ إِذا عَوى ... وَصَوَّتَ إِنسانٌ فَكِدتُ أَطيرُ

خاف من البني آدم.

والشاعر الشنفرى له لامية شهيرة وهو من صعاليك العرب، الصعاليك مشهورين بشجاعتهم ونجدتهم وكذلك شعرهم الرائق، يقول لقومه:

وَلي دونَكُم أَهلَونَ سِيدٌ عَمَلَّسٌ ... وَأَرقَطُ زُهلولٌ وَعَرفاءُ جَيأَلُ

فيعني استبدل أهله بالضبع والنمر والذئب، هؤلاء أقرباؤه وهؤلاء أصحابه.

والقصد: أن الإنسان يأنس بغيره فسمي إنساناً من الأُنس، وقيل: أن الاستئناس أصلها الظهور، كقوله تعالى: ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]، أي أبصر، كما ترون العلاقة يعني قريبة بينها كلها، وهذا لمقابلتي لفظ الجن لأن الجيم مع النون إذا جاءت في اللغة فهي تدل على الخفاء، أي كلمة فيها الجيم والنون فهي تدل على الخفاء، الجنين في بطن أمه، الجنة خفية، الجن الخفاء وهكذا، جن الليل أي ستر، جن الليل أي أنه نزل بقوة حتى ستر ما وراءه وهكذا، فكلمة جيم مع نون تعني الخفاء.

ولذلك أحتج من أحتج وقيل: أن هذا قول الجمهور مع أنه ضعيف، في قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، والذين قالوا: بأن إبليس –وسيأتي في الحقيقة هذا التحقيق فيه ولكن فقط بما يناسب الحال– الذين قالوا: بأن إبليس من الملائكة لما جاءوا لآية الكهف ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، قالوا: ليس المقصود الجن الخلقي ولكن هنا الوصف، بمعنى من الخفاء، يعني ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، يعني كان من المختفين، من الذين يخفون، وهذا غير صحيح.

لكن هناك كثيرٌ من أهل العلم رجح أن إبليس من الملائكة وليس من الجن، وهذا سيأتي إن شاء الله، فقيل لهم فكيف تصنعون من قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، قالوا المقصود به الجن هنا يعني مخفي، هذا لما يصلح هنا في هذا الباب.

وقيل –وقليل ممن ذكرها– قال: الإنس من النوس، والنوس هو الحركة، ومن هنا يقال عن رقاص الساعة: نواس، وأصلها ما يصنعه البعض من الشعر جهة سوالفه فيعقدها ويجدلها فيصبح له جدائل من جهة سوالفه فتنوس، ولذلك المرأة إذا جدلت هذه الجدائل قيل لها ناست ذؤابتها، ناست يعني تحركت ذؤابتها، ويسمى ذو نواس وهو الرجل الذي قتل الموحدين من أتباع عيسى في سورة «البروج»، وكان من يهود اليمن وإلى الآن يهود اليمن يصنعونها، يصنعون ذؤابة من جهة السوالف فتنوس به فسمي ذو نواس، فالقصد: أن ناس بمعنى تحرك.

وهذا يشهد له قوله صلى الله عليه وسلم: (وأصدق الأسماء همام وحارث)، الإنسان إذا لم يتحرك فهو عنده هم، وبعد الهم يصبح حركة، ولذلك ما قال: أجمل الأسماء، ما قال: أحسن الأسماء، قال: (أصدق) يعني هذا ليس مدحاً ولا ذماً هي وصفٌ لواقعه أنه همام وحارث، فالمرء لا يخلو من هم دائمًا شغال أريد أن أعمل ولو جالس، وحارث يقوم شغال ذاهب أتي نواس فقيل هذا، وهذا أصل كلمة من الناس.

وقالوا: آنس بمعنى أبصر واستدلوا بقوله تعالى: ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]، آنس يعني أبصر، وهذا لما استدل به وإلا فغيرهم قالوا: آنس من معنى الأُنس هنا، يعني أنه شعر بأُنس وهو في الصحراء وهو في السفر فوجد ناراً فشعر بأُنسٍ فيها، وقالوا: آنس أي أبصر، وهذا يؤدي لهذا في الحقيقة الإبصار يؤدي إلى الأنس.

فقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٨]، ينبغي أن تهتموا إلى الألفاظ في داخل السورة، لأنها تعطي معاني جميلة، طبعاً سورة «البقرة» طويلة وفيها ألفاظ كثيرة لا تستطيع أن تنظر إلى أولها وأخرها ووسطها، لطولها «٢٨٦» آية هي أطول سورةٍ في القرآن وهي جزئين ونصف تقريباً بحسب تقسيم الحجاج، على فكرة تقسيم القرآن لأجزاء هذا أحدثها الحجاج والعلماء لم يرضوها ولكن انتشرت الآن وصارت هي الغالبة والعلماء يحذرون الالتزام بها لأن فيها إفساد للمعاني مثلاً بعد الجزء والنصف في سورة «البقرة» فإنك تجد قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، هذه يجعلونها في النصف الثاني من الجزء الثاني، يعني لما تحفظ في القرآن تجد ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ هذه أين يجعلونها؟ يجعلونها في الجزء الثاني، فهذا تقسيم غير صحيح.

أحضر الحجاج مجموعة من القراء وأمر بإحضار نوى التمر، وقال لهم: عدوا لي كل حرف في القرآن، فعدوا أحرف القرآن وعدوا كلماته وقسموا القرآن على عدد الحروف بهذه الأرباع والأحزاب والأجزاء، والعلماء ينكرونها يعني محققون ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية ينكر هذه التقسيمة، لكن صارت غالبة اليوم، ما يهمنا الآن في هذا الباب.

لكن أنت هنا ينبغي أن تنتبه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٨]، أنا أريد فقط أذكرها ثم نأتي إليها هنا قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ على اعتبار أن هؤلاء من البشر من الخلق لكن لما قال بعدها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣]، هذه كلمة الناس هنا ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ هنا هي وصف لا تحمل إلا دلالة الجنس، يعني الجنس أنتم جن أم إنس أم حيوانات فهؤلاء من الناس فلا تحمل إلا دلالة الجنس، لكن لما قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ كأنها نفيٌ لإنسانية من لا يؤمن هذا الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ الناس هنا اسم جنس لكن بعد ذلك صارت الناس كلمة مدح وكأن غيرهم يستحق قوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ [الفرقان: ٤٤]، خلاص خرجوا، ولذلك قال: ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ فجعل هؤلاء هم الناس، وغيرهم لا يستحقوا هذا الاسم، انظر كيف تحول الاسم من اسم جنسٍ ينطبق بلا مدح إنما هو على من أتصف بهذه الصفات الخلقية، وبعد ذلك كيف تحول هذا الاسم إلى مدحٍ لأصل معناه؛ لأن الجنس يقابله فيما دب على الأرض من الدواب، من ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، ولذلك جاء ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ و ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾، سيأتي هذا إن شاء الله، الذي يخالف الإنس لا يشعر، والذي يخالف الإنسان لا يعلم، وهذا عند جاء في قوله تعالى:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا﴾ [البقرة: ١١] كانت خاتمتها ﴿لَا يَشْعُرُونَ (١٢)﴾ [البقرة: ١٢]، وخاتمة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾ [البقرة: ١٣] كانت ﴿لَا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾ [البقرة: ١٣]، سيأتي هذا إن شاء الله بما هو نافع.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)﴾ [البقرة: ٨]، هنا هذه الآية كما ترون تبين أن القيام بأحد أركان الإيمان ليس كافياً لحكم الإيمان عليه، فقال عنه: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وإن أتوا بركنٍ من أركان الإيمان، وهو قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ﴾ [البقرة: ٨]، فقالوا، والقول هو ركن من أركان الإيمان، أن تقول ما تؤمن به هذا ركن من أركان الإيمان، لكن هذا ليس كافياً لابد من الإتيان ببقية الأركان فدل هذا على أن تخلف الركن القلبي في قضية الإيمان، لا قيمة لما يظهره المرء بعد ذلك، فلابد من مطابقة الظاهر للباطن.

إذن ما هي أركان الإيمان؟ هي القول والعمل، أركان الإيمان القول والعمل، الناس يقولون بعد ذلك بأن الإيمان وهذه الكلمة فيها أخطاء، هذه الكلمة لم يقلها السلف، الأوائل لم يقولوها، إنما قالها المتأخرون، قالوا: «الإيمان قولٌ باللسان واعتقادٌ بالجنان وعملٌ بالأركان»، هذه الكلمة ليست ضابطة لموضوع الإيمان مع انتشارها، معناها منتشر هذه الكلمة لكنها ليست ضابطة لحقيقة الإيمان ضبطًا صحيحاً، وأكبر دليل أن عمل القلب ليس مقتصر على الاعتقاد، فأين أعمال القلب الإيمانية من المحبة، من الصبر، من التوكل، من الولاء، من الخوف، الخشية الرغبة الرهبة ... إلخ؟ فلو قال: اعتقاد، فالاعتقاد ما هو؟ هو ربط القلب على مسألةٍ علمية، لماذا ربط؟ لأنه من العقد.

كلمة الاعتقاد لا وجود لها في الكتاب والسنة، وإنما قالها العلماء بعد ذلك وهي كلمة متقدمة، قالها العلماء ويحتج بها ولم ينكروها وهي دالة على معنى صحيح، والمصطلحات إذا دلت على معنى صحيح فلا تنكر، وأُخذت

من العقد، اعتقاد من العقد، الآن الناس إذا أرادوا التوثق قالوا: هذا عقد، ومن ذلك تأتي بالحبل فتشده تقول: عقدة، يعني توثق الأمر صار هناك صلة بين هذا الطرف وهذا الطرف، عقد بنهما، فمن أجل ما يربط القلب عليه من العلم فيقال: هذا تم عقد بين القلب وبين المعقود عليه، وهو مسائل الإيمان العلمية.

فأنت مثلاً تقول: أنا أعتقد أن الله موجود، أعتقد أن الله خالق، فقد عقدت، فهذا الاعتقاد يتعلق بالمسائل العلمية، فأين المسائل العملية؟ هذا الاعتقاد ولذلك لما تقول: هو قولٌ باللسان آمنا، عمل بالأركان آمنا، لكن اعتقاد بالجنان ليس كافياً، هذا ليس كافي.

ولذلك العلماء الذين قالوا: ابتداءً الإيمان هو قول وعمل هو الأصوب، وإنما بعد ذلك يصبح –هنا هذه تطور المسائل– يصبح الشرح، التفصيل، فكلما نشأ خطأ أقام الناس له تفصيلاً من معنى موجود يخرجوه علماً خاصاً – يعني دائمًا أقولها لكم يجب أن تتحملوها– يعني علوم اللغة شيءٌ واحد، ولكن كيف بعد ذلك تفرعت هذه العلوم إلى علومٍ مختلفة، يعني الآن علم النحو وعلم الإعراب وعلم الصرف، صار في شيء اسمه علم البلاغة، وعلم البلاغة نشأ متأخر، أول من قام به قام الجرجاني في «دلائل الإعجاز» وبعدها جاء السكاكي وغيره وابن أثير وبدأوا يتكلموا فيه، ويفصلون فيه.

فلماذا يفصل؟ كلما نشأت بدعة أقام لها العلماء علماً خاصاً بها لردها، وهذا من هذا النوع يأتي واحد ويقول: ليس من الإيمان كذا، فيقول: لا، هي موجودة، هو لا يدرك هذا، هو لا يدرك أنه موجود في النص الموجود ولكنهم يخرجوه من النص الموجود لإفراده من أجل بيان الرد على هذه البدعة الحادثة.

فأول علم نشأ في علوم العربية ما هو؟ علم النحو، لماذا؟ لأنه هو أول مصيبة دخلت، أول مشكلة دخلت هي قضية ضبط الإعراب، الناس لا يضبطون الإعراب ولا يضبطون الصرف، علم النحو، لكن لما نشأت قضية إعجاز القرآن، إعجاز القرآن الذين نفاه من نفاه هو الذي أوجد علم البلاغة، يعني الناس ينتجون علوماً من أجل الرد على الحوادث التي تنشأ.

ومن هنا لما نقول: «الإيمان هو قولٌ وعمل» هو الضابط، هو الصحيح: قولٌ وعمل.

وهنا في كلمة لابد أن أمر عليها لأني وجدت البعض ينبه عليها، تذكر على الإمام أحمد وهي تصح عنه أن هناك من قال: إن القول عمل، قال: هذا قول سوء، وهذه قضية مهمة إذا لا تعرف بيئة كلمة العالم فلا تُقبل عليها تفسيرًا، وإياك أن تأخذها على معنى الأطلاق، أعيد هذه الكلمة لأنها مهمة وأنا كررتها كثيراً، وسأكررها كل يوم لو قدرت، عندما يأتي عالم من العلماء ويقول كلمة فلا تأخذها على معنى الأطلاق، ولكن خذها لفهمها من خلال بيئتها التي من أجلها نشأت.

فلو أن رجلاً قال: وهل قول الرجل من عمله؟ من عمله، يعني عندما يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ [النحل: ٩٧]، هل يدخل في العمل هنا القول؟ يدخل فالعمل من القول فالحقيقة عمل لساني هو قوله، ولذلك لما يأتي عن أحمد ويروى عنه أنه عندما قالوا: القول عمل، قال: هذا رجل سوء، هذه ليست نفياً لمعنى أن القول عمل، هذه نفي لما يريده هذا المبتدع من إدخال القول في العمل لنفي حقيقةٍ علمية ما، أنا لا أريد أن أدخل فيها، ولكن هو يقول هذه الكلمة ليبني عليها بناءً باطلاً فيقول: هذا قول سوء، دعك منه، عليك أن تفصل، فلا ينبغي أن تأخذ كلمة العالم أنها كلمة مطلقة.

ولذلك ابن تيمية رحمه الله وهو الخبير بمذهب أصحابه الحنابلة لما جاء لتعدد فتوى الإمام أو أقوال الإمام قال هذه فتاوى ليست أقوال هذه فتاوى، ولذلك مما ينبغي كما أنه في علم الحديث، لا ينبغي أن تؤخذ الكلمات التي سيقت بمناسبة أنها كلمات نهائية مطلقة.

مثلاً: عندما يأتي التمييز بين رجلين من العلماء فيقال أتقول: من هذا الرجل أو هذا الرجل، فيقال: فلان حديثه أحسن من حديث فلان، فأنت بعد ذلك تذهب إلى كتب المتأخرين أو الكتب المختصرة فتجد فلان حديثه حسن، هو ما قال: حسن، هو قال: أحسن، فكلمة حسن دلالةٌ على أنه حكمٌ لكل حديثه، لكن قال: أحسن من أجل مقارنته في غيره قد يكون ضعيف لكن حديثه أقل ضعفاً فحديثه أحسن، انتبهوا لهذا، هذا موجود في كتب الرجال بكثرة.

وكذلك في كتب الفقه مرات كثيرة ينفى أو يثبت على هذا المعنى الذي قلناه وهو معنى التقييد وليس الإطلاق الذي يريده هذا، هذه مسائل ينبغي أن نهتم لها لأن هذه التي نتكلم عنها هي من مسالك العلماء في رفع التعارض في كلامهم، إذا فهمنها التعارض يذهب، كثير مما ظنناه تعارضاً لا يكون تعارضًا، الرجل لم يعارض، لم يخالف، لم يأتي بجديد، ولكنه يتحدث عن قضيةٍ أخرى وهكذا.

فكيف يتصور من الإمام أحمد يقول عن الجاسوس: يقتل، يعزر، يعفى عنه، إذًا هو يتحدث عن أنواع من الجاسوسية لا يتحدث عن نوعٍ واحد، فيُسأل عن أنواع فيجيب، يُسأل عن حوادث فيجيب وهكذا، هذا تمثيل.

نعود إلى ما كنا فيه فالإيمان قولٌ وعمل، ولو قيل الإيمان هو العمل لصح، لإن اعتقاد القلب عمل، عمل من أعماله، ولإن من أعمال القلب هو علمه بالشيء وإثباته له، علمه به وإثباته له هذا عمل من أعمال القلب، دائماً التفصيل مهم لما قلناه، يقال حتى يقطع الخلاف، وتنشأ بعد ذلك الكلمات العلمية لرد البدع.

لو واحد قال: القرآن كلام الله، يقال له: أحسنت جزاك الله خير وبارك الله فيك، وأنت من أهل السنة، في زمن الإمام أحمد ما كان يقبلها، لابد أن يقول: كلام الله غير مخلوق، من أين أتيت بهذا الشرط ليس موجود لا في الكتاب

ولا في السنة؟ يقول: لا، هذا ضروري في زمن الناس يقولون كلام الله ويريدون به نسبة الكلام إليه كنسبة البيت إليه، لما تقول: بيت الله نسبة مُلك وتشريف، وكذلك كلام الله نسبة مُلك وتشريف، فيقول: لا، حتى ننفي هذا المعنى نقول كلام الله غير مخلوق، لكن اليوم ما في ضرورة لهذا، فهكذا تنشأ هذه الأمور في تاريخ أمتنا ولابد من الاعتناء بها.

وكذلك لا بأس هنا من تعظيمنا لإمامٍ يستحق التعظيم، يعني مرات تجد الكلمة يتلقفها العالم فيشرحها، وبعد ذلك تُنسب إليه وأنا أريد منكم فقط أن تعودوا إلى «جامع العلوم والحكم»، أول حديث في «الأربعين النووية» ما هو؟ (إنما الأعمال بالنيات) مشهور، فلما يأتي الإمام الشافعي رحمه الله في وضعه مقدار هذا الحديث في العلوم – انظروا إليه فقط أنا أرجعتكم إلى «جامع العلوم والحكم»– تجد الشافعي يقول والآخرون يبدؤون بالشرح والزيادة من هنا ووضعوا هنا، ولكن الذي وضع الكلمة الأولى التي بناها هو الشافعي، يصح ما قاله ابن تيمية ناقلاً عن غيره العلم للشافعي والصيت لأحمد، سوف يزعل الحنابلة، ولكن هذه حقيقة العلم للشافعي والصيت لأحمد.

والحقيقة أنك لو رجعت تجد أن ما قاله أخذه غيره وبدأ يشرحه ويزيده وو ... إلخ، وهنا نأتي إلى مسألة مهمة والنظر إلى مسألة مهمة، وهي تاريخية العلوم، تاريخية الألفاظ، لابد أن ننظر إليها، وهذا في اللغة وفي الحديث وفي الأصول وفي الفقه وفي العلوم وفي التربية مهم جداً، لابد من معرفة كيف بدأت هذه الكلمات، كيف نشأت؟ لأن هذا التاريخ وهذا التطور يعرفك بمعاني عظيمة جداً.

نرجع، طوفنا معكم في رحلة علمية لكن لا بأس.

هنا إذن الإيمان قولٌ وعمل، قول ماذا وعمل ماذا؟ نحن لو قلنا عمل صحيح ولا ترجعوا إلى كلمة الإمام أحمد رحمه الله، لا، هذه قالها لرد بدعةٍ حدثت عنده يريد أن ينفي الرجل قولاً فعلم منه فنفاه، كما قلنا القرآن كلام الله غير مخلوق هذه زادها الإمام أحمد زادها من عنده، هي صحيحة ولكن زادها لترد معنى باطل، لكن لو الآن كل واحد يقول: لابد أن تقول القرآن كلام الله غير مخلوق، فما يطرأ على ذهن الإنسان في زماننا في كلام الله إلا أن كلام الله صفة من صفاته وليس مخلوقاً.

فالإيمان قولٌ وعمل، المقصود به أن القول هو قول اللسان وقول القلب، والمقصود بالقول هو الاعتقاد، عندما نقول: قول القلب وقول اللسان، قول اللسان معروف أن تقول ما أمر الله وأعظم ما أمر الله به وهو ركن الإيمان الذي لا يصح إلا به أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فهذا القول ركنٌ من أركان الإيمان، وكذلك أن تقول: سبحان الله هذا من الإيمان، أن تقول: الحمد لله هذا من الإيمان، أن تقرأ القرآن، لكن الركن الذي لا يصح الإيمان إلا به أن تقول: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، بقية ذلك إما أن تكون من أركان الفعل الذي هو ركن الإيمان مثال ذلك: قراءة الفاتحة، قراءة الفاتحة ركنٌ من الصلاة، والصلاة عملٌ من أعمال أركان الإيمان، فصارت قراءة الفاتحة

ركن لصحة عملٍ هو ركنٌ من أركان الإيمان، لكن الذي هو ركن الإيمان بذاته قولاً للسان الذي هو: «أشهد أن لا إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله».

فمن كان قادرًا على قولها ثم لم يقلها ولو كان في قلبه الإيمان -هذه لو كان في قلبه الإيمان هذه عليها كلام- فقط أقصد أتى بشروط الإيمان القلبية وإن كان لا يتصور هذا ونحن نتكلم عن الافتراضات وإلا فلا يتصور أن يوجد الإيمان القلبي الحقيقي في القلب، الإيمان الذي هو أمر الله في القلب مما أمر الله به من القول والعمل في القلب والحب والبغض وو ... إلخ، ثم يقال له: قل: لا إله إلا الله، فيقول: لا أريد أن أقولها، هذا لا يتصور، لا تتصور هذه لا وجود لها، وإنما نقول على الافتراض بأن ركن القول في الإيمان هو قول العبد: «لا إله إلا الله»، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا﴾ [البقرة: ٨]، فهذا هو ركن أتوا بهذا الركن إذن هذا قول.

ثانياً: قول القلب، ما هو قول القلب؟ هو اعتقاده، الذي يقال الاعتقاد، إذا قيل لك: ما قول القلب؟ قل هو الاعتقاد الذي يقال له الاعتقاد، هذه كتب الاعتقاد الموجودة في مكتبة أهل الإسلام، ما هو الاعتقاد، يعني الآن من قول القلب الاعتقاد بوجود الملائكة، من اعتقاد القلب وجود الجن وهكذا هذا من الاعتقاد، من الاعتقاد أن القرآن كلام الله، من الاعتقاد هو وجود يوم القيامة، من الاعتقاد وجود الميزان، هذه التي تذكر ويقسمها العلماء في كتبهم الكلامية وغير الكلامية، يعني العلماء حين يرتبون مسائل الاعتقاد يرتبونها على: «الإلهيات، النبوات، السمعيات» هذه أقسمها:

أولاً: الإلهيات: تعني الكلام عن الله، الكلام عن صفاته، الكلام عن أسمائه، ما يجب له، ما يستحيل عليه ما يتنزه عنه، يستحيل أي يتنزه عنه، فهذا الكلام عن الإلهيات.

ثانياً: الكلام عن النبوات: ما معنى النبوات؟ الكلام عنها بمعنى اعتقاد الرسل، لأن الله ثم الرسل، والرسل ماذا يجب لهم من صفات، ماذا يستحيل عليهم وجوب العصمة، استحالة الكذب وهكذا، وما يجوز لهم، يجوز عليهم المرض، يجوز عليهم الهزيمة هزيمة أعدائهم يجوز عليهم الموت إلى آخره ما يجوز لهم.

ثالثًا: السمعيات: ماذا يقصد بالسمعيات؟ لأنها أمورٌ غيبية والأمور الغيبية لا تعرف إلا بأثرها أو تعرف بخبرها، فلذلك هي سمعيات، يعني كيف نعرف الميزان؟ لا نعرفه إلا بالسمع، كيف نعرف بوجود الجن؟ إلا بالسمع، كيف نعرف وجود الصراط يوم القيامة؟ بالسمع، كيف نعرف وجود يوم القيامة؟ فلذلك تسمى سمعيات، يعني أتتنا عن طريق السمع، أي أتتنا عن طريق الخبر.

إذًا ترتيب مباحث الاعتقاد: **أولاً**: الإلهيات: أي المتعلقة بربنا، **ثانياً**: النبوات، **ثالثًا**: السمعيات.

إذن هذا الاعتقاد هو الذي يسمى قول القلب، وما جاء من قول القلب يجب عليك أن تقوله بلسانك ما لو سئلت عنه، ولذلك في القبر ماذا يقال؟ من ربك؟ ما دينك؟ ماذا تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ وأنت لو سئلت من محمد تقول هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكرت اعتقادك باللسان، وكل خبر جاء النص به فثبت عندك، لأنه يوجد أشياء لا تثبت عند المخالف.

ومن هنا –قبل أن نبدأ– ما معنى الحجة؟ الحجة هي الدليل الذي لا يقدر الآخر على دفعه هذه اسمها حجة، في فرق بين دليل وفرق بين حجة، الدليل قد يقطع الخصام وقد لا يقطعه، فإذا قطع الخصام كان حجة، ممكن أذكر لك أدلة وأنت غير مقتنع، وهي أدلة حقيقية ولكن أنت عندك الشبهة عليها، هناك كثير من مسائل العلم التي حصل فيها الشبه من قبل المخالف ولم تقطع، ولم تصبح قاطعة عند الآخر، يعني يرد عليها ويضع عليها الإشارات، ولكن إذا جاء الدليل الذي لا يقدر الآخر على دفعه سميت هذه الحجة، فالحجة اعلى من الدليل، ومن هنا لابد من إقامة الحجة.

فإذا جاء الأمر الغيبي الذي عليه اعتقاد القلب مما سميناه قول القلب فجاء فكان إما بدليلٍ هو الحجة الذي لا يقدر على دفعه، كأن يكون في القرآن، أو في السنة المتواترة، فإذا كان في السنة مما يمكن رده بسبب السند، لا بسبب عدم الاقتناع به من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما السند يكون ضعيف.

مثلاً: لو واحد جاءنا من المعاصرين وقال: بأن من أسماء الله الستير، وأستدل علينا بمن صحح حديث (إن الله حييٌ ستير)، قلنا له: الستير هذا لا يصح، هو لا يصح هذا الحديث، أما أن الله حيي؟ نعم، أما أنه ستير فلم يصح هذا اللفظ عنه صلى الله عليه وسلم، فقال: يصححه الشيخ الفلاني، أنا بالنسبة لي حديثٌ لا يصح هو حديثٌ ضعيف، فهذا لا يقال: أقمت عليه الحجة، هو دليلٌ عنده وليس دليلٌ عندي، فأنا نفيته بالعلم، أن سند هذا الحديث لا يصح، فإذا كان هناك الحجة، والحجة تقام بماذا؟ بالقرآن وبالحديث المتواتر، وكذلك تقام بالحديث الآحاد الذي لا يقدر الآخر على دفعه، أي حديث الآحاد تقام به الحجة لكن بماذا؟ إن أقر به الخصم، لكن إذا رده بما يرد به أهل العلم فتصبح مسألة من المسائل الخبرية التي يكون فيها الخلاف.

القصد: بأن كل شيءٍ ثبت دليله بمعنى الحجة فيجب على المرء أن يعتقده وأن يعبر عنه بلسانه ما لو سئل عنه، يعني ليس شرط وهو يمشي يقول: وأنا كذا، كل يوم يتلو عقيدته في الباب، ولكن إذا سئل عنه يجيب وأما أن يقول: «لا إله إلا الله ومحمد رسول الله»، فيجب عليه أن يقولها، سئل أو لم يسأل لأنها كلمة التوحيد التي لا يصح الإسلام إلا بها.

إذن هذا قول اللسان وهذا قول القلب الآن جئنا إلى عمل الجوارح، ذكرنا أن هناك ركنٌ من الأقوال وهو لا إله إلا الله، وهناك واجبات صحيح، هناك واجب يعني مثال ذلك بعض أهل العلم وهو كقول الشافعي رحمه الله: بأن

ترداد الأذان وراء المؤذن واجب، لقوله: (فقولوا)، فجعله واجباً مأمورًا به والأمر يفيد الوجوب ما لم يأتي الصارف، فمثلاً هذا واجب.

مثال: من مسائل الكلام التي ينبغي أن نهتم بها هنا، من قال: بأن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم واجبة في العمر مرة هذا غير صحيح، لأنها كذلك من الصلاة الواجبة أن تصلي على النبي في الصلاة، التشهد، فالتشهد لحديث المسيء لصلاته واجب، فالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم واجبة في الصلاة، وأما قولهم: تصلي مرة واحدة فهذا غير صحيح، هذا من أقولهم، لكن هل الأمر يفيد التكرار أو لا يفيد؟ الصواب أن الأمر لا يفيد التكرار، والتكرار يحتاج إلى دليل آخر، ليس هذا موطن الحديث عنه في الأصول.

الآن إذن هناك قولٌ ركن من أركان الإيمان ذكرنا هناك واجبات وهناك مستحبات، مستحب أن تكثر ذكر الله، مستحب أن تصلي على النبي صلى الله عليه وسلم في يوم الجمعة وليلتها، كذلك في غير ليلة الجمعة وفي يومها، مستحبات كثيرة من الأذكار أن تدعو لأخيك إذا زرته هذا من المستحبات، أن تدعو لأخيك بظهر الغيب هذا من المستحبات، فهي أقوال.

وهناك كذلك ذكرنا اعتقادات، والاعتقاد ذكرنا سابقًا مرتبته واحدة لأن الذي يقابله إما التصديق وإما التكذيب الاعتقاد مرتبته واحدة، بمعنى من رد يوم القيامة كمن رد أمر الجن، إذا ثبت عنده، طبعًا الكتاب وسنة تثبت الجن، فمن ثبت عنده شيء فرده فهذا كفر مهما كان هذا الخبر ومهما كان هذا الأمر.

الآن جئنا للعمل، العمل إما عمل الأركان وإما عمل القلب، فعمل الأركان كثير نعرف منها المباني الأربعة التي هي الصلاة والصيام والزكاة والحج، هذه المباني الأربعة هذه من أعمال البدن، وكذلك من أعمل البدن الجهاد سبيل الله، إماطة الأذى عن الطريق، ومنها ما هو ركن، هنا بعضهم زعم ما بأنه لا يوجد عمل من أعمال البدن هو ركن من أركان الإيمان، والصواب أن هناك من الأعمال ما هو ركن، وهناك من الأعمال ما هو شرك، الصواب أن الصلاة ركن من أركان الإيمان من تركها فقد كفر، وهل المباني الأربعة كذلك؟ الجواب: نعم، وهذا قول ابن مسعود، أن تارك الصلاة وتارك الصيام والزكاة والحج وهذا قول جماعة من الصحابة على رأسهم ابن مسعود، وأما القول في ترك الزكاة فهذا قول جماعة من أهل العلم، هو رواية عن أحمد، والقول بكفر تارك مبنى من المباني الأربعة هو قول عند أحمد، ومن إحدى أقوال أحمد.

وكذلك شيخ الإمام البخاري الحميدي في مسنده كذلك له –وهذا قليل من طلبة العلم يعرفه– في مسند الحميدي في آخره اعتقاد الإمام الحميدي وفيه أن تارك الزكاة كافر، واختلف بعد ذلك ولكن بلا شك أن الصحابة قد أجمعوا على كفر تارك الصلاة، وهناك أعمال للبدن مستحبة، وهناك أعمال واجبة.

الآن نأتي لأعمال القلب، ما هي أعمال القلب؟ كثيرة جداً، ذكرنا منها الخوف من الله، محبة الله، محبة النبي صلى الله عليه وسلم، الرغبة في الدار الآخرة، الصبر، التوكل وهكذا، هذه من أعمال القلب وهي الأصل، فالأوامر كلها ما منبعها؟ أعمال القلب، وهي أهم ما ينبغي الاعتناء به، أعمال القلب لأنها إن وجدت خلاص صلح القلب كله إذا صلح القلب صلح البدن كله، إذا صلحت أعمال القلب صلح كل شيء، وما الذي يمد هذا العمل القلبي؟ هو العلم كلما ازدت علماً وكلما ازدت عملاً، فالعمل يقوي عمل القلب ثم عمل القلب يقوي عمل البدن، وهكذا العلاقة متبادلة بينهم، يعني كلما أنت ازدت صلاة قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد: ١٧]، فقال صلى الله عليه وسلم: (التقوى ها هنا) في الصدر، ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠)﴾ [العاديات: ١٠]، هي المنبع، منبع الإرادات، منبع الأعمال، منبع الصلاح، ومنبع الفساد، القلب، فأعمال القلب هي أهم شيء.

هذا وصف الإيمان الذي عليه الصحابة رضي الله تعالى عنهم، هؤلاء الصنف من الناس الله وصف لنا حالهم فقال ومن الناس من يقول، ذكر أمرا وتخلفت أمور، هنا الآن قلت كلمة لماذا تخلفت هنا؟ قلنا: «لا يمكن أن يوجد عمل القلب دون ترجمته قولاً على اللسان أو عملاً في البدن»، لا يمكن، هذه القاعدة يجب أن تفهمها، فإن أخطأتها أخطأت تفسير كثيرًا من الأحكام في علاقة الظاهر مع الباطل.

أعيدها: لا يمكن أن يوجد الصلاح القلبي دون الصلاح البدني والقولي، ولا يمكن أن يوجد الفساد القلبي بدون أن يوجد الفساد البدني والقولي، لا يمكن، العكس ممكن، يعني يمكن أن يوجد صلاحٌ في الظاهر مع فساد الباطن وهذا هو النفاق، لماذا؟ لأن هو يستطيع تنازع الإرادات هو قلبه لا يريد الإيمان فلماذا يجبر بدنه على فعل الإيمان، كما يجبر المريض نفسه على شرب المر، من أجل المنفعة، وهذا يجبر نفسه على الطاعة من أجل المنفعة، ما هي المنفعة؟ اتقاء القتل، وتحصيل المنافع أنه منافق، لماذا يوجد منه هذا، من أجل تحصيل المنفعة كما أن المرء يُقبل عما يؤذيه لما يترتب عليه من عاقبة تنفعه، ألا ترى المرء يأخذ النار ويكوي بها بدنه، يؤلمها وهي إيذاء، لماذا؟ للعاقبة، ما هي العاقبة؟ الشفاء، وهذا لماذا يجبر نفسه أن يذهب للمسجد، مع إنه لا يؤمن بذلك كمن يجبر نفسه للتسول وهو شريف للحاجة، وهذا نفس الشيء.

فإذن هي تنازع إرادات، في القلب تنشأ تنازع إرادات، فإما أن يطابق ما يحب القلب وإما أن يخالف، وهنا ينظر إلى نهايته، إلى الصراع ولكن لابد من النظر إلى القلب، هذه في الرد على من يزعم إمكانية نشوء العمل في الظاهر دون معناه الباطني، هذا لا يمكن، ولذلك نحن نقول عبارة جامعة في هذا: «علاقة الظاهر بالباطن علاقة تلازم بين قوسين غير مطلق»، لماذا غير مطلق؟ من أجل أن نخرج منها المنافق نخرج منها المكره، (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله)، علاقة الظاهر بالباطن علاقة تلازم لكن غير مطلق، لماذا غير مطلق؟ حتى نخرج منه ﴿إِلَّا

مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، هذا من جهة المؤمن الذي يجبر على فعل الكفر، والمنافق هذا من جهة الكافر الذي يعمل أعمال الإيمان.

وهذا باب مهم جداً ولذلك يمكن من جهالاتهم الذين يخالفون من أهل البدع، أهل البدع من جهالتهم يزعمون أنه يمكن أن ينتج كفرٌ مع إيمان القلب، يا قوم علينا هذه قاعدة ابن حزم علمنا إياها، وابن حزم في هذا الباب قد مدح من كبار العلماء أي في باب الإيمان مدح بن حزم، هذه كما نرد على المرجئة ونرد على من اشترط الاعتقاد في العمل الكفري، علينا إما أن نفهم، وأما أن نسلم، التسليم علينا أن نسمي كل عمل سماه الشارع كفراً أنه كفر – ونرتاح–، يمكن نفهم وممكن لا نفهم، وإن كان العلماء يفهمون ويفسرون التفسير الصحيح ويمكن ألا نفهم فعلينا أن نسلم بمعنى:

عندما يقول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾ [المائدة: ٤٤]، الشارع قال: كفر، خلاص، انتهى، عليك أن تحكم أنه كفر، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾ [الأنعام: ١٢١]، سمى الطاعة المشرك في التحليل والتحريم شركًا خلاص انتهى كفر، شرك، فإما أن تسلم في الأحكام في النهاية، لماذا؟ لكن هذا الكفر لماذا نشأ، فلو قال قائل: هل هذا الكفر الظاهر له جذرٌ من كفر الباطن أم لا؟ الجواب: نعم، لا يمكن أن تنشأ في الأعلى إلا مع وجود مقدارها في الأدنى إما إيمان وإما كفر، فإذا كان الصاعد للأعلى إيمان فالجذر في الأسفل إيمان، وإن كان الصاعد في الأعلى كفر فالجذر في الأسفل كفر، فلا يمكن، لكن بعد ذلك فسلم.

الشارع سمى اتخاذ الشفعاء شرك، خلاص شرك، يأتي أحد ويقول: لابد أن أتحقق من وجود الباطن وإلخ، هذا كله زيادات من عندهم كما يتحقق من وجود شرط الاشتراط الذي يشترطونه، يضعون شروط بالرغم أيها الإخوة الأحبة منشأ الكفر لا ينتهي.

أسألكم، أعمال القلب يوجد حسد أو لا يوجد؟ يعني ما الذي جعل بعض كفار قريش لا يتبعون الرسول صلى الله عليه وسلم؟ ما السبب؟ حسد فقط، الحسد، لا يتعلق بالاعتقاد البتة، ما الذي جعل الكثير من اليهود لا يتبعون الرسول صلى الله عليه وسلم؟ الحسد، ليس عنده أي مسألة علمية ولا شبهة وإنما يرد، واحد يتبع لأن الهوى دخل عليه ويريد العاجلة، يقول: أمر الآخرة الله يدبرها، وأنا أريد الآن العاجلة، هذا سبب من أسباب، واحد الكبر، كيف أنا اتبع هذا الرسول؟ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف: ٣١]، أنا اتبع واحد يتيم، فأسباب الكفر لا تنتهي.

ولذلك الشارع قال لك: إذا رأيت عمل كفر فأحكم عليه بالكفر، طبعًا نحن نتكلم عن الكافر، أما المسلم الذي يخطئ، المسلم الذي يجهل هذا موضوع ثاني نحن نتكلم عن أصل المسألة، ينبغي أن ننتهي منه هذا الباب يجب علينا أن نسلم للشارع حيث سمى فعلاً إيمانيًا أنه إيمان وفعلاً كفريًا أنه كفر وعلينا أن نجزم أنه لا يمكن للمرء أن يكفر بالظاهر إلا وقد كفر بالباطن، لا وجود عند أهل السنة وأهل الحق ومنطق العلم وقواعد الحق لا يمكن أن ينشأ كفرٌ ظاهر إلا بكفرٍ باطني، ولا يمكن أن ينشأ إيمان ظاهري إلا بإيمانٍ باطني، لا يجوز لأحد أن يقول أنا أكفر بالظاهر مع احتمال وجود الإيمان في الباطن، هذه بدعة جديدة حدثت اليوم أحدثها بعضهم.

أي نحن نكفر بالظاهر ونعمل معه أحكام الكفار ونسميه كافر، لكن يمكن أن يكون مؤمناً في الباطن، هذه بدعة حكم عليها في كتابه «الإيمان» أبو عبيدة القاسم بن سلام ارجعوا إليها: الدعوة وجود الإيمان الباطن مع وجود الكفر الظاهر، هذه بدعة جديدة، لا وجود لهذا النوع من الكفر في الحياة ولا الإيمان في هذه الحياة.

الآن نأتي إلى أعظم مسألة بعد أن قررنا هذا لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)﴾ [البقرة: ٨]، إذن يتكلم عن قضية باطنية، الآن السؤال ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾، هل يمكن حصرها؟ يعني إما إن يكونوا ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ رداً للحق ليسوا مقتنعين به، بدون مشيئة ممكن؟ ممكن، وهذا سيتبين في أمثلتهم.

وهذا من أصعب مما سيشرح على فكرة، وهو قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [البقرة: ١٩-٢٠]، ﴿أَضَاءَ لَهُمْ﴾ دخلوا في الإيمان، ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ قاموا خلاص راح الإيمان، فيمكن أن ينشأ النفاق بسبب الاعتقاد، ليس مقتنع، هذا اعتقاد قلنا ما يتعلق بمسائل العلم، يعني هو شاك فيها.

وعامة الفلاسفة في التاريخ الإسلامي والمعاصرون اليوم من العلمانيين وغيرهم ممن يقول أنا مسلم وهو في الباطن لا يؤمن بجنة ولا بنار، وحتى هؤلاء لا يؤمنون باليوم الآخر، فهذا كفره اعتقادي الباطن والظاهر لأنه يقول: أنا مؤمن ما اسمه؟ منافق، لكن ما هو سبب كفرهم؟ الآن نحن نريد أن نتفق والآن سآتي لشرحها لماذا سمي منافق، وخلاف الظاهر والباطن ومن أين اشتقت كلمة النفاق، هذه مبحث قادم إن شاء الله، لكن هنا أتكلم عن الذي كفر بالباطن وأمن بالظاهر، نوع كفره بالباطن يتعلق بالاعتقاد، فيقال له: هذا نفاقٌ اعتقادي، النفاق الاعتقادي بأنه يشك في مواضيع ما سميناه الاعتقاد «إلهيات ونبوات وسمعيات»، هذا نفاقٌ أكبر يخرج من الملة، لكن هذا النفاق ستأتي بعض صوره الغريبة والعجيبة في الحياة، إذن هو نفاقٌ اعتقادي يكون نفاقٌ أكبر.

وهذا الرجل –هذه مسألة نريد أن نستعجل في بحثها لأهميتها وإن سيأتي تفصيلها– هذا الرجل الذي آمن ثم كفر ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾، لحظة الإضاءة هو مسلم ولا غير مسلم؟ هو مسلم، ولحظة الإنطفاء هو كافر.

وهناك لحظات سماها القرآن غريبة جداً وأعطانا صنف جديد، قال: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، في قلوبهم مرض هؤلاء كفار ولا مسلمين؟ في حالة من حالتهم يكونوا مسلمين، في حالة؛ لأنه ما دام هم ليسوا منافقين، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ إذن في حالة من حالاتهم يقوى الإيمان، وفي مرات ينطفئ عليهم بالمرة يمرض ويصبح فيه شلل، فهؤلاء منافقون لكن منافق لحظة إسلامه وهو ضعيف، دخل إسلام، هو داخل الإسلام، في قلبه داخل لكن هو مرتعش، هذا مسلم ولا غير مسلم؟ هذا مسلم.

قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، هذا المرض الذي اختصوا به في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، إذن هذا لم يصل إلى درجة أن يدخلوا في قوله: أنهم منافقون، فهذه لحظة الإيمان الضعيفة، هذا ماذا نسميها نحن؟ هل يصح أن نقول: هو نفاقٌ أصغر، في كلام الاعتقاد؟ نعم يصح، لأن الأصغر هو جزء موصل إلى الكل، وإن كان لا يحكم عليه حكمًا كلياً،

–وهذه من أشقاء ما أشرحها، دائماً اتعب في شرحها مع الاعتذار– هل يوجد نفاق اعتقادي أصغر؟ لأنه للأسف في عامة الكتب النفاق يقسم إلى قسمين، نفاق اعتقادي أكبر، ونفاق عملي أصغر، وهذا قسمة غير صحيحة، وجدنا نفاق اعتقادي أكبر، لكن يا شيخ أتي لنا نفاق اعتقادي أصغر –هذه التي شرحتها– يعني رجل تسأله في آخره ولا ما في؟ يجيب: والله في آخرة، اللحظة هذه في قضية الاعتقاد لأنه لم يصل لدرجة التكذيب، ولم يصل لدرجة اليقين وإنما هو يعني يتراوح بينهما في لحظة أن تكون رجله في الإيمان يسمى مؤمناً لكنه ضعيف، هذا نفاق أصغر، وهو في الاعتقاد، وهذا يصيب الشكاك.

للذكر صحيح هو لا يعرف عند العوام، وإنما يصاب عند الشكاك، الذين يشكون والذين يبحثون المسائل، ولذلك في كتب الفلاسفة في التاريخ الإسلامي، حتى في كتب بعض المعاصرين من العلمانيين تجد عندهم هذا، يعني بعضهم تجده يثبت الشيء ونقيضه يكتب كتاب ثم يكتب ضده وهكذا، فتجده في حالة حيرة أي مرةً هنا ومرةً هنا –أتكلم عن مسألة الاعتقاد وليس مسألة العمل–.

إذن يمكن أن يكون هناك نفاق اعتقادي أكبر، ونفاق اعتقادي أصغر موجودة، أرجو أن أكون قد وفقت إلى شرحها، وهي صعبة على البحث، لماذا؟ لأن الإخوة –بفضل الله– والذين يسمعون هذه الدروس لم يعيشوا مع العلمانيين ولم يعيشوا مع الفلاسفة ولا يقرأون كتبهم ولا يعرفون أحوالهم والشيء ربما يُعرف كلاماً ولكن يبقى في حال

التشوش حتى يراه حقيقة، كأن يقول لك: هو هكذا، ولكن لو عشت معه كيف يكون مؤمنًا، ويتكلم في مسائل العلم عن مسائل الاعتقاد، كيف يثبتها وينفيها لعلمت هذا القول لكنه غير موجود، وقد مضى أغلبهم وموجود في صف العلمانيين، والإخوة الحمد لله لا يقتربون منهم ولا يعرفونهم.

نأتي إلى النفاق العملي موجود أم غير موجود؟ موجود، نفاق عملي وهو يتعلق معتقده للحديث، النبي صلى الله عليه وسلم سماه، نفاق عملي، هذا نفاق عملي أصغر موجود متفقين عليه، ولأنه أغلب ما يشرحون به لأنهم للأسف يقولون دائماً بأن النفاق العملي دائماً أصغر وهذا غير صحيح، النفاق العملي يكون أصغر، لا نريد أن نطيل أكثر مما شرحه الحديث، ولو دخلنا فالمسألة قد تطول لكن نحن أمام القضايا السريعة.

ولكن كيف يكون النفاق العملي أكبر؟ هل يمكن؟ يمكن، ومن صوره رجل لو سألته عن معتقده في الكتاب والسنة، وما جاء في الكتاب السنة، المعتقد سليم تماماً، الآن النفاق العملي الأكبر لكنه مع ذلك يقاتل تحت راية الكفر يقاتل مسلمين، هو لو سألته عن المعتقدات؟ هو يقول لك: المعتقدات لا يخالف فيها، الجنة والنار وو ... إلخ، ومع ذلك هو يقاتل تحت راية الكفار، فإذن الآن ماذا نحكم عليه؟ لو أنت أردت أن تطبق القواعد العلمية لسميته منافق، لكن منافق نفاق أكبر ولكن لوجود الحكم الظاهري عليه تسميه كافراً، لكن هو في واقع الأمر بين الظاهر والباطن خلاف وهذا الذي يقال له النفاق، إذن هل يوجد نفاق عملي أكبر؟

وهذه التفرقة لم تكن عند الأوائل، هذه حدثت متأخرة، لقولهم بأن النفاق العملي دائماً يكون أصغر، يقولون أن النفاق العملي هو النفاق الأصغر والنفاق الاعتقاد هو النفاق الأكبر هذا غير صحيح، هذا مرفوض، والسلف لا يقولون به كلها من مخرجات المتأخرين لتعظيمهم أمر الخبر على جانب الأمر، الآن انتهينا من هذا وينبغي أن يكون مفهوماً، أن هناك نفاق أكبر وهناك نفاق أصغر يكون في الاعتقاد ويكون في العمل.

نأتي فقط إلى كلمة النفاق، بلا شك هنا القرآن يقول: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، ولكن كلمة النفاق جاءت في القرآن كثيراً، كلمة النفاق، هم يقولون: النافقاء، أخذت من النافقاء وبيت اليربوع، هو في الحقيقة النافقاء لأنه نفق، ونحن أخذنا ينفقون، الإنفاق هو الإزهاق، شرحناها في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾ [البقرة: ٣] وقلنا أخذت النفقة من الذهاب، ولذلك يسمى النفق لأنه موصل بين الشيئين يأتي من هنا فيدخل من هنا، يسمى النفق الناس عندهم نفق طبعا النفق تأتيه بمعنى إما هذا وإما أن تطلق فعلاً يعني ذهب مات، نفقت الدابة نفقت أي ماتت لكن النفاق هو هذا، قالوا النافقاء، لماذا؟ قالوا: لها بابين، إذا جاءها الصياد من جانب هربت من جانب آخر، وهذا هو النفاق، وهذا هو النفق، لأنه موصل بين الشيئين يأتي من هنا فيدخل من هنا، ليس له شيءٌ واحد.

وقيل: هو خلاف الظاهر والباطن، يقول: نفق، أنت من فوق ما في شيء ولكن من الداخل في فراغ، فلذلك هو النفق، ومن هنا أخذت كلمة النفاق وهي مخالفة الظاهر والباطن أو وجود مدخل يخالف المدخل الآخر، من هنا مدخل ومن هنا مدخل، فهذا مدخل إيمان وهذا مدخل كفر وهكذا، فلذلك أخذت كلمة النفاق من هذا.

المسألة الثالثة والرابعة في هذا وهو أن كلمة النفاق عامةً وأحوالها إنما وجدت في القرآن المدني، ولم توجد في القرآن المكي، وصار العلماء علماء التفسير يجعلون هذا من حججهم في معرفة ما أختلف فيه في السور هل هي مكية أم مدنية؟ بلا شك أن كثيراً من أهل العلم يرى بأن قضية المكي والمدني إنما هي تبع الرواية وليس الدراية، أن مسألة المكي والمدني لا مجال للاجتهاد فيها ليست مسألة اجتهاد، وإنما هي الرواية، أن تأتي الرواية هذه نزلت في المدينة هذه نزلت في مكة إلى آخره، وهذا لو ترك على هذا المعنى فإن كثيرًا من السور حصل فيها الخلاف، وكثيراً من السور وإن اتفق عليها أنها مكية ومدنية ولكن صار خلاف في بعض آياتها، ولذلك بقاء جانب الدراية يعني دراسة السورة وأحوالها وما فيها لاكتشاف مدنيتها أو مكيتها ينبغي أن يبقى هذا الباب مفتوحاً، وليس كما قالوا لأنه لو اختصرنا على الرواية لتعطل عندنا كثيرٌ من الأحكام في هذا الباب.

فمثلاً في سورة «العنكبوت» وهذا شرحته في تفسير سورة «العنكبوت»، أنها أختلف فيها، هل هي مكية أو مدنية؟ وكان من حُجج من قال: أنها مدنية أنه ورد فيها ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١)﴾ [العنكبوت: ١١]، والصواب الذي أعتقده أنها سورة مدنية نزلت لمعالجة موضوع أهل مكة هذا على الصحيح.

القصد: بأن بعض أهل العلم يعني يأخذوا هذا مقياسًا وجود كلمة النفاق، لأن النفاق لا يتصور وقت المحنة، النفاق إنما هو إظهار الإسلام وإبطال الكفر، فواحد أصلاً وقت الإسلام مهان والإسلام ممتحن والإسلام مظلوم فلماذا يُظهر الإسلام ويبتلى وهو يبطن الكفر الذي يريده ذلك لا يتصور.

الشيء الثاني: أن النفاق الأصغر لم يأت إلا في الحديث، ولا يأتي في القرآن، القرآن ليس فيه إلا النفاق الأكبر، النفاق في القرآن لا يأتي إلا النفاق الأكبر، كلمة النفاق إذا وردت في القرآن خذوا هذه قاعدة أرجو أن لا تنسوها وهو «أن أحكام القرآن غائية، والسنة فيها الغائي وفيها الوسطي» كما يقول الإمام الشاطبي رحمه الله.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثاني والعشرون

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، وتركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على المحجة البيضاء والطريق الواضح، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، ولا يتنكبها إلا ضال.

أما بعد من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا.

أهلاً بالإخوة الأحبة فهذا هو الدرس الثاني والعشرون، من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ٨-١٠]، وتكلمنا في الدرس الفائت عن النفاق وأحواله لأن هذا الذي تكلمنا به مقدمة ضرورية حتى نفهم الآيات القادمة، فهي مقدمات تُلقي بالظلال وبالمعاني على الآيات التي تتعلق بالنفاق، والقرآن كما ترون يعني في سورة «البقرة» هنا رأينا أربع آيات في المؤمنين، آيتين في الكافرين، والآن سنرى ثلاثة عشر آية في المنافقين.

وهذا عند بعض أهل العلم بيان وإشارة إلى خطورة شأن النفاق، والعلماء اختلفوا من هو أعظم جرمًا النفاق أم الكفر؟ والكثيرون على أن النفاق أشد، وخاصةً النفاق المستحكم، ولذلك الله عز وجل قال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، ومع أنهم يوم القيامة يبقون في أرض المحشر، عندما يقال لكل أمةٍ أن تتبع طاغوتها، فيتبع الناس طواغيتهم فيبقى أهل الإسلام ويبقى معهم أهل النفاق، حتى إذا تجلى الله عز وجل بصورةٍ لا يعرفونها، فلا يسجدون ثم يتجلى لهم الله عز وجل بصورةٍ يعرفونها فيسجد أهل الإيمان وينقلب على ظهورهم أهل النفاق، وهذا من مكر الله عز وجل لهم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وهذا الخداع سنرى كيف يقع في الدنيا وكيف يقع في الآخرة.

فقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)﴾ [البقرة: ٨]، هنا تكلمنا عن النفاق العملي الذي يكون منه الأكبر والنفاق العملي الذي يكون منه الأصغر، وهنا حديث عن النفاق الجامع للأمرين لأن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، لا يعني فقط الاعتقاد، لأن الإيمان بالله عز وجل شامل للاعتقاد وللعمل كذلك سواء، يعني لمسائل العلم كما شرحنا في الدرس الفائت الاعتقاد بمسائل العلم ومسائل العمل، فمنهم من يقول آمنا بالله فالإيمان بالله يقتضي نصرة المؤمنين والإيمان بالله يقتضي القيام بالأعمال الباطنة من محبة

الله والخوف منه، من الإيمان بالله عز وجل الامتثال أوامره وهكذا، من الإيمان بالله متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لأن هذا هو أمره، ومن الإيمان بالله عز وجل الإقرار والتصديق بخبره.

فقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، هو شامل لقولهم الدال على عملهم، وقيمة الأقوال أيها الإخوة الأحبة الأقوال هي بيان، ما معنى بيان؟ إظهار، يقال بان الشيء أي ظهر، ولذلك الأقوال هي بيان، ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن: ٤]، فقيمة الأقوال لما في القلوب، ونحن نرى هنا في الآيتين المتقدمتين في الكفرة قال الله عز وجل: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، والله عز وجل يقول هنا: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، فلأن القلوب هي المحطة التي ينظر الله عز وجل إليها، وهي كل شيء، الأعمال لا قيمة لها من غير القلوب، بل لا تنشأ في الأصل، إذا نشأت تنشأ من أجل دافع الشهوة، ولكن إذا نشأت بدافعٍ حقيقي باطني فالقلب الذي يُنشئ الأعمال، والقلب الذي يُنشئ كذلك الأقوال، فالأصل هو القلب.

وهذا بيناه في الدرس الفائت لا يؤمن الإنسان ببدنه ولا بقوله، حتى يكون قلبه مؤمنًا، ولا يكفر ظاهره إلا إذا كفر باطنه، فالقصد هو القلوب هي مراد الله عز وجل ويوم القيامة يحصل ما في الصدور، وكل ما تعمله هو ظلال لما في قلبك وانعكاس لما في قلبك، فهؤلاء لما قالوا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، لم يكونوا صادقين، على أي معنى لم يكونوا صادقين؟ على كل ما يترتب على معنى الإيمان، طبعاً لا يمكن أن يوجد في هؤلاء المنافقين من ينكر وجوده، هنا إنكار الوجود لا مجال لذكره هنا، لا مجال لذكر هذا الباب بمعنى لو قال: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، أي صدقنا بوجوده، هذا الاحتمال لا وجود له، ولكن ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، أي صدقنا خبره نعم، ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، أي أقررنا بأمره قالوا: نعم، هذا يمكن.

أما قضية الوجود هذه لا وجود لها في التاريخ، واحد ينكر وجود الله وهذا لا يعرف أصلاً لا في كفار قريش ولا يعرف في كفار أهل الكتاب، لأن بعض أهل العلم يقولون: هذا النفاق المذكور في هذه الآية إنما هو في منافقين أهل الكتاب، يقولوا آمنا وهم ليسوا كذلك، هذا بعيد ولكنه موجود، هذا بعيد أن نقول بأن النفاق ها هنا المذكور هو مختص بأهل الكتاب، لا هذا مختص بأهل الكتاب وبالعرب كذلك، فقولهم: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، أي أطعناه، أي دخلنا في عبوديته، هذا المقصود، وهؤلاء ليسوا كذلك يعني ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، ودافع دفع هذا الذي في القلوب أي عدم إقراره له أسباب متعددة، منها ما ينشأ من الشك، هناك نفاق الشك أنهم يشكون، وهذا وجد في المنافقين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم أي شكوا ما زالوا يشكون أن هذا هو رسول الله.

وهناك نفاقٌ بسبب الحسد، يعني لو رأينا نفاق زعيم المنافقين عبد الله بن أبي، لما وجدناه يتعلق بالتصديق قط، إنما مبنى نفاقه أنه حسد النبي صلى الله عليه وسلم وأبغضه أنه أخذ منه الملك، لأن الأوس والخزرج قبل الإسلام وقبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم كانوا قد تعاهدوا وتصالحوا أن يولوه ملكاً، كما ذكر ذلك سعد بن عبادة في الحديث

الصحيح لما النبي صلى الله عليه وسلم في بداية دخوله المدينة، وعك سعد بن عبادة وهو من السعود، هؤلاء السعود هم سعد بن عبادة سعد بن معاذ، سعد بن الربيع، أسعد بن زرارة، هؤلاء يسموه السعود وأولهم موت أسعد بن زرارة مات بعد أحد، وأما سعد ابن معاذ فمات في الخندق، بعد الخندق مات وسعد بن عبادة عمر، وهناك رواية باطلة غير صحيحة أن الجن قد قتلوه، وهذه رواية تذكر في كتب الفقه في بيان كراهية البول في الجحر، أن سعد ابن عبادة بال في الجحر فقتلته الجن، فصرخ صارخ -هكذا يقولون قصة موضوعة- نحن قتلنا سيد الأنصار سعد بن عبادة رميناه بسهمين لم يخطئا فؤاده، فتذكر على كراهية البول في الجحر مخافة إيذاء الجن، فالجن تنتقم ... إلخ، وهذا لا يصح.

فسعد بن عبادة لما النبي صلى الله عليه وسلم كان في بداية مجيئه الى المدينة فمر على قومٍ من اليهود والأنصار فسلم عليهم ووعظهم وكان في زيارة لسعد بن عبادة، لأن سعد بن عبادة مرض فعاده، فقال له عبد الله بن أبي اجلس في مسجدك فمن جاءك فعظه، ولا تغبر علينا، لا يغبر علينا حمارك، فقام إليه الأنصار وتقاتلوا، وكان ما زال زعيمًا يعني الناس ينتصرون لوجهائهم، فحدث ما حدث والنبي صلى الله عليه وسلم كره هذا تأذى فشكى لسعد بن عبادة، شكى هذا الأمر أنه تأذى من كلام هذا المنافق عبد الله بن أبي، فسعد طمئن النبي جعل يُهدئ من غضبه ويبين له سبب كراهية عبد الله بن أبي، وقال: بأننا اتفقنا وأجمعنا على أن نوليه ملكاً، وكانت النساء تخرز الخرز من أجل تتويجه، ليضع على رأسه التاج، فلما جاء الإسلام شَرِق كمثل الذي يشرب الماء ويشرق، كمن يأكل لقمة فغصته، فجاء الإسلام فغصه، شرق به، فالمهم قال له: هذا هو شأنه.

فإذن عبد الله بن أبي كراهيته هو أنه ذهب الملك منه، فإذن النفاق هو ليس فقط تعلق بالعلم له جانب مما يتعلق بالعلم أي إنكار العقيدة، وهذا نراه كثيرًا في المتكلمين، نراه كثيرًا فيمن يبحث وينظر وتطرأ عليه الشبهات فلا يستطيع ردها، في أناس تطرأ عليهم الشبهات ولا يستطيع أن يرد عليها فيتابع، المؤمن المقلد الذي لا يستطيع ردها مطمئن، يقول له أخرس يا كذاب وهكذا يخرج من فتنة هذا الشيطان الذي يلبس عليه، لكن بعض النظار ممن اقترب من الفلاسفة يصبح شاكاً فيه، فقد عُلم عن بعض الفلاسفة أنهم تركوا الصلاة.

مثلاً: ابن سينا كان لا يصلي وكان على مذهب الإسماعيلية، ثم صار دهريًا، والفارابي الذي يسمى بالفيلسوف الأول، بل ذكر عن بعض المتكلمين ممن اشتغل في علوم الشريعة، لا ندري تصح أو لا تصح ولكنها مذكورة في كتبهم وتراجمهم الآمدي صاحب «الإحكام في أصول الأحكام»، ذكروا عنه أنهم شكوا أنه لا يصلي فتلاميذه يومًا سمعوا منه وكان يدرس الفلسفة والمنطق والأصول هو صاحب «الإحكام» وكتابه وفي الأصول كتابٌ مرجعي، عده ابن خلدون من الكتب الأربعة التي هي مراجع الأصول، فجاءوا ووضعوا حِبراً على رجله ليروا سيغسلها أم لا، فجاء إليه ثاني يوم فوجدوا الحبر مكانه، هذه تذكر في ترجمة، لو راجعتم إلى التراجم الرجال تجدون هذا في الآمدي.

فيصبح عندهم الشك والحيرة فهؤلاء منافقون من جهة الاعتقاد، والناس يقع منهم هذا ويقع منهم لكثرة مخالطتهم بأهل البدع، مخالطتهم بالمشركين، مخالطتهم بالدعاة الكبار وهو لا يستطيع أن يرد وتضطرب عنده المسائل، عندما نرى مثلاً بعض ممن يقول: أنا مسلم وعامة العلمانيين الذين يزعمون الإسلام من هذا النوع بالرغم أنهم كفار لما يظهر من كفرهم يعني كفار لسبب آخر، ولكن منشأ الكفر الذي ظهر وبان حتى حكم عليهم بالكفر، منشئه هو النفاق، في أن حدث عندهم الشكوك في الإسلام.

فهؤلاء المبتعثون كمثال طه حسين تحصل لديه الشكوك يأتي إليه يقول: ما هذا القرآن، تحصل لديه الشكوك، وكان طه حسين يقف أمام الطلاب ويسجل الآية على اللوح، ويقول: أُنقدوا هذه الآية أنقدوها لغويًا بلاغياً، فهؤلاء عندهم الشك لا يستطيعون الرد، أين الإعجاز فيه، وهو يقول كذا، فهؤلاء منافقون من جهة الاعتقاد، وهم كثر.

وهناك منافقون ليس من جهة الاعتقاد بل من جهات أخرى يكرهون الإسلام، مع اعتقادهم بأنه الحق، بل لا تقول مع اعتقادهم يعني هذه ينبغي أن نكون محترزين منها لكن موجودة، فالناس يقولون الإسلام هو الحق يعرفونه، اليهود ألم يعلموا أنه الحق؟ يعلمون، ما الذي منعهم من اتباعه؟ الحسد، وكذلك في النفاق، يحسدون كيف نتبع هذا، ويصلون وراء النبي صلى الله عليه وسلم ويكرهون أن ينتصر، فإذا انتصر شرقت نفوسهم غصة قلوبهم بهذا الانتصار ولا يحبون، وإذا سنحت لهم الفرصة أن يتصلوا بالكفار فيخبرونهم بعورات المسلمين لفعلوا، بل يتمنوا أن يُهزم المسلمون كما فعل المنافقون في غزوة أحد.

ففي غزوة أحد خرج المنافقون مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجعوا من وسط الطريق، المنافقون ثلث الجيش رجع من وسط الطريق، لأنهم يكرهون أن ينتصر الإسلام، يتمنوا أن يهزم هذا الدين، لماذا؟ هذه أسبابها لا تنتهي لا تبحث فيها، منها من جهة علمية وهو قليل في هؤلاء أنا أقصد العرب من الفلاسفة والمفكرين، وأما من جهة العرب فأغلبهم يبغضوا أن ينتصر الإسلام، يبغضه لا يحبه، الحسد، وكراهيتهم للنبي صلى الله عليه وسلم تؤدي إلى كراهيتهم لما جاء به.

ألم يقل طلحة النميري لمسيلمة الكذاب: «أشهد أنك لكذاب، وأن محمدًا صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر!»، هو يعرف أنه صادق، لكنه هو يحب مسيلمة الكذاب، لأنه من عشيرته ومن قبيلته، فينشأ هذا النفاق له أسباب وعلى المرء أن يحذر منه، فمثلاً يتسلل هذا النفاق حتى يودي بالرجل إلى الكفر، يعني أن تكره أن ينتصر أهل الإسلام، فهذا يودي بك أولها هكذا تبدأ قليل وكراهية حتى يصبح المرء يغتاظ أن ينتصر أهل الإسلام، أنا رأيتهم هؤلاء، يبدأ في خلاف مع جماعته، رأيت من المعاصرين أعرفهم، كان ممن يشتغل رأسًا في الدعوة والجهاد ونصرة الدين، فيختلف والجماعة تعاقبه أو تقول له قول أو تجعله فيبدأ الابتعاد، يتسلل إليه النفاق ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، حتى يصل المرض الى الشلل.

وسنتبين أن كلمة المرض كلمة نسبية منها ما هو كفرٌ البتة ومنها ما هو مرض لما ذكرنا من قضية النفاق لأن الواو هنا تعني المغاير ودل على أنهم لم يكفروا بعد، مرض لكن يمكن أن يكون المرض إلى درجة النزع وإلى درجة الشلل، فالشلل مرض، لا تنشأ منه أعمال صالحة لا تنشأ منه الأعمال التي هي مطلوبة من البدن الصالح أو القلب الصالح، رأينا أمثال هؤلاء يبدأ بغضه وشجاره مع الجماعة ويبدأ يبتعد حتى يصبح رأساً في الكفر وهو لا يشعر وهذا عليك أن تحذر منه، كفر المآل هو منه كذلك نفاق المآل، كفر المآل يعني يؤول فعله قليل، قليل، كما أن المعاصي هي بريد الكفر فكذلك المعاصي القلبية بريد النفاق.

ويصب على القلب أعمال صالحة فتقوي الإيمان وتصب عليه أعمال فاسدة يجالس المنافقين يجالس الكفار يأخذ منهم الأموال يكيد بأهل الإسلام يبغض فلان وهكذا القلب يمد بالقيح والصديد والسم حتى يتحول إلى أعدى أعداء الإسلام، هذا رأيناه.

ورأينا هناك بعض المشايخ من ينقلب كافرٍ البتة، مثل الشيخ عبد الله القصيمي هذا الرجل شهير، رد على يوسف الدجوي في رد كتاب حتى قال بعضهم أن عبد الله القصيمي أخذ ضمانة بالجنة يعني خلص قدم لرده على أهل القبور والشرك وبيان التوحيد، رد على شيخ الأزهر يوسف الدجوي لما راح لمصر حتى قال بعضهم: قدم ثمن الجنة، فبدأ يقرأ للشيوعيين يقرأ لهم حتى تحول مُلحداً كافراً بالله وألف كتباً في سب الدين وسب الإسلام وسب أمة العرب، له كتاب اسمه «العرب ظاهرة صوتية»، وزاره صديق له من نجد، زاره قبل وفاته بشهر وهو عجوز، فسأله عن دينه فبين له أنه كافر بالله وبرسوله والإسلام كله غلط، فعلى المرء أن ينتبه لهذا، أن يمنع من أول بداية الشر.

لأن الإنسان أيها الإخوة الأحبة بالنسبة للمعاني القلبية لا يشعر في تطورها في قلبه لا إيمانًا ولا نفاقًا، كيف؟ (ما زال الرجل يتأخر حتى يؤخره الله)، هو لا يشعر، أين كنت أنا؟! هو لا يعرف، يعني بعض الناس الآن يقول: معقول أن يأتي يوم من الأيام ولا أصلي، ادعو الله أن يثبت قلبك، ادعوا الله أن يثبت إيمانك، لأن هؤلاء لا يشعرون، فالدخول في الظلمة كتعاطي المخدرات، لا يشعر بها قليلاً، قليلاً تسري في البدن كالمرض، فيتحول وهو لا يشعر، يتحول إلى حالة من الكفر بل أعلى درجات الكفر وهو لا يشعر، ولو قيل لك: هذا فلان الذي تراه من الكفر والإطباق عليه، كان في أول هذه الحالة، لا تصدق، وهو لا يصدق، وأنا أتكلم عن أناس أعرفهم صاروا من أعمدة الكفر وسب الإسلام وكراهية نصرة الدين، وبدأوا بقضية واحدة وهي بغضهم ونقاشهم وخلافهم مع جماعتهم، حول قضية تتعلق بسلوكهم أو تتعلق بقرارات داخلية، فبدأوا يبتعدون ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)﴾ [الروم: ١٠]، أحذروا من هذا.

فهذا نفاقٌ عملي في القلب ينشأ، وبعد ذلك ينتهي، لو قيل له آية وأنا بعضهم سمعت وهو لا يدري يقال له: تعال صلي، يقول: أنا مشغول الآن، ولو سألته عن اعتقاده لا يعرفه، أنا أتكلم على قضية ما يتعلق بكفر الاعتقاد،

هناك كثير من الناس لا يشعرون ما هو معتقدهم، في غفلة عن معتقدهم، لا يهمهم هذا الباب، يعني بيّنا كفر الاعتقاد موجود لكن الكثيرين ممن يمدهم شيطانهم بأعمال السوء للقلب، لو سئلوا عن اعتقادهم لا يعرفونه، ولو قيل: وتؤمن بالقرآن، يقول لك: مشغول، صح القرآن صحيح فقط، هذا موجود، لو قيل له: هل محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله؟، يقول: نعم محمد رسول الله، ألا تتابعه؟ يقول لك: مشغول الآن، نعم محمد رسول الله ويجب اتباعه ولكن هو مقيم في عدوة أهل الكفر، يعادي أهل الإسلام بيقين.

ولذلك لا تبحث كثيراً ما معتقد الرجل، الكثير لا ينتبه لها، لا يهتم لها، بعد ذلك يصبح من كارهين القرآن، أتركنا من القرآن، ولو سئل عندك شك فيه؟ لا يعرف، وربما يقول: نعم القرآن حق، وكثير منهم من العلمانيين اليوم يرفعون شعار العلمانيين وهؤلاء الذين تكلمنا عنهم تحولوا من حالة من النفاق إلى كفرٍ واضحٍ صريح، لا يصرحون بكراهية القرآن لأن هذا يكشفهم كما هو شأن الطغاة والطواغيت، لا يقولون: القرآن لا نؤمن به، وفي الحقيقة هو لا يهتم به، ليس في ذهنه البحث إني أريد أن أتابع القرآن أو لا أتابع القرآن والدليل لو خاطبته بآية يعني يكاد يأكلك، بماذا يتكلم هذا آية! هذا وقت آية! قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢)﴾ [الحج: ٧٢].

أنا أريد أن أنبه أنك لا تبحث في قضية الاعتقاد، لأن الكثير، بل الكثيرين بل الأغلب لا يهتم إلى قضية الاعتقاد لا يهتم لا يبحث فيها لا تعنيه.

فإذن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٨]، هذه هي المعاني، وإذا قيل له أنت تؤمن بالله؟ يقول لك: نعم أومن بالله، ولكن أين أنت؟ الله يقول: كذا، هو لا يهتم لهذا.

قوله تعالى: ﴿وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٨]، انظر إلى هذين الحدين، فلم يذكر الرسول في هذه الآية بالرغم أنه ذكر في آيات أخرى في قضية اتباعهم الرسول ولم يذكر مثلاً إيمانهم بالكتاب لكن ذكر الحد الذي فيه المبتدأ هو الإيمان بالله، والحد الذي فيه الغاية، وهي الشاملة كما ترون الإيمان بالله كما رأينا أوامره، كما رأينا أخباره، ورأينا قضية لماذا يذكر اليوم الآخر هنا على الخصوص؟ لأن الإيمان باليوم الآخر حقيقته الخوف وحقيقته الحب، ذكر اليوم الآخر لأن حقيقة اليوم الآخر الخوف من النار والرغبة بالجنة، ومن كان هذا في قلبه على الحقيقة لا يمكن إلا أن يتأثر، ولأن الإيمان باليوم الآخر يتعلق بالرغبة والرهبة فهذا دليلٌ على أن الإيمان صراع إرادة الإيمان ضد صراع إرادة الكفر، كيف؟

يوسف عليه السلام يعرض عليه كالتالي: يعرض عليه صراع إرادة الإيمان، ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]، ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)﴾ [المائدة: ٢٨]، فهذه إرادة موجودة في القلب يقابلها إرادة الشهوة،

في أن هذه الملكة وسيدته إلى آخر ما يذكر في كتب أهل العلم من حالة هذه الفاحشة الغريبة التي تطرأ على هذا الشاب الغريب، العبد أمام سيدته الملكة، غلقت الأبواب الأمان وقضايا كثيرة التي تدعو إلى الشهوة.

فهذه إرادة الشهوة موجودة في داخله والصواب أنه هم بها، ولكن الهم الذي لم يترجم إلى عمل البتة، وهذا دليل إيمان فلو لم يهم بها أي لم يكن له أي شهوة فيها لما دل ذلك على الإيمان، رجل ينظر إلى حجر، فهل النظر إلى حجر امتحان للشهوة، فامتحان الشهوة الحقيقية هو أنه اشتهاها، أنه هم بها واشتهاها ولكن هذه الشهوة هي إرادة المعصية، يقابلها ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)﴾ [المائدة: ٢٨]، إرادة الخوف من الله وتحقيق الجنة، هنا صراع الإرادات.

فإذا قويت إرادة الإيمان دل على وجود الإيمان على اليوم الآخر، ما الذي يقوي إرادة الإيمان؟ الخوف من الله، ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، انظر هذه أيضًا هذا من مرتبة أخرى، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠)﴾ [الرحمن: ٦٠]، الإحسان الإلهي غير إحسان العبد، الإحسان الإلهي العطاء، إحسان العبد أن يحسن في عمله، وإلا فالله عز وجل لا يُحسن إليه إحسانه إلى عبده، أي العبد يُحسن إلى ربه بأن يعبده، والله يُحسن لعبده أن يمده وأن يعطيه وأن يكرمه وأن يجزيه.

فانظر هذه الإرادة، صراع إرادة، هذا صراع الإرادة لا علاقة له في قضية العلم، بمعنى يثبت أو لا يثبت، ولكنه مرتبة أخرى هي مرتبة الخوف أيقوى أو لا يقوى، ومبعث هذه الإرادة التي تحقق النصر الإيمان هو اليوم الآخر.

إذن أولاً الإيمان بالله عز وجل، ما الذي يُنشئ الإيمان بالله عز وجل؟ الحياء، ولذلك قال: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، الحياء، أي حياؤه من الله ولذلك الإيمان بالله أعظم في نهيه عن المعاصي من إيمان العبد باليوم الآخر، من أعلى درجة؟ أن يرتدع العبد عن المعصية حياءً من الله أم أن يرتدع العبد عن المعصية خوفًا من النار ورغبة في الجنة؟ لأن ارتداع العبد حياءً من الله مبعثه حسن خلق العبد مع الله عز وجل، مبعثه رؤية يد المنعم، أنت تراها، الحياء من الله عز وجل مبعثه يقينك في قلبك على أن الله عز وجل يراك، وذلك هو الإحسان، من هنا يأتي الإحسان (أن تعبد الله كأنه يراك الحياء).

الحياء، أنت ترى يد المنعم، ترى أنه يراقبك وأنت تعظمه وتحبه والحياء منشأه الحب، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (الحياء لا يأتي إلا بخير)، واحد يقول لصحابي: يقولون إن الحياء منه ضعفٌ ومنه خير، أقول لك: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الحياء لا يأتي إلا بخير)، وتقول: بعضهم يقول الحياء منه ضعف، لأن الحياء هو قوة الإنسان، بل هو معنى الإنسان.

إذن ما هو الإيمان؟ هو صراع إرادات، ما هو النفاق؟ صراع إرادات، من الذي يغلب؟ ولذلك كان ذكر اليوم الآخر مهم، لماذا؟ لأن وجوده مانع من النفاق، وعدم وجوده هو مقوي بل سبب النفاق، هذا يبين لنا أن اليوم الآخر ليس قضية علم فقط، أي اعتقاد فقط، لكنها أول الاعتقاد ثم ترتقي بعد ذلك لأثر هذا الاعتقاد على القلب، كيف يؤثر على القلب.

من هنا ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)﴾ [البقرة: ٨]، انظر المؤمنون الذين تقدم ذكرهم الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، المتقون من هم؟ الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، المنافقون لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، لكنهم يقولون آمنا، ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤-١٥] سنأتي إلى هذا على كل حال، فيكفي أن نبين هذا ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾:

المقصود باليوم الآخر العلماء قالوا: اليوم الآخر ما هو آخر أيام الدنيا، وهناك من ينكره، وعامة كفر الجاهلية كان بعدم إيمانهم باليوم الآخر، عامة كفرهم ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨)﴾ [يس: ٧٨]، يجادلون في قضية اليوم الآخر، وهذا مبعث المعاصي وعدم الاتباع والفجور.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٨]، قال: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)﴾ [البقرة: ٨]، كقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، ما الأبلغ؟ ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ﴾ [البقرة: ١٦٧] أو ﴿لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ [الجاثية: ٣٥]؟

تأمل قوله تعالى –حتى تعرف الفرق– في قوله تعالى في سورة «الأنفال» يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، لما قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾، فجاء بصيغة الفعل ﴿ليعذبهم﴾، لكن لما جاء الاستغفار قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال: ٣٣]، ذلك لأن وجود النبي صلى الله عليه وسلم محدود فاستخدم الفعل، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ فعل، فالفعل يزول، من الأقوى الجملة الإسمية أم الجملة الفعلية؟ هذا ذكرناه سابقاً، الجملة الإسمية أقوى لأن فيها الثبات والدوام، الجملة الفعلية إنما تنقضي بانقضاء الفعل، الفعل ينتهي، ومن هنا كانت الجملة الإسمية أقوى وأثبت، ولذلك قال أهل العلم: إن سلام إبراهيم عليه السلام أبلغ من سلام الملائكة، هم قالوا: ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ [هود: ٦٩]، ﴿سَلَامًا﴾ منصوبة دل على وجود عامل، لكن هو ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ [هود: ٦٩] لا يوجد عامل جملة إسمية، إي سلام شيءٌ ثابت فجملة إسمية فيها الثبات، لكن سلامًا دل على وجود فعل عامل والفعل ينقضي، من أبلغ؟ سلامه الذي استخدم الجملة الإسمية التي فيها الثبات، أم الجملة الفعلية التي تنقضي بانقضاء الفعل؟

وذلك قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾، هذا ينقضي لأن ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ فعل، لكن لما كان أمر الاستغفار يدوم ما دامت هذه الحياة، قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فاستخدم المصدر والمصدر اسم، فهنا قال: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)﴾ [البقرة: ٨] كقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، خلاص، لم يقل وما يخرجون منها، وما يخرجون منها فعل، لا تأتي بمثل قوة ثبوت وجودهم في النار الذي لا ينقضي.

فقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾، نفى عنهم الإيمان البتة، دل هذا على أن الظاهر لا قيمة له من غير الباطن، فنفى عنهم الإيمان، وهذا كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]، نحن قلنا لم يذكر الرسول صلى الله عليه وسلم هناك وهذه الآية في ذكر الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يذكر هنا إلا الإيمان بالله واليوم الآخر، في هذه الآية هنا في سورة «البقرة».

في سورة «المنافقون» يقول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١)﴾ [المنافقون: ١]، لو أطلقها من غير بيان ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ لكان في ذلك شبهة أنه يكذب أنه رسوله، لكن لما كان أنه هو رسوله على الحقيقة قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾، فأثبت أنه رسوله، ولكن أثبت أنهم يكذبون في دعواهم بالإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

هذا هو شعارهم هؤلاء، فبينا أن الإيمان بالله واليوم الآخر على هذا المعنى الذي ذكرناه، ولكن لا يقال فقط الإيمان باليوم الآخر هو اعتقاد، لا وهو إرادة، وهذا مهم جدًا أن نفهمه.

قال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾ [البقرة: ٩]، قال: ﴿يُخَادِعُونَ﴾، الخداع أيها الإخوة الأحبة هو الإخفاء، ولذلك يقال: مخدع؛ لأنه خفي، ويقال عن العرقين بجانب رقبة المريض: أخدعان؛ لأنهما مخفيان، فالخداع في الأصل الخفاء، فقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾، فإذن الخداع هو الإخفاء، لكن ليس فقط الإخفاء ليس مطلق الإخفاء، إنما هو إخفاءٌ لأمرٍ على خلاف ما يظهره، وذلك إخفاء الشر من مصدرٍ ينبغي أن يأتي منه الخير.

لما الإنسان بظهر الخير فالمطلوب منه أن يأتي بالخير، فهو يأتي منه الشر، فقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليس فقط لقولهم ولكن كذلك لعملهم، يعني هنا ﴿مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)﴾ فقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾، وهنا ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يخادعونه فقط في أنهم يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام على المعنى الذي ذكرناه وأنا اكررها لأهميتها لأن الناس لا يفهمون النفاق إلا نفاق الاعتقاد، والنفاق في الوجود أغلبه هو نفاق الإرادة، ليس نفاق الاعتقاد، هو نفاق العمل، نفاق الإرادة، فقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليس فقط ما تكلمنا عنه ليس فقط أنهم يخادعون بأن يقولوا نحن مؤمنين وفي الباطن كفار، لكنهم يخادعون فيما ينبغي أن ينشأ من أعمال متوقعة أن يأتي منها الخير، مصدر يأتي منه الخير فيأتي منه الشر.

فقال: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾، أي يأتون بأعمالٍ على خلاف ما يتوقع منهم، ما يتوقع من المرء الذي يقول: آمنت بالله وباليوم الآخر، يتوقع منه أن يأتي بعمل الخير، بعملٍ صالح، فإذن هذا المصدر يتوقع منه الخير فيأتي منه الشر، فقال سبحانه: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾.

هنا العلماء وقفوا عند هذه ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾، يعني هم لا يعلمون أن الله يعلم ما في قلوبهم، يعني لهذه الدرجة يظنون، كما قال الله عز وجل: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٨].

فـ ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾، العلماء وقفوا عندها قالوا: في ظنهم، وإلا فالله عز وجل لا يخدع، لأنه مُطلع على السر، فقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾، وهو الله هنا يقرر ولا يخبر عنهم ماذا يقولون، وإنما يخبر عن حالهم، فقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ هو وصف الله عز وجل لأمرهم، فقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ أي فيما يظنون أنهم يخادعون الله عز وجل.

وقال بعض أهل العلم وهم كثر: المقصود يخادعون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس يخادعون الله وإنما أقيم هنا لفظ الجلالة بدل مقام النبي صلى الله عليه وسلم تعظيمًا للنبي صلى الله عليه وسلم تعظيمًا لشأنه وتعظيم لأن مصدر الخداع فيما ذكرناه يتوجه إلى دينه، يتوجه إلى أمره، أي عندما يخادعون رسول الله هم يخادعون أمر الله، يخادعون دين الله، يخادعون ما طلب الله عز وجل منهم، هذا ما قاله أهل العلم.

قال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٩]، الذين آمنوا هذا بيّن في حياتهم، ومن أعجب الأمور أن النفاق لم ينتهي، يعني أبو هريرة رضي الله عنه مرةً سمع النبي صلى الله عليه وسلم في جلوس، (أن فيكم رجلٌ في جهنم ضرسه كجبل أحد)، وكان يخشى أبو هريرة أن يكون هو، وذكر رسول الله صفة حتى مات الرجل وعُلم شأنه فيما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم.

وأغرب من هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر حذيفة ابن اليمان عن أسماء المنافقين وهو أمين سر النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك كان عمر رضي الله تعالى عنه ينظر إلى حذيفة إذا قام يصلي على رجلٍ جنازة صلى، وإذا لم يقم لا يصلي، حتى أنه سأله واستشهده بالله عز وجل «أذكرني رسول الله من المنافقين أم لا؟» فقال: «لا، ولا أزكي بعدك أحدًا»، أي لن أجيب أحدًا غيرك.

فدل هذا على أن النبي صلى الله عليه وسلم مات وفي الأمة منافقون، وهنا سؤال غريب جدًا يعني هم لم يروا انتصار الإسلام؟ يعني هذا سؤال دائماً يخطر على بالي، يعني المرء يشك أن ينتصر الإسلام!! لو أخذنا جهة الشك أن النفاق من جهة شك بصدق المرسل، أو الشك من جهة المرسل، فيشكون أن هذا هو رسول الله، لكن هذه الانتصارات فكيف، هل بقي حقدهم على النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه اللحظة؟ وبقي حسدهم للنبي صلى

الله عليه وسلم لهذه اللحظة؟ وبقية كراهتهم للنبي صلى الله عليه وسلم لهذه اللحظة بعد كل هذا الذي تحقق من الخير؟ وكيف هم منافقون؟

في الحقيقة كنت قبل هذه الأحداث كنت لا أفهمها، حتى رأينا هذه الحياة، ووجدنا أن حجاب رؤية يد الله عز وجل ونصرة الدين شأنها غريب، أنا أريد أن أسأل سؤال بالله عليكم، بعد أن رأينا ما فعله الله عز وجل -أنا أتكلم عن واقعنا- بعد أن رأينا في واقعنا ما فعله الله عز وجل بهؤلاء الطواغيت، ما فعله بالقذافي، ما فعله بحسني مبارك، ما فعله بابن علي، ما فعله في الأسود العنسي -علي عبد الله الصالح- أسألكم بالله يعني أما جلستم مع أنفسكم للحظات وقلتم هذه الآيات العظيمة من يجهلها؟ هؤلاء الطواغيت البقية الآن هربوا قالوا هربنا من الربيع وبقوا على كفرهم وشركهم وعدائهم للإسلام، هؤلاء أما تتفكرون بينكم وبين أنفسكم، لماذا لا يتوبون؟ رأوا آيات، أليست هذه آيات عظيمة جداً.

كيف بلحظة من اللحظات الناس يثورون ويسقطون ويفعلون ويذل من كان طاغية كبير، يقول: أنا ربكم الأعلى كالقذافي أو يقول: أنا ربكم الأعلى كعلي عبد الله صالح، أو كان حسني مبارك يرى أن أبنائه سيرثون ملكه وحكم مصر، يعني لا يستطيع أحد أن يوقفهم، لا يستطيع خلاص انتهى لو سألت أي واحد المتابعين وقلت: من بعد حسني مبارك، يقول: ابنه جمال مبارك انتهى، وكيف حدث هذا؟ هذه آية عظيمة ومع ذلك بقي الطواغيت كما هم! وكثير من الناس يشك في الإسلام مازال! ويشك في حكمة الله ويشك في قدرة الله ويشك في نصرة الدين! والدين منتصر، هذه واحدة ولا أريد أن أطيل هذه بينة لمن تفكر.

فهذه آية، لو قيل: ما هي أعظم آية حدثت في هذا العصر؟ لو قيل: انشق القمر نصفين لداعية من دعاة الإسلام، حين ناظر النصارى هل الإسلام حق أو غير حق، فقال له: النصراني لا أؤمن بك حتى تشق لنا القمر أن محمداً رسول الله، فجاء الداعية وشق القمر، والله إنما وقعت آية أعظم من شق القمر، أعظم وأبين وأوضح، في أن الله عز وجل يعجل العقوبة وينصر الدين، هذه واحدة، حتى تروا بعد أن قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ [البقرة: ٦]، هو حديث عن المنافقين في الباطن، الحديث عن كل كافر، هل المنافق كافر في الباطن؟ المنافق كافر في الباطن، فهل هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تشمل المنافق أم لا؟ تشمله؛ لأنه كافر، لأن حكمه وحقيقة حكمه هو الكفر، فتنطبق عليه، فهؤلاء لا، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٥]، هذه واحدة مما أتأملها.

وثانيًا أتأمل في قضية نصرة الله عز وجل لجماعات الجهاد، هي حقيقة، هذه جماعات صغيرة يسيرة ضُربت ضربات لا تعد ولا تحصى، وهي أكثر الجماعات ضُربت إهلاكاً وسجناً وقتلاً وتشريداً، والناس الكل أنا أتكلم الكل

حتى أصحاب هذه الجماعات نفسها، أرادوا أن يكبروا أربعًا لانتهائها، وأنت تعجب هذا الانتصار الذي يبدو بغطاء الهزيمة!

مثلاً: عندما ضرب أهل الجهاد في أفغانستان، وجاءت أمريكا بكل قواتها وانهارت طالبان وتشرد الناس وتخطفوا، تخطفهم الناس في المشرق والمغرب وفتحت غوانتنامو والسجون السرية والقتل على الهوية، أنت لا ترى إلا الابتلاء، وفي داخل الابتلاء يتقدم النصر! فالجاهل لا يرى إلا صورة البلاء، ولا ينظر إلى حقيقة الحركة أين تتجه!

لو سألنا عن جماعات الجهاد قبل الحادي عشر من سبتمبر والآن هل كانت أقوى؟ دعكم الناس الكل يشارك لكن أتكلم عن نفسها هي؟ هل هي الآن أقوى أم قبل؟ فهي في ظاهرها البلاء، وفي ظاهرها الهلكة، وهذا الآن الذي سيكشفه القرآن بعد ذلك، وفي حقيقتها النصر والتمكين.

الآن خذ هذه الصورة وارجع بها إلى ما حدث المدينة، في المدينة هل تظنون أن النصر كان يعني كما هو يصاغ في الأفلام الكرتونية؟ يعني انتصروا ورجعوا فاتحين؟ لا، رجعوا مساكين لبيوتهم ولا يوجد طعام، خربت البيوت، رجعوا من بدر ومعهم فقط شيء من الغنائم اغتنموها، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾ [البقرة: ١٥٥]، الجماعة خربت بيوتهم ولذلك قال الصحابة رضي الله عنهم بعد كل هذه الرحلة الطويلة، بعد رحلة النصر الكبير في انتشار الإسلام، قالوا: دعونا هلا رجعنا إلى بيوتنا ومزارعنا نعمرها، خراب جائعين لا يوجد طعام، انتصر الدين أم لم ينتصر؟

ونحن الآن للأسف لا نرى إلا الصورة التي تصاغ في أذهاننا، بين قوسين حقيقة كأنها أفلام كرتونية، كأن الأرض انتشرت والنصر ما شاء الله ودخل الناس فاتحون ومعهم الغنائم، لا يرون إلا البلاء، أي نصر تتحدث، هو الدين ينتشر وهذا ليس نصر عنده، الناس يدخلون في دين الله أفواجا هذا ليس نصر، هو ينظر جاء أموال، عملنا كذا، صار عندنا مثله ما عند الغرب، بيوت مبنية من زجاج، وشوارع وأموال تتدفق علينا، هو لا يرى إلا هذا، هذا الذي عنده هو ميزان النصر، ولكن لا يرى أن الله يُمّكن لدين محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩]، سيأتي لماذا جاءت هذه الكلمة العظيمة أو كصيب من السماء، ما هو الصيب؟ الصيب فيه الحياة.

فهذا القرآن فيه حياة القلوب وهذا الجهاد كما قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، الحياة، الناس في الحياة، ما هي الحياة؟ الحياة أن تكون عزيزاً ولو كنت فقير، قالوا: نرجع لأموالنا وكذا إلى أخره، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

وقالَ رجلٌ: يا رسولَ اللَّهِ أذالَ النَّاسُ الخيلَ ووضعوا السِّلاحَ وقالوا: لا جِهادَ قد وَضعتِ الحربُ أوزارَها فأقبلَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ بوجهِهِ قال: (كذبوا الآنَ، الآنَ جاءَ القتالُ، ولا يزالُ من أمَّتي أمةٌ يقاتِلونَ على الحقِّ، ويزيغُ اللَّهُ لَهم قُلوبَ أقوامٍ، ويرزقُهم منْهم حتَّى تقومَ السَّاعةُ وحتَّى يأتِيَ وعدُ اللَّهِ، والخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يومِ القيامَةِ، وَهوَ يوحي إليَّ أنِّي مقبوضٌ غيرُ ملبَّثٍ، وأنتم تتَّبعوني أفنادًا يضربُ بعضُكم رقابَ بعضٍ، وعقرُ دارِ المؤمنينَ الشَّامُ).

الآن حمي الوطيس الآن بدأ الشغل، بعد كل هذا الآن بدأ الشغل، فالناس ﴿كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩]، لا يرون في الماء النازل من السماء عطاءً ونعمةً وروحاً للحياة ونبتاً لكل خيرات الوجود، دخول الناس في دين الله عز وجل لا يرون فيه إلا ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ لا يرون من الخير شيئًا يروا التعب والمشقة، عن ماذا تتكلم أنت أي نصر؟ كل قادتنا ماتوا، كل الناس ماتوا خربت البيوت، خربت الدنيا وهكذا، يتحدثون عن هذا.

فلذلك انتبهوا لهذا أحضرت هذا الكلام، لعجبك أن تقول ألم يأن لهؤلاء المنافقين أن يؤمنوا بأن هذا الدين حق وأنه ينتصر؟ هم لا لم يروا هذا! كما أن الناس إلى الآن لا يرون! كان الناس يسافروا إلى أفغانستان ويذهبوا إلى الشيشان، واليوم الجهاد وصل إلى الجولان وليسوا مأمنين بأن فلسطين ستفتح بعد قليل!

إلى الآن لو جئت لشيخ تتحدث عن نصرة الله عز وجل لطائفة الجهاد لما رأى ما ترى، لما رأى نصرة الله عز وجل لهذا الدين أنه وصل، يا رجل ماذا تتحدث؟ بعد كل هذا، هو لا يرى إلا الخراب، لا يرى إلا رعد والبرق والظلمات ويجعلوا أصابعهم في أذانهم لا يرون إلا الخراب، وهو لا يرى نصرة الدين، لا يرى بلادًا كان سب الله وسب دينه وسب رسوله يشرب مع كاسات القهوة فتحول الناس إلى مجاهدين وتحول الناس إلى أولياء صالحين يموتون في سبيل الله عز وجل، هو لا يرى هذا، هو يرى بيوت مهدمة فقط، يرى أناس يموتون ويرى أناس يتشردون، هو لا يرى هذا، فهمتم الآن كيف يفكر المنافق؟

هو لا يرى ما يريده الله عز وجل، الله عز وجل يريد من الناس أن يموتوا على الإيمان، الناس سيموتون، ففي بلاد يموتون تأتيهم زلازل فيموتون، والله عز وجل الموت ليس شراً عنده، الموت هو قدر الناس، يموت الناس أطفالاً في المستشفيات، ويموت الناس كبارًا في الطائرات ويموت الناس في قوارب الموت بحثاً عن رغد العيش في أوروبا ويموت الناس في السيارات بالتشحيط وتفحيط، ويموت الناس كذلك في مباراة كرة القدم تصبح مشاجرات فيموت الناس، وهكذا جرت سنة الله عز وجل في هذا العالم زلازل تصبح وبراكين وفيضانات ويموت ناس بالألاف وعشرات الألاف، هذا شيء عادي في تاريخ البشرية، الذي افترق أن هناك أناس يموتون من أجل دينهم، أن الابتلاء يقع من أجل

دينهم، وأن ابتلاءً يقع في هذا الوجود من أجل إقامة حجة الله عز وجل على أناسٍ فينصرهم وعلى أناس فيخذلهم ويدمرهم، الله عز وجل لا يدمر إلا بعد إقامة الحجة.

فهمتم لماذا المنافقون لا يؤمنون حتى بعد هذه الرحلة، هم لم يروا نصراً ولا يعنيهم، يقولوا لهم: الناس آمنوا، يقولوا: نحن لا دخلنا لنا آمنوا أم لم يؤمنوا، انظر بيوتنا وخرابنا وأرضنا ومزارعنا، وأكل المهاجرون الثمار وخربوا علينا، ما زال يقول: سمن كلبك يأكلك، وجوع كلبك يتبعك وهكذا، أرجو أن يكون فيه تقريب.

قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٩]، في قولهم، طبعًا هنا المؤمنون لا ينتظرون منهم القول، لأنهم يصلون ويصومون ولكن ينتظروا منهم مصدر الخير، أن ينشأ منهم الخير، ولكن لا يأتي منهم الخير أبدًا، فيخادعون الله والذين آمنوا هكذا في ظنهم أنهم يخادعون الله، وواقع أمرهم أن فيه خداع، أنهم يظهرون ما لا يبطنون.

يقول تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩]، كيف ما يخدعون إلا أنفسهم؟ في الدنيا والآخرة أم في الآخرة فقط؟ في الدنيا والآخرة، قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ في الدنيا ذلك بأن مراد الله عز وجل هو الذي يقع في نصرة المؤمنين لا مرادهم في خذلان المؤمنين، ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ ما هو مرادهم؟ مرادهم عندما رجع ثلث الجيش أن ينهزم المؤمنون.

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢)﴾ [الفتح: ١١-١٢]، هذا ظنهم، وهل وقع خلاف مقصدهم؟ ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

فإذن في الدنيا وقع خلاف مقصدهم، هم أرادوا شيئًا والله عز أراد شيئًا آخر، وهنا أيها الإخوة الأحبة حقيقة موضوع النفاق في أغلبه في القرآن هو معالجةٌ ربانية، لا تنشأ إلا بفعلٍ إيماني، فدائماً أتسأل ويتسأل كل ناظر ما هو الحل مع المنافقين؟ فهم موجودون في داخل الصف المؤمن، أن تعزلهم لا تستطيع، أن تقتلهم ليس عندك الحجة البرهانية في قتلهم، وهذا هو سبب عدم قتلهم فيما سنبين، لماذا لم يقتل النبي صلى الله عليه وسلم المنافقون؟ لعدم وجود الحجة البيانية التي بها تقام الأحكام، هذه خلاصة الكلام، أنه لم يقع منهم ما يُشكل دليلاً للحكم عليهم في القضاء، ولذلك قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠)﴾ [الأحزاب: ٦٠]، إن لم ينتهوا بماذا؟ بإظهار نفاقهم، فهددهم بالقتل.

ولذلك يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣]، بعضهم ظن من أهل العلم أن جهاد المنافقين يكون فقط باللسان وهذا غير صحيح، بل يُجاهد المنافق بالسنن فقط إذا أظهر نفاقه، إذا لم يظهر نفاقه لا نستطيع أن نفعل معه، إلا أن نبين الدين ونخوفه بالله عز وجل، لكن هنا الجهاد الذي أمر الله عز وجل به رسوله بأن يجاهد الكافرين هو نفس نوع الجهاد الذي أُمر به الرسول صلى الله عليه وسلم بجهاد المنافقين، وهذا عندما يظهرون، لكن لما اخفوا انقطع الحكم لانقطاع الحجة والدليل الذي يقام عليهم.

وقد يقول قائل: كل ما قالوه هذا لا يشكل دليلاً؟ لا، لا يشكل دليلاً، كل ما قيل في القرآن لا يشكل دليلاً، نرجع إلى قضية ثلث الجيش ثم نأتي لبعض الآيات، عندما رجع ثلث الجيش يعني بعد المعركة وعودة النبي صلى الله عليه وسلم وقتل سبعون صحابيًا في معركة أحد، فلو قيل للمنافقين لماذا رجعت؟ يقول: ألم ترى أن قولي كان هو الصواب، هذه حجة المنافقين، أنا قلت لكم، وهذه كلها سورة «آل عمران» تدور حول هذا النوع من النفاق الذي جرى في غزوة أحد، كلها يدور حول هذا إذا قدر الله نصل إليها، كله يدور حول نحن قلنا لكم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨]، والدليل هذا ما وقع أنه خرجتم فحدث معكم ما حدث، ولو أطعتمونا بعدم الخروج والامتناع في المدينة حتى يدخل علينا كفار قريش فنقاتلهم في داخل المدينة لانتصرنا عليهم، لكن أنتم لم تطيعونا، هذا ماذا ستقول له؟ له حجة فيما يدافع عن نفسه.

لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك وتخلف المنافقون، جاؤوا يعتذرون إليه، ليس لدينا مال ليس لدينا ركوبة ... إلخ، والنبي ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، ماذا يصنع معه، وهو يعلم الله عز وجل أخبره وهناك من يعلمهم، وهناك من لا يعلمهم، كما في السورة فهناك من المنافقين من يعلمهم النبي صلى الله عليه وسلم هناك من لا يعلمهم، فكيف يحاج هؤلاء؟!

ولما قال عبد الله بن أبي لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، والناس يعرفون لكن لو ذهب إلى القاضي لاستطاع أن يحور المعنى بحسب مراده، فلا يوجد دليل واضح بأنهم كفروا، حتى إذا كفروا أخذوا، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم علل عدم قتلهم بقوله: (حتى لا تقول العرب أن محمداً يقتل أصحابه)، أي لا يوجد دليل أنهم كفروا، فلو كان هناك ثمة دليل على كفرهم، لما قالت العرب محمد يقتل أصحابه رجل خان وغدر وكذا، فبان يقتله، النبي صلى الله عليه وسلم لم يتوقف عن قتل من قامت عليه الحجة بالقتل، ثم قال: لا أقتله مخافة أن تقول العرب أن محمداً يقتل أصحابه، لأن العرب لا يستطيعوا أن يقولوا هذا والسبب هو ظهور الحجة والبيان على هذا أنه قتله بأمرٍ واضحٍ بينٍ لا يمكن أن يناقش فيه الخصم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩]، متناول في الدنيا أنه جاء على ضد قصدهم، وأنواع النفاق كثيرة في القرآن، يعني هذا يطول الحديث عنه، وكلما جئنا إلى آيةٍ نبين معناه، وسورة «البقرة» تبين لنا في هذا الموطن نوعين من النفاق سيأتي بيانهما إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩]، وفي الآخرة، في الآخرة ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣)﴾ [الحديد: ١٣]، ﴿وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ﴾ من قبل المنافقين، من داخله هو يراه أنه رحمة وفي داخله العذاب، هذا ظاهر وباطن مختلف، وهذا يعادل المنافق، المنافق كما أنه في الدنيا كان ظاهره خلاف باطنه، فيعاقب يوم القيامة بالتعامل معه على هذا الأساس، على أن الباطن خلاف الظاهر، ولذلك خدعهم، يخادعهم.

ومن خدعهم ما تقدم للحديث، لما يتبع الناس طواغيتهم التي عبدوها من دون الله يبقى هؤلاء، فهم ماذا يقولوا؟ نجونا، في أمل، ولذلك هذا من الخدع، حتى إذا اقتربت الجنة واقتربت الرحمة قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، كان عذابهم أشد العذاب، وهذا من الخداع، ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩]، لا ينقلب خادعهم إلا على أنفسهم بأن لا يتحقق لهم مرادهم في الدنيا أرادوا النجاة والعز فلم يأخذوه.

ومن أعجب ما وقع أن المنافقين دائماً حتى الذين استخدموهم احتقروهم، يعني ابن العلقمي الشيعي الرافضي هو الذي فتح بغداد للتتار، من أجل أن يولى وأن يملك وأن يصبح مقربًا عند التتار، ماذا فعلوا به؟ قتلوه، يعني المنافق لا يُحب حتى من خصمه.

يقال: إن إعرابياً مر على رجل معه حجلة، حمامة ذكية فينصب الشباك –الشرك– ويضع الحجلة فوق الشِباك، فتجعل الحجلة تصيح فتجتمع عليها أخواتها، فتنزل فلما تنزل يصيدها الصياد، والإعرابي ينظر بعد أن انتهت عملية الصيد قال الأعرابي: للصياد أتبيعني هذه الحجلة التي هي الماكرة هذه الخادعة، فطلب منه ثمناً غالياً، الإعرابي دفع ثمنها غاليًا وأخذها ثم ذبحها، الصياد تعجب! قال: يا مجنون هذه حجلة مدربة، قال له: هذه نتيجة من خان أهله.

فهؤلاء حقيقة في التاريخ لم يحصل قط أبداً أن المنافق صار له شأن، في التاريخ المنافق لم يحصل له الشأن ابدًا، بل كان ذليلاً مهاناً، وهذا وقع ممن باع نفسه للطاغوت وباع نفسه لأعداء الأمة ثم بعد ذلك أخذوه مثل الفأر ورموه لا قيمة لهم، «الذي يأتي بدينار يذهب بدينار ونصف»، هم يعلمون هذا، فهذا وقع، المنافق كالساحر، يقول أبو بكر بن العربي رحمه الله: لو كان الساحر صادقاً لكان أثرى الناس، ويقول باستقراء يتكلم على السواحر القدماء، اليوم طبعاً بسبب السينما وكذا، ليس بسحرهم يأتون بالمال، بسبب عرضهم وتمثيلهم، كالممثلين فليس بسحرهم،

يقول: لو كان الساحر صادقاً لكان أغنى الناس، وقد استقرأنا التاريخ فوجدنا أفقر الناس هم السحرة، أفقر الناس السحرة قديمًا.

فلذلك في هذا اليوم نقول لو استقرئنا التاريخ: لرأينا أكثر الناس ذلة ومهانة هم المنافقون، أكثر الناس ذلة المنافق الذي يبيع نفسه وهؤلاء كالأحذية يستخدمون من أعداء الله ثم ينتهي بهم المقابر إلى الذلة وحين ينتصر الإسلام وينتصر أهل الإسلام يصبح الحقد أشد وأكثر على أهل الإسلام لما جاء من خلاف من مقصدهم.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩]، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾ [البقرة: ٩] وفي هذا دليل على أمر وهو أن الله سبحانه وتعالى يعامل أمثال هؤلاء بمكرٍ خفيٍ لا يدركوه، بل لو سألتني أيدركه أهل الإيمان؟ لأجبتك حتى أهل الإيمان لا يدركونه، ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾ في أفعالهم هذه سيقع خداعهم بطريقة لا يعرفونها، ولا يدركونها وحالهم كحال من يشرب السم ويظن أنه يشرب الدسم، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وهذا من تمام خداع الله لهم، هم يظنون شيئًا فيوقع الله عز وجل خلاف أمرهم قال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ هذه تعود على وما يشعرون كيف يقع خداع الله عز وجل لهم، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

الشيخ: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن النفاق الذي كان يخشاه الصحابة والتابعون هو النفاق الأصغر»، يقول هذه الكلمة وذكرت هذا في مبحث النفاق في إحدى أعداد مجلة «المنهاج»، يقول هذا ويعني يحتمل هذا وهذا، هذا الجزم لو كان هو النفاق الأصغر لما خشيه وربما اتهم نفسه به على أساس أنه هذا يمكن أن يقع من الإنسان، فيمكن هذا ويمكن هذا، لكن على الأغلب أن النفاق الذي كان يخشاه العلماء والصالحون والصحابة قبلهم جميعاً إنما هو النفاق الأصغر.

وفي هذا كذلك بيان على أن المرء قد لا يكون جازماً لمعتقده أو صادقاً مع معتقده هذا هو الأصوب، يعني المرء لا يستطيع أن يجزم أنه صادق مع ما يعتقد، أنه صادق، مع كل ما يبذل، الله عز وجل في بداية إرسال رسولنا صلى الله عليه وسلم مما حمله من العلم ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦)﴾ [المدثر: ٦]، هذه الآية من أوائل ما ينبغي أن يحملها الداعي بعد أن يقوم فيحمل هم الدعوة همًا حقيقياً ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢)﴾ [المدثر: ١-٢]، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)﴾ [المزمل: ١-٢]، ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾، فإذا استكثر المرء اطمئن، وإذا استقل بقي خائفًا.

السائل: ذكرت أن أكثر أنواع النفاق يكون بالإرادات وليس بالاعتقاد، لماذا إذًا لم يذكر بالسور المكية مع وجود صراع إرادات يوماً؟

الشيخ: سؤال غريب، لأن صراع الإرادات وهو صراع إرادات، صراع الإيمان والكفر موجود في كل وقت هو يكون في الابتداء في مكة والمدينة في كل زمان، الإيمان هو صراع، هو انتصار إرادة الإيمان على إرادة الكفر، والكفر هو انتصار إرادة الكفر على إرادة الإيمان، السبب أن إرادة الكفر التي انتصرت في مكة لم تؤدي إلى النفاق أدت إلى الكفر، في المدينة إرادة الكفر التي في القلب انتصر الكفر ولكن غطاه بالنفاق، لأنه خاف ظهور الإيمان أو رجا أن يصيب بعض مصالحه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن المنافق: (مَثَلُ الْمنافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ العائِرَةِ بيْنَ الغَنَمَيْنِ؛ تَعِيرُ إلى هذِه مَرَّةً، وإلَى هذِه مَرَّةً)، الشاة العائرة تعير عند هذا مرة وعند هذا مرة.

فالقصد: أنه لا، صراع الإرادات في مكة وقع، لكن لما انتصر الكفر في قلبه أعلنه لأنه ليس هناك مصلحة من إخفائه فقط.

السائل: إذا كان سبب عدم قتل المنافقين عدم وجود بينة ظاهر ألم يجلي النبي صلى الله عليه وسلم بني النضير بل بخبر من السماء؟

الشيخ: الحديث عن منافقين أولاً، بما أجل النبي صلى الله عليه وسلم بني النضير لماذا أجلاهم؟ بني قينقاع في قضية المرأة، مع ضعف هذا الخبر، لكنه في مجال السيرة يحتج بهذا، أن المرأة ذهبت إلى بني قينقاع لتشتري ذهباً أو تبيع ذهباً من الحلي، لأن اليهود يعني هذه تجارتهم، فربط ذيلها فقامت المرأة فانكشفت عورتها وصرخت، فالنبي صلى الله عليه وسلم أجلاهم.

وبنو النضير بماذا أجلاهم؟ ذهب النبي صلى الله عليه وسلم وعاقدهم وعاهدهم وسالمهم، فذهب النبي صلى الله عليه وسلم إليهم من أجل أن يشاركوا في الدية، لأن الصلح قام بينهم على هذا أن يشاركوه، فقام الناس ووضعوا الحجر ليقتلوه، فهذا الذي يقوله الأخ السؤال فأجلاهم بخبر السماء أنهم أرادوا قتله، هؤلاء كفار مشركون، والله عز وجل ماذا قال له؟ قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)﴾ [الأنفال: ٥٨]، فجعل أمر قتال الكفار على هذا المعنى، وليس على معنى المنافقين، للمنافقين معاني أخرى، والله تعالى أعلم.

السائل: شيخنا نريد المرجع الذي ممكن أن نأخذ منه إجماع الصحابة في حكم تارك الصلاة؟

الشيخ: المرجع موجود، يعني أعطيك إياه إن شاء الله لكن المرجع مشهور ومعروف، لم يجمع الصحابة على شيء تركه كفر إلا الصلاة.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثالث والعشرون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

هذا هو الدرس الثالث والعشرون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة»، وصفات المنافقين حيث قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾ [البقرة: ٨-٩]، أريد فقط أن أنبه إلى مسألة علمية فمن المهم التنبيه عليها لطلبة العلم، وهو أن هناك من نسب إلى طائفةٍ من طوائف المرجئة وهم الكرَّاميَّة ما يخالف الاعتقاد التي تدل عليه هذه الآية، هذه الآية تدل على أن قول اللسان لا يكفي لتسمية الرجل مؤمنًا ولا للحكم عليه بالإيمان.

فموضوع الأسماء والأحكام من أجّل المواضيع التي يجب على طالب العلم أن يتعلمها، متى تطلق هذه الأسماء، وماذا يترتب على هذه الأسماء من أحكام، وابن القيم رحمه الله في «بدائع الفوائد» يقول: بأن عامة الضلال ينشأ من عدم فهم الأسماء لأن ما بعدها يكون أكثر ضلالاً، بمعنى إذا ضل المرء في الأسماء ضل في الأحكام، يعني عندما نقول عن الرجل: مؤمن، فهذا يترتب عليه حُكم، وإذا قلنا عنه: منافق يترتب عليه حُكم، وإذا قلنا: زانٍ يترتب عليه حكم، فهذه الأسماء يترتب عليها أحكام، والأسماء هنا المقصود بها أوصاف، فهذا بابٌ عظيم.

فأول بدعة حدثت في الأمة تتعلق في هذا الباب وهو اسم الإيمان، على ماذا يطلق؟ وعلى من ينزع؟ وبالتالي موضوع الأسماء والأحكام مهم، وبهذا خرجت الفرق، يعني خرجت الفرق في أمتنا عن مسمى الإيمان هناك عندنا خوارج، هناك عندنا مرجئة، وهناك عندنا أهل السنة، وضلوا في القدر في إثبات القدر لله عز وجل، فهناك عندنا القدرية هناك عندنا الجبرية هناك عندنا أهل السنة وسط، وهكذا فموضوع الأسماء موضوع مهم، هناك من ينسب للكرَّاميَّة، والكرَّاميَّة أتباع محمد بن كرَّام السجستاني، هذا رجل عظيم له أقوال نصر بها أهل السنة أمام الزنادقة لكنه وقع في موضوع التأويل، وشيخ الإسلام وهو من أئمة التحقيق، يقول: بأن أبا الحسن الأشعري رحمه الله عامة ما أخذه، أخذه عن ابن كرَّام السجستاني.

ما يهمنا هنا ليس هذا الباب يعني لسنا هنا في درس يتعلق بالفرق والطوائف، لكن من حق أي مسألةٍ علمية فيها اختلاف بين أهل الإسلام أن نبين الوجه فيها، موضوع الإيمان ومن الناس من يقول هناك من زعم ونسب في

كتب التفسير وغيرها من كتب الفرق، أن فرقةٍ من فرق المرجية وهي الكرَّاميَّة، هذه تقول: «بأن اسم الإيمان يطلق على الرجل حيث قال الكلمة ولم تتحقق في القلب»، يعني هذا يخالف هذه الآية، كما ترون يخالف، الآية تقول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)﴾ [البقرة: ٨]، فنفى عنهم الإيمان حيث لم يتحقق وجود الإيمان في القلب، الحقيقة أن نسبة هذا المذهب إلى طائفةٍ من طوائف الإسلام لا وجود لها، ونسبة هذا المذهب للكرَّاميَّة غير صحيح، يعني الكرَّاميَّة لا يقولون بهذا، ولا أحد من طوائف الجهمية قال بها، ولو قال بها أحد لكفر، يعني لو قال أحد بأن اسم الإيمان يطلق على من قال كلمة التوحيد حتى لو لم يوجد الإيمان والشك بالله بل جحد الإله فهذا يكفر، وهؤلاء لا وجود لهم في الأمة.

وإنما هنا ننبه على مسألة من مسائل كتب الفرق أن الكثير مما ينسب لكتب الفرق إنما ينسب لهم على جهة الإلزام لا على جهة التثبت ولا على جهة التبني، بمعنى أنهم يتصورون أن هذه الفرقة يمكن لازم لقولها الذي تقول به في باب أن يلزمها أن تقول بهذا القول، وهذا يقع فيه ابن حزم أنا أنبه كما نبهت في درس سابق ليس في التفسير على أهمية إعطاء طالب العلم مفاتيح كتب الفرق، ذكرنا هذا في درسٍ فائت.

فهنا انبه على أن «الفِصل» لابن حزم يخطئ فيه كثيرًا، في نسبة المذاهب لأصحابها، هو يقرر مذاهب الحق السنة في مسألة الإيمان والقدر إلا في مسألة التعليل فيخطئ فيها، ومسألة الصفات يخطئ فيها يؤول لكن ابن حزم يخطئ كثيراً في نسبة المذاهب لأصحابها، يخطئ كثيرًا وينبغي عدم أخذ القول منه في نسبة الأقوال لأصحابها، يعني ينسب كلام للباقلاني وهو ليس للباقلاني، وبالتالي الذي يريد أن يقتدي به في تكفير أقوال قالها الباقلاني لا ينصره هذا، لماذا هذا الخطأ وقع فيه ابن حزم أبو محمد رحمه الله هذا الذي لقب بمنجنيق المغرب؟ وقع فيه لأن كثيراً مما وصله عن المذاهب وصله سماعاً ولم يطلع على كتبهم، يعني يقولون هذه المذاهب كذا ويلزمونهم بأقوال فيقع هذا الخطأ منه، ويبدأ يرد عليها وهي ليست أقوالهم.

وفقط أريد أن أنبه على أنه لا يوجد أحد من أهل الإسلام خالف هذه الآية لا في معناها ولا في لفظها، طبعاً مخالفة لفظها معروف كفر ولكن أن يقع الخطأ في تفسير آية هذا يمكن أن يقع فيه العالم، لكن هذه الآية لوضوحها ولأنها نص في المسألة لا يخالف فيها مسلم فنسبة مذهب الإرجاء في هذا الباب، الإرجاء يعني إرجاء الإيمان العملي القلبي عن تسمية الإيمان، يرجئ يعني يزال هنا بمعنى الإزالة، فإرجاءه في هذا الباب لا وجود له، فقط أريد أن أقف هنا لنتابع، وهذا أنصاف لمذاهب أهل العلم.

الله عز وجل يقول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)﴾ [البقرة: ٨]، وبيّنا أن قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أبلغ من قوله: ﴿مَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ [البقرة: ٨٨]، كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ﴾ [البقرة: ١٦٧] أبلغ من قوله: ﴿لَا يُخْرَجُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥]، وهذا بين فيما قلناه.

وقوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ [البقرة: ٩]، تكلمنا بأن هذا في ظنهم، وإلا فالله لا يُخدع، لأن الله عز وجل يطلع على القلوب، طيب فهل هؤلاء المنافقون يصل غباؤهم وكفرهم وجحدهم لله ولعلمه بأن يظنوا أنه يمكن أن يُخادعوا الله؟ يقع هذا الغباء يقع ولذلك حتى يوم القيامة قال الله عز وجل ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨]، فيقع منهم هذا يوم القيامة يحلفون لله عز وجل كما حلفوا للمؤمنين، فيقع هذا المعنى أنهم يستخفون من الله، فالخداع منهم يتصور وهذا من جهلهم، ومن جهالتهم بربهم وبعلمه.

أيها الإخوة الأحبة وهنا أنا كما شرحنا سابقاً بأن النفاق الاعتقادي ليس فقط يطلق على النفاق الأكبر، يمكن النفاق الاعتقادي أن يكون أصغراً بمعنى أن يقع فيه التردد والشك في قبوله، مرةً يؤمن ومرةً يخرج كما سنبينه في إحدى نوعي النفاق في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩].

فهم يخادعون أي في ظنهم، وبعض أهل العلم قال: لما خدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ظنوا أنهم يعني أطلقت على أن خداع رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خداع لله عز وجل وهذا قد تقدم.

قال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٩]، وخداعهم للمؤمنين: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤)﴾ [البقرة: ١٤]، وسيأتي شرح ذلك، قال بعض أهل العلم: هو قولٌ قوي أي اليهود ستأتي فوائد هذه الآية، إذا خلوا إلى اليهود قالوا: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، أي إلى أعداء الدين، فهم يخادعون المؤمنين بأنهم معهم وأنهم على دينهم ومذهبهم وعلى نصرتهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩]، تقدم كيف يخدعون أنفسهم في الدنيا وفي الآخرة، يخدعون أنفسهم في الدنيا بأن ينقلب ضد مقصدهم عليهم يريدون خذلان الإسلام فالله ينصره ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ ويكون وجودهم سبباً لنصرة الدين، وتكلمنا عنها.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾ [البقرة: ٩]، كلمة الشعار وما يشعرون هي أخذت من الشعار والشعار معروف ما هو، الثياب التي تلي البدن تسمى الشعار، ومنه أخذ الشعر، يعني الشعار هو بين معناه، وأنت تقول عن الشيء إذا رفعته شعاراً، أي البين الظاهر، فاستعيرت وأخذت هذه الكلمة من هذا المعنى وهو الشعار لأن تفطن المرء للمعاني كأنها شعارًا لعقله بأنه يفهم، فيقال فلان يشعر بمعنى ماذا؟ بأن له تفطن لما يقال له أو يتفطن لما يرى من معاني فهذا الرجل لما يتفطن به فسمي شاعرًا، ومن هنا فالذي يبلغ في هذا التفطن يقال له: شاعر، كلمة شاعر أصله من الشاعر الذي يشعر لماذا؟ لأنه شاعر، لأنها دلالة أي هذا الذي يفعله دلالة على تفطنه على المعاني، فهذا هو أصلها على كل حال، وصارت كلمة شعور صارت تعبر عن أدنى ما يعبر عن حياة المرء.

وبالتالي سنرى لماذا الله سبحانه وتعالى قال عند الفساد: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾ [البقرة: ٩]، وعند العلم قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾ [البقرة: ١٣]، سنرى لماذا فرق بين الموطنين، قال في الأولى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ والثانية: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، فالشعور يتعلق بالإحساس والعلم يتعلق بالإدراك وهذا سنبينه فيما سيأتي.

وهذا تطمين للمؤمنين كما ترون أنه لما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ [البقرة: ٦]، هو يخاطب المؤمنين ولا يخاطب الكافرين، وهنا لما يقول: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ إلا أنفسهم هو يخاطب المؤمنين فهي تطمين للمؤمنين، هي تطمين لكم لا تهتموا، يعني لا تقيموا لهم الشأن العظيم بحيث تعظمون شأنهم وكأن مكرهم وكيدهم سيقع في هذه الدنيا، لا، هو سيقع كيدهم ومكروه عليهم، فأنتم اطمئنوا وهذا الذي وقع في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ووقع بعد ذلك، لم يقع قط أن المنافقين جاء أمرهم على مرادهم حتى وهم ينصرون الكفرة، كما رأينا دائما هم ينصرون الكفرة، فالكفرة بعد ذلك ينتقمون منهم لأنهم يرونهم خائنين لأمتهم فتسقط قيمتهم عندهم، فذلك في قول الله عز وجل: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾، هذا تطمين للمؤمنين.

قوله تعال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، هنا أطلقها على الكفرة في الباطن، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ما هو المرض؟ هي علة تمنع الآلة من أداء ما وضعت له أو صنعت له، ولذلك يقال: مرض، يعني عندما قلنا العين تمرض فإنها تؤدي إلى عدم أدائها لما خلقت له لما صنعت له الرؤية، الأذن تمرض فيقع فيها ضعف السماع، لما صنعت له، واليد كذلك والرجل وهكذا، وحاسة الشم فالمرض علة، تلحق كل شيء، وهنا الله عز وجل جعل مرضهم في قلوبهم.

الآن القلب هو محطة لأمرين هو محطة للعقد ومن قلنا الاعتقاد من العقد، وكذلك محطة الإرادات، القلب هو الذي تنشأ به الإرادات، ما الذي يُنشئ الإرادة للصلاة؟ القلب، ما الذي يُنشئ الإرادة للصدقة؟ القلب، ما الذي يُنشئ الإرادة لقيام الليل؟ القلب، فالقلب يمرض عندما يمرض القلب فبعد ذلك تتعطل أعماله، أي تتعطل أعماله من العلم والعمل، ففي قلوبهم مرض.

وهذا المرض قد يخرج المرء عن حد الأداء التام، ولو كان فيه نوع حياة يعني يمكن اليد تتحرك قليلاً، ولكن لا تستطيع أن تحمل شيئاً ولا أن تدفع حتى الذباب عن وجه صاحبها، فهذا مرض فهنا أنبه على نقطة مهمة لا يوجد شيءٌ في الوجود له مرتبة واحدة، الله عز وجل لم يخلق شيئاً إلا مركبًا، هذه قاعدة يجب أن تفهمها في الشرعيات وفي الكونيات كل شيءٍ خلقه الله عز وجل مُركبًا، الصلاة هل هي شيءٌ واحد؟ فيها قرآن فيها قيام فيها ركوع فيها سجود فيها أعمال القلب، أعمال القلب من الخشوع، هل هو مرتبة واحدة؟ الدين الذي بعث عنه النبي صلى الله عليه وسلم في إسلام في إيمان في إحسان، هل الإحسان مرتبة واحدة، كل واحد من هذه المرتبات هو مراتب، فكل شيءٍ مركب في الوجود.

ولما نقول مرض ينبغي أن نفهمه أنه ليس مرتبة واحدة، هذا من الأخطاء التي وقع فيها كثير من العلماء، كثير من الذين يتكلمون في الفرق، يتكلمون في القرآن، يتكلمون في المصطلحات، ظنوا أن الأشياء يمكن أن تكون على مرتبةٍ واحدة وبالتالي رتبوا عليها أحكامًا، كالإيمان عندهم مرتبة واحدة، وهذا غير صحيح، وكذلك النفاق ليس مرتبة واحدة.

فهنا المرض جعله الله عز وجل كفرًا، قال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، ومن هؤلاء الذين في قلوبهم مرض؟ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)﴾ [البقرة: ٨]، فنفى عنهم الإيمان.

وهنا أريد أن آتي إلى مسألة مهمة جدًا من مفاتيح القرآن: أن ينفي الله عز وجل الإيمان مسألة، وأن يجعل عملاً من أعمال الشريعة إيمانًا مسألة أخرى، عندنا لفظان يستخدمان تقريبًا للدلالة على حالةٍ واحدة، الله يقول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١)﴾ [الأنفال: ١]، بعدها قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، فجعل للإيمان أوصاف، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]، فجعل للإيمان أوصاف.

إذن هذه مسألة يجب أن تفهمها، هذه الأوصاف التي تذكر للإيمان لا يشترط أن تكون لا من أركان الإيمان ولا من واجباته قد تكون من مستحباته، وإن كان الأغلب هي من الأركان والواجبات، فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، هذه ليست من واجبات الإيمان وليست من أركان الإيمان، بمعنى لو أن الإنسان ذكر الله فلم يحصل في قلبه الخوف والوجل عند ذكره لا ننفي عنه مرتبة الإيمان الواجب، هذه مهمة.

إذن إثبات خصلةٍ من الخصال أنها من الإيمان تحتاج إلى دليلٍ أخر لمعرفة مرتبتها، لكن لو سأل رجل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]، هذا من أي مرتبة، هل هو من أركان الإيمان أم واجباته أم مستحباته؟ هذا ركن، فُذكر هذا وصفٌ للمؤمن أنه ركن وذكر هذا وصفٌ المؤمن وهو مستحب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]، ثم قال: ﴿وَجَاهَدُوا﴾ [الحجرات: ١٥]، والجهاد واجب وليس ركن، بالرغم أن الأولى ركن، فجمع بين أمورٍ على مراتب مختلفة وهي كلها من الإيمان وهذا حق، يعني عندما يقال: المؤمن الذي يفعل كذا، لا يدل هذا اللفظ على أن هذا الفعل لا واجب ولا مستحب ولا ركن، إنما يعني أنه جزءٌ من الإيمان، ومعرفة مرتبته في الإيمان تحتاج إلى دليلٍ آخر، نحتاج إلى دليل آخر نبحث عنه حتى نعرف ما مرتبة هذا الفعل من الإيمان.

إذن إثبات صفة خِصلة من خِصال الإيمان أنها من الإيمان تحتاج إلى دليل لمعرفة مرتبتها ليس مجرد وجودها في الإيمان أنها واجبة أو ركن ولا مستحب فلابد أن ننظر فيها، وحينما يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة)، هناك شعب منها ما هي ركن وهناك شعب ما هي واجب وهناك شعب ما هي مستحبة هذا بيّن.

ولكن إذا جاء في الكتاب والسنة نفي الإيمان بسبب تخلف فعلٍ فلا يمكن إلا أن يكون إما واجباً أو ركناً، إذا جاء في الكتاب والسنة لفظ نفى عن فاعلٍ أنه مؤمن، أو رفع عنه وصف الإيمان لتخلف في هذا الفعل فدل على أن هذا الفعل لا يمكن أن ينزل إلى مرتبة المستحب لا يمكن، إما أن يكون ركناً أو يكون واجباً.

ومثال إذا نفى عنه الإيمان: كقوله صلى الله عليه وسلم: (لا إيمان لمن لا أمانة له)، هذا نفيٌ يدل على أن هذا الفعل الذي أُشترط وجوده لإثبات الإيمان وتعطله نفع للإيمان أنه واجب أو ركن، لابد أن ننظر هناك أدلة أخرى، لكن لا يمكن أن ينزل إلى مرتبة المستحب.

وهناك من المتأخرين للأسف من جعل هذا الذي ذكرناه من المسألة الثانية جعل نفي الإيمان يمكن أن يقع على ترك مستحب، فيقال: ينفى عنه الإيمان الكامل للمستحب، وهذا غير صحيح، هذا قولٌ أحدث متأخراً ولا يرضاه أهل العلم ولا يوجد له شاهد على ما يقوله، إذن فرقنا بين الإثبات والنفي، من أشد الإثبات أو النفي؟ النفي، النفي أشد، إثبات أن هذا شيء من الإيمان كقولك: إن الشعر من البدن من الإنسان، لكن تقول: هذا ليس إنساناً دل على ذهاب شيءٍ مهمٍ فيه، إما أن يكون ركنًا كمن قطع رأسه يقول: انتهى هذا لم يعد إنساناً، وإما أن تقلع عينه فيقول هذا لا إنسان لمن لا عين له، لا إنسان، فالنفي أشد.

هنا نرجع إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)﴾ [البقرة: ٨]، على ماذا دلت؟ دلت على أن ما تخلف إما ركنٌ أو واجب، وهنا ركن بلا شك أنه ركن، فالنفي عن هؤلاء أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر؛ فدل على أنهم ليسوا بمسلمين.

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، إذن المرض –ورجعنا إلى ما كنا فيه– ليس مرتبة واحدة بل مراتب، إما مرض كأن تأتي إلى رجل وهو في فراشه لا يستطيع الحراك تقول: مريض، وأنت تقابل الرجل يمشي ويعمل ويتحرك وتقول له ما شأنك، يقول لك: والله مريض، عندي انفلونزا عندي إرهاق شديد ولكن يتحرك يأتي بأعمال، فالمرض مراتب، وليس مرتبة واحدة، ولذلك لما نسب الله عز وجل إليهم هنا ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، هذا المرض الذي أذهب وصف الإيمان عنهم.

فهل يمكن أن يكون عندهم بعض إيمان؟ هو يقول: مرض يعني لم يقل موت، كما قال سبحانه وتعالى عن الكافرين: ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢)﴾ [الفتح: ١٢]، البور التي لا تنبت خيرًا، خلاص قاحلة لا تنبت خيرًا، لكن هذا

المريض يمكن انتبهوا لهذا يمكن لأنها مهمة وهي إحدى المباحث اليوم، لأننا كما قلنا بأن سبب عدم إقامة حكم الردة على المنافق عدم وجود الدليل القاطع بأنهم مرتدون، انتهينا منها هذه، لماذا لم يقم النبي صلى الله عليه وسلم حكم الردة عليهم؟ لأنهم لم يأتوا بردة، لما أتى بعضهم بالردة أقام عليهم الحكم، كعكل وعرينة ولم يقل بأن العرب ستقول محمد يقتل أصحابه عليه الصلاة والسلام، لأنهم أتوا بأمرٍ لا يمكن لأحد أن يلعب به أو يحمله على غير المعاني.

لكن لما هؤلاء يأتون بخفاء فأمرهم يخفى على الناس، وعلى العرب حتى على الصحابة رضي الله عنهم، قد يقع في قلوبهم التشويش، لماذا يقتلهم؟ وهؤلاء نراهم يصلون معنا ويقوم أحدهم بعد الخطبة وبعد الصلاة ويقول: هذا محمد رسول الله من أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار، هكذا كان يقولون، لكن ليس هذه هي العلة التي جعلت هذا ينطبق عليهم وقوله صلى الله عليه وسلم: (لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ)؛ ذلك لأن بعض النفاق هو ذهابٌ وإياب، كما سيأتي قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ١٩-٢٠]، إذن هم في لحظة نور ولحظة ظلام، فهذه اللحظة التي هم فيها كيف يكونون؟ وبالتالي الحكم عليهم في الدنيا متعذر، وربما يموت الواحد منهم على الإيمان وربما يموت وهو في لحظة الكفر، على الكفر والشقاق.

إذن أرأيتم ليس فقط من أجل الآخرين، عدم الحكم عليهم بالقتل ليس من أجل الآخرين، لأن بعض أنواع النفاق يصعب الحكم عليها حكمًا تامًا يقينيًا قاطعًا، رأيتم جلال هذا الكلام في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، يعني يمكن هذا المرض أن يزول للحظة فينشط الصالح من العمل، ويمكن أن يبقى على حاله هذا المرض الذي وصفناه في حالة الشلل هو فقط يتنفس نفساً لكن لا يمكن أن يقوم بعملٍ من الأعمال، ويمكن للرجل أن يقال عنه مريض وهو ميت لا حياة فيه البتة، لماذا؟ لمآله أو لقربه والشيء إذا اقترن بالشيء قد يطلق عليه اسمه، في اللغة الشيء إذا كان قريباً من الشيء يطلق عليه اسمه، ومن أدلة ذلك أن العرب يمكن أن تقول: فلان عاش عشرين سنة، وهو لم يعيش عشرين سنة، هو عاش سبعة عشر سنة! فلماذا قالوا: عشرين؟ لأن الشيء إذا اقترن به يلحق به، وهذا من لغتهم.

فإذن يمكن للرجل المريض أن يقال عنه: ميت لأن الحالة واحدة ولأن الشيء يؤدي إلى مستقره، فالمرض يؤدي إلى الموت، كقوله: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦]، وهو يعصر عنبا.

هنا إذن علمنا المرض على ما تجلى لنا وفي قوله تعالى في سورة «الأحزاب»: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، والواو مجمع عليها عند أهل العلم الواو تفيد التغاير، ليس ممكن تفيد نفس المعنى، إذا جاءت الواو لابد من وجود المغايرة، أما الترتيب والتعقيب هذا لم يثبت منه شيء، فقط الواو مجمعٌ عليها أنها تفيد

التغاير، فقوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾[الأحزاب: ٦٠]، وهنا ميز بينهم، فدل على أن الذين في قلوبهم مرض، حالة أخرى غير الحالة التي نحن فيها من قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، فليس مجرد وصف المرض يدل على وصف الحالة، كما نرى هذا في هذه الدنيا ليس كل ما يقال عنه مرض يدل على نفس المعنى في ذهن السامع، لابد بعد ذلك أن يقول له ما مرضك؟ كيف هو؟ ... إلخ.

لكن هنا نحن ننبه على قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ على أن الوصف جاء للقلوب، ما جاء للسان لأنهم أين قال؟ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)﴾ [البقرة: ٨]، فلو سأل سائل أين وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ؟ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، فدل هذا على عدم وجود الإيمان في القلب، نحن تكلمنا سابقًا بما يغني لماذا يسمى القلب أنه يعقل ولماذا تنسب الأفعال إليه.

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، طبعًا إخواني الشيء إما أن يكون بسبب شلله في ذاته، وإما أن يكون لقلة إمداده، المرض بما ينشئ؟ إما لشيءٍ في ذاته وإما لقلة امداده، ومن هنا فهناك أناس ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)﴾ [الأنفال: ٢٣]، وهؤلاء تقدم قول الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ [البقرة: ٦]، هنا أين المرض فيهم؟ في أساسه، فلو جاءت عليهم أنهار الدنيا ما نبتت، لأنها كالماء تصب على الصلب، (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل أرض)، فشبه القلوب في تلقيها للهدى القرآني والهدي النبوي بالأرض، إما أرض لا تمسك ماءً ولا تنبت شجرة مثل الصخر، لو صببت عليها الماء لا تنبت ولا تلين هي صلب لا تزداد إلا صلابا، مثل صخر السيل الماء زاده صلابة، تأتي عليه الهداية فينكرها فيزداد صلابة.

فهذا علته في أصله، وهناك أناس إنما حصل عندهم المرض بسبب عدم إمداد القلب بما يحيه، وهذا هو الأغلب في الناس الذين نراهم، لأنهم يتركون الصلاة، يتركون الزكاة، يتركون ذكر الله ويتركون قراءة القرآن ويتركون الأعمال الصالحة، فإذا تركوها حصل النفاق، حصل المرض، وخروجهم من هذا المرض هو بمد قلوبهم بما يحيي هذه القلوب، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، هذا القرآن روح، والروح هي التي تحرك البدن فلو خرجت الروح لمات البدن، وهذه الروح لا تحيا إلا بروحٍ لها وهو القرآن، فالقرآن هو روح الروح التي تُحيا بها الروح، والروح هي التي تحيي البدن.

إذن كيف يخرج المرء من النفاق وكيف يدخل في النفاق؟ هتان حالتان:

الحالة الأولى: الذين قال الله عز وجل عنهم في قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧]، خلا ص انتهوا هؤلاء طمسوا على الباطل وطمسوا على الكفر فلم يعد لقلوبهم حياةٌ البتة، أغلق عليهم، وهذا تقدم في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، فإما ختم وإما كتم وإما إقفال كما

يقول مجاهد وأشده القفل. فهذا مجخٍ كالكوز، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، فمثلاً: لو هذا الكأس وضعته مقلوبًا وصببت عليه الماء لا يدخل فيه شيء لأنه منكوس.

الحالة الثانية: هناك نوع من النفاق إنما يذهب ويأتي ويقوى بحسب ما تمده، فإذا امتدته بالعلم ازداد نورًا، أمدته بالقرآن ازاد ألقًا، جلست في المسجد ازدت فإذا ابتعدت بدء النفاق يسري ويقوى، ومن هنا النفاق كما ترون ليس حالةً واحدة، فالمرض إذن إما أن يكون ذاتيًا في البدن وهذا لا حياة فيه وإما أن يكون لقلة إمداد هذا القلب بما يحيه وما يشفيه وما يقويه، وينبغي أن نفرق بينهما وهذا تحذير لنا بأن لا نكف أبدًا عن إمداد القلب بما يحيه وينوره، (ومازال الرجل يتأخر حتى يؤخره الله)، قليلاً، قليلاً حتى يخرج من المِلة، في اللحظة الأخيرة يخرج من المِلة، وإما أن يزداد ألقًا وطاعة حتى يصبح كما وصف الله عز وجل المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، يزيدهم ويعطيهم.

هل حتى وهم في قبورهم يزدادوا إيمانًا؟ نعم، هل هناك زيادة إيمان في القبر؟ هذا لا شك فيه، فالنبي صلى الله عليه وسلم مر على موسى وهو قائم يصلي، فما دام يزداد طاعة فيزداد إيمان ويزداد قرب من الله ويزداد مرتبة من مراتب التعبد، وكذلك العبد يموت وتجرى عليه الحسنات، أي يزداد مراتب يأتي يوم القيامة وقد ازدادت مراتبه، قال صلى الله عليه وسلم: (مَن تَصَدَّقَ بعَدْلِ تَمْرَةٍ مِن كَسْبٍ طَيِّبٍ، ولَا يَقْبَلُ اللَّهُ إلَّا الطَّيِّبَ، وإنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كما يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ)، هذه ليس فقط له أثر في الحسنات له أثر في القلب فكلما ازدادت الحسنات كلما ازداد تنور القلب وإحسانه وطاعته ومعرفته بالله عز وجل.

ومن هنا عليك دائمًا في كل يوم أن تمد قلبك بالطاعة حتى لا تصل إلى هذه المرتبة من المرض، فواحد لا يقوم الليل فيه مرض، واحد لا يصلي الفجر في جماعة مرض، واحد بعد ذلك لا يصلي الفجر إلا بعد شروق الشمس هذا مرض، (ومازال الرجل يتأخر حتى يؤخره الله)، فينبغي أن نحذر من هذا.

القصد: قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، وهنا وحد ربنا عز وجل المرض وقال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، لماذا؟ لأن المرض هو حالةٌ واحدة وإن تعدد أسبابه، فالمرض هو تعطل شيء عن أداء مهامه، فأي سببٍ يكون يؤدي إلى حالةٍ واحدة وهو أن تتوقف مهمات هذا العضو الذي هو مكلفٌ بالعمل.

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، هنا أيها الإخوة الأحبة هذه قاعدة قرآنية وتتكرر في القرآن كثيرًا جدًا أن العبد يحتاج في الابتداء إلى الهداية، في الابتداء حتى يقبل على العمل يحتاج إلى الهداية، وبعد هذا ولعلةٍ هي فيه، يعني الله عز وجل لا يُنزل الهداية إلا على من استحقها من صاحب القلب الذي إذا جاءت إليه قبلها، وبعد ذلك يبدأ يعمل، هو يعمل وتزيده الطاعات إقبالاً على العمل وهكذا تزيد، هو يزيد إيمانًا فيزداد طاعات،

والطاعات تزيده كذلك إيمانًا، فيزيد الإيمان بالطاعات والطاعات تزيد بالإيمان وهكذا، فقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾.

هذه الباب أيها الإخوة الأحبة لو قيل لطالب العلم: ما هي أخوف آية عليه؟ على طالب العلم ليس العابد، العابد له آيات تخوفه من النار تخوفه من عذاب الجبار تخوفه من عذاب القبر، لكن طالب العلم الذي يبحث في المسائل، لو قيل لك: ما أعظم آيةٍ تخوفك؟ فلا تتردد في قوله تعالى فلا: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، انظر ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ حتى المؤمن.

في الابتداء أقام الله عز وجل في قلبك فطرة الحق التي بها تميز بين الحق والباطل -أتكلم عن كليات الحق والباطل- في الابتداء وأنت على الفطرة أقام الله عز وجل فيك من الفطرة ما تنكر المنكر وتحب الطاعات؛ لأنها أصل الفطرة، الآن الطفل الصغير لو أعطيته شيئًا من الحلويات يقبلها أم لا يقبلها؟ يقبلها؛ لأنها توافق فطرته، لكن إذا أعطيته فلفل؟ يصرخ، لكن بعد ذلك يصبح المرء يحب الفلفل أكثر من الحلويات، بعض الناس هكذا، حتى بعض الناس يضعون الفلفل الحار على الفواكه، بعض قرى الهند رأيتهم في إفطار رمضان وهؤلاء مسلمون في الإفطار يحضرون لك الجوافة المقطعة والبرتقال والتفاح والموز والمانجا ويضعون عليه الفلفل والملح، وهي عندهم شيء طيب خلاص هذا صار مزاجهم، فأبواه يغيرانه هنا تغير فالفطرة موافقة لأصل الحق.

لكن هذه الفطرة تنتكس، حتى لو أعطيته بعد ذلك الطيب لا يقبله ولو أعطيته الحلويات لا يقبلها، لماذا؟ لانتكاس فطرته، ولذلك ﴿زَيَّنَّا﴾ حتى يصبح لديهم ما قاله الله عز وجل عن قوم لوط، ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦)﴾ [النمل: ٥٦]، يصبح الطهر مسبة وذنب يعاقب عليها الإنسان، هذا من أين نشأ؟ من قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾، وصار الزواج: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ [هود: ٧٩]، انظر هذه كلمة حق هذه يجب أن تقف عندها كثير كلمة حق، يقول لك: هذا ليس في الدستور هذا ليس في القانون عندنا، حق.

فلذلك ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾، عليك أن تخاف؛ لأنك إذا أمددت قلبك بالطاعات صار منكرًا ورافضًا للمعصية مهما دقت، ولذاك انظر إلى ما ربى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عليه، لما سألوه: (يا رسولَ اللهِ: عوراتُنا ما نأتي منها وما نذرُ، قال: احفظْ عورتَك إلا من زوجتِك أو ما ملكت يمينُكَ، قال: قلتُ يا رسولَ اللهِ: إذا كان القوم بعضُهم في بعضٍ، قال: إنِ استطعتَ أن لا يَرينَّها أحدٌ فلا يَرينَّها قال قلتُ: يا رسولَ اللهِ إذا كان أحدُنا خاليًا قال اللهُ أحقُّ أن يُستحيا منهُ منَ الناسِ)، هذا مقام العظماء مقام الذين لا يقبلون أن تدنس فطرتهم، اسمها عورة! يعني مما يستعر منه الإنسان عورة، عار، ولذلك الله عز وجل أنزل علينا لباسا، قال تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٦]، هذه سوءة قبيحة، وانظر إلى انتكاسة الناس اليوم هذه السوءة صارت يفتخر

بها بصير فيها، وهناك مسابقات لإظهار هذه السوءة، ومن سواءته أفضل من سوءة الآخر، ومن سوءتها أفضل من سوءة أختها أو ضرتها أو جارتها، يفتخرون، هذا بسبب هذا الذي قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾.

وأنت مرات تعجب المبتدع هذا الذي يقرأ القرآن، ألا يقرأه؟! ألا يفهم؟ لا، هو بدأ بالباطل في الابتداء ما من أحدٍ على باطلٍ إلا في بداية الطريق قد أقيمت عليه شواهد الحق أن هذا باطل، لكنه بعد ذلك يبقى باطل لا يوجد مشكلة ويمشي حتى يغلق عليه الطريق فلا يستطيع الرجوع، كيف لا يستطيع الرجوع؟ قدرًا لا يستطيع الرجوع لأنه استمرأ الباطل وصار الحق إليه بغيضًا، وهذا يدلك على الجواب الذي سألناه وأجبنا عنه في بعض معانيه لو سألت أنت: كيف لم يهتدي هؤلاء المنافقون حتى في السنة التاسعة للهجرة في غزوة تبوك؟ لأنه صار الحق إليهم بغيضًا، فيكرهونه، استمرأت قلوبهم، ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾، عليك أن تخاف من هذه.

ولذلك أنت تعجب كيف كان الرجل وكيف صار؟ كيف كان الرجل ربما يقتل أمة من أجل عرضه ثم صار بعد ذلك ديوثا، يرى الدياثة على زوجته وعلى أمه وعلى اخته.. تتعجب! كان يرفض أن تكشف وجه زوجته ومستعد للموت لئلا تكشف ثم بعد ذلك يكشف العورات ويمشي، لماذا؟ بدأت في الكراهية، لا يقبل المرأة على المعصية إلا وهو كاره لها والنفس كارهة لها، والشيطان يجره ويجره حتى يمشي فيها طويلاً وبعد ذلك يصل لدرجة التزيين وانتهى..

ولذلك ما هو المطلوب؟ إياك، إياك والصغائر لأنها سبيل الكبائر، فاذا أتيتها فاستغفر وأياك والكبائر، فاذا استمرأتها كان لابد يقينًا بعد ذلك الكفر، الذي يستمرئ المعاصي، لا أتكلم عنه في الحال لأن عندنا الإصرار على الكبيرة ليس كفرًا بإجماع أهل السنة، ولكنها موصلة في الأغلب إلا القليل إلى الكفر، تمشي به، كيف الكفر؟ واحد يأخذ الربا ألا ترونهم يكفرون في نهاية الأمر؟ كيف إذا قيل لهم: الربا حرام؟ ماذا يقولون؟ بدؤوا بالربا وهم يقولون هو معصية والله يغفر لنا، وانتهوا به إلى القول بأن الحياة لا تقوم إلا بالربا، ما به الربا يا أخي الحياة ماشية أين الغلط! لا يوجد مشكلة؟! بهم إلى تبريرها كما قال ابليس، والزنا يقول لك: إني تزوجت وزنيت فرأيت الزنا أجمل وأفضل.. وهكذا!! والله إني عملت فكسبت الحلال فأكلته ثم سرقت فوجدت أن مال السرقة أجمل في فمي!! وهكذا ينته به إلى الكفر، ولذلك ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾، على ماذا يدل؟ يدل أيها الإخوة الأحبة لئلا يقع في قلب الناظر إلى هذه الآية أن المرء حين يترك العمل بالعبادة، هنا العبادة ما يقصد بها العبد؟ العبد يقصد بالعبادة وجه الله عز وجل، فالعمل موحي بأن الله عز وجل يريده!! وكأن هذا في قلب البعض أن الله عز وجل يحتاجه!! فجاء قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾، فمثلاً: عندما يمرض الأب، الناس يسعون لإخراجه من المرض لحاجتهم إليه، لكنه هنا في هذا الباب الله عز وجل يزيده مرضًا لأنه يقول: أنا لست بحاجةٍ إليه، هو الذي أراد أن يغلق الباب وألا يصلح قلبه؛ فأنا أعطيه ما يحب، وهذا قانونٌ إلهي، لا يطلب العبد شيئًا إلا أعطاه الله إياه، ماذا تريد الله عز وجل يعطيك تريد الهداية

الله عز وجل يعطيك الهداية، تريد الصلاح يعطيك الصلاح، ولو عجزت عنها في الدنيا بلغك الله عز وجل إياها يوم القيامة.

ولذلك من سأل الله عز وجل الشهادة بصدق بلغه الله عز وجل يوم القيامة منازل الشهداء، بل إذا أحببت مرتبةً ولم تقدر عليها بسبب ضعف إرادتك أو بسبب ضعف قوتك أو انشغال المحِل، ما معنى انشغال المحِل؟ مثال واحد يحب الصحابة رضي الله عنهم ويتمنى أن يجاهد جهادهم وأن يفعل فعالهم لكن المحِل مشغول، مسكين، فقير، يكاد يعمل من الصباح إلى المساء ولا يكفي رزقه، فالانشغال المحِل، لكن يحب إذا ذكر، يقول: ليتني أفرغ لألحق مرتبتهم في العبادة وغيرهم، يقول صلى الله عليه وسلم: (المرء مع من أحب)، يدرك الله عز وجل له الفضل لما يحب، هذه قاعدة.

القاعدة: أن الله عز وجل يعطيك بمقدار ما تعمل وبمقدار ما تحب وبمقدار ما ترجوا وبمقدار ما تسأله، وعالم الغيب مربوطٌ بالنسبة إلى الإنسان بما يعمل الإنسان قال صلى الله عليه وسلم من حديث أسماء: (لا تُوكِي فيُوكَى عليكِ)، وقال صلى الله عليه وسلم: (أنفق ينفق عليك)، وقال صلى الله عليه ولم: (الرَّاحمونَ يرحَمُهُمُ الرَّحمنُ، ارحَموا من في الأرضِ يرحَمْكم من في السَّماءِ)، فإذا أردت شيئًا فعليك أن تسلك سبيله من خلال بابه الذي قال الله عز وجل فيه.

قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾، ودليل ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾، على ما تقدم من الكلام حالات متعددة، وعلامة كما أنه زادهم هدى لا ينتهي فزادهم مرضًا لا ينتهي والله أعلم بما ينتهوا إليه إذا كان نوع نفاقهم مما لم يصل إلى درجة الختم.

قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾ [البقرة: ١٠]، انظر هنا بيّن ربنا سبحانه وتعالى الحال والجزاء، وتقدم هذا معنا في سورة «البقرة» بعد أن بين حال المؤمنين قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾ [البقرة: ٥]، دائمًا هذا القرآن لا يكفي أن يصف الحال يعني يقول: هي هكذا، ومن هنا يأتي القرآن إلى وصف الحال والواقع وصفًا دقيقًا، ثم يبين حكمه ثم يبين مآله.

إذن طريقة القرآن: هو الوصف أولاً يصف كيف ينشأ هذا الفعل، وما هو حال فاعله، الوصف ثم يأتي بعد ذلك بيان حكمه، قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾، هذا وصف فبعد أن وصفهم في قلوبهم مرض، وصف حكمهم أنهم كاذبون، ثم سبحانه وتعالى يصف المآل، أين العاقبة؟ هذا مهم جدًا.

وهنا يأتي تأتي قضية مهمة في هذا الباب لا يجوز أن تكتفي بالوصف لابد من أن تأتي إلى التوظيف، التوصيف لوحده لا يكفي، التوصيف ثم لابد من التوظيف، يعني أن تصف الحالة ثم بعد ذلك هذه الحالة أن تبين حكمها وأن تبين مآلها أي أن توظفها، ومن ذلك كذلك أن تبين الأمثلة التي تدور حولها كما ذكرنا.

فالآن لو سأل سائل –من التوظيف– ما هو النفاق الذي نراه اليوم في زماننا؟ هذا سنؤجل الحديث عنه عند ختم وصف المنافقين في أحوالهم، وأنا دعوت منذ قديم وكان إحدى المشاريع وهو بيان مراتب الزنادقة في هذا العصر، أي يوجد زنادقة.

والآن نأتي إلى حكم النفاق الذي هو هذا الباب، ما هو حكم النفاق؟ وهل يمكن أن نتصور وجود نفاق اليوم؟ لأن النفاق هو حديثٌ عن القلب عند البعض فكيف تعرف القلوب؟

الجواب: قال الإمام مالك رحمه الله: «المنافقون البارحة هم الزنادقة اليوم»، كلمة زنديق كلمة فارسية مأخوذة ممن ينكر الغيب هم يقولوا: «زَنْدِ كِرَايْ» هكذا هو لفظها باللغة الفارسية، و«زَنْدِ كِرَايْ» هو الذي ينكر الآخرة، ينكر الغيب، فغيروا كلمة منافق إلى زنديق فقال مالك رحمه الله: «الزنديق اليوم هو منافق الأمس»، فالزنديق ما حكمه يا مالك؟ قال رحمه الله: «الزنديق حكمه القتل»، هل له توبة؟ الإمام مالك رحمه الله يقول: ليس له توبة، لماذا يا إمام مالك؟ قال رحمه الله: الزنديق أي المنافق ليس له توبة ذلك لأنه لو أُخذ لتاب فكانت توبته إجراء لقضية ما يعمله وهي قضية إظهار الإسلام وإبطان الكفر، أي ما زدنا في استتابته إلا على أن نجريه على ما مضى عليه وما مشى عليه فقط، طبعًا يخالفه بعض أهل العلم كالشافعي رحمه الله.

ففي كتاب «الأم» لإمام الشافعي رحمه الله يقول: لا، الزنديق له توبة، والشافعي رحمه الله ظاهريٌ في العقود، ومن هنا مثلاً: حديث العِينة (إذا تبايعتم بالعِينةِ)، لا يأخذ به، يقول: ما يهمني هو ظاهر العقد، ومن أراد تفصيل هذا الباب فليرجع إلى «القواعد النورانية» للإمام ابن تيمية رحمه الله، هذا فصل به تفصيلاً جيدًا، وهو إحدى مباحث الكتاب المفقود وهو «حوار مع الكبار» في مناقشة الإمام الشافعي في قضية تأصيله للعقود.

الإمام الشافعي رحمه الله يقول: بأن الأصل هو الأخذ بالظاهر، الشريعة جاءت بالأخذ بالظاهر ما يهمنا الباطن، الباطن قضية ربانية، فحيث جاء الظاهر كاملاً بأركانه وأوصافه يجب صرف الحكم إليه، وبالتالي مثلاً بيع العِينة بظاهره عقدٌ صحيح مكتمل الأركان، ما هو بيع العِينة؟ هو بيع عاجلٍ بآجِل، رجل يريد أن يرابي لكن يتحايل على الشريعة فيأتي يشتري بضاعة من المرابي بالدين ويبيعه إياها نفس البضاعة بالنقد بأقل، اشتراها دينًا بمبلغ وباعها لنفس من اشتراها منه بأقل نقدًا، فماذا حصل؟ شغلت ذمته بالدين العالي وقبض في جيبه المال الأدنى فهذا ربا، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا بيع ليس فيه إلا الحريرة إي كلام كاذب الشيء ليس مقصود، المقصود النقد، الشافعي

رحمه الله يقول: هذا بيعٌ صحيح؛ لأن الأول مكتمل الأركان والثاني مكتمل الأركان ويضعف حديث العِينة، وهذا غير صحيح، الصواب أنه حديثٌ يعمل به.

ولذلك عنده كذلك بيع العنب لمن يعصره خمرًا، عند الشافعي جائز، لماذا؟ على قاعدة أن العقد صحيح، لا تهمنا النوايا، الباطن ما يهمنا، الظاهر هو الذي يهمنا، وبالتالي واحد اشترى من عندك عنب لا يهمك ما يعمل به هو يأثم في عصره خمرًا، لكن العقد الذي جرى بينك وبينه على العنب صحيح وهكذا، يعني هذه قاعدته رحمه الله.

ومن هنا قال: بأن الزنديق على ظاهره أنه جئنا إليه وقد ثبت عليه الكفر في باب من الأبواب التي يخفيها فظهرت وبانت، فجيء به إلى القاضي فاستتابه فتاب مما هو فيه فيجري عليه الحكم بالظاهر، خلاص قابلنا منه هذا.

الإمام مالك رحمه الله أبصر منه في هذه المسألة، –مع إني شافع– قال الإمام مالك: وهل زدنا إلا أن أجرينا عليه ما يجريه على نفسه من التخفي والتستر!!

القصد من هذا: هذا كله عودة لقضية حكم المنافق، فالمنافق كما أخذنا من جملة بعض الكلام ليس مرتبة واحدة، ولذلك قلنا على المرتبة الثانية التي فيها ظلمة وفيها نور لا ندري على ماذا تستقر؟ وحتى المريض رأيناه كما قال صلى الله عليه وسلم عن المنافق: (مَثَلُ المنافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ العائِرَةِ بيْنَ الغَنَمَيْنِ؛ تَعِيرُ إلى هذِه مَرَّةً، وإلَى هذِه مَرَّةً)، لا نعرف متى.، والضعيف المريض يمكن يقوم للصلاة فتأتي عليه فتنة المال والزكاة والجهاد فيضعف، يصلي ويؤمن بها لكن تأتي عليه فتنة المال والشح فيه فلا يصبر عليها فيكفر.

كالرجل يكون فيه مرض في جانب من قلبه من الأمراض، جانب أنه إذا أُبتلي بالولد كفر مثلاً: جاءه خبر أن أولاده قد ماتوا فيكفر، هذا جانب ضعيف في قلوبهم مرض من هذا الجانب، لكن هذا المرض لم يتحول إلى شلل إلا عند الامتحان ولم يكن معروفًا وهو في قلبه مرض خفيف الله يعلمه ولكنه ليس كفرًا، لكن لما جاء الامتحان انتقل هذا المرض إلى الشلل فخرج من الملة.

فالحكم على المنافق صعب لكن نحن نتحدث هنا عمن ظهر نفاقه في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، ماذا تعني ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾؟ المفسرون قالوا: أي نأمرك بقتلهم، تطبيقا لقوله تعالى في موطنين في سورة «التحريم» وفي سورة التوبة»، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التحريم: ٩]، ونحن تكلمنا في درس فائت أن الجهاد لا يختلف في الموطنين، جهاد الكفار كجهاد المنافقين، متى؟ إذا أظهروا نفاقهم، فقال تعالى:

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ يَنْتَهِ ماذا؟ من إظهار نفاقهم ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي لنأمرنك بقتلهم، فقال المفسرون: فلما أخفوا نفاقهم كف عنهم القتيل، كيف أخفوا؟ كفوا عن إظهار النفاق.

فإذن نحن الآن علمنا بأن النفاق هو ماذا؟ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، إذًا يمكن أن تعرفه في لحن القول صغوه أي يجلس ويقعد معهم وإذا نصح يعلم من قوله الضعف، نذهب نصلي جماعة أم نصلي فرض؟ لا، نصلي فرائض لماذا الجماعة، ننفق أم لا ننفق؟ خلي قروشك إلك يا رجل وكذا، لأن أعظم ما يكشف النفاق كما في القرآن هو الجهاد والصدقة، ودائمًا حيث وجدت النفاق في القرآن وجدته مربوطًا بالزكاة ووجدته مربوطًا بالجهاد، دائمًا، في سورة «المنافقون» ربطها الله عز وجل بالذكاة بالزكاة، ربطها بالصدقة، في سورة «التوبة» لا يوجد حديثٌ عن المنافقين إلا بهذين؛ بفتنة الجهاد وفتنة الزكاة فقط، ودلت بعض الدلائل قال: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ [النساء: ١٤٢]، لكن الفتنة الكاشفة للمنافقين بالمال، والجهاد..

ونحن أمام حالتين الحالة الأولى: أن يظهر نفاقه بينًا كما قال ربنا عز وجل: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ يعني يبين نفاقه أي يبين زندقته وكفره بكلماتٍ واضحة بينة، هذا حكمه الكفر، وهذا الذي حكمه قال عنه مالك رحمه الله: «النفاق البارحة هو الزندقة اليوم» فماذا نعمل في الزنديق؟ قال: اقتلوه. هذا مرتد اقتله ولا تقبل توبته، لكن هل هذا يمكن أن يطبق على كل المنافقين؟ لا، بعض المنافقين يخفونها خفاءً لا تتجلى جلاءً واضحًا عند القاضي ولا عند الناس، يقول له: والله إنك منافق لكن لم أستطع الإمساك بك.

ولو وظفنا هذا في الواقع، يوجد كثير، هذا ارتباط بما قلته بما مراتب الزنادقة، فيوجد اليوم كتاب، يأتيك كاتب يقول لك: والله نحن نؤمن بالقرآن، القرآن كتاب مقدس، نحنا ما يهمنا الآن هذه الآيات بمقدار كذلك عظمة هذه الآيات على واقعنا، هي مهمة علمًا كما هي في نفسها؛ لأنها تزيد الإيمان في القلب وتخوف النفاق، لكن كذلك من أعظم ما ينبغي أن يدل عليه القرآن وهداية القرآن هو أن توظفها، أن ترى كيف تطبق.

من هنا فإن أعظم ما يعمله الفقيه والمدرس والواعظ والمفسر هو أن يرفع المرايا، هذا سميته رفع المرايا في تفسير سورة «الأنبياء» في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، أي أنت موجود في القرآن موجود، ما هو المطلوب؟ أن ترى حالك في القرآن أين؟ فالذي ينبغي أن تعمله هو أن ترفع المرايا لترى نفسك وترى الناس الذين يتكلمون أين هم؟ كل واحد في الوجود موجود في القرآن؟ كل إنسان موجود في القرآن، في التاريخ وفي زمانك وفيما هو آتٍ من الأزمان إلى يوم القيامة مذكورٌ في القرآن، كل شخص –انتبهوا لهذا هذا كلام ليس للموعظة– كل حدث في هذا الوجود له وجود في القرآن تمامًا، بشخوصه وأحداثه وأحكامه والتعامل معه ... إلخ، وهذا هنا يأتي دور البصير بكتاب ربنا.

فالزنادقة لا ينتهون وهذا كنت أريد كتاب كاملاً أسميه طبقات الزنادقة اليوم ليس زنديق واحد بل زنادقة طبقات وهم على خلاف أي ليسوا شيئًا واحدًا، مثلاً: يأتيك رجل ويقول لك: القرآن كلام الله، اسمع، القرآن مقدس، على فكرة يعني إلى الآن لم يستطع أحد إلا القليل. يوجد من هم فوق الزنادقة، يعني زندقة أس عشرة زندقة أس عشرين وهكذا، يأتي ويقول: هذا القرآن كتاب وضعه محمد وكتاب قديم ولا قيمة له ارميه بالخارج، كما كان يفعل أكبر زنديق في هذا الباب طه حسين.

طه حسين كان يأتي بالقرآن إلى الدرس في الجامعة ويكتب الآية ويقول للتلاميذ انتقدوها بلاغيًا، ولا يرى القرآن ويقول في كتابه في الشعر الجاهلي وجود خبر عن إبراهيم في القرآن ليس كافيًا لإثبات وجوده في التاريخ، بهذه الكلمة هو زنديق، لكن لو سألته أنت مسلم؟! يقول لك: طبعًا أنا مسلم! فهذا زنديق واضح، يقول: أنا مسلم وأتى بزندقة واضحة صريحة، هذه صورة من الصور الموجودة.

لكن في صور كثيرة الآن وهي أغلبها يأتي ويقول لك: القرآن كلام الله، ما في عليه كلام وهو مقدس وعلى الرأس والعين، ولا يجوز لنا أن ننكر منه حرفًا ولا آية، لكن المشكلة –استخدم لكم بعض العبارات– مثلاً يقول نصر حامد أبو زيد في كتاب «مفهوم النص»: ليس المشكلة في النص المشكلة في التأويل، الآن كلمة التأويل هذه تضع ثلاثين أربعين خمسين مئة طبقة من طبقات الزنادقة.

مثلاً عندنا زنديق كبير اسمه محمد شحرور قال: القرآن كلام الله ولكن الأحكام التي فيه ليست ملزمة لنا وما أنزلها الله إلا لمعاني تتجدد من زمنٍ إلى زمن، أعطينا مثال يا عبقري!! قال مثل: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، قال: ما هو الجيب؟ الجيب هو الشق، وصحيح، فهذا جيب لأنه شق بين الثديين، وهذا جيب لأنه شق بين طبقتين من الثياب، فقال: المطلوب أن تستر المرأة ما شكل جيبًا في بدنها، وقال: ما هو الجيب؟ فقط الفرج والدبر هذا هو الجيب!! أما الباقي يجوز للمرأة ان تمشي دون أن تستره، هذا كتاب كبير طبعوه وسوقوا له وله دعاية ... إلخ.

وقال بعضهم مثل حسن أحمد أمين يقول في كتابه «دليل المسلم الحزين»: بأن القرآن حق، كلام الله، المشكلة في التفسير، ما مشكلة التفسير؟! قال: لما كانت العرب لا يجدون الماء فأجبرهم على الوضوء حتى يتنظفوا، لكن الرجل لو قام الصبح واغتسل بالشامبو فلماذا نأمره بالوضوء عند كل صلاة؟! خلاص لا يوجد ضرورة، لأنهم أمروا بالوضوء وقت الوساخة، اليوم الناس انضاف، فلا يوجد ضرورة للوضوء!!! هذا يؤمن بالقرآن يقول لك: القرآن كلام الله نحن الآن نأتي إلى النص، النص لا كلام حوله إنما الكلام حول التأويل. فهذه طبقات من الزنادقة كثيرة جدًا.

القرآن كلام الله ونؤمن به ولا نخالف، هل أنت مسلم؟ نعم أنا مسلم، بل أنا متدين أكثر من المتدينين أو أصحاب اللحى أنفسهم، فالآن ماذا نفعل؟! علينا أن نفسر القرآن تفسيرًا حداثيًا جديدًا!! ماذا تعني! أعطينا مثال؟!!

قال: قضية ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الفاتحة: ٧]، يهود ونصارى هذه لا، لأن هؤلاء إخواننا، فانتهت قضية التفرقة بين المسلم واليهودي والنصراني على أساس الاعتقاد؛ لأن اليوم نشأت روابط جديدة وهي روابط الوطنية، فهذا أخي وهذا أخي لا ضال ولا مغضوب عليهم، لا!!! تقول له: لكن هذا القرآن، يقول لك: نعم القرآن هذا كلام الله. فطبقات الزنادقة اليوم كثر جدًا، وهو إذا قيل له أنت مسلم؟ قال: طبعًا مسلم يا رجل لا إله إلا الله، وقد يقال له: تصلي؟ فيختلف يمكن يصلي ويمكن لا يصلي يعني ما مشكلة.

لأنك تجد شيوخًا، لو قيل اضرب مثال على شيخ زنديق؟ يعني أحمد حسون ماذا تعدوا هذا؟!! طربوشه قد إطار السيارة الكبيرة، والشيخ ويتكلم بالدين وإلخ.

فالقصد من هذا: أن المنافق إذا أظهر صار زنديقًا، المنافق إذا أظهر وبان عليه الحكم، ونشأوا في التاريخ، وقتل أناسٌ كثر على الزندقة لما أظهروا، بحثوا فوجدوا لهم كلام يدل على الزندقة، بنفي اليوم الآخر، بنفي النبوة بنفي صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ويزعمون الإسلام وبعضهم يصلي، وقتلوا على الزندقة، فهؤلاء إذا أظهروا حكم عليهم بالزندقة وحكم الزندقة هو حكم الردة وهو أشد عند بعض أهل العلم لماذا؟ لأنه لا يقبل منه التوبة، بخلاف المرتد تقبل منه التوبة والسبب ما ذكرناه من العلة؛ لأنهم إذا استتيبوا، كأننا أعطيناهم النجاة لأنهم هم يعملونها أصلاً.

لكن هل يوجد منافقون على المعنى الثاني بمعنى أنهم يظهرون ويخفون؟ هذا موجود، لا يمكن أن تعدم صفات النفاق، يعني إذا جاء الجهاد خرج معك، ولما يذهب الجهاد يقول لك الحمد لله ارتحنا، ويصبح يعمل مع أعداء الملة والدين، هذا منافق، الذي تجد صغوه للكفار هذا منافق، بحيث لا يظهر منه عملٌ كفريٌ صريح، إذا ظهر منه عمل كفري صريح نرفعه للدرجة الأولى فهذا هو حكم النفاق..

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠]، قلنا: وهذه طريقة القرآن في ذكر التوصيف ثم ذكر الحكم ثم ذكر العاقبة، وإن شاء الله في موطنٍ آخر أبين بيانًا مقاربًا ليس نهائيًا متى تستخدم كلمة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؟ ومتى تستخدم كلمة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟ متى ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾؟ وهذا أكثر ما يأتي به القرآن، ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ كما تقدم في الكافرين، قال سبحانه وتعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ [البقرة: ٧]، هنا قال ربنا جل في علاه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠]، في موطنٍ آخر إن شاء الله نحاول أن نقارب باستقراءٍ ما متى يأتي ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ وأكثر سورة يأتي فيها ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ في سورة «النساء» ولها أسبابها. ولهم عذاب اليم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾ [البقرة: ١٠]، في أول وصفهم قال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ﴾، وهنا قال: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾، والخداع هو الكذب، لكن هل الكذب كل أنواعه خداع، أم أن الخداع هو

نوعٌ خاص من الكذب؟ الذب عادةً لا يكون إلا بالسان والخداع قد يكون بالسان وقد يكون بالأعمال، يخادعه، يخدعه، وقلنا: الخداع أُخذت من الخفاء كما سمي المخدع فسمي المخدع لأنه مخفي.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾، وها هنا نقطة أكررها لمن يريد التوسع وتقدم الكلام عليها، هل هو وصف لما هم فيه أم شرطٌ يجب تحققه فيما تقدم؟ هو ووصفٌ وليس شرط وهنا نأتي إلى مسألة من المسائل المذكورة في القرآن وهو أن الوصفة أغلبي، يعني الأغلب ألا يتخلف، الوصف، أغلبي قد لا يتخلف ولا يأتي شرطًا مثل قوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، فقوله: ﴿فِي حُجُورِكُمْ﴾ عند جمهور العلماء من الأئمة الأربعة وغيرهم وخالف في ذلك علّي رضي الله تعالى عنه إن صح عنه السند كما يقول ابن كثير، وإن كان ابن تيمية يصحح السند، ويقول ابن القيم: إذا صح عن علي فالمصير إليه أولى.

القصد: أن قوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾، هنا في ﴿فِي حُجُورِكُمْ﴾ وصفٌ ماذا؟ يقال: أغلبي، بمعنى أن بنت الزوجة ولو لم تربى في حجرك فهي حرامٌ عليك، فلماذا قال تعالى: ﴿فِي حُجُورِكُمْ﴾؟ لأن العادة الرجل إذا تزوج المرأة جاءت ابنتها معها فالعادة كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣]، يعني هل الجارية التي لا تريد تحصن يجوز أن يتاجر الرجل فيها قِوادة؟ الجواب: لا، ولكن هذا وصفٌ أغلبي أو وصفٌ للحالة التي نزل بسببها الحكم، وهذا كثير في القرآن ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ﴾ [النحل: ١٠٦].

قال شيخ الإسلام في «الصارم مسلول» في قوله تعالى: ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ﴾ قال: هذا وصفٌ وليس شرط، يعني لا يمكن للرجل أن يكفر من غير إكراه إلا وقلبه غير مطمئن بالإيمان، فإذا كفر من غير إكراه دل على أنه اطمئن إلى الكفر ولم يطمئن للإيمان، أما المؤمن الذي يكره على الكفر فإنه يجوز له ولا يكون مطمئنًا إلى الكفر.

فالقصد: لماذا جئنا بهذا الكلام؟ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾، لا يصيح واحد يقول أثبت لي أنه كذاب، مثل ما يعمل المرجئة، يقول لك: دبر لي أنه كذاب، أثبت لي أنه كذاب، دائمًا البيان والسلوك دلالة عم في القلب، دائمًا ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾، القرآن يصف علة الفعل من جهة قلب المرء، من داخله يصفه، لكن عندما يقيم الأحكام لا ينبغي أنت تحدد هذا كاذب وذاك صادق، لأنه ليس لديك أنت مسبار، مسبار يعني كاشف الذي يستخدم عادةً لقياس الماء قبل ما واحد يمشي يأتي بعصاة ويجس بها الأرض ليرى أين الماء هذا اسمه مسبار، فالمسبار هو الكاشف، فليس لدينا حن ميزان حرارة نضعه ونعرف هذا كاذب أم صادق!! بما يعرف؟ ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] أو صريح القول، فالقول دالٌ عما في القلب.

فقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾، إذا علمت أنه قال: آمنت بالله ثم سلك سبيل غير المؤمنين علمت أنه مؤمن كذب، إذا قال: أنا مؤمن ثم رأيته يسلك سبيل غير المؤمنين، وسبيل غير المؤمنين كثير القرآن وصف أنصاف المؤمنين، ثم رأيته يسلك غير سبيل المؤمنين علمت أن قوله: أنا مؤمن أو مسلم –آمنت بالله وبرسوله وبالكتاب إلخ– علمت

أن قوله: أنا مؤمن غير صحيح، وليس هناك طريقة لكشف ذلك إلا العمل إلا السلوك، بماذا واجهنا مشايخنا اليوم؟ وهذا لم يقل به مبتدع قط في تاريخ أمتنا، هذا الذي أحدثه اليوم المعاصرون من شرط معرفة القلب، من شرطه لم يقل به عالمٌ قط.

وحتى المرجئة ما قالوا هذا الكلام، إما منعوا الوصف لعدم تحقق ما في القلب، وإما أوجدوا الحكم لتحقق وجود الوصف المخالف لما قرره الكتاب والسنة إلى غير ذلك، هذا من المخالفين، أما أحد العلماء يأتي ويقول: ما سمى الله عز وجل شيئًا كفرًا فلا يجوز أن نطلق عليه اسم الكفر إلا بمعرفة ما وصف القرآن به الكفر من القلب، هذا الأمر ما قال به عالمٌ قط.

كيف يكون ذلك مثلاً: واحد يقول: كيف تعرف المنافق؟ إما بقوله وإما بعمله، فواحد قال: لا، حتى لو سمعت قوله ورأيت عمله لابد أن تشترط وجود أن تعرف القلب، انتهت الأحكام!! كيف؟ هم طبعًا وجدوا لها حل!! قالوا: بأن يقول: أنا كذاب، أو واحد يقول: أنا كافر أنا كفرت بالله.

وشيخ الإسلام يقول: ولا يقصد أحد الكفر إلا ما شاء الله، لا يوجد أحد يقصد الكفر، لما قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، صدقهم القرآن أم كذبهم؟ صدقهم، نخوض ونلعب ما قصدوا الخروج من الإسلام، فلا يقصد أحد الخروج من الإسلام. واحد سب الدين أتقول له: قصدت أنك تصبح نصراني أو يهودي أو ملحد؟ ما قصد أن يخرج بها من الدين، لكن هل كفر؟ هل خرج من الدين؟ خرج من الدين، فلا يقصد أحد الكفر إلا ما شاء الله أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: قول الكرَّاميَّة الذي ذكرته، فما عقيدتهم في تعريف الإيمان؟

الشيخ: هذه ليست فائدة مني على كل حال نسيت أن أذكر هكذا قال شيخ الإسلام، قال: ونسبة هذا القول إلى الكرَّاميَّة لا يصح عنهم وإنما يقال على جهة الإلزام، لما قالوا الإيمان هو القول فظن البعض أن القول يقصر على اللسان والقول لا يقصر على اللسان، تقدم أنه يقال القول قول القلب، هذا هو الجواب، فالحقيقة لا نبرئ أحد لأنه من قال بأنه يكفي للنجاة، حتى شيخ الإسلام يقول: –وهذا من فوائده عليه رحمة الله جزى الله هذا الإمام خير الجزاء– قال: حتى لو وجد من يقول بأنه يمكن أن يطلق على الرجل اسم الإيمان مع تخلفه في القلب، فإنما يعنون به الظاهر، لا يعنون به الحكم ولا يعنون به المآل، يعني لا يعنون به وجود حقيقة الإيمان ولا يعنون به أن مآله هو مآل المؤمنين، لأن هذا مستحيل أحد يخالف هذه النصوص الصريحة الواضحة في هذا الباب.

السائل: هل تنصح شيخنا بقراءة كتب فضل العباس؟

الشيخ: والله أنا ما قرأتها، خرجت ما قرأتها، لكن الرجل كان معروفًا باتساع علومه في اللغة وخاصةً في علم البلاغة والتفسير وهذا تخصصه وإن كان له ما على البلاغيين ممن يقولون بمسائل البلاغة التي يطبقونها على أسماء الله وصفاته من الأشاعرة وغيرهم، فأظن أنه وقع في هذا، كما كنت أعرف عنه وأنا في الجامعة، أما الكتب الجديدة التي أصدرها فليس لي عليها اطلاع، وهذا من نقص المتابعة لما جرى علينا.

السائل: ما حكم الصلاة خلف المرجئ الذي صدرت فيه فتوى بإرجائه ويدعوا الناس للانتخابات ويرى جوازها؟

الشيخ: نعتقد بأنه من صحت صلاته لنفسه صحت صلاته لغيره، فيجوز عند الإمام مالك رحمه الله وهو إمام أهل السنة في هذا الباب، اقتداءً بفعل ابن عمر رضي الله عنهما يجوز الصلاة وراء المبتدع ما لم يكفر مع الكراهة، يجوز الصلاة وراء الفاسق مع الكراهة. يجوز فنحن لا نكفر هؤلاء ما لم يكفر ما لم تكن بدعته تكون مكفرة مخرجة من الملة وتعينت عليه، فالصلاة وراءه جائزة، والله تعالى أعلم.

السائل: سفر المرأة لأداء العمرة من غير محرم ما حكمه ورأي ابن تيمية بهذه المسألة؟

الشيخ: لماذا رأي ابن تيمية؟ هذا علم نفس الدليل الذي يسمى، يعني كلمة ابن تيمية تحسم الموضوع، لا، بلا شك أن العلماء قد اختلفوا في جواز سفر المرأة من غير محرم مع وجود الصحبة الصالحة المأمونة مع أمن الطريق وعدم

خوف الفتنة، فالعلماء على خلاف لأن العمرة عند بعض أهل العلم واجبة لو كانت مستحبة كما يقول البعض لما جاز لهم ذلك، وإنما يقال: إنها واجبة فتجوز في هذا الظرف.

والإمام الشافعي يقول: بوجوبها لأنه يقول بدليل الاقتران، كنت أريد أن أتكلم عن دليل الاقتران عند قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا﴾ [الحجرات: ١٥]، فهذا يرد دليل الاقتران ودليل الاقتران عند أهل العلم هو من أضعف الأدلة، وإن كان الشافعي يقول به في مواطن في قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، فيقول الشافعي رحمه الله: لما قرن الله العمرة بالحج فدل على أن الحكم واحد، فالعمرة عند الإمام الشافعي واجبة، والصواب أنها واجبة لكن ليس بهذا الدليل.

القصد: فإذا قلنا وهو الصواب: بأن العمرة واجبة، هل يجوز للمرأة السفر من غير محرم مع رفقة صالحة مع أمان الفتنة، عدم وجود الفتنة، ورفقة الطريق وأمان الطريق وغيرها؟ يرى الإمام الشافعي ومعه ابن حزم على رغم أن ابن حزم في طوق الحمامة ذكر قصةً غريبة في سفر نساءٍ صالحات من الأندلس إلى مكة وحدث ما حدث وارجعوا إلى القصة لا أحب أن أذكرها في هذه الدروس، فمع ذلك يرى جواز ذلك وجماعة من أهل العلم من السلف يرون جواز ذلك، وبعضهم احتج في قوله صلى الله عليه وسلم كما ذكر الإمام ابن حجر ووجدتها قبل أيام في موطنٍ آخر كنت أقرأ كتاب نسيت اسمه.

إنما ابن حجر ذكرها في الفتح في قوله صلى الله عليه وسلم: (حتى تسير الظعينة من صنعاء إلى حضرموت لا تخشى إلا الله)، قال: فجائز للظعينة وهذا قول غير صحيح، فالظعينة المقصود بها الرفقة، أي السفر الركوبة، فهل يجوز مع هذه الرفقة أم لا يجوز؟ الجمهور على عدم جوازه، ويرى بعض العلم جواز ذلك، والمسألة إن شاء الله مقاربة ويسيرة، وإن كان هذا الزمان الفتنة أشد، فبعض المشايخ للأسف ظن أن السفر بالطائرة يحقق الأمان أكثر من الأرض، وهذا غير صحيح طبعًا، ولا نريد أن نأتي للقصص في فسادها ركوب الطائرة أكثر، يعني الناس يخافون من الأرض بسبب اللصوص، فلا يخافون قضية فتنة الرجال مع النساء، والطائرة فتنة أشد في هذا الباب، والآن لا أريد أن أبحث، أنا أعتقد بأن المسألة مقاربة، والمسألة نسبية إن شاء الله.

السائل: هل تغطية الوجه للمرأة فرض أم مستحب؟

الشيخ: هذا سؤال يعرفون رأيي فيه الناس، غطاء المرأة البالغ عند أمن الفتنة سواء كان من جهة نفسها سواء كان من جهة واقع جهة الناس فأعتقد بأن غطاء الوجه مستحب، وهذا قول عند بعض أهل العلم، والجمهور على أن غطاء الوجه واجب أن تغطي المرأة وجهها واجب، والذي أعتقده أنه مستحب، وأما القول بأن غطاء الوجه بدعة فهؤلاء مجرمون، هؤلاء من الجماعة الذين ذكرناهم من جماعة الزنادقة إلا شوية أو زنادقة كُمل.

السائل: في الوقت الحالي انتشر سب الله جّل في علاه فما حكم سب الذات الإلهية والدين والرسول صلى الله عليه وسلم وماذا تفعل المرأة زوجة هذا الساب مع خوفها من الطلاق الرسمي لسبب عدم وجود من ينفق عليها أو لأسباب أخرى مثل الأولاد؟

الشيخ: أما الدين فالأمر يحتاج إلى تفصيل، يعني لو سب الرجل دين زوجته فلا بد من معرفة المراد لأن كلمة الدين كلمة مشتركة ومجملة بمعنى يمكن أن يقصد بها سلوكها وعملها كطبخها طبخة غير صالحة فسب سلوكها في الطبيخ، سب سلوكها في الحوار معه، فالمسألة تحتاج إلى تفصيل في كلمة الدين، ولكن للأسف وإن كان الأغلب لا يتورعون لو قيل لهم: أنت سببت الإسلام؟!! فيقول: نعم أنا أسب الإسلام.

أما سب الله عز وجل وسب الرسول صلى الله عليه وسلم فهو كفرٌ وردة، وإذا كفر الرجل ولم يعرف عنه توبة من هذا الأمر فلا يجوز للمرأة أن تسلم نفسها له، كونها أنها لا تريد أن تطلق طلاقًا رسميًا كما يقال، فيمكن هذا، يمكن لها ذلك تخاف ألا تجد من ينفق عليها، ولكن لا يجوز لها تسلم نفسها له، لا يجوز، فإنه حرام عليها، مادام هذا الأمر ولم يتب من هذا الفعل فلا يجوز لها فإنها أجنبيةٌ عنه وتبين عنه إذا ارتد الرجل بانت منه زوجته، وإذا ارتدت المرأة بان عنها زوجها ويجب الفراق.

ولكن قد تقول: الآن يقع فتن كثيرة من قلة المعونة لا تجد من ينفق عليها لا تجد من يقوم بشأنها، أين تذهب؟ فيقال لها: ابقي في بيتك لكن لا تسلمي نفسك له، لا تقبلي، وهذا يقع، ويقع حتى في الغرب أن تسلم المرأة وتكون كبيرة في السن والرجل يبقى ويبقوا في نفس البيت لأسباب من هذا أو أنواع أخرى، فكان يقال لهن: لا تسلمي نفسك له، هذا لا يجوز كما قال النبي صلى الله عليه وسلم إنه مشرك، كما قال عن أحد أزواج بناته لا يقربك فإنه مشرك، وهذا مشرك ما لم يتب، فهذا هو الجواب باختصار.

أما إن هذا كفر وردة فهذا مجمعٌ عليه لا خلاف بين أهل الإسلام بأن مجرد السب هو كفر، سب الله عز وجل وسب الرسول صلى الله عليه وسلم وهو سب القرآن وسب الإسلام هو كفرٌ مخرج من الملة يستتاب صاحبه، وأما قتله فنعم هذا الذي عليه أهل العلم وذكر شيخ في الإسلام أن هذا هو الإجماع أنه يقتل والتوبة في حقه لا ترفع عنه حكم القتل في سبه للنبي صلى الله عليه وسلم لأن هذا حق، كالزنا لا يسقط بالتوبة عند جمهور أهل العلم وغيرهم، فهذا حق النبي صلى الله عليه وسلم لا يسقط بالتوبة، واليوم هذا لو طبق في بعض البلاد يعني لكانت مجزرة ولذلك الله عز وجل يرحم الناس بأنهم غير ممكنين حتى لا يقتلوا العشرات والمئات، فلعل لما يحصل للمسلمين التمكين إن شاء الله تنقضي هذه الظواهر بعقوبة واحد اثنين وانتشارها بين الناس يخافون ويرتدعون وبعد ذلك تصبح إن شاء الله ظاهرة ميتة، نسأل الله عز وجل ذلك.

السائل: متى يُلزم الأب ابنته بالحجاب في أي سن؟

الشيخ: يعني كما أنها تُلزم بحيث يحصل التمييز أن تضئ للصلاة فكذلك هنا يجب عليه أن يلبسها الحجاب حيث عندها التمييز يعني صارت بنت مشتهة، يعني بنت ينظر إليها فيشتهيها الرجل ويتزوجها، طبعًا إذا حصل البلوغ هذا مما لا خلاف فيه بالبلوغ، لكن قبل البلوغ لو كانت البنت قد ظهرت عليها ملامح الجمال والاشتهاء فعلى المرء أن يأمرها بذلك بأن تغطي رأسها وجميعها بدنها بما لا يشف ولا يصف ولا يجسم ومع شروط أخرى للثياب الشرعية للمرأة.

السائل: في مسألة الزنديق قلت: إن الإمام مالك قال: أن منافق الأمس هو زنديق اليوم، الصديق اليوم، وتعريفنا للمنافق أنه يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وبعض الزنادقة يظهرون الكفر في كلامهم في تأويلاتهم كما ذكرت أنت هم طبقات، هل نقدر أن نقول: كل منافق زنديق وليس كل زنديق منافق مثلاً لأن الزنديق أظهر؟

الشيخ: نحن قلنا بأن هناك من النفاق ما لا يصل إلى درجة الزنديق يعني هو في الباطن زنديق ونحن نطلق عليه والناس يظنون فيه ويشكون في ذلك بل ربما جزموا لخبرتهم به ولكن لا يستطيعون أن يقيموا عليه الحدود ولا يقيموا عليه الأدلة ولا البينة، لأن المنافق عبد الله بن أبي لما شهد عليه واحد من الصحابة لم يستطع النبي صلى الله عليه وسلم أن يقيم عليه الحد لأنه واحد، لكن هو في نفسه هذا الصحابي الذي سمعه يجزم أنه منافق يعني زنديق بلغة الفقه، والزنديق في لغة الفقه المقصود به المنافق، فهذا يجزم يعرفه، لكن عسى أن يقيم عليه الحكم عند الآخرين، يقول: أنا سمعته أنا رأيته.

ولنخرج من قضية المسائل العلمية فيما يقوله الزنادقة المعاصرون من الصحفيين والمفكرين والكتاب وو ... إلخ، وبعض الحكام إن لم يحكم عليهم بالردة في أمورهم البينة، يعني تجد عندهم استهزاء بالقرآن، مثل واحد يستهزئ بـ ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤)﴾ [الغاشية: ٤]، بماذا يخوفنا؟!! لا يوجد بالإلام إلا ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤)﴾!!، هذا استهزاء، فهذا يستتاب، وهذا زنديق يخوف.

فالقصد: بأن رجل يقول: أنا مسلم ويقوم بأعمال الإسلام ولكن تظهر عليه أمارات الخفاء التي يخفيها بسبب ظهور الإسلام وبسبب الخوف من الحكم عليه أو ... إلخ، فالكلام عن هذا، فإذا بان كفره صار حكمه زنديق ومع ادعائه أنه مسلم، فالآن نحن عندنا بين حدين:

حد ادعاء واحد ارتد قال: أنا لم أعد مسلم، هذا انتهينا منه، هذا مرتد، لكن رجل يقول: أنا مسلم، وأقول بما يقول أهل الإسلام، ثم ظهر منه أنه يحتقر القرآن، وهذا يوجد منهم الكثير، ودخلوا على بيوت الزنادقة في زمن المهدي أكثر من قتلوا من الزنادقة في تاريخ أمتنا في زمن المهدي والد هارون الرشيد، فلاحقوهم لأنه كثرة الزندقة في ذلك الوقت لغلبة الفارسيين وغيرهم، فصاروا يدخلون عليهم ويقتلونهم، فهم يقولوا: نحن مسلمون، لكن يذهبوا إليه فكما

رأينا في الآمدي يضعون له الحبر فلا يصلي هذا زنديق في وقتها، فهم يشهدون عليه أن هذا لا يصلي، أو يشهدون عليه كما شُهد على الحلاج.

الحلاج يقول: لا تقتلوني فأنا مسلم، ويقول: لا إله إلا الله ومحمد رسول الله، ودمي في رقبتكم وأنتم مسؤولون عنها، فيأتي الشهود فيشهدون عليه بأنه كتب كتبًا يحاول فيها أن يشابه القرآن «الطواسيم» كما تسمى يحاول أن يحاكي القرآن، فوجدوا هذه الأدلة البينة فحكموا عليه بالزندقة وقتلوه.

فالكثير من الزنادقة قتلوا، وقال ابن الجوزي: زنادقة الإسلام ثلاثة وأعظمهم أبو حيان التوحيدي فإنه كان يخفي والآخرون يظهرون، وهكذا، فتأتي الكلمات موهمة فإذا ثبت بيقين يُحكم عليه، وإذا بقية خفيًا من علمه حكم عليه ومن صدق من علمه حكم عليه، ولكن الناس يخالفون!

فمثلاً: الآن الحلاج –نبقى في سيرة الحلاج– فهناك من بعد الحلاج من بعد أن أجمع القضاة على أنه كافر حلال الدم ويقتل، وجِد من أهل الإسلام من دافع عنه في تاريخ أمتنا مثل السيوطي، فالسيوطي لا يراه كافرًا، يقول: أخطأوا الناس لم يفهموا كلامه، معذور الذي لم يكفره؟ معذور لأنه قلنا: هو يقول: لم تفهموني الكلام ليس هكذا وأنتم ... إلخ، فيأتي القضاة ويحكمون عليه.

ولذلك في التاريخ كان الزنادقة يحبون أن يساقوا إلى إمامٍ شافعي، أما إذا ساقوه إلى إمام حنفي أو إمام مالكي لا يرحموهم، وقاضي حنبلي لا يوجد، أخر أمر وضعوا حنبلي عادةً لا يضع الحنبلي.. لماذا؟ لأن الشافعي على ما رأينا من الظاهرية في الحكم، لكن الحنفية لاتهامهم بالإرجاء توسعوا في الأحكام، بالتفسير مختلفين فيه لكن متفقين، ولذلك في كتب الأحناف من المكفرات الشيء العجب، مثال ذلك: كان واحد يستهزئ بدابة القاضي، قال، هو ما أراد الدابة أراد القاضي وما أراد القاضي أراد حكم الله فالذي استهزأ بحكم الله كافر، فوسعوا الحكم لما اتهموا به.

السائل: نحن نعرف أن المرتد هو المسلم الذي يرتكب ناقض من نواقض الإسلام فيخرج من الملة، أتينا إلى طبقيات هؤلاء مثلاً الزنادقة فقلت وقد أعطيت مثالاً أن هذا الذي أراد أن يكتب آية أو الذي قال: أنا أؤمن بأن القرآن كلام الله ولكن لا أؤمن بالتشريع الذي أتى به القرآن، هل يمنع سلوك هذا ناقض من نواقض الإسلام ومن أنكر مثلاً شيء معلوم من الدين بالضرورة، أم يجعل زنديق، فكلام الإمام مالك أن هذا لا تقبل توبته؟

الشيخ: لا هو لا يقول هذا، لا يقولوا: نحن لا نقبل تشريع القرآن، فهم فنانين بتفكرهم زي حكايتك؟ هم يتعلمون من شياطين كبار يمدونهم ويعلمونهم ويلقنونهم الكلام يعني مثال ذلك لما يأتي واحد كاتب ويقول: الانتحار انتصار على الله عز وجل، في قصة له مشهورة الذي هو تركي الحمد، فيقول في إحدى قصصه أظن «العدامة»

فيقول: الانتحار هو انتصار على الله، فيؤتى به ويقولوا هذا كفر، يقول: لا، أنا ما قلتها، أنا أجريتها على لسان أحد أبطال القصة أنه كافر، تفضل انظر!! -تلاعب في الكلام- يعني هم شياطين، فلذلك المالكية والأحناف أدنى ما يقارب يقتلونه، أما الشافعية يتوسعون له، من أجل هذا كان إذا أراد الحاكم أن يقتل رجلاً على الزندقة أرسله لمالكي أو حنفي.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الرابع والعشرون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة هذا هو الدرس الرابع والعشرون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» في قوله تعالى عن المنافقين: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾ [البقرة: ٩-١٠]، لا نريد أن نطيل كثيراً، لأن هذا الموضوع شائك وكثير المباحث في موضوع النفاق تكلمنا إن شاء الله بما هو لازم له من ناحية وصفه ومن ناحية حكمه وكذلك أحوال المنافقين ستأتي في تفصيل هذه الآيات التي بين أيدينا في تفصيل أنواع المنافقين.

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، بعض أهل العلم يرى أن هذا من المجاز، مجاز يعني أنه حمله من الحقيقة إلى ما يدل عليه في معنى آخر، والأصل أن المرض هو في الأبدان ولكن هنا في القلوب في المعاني، والصواب أن هذا على الحقيقة كذلك، لأن المقصود من القلوب إرادتها فهي حيث ضعفت فدلت على مرض الإرادة.

وكيف نعرف أن هذا هو الأصل وهذه هي الحقيقة وهذا هو المجاز؟ فهذه قضيةٌ تتعلق بمشاكل مثبتي المجاز ونفاته، والمسألة ليست هنا يعني.

أنا قلت في الدرس الفائت وأتي إليه: بأن مرض القلوب، إما المرض فيها لعدم الاستعداد أي لعلةٍ فيها، وإما لقلة الإمداد، قلنا: إما لعدم استعداد القلوب ذلك لشللها ولضعفها هكذا هي في ذاتها ولو أنزلت عليها الماء لا تنبت كلأً ولا تمسك ماء ولا تحيا فيها، وكنتم قوما بورا لا تنتفعون بما يلقى عليكم من العلم والهداية والتقوى والمواعظ، وإما لقلة الإمداد لقلة الطاعات، كما أن البدن يحتاج إلى إمداد حتى يبقى قوياً وإلا فالزمن يستهلكه ويضعفه ويمرضه، وكذلك القلب فيحتاج إلى الإمداد بالذكر والطاعة وقراءة القرآن وهكذا.

وكذلك من أسباب المرض هو فساد الإمداد، من فساد القلب فساد الإمداد الذي يَرِده يعني المعاصي عندما تأتي على القلب تورث القلب المرض، وهذا بين وسيأتي تفصيله عند ذكر أنواع النفاق، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، أي الآيات، كيف؟ هنا يأتي التفصيل إن شاء الله فيما يأتي.

ولكن كذلك فساد الإمداد المعاصي النظر إلى المحرمات، أكل المحرمات، كلام المحرمات، المشي إلى المحرمات فكذلك هذه إمداداتٌ باطلة تمد على القلب كما تمد الأمراض البدن، لو أن المرء شرب ماءً موبوءة أو سُماً فإن البدن يمرض وكذلك القلب إذا مدة بالإمدادات الباطلة من الشبهات والشهوات، والشبهات هي ما تعلق بالعلم والتي قابلها الظن، والشهوات هي التي قابلها الهوى، الشبهات والشهوات هذه إمدادات القلب التي تورث النفاق.

قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وهذا من قبيل العدل الإلهي، فهل كل معصية –وهنا نأتي إلى مسألة مهمة– هل كل معصية لا بد أن تقابل بزيادة غواية من الله؟ الجواب: لا؛ لأن بعض المعاصي يقترفها الإنسان فيتوب منها فيعود القلب جلياً نظيفاً منوراً مزهرًا بعد توبته، ولكن هنا الكلام عمن استمراء المعاصي، الكلام هنا عمن كثرت لديه واستمرءها وصارت هي ديدنه، وصارت هي سجيته، فهذا الذي يقال: له ذلك.

أما المرء لو كان صالحًا في أصله، معتنيًا بقلبه معتنيًا بواردات قلبه من الطاعات، فإذا وقع في المعصية، ولابد أن يقع، (كلُّ ابنِ آدمَ خطَّاءٌ ، وخيرُ الخطَّائينَ التَّوَّابونَ)، الله خلقنا لنذنب، ليس لنذنب أي لتكون سجيتنا الذنوب فلا نخرج منها، المقصود أن الله عز وجل خلقنا ليرى منا التوبة، ليرى منا العودة الإنابة، العبد المنيب أي الذي إذا ابتعد عاد وإذا أدبر رجع، الله خلقنا لهذا فالمرء لا يعني أنه إذا أصابه مرض في لحظة من اللحظات أن تزيد عليه، لكن عليه أن يسكر وعليه أن يعالج الخرق الذي وقع عليه من واردت الشر، عليه أن يعالجها يعني كالذي يأتي عليه الماء إلى بيته فلو أنه تركه فسيعظم هذا الوارد حتى يدمر عليه بيته، ولكن إذا عالجه –وهكذا هو شأن الحياة– يعالجه فلا يبقى فيه إلا الصلاح بإذن الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، هذه لو أردنا أن نفسر القرآن بالنظر إلى نفس الرب وهو أجّل التفسير، دائماً تذكروا هذه القاعدة التي قلما تكلم عنها العلماء والمفسرون وهي لوضوحها في أذهانهم، لكن نحن نذكرها لأنها غائبة، أجل ما نفسر به آيات القرآن هو أن تفهمنا نفس الرب، أن تفسر هذه الآيات بأن تجلي لنا المعاني التي في نفس ربنا.

فقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، ثم ماذا قال؟ ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾، لو أردت أن تفهم منها نفس الله لعلمت منها الاستعلاء، لو أردت أن تفهم لما جاءت هذه ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾؟ حتى تعلم استعلاء الله عز وجل، لما أدبروا لم ينقص ملكه، لما مرضت قلوبهم فلم تقبل على الطاعات لم ينقص كبرياؤه، ولم تنقص عزته ولم ينقص ملكه، فقال تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾.

وربنا جل في علاه له الأسماء الحسنى وله المثل الأعلى، العاقل إذا أعطى شيئاً دل على استغنائه عنه، لما المرء ينفق مال دل على استغنائه عن هذا المال، وعدم حاجته إليه، فقوله: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾، أي زادهم طرداً، زادهم

إبعاداً، فلماذا يزيدهم إبعاداً؟ لأن الله عز وجل غني، لا يلحق بهم يقول: أين ذهبتم، قد نقص ملكي بمرض قلوبكم، قد نقص ملكي بمعصيتكم، لا، ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾، كيف تفهمها؟ تفهمها أن هذا دالٌ على عزة الرب، على عزته وكبريائه ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾، استغنى، فهذا ينبغي أن ننتبه له.

أيـــهـــا المـــعـــرض عـــنـــا إن إعـــراضـــك مـــنـــا

قال تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، الذي يُدبر الله غني عنه والذي يقبل الله يحبه، قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠] القرآن يأتي بكلمة أليم ويأتي بعظيم كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ [البقرة: ٧] عن الكفار ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، العظيم بالمقدار والألم بالنوع، الأليم لا يكون إلا لنوعٍ خاص، العظيم للكمية، العظيم تكون لما فيه كمية عظيمة فيقال: عظيم، كمية كبيرة فيقال: عظيم، الأليم لما يكون من نوعه، وكذلك المهين نوع إنما هو نوع الألم، لكن العذاب قد يكون أليماً، ولا يكون مقابل ما يهين، أي ترى المرء يمرض مرضاً مؤلماً، ولا يكون مهيناً، لا يهان الناس يحزنون عليه ولا يعدونه إهانة له، لكن الله عز وجل إذا عذب الكافر عذبه عذاباً مهيناً، والمهين من الإهانة، وفي ذلك زيادةٌ عن نوع الألم البدني وهو الألم النفسي، فالمهين إذن يدخل في نوع العذاب لكنه يزيد عليه أنه فيه الإهانة، وفيه التقريع.

فلذلك هذه أنواع ما يرد، وذكرت هذه الأنواع في ثلاث آيات متتالية في سورة «آل عمران»، ترى أولاً العظيم ثم الأليم ثم المهين، وكذلك تراها في سورة «الجاثية»، كذلك ترى المهين، وترى في سورة «النساء» ترى كثيراً ما ترى كلمة المهين، بلا شك أن لك ما ترون المهين فيها حالة نفسية، يعني لو إنك استقرأت لوجدت أن الإهانة إنما تكون مقابل شيء لا يفعله المرء لا ينبغي له، لا ينبغي له من أي جانب من جانب الإهانة، إذن ما الذي يقابل الإهانة؟ الاستعلاء، يقابل الإهانة الإعراض، واحد متكبر، يقابل الإهانة العزة فالله يهينه، كما قال عمر رضي الله عنه: «اضرب ابن الأكرمين»، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ [الدخان: ٤٩]، هذا مقابل هذه إهانة، فهذا يحتاج إلى استقراء واسع لكنني أنبه عليه هنا فقط وإن شاء الله يأتي التفصيل عند مواطنه.

فقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾ [البقرة: ١٠]، هنا بيان أن نوع العذاب أنه مؤلم، وقد يكون أليماً، لكنه لعمقه متألم ولكن عظيم يكون لكميته، وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾، هذه قاعدة الجزاء الإلهي فقوله ﴿بِمَا﴾ أي بسبب هذا ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾، فهذه قاعدة الجزاء الإلهي بأن هؤلاء كذبة، والكذب كما تعلمون هو ضد الصدق، وكفى به اسماً لوضوحه وعدم خفائه، كلمة كذب ما يختلف عليها أحد لا تحتاج إلى تعريف لو عرفناها لجعلنا فيها الغموض، بعض الكلمات تفسيرها تلاوتها، مجرد ما تقولها هي خلاص تفسر نفسها وتكشف حالها، فكلمة يكذبون هنا لا تحتاج لتفسير، لا تحتاج إلى بيان من أين أتت لكنها ضد الصدق، لكنها تبين قاعدة الجزاء الإلهي أن الله عز وجل لا يعذب إلا لسبب يأتي به العبد، وهذا من بيان عدل ربنا سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠]، وهو القاعدة التي تكلمنا عنها أن القرآن يأتي بالحال ويأتي بالمآل، القرآن يأتي بالحال ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ هذا حالهم، والمآل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فكما تقدم في القرآن من حالهم ومآلهم كما تقدم في قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾ [البقرة: ٥]، الآن هذه التي تقدمت بالأوصاف فهؤلاء فيهم الخداع وفيهم الكذب وهذا جزاءهم في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)﴾ [البقرة: ١١]، هذه أفضل ما قرأت ولا يستطيع في الحقيقة إلا القليل أن يأتي بزيادة عما قاله بكلمات يسيرة ابن عطية في تفسيره، ولذلك سنقرأ كلام ابن عطية في المحرر الوجيز لأنه كلامٌ رائعٌ في بيان تفسير هذه الآية، وسنرى أن هذه الآية الآن ستكشف لنا على قاعدة رفع المرايا، سنرى كيف تكشف المعاصرين، وكيف تكشف في كل وقت هذا النوع من النفاق، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

أقرأ لكم ماذا قال هذا الإمام، ونأتي عليه إن شاء الله بشيءٍ من التفصيل لأن كلمات هذا الإمام جامعة في هذا الباب، فبعد كلامٍ في قضية ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، ونحن لا نريد هذه القضية ولكن أنا أريد ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، هذه التي نراها اليوم كثيراً، هذه الآية هي شعار المرحلة إلا من اتقى وأصلح وبر على الحقيقة، وإلا فهذه الآية تصلح أن تكون شعار الناس في هذا الزمان جماعات ومشايخ وأناس في بيوتهم ومفتون، تصلح أن تكون لهؤلاء جميعاً.

انظروا إليه وتأمل هذه الكلمات قال: «ولقول المنافقين إنما نحن مصلحون ثلاث تأويلات»، وكلمة تأويل فقط هنا في بيان مفاتيح كتب التفسير، لأن كلمة تأويل عند الأوائل لا تحتاج إلى تفسير، هي تكتب في كتب التفسير، اليوم كتب التفسير التي كتبت لتفسر هذه الكتب بحاجة إلى تفسير، لجهلنا ولضعفنا، فبعض الناس يأتي لكلمة تأويل ويحملها على المعنى الذي يذم، على الذي يقبل، على المعنى الذي يُرد ... إلخ، فالآن مثلاً الفقهاء يقولون وتأويل، والتأويل عندهم هو الاجتهاد، في كتب الأصول وكتب الفقه التأويل هو الاجتهاد، يعني التأويل هنا ما يجتهد المرء في تفسير هذه الآية من أجل أن يُخرج حكماً، من أجل أن يُطلع للناس حكمًا فهذا هو التأويل هو الاجتهاد في لغة الأصوليين ولغة الفقهاء، وفي لغة المفسرين تعني التفسير ،كما يقول الطبري: وتأويلها يعني تفسيرها.

فلماذا التأويل تأتي بمعنى التفسير؟ ذكرنا هذا سابقًا أن التأويل هو من آلَ، ماذا تعني آلَ؟ يعني صار تحول، تحول من حالةٍ إلى حالة فآل، فيقال هذه تأويل يعني نقله من حالةٍ إلى حالة، وكيف ينتقل الشيء من حالة إلى حالة، لأن وجود كل شيء كما يقول أهل العلم يقولون: كل شيء له أربع وجودات، وجودٌ ذهني، وجودٌ لفظي، وجودٌ كتابي، وجودٌ حقيقي، كل شيء فهذا التمر أنت لو قلت: كلمة تمر فهذا وجود ذهني أنت تتصور التمر تفهمه في ذهنك، وكذلك نطقته بلسانك تمر، وله وجود حقيقي، وله وجود كتابي تكتب كلمة تمر، فأنت تنقل هذا الشيء من حالةٍ إلى حالة.

فمثلاً لنأتي لكلمات معاصرة فلو قلت: ماموث، سألتك ما الماموث؟ هذه كلمة حاضرة في اللسان، وقت أكتبها ماموث ولها وجود حقيقي سنعرف ربما هي كلمة تدل على شيء أسطوري، مثلاً كلمة تنين لها وجود في الأذهان لها تصور يعني التنين حيوان كذا، ينفث النار فله وجود في الأذهان لكن ليس له وجود في الواقع البتة، هو أسطوري لا وجود له، فهذا الذي يسمى أسطورة ويسمى خرافة وهذا هو الكذب هو أن يوجد الشيء في ذهن المرء لا وجود له على الحقيقة كما تقول النصارى المسيح ابن الله، هم في أذهانهم أنه ابن الله في الواقع هو عبدٌ من عبيد الله.

فالتفسير إذن هو نقل الشيء من حالةٍ إلى حال لكن كلمة ماموث التي نعود إليها، فأنت تنطق ماموث يقول الآخر فسر لي إياها؟ مثل لي الماموث؟ فحينئذٍ نذهب إما إلى القياس الشمولي، وإما إلى القياس التمثيلي، القياس الشمولي وهو أن نخرج فرعاً من أصل، القياس التمثيلي لا، ندخل فرعاً في أصل، وهذا الذي يستخدمه المناطقة لا نريد أن نأتي عليه الآن.

المهم فأنت الآن تقول ما هو الماموث؟ فإما أن تمثل له، تذهب وتأتي بمأموت وتقول له: هذا هو الماموث فهذا اسمه تفسير آلَ الشيء من حالةٍ ذهنية إلى حالةٍ واقعية، الآن موجود في ذهنك، فتقول له: الماموث حيوان وو ...إلخ، كما تقول عن الإنسان، ماذا تعرف الإنسان؟ حَيوانٌ ناطق يعني فيه حياة وينطق، لكن لو جئت للفرس ماذا تقول عنه؟ حيوان يصهل، لأن الصهيل خاصٌ بالفرس فهذا تعريفٌ له فأنت تصورت ما هو، لكن هذا ممكن أن تقربه إليه بالتمثيل، تأتي بحصان تقول له: هذا هو الحصان، هذا اسمه تفسير، فآلَ الشيء هنا آلَ أي صار من حالةٍ لسانية إلى حالةٍ ذهنيةٍ إلى حالةٍ واقعية، كتابية الأشياء وكيف يعبر عنها.

إذن ما هو التأويل؟ هو صارت الصيرورة، نقل الشيء من حالةٍ إلى حالة، هذا مطلق، أي حالة؟ الآن لو نأتي إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)﴾ [الإخلاص: ١-٢]، ونريد أن نبين لك معنى كلمة الصمد أي ننقلها من حالةٍ إلى حالة، أنت تجهل ما هي كلمة الصمد، قلنا لك: الصمد يعني السيد، فهمت الصمد هو السيد الذي كمل سؤدده، ففسرناها فماذا هذا اسمه؟ نقلناها من حالة لحالة، اسمها تأويل.

ولما قال يوسف عليه السلام: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ [يوسف: ١٠٠]، انتقلت الرؤيا من عالم المثال إلى عالم الواقع، صارت واقع قال: هذا تأويلها، آلَت من حالةٍ ذهنية، فالرؤيا من عالم المثال، فانتقلت من هذا العالم إلى عالم الواقع، فقال: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾، فلما يقول إنسان تأويل، فأنت تريد أن تعرف من أي حالةٍ لأي حالةٍ آل.

فالآن لما يأتي هذا المفسر لنا للكلمة يحولها من أي حالة لأي حالة؟ من حالة اللفظ إلى حالة الذهن، لا يأتي لنا بمثال، ولا يأتي بصورة ولا يحضر لنا شيئًا يقول: هذا هو، فهو يفسرها لنا، ولذلك يقول: وتأويل الآية كذا، أي

أفسرها لك، فأنت جاهل هذا اللفظ وتسوقه على لسانك وهو مكتوب هنا بلفظه بين يديك فأنا أفسره لك، أي أجعل لك تصوراً في ذهنك تعلمه، أجعل لك في ذهنك علماً به يتم أبعاد الجهل عنه.

فلماذا لما يأتي أحدهم لابن جرير أو لابن عطية أو لغيره، لما يقول تأويل الآية فيحملها على معنى نقل اللفظ من حقيقته إلى معنى آخر يحتمله اللفظ؟ من أين جئتم بهذا؟! التأويل هو التفسير، فلما واحد يسأل ما تفسير قول الله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]؟ تفسيرها أن قوة الله عز وجل فوق قوتهم، هذا تفسير صحيح، لكن هل هذا إلغاء لكلمة يد الله الحقيقية أنها نسبة له؟ فقط مانع ذلك ما يقولونه مانع ذلك أن هذا لا يتصور في حق الله، ما أدراك أنت؟! من أين أتيت بهذا الكرام؟! أنت علم أم الله؟! يعني أنت تستدرك على الله عز وجل أنه لا ينبغي أن يستخدم هذا اللفظ، الله عز وجل: قال: له يد خلاص انتهى، وهكذا.

فالقصد: أن التأويل بمعنى: آلَ، صيرورة، لأي شيء؟ عليك أن تنتبه حسب الحديث حسب موطنه، فيقول: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ [يوسف: ١٠٠]، انتقلت من حالة الذهن والمثال إلى حالة الواقع تأويل، وانتقلت من حالة الجهل إلى حالة العلم هذا تفسير، وهكذا.

نرجع إلى كلام ابن عطية رحمه الله قال: «ولقول المنافقين إنما نحن مصلحون ثلاث تأويلات: أحدها جحد أنهم مفسدون، وهذا استمرارٌ منهم على النفاق» إذن الحالة الأولى: أن ما يفعلونه هو الصلاح وليس هو الفساد، الحالة الأولى هو نفي نسبة الفساد إلى ما يفعلون، نحن الذي نعمل به هو الصحيح هو الصلاح وليس هو الفساد!! هل هذا الواقع موجود اليوم فيمن يأتي المعاصي يأتي الربا ويأتي الزنا ويفتحوا بيوت للدعارة ... وإلخ، فإذا قيل لهم هذا فساد ماذا يقولون؟ هذا عين الصلاح ولا حياة للأمة إلا بهذا!! نحن نصلح!! نحن الذين بالربا نحضر لكم الأموال من العالم، فالعالم يصب المال صبًا عليكم بالربا وببيوت الدعارة والكازينوهات ومواطن السياحة نحن نصلح الاقتصاد!! ألا يقولون هذا!! ولما اصطلحوا مع اليهود وباعوا فلسطين قالوا: نحن مصلحون!! هذا وستفتح لكم البلاد ويفتح لكم الاقتصاد وإلخ، ستصلح الحياة!!

فهذا نفيٌ منهم لما هم فيه، وهذا حملٌ على الحقيقة ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، هذا ظنهم، فإذن هذا النفاق؛ نفاق اعتقادي، لكنه لا يتعلق بالخبر، يتعلق بالأمر فقط هذا للذكر على أن النفاق العملي يكون كذلك كفراً أكبر أن يعودوا إلى اعتقادهم في هذا الأمر، أي لما إبليس ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢)﴾ [الأعراف: ١٢]، تعلق بالأمر ولكن رد الأمر على الله عز وجل، فبقي متعلق بالفعل أي متعلق بالأمر، إبليس بقي تعلق كفره بماذا؟ بأمرٍ صدر إليه، وهؤلاء الذين يقولون هذا الكلام أين كفرهم؟ كفرهم يتعلق بالأمر أم بالخبر؟ يتعلق بالأمر، ومع ذلك هو كفر أكبر.

فكما ترون أن هذا الكفر ليس فقط له جانب واحد هو متعلقٌ بالأمر، وكذلك متعلقٌ باعتقاد أن هذا الأمر يحقق الصلاح على هذا المعنى، لأن الذين يقولون: العلم، يقصدون به الاعتقاد ويقصدون به ما تعلق به الخبر وهنا لا نرى خبرًا، هنا نرى فقط أمراً، أي لما نقول: إن الربا حرام، يقولوا: الربا هو الذي يصلح الناس، تعلق بماذا؟ تعلق بالأمر فهذا كفرٌ أكبر وهذا نفاق أكبر.

قولهم إذن هؤلاء ردوا على الله أمره ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)﴾ [البقرة: ١١]، إذن هم يعتقدون أن هذا صلاح وهل هذا إقرار من الله عز وجل بأن هذا هو اعتقادهم في أنفسهم؟ هذا وجهٌ من الوجوه، هو يريد أن يقول ابن عطية هنا: أن أحد وجوه هذه الآية أنهم على الحق يقولوا: هذا تخلف، الآن هل الحياة تعيش بلا ربا؟!! هل الحياة تعيش اليوم بدار إسلام ودار كفر!! ما هي دار الإسلام ودار كفر؟!! هذا تخلف قديم اليوم انتهى!! هل الصلاح يقع بالجهاد! اليوم السلام هو الذي يعم! تطبيق قوانين الأمم المتحدة بعدم اعتداء الشعوب بعضها على بعض! بعدم تمايز الأديان كل الناس سواء بغض النظر عن دينهم وعن كذا!! هذا يعتقدون هو الذي يصلح البشرية.

ولذلك بعض المنافقين القصد: الزنادقة، يقولون: بأن الحروب لا تنشأ في الوجود إلا بسبب الأديان، يقولون: أن السبب الذي يُنشئ الحروب والخلافات والخصومات بين الناس هي الأديان، فلو أبعد الناس الدين عن الخصومة وعن الحياة لعاشوا في سلام!!

فهل هتلر قاتل المجوس؟! هل قاتل كفاراً بالنسبة إليه؟! هذه الحرب العالمية الثانية التي قتل فيها أكثر من عشرين مليون بني آدم، لم؟ على أي دين يقتلون؟ البشر فيهم نزعة التملُك، فيهم نزعة الاستعلاء، فيهم نزعة الاستملاك، وهذا جزء كبير مما تقع فيه الحروب، في التاريخ الحروب التي نشأت من أجل الدين فقط، قليلة، وإلا فغالب الحروب نشأت من أجل العصبية.

هل تظن أن النصارى الروم كانوا يقاتلون المجوس الفرس لأنهم كفار؟ أم هو صراع بين إرادات وصراع على ممالك وعلى سلطان؟ صراع على ممالك وسلطان، والكثير من الحروب تنشأ هكذا وضربت.

قال: «جحد»، الجحد يعني هو التكذيب، «جحد أنهم مفسدون وهذا استمرار منهم على النفاق»، وأنا أحببت للتفصيلات هذه التي يقولها أحببت أن أقرأ كلامه لأنكم إذا قرأتموه بالمعنى الذي أراده الشيخ علمتم واقعكم وعلمتم ماذا يقول الناس اليوم.

قال رحمه الله: «والثاني أن يقروا وأن يعترفوا بموالاة الكفار ويدّعون أنها صلاح من حيث هم قرابةٌ توصل»، وهذه فائدة جليلة يقولها شيخ الإسلام وجدتها كذلك لما شرحت الموافقات مع الإخوة هذا كذلك موجود، العالم يتكلم

كلاماً عاماً فإذا مثّل لم يستحضر إلا ما هو حاضرٌ في زمانه، هو يتكلم كلام عام لكن إذا مثل يستحضر ما هو حاضرٌ في زمانه.

فذلك قوله: «لأنها قرابةٌ توصل» هذه في ذهنه، وإلا في الحقيقة الكلام العام لأنهم يدّعون أن موالاة الكفار فيها الصلاح، فلذلك هو قَصرَ بعض معاني ما نهوا عنه من الفساد؛ وهو موالاة الكفار على هذا السبب وهذه العلة، لكن هناك أسباب كثيرة، تجعل موالاة الكفار من قبل هؤلاء.

قال: «يقروا بموالاة الكفار ويدعون أنها صلاح»، ترون هذا الكلام في العملاء وفي الجواسيس، تراه في الأتباع في الخول، الخول: التابع لغة صحيحة هذه، رجلٌ خولهم أي يتبعهم، لأنهم يرون هذا يحقق لهم النفع نحن مصلحون نحن نحضر المال، نحن نأكل ونشرب ما المشكلة؟!! فهذا من نوع النفاق، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ [الكهف: ١٠٤]، وقال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)﴾ [البقرة: ١١]، فيقر بموالاة الكفار ويدّعون أنها صلاح.

كيف صلاح؟ أول شيء في أمن الشر، أنه يأمن شرهم، يأمن شر الكفار ويقول: إذا نافقناهم وإذا كنا معهم آمنا شرهم أو أنهم يكسبون منهم المال، قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢]، –إلحك حالك– هؤلاء جماعة الحق –الحك–، هو في فرق بين الحق والحق –الحك–، هما تكتبان نفس الشيء من غير علامات، فيوجد جماعة الحق ويوجد جماعة الحق –الحك–، فهؤلاء من جماعة –الحك حالك خربانة الحق زبط حالك عندهم–.

فالله يقول: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ٥٢]، كيف ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾؟ هو يسارعون إليهم، يسارعون يذهب إليهم يسرع إليهم، فإذا أسرع إليهم صار منهم، فقال تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾، هو يسارع إليهم فيسرع إليهم حتى يصبح منهم، فيصبح فيهم.

﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢]، هؤلاء إذا أتوا علينا يذبحونا فإذا غلبوا فعلينا أن نؤمن أنفسنا قبل أن يضيع الوقت، ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾، فقال تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢)﴾ [المائدة: ٥٢]، العاقبة لن تكون لهم.

ولذلك لما دخلوا الأمريكان العراق تركوا أيتامهم المساكين، من أيتامهم؟ عملائهم في كل وقت وغدًا سيترك كل طاغوتٍ أيتامه، ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾، هذه قاعدة.

قال رحمه الله: «والثالث ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، أنهم مصلحون بين الكفار والمؤمنين فلذلك يداخلون الكفار، يعني إذا قيل لهم لماذا تفعلون هذا؟ يقولون: نحن نصلح بينهم نحن نخفف شر عن المسلمين!! يصلحون

أحوالهم بينهم وبين الكفار، وترى في هذا الكلام الغريب لابن عطية وكأن النفاق لا تكون حالته إلا مع الصلة مع الكفار؛ لأن هذا هو الحال في زمانه، في زمانه دولة الأندلس مماسة للنصارى، فهي الحد المتصل بين المسلمين وبين نصارى أوروبا، فهذه الحالة منتشرة فيها كلام كثير، فهذا ما يستحضره في ذهنه، وهذا ما ينبغي أن يستحضر في ذهننا اليوم، ما هي حالة النفاق هذه؟ هي التي نراها اليوم، مصلحون كلهم يزعمون الإصلاح، لماذا تفعل كذا؟ يقول لك: هذا هو الذي تصلح به حالي، أو يصلح به المسلمون أو يصلح به الحال كله، دعكم من الدين هذا إصلاح الحال كله، هو ينتفع هذا إصلاح لنفسه بين المسلمين والكفار هو يزعم، والأصل هو في الحقيقة أنهم لا يثقون بوعد الله عز وجل، فهذا ما أحببت أن أقرأه لكم في كلامه.

نرجع إلى الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني تركها الله عز وجل كما يقال: والفاعل هنا غير موجود، ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ من الذي يقول؟ غير موجود فكلهم يقول لهم، وكأن الناس جميعًا يقولون لهم، أو كأن قلة تقول لهم يمكن هذا ويمكن هذا، ولكن المهم أن القول قد وصل إليهم، فلا يهم من قيل، هذا يسميه العلماء مبني للمجهول، الأوائل يرفضون هذا الاسم، هذا مبني للمجهول هي تسميته المتأخرين، وإلا فالأوائل قالوا: ما أزيل فاعله، يعني أين الفاعل الذي يقول؟ غير موجود.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١]، هنا دائمًا أيها الإخوة الأحبة أريد أن أنبه على مسألة يقع فيها بعض المفسرين دائماً للأسف تجد أن كلمة الأرض إذا جاء بها أو أتى إليها المفسر يقع مرات في إشكال أن كل الأرض، وهذا غير صحيح، يأتي إلى كلمة الأرض فيظن أنها كل الأرض كما فسر بأن الطوفان استغرق الأرض كلها وهذا غير صحيح، يعني ليس من عدل الله أن يهلك قوماً بذنوب غيرهم، فعندنا قوم اسمهم قوم نوح عصوا الله عز وجل كيف تجري سنة الله عز وجل بهلاك قوم نوح، وليس بكل الأرض، هذه من سنن الله عز وجل.

ولما نأتي إلى سليمان عليه السلام ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١]، الكلام على الأرض التي بارك الله فيها، وليس إلى كل الأرض، لكن إذا أطلقت كـ ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فالمقصود بها جميع الأرض، فأما أن تأتي في مناسبة لذكر حالة فالمقصود بها الأرض التي يتحدث عنها القرآن والحالة التي يجري فيها الحدث.

فقوله تعالى هنا عنهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾، المقصود بها: الأرض التي هم فيها، أنه لا تفسدوا في الأرض التي أنتم فيها، وليس جميع الأرض.

﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)﴾، ما تقدم، وهنا مسألة هؤلاء الذين قالوا لهم لا تفسدوا في الأرض ما هي مرجعية الصلاح والفساد؟ القرآن، فإذا ﴿قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾، مرجعية من قال الفساد لهم هو القرآن والسنة، فإذن هذا المقصود ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾، المقصود بهم أهل الإيمان، قال لهم لا تفسدوا في الأرض لماذا؟ لكما

سيأتي في بيان إن شاء الله الآيات التي تليها، فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾، المقصود أنه قيل لهم: أن أمر الله عز وجل يقتضي هذا لأن فيه الصلاح وأنتم على الضد منه فأتيتم بالفساد، فردوا عليهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)﴾، على ما تقدم من الكلام.

وهنا بلا شك ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)﴾ [البقرة: ١١]، ترون أن الحديث عن النفاق هو حديث -هنا فقط الذي في هذه الآية- عن معيارية الأرض، ما معنى هذا الكلام؟ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾، ولم يقل لهم: ولا تعصوا الله؛ لأن هذا الخطاب لا يصلح لهم، لماذا قال الله عز: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٨]، هذه حسمت، ميزان الحق أنه من الله عز وجل كما تقدم أنه الحياء من الله عز وجل، وميزان الحق أنه في العاقبة في اليوم الآخر هذا متلاشٍ عندهم، هذا لا وجود له عندهم؛ فتقدم الكلام فيه.

إذن هؤلاء بعد أن فرغ أمر بيان حالهم فيما يتعلق بمعيارية الحق أنه من الله عز وجل، وأنه يجب الإيمان بالله عز وجل وطاعة أمر الله عز وجل ومعيارية الحق بما يحقق من عاقبة في الآخرة، هذا الأمر قد انتهى منه، إذن كيف سيقع الخطاب؟ فانتهى الخطاب، أما للمؤمن، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، خلاص قال الله عز وجل، لكن هؤلاء تقدم الخطاب أن هذا لا ينفع معهم، لا يخافون الله عز وجل لا يأتمرون بأمره لا يرون له وجوب الطاعة وامتثال الأمر، فلذلك انتهى الأمر، لماذا يعود عليه؟ ولذلك قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا﴾، جاء الخطاب في جانبٍ آخر يتعلق بقانون الفساد والصلاح في الوجود، بما يجري.

وها هنا القرآن بعد أن أبعد عنهم أعظم صفة يجّل بها الإنسان ويعظم بها الإنسان وهو الإيمان بالله واليوم الآخر، هنا أخرجهم من دائرة الشعور، فقال بعد قولهم: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢)﴾ [البقرة: ١٢]، صفة الإيمان هذه صفة مدح، صفةٌ جليلة يرتفع بها المرء، ولكن حين تأتي المسألة للصلاح الفساد، فينبغي أن يكون هناك معيار إنساني قاسم مشترك للبشرية للتفريق بين الصلاح والفساد، كما تكلمنا في الدرس الفائت عندما تصبح المسألة تتعلق بما سماه الناس في كل البشرية، سماه عورة، أعطني قوماً من الأقوام إلا القلة وإنما بما جرت به العادة، أنهم يستقبحون من العورة، اسمها عورة، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٦]، سوءة.

فإذن البشرية متفقة على أن هذه عورة مستقذرة، هذه سوءة يستعر منها ويستحيا منها، فحين يصبح النقاش في مثل هذه الأمور، ماذا يقال له؟ خرج عن دائرة الشعور، انتهينا من دائرة الإيمان، الآن الشرع القرآن سلب عنهم صفة الشعور لأن الصلاح والفساد أمرٌ فطري لا يحتاج إلى مَلَكة إدراكٍ فوق كونه إنساناً، يعني هل الطفل الصغير

يفرق بين التمرة والجمرة؟ لكونه إنسان يحس يفرق بين التمرة والجمرة، والإنسان يفرق بين كأس الماء الرائق وبين المجاري القبيحة المستقذرة يفرق ولا يشرب البول.

والبشرية -خلينا فيما ذكره ابن عطية رحمه الله- والبشرية جمعاء تستقبح الخول والعميل والمنافق، ذكرنا لكم قصة الإعرابي الذي اشترى الحجلة فذبحها، اشترى الحجلة لما رآها تخون صويحباتها فاشتراها فقام وذبحها، فقال له: هذه يا رجل حجلة مدربة، قال: هذه عاقبة من خان بني جنسه؛ فالناس يستقذرون العمالة ومع ذلك هم يجعلونه صلاحاً.

ولما دخل هتلر فرنسا أنشأ حكومةً في فرنسا سميت بحكومة «فيشي»، لما رجعت القوات فرنسا وأخرجت هتلر من فرنسا حوكم هؤلاء كلهم بتهمة العمالة وقتلوا جميعًا، بالرغم أنهم لو انتصروا لكانوا حكماء، قانون النصر والهزيمة، لكانوا حكماء؛ لأنهم في اعتقادهم أرادوا أن يجنبوا فرنسا مهلكة هتلر لفرنسا، قالوا: لا، نعطيك ما تريد ونحن نمشي على منوالك، فلما انتصر الفرنسيون وعاد ديغول إلى فرنسا حُكموا جميعًا، وهذا هو القانون، أن الذي يأتي بالفساد ولا يشعر به أنه لا يستحق الحياة.

والذي يريد أن يجعل بلاده مثل الماخور يستقدم العاهرات من أجل أن تأتي الطائرات، من أجل أن يبذلوا الأموال ويصبح فيها النساء العاهرات ويصبح الربا وكذا، هذا خرج من طور الإنسانية، القواد الذي يرى الفاحشة والديوث الذي يرى الفاحشة على أهله وعلى إخوانه وعلى أهل بلدته، هذا لا شعور له فخرج عن دائرة مسألة الإيمان بالله واليوم الآخر، هذا خرج عن دائرة الشعور، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾، ذلك لأن الفساد رائحته كرائحة القذر في الأنف، فإذا مات تميز رائحة القذارة في الأنف خرج عن دائرة الشعور، انتهى خلاص، القبائح في عقل المرء وفي قلبه حالها كحال الرائحة القبيحة في الأنف، لو رجل شم رائحة قبيحة فتصور رجل يستمرئ هذه الرائحة القبيحة حتى تصبح عنده هي رائحة الطيب، هي العود المندى.

ولأن المسألة مسألة إحساس والشعور يتعلق بالإحساس وليس بالإدراك، فقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢)﴾ [البقرة: ١٢]، هؤلاء انتهى الخطاب معهم ولا ينفع معهم إلا الاجتثاث.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾، وهذا كقولك عن الرجل: إنه هو الرجل أي حقا، إنه الرجل حقا، فقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾، دل هذا على أن الوصف قد استغرقهم تماماً كاملاً، فحينئذٍ استحقوا هذا الوصف من جميع جهاته، ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢)﴾، تشجع وتقوي أن قولهم: إنما نحن مصلحون على الحقيقة، وليس على جهة المراءة، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)﴾ [البقرة: ١١]، يمكن أن يأتي مفسر

ويقول: إنما أرادوها بألسنتهم مع علمهم بأنهم مفسدون ولكن قوله: ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢)﴾، دل على أنهم على الحقيقة ومسخت فطرتهم، مسخت على الحقيقة، فهو يتكلم على الحقيقة.

فلو كان هؤلاء من سفلة القوم لا قيمة لهم، أيعتني بهم القرآن؟ هنا تأخذ خلفية الحديث، الإطار الذي يتحدث عنه القرآن، لو كانوا من سفلة القوم، أي ناس لا اعتبار لهم مساكين مثل الذين يعملون في الأسواق ويبيعوا، ليس لهم دخل في الحياة، وهؤلاء «الي بتجوز أمي بقول له عمي» يعني لا قيمة لهم، فهل القرآن يعتني بهم هذا الاعتناء؟ لأنهم قوم يلبسون ربطات العنق -الكرفات- ويضعوا أفضل الطيب، ويملكون أكثر الأموال، وهم أكثر الناس في بعض الأوقات، ومع ذلك هذه هي صفتهم هذا هو حالهم لا قيمة لهم، فلا تهتم بكثرة من سقط، ولا يغرنك بكثرة من سقط، ولا تعجب بكثرة من سقط ولكن تعجب بوجود من نجا.

ففي وقت من الأوقات لما يكثر القصف كما سمي في بعض الكتب بقصف العقول -أتحدث عن نفسي- لما صار الصلح مع اليهود وجلسوا في مؤتمر مدريد، بيني وبين نفسي قلت والله الآن كيف يعني؟! الأخبار والتلفاز والناس والتضخيم، السلام سيعم، الرخاء سيعم، رغد الحياة سيعم، انتهى خلاص، قلت: -وأشهد الله أذكر إني جالس هكذا وأرى هذا الحدث- قلت: أن مهمتنا شاقة في تصويب الناس، ماذا ستقول لهم؟ كل هذا الدفق كل هذا القصف للعقول، كيف ستقول لهم؟ اهدأوا قليلا انتظر، بعد ذلك وإذا الروائح الكريهة وإذا هي قاذورات لكنها على طبقة من الشوكولا، المسكين نزل في المعلقة وإذا الطامة كبيرة.

فلذلك في كثير من الأوقات المشكلة في القصف، الكثرة هم الذين يأتون ويتكلمون وأنت إذا تكلمت عن الحقائق يعاب عليك وتستقذر وتصبح غريب وو ... إلخ، لكن ما الذي يكشف بعد ذلك؟ اتركها للزمن، هل من حكمة الله عز وجل وعدله وسنته أن يبقى الشر غالباً أم يكشف بعد ذلك؟ مهما بلغ، مهما كبر، مهما انتفش، مهما عظم، سيأتي من يكشفه، بعض الناس تقول له: اصبر قليلاً، يأتيك كل يوم يطرق الباب يقول: متى ينكشف؟ بعض الناس هكذا يا مشايخ، تقول له: هذا باطل، ويأتيك ثاني يقول لك: متى، صار لنا أسبوع صار لنا عشر أيام صار لنا سنة، مئة وعشرين سنة مكث الصليبيون في بلاد الشام، تصور شيخ قال لهم: سيخرج الصليبيون، متى؟! تضحكوا علينا! صار لكم ستين سنة تقولوا: سيخرج الصليبيون، صار كم سنة تقولوا: اليهود سيهزمون، متى؟ خلاص انتهينا جيل جيلين بعدين؟ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ﴾ انظر هذا التأكيد، ﴿إِنَّهُمْ﴾ تأكيد هذا، ﴿هُمْ﴾ الذي قلناه فيما تقدم من الكلام ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١]، هنا نقطة مهمة جداً، وانظر إليها أنها متعدية، إفساد ليس فاسد، ولذلك لم يقل ألا أنهم هم الفاسدون، ولم يقل وإذا قيل لهم لا تفسدوا، قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)﴾، يتعدى فعلنا لغيرنا، الله قال: ﴿مُفْسِدُونَ﴾ يتعدى.

لتعلم وتتعلم أيها الأخ الحبيب أن الشر لن يكون في حياة البشرية ساكناً فإياك أن تجعل الحق ساكنًا، إياك إذا جاء على ذهنك في لحظة من اللحظات أن الشخص ساكن أتركه لا تفوره، فأنت جاهل بحركة الحياة، جاهل بحركة قانون الحياة، والآن نرجع إلى الخلفية لنتحدث، لماذا ينشأ النفاق؟ ينشأ النفاق لغلبة الإسلام، يعني النفاق نشأ في وقت عزة الإسلام ونصرته، إذن من الأغلب بيئة هذه الآيات في غلبة النفاق وأم في غلبة الإيمان؟ قطعاً في غلبة الإيمان.

فيجب أن تقرأ الآيات ليس فقط في مجالها البياني، ولكن كذلك في مجالها التاريخي والجغرافي، هذا مهم جداً، فإذن هذه الآيات نزلت في وقت غلبة الإيمان وخفاء النفاق وسره، ولذلك اضطر أن يدخل في جحوره، النفاق اضطر أن يدخل في جحوره، لماذا؟ لسطوة الإيمان وقوته، ومع ذلك القرآن ماذا وصفهم؟ مفسدون، والأصل هو أن هذا النفاق قد دخل في جحره وسكن، انتظر حتى تأتي الفرصة فيخرج، القرآن يقول: لا، يقول: هؤلاء: ﴿مُفْسِدُونَ﴾، وهم يقولون: ﴿مُصْلِحُونَ (١١٧)﴾، فدل هذا على أن حركة النفاق لا يمكن أن تكون ساكنة، لابد أن تبقى متحركة وفاعلة وعاملة ومؤثرة وبالتالي يجب أن يقابلها الحق الذي كذلك هو يسعى ويعمل هذا لنا، ولذلك قال: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾.

فلا يوجد أحد صالحٌ في نفسه لا يكون مصلحاً لغيره، حتى في قصة الفتى، متى بدأ تغير الوجود؟ كان هناك ساحر وكان هناك ناسك وراهب، الراهب لوحده حتى لما جاء تعلم منه الفتى أي اقتبس من نوره نورا، واقتبس من شمعته وقودا، فتحركت الحياة صارت لها وجود آخر، ينبغي للحق أن يتحرك، وحين يتحرك الحق يبدأ الصراع، لو كان الحق في نفسك لا يحصل صراع فإياك أن تسكن، إياك أن تكِل، إياك أن تتوقف، ذلك لأن الشيطان يعلمك، الشيطان هو أكبر معلم لنا في هذا الباب، هل توقف الشيطان؟ كم من مر على الشيطان من الأنبياء؟ ممن خرج من تحت يديه ولم يفلح معه في مكره وفي وسوسته وفي شيطنته؟ كم خرج من الصالحين؟ كم خرج من الأنبياء والأولياء والعباد؟ هل يأس؟ في يوم استقال؟ هذه لنا أيها الإخوة الأحبة.

إذن نحن علمنا أن الشعور هي حالة من الإحساس الأولي فالقرآن يقول: لا يؤمنون كذلك لا يشعرون، وإذا جئنا إلى مسائل الإدراك انتهينا، مسائل الصلاح والفساد هي مسائلٌ فطرية، مسائل تتعلق بإحساسك بفطرتك هي التي تحدد لك هذا ثم جاء إلى مسائل الإدراك، مسائل الإدراك ما هي؟ هي مسائل تحتاج إلى عقل، تحتاج إلى فهم، تحتاج إلى مناقشة، ... إلخ.

فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾ [البقرة: ١٣]، أولاً: هذه الآية كما تقدم لما قال تعالى: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ١-٢]، قلنا: دلت هذه الآية على شرف أبي بكر رضي الله عنه هو الذي جمعه في كتاب، هو الذي جمع هذا القرآن، القرآن يعني

يقرأ في كونه مكتوبًا، فهذه حالة القرآن إما يتلى وإما يكتب، فاسمه الكتاب واسمه القرآن، فالآية دلتنا على عظمة أبي بكر ومن معه الذين استشارهم وقاموا بالعمل، فأمامهم هو أبو بكر والصحابة من ورائه رضي الله عنهم.

وهذه الآية ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾، فأول ما تعطينا شرف إيمان هؤلاء الذين جعل الله إيمانهم مرجعًا للقبول ومرجعًا للصواب، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾، هذا خطاب أولي لمن؟ للمنافقين في زمن النبي صلى الله عليهم وسلم، فمن الناس إذن الذين يُرجع الله إليهم هؤلاء الناس من أجل أن يؤمنوا إيمانهم، من هم؟ الصحابة رضي الله عنهم، فهذه الآية دالة على جلال وشرف إيمان الصحابة رضي الله عنهم وأن إيمانهم هو معيار الإيمان الصحيح الذي يعاد إليه، لذلك ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾.

وقلنا بأن كلمة الناس هنا هي كلمة مدحية، يقابلها غير الناس، وكأن البقية ليسوا هم الناس، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾، فكأنهم هم الناس والبقية لا يصلحوا لهم هذا الوصف، ماذا يقال عنهم؟ شيءٌ آخر، المهم لا يستحقون وصف الناس، لا يؤنس بهم لأن واحدهم خادع كاذب، خادعهم حيوان، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ [الفرقان: ٤٤]، حَيوان يعني من الحياة، فالإنسان يطلق عليه حَيوان بمعنى الذي فيه الحياة، ولكنهم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾، لا يعقلون، لهم قلوب لا يفقهون بها.

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ هنا أيها الإخوة الأحبة في الحديث يعني حسنه بعض أهل العلم (في كل قرنٍ سابقون)، ومن قضايا القرآن العظمى أنها لا تبين الحق فقط في عالم الإطلاق لكنها تبين الحق في عالم الوجود، هذه قضية مهمة، هذه مما ينازعنا به الزنادقة في هذا الزمان، كيف؟ ما معنى هذا الكلام؟ معنى هذا الكلام أن هناك من يريد أن يجعل الحق فاشياً في الأذهان من غير أن يقترن بأشخاص في الواقع، ولذلك يقول لك: أنا مؤمن لوحدي، وأنا أؤمن مثل ما أريد، وأنا أمشي كما أريد، أؤمن كما أحب وأفعل كما أحب وأكون مؤمناً.

والقرآن لا يقبل هذا أبدًا، لماذا؟ لأنه لا يكتفي القرآن بكونه يكشف الإيمان في عالم الإطلاق الذهني والعمل الخاص، لكن يجعل له نموذجاً واقعياً يجب الدخول فيه.

ومن هنا جعل رسولنا صلى الله عليه وسلم هو نموذج الذي يدخل فيه الصحابة رضي الله عنهم، وجعل الصحابة رضي الله عنهم نموذجاً يدخل فيه التابعون وهكذا، وحتى مؤمن آل فرعون قال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨)﴾ [غافر: ٣٨]، اتبعوني، لا يكفي أن تقول: آمنا، ولكن يقول: ﴿اتَّبِعُونِ﴾ لأنه سابق قومه، (في كل قرن سابقون)، في كل حالةٍ يكون هناك السبق وهذا الذي يسبق يُصبح إمامًا لغيره في التبع، فمن أعظم الصحابة رضي

الله عنهم؟ من سبقهم وهو أبو بكر رضي الله عنه، ومن ذلك ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ومن هنا الشريعة تختلف عن طرق الوثنيين وعن طرق الفلاسفة، نحن نتكلم عن قضية مفهوم التعبد، الفلاسفة بما يتعبدون؟ يقولوا: نتعبد ذهنياً فقط، فقم صلي، قم توضأ، يقول لك: الماء ماذا يعمل! أنا إيماني ذهني! تقول له: اذهب إلى الحج؟ يقول لك: كيف أطوف حول أحجار!! أنا إيماني ذهني! نقاوتي قلبية لا علاقة لها بالماديات لا وضوء ولا توجه قبلة ولا ذهاب ولا امتناع عن طعام هذه كلها قضايا ذهنية تعبدية!! فالفلاسفة هذا دينهم.

والوثنيون تعلقهم بالماديات، ولا يهتمون بهذه المعاني، والإسلام لا يقبل منك ذلك إلا بأن تجمع بين إقرارك البدني وتصرفك المادي وبين معانيك القلبية كذلك، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، أنت تذهب إلى الحج وتمشي وتتعب وبدنك يتحرك وكذلك قلبك يحج إلى الله عز وجل، أنت تصلي تقوم تتوضأ وتتوجه إلى القبلة وتذهب إلى المسجد ويكون لك إمام وتصلي ورائه، وكذلك قلبك معلق في السماء معلق بالغيب معلق بالعرش، فلا بد من الأمرين، هذه طريقة عبادة الأنبياء وكذلك طريقة القرآن في إقرار الحق أن يبينه علمًا مجرداً وأن يجعل له واقعاً من المثال لابد أن تدخل فيه.

من هنا لابد من الإسوة، أنا ضربت مثل بمؤمن آل فرعون لأنه ضعيف، وإلا في غيره ماذا قال سليمان عليه السلام كما في سورة «النمل» ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)﴾ [النمل: ٣١]، يعني لو ردوا على سليمان وقالوا له: أسلمنا من غير أن نأتيك، وأسلمنا من غير أن نتبعك وبقينا على إيماننا، فهل يصح إسلامهم في هذا؟ لا، لا يصح إسلامهم، ولذلك قال: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

واحد يقول: ما دخله هو؟ القضية هي متعلقة بسليمان أم متعلقة بتوحيد الله ومتعلقة بامتثال أمر الله، ما دخل سليمان فهو واحد منا؟! وهذا هو الذي وقع فيه بعض المرتدين بعد أبي بكر رضي الله عنه، ما دخل أبي بكر رضي الله عنه كان النبي صلى الله عليه وسلم، آمنا، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣]، -هذا بعضهم ليس كلهم- فقال لماذا نؤدي الزكاة لأبي بكر؟ ماذا قال أبو بكر رضي الله عنه؟ «لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه، لا يجوز لأحد أن يقول: لماذا أنا أعمل مع جماعة؟ لماذا أنا أتبع فلان؟ ما دخل أبو بكر رضي الله عنه؟ يعني لو واحد كما يقولون المهم الحق لا دخل لأبي بكر رضي الله عنه، المهم الحق ما دخل هؤلاء العلماء، المهم الحق ما دخل هؤلاء الناس، مع ذلك هو يصبح مجرداً من الطاعة على طريقة الفلاسفة، فذكرت أنا العبادات عند الفلاسفة لهذا المعنى، يتجرد الفعل، هذه مهمة جداً (في كل قرن سابقون).

الله عز وجل يجعل الرجال فتنة، ماذا قال عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه ولما رأى فتنة عائشة ماذا قال؟ قال: «والله إنها لزوجة رسولنا في الدنيا والآخرة ولكن الله ابتلاكم بها»، ابتلاء الرجال، ماذا كانوا يقولون؟ كانوا

يقولون: «لا يجتمع حب علي وعثمان إلا في فحول الرجال»، أي يصبح حب علي وحب عثمان معيار لقضية القلب.

وهكذا في فتنة أحمد، قال: «صار أحمد رحمه الله معيار حبه معيار للإيمان»، ليس للإيمان كله، المعيار للإيمان كله هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا نقول: الذي يكره أحمد يخرج من الدين، لكن من كره أحمد لماذا تكرهه؟ تكرهه لأنه نصر هذا الدين بأنه قال: القرآن هو كلام الله.

من أجل هذا يقال -مسألة في الباب ينبغي أن نهتم لها-: لماذا نكفر من كفر أبا بكر وعمر رضي الله عنهما؟ نكفره كافر، فيأتينا أحد يقول: ألم يسب الصحابة بعضهم بعضاً؟ أي لو واحد أتى -وهذا حدث- أن يسب أبا بكر، فهل يمكن أن يسب صحابي أبا بكر يتسابا في شيء على الدنيا يمكن أو لا يمكن؟ يمكن، يتخاصما على كأس من الماء، هذه لي أنت كذاب، يمكن أن يقع هذا فهم بشر، وكثير من الأحداث قريبة من هذا، أن يتساب الصحابة، لكن اليوم لماذا تسب الصحابة أنت؟ السؤال لماذا أنت تسب أبا بكر رضي الله عنه؟ هل بينك وبينه خصوم على كأس ماء؟ فلا يُسب أبو بكر رضي الله عنه في أيامنا هذه إلا لدينه، لكنه في زمانه قد يسب بشيء من الدنيا خصومة على الدنيا.

ولذلك لما سب أبو بكر رضي الله عنه لدينه علمنا أن سابه يكره هذا الدين الذي قاله أبو بكر رضي الله عته، وأردت من هذا أن أقول: لما قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾ يكفي أن يقول هكذا، يكفي أن يقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾ فيقولوا: لا نؤمن، ولكنه قال: ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾، لأن الإيمان ليس عملية مجردة ذهنية فقط إنما هي اتباع.

ولذلك كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم عندما يخرجون للغزو، ماذا يقولوا لهم؟ «أسلموا»، قالوا كيف نسلم؟ قالوا: «أن تكونوا مثلنا»، ولو قالوا: نحن نسلم ولا نريد أن نتبعكم، لا، هذا لا يصلح، وهذه قضية مهمة جدًا في زماننا، تعلمنا علماً مهماً وهو معرفة الأقرب للحق، والحق قد يتوزع هذا موجود، قد يتوزع على الناس، يكون هؤلاء عندهم جزء من الحق، وهؤلاء جزء من الحق، فأنت توالي هؤلاء بمقدار ما معهم من الحق، ويصبح ولاؤك للحق، لكنه متمثل كذلك بالرجال، وهذا لا يقال له بعد ذلك: أنت واليت الرجال، لا، أنت واليت الحق الذي صار هؤلاء الرجال مثالاً له، وصاروا حملة له.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾، وهنا نحن أمام طائفتين كما ترون: طائفة قد تمثل بها الإيمان، وطائفة قد أنكرت ذلك، فقيل: لهم آمنوا، فهل هذا الإيمان فقط قاصر على المعنى العقائدي؟ أم ﴿كَمَا آمَنَ﴾؟

﴿كَمَا آمَنَ﴾ إذن هو سلوك، لأن هناك صفات عملية لهم عليهم أن يدخلوا فيها وليس مجرد القول، فهذا كذلك بيان على أن هؤلاء لا يريدون الدخول في صفة الإيمان العملي التي تمثل بها هؤلاء الناس.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣]، نحن قلنا: إنه يجب أن تكون الخلفية لأناس لهم اهتمام في القرآن، الحديث عن أناس ليسوا من سقط المتاع في وجود البشر، ولكن من الناس الذين لهم اهتمام، وهذا بيِّنٌ في القرآن، يعني من الذي أنكر دائماً دعوة الأنبياء؟ هم الملأ، الرجال الكبار، ولذلك أول دعوة نوح عليه السلام، واتبعك الأراغل منا، فدل على أن هؤلاء هم أتباع الأنبياء.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤)﴾ [سبأ: ٣٤]، المترفون، أصحاب الترف ولذلك هؤلاء أصحاب الترف يرفضون لأن مسألة الإيمان هنا صارت فقط -هنا هذه مهمة التي سأذكرها- الأصل أن الإيمان قضية علم وقضية اتباع لا علاقة لها بالحالة الاجتماعية، يعني يمكن أن يدخل الجنة ملك من الملوك وهو نبي وهو سليمان عليه السلام الذي أوتي من الكنوز، ويدخل أفقر الفقراء النار، فالحالة الاجتماعية ليست معياراً للإيمان، يمكن أن يدخل هذا الجنة ويدخل هذا النار.

ولكن في العموم لما صار الإيمان الذي هو حالةٌ علمية، ملتصق بهذه الحالة التي هي في الأغلب في حياة الأنبياء عليهم السلام تكون تابعة للفقراء، تكون تابعة للمساكين، تابعة لمن سموا بالأراذل، تابعة لمن سموا بالسفهاء، فصارت الحالة مربوطة بهؤلاء حينئذٍ يصبح تعلق العاصي في عدم الاتباع بسبب هذه الحالة الاجتماعية، تعلقهم في رفض الحق يكون بسبب الحالة الاجتماعية، مع أنهم كلهم في بداية الأمر كانوا أمام الدعوة سواء، يمكن أن يلتحق هذا ويمكن أن يلتحق هذا، يمكن أن يلتحق الغني، ويمكن يلتحق الفقير، يمكن أن يلتحق دكتور الجامعة ويمكن أن يلتحق الزبال، ممكن أن يلتحق الوزير ويمكن أن يلتحق الحقير، لكن من استجاب؟ استجاب في أغلب دعوة الأنبياء استجاب هؤلاء، فحينئذٍ صار هذا من موانع اتباع الحق.

فكيف إذا علمنا أن الأنبياء في أغلبهم لم يكونوا ملوكًا؟ فالنبي صلى الله عليه وسلم يتيم وذلك قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف: ٣١]، لم يقبلوه لأنه يتيم، نريد رجل عظيم نريد أبو جهل، مع أنه لو أن الدين جاء على أبي جهل لحصلك الشك، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر: ٣٤]، يوسف لما جاء إلى أهل مصر بالبينات جاءهم وهو وزير، جاءهم وهو ممكن، ماذا قال القرآن عن من استجاب لدعوة يوسف عليه السلام وهو على هذه الحالة قال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ [غافر: ٣٤]، كنتم على اتباع له بسبب سلطانه وملكه وأنتم في شكٍ في قضية ما يأتي به ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤]، خلاص انتهى العطاء المادي، فتحللوا من اتباعه لأن اتباعه

في الابتداء كان بسبب ما معه من الشهوات، فكيف إذا جاء الأنبياء بهذا؟ يكون هذا السبب هو الذي يمنعهم من ذلك.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾، الله سماهم الناس، البقية يعني لا يستحقون هذا اللقب، فهذا لقب مدحي هنا.

قال تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾، وهذه في الحقيقة تحتاج إلى وقفة وهذه يدخل فيها أنواع كثيرة من النفاق، مما يدخل فيها ما ذكرناه أن الإيمان يصبح متمثلاً بهؤلاء الفقراء وسماهم القرآن الناس، ومع ذلك انظر إلى التحدي القرآني، هذه تنبهكم أيها الإخوة على الفرق العظيم بين طريقة القرآن في سوق الناس إلى الحق وطريقة من يزعم الإصلاح، ليسوق الناس إلى الحق كيف؟ هذه مهمة جداً.

فقال الله عز وجل في سورة «البقرة»: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، نحن دعوناكم ستة عشر شهراً لتكونوا متوجهين إلى المسجد الأقصى، ثم تحولتم إلى المسجد الحرام، وفي ذلك فتنة شديدة، ما جعلتها إلا فتنة لكم، يعني الله لا يريد لكي يقبل الناس أن يترجاهم.

بعض الشيوخ يقول كيف نستطيع أن ندعو أهل أفريقيا إلى الإسلام ونقول لهم أن الموسيقى حرام؟ والافريقي لا يتخلى عن الموسيقى، فخلاص اختاروا كلام ابن حزم، ابن حزم يقول: الموسيقى حلال.

فإذن هذا ليس إسلام القرآن، القرآن يمتحن الإيمان، قبل إيمانك وخلاله، يمتحن إيمانك، لأن هذا الإيمان غالي، الإيمان ليس بضاعة معروضة في السوق ينزل سعرها كلما قل الشارون لها، قانون العرض والطلب، فقانون العرض والطلب تذهب فتشتري البضاعة، فلا يشتريها أحد منك فينزل سعرها، كيلو البندورة يبدأ بع بنص دينار لا يباع، فينزل السعر إلى ثلاثين قرش، يريد أن يذهب فيبعه بخمس قروش، ينزل السعر، هل الإيمان هكذا؟ هل الإيمان يعني معروض لهذه الدرجة؟

ولذلك لما قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾، أليس في هذا ابتلاء؟ يقول لهم: ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾، لا أقبل أيمانكم إلا مثل إيمان هؤلاء، وأن تدخلوا في طاعتهم، وأن تلتحقوا بهم وأن تقبلوا إمامتهم، بل أرسلت لكم رسولاً على هذه الصفة لا يصح إسلامكم إلا بأن تتبعوه وأن تنقادوا لأمره، وإذا قلتم نتبع أمر الله لا نتبع أمر الرسول فقد كفرتم بالله.

ولذلك كلمة السفهاء هذه تدل على ماذا؟ إما على حالة من حالات الاجتماع وهي المشهورة، أن هؤلاء سفهاء لا قيمة لهم كيف نتبعهم؟! وإما أنهم الحالة التي غلبت بعد ذلك على المتكلمين، غلبت على الفلاسفة الذين زعموا أن إسلام الصحابة رضي الله عنهم، والاسلام الذي جاء به القرآن إنما هو إسلامٌ يصلح خطابه للعوام، وأما هم فهم

الفلاسفة العقلاء الذين خطابهم يصلح للفلاسفة والعقلاء وخطاب كما يسمونه برهاني يقابل الخطاب الكلام الخطابي، يعني ماذا؟!!

قالوا: قضية الجنة والنار هذه تصلح للمساكين، تصلح يعني للذين يخافون من النار نحن جماعة يجب أن يكون خطابنا شيءٌ آخر.

والقرآن يقول: لا، لابد أن تؤمن كما آمن الناس، وتصلي وراهم وتتبعهم وتنقاد بأمرهم، يقول القرآن عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣]، انظروا هنا، أنا قلت لكم بأن القضية هي قضية الإيمان، فهم كيف تعلقوا؟ ما هي مشكلتهم؟ أين هي المشكلة؟ هل بقيت المشكلة متعلقة بالإيمان؟ يعني هل بقيت المشكلة متعلقة بأن الإيمان حقٌ أو باطل؟ أين المشكلة بقيت بينهم؟ في هؤلاء، وفي هذا كفاية نسأل الله عز وجل أن يغفر لنا ذنوبنا وأن يتقبل منا أعمالنا، والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: شيخنا بالنسبة للقتل، لو أن إنسان استخدم أداة تقتل لا تقتل غالبًا بطريقة تقتل غالبًا يعني مثلاً يستخدم عصا بمكان حساس في منطقة بجسم الإنسان يُعلم عند أهل الخبرة أن هذا المكان قاتل، هل هذا يعد شبه عمد أم عمد؟

الشيخ: نحن نعرف أن الفرق بين العمد وشبه العمد في الآلة المستخدمة، وفي هذا دليل على أن الباطن يعرف بالظاهر، أي أنه أراد القتل أم لم يرد؟ فكيف عرفنا؟ لم نترك الأمر له، ولكن نظرنا إلى الآلة، عندما يقولون على الآلة قديمًا ذلك لأن الآلة هي الأداة الواضحة في البيان، ولذلك عندما يأتوا إلى غيرها كما في الحديث (ألا إن قتيل السوط والعصا قتيل شبه العمد)، فذلك لأن العصا لا تستخدم إلا للضرب فهم يأتوا إلى العصا ليضرب لكن لو ضربه بعصا غليظة يقتل بها عادةً فلا يقال: قتيل العصا قتيل شبه العمد، يعني مثل لو أتى بعصا مدورة فيها حديد مثلاً أو ليس فيها حديد ولكن ضربها على رأسه فقتلته، فهذه عصا يُقتل بها عادةً لو ضربه على رأسه فيقتل بها عادةً، فهذا يقال: عمد ولا ينظر إلى أنه قال: عصا.

(ألا إن قتيل السوط والعصا قتيل شبه العمد)، السوط هنا المقصود به ليس فقط كونه آلة ولكن كونه حالة، بمعنى يمكن يأتي رجل لسوط فيلفه أنشوطة على رقبة الرجل ويشنقه، فهل هذا يقال له قتيل السوط؟ لا، المقصود السوط الذي يساط به أي يضرب به أي ضربه ضربًا وليس المقصود به الحالة، ولذلك لو رجل جاء مثلاً بسهم من خشب سهم صغير ورماه بسم، فهذا يقتل به عادةً مع أنه لو لم يوضع فيه السم ربما جرحه جرح بسيط وكذا.

أو ربما تستخدم بعض الآلات وهنا يأتي تطور الآلات وأحوالها عند ذوي الخبرة، هم الذين يقررون فليس فقط النظر إلى الآلة ولكن النظر إلى طريقة استخدامها كما تبين لنا ليس فقط العصا وليس فقط السوط ولكن طريقة استخدامهم.

القصد: أن كل من قتل غيره بطريقةٍ يقتل بها عادةً، سواء كان بالنظر إلى الآلة أو بالنظر إلى وسيلة الآلة، أسلوب الآلة فحينئذٍ يتعامل معه إذا قتل بما يقتل به عادةً، أنه قتل، ولذلك لو أخذه وأغرقه هذا قتل عمد، لو أخذه وأرداه من جبل هذا قتل عمد، لو أخذه ووضعه تحت الدابة والدابة جعلت تضربه برجليها حتى قتلته، هذا يقتل به عادةً، وهكذا، فما عرف عرفًا أنه يتم به القتل، إزهاق الروح، يكون قتل عمد.

لكن رجل يرمي رجل بحجر صغير لا يقتل به عادةً لكن رماها كما يعني يضرب مثل قال: «ولو رماه بأبو قبيس» وحتى قال: أبو قبيس، فعدت من غلطاته أحد الأئمة، فقال: لا، لو أتيت بحجر كبير وضربت به يقتل به عادةً، لكن

حجر صغير لا يقتل، فيأتي حينئذٍ رأي أهل العرف أن هذا يقتل به أو لا يقتل به، يعني جاء بعصا وغرزها في قلبه، العصا ليس هناك فرق بينه وبين السيف، هذا هو الجواب.

السائل: هل يرى الشيخ أن الترمذي غير متساهل في حكمه على المرويات؟ وما يرجح الشيخ في قول الترمذي حديث حسن صحيح؟

الشيخ: بلا شك أن الناس غلطوا على الإمام أبي عيسى الترمذي الضرير رحمه الله غلطوا عليه في تسميته متساهلاً، ذلك لأنهم ظنوا أن كلمة الحسن عنده تعني ما عناها المتأخرون ما عناها الإمام أبو عمرو بن الصلاح وغيره ولكن لما جاء هو كما في العلل الصغرى في خاتمة كتابه «السنن» فجاء إلى الحسن فبين مراده فيه هو أنه ما فيه الضعف لكن الضعف الذي لا يصل لدرجة الشذوذ ولا كذاب، لأن الامام الترمذي يعرف ما هي شروط الصحيح، ولكن ذكر بعض الشروط وترك بعض الشروط فهذا هو الحسن عنده.

فدل الحسن عنده هو الحديث الذي فيه ضعف هذا الضعف ليس كما قاله الآخرون أي نزل عن درجة الصحيح فضعف لم ينزل لدرجة الرد، لا، لم يعني هذا، الضعف الذي يمكن يجبر، ويمكن يرد، تركها، هذه مسألة لم يتدخل فيها الإمام أبو عيسى الترمذي.

فبالتالي لما يقول: حسن، يأتي المتأخر فيقول: هذا ليس حسن هذا ضعيف فأخطأ الترمذي وتساهل في تسميته حسنًا، هذا من قبيل إسقاط شيءٍ على شيء مختلف، بمعنى أن الحسن عند المتأخر له معنى، وعند الترمذي له معنى، فاستبدل المعنيين على وجهٍ من الظلم لأبي عيسى.

وبالتالي أبو عيسى الترمذي ليس من المتساهلين، لكن وقع منه أنه صحح بعض الأحاديث التي فيها بعض من أتهم، أو صحح أحاديث فيها إرسالٌ خفيف كحديث (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا ...)، فهذا حديث يرى الإمام أبو حاتم الرازي وأبو زرعة وغيرهما، يريان أن هذا الحديث إرسال خفيف فصححه فهذا يقع فيه، يعني المرء إذا وقع في رجل أخطأ في رجل أو أخطأ في حديث لا يقال عنه: متساهل، ولذلك في الحقيقة أبو عيسى الترمذي ليس متساهلاً بل هو من المعتدلين، وهناك متشدد وهناك متساهل وهناك معتدل.

وكذلك يتهمون مثله ابن حبان أنه متساهل لكونه يضع في كتابه «الثقات» الكثير من الرجال كذا وكذا ...إلخ، فهذا كذلك من أخطائهم فيها وهذا تحتاج إلى بيان في موطنه إن شاء الله.

السائل: وعن حديث الحسن الصحيح؟

الشيخ: حسن صحيح ما يهمنا في هذا الباب أنه صحيح، ما يهم المرء إذا قيل حسن صحيح أنه ولا شك صحيح عند الإمام، وهنا يأتي الاستقراء، ما الذي قصده؟ فكل ما قالوه استدرك عليه، قال بعضهم: حسن صحيح

أي أنه له سندٌ حسن وله سندق صحيح فصار حسنٌ صحيح، فوقعوا فاستدرك عليه بأنه قال: حسن صحيح غريب، وبعضهم قال: أي حسن المعنى صحيح السند، وهكذا كذلك استدرك عليه، وقال بعضهم: حسنٌ صحيح هي مرتبة أعلى من الصحيح، وقال بعضهم: حسنٌ صحيح هي مرتبة أدنى من الصحيح، وكل هذا قد استدرك عليها، وهذه تحتاج إلى استقراء.

والناس لا تطيع ولا تصدق كل من يقول في درس مثل هذا الدرس: وأنا استقرأتها فكذا، لا، لا، الاستقراء ليس ما يفعله المرء يأتي لحديث حديثين وإذا كان الكبار لم يصلوا فيها إلى مقال فأنا اتوقف، ويكفي أن الحسن الصحيح هو صحيحٌ عند الإمام الترمذي رحمه الله.

السائل: شيخنا من صغرنا بالنسبة للعبادة وبالنسبة للنفاق يعني كان المشايخ يخوفوك من موضوع العبادة والصلاة أمام الناس، هل هذا له تأثير سلبي على الإنسان بإظهار عبادته للناس؟

الشيخ: هنا الحديث عن الرياء وهو الشرك الخفي كما سماه النبي صلى الله عليه وسلم وهذا بابه طويل ولكن أنا أقول لكم إن شاء الله شيئًا جامعًا له، أنا أدعوكم أن لا تلتفتوا كثيرًا لهذا الأمر، للأسف إن بعض من تكلم في الرياء وتكلم في الإخلاص قد جعله شاقًا حتى أنه منع حدوثه حتى قال: والمخلصون قليل، وكأن الإخلاص في العمل يكاد كمن يقرأ كتاب «الإحياء» للإمام الغزالي رحمه الله، كأنه ييأس أن يوجد إخلاص عنده أو يوجد إخلاص عند أحد.

وبالتالي هذا المعنى من التشدد يؤدي إلى شيء آخر، يؤدي إلى جانبٍ آخر وهو جانب ترك العمل، ومع أنه يعالجه، الغزالي يعالجه ويقول: إن من الشرك أن تعمل عملاً لغير الله عز وجل والرياء أن تترك عملاً خوفًا من الرياء، يعني مع ذلك مع تشدده وكلامه الطويل.

فالصواب في هذا: ألا تلتفت وألا تلتفت إذا جاءك وارد الطاعة، يعني الآن أنت جالس بين الناس فجاءك وارد الطاعة التسبيح، فسبح، كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم، وكما كان يفعل الصحابة رضي الله عنهم، جاءك وارد الاستغفار، استغفر، ولا تلتفت أن الناس ينظرون إلّي وماذا سيقولون، لا تلتفت لهذا.

وهناك أمور يمكن أن تحكم بها على نفسك بمعنى:

مثلاً: أنت عندك ورد من التسبيح، ورد من العمل، ولم يحصل لك وقت إلا مع وجود الناس فيه، فهذا نبه عليه ابن تيمية رحمه الله ونبه عليه صاحب «مختصر منهاج القاصدين» نبه أن هذا ليس من الرياء، قم هذا وردك لا تتركه قم وافعله.

لو غاب عنك الناس تكون بنفس النشاط يعني الرجل ينام بين إخوانه في الليل، فمن عادته لو كان لوحده أن يقوم الليل قبل الفجر يصلي ركعتين يصلي أربعًا يصلي جزء الذي بقدر عليه، الذي هو ورده، حزبه من الليل، فهذا

لو قام وعنده ناس، ماذا يضره؟! يعني يقول: أنا لا أريد أن أقوم الليل حتى لا يقولوا عني هذا!! لا تترك هذا العمل، هذا وردك لا تتركه مع حضور الناس، ولا يأتي الشيطان إليك في هذا الباب ويشدد عليك بحيث تترك العمل.

كذلك هناك أعمال لا يمكن تحصيلها إلا عند حضور الناس، يعني يدخل سائل فلا يمكن أداء الصدقة إلا له الآن، فلو فاتك تفوتك صدقة على هذا الرجل بالذات، فأنت لا تتوقف.

والقصد من هذا: أن لا تنشغلوا بهذا كثيرًا أقبلوا على الله عز وجل بالطاعات وأكثروا من عبادة الله عز وجل واجعلوا لأنفسكم وردًا خاصًا بكم لا يطلع عليه إلا الله في بيوتكم في داخل غرفة النوم في مخدعك من العبادات من قراءة القرآن من الذكر من الصلاة، إذا غاب عنك الناس أكثر من العبادة ليرى الله عز وجل أنك عند حضور الناس وعند غيبتهم على حدٍ سواء في الطاعة..

ولا تشددوا في هذا الباب لأنه يؤدي إلى الوسواس، والحديث عنه إلى درجة المشقة فيما يفعل بعضهم وكأن الإخلاص لا وجود له في هذا الوجود، وهذه طريقةٌ غير صحيحة، وأنا أقول لكم بل هو ميسور وإن شاء الله ليس بالمشقة التي يقولونها والله عز وجل رحيم بعباده والله عز وجل رب قلوب والمرء يمرن نفسه على الطاعة وعلى عدم الاهتمام بالناس ويكثر من الطاعات، وكما قال الإمام أحمد رحمه الله –أنبهكم– قيل له: يا إمام أطلبت الحديث لله؟ قال: «هذا عزيز»، أي المرء في بدايته قلما يُقبل على العمل من أجل الآخرة، لكن بعدها كما قال الغزالي نفسه، قال: «فطلبنا العلم لغير الله فأبى إلا أن يكون له»، يعني في النهاية الله عز وجل يصلح القلوب.

وإذا وجد عنده كراهية لما يأتي في نفسه من نظر الناس إليه كراهة، يكره أن النفس تحدثه أن الناس ينظرون إليك ويقول: أعوذ بالله من إبليس، فإذا علم الله منه كراهية اهتمامه بالناس؛ أصلحه وأبعد عنه ذلك وأسقط عنه قيمة نظر الناس.

والمرء إذا وجد نفسه على خير في السر والعلن فليشكر الله كثيرًا وليظن أن نفسه على خير ومع ذلك في الخاتمة الخوف من النفاق سمة المؤمنين، سمة الصالحين، سمة العباد، لكن لا تصل إلى درجة التي هي ميأسة من رحمة الله، لم يكن الصحابة رضي الله عنهم كذلك، يعني عمر رضي الله عنه الفاروق الذي يخاف النفاق على نفسه ويسأل حذيفة رضي الله عنه لو لم يكن عالماً بقيمة نفسه في مقامة الدعوة والإمامة والخلافة ورأى نفسه كما يقول: يمكن أكون منافق فاعتزل، هل يكون بهذه القوة في قضية تأديبه لكبار الصحابة.

وهذا كما قال الفضيل بن عياض، وهذا من الجهلة يأتي إليك ويسألك، يقول لك: أأنت عالم؟ هذا لا يسأل، أأنت مخلص؟ هذه أسئلة خطأ، فلو قيل لك: أأنت عالم؟ لو قلت: نعم أخطأت، ولو قلت: لا، فأخطأت، الأصح أن تصرفه، لو لم يشعر أحدٌ في الدنيا أن عنده كلمة حق يقولها هل قالها؟ يعني لو كل واحد يشك في كل كلمةٍ هي

في نفسه متى يُعلم الناس الحق؟ مع أن هذه مجتمعة عمر يعلم الناس الحق ويقاتل عليه ويؤدب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الكبار في هذا الباب وبينه وبين نفسه إذا خلا يخاف على نفسه.

الناس على افتراق في هذا، يكون شرس مع الناس وفي نفسه إذا خلاه يقول: أنا أعظم الناس، انظروا إلي، وهذا كبر وغرور وهذا مفسد له، وبعض الناس يكون في نفسه ضعيفًا فإذا خرج الناس كان أضعف وهذا خطأ، الأصل بينك وبين نفسك أن تخاف على نفسك، أن ترجو من الله عز وجل وأن تبكي بين يديه، أن تطلب منه أن يغفر لك ما قصرت ودائمًا تقول: اللهم أني صاحب ذنب صاحب خطأ صاحب الجهل صاحب ضعف بينك وبين نفسك ولكن إذا خرجت للناس لا تخرج بهذا الضعف، بل يقال لك كما قال عمر رضي الله عنه: «أمت علينا ديننا»، فالجمع بين المرتبتين هي التي تطلب من العبد.

والمعلم يعلم الناس وهكذا أنت تجد هذه السفاهة اليوم يسألك يعني أنت ماذا تجيب هذا السفيه الذي يقول لك من أنت حتى ترد على فلان؟ لو سئل هذا الشافعي، وفي هذا سئل الشافعي كيف ترد أنت على مالك؟ وسبوا عليه، ودعوا عليه.

فلما الشافعي ذهب إلى مصر فحول أهل مصر من مالكية إلى طريقته، قام أحد المالكية وقال له: فرق الله عليك بدنك كما فرقت بين الناس، فماذا يرد عليه؟! يعني تصور واحد يسأله أأنت أعلم أم مالك؟ فماذا يرد؟! يسكت!!

فبعض الناس هكذا وهناك بعض الأسئلة المقصود بها الإسقاط والجهل، وهذا كله في بنائنا نحن، علينا أن نكون في وقعنا في قوة فإذا خلى المرء بينه وبين الله أظهر ضعفه، أظهر عجزه، أظهر جهله، أظهر خطأه، أظهر إسرافه على نفسه، ويدعو وكل ذلك عندي على الحقيقة يقول، بنه وبين الله عز وجل يكون هذا.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الخامس والعشرون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بكم فهذا هو الدرس الخامس والعشرون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة»، في حديثها عن المنافقين، كما في مطلعها في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾ [البقرة: ١٣-١٥].

﴿السُّفَهَاءُ﴾ نرى هذه الكلمة تكررت في سورة «البقرة»، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وفي قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وفي آخرها في آية الدين قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، تكررت ثم ذكرت كذلك في سورة «النساء» وذكرت في «الأعراف» هذه الكلمة.

وهذه الكلمة السفه معناها الخفة والطيش، وإذا أطلق على الشيء الذي فيه خفة وليس فيه فاعلية يقال له: السفيه، حتى أنها تنسب إلى الرمح فيقال: سفه الرمح، أو الرمح السفيه أي الذي فيه خفة وإذا كانت فيه خفة فلا يؤدي فعاليته المطلوبة منه، لأن الرمح إذا رماه فكان خفيفاً لا يصيب المقتل المراد، فهؤلاء فيهم خفة والمقصود هنا خفة الرأي وخفة العقل وخفة الإدراك.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾، في الدلالة على احتقارهم لنوع ما أمن به الصحابة رضي الله عنهم، وهذا النوع من النفاق يكثر –كما قلت وأكرر– في من يحتقر إيمان العوام، الإيمان الفطري، وهؤلاء كثر، الفلاسفة يحتقرون إيمان العوام، المتكلمون يوجبون النظر بطريقةٍ عقليةٍ ما، وأما الفطرة التي عليها الناس وعليها الصحابة رضي الله عنهم العلم القائم على الفطرة الصحيحة السليمة فهذا لا يعدونه إيمانًا، ولذلك تجد في مثل هذه المسألة وهي مسألة إيمان المقلد ترون فيها كلاماً كثيراً فيه خلط وتكثير.

والصواب أنه لا يوجد شيء اسمه إيمانٌ مقلد، هذا لا يوجد عند أهل الإسلام المقصود، وإذا وجد في غيرهم فهم قلة من الذين يتبعون الطواغيت فهم يتخذونهم ألهة، يعني تقليدهم هو تأليه، أما في الحقيقة المسلمون عوامهم وعلماؤهم

فليس عندهم إيمان مقلد، بمعنى لو جئت إلى جدتك وسألتها أنت من تتبعين في إيمانك تقول: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي تعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس مُشرعاً تعلم أنه مبعوث من الله عز وجل ليبلغ عن الله عز وجل ما يوحى إليه، فلو قيل لها: أنت تقلدين عالماً شيخًا في هذه المسألة هي لا تفهم هذا الكلام، وهذا هو إيمان عامة المسلمين، وأما علماؤهم فلا يوجد عالمٌ يقلد عالماً في مسائل الإيمان، إنما يأخذون بالكتاب والسنة.

فالبحث في قضية إيمان المقلد هو بحثٌ من الترف لا وجود له، ولذلك نحن لا نريد أن نبحث في شيءٍ يكاد إذا أثبتنا وجوده أن يكون من الندرة بما كان، وأما الإيمان هو الذي يستقر في القلب ويطمئن عليه صاحبه ويرضى به وهذا إيمان عامة المسلمين وهم يتبعون الحق في هذا.

نحن قلنا في قوله تعالى: ﴿كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾: فيها صفة مدح هنا ولو حملناها على غيرها لكان في ذلك بيان أن النفاق حال فردية في زمن الصحابة رضي الله عنهم، أي إما أن نحمل كلمة الناس على المعنى المدحي كما تقدم، إي هؤلاء هم الناس، وغيرهم لا يستحق هذا الوصف، هذا المعنى موجود.

وهنا أنبه على كلمةٍ معروفة عند المفسرين ونبه عليها ابن تيمية رحمه الله في بعض كتبه واهتم بها، وهو أن الأقوال المتعددة في الآية –الأقوال الحق– التي تؤدي إليها هذه الآية كلها أقوالٌ حقيقيةٌ للآية وليس أحدها بأولى من الآخر، معنى هذا الكلام أي عندما تأتي أنت لتفسير آية قد تظهر لك فيها معاني متعددة، تحملها على أي المعاني التي تريد وكلها حق، وتفييده هذه الآية، تفيد هذا المعنى، كلها مرادة.

بل يقول ابن تيمية رحمه الله: أنك قلما تجد آية تحمل معنيين إثنين، لابد أن يكون أكثر أما معنى واحد هذا لا وجود له، القرآن يكاد يخلو من أن يكون في الآية الواحدة تحمل معنًا واحدًا، تحمل معاني متعددة على هذا المراد الذي نحن بصدده، وهو أن الآية تحمل معاني متعددة كلها حق، ومن ذلك ما نحن فيه الآن.

قلنا: لو أننا حملنا كلمة الناس على المعنى المدحي ففي ذلك بيان صفة الممدوح وأنهم هم أهل الاستحقاق لكلمة الناس، لكن لو حملناها على معنى كلمة الناس بمعنى العموم، ماذا يكون فيها من حق، تأملوا هذا المعنى، المعنى الأول الحق، والمعنى الثاني حق.

قالت تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ تدلك على أن الأكثرية هم الناس، والخطاب للأقلية، يكون الخطاب حينئذٍ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ خطابٌ لأناس خرجوا عن المعهود عليهم، وإذا أطلق الناس فهم الأكثرية، فيكون الخطاب لأقلية ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ إذن أقلية، ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ هذه الكثرة الموجودة من الناس، هؤلاء الناس، فحينئذٍ في ذلك مدحٌ عظيم من جانبٍ آخر، وذلك أن النفاق في مجتمع الصحابة رضي الله عنهم ليس أكثرياً كما تريد أن تقوله بعض الطوائف وعلى رأسهم الرافضة.

فالرافضة يقولون: بأن الأصل في الصحابة هو النفاق، ويحتجون بكلمات من أئمتهم ويحملون أحاديث في السنة صحيحة على غير محملها، كما في قوله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة وعندما يقف على الحوض فتأتي الملائكة تذود أقوامًا الحوض لهم سمة هذه الأمة من الوضوء والصلاة، فيقول صلى الله عليه وسلم: (أمتي، أمتي)، فيقولون: ليسوا أمتك، إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك، فيحملون مثل هذه الكلمات المجملة على ما يريدون من الباطل، وهذه الآية ترد عليهم بالمعنى الثاني، هو معنى مدحي على أن الصحابة رضي الله عنهم الأصل فيهم هو الإيمان والمخاطبون بأنهم خارج هذا الإطار هم قلة، ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾، فإنهم قلة مقابل الكثرة، هذا معنى موجود.

والآن انتبهوا لهذه الكلمة انتبهوا لها جيداً، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾، هل هو أمرٌ يتعلق بأمرٍ باطني يشار إليه، أم لأمرٍ ظاهري بيّنٌ يشار إليه؟ لو كان أمرًا باطنيًا يتعلق بالاعتقاد لما أشير إليه، وإنما الكلام يدور حول أمرٍ ظاهري، قال: ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾، أي افعلوا أفعالهم، فالحديث عن أمرٍ ظاهري بيّن وليس عن أمرٍ خفي، لماذا؟ لأن الأمر الخفي هم يقولون: آمنا بالله وباليوم الآخر هذه انتهت، فالحديث يدور عن أمرٍ ظاهري يشار إليه ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾، أي اعملوا أعمالهم، فدل على أن هذه الفرقة من أهل النفاق لا تدخلوا مع طائفة المؤمنين في أعمالهم.

وهذا مناسب لما تقدم من كلام صاحب «المحرر» أنهم يعملون أعمالاً يريدون بها الصلاح والفساد، يلعبون في هذا المجال ويزعمون أن ما يأتونه هو الصلاح، ويمكن التمثيل بهذه القضية أي في قضية المحاورة بين الصالح والفاسد يمكن التمثيل بها بما لا ينتهي من الأمثلة، في كل زمنٍ لها صور، ورأينا ابن عطية كيف يمثل بهذا المثال في عصره، نحن قلنا: التفسير عام والتمثيل خاص، المرء لا يمثل إلا ببيئته لكن حين يفسر كلاماً بيانيًا مطلقًا عاماً، أما التمثيل فيكون لما يلائم بيئة المتكلم وكذلك المخاطب فلو مثل له بشيءٍ لا يعرفه لاستبعده، وربما أنكره.

فهؤلاء الذين يتحدثون عن الصلاح وهم المفسدون هؤلاء كثر وهذا يؤدي إلى قضية مهمة جداً، وهي قضية ما هو معيار الصلاح والفساد؟ ما هي المرجعية في الصلاح والفساد؟ كما تقدم في الآية قبلها، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)﴾ [البقرة: ١١]، وأنت تتحاور معه، ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٢]، يقول لك: هذه مصلحة، فالمصلحة هي الصلاح، ويقول للآخر الذي يريد أن ينابذهم ويقاتلهم وهكذا، يقول له: أنت تريد أن تستعدي علينا الدنيا، تريد أن تفسد علينا دنيانا تريد أن تخرب البلاد.

إذن ما هو معيار الصلاح والفساد؟ معيار الصلاح والفساد هو ما نزل من السماء، لم يترك الله ربنا سبحانه وتعالى الصلاح والفساد إلى قضيةٍ ذاتيةٍ نسبية يتحاور حولها الناس ويختلفون فيها فتتشتت الأمة، لأنه لو اختلفوا تشتتوا وكل واحد يمشي في جهته التي يقدر فيها الصلاح والفساد، هذا يمشي هنا وهذا يمشي هنا وهذا يمشي هنا،

فلذلك رفع الله عز وجل هذه القضية من بين أيدي الناس، وجعل معيارية الصلاح والفساد ومرجعية الصلاح والفساد هو ما نزل من السماء، ما يقرره الله عز وجل هذا الصلاح هذا فساد.

وذلك ليس فقط في مواقفنا مع الكافرين حتى في اختياراتنا في الأكل والشرب والحلال والحرام، لو واحد فتح كازينو يقول: أنا أريد الناس يأكلوا ويشربوا تنتعش المنطقة هذا صلاح، الله يقول: هذا فساد، الربا يزعمون أنه صلاح وهو فساد، فمعيارية الصلاح والفساد ليست بأيدي الناس ولا يجوز للمسلمين أن يختلفوا فيها، وهذا هو الأمر الذي ينبغي أن نصير إليه.

تكلمنا عن قضية لماذا قال: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ و ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾، ثم قوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣]، دل على أن السفاهة متلبسةٌ بهم وهم نموذجها الذي يتمثل، لو أراد أحد أن يسأل: من هم السفهاء الذين هم معيار السفاهة في الوجود؟ لكان هؤلاء، والسفاهة ضد الرشد، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥]، هؤلاء لا تؤتوهم أموالهم لأنهم لم يبلغوا سن الرشد، أو صفة الرشد.

الآن كما ترون كم وصفاً ذكر في هذه الآيات على المنافقين؟

أولاً: يخادعون الله والمؤمنين هذه الصفة.

ثانياً: أعمالهم أعمال الفساد ويزعمون الصلاح.

ثالثاً: يأبون الدخول في طائفة المؤمنين في معيارهم العلمي، أول شيء معيارهم العملي الصلاح والفساد، والإيمان معيارهم العلمي، فهذه ثلاثة.

والآن جاء إلى صفةٍ رابعة عنهم قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾ [البقرة: ١٤-١٥]، هنا ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اللقيا هذه تقتضي القرب، لا تقع كلمة اللقيا إلا بالقرب، فلا يقول أحد: لقيته إلا وقد اقترب منه، وهذا الذي وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم: (المنافق كالشاة العائرة، تعير إلى هذا مرة، وإلى هذا مرة) فتذهب إليه، فدل هذا على أن هؤلاء يشاركون المؤمنين في بعض محافلهم، ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ دل على أنهم يعيشون بينهم.

وهذا مهم جداً أن نفهمه كما وصف الله عز وجل الأنبياء عليهم السلام في قوله: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، فهذا وصف على أن النبوة لا تترفع عن هذا، لأنها تأكله وتبيع وتشتري، أي تمشي في الأسواق لحاجتها في البيع والشراء، وهنا هؤلاء ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فدل هذا على أن هذا الصنف

من البشر، يعني صفته لا تنعزل عن المؤمنين، ليست منعزلة عن أهل الإيمان، لا تنعزل، بل هي تعيش بينهم، وهنا تأتي خطورتها.

في سورة «النساء» قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٨–٨٩]، فالله عاب هناك في سورة «النساء»، وفي سورة «النساء» الحديث متعدد ومتنوع وكذلك موزع عن المنافقين.

ففي هذا الموطن الذي بين أيدينا وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾، بيان على أن الصحابة رضي الله عنهم قد اختلفوا في المنافقين، أولاً: اختلفوا في معرفتهم بهم، ثم اختلفوا في أحكامهم، لم يختلفوا فيهم فقط في كيف نتعامل معهم، لا، اختلفوا هل هم منافقون أم لا، فجعل الله عز وجل في تلك الآيات جعل معياراً لمعرفة المنافق من غير المنافق وهي الهجرة، قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ [النساء: ٨٨–٩٠]، فجعل الهجرة معياراً وهذا كذلك تقدم الكلام عنه.

وهناك إذا وصلنا نبين طريقة القرآن في بيان الأحكام الاستثنائية، هذا الموطن في سورة «النساء» فيه فوائد فقهية عظيمة سنبين إذا قدر الله عز وجل وجئنا إليها.

لكن المقصود في هذا ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، دل على وجودهم بين المؤمنين، ومن هنا ينشأ الخلاف فيهم، وكذلك الناس يترددون في الحكم عليهم، أولاً: في الحكم هل هم من المنافقين أم لا، ثانياً: في كيفية التعامل معهم، كيف نتعامل معهم؟ لأنهم ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وهذه احتج بها كما يقول بعض أهل العلم احتج في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾، احتج بها الشافعية على أن هذا كافٍ، قالوا: نحن مؤمنون وخلاص ارتفع الحكم عنهم حكم القتل بأنهم زنادقة، فانظروا لمجرد قولهم هذا هناك صار خلاف في ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ولا تتم اللقية إلا بالمقاربة فدل على قربهم، على التصاقهم.

وهنا عبر عن لقائهم بالمؤمنين قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ [البقرة: ١٤]، ولكن لما جاء إلى ذكر النفاق ما قال: وإذا لقلوا المنافقين، ماذا قال؟ ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤]، فلقيا ليس فيها دلالة الاختصاص في قوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾، يعني الناس يتحدثوا عن اللقية لقيته فهي تحمل دلالة عدم القصد، وعدم الذهاب

في الابتداء وإنما لقيه، دل هذا أن قولهم هذا لا يكون مقصوداً في الذهاب إليهم مع إنهم يعيشون بينهم، لكن هذا لا يحمل فيه دلالة الاختصاص والقرب، القصد القرب القلبي والقرب النفسي، لا يحمل هذه الدلالة.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾، ولكن لما جاء إلى ذكر إخوانهم وأسيادهم وكبرائهم قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾، فدل هذا على أن ما يفعلونه مع إخوانهم هؤلاء وأسيادهم أو كبرائهم إنما يفعلونه قصداً وإنما يفعلونه حباً وقربًا وذلك ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾، ففرق بينهما فرق بين لقائهم مع المؤمنين، التي لا تحمل إلا دلالة اللقية، هل قصدها أم لم يقصدها؟ الأغلب عند ﴿خَلَوْا﴾ ما دام أنه ميز بينهم أنه لم يقصد الذهاب، وإن كانوا يعيشوا بينهم، لكنه إذا جاء إلى كبرائهم قال: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾.

هنا مسألة قبل أن نبحث من هم الشياطين، هنا ما معنى شيطان؟ اختلف أهل العلم من اشتقاقها فقيل من البعد، شط الشيء ابتعد، شطه: ابتعد، ومنها أخذت كلمة الشط، لأنه مقصد أهل السفن فهو بعيد عليهم دائماً وهكذا، ولذلك شط: ابتعد، ولكن عادةً تطلق هذه الكلمة ليس فقط على الابتعاد المطلق، وإنما تحمل على الابتعاد المقصود بالشر، فيقال: شط فلان، فهي لا تحمل دلالة مطلقة يمكن أن تحمل على الحسن والقبح، وإنما عادةً تحمل على القبح، شط فلان أي ابتعد ابتعاداً قبيحاً، شط الرجل ابتعد، فمن هنا أخذت كلمة الشيطان، في أنه شط أي ابتعد عن رحمة الله، ابتعد عن طاعة الله صار مُبتعداً عن رحمة الله ومن هنا فهو ملعون، ومن هنا لعن أي ابتعد عن رحمة الله عز وجل، هذا بعض معانيها.

وهنا مسألة كذلك ثانية، بلا شك أنهم لم يخلوا إلى شياطينهم من الجن، لم يخلوا إلى شياطين في هذه الآية وإن كان اختلاء الإنسان بشيطانه الجني حاصل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١١٢]، إذن ثمة التقاء بينهما، بين الجني والإنس في التقاء، لكن هذا بعيد هنا في هذه الآية، فدل على أن المقصود بالشيطان هنا الإنسان، لأنه لا يأتي الشيطان هو لماذا يقول إذا خلا قال أنا آمنت، فالمقصود به هنا شياطين الإنس، وهذا دليل على أن الشيطان يطلق على الإنسي والجني، ما دام أنه ابتعد عن رحمة الله وابتعد في معصيته لله هذا الابتعاد الكبير الذي تحققت به لعنة الله عليه، فدل هذا على أنه يوصف بالشيطان ولذلك قال: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢].

ونعرف نحن دائماً أيها الإخوة الأحبة أن التقدمة كما قال سيبويه: «لا تكون التقدمة إلا لشأنٍ فيه»، التقدمة لشأنٍ ما، لأهميةٍ ما، هذه قاعدة لا تتخلف التقدمة لابد لأمر، فلما قال سبحانه وتعالى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، فقدم الإنس عن الجن، الناس في الإيحاء والزخرفة بزخرُف القول لا يفهمون إلا شيطان الجن، أنه الجن يلعب به، مع أن العداء والتمالؤ والمكر على الأنبياء وعلى اتباع الأنبياء يكون من الإنسي أكثر، لماذا؟ لأنه الله قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، بالنسبة للأنبياء من الذي يؤذيهم أكثر شيطان

الإنس أم شيطان الجن؟ الإنس، في اتباع الأنبياء من الذي يؤذيهم أكثر؟ من الذي يحاربهم أكثر؟ من الذي يقف أمام دعوتهم؟ شياطين الإنس، فقدم الإنس عليهم فدل هذا على أن كلمة الشيطان يجوز أن تطلق على الإنس والجن.

وهذا دليلٌ كذلك يستدل به على حديث من يقطع الصلاة، فإنه شيطان، أنه إذا قام رجل يصلي فمر من أمام رجل ما فعليه أن يدفعه فإن أبا فليقاتله قال: (فإنه شيطان)، هذا بيّن الآن شيطان ليس المقصود فيه أنه جني تحول إلى صورة إنسي فمر فصار شيطاناً، لا، هو إنسان لكنه شيطان، يعني بعض الناس يقول: كيف هو يدفع فإنه شيطان؟ يعني هل تريد أن تقول بأنه جني تلبس فيه، أو جني تحول على غير صورته فصار على صورة الإنسان فمر من أمام المصلي، لا، كل هذه التأويلات غير صحيحة وغير واردة، الوارد والصحيح هو شيطان، على معنى أنه عصى معصيةً شديدة، مصر، دفعه فربما الدفعة الأولى تدل على أنه غافل، كثير مما يمر من أمام المصلين رجل فيدفع فيتنبه فيرجع، لكن لو أصر على أن يمشي من أمامه دل على أنه شيطان عاتٍ عن أمر ربه، مصر على أن يقطع على الرجل صلاته، وأن يحول بينه وبين خشوعه ويحول بينه وبين تمام صلاته ... إلخ، فهو شيطان.

فالشيطان يطلق على الإنسي والجني وكذلك من هذا نفهم عندما يقول النبي صلى الله عليه وسلم عن الكلب الأسود: (فإنه شيطان)، هل هذا كما في الحديث عن الإبل أنها خلقت من جن؟ فهذا الكلب الأسود فيه روحٌ جنية، فهو شيطان؟ ما الذي نفهمه؟ الذي عندي الصواب أنه هو شيطان، أي بمعنى أن هذا الكلب الأسود فيه من الشر والخبث والسوء ما يحقق معنى الشيطان فيه.

فلذلك كلمة شيطان ليست اسمًا ولكنها وصف، كلمة شيطان ليست اسمًا بخلاف إبليس، إبليس اسم لجنيٍ، على الصواب هو زعيم الشياطين، وحتى كلمة إبليس يقول كثير من أهل العلم: أنها مشتقة، أبلس بمعنى: غطى، انتهى، فهذا غطى أن يتابع الحق، هذا مما يقوله وسيأتي إن شاء الله.

القصد: أن شياطينهم هنا هم من الإنس.

وهذا يدل على وجود فرق ووجود طبقات لهؤلاء المنافقين، وليسوا طبقةً واحدة، هذا دليل في الآية على أن الشياطين طبقاتٌ متعددة، وبالتالي هم يأتوا المؤمنين ويذهبون إلى شياطينهم، انظر، لكبرائهم أسيادهم من هؤلاء؟ يمكن أن يقال: كبراؤهم من الكبار كعبد الله بن أبي، وكثير من أهل العلم يقول: إن المقصود بهؤلاء الشياطين هم اليهود، ذلك لأنهم هم الذين يعلمونهم المكر، وهم الذين يتمالؤن معهم كما رأينا في بني النضير، كما رأينا في بني قريظة، فهم الذين يوحون لهم كيف يفعلون، وكيف يتحركون إلى غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤]، ما هي الظلال التي تلقى في ذهنك؟ أنهم يعرفون الناس، تلقي بنا الظلال في هذه الآية ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أنهم يعرفون المؤمنين ويعرفون

الشياطين فهم يعرفونهم، أي علامة أن هذا المجتمع في تقسيمته معروف، وهم أهل النفاق يعرف بعضهم بعضاً، ويعرفون أهل الإيمان، ولذلك هم لا يمالؤن المنافقين، لا يأتوا للمنافقين يقولوا: أنا مؤمن.

وانظروا إلى هذا التنوع في الخطاب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ما قالوا: إنا معكم، لأنهم يكذبون وتقدم في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾، أشرنا إلى إيمانٍ ظاهر على الأغلب، فلو قالوا: آمنا لكذبوا لعلموا أنهم يكذبون، ولذلك ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾، ما قالوا: إنا معكم، ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ فاكتفوا بأن يعطوا أهل الإيمان كلمة آمنا، لكن عندما يذهبوا إلى أوليائهم الحقيقيين ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، ففرق بين قولهم.

أولاً: فرق بين حال الذهاب، قال: ﴿لَقُوا﴾، قال: ﴿خَلَوْا﴾، فرق في حال المعاملة، فلما جاءوا للمؤمنين ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾، وأكتفوا بهذا، أعطوهم الكلمة فقط، لكن لما ذهبوا إلى أسيادهم وأوليائهم أعطوهم أنفسهم، أعطوهم كلهم ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾.

ولما نأتي إلى سورة «التوبة» فنقرأ قوله تعالى قال: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧]، فلما نقرأ لأهل العلم مثلاً: نرى من كلام شيخ الإسلام في «الصارم المسلول» يقول: «والمقصود أن ولائهم وأن حالهم إنما هو إثباتٌ للظاهر، وإلا فلا ولاية» لأنه لما جاء للمؤمنين بعدها بآيات في سورة «التوبة» قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وكذلك قال تعالى في آيات أخرى على المنافقين بعضهم أولياء بعض، هذه قضية قرآنية مهمة، آتي عليها قليلاً لنفهمها:

لما يقول الله سبحانه وتعالى عن قدرته وعن أن الكون يتحرك بفعله وبإرادته لا بفعل الزارع، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٧]، ثم قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠]، ما قال لو نشاء لجعلناه، قال: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]، لا توجد لام، الام هذه عند العلماء اسمها لام التوكيد، فلماذا لم يؤكد هنا في قضية الماء وإنزاله أجاجًا يعني مالحاً أو ملحاً.

وبعض أهل العلم يقول كلمة مالح خطأ، ويخطئون في ذلك إمام العربية في كل وقت وهو الشافعي، يقولون أنه قال: ماءٌ مالح، قالوا العربية تقول: لا، القرآن يقول: ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، يعني ليس مالح، فقالوا: هو حجة في العربية وتخطئونه، لأن العربية ليست اجتهادًا، بسبب هذا الناقل لكلمة في معاني العربية لما ينقلها لا يقال: هذا اجتهد فأخطأ، لأن العربية قوامها على الرواية، وليس على الاجتهاد عند الأوائل، نعم نشأت هناك بعض الأقوال التي المبنية على القياس فيخطئونها قياساً لكن في الأصل العربية مبنية على الأخذ، يعني هل ورد عن العرب أو لم يرد،

فكون الرجل ينفي وجود مالح لأنه لم يصله، كما قال الشافعي، قال: لا يوجد أحد يحيط بلغة العرب كما لا يوجد أحد يحيط بكل سنة النبي صلى الله عليه وسلم إلا نبي فكذلك لا يحيط بلغة العرب إلا نبي.

القصد: فلماذا فرق القرآن بينهما مع أن قدرته لا تتنوع إثباتاً وعدماً وكثرةً وقلة بحسب المقدور، ما معنى هذا الكلام؟ معنى هذا الكلام أن الله عز وجل لما خلق الأرض قدر فيها أقواتها في أربعة أيام، والسماوات خلقها في يومين فأصبحوا ستة أيام، الأرض وأقواتها في أربعة أيام والسماء كل ما فيها في يومين، من أعظم السماء أم الأرض؟ السماء أعظم خلقة، كيف السماء الأولى محيطة بكل الكون والأرض هي جزءٌ بسيط من عالم الكون الذي نعيشه، الأرض هي شيء يسير في المجموعة الشمسية، والمجموعة الشمسية شيءٌ يسير في درب التبانة، ودرب التبانة وهناك دروب كثيرة، فالأرض أصغر من السماوات، مع ذلك خلق الله السماوات في يومين، والأرض وقدر في أقواتها في أربعة أيام، إذًا هل الزمن له علاقة في قضية القدرة؟

مثلاً: الآن أنت تأتي لرجل تقول له: أريد أن أبني هذا البيت مئة متر مربع، يقول: يحتاج أسبوع، تقول له: مئتين متر مربع، يقول لك: يحتاج أسبوعين، فكلما كبر الشيء ازدادت المدة، فالأصل أن يكون العكس أن الله خلق السماوات في أربعة ايام هكذا، لو قلنا بأن القدرة لها تعلق -زمنياً- لها تعلق بالمقدور عليه قلةً وكثرة لجعلنا خلق السماوات يحتاج إلى أيام أكثر من أيام الأرض، لكن القدرة ليست كذلك، قدرة الله عز وجل لم تجعل لهذا من أجل المقدور عليه ونسبيته كثرةً وقلة، لا، الله يخلق السماوات والأرض في لحظة في قوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)﴾ [البقرة: ١١٧]، في ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ تكون كل السماء والأرض، ولكن ما جرى على الأرض، جرى على وفق السنة التي تتعدد فيها الأيام، بخلاف ما في السماوات فليس فيها جريان السنة التي تحتاج إلى أيام، ما معنى هذا الكلام؟ -كل كلمة بدها تفسير أعرف-:

الآن الله عز وجل خلق الأرض كما خلق السماء لكن أن يجري فيها تقدير الأقوات تحتاج لتجري مجرى السنن إلى هذه الأيام، لأن الله عز وجل خلق الأرض على وفق السنة، ينمو فيها الزرع ينمو فيها الكذا، قدر فيها أقواتها، ليس فقط أقواتها لتكون مُهيئة لينزل عليها الإنسان فهي لتجري مجرى السنة تحتاج إلى أربع أيام.

أضرب لك مثالاً: ما في بطن المرأة الولد، هل الله عز وجل قادر بلحظة أن يتم التزاوج فينزل الولد كاملاً؟ يقدر في لحظة يكون ولد، يقول له: كن فيكون في بطن أمه ثم ينزل في لحظة، لكن ليجري مجرى السنة احتاج لتسعة شهور، فاحتاج تسعة شهور من أجل أن يتكون ليكون موافقاً للسنة في تكونه.

إذن الله عز وجل خلق الأرض وقدر فيها أقواتها، هذا التقدير جرى مجرى السنة فاحتاج إلى أيامٍ أكثر مما خلق السماوات، السماوات لا ليس فيها هذا التقدير، أي الآن قدر فيها أقواتها: أنبت النبتة، النبتة تخرج بيوم تخرج بلحظة؟

أم تخرج مرةً وراء مرة لتكون جاهزة للقطف، فتحتاج إلى وقت، السماوات ما فيها لا أكل ولا شرب، ما فيها نبات، ولا فيها حيوانات، فلا تحتاج إلى تقدير ما فيها لتكون جاهزة لمن ينتفع بها، ويستفيد منها من الملائكة.

إذن الله عز وجل قادر وحين يأتي الزمن إنما لتوافق السنة وليس لنسبية المقدور، هذه أتيت عليها لأنها مهمة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إذن هنا اختلف عندهم اللقية فهؤلاء خلوا، وهؤلاء لقوا، نرجع إلى قضية النفاق من أجل هذا، هذا أتيت به لماذا؟ الكلام الذي قلته في قضية تقدير؟ لما قال الله عز وجل: ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ [الواقعة: ٦٤-٦٥]، أكده، لكن لما جاء إلى قضية إنزال الماء قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]، لماذا لم يقل لجعلناه أي بلام؟ هل لتعلق القدرة؟ يعني الله عز وجل قادر أن يجعل الماء أجاجًا بقدرةٍ ليست زائدة لما يحتاجه الزرع ليكون حطاماً، فلماذا جاء بـ لام هنا؟ ذلك لنسبية ما يرى الإنسان من القدرة وليس لأساس القدرة، لنسبية ما يرى الإنسان، هل الإنسان قادر أن يُنزل ماء أجاجا من السماء؟ لا يقدر، هل يقدر أن يأتي إلى زرعٍ قد يبس فيحرقه ويجعله حطاما؟ قادر أو لا يقدر؟ قادر، فذلك نسبية القدرة عند الإنسان في الأولى أقوى، فلذلك جاء بكلمة اللام، لأنها بالنسبة إليك.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾، ذلك لأن هذا شيءٌ تشهده فجاء بالتأكيد، لكن لشيءٍ أنت لا تقدر عليه فلا حاجة للتأكيد، لأنك أنت لا تقدر عليه فبماذا يقارنه؟ ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠)﴾ [الواقعة: ٧٠]، فبما يقارن بك، لأنه لا يحتاج لتأكيد، فشيءٌ لا تقدر عليه فلا يحتاج إلى نسبية مع غيره لأنه لا يقدر عليه، مع أن القدرة واحدة لكن لما جاء السياق أختلف اللفظ ليبين الفرق بينهما، أنا أردت أن أرجع إلى سورة «التوبة»، كل هذا هو من بيان قواعدنا لفهمنا للقرآن.

مثلاً: كل شيء نفسره حتى نفهم، في أخر سورة «الأنعام» قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)﴾ [الأنعام: ١٦٥]، لم يقل لسريع، قال: ﴿سَرِيعُ﴾، لكن لما جاء للمغفرة ماذا قال بعدها؟ ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، لأن هذا هو الأصل، الأصل أن رحمة الله عز وجل مقدمة على عقوبته على غضبه، (إن رحمتي سبقت غضبي)، فالأصل هكذا لو أطلقت فأنه سريع العقاب في المطلق، لكن هل سرعة العقاب في المطلق تعادل غفورٌ رحيم؟ أم أن غفورٌ رحيم مقدمة عليها؟ فلذلك جاء التأكيد ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ ذلك لأن المغفرة مقدمة، المغفرة والرحمة مقدمة على سريع العقاب.

وفي سورة «الأعراف» قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧)﴾ [الأعراف: ١٦٧]، لماذا؟ لأن الموطن هو موطن عذاب، لأن الموطن ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، فالموطن موطن عذاب فجاء

التأكيد بلام، وأما ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فهي مقدمة باللام لأنها أصلاً ثابتة، ولكن الموطن يقتضي التأكيد في قوله: ﴿لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾، هذا من أساليب القرآن وعلينا أن نهتم له.

القصد: لما قال الله عز وجل سورة «التوبة»: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧]، ولما بعدها بآيات قال عن المؤمنين: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، هناك من قال من أهل العلم وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «الصارم المسلول» قال: «هذا لأن ولاية المنافقين فقط في الظاهر، بخلاف ولاية المؤمنين» يعني المنافق لماذا يقيم علاقته مع المنافق؟ المنافق يقيم علاقته مع المنافق من أجل المنفعة، فإذا خلت المنفعة ذهب إلى من يدفع له، فالعلاقة بين المنافقين علاقة ظاهرية، علاقة المؤمنين هل هي ظاهرية أو باطنية، أم أنها ظاهرية فقط؟ ظاهرية وباطنية، فلو خلت من المنافع تبقى الولاية.

ولذلك قال عن المنافقين: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧]، ظاهرة هم هكذا في ظاهرهم، لكن لما جاء إلى المؤمنين قال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، حديثٌ عن الباطن والظاهر، فلماذا هذا لم نراه في موطنٍ آخر عندما قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ [الأنفال: ٧٣]، لماذا؟ هذا كل الشرح الذي نحن ندور حوله، لأن هنا في سورة «التوبة» بيانٌ لتشخيص الحالتين المتقابلتين، في سورة «التوبة» عندنا حالتين فلابد من تشخيصٍ دقيق لكل حالة؛ لنعلم الفرق، لأنه لو جاءت لما علمنا الفرق لكن لما جاء التفريق بين هذا كما تقدم في سورة «الأعراف» كما تقدم في سورة «الأنعام»، أنه لسريع العقاب، لابد من الفرق، فهنا لما جاءت الحالة الإيمانية كما تقدم عن قوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ﴾ [الواقعة: ٦٥]، لما جاءت في سورة «الواقعة» في مقابلة فلابد من التفريق بين الحالتين.

مثلاً: أنت الآن لو جئت إلى رجلٍ منفرد أردت أن تصفه تقول: طويل، فالناس يأخذونها في المطلق، يقال: طويل، يقال: قوي، لكن حين تأتي إلى رجلين قد اقتربا في الحالة الظاهرة واختلفا في دقائق، هل تصف هذا فتقول: طويل أم تقول: هذا أطول، هذا أقصر بالرغم أنه قد يكون الأقصر لو انفرد لقلت طويلاً؟ فالحالة هي حالة مقارنة، فلما خلت من المقارنة.

وهنا يوجد مؤمن ويوجد كافر فأراد أن يصف الحالتين بالمقارنة، فقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧]، حالتين مختلفتين، لكن لما أراد أن يدفع المؤمنين لئلا يسبقهم المنافقون في التعامل فيما بينهم، أراد أن يعظم شأنهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣)﴾ [الأنفال: ٧٣]، لإنه أراد أن يجعل فعلهم محرضاً للمؤمنين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، لو قال: بعضهم من بعض، لما حصل المثال، كان يقول: اسعى لتكون مثله وهو يقول عنهم أن الولاء فقط في الظاهر، لكن لما كان

الموطن هو موطن دفع المؤمنين لعدم سلوكهم سبيل تحصيل الغلبة، كما يسلكه المنافقون؛ جعل هذا اللفظ فقال والمنافقون والمنافقات بعضهم أولياء بعض.

ولذلك فرق القرآن هنا ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ١٤]، فرق، ما قال: وإذا لقوا، قال: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤]، ويقال: خلوا إلى، ويقال: خلا به، وهنا ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ [البقرة: ١٤] اكتفوا بالقول ولكن هناك ماذا قالوا؟ قدموا أكثر من ذلك ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤]، ثم زادوا بأن فسروا موقفهم بقولهم ﴿آمَنَّا﴾، ذهبوا ليبرروا لهؤلاء الأسياد والكبراء والقادة ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ [البقرة: ١٤]؟ ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤)﴾ [البقرة: ١٤]، والاستهزاء على معنى السفاهة، ومن ذلك يقال: هزء، والاستهزاء من هَزُءَ الذي يهتز ماذا؟ الخفيف، وقلنا: السفاهة على معنى الخفة، والاستهزاء نفس الشيء، أصلها هَزُءَ يعني خفة طيشاً، فهؤلاء مستهزئون أي يقولون كلاماً لا قيمة له، لا أهمية له، وإنما يريدون الكيد بهم.

قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ انظروا التأكيدات، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾، ما قال إنما نحن نستهزئ بهم، وقلنا دائمًا إذا جاءت العبارة بالاسم أو المصدر دلت على الثبات، ﴿مُسْتَهْزِئُونَ﴾، ما قال: إنما نستهزئ بهم لا، ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾، أي يريدون الكيد بأهل الإسلام ويريدون السفاهة بهم ذلك لأن الاستهزاء لا يكون إلا عن احتقار، شعور العلو، وهذا يؤكد ما قاله تعالى قبلهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣]، في احتقار انظر هؤلاء الجماعة يفهمون.

وللأسف دائمًا نرى هذه القضية موجودة عند الكافرين، ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١)﴾ [الشعراء: ١١١]، دائماً تحقير لهؤلاء المؤمنين المساكين، ففي زماننا هذا إذا أردت أن ترى حال المفكرين وأردت أن ترى حال العاملين لدين الله، ترى الاستهزاء، هؤلاء ولاد الشوارع، هؤلاء الفقراء، هؤلاء المساكين، هؤلاء الشباب الذين لا يفهون شيء، هؤلاء ... إلخ، يعني تجد كل هذه الصورة أمامك ماثلة، وهؤلاء ماذا يزعمون أنهم هم العباقرة هم أهل الفكر هم أهل النظر هم أهل السياسة، وإذا جئت إلى واقعهم ترى أنهم لا يستطيعون أن يحركوا رقعة شطرنج من الضعف بما كان، لا يملكون إلا الكلام فقط ريح هواء، وأما الفاعلون فهم الذين يصنعون القوة.

لكن عادةً للذكر، أنا أسألكم سؤالاً، كم واحد منكم لما دخل رأى الثريا الموجودة الصغيرة؟ –للذكر هذه هدية وإلا لا اشتري ثريا– كم واحد منكم نظرا للثريا؟ الكثير نظر إليها لكن أسألكم كم واحد منكم تفكر بقواعد البيت؟ من خطر في باله لما دخل أن تفكر في قواعده، كيف الأساسات قوية صلبة، ما فيها من حديد، ماذا فيها من حجارة قاسية صلبة أحضرها ربما صاحبها من السيل، الحجارة القوية التي يعني حتى الماء ما قدرت على أذابتها، ما أحد تفكر، لكن البيت هل يصنع بالثريا ولا يصنع بالقواعد هذه المسكينة؟ فالقواعد دائما محتقرة، لكن بها تقوم الأمم وبها يشاد التاريخ، القواعد هي التي تصنع كل شيء.

ولذلك الفرس والروم كيف ينظرون لهؤلاء الدقاق؟ لا قيمة لهم، هم أهل الحضارة لكن هؤلاء المساكين الفقراء اجتاحوهم رموهم في مزابل التاريخ، وهذا من مكر الله، وهذا من نعمة الله في التحقق كبرياء الرب، لأنه لما ينتصر هؤلاء الفقراء لا ينسبون النصر لأنفسهم، ماذا فعلوا هم؟ مال لا يوجد مال، جاه لا يوجد جاه، خرجوا من لا شيء، قليلاً فكثرهم، فقراء فأغناهم، فهم يعرفون أن كل شيء حصل بفضل الله، لكن لو هؤلاء الملوك جاءوا والسلاطين ونصروا الإسلام ماذا يقولون؟ بملكنا بمالنا بقواتنا بتعدادنا، فالله عز وجل لا يريدهم، يريد أن يكون الدين كله لله، ومن كون الدين كله لله أن ينسب كل حمدٍ له، لا تفكروا أنه بس الكفار ينازعون أن الدين كله لله، كذلك أهل الإسلام ينازعون، في عندهم منازعة لهذا في جانب.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤]، وهنا نسب الشياطين لمن؟ إليهم، شياطينهم وهذا دلالة الالتصاق ودلالة القرب دائمًا كما ترون شياطينهم علامة أنه في علاقة دائمة بينهم، ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤)﴾ [البقرة: ١٤]، وثم قال سبحانه وتعالى ردا عليهم: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾ [البقرة: ١٥]، نقف هنا؛ لأن بحث استهزاء الله مسألةٌ مهمة وإن شاء الله نبينها في الدرس القادم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس السادس العشرون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

هذا هو الدرس السادس والعشرون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾ [البقرة: ١٤-١٥].

وقفنا عند قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، رأينا هنا هم مستهزئون فأتى باسم الفاعل وهذا تقدم بأن اسم الفاعل هو اسم الثبات ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤)﴾ [البقرة: ١٤]، أي على الدوام لا يستهزئون مرةً ويكونون على الضد من الاستهزاء مرةً أخرى، وضد الاستهزاء التوقير، الذي يستهزئ أو يوقر، والاستهزاء ينشأ عن غرور وينشأ عن كبر وينشأ عن احتقار، يعني كبر في النفس واحتقار للأخر فيتصرف عن هذا الكبر الذي في نفسه ولاحتقار الآخر استهزاء، وفي معنى كذلك الخفاء، كما تقدم من قضية الخفة بينه وبين فعلهم، كما قلنا في السفهاء أن فيه الخفة.

وهناك هم قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ﴾ تقدم هذا الإشارة إليه في توكيدهم لشياطينهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ وأتوا باسم الفاعل مستهزئ اسم فاعل، لكن الله عز وجل قال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ﴾، ولم يأتِ باسم الفاعل، ما قال والله مستهزئ بهم بل قال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ﴾.

وهنا لنا مواقف عقدية تتعلق بأسماء الله عز وجل وصفاته، ولنا مواقف بيانية:

الموقف الأول هل الله يستهزئ؟ أولاً نحن نعلم بأن أسماء الله حُسنى، ومعنى حُسنى أنك من حيث أتيت هذه الصفات كان فيها الحُسن ولا يتصور فيها القبح ولا النقص هذا معنى الحُسنى، هذا بعد قولك إن أسماء الله حُسنى.

المعنى الأول: أنها صفات، يعني ممكن أن تسمي رجل خالد وهو ميت سيموت هو ليس خالد، عمر وهو ليس كذلك ليس معمرًا، وكذلك يقال: فلان جميل فهذا جميل ولكنه قبيح، فالاسم قد يطلق على غير صفته، فهذا يرفع

عنه وصف الحُسن، خلاص تعطل الاسم عن صفته، فتعطل الاسم عن معناه الذي وضع له واستعمل له فهذا يعني رفع صفة الحُسن عنه.

فلذلك أول قضية من أسماء الله الحُسنى هو أن أسماء الله مشتقة من صفات، وهذا ردٌ على ابن حزم، وابن حزم هو يتقلب في هذا الباب بين الظاهرية وبين التأويل، فزعم أنه لا يجوز لنا أن نسمي الله عز وجل بالصفات أن ننسب له صفاتًا، وهذا خطأ، ففي الحديث كذلك ووجدت بعض الأحاديث التي فيها أنها لله عز وجل صفات.

ولكن كذلك من المعنى الموجب عقلاً لربنا جل في علاه أنه إذا سمي باسم أن يكون هذا الاسم صفة، هذا موجب وإلا لتعطل معنى الحُسن، هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني: للحُسن وهو أنك من حيث أتيت هذا الاسم كان حسنًا في فطرة البشر، والاستهزاء لا يكون حسناً من كل وجه، ولذلك الله عز وجل عاب على المنافقين أنهم مستهزئون، فلو كان الاستهزاء حسناً من كل وجه لما قبح الله به وصفه للمنافقين، فلما قُبح في المنافقين، كان في ربنا عز وجل أقبح، ومن هنا هذا باب من أبواب المباحث العلمية في موضوع أسماء الله وصفاته، أن كل ما كان حسناً في الخلق كان من باب أولى حسناً في وصف الرب، إلا ما اختص به الحُسن بكونه عبداً، أي مما اختص به العبد حُسنًا له أن يكون عبدًا، فالعبد لله حُسن، لكن لا يجوز أن ينسب إلى الله عز وجل، لكن من باب أولى وهذا يسمى عند أهل العلم بقياس الأولى.

ما هو قياس الأولى؟ قياس الأولى فإذا تصورت جمالاً في الصغير كان الكبير أولى بهذا الجمال، هذا أولى، قياس أولى، لأن عادةً القياس، القياس ما هي أركانه؟ أركانه: الفرع والأصل والعلة والحكم، فعادةً الفرع يكون أقل من الأصل، ما هو الفرع؟ الفرع: هو الشيء الذي نبحث عن حكمه، الأصل: هو الذي ثبت حكمه، فالذي ثبت حكمه هو الأصل فيه أولى، والحكم فيه أولى والصفة فيه أولى والعلة فيه أولى، لكن مرات لا، يكون المقيس وهو الفرع أولى من المقيس عليه من الأصل، فهذا يسمى قياس الأولى، وهذا جائزٌ في حق ربنا إلا بالشرط الذي ذكرناه في ألا يكون في ذلك فيه صفة العبودية خاصة.

فالله عز وجل لا يجوز أن يوصف بالاستهزاء لا يجوز أن يقال: إن اسمه المستهزئ، هم مستهزئون، اسم مستهزئون أتى باسم الفاعل، لكن الله قال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، إذن هذا الاسم لا يجوز أن يطلق على الله عز وجل لأول شرط، وهو أنه ليس حسناً من كل وجه، هل الاستهزاء حسن من كل وجه؟ لا، وإنما يمدح في حال ويذم في أغلبه، الاستهزاء شيءٌ يستقبح ويذم به المنسوب إليه.

الشيء الآخر أننا هنا لما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، ما زلنا في المباحث العقدية في الأسماء، تقدم أن كل اسمٍ يشتق منه صفة، وبالتالي الصفة يمكن أن يعبر عنها بالفعل كقولك: الله رحيم، اسمه الرحيم، فتقول: الله يرحم،

يجوز، الله رؤوف الله يرأف، الله غفور اسم، فتشتق منه فعلاً وتقول: الله يغفر فعل، تستقدم منه الصفة لأن الصفة لا تكون صفة إلا إذا وجد فعلها وإلا لا تكون صفة، فإذن الاسم يُشتق منه الصفات، لكن العكس ليس لازماً، بمعنى لا يجوز لأحد أن يأتي إلى فعلٍ وصف الله عز وجل به نفسه بأن اشتق منه صفة، لماذا؟ لما تقدم التفريق بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية، لكن نشرحه شرحًا يسيرًا ليستقر فقط.

قلنا: بأن الجملة الفعلية متعلقة بالإرادة أي الكلام فأنا ممكن أتكلم متعلق كلام بالإرادة أتكلم وأصمت، لكن صفة الذات هو أن يكون لوني أسمرًا فهذه صفةٌ اللازمة لا تعلق لها بالإرادة، فإذن ما هو الشيء الثابت؟ ما كان فعلاً أم ما كان صفةً للازمة؟ الثابت هو الصفة اللازمة، الفعل قد يأتي وقد يذهب، وبحسب المقتضى، الاستهزاء بحسب المقتضى، فاستهزاء ربنا جل في علاه لمن استهزأ بالمؤمنين حسن أم قبيح؟ حسن، فإذن علمنا حسن الاستهزاء بسبب مقتضاه، ما مقتضاه؟ يعني سببه، ما الموجب له، ما الذي جعل هذه الصفة تنشأ الآن فعلاً، فعلمنا حسنها بسبب المقتضى أي الذي اقتضاه، والمقتضى أخذت من ماذا؟ قضى، وقضى أي هو الذي أخرج هذا الحكم، هو الذي أصدر هذا الحكم، فمقتضى استهزاء ربنا عز وجل هو ما فعلوه.

فنرجع نقول: إن كل اسمٍ يشتق منه صفة، والعكس ليس صحيحًا، لماذا؟ لأن الاستهزاء لم يكن جميلاً إلا بسبب مقتضاه، إذن هو حالة فعلٍ أم حالة صفةٍ دائمة؟ هو حالة فعل، والفعل إنما يمدح إذا وجد مقتضاه، إذا كان على هذا المعنى الذي تقدم ذكره من كلمة استهزاء.

وعند قوله سبحانه وتعالى هنا: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ﴾ [البقرة: ١٥]، أتى بماذا؟ بفعل المضارع، هنا مسألة ثانية فعل الذي يسمى عند المتأخرين بالمضارع عند الأوائل له اسم، له اسم أخر عندهم، لكن الفعل المضارع هنا هو الذي يفيد الدوام، بخلاف الفعل الماضي، الماضي فيه انقضاء، والأمر فيه استقبال، افعل لم يقع الفعل بعد، قد يقع وقد لا يقع، لكن الذي يفيد الاستمرارية والدوام هو الفعل المضارع، ولذلك قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي نزل عن مرتبة اسم الفاعل وهو الدوام إلى مرتبة الفعل المضارع، لئلا يصل إلى درجة دوام الاستهزاء لأنه مدحٌ في جانب مهم وهو جانب وجود مقتضاه، لكنه كذلك يريد أن يعطيك -وهذا المهم- يريد أن يعطيك بياناً لقدرة الله أنه يستهزئ بهم متى أراد، وليس مرةً دون مرة.

لماذا نزل -هذا الذي نريد أن نقوله- لماذا نزل الكلام من أن ينسب اسما إلى أن ينسب فعل؟ لأنه لا يمدح، لو كان اسمًا مستهزئ، لما كان مدحاً من كل جانب فيجب أن ينزل مرتبته ليعبر عنه بفعلٍ أقل من الاسم، وهذا الفعل ينبغي أن يكون فيه كذلك القوة، متى يريده يكون، فعبر عنه بالفعل المضارع، ما قال: الله استهزأ بهم، قال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، أي متى حصل منهم الاستهزاء حصل منه جل في علاه الفعل المقابل له، هذا مهم هذه طريقة القرآن؛ أنه يأتي بالفعل المناسب له ويذهب عنه ما يتوهم عنه الذهن من الغلط، ولكنه لا ينزله إلى مرتبة الضعف التي ينتقد

فيها، ما قال: الله استهزأ بهم بل قال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ لماذا؟ من أجل إثبات بقاء القوة على الفعل، ولم يقل الله مستهزئ بهم حتى لا يرتقي إلى درجة الصفة التي تذم في جانب وتمدح في جانب، وهو يريد منها في هذا الجانب المدح.

فإذن لا يجوز لأحد أن يقول: بأن الله مستهزئ، لا، لأنها حينئذٍ تكون اسماً لربنا ولا يجوز، فإنه عبر عن فعلٍ، والفعل يمكن أن يشتق منه اسم، ويمكن ألا يشتق منه اسم وإنما ينظر إلى هذا الاسم هل هو ممدوحٌ من كل وجهٍ أم لا، أي هل لأحد أن يأتي إلى قوله تعالى: ﴿اللَّهَ يَرْزُقُ﴾ [آل عمران: ٣٧]، وأن يقول: الله الرازق؟ الجواب: نعم؛ لأنها مدحٌ من كل جانب، حتى لو لم يوجد الاسم، وهناك مباحث كثيرة في موضوع الأسماء والصفات منها:

مثلاً: بأن الاسم يزداد عظمةً وثناءً إذا اقترن بغيره من الأسماء التي فيها الثناء والعظمة، هذه قاعدة نبه عليها ابن القيم رحمه الله في «بدائع الفوائد»، يعني لماذا الأغلب في القرآن تأتي العزيز الحكيم؟ فلو انفردت العزة لكانت مدحاً عظيماً، ولو انفردت الحكمة لكانت مدحاً عظيماً، العزة مدحٌ دائمٌ حقيقيٌ ثناءٌ حسنٌ من كل جانبٍ في كل وقت، وكذلك الحكمة، الحكيم ثناءٌ حقيقيٌ من كل وجهٍ في كل وقت، لكن انظر فارتفعت درجة العزة باقترانها بالحكمة، وارتفعت درجة الحكمة باقترانها بالعزة، هذا من الأمور التي ينبغي أن نلاحظها في القرآن.

وأنا قلت لكم عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ [البقرة: ٦]: أن أجل ما يفسر به القرآن هو بيان نفس الرب، أجل ما يمكن أن تفهمه وأنت تقرأ القرآن أن تفسر كل آية ما هي نفس ربنا، ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وهذا تريد أن تعلم من هي هذه النفس في علوها في ثنائها في حُسنها في قدسيتها في كبريائها في مغفرتها ... إلخ، فكلما أتينا إن شاء الله إلى باب من أبواب الأسماء والصفات نشرحه ويكفي الآن هنا.

وفي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، هنا وقف العلماء عند نسبة الاستهزاء لربنا حتى لو كان فعل صحيح والفعل ينشأ مرة ويغيب مرة وإنما يكون مدحاً إذا وجد مقتضاه، وإنما يكون الاستهزاء مدحاً إذا وجد مقتضاه، وإلا فهو مذمومٌ إذا لم يوجد مقتضاه؛ لأنه زم منهم أنه لم يوجد دافعه لم يوجد منشأه لم يوجد سببه لم توجد علته، فالله عز وجل يقول: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، كيف يستهزئ؟ نحن حللنا المشكلة قبل الدخول فيها، يعني يأتي عامة المفسرين أغلبهم كيف ينسب الاستهزاء إلى الله عز وجل؟ والله عز وجل في نفس كل مؤمن أجل من أن يكون مستهزئاً، لكن نحن حللناها بقول: إذا وجد مقتضاه فكان مدحاً.

لكننا هنا أمام مسألة مهمة جداً، لماذا سمى الاستهزاء؟ بعض أهل العلم قال: إنما سميت العقوبة باسم الذنب، وهذا عند العرب موجود، تسمية العقوبة باسم الذنب، واستدلوا بقول الشاعر المشهور عمرو بن كلثوم:

أَلاَ لاَ يَجْهَلَــــنَّ أَحَــــدٌ عَلَيْنَــــا فَنَجْهَـــلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِيْنَــــا

فسمى الشاعر عقوبة الجهل جهلاً، مع أنها ليست بجهل، هو أراد أن يعاقبهم فوق ما فعلوه، فسمى العقوبة باسم الذنب الذي اقترفه، قال بعضهم: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أراد أن يعاقبهم على استهزائهم، فسمى العقوبة باسم الفعل، هذا وجه، وهذا وجهٍ عندي مع أنه في معناه الصحيح واللغة تقبله وهو معروفٌ في كلام العرب لكنه هو عندي ضعيف وسأبين هذا:

ضعيف أي هناك ما هو أولى منه، أغلب العلماء يأتون إلى هذه كقوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، يأتون ويقولون: هذا كله من باب المشاكلة، ما معنى المشاكلة؟ يعني أن يأتي الشيء بشكله، مشاكلة بأن يؤتى بالفعل الذي فعلوه فيكون مقابله على شكله، ما دام أنهم أتوا بالاستهزاء فالله يأتيه بضد فعلهم، فسمي هذا الضد باسم الفعل الذي أنشأوه، فيصبح معناه: أي هم استهزئوا فأول شيء حملت على العقوبة –حملناه على العقوبة– وسميت العقوبة اسم الذنب، الآن، لا، الآن قال: إنما الله عز وجل أتاهم بضد ما أرادوا فكان هذا الضد استهزاءً، فأتى بضد ما أرادوا، هم ماذا أرادوا الاستهزاء؟ ماذا يحمل استهزاء؟ الاحتقار، أرادوا التهوين من أمرهم، أرادوا الكبر والغرور، فما هو ضد أمرهم؟ وهو أن يرتفع أهل الإيمان ويُذلوا أهل الكفر، فأتى بضدهم فسمي هذا الضد الذي يقابل فعلهم سمي استهزاءً، وهذه وجوه مع أنها مقبولة في العربية لكنني أعتقد بأنها غياب عن مسألةٍ مهمة في اللغة، اشرحها بالتالي:

نحن نعرف وهذا تقدم الكلام فيه كثيرًا فيما تقدم من التفسير بأنه يجوز أن تستخدم الكلمة ببعض جوانب معانيها، لأن عندنا هذا يسمى دلالة الكلام أو اللفظ على مراد متكلمه ظهوراً وخفاء، فعامة الكلام يقولون: إنما هو الظاهر، ما هو الظاهر؟ وما هو النص؟ النص: هو الذي يدل دلالةً واحدة على المراد، مثل قول: ثلاث، أربعة، تلك عشرةٌ كاملة، فكلمة عشرة هل يمكن أن تفيد بمعنى وفيها معاني أخرى؟ لا، دالة على معنى وهذا اسمه النص عند الأصوليين.

وهناك مرتبة أدنى من النص يسمونها الظاهر، فلما تقول: في شيء ظاهر، علامة في شيء باطن، ما معنى النص لغةٌ؟ في حديث أسامة في صحيح البخاري قال: (إذا وجد فرجةً نصًا)، النص في اللغة هو الرفع، الآن صارت النص عندنا هي الجملة في أذهاننا هي الكلمة ذاتها، لكن النص عند أهل اللغة هو الرفع، ففي حديث أسامة في الحج قال النبي صلى الله عليه وسلم عندما نفر من عرفات قال: (فإذا وجد فرجةً نصا)، فرجة أي الناس يمشون فإذا وجد فرجة نص، أي أطلق للبعير أو لناقلة –الناقلة التي عليها النبي صلى الله عليه وسلم– أطلق لها خطامها مشت، فالنص هو الرفع.

وقيل بأن دلالة الكتاب نصًا لرفعة مقامه، وقيل لأنها إظهارٌ للمراد، إظهارًا بيناً واضحاً لا خفاء فيه، ما يهمنا، نأتي لكلمة الظاهر إذن يوجد باطن، تخيل الآن الكلمة دائرة فيها ظاهر، نقول: ثلاثة أرباع تسع أعشار، لكن فيها معنى باطن في داخلها معنى خفي، قلبتها بان، هل يجوز أن تستخدم هذه الكلمة لما خفي من المعنى؟ نعم يجوز، لسبب من الأسباب، لأسباب كثيرة هذا من بلاغة هذه اللغة الشريفة التي نتعامل بها، هذه نحن انتهينا منها.

لكن نحن قلنا: الاستهزاء فيه معنى التحقير وفيه معنى الخفاء وفيه معنى الكبر وفيه معنى الغرور وفيه معاني، إذًا نحن نرى أن فيه معاني تنشأ بلا موجب فتكون قبيحة وفيه معاني قبيحة من كل وجه كالاحتقار، الاحتقار قبيحٌ من كل وجه، لكن لما قال الشاعر عمرو بن كلثوم:

أَلاَ لاَ يَجْهَلَــــنَّ أَحَــــدٌ عَلَيْنَــــا فَنَجْهَــــلَ فَوْقَ جَهْـلِ الجَـاهِلِيْنَــــا

هل ذم أم مُدح؟ مُدح، فلماذا مُدح؟ لأن الجهل كان موجبه موجوداً، لا يجهله أحد، فلما جهلها قال: نأتيك بأكثر مما جهلت من العقوبة التي تستحق.

إذن كلمة استهزاء في حق الله صحيحة، لكنها صحيحة لوجود موجبها بكل معانيها أم ببعض معانيها الحسنة؟ إذن صار عندنا شرطان لاستخدام كلمة الاستهزاء فعلاً للرب ما هو؟

أولاً: وجود موجبه.

ثانياً: استخدام الكلمة في معناها الحسن.

فحتى الوصف لربنا والفعل لا يجوز إلا أن يكون حسناً، صحيح أسماء الله حُسنى لكن أفعاله كذلك حُسنى، أفعاله جل في علاه ولذلك في الحديث الصحيح: (والشر ليس إليه)، فلا يجوز أن ينسب الشر إليه، وهذا نشرحه إن شاء الله عند كلامنا عن هل خلق الله الشر أم لا، نشرحه باستفاضةٍ هناك.

إذن لما قال سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، أولاً: هذا موجبه موجود.

ثانياً: هل كل الاستهزاء الذي ينشأ من البشر يجوز أن ينسب إلى الله عز وجل، أم أن بعض معاني الاستهزاء وهو الحسن ينسب إلى الله عز وجل؟ بعض معاني الاستهزاء الذي هو الحسن ينسب إلى الله عز وجل.

إذن ليس كافيا فقط أن نقول: وجد موجبه لأن الاستهزاء فيه قبيحٌ لا يجوز أن ينسب لله عز وجل.

فكيف يكون استهزاء ربنا؟ حينئذٍ إما كما ذكرنا من المعاني وقال بعضهم: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، يعني يوم القيامة، في الدنيا كما ذكرنا كان يستهزئ بهم أي يؤتيهم بضد مقصدهم على ما قالوا، وقالوا: هنا الاستهزاء يوم

القيامة النار تكون إهانة هكذا يمشون عليها كأنها ثابتة وفجأة تغوص بهم إلى جهنم فهذا الاستهزاء، يعني رجل مطمئن ومغرور ومتكبر وفجأة تنهار به الأرض، وأنت عدوه وخصمه، ماذا تفعل؟ تصبح تستهزئ به.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، ولم يكتفي ربنا سبحانه وتعالى قال: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾ [البقرة: ١٥]، المد: مد الشيء أو أمده، أهل البلاغة لهم تفصيل جيد أذكره وهذا التفصيل لا يكون دائماً موجوداً في كلام المتكلم؛ لأنه قد يستخدمه مرةً هنا ويستخدمه مرةً هنا، هذا موجود ومعروف.

مثلاً: يقولون: مده إذا كان ما زاد عليه من جنسه، لأن المد هو الزيادة، منها ممدودة لأنها زائدة طويلة، عود ممدودة، فمد من ممدود كنفس الشيء، فقالوا في اللغة: مد إذا كان من جنسه، فإذا مدت الماء بالماء فيقال: مد، وإذا كانت من غير جنسها قالوا: أمد، فهنا قال تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾، إذن هم أهل طغيان، ما هو الطغيان؟ الطغيان هو تجاوز الحد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ [الحاقة: ١١]، ما معنى طغى الماء؟ تجاوز حده ومقداره حتى غلب على الملك الموكل به ولذلك سمي من تجاوز حده في المعصية طغى، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧)﴾ [النازعات: ٣٧]، طغى أي خرج عن حدود الشرع، خرج عن حدود العبودية، خرج عن حد ما شرع الله عز وجل، فسمي هذا طغيان.

قال سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، هذا بيان العقوبة في الدنيا والآخرة، قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾، هم يطغون، وما هو أعظم طغيان المنافق في كل القرآن؟ هو المكر بالمؤمنين، هو أعظم طغيان للمنافق؛ إما أن يخذله عند الحاجة وإما أن يزيد عليه بؤسه عند الألم كما في غزوة الخندق يخذله عند الحاجة كما حدث في غزوة أحد وهكذا وإما أن يخذله عند الحاجة كما حدث في غزوة تبوك وإما أن يزيده ألماً فوق قلمه عند الضرورة وعند البلاء.

ولكن كيف يمدهم في طغيانهم؟ لو قال: ويمدهم في طغيانهم وسكت لكان في ذلك استفسار واستنكار وسؤال، لكن لما قال: ﴿يَعْمَهُونَ﴾، فالعمه هو العمى، ولكن عادةً في اللغة –كما أنا ذكرت المد والأمد من أجل هذه، لأن هذا من بلاغة الكلام– يعمه هو نفس معنى العمى ولكنه في البصيرة، فالعمى يكون عادةً وإن كان يطلق العمى على البصيرة، ولكن العمه المقصود به عمى البصيرة.

انتبهوا لهذا قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، ثم قال: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾، ثم قال: ﴿يَعْمَهُونَ﴾، لو مد في الطغيان فقط لكان كقوله تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ [الأنبياء: ٦٩]، لو قال سبحانه وتعالى: يا نار كوني بردًا لقتله البرد، لكن قال: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ فكان السلام ضابطاً للبرد، دائماً هذه القيود من أهم ما يعتنى بها وإنما يقع أخطاء العلماء في تفسير القرآن لعدم النظر لهذه القيود، هذه قاعدة يجب أن تحفظوها من قواعد التفسير،

«إن الشارع قيد الحكم بوصفٍ فيجب مراعاة هذا الوصف»، يعني كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، بماذا قيدها؟ ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ فعطاؤه لا يحده أحد ولا يمكن للمرء أن يحصيه، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، ولكن عطاءه، ماذا قال؟ ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾، فلو قال: ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، لما كان ذلك تعلق بالمقدار، لكن لما قال: ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾، ضبطت بمقدار؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، ولذلك من حكمته أن ينزل على عبده بقدر ما يشاء.

فقوله تعالى: ﴿يَعْمَهُونَ (٤)﴾، لنأخذ يعمه والعمى هذا الذي سأقوله مهم إياك للحظة من اللحظات –هذه تعلموها– إياك أن تظن أن الباطل يوصل لمراد الْمُبطل حتى لو لم يوجد من يعانده، ما معنى هذا الكلام؟ أعيد الكلمة، إياك أن تظن أن الْمُبطل يصل إلى مراده بسلوك الباطل حتى لو لم يوجد من يعانده، عادةً من الذي يعاند الْمُبطل؟ المحب أهل الحق يعاندوهم يوقفونهم، لكن لو ترك الْمُبطل وهو يسير في باطنه لما وصل إلى مقصده، لانقلب ضد مقصده شاء أم أبى، هذا الكلام لا يعرفه الكثيرون، فيظنون أن أهل الباطل هم يصلون إلى مقاصدهم بسرعة، والشارع وضع قيوداً فيصل أهل الإيمان إلى مقاصدهم بإرهاق وتعب.

وبالتالي تنشأ أسئلة هل يمكن أن ينتصر أهل الحق على الباطل بتقيدهم بقيود الحق؟ للأسف الكثير يقولون: لا، لابد أن نلعب، ولذلك إذا نظروا قالوا: لا يستطيع أهل الاسلام أن يصلوا لمقاصدهم أمام طغيان الكفر لأن الكفر عنده التحايل جائز، عنده الكذب جائز، عنده الغاية تبرر وسيلة جائز، لكن مسلم نظيف لا يمشي إلا على الحق، يتقيد بقيود الحق، وبالتالي من الذي ينتصر هذا المتفلت الذي لا قيود عنده أم المتقيد الذي عليه الأوامر وعليه القيم الأخلاقية الحاكمة من الذي ينتصر؟ المتفلت، هذا القول من أبطل الباطل وأفسد الفساد في هذا الوجود وهو الذي يدفع جماعات الإسلام وشباب الإسلام بل بيوت المسلمين، بل تجار المسلمين، يدفعهم إلى المعصية، ظانين أن المعصية هي التي توصل إلى المراد لأنه لا قيود فيها.

قال الله عز وجل: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾، الطغيان تجاوز الحد، لو ترك لوحده من غير مانع، هل هذا العمى رجل أعمى منفلت ليس عنده هدى، الهدى: النور الرشد، هو سلوك الطريق المستقيم مقابل السفه، ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦]، جعلها مقابل ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: ٥]، جعل السفه مقابله الرشد، فهذا الذي يمشي أعمى وهو منفلت هل هذا يصل إلى مراده؟ الآن يقول أحدهم: أنت يا شيخ رحت فينا لبعيد، نحن نرى أن الذي يأكل ربا ما شاء الله يأخذ ربا، يعني مسكين الرجل يذهب ويفتح دكان يأتيه مئة دينار في الشهر، واحد يأكل ربا ويسرق ويصبح معه مئة ألف، فأين هذا الواقع؟ هذا الله عز وجل في القرآن قرر أنه زبد جُفاء لا قيمة له، ولا يمكث في الأرض.

ولذلك قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، من فتن الله عز وجل ومن محن الله عز وجل على الإنسان ككل عاصياً وغير عاصي أن العاجل محببٌ إليه، لكنه زائل، وأن الحق قوي ثابت ولكنه تعبٌ وشاق.

عمر بن عبد العزيز ورث أولاداً فقراء أخذاً بقوله تعالى في سورة «النساء»: ﴿لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩)﴾ [النساء: ٩]، تدخل هناك فتجد أن عمر بن عبد العزيز ورث أبناءه هذه الآية هذا البنك فصار أولاده من بعدهم أثرى الناس، وبعض الخلفاء ممن سبقه ورثوا أولادهم الملايين فرآهم الناس يتكففون الناس.

فحال المعصية لذة زائلة مثل المخدرات وهذا من محنة الله، واحد يتعاطى مخدرات يجد نفسه منتعش وقوي، يأخذ حبوب فيشعر بنفسه قوي لكن إلى ماذا يتول هذه القوة؟ إلى الهلكة إلى التعب، فهذا من محنة الله أنك تصيب بسرعة لكنك كأنك تصيب الهواء فتفرح به فينقلب هذا الفرح إلى الترح إلى عقوبة إلى عدم الوجود وأما الحق فهو ثابتٌ قويٌ، تورثه نفسك يوم القيامة وتورثه أبناءك كذلك من بعدك في الدنيا.

ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، بعض الناس يمدهم في طغيانهم أي يمدهم القوة ليمشوا في عمه فإنهم قد يصيبوا ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢]، هل يتحقق لهم الأمان حيناً من الدهر أم لا؟ يتحقق لهم، يدخل الكفار على بلاد المسلمين فيلتحق بهم المنافقون فيأمنونها أماناً ثم بعد ذلك إلى أين تصير الحال؟ -نتكلم على الحالة التي بين أيدينا دائماً- ينقلب الحال إلى الضد فهم آمنوا حيناً ثم ارتفع عنهم الغطاء وإذا هم يعمهون، وإذا هم قد وصلوا إلى ضد مرادهم.

إياك أن تظن أن الحق قيد، هذا من الجهل، تعرفون هذا من عمد التوحيد في القرآن، وللأسف هو من العلم المفقود في جماعات المسلمين اليوم، ما الذي يجعل جماعات المسلمين في أيامنا هذا يسلكون سبيل الباطل؟ يذهبون إلى السبل التي تفرزها الجاهلية لهم، ما هو السبب؟ لظنهم أن هذه السبل هي المفتوحة لهم، لكن هل وصلوا إلى مرادهم؟ هل حققوا بعض المراد؟ مثلاً لو نتكلم عن قضية الذين يدخلون في الانتخابات هل حققوا بعض المراد؟ أخذوا قليلاً من مقاعد.

مثل الذين دخلوا الانتخابات في مصر وظنوا أنهم قد حكموا مصر أين انتهى بهم الحال؟ هل انتصروا! أخذوا الحبة وانتشوا! شربوا المخدرات فانتشوا أم لا؟ قالوا: هذا أفضل وطريق سهل، وهذا تخفف منا من قضية القيود التي يقولها غيرنا فهذا طريق سهل علينا أن ندخله وهم يعمهون في النهاية أخذوا وانكشف الغطاء وإذا هو هباء، لا قيمة له.

وأما أهل الحق فيمشون قليلاً، قليلاً، لكنهم كما قال الله سبحانه وتعالى في سورة «الرعد» وفي «سورة الأنبياء»: ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)﴾ [الرعد: ٤١]، ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤)﴾ [الأنبياء: ٤٤]، وفسر ابن عباس هذه الآية انتصار أهل الاسلام على الكفار يسلبون منهم الأرض، يأخذون الأرض منهم قليلاً، قليلاً، وهكذا أهل الحق، جاءوا من أفغانستان وإلى الآن هم في سوريا والناس لا يرون لا يدرون.

وأما غيرهم من أهل الباطل وهذه قاعدة أنا لا أقول عن هؤلاء منافقين لا أقول هذا، فالطغيان هو تجاوز، الأصل هم يمكرون وكذا ولكن القرآن يقول: ﴿يَعْمَهُونَ﴾، اتركوهم فإنهم لو لم توجدوا لكان مصيرهم الخسارة، وكان مصيرهم الهزيمة وكان مصيرهم الدمار.

الآن أنا أسألكم هذه الهزات الاقتصادية في الغرب، هل يوجد نظام إسلامي يحاربها؟ لا يوجد، فلماذا يحدث كل هذا، وهؤلاء الذين أجازوا الزنا في بلادهم هذه الأمراض التي نشأت فيهم هل هناك من يعاندها؟ لكن هم استلذوا في الأول قالوا هذا شيء تخفف، ما الأسرة، ما العقد، العقد كلام ورقة بيني وبين امرأة ورقة! يعيش معها من غير ورقة! أين انتهى بهم الحال؟!! للأسف من أعظم ما اعترى قلوب أهل الإسلام في هذا الباب هو ضد هذه المعاني، وهو أنهم ظنوا أن الحق قيود والباطل تخفف وبالتالي لو تقابل الحق الملتزم بالقيود سينهزم أمام الباطل المتخفف من هذه القيود، هذه قاعدة موجودة.

وللأسف حتى أن بعضهم صار يتساءل يجوز لنا أن نبيع الكفار مخدرات؟! من أجل أن نهلكهم! صاروا يسألون يجوز لي أن أدخل بيت دعارة وأزني من أجل أن أتجسس على الكفار؟! من أين تنشأ هذه الأسئلة؟ تنشأ من هذه المعاني يريدون التخف من الحق.

وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم هي النموذج الأعظم للوصول إلى المراد بالالتزام بالحق، التزم بالحق التزاماً تاماً، فوصل أو لم يصل؟ ثلاثة عشر سنة مئة رجل أسلم معه أو ثمانين مع النساء والأطفال مائة رجل فقط، ثلاثة عشر سنة، لكنه وصل، والباطل يصل بسرعة يأخذ حاجته ثم ينتهي إلى الهباء.

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، ويمدهم وهم يمشون الأعمى أين يمشي؟ إلى هلكته، ﴿يَعْمَهُونَ (٤)﴾، هو عمي والله عز وجل يمده في طغيانه امشي اذهب، العمى سيوصلك إلى دمارك، فالطغيان فيه قوة لأن فيه تجاوز، فيظن أحد أن المد في الطغيان أنه سبيل لزيادة شره، لا، هو سيقضي على نفسه، هو يلف الحبل على رقبته اتركه، وهذا فعل الله عز وجل.

وكما ترون في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾ [البقرة: ١٥]، هلا رأيتم فعلاً للبشر هنا، علامة أن من الذي يتكفل بالمنافقين، الذي يتكفل بالمنافقين هو الله عز وجل، هذا سرطانٌ لابد من وجوده وهو ابتلاء إيماني لأهل الإيمان ولكن الذي يقدر عليه ويعالجه هو الله عز وجل، ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، كيف؟ سينصركم، التزموا بالحق سينصركم، ستخزى مناهجهم ومكرهم سيذهب إلى ضد مرادهم ... إلخ، فقط أنتم ما عليكم لا تلتفتوا هنا وهنا لا تشغلكم بنيات الطريق، اذهبوا إلى طريقكم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)﴾ [البقرة: ١٥-١٦]، هنا قال سبحانه وتعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا﴾، الشراء والبيع هو استبدال شيء بشيء، وعادةً الباء هنا –لمن يريد أن يفهم– الباء ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾، فهل الهدى هو الذي يجنونه أم يبدلونه؟ فالباء دائمًا في قضية الشراء تدخل على الذاهب وليس على الآتي، والهدى هو الذاهب، ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾، فصارت الضلالة هي الداخلة والهدى هو الذاهب.

وهنا وقف بعض أهل العلم وقفات نقف معها من ذلك كأن الآية تشير أنهم ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾، فالشراء يكون لمن يملك ثم يستبدل، الشراء يكون فيه إبدال، ولا يكون الإبدال إلا لمن ملك شيئاً فأخرجه ثم استعاض عنه بغيره، فهل هذا يدل على أن المنافقين كان عندهم الهدى؟! بعضهم قال: نعم، هذه الآية دليل على أن المنافقين كان عندهم الهدى فتركوه، أنا أقول هذا ليس بلازم وإنما أنواع المنافقين في هذا الباب سيأتي عند ذكر الأمثال، ولكن قوله تعالى: ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾، لا يقتضي أن الهدى كان عندهم.

وهذا تكلمنا عنه في درسٍ فائت عند قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: ٢٨]، وعند قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧)﴾ [يوسف: ٣٧]، نرجع إليها لنذكركم، كما سيأتي إن شاء الله في سورة «البقرة».

في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: ٢٨]، ﴿أَمْوَاتًا﴾: تفسيرها في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١)﴾ [الإنسان: ١]، لم يكن مذكور، فكلمة مات تقضي وجود حياة، ولكن هنا لا يوجد حياة، كقوله كذلك –قول يوسف عليه السلام– قال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ [يوسف: ٣٧]، فالترك يدل على أنه كان ثم خرجوا وهذا بعيدٌ في حق يوسف عليه السلام، لم يكن في ملة الأقباط أي ملة السجينين وإنما هو مع الإيمان ابتداءً لأنه لا يتصور أنه كان كافراً فأسلم، بل هو على ملة إبراهيم ووالده يعقوب وجده الأول إسحاق عليه السلام.

فكيف ترك؟ فهنا نأتي إلى مسألة أن هذا المعنى ليس واجباً، بمعنى إذا قيل عن شيءٍ فيه هذا المعنى الاستبدال والترك فكل جملةٍ لابد من النظر فيها على حِدى، أكان قبلها ثم سلبت أم لا، ولا تفيد بذاتها، فقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: ٢٨]، فهذه لا تدل بذاتها على وجود الحياة ثم الموت، لا تدل بذاتها لابد من أن ننظر إليها على حِدى، كقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ [يوسف: ٣٧]، لا تدل أبدًا على أن يوسف عليه السلام كان فيهم ثم تركهم فهذا المعنى ليس واجباً في الذهن.

فقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٦]، ليس واجباً أن يكونوا على الهدى ثم تركوه أي أشتروا به الضلالة ليس واجب.

وقوله تعالى ﴿أُولَئِكَ﴾، هذا أولئك تعود إلى المنافقين، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ﴾، الضلالة هي ضد الهدى، ضل بمعنى أنه لم يصل إلى مراده أو سلك الطريق غير الموصل إلى مراده، ويقابلها في الآية، ما الذي يقابل الضلالة؟ الهدى، فالهدى هي البصيرة وهي العلم وهي الإرادة، لأننا تكلمنا في درسٍ فائت أن الهدى ليس فقط مجرد معرفة الحق، لابد أن يكون ملازم لمعرفة الحق سلوك هذا الحق، فقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ﴾، أين تذهب الضلالة؟ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾ [البقرة: ١٥]، هو ضال وأنت تراه منفلت، هو ماشي وتظنه فرح متخفف، والله يقول: هو يمشي في الضلالة؛ لأنه أعمى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢)﴾ [الإسراء: ٧٢].

فقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٦]، إذن ضد الضلالة هو الهدى والهدى تقدم الذكر فيه بأنه لا ينشأ من نفس المرء، الضلالة هي التي تنشأ من نفس المرء، الهدى من أين يأتي؟ الهدى يأتي من السماء، فقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ﴾، أي ما قالوه في أنفسهم بالهدى أي تركوا الهدى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦]، هنا ما قال: فما رابحت صفقتهم وإنما نسب الخسارة إلى التجارة، وهذا من محاسن هذه اللغة، نحن نريد أن نتبين كيف القرآن يتحدث على وفق لغة العرب أنه نسب الخسارة إلى التجارة، لكن من الذي يخسر؟ هم خسروا ولكن نسب الخسارة للتجارة أي تجارته، فنسب الخسارة إلى الفعل وليس إلى الفاعل، فما قال: فما ربحوا، قال تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾، التجارة معروف لا بد من شيء مقابل شيء وهذا بين لما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا﴾، لتقابل التجارة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)﴾ [البقرة: ١٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ هي تأكيدٌ، كقوله: ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾، وهو نفيٌ لما تقدم، ونحن قلنا من ظن أن قوله سبحانه وتعالى: ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾، دليل أنهم كانوا في الهدى خطأ، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، اصلاً ليس عندهم هذه الهداية عندما اختاروها هؤلاء.

الآن لو نعود نحن إلى هذه الآيات كم وصف جاء لهؤلاء القوم من المنافقين؟ القول الأول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾ [البقرة: ٨-١٠]، وبعدها وصف رابع، وهؤلاء مفسدون إذن، وللتأكيد، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾ [البقرة: ١١-١٣]، ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤)﴾ [البقرة: ١٤]، هذا فيه استهزاء الصفة الخامسة، ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾ [البقرة: ١٥]، دل هذا على أن المنافق لا يرجع.

وهذا في قوله تعالى –قاعدة من قواعد القرآن–: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧)﴾ [النساء: ١٣٧]، ولذلك أيها الإخوة الأحبة العادة أي سنة الله عز وجل في هذه الدنيا أن من أختار الكفر فأوغل فيه لا يرجع، ، نحن خاصةً أهل الإسلام للأسف عندنا طيبة بسبب ديننا لكنها تتحول مرات إلى سذاجة وغباء، وهو أننا نعتقد أنه يمكن أن يتوب فرعون، ويمكن أن يتغير طغيانه والمنافق الذي استمر على النفاق يمكن أن يتغير، وتبقى عندنا هذه للأسف في تعاملنا مع ناس مسكين اتركه بسيط وخاصةً عندما يقع، وأعداؤنا في هذا لا يلعبون نحن نلعب، وكم من مرةٍ أحسن أهل الإسلام إلى خصومهم فما وجدوا منهم إلا العذاب الأليم، وما ذاقوا منهم إلا الخداع وراء الخداع، لا يتوب.

وبالتالي الشارع في هذه الأحكام في أمره في التعامل مع العصاة، هل هي بعد التكرر أم من أول مرة؟ يعني الذي يزني هل عليه أن يكرر الزنا ليعاقبه الله بسبب زناه أم من أول مرة؟ نحن اليوم للأسف يأتي الرجل تقول له: هذا الرجل كذاب، يقول لك: ماذا بعد؟ أي لازم تحضر له كل كتاب الكبائر للذهبي حتى تثبت عليه حكم الفسق، لطيبتنا مساكين وهذا من الجهل الكبير من الخطأ في تعامل المسلم مع سنن الله عز وجل في الخلق، قال الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)﴾ [الأنفال: ٥٨]، انظر قال: ﴿تَخَافَنَّ﴾.

هذا عالم يا إخوة عالم الوجود عالم قاسي، عليك أن تتعامل مع إخوانك بالعفو والصفح والمحبة، وأن تجبر لهم عثراتهم، وأن تستر لهم عورتهم، لكن مع الأعداء فإذا تعاملت مع الأعداء تعاملك مع المسلمين هذا غباء، الحياة قاسية لا تحتمل هذا الغباء ولا تحتمل هذه الطيبة وهذه السذاجة، هذه الحياة إذا قدر عليك لن يبقيك، وإذا قدرت عليه عليك أن تتعامل معه بحكم الشرع، عليك ألا تتنازل.

فالنبي صلى الله عليه وسلم لما انتصر في بدر وقع في أسره شاعر اسمه أبو عزة الجمحي وقع في الأسر وهو فقير من فقراء قريش، فجاء للنبي صلى الله عليه وسلم يرجوه ويستعطفه، أن لي بنات صغار الظاهر ما عنده أولاد فكل أولاده بنات، قال يا رسول: البنات والصبية وو ... إلخ، فالنبي صلى الله عليه وسلم عطف عليه، قال له: على شرط وهو أن لا تقاتل مع عدوي ضدي، أطلق سراحك على أن لا تعود لقتالي، فأعطاه هذه الصفقة وخرج أبو عزة، في غزوة أحد جاءوا إليه، وجعلوا يقولوا له: أخرج، فقال: بيني وبين محمد عقد فما زالوا حتى أخرجوه، فخرج فقاتل في أحد ثم لما حصلت الهزيمة وكذا ثم خرجت قريش رجعت مع أبي سفيان ولحق بهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى حمراء الأسد، الله أوقعه تخلف عن قومه فوقع في أسر النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل يرجو يقول له: من للصبية؟ قال له النبي صلى الله عليه وسلم: (النار)، ثم قتله، وقال له: (أتريد أن ترجع إلى قريش وتمسح عارضيك، وتقول ضحكت على محمد مرتين)، استهزأت بي مرتين، النبي صلى الله عليه وسلم يأبى هذا، هذه غفلة الحياة لا تحتملها.

فهؤلاء المنافقون والذي يظهر كفره هذا لا ينبغي أن تتعامل معه بحسن النية، هذا مع إخوانك مع أحبابك اعفوا عنهم بدل المرة ألف، لكن مع المنافقين ومع الكفار الحياة لا تتحمل هذا، هؤلاء يكيدون لك كل كيد، فيجب أن تعاملهم بضد مقصدهم، وإن قدرت عليهم فالله عز وجل قال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)﴾ [الأنفال: ٥٨]، نحن يقتلوننا ونصالحهم، كم مرة استغفلونا؟ كم من حاكمٍ طاغوتٍ جاء فوعدنا بكل خير وهذا نصدقه لا يوجد مشكلة، ممكن يصدق هذه المرة، هذا كله من ومن الجهل.

القصد: أن الله عز وجل قدم هذه الصفات في هؤلاء المنافقين ثم جاء إلى أمثالهم بحسب تنوع أحوالهم بعد أن ذكر هذه الصفات وأكتفينا منها وإن شاء الله نكون قد أتينا إلى ما ينبغي من البيان والآن نأتي إلى أقسامهم هذه الأقسام اختلف أهل العلم وابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره قال: بأن هذين المثلين يعودان إلى حالٍ واحدة، وخالفه جمعٌ من الأئمة والصواب في خلافه، مع إنه إمام أهل التفسير ومرجع المفسرين إلا أنه خُولف في هذا وقد أصاب من خالفه.

وأول من جعل هذين المثلين تحت تسمية المثل المائي والمثل الناري هو الزمخشري لما تقرأوا لبعض الأئمة من غير ذكر أسماء فيقول: هذا مثلٌ مائي وهذا مثلٌ ناري أول من قال هذا الكلام هو الزمخشري، والكل يأخذ من الزمخشري لكنه لأنه معتزلي فالكل يذمه كذلك، الكل يأخذ منه والكل كذلك يذمه، وهو ولا شك أنه لو تجنبنا مزالقه في موضوع الاعتزال لكان تفسيره من أجّل التفاسير واحتاج إليه الناس بسبب غوصه على البديع وغوصه على المعاني وغوصه على المسائل البلاغية العظيمة.

فالمثل الأول الذي بين أيدينا والمثل الناري ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]، نعود، فقال ابن جرير رحمه الله: بأن هذين المثلين يعودان إلى حال واحدة، وقال غيره: إن هذين المثلين يعودان الى حالتين وهو الصواب فيما سنبين.

قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧)﴾ [البقرة: ١٧]، المثل، ما معنى المثل؟ الشبيه، مثل هذا يشبه هذا، فالمثل هو الشبه، وضرب الأمثال فنٌ عظيم في البشرية جمعاء، بل قيل إن أعظم ما في الإنجيل هو ضرب الأمثال، بالرغم من أن الأمثال القرآنية هي أعظم الأمثال، وقيل: بأن الرجل إنما تعرف حكمته وقوة بلاغته في ضربه للأمثال، يعني البلاغة كأنها كاملةٌ في المثل، والمثل إما تصوير الشيء المادي بشيءٍ مادي وإما تمثيل المعاني بشيءٍ مادي وهذا سنراه إن تمثل المعاني بشيءٍ مادي، هنا بما مثل المعنى للمنافقين؟ مثله بشيءٍ مادي بالماء والنار وإما أن يمثل المادي بشيءٍ معنوي.

وبهذا لا يعترض كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، المثل يوجد شبيه فيقال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾، الأعلى يعني كل عالٍ فوقه أعلى، فلما انفرد بالمثال كان هذا هو التوحيد، ما هو التوحيد؟ التوحيد هو أن تنسب الشيء لواحد، الشيء يعني الصفة قد تقول: من الخالق؟ واحد هو الله عز وجل، من هو الذي استوى على العرش؟ واحد هو الله عز وجل، فلما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾، لو كان له مثيل لما كان أعلى، لأنه هو الأعلى فمهما على أشيئًا فهو أعلى فلما كان على هذا المعنى؛ كان واحدًا، فماذا دل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾؟ دل على التوحيد، أي لا يوجد له مثيل هذا معناه، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾، أي لا يوجد له مِثلٌ يعلو علوه في القدر والفعل والصفة.

ومن هنا لا يجوز لأحد أن يقال: فلان مثلنا الأعلى، المثل الأعلى الذي لا يشبهه في مثاله شيء هو الله عز وجل، وهو كقوله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، هو نفيٌ لمثله، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾، فنسب المثل الأعلى له، ولكن لما أراد أن يجعل له مثيلاً مما يشابه من الخلق، قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وهذا هو معنى الأعلى.

فتفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾، يعدلها قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، لأنه أعلى.

والقصد من هذا: أن المثل قد يكون تصور للذهن، أي تصوره معاني ذهنية قد يكون هذا الشيء المادي تصوره معاني ذهنية، كما رأينا هنا في المثل صوره لمعاني ذهنية علت عما يستوي به الخلق.

فالقرآن أيها الإخوة الأحبة من أعظم ما فيه ضرب الأمثال، وضرب الأمثال لتقريب المعاني وضرب الأمثال تنبيهًا على عظمة الأمثال التي تضرب، لما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦]، ما الذي

يريده القرآن هنا؟ أن يبين عظمة المثل المضروب به، ولذلك قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

أولاً: من أجل تقريب المعاني.

ثانيًا: من أجل بيان عظمتها، من أجل بيان عظمة هذه الأمثال التي فيها.

وعلى كل حال فموضوع الأمثال من أجّل المباحث العلمية التي تُبحث في علم البلاغة، وللناس فيها مذاهب عظيمة، ويكفي أن تجعل الحكمة هي المثل، الحكمة كأنها هي المثل، فاقتصار المثل العظيم أن يسمى حكمة هذا مقدارٌ جليل لهذا الباب العظيم.

فالآن سبحانه وتعالى يريد أن يقرب أعمالاً، ما هي الأعمال؟ أعمال المنافقين، صفات المنافقين، يريد أن يقربها بأن يضرب لها مثالاً ماديًا، وشيخ الكل في باب البلاغة هو الإمام الجرجاني، يقول في كتابه «دلائل الإعجاز» مقدمتين في هذا الباب، يقول: لما كان الإنسان أقرب في فهمه لما يلمس وما يحس وما يرى مما يتصور فقرب التصورات بضرب المثل المادي، أي لو أردت أنت أن تشرح لرجل مسألة أو تشرح له شيئًا ما، ما هو الأصعب أن يتصوره أو أن يراه، إذا رأه فهمه أكثر مما لو تصوره، فيقول هذا عمنا وشيخ الكل هذا الإمام عبد القاهر الجرجاني: لما كان الإنسان أول ما ينشأ –هو هذا من أنواع التربية تستفاد التربية بهذه– لما كان الإنسان أول ما ينشأ لديه من المعارف من خلال ما يحس، هذا المعنى الأول.

أول ما يفهم الإنسان الصغير هل الذي يلقن من أفكار أم الذي يرى ويحس ويلمس؟ إذن الإنسان هذه فطرته؛ أنه أول ما يتقرب إليه بأن يعلم عن طريق ما يحس، فلما كان هذا هو الأقرب إليه فهو الأسهل عنده.

إذًا ما هو أصعب ما يتصور أو ما يُرى ويُحس؟ ما يتصور، لماذا ما يُرى ويُحس هو أقرب؟ لأنه هو أول ما ينشأ لدى الإنسان.

ومن هنا فإن الأمثال إعادة لما يتصور لما يحس، ونحن قلنا ما مقصد الأمثال؟ أولاً: تقريب المعاني، فإذن هي معاني تصورية، ما المقصود بها؟ فنقول له: انظر هذه هي، هذه صورته، هذا مثالها، هذا شبيهها، بما يحس ويرى، لكن لماذا؟ ذلك لأنه هذا منشأ الإنسان.

لكنه أتى إلى مسألة ربما يخالف فيها، قال: وهذا ما جرى عليه الإنسان في كله إلا أن الإنسان الأول لم يكن كذلك، آدم لم يكن كذلك –وهنا فقد نذكرها للبحث والنظر هل هذا الكلام صحيح منه أم لا– كيف؟ يقول: «أن آدم عليه السلام عُلم الأسماء ثم عرضت عليه الأشياء»، فما الذي نشأ أولاً في ذهنه؟ هكذا هو يقول وأنا أتركها

للمناقشة ولا أريد أن أخوض فيها، يقول: عن آدم عُلم الأسماء، يعني الأسماء تصورية، ثم عرضت عليه الأشياء، يقول: آدم خارج السياق في هذا البحث وإلا فالأصل في الإنسان أن يرى ويحس فيتعلم ثم تضرب له الأمثال التصورية.

فهل الإنسان في معانيه البلاغية يكون أكثر لما يرى ويحس أو أكثر لما يتصور؟ أي عندما يتمايز إنسان عن إنسان، فيمكن أن تقدم إنسان رأى أكثر، لكن بما يتميز العلماء عن غيرهم؟ بما يتميز الحكماء عن غيرهم؟ لكثرة ما ينشأ لديهم من تصورات، فتوسع هذا التصور هو أعظم ما يُنسب إلى الإنسان، ومن هنا جاء الإيمان بالغيب.

فهل الإيمان بالغيب هو شيء محسوس وملموس أم شيء تصوري؟ هو شيء تصوري، ولذلك كلما ارتقى الإنسان في إنسانيته كلما كان مجال ارتقائه في عالم التصور، وهذا باب ربما نأتي على بعض الرد على بعض المتكلمين فيه، لكن يكفينا هذا الآن أن نبينه في موضوع المثل..

قال سبحانه وتعالى: ﴿مَثَلُهُمْ﴾، من هؤلاء؟ ﴿مَثَلُهُمْ﴾ هم هذا الضمير يعود على من؟ في الضمير ضمير المخاطب لا يحتاج لمرجع، لن تقول: أنت فهو أمامك، ما المرجع؟ هو الذي أمامك، لو تكلم ضمير الذات ضمير الْمُخاطب أنا، أو يقال: نحن، فلا يحتاج لمرجع، ما الذي يحتاج إلى مرجع؟ ضمير الغائب، لابد له من مرجع، ولذلك قالوا: لا يحتاج ضمير الْمُخاطِب ولا ضمير الْمُخاطَب لا يحتاج إلى مرجع، وإنما الذي يحتاج إلى مرجع هو ضمير الغائب.

وهنا نأتي إلى مسائل البلاغة وأهمية قراءة القرآن بعظمة هذا التنزيل وشرف هذه اللغة، لماذا قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص: ١]؟ هو، هذا ضمير الغائب، فأين مرجع الضمير؟ وإنما الأصل أن يقال: قل الله هو أحد، لنعرف أن هو تعود إلى الله عز وجل، لكن هو قدم ضمير الغائب، من هنا يأتي قضية حضور الرب جل في علاه عظمةً كأنه لا يحتاج إلى ذكر وذلك لوضوحه وأهميته وأنه هو المراد عندما يقال هو لئلا تعود إلا عليه جل في علاه.

قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ﴾، أي هؤلاء المنافقين ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، الكاف هنا وقفوا عندها كقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، في قاعدة قرآنية نضعها في ذهننا: كل ما قيل زائد في القرآن إنما أتى للتوكيد، هذه قاعدة، أي الأصل أن يقول: مثله مثل الذي استوقد نارًا، وانتهى، الكاف هذه يقولون عنها زائدة، طبعًا هل في القرآن زائد؟ نحن نتكلم هنا كلام نحو، لكن بلاغة لا يجوز أن تقول زائد لأنه في القرآن لا يوجد زائد، لكن إذا قيل عن شيء زائد إنما يذكر للتوكيد، كل ما ذكر فيه أنه زائد على جهة النحو فإنما هو للتوكيد في المعنى فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، إنما هو لتأكيد هذا المثل أنه ليس كمثله شيء، فهو زيادة نفيٍ.

فقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، قوله: ﴿كَمَثَلِ﴾ إنما جاءت الكاف هنا لما تقدم، يقول أهل النحو: زائدة، ويقول أهل البلاغة: إنما جاءت للتوكيد، ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، وهذا مثل ناري إذن

يتحدث عن النار، وما هي أحوالها؟ ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧)﴾ [البقرة: ١٧]، وإن شاء الله نأتي إلى بقية التفسير في درسٍ قادم، جزاكم الله خيرًا.

الأسئلة

السائل: قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤)﴾ [البقرة: ١٤]، **هل هذا يفهم منه أنه كان هناك تكرار في الملاقة مثلاً، أو هي مرة واحدة؟**

الشيخ: لا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا﴾، إذا هنا شرطية فهذه لا تقتضي مرة ولا تقتضي التكرار وإنما تفيد أن هذا الفعل كلما وجد هذا وجد هذا، فهذه إذا شرطية، إذا لقوهم قالوا؛ فإذا لقوا، إذا خلوا قالوا، فهي شرطية.

أنت تريد أن تقول: هل هذه تفيد أن اللقاء يتم كثيرًا، أو أن الاختلاء يكون كثيرًا، هذه لا تفيد، تفيد شرطيًا أنه كلما وقع هذا وقع هذا. لكن أن تنتبه إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾، ونحن أخذنا فيها الدلالة، أنه لقاء فيه عبور، فيه عدم قصد، ولكن خلوا فيها قصد، وهذا الذي تقدم ذكره.

السائل: في الدرس السابق بالنسبة إلى الزمن أن الله عز وجل خلق الأرض في أربعة أيام، قضية العمر كما عاش نبي الله نوح عليه السلام ألف سنة إلا خمسين عام، يعني هل هذا الزمن حقيقي؟

الشيخ: نعم، ما لم يأتي الشارع على بيان الفرق، فإنما يجرى على مجرى العادة، هذه قاعدة من قواعد التفسير نبه عليها الإمام الشاطبي، الشاطبي رحمه الله في «الموافقات» قال: إن القرآن والسنة ينزلان منزلة العادة في الفهم، ومع كلام آخر، لكن ما يهمني كلمة العادة، فلما يقول سبحانه وتعالى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فبعضهم حملها على ستة مراحل وهذا الكلام غير صحيح، أيام لا تعني المراحل وإنما هي أيام ولكن الآن نأتي إلى قضية أخرى هل المقصود بها أيام كأيامنا نحن؟ أم المقصود بها أيام كما هي عنده؟ أو أيام كما هي عند الملائكة؟ فالله عز وجل قال: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾ [السجدة: ٥].

وهنا قاعدة كان الناس قديمًا وأنا ذكرتها في مرات متعددة لكن لا بأس أن أتي عليها سريعًا، ظن الناس قديمًا بأن الزمن شيءٌ ثابت، يعني هنا يأتي ضحالة مباحث المتكلمين، لما قالوا: الله عز وجل حي، الحياة تقتضي وجود زمن، فهل الزمن الذي نحياه هنا هو الزمن عند ربنا؟ الجواب: بلا شك لا، غلط هذا الكلام، الزمن ليس شيئًا ثابتًا، ومعنى أنه ليس شيئًا ثابت أنه مخلوق، فالزمن مخلوق، فهل يمكن للزمن أن يتغير؟ والناس هذه صعبة على أذهانهم؛ لأنهم يرون أن الأشياء تتغير كالكتلة تتغير، ويرون الطول والحجم –المقصود بالحجم الطول والعرض والارتفاع– يرونه يتغير، لكن لا يرون الزمن يتغير، الدقيقة هي الدقيقة ويضعون ساعة، الدقيقة عندي هي الدقيقة عندك، وأنا أعيش في نفس

الدقيقة التي تعيشها، فالزمن عندهم غير متغير، حتى ظهرت نظرية النسبية، ففهم الناس أن الزمن ليس عنصرًا ثابتًا يتغير، والدليل أن هذا عنده يوم، يوم كامل تام بما يتم به الحياة وهذا اليوم كألف سنة مما نعد من أيامنا، هو يوم.

مثال: قالوا: لو أن المرء مشى في النور ليومٍ واحد أي لو ركب آلة تمشي في النور أربعة وعشرين ساعة، فنزل إلى الأرض تكون الأرض قد دارت ألف سنة، أنا لا أتكلم عن عالم آخر أتكلم عن عالم الدنيا، يعني لو رجل ركب آلة سرعتها سرعة الضوء، طبعا تتحول في الضوء إلى الكترونات لكن الآن نتكلم لنقرب المسألة أقل من سرعة الضوء بقليل لنمشي معهم، فلو أن رجلاً ركب آلةٍ تمشي بسرعة الضوء ووضع ساعة أمامه ومشى بسرعة الضوء، يومًا كاملاً مشى في الكرة الأرضية ثم نزل، أربعة وعشرين ساعة بحسب ساعته التي أخذها معه، لكن وهو في الضوء يمشي بسرعة الضوء، فالآن خرج عن نطاق الأرض وموازينها ثم نزلت آلته إلى الأرض تكون الأرض قد دارت ألف سنة، ألف سنة مما نعود، إذًا الزمن ليس عنصر ثابت بل يتغير، هذا عجيب!! وهذه التي سماها آينشتاين بالنظرية النسبية وذلك بأن الزمن ليس شيئًا ثابتًا، الزمن ليس عنصرًا ثابتًا في هذا الوجود.

فالقصد: بأن الله أعلم أن الست أيام التي خلق الله فيها الأرض أنها أيام ليست كأيامنا. أما نوح عليه السلام -هذا السؤال- مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين وهذه ذكرت فقط في سورة واحدة وهي سورة «العنكبوت»، ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، فالمقصود به حياة البشر؛ لأن نوح عليه السلام من ذرية آدم عليه السلام وإن كان على هذه الأرض فجرت عليه سنة الأرض وسنة بني آدم، فعاش ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا بحسب هذه الأرض.

السائل: شيخنا أدت كثرة التصورات لبعض العلماء إلى منزلقات وانحرافات حتى ماتوا عليها، بما تفسر ذلك يا شيخ؟

الشيخ: قضية التصورات أنا كتبت كلمة وهذه القضية تحتاج إلى شرح طويل جدًا، إخواني ليس العيب باتساع تصور المرء، العيب بخطأ تصوره وليس باتساع تصوره، نشأنا نحنا العوام مع قول: لا تقرأ كثيرًا فتجن، فعند الناس كلما اتسعت تصورات المرء، فالقراءة توسع ذهنك، فلما توسع دينك فتجن، هذا هو ما عند الناس وهذا خطأ، الصواب أنه كلما اتسعت تصورات المرء اتسعت حكمته واتسع فهمه -كنت اليوم أشرح لابني هذه القضية-.

يعني لما يأتي شيخ وينفي علو الله عز وجل على خلقه، انتبهوا هذه مسألة تتعلق بقضية التصور وأن جهل المتكلمين في صفات ربنا ليس جهلهم في اللغة -هذه كتبتها وإن كانت تحتاج إلى كتاب ومصنف كامل هذه- ليس جهل المخطئين في أسماء الله وصفاته منشأه الجهل في اللغة، منشأه الجهل في التصور، الآن تحدثنا عن قضية الزمن أين كانت المشكلة؟ المشكلة في جهلهم في التصور الكوني، وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في الصحيح قال صلى الله ليه وسلم: (حجابه النور)، الله حجابه ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، شيء آخر، جل في علاه، لا يدرك، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾ [الأنعام: ١٠٣].

فينبغي أن أي اكتشاف علمي وأي تصور علمي صحيح ينشأ في الذهن يجب أن يمد توحيدك وأن يمد علمك بالقرآن صحةً وإثباتًا وعبادةً وإخباتًا.

لنأتي إلى قضية علو الله عز وجل على خلقه: فرأينا مثل الشيخ محمد الغزالي مثلاً، محمد الغزالي يجهل فقه السلف في قضية إثبات علو الله عز وجل على خلقه، قال: بعد أن ثبت أن الكرة الأرضية كرة، فالآن صارت أي إشارةٍ تؤدي إلى العلو، وهذا منتهى الجهل، قال: لو أن رجلاً أشار إلى الأسفل فإنها تؤدي إلى العلو! هذا من أين أتى بهذا الجهل؟! الجهل من تصور الكون، لم يفهم ما هو الكون.

ونأتي إلى كلامه لنبين الجهل هذا، يعني كلما اتسع ذهنك واتسع تصورك كلما ازدادت عبادتك وازداد فهمك لكلام الله عز وجل ولكلام النبي صلى الله عليه وسلم.

فمرات يكون الشيء قريب ولكنه للأسف بالتصورات الباطلة يصبح بعيد، مثال ذلك: هل تعرفون أن سقراط مع حكمته كما يزعمون كان يعتقد أن أسنان المرأة أقل من أسنان الرجل؟ ماذا كان يكلفه ليكتشف خطأه؟! أن يعد أسنان الرجل ويعد أسنان المرأة.

نرجع إلى الشيخ الذي يقول: أن أي إشارة تؤدي للأعلى!! هذا جهل بالتكوين وليس جهل بالنص فقط!!

مثلاً: هذ الكرة الأرضية –وهذه لها عدة مراحل حتى نفهما– الآن الكرة الأرضية إلى أين تنتهي الإشارة فيها إلى الأسفل؟ –دعونا نمثل بالتمثيل أليس التمثيل يقرب المعاني إذا كانت التصورات غريبة وبعيدة– فلو جئت إلى الكرة الأرضية وحفرت ونزلت وحفرت، وحفرت، أنت الآن إلى أين ينته قولك إني نازل؟ إلى أن تصبح في مركز الكرة الأرضية وبعدها إذا استمريت بالحفر تصبح صاعد إلى سطح الكرة الأرضية، فلذلك لما أنت تقول: تحت، أنا نازل تحت تنتهي إلى المركز، بعدها تصبح صاعد، انتهت المشكلة، هذه المرتبة الأولى في الرد، إذًا ليست كل إشارة تدل على فوق، هذا غير صحيح، الإشارة للأسفل تدل فقط إلى نقطة المركز، بعد ذلك يصبح صاعد كما مثلنا، إذن كل إشارة من المركز تنطلق إلى خارج الكرة تشير إلى فوق.

والمشكلة لماذا شبابنا ضعاف في الرياضيات؟ السبب هو أن الرياضيات أرقام والرقم هو فلسفة المادة، فالرياضيات هي فلسفة الفيزياء، الفيزياء هي المواد التكوينية والرياضيات هي فلسفتها، فالرقم شيء تصوري ذهني، ثلاثة، أربعة، خمسة، بسط جذر، تكعيب، تصور؛ فلذلك ضعف المرء وهذه قالها الجرجاني: «ضعف الإنسان ليس بما يرى ويحس ولكن ضعفه بما يتصور» والرياضيات هي شيءٌ تصوري.

الآن انتبه لهذه اللحظة التي ستقتنص من ذهنك ذكاءً وتصورًا جيدًا وإذا عجزت عنها ينبغي أن تمرن ذهنك، إذًا نحن أشرنا لما نزل داوم النزول حتى وصل إلى نقطة وبدأ بالصعود، إذن كل إشارة خارج الكرة الأرضية إلى فوق أعلى،

كل إشارة وأي واحد يشير إلى أعلى، إذن الكرة الأرضية هذه –انتبه لهذه الكلمة المهمة– إذن هذه الكرة الأرضية ما يحيط بها ليس هناك فوق وتحت كله فوق، هذه النقطة.

أعيد الكلمة: وهو أن كل ما يحيط في الكرة الأرضية هو فوق، –ونحن نعرف أن هذه أفلاك أي مدورة– إذن كل جرمٍ في الكون ينطبق عليه نفس المثال، كما في الكرة الأرضية، كل جرم في الكون، إذن هناك فوق، فوق، فوق ينتهي إلى فوق مطلق، والفوق المطلق هو الذي يشار إليه، فلما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم الجارية: (أين الله؟)، أشارت إلى السماء بأصبعها، إلى الأعلى، فالله عز وجل هو فوق وليس تحت، فهذا دلالة على الذي نقوله، وليس كما يقولون!! فهذا الفوق هو يعني ماذا؟ كل ما يحيط في الكون إنما هو الفوق المطلق، وهو الفوق المطلق إلى حالة لا يكون فيها هذا المعنى؛ لأننا قلنا كل ما خرج عن الكرة الارضية أشرنا له أعلى، أعلى، أعلى، ... حتى يخرج من نطاق هذا الكون فينتهي به الأعلى المطلق، خارج هذا الكون أعلى مطلق.

ولذلك الأعلى هنا هل نسبية يقابلها تحت محصورة؟ لأن فوق لما أنت تقول: فوقي، فهذا السوق هو فوقي لكن هذه الفوقية نسبية أك مطلقة؟ نسبية لأن هناك فوقها لكن نهاية الكون فوقيةٌ مطلقة لا فوقية ما فوقها، وهذا يؤدي إلى خطأ الزعم أن الله عز وجل داخل الجهة، لأنهم يقولون: ما دام أنك حشرته في فوق إذًا جعلته محصورًا في جهة، تعالى الله عما يزعمون، لكن نحن قلنا فوقٌ مطلق.

وحينئذٍ يتعطل الذهن، بعدها بالذهن تقول: كيف؟ نقول لك: حينئذٍ عند ما لا نهاية عند المطلق تنتهي القاعدة، وتدخل قاعدة جديدة.

مثلاً: المستطيل، المستطيل غير المربع، فالمستطيل قاعدته أن الطول أطول من العرض، فإذا صغرناه إلى ما لا نهاية هل تبقى هذه القاعدة أم تتلاشى؟ تتلاشى هذه القاعدة وإذا كبرناه إلى ما لا نهاية تتلاشى هذه القاعدة، والله عز وجل هو المطلق، فقواعد السنن التي تجري علينا لا تجري على الله عز وجل لأنه فوق هذه القواعد لأنه مطلق إلى ما لا نهاية، فنحن نقول: أن الله عز وجل قادر ولا تحد قدرته شيء، الله عز وجل سميع فلا يحد سمعه شيء، الله عز وجل كبير فلا يحد عظمته شيء، فلما نقول: ما لا نهاية؛ فانتهت القواعد الدنيوية، وهذا الكلام الذي أقوله هو تفسير لكلام العلماء عندما قالوا: بأن أجهل ما نشأ على الذهن البشري هو قياس الغائب على الحاضر؛ لأننا مهما ارتقت تصوراتنا فهي مربوطةٌ بما نحسه وما نراه، ولذلك ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

إذ كيف يخلق الله عز وجل سنن ثم تصبح هذه السنن حاكمة عليه؟!!

فالقصد من هذا: نقول وبالله التوفيق: كلما اتسعت تصورات المرء على الحقيقة ليس بالخيال ولا الوهم، كلما اتسعت تصوراته ازدادت ثقته بالنص.

السائل: هل تصح الصلاة بالفاتحة فقط؟

الشيخ: الجواب: نعم إجماعًا، وإنما يستحب، وقالوا: هل يجبر بسجود السهو هؤلاء؟ يجبر والصواب لو أن المرء قرأ في صلاة النافلة سواء المقيدة أو المطلقة الفاتحة فقط صحة صلاته، واختلفوا في الإمام هل هي واجب أو غير واجب؟ والصواب أن الفاتحة تكفي، لقوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠]، فالفاتحة ينطبق عليها هذا، عند جمهور العلماء هي المتعين بخلاف الأحناف.

السائل: ما هو الدليل على كفر تارك الزكاة؟

الشيخ: هو قول الله سبحانه وتعالى في سورة «التوبة»: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾ [التوبة: ٥]، فهذا من الأدلة على كفر تارك الصلاة وهي من المباني التي قالها النبي صلى الله عليه وسلم: (بني الإسلام على خمس)، وهي ركن، والقاعدة: أن زوال الركن هو زوالٌ لحقيقة الشيء، على الصحيح ومع أن فيها خلاف والله تعالى أعلم وهو خلافٌ معتبر وغير مشهور للأسف، ولكن هذا أحد أقوال الإمام أحمد رحمه الله وهو اختيار ابن مسعود رضي الله عنه وهو اختيار الحميدي في مسنده بأن تارك الزكاة كافر، وأما يرد من رد في أن تارك الزكاة لا يقتل كتارك الصلاة، والصواب أنه لا، لو قاتل عليها؛ قتل، لكن لو أخذت منه فهي حق المال يأخذ منه عند أحمد في الحديث: (من منعها أخذت منه وشطر ماله)، وهو حديثٌ صحيح ولم يأخذ به إلا أحمد والبقية اعتبروا هذا زيادة على النص.

السائل: كيف تؤدى الزكاة لشخص موظف وله حساب بنكي وينزل له راتب شهري قد يصرف منه أحيانًا وقد يبقى بعض المال فيه فما هي الطريقة المثلى للزكاة في حق هذا الشخص؟

الشيخ: فتوى بعض المشايخ المعاصرين قاسوا مال الراتب على الزراعة، قولٌ باطل وضعيف ومتهالك.

مثلاً التجار، التاجر او الموظف عنده مال والمال بلغ النصاب خلاص الآن نشأ سبب وعلة الزكاة فإذا حال هذا المال عليه الحول فعليه أن يخرج الزكاة، لكن الآن دخل عليه مال جديد –هنا يأتي السؤال– دخل عليه مال جديد خلال العام فهذا عليه زكاة لأنه داخل على النصاب فكيف يزكيه؟ أسهل قضية في هذا الباب وهو أن يزكي كل عام ينظر إلى ما معه ولا ينظر إلى متى دخل هذا المال ومتى لم يدخل ويعينه ليدخل عليه الحول فهذا يطول عليه، وإنما ينظر صار هذا المال قد بلغ النصاب فلا يهتم لما يدخل عليه ويخرج حتى إذا جاء نهاية الحول والحول الهجري المقصود

القمري فيخرج عليه بمقدار ما معه، أي المقدر عليه وهو «٢,٥٪» وبالتالي هذا طريقة هذا الموظف لو أنه يأتيه مال فيصرفه كله ليس عليه زكاة، ولكن هذا الرجل يأتيه مال فنمى نمى صرف بعضه وادخر بعضه فبلغ هذا النصاب خلاص الآن عليه أن يخرج الزكاة، وخلال هذه السنة اثنى عشر شهر قمري دخل عليه مال فلا يحسبه وغنما يزكيه في آخر العام بمقدار ما معه هذه هي الطريقة.

السائل: سبق أن قلتم: إنكم تميلون إلى الرأي القائل بتحديد مدة القصر في السفر بثلاثة أيام، هل على هذا دليل؟

الشيخ: لا، لم أقل ثلاثة أيام، وقول الأئمة الأربعة وقول ابن عباس: عشرين صلاة وهذا أخذًا من حديث حجة النبي صلى الله عليه وسلم أنه دخل مكة فلم يمكث في مكان على نية معرفة الوقت الذي يخرج منه إلا هذا الدليل وهو أنه دخل مكة فمكث فيها عشرين صلاة ثم صعد إلى عرفات، كيف يستدل بهذا؟ أول شيء الإمام احمد من رواية الأثرم كما روى عنه صاحب المغني قال: هذا دليل قل ما يعرفه الناس، دليل خفي، ولذلك حتى ابن القيم الذي اشتهر قوله في هذا الزمان أن تحديد الوقت ليس عليه دليل في الحقيقة لأن ابن القيم لم يفقه هذا الدليل عليه رحمة الله ولا أقول أنا هذا، كي لا يقال أبو قتادة يرد على ابن القيم، لا، الأئمة الأربعة ومعهم أحمد مقابل ابن القيم كونه حنبليًا، يرد عليه، كيف؟

فالناس عكسوا القضية –وشرحتها عدتها عدة مرات– شرحته عدة مرات، الناس عكسوا القضية، ما معنى السفر؟ السفر: هو الضرب في الأرض، فحيث حللت انتهى معنى الضرب لغةً، فنحن في الأصل نعمل اللغة عند عدم وجود النص المبين للحالة وهنا اللغة نحن أمام السفر وهو ضرب، فمعنى السفر لغةً هو الضرب في الأرض.

لكن أخرجنا الضرب في الأرض مطلقًا، أنت الآن تمشي من هنا للمسجد هذا اسمه ضربٌ في الأرض، لكن خرج هذا، فلو أن رجلاً مشى ضرب في الأرض أي في داخل بلدته ولم يفارق البنيان لا يسمى مسافرًا مع أنه ضرب في الأرض فخرج المشي الضرب في الأرض في داخل البنيان، هذا خرجناه؛ لأن الإجماع قائم تقريبًا إجماع على أن المرء لا يكون مسافرًا حتى يخرج من بلدته فمجرد الضرب في داخل البلدة لا يسمى مسافرًا، انتهينا من هذه.

الآن بقيت المعاني الأخرى، رجل يضرب في الأرض خرج من بلدته، ضرب في الأرض، ضرب يعني يمشي، وإذا جلس انتهى الضرب، إذن الأصل أن الرجل يقصر ما زال ماشيًا فإذا حط رحله انتهى عنه اسم السفر، هذا الأصل –انتبهوا لهذا وهذا مهم جدًا وهذا من جزء التصور كلما تصورته جيدًا فقهته على حقيقته– فبمجرد أن يحط الرجل رحله انتهى عنه لغةً اسم السفر، هذا هو الأصل.

فلا يأتي أحد ليقول: من أين لك الدليل بأنه لو احتاج يوم يومين لا، لا، ليس محتاجة يوم أو يومين، اللغة تقول لك: حيث حطت رحلك في مكان انتهى عنك اسم السفر، وجدنا، لا، هذا المقدار هو اللغوي، فالشارع وسعوه قليلاً.

انتبه! إلى المقيد ما الذي قيد المدة الأولى؟ اللغة، الآن الشارع كما أننا رأينا أن الشارع كما قال في حديث علّي لما قال: البنيان، قال له: نجمع، قال: البنيان، فأخذوا منه في الحديث على أن الضرب داخل البلدة لا يسمى سفر البنيان، فاخرج من البنيان، ما دام البنيان متصل ما في سفر، ما الذي افهمنا هذا؟ الشارع، وإلا في اللغة هذا من السفر الضرب.

الآن اللغة قالت: بحيث حطت رحلك ولو يومًا، ولو نصف يوم فأنت قد صرت مقيمًا وانتهى عنك اسم السفر، انتهى، ما الذي حدد هذه المدة؟ اللغة، نظرنا فوجدنا أن الشارع في عملٍ ما وسع دائرة حط الرحل ليس إلى يوم ولا يومين ولا ثلاثة إلى أربع أيام، عشرين صلاة، فالشارع وسع هذا فهل يجوز لأحد أن يقول: ما أدراك أنه ما لو زاد لكان مسافرًا؟ وهذا قول ابن القيم: ما أدراك ما لو أنه زاد يومًا أو صلاتين كان مسافرًا؟ نقول: هذا لا يجوز، لماذا؟ لأننا ما زلنا محكومين باللغة، إذن اللغة عندنا هي الحاكمة حتى طرحنا كمسافر ورأينا أن النبي صلى الله عليه وسلم مكث أربع أيام عشرين صلاة وهو يصلي قصرًا، واحد يقول: لكنه زاد، نقول له: أحضر لنا دليل الزيادة، لماذا؟ لأنك محكومٌ باللغة، فأنت احضر لنا حديثًا من أجل أن نزيد لنخرجه من اللغة وإلا فالأصل هو تفسير اللغة، عندما لا يوجد النص بقيت اللغة هي الحاكمة.

فهم قلبوا الصورة أن جعلوا مجرد الخروج من البلدة سفرًا وبهذا لا تخدمهم اللغة فمن أين جئتم به؟ أنه بمجرد أن خرجت من البلدة فأنت مسافر، حتى لو حطت رحلك خمس سنين وهذا الذي فعلوه! يخرج الرجل من بلده ليدرس في مكان يعلم أنه يمكث فيه خمس أو ست سنوات ويقول: بأنه مسافر، بعلة خروجه من بلدته، أنا أسأل: من أين أتيتم أن الخروج من بلدته يكون مسافر؟ اللغة تقول السفر بالإجماع هو الضرب في الأرض، فإذن ما دمت ماشيًا خرج عن معنا وجود البلدة إذًا خرج من البلدة -لا نتحدث الآن عن موضوع المسافة وغيرها هذا موضوع ثاني- فخرج من البلدة فهو يمشي ضرب في الأرض فهذه سفر ضارب، نزل انتهى الضرب في الأرض انتهى اسم السفر، فإذن أنت عليك أن تصلي تامًا ولا تقصر، فنظرنا وإذا الشارع رأيناه في أربعة أيام عشرين صلاة صلى قاصرًا، إذن الشارع مد هذه فقط ولا يجوز لك أن تمد غيرها، هذا الذي عناه الإمام أحمد رحمه الله، في أنه دليلٌ قل من يفقهه.

الآن هذا الأصل انتهينا منه، بقي للأسف الاحتجاج بالصحابة رضي الله عنهم، وكل ما استدلوا به هنا كما يناقضه ممن استدلوا به، رأينا ابن عباس رضي الله عنهما هو الذي أفتى بها، وأساس هذا الفقه من الذي قاله؟ ابن عباس ورأيناه في بعض أسواق العرب في عكاظ يقصر أسبوعًا، إذًا أنت تفتي بهذا وتقصر أسبوع!! إذًا عليك بما

يسمى بانفكاك الجهة، وانفكاك الجهة صار عند العلماء خلاف ما لو أن الرجل قال، علمنا عشرين صلاة لأن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة وعلم أنه سيمكث فيها كم، لكن لو مكان لا يعلم، ممكن يومين أو ثلاث أو يوم، فهنا وقع الخلاف وهذه مسألة أخرى، هناك ن قال بأنه يقصر كما قال الإمام أبي حنيفة رحمه الله وهو اختيار الكثير من الأئمة: يقصر ما دام على هذا المعنى لو يمكث عشرين سنة، أي أسافر اليوم، غدًا، وبعضهم جعلها مقدرة بحسب الحالة التي ذكرناها على حالٍ أخرى.

ولكن ما ورد عن صحابي حتى ابن عباس رضي الله عنهما حتى ابن عمر رضي الله عنهما، لم يرد عنهم إلا أدلة أن تحمل معًا، أما الاحتجاج بفعل ابن عمر أنه ست شهور في غيرها، فورد عنه أدلة أخرى كذلك مما ينصر ما نحن فيه، إذن ينبغي النظر إلى فقهه إلى فتواه لماذا فعل ذلك؟ فعل ذلك لأسباب مما ذكرنا بعض صوره، والله تعالى أعلم.

السائل: من سافر عشرة أيام ونزل مدينة وكان يترجح إليه أن يقصر طوال هذه المدة ثم اتضح له لاحقًا القول الراجح هل تبرأ ذمته تلك الصلاة؟

الشيخ: نعم، ففي حديث المسيء صلاته أن الرجل إذا صلاة بما علم فصلاته صحت ولا يقضي ولكنه أمره بما حضر وقتها، ولم يأمره ان يقضي الصلوات التي صلاها، مع أنه قال: (لم تصلي)، لكنه لم يأمره ان يقضي الصلوات التي مضت، فمن كان اجتهاده على معنى ثم غير اجتهاده فلا يقضي على الصحيح والله تعالى أعلم.

السائل: هل يعق على المولود قبل اليوم السابع؟

الشيخ: الجواب: نعم، يستحب له أن يعق، وبعض أهل العلم أوجب ذلك، أوجب العقيقة على من نزل صارخًا، والصواب أنه يستحب على من نزل صارخًا استهل كما يقول الفقهاء أن يعق عنه والداه.

السائل: يقول الطفل مات قبل اليوم السابع؟

الشيخ: نزل واليوم الثاني مات بعد يوم أنا قلت استهل، يعني يكفي أنه نزل وصرخ ثم مات فما بعدها أولى.

السائل: هل تجنى ابن الجوزي على أبو نعيم صاحب «حلية الأولياء» حين رماه بالميل إلى التصوف؟

الشيخ: لا، فأبو نعيم الأصفهاني هو صوفي يعني متصوف، وكتابه «حلية الأولياء» دليل على هذا، ولا، لم يتجنى عليه والقصد هو قصد أن ابن الجوزي اختصر «حلية الأولياء» في كتابه «صفة الصفوة»، واختلفوا في ضبط عنوان الكتاب «صفة الصفوة» أو «صفوة الصفوة» لابن الجوزي، أبو الفرج بن الجوزي الحنبلي اختصر «حلية الأولياء» وفي المقدمة ذكر سبب الاختصار ومنه أنه جعل أبو بكر صوفيًا وعمر صوفيًا وهكذا أدخلهم في مراتب الصوفية ولم يتجنى عليه.

السائل: هل دراسة «المستصفى» للغزالي تغني عن «روضة الناظر»؟

الشيخ: هذا من أشق الأسئلة على بالي، لا يوجد كتاب يغني عن كتاب، لكن لو أن طالب العلم في الحقيقة استوعب ما في «المستصفى» فغيره سهل وتبقى مسائل، أي لو أن طالب العلم في مسائل الأصول قرأ المستصفى واستوعبه وفهم مسالكه ومصطلحاته وأراءه فجاء لـ «روضة الناظر» لابن قدامة فالأمر سهل عنده يعني ينهيه بسرعة، تبقى المقارنة ببعض المسائل والترجيح وغير ذلك، لكن لا يوجد كتاب يغني عن كتاب، و«المستصفى» مهمٌ ولكنه خطير –لا بأس ننصح بها الأمة– المستصفى مهمٌ لأنه مفتاح كتب الأصول، من قرأه تصبح عنده الأصول مفهومة ومعروفة، لكن أين خطورة المستصفى؟ أن الغزالي وقاف ومتحير، وإن كان ليس بمرتبة الرازي في كتابه «المحصول»، فالمحصول يبحث لك في المسألة ستين ورقة من المطبوع ثم ينتهي بك إلى الحيرة، ولا يجيبك ويقول الله أعلم بالصواب بعد أن يأتي بالقول ويأتي بناقضه ثم ينتهي إلى أنه يتحير بين القول وبين نقضه، والغزالي عنده هذا، ولذلك لا ينبغي الاقتصار عما في «المستصفى» لأن كثير من المباحث ينتهي بها صاحبها الى الحيرة لماذا؟ لأن الغزالة من الموفقة أو الملفقة يصح هذا وهذا كيف؟ يعني أنه يرى أن كل مجتهدٍ مصيب وهو صاحب هذه النظرية وهذه يعني هناك للعلماء كلام خطير عليها حتى قال بعضهم إنها أساس الزندقة، أساس الزندقة هو تصويب العلماء أن كل عالم مصيب.

القصد: أن قراءة المستصفى ضرورية لكنها ليست نهائية، لأن هناك كثيرًا من المباحث التي ينتهي فيها الغزال إلى الحيرة وهذا خطأ.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس السابع والعشرون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

هذا الدرس السابع والعشرون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧)﴾ [البقرة: ١٦-١٧].

تقدم ما يسر الله عز وجل من قوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)﴾، وهنا أنبه على قضية مهمة هذه الآية ليست دليلاً عند من نظر فيها نظرة علم أنهم كانوا على هدى ثم تركوا الهدى إلى الضلالة، لا، ولكنهم كانوا أمام خيار إما أن يسلكوا الضلالة وإما أن يسلكوا الهدى، فاختاروا الضلالة.

ويمكن حملها على المعنى الثاني كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ [النساء: ١٣٧-١٣٨]، فمن أنواع المنافقين من كان مهتديًا ثم خرج من الهدى إلى الضلالة، ولكن هذا لا يلزم، فإن قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾، لا يعني أنهم كانوا على الهدى ابتداءً ثم تركوه، يمكن أن يكون نوعهم أو بعض أنواعهم كذلك ولكن هذا ليس شاملاً لكل أنواعهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، نفي الهدى عنهم وهذا دليل ما قدمنا ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، إما أنها محمولة حالاً على هذا الشراء، بمعنى أن استبدالهم هذا الأمر ليس فيه هداية، وإما أنه محمول على حالهم كلهم وليس على حال الشراء، فهذا دليل ما قدمنا أنهم لم يكونوا مهتدين في الابتداء كذلك.

المثل الذي تقدم تكلمنا عنه قليلاً ربما نزيد عنه بما يزيد المعرفة بالمثل، قلنا في الدرس الفائت المثل هو الشبه، فيشبه الشيء بشيء ليقرب معناه وليعظم شأنه، وتعظيم الشأن كما ترون هنا يعظم شأن المنافق، وكذلك إذا أراد عملاً عظيماً من أعمال الطاعات، فإنه كذلك يضرب به المثل، وإذا أراد أن يبين شيئاً جليلاً فيضرب به المثل، فالمثل

عادةً لا يضرب للشيء الذي لا قيمة له، إما بجلال أمره سوءاً أو بجلال أمره حسناً، وإنما يضرب المثل للأمر العظيم إما لسوئه وإما لحسنه، ولذلك هذا شيءٌ مهم.

والمثل المقصود منه هو التقريب –قلنا في الدرس الفائت– يقرب المعنى ويصنع له الجلالة للأمر حتى يأخذه المرء مأخذ الجد، المثل فيه ثلاثة خصال:

الخصلة الأولى: إصابة المراد وهو أهمها –كما يقول أهل البلاغة– فهو يصيب يقرب إليك المطلوب، ويجعلك على بينة منه وعلى تصورٍ صحيحٍ له.

الخصبة الثانية: وهي حسن التشبيه، لأن التشبيه هو بلاغة، وكما ترون أنه إذا شبه شيئًا بشيء فإنه يدل على بصر الحكيم وعلى بصر الممثل أنه له بصر:

هزجا يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجذم

فهو يمثل كيف الذباب يضرب جناحيه ببعض كالرجل الذي لا دين له ويأتي ويضرب زناد بزناد ليقدح النار، هذا مثل قاله عنترة في معلقته، وقال أهل البلاغة: لم يأت أحد بمثله، لا قبله ولا بعده، مثال عجيب!! فالذي يمثل عنده حسن التشبيه، فلو مثل بشيء لا يشبهه لاستقبحوه، لكن كيف استطاع هذا الخبير ببصره أن يخترق الحُجب ليرى أن هذا يشبه هذا فيمثل به؛ هذا دل على حسن التشبيه وعلى اتساع التصور، واتساع التصور يدل على سعة العقل وعلى الحكمة وعلى البصيرة.

الخصلة الثالثة: هو اختصار اللفظ.

إذن كم خصيصة صارت للمثل؟ ثلاثة، الخصيصة الأولى: إصابة المراد، الخصيصة الثانية: حس التشبيه، ويمكن أن تقدم وأن تؤخر أنا هكذا اخترتها ووجدت أن المراد أهم وحسن التشبيه، وثالثاً: أن فيه اختصار اللفظ لا يطيل المثال طويلاً فيتعبك ولكنه يختصر قدر الاستطاعة، وأهل علوم القرآن يقولون: هناك المثل الطويل وهناك المثل القصير، والصواب قال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، ومثل بيت العنكبوت، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]، فهذا القصر والطول في المثل أمرٌ نسبي يمكن أن يكون طويلاً لغيره لما يشبهه من المثل، ويمكن أن يكون قصيرًا لما يشبهه من المثل.

وهنا فقط أنا أنبه على بعض الفوارق اليسيرة التي تكلم عنها العلم، هناك المثل، هناك الحكمة، هناك النادرة، فعادةً تجدون في الكتب النوادر والأمثال، النوادر والحكم، وتجدون كذلك الحكم والأمثال، فهل هناك فرق؟ العلماء

الكثير منهم يرون أن المثل لا يكون إلا حكمة، وهذا قول صحيح، المثل حين يضرب الرجل مثلاً ما؛ فلا يكون المثل إلا من حكيمٍ ويكون المثل حكمة، هذه قاعدته كل مثلٍ حكمة.

والمثل المعروف هو التشبيه يشبه شيئاً بشيء، ولكن هل كل حكمةٍ مثل؟ الجواب: لا، في الصيف ضيعت اللبن مثلاً، هذا ليس بتشبيه لا يشبه، ولكن مثل حكم النبي صلى الله عليه وسلم التي ضربها كقوله: (الآن حمي الوطيس)، هذه حكمة، لكن لا نرى فيها التشبيه، لا نرى فيها المثل شيء بشيء، وكذلك يعني الحِكم الكثيرة التي يقولها الناس يمكن ألا ترى فيها تشبيه شيءٍ بشيء، لكن لابد أن كل مثلٍ هو حكمة.

فما النادرة، ما الفرق بين النادرة والمثل والحكمة؟ الفرق بين المثل والحكمة والنادرة أن المثل والحكمة يشيعان بين الناس فيهما إشاعة الناس يعرفونها يتداولها الناس في مجالسهم في كلامهم، لكن النادرة تكون خاصة لأصحاب الأدب، لأصحاب الحكمة، فتجدها خاصة فيقال: النوادر، وهي تعادل معناها فالنادرة من الندرة، والندرة هي القلة بخلاف المثل فإنه يشيع وينتشر وكذلك الحكمة تشيع وتنتشر.

وما هي النكتة؟ النكتة أخذت من النكت، النكت هو الحفر الضرب وترك الأثر، واحد يمسك بعصاته ويضرب بالأرض، فهو ينكت ويقال: نكت، فلماذا تسمى نكت؟ لأنه أثر في الأرض، فالنكتة هي تلك المسألة العلمية التي تطرأ على ذهن الناظر، والنكتة علمية، الناس عندهم النكتة هي الطرفة، الناس عندما يقولون: هذه نكتة؛ يعني طرفة، لا النكتة العلمية بمعنى أي التي اقتناصها الناظر اقتناصًا ذكياً وخاصاً وببصر، هذا الفرق بينهم ولا شك أن كل حكمةٍ يصح أن تطلق أنها نكتة ذلك لأنها تقتنص اقتناص.

لكن العجيب ما هو أصل كلمة مثل؟! هم يقولون: المثل هو الشبه، ولكن في العودة إلى أصلها هكذا يقولون: إن أصلها يعود إلى ذلك الخُرق اليسير الذي يكون في الحجر لوضع فيه الخشبة من أجل تثبيت الخيمة وما شابه –انظر إلى الرابط– إما هو أن يأتي إلى الحجر الصخر فيحفر فيه حفرة مقدرة تقديراً ذكياً هندسياً من أجل أن يضع فيها الخشبة لتحمل الخيمة أو يربط بها شيئاً، هذه الدائرة المصنوعة بالحفر الدقيق الذكي هي المثل، وكذلك يقال: المثل مثلها مثل تلك الأداة التي يكون فيها الكحل المكحلة، فحفرها من أجل أن يدخل فيها المرود يكون حفرًا يعني دقيقاً هذا يقال له: المثل، ما هو الرابط بين هذا وهذا؟ الرابط هو الدقة، دخول هذا في هذا، والمثل هو مشابهة هذا الشيء لهذا الشيء، هذا هو المثل.

وبعض المعاصرين يقول: المثل أصله من الإحكام ويقول: أن مادة مَثَلَ كمادة حَكَمَ، هكذا يقولون وهذا بابٌ واسع لا أريد أن أخوض فيه الآن، فهذا الأصل والقرآن ذكرنا لكم في الدرس الفائت ما معنى ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، أنه كلما جاء الناس بمثل كان الله عز وجل أعلى منه جلالاً وفعلاً وصفةً وحكماً وذاتاً، فهو جل في علاه أعلى منه فلله المثل الأعلى.

ولذلك قال سبحانه تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، ماذا تعني هذه الآية؟ الناس عادةً إذا أرادوا أن يحملوك على أمرٍ في أذهانهم، طلبوا منك أن تشابه أحدًا، ماذا يقول لك أبوك خاصةً أنتم أهل بلاد الشام «ألم ترى ابن عمك»، فيضرب لك المثل لتكون مثله، أنت ألا ترى الجار؟ رأيت جيراننا ماذا يعملون؟، فهو يدفعك للفعل بالمثل، يضرب لك مثالاً لتصل مثله، فهو يضرب لك المثل، ما معنى ضرب المثل؟ بيان المثل، أفصح عن مثل، والضرب هو إما المماسة وإما السير كما يقول أهل اللغة، فيسمى ضرب لأنه يماسه ويقال: الضرب: السفر مشى، فيضرب المثل لأنه يلامس الحق فيه يبينه.

نضرب مثل أراد الناس به أن يحملوا ربنا على فعلٍ من الأفعال، قال سبحانه في سورة «الفرقان»: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، من هو الأقوى –انظر القياس انظر هذا قياس الشيطان– من هو الأقوى الذي يأتي لك بالشيء دفعةً واحدة أو الذي يقسطه عليك؟ لو ضربنا المثل لله عز وجل، من هو الأغنى؟ الذي يعطيك أجرتك ودينك مرةً واحدة أو الذي يقسطه عليك؟ الذي يقسطه عليك دليل أنه كلما كسب أعطاك، فهو عاجز أن يؤدي إليك المال مرة واحدة، ولكنه لو كان غنياً قوياً ماذا يفعل؟ مرة واحدة.

فهم ماذا أرادوا أن يقولوا، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، فضربوا له مثل القوة أنه لماذا لا يخرجوه مرةً واحدة؟ لماذا يقسطه؟ وإنما أرادوا به الضعف أرادوا به أن يضربه مثلاً على الضعف، ماذا القرآن قال؟ قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)﴾ [الفرقان: ٣٢]، فالقضية لا تعود إلى فعل الرب، ولكن تعود لحاجتك أنت، وهذا قلناه لما الله عز وجل خلق الأرض ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ١٠]، هو بالنسبة للقدرة أم بالنسبة لجريان السنة؟ جريان السنة حتى تمشي الأرض ويمشي فيها وتكون سنة حتى لنا.

كذلك هذا الأمر من أجلك لا من قوته، لا يعود إلى طاقته ولا إلى قوته ولا إلى قدرته، وإنما يعود إلى حاجتك أنت ما الذي ينفعك أنت، هو يعلم، هو الذي خلقك، ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)﴾ [الفرقان: ٣٢]، قال بعدها: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)﴾ [الفرقان: ٣٣]، هذا مثل جعلوه مثل لما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، هذا مثل، هذا الخفاء في المثل موجود، المثل المخفي في الكلام موجود، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)﴾ [الفرقان: ٣٢-٣٣]، فلذلك قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، لا يجوز لك أن تضربوا لله الأمثال، يعني أن تقول ما دام أنه كذا فلماذا لا يكون كذا؟

مثال المشركين: المشركون يعلمون أن الكبار من الطواغيت والملوك ومن له شأن وعظمة أن يكون له حجاب لا يدخل عليه من قِبل كل أحد، لا يدخل عليه كل أحد وإنما يكون له حجاب ويكون له سلاح، ومثلوا الآن أرادوا أن يجعلوا ربنا على وفق هذا المثل، فقالوا: أنه لا يمكن الدخول على هذا الإله مرة واحدة، ولا يمكن الدخول عليه

إذا سألت فورًا تسأل مباشرة من غير أن تقدم العرائض لغيره ولواسطة ثم لواسطة إلى غيره، فلذلك ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ فلا يجوز لك أن تضرب لله عز وجل المثل، فالله عز وجل لا يضرب له المثل ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠].

والأمثال في القرآن كثيرة جداً ولذلك في حديث يعني لا يصح وإن كان هو مشهور عند أهل التفسير أن القرآن أنزل على خمسة أوجه، ما هي؟ الحلال والحرام والمحكم والمتشابه والمثل، وقيل على سبعة، وبهذا بعضهم فسر الحروف السبعة على هذه السبعة، فأما في الحديث الذي هو أساس ما يستندون إليه ولا يصح، أنك امتثل لأوامره واجتنب نواهيه واعمل بمحكمه وآمن بها والمتشابه آمن بها وصدقها وأما المثل قال فاعتبر به، ولذلك ذكر أهل العلم عن الإمام الشافعي أن من شروط المجتهد أن يكون عالماً بالأمثال لماذا؟

الماوردي له كلمة عظيمة، قال: لأن الأحكام الشرعية مخفيةٌ في الأمثال، مثال ذلك: أنا الآن هنا ولكن لنرحل إلى سورة «الحج» قال تعالى عن المشركين: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)﴾ [الحج: ٣١]، هذا مثل، مثل الذين أشركوا، ضربنا هذا لأجل الأحكام ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾، هذه لشرحها ربما لو أنه بسطت بأوضاع معنى الشرك لاحتاجت كلمات كثيرة لكن لما مثل بها اختزل كما قالنا في اختصار اللفظ، هذا من جوامع الكلم العظيمة، لأن المشرك إما في حيرة على هذا المعنى، وإما على حالة استقرار.

فالمشرك إما في حيرة كما هو شأن المنافق الآن، هي نفس الآية هناك نفس الآيات هنا، لكن هذه مثل للمنافقين وتلك آية للمشركين، ما حال المشرك الأول؟ ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾، ما معنى ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾؟ حيرة، الطير تلعب به، تذهب به وتأتي، فهو في حيرة، مرة يكون مسلماً، مرةً يكون مشركاً، مرةً يكون بوذياً، مرةً يكون نصرانياً فهو في حيرة من أمره، والآخر من هو؟ ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾، يستقر على كفرٍ واحد، بما علمنا أحكام الشرك؟ بالمثل.

وذكروا عن مالك و-هذا في تفسير مالك ذكرها عامة أهل التفسير- لما سُئل عن حكم من أبغض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وسبهم؟ قال: كافر، وسُئل هل لهم نصيب من الفيء؟ قال: لا، فلما سألوه من أين أتيت بهذا؟ قال: قول الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ [الفتح: ٢٩]، ما هو مثلهم في التوراة؟ بما ضرب لهم مثل في التوراة، التوراة ماذا فيها؟ فيها الأحكام، واليهود صفتهم غياب المعنى التعبدي الذي أراده الله عز وجل بإرساله عيسى عليه السلام، من أجل هذا عامة ما في الإنجيل أمثال، من أجل تقويم العبادة ومن أجل تعليم بني إسرائيل مسلك العبادة، مسلك الوجدان، مسلك القرب من الله والإحسان.

ولذلك لما كان شأن اليهود الصلابة بما ضرب لهم مثل؟ ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا﴾، وهذا غياب عندهم، ولذلك قال الإمام مالك رحمه الله: بلغنا أن النصارى في بلاد الشام لما دخلهم الصحابة رأوهم قالوا: «والله أن هؤلاء لأكثر عبادة من الحواريين فيما بلغنا»، فلذلك ضربت مثل اليهود الذين تغيب عنهم معالم العبادة ضرب الصحابة بمثل تعبد، فقال تعالى: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ [الفتح: ٢٩].

ومثلهم في الإنجيل، الإنجيل فيه تسامح، فيه أمثال التعبد والإخبات، فما هو المثل الذي ضرب لهم؟ قال تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، هذه من أعظم ما يمثل بها كما مثل في قوله تعالى، انظر هذه التراكيب قوة فوق قوة فوق قوة بماذا تذكرك هذه؟ تذكرك بقوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [النور: ٣٥].

فقال سبحانه وتعالى عن مثلهم في الإنجيل: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾، والمقصود بالكفار هنا من؟ الزراع، لكنه أخذ من هذا المثل حكمًا وهذا الذي أراده الإمام الشافعي، لما قلت: بأن الأحكام مخفيةٌ في الأمثل، فمعرفتك بالمثل يبسط لك المعاني المطلوبة، يكفي هذا وإلا في الحقيقة في الأمثال في القرآن الكريم يعني من الجمال والعظمة ما تحتاج إلى بيان وإلى جلسات من أجل ذلك يكفي هنا إن شاء الله تعالى رب العرش العظيم.

قال سبحانه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧)﴾ [البقرة: ١٧]، نحن قلنا دائماً أن الزيادة للتوكيد فلابد أن نفهمها، ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ﴾، أي طلب الوقود، طلب الاستيقاد وهو وجود النور، وكما ترون المثل هنا قبل أن نأتي إلى أفراده أن المثل ضرب بالماء والنار، فالمثل الأول ناري: ﴿اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، المثل الثاني مائي: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾، انظروا إلى هذين المثلين العجيبين في أمرين متضادين بالنسبة إلى الخلق والوجود، المثل الأول فيه النار، والمثل الثاني في الماء، وكلٌ فيها منفعةٌ عظيمة مع أضدادها، مع أنها ضد، الماء ضد النار ومع ذلك المنفعة عظيمة في الماء والمنفعة عظيمة في النار.

ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨)﴾ [الواقعة: ٦٨]، ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١)﴾ [الواقعة: ٧١]، فذلك لأن الماء أمرها عظيم، أنت تأمل الماء وحكمة خلقها والقدرة على خلقها، والله مر علّي مدة عظيمة، قبل أن أشرب فقط الماء انظر إليها أتعجب! ما هذا الخلق العجيب؟! ما وقفت أمامه أن تنظر إلى هذا الماء هذا خلق غريب عجيب!! ثم ربط الله عز وجل به الحياة كلها، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فما من حياةٍ تكون إلا بالماء، انظر إليها شيء غريب جداً، عجيب! كيف تشكله، كيف هو، آية من آيات الله.

ثم كذلك النار، هذه النار العجيبة التي تؤخذ من أشياء ساكنة ولا ضرر فيها ثم أنت تقدح بها النار فتكون آية وعظمة، ولذلك الجاهلون من أصحاب العقائد الشركية من اليونان يعتقدون أن أعظم ما حصل على الوجود هو سرقة سر النار، في الإلياذة اليونان يرون أن الذي سرق النار من -أعوذ بالله مما يقولون- من إله النار، للنار إله خاص عندهم لأنهم يعتقدون بتعدد الألهة وكل شيء في هذا الوجود يتوكل به إله، فيقولون بأن أعظم ما حدث هو سرقة النار، فبالتالي حافظ الإنسان على وجوده، الماء سر وجود الإنسان من غير الماء لا حياة، ومن غير النار لا حياة للإنسان وهما متضادتان، إذا اسقيت النار ماءً ماتت، فهذا سرٌ عظيم.

فضرب الله عز وجل بالماء والنار هذا المثل وجعله آية من آياته جل في علاه يتأمل المرء فيهما فيرى تضادهما ثم إذا تأمل وجد أنهما يفيدان معنى للمنافق، طبعًا هنا معنى المنافق انظر إلى تشبيه، أنه شبه الهدى والنور والوحي والروح ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا﴾ [الشورى: ٥٢]، والقرآن، شبهه بالنار وشبهه بالماء، النار مثل ماذا في ﴿اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ مثل ماذا كما سيأتي؟ النار هي مثل الحق الذي بعث به رسولنا صلى الله عليه وسلم، ومثل الماء هنا هو مثل كذلك ما بعث به رسولنا صلى الله عليه وسلم.

لكن كيف تعامل المنافقون مع هذه النار التي هي هذا القرآن، القرآن نار ولكن ماذا فيه؟ هذا هو سر المثل، وأراد أن يبين القرآن شيئاً من أحوال المنافقين، ولكن فيه من المعاني التي لا تنتهي، غير هذا المعنى، هذا المثل فيه تشبيه حال مثلهم أي كيف هم اشتروا الضلالة بالهدى فهذا مثلهم، لكن هل فيه معاني أخرى؟ فيه معاني لا تنتهي، سنتبين بعضها فقط من المعاني العظيمة وورائها.

قال تعال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)﴾ [البقرة: ١٦]، مثلهم أولاً ونحن قلنا في درس فائت أن هذين المثلين إما لحالين مختلفين وإما لحالٍ واحد والصواب أن هذين المثلين لحالين مختلفين خلافاً لمن؟ لإمام المفسرين ابن جرير، ابن جرير جعل المثل الأول هو عين المثل الثاني وإنما تنوع المثال من أجل البلاغة وشدة البيان، ولكن الصواب أن المثل الأول غير المثل الثاني كما سنبين.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٦-١٧]، طلب هذه النار أوقدها فلما أضاءت ما حوله ماذا كان في النار؟ كان فيها النور وهو المطلوب، إذن مقصد النار الأول هو النور، لكن فيها مقاصد أخرى، ففيها مقاصد لك ومقاصد كذلك تستخدم ضد خصمك، أنت تأخذ منها النور، تأخذ منها الاستدفاء، لكن هي بالنسبة لغيرك تحرق، وهل هي كذلك فيها نوع مشقةٍ عليك فيما لو أخذتها فقط للنور هل يمكن أن يصيبك منها شيءٌ آخر غير النور مما يؤذيك؟ هذا الذي أراده القرآن، هذا المعنى الذي اختفى هو الذي أراده القرآن، وهذا الذي جعل المنافقين يهربون

من النار، لأنهم أرادوا من النار نوراً بلا مشقة، ونوراً بلا إحراق لهم ونوراً بدون تحمل نتائج حمل هذه النار والاستهداء بها، هذا فيه مشقة.

ومن هنا تذكرون في درس الموافقات قلنا: «الشرع يبدأ بالتكليف وينتهي بالكلف»، بعض المشايخ اليوم المعاصرين كذلك أخذًا لكلمة ابن تيمية أن كلمة تكليف لم ترد في الكتاب والسنة، لكنكم تجدونها دائمًا في أصول الفقه، المكلف، التكليف، والتكليف فيه مشقة، هذا ليس فقط إنما يبدأ الأمر بالمشقة وينتهي بالكلف، ما هو الكلف؟ الكلف هو شدة الحب لغةً، فإن كان الشرع فيه مشقة وفيه تعب لكن نهايته هو الحب واليسر والتلائم بينك وبين هذا الشرع.

فهذه النار طلبتها من أجل أن تهديك ومن أجل أن تبصرك الطريق ومن أجل أن تستدفئ بها ومن أجل أن ترد بها العاديات، تضعها من أجل ما تقترب عليك الأفاعي والحشرات والدواب، فتستقوي بها على خصمك، لكن كذلك هي فيها شيءٌ من التعب، فيها شيءٌ من المشقة، هذه المشقة هي التي لم يلتفت المنافق إلا لها، لما جاء الشارع قال له: أنفق فهو لم يرى أن هذه رحمة له، أليس في الزكاة طهر، اسمها زكاة يعني اسمها طهر، يطهر بها المرء، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، هل أنت بحاجة لتطهير؟ إذن هي رحمة عليك أنت بحاجة، لكن بماذا نظر إليها المنافق؟ نظر إليها على أنها مشقة، نار حرقته، يمد يده يخرج المال الذي عمل فيه طول النهار يعمل هو الذي تعب ثم يعطيه إلى الفقراء قال: لا.

فلذلك الله عز وجل كان قادرًا أن يضرب مثلاً بالنور، نور وقد لا يكون فيه الإحراق، لكن ضرب مثلاً بالنار الذي يكون فيها النور لزوماً، ويكون فيها المشقة كذلك، فلم يلتفت المنافق إلا للمشقة، وهذه المشقة هي التي جعلته يقول بقائي في الظلمة أفضل، بقائي في الظلمة خير لي، هذا نفس المعنى الذي سنراه كذلك في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩] هذا نفس المعنى بالتمام، هذا المعنى لما قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩] ثم قال: ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩] هو بدأ به بقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾، يعني نافع، يصيب المراد، صيب أي أنه يصيب المراد من الإحياء، لكنه لم يلتفت إلى أنه يصيب المراد من الإحياء، ينزل ماء فتأخذه الأرض وتنبت به النباتات وتشرب به الدواب ويشرب به الإنسان وينتفع ويتنظف ... إلخ، لم يلتفت إلى كل هذا، لكنه رده لماذا؟ لما فيه من ظلمات.

وطبعاً سيأتي معاني أخرى بعض أهل التفسير قال معاني أخرى ونحن قلنا: لا يوجد آية واحدة تحمل معنى واحد، لا يوجد، هذا شيءٌ مهم، لم يقله فقط ابن تيمية رحمه الله فيما ذكرت قاله جمع من الأئمة، قالوا: لا يوجد آية واحدة وكلها حقائق لا يوجد آية تحمل معنى واحد، بل هل يمكن أن تحمل الآية المعنى الحق وضدها ويكون حقاً؟ الجواب:

نعم، هذه إن شاء الله نأتي إليها لما يأتي بعض صورها، تأتي الآية تحمل معنى وتحمل ضد هذا المعنى وكلاهما يكون حقاً، وهذا من بلاغة وإعجاز القرآن.

فقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾، اهتدى بها، علم الحق بها، ماذا قال؟ ﴿مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، انظروا هنا ﴿مَثَلُهُمْ﴾ فلما تم الاستيقاد كان من واحد، ولما تم الإعراض عاد إلى ضمير الجماعة، قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾، لأنه هو الذي استوقد، لكن أين هم؟ حالهم قال تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ عاد الضمير إليهم فهذا دليل على أن الذي استوقد غير هؤلاء، هذا المعنى قاله الفراء في «معاني القرآن» وهو معنى جليل، والفراء في «معاني القرآن» أراد البلاغة في القرآن ولا شك.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧)﴾ [البقرة: ١٧]، إذًا ما الذي حدث؟ حدث أنهم لإعراضهم عما فيه من النور ذلك لما فيه من مشقة النار ماذا؟ ولكن انظر إلى قوله، ما قال سبحانه وتعالى أظلموا على أنفسهم إنما نسب الفعل له، لماذا نسب الفعل له وقال تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، لماذا؟ مع أنهم هم الذين تركوا وأعرضوا عنه، لماذا؟ ذلك لجلال المأخوذ، ما المأخوذ؟ النور، لو أنه قال: أعرضوا عنه؛ لكان في ذلك ما يقدح في الذهن ربما لاحتقاره، وفي ذلك إيذاء لهذا المتروك، مهما كان لأنه هو الذي أعرض عنه، لكن لما كان الأمر المتروك جليلاً وعظيماً ولا ينبغي أن يذكر في هذا المعنى فقال تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾؛ ليدل على أنهم لما ذهبوا، الله عز وجل كأنه يقول: أنتم لا تستحقونه، بخلاف ما لو أعرضوا عنه لقالوا: نحن أعلى درجة منه ونحن في غنى عنه وفي ذلك تحقير له، مهما كان، فقال تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧]، وقال سبحانه وتعالى هنا لما رأيتم نسب النور إليهم قال: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧)﴾ [البقرة: ١٧]، انظر هنا هذا المثل لـ ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)﴾ [البقرة: ١٦]، هنا تركهم، خلاص.

وهناك دائمًا أهل العلم يقولون: «إن الفعل لا يقع إلا بشرطين بالفاعل والقابل»، ودائماً يمثلون هذا بنور البصر ونور الشمس، دائماً يمثلون في قضية القابل والفاعل أنه لابد من أمرين، يعني واحد أراد أن يشرب الزجاج ينفع؟ فوجد الإرادة منه، فوجد الفعل لكن هذا لا يصلح، وكذلك الآن لو وجد نور الشمس ولم يوجد نور العين هل يقع الإبصار؟ لا يقع الأبصار، ولو وجد نور العين ولم يكن هناك نور الشمس هل تقع الرؤيا؟ لا، فلابد من نورين، من نور البصر ومن نور الشمس.

ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، لماذا جاء النسبة إليهم وقال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾؟ مما يدل على بقاء النور، النور موجود لكن هم، هو ذهب عنهم، لما تقدم هم الذين اعرضوا عنه، ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ﴾، انظر وحّد –وهذه قضية أظن ذكرناها عند الصراط المستقيم وغيرها ولكنها مهمة– هنا وحد النور وعدد الظلمات، هنا

وحد النور، ما قال: بأنوارهم، قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾، لأن النور واحد، وهذا شرحنا أظن فيما تقدم شرحناه، وقال: ﴿ظُلُمَاتٍ﴾، ذلك لأن النور واحد، لكن الظلمات كثيرة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، قال تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧)﴾.

هنا إذن الذي وقع أنه جاء النور فاغلقوه منافذه على أنفسهم فانقلبوا إلى قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)﴾ [البقرة: ١٨]، انظر قال: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)﴾، إذن حال النفاق الأول هو الإقامة على النفاق، هذا المراد هذا المعنى الأول من معاني النفاق ومن أحوال النفاق وهو أن يصبح المرء مقيماً على النفاق، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ﴾ [النساء: ١٣٧]، خلاص، انتهى، أغلق عليهم.

قال تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)﴾، لا يرجعون إلى النور، خلاص لا عاقبة لهم إلا أن يموتوا على هذا النفاق الذي استقرت قلوبهم عليه، هذا نوع من أنواع النفاق، إذن النوع الأول من أنواع النفاق التي تشرحها الآية في المثل وهو النفاق الذي يقيم عليه صاحبه ولا ينقلب عنه إلى الهدى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾، من الذي ترك؟ يعني الله عز وجل ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧)﴾، عطل عندهم الآلة وهي آلة القلب والنظر.

قال سبحانه وتعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)﴾ [البقرة: ١٨]، الحديث كله يدور عن النور، ولكن هنا صاروا صم لا يسمعون، وبكم لا ينطقون، وكذلك عميٌ فهم لا يبصرون، طبعاً عميٌ فهم لا يبصرون، فالبصر شرحه لماذا يعود؟ لكن صمٌ بكمٌ لماذا؟ ما شرحها في هذا؟ شرحها أنهم لا يقبلون المواعظ التي تبين لهم عظمة هذا النور، فإعراض المرء عن النور هو حالةٌ نهائية لكنها مسبوقةٌ بإغلاق مصادر النظر إليه، يعني المرء يقول له: أذهب إلى النور، ما الذي يمنعه من الذهاب إليه؟ هو أنه أغلق منافذ الاتعاظ، من أجل قوله: ﴿لَا يُبْصِرُونَ (٩)﴾ ومن أجل قوله: ﴿لَا يَرْجِعُونَ (٣١)﴾، فلماذا لا يرجعون؟ لأنهم لا يسمعون المواعظ، فقال: ﴿صُمٌّ﴾، ذلك لأنهم لا يسمعون المواعظ التي تحملهم على الذهاب والاهتداء بالنور، و ﴿بُكْمٌ﴾ ذلك لأنهم كذلك على هذا المعنى الذي ذكرناه، وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)﴾، أي عن ظلمتهم إلى النور.

إذن هذه هي الحالة الأولى وهي كذلك بينة وواضحة إن شاء الله عز وجل.

قال سبحانه وتعالى بعدها: –ما زال المثل– ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)﴾ [البقرة: ١٩]، إذن المثل الأول كما رأيناه هو مثل يتعلق بالنار والاهتداء بها، مع ما في النار من مشاق وتعب، حمل النار ليس سهلاً، وهنا كذلك الأمر تعلق بالماء،

والماء عندما يأتي، وهذه قاعدة قدرية: «لا يوجد خيرٌ ليس محفوفًا بالمشقة، ولا يوجد خيرٌ ليس محفوفاً بالتعب، وليس هناك حقٌ غير محفوفٍ بالشبه»، هل هناك نعمةٌ بلا ابتلاء؟ طيب إذا كانت النعمة مادية فمشقتها مادية، وإذا كانت النعمة معنوية فمشقتها معنوية، ولذلك لا يوجد حق في الوجود إلا وهو محفوفٌ بالشبه، لماذا؟ فتنةً للناس.

فالآن القرآن الكريم الذي بين أيدينا، قال الله عز وجل: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، لماذا جعل الله المتشابهات فيه؟ من أجل إغواء من يريد الغواية، والله عز وجل لما رفع شأن يوسف عليه السلام ابتلاه أم لم يبتليه؟ ابتلاه بالغواية ولكنه صمد، كذلك الذي يريد الحق من القرآن ولا يريد الهدى لا بد أن تعترضه الشبه العلمية، كما تعترضه في حياته الشبه والشهوات المادية.

فالله عز وجل لما أنزل النار لتكون نوراً جعل فيها المشقة، ولما أنزل الماء من السماء ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ نافع، أي صيب مأخوذ من الإصابة، والإصابة هي إدراك المراد، قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾، إذن هو ماءٌ نافع يؤدي إلى إصابة المراد، فلما جاء هذا الماء لم يلتفتوا إلى ما فيه من حياة، ولم يعنيهم أن ينظروا إلى ما فيه من الخير، لم ينظروا فيه إلا إلى المشقة؛ مما جعلهم يعرضون عنه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾، هذا فقط، انتبهوا ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾، ويشبه الذي يترك الزكاة والصدقة حذر الفقر، والذي يترك الجهاد حذر الموت والذي يترك كلمة الحق حذر العقوبة، وهكذا، فكل حقٍ في هذا القرآن يتركه حذر ما يتعلق به من ابتلاء.

ولكن ما يهمنا هنا كذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ﴾، قال أهل العلم: عادةً الناس لا يجعلون أصابعهم في أذانهم يجعلون أناملهم، فلماذا قال: ﴿أَصَابِعَهُمْ﴾؟ لبيان الشدة، هذه لبيان اهتمامهم في أن لا يسمعوا شيئاً حتى أنهم لو قدروا على خرق أذانهم بكل أصابعهم لئلا يدخل لهم الحق لفعلوا، الأولى لها تعلق النار بماذا؟ لها تعلق بالبصر، هنا الكلام أي ﴿أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾، الكلام عن الأذن.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾، كلمة السماء أيها الإخوة الأحبة لابد أن نأتي إليها، كلمة السماء في القرآن، طبعًا تأتي السماء والسماوات، فإذا جاءت كلمة السماوات فهي لا تدل إلا على الخلق الذي هو خلق، التي يقال لها سبع سماوات، لأن كلمة السماء تأتي بمعنى على من السمو وهو العلو، فالسماوات تقابل الدنو فلأنها عالية فسميت سماوات، فلا يوجد كلمة سماوات في القرآن إلا ودالة على هذا الخلق الذي يُذكر في القرآن ويُذكر في السنة أنه سبع سماوات، لكن كلمة السماء قد تطلق على هذا وقد تطلق على غيره، كقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الأنعام: ٩٩]، المقصود به هنا ليس السماوات المقصود ليس السماء التي هي السماء الدنيا بمعنى التي هي سقف هذا الوجود، لأن –أنتم تعرفون– هذا الوجود سقفه السماء الأولى والسماء الأولى سقفها السماء

الثانية وهكذا، وصح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه (أن ما بين السماء الأولى للسماء الثانية خمسمائة عام ... إلى آخر الحديث، والعرش لا يقدره أحد).

فإذا وردت كلمة السماء لابد من النظر فيها أيُعنى بها الخلق الذي هو السماوات الذي هو سقف هذا الوجود ثم سقف السماء الأولى وهكذا، أم يعنى بها العلو؟ لابد من النظر إلى ذلك، فكلمة السماء في القرآن قد يراد بها هذا وقد يراد بها هذا، وهنا موطنها السماء ما معناها هنا ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾، المقصود بها العلو.

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾، هذه قاعدة لا تنساها ليست فقط للموعظة لا تنسى أن كل خيرٍ محفوفٌ بشبهته، كل خيرٍ محفوفٌ بابتلاء، فإذا كان علمياً كانت شبهاته وإذا كان غير علمي كانت بشهواته، قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩]، هذا هو في قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ [البقرة: ١٩]، وبعض أهل العلم قال لماذا قال: ظلمات ورعد وبرق؟ ترون ظلمات جمع مراد وهكذا يعني نفس المعنى الذي تقدم الظلمات كثيرة، الظلمات ما هي؟ يقول بعض أهل العلم: الظلمات طبقات، لا تكون الظلمة غلافاً واحداً تكون أغلفة بخلاف البرق شيء واحد، صوتٌ واحد وهكذا البرق هو شيءٌ واحد، بخلاف الظلمات فلا تكون إلا كثيفة وتكون الطبقات هكذا يقولون.

قال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾، قلنا يجعلون في أذانهم من الصواعق أن تصيبهم، طبعاً هو الصواعق هنا الابتلاءات التي تصاحب الخير والصيب، قال: ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾، ورأينا حذر الموت وحذر كل شيء يحذرون كل شيء.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)﴾، قوله: محيط بالكافرين، الإحاطة هي بلوغ الشيء من كل جوانبه، ما معنى محيط؟ يعني أنه متمكنٌ من الشيء من كل جوانبه، والإحاطة تطلق على إحاطة العلم، وإحاطة القدرة، وكذلك إحاطة الزمان والمكان، محيط، ولأن الإحاطة لا تكون إلا عن قدرةٍ واتساع فسمي ما يكون متسعاً محيطاً، لأن الإحاطة لا تكون إلا عن قدرةٍ واتساع، ولذلك جعلت كلمة المحيط تدل على السعة، وعلى الكثرة.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)﴾، يعني هذا الذي يفعلونه هل خرج عن قدرة الله أم أنه في قدرة الله وعلمه وسلطانه؟! الآن هو لماذا قال: ﴿مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)﴾، ماذا يقابل هذه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)﴾ رد على ماذا؟ رد على قوله: ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩]، قال القرآن: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ (١١)﴾ [القيامة: ١١] ما معنى وزر؟ مهرب، ومنه أخذت كلمة وزير، الوزير أخذت من هذا المعنى، ولها عدة معاني لكن من هذا، ذلك

لأن الملك يأرز إليه، ذلك لأنه الملك يلتجئ إليه فيكون وزير، أي لما تصيبه مشقة يستعين به، فقال سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ (١١)﴾ [القيامة: ١١]، أي ما في مكان تهرب منه بحيث تلتجئ إليه.

فلما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩]، هل خرجوا من قدرة الله؟ لا، فماذا رد عليهم القرآن؟ قال تعالى: ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)﴾ [البقرة: ١٩]، فقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)﴾ [البقرة: ١٩] رد عليهم، والحذر هو شدة الترقب، وعادةً لا يكون الحذر إلا من شيء يخافه المرء، كلمة الحذر لا تكون إلا من شيءٍ يخافه المرء ولا يرجو منه منفعة.

وهنا تأتي قضية الموت أيها الإخوة الأحبة، قضية الموت هي قضيةٌ قرآنية، ما معنى قضية قرآنية؟ الله عز وجل كشف لنا في القرآن بأن مشكلة البشرية تقوم على الخوف من الموت، كما أنها تقوم على الخوف من الفقر، ولذلك ماذا قال الله عز وجل لما أراد أن يبين مداخل الشيطان إلى آدم ماذا قال له؟ ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ [طه: ١٢٠]، يريد خلداً وكل ما تحدثه القرآن في مواطن النفاق، وكل ما تحدثه القرآن في مواطن الفتن التي أصابت المؤمنين إنما عالج مسألة الموت.

يعني بعد ثمانين آية تقريباً في سورة «آل عمران» عن عيسى عليه السلام وزكريا وآل عمران وبعدها في آيات كثيرة جاء إلى قضية غزوة أحد، في سورة «آل عمران» أين غزوة أحد في القرآن؟ في سورة «آل عمران»، ما هي مشكلة هؤلاء؟ ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦]، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وهكذا الحديث عن الموت، ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ [آل عمران: ١٥٧]، المشكلة في الموت الإنسان يخافها، يرتعد منها، والقرآن عالجها، جعلها أولاً: ليست مما يخاف، ولذلك هي بالنسبة للإنسان انتقال من حياة لحيا، صحيح هي ترك كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ [النساء: ٦٦]، كلاهما حالٌ واحد على نفس المعنى، ﴿اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾، الحال واحد، ما هو الحال؟ مفارقة الأحباب، هذا بتغيير المكان إلى الدنيا وهذا بتغيير المكان إلى الآخرة، فجعلهما حال واحد، صحيح أن هذا الموت هو شيء مؤلم، ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦]، فهو شيءٌ مؤلم.

ولكن هو بالنسبة للمؤمن معالجٌ معالجة طيبة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: ١٦٩]، نفى عنهم حتى صفة الموت، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾ [البقرة: ١٥٤]، سورة «البقرة» ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾ [البقرة: ١٥٤]، وآل عمران بعد البقرة نزولاً عند كثير من أهل التفسير، في البداية قال: ﴿لَا تَقُولُوا﴾ [البقرة: ١٠٤] نهى عن القول، وفي سورة «آل عمران» نهى عن الظن ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٩]، الحسب هو الظن، ففي الأولى نهاهم عن أن يقولوا وفي الثانية نهاهم عن أن يخطر في بالهم أن الذي يقتل في سبيل الله يموت.

فلذلك قضية الموت خوف المنافقين منها كبير، ولكن كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، يحبونها ولكن في النهاية الموت أمرٌ قدري لا انفكاك للمرء عنه، قال سبحانه وتعالى في سورة آل عمران ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)﴾ [آل عمران: ١٦٨]، الموت لا علاقة له باختيارك للفعل، يمكن أن تختار السلامة في بيتك فتموت، ويمكن أن تختار الإقدام على الموت فتنجو، العبرة هي بانتهاء الحياة، ولذلك قال: ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ما قال: الموت، ذلك لأن الله عز وجل قدر أن يموتوا قتلاً، فيموت قتلاً في المعركة وسيموت قتلاً فلو تركوا القتال في سبيل الله لفاتهم الفضل، لكنهم سيموتوا قتلاً وهم على فروشهم وهم في داخل بيتهم، ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، يعني ليس فقط في بيته وهو جالس ولكن وهو نائم، وهو مضطجع، وليس منه أي حركة ضد عدوه، وهذا الذي وقع، الذي يقع في تاريخ هذه الأمة أن كثيراً ماتوا وهم في مضاجعهم، والذين صدروا إليهم وقاتلوهم قضي عليهم الموت، والذين ذهبوا وخافوا وجلسوا في بيوتهم قضي عليهم الموت.

مسألة الموت هذه بالنسبة للمؤمن من الجهل أن يخافها، ولذلك أنا أنصحك ماذا تصنع؟ ادعو الله عز وجل أن يرزقك شهيداً، الشيطان سيخوفك أنا أعرف كلنا بني آدم، لكن تذكر شيئاً واحداً أنك ستموت، يعني بعض الناس يظن أنه إذا قال: اللهم ارزقني الشهادة كأنه يقول: أمتني، لا، هو فقط تطلب أنك حين تموت وينتهي عمرك ستموت شهيداً، أي أنت سينتهي أمرك، سينتهي أمرك، فأطلب الموت أن تكون شهيداً، وهذا فقط من أجل إذا حضر لك الموت أن يكون موتك فيه كرامة ومغفرة الذنوب ورفع الدرجات، هذه نصيحة.

فمسألة الموت بالنسبة في قضية القرآن مسألة محسومة وأعظم ما يقتدى به هنا رسولنا صلى الله عليه وسلم فإنه اختار الموت، ما اختار الحياة، خُير النبي صلى الله عليه وسلم بين الموت والحياة فاختار رفقة الرفيق الأعلى جل في علاه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩]، فالموت حينئذٍ يأتي قياس بعدها قياس، قياس الأولى، فإذا هم خافوا الموت سيخافوا الفقر، سيخافوا الضعف سيخاف قطع اليد سيخافوا الهجرة ... إلخ، فجاء بالموت ليكون تحته ما يخافه الإنسان، يكون تحت الموت ما يخافه الإنسان.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠]، قال أهل التفسير: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ ذلك لشدته، لماذا؟ ذلك لأنهم لا يرون إلا إياه، لنمثل في واقع لنرى كيف يخطف أبصارهم، الآن لما جاء الأحزاب إلى المدينة ماذا قال المنافقون؟ خطف أبصارهم أم لا؟ قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢)﴾ [الأحزاب: ١٢]، هذا الذي جاء وهو البرق، ماذا قال الصحابة؟ في قوله

تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ هل البرق إذا جاء كان حاله عند الناس مختلف، يعني المؤمن يراه فلا يرى فيه إلا النور والمنافق ينظر إليه فلا يرى إلا أنه خطف بصره؟ الجواب: نعم، وهذا الحال كما رأينا في غزوة الأحزاب، لما جاء الأحزاب إلى المدينة ما قاله المنافقون خطف أبصارهم، أذهب عنهم الرؤيا، عميت عيونهم لم يبصروا فيه الإبصار المطلوب، ولكن المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: ٢٢]،

إذن المنافقون لم يروا في النور إلا عماءً لأبصارهم، والمؤمنون لم يروا في النور إلا بصيرةً لقلوبهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾، بدل أن يضيء لهم، مثل ما عاد هو، ولكن هنا الكلام كله على فائدة الماء، والمثل الأول هو مثلٌ نار والمثل الثاني هو مثلٌ مائي ولكن الحال حديث عن النور.

قال سبحانه: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠]، الصنف الأول قال: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)﴾ [البقرة: ١٨]، لكن هذا ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠]، إذن هذا النفاق هو نفاق الحيرة والتردد، هل هذا يشبه المثل الذي ضربه الله عز وجل ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)﴾ [الحج: ٣١]، قال تعالى: ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾، هل يمكن أن تقيمه في النور؟ لا يمكن أن تقيمه لأنها شياطينه، لا يمكن أن تقيمه في النور ولذلك هم مشركون، بخلاف هذا النفاق تقيمه في النور حينًا.

وفقط للذكر وسنعيدها إذا الله يسر لنا ووصلنا إلى سورة «الحج» نسأل الله أن يُقدرنا على ذلك، الله ضرب للمشرك مثلين في سورة «الحج»، مثل المقلد ومثل المتبوع، وهذا سنأتي إليه إن شاء الله، فهنا قال: ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ هذا مثال على الرجل المتحير والذي هو مقلد، مقلد لهذا فمرةً هذا يحمله هنا وهذا هنا.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ﴾ هذا النور ماذا؟ خطف أبصارهم أعماها عن الرؤيا التامة الكاملة، ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾، فهذا حالهم، يأتيهم حبة إيمان فتراهم مع المؤمنين ويتكلمون بالحق ويقومون بمواقف الحق، ومرات تأتيهم أهوائهم فتحول بينهم وبين هذا الحق فيتوقفون عن قبوله ويقيمون في الظلمة، وهؤلاء في حيرة، كما في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ المنافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ العائِرَةِ بيْنَ الغَنَمَيْنِ؛ تَعِيرُ إلى هذِه مَرَّةً، وإلَى هذِه مَرَّةً).

فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠]، طبعاً المسألة كلها فيهم هم، الشر فيهم، ماذا قال سبحانه وتعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، أسألكم الآن الأعشى إذا قوي النور أبصر وإذا ضعف عليه ضعف، المسألة عندهم في قلوبهم مرض، أين الخطأ؟ في أنظارهم في أبصارهم، وإلا فالحق كبير، ويمكن هذا أن يحمل كذلك على ما هو نافع لهم وما هو ضار لهم، إذا جاء الدين النافع أقبلوا عليه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ

نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، فإذا جاء الخير جاؤوا مشوا فيه وإذا جاء البلاء توقفوا ولم يأتوا إليه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٠]، على الحال الأول، وهذا ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ لنا موقف معها أسأل الله عز وجل أن يقدرنا على بيانها في درسٍ قادم، بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد الله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: جزاكم الله خيراً، شيخنا إذا كان هناك مجال أن نرجع إلى موضوع الأمثال لنستفيد منها؟

الشيخ: أفضل من توسع الإمام الزركشي رحمه الله في كتاب «البرهان»، تكلم عن أمثال القرآن وكلام أهل العلم فيه كلام طيباً طويلاً جميلاً، فرأيته أوسع من تكلم فيها من أهل العلم وإن كان تجدها في أمثال الحديث النبوي يتكلمون عن أمثال القرآن وهكذا وهناك بعض الكتب المعاصرة في ذلك لكن أفضل من تكلم عنها هو الإمام الزركشي رحمه الله وجمع فيها كلام أهل العلم في بابها لأن الحديث عن الأمثال هو واجبٌ من واجبات المفسر أن يكون عالم بالأمثال، عالماً بسبيلها وطرق النظر فيها، وإن كان عليه ملاحظات.

مثلاً: البرهان ونقل عنه السيوطي هذا الكلام، في قضية الكشف عن أن هناك مثل ظاهر ومثل باطن، والحقيقة كلهم مثلوا بالمثل الظاهر ولم يمثلوا بالمثل الباطن، والظاهر أنه خفي وغير موجود.

السائل: هل تقام الجمعة في السجن؟ والمناطق النائية البعيدة عن المدن إذا اجتمع العدد هل تقام؟

الشيخ: هذا مسألة مهمة جداً وعلى الفقيه أن يعلم قواعدها الأصولية حتى لا يختلط عليه كلام مذاهب الفقه وكتب الفقه، للأسف نجد أن كتب الفقه تتحدث عن شروط للجمعة لا دليل عليها، مثلاً: بعضهم يشترط في المصر الجامع الجمعة وبعضهم يسقط الجمعة عن القرى والبوادي وغير ذلك، وبعضهم يسقطها في ديار الكفر بعضهم رأيتهم من يسقط الجمعة في ديار الكفر، وبعضهم يسقط الجمعة على أهل المحلة الصغيرة أو البادية المتفرقة، والآن نسمع من يسقط الجمعة بالسجون وهذا موجود في بعض الكتب الفقه والجواب:

أن كل هذه الشروط لم يرد فيها دليل يعتمد وإنما هؤلاء الفقهاء وأنا استعير هنا لما قلت لكم: «إنما الفقيه يؤصل عموماً ويمثل خصوصاً»، تذكرون هذه الكلمة، أعيدها لأهميتها حتى أعرفكم كيف تنشأ مثل هذه المسائل، لأن ما يهمني أنا هو التأصيل، لا يهمني أن أجيب، أستطيع أن أجيب بكلمتين وينتهي الأمر، ولكن هذا لا ينفعكم، ولا يفيد في الرد على الآخر، لذلك لابد أن نعرف التأصيل.

علمنا الإمام ابن تيمية والشاطبي، ابن تيمية في موطنين رأيته، والشاطبي في «الموافقات» بأن الفقيه إذا أجاب في الفتوى ربما تحكمه النازلة فيما غلب على ظنه من الصورة، فيأتي التابع يظن أن هذه الفتوى عامة لكل صورة، ومثال ذلك: رأيت لابن تيمية كلمة في رده على من زعم بأن البغاة فسقة، وقال: وإنما قال الفقهاء هذا الحكم، ما هو الحكم؟ أن البغاة فسقة قال: والسبب ذلك لأن من كتب عن البغاة من الفقهاء إنما حكموا بما شهدوا من البغاة

في أزمانهم، وبالتالي هم قالوا: البغاة فسقة؛ لأنهم رأوا أغلب البغاة فسقة، وقد يكون الباغي بما هو عند الفقهاء الخارج عن الإمام العدل بتأويل قد يكون أكثر ورعاً من الحاكم نفسه.

ولما جاء إلى قضية حكم الحمام للإمام أحمد لما فصل، والظاهر أن هذا السؤال كان في حديث يدور يعني وجدته في مواطن كثيرة في الفتاوى لابن تيمية وهذا شرحته في «الموافقات» ولكني أعود إليه للضرورة هنا من أجل أن أبين هذه المسألة لأهميتها، حتى تؤصلوا، لا تهتموا كثيراً لتفريعات كتب الفقهاء في هذه الأبواب، لا تهتموا، ولكن أرجعوا إلى أصول مباحثهم فيها، لما جاء ابن تيمية إلى قضية حكم ابن تيمية في دخول الحمام، قال: وإنما حكم الإمام أحمد على الحمامات بما علمه من عصره وبما تصوره في غيره، وغاب عنه ما لم يتصوره.

إذن الفقيه لما يأتي يقول مثلاً عن الجمعة: الأصل أن الأحكام الشرعية –هنا الآن نبدأ بالتأصيل– الأحكام الشرعية مبناها على القدرة ولقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وهذا أخذها أهل العلم على الأحكام، وأما في قولي تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، –هذه إحدى وجوه التفسير، نحن ما زلنا في هذا العلم الجليل– أخذوا قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] على العقائد والمسائل اليقينية، فهذه يجب أن نأخذها على حق تقاته، وأما على الأحكام فإنما هي مبنية على الاستطاعة، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، ولذلك قال في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عن شيءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا منه ما اسْتَطَعْتُمْ)، ذلك لأن الكف لا يحتاج إلا إرادة عدم الإرادة، الكف لا يحتاج إلا إيقاف الإرادة، بخلاف الفعل يحتاج إلى إرادة وقدرة، فإرادتك موجودة ولكن عليك أن تكف عن هذه الإرادة بالفعل والقدرة، أما النهي لا يحتاج للقدرة مجرد عدم الإرادة، الفعل يحتاج إلى قدرة وإرادة، فلما كان الفعل يحتاج إلى قدرة وإرادة قال: (فأتوا منه ما استطعتم)، أي ما تعلق بالإرادة أم ما تعلق بالقدرة؟ تعلق بالقدرة، لكن النهي الترك هل يحتاج إلى قدرة، هو الترك أصلاً عدم القدرة، ولذلك تعلق الأمر بالإرادة فقال: (فانتهوا)، خلاص ما تقربوا بالمرة.

إذن الأحكام الشرعية مبنيةٌ على القدرة، الأمر على القدرة، لما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، مبني على القدرة، الجمعة واجبةٌ على كل مسلم كما في الحديث فمبنيةٌ على القدرة، قوله صلى الله عليه وسلم: (مَن تَرَكَ الجمعةَ ثلاثَ مرَّاتٍ تهاونًا بها، طبَعَ اللهُ على قلْبِه) فإذن هي القدرة، إذن حيث قدر المسلمون.

نأتي إلى شروطهم في قضية العدد والصواب لنحسم المسألة من الابتداء مع أن هذا الكلام موجود عند أهل الفقه لكن الصواب أن التجميع كالجماعة، يعني تقوم بإمامٍ خطيب ومأموم، لعدم وجود الدليل، قول أربعين كالشافعية، قول اثنا عشر كما قال بعض الفقهاء قول ثلاثة ... إلخ، خلاف طويل بينهم مشعب ولا يوجد دليل نصي عليها، فلذلك صلاة الجمعة هي صلاة جماعة، فشروطها صلاة الجماعة فحيث وجدت القدرة يجب على المسلم أن يعملها،

إلا من كان معفوًا عنه كالنساء، النساء غير مطالبات بالجمعة، العبيد غير مطالبين بالجمعة، المسافر غير مطالب بالجمعة مع خلاف المسافر مستوطن أم غير المستوطن، كما يقول ابن تيمية كما هو في فقهه في هذه المسألة.

إذن هي مبنية على القدرة، مبنية على وجود إثنين، فحيث تخلفت القدرة حينئذٍ يأتي الفقيه –هنا الجواب– يأتي الفقيه ليتصور غياب القدرة في هذه الحالة فلذلك يسقط الجمعة عن هذه الحالة لتصوره بعدم وجود القدرة.

الآن نأتي إلى الأمثلة: مثل السجن، السجن قديماً إما أن يوضع رجل في جب كما وضع الإمام السرخسي، السرخسي وضع في جب ومرات يقول في بعض النصوص له في كتابه «المبسوط»، يقول عن نفسه: المحروم من الجمعة والجماعة والشهود، محروم من الجماعة لماذا؟ لأنه وحده في الجب جالس لوحده.

وقد يوضع السجين لوحده نقول له الآن: مثلاً: واحد فقيه لم يسجن، فيأتي إليه الناس يقولون له كيف وضع السجن عندكم؟ يقول: وضع السجن عندنا كل واحد يوضع لحاله، يعني السجن في أوروبا لا يوجد، لمثلنا المسلمين إلا ويضعون السجين لوحده، قليل جداً طبعا ليس للمسلم وليس المتهم بالإرهاب هذا مئة بالمئة لا، أما السجناء الذين عليهم تهم بسيطة جداً ، واحد سارق خمسين دينار يضعوهم مع بعض إثنين ثلاث ممكن، لكن أصحاب الجرائم الكبرى والمتهمين بالإرهاب لا بد لوحده، فيأتي البقية يقول: هل علي جماعة، يقول: ليس عليك جماعة، لأنه ليس عندك قدرة، فيسقطها لتصوره للحالة.

لما يأتي أحد للبوادي ينظر إلى البوادي في عصره فيرى أن البوادي رجل موجود بخيمته هنا، ورجل آخر في خيمته بعيدة ولو أذن مؤذن لما استمع أهل الخيمة آذان الخيمة الأخرى، فيقول: أهل البوادي ليس عليهم جمعة، لماذا لم يقل عليهم جمعة؟ هل لنصٍ لديه؟ لا، لأنه ينزل هذا الحكم على القدرة كما يتصورها، أرجو أن أكون قد أجبت، العبرة بالقدرة فحيث وجدت القدرة فتجب صلاة الجمعة.

لو أن رجلاً مع رجل لم يقيموا الجمعة لاستحق العقاب، ولكان الإثم على هذين الإثنين أما يقال: ديار الكفر، الآن ديار الكفر وبعضهم كان يحتج بديار الكفر يرجع إلى نص يعجبه، أصحاب الهوى، يرى أن من في ديار الكفر لا جمعة عليه، وهو في الحقيقة الجمعة هناك تقام والناس يأتون إليها وو ... إلخ، يعني الآن لو حكمنا على ديار المسلمين بديار الردة كذلك يسقط الجمعة ويتلاعب، لا هذه ليس علينا جمعة، هذا كله باطل، العبرة بماذا؟ بالقدرة، وهكذا هو الأمر الشرعي إذا أطلق لا يجوز تقييده من جهة النفس ولا الهوى لأن التقييد كذلك هو من أحكام الوضع والحكم الوضعي لابد أن يؤتى بدليله، المنع لابد أن يؤتى بدليله وهكذا، والشرط لابد أن يؤتى بدليله، وركنه لابد أن يؤتى بدليله ... إلخ.

السائل: شيخنا في حديث مُشكل عندي الذي هو حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه في يوم جمعة أمر المؤذن أن ينادي صلوا في رحالكم، الآن الذي يصلي في رحله ويوجد عدد الجماعة يعني اثنين، فهل يصلوا كل اثنين جمعة في رحل واحد؟ وقال: (إنما الجمعة عَزمة من عزمات ربنا)، **فهل كل اثنين في رحلهم ممكن أن يصلوا أو في بيوتهم؟**

الشيخ: لا، هنا الكلام المقصود على المقيمين أم على المسافرين؟ الكلام في المدينة، فكلمة الرحل هنا إنما أشارت للبيوت ناس جالسين في بيوتهم.

السائل: مثلاً يوم كان فيه ثلج لا يستطيع الإنسان أن يصل إلى المسجد؟

الشيخ: الجمعة بما تقام؟ تقام في المسجد ويؤذن لها ويدعى إليها، يعني لو أن رجل في بيته إذا أسقطت الجمعة هذه فلا تحمل على من تركها لعذرٍ شرعي، كالمسافر الذي يقيم مستوطن أو كالذي سقطت عليه بسبب المطر أو بسبب المشقة، فالناس في بيوتهم.

السائل: المسجد بجانبه في السجن يعني هو في السجن ويسمع صوت النداء في الخارج ولكن ما يستطيع يذهب وفي جماعة؟ يعني لماذا لا يقاس في وضع المطر؟

الشيخ: الجواب: لأنه لو تتابع ترك الجمعة لتركت بالمرة، بخلاف أن تترك مرة لعذر وأن تترك مرتين لعذر، لكن هذا دوام للمدة، فذلك يؤدي إلى ترك الجمعة بالمرة، لماذا يقاس عليها وجود ناس مجتمعين، ألا يصلون جماعة هؤلاء؟ فلماذا لا يصلون جماعة؟ هل صُليت الجمعة قبل المسجد أم لا؟ حديث أسعد بن زرارة جمّع بهم قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم قبل بناء المسجد، فجُمّعت بهم قبل المسجد، فالمسجد ليس واجباً، إنما أسقط عنهم الرجل في المسجد الناس يعتدون في المسجد، يقول لهم: لا جمعة صلوا في بيوتكم، هذه حالة أخرى، أما الناس في مكان مجتمعين على حالتهم ولا يمنعهم مانع وليس هناك من شرط يتخلف الشارع ليس هناك من شرط إلا إذا قال أحدهم: بأن المسجد شرط، وما أظن أن هذا يصح وحديث أسعد بن زرارة في ذلك ردٌ عليهم، والله أعلم.

إنما للأسف هذه صارت حتى أن أحدهم سمعته، عجيب!! يزعم أن هناك صلاة اسمها صلاة السجين، هذا جاهل وتعجبت أنها منسوبة إليه وألف فيها رسالة وزعم أن صلاة السجين مأخوذة من قوله: «حبسنا الثلج»، فأنزل كلمة حبسنا على السجن، يعني يجوز القصر عند الثلج، ما المقصود بحبسهم؟ منعهم، حبسهم منعهم عن ماذا؟ يعني أقامهم مقام المسافر، والسجين لم يمنعه مقام السفر، فهذا خطأ وهذا من الجهل.

السائل: المنافق المعلوم النفاق ويقيم أركان الإسلام الخمسة جبراً في أرض تطبق فيها الشريعة، كأبي بن سلول هل يورث وهل يدفن في مقابر المسلمين؟

الشيخ: الجواب: نعم، الجواب: أن النبي صلى الله عليه وسلم ما دام أنه لم يقم عليه حكم الردة ولم يثبت عليه حكم الردة حكماً صريحاً بيناً بأدلةٍ بينة، فالإجماع منعقد على أن المنافق تجري عليه أحكام الإسلام، لكن هناك مسألة أشار إليها شيخ الإسلام رحمه الله من علم كفره على الحقيقة، فهل يرثه؟ الجواب: لا، فنحن نتعامل معه معاملة المسلمين، لأن هذا هو ظاهره لكن رجل علم أنه كافر، وأنه لا يؤمن بالله ولا برسوله وأنه كذا، هل يجوز أن يرثه؟ الجواب: لا، وهذا ثبت عن جماعة من أهل العلم أنهم تركوا إرث آبائهم لهذا السبب.

السائل: شيخنا شرح حديث في الصحيحين قال صلى الله عليه وسلم: (لَوْلَا بَنُو إِسْرَائِيلَ، لَمْ يَخْبُثِ الطَّعَامُ، وَلَمْ يَخْنَزِ اللَّحْمُ، وَلَوْلَا حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا الدَّهْرَ).

الشيخ: طبعاً تخن ليس على المعنى الزنا نعوذ بالله، لأن قول ابن عباس رضي الله عنه: «ما زنت امرأة نبيٍ قط»، فقوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، يعني على التوحيد، وهذا شرحه يطول وفيه رد أنا شرحته في تفسير سورة «الإسراء»، وفيه رد على الشيخ محمد الغزالي في كتابه السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، لكن لا بأس.

ابتداءً النبي صلى الله عليه وسلم لما أمر بقتل الوزغ؟ لأنها كانت تنفخ على إبراهيم عليه السلام، لماذا قال الله عز وجل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [المائدة: ٣٢]؟ لماذا قال صلى الله عليه وسلم: (إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من سأل عن حكم شيءٍ فحرم لمسألته)؟ هو كان الناس ساكتين ولذلك قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، ولذلك قالوا لا تسألوا اتركوها.

وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (ما أَحَلَّ اللهُ في كتابِه فهوَ حَلالٌ، وما حَرَّمَ فهوَ حرامٌ، وما سَكَتَ عنهُ فهوَ عَفْوٌ)، فإذا سُئل ربما يحرم فيقع الإثم العظيم، المشايخ بعضهم زعم لم يفهم قضية الابتداء أن الابتداء مهم جداً، وأن الأمم إنما تورث الأخلاق، الآن بني اسرائيل لما الله عز وجل بعد أن حكم عليهم بعد قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)﴾ [الأعراف: ١٦٦]، ثم قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧)﴾ [الأعراف: ١٦٧]، ما دخل الأجيال التي بعدها فيهم؟ ذلك لأن الأخلاق تتوارث، الأخلاق في المجتمعات تتوارث، وهذا بيّن تقول: قبيلةٌ كريمة، وقبيلةٌ بخيلة، القيم تتوارث هذه نقطة فقط في الباب أن القيم بسبب انغلاق المجتمعات تتوارث إلا إذا فتحت المجتمعات ودخل فيها مجتمعات أخرى، ولذلك قال ربنا عز وجل: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦]، لماذا؟ لا يوجد لهم صلة مع الآخرين، أربعين سنة تاهوا في الأرض لم يصادفوا غيرهم فبقوا عما هم فيه من الشر واستقر هذا الأمر فيهم، وبالتالي لماذا؟ السبب هو وحدة الاعتقاد.

ما هي وحدة الاعتقاد؟

أولاً: للقرب والصلة وقبلها لوحدة الاعتقاد، هل الذي أنشأ الفساد في بني اسرائيل من الاعتقاد فيما ذكره القرآن موجودٌ في الأجيال يتوارثونه أم لا؟ موجود في الأجيال ويتوارثون، الفكرة واحدة إذن المنهج الذي استقوا منه واحد فبالتالي أي لما يقول ربنا عز وجل: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، هذا الذي أحرص الناس على حياة ما الذي أوجده؟ هو دين يتوارث، هو حِكم، إما تفسير آيات عن المعنى الباطن كقولهم: أنهم شعب الله المختار، نحن أحباء الله نحن أبناء الله وأحبائه، فيتوارثونه هذا ويرون أن المال ... إلخ، فهذه العقائد تتوارث، العقائد إذا توارثها الأبناء عن الآباء صنعت نفس المنهج وبالتالي: تصبح بعد هذه العقائد التي تورث هذه المعاني: اتصال فقط داخلي في داخل المجتمع، مثل كيبوتس يتوارثونه.

وما الذي جعل العربي في صحرائه يتوارث منذ عهد إسماعيل عليه السلام يتوارث الكرم والشجاعة هو انغلاقه عدم اتصاله بالآخرين، فهذا دين يتوارثونه وحكم يتوارثونها تصنع فيهم هذه القيم وعدم اشتراك الآخرين فيهم –هذا المهم– فلذلك لما واحد يقول: ما دخل المتأخر بالمتقدم؟

النقطة الثانية: التي لم تفهم وهي قضية أن الله عز وجل أوجد لكل أمرٍ مبتدا –نحن لو أجبنا أسئلة كثيرة أفضل من هذا لطوله– نحن رأينا أن الإنسان نزل إلى الأرض بمعصية آدم عليه السلام، الآن هل لأحد أن يعترض؟! وذلك لما تحاجا آدم وموسى عليهما السلام من الذي غلب؟ آدم قال له: أنت تعلم ما فعلت ولكن بما رأيت أن هذا مكتوب قبل أن أخلق، قال له: خمسين ألف سنة، فحج آدم موسى.

الآن بنو إسرائيل أصابوا أول شر حصل لهم بالابتداء أنهم أهل شر، لكن الآن نأتي إلى البقية الذي هو قوله صلى الله عليه وسلم: (لولا بنو اسرائيل لما خنز اللحم)، ما دخلك أنت في الخنز، هم خنزوه لأن الله عز وجل أنزل عليهم المن والسلوى فحبسوه فحصل الفساد، عقوبةً لهم ولم يكن قبل ذلك يخنزوا اللحم لماذا؟ لأنه يأكل، ما في حاجة، فلما عاقبهم الله بضدهم.

لكن الآن السؤال هذا الذي جرى إنما أراد الله عز وجل في كل شيءٍ أن يجريه سنةً لها مبتدأ، هذه حكمته، فابن آدم الأول، قال تعالى: ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)﴾ [المائدة: ٢٧-٣٠]، قال صلى الله عليه وسلم في الصحيح: (لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأوَّلِ كِفْلٌ مِن دَمِها؛ لأنَّهُ أوَّلُ مَن سَنَّ القَتْلَ)، عليه الأول لأن هو الأول هو الذي شرعه، فالذي يشرع عليه إثم كل أحد، لكن الذي يقتل هل عليه الكفل كل واحد؟ عليه قتل قتيله الذي قتله.

كذلك نفس الشيء لما خنز اللحم، أنت ما دورك؟ هذا شيء وقع عليهم من الأول هكذا جرت سنة الله عز وجل أن كل شيءٍ لابد له مبتدأ ويتحمل إثم هذا الابتداء لأنه شرعه وأتى به، لقوله صلى الله عليه وسلم: (من سن سنة حسنة فله أجرها)، هذه تجري عليه، لكن الذي يفعلها لماذا أنت تعترض؟ يعني لا يجوز لك أن تعترض وتقول: يا رب أنا لا دخل لي في نزول آدم، وأرجعني إلى الجنة، كأنك على قاعدة عمر الخيام، ما هي قاعدته في شعره في رباعيته؟

لبســـت ثوب العيش لم أســـتشـــر وحـرت فـيـه بـين شـــتى الـفـكـر

ما دخلك أنت؟! هو الله عز وجل أجرى أنه سيخنز اللحم لكن خنز اللحم لابد له من ابتداء يفعله، هذا المبتدا عليه إثمه، لكن أنت ليس عليك أن تعترض، أنت تقول: أنا نزلت إلى الأرض، ما دخلي أنا أرجعني امتحني أنا كما امتحن أبي، لا ليس دخلك، عليك فقط أن تنجو هذا قدرك الذي أنت فيه عليك أن تتعامل معه وهذا القدر لا إثم لك فيه، أنت لست حاملاً لإثم أبيك كما تقول النصرانية، الذين يعترضون عليها يعترضون عليها من جهة قدرية.

وهنا فقط لئلا أطيل أكثر من هذا، أقول كلمة: إن عامة شرك البشرية منشأه الاعتراض على القدر، هذه الكلمة يجب أن تفهم، واحد يقول: وهذه لا يقولها إلا الفسقة والمجرمين والكفرة من المسلمين الذين ارتدوا، لكن الغرب لماذا لا يؤمن بأن الله يدبر الكون؟ يعني ما المنشأ الذي جعل الغربي يقول بالعلمانية إني أنا سأضع التشريعات؟ والله لا دخل له، من أين نشأت هذه الفكرة عند الغربي؟ نشأت لديه لعدم اعتقاده أن الله عز وجل بعد أن خلق الكون أداره على وجه رحمته وعدله، يقول هؤلاء الكفرة: إنما نراه في الكون يدل على أن الله لا يديره على وجه العدل والحكمة، إذن هو ليس له دخل فيه، فلنجري العدل والحكمة بإرادتنا، لأنهم يعترضون على قدر الله عز وجل.

والله عز وجل خنز اللحم وأخبرنا خنز اللحم ما الذي تعترض فيه؟! ما الذي تراه غير عادل؟! إلا إذا اعترضت على القرآن لماذا أنزلنا الله؟ لماذا أنت الآن في الأرض؟ لو احتج محتج يوم القيامة على رجل يقول: هؤلاء جماعة الصحراء من العرب هؤلاء تدخلهم الجنة لمجرد أنهم نشأوا مسلمين عن جدتك التي لا تعرف دارون ولا تعرف أحدا ولا تعرف دنيا ولا تعرف قدر، نشأت بسم الله والصلاة على رسول الله ولا إله إلا الله وتصلي ودخلت الجنة، وذاك يقول: ولكن أنا مطلوب مني حتى أسلم أفكر، والجدة هذه العجوز التي هي لا تفهم في الدين كان مطلوب منها أن تُسلم لتدخل الجنة، انظر، الغربي مطلوب منه ليكون مسلماً أن يبحث ويفكر، وجدتك أنت مطلوب منها لتدخل الجنة أن تُسلم لما هي فيه فقط، هل يجوز لأحد أن يعترض؟! وإلا لبطلت الشريعة.

للأسف هؤلاء يفتحون هذه الأبواب في رد الأحاديث التي تؤدي إلى رد الشريعة في أصلها وهم لا يفهمون، خانت زوجها هي التي في الحديث يمكن أن نفسر خانت زوجها يعني دفعته، والمرأة عادةً لبخل المرأة لجبنها لخوفها

على نفسها تدفع الزوج تقول له: بلا زكاة بلا هم يا رجل فهكذا تفعل المرأة عادةً، وإن كان هناك نساء خير من الرجال.

السائل: يسأل عن الجزء الثاني من الحديث؟

الشيخ: نعم، قلت لك بأن الوراثة، أي أن الله عز وجل خلق المرأة على هذا المعنى فهذا المعنى توارثه جيلها من أبناء جنسها، يعني الآن الجيل يحمل جيله، أنت الآن أليس في نفسك من الأمور ما هي في نفس آدم؟ يعني ألم تخلق أنت على جهة آدم؟ من الحب والبغض وكذا؟ وكذلك المرأة خلقت على جهة حواء فما جرى من حواء في دفع زوجها للمعصية سيجري على أمثال بناتها لأنهن من جنسٍ واحد لكن وسعت لك الباب لما ذكرت لك أنهم يتوارثون بسبب الاعتقاد وبسبب البيئة وكان ينبغي أن تُفهم.

السائل: قلت يا شيخ أنه الراجح كفر تارك الزكاة لكن هناك حديث في الصحيحين وهو أن تارك الزكاة يأتي ويطوق بشجاع أقرع ويعذب حتى يرى مكانه إلى جنةٍ أو النار.

الشيخ: أنا ما أريد أن أجيب عن الحديث، لكن انتبهوا هذه القاعدة –وإن شاء الله أشرحها في موطنٍ آخر– إذا ثبت الشيء إياكم أن تنظروا إلى معارضته، في مسائل الاعتقاد لا تنظروا إلا إلى الدليل الموجب، لا تنظروا إلى الدليل النافي.

الأحكام، العقائد، المهم الذي يُنشئ دليل الاستشهاد ما هو؟ الدليل الموجب، دليل اعتراض كل ما نشأ من البدع ومخالفة الحق إنما نشأت بأدلة الاعتراض موجودة، وهذا سنأتي به، نصوص كثيرة سأمثل لكم لو وافقنا هذه الأدلة على هذه المعاني على اعترضها على ما أُصل من نصوص لبطلت نصوص كثيرة وفسدت نصوص كثيرة ... إلخ.

فالمهم في هذا الباب –اختصر– انظروا إلى الدليل الموجب فهو الذي ينشئ الحكم وينشئ الاعتقاد وينشئ التصور، وبعد ذلك نأتي إلى ما يسمى بالتأويل على طريقة الفقهاء وليس على طريقة المتكلمين، يأتي إلى الدليل إلى الدليل النافي، الدليل النافي تبع للدليل الموجود.

فقط للذكر هذه القاعدة الدليل الموجب، السؤال هل يوجد اعتراضات على نبوة الأنبياء أم لا يوجد؟ لكن هل يلتفت لها؟ لا يلتفت إليها، الخوارج نظروا إلى أدلة الاعتراضات، المعتزلة نظروا أدلة الاعتراضات، الأشعرية نظروا أدلة الاعتراضات، أدلة الاعتراضات هذه لا تنتهي، أنت ستأتي بهذا النص وأنا عندي نصوص كثيرة تخالف هذا الموجب، لكنها لا ينبغي أن ينظر إليها بقوة دليل الاستشهاد، ولذلك دائماً أقول لكم كما شرحت بالموافقات: الأدلة ثلاث أنوع:

النوع الأول: استشهاد.

النوع الثاني: التضاد

النوع الثالث: رد الاعتراض، وهذا أضعفها.

السائل: قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، **ما معنى** ﴿حُمِّلُوا﴾ **هنا حفظوها لفظًا أم فسروها معنى؟**

الشيخ: وجد في القرآن كل هذه المعاني، يسأل الأخ يقول: حملوها لفظًا فلعبوا بها؟ نعم، قال تعالى: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩]، فكذبوا في لفظه وكذبوا في معناه وتأويله على الجهتين.

السائل: قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١]، **ما معناها؟**

الشيخ: أي لمقصد، لحاجة، و ﴿عَلَى حَرْفٍ﴾ لها بلاغتها، ولكن يكفي هنا أن نقول: المقصود أي لحاجة.

السائل: حكم تارك الصلاة تكاسلاً أو إنكارًا؟

الشيخ: هذا بلا شك إجماع الصحابة على كفره، عندي من ترك صلاةً واحدة كفر ويسلم بالصلاة، أي رجل ترك صلاة العصر كفر، صلى المغرب أسلم، هذا التنزيل، الناس متعجبين كيف يعني يذكر!! لو مات وهو تارك للصلاة يعني دخلت عليه صلاة المغرب ولم يصلي المغرب مات كافرًا، متعمدًا بلا شك، نحن لا نتحدث عن الناسي ولا النائم، هؤلاء لهم أحكامهم كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها ليس لها كفارة إلا ذاك)، والحديث في الصحيح، إنما هنا من ترك صلاةً واحدة فقد كفر ويسلم بالصلاة؛ لأن الباب الذي يخرج منه من الإسلام عليه أن يعود من نفس الباب.

وأما ردوا بعضهم على أن الحاكم إذا قضى، –ماذا نصنع مع الناس، إذا كان المشايخ ودكاترة الشريعة جهلة فماذا نصنع ببقية الناس؟ – أنا أقول: إذا قضى القاضي في مسألةٍ إذا واحدة على خلاف الشرع وهو يعلم فهو كافر بهذا، إلا أن يسلم ويتوب إلى الله، فجاء بعضهم وأخذ كلامي على الحاكم الظالم والحاكم الجائر وهذا كله من الجهل، القائل الحكم إما أن يدخل فيه الفعل دخولاً أوليًا وهو فعل القاضي دخول أولي، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾ [المائدة: ٤٤].

فلو أن مفتيًا سأله سائل فأجاب بغير حكم الشريعة وهو يعلم طبعًا نضع دائمًا وهو يعلم حتى يخرج منه الجاهل ويخرج منه المجتهد، فأجاب بغير حكم الشريعة فقد كفر، انتبه! أفتى له هذا كفر يخرج من الملة، لكن السؤال: لو أن هذا القاضي زنا يعني لو جاءه رجل سأله قال: ما حكم الزنا؟ رجل جاهل من بادية لا يعرف الزنا، ويتصور أن الشرع

يمكن أن يجيزه، كما الرجل جاء حله ليرى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال للقاضي أو للحاكم المفتي قال له: ما حكم الزنا؟ قال له: حلال، القاضي كفر وخرج من الملة بهذا الحكم، هذه مسألة.

ومسألة القاضي لو زنى لا يخرج من الملة، لكن السؤال -هنا نأتي إلى هذه المسألة هل القاضي لما زنا أو الإنسان المسلم لما زنا قد حكم؟ الجواب: نعم، لكن الدخول في كلمة الحكم يدخل فيها دخولاً جزئيًا، وإذا دخل الفعل في الكلمة دخولاً جزئيًا لحقه الحكم دخولاً جزئيًا.

ماذا قال ابن حزم؟ قال: فمن عمل فقد حكم، وهذا من مزلق الخوارج، مزلق الخوارج أخذوا كلمة الحكم على من عمل فعمموا لها الحكم الكلي، وهذا خطأ، حاكم ظلم، دخل عليه رجل فوعظه وأمره بالشرع فقام وظلمه هل يكفر؟ بالإجماع لا يكفر، لو أن الحاكم مسك رجلاً -كما أي واحد حاكم أو قاضي أي مسلم- مسك رجلاً ظلمًا في الطريق وخلا به وقتله، أو لم يخلو به وقتله أمام الناس، فهل يكفر، هذا لا يكفر، من قال من أهل العلم أنه يكفر؟ هل يختلف الحكم من كونه قاضي أو من كونه حاكم أو من كونه إنسان عادي لا قاضي ولا حاكم؟ هل يختلف الحكم؟ الجواب: لا.

لكن لو سئل القاضي، لو جاءه رجل وقضى بغير الشريعة، طبعًا غير الشريعة إما لأمر نفسي لا نعرف عنه فيكون كفره داخلي ويمكن، يعني يأتي رجل فيعلم القاضي علمًا يقينيًا أن هذا الرجل قد زنا، والأدلة قائمةٌ عليه، فتلعب بالأدلة حتى لا يحكم عليه بالشريعة، هذا كفر، عندنا بالنسبة لنا متأول لأننا ننظر إليه أنه متأول، ننظر إليه أنه مجتهد، لكن هو في داخل أمره وقد علم حكم الله فيه فحكم بغير حكم الله فهذا ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾ [المائدة: ٤٤]، هذا كافر. هذا قول، هذا قول من؟ هذا قول ابن مسعود رضي الله عنه، وقد صح عنه، ابن مسعود رضي الله عنه يُسأل عن قضاء الحوائج في الحق فيقول: ذلك السحت، يأخذ هدية ليقضي حوائج عند السلطان أي يتوسط له بالحق، قال: هذا السحب، السائل يسأل ابن مسعود رضي الله عنه يقول: كنا نظن أن هذا في الحكم، يعني بمعنى يعطيه الهدية من أجل أن يحكم بغير شريعة، قال: ذلك الكفر، أن يعطى القاضي هدية من أجل أن يحكم بغير شريعة، قال: هذا الكفر، وهذا هو مذهب ابن مسعود، هذا ليس من الخوارج ولا الجهل ولا كما يزعم عدم الفهم.

القصد من هذا: فرق بين جائر وظالم وعامل وبين حاكم وقاضي ومفتي، أما مثلاً قد يقول قائل: ما هم الحكام كانوا زمان يبررون أفعالهم بالشريعة؟! إنهم يتأولون، انتهى الموضوع، وهذه الاعتراضات الكثيرة واحد يأتي يقول: يعني تريد أن تقول لي أنه لما قتل العباسيون الحكام مثل أبو عباس السفاح قتلوا الأمويين فيما يذكر، فهؤلاء قتلوا ولما يُسألوا لِمَ قتلتموهم؟ يقولوا: هؤلاء مجرمون، هؤلاء أفسدوا، هؤلاء كذا، تأولوا انتهى الموضوع وخرجنا من القضية.

كما أن القاضي يأتيه الرجل فيأمر بقطع يده ولا يكون السارق الحقيقي، تأول، أو يأتيه فيطلق سراحه لأنه لم تثبت عليه الإدانة، فهو تأول، بالنسبة إلى الظاهر تأول.

أسف أنا لا أحب أن أرد على جهالات الناس لكن ...

يا إخوة بالله عليكم كيف تحترم رجل لا يعرف عنك إلا أن يلتقط ما يريد، يعني هذا الكلام كم مرة سُمع مني؟ أنا أذكر هذا الكلام شرحته ليس أقل من عشرون مرة ومسجل؛ فلا يفهم علي ويؤتى إلى كلمة ولا تفهم، يعني أنت أمام أناس لصوص، أمام أناس كذبا، أمام أناس مفترين، أمام أناس لا يتقون الله، يعني عندما يأتي واحد على ابن تيمية رحمه الله ويقتنص كلمة له شرحت في كتبه مئة مرة، ويؤخذها فلان ويقول: انظر ماذا يقول ابن تيمية، لكلمةٍ قيلت مثلاً، وثم إذا شرحت في مواطن أخرى تشرح بتوسع وبيان ووضوح! ماذا يقال؟! هذا يجب أن يسكت، إن لله وإن إليه راجعون.

السائل: رسالة من أبو عائشة يقول: شيخي أبو قتادة إني لا أصدق أني أستمع إليكم مباشرة وقد تعاهدنا على دروسك سنوات ولله الحمد، ونحن نظن أنه ليس هناك من نقتضي به مثل الإنسان العالم العامل مثلكم ونسأل الله العظيم أن يحفظكم، إني أحبكم في الله شيخنا.

الشيخ: إن لله وإن إليه راجعون، استغفر الله العظيم، لا والله إنك لم تصب، هداك الله، لكن أحبك الله الذي أحببتني فيه، وجمعني الله وإياك تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله وعلى منابر من نور، أما ذلك الكلام فلا والله، ما أصبت يا أخي، تفضل:

السائل: يقول شيخنا سؤالي: ذكرتم حضراتكم في مقالة منذ فترة بسيطة عن حكم من يتحاكم إلى المحاكم التي لا تحكم بشرع الله، أن من يفعل هذا يقع في الكفر، فهمنا من كلامكم أنه كلامٌ عام، ينظر فيه بعد ذلك توفر الشروط وانتفاء الموانع قلت: ويبقى الجهل، الجهل في حقيقة هذا الأمر، طيب شيخي من فعل هذا متأولاً، يقول ابن القيم مثلاً في أول كتاب «طرق الحكمية» أنا من الفقهاء من قال: لا نتحاكم إليهم، وقال: هذا لا يمكن أن تصلح به أحوال الناس لا سيما مع كثرة الذين يحكمون بغير ما أنزل الله، فلك أن تتحاكم إليهم، لكن لو حُكم لك بغير ما أنزل الله فرده، وأما أن تضيع حقوق الناس فلا، لأنه ربما تكون أملاك وفيها ورثا كثيرون فلا يجوز أن نضيعها من أجل هذا الحكم، بحكم القانون، بل نتحاكم إليه فإن حكم بالحق فالحق مقبول من إي إنسان وإلا فلا، فهنا شيخنا لما يتحاكم إلى هذه المحاكم وإن حكمت له هذه المحاكم بغير شرع الله رده، ألا يكون هذا تأويلاً سائغًا؟

الشيخ: السؤال بلا شك مثل ما قلت طويل وليس كما قال: بسيط، هو ربما أصاب بسيط بمعنى طويل معنى مبسوط معناه مسهل وموسع، الناس يقولوا: بسيط بمعنى سهل، لا هو ربما صحيحة هي في الحقيقة يعني من لوازم التوسع السهولة يعني بلاش نخطئ العوام، لكن منتشرة.

إخواني باختصار فقط كلام ابن القيم على القضاة المسلمين الذين كثر فيهم الجهل والظلم، لا ينسب الكلام عن المحاكم الطاغوتية، يعني كلام ابن القيم في «الطرق الحكمية» لا يتحدث عن التحاكم إلى محكمة طاغوتية هي في الأساس قائمة على غير الشريعة، كما هو شأن المحاكم المعاصرة اليوم هي لا تحكم بالشريعة، عندها قانون لا يرى أن مصدر التشريع هو الكتاب والسنة، يرى أن مصدر التشريع هو ما أفرزه المشرعون من دون الله عز وجل، سيادة الشعب سيادة كائن من كان، فعلينا أن لا نحمل كلامه إلا ما يفيدنا من بعض معانيه مثل قضية اعتبار المصلحة وكذا والقيم يمكن اعتباره.

لكن إخواني –اليوم يوم البلاء نرى مثل قضية الجمعة ومثل قضية التحاكم، نفس هذا البلاء– ماذا أقول؟ يجب أن نفرق بين التحاكم –هذا كلامي وللأسف الكلام كثير اليوم، أنا اعرف الكلام كثير. هناك من يجيزه، إذا كان فيه حق يجيزه أنا أعرف كلام كثير، لكن الحقيقة هؤلاء يخطئون، الأصل هو توصيف الكلام الذي يدور حوله البحث.

إخواني هناك مرحلتان: مرحلة ما يسمى بتحرير محل النزاع، لما نقول كلمة تحاكم يجب أن نعرف ما هي، علينا أن نعرفها، ما هو التحاكم، على قاعدة سقراط افتح فمه وعد الأسنان، مشكلتنا اليوم يا مشايخنا أن عامة من يتكلم يأنف أن يذهب لكتب الأوائل، وإذا ذهب إليها لا يستطيع أن يحللها التحليل الصحيح ليستفيد منها، وكأننا نزعم أننا نريد أن نأتي بدين جديد.

مثلاً: قضية الجاسوس، يا أخي وفر حالك لا تتفلسف لا تقول: أريد أن آتي بشيء جديد والله يفتح علي فتوح العارفين، اذهب للفقهاء هم يأصلوا لك المسألة وتعرف ما هو الجاسوس عندهم، أي أنت لا تأتي بدين جديد بعدها رجح فيما بينهم آمنا، لكن لا تأتي بشيء جديد تقول: الله فتح علي فتوح العارفين لا يوجد أحد مثلي!! هل غابت الحقيقة عن حكم الجاسوس في كتب الفقهاء الأقدمين حتى فتح الله عليك فتوى العارفين؟!

قالوا لابن عباس رضي الله عنه: يزعم أنه يُنزل عليه، قال: نعم، تنزل عليه الشياطين لا تنزل عليه الملائكة، الذي يأتي بدين جديد هذا تنزل عليه الشياطين لا تنزل عليه الملائكة.

نرجع، التحاكم ما هو؟ باختصار، التحاكم هو طلب الحكم للالتزام، أن تطلب حكمًا من أجل أن تلتزمه، وطلب الحكم أي أن تقول له: ما هو الحكم في هذه المسألة؟ ما هو حكمك؟ فإذا طلبت الحكم من غير الشرع لتلتزمه فقد عبدت هذا الذي تنازعت إليه.

ناس مختلفين، أنا وأنت اختلفنا، أنت تزعم أن معك الحق أن هذه الكأس لك، وأنا أزعم أن هذا الماء لي، فذهبنا للقاضي لنقول له: ما هو الله في هذه المسألة؟ دلنا على حكم الله قد تنازعنا، أنا أرى أن هذا الوجه كون هذا الماء بين يدي أنه لي، الآخر يقول: لا، هذا الماء أنت أخذته من حنفيتي، وليس لمجرد كونه في يدك فتنازعنا، واحد يقول: بالأصل، بأصل الشيء، وواحد يقول: بالوضع، وضع اليد، فتنازعنا، فنطلب الحكم من القاضي، نطلب من المفتي، نطلب من الحاكم، على اثلاث معاني، من اجل أن نلتزمه، لماذا قلت: من أجل أن نلتزمه؟ لأنه ممكن تطلب الحكم للتعرض مثل الذين يدرسون محاماة، لماذا نقول: طلب الحكم لتعلمه فيدخلوا في قضية التحاكم؟ من أجل أن يلتزمه ويدين به أنه هو الصواب ويدين به أنه الحق.

وهذا على فكرة ليس كلامي، هذا كلام معنى التحاكم في كتب القضاء الإسلامي، في كل كتب القضاء مذكور ما معنى التحاكم، هذا موجود فيه.

نرجع للقضية واحد سُرق من بيته وعلم السارق، ذهب إلى أي إنسان في الدنيا مسلم كافر أي شخص أنا أتكلم على قضية التوصيف، ذهب إليه وقال: فلان سرق مني وهذا هو الدليل، هل هذا اسمه طلب الحكم منه من أجل أن يلتزمه؟ هل هو يريد أن يعرف الحق؟ -وهذا الحق متفق بين البشر غير متفق ليس موضوعنا- لو ذهب إلى شرطي مسلم في دولة إسلامية هل هذا تحاكم؟! شخص هجم عليك في بيتك فاتصلت بالشرطة أنا أتكلم لا تهمني الشرطة هل هم كفار هم مسلمين لا يهمني، ما يهمني الآن أفهم معنى تحاكم وغير تحاكم، أريد أن أفهم معنى التحاكم تنطبق عليه الحالة أم لا تنطبق؟ اتصلت فيهم، أنقذونا.

العبرة ليست بشرطي أو بغير شرطي ذهبت إلى جارك قلت له: يا جار أنت رجل محترم وعند أولاد ما شاء الله عنهم هذا رجل يريد أن يسرق أموالي فأنقذني منه، هل هذا تحاكم؟ الآن وسع الدائرة.

فمرة جادلت أحدهم ممن كفرني، قال لي: أنت كافر؛ لأنك أجزت التحاكم لغير الشريعة! فقلت له: ما هي العبرة؟ قال: بمجرد الوقوف أمام القاضي هذا تحاكم، وإذ أصبحت قضية المذهوب إليه هي العبرة!! ولا يعرف أن القاضي له أعمال غير الفصل في القضاء!! يعني قضية القاضي في الغرب ماذا يعمل؟ القاضي يذهب لتثبيت العقود، ولا يذهب إليه ليقول: قل لنا ما هو قولك في هذه المسألة وما يقوله القانون حسب فهمك فيما يخص المسألة، لا، ليست كل أعمال القاضي تدور حول هذه النقطة.

إذن هل كلمة قاضي هي التي تحدد معنى التحاكم؟ نحن رأينا هناك شرطي نفس الحالة ورأينا هنا الجار ورأينا هناك مسلم، فالعبرة ليست هنا العبرة في كلمة تحاكم، طلب الحكم ليلتزمه.

ولو ذهب مسلم ومسلم إلى غير قاضي لنرى أن القاضي ليس هو الشرط، لو ذهب مسلمان إلى أحد المسلمين العلماء ليس قاضيًا، وقالا له: نحن نريد أن نعرف حكم الله في هذه المسألة، وليس فيها تعلق في قضية الخصومة ولي بينهما أي تنازع على مال، فقط اختلفوا قال له: أنا أعتبر أن البنك الإسلامي حلال، وهما متنازعين على مسألة علمية وليست مسألة مادية فذهبوا إلى شيخ وقالوا له: ماذا تقول أنت في البنك الإسلامي؟ فأجابهم وليس بينهما أي تنازع مادي، هذا اسمه تحاكم، أي يريد كل واحد منهم أن يخبره بالحكم ليلتزمه ما هو الحكم في هذه المسألة ليلتزمه.

فما هو الحكم؟ هو تحسين الشيء أو تقبيحه، ما معنى الحكم؟ الحكم عليه بالحلال أو الحرمة، وما هو التشريع؟ ما تعريف التشريع؟ التشريع هو إطلاق حكم القبح على الشيء وسلب حكم الحُسن عنه، او إطلاق حكم الحُسن عليه ونزع حكم القبح عنه، هذا معنى التشريع، شرع، أي قال: هذا جيد وهذا قبيح هذا حسن وهذا قبيح، طبعًا التحسين والتقبيح يعني: الحلال، الحرام، المكروه، المستحب، المباح، هذا هو.

فالآن هذه الصورة وقد اتضحت لديك تستطيع أن تنزل هذا تحاكم أم استنصار، لما مسلم مع مسلم يريدوا أن يعرفوا كيف يوزعوا الغرث ويذهبوا إلى محكمة كفرية، ما اسمه هذا؟ محكمة كفرية وحسب الذهاب، لما نريد أن نعرف كيف نوزع ومختلفين أو غير مختلفين هذا مال ورثه أبونا لا نعرف كيف نوزعه، هذا طلب حكم، ولا سبيل للنزاع، ليس فيه نزاع. فالاستنصار شيء، والتحاكم شيء، فما دخل في باب التحاكم لا يجوز الذهاب إليه إلا على جهة الإكراه أو إذا عمت ممكن تنزل منازل تقول: الضرورة كذا وإن كان ابن حزم يرى الضرورة إكراه ولا أريد الآن أن أدخل في هذه المسألة.

يقول ابن حزم: الضرورة إكراه، إذن يجيز للضرورة ما أجازه للإكراه، هذا ابن حزم، موجود فقيه كبير ما أظن أن أحد العلماء لتأصيل هذه المسألة يكفره ويقول: زاد حكمًا على قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ [النحل: ١٠٦]، لأنه هذه العقلية الجاهلة اليوم، هذه العقلية الجاهلة إذا قلت له: للاضطرار، فيقول لك: أن زدت على قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فزدت بالاضطرار على الإكراه وهذا زيادة على كلام الله والزيادة على كلام الله كفر والنهاية الدولاب سيدور وسينتهي به إلى المصائب فلا أريد أن أدخل في هذا.

لكن أنا أريد من طلبة العلم أن يتأملوا هذا النزاع ويتأملوا هذا الأمر ولا يقال لأحد: -من المسائل- قال: يعني التلفزيون -هم يأتوا للتحقير يعني لو تنازعوا على مليون دينار ممكن يصير فيها نظر، لكن تنازعوا على التلفزيون- هذه من الأمثلة التي ضربوها لي من أجل إبطال، قال: يعني يجوز أن تذهب لواحد سرق تلفزيون من بيتك تروح تطلب الشرطة له، ضربوها بالتلفزيون، لكن هو عنده لو سرقوا من بيته مليون ممكن يعني فيها نظر، فالعبرة ليست في أصل المسألة، العبرة بما أخذ منك!! لا ليس هكذا.

فالعبرة بتأصيل هل هذا تحاكم؟ أو غير تحاكم؟ تحاكم أو استنصار؟

الاستنصار أنا كنت أقول لهم: ما الفرق لديك أنت بينك وبينها أن تصرخ على جارك لينقذك أو أن تذهب إلى الشرطي لينقذك أو تذهب إلى القاضي لينقذك من المصيبة التي وقعت سواء كانت قبل الوقوع أو خلال الوقوع أو بعد الوقوع، فهذه الضوابط لها قيمة في الشريعة، وإلا ائتي بالحكم، ائتي بالدليل أن الشريعة فرقت بين استنصارك قبل الوقوع أو استنصارك خلال الوقوع أو استنصارك بعد الوقوع، لا تستطيع.. لا تستطيع، أجبت إن شاء الله بما يكفي، اللهم اغفر لنا وارحمنا.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثامن والعشرون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

هذا هو الدرس الثامن والعشرون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة»، وفي حديث هذه السورة في إخبارها عن حال المنافقين وأحوالهم، ووصلنا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [البقرة: ٢٠]، وقلنا هنا مبحث لكن أعود مسرعاً على قضية في موضوع التمثيل.

التمثيل أيها الإخوة الأحبة لأنها هنا مهمة في هذا الباب وسنحتاجها في ما يأتي من صور تمثيلية جاء بها القرآن الكريم وهي من أبلغ ما يمثل به إما أن يؤخذ المثال بهيئته المجموعة، هذا عادةً من كلام البشر إما أن تتعقب التمثيل تعقب لفظٍ بلفظ وجزءٍ بجزء، ولفظةٍ بلفظة لترى التشابه بين الممثل والممثل به، أن تأتي إلى كل لفظة، وهذا هو الأليق في القرآن، الأليق بالقرآن أن تحمل كل جزءٍ في التمثيل على الممثل به والممثل له، لأن هذا الأليق في كمال وبلاغة القرآن، ولذلك تفريق التمثيل هو الأولى، بمعنى أن تأتي إلى كل لفظٍ فترى مشابهة هذا اللفظ لواقع ما يريد القرآن أن يمثل به وأن يمثل له فهذا هو الأليق، فإذا غاب عنك شيء لا ينبغي أن تنفيه، يعني أنت ربما تجد شيئاً وتستغرب أو يستصعب عليك أن تحمله على تصورٍ كاملٍ للمعنى المراد، فعليك أن تسلم.

ولكن الأليق في كلام ربنا عز وجل هو أن تحمل كل لفظٍ في المثال على حقيقته وعلى مراده، وعادةً في تمثيل البشر ليس كذلك، لأن أن يأتي إلى كل كلمةٍ ليرى، أو كل وصفٍ في داخل التمثيل الكلي وأن يراه مفرقاً وكل جزءٍ فيه يراد من تمثيل الممثل فهذا صعبٌ في كلام الناس صعب.

وهذا يذكرني في حديث مثل الدنيا فلما جاء للحديث ابن بطّال في صحيح البخاري: (أنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قَامَ علَى المِنْبَرِ، فَقالَ: إنَّما أَخْشَى علَيْكُم مِن بَعْدِي ما يُفْتَحُ علَيْكُم مِن بَرَكَاتِ الأرْضِ، ثُمَّ ذَكَرَ زَهْرَةَ الدُّنْيَا، فَبَدَأَ بإحْدَاهُمَا، وَثَنَّى بالأُخْرَى، فَقَامَ رَجُلٌ فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، أَوَ يَأْتي الخَيْرُ بالشَّرِّ؟! فَسَكَتَ عنْه النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قُلْنَا: يُوحَى إلَيْهِ، وَسَكَتَ النَّاسُ كَأنَّ علَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرَ، ثُمَّ إنَّه مَسَحَ عن وَجْهِهِ الرُّحَضَاءَ، فَقالَ: أَيْنَ السَّائِلُ آنِفًا؟ أَوَ خَيْرٌ هو؟! -ثَلَاثًا- إنَّ الخَيْرَ لا يَأْتي إلَّا بالخَيْرِ، وإنَّه كُلَّما يُنْبِتُ الرَّبِيعُ ما يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ، إلَّا آكِلَةَ الخَضِرِ أَكَلَتْ حتَّى إذَا امْتَلَأَتْ خَاصِرَتَاهَا، اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسَ، فَثَلَطَتْ وَبَالَتْ، ثُمَّ رَتَعَتْ، وإنَّ هذا المَالَ خَضِرَةٌ

حُلْوَةٌ، وَنِعْمَ صَاحِبُ المسْلِمِ لِمَن أَخَذَهُ بحَقِّهِ، فَجَعَلَهُ في سَبيلِ اللَّهِ، وَاليَتَامَى وَالمسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَمَن لَمْ يَأْخُذْهُ بحَقِّهِ، فَهو كَالْآكِلِ الذي لا يَشْبَعُ، وَيَكونُ عليه شَهِيدًا يَومَ القِيَامَةِ)، فقال ابن بطّال في المثال هذا: «لا يفهم إذا جزء»، كما ذكر ذلك ابن حجر في شرحه على البخاري، قال: المثل لا يفهم إذا جُزّء لأنه إذا أخذناه كل جزءٍ بجزء لا نفهمه، لابد أن نأخذه في هيئة كلية.

الأليق في القرآن أن نأخذ كل لفظٍ لأنه مراد، وهنا مسألة أصولية ذكرها ابن العربي في كتابه في الأصول هل الألفاظ في داخل الحديث يستدل بها وتشرح كما يفسر القرآن؟ فيرى بعضهم لا، ذكر هذا الزيلعي من الحنفية وقال: هذا صعب لأن كثيراً من الأحاديث رويت بالمعنى فاللفظ قد لا يراد منه إلا معناه وليس المراد الدقيق له، هكذا يقولون وأنا على الضد من هذا ولما شرحت حديث الفتى الذي عُلم عند الراهب حديث الساحر والراهب والفتى، فبينت أن كل لفظة يستفاد منها، ويبين ما فيها من دلالات عميقة في داخل اللفظ، لاعتناء الرواة في الأحاديث الطويلة بألفاظها، هذا أمرٌ مهم.

ولذلك أنا الذي أردته في هذه الأمثلة، في هذين المثلين القرآنيين العظيمين أن أبين كل لفظة أن أقف عندها لتمثل لنا الصورة، ووجدت كلاماً لبعض أهل العلم رائعاً جميلاً جداً، مرات –هنا أرجو أن يعتنى بهذه الكلمة– مرات في كلام المتكلم البليغ يأتي بالتفصيل من أجل أن يشرح الصورة لا أن يقيدها لمعنى، وإن كان هذا الكلام ينبغي ألا نقف عنده مع القرآن.

مثلاً: هنا في قوله تعالى –المثال هنا–: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩]، نحن قلنا الصيب هو الذي يصيب المراد وهذه إحدى معانيه المعنى الأول منتشر وهو الصيب النازل بقوة، صوب عليه، فإذن هو النازل بقوة، فإذا كان الماء ينزل بقوة، كصيب أي نازل بقوة، فإذن انظر إلى كلمة نازل، إذن هو من عالٍ إلى أدنى إلى أسفل، فما هي ضرورة كلمة من السماء؟ أو ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾، لما يقول: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ لماذا يقول من السماء؟ فقط كلمة الصيب تقوم بالمعنى فقال بعض أهل العلم من أهل البلاغة: المقصود في ذلك هو شرح الصورة من أجل أن يحصل البيان البليغ المؤثر في نفس السامع.

مثلاً: كمعلقة امرؤ القيس:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً ... كَجُلْمُوْدِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

«كَجُلْمُوْدِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ» فهذه لماذا وما مرادها؟ قال مرادها: وهو أن يقدم التصوير البليغ من أجل أن يؤثر ويشد السامع ويجلبه إلى مراده ويؤثر فيه في البيان.

هذا وجه وهناك وجه آخر قاله بعض أهل العلم عن قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ لماذا ذكرت من السماء؟ هؤلاء أخذوه على وجه البلاغة التصويرية الأوائل، الآخرون قالوا: لا، من السماء مقصودة، لماذا؟ لأن صيب صحيح نازل فقد ينزل من جنبٍ خفي أو من جنبٍ غير علوٍ مطلق أو من غير علوٍ كامل، فينزل عليه بجنب، فقال: إذا نزل الماء على هذا المعنى فلا يكون شاملاً ولا عاماً، إذا جاء الصيب ليس من جهة العلو فوقه لأن العلو يدل على أنه قد عمه، فإذا جاء من جنب لا يدل على هذا المعنى، فلما أراد الله عز وجل أن يبين لنا أن هذا الصيب هذا الماء مصيبٌ من كل جهة، أتى بلفظ من السماء، هذه إحدى الوجوه التي ينبغي أن نعتني بها ولا شك أننا قلنا مرارا ونكرر هذا مراد وهذا مراد، لأن الكلمة إذا أحضرت معانيها المتعددة ولا تخرج عن اللفظ في وضعه وفي كلام العرب وفي استعمالهم فهذه المعاني صحيحة كلها إذا لم تتعارض، إذا تعارضت هذا كلامٌ آخر سنأتي إليه في مبحث آخر، هل يمكن أن تتعارض فتدل كل واحدةٍ على معنى هذا سيأتي إن شاء الله في كلام بعض الأئمة.

وصلنا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [البقرة: ٢٠]، وهي كذلك تقدمت ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)﴾ [البقرة: ١٩]، وعلى ماذا تدل الإحاطة؟ تدل على القدرة التامة، فالله محيط بالكافرين أنهم لم يخرجوا من ملكه، أنهم لم يخرجوا من قدرته، ولم يخرجوا من حكمه جل في علاه.

وهنا لما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [البقرة: ٢٠]، هذه الآية محكمة يقابلها آية متشابهة تحتاج إلى أن نرجعها إلى الْمُحكم، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩)﴾ [الشورى: ٢٩]، كأنها تدل في ظاهرها أن الذي يشاءه يقدر عليه، فإذن مفهوم المخالفة الذي لا يشاءه لا يقدر عليه، وهنا فقط للذكر هنا لأني وجدت أحدهم متلاعبًا في الحديث والكلام، أهل الأصول لا يحتجون بكلام البشر بمفهوم المخالفة، حطوها بين قوسين استحضروها في المناظرة، استحضروها في كلام الناس، مفهوم المخالفة لا ينفع أعماله في كلام البشر، منصوص عليه في كتب أهل الأصول، ما مفهوم المخالفة؟ يعني لما قال الله عز وجل في حديث النبي صلى الله عليه وسلم كما استدل بها الشافعي رحمه الله في كتابه «الأم» في أن المجوس قال: (اعملوا بهم عمل أهل الكتاب)، أو (سنوا بهم) حديث عبد الرحمن بن عوف (سنوا بهم سنة أهل الكتاب)، فدل هذا على أن غير المجوس لا يعمل معهم سنة أهل الكتاب واضح من أخذ الجزية، هذا وجه، نحن لا نريد الآن أن نرجح ولكن هناك فرق بين التمثيل وبين التقريب وبين الاستدلال لمسألة، نحن لا نرجح قولاً على قول، ولكن نبين كيف يستدل العلماء.

فمفهوم المخالفة هناك عندنا المنطوق وعندنا المفهوم، أحد المشايخ ظن أن كلمة المفهوم يعني كل واحد والذي يفهمه، وهذا غير صحيح، لا يوجد، المنطوق مفهوم بهذا المعنى يعني لا يمكن أن تعمل المنطوق حتى تفهمه بالمفهوم اللغوي، مفهوم؟ الآن أنا قلت: مفهوم أي هل فقهت المعنى؟ الجواب، نعم.

فكلمة المفهوم بالمعنى اللغوي تعني مدرك المعنى، مدرك الصورة، إدراك المراد، لكن كلمة المفهوم عند الفقهاء والأصوليين ما المقصود بها؟ لا يقولون: دائماً مفهوم المخالفة لا يقول هذا، يقول: المفهوم لأنها تقابل المنطوق، المنطوق هو الذي دل عليه النص بظاهره وبلغته، والمفهوم هو الذي دل عليه النص ليس بلفظه ليس بنصه، ولكن دل عليه بما يتخلف به الشرط، يتخلف به الوصف يتخلف به العدد يتخلف به اللقب ... إلخ، فيقول: مفهوم مخالفة ومثلنا له، فالعادة يقال: مفهوم دائماً وهذه أغلبهم يعني الكثير منهم لا يعرف هذا المعنى، فكلمة مفهوم ماذا تقابل في كلام الأصوليين والفقهاء؟ تقابل هي قسيم، دائماً نحن نستخدم نترقى قليلاً في استخدام كلام العلماء، هي قسيم المنطوق، قسيم الشيء ليس جزءاً منه، قسيم الشيء ليس قسمه، قسيم الشيء أي الذي يقابله في المعنى.

في كلام الناس –وأنا أتيت بها للمعنى هذا الذي بين أيدينا– في كلام الناس لا ينبغي إعمال المفهوم، لماذا؟ لأن الناس ليست عندهم القدرة العالية أن يقولوا كلاماً ويستحضروا ما لو جاء ضده كيف سيكون عندهم، الناس ليسوا بهذه القدرة، لكن بخلاف الرب العظيم فأنه جل في علاه يقول الكلمة وهو جل في علاه يعلم أن ضدها كذلك لو تخلف شرطها لكان المقصود أن ضدها موجود بشروطه عند من يقول به لأن هناك من أهل العلم كالأحناف لا يقولون بمفهوم المخالفة والذي يقول به بشروطه.

لماذا قلت هنا هذا الكلام؟ لأن هذا المعنى إذا فقهناه فقهنا ما بين أيدينا من أن كل كلمة في التمثيل مرادة، لأن الله عز وجل جل في علاه هو العالم القادر المحيط بكل شيء، فلا يأتي بالكلام الحشو، ما في حشو، لا يوجد معنى غلب المتكلم، لأن المعنى قد يغلب المتكلم فيعجز عن أن يبلغه، هل هذا متصور في حق ربنا!! هل الكلام يغلب متكلمه؟ نعم، ممكن الرجل من أجل أن يحشو ويضطر إلى سياقات معينة أن يجعل كلمة بدل كلمة لا تقوم بمعناها ولكنه ما يسمى بضرورة الشعر مثلاً، ضرورة الشعر يعني ما اضطر إليه الشاعر وعلى خلاف الأصل، هذه اسمها ضرورة الشعر، وألف في ذلك كتب، فهذا لا يتصور في حق ربنا جل في علاه.

ولا بأس أن أذكر لكم شيئاً هنا مهم جداً، في ضمن السياق لأن المهم هو أن تفهم كلام الله ليس المهم أن تقطع أخذنا هذه الآية وأخذنا هذه الآية، لا، المهم أن تصبح عندك الْمَلَكَة أنت في فهم كلام ربنا، هنا استحضر كذلك مما بين أيدينا، ما معنى الإعجاز عند أستاذنا وعمنا مصطفى صادق الرافعي ما هو الإعجاز في كتابه «إعجاز القرآن»؟ ما هو الاعجاز عند الرافعي؟ وإن كنت أنا لا أدري أفعلها أو لا أفعلها أن أتي عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)﴾ [البقرة: ٢٣]، هل أقف لأبين ماذا قال كل عالمٍ عن الإعجاز عنده وهذا يحتاج إلى دروس لوحدها أن أتي إليها فأبدأ بالباقلاني والخطابي والجرجاني وغيرهم من تكلم الإعجاز إلى أن نصل إلى الاستاذ مصطفى صادق الرامي في كتاب «إعجاز القرآن»، لكن لا بأس أن أمر على كلامه هنا.

الذين تكلموا عن الإعجاز قبل الرافعي نظروا إلى جانب عجيب وهو الذي يغلب على الذهن، وهو حكمة هذا الكلام وبلاغته وامتلائه وعدم وجود الوهن فيه، يعني ممن تكلم عن الإعجاز قال -وهذا كلام الباقلاني-: إن كل كلامٍ في البشر -وحتى يقوله الجرجاني يمر عليه مرورا لكن ليس هو أساس نظرته للإعجاز- أن كلٍ كلام لابد أن يطرأ على ذهنك نوع هنةٍ فيه، نعم ترى هنا كلاماً محكماً قوياً لكنك بعد ذلك ترى كلاماً يسمونه مغسولاً، إي ليس فيه حكمة، ليس كامل، مغسول، يعني مثل:

قِفَـا نَبْـكِ مِنْ ذِكْـرَى حَبِيْـبٍ وَمَنْـزِلِ ... بِسِـــقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الـدَّخُولِ فَحَوْمَـلِ

قالوا: هذا كلام نقف عنده، كلام مليء، لكن «من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل» قالوا: هذا كلام مغسول، يذكر أسماء مناطق، أي بلاغةٍ فيه؟ أنا لأقدم لكم البلاغة عند الأستاذ الرافعي، فإذن البلاغة عند الأوائل في أغلبها تقوم على امتلاء النص وحكمته، حكمته أي عدم وجود الوهن فيه، عدم وجود الضعف على تمام معناه وتمام لفظه.

الرافعي هو رجل عجيب! هذا الرجل يدقق في المعاني وإذا لقط معنا هكذا كما في السحاب الأحمر كما التي قالها طه حسين له، قال له: أنا والله أفهم القرآن ولا أفهم كلامك، وصارت خصومة بينهما على هذا، فالرافعي إذا قنص فكرةً بدأ يحفر فيها يحفر ويحفر ويغوص في معانيها وحتى أنت تتوه معه، فهو ماذا قال في إعجاز القرآن؟ قال: بأن كل كلامٍ مُحكمٍ من كلام البشر تحس فيه بالصنعة، بأنك لو قرأت هذا الكلام ورأيته قوياً فتقول: عجيب، فهذا دل على المشقة يختلط في نظرك إلى حسن صنعته إلى مقدار المشقة التي عاناها هذا الصانع.

لنبتعد بعيداً عن الكلام، لنأتي إلى الأهرامات، إلى شيءٍ مادي، أنت تراها شيئاً عجيباً ومع هذا العجب في الإتقان وفي البنيان ولكنك ترى المشقة، أن هذا الرجل تعب كيف صنعها، ما هذا الجهد الذي بذله؟! فلا يمكن في صنعة البشر أن تجمع بين الإتقان وحسن الصنعة إلا ويكون مرافق لهذا الإتقان وحسن الصنعة كثرة الجهد، هذه النقطة الأولى، لا يمكن لواحد يأتي ويقول: هذا شيءٌ رائعٌ محكمٌ متينٌ بديع وفيه حسن الصنعة والإتقان والتركيب العجيب، وتقول: هذا صنعه وهو على قاعدة المتنبي: «أنام ملء جفوني عن شواردها»، أي أن الحكم تأتيني وأنا نائم، هذا كذب وليس صحيح، هنا نأتي للنقطة الثانية التي تكشف كذب المتنبي في هذا.

النقطة الثانية: أن من مهمة هذا الصانع البليغ المتقن هو أن يخفي العرق الذي يتصبب منه وهو يصنعه.

النقطة الأولى انتهينا منها، النقطة الثانية: من أجل أن تعرف عظمته يبذل كل جهده لئلا يريك كم هو تعب وكم هو مرهق وهو يصنع، فقط أنا أضرب لكم مثالاً:

لعلكم رأيتم ولابد مرت في حياتكم مرة إما بطاعة وإما بمعصية وإما بلغو، أنكم رأيتم الذين يعرضون أجسامهم في كمال الأجسام، لابد يمكن رأيتم مرة وكيف يعرض عضلاته أمام الناس، أنت تراه يبتسم وهو مع ابتسامته يخفي المشقة والجهد الذي يبذله من أجل أن يريك تقسيمات عضلاته، وكلما أتقن الصانع إخفاء عرقه وجهده وآلامه كلما كان بليغاً ولكن أنت تعرف أنه يخفي لأنه متألم.

إذن:

النقطة الأولى: أن الإتقان لابد أن يكون فيه المشقة والتعب والآلام.

النقطة الثانية: وهو أن يخفي هذه الآلام والمشقة والتعب.

ومن يدركها؟ الخبير يعني أنت ربما تمر على الشيء كيف صنعه؟ أنا أسألكم الآن رجل عمره ما مارس كرة القدم، وهو يرى اللاعبين ماذا يفعل بهم؟ أفعل هكذا وهكذا وهو مسكين لو نزل لكرة القدم كما قال إخواننا الجزائريون: «الموال في الكيف ولكن المشكلة في القدمين»، مرات وأنت قاعد بتغني وأنت بتقول: أقدر ولكن لما تبدأ بالغناء وإذا أنت صوتك جعير، لا يتلاءم مع الموال في الرأس، وربما أنت كذلك الموال في الراس ولكن لا تستطيع أن تتقنه.

إذن من الذي يعرف مقدار المشقة التي يبذلها الصانع؟ هو الخبير بهذه الصنعة، الخبير يقول: هذا شيءٌ عجيب!! وأنت تقول: ما الذي صنعه؟ هذه خربشات أو هذا شيء لا قيمة له، يقول: أنت مجنون أذهب.

النقطة الثانية التي أتينا إليها: وهو أن الخبير هذا، وهذا الصانع وهذا المتقن، كذلك يحتاج إلى شيء آخر، وهو أن يخفي مقدار الآلام والمشقة والتعب التي يبذلها في هذه الصنعة، قال: ولذلك يعرف البليغ بلاغة البلغاء بمقدار إتقانهم للصنعة لكنه يحس آلامهم وهم يحاولون إخفائها، مثل ما قال أحمد بن حسين الجعفي الملقب بالمتنبي: «أنام ملء جفوني عن شواردها»، هي لوحدها تأتي أم سهران طوال الليل!! فلا ينام من أجل إتقانها ومن أجل تدويرها ومن أجل إظهار معالمها.

وهذا الذي قاله الرافعي لماذا يقوله؟ يقول: لأن هذا كله لا تراه في كتاب الله عز وجل، مع أنه فيه أعظم البلاغة وكمال الإتقان والإحكام لكنك لا تحس بالمشقة أبدًا ولا تحس أنه قد أتى إلى تغيير شيءٍ مقابل شيء، ما في صنعة، ما في مشقة في الصنعة ولكنها صنعةٌ جميلة.

أنا أضرب لكم مثالاً: لا تقول أنا لا أفهم، وهذه البلاغة شيءٌ عجيب، لا هذا أنت، البلاغة شيء نفسي ثم بعد ذلك شيءٌ صناعي، فالآن أنا أخاطب نفسيتك الطبيعية، فطرتك الطبيعية في إدراك الكلام، لما أنت تسمع قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن: ١-٤]، أين شعرت أنك توقفت لتقل أن كان هناك صنعة شاقة على المتكلم مع هذا التسهيل العجيب فيها الذي تقول: لم يحتج متكلمه إلى أن يعيد

النظر فيه مرة بعد مرة، ليصل إلى هذه الدرجة من الإحكام، هل رأيت في هذا الكلام وأنت تقرأه بينك وبين نفسك، ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧)﴾ [الرحمن: ١-٧]، هل رأيت وأنت تتلو أن متكلم هذا الكلام احتاج إلى أن يتوقف فيغير كلمةً بدل كلمة ليصل إلى هذه الدرجة من الإحكام والاتقان، وإتقان الصناعة أم أنه يتكلم بلا مشقة مع إنه عظيمٌ بليغ ويتأمله للمتكلم فيرى فيه قمة البلاغة ولكن لا يرى فيه مشقة الصنعة على الصانع ولا مشقة المتكلم على كلامه، ولا يحتاج إلى إخفاء آلامه وهو يقدم لكم هذه الصنعة وهذا الكلام.

قال هذا: هو إعجاز القرآن، الرافعي هو عنده أن إعجاز القرآن هو من قرأ كلام الله عز وجل لم يرى فيه قط المشقة هذا يدل على أن متكلمه ليس كالبشر؛ ذلك لأن البشر حين يتكلمون ويصنعون كلاماً بليغاً متقناً محكماً ترى في كلامهم مشقة الصنعة وبذل الجهد ويكفي أن تعلم بأن زهير بن أبي سلمى حكيم الشعراء وشاعر الحكماء كانت قصائده تسمى بالحوليات، أي كان لا يخرجها للناس حتى ينقحها عاماً كاملاً، عام، حول، يخرج ثم يغير ويبدل وهو حكيم الشعراء ويكفي أن عمر رضي الله عنه كان من أحب الشعر إليه شعر زهير ابن أبي سلمى صاحب المعلقات، فأنت مع الأمثلة لا تتوقف فقط عند صورة المثال في تركيبته الكلية، لكن فرِقه كما يفرقه اللفظ وتأمله تجد فيه العظمة وتجد فيه المنافع الكثيرة.

قلنا عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [البقرة: ٢٠]، قلنا إن هذه الآية محكمة يقابلها قوله تعالى ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩)﴾ [الشورى: ٢٩]، ونحن قلنا في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، قلنا لما قدم المعمول على العامل دل على الحصر، لماذا لم يقل جل في علاه: نعبد إياك؟ لأنه لو قال: نعبد وإياك لما كان في ذلك نفي عبادة غيره، لكن لما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دل على حصر العبادة له، فلما قال جّل في علاه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فهذا الآن قدمه، يقول قديرٌ على ما يشاء، لكن قال: ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩)﴾ [الشورى: ٢٩]، فدل هذا على الأبلغ.

هذا الكلام قد يطرأ في ذهن الناظر بأنه ما لم يشاءه لا يقدر عليه، على ما لم يشاءه لأنه قال: ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩)﴾ [الشورى: ٢٩]، فكأنها فيها إفادة أن الذي لا يشاء -نحن هنا رجعنا لمفهوم المخالفة- على أن الذي لا يشاءه لا يقدر عليه، هل هذا المعنى صحيح؟! هذا المعنى خطأ وباطل، لأن هذا المعنى منفي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، على كل شيء الشيء المعدوم والشيء الموجود، والشيء المقدر، الشيء المعدوم يعني الذي لم يوجد، الشيء الذي لم يوجد الله قادر عليه؟! ألم نرى قوله سبحانه وتعالى -ودائمًا نحتج-: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)﴾ [الأنفال: ٢٣]، مع أنه لم يقع منهم هذا الإعراض بعد الفهم.

إذن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩)﴾ [الشورى: ٢٩]، ليس على المعنى الذي يطرأ على الذهن ولكنه جل في علاه يقدر على ما يشاء ويقدر على ما لم يشاء، إذن من أوسع دائرة القدرة أم المشيئة؟ دائماً القدرة أوسع، القدرة أوسع من المشيئة، انظر دائماً المشيئة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧)﴾ [الشورى: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١)﴾ [الحجر: ٢١]، لا ينزله إلا بقدر، فدل على أن قدرته أعم من مشيئته، مشيئته خاصة فيما يوجد وقدرته عامة على ما وجد وعلى ما لم يوجد، فقدرته سبحانه وتعالى شاملة لكل شيء.

هنا فقط نأتي إلى كلمة مهمة جداً لأننا أمام جهلة ولا بد أن نعالج أمراضًا معاصرة، فعندما قال سبحانه وتعالى وهذه الأولى أن نشرحها في سورة «الأنعام»، ولكن ما ندري نحيا أم نموت، نصل أم لا، في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩]، فهنا في هذه الآية في سياقها أن الله شيء، ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾، إذن هل يجوز لنا أن نطلق على الله عز وجل أنه شيء؟ الجواب: لا، لا يجوز، لكن هل يجوز أن ننفي وصف الشيء عن الله عز وجل؟ الجواب: لا.

إذن نأتي إلى قاعدة نعرفها عند العلماء، وأكثر من بسطها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، أن الألفاظ المجملة، ما معنى مجملة؟ يعني غير البينة بذاتها تحتاج إلى غيرها لبيينها، علمنا العلماء أن الألفاظ المجملة لا يجوز للعبد أن ينفيها أو يثبتها، أن ينفيها بالكلية ولا أن يثبتها بالكلية، وإنما الواجب عليه إذا أطلق اللفظ المجمل أن يسأل المتكلم به، ما مرادك من هذا اللفظ؟ فإن قال: معنًا صحيحًا أثبتناه، ليس لإثبات اللفظ، ولكن لإثبات المعنى الذي في داخل هذا اللفظ وهو موجود، هذا المعنى الصحيح موجود في داخل اللفظ، لكن هذا اللفظ لإجماله يوجد فيه معنى آخر لا يجوز لك أن تثبته؛ فلذلك إذا أتى هذا المتكلم بالمعنى الصحيح أثبتناه له وإذا أتى بالمعنى الباطن الْمُتَضمن في داخل هذا اللفظ نفيناه عن الله عز وجل.

ومن هنا نأتي إلى كلمة شيء، نأتي هنا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [البقرة: ٢٠]، فقط، لأن المتكلمين تكلموا في هذا كلاماً لا أريد أن أفصل فيه أكثر من هذا، فأتوا إلى شيء، هل الله عز وجل يوصف بأنه شيء؟ نقول له: ما المراد به، كلمة شيء يعني إما أنه موجود، وإما أن يوصف بأنه ليس بشيء ويراد متكلمه أنه غير موجود، وإذا وصف أنه شيء بمعنى متشيء أي مجموع ومركب، أو بمعنى مخلوق لأن عندهم مثلاً لو أن رجلاً تصور أن كل شيءٍ في الوجود هو أن كل شيء موجود، أن كل شيء مخلوق، أي كلمة شيء تعني مخلوق فلو عنى بكلمة شيء أنه مخلوق هل نثبتها لله عز وجل؟ الجواب: لا؛ لأن هذا معنى باطل، لكن لو قُصد بكلمة الشيء أنه موجود وأنه حق، فوصف كلمة شيء عليه حقيقية.

أنا أريد أن أسأل ما هو أقبح عند التصور في المعنى الغلط وليس المعنى الحق، من شيء أم جسم؟ –لماذا أقولها؟ للجهالات، وقفت عندها للجهالات التي في بعض المعاصرين، ولم يفقهوا كلام ابن تيمية رحمه الله– الآن كما رأيتم أن الله عز وجل جاز لنا أن نصفه بكلمة شيء، ولم نأتي بها من عندنا إنما ذهبنا لآية، وهي في سورة «الأنعام»، قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، يعني الله وصف هنا بالشيء، وهذه ليست مني هذه أخذتها من كتاب «الحيدة» لعبد العزيز بن يحيى الكناني.

فالآن يأتي أحدهم يقول: جسم، يقول: ما المقصود بكلمة جسم؟ ووجدنا في كلام المتكلمين أن كلمة جسم يقصد بها القائم بذاته، هذا المعنى صحيح أم غير صحيح؟ كما أن كلمة ﴿شَيْءٍ﴾ عني بها في هذه الآية أنه موجود وأنه أعظم ما هو موجودٌ في هذا الوجود سواء الوجود المخلوق أو غير المخلوق، فإذا جاز لربنا أن يثبت وجوده بكلمةٍ لا يجوز أن تُطلَقَ عليه اسمًا، فالمتكلمون يطلقون كلام يقول له: ما المقصود بكلمة جسم؟ نعم معناها اللغوي شيءٌ نرفضه، لكن معناها الاصطلاحي حين يستخدمه الناس كلاماً، ماذا تقصد بكلمة جسم؟ فيقول: القائم بذاته، هل الله يقوم بذاته؟ هو الحي القيوم، قائمٌ على نفسه بنفسه فلا يحتاج لغيره، وقائمٌ على غيره بما يحتاجه فهو قيوم، وهذا من أسماء الله عند بعض أهل العلم هو الاسم الأكبر الحي القيوم.

إذن هنا ما الذي يقع؟ أنتم طلبة إن شاء الله كذلك، استوعبتم هذا الكلام، لو أحضرنا العوام في المسجد وذهب خطيب مثلي أو خطيب يعني ضعيف مثلي أو قوي مثل غيري، فوقف على الخطبة وجعل يقول للناس: هذا رجلٌ ضال عما قلنا الآن ويقول: فلان يقول: إن الله شيء، العامي ماذا يفهم؟ يفهم أن هذا المتهم وصف الله عز وجل بالمخلوق، لأن هؤلاء العوام لا يتصورون الشيء إلا مخلوقاً، في هذه الدنيا لا يتصورون، هذا الذي أريده أن نفرق بين إطلاقات المتكلمين وإطلاقات العلماء وكيف خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية يستخدمون الألفاظ التي تطلق في كتب الكلام من أجل تجييش العوام ضده ونسبة أقوال الباطل له، المشكلة لو هذه نوقشت بين أهل العلم لربما وصلوا إلى نقطة، خلاف إطلاق هذا اللفظ ولكن معناه صحيح.

يعني يقول أحد لماذا يأتي شيخ الإسلام، لأن ابن رجب ذكر في طبقات الحنابلة أن بعض أهل العلم عابوا عليه الدخول في هذا الباب وقال: يكفي أن تكون على مذهب أحمد في الكلام في النصوص من غير التعمق في الكلام وعليك بالمذهب الشافعي أنه كان يكره الخوض في علم الكلام يعيب عليه هذا من بعضهم، لكن لم يعيبوه على المعاني التي قالها، وإنما عابوا عليه الوسائل التي سلكها، لا يحبون هذا، فربما لو جلس طلبة علم مهما اختلفوا في الباب، ماذا سيقولون عن ابن تيمية بعد ذكر هذه المعاني له؟ يقول: ليته لم يقلها وأنتهى الموضوع، لكن هل يصفونه بأنه ينسب إلى الله عز وجل الجسم الذي يحس بالة الإحساس المادية الظاهرة من البشر، هل ينسبون له هذه النسبة؟

لا ينسبون له هذه النسبة، ويقول: نعم كلامه لا أحبه لا أرضاه لو أنه ابتعد عن هذا الكلام، هذا نصف الطريق لا بأس يقع هذا الخلاف، وهو خلافٌ لا بأس به ولا يرفض ويبقى الكلام عن الوسيلة لا الكلام عن الموضوع.

لكن أن يأتي هؤلاء الجهلة الخصوم هؤلاء غير العادلين وغير المنصفين، ويقول عند العوام: إن ابن تيمية يقول: إن الله شيء، أو يقول: انظر إن ابن تيمية يقول: إن الله جسم، والعامي لا يفهم كلمة جسم إلا بما يحس بالإحساس الظاهر باللمس، حتى كلمة إحساس هذه لأن ابن تيمية يقول: هناك إحساس باطن وإحساس ظاهر، هم يحملون كلامه على أن الإحساس الظاهر يعني اللمس الشم إلى غير ذلك، وهذا كله باطل.

المراد: بأن هذه الكلمات الموهمة –هذه الكلمات التي تكلمنا فيها مثل قضية شيء الجسم إلى غير ذلك متحيز إلى غير هذا من هذه الكلمات– إذا حملت للعوام لم تفيد إلا المعنى الباطل، ففعل هؤلاء الجهلة في حملها على المعنى الباطل عند العوام إنما هو من الكذب والافتراء على قائلها، هذه ما ألفت الكتب من أجل أن تحمل للعوام، العوام ينبغي قبل أن نتكلم معهم بعلم الكلام أن نمهد لهم هذه العلوم وأن نبين لهم معنى هذه المصطلحات حتى يتصوروها تصوراً صحيحاً ثم بعد ذلك يتكلم معهم بما فيها، أما أن تحمل كلمات أهل العلم الاصطلاحية على كلمات العوام كما يتصورون في أذهانهم فهذا منتهى الظلم.

نقف عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [البقرة: ٢٠]، فهذه الآية محكمة، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ﴾ [البقرة: ٢٠]، هذه من العموم التي تدخل على جميع أفراد ما بعدها، فهنا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾، لا أريد أن أقول هنا الله شيء أو غير شيء إلى آخره هذا الكلام من المتكلمين ولا قيمة له، يكفي هذه ما فيها.

هنا رأينا أن أقسام الناس –بحسب ما رأينا– إما مؤمن وإما كافر وإما منافق ثابت على نفاقه وإما منافق متقلب إلى هذا وإلى هذا، وهذا النوع الثاني من النفاق المتردد هو الذي يمنعك أن تحكم على المنافق من هذا النوع على إيمانٍ وعلى إسلام، وبالتالي عليك أن تعامله بالظاهر أن تصلي عليه أن يوزع ميراثه ميراث المسلمين كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم.

إذن من أسباب عدم الحكم على المنافق بالكفر والردة هو وجود هذا النوع من النفاق المتقلب وهكذا يأتي هنا ويأتي هنا ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، إما مرض كما تقدم الذي ذهب بهم إلى درجة الشلل وعدم القيام بالشيء وإما المرض الذي يقف على الحافة فيأتي فيتجاوز إلى الكفر مرة ثم ينشط فيقوى فيأتي إلى الإيمان مرة أخرى كما في الحديث.

هؤلاء الموصوفون في هذه الآية جاء الخطاب إليهم بقوله تعالى في الآية التي تليها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)﴾ [البقرة: ٢١]، يقول بعض أهل العلم: إن هذا الأمر الإلهي هو أول أمرٍ في القرآن، وأنتم كما رأينا ومررنا لم نجد صيغة أمرٍ صريحةٍ في اللفظ قد تقدمت، وإنما أول صيغة أمر بين أيدينا في كتاب ربنا هو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)﴾ [البقرة: ٢١]، هذا الكلام صحيح إذا حمل معنى الأمر على جهة اللفظ، ولكن بلا شك تقدم أن كل القرآن أوامر حتى الأخبار أوامر حتى الأمثال كما رأينا أوامر كما ضربنا مثلاً في سورة «الفتح»، ومما احتج به مالك رحمه الله.

فإذن لما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، فهذا أول أمرٍ جاء بصيغة الأمر لفظًا، وإما إذا قصد بالأوامر المتضمنة للأخبار والمتضمنة للأمثال فإن كل القرآن أوامر كما تقدم، هذا الأمر هو شاملٌ لكل هؤلاء الأصناف، يعني هو شامل للمؤمنين المتقين وهذا الأمر كذلك موجه إلى الكافرين وموجه إلى المنافقين بأصنافهم الأربعة، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، كلمة العبادة تقدم الكلام عليها، عند قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

ونعيد سريعاً في أن العبادة هي امتثال أمر الأمر ظاهراً وباطناً، وكذلك تصديق خبره ظاهراً وباطناً، وأساس كلمة العبادة من التعبيد وهو التسهيل، وبالتالي ما دام هو مسهل ومأمور فيستجيب، ومُخبر بالخبر فيصدق، إذن هو مملوك، ولذلك صارت كلمة عبد تعني الْمُلك أنه عبدٌ له أي مُملوك له، ذلك لأن مراد الْمُلك هو استجابة الأمر، مراد الْمُلك هو أن يستجيب المأمور أو المملوك لمالكه وسيده يأمره فيطيعه، ينهاه فينتهي، يخبره فيصدق، ولكن أساس كلمة العبد هو هذا هو التسهيل أنها سهلت.

ولابد أن ننظر أن العبودية لله لا تستقيم بالظاهر فقط، لابد أن تستقيم بالباطن كذلك، فلذلك ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، ليس أمراً للظاهر فقط، ولكنها كذلك أمر للباطن فلا بد ترك الاعتراضات الباطنة على الله عز وجل، وهذا هو تمام التسليم لله عز وجل، ومن هنا يقابل كلمة العبد الأحكام التي تشرع لهذا العبد اسمها الإسلام، وهذا الدين الذي يعطى لهذا العبد اسمه الإسلام، لأن أساس الإسلام قائمٌ على ... قلنا العبودية قائمة على التسهيل واستجابة لأمر الأمر وتصديق لخبر المخبر جل في علاه، وبالتالي فما جاء به موضوعٌ تحت لافتة الإسلام، لأن الإسلام مأخوذٌ من التسليم، التسليم المطلق، ما معنى التسليم المطلق؟ يعني عدم الاعتراض يعني أنها مسهلة فلا يوجد فيها الاعتراض، ومن هنا أخذ شارعٌ معبد، شارعٌ معبد يعني أزيلت منه عوائق المشي عليه.

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، لجميع الناس هذا أمرٌ لجميع الناس، وهنا أعطيكم فائدة، وهي: ما هي شروط التكليف؟ الآن تأتون أنتم إلى كتب الفقه، فتبحثون عن شروط الصلاة تجدون أول شرط من شروط

الصلاة هو الإسلام، أول شرط من شروط الصلاة يعني لا تصح إلا بأن يسلم، فلو صلى بغير إسلام لا تقبل منه ولا تسقط عنه، لا تصح منه، يعني لا تخلو ذمته من الأمر.

فإذن شروط المكلف في الفقه هو الإسلام، وما هي شروط المكلف في التوحيد؟ شروط المكلف في الفقه هو الإسلام، فهل يجوز لك أن تقول شروط المكلف في التوحيد هو الإسلام؟ لا، شرط الإسلام في التكليف لمسائل التوحيد لا يوجد، لأن الإسلام هو مكلفٌ لكل الناس، فالمكلف بالتوحيد ليس من شرطه الإسلام لأن الإسلام ليس سابق على التكليف، بل التكليف أولاً ثم الإسلام ثانياً، بخلاف الصلاة الإسلام أولاً ثم الصلاة، كما في حديث معاذ رضي الله عنه عندما أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فقال: (أمرهم أن يقولوا لا إله إلا الله فإذا أجابوك فأمرهم بالصلاة)، إذن جعل التوحيد ثم الصلاة.

لكن التوحيد وعبودية الله عز وجل أي الاستجابة لتوحيد الله عز وجل، هو شرطٌ لكل الناس، ومن هنا قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، فجاء التكليف لكل الناس، هذا تكليفٌ للكافر وتكليفٌ للمسلم وتكليفٌ للمنافق، تكليفٌ لكل أحدٍ بما هو واجبٌ عليه، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، كما أنه أول أمرٍ في القرآن بلفظه فدل على أن أول أمرٍ مأمورٌ به الإنسان إنما هو التوحيد.

فأول أمر مكلف به الإنسان هو أن يوحد الله عز وجل، لأن أعظم عبادة هي التوحيد، بل لا تصح العبادة إلا بالتوحيد، فلذلك كما أن هذا أول أمرٍ في القرآن فأول تكليف يوجه إلى الإنسان بعد بلوغه بل عند بعض أهل العلم عند تميُزه عندما يصبح مميزاً، وهو أن يؤمر بالتوحيد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾.

في هذا أيها الإخوة الأحبة رد على من جعل مقدمات قبل التوحيد، يعني هناك من المتكلمين جعلوا شروطاً لتسبق توحيد المرء ومن ذلك لابد من النظر، ما هو النظر؟ قال: الأدلة العقلية وبالتالي نشأت مسألة ما قلتها لكم سابقاً وهي مسألة إسلام المقلد أيصح منه؟ توحيد المقلد أيصح منه؟ قلت لكم: هي مسألة أصلاً ناشئة، ناشئة عن ماذا؟ ناشئة من هذا الخطأ الذي زعمه الزاعمون بأن الواجب على العبد أن ينظر ويفكر ويناقش.

أي أنتم يا أيها المتكلمون تجيزون له أن يعيش فترة بعد العقل وبعد التميز وبعد الإدراك أن يعيش لحظةٍ بلا إيمانٍ وبلا كفر ولكنها لحظة استطلاع ولحظة تبين، فلو مات عليها ماذا تقولون؟ وأنتم أيها المتكلمون تعلمون كلام الفقهاء في كتبهم لو أن رجلاً جاء لفقيه -كما ذكر هذا الهيثمي- لو أن رجلاً جاء إلى فقيه وقال له: أريد أن أسلم، فقال له: انتظر لحظة، كفر الفقيه، لو أن رجل دخل على واحد مسلم سواء على فقيه أو على خطيب أو على عالم قال له: أنا لو سمحت جئت لأُسلم، فما الواجب علي؟ يقول له: قل لا إله إلا الله محمد رسول الله، فلو قال له: انتظر حتى أحضر الشاي من المطبخ انتظر قليلاً حتى أتبين أنك مسلم ولا غير مسلم، أنك تستهزئ أو لا تستهزئ، كفر

هذا الفقيه وكفر هذا الرجل، وعللوا كفره لأنه رضي لهذا الرجل أن يكفر ولو للحظة، فمن أجاز لأحدٍ أن يكفر للحظة فقد كفر، لا يجوز لك أن تجيز الكفر بحال.

وهؤلاء المتكلمون الذين زعموا أنه لابد من النظر، بعضهم قال: لا، حتى النظر هذا ليس هو المطلوب الأول للمكلف إنما هي الوسيلة للنظر، النظر هو البحث فأين آلية النظر؟ قال: عليه أن يتعلم آلية النظر من أجل أن ينظر بعد ذلك يختار التوحيد، وهذا بلا شك أنه لم يحدث قط إلا عندهم، وإلا الناس فيؤمنون أغلبهم بفطرهم، يعني الذي سمع القرآن، نأتي لبعض الناس سمعوا فملأ عليهم قلوبهم ولا يعرفونه، فقالوا: ما هذا الدين؟ فقال: هذا الإسلام، فقال: والله هذا قرآن عجيب أسلمت، أين النظر؟ أين الأدلة التي يزعمها المتكلمون، ولا يصح إسلام المرء أو المكلف إلا بها، لا وجود لها.

ومن هنا نشأت -كما قلت لكم سابقاً- نشأت مسألة توحيد أو إيمان المقلد، وقلنا: هذه لا وجود لها، وإذا وجدت فهو كافرٌ قبل أن يؤمن، لو أن رجلاً قال: أنا على دين فلان أسلم أم كفر أصاب أم أخطأ، هذا لم يسلم قط، هذا أصلاً لم يسلم، وهذا بلا شك أنه يعبد غير الله عز وجل.

إذن الأمر الأول الذي ينبغي أن يعتنى به في تربيتك لأبنائك، في تعليمك لغير المسلمين بل في تعليم المسلمين، وهو أن تعلمهم العبادة، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١].

هنا نأتي لكلمة مهمة جداً لابن القيم رحمه الله ذكرها في كتابه «بدائع الفؤاد»، قال: «بأن المفتاح العلوم هو أن تعلم مصطلحات القرآن والسنة»، يمكن للخطيب يمكن لك أن تقول للناس: اعبدوا ربكم، ولكن ما هي العبادة؟ وكلمة العبادة كلمةٌ محورية في القرآن، ومن هنا فعليها مدار القرآن، ولذلك لما جاء أبو الأعلى وإن شاء الله ربما نختار هذا الكتاب ونناقشه وهو المصطلحات الأربعة في القرآن ومنها العبادة، واختلف الشيخ أبو الحسن الندوي مع أبي الأعلى المودودي في كلمة العبادة بما سنأتي إليه في غير هذا الموطن لأنه لا يهمنا الآن، ولكن لابد من طالب العلم ولابد من الرجل حين يخاطب بالكلمة أن يتصورها تصوراً تاماً لا زيادة فيها كما فعل الخوارج ولا نقص منها كما فعل المرجئة، بل علينا أن نتصور الكلمة القرآنية المصطلح القرآني تصوراً يصنعه القرآن نفسه، هذا شرط مهم.

أي قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، الله عز وجل لم يعطنا هذا الأمر وترك لنا وسيلة تحقيقه، فلم يقل اعبدوا ثم أنتم بعدها ابحثوا عن الوسيلة التي تحبونها في تحقيق العبودية لي، بل جل في علاه أمرنا بالعبادة وبيّن لنا وسائل وطرق وتكليفات العبادة لأنه لا اختيار للعبد مع الله عز وجل، فهو عبد لا اختيار له، فأي أمرٍ ينشئه العبد من جهة نفسه ليحقق عبودية الله عز وجل في الحقيقة هو عبد نفسه لم يعبد الله عزو جل، هذه أشرحها مع زيادة بسيطة ميسورة.

أعيد الكلمة: من سعى إلى تحقيق عبودية الله عز وجل بما يرى هو من عبادة فإنما عبد نفسه ولم يعبد الله عز وجل، وهذا الذي يحقق قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣)﴾ [الفرقان: ٤٣]، الذي يسلك طريق العبادة التي تمليها نفسه عليه أو يمليها غير ربنا جل في علاه عن طريق رسوله عليه فقد عبد غير الله عز وجل.

ومن هنا فمن أعظم قربةً عند ربنا الواجب أو المستحب؟ الواجب، لماذا؟ لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: (وما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بشَيءٍ أحَبَّ إلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عليه)، لماذا كانت الفريضة أحب إلى الله عز وجل من النافلة؟ ذلك لأن الفريضة هي أمر الله عز وجل الملزم لك ولا اختيار لك فيه البتة بخلاف المستحب، المستحب أمرك به وترك لك اختيار -قلت مرتبة- وترك لك اختيار فعله أو تركه، فكان ما أمرك به مع عدم وجود حق الاختيار لك أعظم عند الله عز وجل من الأمر الذي ترك لك حرية الاختيار فيه، من أجل هذا كان الفرض أحب عند الله عز وجل من النافلة.

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، من هنا قال بعض أهل العلم -لهذا المعنى الذي قلناه- قال بعض أهل العلم: إن مدار عماد سورة «البقرة» لتحقيق العبودية له، على ماذا يدور محور سورة «البقرة» وموضوع سورة «البقرة»؟ على تحقيق العبودية له، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، يقال له: كيف نعبدك؟ فقال: هذه السورة هي شرحٌ في كيفية العبادة.

ومن هنا جاءت فيها الأحكام المتعددة، جاءت في أحكام النكاح، أحكام الطلاق، أحكام الرضاع، أحكام الجهاد، الصلاة تحول القبلة، جاءت فيها الصلوات، صلاة الخوف، وجاءت فيها من الأحكام جاء فيها الدين جاءت فيها الربا، بل خواتيم سورة «البقرة» هي خواتيم ما تنزل من أحكام، آخر حكم نزل من السماء أحكام الربا، وجاءت هذه السورة بخواتيم هذه الأحكام، انظر، فجاءت هذه السورة شاملة لأنواع ما يحتاجه الإنسان مع نفسه مع ربه مع المؤمنين مع الأزواج، مع زوجته مع أبنائه في الرضاع ... إلخ، وجاءت كذلك مع الكافرين والإعداد، وجاء فيها كذلك بيان تاريخ الإنسان في السماء وفي الأرض، كما سيتبين في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [ص: ٧١].

فإذن هذه السورة يدور أمرها على العبودية، ثم جاءت هذه السورة كذلك بعد بيان العبادة ببيان أحوال الناس مع هذه العبادة، بينت أحوال الناس مع الأنبياء عليهم السلام، كيف كان الناس مع موسى عليه السلام، كيف كان الناس مع أنبياءهم كيف كان الناس مع إبراهيم عليه السلام مع المجادلين إلى غير ذلك مما احتوته هذه السورة.

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، هنا انتبهوا إلى ما تقدم مرةً من الحديث قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، نرى في هذين اللفظين ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ نرى فيها إقرار لواقع وأمر لما يطلب منك، أما قوله: ﴿اعْبُدُوا﴾، فهو الموجه إليك، وأما قوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، فهي مما أنت متلبسٌ به قدر لا اختيار لك فيه،

أنت ترى هنا أن الإنسان موجه إليه أمرٌ إن شاء فعله وإن شاء لم يفعله وهو قوله: ﴿اعْبُدُوا﴾ فلو عصى يمكن له أن يعصيه، يمكن أو لا يمكن؟ موجه إلى إرادته، والإرادة حرة، لكن لما قال سبحانه وتعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ فدل على أن المخاطب وهو الله عز وجل، ولما وصف بالرب دل على أن الرب ملتصقٌ بك باختيارك وبعدم اختيارك.

فإذن الربوبية قدرٌ لا انفكاك للعبد منه، من الذي خلقك؟ الرب، هذا ليس باختيارك، من الذي يميتك؟ من الذي يرزقك؟ من الذي يفعل بك؟ الله عز وجل إذن الرب لا اختيار للعبد فيه، فمن هنا جاءت النسبة قال: ﴿رَبَّكُمُ﴾، وهذا الخطاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، دخل فيها الكفار أم لم يدخل الكفار؟ دخل فيه الكفار، فهل الكفار الله هو ربهم؟ نعم، لكن هل هم عبيدٌ له فيما أمر؟ ليسوا عبيدًا له، هذا أمر مهم، فقوله كما قال هذا توصيفٌ وبيانٌ لما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢]، مؤمن وكافر هو ربهم هو الذي خلقهم هو الذي يرزقهم هو الذي يميتهم، هو الذي يحييهم، وكلهم خاضعٌ لقدره رغم أنفه، بخلاف العبادة فإنها أمرٌ إلهي رتب عليها الثواب والعقاب فتعود إلى اختيار الإنسان.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، هنا بعد أن بينا أن الرب هو أمرٌ قدري لا انفكاك عنه، بما استحق هذا الوصف الذي هو ليس اختيار العبد؟ ما هو أول موجبٍ لكون أنه ربٌ لهم، ماذا قال؟ قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، فإذن الذي له حق الوصف بالربوبية هو من؟ الذي خلق، وبهذا الوصف وهو أنه رب العالمين استحق أن يُعبد منك، فبناء العبودية على استحقاق ربنا أنه رب ولم يتحقق له وصف الرب إلا لأنه هو الذي خلقهم، ولكن هنا نتكلم على استحقاق القدر له، وأما فربنا سبحانه وتعالى خالقٌ قبل أن يخلق الخلق، ربنا استحق وصف الخالق قبل أن يكون هناك مخلوق، لأن هذه صفاتٌ أزليةٌ له، وكما أن القول في الذات أنها أزلية فكذلك القول في الصفات أنها أزلية كذلك.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، يقول أهل العلم: أداة النداء الوحيدة المستخدمة في القرآن هي «يا»، أداة النداء الوحيدة أو يسمونها النداء أو حرف النداء «يا»، هي ما استخدم في القرآن فقط، وإذا قيل أعطني أداة نداء لا يخطر على الناس إلا «يا»، ويزعمون أن «يا» إنما هي للبعيد، وهذا الحقيقة فيه كلام وإنما تستخدم للبعيد والقريب اكتفي بهذا اليوم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

الدرس التاسع والعشرون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

هذا هو الدرس التاسع والعشرون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

تقدم القول في العبادة هو أنها أمرٌ من الله عز وجل وهنا لم نرى اختصاص العبادة كما هو ظاهر لكن في الحقيقة هي موجودة بمعنى أن هذه العبادة لا تجوز ألا تعبدوا إلا الله، فقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، لو أخذناها فقط هكذا فإنها كما هو يظهر لأول وهلة أنها ليس فيها نفي العبادة عن غير الله عز وجل، لكن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، فإن كلمة ربكم هنا تدل على الاختصاص بمعنى أنه لا يجوز أن يعبد إلا الرب، الرب المطلق، لأن هناك أرباب النسبة، كمن يربيك كمن يطعمك كمن يتصدق عليك كأمك كأبيك فهذا رباك، فهو رب أو المالك بمعنى المالك الجزئي.

واختلف العلماء تقدم الذكر ربما في درسٍ فائت هل يجوز إطلاق كلمة الرب على غير الله عز وجل؟ المجمع عليه أنها كانت جائزة في الأمم السابقة، لما ورد في سورة «يوسف» ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]، وهذه كلمة يوسف عليه السلام فدل على أن الأمم السابقة كانوا يستخدمون هذا اللفظ للدلالة على معناه الجزئي في الرب، لكن اختلفوا بعد ذلك هل يجوز في الإسلام أن تطلق؟ هناك من منعها، رأيت كلاماً لشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله يمنع إطلاق كلمة الرب على غير الله عز وجل بالنسبة لهذه الأمة، أي حكم هذه الأمة، لكني وجدت أن النبي صلى الله عليه وسلم استخدمها في قوله صلى الله عليه وسلم عندما شكا له الجمل، فقال: (من رب هذا الجمل)، فاستخدم من صاحبه، والأمر قريب إن شاء الله، لكن بلا شك أنها لو أطلقت وكانت موهمة لا تجوز، موهمة أي أوهمت تعظيماً كقولهم: ورسولنا يعلم ما في غد أو ما شاء الله وشئت، فينهى عنها مخافة الوهن بالباطل.

فقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، دل على الاختصاص، وإن بدا أنها ليست كذلك لقوله: لا يجوز أن يعبد إلا الرب المطلق، تفسير الرب هنا فيما يلي، من هو ربكم؟ الذي خلقكم، فهذا هو وصف الرب مفسراً في كتاب ربنا، فلا يجوز لأحد أن يتلاعب بهذا اللفظ من جهة نفسه.

فقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾، والخلق هو الإيجاد من العدم هذا هو أصله، لكن يجوز أن يطلق على تصوير هذا الموجود وتحوله يجوز، قال صلى الله عليه وسلم: قال تعال: (ومَن أظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي)، وقوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، فدل قوله: (يَخْلُقُ كَخَلْقِي)أي يصور، هو لا يوجد من العدم، لكن هو يصور فالتصوير يطلق عليه كذلك الخلق، لكن أصل كلمة الخلق هو الإيجاد من العدم على غير مثالٍ سابق، فإذا كان في التصوير على غير مثالٍ سابق سمي الإبداع، إذا كان التصوير أي التشكيل على غير مثالٍ سابق يسمى الإبداع، لكن الإيجاد من العدم يسمى الخلق، فإذا سوي هذا الشيء على غير مثالٍ سابق يجوز أن يطلق عليه الخلق كما تبين.

فالله عز وجل هو الذي أوجد الناس من العدم، وأوجد أصلهم من العدم فليس هناك شيءٌ سبق الرب حتى يخلق منه شيئا، بل الله عز وجل خلق التربة ثم خلق من هذه التربة الإنسان وغيره، كما التراب يخرج منه كذلك الزرع وما شابه ذلك، فقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، أي أوجدكم على غير مثالٍ سابق، قال صلى الله عليه وسلم: (كانَ اللَّهُ ولَمْ يَكُنْ شَيءٌ غَيْرُهُ)، فالله عز وجل خلق كل شيء وهذا مجمعٌ عليه، مجمعٌ على أن الله عز وجل خلق كل شيء.

ولما جاء ابن حزم إلى كتاب «الإجماع» وجاء لهذه اللفظة، وقال: بأن من الإجماع أن الله عز وجل خالق كل شيء فعلق عليها ابن تيمية في نقض مراتب الإجماع، قال: المعتزلة يقولون: بأن الإنسان يخلق فعله، والحق أن هذا الاعتراض غير موجه توجيهاً ينقض مراد ابن حزم، وإن كان قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

أولاً: وإنما الحديث عمن يصح نقدهم للإجماع، والمعتزلة أقوالهم لا تنقض الإجماع، والحديث عن إجماع أهل السنة ولا شك والمعتزلة الذين يقولون: إن الإنسان أي الحيوان يخلق فعله، فهذا قولٌ باطل ولا ينقض به الإجماع.

ثانياً: إن هذا الذي قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تعقيبه على ابن حزم ليس تعقيباً على مراد ابن حزم، والمعتزلة كذلك يقولون: «إن الله خلق القدرة في الإنسان ليخلق فعله»، ففي النهاية تنتهي إلى ما قاله ابن حزم، فهذا الإجماع هو صحيح أن الله عز وجل خالق كل شيء، لا أريد أن أخوض إن شاء الله يقدر الله عز وجل نرد رداً تفصيلياً على من زعم أن ابن تيمية يقول: بأن هناك أشياء مخلوقة خارج الإرادة الإلهية، بمعنى يسمونه حوادث لا أول لها.

وهنا فقط أريد دائماً وأكرر لكم إياكم أن تغتروا بألفاظ المتأخرين في توجيههم لكلام المتقدمين، مثلاً: كلمة المحارب اليوم يلعبون عليها مثلاً -أنا أكرر هذا الكلام لأني لا أدري يسمع فقط في هذا الشريط أو هذا اللقاء، ولا أريد أن أقول: وارجعوا إليه في مكانٍ آخر، فالناس ربما لا يسمعون إلا هذا، فأكرر لا بأس من هذه الطريقة وهي طريقة العلماء، العلماء يكررون كلامهم ونحن نقتدي بهم عسى أن ندخل في زمرتهم-،

مثلاً: كلمة المحارب، يأتي مثال الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه «الجهاد كيف نفهمه وكيف نمارسه» فيتلعب بهذا المصطلح الفقهي، الذي جعل المراد منه ما يريده المعاصر منه، يعني لو جئت للعامي اليوم الذي لا يفهم اللغة وقد اصطبغت كلماته بالمعاني إما بأصلها بالوضع اللغوي وإما بتحورها التاريخي، وإما بصناعتها.

ونحن نستخدم كثيراً الكلمات بحسب وضعها اللغوي، يعني هكذا العرب تكلموا بها، يعني عندما يأتي المغربي ويقول: عن العافية أنها النار، فهذه كلمة فصيحة، نحن نقول: العافية يعني من البراءة، البراءة من العلة، البراءة من المرض، البراء من الأذى، فنقول: نسأل الله العفو والعافية، أي أن يعافينا مما يؤذينا، المغاربة يقولون: العافية هي النار، وهي كلمة فصيحة الأصل أن أهل اللغة استخدموها لهذا لأن العافية مما تعفو، كما أن العافية تعفو المرض أي تسيء له، فكذلك النار مما تعفو أي تزيل، لو جاءت النار تحرق فتزيل فتسمى العافية، فهذه كلمة تستخدم من كلام العرب ولعامة كلامنا إنما هو بأصل وضعه اللغوي.

وهناك كلمات استقرت في أنفسنا تاريخياً وعلى غير وضعها اللغوي، مثل كلمة بهلول، نحن الآن نخفف ونقول: بهلول، بهلول عندنا مجنون، أو كما يقول العوام عندنا على البركة، بُهلول في وضعها عند العرب تعني الرجل الشجاع الكريم السيد في قومه، وذلك من مدح حسان بن ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقومه وقال: «بهاليل من آل عبد شمس»، فالبُهلول هو رجل عظيم، لكن تغيرت تاريخياً فجاء الصوفية فصاروا يسمون مجانينهم بهاليل تعظيماً لهم، فالناس اصطبغت في أذهانهم أن البهلول هو هذا المجنون، فصار المجنون هو البهلول، تغيرت الكلمة، وهكذا الكلمة قد تتغير، يتغير معنى أصلها اللغوي إلى الوضع الشرعي، إلى الوضع الاصطلاحي.

ولكن كذلك لأن اللغة حية تموت منها كلمات وتحيا كلمات وتتغير معاني الكلمات، فمثلاً: الآن كلمة محارب ماذا تعني عندنا؟ مقاتل، كلمة محارب تعني مقاتل، فيأتي الفقيه ليتلاعب بدين الله فيأتي إلى كلمة المحارب الفقهية التي لها تفسير، يعني عند الفقهاء هناك باب بعض العلماء ألف فيه وهو بيان مصطلحات الفقهاء، بعضهم يؤلف فيه وبعضهم يشرحها خلال الكلام، فيأتي إلى كلمة محارب في الفقه وينزل معناها في كتب الفقهاء يجيرها على معاني المعاصرين، محارب عند المعاصرين مقاتل، يعني الإنسان المقابل للمدني، وهذا اصطلاحٌ حادث.

ولو ذهبت إلى كتب الفقه لا يعرف هذا أن المحارب مقابل المدني، ولو سألت الفقهاء لوجدتهم يقولون: «كل كافرٍ -مقاتل أو غير مقاتل- ليس بينه وبين المسلمين عهدٌ فهو محارب»، وبالتالي المدني الذي عندنا مدني لا

اختصاص لها في الأحكام، والدليل على هذا أن المسلمين لما دخلوا وقاتلوا المحاربين المقاتلين بحسب تفسير اليوم المقاتلين فدخلوا البلاد غنموا المدنيين وغير المدنيين بحسب التقسيم المعاصر، الطفل الصغير الذي في البيت يؤخذ فيسبى، ما ذنبه هذا؟! هذا لا يقاتل، نعم لا يُقتل لأن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل الأطفال والذرية ونهى عن قتل النساء وقال: (ما كانت هذه لتقاتل)، هذا موضوع آخر، نحن نتكلم عن السبي، لأن كل واحدٍ له حكمه، فهذا الطفل الصغير اسمه محارب مع أنه لا يقاتل، فالمحارب هو كل كافر، إما أن يكون كافراً على الحقيقة أو كافر حكم، كيف كافر حكم؟ لأن الولد يتبع خير الأبوين دينا، فإذا كان أبوه كافراً يلحق به، مع إنه على الفطرة، لكن في أحكام الدنيا يلحق بأبيه أو يلحق بأمه بحسب خير الأبوين دينا، يعني كان مجوسي أو نصراني أو يهودي أو كافر ملحد أو كافر مشرك، إلى أنواع الكفر الموجودة.

فانظروا هذا معنى الكافر في لغة الفقهاء، وهذا الذي نص عليه العلماء، هذا اللفظ منصوص عليه في كتب الفقه، أن المحارب هو كل كافرٍ ليس بينه وبين المسلمين عهدًا، فيأتي الشيخ البوطي إلى كلمة محارب ويتلاعب بها بإنزالها على المعنى المعاصر، فيقول: انظر العلماء يقولون: لا يُقتل إلا المحارب، طبعاً يفرقون بين القتل والقتال كما يقول الإمام الشافعي والقتال غير القتل، القتل هو أن تقصده قتلاً، القتال يقاتل فقد تقصده وقد لا تقصده، فيأتي ويقول: انظر المحارب هو الذي نص على قتله، وبالتالي ماذا يقول وراءها كذبًا وزوراً؛ فدل أن المدني لا يقتل، فأنزل كلمة المحارب منزلة الكلام المعاصرين، هذا ما يتلاعب به، هذا هو دين هؤلاء القوم أو هذا مقدار علمهم.

نفس كلمة حوادث أنا ضربتها لتكون مدخلاً لي في قضية الحوادث، ما معنى كلمة الحوادث؟ الحوادث عند الناس تقول: حادث فأنه لا ينشأ في ذهنك إلا المخلوق، هذا ليس إنشاءً مطلقاً لكنه إنشاء المتكلمين، أول من قال هذا وألزم الناس به هم المعتزلة، قالوا: كل حادثٍ مخلوق، لأن أخص خصائص الرب هي القدم، ما أخص خصائص الإلهية عند الصوفية؟ الغنى، ما هي أخص خصائص الربوبية عند المعتزلة؟ القدم، وبالتالي كل ما ينشأ بعد أن لم يكن فهو حادث وبالتالي يساوي مخلوق، هذه القسمة أدت بهم إلى إلزام القرآن بمعاني لم يقلها، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ﴾ [الشعراء: ٥]، فكلمة ﴿مُحْدَثٍ﴾ هنا لها معنى في القرآن، لكن لما كانت كلمة محدث عندهم لا تعني إلا المخلوق فإذن الآية مُحدثة إذن هي مخلوقة، هذا إحدى أدلة المعتزلة على أن القرآن مخلوق، بعد أن لم يكن.

وبالتالي ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، إذن حصل الكلام بعد أن لم يكن، والصفة تابعة للذات أي القول في الصفات كالقول في الذات، فلما كانت الصفة هنا حادثة دل على أنها ليست قديمة، فدل على أنها ليست صفة إذن هي مخلوقة.

وفي القرآن لا يجوز لأحد أن يلزم ألفاظه بمعاني وضعها الناس لأنفسهم، يجب أن نعرف معاني الكلمات في القرآن بحسب وضعها القرآني، وبالتالي –وأنا قلت لكم مرة وهنا أنبه عليها، وإن شاء الله يأتي يوم اشرحها شرحاً موسعا–: على أنه من شروط المفسر ومن طرق الترجيح في كلام المفسرين أن تجمع الكلمة من كل القرآن وينظر إلى دلالتها فإن دلت على معنى اتفقنا عليه، حملنا اللفظ المختلف فيه على ما ورد به اللفظ في بقية الآيات، ومثلوا أمثلة كثيرة نأتي إليها في وقتٍ آخر.

يعني نأتي لكلمة هذه الكلمة مختلف ما معناها؟ ككلمة ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ننظر إلى كلمة ﴿تَطَهَّرْنَ﴾، ننظر ما معناها في القرآن فاختلفوا فيها، مثلاً الجمهور قالوا: ﴿تَطَهَّرْنَ﴾ أي اغتسلن، قال ابن حزم: لا، تطهرن أي انقضت أيام الحيض، ذهب الدم خلاص، فنذهب إلى هذه الكلمة في القرآن ونبحث عما وردت فيه، فإذا وجدناها كما فعل الشافعي رحمه الله، وهذه طريقة الشافعي يأتي إليها، ويصيب ويخطئ ولكنه على الجملة هذه طريقته، وهذه طريقة ترجيحٍ مهمة جداً.

فكلمة ﴿مُحْدَثٍ﴾ هنا ينبغي أن ننزلها على ما أتى به القرآن ليس على ما أحدثه المتكلمون أو الجدد من الناس، فما معنى ﴿مُحْدَثٍ﴾؟ نعم جاء بعد أن لم يكن هذا معنى صحيح، لكن أن تلزمني أن كل مُحدث هو مخلوق هذا منك، ومن هنا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله خلال مناظرته –وهذا هو أساس القضية الذي نحن فيه في قضية خلافه مع المتكلمين يعود إلى هذه القضية– وهو أن هناك صفات إرادية لها تعلق بالإرادة، والإرادة قد تتوجه إلى الفعل وقد لا تتوجه، وهذا من كمالها، كمال الذات أن يكون عندها القدرة أن تتوجه إلى الشيء بالفعل وأن تكف إذا أرادت، أن تتوجه إليه إذا أرادت وأن تكف عنه إذا أردت.

فعندما قال أحدهم لأحد السلف قال: أنا أكفر بربٍ يذهب ويأتي ويقول ويسكت، فماذا رد عليه الآخر؟ قال له الآخر: «أنا أؤمن بربٍ يقدر على ما يشاء»، إذا شاء يسكت، يسكت، وإذا شاء أن يتكلم، يتكلم، إذا شاء خلق وإذا شاء لم يخلق، طبعاً هم اضطروا إلى كلام غريب جداً، فكيف يحدث الخلق مرةً بعد مرة، هذه لم يستطيعوا إلا بالهروب إلى إرادة منجزة وإرادة قديمة وكلام من الغرائب أن يتصور، ولا يمكن تصوره، إرادة قديمة موجودة فإنما أنجزت إرادة واحدة موجودة في القدم مع ربنا عز وجل هذه الإرادة حدثت أفرادها خارج الذات الإلهية لكن الإرادة واحدة، فالإرادة القديمة هي صفة والإرادة المنجزة إنما هي خارج الرب عز وجل.

ومن هنا في النهاية اضطروا إلى القول: بأن الإنسان يخلق فعله، إذن يوجد إرادات تقوم من الذي أنشأ هذا الشيء الآن، من الذي أنشأه؟ نحن نرى أن أشياء تخلق من لا شيء كالسائل المنوي هذا فيه حياة لم يكن، فأنشأه الله عز وجل، أنت في بطن أمك أنت كيف نشأت؟ نشأت بإرادة جديدة وهكذا.

العودة إلى الكلمة فقالوا: أنها حوادث لا أول لها، ماذا قال ابن تيمية؟ ما معنى حوادث؟ إذا هم حملوها على كل شيء وبالتالي أبطلوا الصفات الإرادية، لأنهم قالوا: لا يجوز أن تكون حوادث لا أول لها، فحيث كانت الذات كانت الصفات ومن صفاتها الإرادة، والإرادة تتوجه إلى تكون بعد أن لم تكن، صحيح العلم قديم، العلم ليس هو الإرادة، العلم قديم أزلي لكن الإرادة تنشأ، الله عز وجل أراد بحسب علمه القديم أن يخلق الأرض، فخلق الأرض، قال: كوني فكانت، هذه إرادة حدثت، فهذه الحوادث حيث كانت الذات كانت صفة الإرادة وكان مقتضى هذه الإرادة وتتجدد الإرادة فمن هنا قال: الحوادث بهذا المعنى لا أول لها، بمعنى حيث كانت الذات كانت صفة الإرادة أزلية، فالحديث عن المحدث في كلامه أو الحوادث في كلامه، ليس الحديث الذي يريدونه، أرجو أن يكون قد فهم، ولذلك كلمة حوادث لا أول لها، المقصود به في كلامه إثبات صفة الإرادة كما أثبتها القرآن أي الإرادة التي تتوجه إلى الشيء بعد أن لم تكن.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، هنا لابد من قضية مهمة ونأتي إليها دائماً وسنكررها لأن أعظم ما يفسر به القرآن هو معرفتنا لنفس ربنا ولذاته ولقدرته، فإنما القرآن جاء لهذا، جاء لأن نعرف الله سبحانه وتعالى، نعرف أوامره نعرف ما يحب وما يكره إلى غير ذلك، فقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ فدل هذا على أن موجب العبادة له هو أنه خلقنا، ما الذي أوجب العبادة؟ أنه خلقنا، وهو الذي رزق فدل على أنه مالك فينبغي أن تكون عبد، هو ثبت له صفة الملك وأنت ثبت لك صفة العبودية، طبعاً ما هي أخص عند أهل السنة نحن قلنا: الصوفية أخص الخصائص عندهم هو الفقر والغنى، الغنى في الله والفقر فيك، وأخص الخصائص عند المعتزلة هي هذا، ما هي أخص خصائص الإلهية والربوبية عند أهل السنة؟ أخص خصائصها التأله لأن التأله هو شاملٌ لكل هذا، أي أنه هو الذي ينبغي أن يؤله لأنك عبد، فلماذا نشأت العبودية؟ لهذه الصفات التي فيها.

ولذلك يقول ابن القيم رحمه الله: «كل صفات الرب محتاجة إلى صفتي الحي القيوم»، ومن هنا جاء في الحديث بأن الحي القيوم هو اسم الله الأعظم، هو حي فلولا الحياة ما نشأت الصفات، ولولا أنه قيوم قائم على نفسه وقائم على غيره ما نشأت الصفات.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، العلماء وقفوا لماذا؟ ﴿خَلَقَكُمْ﴾ هي خطاب للإنسان، وخاضوا في هذا خوض نأتي لبعضه وسأذكر إن شاء الله ما وقع في القلب عند التأمل في هذه الآية، الذي قاله بعضهم: المقصود بذلك أن الخطاب وقع ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، أي المخاطبين بالقرآن في زمن البعثة، وجاء هذا بأن هذا خطاب لمن قبلهم فهو تنبيه لما وقع من خطابٍ مماثلٍ للأمم السابقة، وهذا قول أغلب من قرأت لهم يقولون: هذا المقصود ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، أي الإنسان قبل

المخاطبين بهذا القرآن، وإنما ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، هو خطاب القرآن لمن أنزل عليهم القرآن، ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، أي كان هذا خطاب الله عز وجل للأمم السابقة قبلكم، هذا قول جيد ومقبول.

والذي أعتقده أن هذا تمهيد، أن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، هو تمهيدٌ لما جرى من خلق الإنسان قبل أن يرى نفسه، ما الذي جرى من كيفية خلقه ومن قصة خلق الإنسان، ما الذي جرى؟ وهو تمهيد لقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠]، هذا ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، هي تنبيهٌ أن هناك شيئًا سيأتي والناس يسألون انظر ماذا تصنع هذه الآية، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] فلما نبههم ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، إذن هناك حديث عمن قبلكم، ومن قبلكم، ومن قبلكم، أين ننتهي نحن؟ فجاء الأمر بالخبر عن كيفية خلقه آدم عليه السلام، خلق الإنسان الذي هو قبل كل قبل ينتهي إلى آدم عليه السلام في هذا الإنسان.

فأنا أعتقد أن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، هو تمهيد –فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي– أن هذا تمهيدٌ لما سيأتي وتنويه، بعثٌ لقلب ولعقل الإنسان أن يتأمل فيمن قبله كيف نشاء.

ويمكن بعض أهل العلم يحتج بها ورأيت بعضهم من احتج بها في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، هو تنويهٌ لما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من حكم أباءهم، أي لما النبي صلى الله عليه وسلم سفه أحلامهم وسب ألهتهم وحكم على أباءهم بالكفر والحكم بجهنم، فهو تنبيه لهم أن هذا هو الحكم الذي حكمت به عليكم وقضيت به عليكم وكذلك قضيته على من قبلكم فما جرى من الأحكام التي هي عليكم جرت الأحكام على من قبلكم.

قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)﴾ [البقرة: ٢١]، هنا «لعل» باللام و«عل» هنا العلماء يرون أن «لعل» المقصود بها في أغلب أقوال أهل العلم سوى من خالف المقصود بها التنبيه على العلَية، والأصل علَّ ومن هنا علّة وقالوا: العِلّة، علَّ الشيء أي أتى إليه مرةً ثانية، ويقال: علل، العلل هو أن تشرب مرة ثم إذا شربت مرةً ثانية فيقال: هذا علَّ الشي أي أتى إليه، فقال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)﴾، أي بيانٌ للعلة أن الله أمرنا بأن نعبده من أجل أن نتحصل التقوى، لماذا؟

لأنه تقدم أن التقوى هي مفتاح الخير، تقدم في السورة هذه قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾ [البقرة: ٢-٣] ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فكأنه يقول: اعبدوا ربكم حتى تفلحوا، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)﴾ [البقرة: ٢١]، ذلك لأن التقوى هي باب مفتاح الجنة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)﴾ [البقرة: ٢١] ثم بعد أن بين أصل الخلقة أنها من الله عز وجل، من أين جاءت أصل الخلقة؟ من الله أصل الوجود من الله، ثم هل انتهى الأمر؟ هل خلق الله الإنسان وقذفه في هذه الدنيا من غير تمهيدٍ له؟ من غير تسخير الوجود له؟ فالآن جاء بأصل الخلقة ثم جاء بعد ذلك بالنعم، بعد أن بين أصل الخلقة وهي الموجبة لقضية التوحيد والعبادة، جاء ببيان النعم التي توجب المزيد من الشكر والمزيد من الحمد والمزيد من الالتزام، فبعد أن قال: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

قو له تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾ هنا بلا شك أن هذا تسخير وهذه الآية هي بيان ما بينه القرآن بعد ذلك من تسخير الله عز وجل للسماوات والأرض للإنسان، سخر له السماوات وما فيها وسخر له الأرض وما فيها سخرها للإنسان، وسيبين بعد ذلك القرآن ما هي أدوات التسخير، سيبين وستأتي الآيات لكنها بيان أن الله عز وجل سخر لكم، فأول ما سخر له من أجل أن ينعم ومن أجل أن يستقر وجوده على هذه الأرض، قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾ [البقرة: ٢٢].

وهنا نأتي إلى مسألة مهمة –ذكرتها ولكن لا بأس على قاعدة أننا نكرر– لماذا أتى هنا بكلمة خلق وأتى بكلمة جعل؟ قال: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وهذا ذكرته في تفسير سورة «الأنعام» عند قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ﴾ [الأنعام: ١]، في أربعة عشر موطناً في القرآن جاءت الجعل مقابل الخلق، وبالتأمل وهذا مما قاله العلماء قديماً وليس من الإبداع المعاصر، وقاله جمعٌ من أهل العلم: أن الخلق هو الإيجاد من العدم كما تقدم والجعل هو شيءٌ مخلوق ويسخر أو يبنى عليه شيءٌ آخر، واضح الفرق.

فقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، ماذا قال؟ لما جاء إلى الصفة هناك جاء إلى الأصل، لما جاء إلى الصفة فاستخدم جل في علاه كلمة الجعل.

إذن: إذا كان الحديث عن الأصل في الإيجاد كان لفظ الخلق، وإذا كان الحديث عن الصفة كانت كلمة الجعل.

فقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، الظلمات والنور هي صفة لشيءٍ عارضٍ موجود يكون النور وتكون الظلمة إذا وجد أحدهما انتفى الآخر، فقوله تعالى هنا لما جاء لقضية التسخير، ما قال الذي خلق لكم الأرض، أي لما جاء التسخير القضية متعلقة بالصفة، قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وهناك كلمات يعني هي بذاتها دالة على معناها في ذهن الناس وإن كان البحث عن أصلها من فوائد العلم ومن ملحيه كما يقولون فقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ﴾، الأرض هي هذه التي نحن عليها ذلك لأنه جعلها ﴿فِرَاشًا﴾، فراشًا أي ممهدة، ذلك لأن كلمة الفراش تعطي هذا المعنى، الناس إذا جاءوا إلى الشيء الناعم والشيء السهل والشيء الذي يرتاح عليه الإنسان عَبروا عنه بكلمة الفراش، لأنه ينام عليها ويرتاح عليها ويقضي حاجته عليها، فقال عن الأرض الذي جعلها فراشا، فدل على أنها مسهلة له لقضاء حاجاته.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، دل هذا –وهنا نقطة مهمة– دل هذا أيها الإخوة الأحبة على شيءٍ مهم على أن الشيء لا يحمل صفته بذاته إنما هو يحتاج إلى أمرٍ في إيجاده وأمر إقامته على الصفة التي يريدها الله عز وجل، هذا ضد كلام بعض المتكلمين وهذا ضد الطبائعيين الذين يسمون بالطبائعيين قديماً، وطبعًا كلمة الطبيعة اليوم ليس على المعنى القديم، المعنى القديم عند الطبائعيين هو كالتالي: أنه إذا خُلق شيء على هيئةٍ معينة لا يمكن أن يكون على غير صفته هو يحكم بصفته، ودليل نقده واضح الله عز وجل جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها وقد تعجبت كيف يمشي على وجهه، في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ﴾ [الملك: ٢٢]، فقال صلى الله عليه وسلم: (الذي أمشاه على رجليه، يمشيه على وجهه)، فبعض الناس يظنوا كيف بده يمشي على وجهه؟ هو أنت من قال لك: أن قدميك وقد خلقتا كذلك لابد أن تمشي عليهما، إنما الله عز وجل خلقها وقال: لها امشي.

ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾ [طه: ٥٠]، فالله عز وجل أعطى كل شيء خلقه على ما هو عليه ثم أجراه لمراده، ولم يكن هذا الشيء أبدًا، لم يكن هذا الشيء ليحكم الله عز وجل بأنه وقد خلق كذلك ألا يكون إلا على هذه الصفة، أي لا يجوز لأحد أن يقول: إذا خلق الله الماء فلا يمكن أن تكون الماء إذا خلقت إلا أن تكون مائعة، وإلا أن يكون فيها الري، لا، الله عز وجل قادر أن يخلق الماء ولا يجعلها على هذه الصفة، فأعطاها خلقها وأعطاها صفتها، فقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، ولو شاء لم تكن الأرض كذلك فخلقها وأعطاها هدايتها بأن تكون على هذه الصفة.

والحديث عن النعمة في قضائه لحاجاتك أيها الإنسان يرادفها دائماً في القرآن الحديث عن شيءٍ زائدٍ عن قضاء الحاجة، ما معنى هذا الكلام؟ معنى هذا الكلام أن القرآن لا يأتي بذكر النعمة فقط لتقضي بها الحاجات لكنه يأتي بالنعمة ليزيد عليها أنها متعة وأنها زينة.

فلما الله عز وجل خلق لنا الدواب، ماذا قال؟ قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦)﴾ [النحل: ٥–٦]، ﴿جَمَالٌ﴾ فذكر فيها الجمال، وهذا شيءٌ زائد عن مقصدها الأساسي، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠]، انظر جعل بيوتكم

سكنا، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠)﴾ [النحل: ٨٠]، فالشيء ليس فقط من أجل أن تقضي به الحاجة ولكنه كذلك متعة لك، فقوله تعالى هنا: ﴿فِرَاشًا﴾، كما ترى تحمل صفة قضاء الحاجة لك، لأننا قلنا الفراش علامة التسهيل فهكذا الله عز وجل جعل لنا الأرض فراشاً ثم جعل فيها أنه ليس فقط فراشًا لقضاء الحاجة والسهولة لكنها فيها شيءٌ زائد، فيها المتعة.

قوله تعالى بعد أن ذكر الأرض ذكر أمر السماء، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢]، فدل على أن السماء المبنية ونحن تكلمنا سابقًا عن الفرق بين كلمة السماء بحيث تعني العلو، والسماء بمعنى المخلوق البناء فهنا ذكر السماء المبنية يعني المقصود بها السبع سماوات فهذه جُعلت للإنسان، تصور أن هذه السماء وما فيها إنما هي للإنسان، ومن ذلك أن الله عز وجل جعل فيها أمورٌ خادمة للإنسان منها ما هو من النجوم ومنها ما هي أمورٌ لا نعرفها مما نستفيد منها كالشمس وغيرها.

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [البقرة: ٢٢]، بعد أن ذكر أصل الوضع لهذه الأمور ذكر كذلك من الخيرات التي تتردد بين السماء والأرض، ذكر السماء والآن جاء إلى ذكر فضيلة ونعمة من نعمه تتردد بين السماء والأرض ما هي؟ ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، فأنزل الماء إلى الأرض، فإذن جاء إلى ما بين السماء والأرض قال: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢].

سخر الأرض وجعلها فراشًا ثم جعل الأرض بناءً لهذا الإنسان وأنزل من السماء ماءً لما فيه من متعة، وذلك لأمرٍ آخر وهو ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، فالإنسان بحاجة إلى ما يرتاح عليه وبحاجة إلى ما يظله وبحاجة إلى ما يحييه، الماء؛ لأن الماء هو الذي يحييه، وبحاجة كذلك إلى النعمة التي يستمد منها وجوده وحياته ما دام باقياً في هذه الدنيا، فقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾.

والثمرات أيها الإخوة الأحبة هي الثمرة، وعادةً الناس يطلقونها على ما ينتج الثمرة الظاهرة وهي الشجر، وغير الشجر التي فيها الثمرة، ويمكن أن تطلق الثمرة على كل ما ينفع فهي ثمرة، يعني الآن ما هي ثمرة اقتناء الذهب؟ الغنى، فهذه ثمرة، ما هي ثمرة البيت؟ وهو لا تراه ثمرةً مما تطلق عامةً وإنما يراد منه نتيجته فائدته وما شابه، ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾، سبحانه وتعالى.

ثم قال تعالى: ﴿رِزْقًا لَكُمْ﴾، فهل هي كذلك فيها رزق آخر؟ لغيرنا؟ كذلك الدواب تستفيد منها، والدواب تأكل منها ولكن هذه الفائدة التي تعود للدواب تعود لمن في النهاية، ولذلك فضيلة كل شيءٍ في الوجود تعود إليك أيها الإنسان كما أن كل حمدٍ في الوجود يعود إلى الله عز وجل، فكذلك فضيلة كل شيءٍ موجودة تعود لخدمتك

وحاجتك، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾، وانتبهوا هنا قال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾، من الذي أخرج؟ فالفعل ما زال موصولاً لمن؟ فالفعل ما زال موصولاً لربنا سبحانه وتعالى لكنه جل في علاه جعل الفعل وهو الإخراج بسببٍ وهو الماء، وهذا دليل مهم جداً على قوله جل في علاه هذا من تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود: ٥٦]، وذلك بأنه لا يقع شيء في هذا الوجود إلا بسبب، مع أن الأسباب هذه إنما خلقها الله عز وجل، أي من الذي جعل الماء حياة لكل ثمرة؟ الله عز وجل، لكنه أخرج به، فلذلك الأسباب هي من سنن الله عز وجل القدرية التي يجب أن تراعى، لكنها كذلك يجب ألا تحجبك عن رؤية الفاعل الحقيقي.

فأول ما نستفيد: أولاً: أن نعلم أنه لا يقع شيء في هذا الوجود ولا في الآخرة حتى في الآخرة إلا بسبب، يعني في الجنة ما هي غراسها؟ جعلها سبب «سبحان الله»، قال صلى الله عليه وسلم: (لَقيتُ إبراهيمَ ليلةَ أُسْرِيَ بي فقالَ: يا محمَّدُ، أقرئ أمَّتَكَ منِّي السَّلامَ وأخبِرْهم أنَّ الجنَّةَ طيِّبةُ التُّربةِ عذبةُ الماءِ، وأنَّها قيعانٌ، وأنَّ غِراسَها سُبحانَ اللَّهِ والحمدُ للَّهِ ولا إلَهَ إلَّا اللَّهُ واللَّهُ أَكْبرُ)، في بسبب فلا يقع شيء إلا بسبب، لكن هذا السبب لا ينبغي أن يحجبك عن الله عز وجل، فالله عز وجل يحجب قدرته ويحجب ذاته بأسبابٍ خلقها من أجل أن تدل على السنة وتدل على العظمة وتنبه الغافل.

فقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾، الله عز وجل هو الذي خلق الماء ثم أخرج به، فدل على ما قلناه من هذا الأمر.

قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، من أجل ماذا ﴿رِزْقًا لَكُمْ﴾؟ من أجل دوام الحياة، فالأرض فراشًا والسماء بناءً ما الذي يديم الحياة؟ فذكره سبحانه وتعالى الماء ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾، قال سبحانه وتعالى وقد جرت هذه الأمور منه وحده لا من غيره، هذه جرت من الذي جعل الأرض فراشا؟ من الذي خلقكم؟ الله عز وجل، هل شاركه أحد؟ ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩]، هل هناك أحد في الوجود أدعى أنه خلق السماوات.

يقول أهل العلم: لما عُلم أنه لم يأت أحد فادعى أنه خلق السماوات وخلق الأرض وأنزل الماء وأخرج الثمرات ثم قال الله عز وجل: أنا الذي فعلت ذلك، دل على عدم وجود المنازع، ما أحد أدعاها من قبل، فقال الله عزو جل: أنا فعلت لكم ثم ظهرت دلائل صدق هذه الدعوة دلائلها العظيمة فانظر إلى آثار رحمة الله، وانظر إلى ارتباط هذه النعم بالطاعات، أن الأرض تتحول بالمعصية إلى زلازل، وتحولها من الفراش إلى القلاقل وعدم الثبات بماذا يرتبط هذا؟ بالطاعة، أن الله عز وجل أهلك أقواماً لمعصيتهم، بأن جعل الأرض بعيدةً عن كونها فراش بل خسف بهم الأرض.

فلما اختص سبحانه وتعالى بهذا كله قال جل في علاه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، الند أيها الإخوة الأحبة هو المثيل مع المعاندة، لأنه يمكن أن يكون مثيل ولا يعاند، لكن لما كان ند ففيها خصومة، فدل هذا على أنه لا يمكن أن تنشأ عبادة لغير الله عز وجل إلا وهو معاند لربنا جل في علاه، لا يتصور وجود عبادة لغير الله إلا

وهذه العبادة مضادة لعبادة الله عز وجل، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ [المؤمنون: ٩١]، فلذلك لابد من المنازعة إذا وجدت عبادة غير الله عز وجل في الوجود فلابد أن توجد المنازعة لربنا لأن هذا الحق يختص به الله عز وجل، هذا حق يختص به ربنا سبحانه وتعالى، فلما كان من حقه فإذا صرف إلى غيره دل على وجود الشرك والظلم، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ظلم فيه منازع، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، فدل على أن وجود الند هو من فعل الإنسان، وأما في الأصل فلا وجود، هل هناك في الأصل منازعة؟ هل هناك أحد ينازع الله في الأصل في كونه رب؟ هل هناك أحد نازعه في خلق السماوات والأرض؟ هل هناك أحد نزعه في إنزال الماء؟ هل هناك أحد نازعه في كونه يخرج الثمر من الماء؟ لا أحد نازعه، فمن الذي يجعل هذه المنازعة هو من عبد غير الله عز وجل، وأما في الربوبية فلا أحد ينازعه.

ولو قال قائل: الناس يعطون، ينزلون المطار، ينزلون كذا، كل هذا بما أوجد الله من السبب ولو نزع السبب لما وجد الفعل، يعني لو أن الله عز وجل نزع السبب -وهذا موجود- أن الله ينوع الخلق في هذا الوجود ينوعه من أجل بيان قدرته جل في علاه، وأنه ليس بمجرد وجود الشيء يوجد هذا إن خلى عن الإرادة، والدليل أنك تجد الرجل مع المرأة ينجبان الولد، ولكن تجد كثيراً رجل وامرأة لا ينجبان الولد، تضع الماء فتؤدي إلى الهلكة وتفسده، تجد أن هناك أرض ولكن تجد فيها الزلازل تجد فيها البراكين، فلا يدل وجود هذه الأشياء لذاتها على أمرها الذي خلقت من أجله دون إرادة الله عز وجل.

فلذلك قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، أنتم الذين تجعلون، وأنتم الذين تخلقون أفك، أنتم الذين تخلقون هذا الإفك وتوجدونه في أنفسكم، أما في حقيقة الأمر فهم لا ينازعون الله عز وجل، لا ينازعونه في ربوبيته.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾، وقلنا: الند هو المثيل الذي فيه المعاندة فإذا خلت المعاندة فهو مثل لا يعاند.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾ [البقرة: ٢٢]، قوله تعالى: ﴿أَنْدَادًا﴾، دل على أنه إذا خلت من الواحد لا يمكن أن تقع لواحد، إذا خلت هذه العبودية عن الواحد وهو الله عز وجل لا يمكن أن تقع بعد ذلك لواحد، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ [الزمر: ٢٩] لم يجعل هذا الذي يقابل عبادة ربٍ واحد وهو الله لم يجعله عابداً لواحد، إنما جعل مقابله شركاء متشاكسون، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾، فمقابل عبادة الواحد وهو الله عز وجل يكون هناك التشتت في المعبودات والكثرة، وفي الحديث: (من جعل همه هماً واحداً)، يعني وهو إرضاء الله، (كفاه الله كل الهموم).

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾، ليس نداً أنداداً؛ لأنه لا يتصور أنه إذا خلت عنه جل في علاه عبادة العابد عنه وحده أن يكون لواحد لابد أن يتشتت، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧)﴾، فدل هذا على أن الشرك لا ينشأ في نفس العابد إلا وهو عالمٌ بضلاله، فقال: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧)﴾، وهذا باب تأتي آيات إن شاء الله تفصله في قضية شرك الجاهل نأتي إليها عند وقتها إن شاء الله تعالى.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾ [البقرة: ٢٢]، فدل هذا على أن أعظم ما يأتي به العبد وأعظم ما يؤمر به العبد بل هو الذي خُلق من أجله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات: ٥٦]، أنت خلقت لهذا أي لتعبد الله عز وجل، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، ثم قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾، فدل على أنها عبادةٌ لا صرف لها لا تكون إلا لله جل في علاه، وأن موجب ذلك هو الخلق والإيجاد والإمداد، خلق وأوجد ثم أمد سبحانه وتعالى.

وهنا فورًا ينشأ سؤال في ذهن الناظر لهذه الآية كيف أعبدك؟ وكيف يتحقق أمر العبادة لك؟ فأول إجابةٍ تنشأ في ذهن كل عابد أنه لابد من واسطةٍ مخبرةٍ عن هذا المعبود كيف أعبد وكيف تتحقق عبوديتك لي؟ هناك رسالة، هذه الرسالة شاملة لأمرين، شاملة للرسول وشاملة للمرسل به، يعني أول ما ينشأ في الذهن هو هذا التساؤل ثم يكون هذا الجواب ولذلك قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، فكأنها وفي داخلها يا أيها الناس اتبعوا رسولي بما جاءكم من كتاب لتحققوا عبوديتكم لي، فمن هنا جاء بعدها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، فهذا الحديث القرآن المتصل بالعبادة من أجل بيان صدق ما جاء به الرسول من أمر العبادة، إذن هو رسولٌ صادق ومعه دليلٌ قاطعٌ على صدقه.

رسولٌ صادق يحمل خبر السماء ومعه الدليل القاطع على ما جاء به، فقال سبحانه وتعال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤]، هنا يقع الكلام الكثير جداً، نأتي عليه وقبل أن نتحدث عن هذه الآية وما فيها من ألفاظ ومعاني فإن المعنى الإجمالي هو ما يُذكر في كتب العلماء من الإعجاز القرآني.

أي هنا هذه الآية هي أول آيةٍ في كتاب ربنا فيها الإعجاز، ثم جاء ذكر الإعجاز في مواطن متعددة جاء بعد ذلك في سورة «يونس» قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)﴾ [يونس: ٣٨]، وبعد ذلك جاءت في سورة «هود» قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣)﴾ [هود: ١٣]، وجاءت بعد ذلك في سورة «القصص» قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)﴾ [القصص: ٥٠]، وبعد ذلك جاءت في سورة «الطور» قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)﴾ [الطور: ٣٣-٣٤]، فهذا التحدي موجود في كتاب ربنا سبحانه وتعالى.

وقبل أن نتكلم عن هذا التعدد في قضية الإعجاز وصوره لابد أن نتكلم عن معنى الإعجاز، فهنا يأتي بابٌ مهم جداً وهو الإعجاز، ما هو الإعجاز؟ كلمة الإعجاز من العجز، والعجز هو الضعف، ومن هنا تأتي كلمة عجوز كما وردت في القرآن في وصف زوجة إبراهيم عليه السلام ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢]، فدل هذا على الضعف أي عدم القدرة على الولادة وعدم القدرة على الحمل، وكذلك زوجة لوط عليه السلام ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١)﴾ [الشعراء: ١٧١]، فإذن الإعجاز من العجز وذلك أن الله تحدى الناس أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بما ذكر فعجزوا عنه فسمي هذا الإعجاز، أي أعجزهم أن يأتوا بما تحداهم به، هذا هو الإعجاز.

وتطلق كذلك كلمة الإعجاز على العقب، ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧)﴾ [الحاقة: ٧]، ويقال: عجز الرجل أي دبره، وعجز المرأة كذلك نفس الشيء، فهذا هو المعنى، قال بعضهم: معنيان، وقال بعضهم: هما معنى واحد، والمقصود بالمعنى الواحد أنه إذا تسابق شيءٌ وشيء فسبق أحدهما الآخر أو كان سابقاً دائماً كان المتقدم هو الفائز وكان التالي هو العاجز، ومن هنا سمي دبر الشيء لأنه دائماً يأتي عقب المتقدم الذي هو الهادي، والهادي هو الرأس.

فهذا الإعجاز لم يوجد قط عند الأوائل، يعني عند الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وكذلك عند التابعين لم يكن هناك ثمة حديث عن هذا الباب، لكن لما قام الزنادقة بالطعن في القرآن الكريم، فنشأ هذا العلم، وقبله كان ثمة إشارات لقضية تذوق القرآن وخاصةً عند انتشار العجمة، لما انتشرت العجمة فبدأ الحديث لمحات كما هو كل علوم الشريعة لمحات إلى ألفاظ القرآن ورونقها وسلامتها عن المعارضة وكذلك حسن موضعها، لماذا هذه الكلمة جاءت هنا ولم يأت غيرها؟ وهذا كله من باب التذوق، من باب تذوق الأوائل، لكنه لما نشأ الكلام عن القرآن عند الزنادقة، وتعرفون أنا تكلمت في مواطن متعددة على أن الزنادقة في وقت من الأوقات غلبوا على أهل الملة، وفي وقت متقدم وخاصةً الذين بنوا مذاهبهم على الطعن في الصحابة والطعن في القرآن تحت ستار الدين كالرافضة والإسماعيلية على الخصوص، وهؤلاء الذين إذا سمعتم كلمة الزندقة في التاريخ فيقصد بهم هؤلاء أولاً الذي هم الإسماعيلية، الذين هم الباطنية، ثم بعد ذلك هناك من الملحدين من أشرك مثل ابن الراوندي وغيره وألف كتابًا ابن الراوندي في الطعن في القرآن، فتصدى له من تصدى، وقام العلماء على هذا الباب.

والغريب أول من كتب في الإعجاز كتابةً خاصة تحت هذا العنوان إنما هم من يسموا بعلماء الكلام ومن كان على طريقتهم من المعتزلة، أي لو جئت إلى أول كتاب ألف فيما بين أيدي الناس من الإعجاز ووصل إلينا فهو الرماني، وهذا معتزلي ووجد كتاب ضاع من الكتب وهو كتاب الجاحظ في الرد على شيخه النظام في قضية الإعجاز،

وكما سنبين ما هو عند كل واحدٍ منهم، فالذين تحدثوا عن الإعجاز أغلبهم من المتكلمين، ووجد من الفقهاء كالخطابي، ولعله الوحيد من القدماء، الخطابي من أهل الحديث لأنه له معالم السنن وله كتب في السنة مشهورة، من تكلم عن الإعجاز.

فهنا بدأ الحديث ما هو الإعجاز؟ هذا القرآن الكريم ما هو الشيء المعجز فيه الذي منع العرب أن يأتوا بمثله، ما هو؟ ما هو الشيء الذي يدل على أن هذا القرآن فيه سرٌ لا يقدر أحد أن يتبعه، ولا يقدر أحد أن يأتي بمثله ولا يقدر أحد على معارضته؟ هذا المبحث منشأه كالتالي:

وكل من تكلم عن الإعجاز إنما يصب في هذين الأمرين، انتبهوا كل من تكلم عنه وأنا إن شاء الله سأتي إلى رموز العلماء الذين تكلموا عن الإعجاز، الرموز لا أستطيع أن أستقصي كل واحد ماذا قال ولكن آتي إلى الرموز، سأتكلم عن الرماني وماذا قال، الخطابي وماذا قال، عبد القاهر الجرجاني ماذا قال، وان تكلمت لكم سابقاً ماذا قال مصطفى صادق الرافعي، وربما نأتي عليه فقط لمحات للحاجة إليه عند شرح بعض المواطن.

أولاً: علينا أن نتفق على كلمة مهمة أن المواضيع التي بحثت في القرآن، فيها دلالة أنه من عند الله عز وجل ليست هي باب الإعجاز، أي يمكن لرجل أن يأتي ويقول: هذه الآية هي دليلٌ على أن القرآن من عند الله عز وجل لا يقدر أحد أن يقولها في زمن النبي صلى الله عليه وسلم هذه ليست هي الإعجاز، ولذلك علينا أن نخرج ما يسمى بالإعجاز العلمي، والإعجاز التشريعي والإعجاز المتعلق بالموضوعات الغيبية، فهذه في الحقيقة من دلائل صدق النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا القرآن من عند الله عز وجل، لكنها ليست هي الإعجاز، لأن آية ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]، هذه الكلمة ناقضة لكل هذه المعاني، القرآن يقول: أنا لا أطلب منكم كمالاً في المعاني ولكني أطلب منكم فيما قدرتم عليه في فنكم العظيم، ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾، كلمة مفتريات أي في مواضيعها.

أي يمكن للعربي أن يكذب، أن يمدح الكذب يمكن أن يأتي شاعر فيأتي بكلامٍ بليغٍ عظيمٍ ويفتن الناس ولكنك تتأمل معناه فتجد أنه يتكلم عن مدح الكذب، أو مدح الزنا أو مدح الظلم، فهذه مفتريات، فهو يقول للعربي: اذهب فأتي بالقرآن وافتري ما شئت من المعاني التي عندك، ماذا عند العربي من المعاني التي تناقض القرآن؟ الشرك، يقول له: اذهب فعارض القرآن وأتي بالمعاني الباطلة التي تؤمن بها من الشرك ولكنها تعارض هذا القرآن، فحين ينظر الناظر إليها يقول هذه كلماتٌ لا يقدر البشر أن يأتي بمثلها، هذا هو المعنى.

وهذا المعنى مهم هناك فرق بين صدق الموضوع وفرق بين بلاغة الحديث والكلام الذي طرح به هذا الموضوع، فالآن الناس يحبون الحديث عن المواضيع التي تتعلق بصدق هذا الكتاب، مثلاً: عندنا الإعجاز العلمي، هذا يسمونه

إعجازاً علمياً وهو ليس كذلك، بمعنى إعجاز بمعنى أنه شيءٌ لا يمكن للناس أن يأتوا به قديماً لعدم قدرتهم ولكنه صار اليوم مقدورٌ عليه أن يأتوا بمثل هذه المعاني.

ثانياً: أن الإعجاز يكون في كل آية، فلو قلنا: إن الإعجاز في كل آية، هل في كل آية هناك إعجاز مما يقولونه؟ هل هناك إعجاز تشريعي في كل آية؟ هل هناك إعجاز علمي في كل آية؟ هل هناك إعجاز عددي في كل آية؟ إذن هو يقول: أنا أريد أن أتي بسورة لا علاقة لها بهذه المعاني التي تزعمونها وينظر إليه الناظر فيقول: هذا كلامٌ لا يقدر البشر على أن يأتوا بمثله، فيأتي بما تحدى به القرآن هذا العربي الناطق به.

إذن هذه نقطة مهمة وهو أن الإعجاز يتعلق بأداء المعاني بالطريقة التي تكلم بها ربنا سبحانه وتعالى.

ثالثًا: اتفق العالم الذين يعرفون هذا العلم وهو شرف العربية الذي نزل به القرآن، طبعًا هنا نأتي إلى كلمة ابن خلدون، ابن خلدون له كلمة رائعة نحن بحاجة إليها، يقول: «لماذا كان هذا القرآن فيه التحدي ولم يكن التحدي في الكتب السابقة؟»، أي لماذا لم يتحدى الله عز وجل أهل الإنجيل أن يأتوا بالإنجيل، ولم يتحدى أهل التوراة أن يأتوا بالتوراة، قال: «ذلك لأن وعاء هذا الكتاب قد بلغ من الكمال ما تستوعب الإعجاز»، ما هو وعاءه؟ هو اللغة الشريفة، «ذلك لأن اللغة الشريفة أي العربية بلغت من الكمال ما تستوعب الإعجاز»، بخلاف لغات من سبق فإنها لضعفها وعدم كمالها لا يمكن أن تستوعب الإعجاز الذي يتحدى به الرب سبحانه وتعالى عبيده، هذه نقطة مهمة لأننا سننطلق منها إلى نقطة أخرى.

إذن اللغة بلغت من الكمال ما تستوعب الإعجاز، فهذا دليلٌ على شرف هذه اللغة أنها بلغت من الكمال ما يقع به الإعجاز في أن يتكلم بها الله عز وجل كلاماً معجزاً لا يقدر عليه البشر، بخلاف ما لو كانت اللغة ضعيفة فكيف يتحدى بها، ما هي ضعيفة مهلهلة، لا تملك أدوات التحدي والإعجاز، وهذا يدلنا على شيء، متى يكون التحدي بهذه اللغة الشريفة؟ يكون في قومٍ بلغوا في زمانهم حين نزول القرآن الذروة في امتلاك هذه اللغة، فدل هذا على إجماعٍ عند العلماء بأن من نزل عليهم القرآن عند نزوله قد بلغوا من الإتقان لهذه اللغة ما لم يبلغها قومٌ قط، ولا العرب أنفسهم، هذا الجيل الذي نزل عليه القرآن هذا جيلٌ بلغ من كمال البيان ما لم يبلغه جيلٌ آخر، استوى عنده البيان إلى درجة عالية، هذه النقطة الثالثة وهي مهمة.

رابعًا: النقطة المهمة الآن نحن نريد أن نصف حالة العربي عندما نزل عليه القرآن، نُركب، هو استعمه، هل وقع عنده إرادة التحدي ابتداءً؟ أم أنه وقع في نفسه التعظيم والانبهار أولاً؟ مقتضى العقل الذي يعرفه صغار الطلبة أن أول ما وقع في ذهنه وفي وهله هو الانبهار به، هذه كلمة الانبهار يجب أن نقف عندها، لماذا وقع الانبهار والتعظيم

إلى درجة السكوت والصمت ودرجة الاستغراق فيه حتى أنه تاه لدرجة أنه بهر وتوقف على إلا أن يقول لا يمكن أن يكون هذا الكلام من بشر، لا يمكن، في اللحظة الأولى التي نطق بها، لماذا وقع هذا المعنى في نفسه؟

هنا نأتي إلى الكلمة التي تخدم النقطة التي تقدمت وهو أن العربي حاله كحال كل صانعٍ متقنٍ كل ما صنع صِنعةً شعر أن ما يحلم به من الكمال ما زال أمامه، المرء حين يتقن الإتقان التام في صِنعته فأنه يبقى شاعراً بالعجز عن أن يبلغ ما يريد عندما يحقق شيئاً من الجمال الذي يتمثل في ذهنه، يبقى ينظر، دعنا نتكلم عن العربي أو نتكلم عن النجار قبلها، لما يأتي نجاراً ويريد أن يصنع صِنعةً جميلة فائقة هي في ذهنه الذروة في الكمال، فإذا صنعها بعد أن ينتهي منها يبدأ بشعور النقص أنه لم يأت إلى الكمال الذي في ذهنه، هذا إذا كان متقناً ومنصفاً، يشعر أنه ما زال عنده أخطاء، لم يستطع أن يعالج هذه، ولو عالجها لظهر خلل من الجانب الآخر وهكذا، فهو في كل إتقان صِنعةٍ يصنعها يشعر أن الطريق ما زال أمامه لم يصله، هذه طبقوها على العربي.

العربي وهو ينطق بهذه اللغة الشريفة التامة التي بين يديه كان كلما صنع صِنعةً من كلامٍ حكيمٍ وخاصةً الشعر لأن الشعر عندهم هو أبلغ ما يصاغ به الكلام والحكمة تكون متضمنة فيه، واللفظ كذلك صابغٌ عليه هالته وجماله، فهو كلما صاغ شعراً جميلاً وملكه؛ شعر أن الطريق ما زال أمامه طويل، هناك من الضوء ما لم يتحصل عليه بعد، أنا أريد أن أفسر بما حصل الانبهار وهذا رأى البلغاء الذين هم في القمة في البلاغة ونحن قلنا مقدمة وهو أن الذي نزل عليهم القرآن هم أبلغوا جيل –انتبهوا أنا رتبت هذا ترتيباً مهمًا من أجل أن أصل لهذه النقطة– فبعد أن وصل إلى هذه البلاغة في إدراك هذا الكلام كل ما صنع بلاغةً شعر بعجزه وضعفه وأن النور ما زال أمامه حتى إذا جاء هذا القرآن انبهر في أنه حقق له الكمال الذي هو في ذهنه.

فمن هنا حصل الانبهار –هذه نقطة مهمة– فلما قرأه وألقى الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن على العرب على هذا الجيل الذي وصفناه من امتلاك ناصية اللغة وتذوقها وبلوغ الذروة فيها لما سمع القرآن كان يسمع كلاماً جميلاً ثم بعد أن يلوكه يرى في نفسه الضعف فما زال أمامه ما زال نور الكمال بعيد عنه، فحتى إذا نزل القرآن رأى فيه هذا الكمال الذي يتمثل فيه، أو الذي يريد أن يصل إليه ويحلم به ويشتهيه حتى إذا رآه شعر أن هذا القرآن هذا الكلام هو الذي يحقق له مبتغاه ولا يمكن أن يكون وراءه نورٌ بعد ذلك يريده أو يتأمله، فحصل له الانبهار، هذه النقطة مهمة.

النقطة التي تليها تابعة لهذا الذي بين يدينا، أن هذا العربي –وأنا أفسر لكم كل ما يقال في الإعجاز، بعد ذلك عليكم أن تعيدوا هذا الذي قلته أن تعيدوه إلى ما سيأتي من كلام تجدوا أن كل ما قيل يعود لهذا الذي أتكلم به الآن– بعد ذلك هذا العربي بعد أن انبهر خلاص أدرك، وشعر أنه يسمع هذا الذي هو منتهى الكلام ومنتهى البلاغة لهذه اللغة الشريفة التي تستوعب هذا الإعجاز، بعد ذلك تأمل الكلام، يعبر عمن هذا الكلام؟ ما هي نفسية متكلمه

في داخله؟ انتبه العربي لا يأتي فقط ليقف على اللفظ وجلالته، ولكنه يقف بهذا اللفظ على جلالته من أجل أن يرى نفس متكلمه الذي يقوله، فلما تأمل هذا الكلام وعن أي شيءٍ يتكلم، من الذي يتكلم؟ وجد نفساً علويةً فيه لا تشبه نفسية البشر حين يتحدثون في أعلى درجات كمالاتهم اللفظية.

بعد هذه الحالة في لحظة التلقي المبهرة والجليلة والتي صنعت الخشوع والخضوع لهذا الكلام وأنه جعله يسجد، لما سمع الكلام سجد، لما سمع الكلام لجلاله وعظمته سجد له لأنه تعود أن يسجد لجمالات ما تقع عليه عينه أو يقع على ذهنه من السماء فيسجد له فلما رأى هذا الكلام سجد له انبهارًا له بأنه هو منتهى ما يريده، لكن لما تأمل ما فيه من معاني وجد أنها تعبر عن نفسٍ علويةٍ جليلة لا تلتقي مع البشر؛ فعلم أنها حديثٌ عن ربٍ وعن إله، فدله هذا الكلام على أن هذا الكلام عظيمٌ يعبر عن نفس عظيمةٍ جليلة، هذا هو منتهى ما يريده كل من تكلم عن الإعجاز، كل من أراد أن يتكلم، وصلنا إلى نقطتين:

أولاً: إما أنه تحدث عن كمال ما يريده العربي من هذه اللغة وهي كمال البلاغة وكمال السبك وكمال اللفظ وكمال التقاء اللفظ مع المعنى، وما فيها من انبهار هذا أولاً فرأى الكمالات فيها، كمالات هذه اللغة بحيث لا يمكن أن يرى فيها ما يرى في كلام الحكماء والشعراء والعظماء لأنه كان يحس كما قلنا: كلما صنع صِنعةً جديدة أن أمامه الطريق الطويل الذي ينبغي أن يسلكه وهو يشعر بالعجز أن يمشي فيه، هو أرهق وهو يبذل من أجل أن يصنع الجمال وانتهى به إلى أن ما زال الطريق، ما زال هناك فرأى هذا الكلام تم، هنا النقطة حديثٌ عن السبك.

ثانياً: أن هذا الحديث هو حديث نفسٍ علويةٍ لا تليق بكلام البشر، فالتقى الإعجاز بنقطتين، الكلام الدال على نفسية إله، والكلام الدال على كمال متكلمه، من جهة قدرته، بهذا إن شاء الله نختم وما زال الحديث عن الإعجاز قائماً.

جزاكم الله خيراً وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثلاثون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

إخواني نحن الآن في الدرس الثلاثين من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» وفي الحديث عن الإعجاز في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

تكلمنا بوجهٍ عام عن ماذا أصاب العرب عند سماعهم القرآن الكريم، وهذا الذي أصابهم هو مدخل الإعجاز، وكل من تحدث من السابقين عن موضوع الإعجاز إنما حاول أن يدور حول ما تكلمنا عنه، وأعيد الكلام باختصار ليلتقي مع الكلام الفائت.

قلت: بأن العربي وهو يعيش في ذروة إتقان صِنعة البيان، كان ككل صانع صنعةٍ متقن يعيش حالة البحث عن الكمال وذلك بالنظر إلى الضوء البعيد الذي يرقبه في صنعته، وكلما صنع صِنعةً وبذل فيها جهده ووضع فيها أحلامه وتصوراته وخبرته كلما رأى نفسه ضعيفاً، وأن أجمل الكلام لم يأتي بعد وأن أجمل الإتقان لم يصل إليه كذلك بعد، فلما جاء القرآن نظر وإذا هو على هذا المعنى الذي كان يرقبه وأعلى مما كان يرقبه، وهذا الانبهار أدى إلى أن يتأمل نفس متكلمه فأدرك أنها نفسٌ علوية.

إذن بهذه الخاتمة التي ختمنا فيها الكلمة السابقة يكون المدخل للإعجاز في أمرين:

الأمر الأول: هو إتقان الصِنعة إتقاناً مبهراً عظيماً لا يعرفه أهل الصِنعة الذين بلغوا الكمال، إذن لابد من التأمل، نحن الآن نتأمل ونبحث عما كان يعده هذا العربي من جمال الصِنعة ومن كمالها ومن إتقانها، ما الذي كان يبحث عنه العربي وهو يتقن اللغة والبيان والإفصاح والحديث ما الذي كان يرقبه في الكلام؟ هذا ما دار حوله كلام المتحدثين عن الإعجاز، ماذا كان يبحث العربي؟ فكل من تكلم في هذا الباب أتى إلى هذه النقطة هذا هو الخط الجامع الذي تكلم فيه أهل الإعجاز أو تكلم فيه المتكلمون في الإعجاز، ما هو؟ هو البحث عن مقومات كمال البيان في ذاته.

وكلهم قالوا بهذا الذي سأقوله كلهم تقريباً، مع اختلاف هنا وهنا وتوسع في أبواب يطول الحديث عنها، لكنهم قالوا: بأن هذا الكلام بلغم البلاغة التي يتفنن فيها العربي بلغ مبلغ الكمال، لأنه تحمل الجمال والحُسن التام هذا الكلام، ولو بحثوا عن موطن زل فيه المتكلم في الإبانة عن نفسه وعن مراده ولو ضعفاً يسيرًا لاكتشفوه.

وبالتالي هناك إجماعٌ تام مع كل المتكلمين عن الإعجاز، كلامٌ متفق عليه بأنه لا يوجد الوهن في متكلم هذا الكلام، لأنهم علموا من كلام كل متكلمٍ مهما بلغت فصاحته وبلاغته وقوته البيانية في أنه يعتريه بعض وهن، ربما يكد فيأتي بأجمل ما يتصوره ويأتي به الإنسان من البلاغة لكنه بعد ذلك نراه كالرجل الذي يركض ركضاً سريعاً فيبلغ الغاية فيما يعرفه الناس من السرعة، ثم بعد ذلك يعتريه الوهن ككل حالة البشر في أحوالهم سواء كان في الصناعة وهو يصنع فإنه يبدع ثم بعد ذلك يهن.

فهذا التردد بين الكمال الإنساني أو الصنعة الجميلة الحسنة وبين الوهن والضعف لازمٌ لحديث الإنسان، ولكنهم لما نظروا إلى هذا الكلام لم يجدوا فيه هذه النفس البشرية التي يعرفونها من أنفسهم لم يجدوا فيه هذا، بل وجدوا أن هذا الكلام يضطرد في بلاغته وفي كماله، ولا يعتريه ما يعتري كلام البشر من الوهن بعد الكمال الإنساني، لا يأتي عليه الوهن قط.

هذه الكلمة وهذا المدخل هو ما تفرعت عنه تفاسير العلماء في معنى الإعجاز، هذا المعنى الذي ذكرناه حتى ما قاله مصطفى صادق الرافعي فيما شرحناه، هو على هذا المعنى، وهو أن كل صِنعةٍ تامة بيانية في البشر يأتيها وهن ويأتيها قوة.

انظروا الآن هذه النقطة تفرعت منها أراء وهذه النقطة تفرعت فيها مذاهب، انظروا وتأملوا فإن لم تفهم الأصل فالفرع يتشتت عليك ويذهب ولا تعرف ما الذي يريدونه، يمكن أن تقرأ كتاب الرماني نسبة للرمان وقيل لمنطقة اسمها الرمان، ويمكن أن تقرأ الخطابي، ويمكن أن تقرأ بعد ذلك الباقلاني وحتى تصل إلى الرافعي وتصل إلى دِرَاز، وأنت لا تستطيع أن تجمع أصولهم في الإعجاز، فأنا أعطيك إن شاء الله الأصل الجامع وكيف تتفرع عن هذا الأصل؟ كيف يتفرع عنه الأمور الفرعية المتعددة؟

مثال ذلك: قال الرماني –انتبهوا هذه القاعدة التي قلناها من قضية الوهن وقضية القوة– قال الرماني: «إن كل كلامٍ جديد»، هذه لفتة بالرغم أن كلماته التي وصلت إلينا لا تعدو أربعين صفحة، وتكلم عن الصرف وتكلم عن قضية دواعي التحدي، ولكنه يطوف ككل كلامٍ جديد ويكتب واحد كتاباً ورسالة في أربعين صفحة دل على أنه يعني شيءٌ قدح فيه، –هنا تأتي النقطة– كأن هناك ثمة شيءٌ قد انقدح في ذهنه فكتبه وهو يتحسس هذا الموطن الجديد الذي يتحدث عنه، والرماني معتزلي وهو يتحسس، الرمان يتحسس البحث عن كيفية هذه الِصنعة كيف

كملت، أعود للنقطة تحسس الرماني ومن بعده جميعهم أراد أن يتحسس أين موطن الكمال في الصِنعة في هذا الكلام في الذي يعرف الناس.

قال كالتالي: «إن كل كلامٍ جديد» وكلامه صعب أنا أعترف بأن الباحث يعني أنتم اذهبوا واقرأوا من أراد أن يفصل مذاهب العلماء في الإعجاز، إما أن يكون المتكلم ناصحاً لأمته فيبين لك أن هناك مواطن خفية في كلامهم وليست واضحة وضوحاً بيناً، ولكن هناك ثمة كلام يقرب من الوضوح وبعضهم تجرأ وزعموا أنهم قد أدركوا مراد كل متكلم في موضوع الإعجاز وأتوا بالعجائب وسقطوا سقطات أرادوا أن يضعوها كالمسائل الرياضية وأماتوا المعاني البليغة التي أردها المتكلمون.

الرماني يتحسس لأنه من الذين تكلموا في الابتداء، يمكن أنا لا أستطيع أن أصل إلى الألف لكن أنا أريد أن أقول لك بأن المنطلق لذلك هو منطلق الكمال الذي يسري على كل الكلام ولا يصاب به الواهن كيف؟

يقول الرماني: «بأن الكلام إذا جاء عند العربي على معنى قديم يترقى» انتبه! يقول: «الكلام إذا جاء على معنى قديم فالبلاغي يترقى معه، لكنه إذا جاء إلى كلامٍ جديد يكون فيه الوهن»، أي لو أن رجلاً تحدث عن الحب مثلاً فهذا سبيلٌ مطروق ولفظٌ تحدث فيه الناس حديثاً طويلاً فإذا جاء البلاغي إنما يأتي إلى جبلٍ عظيمٍ من المعاني بارزة أمامه وهو يصعد فوقها فيزيد عليها ولو بمقدارٍ يسير فيمكن أن نفهم أن هذا الرجل بلاغيٌ عظيم وأتى بمعنى جديد، لكن هذا المعنى البلاغي العظيم لم يكن ليحدث لولا أنه مر على الطريقة التي سُلكت من قبل.

وهناك قاعدة إنجليزية تقول: «القزم عندما يقف فوق رأس العملاق يصبح أكبر منه»، فهذا الذي أتى –نعم هو بلاغي عظيم– لكن يأتي إلى المعنى المطروق فيحدث فيه معاني جديدة والناس يبهروا به ولكن الخبراء يقولوا: نعم هو عظيم ولكن لم يكن ليصل إلى هذه العظمة في هذه النقطة إلا بسبب أنه جاء للمعنى القديم المطروق الذي له فيه وراثة، لكن أن يأتي الرجل إلى المعنى الجديد أو إلى الموضوع الجديد فيأتي مع قمة البيان هذا لا يحدث أبداً، لا يكون.

إذن انتبه هنا نطبق القاعدة التي قللناها، قلنا: بأن الرجل ربما يأتي على كلامٍ فيسبكه سبكاً عظيماً ثم بعد ذلك يهن، إذن هو كيف يفسر الوهن هنا الرماني؟ يفسر الوهن عندما يأتي إلى المعنى الجديد، ويفسر البلاغة العظيمة الكاملة عندما يطرق المعنى القديم، انظر، هو يريد أن يفسر هذا الكلام فقال: بأن بلاغة وإعجاز القرآن أنه أتى إلى المعاني الجديدة التي لا تعرفها العرب من قصص الأنبياء والمعاني الجديدة من قضية الغيب والجنة والنار والملائكة وو... معاني جديدة لا يعرفونها، ومع ذلك هذه المعاني أتت بأجلى بيان وأفضل عبارة وأكمل سبك لا يعرفونه من أنفسهم.

لا أريد أن أكرر، عليك أن تعود وتفهم وأن تقرأ كلامه، وأنا أقول: نعم كلامه شاق وبذل أربعين صفحة أو أكثر من ثلاثين صفحة في هذا المجال يدور فيه، ولعلي قد قاربت مراده إن شاء الله، انتهينا من الرماني كيف طبق القاعدة.

الخطابي قال أمراً غريباً قال: «الكلام الذي يتكلم به الناس إما أن يتكلم مُنذراً غاضباً، وإما أن يتكلم مُحباً وإما أن يتكلم شارحًا لأمر»، فهذه أنواع الكلام الثلاث، فما يحتاجه المتكلم حين يتكلم عن عظائم الأمور ومجدها أو الخوف منها أو التهديد بها أو الإعلان بالحروب أو ما شابه ذلك أو بالنذارة فإنها تحتاج إلى كلامٍ سماه هو «البليغ الرصين».

قال: حين يتحدث المتحدث بأمر النذارة وأمر التعظيم والجلال فإنه لابد أن يستخدم الكلام الذي سماه هو: «بالبليغ الرصين الجزم»، وحين يتحدث عن الحب وعن الرفق فأنه يأتي بالكلام قال: «الفصيح القريب السهل»، يعني هل تتصور أن رجل يستخدم الألفاظ في الحب كما يستخدم الألفاظ في الحرب، هذه لها ألفاظها التي لها قعقعة ولها صدى، وفي الغضب يتكلم كلاماً شديداً فيه تقريع، أنا لا أتكلم عن الصوت أتكلم عن اللفظ، وحين يشرح قال: يأتي إلى الجائز الرسل، المطلق الرسل.

وأنا فقط اشرح التي قلتها أشرح عبارة أن المتكلم لا يمكن مهما بلغ درجة إتقانه للبيان والبلاغة لا يمكن أن يأتي بالكلام على مستوى واحد، كيف فسر هذا المعنى؟ كل واحدٍ فسره بهذا المعنى، كما ذكر الرماني، الخطابي قال: «هذه أنواع الكلام لا يمكن لأحد قط أن يتكلم فيها بكل نوع من الأنواع على جهة التمام في لحظة واحدة، لأن النفس البشرية تأبى ذلك»، هل يمكن لأحد أن يتكلم في نفس اللحظة كلام المحب وكلام الغضبان وكلام الشارح الذي يشرح هل يمكن في نفس اللحظة؟! لا يمكن، فإذا كان غضباناً وتكلم عن الغضب يمكن أن يبلغ المبلغ الجميل من البيان لكنه لو تكلم عن الحب في تلك اللحظة فهنا تبدو السقط هنا يبدو الضعف، حين لا يستطيع المرء أن يجمع هذه الحالات الثلاث في موطنٍ واحد في نفسه، لا يستطيع أن يأتي بها في نفس المقام كلاماً لا يمكن.

فقال: «ولكننا في القرآن نرى هذه المراتب أو هذه الأصناف الثلاثة من الكلام نراها في نفس الوقت بنفس القوة ونفس التمام والكمال فلا يمكن أن تعبر عن نفسٍ بشرية»، انظر هذا الذي يبحث عنه، وكل كلامه يدور حول هذا المعنى، الخطابي جاء إلى كلامٍ آخر إلى أن الكلام لابد وهذا شيء معروف ويعتبرونه وبالرغم أن هذا غير صحيح، فنظرية النظم كلهم يقول بها، لكنهم يأتون بها من جهة وجهة وحاول جاهداً وقد أصاب وأتقن وأتى بالأدلة الجرجاني بحيث بلغ فيه المبلغ التام وقد سُبق، وهذه طريقة العلم أيها الإخوة، العلم يأتي لمحة فيكتبه الرجل ويأتي آخر ويبني عليه وو ... هكذا، فالذي له العظمة وله الكرامة هو من نكت النكتة الأولى، فلا يقال أن الآخر انظر كيف كتب هذه الكتب، أين هذا الذي كتب الأربعين صفحة؟! نقول له: لولا الأربعين صفحة ما صارت الأربع آلاف صفحة.

إذن هذا الذي قاله الخطابي، كلام الخطابي يدور كله حول هذا، لما جاء الباقلاني نفس الكلام، نفس الذي بين أيدينا لكنه يشرحه بطريقةٍ أخرى، والباقلاني يمكن أن تُبهر به متكلماً مناظراً لكن كتابه في إعجاز القرآن يُظهر شخصيةً جديدة عجيبة لا ينتبه إليها الناس وهي شخصية الأديب الذواقة الذي يغوص في الكلمات إلى درجة التذوق بذائقة رائعة عجيبة، والناس ينسبون له المذهب الأشعري وهو الذي وضع المذهب الأشعري ولا شك، لكن أن يكون هذا الرجل بصيراً بالشعر حتى أنه في كتابه هذا يأتي على قصيدة للبحتري، والبحتري هو أحد الطائيين، هو الأستاذ الأول أبو تمام وتلميذه البحتري، يأتي إلى قصيدته وينقدها من الداخل نقداً أدبياً ذائقاً عظيماً هذا شيءٌ عجيب فلا يعرف في رجل يعني يسير هذا المسير وهذا الباب البلاغي أو هذا البيان البلاغي مع شخصية رجلٍ عقلاني ضابطٌ لاعقلانيته لدرجةٍ عظيمة، وينقد ككل علماء الكلام، لكنه ولا شك أنه كان مبهراً حتى كانت الدار قطني مع أثريته وعلمه بكلام الباقلاني كان يقبل يده، وكلهم هكذا الرماني معتزلي ومع ذلك أتى بهذا البديع، والخطابي سني مشهور.

والآن هذا الباقلاني المتكلم ماذا يقول؟ كلامه أقرب إلى المعنى الثاني مما ذكرناه وهو التعبير عن النفس، وأنا في الحقيقة موضوع إعجاز القرآن هذا الذي يسرقني هذا الذي يقوله الباقلاني هو الذي يسرقني ويسرق كل واحدٍ يستطيع أن يتصور الكلام تصوراً صحيحاً، ومشروعه في قراءة الإعجاز القرآني مشروعٌ طويل، ماذا تحتاج حتى تتذوق الإعجاز القرآني؟

يقول الباقلاني: «مقصود الإعجاز أنه دلك يقيناً أن متكلمه هو الله»، وهذا صحيح كلهم يقولون هذا، يقول: «إن الطريقة لإدراك الإعجاز هو أن تأتي على شعر كل شاعرٍ مجيد –وشاعرٍ له صِنعة مما يسمى عند القدماء بعبيد الشعر أي ليس الذي له المقطوعة والمقطوعتين لا الذي اشتغل بالشعر وله في كل بابٍ من أبواب الحياة وصف– فأن تأتي إليه وأن تقرأ شعره قراءةً مرةً وراء مرة» وهنا نقطة أقول: متذوقاً هذا التذوق الذي قاله الباقلاني لم يعجب فيما سيأتي كلام الجرجاني، لأن الباقلاني هنا خفقة لنا هو فاهمها لكن نحن المساكين، هنا خفقة لنا في أنه يقول: أنك تتذوق هذا الشعر تحس في معاني لكن لا يعطينا الأبواب للتذوق ما الذي يعطينا إياها بعد ذلك؟ يعطينا إياها الجرجاني.

يقول: «عليك أولاً أن تقرأ شعر كل شاعرٍ من عبيد الشعر، وأن تتلمس معالم نفس هذا الشعر بحيث لو عرض عليك بعد ذلك بيت شعرٍ لهذا الشاعر ولم تعرفه من كلامه علمت أنه له، لأن قراءتك لهذا الشاعر علمت نفسه وعلمت كيف يتكلم وما هي نفسه»، هنا المثال مرات ضروري، لكنه مرات ينزل مرتبة القضية لأنه يحددها، ومرات القضية تحتاج إلى تصور ذهني كلي.

مثال: لو أن واحد أحضر لك بيت شعرٍ في تمجيد الجبن، أن الجبان رجل محترم وسليم وجيد وقال لك: هذا لعنترة، أتصدقه؟ لا، لماذا؟ –هنا طبعاً الحديث عن شيءٍ واضح ولا تحدث عن شيءٍ خفي– يقول: لا يمكن أن تقول

إنه لعنترة، لماذا؟ لأنه لا يعبر عن نفسيته التي عرفتها من حياته أنه يمجد الشجاعة ويمجد النخوة ويمجد الأقدام ويكره التأخر واستبقاء النفس.

يقول: «بعد أن تقرأ شعر كل شاعر وأن تعرف معالم هذا الشاعر» متى يخفق متى يهرب من الجانب الذي لا يتقنه فيهرب منه أنت تحس هذه الكلمة هذه مني: من مارس الكتاب ممارسةً طويلة عندما يقرأ يعلم ماذا فعل هذا الكاتب، أن هذه النقطة هرب منها أو أنت تقول لأنك مارست هذه اللعبة من قبل فأنت تعرف أنه هرب لأنه لا يستطيع أن يتحدث فيها، ونحن قلنا في كلامنا عن الرافعي: بأن الكاتب المجيد يستطيع أن يرى حبات العرق التي يحاول أن يخفيها التي بذلها من أجل هذه الصناعة التامة الجميلة، فإذن يعرف.

قال: وبعد قراءتك للشعر كل شاعر فتعرف المواطن التي يتكلم فيها يقوى فيها يضعف فيها يبلغ الغاية البشرية فيها، فبعد أن تميز شعر كل شاعر فتصبح لديك الصورة لشخصيته المتكلمة من وراء هذا الكلام، قال: بعد أن تنتهي فتدرك من مجموع هذا الكلام كله، تدرك أنك أمام بشر، هذا ضعفه أنه يقوى في جانب، نحن ما زلنا في قضية القوة والضعف فيدرك قوته في هذا الجانب ضعفه في هذا الجانب ... إلخ.

نكمل القضية في أمثلة يعني لما يأتي الناس قرأوا للبخاري في كتابه «التاريخي الكبير»، أرادوا أن يعرفوا من هو البخاري أنه قويٌ في جانب وضعيفٌ في جانب، مثلاً: اتهموه بضعفه بعدم معرفة أهل الشام، وأن كثيراً مما قاله في رواة أهل الشام فيه خلط وفيه خطأ، لماذا؟ قال: لأنه لم يذهب للشام ولم يكن بصيراً برجالهم، فأنت علمته وعلمت شخصيته من خلال الكلام، نحن لا نتكلم عن هذا المثل العلمي نتكلم عن قضيتي الكمال الذوقية في البلاغة.

قال: «وبعد أن تنتهي من ذلك في إدراكك الإنسان في كلام كل إنسان وتعرف مواطن وملامح شخصية هذا المتكلم، فإذا جئت إلى القرآن وقرأته علمت أنه كلامٌ يعبر عن نفسٍ إلهية وليست بشرية ولا مثيل لها في كلام البشر»، هذه النقطة هي في الحقيقة لو أنك أدركتها على ما يدركها غيرك لقرأت القرآن بمعنى جديد، وهو وأنت تقرأ القرآن تريد أن تعرف ربك، أنك تريد أن تدرك من هذا الكلام أن المتكلم بهذا هو الله عز وجل، هذا الكلام العلوي ليس فقط في قضية بلاغته التامة في البيان لكنها في تعبيرها عن نفسٍ إلهية.

فمثلاً الآن عنترة هو أشهر الناس بالشجاعة، لكن هل يظهر منه إخفاق نفسٍ وهو يتحدث عن نفسه الشجاعة؟! يظهر أو لا يظهر؟! وتعالوا لفرعون، فرعون الذي قال: أنا ربكم الأعلى، لما فرعون يقول ذروني أقتل موسى أهذا إله يقول ذروني؟! يحتاج إلى موافقة جماعته!! أهذا إله!! قارنوا بين هذا الإله الذي يقول: ذروني أقتل موسى، وبين إلهٍ يقول: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، هاتوا في كتاب ربنا كلمة فيها ضعف أمام شيء، حتى

وهو يدعو إلى رحمته ويبين رحمته في خلقه إنما هي رحمةٌ علوية قاهرة غالبة على المرحوم، وهو يتحدث عن قهره لعبيده بأنهم تحت سلطته لا يظهر فيها الضعف، قال تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١)﴾ [الرحمن: ٣١].

مقصد الباقلاني: أنه عليك أن تعرف –رحلة طويلة– أن تعرف كلام كل متكلمٍ وبها تدرك نفسيته وبمجموع هذا الكلام تدرك ما هو الإنسان وكيف كلامهم ثم إذا جئت إلى كلام الله عز وجل رأيت شيئًا آخر يختلف عن هذا الكلام كله يعبر عن نفسٍ إلهية، هذا كلام الباقلاني.

وبعد ذلك كلهم يخوضوا هذا المخاض ويحاول أن يتلمس هذا المعنى الذي قلناه، وشرحنا كلام الرافعي في هذا الباب، كيف هو يترقى بأن المتكلم هنا ليس فيه ملامح صناعة الكلام البليغ من وجود المشقة والعرق والتغيير والتبديل في الكلام بل هو كلامٌ لو نظرته لقلت أن متكلمه إنما أتى به من أول مرة وأتى به كاملاً تاماً، وهذا لا يعرف في البشر، فإن البشر يعرف تمامهم من خلال التغيير والتبديل والإعادة في الصياغ إلى غير ذلك، لكن هذا كلامٌ ليس فيه عرق المتكلم، ومن هنا كان تمامه وكماله.

وهذا الذي قلته هو ملخص ما يريد البلاغي والبياني أن يدرك من هذا الكلام أنه كلام الله عز وجل، وهو تفسيرٌ لما أصاب العربي من هذين المعنيين:

المعنى الأول: انبهاره بأنه رأى فيه تمام ما كان يبغوه.

المعنى الثاني: في نظرته أن هذا الكلام لا يخرج إلا من إله.

أنت في البلاغة لا تنظر –هذه النقطة الثانية ليست الأولى– لها علومها من علوم البلاغة، والثانية لا تنظر فقط إلى الحكم وانظر للحاكم ولا تنظر للخبر ولكن انظر إلى المخبر الله عز وجل، لا تنظر للكلام ولكن انظر للمتكلم كيف يتحدث عن نفسه، كيف يمجد نفسه؟ كيف لا يعتريه الوهن ولا الضعف، لا في نفسه ولا في كلامه.

تقريباً أيها الإخوة الأحبة أرجو أن أكون قد وفقت مع أن هذا من أشق ما يقال فيه، وأنا أخبركم بشيء، ما من عالمٍ قط تكلم في التفسير إلا ودار حول هذا، وما من عالم تكلم في علوم القرآن إلا وأتى بشيءٍ ما حول هذا الباب، وطلبة العلم يستطيعون العودة إليه، ولكني لابد أن أقف هنا على مذهبٍ عجيب، وهو مذهب الصرفة يعني هذا الذي قاله النظام فإن الرماني أتى إليه وذكره وذكر سبعة وجوه للإعجاز وقال بأن دواعي التحدي والمكابرة مع وجود الصرفة إلى غير ذلك تكلم في هذا، ولما جاء الإمام القاضي عياض في «الشفا» كذلك بعض الناس ينسب إلى القاضي أنه يقول بالصرفة، وفي الحقيقة لا يوجد عالم نعلمه قال بالصرفة على معناها على ما يريده أصحاب هذا المذهب.

الصرفة ابتداءً معناها أن العرب يستطيعون أن يأتوا بمثله، ولكن الله عز وجل صرفهم عن أن يأتوا بمثله فكان صرف رب العرب عن أن يأتوا بمثله هو الإعجاز، وهذا فقط منقوض في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقول: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣]، فإذن المسألة مفتوحة، تحداهم مع فتح الميدان وليس مع إغلاقه، وهو مذهبٌ لا قيمة له ولا أهمية له وهو مذهبٌ عجيب يعني لا يتصور أن يقول به عالمٌ يفهم مدلولات القرآن.

تكلمنا عن قضية ما يسمى بدلائل صدق هذا القرآن أنه من عند الله عز وجل وأنها تختلف عن موضوع الإعجاز مما يسمى اليوم مثلاً أو قديمًا ما يسمى بالإتيان بالأخبار الغيبية، فإن البشر لا يستطيعون أن يأتوا بهذا الموضوع، ولكن نرد أن هذا ليس من الإعجاز في قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣)﴾ [هود: ١٣]، يعني الموضوع لا يتعلق بالمعاني التي أتى بها ولكن بشيءٍ آخر والعرب تعرفه من نفسها.

يكفي هذا الذي تكلمنا فيه الآن في موضوع الإعجاز، أرجو أن أكون قد أتيت عليه وإن كان كل كتاب من هذه الكتب يحتاج إلى محاضرتين أو ثلاث، فلو أخذنا كتاب الخطابي يحتاج إلى محاضرتين أو ثلاثة، لو أتينا لكتاب الباقلاني يحتاج محاضرتين أو ثلاثة لو أتينا لكتاب «النبأ العظيم» لدراز كذلك، وهكذا ... فكل عالمٍ تكلم في الإعجاز يحتاج إلى شرح، وهناك من تكلم غيرهم مثلاً السيوطي له كتاب في قضية معترف الأقران في إعجاز القرآن، عبد القادر عبد الجبار الهمذاني كذلك، أنا ابتعدت عن موضوع وهو أهمهم وهو كتاب «دلائل إعجاز» القرآن للجرجاني، لابد أن نأتي إليه قليلاً.

هناك قديماً كان ثمة خصومة فيما هو أفضل، هل الأفضل هو اللفظ أم الأفضل هو المعنى، فهناك خصومة كبيرة بين البيانيين بين البلاغيين ما هو الأعظم؟ هل هو المعنى الجديد المبتكر أم اللفظ الذي يصنع رونق الكلام وأهميته، ونحن رأينا أن الرماني نفسه يقول لابد من نظامٍ جامع لا يكفي أن يكون معنا محمول ولا لفظٍ حامل وإنما لابد من وجود رابطٍ بينهما، هذا قاله الخطابي، وكذلك يقوله كل واحدٍ منهم، يقوله حتى عبد القادر المعتزلي في كتابه «المغني» له كتاب في إعجاز القرآن من كتابه «المغني»، في قضية شرحه لمذهب المعتزلة.

وعبد القاهر الجرجاني جاء ونحن رأينا في كلام الباقلاني يعني ترك ابتعاد عن معالم اكتشاف السبك الجميل والبلاغة في داخل اللفظ، هو يقول عليك أن تتلمس لكن لا يعطيك الأدوات في تلمس هذا الكلام، فلذلك جاء عبد القاهر هناك نص –كنت أتمنى أن أتي به– هناك نص لعبد القاهر الجرجاني يقول: إن إدراك –بمعنى الكلام– إن إدراك الإعجاز والبلاغة في الكلام أمرٌ معقولٌ يمكن للمرء أن يتعلمه صناعة، ففتح لنا باب، وسنأتي إلى قضية ما الذي يقدمه وهي نظرية النظم عنده، لكن المهم في هذه النقطة هذا أهم ما أتى به الجرجاني وإن كان مسبوقاً.

يعني الرماني عندما تكلم عن السبك وعن روابطه وكذلك الخطابي لما تكلم، أتوا في قضية الحذف والتقديم والتأخير أتوا بهذا، أي لماذا يتم التقديم؟ نحن رأينا مثلاً: لماذا قدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، رأينا تقديم إياك على الفعل، هذا من الإعجاز، وكذلك الحذف لماذا يحذف هنا، لماذا ينكر؟ لماذا هنا التنكير؟ لماذا هنا التعريف؟ وهكذا، عند استخدام حروف المعاني، لماذا يأتي بـ «على» ولا يأتي بـ «في» كما سنرى في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ [البقرة: ٢٣]، ولو أن أحد يتكلم لقال: وإن كنتم من ريب، وليس فيه ريب، فلماذا يستخدم هذا الحرف، معنى هذا الحرف لماذا يستخدم في هذا الباب، فتكلم به الأقدمون لكن الذي توسع فيه وبسطه بسطًا تاماً حتى إن كتابه في دلائل الإعجاز وهو عبد القاهر الجرجاني رحمه الله وهو أشعري، حتى أن كثيرٍ من أهل العلم يعتبرون كتابه هو الذي أرسى قواعد علوم البلاغة، مع أن غيره تكلم، تكلموا قديماً في هذا الباب.

فيقول عبد القاهر الجرجاني: بأن أدوات إدراك البلاغة في القرآن بين أيدينا، وهو هذه، ثم جعل يفصل في هذه الأدوات ويبين لماذا قيلت ويأتي إلى الشعر ويأتي إلى الآية ويأتي إلى الحديث ويبين كيفية إدراك معالم البلاغة في هذه الكلمة، لماذا؟ فالأوائل لم يضعوا أيدينا إلا القليل على الأدوات التي بها ندرك البلاغة، هو قال: لا، يمكن ويجب أن تكون لدينا ويجب أن نعرفها، ولذلك حاول تأصيل هذا العلم وهذه من بركة هذا الرجل ومن أهميته، وهذا خلاصة ما يقول.

وأما تقدمة المعاني أفضل من ألفاظ يقول: لا، ليس المقصود، المقصود بأن الكلام البليغ هو الذي يدل على معنى ما يريده صاحبه، وهذه في الحقيقة من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، أن التفضيل المطلق سواء كان للأماكن سواء كان للأعمال سواء كان الرجال سواء كان المذاهب ابتعدوا عنه، التفضيل المطلق بمعنى أن تقول هذا رجلٌ جيد في كل شيء، هذا لا وجود له، هو جيدٌ في باب وأفضل من هذا الرجل في باب وهذا الرجل أفضل منه في باب وهكذا، ولذلك لما يأتي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى التفضيل، ما الأفضل تربة قبر النبي صلى الله عليه وسلم أم مكة؟ فيفصل لما يأتي ما هو الأفضل يوم عرفة أم يوم الجمعة؟ يفصل، فالتفصيل هو المطلوب.

والجرجاني هنا يفصل –هنا لا بأس استعير في هذا– وهذا من ترابط العلم وأهمية بناء طالب العلم بناء متكاملاً ألا يفصل العلوم بعضها عن بعض، لأن من مصاعب طالب العلم قديمًا وحديثًا هو فصل العلوم يتكلم في الفقه كأنه يتكلم عن علم مستقل عن علم البلاغة، على الرغم أنه وهو يقرأ الفقه لابد أن يتعلم البلاغة ولابد أن يتعلم العقيدة ولابد أن يتعلم التفسير ولابد أن يتعلم الحديث، لا يوجد انفصال ونحن نجد أن الرجل ربما يكون أثرياً في الفقه، فإذا تكلم في الأصول تكلم على طريقة المناطقة والمتكلمين، وهذا خطأ.

القصد: بأن الجرجاني قال: ليس البيان العظيم متعلقًا باللفظ، ولا متعلقاً بالمعنى، بل يتعلق بقوة بيان هذا الكلام على مراد صاحبه، هذا سماه النظم، إذن هو لابد من معنى ولفظٍ حاملٍ له ولابد أن يكون دالاً دلالةً صحيحة على

مراد صاحبه، فإذا عبر عن مراده بلفظٍ فيه ضعف كان هنا العي، كان هنا الجهالة، أي لو أراد رجل أن ينفي وجود رجلٍ في البيت، لا وجود لرجلٍ في البيت ينبغي أن يعبر بتعبيرٍ يختلف عن إمكانية وجود رجل فيه، بخلاف من يجزم يقيناً.

لو أن رجلاً سألك سؤالاً –هذا من أمثلة الجرجاني وأنا أريد أن نأتي إليها لأنها تحتاج بنفسها تحتاج إلى دروس– لو أن رجلاً سألك سؤالاً فلا بد أن تعرف منزلة السائل حتى تجيبه باللفظ الملائم لمنزلته، ربما يكون مستفسراً، لا يعرف المسألة قط، فأنت تجيبه بكلامٍ يختلف عن إجابتك لرجل يسأل وهو قد تشكك في المسألة، أي لو أن رجلاً أراد أن يعرف وليس في ذهنه ردٌ ولا قبول، فهذا لو أردت أن تجيبه هذا يختلف عن إجابتك لرجل سمع بالمسألة وعنده تشكك فتجيبه بلفظٍ آخر، على الرغم أن السؤال واحد، لكن حال السائل يجعل اللفظ يختلف.

فمثلاً: استخدام أدوات التأكيد، لا ينبغي أن تستخدم أدوات التأكيد الشديدة لرجلٍ براء صفحة بيضاء ليس شاكاً فلماذا تؤكد؟ بخلاف من جاءك شاكًا وهكذا ...، فإن البلاغة هي عنده هي التي تعبر عن المعنى الصحيح في نفس المتكلم الموافق للحال، هذه النظرية اسمها النظم، وهي لابد إذن من لفظٍ ومن معنى ومن رابطٍ بينهم ومن أشياء زائدة كذلك، ليس فقط الرابط وهو طبيعة الحديث الذي تجري فيه وطبيعة المجلس وطبيعة السائل والمتكلم إلى غير ذلك، هذا الذي قاله الجرجاني هذه تقريباً نظريته في دلائل الإعجاز وهي نعم فيها أشياء جديدة لكن كذلك ليست مُحدثة لم يحدثها ليس هو ابن بكارتها كما يقولون.

نأتي على بعض المعاني في هاتين الآيتين بعد أن انتهينا من الكلام في الإعجاز عامةً.

يقول تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤]، بلا شك مما تعلمون أن السورة «البقرة» سورة مدنية، وقله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، في سورة «يونس» وسورة «يونس» مكية، فما زال التحدي قائماً، يعني الذي تحدى الله عز وجل به أهل مكة تحدى به أهل المدينة، وإنما أتى هنا بلفظ «من»، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي سورة «يونس» قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾، البعض جعل هنا «من» تبعيضيه، بمعنى أنكم عليكم أن تأتوا بوجهٍ من وجوه الإعجاز في السورة التي تريدونها.

ويستدل على هذا بأن هذه الآية التي أتت بـ «من» التبغيضية أتت في المدينة، والمدينة فيها تشريعات، فائتوا بمثل هذه التشريعات، يعني لو واحدة أو بعض هذه التشريعات، والحقيقة هذا يرد عليهم بأمور كثيرة، فالتشريعات التي أتت في المدينة لا تعادل الأخبار والقصص التي أتت في مكة، والله يقول بعد ذكر قصة نوح: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا

أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)﴾ [هود: ٤٩]، فالأخبار التي جاءت بها الآيات في مكة أكثر من التشريعات التي جاءت في المدينة، أخبار كثيرة لا يعرفونها ولو كان المقصود البعض لتحداهم أن يأتوا كذلك بالبعض من هذه القصص، يعني أتوا ببعض هذه القصص التي لا تعلمونها، وإذا كان متعلق الأمر ببعض التشريعات كذلك الإخبار عن الملائكة والإخبار عن الجن والإخبار عن الجنة والإخبار عن النار والإخبار عن الصراع وهكذا، الإخبار عن العرش، فهذه كذلك مما يتعلق بها البيان.

فالقول بإن «من» إنما نزلت بعد التشريعات من أجل أن تدل على أن يأتوا على أن التشريعات هي إعجازٌ قرآني هكذا هو مرادهم، أن التشريعات هي من الإعجاز فأتوا بمثل هذه التشريعات أو ببعضها، هذا كلامٌ غير صحيح، لأن ما يقابل التشريعات التي يزعم هؤلاء أن القرآن تحد به العرب يقابلها الكثير من الأمور التي جاء بها القرآن في مكة ولا تعرفها العرب ولا يستطيعون أن يأتوا بمثلها.

والذي تلاحظونه أيها الإخوة الأحبة أن القرآن يتحدث عن الأحكام بطريقةٍ عامة في المدينة، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فيتحدث حديثاً عامًا، لكن الحديث عن قضايا الغيب التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة وجاء بها القرآن في مكة في كل واحدةٍ فيها التحدي، فلم يكن هناك ثمة صراع في المدينة حول التشريعات، وإنما الصراع في مكة حول الأخبار التي جاء بها، والعرب تنكرها وتردها ولا تراها، فحاجة القرآن لو كان التحدي يتعلق بما فيها من أحكام أو أخبار لكان التحدي بهذا النوع من الكثرة في مكة أولى وأدعى لأنها الأكثر ولأنها هي التي يتم فيها الإنكار، التشريعات لم يقع فيها الإنكار في المدينة لكن الأخبار التي جاءت في مكة هي التي وقع فيها الإنكار فهي أولى بالتحدي.

فالذي يُرى أن هنا ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، ليس على ما قالوه والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ [البقرة: ٢٣] هنا ما الفرق بين إن وإذا؟ لماذا لم يقل وإذا كنتم؟ إن هنا قليلة الوقوع، وإذا الأغلب أن تقع، وهذا من السبك الذي تحتاجه في إدراك قيمة الكلام، هذا من سبك العرب متى يستخدمون هذا اللفظ، ومتى لا يستخدمونه، فإذا أردت أن تنبئنا شيئًا يقع، فعلت وإن فعلتها فتشكك أنه يفعل أو لا يفعل، لكن وإذا فعلت هذا اللفظ يقوي أن الفعل واقعٌ في أغلب الظن.

فقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾، هنا مفتتح الآية أنهم ليسوا في ريب، وإنما مقصود إيراد هذه الآية هو التحدي، وأما في نفوسهم فهم يعلمون أنه من عند الله عز وجل، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾، فهذا الريب ضعيف لا وجود له أو وجوده لا يكاد يذكر وليس له أهمية، ومن هنا قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾، بخلاف ما لو قال: وإذا كنتم؛ فدل على وجود الريب القوي وهذا لا يوجد عندهم، هم يكادوا إجماعاً أن يقروا أنه من عند الله وأنه لا يمكن أن يصدر من بشر ولا يمكن أن يصدر من نفسٍ إنسانية.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾، هنا العلماء أتوا لماذا في ريب؟ و«في» طبعاً ظرفية، تستخدم للظرف، والظرف يقتضي الملابسة، وكأن المرء حين يكون مرتاباً، كأن الريب يحيط به يلابسه يخالطه، فقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾، ليدل على أن الريب إذا وقع إنما يخالط الإنسان في أجمعه، ومن هنا قال: ﴿فِي رَيْبٍ﴾، وهذا كما ترون هو إحدى صور الإعجاز.

صحيح أن الجرجاني وضع معالم إدراك الإعجاز لكن الذي طبقه على كل ما أدركه من القرآن هو الزمخشري، فالزمخشري هو التطبيق العملي لنظرية دلائل الإعجاز عند الجرجاني، ولذلك ذكره في «الكشاف» ثلاث مرات، ذكره وهو لم يقابله ولكنه من أهل بلده، وربما لما مات الجرجاني كان عمر الزمخشري جار الله ربما سبع سنوات أو قريباً من هذا.

أظن أن اليوم كانت المسألة شاقة، فيكفي إلى هنا ونفتح باب الأسئلة إن شاء الله تعالى وبارك الله فيكم.

الأسئلة

السائل: ما القدر الذي وقع فيه التحدي؟

الشيخ: كلهم قالوا وبعضهم يعبر بألفاظ مختلفة، قالوا: بأن هذا اللفظ هو لفظٌ كاملٌ ليس فيه الوهن الذي يعتري البشر وفسرنا الكلام، إذًا ما القدر الذي يقع؟ كل جملةٍ فيه لو اختل لفظٌ فيها أو أزيل حرفٌ منها لأدرك البليغ التام في بلاغته أنها ناقصة، إما ناقصة لدرجة العي وإما ناقصة عن درجة كمال البلوغ؛ لأن النقص يقع على معنيين يا شيخ.

النقص الأول: الذي يؤدي به إلى الضعف، وتقل: هذا كلام رجلٍ ناقص، عيي، أنه أخطأ كمن يغلط في النحو، هذا كلام ناقص، فهذا عي، جهل

النقص الثاني: أن يقع النقص في عدم بلوغ التمام.

فلو غيرت كلمة مكان كلمة في القرآن أي كلمة، لو غيرت حرفًا مكان حرف في القرآن لوجدت أنه صار فيه النقص، قطعًا لا يكون النقص في الثانية لأنه لن يأتي واحد ويخطأ في النحو أو يضع كلمة ضد وهكذا..، لكنه سيكون النقص الذي يدرك فيه البلاغي أن هنا حصل الضعف الذي يتكلم به تام النفس الإلهية فيه.

ومن هنا فكل كلمةٍ فيه فيها هذا الإعجاز –بعد هذا المعنى– فيها الإعجاز، هنا تأتي القضية يعني هل غيره لا يستطيع أن يأتي بهذه الكلمة؟ لو أنه أتى بهذه الجملة لا يأتي بها، هذه الجملة أتى بها القرآن في هذا الموطن لن يستطيع أن يأتي بها بلاغيٌ بهذا التمام، فهذا هو الإعجاز، إذن هو واقع.

لا بأس أن نأتي إلى كلمة، هذا الذي قلته وأريد أن أنبه لأن البعض يخطئ، إن ما قلته هنا عن كلام الأئمة في الإعجاز هو قطرة فيما قاله كل واحد، ولذلك على كل طالب علم أن يرجع إلى الكتب مباشرة فهي مليئة بالمعاني، غنيةٌ بجوانب متعددة كالذي يتحدث عن الأثر النفسي.

فمن تكلم عن الأثر النفسي، القرآن تحدث عنه هذا لا يُعرف في كلام الناس، القشعريرة والخشية والرهبة عند سماع الكلام ودمع العين عند سماعه أو قراءته، هذا لا يعرفه الناس في كلامهم، وهل هذا من المعنى الذي حملناه، مجازًا حملناه على كلام الباقلاني لا ندرك معناه، وهذا نراه فأنت ألا ترى أن العجوز في أمتنا لا تفهم البلاغة ولا تفهم الكلام؛ فإذا قرأ عليها أحد القرآن بكت، لماذا؟ ما الذي أدركته في هذا الكلام لتبكي؟ هي لا تستطيع التفسير وأنت لا تستطيع التفسير إلا لشيءٍ واحد أن هذا الكلام فيه سطوة متكلمه وأن جلال متكلمه قد صار في هذا الكلام،

وأن جلال هذا الكلام مأخوذٌ من جلال متكلمه، وهيبة هذا الكلام من هيبة متكلمه، وعظمة هذا الكلام من عظمة متكلمه، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، بأي شيء حصل لأن الكلام صفة لمتكلمه.

فهذه معاني يجب أن ننتبه لها في قضية حديثنا عن الإعجاز لا يدركها أحد، والعجمي لا يدركها، وسيد قطب رحمه الله لما ذكر قصة رحلته إلى أمريكا ذكر قصة عجيبة من هذا مشهورة، كانوا يسافرون بالسفينة فأراد أحدهم ليصلي بهم الجمعة لا يوجد خطيب فخطب بهم وكان يقرأ القرآن في الخطبة فجاءته امرأة أجنبية وقالت له: وهي تعرف العربية، لكن هي تستمع له، وقالت له: أنت كنت تمر على بعض الفقرات فيها كلام يختلف، وفيها هيبة، حديث آخر، فلما راجع وإذا هو القرآن، ما الذي شعرته هذه المرأة؟ كما قال الوليد ابن المغيرة بعد أن سمع القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والله، إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته»، وقام وقد تغير وجهه ما الذي أحدثه؟ هيبة الكلام، فإذا صدر هذا الكلام من متكلمٍ عظيم كان الكلام عظيمًا.

وثانيًا: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قرأه عليه، وهذا شيء آخر، يعني النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إنِّي أحبُّ أن أسمعَه من غيري)، وكذلك قال صلى الله عليه وسلم: (ليسَ مِنَّا مَن لَمْ يَتَغَنَّ بالقُرْآنِ)، فحتى الصوت، فعندما يصفون قراءة القاضي عياض –ارجعوا إلى ترجمته– يصفونها كأنه يحدث أحدًا، كانوا إذا سمعوا قراءته يقرأ القرآن كأنه يحدث أحدهم، ويتسألون من يحدث؟!! فهذه هيبة المتكلم كما قال ابن عمر رضي الله عنهما لما كان يطوف في مكة فجاء عروة بن الزبير رضي الله عنهما وطلب ابنته للزواج قال: أيأتينا أحدكم بهذا الأمر في هذا الموطن ونحن نتخايل الله عز وجل بين أعيوننا، يتكلم انه بين يدي الله عز وجل، فكيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم؟؟

فتصور هذه القراءة التي سمعها الصحابة رضي الله عنهم ومن هنا يأتي فضل الصحابة رضي الله عنهم.

والقصد: أنني لا أريد أن يأتي أحد ويظن أني ما تكلمته عن الإعجاز هو شامل لكل ما قاله العلماء، وقد تكلموا كلامًا عجيبًا يبهرك، ولكنني أتيت إلى النقاط التي هي ملتقى كلامهم في موضوع الإعجاز، وأرجو أن أكون قد وفقت فهذا موضوعٌ صعب.

وهنا لا بد أن أقول كلمة قرأت لكل من كتب عن مذاهب العلماء في الإعجاز، فتتعجب!! حين تقرأ للعالم كلامه ترى دُرًا، ترى ثمرًا غاليًا ثمينًا ينثر بين يديك، وإذا آتى العالم ليصف هذا الكلام رأيت حجرًا لا وهج له لا بريق له وهكذا والأغلب، وبعضهم طبعًا مكثر وبعضهم مقل، يعني بعضهم يحاول وبعضهم للأسف لا يصيب الكثير مما يريده العالم من كلامه.

السائل: جزاكم الله خير شيخنا، في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، تفضلت وقلت: إن «من» تبعيضية فما القول الصحيح؟

الشيخ: في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، أنا قرأت وحاولت لما أتيت لهذا الموضوع في سورة «الإسراء» قرأت لكل ما وقع بين يدي من كتب التفسير لأني أجزم أن هناك من كتب التفسير لم أطلع عليها، خاصةً لما كان الأمر في السجن فلم أجد أحدًا تكلم كلامًا يقارب المراد إلا أنه وقع في قلب بأن هنا من بيانية ذلك لأن السورة القرآنية قد شملت كل شيء في مكة كانت شاملة لبعض أجزاء الدين وليس لكله ففي المدينة شملت كل أنواع ما تأتي به الشريعة، فـ«من» البيانية تستخدم في أغلب الأوقات من أجل الاتساع، أي لماذا تستخدم «من» البيانية؟ لتضاد «من» التبعيضية لتشمل أكثر ليكون هناك شمولٌ في البيان.

فالذي أعتقده وهو يعني قريب إن شاء الله مما قاله البعض يعني وجدت صاحب «التحرير والتنوير» يقترب من هذا وهو صعب إدراكه له إدراكًا تامًا، يقول بهذا المعنى أو قريب من هذا المعنى أن المقصود ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، لتدل على البيان الشامل بعد نزول آيات القرآن في المدينة، والله تعالى أعلم.

السائل: هل قول بعضهم صحيح في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ أي من مثل عبدنا؟

الشيخ: هذا سنأتي إليه لا بأس مازلنا لم نصل لها، هناك من قال في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ أي بمثل عبدنا فجعلوا الضمير يعود إلى عبدنا وهذه سنأتي إليها إن شاء الله لا بأس ما زلنا لم نفصل فيها.

السائل: شيخنا عندما تكلمت عن كلام الخطابي وعن الباقلاني مع أنك قلت: هذه نقطة في بحر مما تكلموا به، كلام جميل جدًا في الوصف لإعجاز القرآن، يعني عندما يفصلون في المسألة ويقولون مثلاً: الجملة إن فيها الغلظة.

الشيخ: هذا كلام الخطابي عجيب!! وانا أقول لكم: كلامه صعب، وقد قرأت لمن حاول يصف مراد الخطابي فقتل الموضوع، وهو أراد أن يبين أن هذا التمام في لحظةٍ واحدة، فهذا التمام من البلاغ للحالات المتعارضة النفسية التي لها أحوالٌ كلامية لا يمكن أن تأتي في حالةٍ واحدة، فإذا حاول أن يجمعها ظهر شيءٌ ولكن في حالةٍ واحدة، وكله يعود إلى معرفة نفس المتكلم، أ الله عز وجل، يعني أنت تتعجب في لحظةٍ واحدة أنت تقوم فتصلي فيرضى الله عنك وفي هذه اللحظة التي أنت فيها رجلٌ يشرب الخمر فيغضب الله عليك.

ما المراد من ذلك كله؟ أن تعرف نفس الرب وأنه هذا لا لا يمكن، فلو أن رجلاً قام ورأى من صديقه أو من ابنه أو رأى من أخيه غضب منه غضبًا، فجاءته زوجته وقالت له: أتحبني؟ ماذا يفعل بها؟ «انفض ايدك»، فهذا لا يمكن، لا يمكن، رحم الله الأئمة.

وأريد أن أقول هذا الذي قاله أخونا: بأن هذا الكلام العظيم من أجل هذا تعرفون قيمة القراءة والرحلة في كلام سلفنا فالمرء لولا ما ابتلي به وإلا هجر الناس وأغلق بيته وعاش مع هؤلاء مع الذوق القرآني ومع ذوق معنى الحديث وهذا بابٌ جميل، ولو أن الناس تحدثوا عن الشريعة بهذا المعنى لكان لأثر الكلام القرآني غير ما هم فيه.

السائل: شيخنا الحبيب قرأت التفاسير أية في سورة «النور» ولم أفهم من هو المقصود في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ [النور: ٣١]؟ **وهل يدخل فيه المخنث؟ ولماذا يجوز له الدخول على النساء؟**

الشيخ: ندع هذا لدرس آخر، أعدك أن أجيبك إجابةً مفصلة، وأنا أصف دائمًا الأسئلة هذه بعد الخروج من الموضوع أسئلة من تحت الطعام يعني لم يبقى شيء، وإن شاء الله أجيب هذا الأخ الحبيب.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الحادي والثلاثون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً بكم أيها الإخوة في الدرس الحادي والثلاثون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

قلنا: بعد أن انتهينا بما قدِرنا عليه وبما يسمح الوقت لأن المبحث ليس عن قضية الإعجاز لكنها لفتة يسيرة استغرقت ربما درسين في موضوع الإعجاز البياني والبلاغي، والمقصود عند السلف جميعًا بالإعجاز هو الإعجاز البلاغي لأن هذا الباب هو صناعة العرب فتحداهم لأن هذا هو صناعتهم والأمم إنما يقع لها أو بها وعليها التحدي بسبب ما تتقن وليس بأمرٍ آخر.

وهنا «الواو» ﴿وَإِنْ كُنْتُ﴾، تعلق هذا الكلام في قضية الحديث عن القرآن وإعجازه، إنما جاء بعد الكلام عن التوحيد، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، وهذا أظن ذكرناه أنه بعد أن جاء ذكر العبادة وتوحيد الله عز وجل في عبادته، وجاء ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يبلغ هذه العبادة، فالحديث عن الرسالة يكون بعد الحديث عن العبادة وعن التأله والتوحيد.

وأنتم تلاحظون هنا شيئاً مهماً وهو أن الله عز وجل في كتابه كله لا يتحدث قطعًا عن وجود الإله، وهي ليست مسألة مطروحة للنقاش، مهمات الوجود انتهينا منها تكلمنا عن سورة «الفاتحة» وهي شاملة لمهمات الإنسان ومهمات الوجود كله ورأينا كيف تكلمت سورة «البقرة» إلى الآن وهذا الذي تكلمنا فيه تقريباً استوعب مهمات الوجود ومقاصده، ولكن لا نرى في القرآن أبداً حديثاً عن قضية وجود الله عز وجل وعدم وجوده، والسبب في ذلك أنها قضية فطرية منتهية، لم ينفها إلا أفراد من الناس والشذاذ فهي ليست قضية ذات شأن لتبحث ولكنها قضيةٌ مفطورةٌ في القلوب، مجمعٌ عليها من قبل الإنسان لا خلاف حول هذه القضية.

والإلحاد المنتشر إنما ينتشر بسبب فقط «الموضة» كما يقولون، وهي تيارات ليس لها عماد فكري وليس لها عماد عقلي قضية الوجود الإلهي أنه موجود قضيةٌ فطريةٌ كامنةٌ في النفس البشرية لا يعرف عن أحدٍ أنه نفاها، ولذلك قال

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، فتحدث كأن القضية الأولى أن الله عز وجل هو الذي رباهم وهو ربهم أنها قضية منتهية، فالآن المطلوب هو العبادة، وهذا ما شرحه علماء التوحيد.

فعندما تقرأون في شرح ابن أبي العز الحنفي رحمه الله في خضم حديثه عن طريقة المتكلمين وطريقة القرآن تجدون هذا الأمر بيناً واضحاً، أن حديث القرآن هو حديث عن التوحيد، هو حديثٌ عن العبادة وعن توحيد العبادة، وأما ما يتحدث عنه المتكلمون من توحيد الذات وتوحيد الصفات وتوحيد الفعل وهكذا، فهي قضايا يعني ليس من المهمات القرآنية لأنها مفطورةٌ في داخل البشر، فقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ﴾، هنا «واو» هناك لها علاقة بما قبلها، وقد تقدم أنه قد ذكر التوحيد ولابد أن نعرف كيف نعبده، ومن الذي بلغ العبادة، فحينئذٍ يأتي الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الرسالة.

وهنا يأتي الحديث الذي فيه الخصومة، وترون الخصومة هنا قضية التوحيد والعبادة أتى بها بموجبها أنه هو الذي خلقكم، هو الذي مهد لكم الأرض، هو الذي رباكم، هو الذي أعتنى بكم، هو الذي يمدكم، أنتم تقومون به لكن لما جاء لقضية الرسالة جاء هنا إلى المناظرة، ترون المناظرة فيها، ترون طريقة جديدة، فالأولى فيها التقرير ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، ولكن في هذه الطريقة الجديدة ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾، حديثٌ عن وجود خلاف ونقاش وبحث ومراجعة، وبالتالي كان الحديث مختلفاً كما ترون.

فقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾، ونحن ذكرنا في الدرس السابق وأنا أعيدها سريعاً، لماذا جاء هنا بصيغتي «إن» مع أن «إن» فيها شك الوقوع بخلاف «إذا»، قلنا: في الدرس الفائت «إذا» فيها قرب الوقوع وتحققه، لكن «إن» الشرطية هنا استبعاد، لماذا؟ لأن الريب غير موجود، كأن القرآن يقول: بالرغم على كثرتهم في رفضهم ولكن هو لا يعترف بهذا الريب لأنه يكاد يكون معدوماً لا وجود له، وإنما هو الجحود وهي المحاجة بالباطل.

وقوله تعالى: ﴿فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، لم يقل ربنا سبحانه وتعالى مما أنزلنا، وإنما أتى هنا بصيغة فعّل وذلك لأن صيغة فعّل عند أهل العلم تفتضي وقوع الشيء شيئاً فشيئاً، قضاء الشيء شيئاً نزّل يعني نزل مرةً بعد مرة قضي مرةً نزولاً مرةً بعد مرة، فلما كان هذا القرآن قد نزل منجماً، قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ أي جعله مفرقاً.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)﴾ [الفرقان: ٣٢]، فالقرآن فُرق ونزل مُنجماً وهذا من إعجازه، من إعجاز القرآن أنه جاء مفرقاً ثم لما جمع كأنه نزل مرةً واحدة، لاتساق وحسن سبكه وكأن الآية التي نزلت بعد سنتين حين اقترنت بهذه الآية كأنها نزلت معها هذا شيءٌ

من الإعجاز كذلك، أنه يأتي مفرقًا ثم بعد ذلك يجمع على غير وفق نزوله زمنياً فيأتي كأنه سبيكة واحدة، كأن الذي قاله، قاله في لحظةٍ واحدة، وهذا من إعجاز هذا القرآن.

فقوله تعالى: ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا﴾ –قلنا هنا نكرر– أن صيغة فعّل إنما تفيد قضاء الشيء شيئاً فشيئاً.

قوله تعالى: ﴿عَلَى عَبْدِنَا﴾، وهذا هنا يظهر مقام التشريف لرسولنا صلى الله عليه وسلم، مما نزلنا على عبدنا وهذه الكلمة أيها الإخوة الأحبة ﴿عَبْدَنَا﴾، لتتوافق في أنه قد استجاب لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، ثم جاءت الآية ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، فدل على أن هذا النبي قد قام بمقام العبودية كما أمر الله عز وجل، فاستحق هذا الوصف الذي هو وصف التشريف، أن يكون عبداً لله هذا لقبٌ ووصفٌ تشريفي.

فقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا﴾، ونحن نقول دائماً: إذا جاء ضمير الجمع فدل على تعدد الفعل وعلى هيبة المتحدث وعلى مقامه فلم يقل مما نزلت إنما جاء بضمير الجمع لتدل على العظمة وتدل على تعدد الفعل فيه، ففيه العلم هو علم الله عز وجل، فيه كلامه هو عَلمه وتكلم به وهو أمر به وهو الذي أنزله وهو الذي حفظه بعد ذلك، فالتنزيل ليس فيه فعلٌ واحد إنما فيه أفعالٌ فجاء هنا ضمير الجمع ليدل على الأفعال المتعددة ثم ليدل على هيبة وعظمة المتكلم.

قوله تعالى: ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾، قبلها يقرر العلماء ولشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة جميلة صغيرة الحجم تتحدث عن كلمة النزول، وأن كل موطنٍ أو موضعٍ جاءت فيه كلمة النزول في القرآن دلت على وجود العلو وعلى وجود السفل، فحتى إذا وردت عن طريق الأنعام وغيرها فإنها تدل على وجود النزول مما يقتضي وجود العلو الذي يقابله السفل.

ولا بأس هنا يا إخوة فالمقام ليس فيما نحن فيه ولكن هنا أريد أن أتي إلى نقطة لأني أرى أن الشُبه في هذه الأيام في هذه الديار قد كثرت حول قضية إثبات علو الله عز وجل على خلقه وكثر فيها الكلام، أنا تكلمت أن المقصود بعلو الله عز وجل هو العلو المطلق، ولكن هؤلاء الجهلة ظنوا أن قضية العلو تقتضي المكان، ونحن نعلم أن الله عز وجل أنه ليس في داخل العالم، والحديث عن خارج العالم انتبهوا لهذه القضية، هل الله عز وجل خارج هذا العالم؟ وهذا الذي يعبر عنه عند السلف بكلمة مباين لخلقه، بائن عن خلقه بمعنى أنه ليس فيه شيءٌ من خلقه وليس هو في شيءٍ من خلقه، هذه قضية مجمع عليها ومن قال بخلافها كفر، من قال: أن الله يدخل في شيءٍ من خلقه فقد كفر لأنه لم يعظم ربنا عز وجل التعظيم اللائق، فإن الظرف أعظم من المظروف.

فبالتالي لا يجوز لأحد أن يعتقد أن الله عز وجل يدخل في شيءٍ من خلقه، وكذلك لا يجوز أن يقول قائل: أن هناك شيءٌ يدخل في ربنا سبحانه وتعالى فكذلك هذا ممتنع، فالله عز وجل بائن هذا الذي يعبر عنه، فالمكان هذا كيف؟ هذا في حديثهم عن الجهة، يقول: أين كان الله عز وجل قبل أن يكون هناك شيء؟

هنا أنا آتي لمسألة فيزيائية مهمة، تكلمت لكم سابقًا على أن الزمان ليس شيئاً واحداً، وكانت قديماً هذه الأسئلة تطرح في قضية حياة الله، بمعنى الزمن بما نطلق عليه في كلامنا، هل الزمن هو شيءٌ واحد في حق ربنا عندما نقول: هو حي وكذلك هو الزمن في حقنا، كان الناس يدور حولهم هذا الحديث، ثم تبين اليوم بسبب النظرية النسبية، تبين أن الزمن ليس شيئاً واحداً ذكرنا نحن أمثلته وذكرنا كيف التصور له، وهذه حقيقة الآن لم تعد نظرية وهي موافقة لقوله تعالى: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾ [السجدة: ٥]، ألف سنة مما نعد أي اليوم عند قوم يكون ألف سنة عند قومٍ آخرين، بل يكون خمسين ألف سنة في وقتٍ آخر.

وهذا بعض الناس يظن أن الشمس تطول حتى يصبح اليوم، أي عندنا اليوم أربعة وعشرين ساعة بحيث الشمس تشرق وتغيب في أربعة وعشرين ساعة أي دورة الشمس في الشروق والغروب من أوله إلى آخره، فيقول آخر: لا، يعني هناك شمسٌ أخرى تشرق فتستغرق من الوقت ألف سنة، هذا ليس هو المقصود.

المقصود: بأن مما ذكرناه بأن اليوم الذي هو عنده على المعنى الظاهر الذي قاله القرآن، اليوم هنا لو مشى فيه في نفس الوقت الذي مشى فيه هذا اليوم يقطع في هذا اليوم ألف سنة في الحالة التي قطع فيها.

فإذا قلنا وثبت هذا علمياً بأن الزمن ليس شيئاً واحداً بل هو يختلف من حالٍ إلى حال، فكيف نريد أن نقول: بأن المكان؟ نزيد على هذا بأن كلمة المكان لما جاء السلف قالوا: لا نثبتها ولا ننفيها؛ لأنها لم ترد في هذا الكتاب والسنة، لا نقول: أن الله عز وجل له مكان، لا نثبتها، لكن قالوا: نسأل السؤال ككل الأسئلة أو ككل المصطلحات الحادثة إن أثبتت معنًا صحيحًا؛ فنقول بها، وإن أثبتت معناً باطلاً؛ نردها، وكذلك كلمة المكان.

فقال العلماء: إذا أثبتنا مكاناً وجودياً فهذا لا يليق في حق الله عز وجل لأنه مخلوق، وإذا أثبتنا مكاناً عدمياً أي شيء آخر لا نتصوره، كلمة العدم شيء آخر، فحينئذٍ نثبتها لله عز وجل نقول: أن الله عز وجل موجود، فقالوا: قبل الخلق ماذا كان؟ نقول: لا يوجد أصلاً مخلوق حتى يقال: بائن عن خلقه، فهذا السؤال لا يطرح، السؤال الذي يطرح الله كان فوق قبل أن يخلق الإنسان والأرض والوجود الذي هو دون، نقول: هذا سؤالٌ عما لم يكن، فإنما يكون الفوق والتحت يكون بين شيئين، فلما كان المخلوق معدوماً فلا يقال: فوق، فلا يوجد إلا الله عز وجل، لا يوجد إلا ربنا سبحانه وتعالى كان الله ولا شيء معه، وكان الله ولا شيء قبله، والكلمتان صحيحتان ولا شك، معناه في شيخ الإسلام رحمه الله للفظ الثاني كان الله ولا شيء معه.

القصد من هذا: أيها الإخوة الأحبة أن إثبات الجهة لله سبحانه وتعالى هي بوجود المخلوق، وبعدم وجود المخلوق فحينئذٍ لا ضرورة لهذا الحديث لعدم وجود هذا الذي يثبتها، غير موجود، والرد على هذا الموضوع في قضية إثبات الجهة بالمفهوم الذي يطرحونه والمفهوم الذي يطرحه السلف وهو في الكتاب والسنة أن الله عز وجل فوق العرش وأنه سبحانه وتعالى فوقنا وأن القلوب تهفو إليه أنه فوق، هذه القضية إن شاء الله تأتي في مواطن كثيرة في القرآن نمر عليها بمقدار ما يلزم إن شاء الله عز وجل عند كل موطن.

قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا﴾ هنا الحديث بلا شك أيها الإخوة ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾، وهنا قاعدة علينا أن نحفظها وهي «تعليق الحكم بالمشتق يؤذن بعلية الاشتقاق»، هذه قالها الإمام الشافعي رحمه الله وهي من إبداعاته علماً وصوغاً؛ لأن العلم قد يكون موجوداً ولا يقدر المرء على صوغه، أصول الفقه كانت موجودة في أذهان الكثيرين لكن لا يستطيعون صوغها، فصوغ العلم مرتبة عظيمة، فمما قاله الشافعي رحمه الله قال: «تعليق الحكم بالمشتاق يؤذن بعلية الاشتقاق».

فقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ هو حديث عمن؟ الريب هذا مشتق فإذن يؤذن بأن الحديث عن الذين في قلوبهم مرض، يدل هذا على أن هذا الحديث لا يدور حول أهل اليقين، وإنما يدور حول من عندهم ريب، فلذلك الحديث عنهم، فقوله: ﴿فَأْتُوا﴾ حديث عمن؟ عمن في قلوبهم ريب، وأما الذين ليس في قلوبهم ريب وهم على اليقين بأنه من عند الله فهذا الحديث ليس لهم.

تقدم الكلام، السورة إما أن تكون بمعنى المحيط الذي يحيط بالشيء، وبالتالي كل سورة في القرآن هي تحيط بالمعاني العظيمة في داخلها وإما أن تكون المرتبة، لأن السورة تكون هكذا مرتبةً بعد مرتبة، فيقال: سميت سورة لما تبنى من الآيات.

قوله تعالى: ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾، هنا الضمير في قوله تعالى في هذا السؤال الذي طرح في الدرس الفائت الضمير يعود على القرآن أم يعود على الرسول؟ هناك أقوال تقريباً فيما قرأت في كتب أهل العلم لا تعدوا عن ثلاثة أقوال:

إما الضمير يعود على القرآن وبعد ذلك هناك حديث ومتعدد حول هذا العود إي يعود ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ على القرآن، أي من مثل القرآن فأتوا بسورة من مثل القرآن.

وهناك قول آخر: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾، والضمير يعود على عبدنا، فأتوا بسورة من مثل عبدنا.

وقول آخر: وهو أضعفها ولا يستحب الحقيقة النظر لكنه موجود في كتب التفسير وهو ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾، أي من مثل القرآن والتوراة والإنجيل، من مثل هذه الكتب التي أنزلتها، وهذا قول كما ترون بعيد ولا يتوافق مع السياق.

هذه تفتح لنا قوسًا وباباً من الحديث وشيءٌ مهم وهو أنه لابد من قواعد الترجيح من وجود قاعدةٍ في هذا الباب لنرجح، إما أن نقول: بأن المعنى شاملٌ الاثنين وقد تقدم الكلام على أنه لا يوجد سورة واحدة تدل على معنى واحد، ولكن إذا كان لابد من الترجيح فهناك قاعدة لابد من الاعتناء بها، وهو النظر إلى السياق، ما المقصود بالسياق؟ وما هو ظرفه؟ والحديث عما يدور حوله السياق، فهذا من المرجحات، وأنا أنبه على آية يكثر الاستشهاد بها، وهو استشهادٌ مقبول ولكن غيره أرجح منه، ولكن إذا احتج به المحتاج لا يعاب عليه لأنه يحتمله اللفظ، وهو: قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣)﴾ [الغاشية: ١-٣]، الكثير ممن يتحدثون وأنا منهم ممن يتحدث عن التنفير والترهيب من البدع يقول: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣)﴾، أي عاملة في الدنيا ناصبة في الآخرة، والمقصود بها أنهم يعملون ولكنهم لا يجازون إلا بالعذاب، مما يدل أن عملهم ليس صالحاً، إما أنه لعدم النية الصالحة والصادقة، وإما لعدم موافقة العمل للسنة، وهذا يحتج به كثيراً في كلام أهل العلم أن العمل ليس كافياً لدرء العذاب بل لابد من أن يكون العمل صالحاً وصلاح العمل بموافقته للسنة مع صلاح النية.

لكن الحقيقة، السياق ليس فيه هذا، السياق حديثٌ عن الآخرة، السياق يدور حول الآخرة، فلو أردنا أن نرجح لقلنا في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١)﴾ [الغاشية: ١]، إذن ليس هناك ثمة حديث سابق إلا عن هذه الداهية التي دهت الناس وغشيتهم، ومعنى الغاشية أنها عمتهم غشتهم حتى عمتهم، وعادةٍ الغشيان لا يكون إلا فيه الألم وقد يكون في غير الألم ولكن غشاه أي ألمه وعمه، أولاً عمه ثم يكون فيه الألم.

فقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١)﴾ [الغاشية: ١]، حديثٌ عن هذا اليوم الذي غشي الناس جميعاً وعمهم جميعاً وألمهم، فأين الحديث عن قول عاملة في الدنيا لماذا العود إلى الدنيا؟ فقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١)﴾، إذن الحديث يدور بعد هذا اللفظ وبعد هذه التقدمة على ما يجري يوم القيامة، ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣)﴾ [الغاشية: ١-٣]، أي يوم القيامة تبحث عن العمل الذي تعمله يوم القيامة وهي ناصبةٌ فيه، والعمل والناس يوم القيامة كثير ذكرت في السنة كثير من أعمال يوم القيامة من الناس الذين هم عاملة وناصبة مُعذبة وذلك من سعيهم من الفرار طلبهم الحسنات من غيرهم طلب الشفاعة إلى غير ذلك فهي عاملة، ويمكن كذلك حمل العمل على مجرد في وقوع الفعل عليهم لأن وجودهم مجتمعون في يوم القيامة تحت الشمس هذا عمل فهي ناصبة بهذا العمل، فهذا هو أقرب أن تفسر به السورة من خلال سياقها.

الآن لنعمل هذه القاعدة العلمية على ما بين أيدينا من الترجيح، ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، هذا الضمير يعود للقرآن أم يعود للنبي صلى الله عليه وسلم؟ الحديث في سياقه حديث عن ماذا؟ حديثٌ عن القرآن، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، فالحديث عما أنزل وليس عمن أنزل إليه، فالشك يدور والريب في قلوب هؤلاء إن وجد، إنما يدور حول الْمُنزَل وهو الرسالة وهذا الكتاب، فينبغي أن يحمل الضمير عليه ما لم يأتي صارف،

والصارف يوجد في مواطن متعددة مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩)﴾ [الأعراف: ١٨٩]، هنا بعد ذلك هذا الضمير يعود على غير آدم –الصواب– وعلى غير حواء وليس كما قال بعضهم: أن حواء قد أشركت بعد ذلك بعد أن رزقت الولد، هذا باطل، فالحديث تغير صار حديثٌ آخر عمن فسد ولم يراعي طلبه أنه أراده لوجه الله عز وجل.

فالقصد: بأن الضمائر ينبغي أن تعود ابتداءً عما يدور حوله الحديث، نعم هناك قواعد أخرى وهو أن الضمير يعود إلى أقرب المذكورات، ولكن الحديث هنا ليس قضية مذكور وغير مذكور، الحديث يدور في هذا الضمير عما يدور حوله الحديث وهو أن الله عز وجل يتحدث عن القرآن.

وهناك ما يشهد بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، ماذا قالوا لننتهي مما يقولون؟ قالوا: بأنه إذا كان الضمير يعود على النبي صلى الله عليه وسلم أي على عبدنا فإن صفات هذا العبد لا يمكن أن تحقق هذه المعجزة التي نزلت عليه، وهذا في النهاية يعود على الإعجاز، أي هذا النبي الأُمّي، فهل يستطيع أحد أُمّي منكم أن يأتي بمثل هذا القرآن، وهذا يضعف المعنى مع إنه صحيح لكن يضعفه، وكأنه إذا كان هناك عالم كأنه يمكن –مع مفهوم المخالفة– يمكن أن يأتي بمثله، وهذا بعيد حتى لو اجتمع بعضهم لبعض، وأحضروا شهداءهم وسنرى أن كلمة شهداء تدل على المعين والناصر إلى غير ذلك، فقال بعضهم: هذا المقصود أن ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، أي على عبدنا وهو أمي إلى غير ذلك، ويمكن أن نتصور أموراً أخرى غير ذلك، في أنه لم يكن يأتي بمثل هذا القرآن ثم أتى بهذا القرآن فدل على أنه لا يمكن لأحد أن يخرج من حالةٍ إلى حالة فجأة تبهر الآخرين دون مقدمات لها، فيمكن الحمل على هذا، والصواب أنه فأتوا بسورة من مثل هذا القرآن، هذا هو الذي تشهد له القواعد، وكذلك هو قول عامة السلف، والذين قالوا: أنه محمد صلى الله عليه وسلم يوجد بعض المفسرين وهم قلة.

قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وإذا ذكرتم في الدرس الفائت أحد الإخوة سأل قال: هل الإعجاز يقع في الآية الواحدة؟ قلنا، نعم، الإعجاز يقع في الآية الواحدة، فلماذا تحداهم بالسورة ولم يقع قط في القرآن تحدي للآية بالرغم أن في الآية فيها الإعجاز، فلماذا وقع الإعجاز في السورة؟ ذلك لأن الذي يقدر أن يأتي بآيةٍ معجزة يقدر أن يأتي بآياتٍ متعددة معجزات لكن المشكلة بعد ذلك في ترابط هذا الإعجاز.

أي لو جاء رجل وقال: هذه آيةٌ معجزة كاملة تامة وجعل يحاجج لكنه لا يظهر عواره ظُهوراً بينًا إلا بأن يأتي بسورةٍ فيها آيات متعددة سيظهر فيها التناقض، وقلنا في درس الإعجاز الفائت: بأنه ربما يأتي الرجل بالكلمة البليغة

فإذا زاد ظهر عواره وضعفه، ولذلك قال لهم القرآن معكم سورة حتى يكون العجز بيناً بحيث لا يخالف فيه أحد، فيكون بيناً واضحًا.

وكذلك مما يدلنا على أن الإعجاز لا يكون فقط في الآية، ولكن الإعجاز يكون في الآية حين توضع مع آيةٍ أخرى، هل من الجمال أن يوجد لبنة فقط من ذهب أم الجمال أن تكون هذه اللبنات متكاملة في تناسقها، هل الحُسن في المرأة أن يكون لها عينٌ جميلة ويكون لها أذن كأذن الحمار، ما هو الحُسن؟ هو التناسق، ليس فقط أن يكون جميلاً في فرده، بل أن يكون تاماً وجميلاً فيه تناسقه الكلي، ومن هنا جاء التحدي بسور.

فقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾، مع أن الآية يقع فيها التحدي ولكن لأن المسألة مسألة ظهور، وهناك كلمة لعلمائنا، كلمة جليلة عظيمة، ونتركها لما يأتي وهي قضية أنه ترك الحكم بالعجز إليهم وهذا من تمام الإنصاف، هو دعاهم للشهداء، قالوا: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾، لكن لم يقل لهم ادعوا الحكام ليحكموا بيني وبينكم، هو طلب منهم أن يدعوا شهداءهم من أجل أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن، لكن ما قال لهم: ولنحتكم إلى أحدكم، بل ترك الحكم إلى الذين وقع عليهم التحدي وهذا من تمام الإنصاف، وهذه القضية أنه أعاد الحكم إليهم في هذا الباب، مما تشهد في قضية صدق هؤلاء عند التحدي، كيف؟ صدق هؤلاء ومعرفتهم بهذا الباب.

دائماً الإخوة مرات يسألون هذا السؤال ما هو أعظم ما تُلاقي في هذه الحياة؟ فأقول: أن يناقشك جاهل مقامه التعلم فيقوم مقام المناظر، هذه الطامة هذه التي تخنقك، لماذا؟ لأن العالم لو ألزمته علم مقدار الإلزام، الجاهل يقول لك: نعم، ما المشكلة أقول: هكذا، وهذه تجدها كثيرًا في المناظرة تقول له: لازم كلامك أن يكون كذا، هو لا يعرف أن هذا الكذا «الكذلكة» هذه كذا التي قلتها، لا يعلم أنها مستحيلة في كلام أهل العلم، ولا توجد في كلام أهل العلم فيقول: ما هو المعنى؟ نعم، بقول: كذا، فمن الذي يرتدع؟ الذي يرتدع هو الذي يبصر مواطن كلامه فيما يؤدي إليه، أنت تكشف له وترفع له الراية تقول له: انظر، فهو يعرف أنه قد أخطأ، ويعرف أنه لو مشى في هذه الطريق لهلك أو لقال قولاً يضحك عليه العقلاء، الجاهل يقول: ما المشكلة ما الفرق بين هذا وهذا؟!

ولذلك لما كان هؤلاء أهل علمٍ في هذه الصنعة كان الاحتكام إليهم من تمام العدل ومن تمام الإنصاف وأنهم يعرفون أنهم لو تكلموا بكلامٍ باطلٍ لكانوا هم أشد الناس شهوداً على بطلانه لأنهم يعلمونه، لأنهم من أهل العلم، لكن اليوم ممكن تأتي لواحد تقول له: ممكن تأتي بقرآن، يقول لك: آتي بعشرة مثله ما المشكلة، فيكتب وما أحد يدري، وهذا تجده اليوم تجد كلاماً من الجهلاء تعجب أن يصدر من أحد! كيف يصدر هذا الكلام؟! لكنه الزمن الذي نعيشه بيّن في هذا الباب.

قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، تكلمنا عن هذه «من» بما قدرنا في الدرس الفائت ﴿من مثله﴾.

قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿وَادْعُوا﴾ من الدعوة وعادةً كلمة دعوة تحمل الطلب مع التلطف، كلمة دعوة تحمل الطلب لكن قد يكون الطلب فيه إهانة، قد يكون الطلب فيه استعلاء، لكن عادةً الدعوة يكون فيها الطلب ويكون فيها التلطف، فقال: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، أدعوهم ليس على سبيل القهر ولكن على سبيل التلطف والصحبة لكم، والدليل أنه ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾، أي الذين يناصرونك.

وهنا الشهيد تأتي بالمعنى المعروف في كلام الناس وهو الدليل؛ لأنه يشهد لأنه يحضر فهو دليل وتأتي بمعنى المناصر، لماذا المناصر؟ لأن شهادة الرجل للرجل نصرة له، ولما نحن ذهبنا في نقاشنا مع أحد المشايخ في إحدى دروس الألف كتاب لما جئنا لكلمة مهيمن، وقلنا: إن ابن عباس رضي الله عنهما فسر مهيمن بمعنى شهيد، وظن المتكلم بأن هذا من الخطأ في التفسير، والصواب أن هذا من بلاغة المتكلم ومن فهمه إلى ذلك لأن الهيمنة أي الانتصار إنما تكون بمن؟ بالدلائل ومن أعظم الدلائل وجود الشهداء، لو أن رجلاً انتصر على رجل أو انتصف منه، فهيمن عليه، صار له اليد عليه بما يكون؟ بالشهيد، فسمي الشيء أي المهيمن باسم سببه المهيمن سمي باسم سببه، وليس هذا من الضعف، هذا من كلام العرب ومن علومهم، فقوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾، فهذه تأتي بمعنى المناصرة.

والإمام البيضاوي جعل كذلك كلمة شهيد إمام، معنى شهيد بمعنى إمام، ذلك لأن الشهيد إذا قال تُبع، فكأنه كالإمام، وبعض أهل العلم وجدت الشيخ ابن عاشور لا يرضى هذا الكلام والحقيقة أن المعنى يحتمله وليس بالأمر المهم الذي نقوله.

قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾، بمعنى الذين يناصرونكم لأن كل شهيد يأتي بدليله، وكل مناصر يأتي بما يدل عليه، وهنا كلامٌ رائع لأهل العلم حقيقة يعجبني هذا ابن كثير يأتي إليه مرات الشيخ الطاهر بن عاشور في «التحليل والتنوير»، يلتفت إليه كثيراً مع أنه كلامٌ متقدم لكن يكثر، حتى وجدت صاحب «الكشاف» الزمخشري يأتي إليه، أن القرآن يأتي بالمعنى الظاهر الذي هو سيق الكلام من أجله لكنه يلفت نظر الناظر إلى ما خبئ فيه من المعاني التي هي أعظم منها بالرغم أنها تابعة لها، فيخبئها في داخل اللفظ.

وأضرب لكم مثلاً: –هذه الآن أطبقها على ما هو بيّن ثم نأتي إلى قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾– أتوا إلى قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] يقولون في هذا تبكيت، هو مقصود البيان وهي حقيقة ليس مجازاً، أن وقود النار هو الناس والحجارة، على خلاف في الحجارة، لكن مما قالوا: بوجوب الالتفات إليه أن في هذه الآية إهانة لهم، هو أراد أن يهينهم في معبوداتهم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ذلك لأن ألهتهم من الحجارة هو مقصود أن يقول: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ

وَالْحِجَارَةُ﴾، ولكن –انتبه– هو أردت بهذا أن أجعل الحجارة التي عبدتموها أن أجعلها وقوداً للنار التي أنتم كذلك فيها، انظر هذا المعنى خفي، المعنى الأول هو بيّن هو يريد أن يعلمنا أن النار وقودها الناس والحجارة، لكنه كذلك يريد في داخلها ما هو أعظم من ذلك، وهو بيان الحكم الذي سببه وجود الحجارة في أن معبوداتهم هي مهينة لا قيمة لها وأنها ستكون من أهل النار، فهمنا هذا المعنى، هذا المعنى يكون خفيًا.

هذا أين نجده هنا؟ قال تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، شهداءكم أي آلهتكم وذلك لأنه أنتم الذين تستشهدون بهم وتعتبرونهم شهداء لكم، وإذا قيل للرجل من أعظم من يناصرك، قال: ربي، فإذن إذا قيل: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣]، انتبه لقوله تعالى، قال: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، إذا قال: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، ولو لم يكن هذا المعنى موجوداً لما قال: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، لقال: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾، أي الذين تنتصرون بهم في هذا الباب، لكن لما كان المقصود الأعظم بيان الشهداء وهم الآلهة والأرباب الذين عبدوهم فأدعوهم هؤلاء، فهي كما أنها فيها التحدي أن الشهداء لا يقدمون ولا يؤخرون في بيان عجزكم لكن الأعظم من ذلك هو بيان عجز هؤلاء الآلهة، وهذا من أعظم التفسير فيما تقدم الكلام فيه، إن أعظم التفسير والحديث عن الله وعن توحيد الله، أعظم ما يفسر به القرآن إذا ارتبط بصفات الله وارتبط بعبودية الله وارتبط بتوحيد الله.

فقوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ فيها معنى، هذا المعنى هو أعظم من المعنى الذي فيه التحدي، وهو بيان أن آلهتهم لا تصلح لذلك.

قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، قوله تعالى: ﴿دُونَ﴾، الدون تأتي من أسفل الشيء، كلمة دون هي أسفل الشيء، لماذا يقال دون؟ ذلك لأنه يدني، فأسفل الشيء أقربه، حتى يقال: دونك هذا الشيء أي خذه من أقرب الطرق إليك لا تشق على نفسك، دونك يقربه حتى يكون أقرب شيءٍ إليه فيأخذ، فيقول: دونك، فيقال كذلك دون الشيء أي جمع ما يقرب بعضه إلى بعض، قرب بعضه إلى بعض، فدون الشيء هو أسفله، فقوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، دل على أن كل إله غير الله هو دونه، هذا مراد، هو المراد الظاهر أي من غير الله، المراد الأول أدعوا شهدائكم من غير الله، لا تدعونه؛ وذلك لأنهم يعبدون الله ويعبدون غيره ويستغيثون بالله ويستغيثون بغيره، ولكن لما كان هذا غيره هو من دونه –انظر لهذا التعبير– الإتيان بهذا اللفظ ﴿دُونَ﴾ لتدل على أن الناس والله هو دونه، دونه في أي معنى؟ في أنه أسفل منه، وهذا من أعظم البيان وأجّله كما ترى في هذا الكلام.

قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)﴾ [البقرة: ٢٣]، قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾، أي في ريبكم، إن كان ريبكم صحيحاً فادعوا وأحضروا، فلما لم يحدث ذلك؛ دل على أن الريب باطل، ليس صادقاً وإنما هو كاذب، وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾، هذا معنى أن كان ريبكم صحيحاً، فإذا كنتم صادقين في هذا الريب أي هذا ريب صحيح.

وكذلك تأتي بمعنى آخر وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾، أي أن الريب في قلوبكم على الحقيقة ذلك لأن، وهنا هل توجد دواعي الإتيان بمثله والاجتماع أو لا توجد؟ توجد الدواعي، والدليل التحدي، دواعي الاجتماع من أجل الإحضار والإتيان بمثل القرآن دافعه قوي وهم قد بذلوا حياتهم وأرواحهم من أجل إثبات بطلان هذا الدين وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فالدواعي عظيمة في النفس، هل حصل من العرب أن اجتمعوا؟ هل حصل من العرب وهم العقلاء وأصحاب الخبرة البيانية والبلاغية ومن بلغت اللغة عندهم مبلغ الكمال الإنساني هل حصل أن اجتمعوا؟ لم يحصل، فلماذا؟

هنا نأتي لقضية الصِرفة، أو الصُرفة اختلفوا على كل حال فيها، الذين قالوا: بأن الله منعهم أن يجتمعوا فهذا قولٌ ضعيف، أن الله منعهم، يعني منعهم قدراً هذا هو الصرفة عندهم، وهذا لا يتصور ولكنه لو وقع لدل على عظمة الله عز وجل، يعني رجل يقول لرجل: أتحداك أن تمد رجلك، فيتحداه العمر كله أن يمد رجله ولا يستطيع، فدل على غلبته عليه، ودل على أن سلطانه عليه أعظم وقاهر ولكن لم يحصل منهم قط، لماذا؟ لشهادتهم على أنفسهم بأنهم لم يأتوا بمثله.

فقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، بمعنى أي أنكم تريدوا تشككوا في هذا القرآن أو أن تأتوا بمثله، فدل لم يحصل منهم الاجتماع والتظاهر، قال تعالى: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾ [الإسراء: ٨٨]، لما دل على عدم وجود اجتماع دل على أن دعواهم –الأول في ريب فأثبت هنا انتهينا من النقطة الأولى، الآن النقطة الثانية– دل هذا على أن دعواهم الظاهر أنهم في ريبٍ منه كذابين.

نعود بالتفصيل، قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي أن كنتم في ريب على الحقيقة فهذا، أن كنتم في ريب فادفعوا هذا الريب في هذا الاجتماع، المعنى الثاني: إن كنتم على ريب أي على الحقيقة فهذا تكذيبٌ لما تقدم ذكره أنهم ليسوا على ريب، لو كانوا على الحقيقة في ريب لاجتمعوا وفعلوا ثم ظهر عجزهم، لكن لما لم يجتمعوا دل على أن ادعاءهم الريب في قلوبهم غير موجود، وهذا تكذيبٌ من الله لهم أنهم على الريب من هذا القرآن بل أنهم على اليقين أن هذا القرآن من عند الله.

فقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤]، هنا كلامٌ رائع لأئمتنا أهل اللغة، سيبويه عليه رحمة الله له لفتة رائعة قال: «لم» تدخلوا على «يفعل»، «لم يفعل»، مثلاً نقول: لم يفعل الرجل المكارم، و«لن» تدخلوا على «سيفعل»، أي على ما هو مستقبل، الخليل شيخ وإمام سيبويه قال: «لن» هي أصلاً «لم» التي هي لم نافية، و«أن» المستقبلية، قال كلمة: «لن» هي الجامعة –وهؤلاء أهل الذوق نحن دورنا فقط أن نقول كلامهم وأن نحاول أن نذوق شيئاً مما تلمسوه وعلموه ورأوه، تلمسوه أي لمسوه بأيديهم على الحقيقة، فقال: أن «لن» هي لم ولكن دخل على لم التي تدل على نفي وقوع الشيء، و«أن» المستقبلية فدل على أنها جامعة للأمرين،

ومن هنا فـ«لن» عند علمائنا تدل على أمرين تدل على التأكيد، «لم» تدل على شيئًا انتهى لكن ممكن يقع، لكن «لن» تدل على أنه لا يقع، فهذا يدل على التأكيد والتأبيد، وسنأتي إلى قوله تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولكن على الصحيح في أقوال أهل العلم أن «لن» تدل على التأكيد وعلى التأبيد.

فقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾، لم تفعلوا ماذا؟ أن تأتوا بمثله، الذي وقع هو أشد من هذا، الذي وقع أنه لم يجتمعوا من أجل أن يأتوا بمثلهم، هو قال: فإن لم تفعلوا أن تأتوا بمثله، والذي وقع أنهم لم يحاولوا أن يأتوا بمثله، لماذا؟ لأنهم أهل علم ولأنهم أهل إنصاف ولأنهم يعرفون أن مقامات الإنسان في إحضار مثل هذا الكلام مستحيلة.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾، فنفى أن يقع منهم هذا الفعل، ثم قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾، قطع هذا الأمل إلى نهاية الوجود أنه لن يقع منهم أبداً أن يأتوا بمثل هذا القرآن، هنا يقول قائل: وما دخل غير العرب في هذا الباب؟ العرب يُتَحدوا بلغتهم التي ينطقونها ويستخدمونها، فهذا تحدي مفهوم أن يقع هذا التحدي لهذه الصِنعة، لكن كيف يقع هذا التحدي لبقية الناس؟ لم يقع في التاريخ أبداً أن وقع تحدي لكل البشر إنما يقع التحدي لأهل الصِنعة، فإذا عجز أهل الصنعة؛ فعلى البقية أن يتابعوهم، فلما عندما وقع تحدي موسى عليه السلام وقع لكل مصر أو وقع للسحرة؟ يعني لو قال لأهل مصر تعالوا أفعلوا كذا، لا يعرفون، لكن وقع التحدي لأعظم من يتقن هذه الصِنعة، فكان على الآخر أن يتابعه لأنه متابع له في هذه الصنعة هو لا يعرف، فإذن التحدي يقع لأهل للصِنعة والآخر تبع له، فلما هؤلاء أهل هذه الصِنعة لم يأتوه ولم يقبلوا هذا التحدي، فعلى الآخر أن يتابع، كما وقع في كل معجزات الأنبياء السابقين.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤]، قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤]، هذا أول تهديدٍ في القرآن، هذا أول تفتق النار، ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾ [البقرة: ٢٤]،

جزاكم الله خيراً وبارك الله فيكم، ونتابع في درس آخر إن شاء الله.

الأسئلة

السائل: قال تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، قلتم شيخنا: أن الشهداء هم من يناصرونهم، الآن لأن من دون الله بينت أن هؤلاء الشهداء هم الأرباب لأن من دون الله لأنهم هؤلاء يعبدون الله ويعبدون من يتقربون منهم إلى الله عز وجل؟

الشيخ: لا، لا يفهم من الكلام، أعد الكلام لك قال تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، أي ادعوا أربابكم، والذي في الأصل أن الشهيد لا يكون إلا من مادة الشهادة، الشهيد لا يصلح أن يكون شهيداً إلا إذا أتى بمادة ما تمت به الخصومة المادة، إذن هي أصلاً الحديث –انتبهوا أنا هذا الذي قلته– أصالة الحديث متوجهة إلى شهدائهم الذين هم أهل الصِنعة منهم يعني أن يجتمعوا أهل الصنعة جميعاً، فهذا المعنى الأول وقلته كما شرحت في كلمة حجارة ومعنى في داخله هو أجل منه، وهو أن يدعو أربابهم وآلهتهم كذلك إن أرادوا أن يستنصروا بهم وذلك تبكيتاً لإلهتهم التي لا تنصرهم، يعني ادعوا شهداءكم وأنا أُلح حتى آتي بآلهتك وراك، الدعوة إلى الآلهة هي أجل وأعظم في نفس الكلام من المعنى الأول، مع أن الأول هو المقصود الأول، الثاني قلنا أجل والأول هو المقصود الأول، هذا الذي بالمراد إن شاء الله وأرجو أن يكون بينًا.

السائل: ما رأيك بمن يتخذ معرفًا على وسائل الاتصال باسمٍ غير اسمه وهل تعتبر هذه معصية أصلاً في ظل الملاحقات الأمنية؟

الشيخ: إن اتخذ اسمًا يعلم الناس أنه رمزٌ له، أن هذا المتخذ هو رمزٌ له فهذا لا بأس به ولا أحد يقول: أن هذا من الكذب، لماذا؟ لأن الكذب هو أن يقول الرجل عن نفسه: أنه فلان وهو ليس بفلان، وهنا إنما يتخذ الناس الرموز والأسماء وهم يعرفون أنها ليست من أسمائهم، فهذا من حقهم في هذا الزمان وليس فيه شيء إن شاء الله تعالى، فهذا بيّن أي أن يتخذ الرجل اسماً في المعرفات غير اسمه ويعلم الناس أنه ليس باسمه وذلك مخافة ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨]، ويعلم الناس أن هذا اسمٌ ليس هو الذي ينادى به ويعّرف به في بيئته وفي أهله فهذا لا بأس به إن شاء الله تعالى.

لكني أذكر الناس بتقوى الله في هذا الباب للأسف الناس بسبب هذا الخفاء يجرؤون في المعصية وهذه الحالة المنتشرة في وسائل الاتصال في هذا الباب تدل على عظم المعاصي التي تقترف وراء الأبواب، وتدل على قلة التقوى والدين حين يخلو الناس بأنفسهم، للأسف الناس باتخاذهم الأسماء المزورة يجرؤون على الكذب، يجرؤون على الضلال،

يجرؤون على الكلمات القبيحة ويجرؤون على الشر ويجرؤون على المعاصي، وهذا من قلة التقوى والدين ولذلك أذكر الناس بهذا.

النقطة الثانية: وهو للأسف وهو تزوير الأسماء فهذا من الكذب والجهل والضلال وهو أن يأتي أحدهم فيسمي نفسه باسم رجل معروف بهذا الاسم فهذا من التدليس والكذب وخاصةً إذا بدأ بنسبة الكلام إليه وليست له كما كان يفعل الروافض، يعني مثلاً: كتاب «الإمامة والسياسة» نسبوه إلى ابن قتيبة وهو ليس له ولكن يكذبون، تجد عندهم أبا حنيفة ينسبون له، فالجاهل يظن أن المقصود بأبي حنيفة هو أبو حنيفة، وهذا غير صحيح، وهكذا يكذبون عندهم هذا الفن، واليوم هذا منتشر للأسف وذلك من قلة الدين والورع ولا يجوز حتى من باب السخرية لا يجوز، نحن في خلاف مع الآخر هو خلافٌ علمي فليبقى بقيمته العلمية المهيبة التي يُرد فيها بالعلم ويُرد فيها بالأدب ويُرد فيها بالمناظرة، وأما أن تتخذ الرجل رمزاً للسخرية وكاريكاتور من أجل أن تستهزئ به فليس هذا من الأدب وليس من الدين بل هو من المعصية والإثم مع ما في ذلك من الكذب على الرجل، فقط هو كذبٌ ومعصية، نسأل الله العفو والعافية.

والناس فتح لهم من أبواب النعمة ما قلبوها إلى نقمة، وسائل الاتصال هذه نعمة عظيمة ينبغي أن يستغلها الناس في الدعوة وفي العلم وفي الإبانة عن الحق وفي كشف الباطل إلى غير ذلك، لكن هذا قدرنا يعني الأمة هذا مستوها، إذا أردت أن تعرف مستوى هذه الأمة فانظر إلى هذه الوسائل تجد فيها السباب تجد فيها يعني الانحطاط، ولكن كذلك تجد فيها الخير العظيم، تجد فيها الخير تجد فيها الدعوة تجد فيها الكلمات الطيبة تجد فيها النفع، الناس ينتفعون بها ولذلك أنا أحض على طلبة العلم على الدخول فيها واستغلالها وعدم تركها إلى هؤلاء، وإما الأخرون فهي فرصتهم.

يعني ابن الشراع ما المشكلة؟ أحدهم يقول: مرةً –وأنا كتبت هذا في إحدى الوسائل– أحدهم قال: الحمد لله الذي كشف لنا المشايخ في هذه الوسائل، وفي الحقيقة هو الحمد لله الذي فتح لنا باب من السب على المشايخ، يعني هذه الحقيقة إن هؤلاء السقط من البشر وهؤلاء الخصوم ما كانوا يستطيعون أن يطبعوا كتبهم، ولا أن تنزل كلماتهم لا في التلفاز ولا في الجرائد ولا في الكتب، من يطبع لهم، من كانت تطبع لهم الكتب؟ هم العلماء والفقهاء والذين يكتبون، فصارت هذه الوسائل يعني فرصة لابن الشارع الغير مؤدب الذي لم يؤدبه أبوه، فرصة له أن يقول ما يقول يسب يخرج كلمات تخجل أنت منها، تخجل أن تقول بينك وبين نفسك، فهذا من قلة الدين والورع، ومع ذلك فهؤلاء في التيارات الدينية والعلمية والدعوية قليلة، أغلب هؤلاء من سقط الناس.

وأنا أقول نصيحة لإخوتي أن لا ينسبوا كلمةً لرجل أو لتيار إلا أن يكون معروفاً، فيقال: هذه جماعة فيها هذا الساقط بأخلاقه وكلماته، فإن الكثير مما يقال من كلمات السقوط والانحدار وقلة الأدب إنما تقولها دوائر المخابرات، الكثير منها للأسف الكثير، وحتى الذين يظهرون بمظهر الدين ومظهر العلم الكثير منهم جلوس وراء الدوائر، والذي

يملك عقلاً سوياً يعلم أن دوائر المخابرات فيها عشرات المستأجرين عندهم كمبيوترات مثل ما عندكم كمبيوترات وعندهم وسائل، فكلما أخرجت أنت كلمة أو تغريده سب عليك وهكذا؛ فأنت ترد عليه.

وأنا أنصح طلبة العلم أن لا يلتفتوا للسباب وأن لا يلتفتوا لكل سائل أن يفرقوا بين السائل الذي يسأل العلم وبين السائل الذي كما قال الله عز وجل: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٩٧]، الذي يسأل للعلم هذا تعتني به وترفق به وإذا سأل كيف أعرف، «من أثارهم تعرفونهم»، كما قال عيسى عليه السلام، عيسى عليه السلام قال وقد سئل كيف نفرق بين الأنبياء الحق وبين أنبياء الكذب قال: «من أثارهم تعرفونهم»، ادخل على حساب الرجل، انظر كيف يتكلم، يعني عندما تدخل إلى حساب فلا تجد فيه إلا تغريدات خاصة بك تسبك، فواضح يعني أن هذا واضع الحساب لك، فأعرض عنه، ولا تنشغل به ولا تكن مُستَفزاً.

والعلماء والقدماء الحكماء قالوا: «وفلان ليس مما يقرأ له في الشنان»، ما معنى يقرأ في الشنان؟ تعرفون الطائر، لما يخرج الصائدون قديماً ماذا يصنعون؟ يستأجروا ضارب الدف وضارب الطبل، من أجل أن يطير الحمام حتى يُصاد، إلى الآن يستخدم هذا، فيقرأ له بالشنان يعني بل كان قلبك في جناح الطائر، كل ما واحد هف له كلمتين يروح يرد عليه يُنشئ مقالة، أو يستفز، أتركه، قالوا قديماً: الكلمة الأولى أنثى والثانية ذكر، فالأنثى من غير ذكر لا تنجب، دع كلمته تموت لا ترد عليه.

على كل حال يعني الكلام عن آداب الأدوات الاتصال المعاصر والوسائل كلامٌ يطول، يعني ليس فقط الحديث عن الآداب القديمة كذلك ينبغي أن يُعلم الناس الحدث الصحيح والاستشراف الذكي في معرفة الناس وكيفية الردود عليهم وغير ذلك، والأولى لطلبة العلم أن يعملوا بقاعدة «قل كلمتك وأمشي»، إلا إذا احتاج الأمر إلى بيان زائد فعليك به وإلا فإن الكثير لا يفهم اليوم، قالوا قديماً: «ساء فهماً فساء إجابة»، أنت تقول: قال الله تعالى، فيقول: انظر، انظر ماذا ...، تتعجب!! كيف يقرأون هؤلاء!! فساء فهمًا فساء إجابة.

على كل حال الحديث في هذا الباب يحتاج إلى محاضرات من طلبة العلم ومن الوعاظ ومن أهل الدين ومن أهل التقوى ولن ينتهي، نحن أمام ظاهرة من الصعب القضاء عليها، لأن الحديث ليس فقط للمتدين، يعني أنت ما تكتبه ليس فقط عرضة لأن يطلع عليه المتدين التقي، يطلع عليه الفاسد الفاسق يبحث ويكتب، ما يقوله لأمه، يعني هذه الكلمات التي تقال مرات من كلمات السقط والفساد فأنت تعلم أن بعض الناس من المسلمين يقولها لأمه، يقولها لابنه، هو يسب عليك كما يسب على أمه، فهذا لا ينفع معه الوعظ.

وكذلك هناك مخابرات هو يريد فقط أن يحرش يريد أن يسيء لك يريد أن يسقط كلماتك يريد، يريد ...إلخ، فهذا لا يمكن أن يتعظ هذا إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، فلست أمام متدين تعظ فيستجيب لوعظك، تعظه فيستجيب لوعظك، لا، أنت أمام بشر مليء، بارك الله فيكم.

السائل: شيخنا قبل أسبوع تكلمت عن الاستحلال العملي وذكرت أنه لا وجود له قط مع أن كثيرًا من العلماء ذكروا هذا النوع واستدلوا بحديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «مَرَّ بي عمّى الحارث بن عمرو، ومعه رَايَةٌ، فَقُلْتُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ فَقَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ الله صلى الله عليه وَسَلَّمَ إِلَى رَجُلٍ نَكَحَ امْرَأَةَ أَبِيهِ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَآخُذَ مَالَهُ».

قال ابن كثير رحمه الله عن هذا النكاح: «فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه، فيقتل ويصير ماله فيئاً لبيت المال»، /تفسير ابن كثير/.

قال الإمام الطحاوي في شرح هذا الحديث: «إن ذلك المتزوج فعل ما فعل على الاستحلال كما كانوا يفعلون في الجاهلية فصار بذلك مرتدًا، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُفعل به ما يُفعل بالمرتد»، / شرح معاني الأثر/.

حيث قال: «هناك قسمٌ ثالثٌ فاسقٌ ماردٌ ماجن يتحدث بالزنا افتخارًا والعياذ بالله، ويقول: أنه سافر إلى البلد الفلاني والى البلد الفلاني وفجر وفعل وزنا بعدة نساء!! وما أشبه ذلك يفتخر بهذا»!!

الشيخ: لا بأس أرجو أن يكون جوابي هو جواب للأخ الذي سأل في موقعي في تويتر فوعدته أن أكتب له كتابًا في هذا الباب وكثرت الأشغال في الحقيقة وكثرت الطلبات فأرجو أن يكون هذا الكلام وسأطيل فيه، وربما يكون بمقدار درس أو موعظة للحديث عن هذا الحديث، وأرجو أن يكون افي كلامي هذا جواب للأخ الذي سأل سابقًا، وشكرًا للأخ السائل ولكن أنا أجزم للأخ السائل أنه نقل ولم يرجع إلى الكتب الأصلية، وسأبين كلامهم.

حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أول شيء سنده صححه أهل العلم ولم أجد أحدًا يطعن في سنده فيرد أصله، بحثت، والإمام البخاري تجنبه كما تعرفون، لم يرويه في صحيحه ومسلم لم يرويه في صحيحه، إنما رواه أبو داوود، وبعد ذلك، غيره، يعني رواه أحمد في «المسند»، رواه كما ذكر الأستاذ الأخ السائل أبو جعفر الطحاوي في «تهذيب الآثار»، وغيرهم، ورواه البغوي في «شرح السنة»، وغير أهل العلم الكثير ورواه الإمام النسائي، وأنا أخرت أن الإمام النسائي رواه؛ ذلك لأن الإمام النسائي في طريقة عرضه لهذا الحديث شكك في زيادة «أخذ ماله على جهة الفيء»، وقال: من روى هذا الحديث من غير ذكر أخذ ماله لبيت من المسلمين فيئًا مما يدل على ردته، فهذه الزيادة حولها كلام، وعادة الكبار من العلماء في مثل هذه الزيادة إذا انفرد فيها البعض أو انفرد فيها واحدٌ دون البقية، أنهم يردونه وهذه طريقة أحمد وطريقة البرديجي ومن أراد التوسع في زيادة الثقة وانفراداتهم فليرجع إلى كلام أهل العلم فيها، في «الباعث الحثيث» للشيخ شاكر في تعليقيه على مختصر الحديث لابن كثير، وكذلك توسع فيها الإمام ابن رجب رحمه الله في شرحه لعلل الترمذي في آخر السنن.

القصد: أن هذه الزيادة عليها كلام، ولكن لن يؤثر شيئًا في البحث الفقهي.

هذا من جهة الحديث رواية، ولكن نأتي إليه دراية:

الأخ قال: وهذه عبارة تدل على أنه لم يقرأ المسألة من أصولها وقال: وجماهير أهل العلم أظن هكذا أو جماعة –اقرأ لي إياها– حتى أضبط قال ولكن كثيرًا من العلماء، هذه كثيرا اسحبها، وعلى طالب العلم أن يسحبها تمامًا، في الحقيقة سأذكر لكم مذاهب الفقهاء في قضية من تزوج بامرأة أبيه، أو تزوج بمن ثبت في الكتاب حرمة نكاحها فتزوجها، الجمهور على غير ما تقول، وهذا يدل على أن قضية الاستحلال العملي عليها كلام.

القول الأول: هو قول الأحناف ومن معهم من أهل الفقه وستستغربون لهذا الفقه عند الأئمة، وهذا ردٌ على استشهاد الأخ بكلام الطحاوي، في الحقيقة كلام الطحاوي تخريجٌ على غير الباب الذي يريده المتكلم أو الذي نقله بغير توثق، كيف؟ يقول الأحناف ويدعم قولهم الطحاوي نفسه في «تهذيب الآثار»، يقول: بأن حكم من تزوج –بغض النظر من تزوج بزوجة أبيه بأخته بأمه– من تزوج بمن يحرم الزواج منها يقينًا فلا عقوبة له لا حد عليه، بل عليه التعزير، يعني مذهب أبي جعفر الطحاوي ومذهب إمامه الأحناف وجماعة من أهل العلم وهم أهل العراق وبعضهم كذلك من غير أهل العراق، وإذا أردتم المبحث موجود تستطيعون مراجعة مثلاً شرح السنة للبغوي ذكر مذاهب الفقهاء، تستطيعون مراجعة صاحب المغني ذكره، أبو جعفر الطحاوي ذكر مذاهب العلماء، ولكن أنا أذكرها لكم إن شاء الله.

فأولاً مذهب الأحناف: بأن من تزوج بمحرمةٍ عليه ليس عليه حد، والسبب عندهم بأن الزواج هو شبهةٌ تدرئ الحد، الآن آتي مستعجلاً لكلام الطحاوي، ماذا قال الطحاوي؟ مادام يا أبا جعفر الطحاوي مادام أن مذهبك ومذهب إمامك يقول: بأنه لا حد عليه، بل هو يعذر لشبهة العقد، فكيف تخرج لنا حديث البراء!! فقال هذه الكلمات، وهذه الكلمات من أجل تفسير هذا الحديث لإخراجه مما يستدلون به، لماذا؟ لأنه يخالفهم هذا الحديث، قال: «ذلك لأن هذا الفاعل فعله على جهة الاستحلال فيما كانت تفعله العرب في الجاهلية».

أفسر لكم كلامه مع الاعتذار وأرجو ألا يكون هناك مناظرة لأن البحث هو هكذا، يعني أنا لا أرد هنا بل أشرح، يقول الطحاوي بمعنى كلامه بأن العرب لا تتزوج من الأخت والعرب لا تتزوج من الأم والعرب لا تتزوج من البنت، لكن العرب عندهم يتزوجون من زوجة الأب بل يرثونها، الأمة التي تكون عند أبيه لو مات أبوه ورثها ودخل بها، ويجوز له أن يتزوج من زوجة أبيه، فالعرب تفعل هذا، يقول: هذا الفعل قرينة على أنه استحل فيما كانت تفعله الجاهلية من الزواج من زوجة أبيه، يعني لماذا فعل هذا؟ ولم يرد لنا طبعًا أن واحد تزوج من أخته، إنما ورد هذا الرجل تزوج وسكت عليه الناس.

الآن آتي لكم بكلام الجصاص من الحنفية له تخريجٌ رائع في الباب، أنا الآن لا أرجح، فقط لأقول لكم: تأتوا لا تجعلوها مكفرة يعني مجمع عليه وهو قول الجماهير كما ينتشر هذا القول.

أعيد كلمة الطحاوي، يقول: بأن ما جرى عليه العرب هو الزواج من زوجة الأب، فهذا الرجل إنما جرى عليه ما جرى عليه أهل الجاهلية، فهذا قرين على أنه جرى على ما كان يستحله مما يخالف أمر الله.

والآن لو بعده؟ قال: بعده انتهى العرب هذا أمر قريب كانوا يستحلون على ما يستحل العرب، لكن في زماني أنا يا أبا حنيفة وفي زماني يا أبا جعفر لا يفعله الناس على جهة ما تفعله الجاهلية لانقطاع القصة لا يوجد خبر، فما يفعله، قال: لا، هذه شبهة تدرئ عنه الحد، هذه لفتة له ينبغي أن تضعوها في أذهانكم.

أبو بكر الجصاص في كتابه «أحكام القرآن» وهو حنفي قال ملفتًا رائعًا لا بد أن تعتنوا به، وهو أنه قال: إنما جرى الفعل مجرى الجهاد؛ ذلك لأن هذا الرجل ليس بمسلم، –من أين أتيت بهذا الكلام!! لا يجوز لأحد أن يتكلم من عند نفسه وإلا هذا استحسان وتشهي– قال: متى أرسل رسول الله صلى الله ليه وسلم رجلاً لإقامة حد وجعل معه الراية، وفي الحديث يقول البراء بن عازب: «رأيت خالي ومعه راية قد عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم له»، فمن أين جاءت الراية، هي لا تعقد إلا للقتال –أنا كل هذا من أجل أن أبين لكم أن هذا الحديث لا يجري مجرى القاعدة التي ترمى هكذا وتطلق– فقال: بأن عقد الراية لخال البراء دل على أن هذا الأمر جرى مجرى الجهاد والقتال لهم فدل على أن هذا غير مسلم وإنما هو كافر فجرى عليه الفعل مجرى الجهاد لا مجرى إقامة الحد، حد الردة، انتهينا من مذهب الأحناف.

مذهب جماهير أهل العلم وهو المفتى به في مذهب أحمد، مذهب الشافعي وأحمد ومالك: أن هذا لا يقتل ردةً وغنما يقتل حدًا، لو أن اليوم رجلٌ تزوج بمحرم –هذا وارجعوا إليها نص الشافعي، نص صاحب المغني، وهكذا ... في كتب الأئمة ارجعوا إليها– جمهورهم يقول وهذا مذهب ابن حزم مع اختلاف يسير سآتي إليه المذهب الثالث مذهب ابن حزم، مع أن هذا مذهب ابن حزم إلا في زوجة الأب، قال جماهير أهل العلم: «من عقد على محرم –كأنن من كان– ليس عليه حد الردة إنما عليه الحد بحسبه إن كان محصنًا أو كان غير محصن» يعني هذا حده إذا كان محصن فهذا يرجم وإذا كان غير محصن فهذا يجلد، أين الجماهير!!

جئنا لمذهب ابن حزم، أما ابن حزم –ماذا قالوا في الحديث؟ هنا يأتي تفسيرهم– قال: هناك أمرٌ –مثل ما فعل أبو جعفر الطحاوي كلهم نقلوا كلامه– فأنت لو ذهبت إلى كتاب القرطبي «جامع أحكام القرآن» تجده ينقل كلام الطحاوي مقرن على معنى الاستحلال أنه فعله على جهة الاستحلال، فعله ليس لأن العقد يدل على الاستحلال إنما فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمرٍ، وإلا لو كان العقد يدل على الاستحلال لكان قولهم أن بمجرد العقد

حصل الاستحلال فيجب أن يقتل ردةً، لكن لم يقولوا هذا، بل أبقوا العقد على معناه، من عقد فلا قيمة لعقده وهو ...إلخ، ورجح هذا البغوي رحمه الله في شرح السنة ارجعوا إليه في كتاب «الحدود والزنا» ورد على الأحناف بهذا الحديث، وقال هذا الحديث ردٌ عليهم.

ابن حزم قال بما قال الجمهور، وهو: أن من عقد على محرم إلا بهذا الحديث لماذا؟ ابن حزم ظاهري، لو كان العقد عنده استحلال؛ لأجراه على كل عقد، لكن لما كان لا يراه، قال: أنا فقط أتقيد بهذا الحديث.

هذه المذاهب الثلاثة المشهورة، فقط وأنا لم أتوسع الآن وأرجو أن أؤجل قليلاً فيه، فقط ابن القيم في «زاد المعاد» وجدته نسب وهذا قاله صاحب «شرح السنة» البغوي، نسبه لأحمد وإسحاق، وابن القيم نسبه برواية أحد أصحاب أحمد –غاب عني اسمه– أنه يقول: لا، –هذا القول الذي قاله نسبه للجمهور– قال: «إن العقد يوجب القتل ردةً»، وهذا الذي هو انفرد من الأقوال بين أيدينا، والمسألة إذن مسألة ترجيح وليست مسألة ظاهرة بحيث يقال: بأن العقد استحلال، وبلا شك أن كلام العلماء الأخرين من القوة بمكان وأنا أؤجل البحث في تحقيق من رواية ابن القيم في هذا الباب، وابن القيم رجح هذا القول الأخير، لأنه موافق للنص عنده مع أن هذا الكلام لا ينبغي أن يعمم، يعني إذا فقط هذا الحديث أخذتموه ففهم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مستحل لأمرٍ فعله بالعقد فكل فعلٍ يدل ...، من أين هذا الكلام؟!!

انتبهوا– لو أنكم أردتم اضطراد القاعدة، تعالوا إليها رجلٌ باع خمرًا في عقد، ذاك عقد على البِضع، هنا عقد على محرم وهو الخمر، رجلٌ باع خمرًا، فهل هذا استحلال؟ هل تقولون هذا استحلال؟ لا تقول، ما أحد يقول: إن الرجل الذي يبيع الخمر فهو قد استحله وبالتالي هو كافر؛ لأن البيع هو مظهر من مظاهر الاستحلال الذي قال به الجمهور كما يقول الإخوة يعني في كلامهم، هل يصح هذا الكلام؟ هذا الكلام لا يصح، فالعقد على البيع والعقد على الفعل المحرم ليس مظهرًا ولا دليلاً على الاستحلال، بهذا إن شاء الله نختم وأرجو أن أكون قد أجبت الأخ مع الاعتذار كنت أحب أن أكتب فيها كتابةً موسعة، لكن الحقيقة المشاغل كثيرة والهموم والواجبات كثيرة والله يغفر لنا ولكم.

ربما فاتني بعض الأمور في هذا الباب لكن إن شاء الله قد قدمت لكم الأمر على وجهه، وأنا هنا أنصح إخواني بما نصحتهم به في «جؤنة المطيبين»، عندما تحدث من تحدث على أن كل قتال مسلمٍ مع كافر بغض النظر عن واقعه هو كفر لأنه تولي، فقلت لهم: ارجعوا للفقهاء، أقصد علمائنا الكبار كالشافعي وأحمد ومالك وأبي حنيفة وإسحاق وهؤلاء ارجعوا إليهم فبالفقه تعرفون مرتبة الفعل بالفقه، مثل قضية الجاسوس الناس عندهم الجاسوس كافر، من أين جئت بهذا الكلام ارجع إلى كلام الفقهاء لتعرف، هل تريد أن تحضر دينًا جديدًا جهله الأئمة حتى أنت تدخله في الإيمان والكفر في الإيمان الذي هو الإسلام، بحد الإسلام وحد الكفر من جديد.

فأقول لطلبة العلم: يتأنوا، يرجعوا إلى كلام الفقهاء في البحث حتى يتعلموا ما هم فيه ولا يأخذوا بالكلام الذي يقول والدليل وهذا الحديث كافٍ، ليست المسألة كذلك التوحيد ما يتعلق به إسلامٌ وكفر ينبغي أن تتعلق بما فيه إجماع وليس بما فيه خلاف، ترون خلاف كبير، ويقال والعلماء قرروا، أين العلماء قرروا؟!!

فالقصد: بأن الاستحلال لا يكون إلا بكتابةٍ أو قولنا بكلامٍ أو ما دل عليه من الكلام أو الكتابة.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثاني والثلاثون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

هذا هو الدرس الثاني والثلاثون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

تقدم القول: بأن ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾، هذه نافية لما مضى نافية للماضي، ومع أن الفعل الذي يأتي بعدها هو فعل مضارع ومن هنا سميت بحرف القلب، هذا قلب، هي لم نافية وجازمة وتقلب، يقال: حرف نفيٍ وجزمٍ وقلب، لأن ما بعدها منفي وما بعدها مجزوم، وهناك كما نرى قال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾، ولم يقل: فإن لم تفعلون، فدل على الجزم وأما القلب ذلك لأن ما بعدها هو فعل الحال أي المضارع لكنه يتحول يقلب إلى فعلٍ ماضي.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾، المقصود أنكم لم تفعلوا هذا من قبل، وإن كان هنا الفعل مضارع ولكن المقصود به الماضي، وقوله ولن ذكرنا ما قاله الشيخان الخليل رحمه الله وتلميذه سيبويه في قوله: ﴿لَنْ﴾ من الكلام الطيب، فقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ وقلنا: أن هذا أول تهديد ووعيد في القرآن الكريم، هذا القول: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ هو أول تهديدٍ ووعيدٍ في القرآن، وكما ترون أنه وعيد وتهديد وإنذار لهذه التي هي مستقر الكافرين والمعاندين وهي النار، فقال: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾، واتقاء النار يعني الابتعاد عنها، واتقاء النار هو الابتعاد عن أسبابها والطرق الموصلة إليها، وهذا الخوف الذي أمرنا الله عز وجل من النار هذا شيءٌ محمود، وأما قول من قال: «أنا لا أعبدك طمعاً في جنتك ولا خوفاً من نارك» فهذا مردود لا وجود له في النفس البشرية، إنما يقع في الممرورين كما كان يقول السلف، لا أحد لا يخاف من النار، وإذا زعم فليضع يده على الشمعة ويضع يده على النار ويرى كم يتألم؟ وكم سيصرخ؟ وكم سيملأ صراخه يعني الأجواء والفضاء؟! وبالتالي الذي يزعم أنه لا يخاف من النار فهذا من جهالته ومن كذبه.

ولكن ما دام إن الناس يخافون من النار فلماذا لا يتقونها؟ هذا من ضعف اليقين ومن غلبة الجهل والهوى على العقل، الأصل للمرء أن يوازن بين أمرين بين المنفعة والمضرة، فلو كان هناك مضرة شديدة تقابل منفعة يسيرة عليه أن يترك هذه المنفعة مقابل المضرة التي ستقع عليه، وكذلك لو كان هناك ثمة منازعة بين قبيحين وبين سيئتين فهذا تدافع

الحسنات والسيئات، فكيف المرء يقبل على النار من أجل شهوةٍ عاجلة؟ هذا من ضعف عقله، ومن ضعف اليقين على أن هناك عذاب.

والكثير أيها الإخوة الأحبة –وهنا أنبه على نقطة– الكثير من الكفار لا يعتقدون النار التي نعتقدها وإن اعتقدوا الجزاء، يعني الغرب يغلب عليه جهنم «دانتي»، «دانتي» هذا الكاتب الأوروبي الذي وصف الجحيم، فوصفه وصفاً غير مخيف وغير زاجر، وبالتالي هم لا يخافون النار، وبعض المسلمين يستهزأ بالنار وهذا من الكفر، بعض المسلمين يقول: أنا في النار أنا ألعب وأشرب وربما يذكر بعض الطرائف المعاصرة وهذا كله من الكفر الاستهزاء بما حذر الله عز وجل منه هذا من الكفر، والتقليل مما عظمه الله عز وجل هذا من الكفر، والاستهزاء به هذا المقصود الاستهزاء بما حذر الله عز وجل منه من النار أو الاستهزاء بالجنة كل هذا من الكفر، ومن مرض القلب الذي يقع.

فالتهديد هذا العظيم ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾، أمرنا الله عز وجل، الله هو الذي خلقها وهو الذي عظمها وهو الذي أمر عبيده باجتنابها وفصل هذه النار تفصيلاً من أجل هذا المراد، لماذا قال ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ﴾، يكفي أن يقول: فاتقوا النار؟! فلماذا قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾؟ هذا اسم الإشارة الذي فيه بيانٌ وتفصيل من أجل التهويل ومن أجل التعظيم، فلو قال: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ لكان كافياً، ولكن لما كان المعرض هنا تاركاً للحق؛ كان لابد من التهويل أعظم من غيره، فانظر مثلاً لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: (فاتقوا النار ولو بشق تمرة)، لم يفصل فيها؛ ذلك لأن المخاطب بها المسلمون، ويكفي هذه الكلمة لهم، لكن هذا الخطاب إنما يدور حول ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ إنما هو خطاب لهؤلاء الذين يرتابون في هذا الكتاب، ولذلك جاء هنا التفصيل وهذا مراد النظم فيما تكلمته لكم عما قاله الجرجاني في دلائل الإعجاز بأن نفسية المخاطب وطبيعة الخطاب تفرض لوناً من الكلام ولوناً من الخطاب.

فقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا﴾ فجاء التفصيل من أجل التهويل، هذا مقصد، ومقصدٌ ثاني: ذلك لتبين خسة ما يعبدون من الإلهة الباطلة وهذا تكلمنا عنه في الدرس الفائت، عندما جئنا إلى قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقلنا أن هذا تحقير وتقبيح لما يعبدونه أنه لا يصلح أن ينجده ولن ينجدهم، وهنا ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، قال بعض أهل العلم: المقصود بالحجارة هي التي تعبدونها، وذلك إعمالاً لقول تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي من هذه الأوثان وهذه الحجارة، فهذه الحجارة، من التبكيت والإذلال والتحقير أن تكون هذه الآلهة التي كنتم تستنجدون بها وتستنصرون بها وتدعونها وتستغيثون بها لقضاء حوائجكم ولدفع الضر عنكم هذه هي معكم في النار مهانة، فهذا بيانٌ مهم كذلك في هذا الباب. فقوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، هذا معنى.

المعنى الثاني: وهو أن الحجارة هنا قال بعض السلف: أي الحجارة من الكبريت، وذلك لمزيد الاشتعال هذا قولٌ آخر، ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، أي الحجارة التي هي من كبريت، وهذه التي من كبريت هي حجارة لصلابتها؛ وما كان صلباً فإن النار تكون طويلة وتكون قوية وتكون كثيرة، فكيف إذا كانت من كبريت فحينئذٍ يكون الاشتعال أكثر والألم أشد.

فقوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا﴾ أي التي يمد نارها، ولذلك لما تحرق الناس، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، فمما يدل على أن هذه النار لا تنقضي ولا تنتهي؛ لأن الوقود لا ينتهي، ويكفي أن هذا الإنسان كلما تفحم كلما عاد مرةً أخرى ليذوق العذاب مرةً فوق مرة فهذه نارٌ لا تنتهي.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، هذا من أعجب الأمور، وهو أن يكون الشيء مُعذباً أو مُراداً وهو كذلك بنفسه وقود للشيء، يعني الناس يأتون بالحطب من أجل أن يسخنوا الماء ويسخنوا الطعام، لكن هذا هو المراد هو أنه مُعذب وهو كذلك وقود لهذا العذاب الذي هو فيه.

-بعض الإخوة طلب الاستعجال وقال: هناك تأخير وتفصيل زائد لكن لا بأس، يعني حيث وجدنا فائدة لابد أن نمر عليها وفيها المنفعة-

قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾ [البقرة: ٢٤]، هنا ﴿أُعِدَّتْ﴾ دليلٌ عند أهل العلم على أن النار مخلوقة، دليلٌ عند سلفنا على أن النار مخلوقة فقوله: ﴿أُعِدَّتْ﴾ فدل على أنها موجودة وهذا الذي عليه أهل السنة لا يخالف في ذلك سني قط إلا بعض من شذ وإلا الصواب أن النار والجنة مخلوقتان الآن وفي ذلك أحاديث كثيرة بعد هذه الآيات البينة على أنها ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي أنها موجودة؛ من ذلك (أن للنار زفيرٌ في الصيف وزفيرٌ في الشتاء)، والنبي صلى الله عليه وسلم لما أُسري به رأى الجنة ورأى النار فدل على أن الجنة الآن موجودة، وإذا جاء رمضان - ونحن على وجه هذا الشهر المبارك- (وإذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، فالجنة موجودة وغلقت أبواب النيران)، فهذا دليل على أن الجنة مخلوقة وأن النار كذلك مخلوقة.

قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾، يقول بعض أهل العلم: كلمة حجارة على غير القياس، والقياس هو أحجار وكلاهما ورد وقالوا: هنا جاءت على غير القياس، هنا كما رأينا ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ﴾، ليس واحداً وإنما هو جنس الإنسان هو الذي يصيبها، قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، تقدم الكلام في موطنٍ آخر عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ [البقرة: ٦]، من هم الكفرة، وسيأتي تفصيل أنواع الكفر في الآيات القادمة إن شاء الله تعالى، من الذي أعدها؟ هو الله عز وجل أوقد عليها، النار أوقدت، فالله عز وجل هو الذي أعد الجنة فجعلها موطن رحمته وموطن كرامته وموطن ضيافة عبيده المكرمين وكذلك النار جعلها وأعدها بأن أوقد عليها النار.

الطريقة القرآنية -وهنا لابد من أن نوظف ما سمعناه في ذلك- هذا إفادة لمن؟ هو خطاب صحيح للكافرين، في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣] وإن كان خطاب للكافر لكنه في الأصل القرآن هو خطابٌ للمؤمن، فما فائدة المؤمن في هذا الخطاب؟ هو الثقة بهذا القرآن واليقين عليه وأن هذا القرآن حق لا ريب فيه وأن هذا القرآن هو عماد الحق، ولا يوجد غيره أحقٌ بمثله، فهذا بناءٌ مهم لنفسية المسلم في أن الله عز وجل تحدى بهذا القرآن البشر؛ فعليكم أن تلتفتوا له لما فيه من خير وما فيه من حق وما فيه من تمام وما فيه من علم وما فيه من وعيدٍ ووعيد.

وكذلك بعدها الطريق القرآنية أن القرآن لا يترك الحديث عن الكافرين ويسترسل به وفيه، ثم ينقطع الحديث، لا، هذه ليست طريقة قرآنية، الطريقة القرآنية هي حديثٌ عن الجنة وحديثٌ عن النار، وهذه طريقة العدل لما في الحق وما تحتاجه النفس البشرية المخاطبة بهذا القرآن لما تحتاج من بشارة وتحتاج من نذارة، تحتاج من تبشير وتحتاج من إنذار، وأما أن تكثر عليها الإنذار حتى تصل إلى درجة القنوط فهذا مُسيء لهذه التربية، وأن تكثر من البشارات بحيث يقع في قلبها التساهل والترك والأمل المفرط الذي لا يقوم على الحق ولا على العمل ولا على الاستعداد له، فكذلك هذه طريقةٌ غير سديدة.

ولذلك القرآن دائمًا -وهذه قضية مهمة جداً في القرآن- دائماً القرآن يأتي إلى علاج النفس المخاطبة، وما ينشأ فيها من معاني المعنى نفسه قد يُنشئ خطاءً، وهنا نأتي إلى قضية مهمة إذا الحق في نفسه هو كذلك، بمعنى لا يدخله الباطل، لكن حين يدخل في غيره ربما يأتي به الباطل، ليس لأن الحق يُنشئ باطلاً، ولا لأن الباطل يُنشئ حقاً، لا، ولكن لأنه دخل فيه عامل الظرف الجديد المتعلق بقلب الإنسان، هذا الإنسان قد يدخل فيه الحق فيتحول إلى باطل، ليس لأن الحق فيه باطل، لا، لكن للظرف الجديد الذي حل فيه، فالتهديد الذي قاله الله عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾ [البقرة: ٢٤]، هذا التهديد الرباني العظيم هو حق ولو كان لوحده لكان حقاً ولا يحتاج إلى غيره، لكن لما هذا الحق دخل في النفس البشرية ربما يُنتج معاني لابد من تقويمها؛ ذلك لأن النفس البشرية شيءٌ آخر، وبالتالي الشيء لا ينبغي أن ينظر إليه وهذا من علم الأصول هذا ما يسمى بالحكم الوضعي، وهو وجود الموانع ووجود الأسباب، فالشيء في نفسه حق،

الحكم الشرعي قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، فأمر بالوضوء، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، هذا هو الحق في نفسه، لكن هذا الحق إذا دخل بيئة جديدة؛ دخلت فيه الموانع ودخلت فيه الأسباب، فحينئذٍ لابد أن تراعي ما يُنتج هذا الحكم بسبب هذا الظرف من معاني جديدة تحتاج إلى علاجها، هذا مهم جداً، أنت إذا كنت مربياً، كنت خطيبًا، كنت مدرسًا، كنت أباً، كنت صديقًا لا يكفي أن تنظر أن الذي تقوله هو الحق، وأن ما تأمر به هو الصواب، لابد أن تنظر إلى أثره على النفس البشرية، ماذا أحدث في النفس البشرية من معاني، وتقوم على رعاية هذا الإصلاح.

مثلاً: مما قاله ابن القيم في هذا الباب من المعاني الخفية، عند قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، فما فائدة قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق: ٣]، لماذا جاءت؟ قال: «هذه جاءت لإصلاح ما ينشأ بالنفس البشرية من معاني عندما تتوكل فيتأخر أثر التوكل من النصر والعطاء»، أي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، فيفهم منها الإنسان الاستعجال، لأن هذا الإنسان يريد العاجلة، وإذا دفع شيئاً ثمن شيء فإنه يحتاج للمقابل بسرعة أعطني إياه، هذا هو الإنسان المركب على العاجلة، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠)﴾ [القيامة: ٢٠]، فالإنسان يريد الشيء سريعاً.

هو ما يتصور أنه كما يريد الناس اليوم إذا مرض فيريد الإبرة السريعة التي تعالجه وتقيمه كالحصان، وإذا اشتغل عملاً فانتهى منه عليه أن يؤدى إليه الأجر بسرعة، ويقول أنا توكلت فأين النتيجة؟ تتأخر، فيظن الخُلف في وعد الله، فمن أجل إزالة هذا المعنى؛ لأن الشيء لا بد أن يقع في موعده ليكون أثره حقيقياً، كما ينتظر الناس الجنين من بطن أمه في موعده، فلو نزل قبل موعده لمات، يأتي الجنين يأتيك الولد لكنه إذا أتى في غير موعده يموت، لماذا؟ لأن أقداره لم تتوافق معه، ما في أقدار له، لما نزل ما في هواء مسجل عند الله أن هذا الهواء سيتنفسه، ما في هواء مسجل بحسابه، كمن يذهب فلا يجد المصروف، هو يريد أن يتنفس لكن ليس هناك ثمة هواء مسجل له أنه سيتنفسه وليس له هناك طعام سيأكله فأتى في غير موعده فلم يحضر له ولم يؤتى بالشيء القدري الموافق لبقية حياته، فحينئذٍ يموت.

فمن أجل هذه العاجلة التي يرجوها الإنسان من العطاء فيما يقابل الثناء والمقابل، فقال الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق: ٣]، انتظر، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، فهو حسبك سيقضي حاجته، ولكن انتظر ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾، يريد أمراً لأن كل حدثٍ في الوجود هو مرتبطٌ بكل أحداث الوجود، ليس لعجز ربنا ولكن لحكمته في قيوميته على الكون.

ومن ذلك هنا من طريقة القرآن وهو العدل، فعندما تكلم عن أهل الكتاب قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٢] هذه متى جاءت في سورة «البقرة» كما سيأتي؟ جاءت بعد بيان جرائم لبني اسرائيل مما يدل على وجود من أحسن فيهم وليسوا سواء، وهكذا، وهنا يعلمنا القرآن على خطأ الإطلاقات، الإطلاقات هذه عليكم أن تتوقفوا عنها عندما يأتي إلى لفظ «كل والجميع وكلهم» فهذه أنت عليك إن تتربى على عدم إطلاقها دائماً ضع الاستثناء ودائما ضع إلا الذين وهكذا.

فبعد أن قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١)﴾، انقطعت أنفاس المؤمنين أمامها، هذه النار التي وقودها الناس والحجارة إذا نزلت على قلب المؤمن أصابته بالرعب، قد يقول قائل: كيف المؤمن يصاب بالرعب منها؟ الرعب يصيب المؤمن بمجرد التهديد، ألا يقع لو أنك سمعت رجلاً عظيماً يهدد غيرك فيمن أصاب جريمة، وعلمت أن تهديده شديدٌ

ووعيده عظيم، ألا ترتعد من هذا الوعيد، لئلا يقع عليك، لئلا تأتي أنت شبيهًا به بما أتى به هذا فيقع عليك، والريب يقع والتشكيك يقع والناس يقرأون القرآن ويقع في قلوبهم من المعاني الباطلة، لماذا قال كذا؟ ولماذا قال كذا؟ ولذلك كما في الحديث: (نحن أحق بالشكر من إبراهيم)، فالمرء قد يقع في قلبه من المعاني التي يوقعها، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢]، فيقع في قلوب الناس هذا الشيء فهذا يخافه المؤمن.

فلذلك ما هدد به الكافر قد يصاب به من يقرأ القرآن إذا لم يعصمه الله عز وجل ويرحمه، فمن أجل هذا جاء كما رأيتم انظر ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾ [البقرة: ٢٤]، انظر قال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥]، أريت كيف، كأنها إلقاء الماء على النار هؤلاء ثم لفتت أمر المؤمن إلى ما يبشر به هو.

وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)﴾ [البقرة: ٢٥]، ﴿وَبَشِّرِ﴾ يعني هذا من اللغة من البشرى هو، وقالوا: ذلك لأن البشر يراه المرء في وجه من بشر بها، فقالوا من البشرى هو أصله، وبشر تقال لما هو خير بخلاف الإنذار، البشارة خلاف الإنذار، البشارة تكون بما تحبه النفوس والنذارة بما تكرهه النفوس، وقد تستخدم هذه مكان هذه على معنى، لسببٍ ما، ينظر من المخاطب كما قال تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان: ٤٩]، فهذا واضح أنه يريد إهانته، يقول: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾، هذه أطلقت عليه من أجل إهانته ومن أجل مقابلته بما أدعى وهكذا، فقد يقع قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٣]، قد يقع هذا على معنى أن هذا ما ترجونه جاء ضده، ما ترجونه من البشارة جاء ضده فقوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ﴾، قال أهل العلم: أخذت من البشرة وبشرة الوجه هي التي تصطبغ بأثر الخبر عليها، فإذا جاء ما يحسن رأيت البشرى في وجه من بشر.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ﴾، أي أخبرهم خبراً يطمئن نفوسهم بعد ما سمعوا من هذه النذارة ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥]، هنا القرآن في عمومه يأتي ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وفقط نمر عليها مروراً عقائديًا مهمًا، هذه حجة من قال هذا الاجتماع والعطف بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند بعضهم دليل على أن العمل الصالح ليس من الإيمان، وذلك للمغايرة، فقالوا: ما دام أنه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فدل على أن الإيمان ليس هو العمل الصالح، والعمل الصالح ليس من الإيمان، هذه هي عمدة حجته من يتكلم بها من جهة النص ولهم حجج أخرى عقلية وكلية في الشريعة كزعمهم أن ترك العمل الصالح لا يؤدي إلى نفي الإيمان وربما المرء يعصي ويترك بعض العمل الصالح فلا يخرج من الإيمان إلى غير ذلك من كلامه الطويل الذي رد عليه أهل العلم.

ولكن هنا لابد أن نفهم بأن القرآن على القاعدة التي تكلمنا عنها، القاعدة التي تكلمنا عنها أن القرآن يأتي بالحق كله ولكنه يراعي نفوس السامعين، فلو قال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، لكان سياق حديث فقط عن القرآن، ترون أن الحديث يدور عن الريب، أي القضية كما يسميها تكلمون بالعقائد أو التصورات أو التصديقات، يعني الحديث يدور حول التصديق، ما يتعلق ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، فلو أتى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥]، لكانت كلمة الذين آمنوا تعود فقط على هؤلاء دون ذكر العمل الصالح، فتكون هذه البشارة ملحقةٌ له.

لو أن قال: وبشر الذين آمنوا أن لهم جنات تجري، ولم يأتي إلى العمل لقال: أن من أعرض عن هذا الريب فأصاب قلبه التصديق على معنى الإيمان أو الاعتقاد أو التصور أو القبول القلبي، لكان هذا جزاؤه، لكن هذا المعنى لا ليس صحيحاً، ولذلك جاء القرآن بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥]، وهذه قاعدة نجدها في القرآن كثيراً والعرب يأتون بها من أجل الرعاية والاهتمام، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وهذا العمل الصالح هو من الإيمان ولكن هذا من باب ذكر الخاص بعد العام من أجل الأهمية، هذه قاعدة تزول الجبال ولا تزول، هذه قاعدة من قواعد كلام العرب ولغتهم وحوارهم وحديثهم وخطبهم وأشعارهم وهي: «أن العرب يأتون بذكر خاص وهو عمل الصالحات بعد العام وهو الإيمان»؛ لأن الايمان متضمن وشامل لعمل الصالحات ولكن من أجل التنبيه على أهميته وقيمته، فلذلك لم يجعل الله عز وجل فقط البشارة لما يتعلق في ما هو أمر قلبي بل الذين عملوا الصالحات.

وهنا يأتي ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وإذا قلنا: أن المقصود به الإيمان بالكتاب، ونحن قلنا ابتداءً في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، حديث عن قضية العبودية، وكلمة عبادة هذه تحتاج إلى شرح طويل لنكتفي بما تقدم من ذكره في سورة «الفاتحة»، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، وما ذكر في الموطن، فبعد أن ذكر الله عز وجل أمر عبادته جاء إلى ذكر الشريعة، كيف يُعبد؟ ثم جاء إلى ذكر المرسل به وكذلك المرسل، فجاء إلى ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، فجاء ذكر القرآن والتنبيه عليه في تحدي صواب ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.

بعد هذا ما الذي يدخل في كلمة الإيمان إذًا؟ ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، كل ما تقدم، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، كل ما جاء به القرآن، كل ما جاء به هذا الكتاب، وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥]، وهنا ماذا يبشرهم؟ يبشرهم كما تقدم، انظر إلى المقابلة، فيكفي أن يقول: وبشر الذين آمنوا أن لهم جنات، وخلاص كما قال: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ وخلاص، لكن لما كان هناك التفصيل في أمر النار من أجل التخويف والتهديد والوعيد وإبعاد النفس عن أن

تقترف هذه الجريمة كذلك لابد من التشوف لابد من بناء النفس للتشوف، فجاء التفصيل في أمر الجنة فقال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾.

والجنة هي الحديقة التي يكثر الخير فيها، يكثر شجرها، حتى يصبح ما تحت هذا الشجر مخفياً، لأن في كلمة جنة إذا جاء حرف الجيم مع النون دل على الخفاء وهذا تكلمنا عنه سابقاً مثل: جنين، جن، جن الليل، وهكذا جنون اغتيال العقل وذهابه، فكذلك جنة فهذه لما كثر فيها من شجر والتف هذا الشجر بعضه على بعض حتى صار ما تحتها مخفي لكثرة ما فيها من ثمار، فسماه الله عز وجل جنات، والقرآن يأتي دائماً بصيغة الجمع وقال تعالى: ﴿جَنَّاتٌ﴾، ذلك لأن المؤمن ليس له جنة واحدة إنما له جنات، وإنما تكثر الجنان من أجل أن تكثر المتعة له.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥]، قوله تعالى: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾، هل الأنهار تجري عادة من فوق الشيء؟ يعني لماذا قال: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، لماذا لم يقل: تجري فيها الأنهار؟ قال أهل العلم: إنما أراد الله عز وجل أن يبين كثرة ما فيها من أنهار، فلو قال: تجري فيها الأنهار لكان ماذا يصطبغ في ذهن السامع؟ يصطبغ أن الأنهار تتخللها يعني ليست كلها فيها هذه الأنهار وإنما تتخلف كما تقول يجري فيه لأن الظرف يكون مستوعباً لما فيه فتجري فيها الأنهار لكان هذا موهماً ومعطياً للسامع أن الأنهار قليلة أو كثيرة لكنها يمكن أن تكون قليلة، لكن الله يقول: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، فدل على أن هذه الأنهار تستوعب هذه الجنان كلها تستوعبها كلها.

وهذه الأنهار كيف تجري فيها؟ إما أنها تجري بأخاديد وإما أنها تجري بغير أخاديد وأمر الجنة أمر الغيب لا ندري كيف هو، وجاء وصف الأنهار وما فيها في سورة «محمد» صلى الله عليه وسلم، ما هي الأنهار؟ قال تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، هذه هي أنواع أنهار الجنة، وهذه الأسماء التي ذكرت هي التي تفصلها الكلمات الآتية من هذه الآية، يعني ما العسل؟ ما الخمر؟ ما الماء؟ ... إلخ، في قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥]، فجاءت من تحتها ليدل على العموم ويدل على الشمول ويدل على الكثرة بخلاف ما لو جاء بغير هذه الصيغة.

قوله تعالى: ﴿الْأَنْهَارُ﴾، أصل كلمة الأنهار أيها الاخوة هو الكثرة، فيقال: ما أنهر الدم، فإذا اتسع الشيء سمي نهرا، وأنهر الدم يعني سال الدم بقوة نفر بقوة، فإذا اتسع الشيء قالوا: نهر، لما يكون النهر فيه ماءٌ عظيم يسمى بهذا المعنى، فأصل كلمة الأنهار من نهر من الاتساع.

قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥]، الآن هذه ما ذكرنا من الأنهار، وهذا وصفٌ للبناء، ما تم هو وصف للبناء جنات علامة أن فيها أشجار وفيها أنهار لكن الآن جاء وصف ثمار هذه الجنان، فقال سبحانه

وتعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]، هنا ما معنى ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾؟ القول الأول وهو المشتهر انظروا: الأشياء إما أن تكون تحمل أسماء الدنيا وهذا مجزومٌ به، مجزومٌ به أن الأشياء في الجنة من الثمار تحمل أسماء الدنيا، هذا مجزومٌ به وذلك لأن فيها رمان وما ذكر في القرآن من أنواع الثمار التي يعرفها الناس فيها عنب فيها نخيل بالرغم أن دائماً في القرآن يأتي كلمة العنب ويأتي النخيل، فلماذا يأتي العنب والتمر؟ والأصل العنب هو الثمر والنخيل هو الشجرة فلماذا إذا أتى للعنب أتى بالثمرة وإذا أتى للنخيل يأتي للشجرة؟ يعني لماذا هنا يأتي بالثمرة هنا يأتي بالشجرة؟ وهذا في القرآن كله، لا يقول: الأعناب والتمر ولا الرطب ولا غيره وإنما يأتي بالنخيل.

وابن القيم رحمه الله له فائدة في هذا وهي من فوائده، قال: لأن الفائدة المرجوة من العنب هو المراد به الثمر، المراد من شجر الكرمة، ونهي عن تسميته بالكرم، العنب نهي عن تسميته بالكرم، لماذا؟ لأن العرب يسمون العنب لأنها أصل الخمر كرمة من الكرم، ذلك لأن العربي كان يكرم إذا شرب الخمر، فسميت بأثرها لما واحد بشرب بروح بتبرع، وتعرفون ماذا صنع حمزة رضي الله عنه في جمل علّي رضي الله عنه قام غنته قبل تحريم الخمر فجلس مع قوم له وقامت الساقية لهم تشربهم فغنته شعراً عظيماً فقام على جمل علّي وذبحه يعني الخمر تصنع هذا الكرم والإنفاق لطيش العقل يعني قد يصل لهذا الكرم إلى قضية الإسراف، فسمي بهذا فنهى الشارع عن تسمية العنب كرماً لما يتصوره العرب من أن الخمر تصنع الكرم.

فإذن لماذا قال بثمرة العنب وشجرة النخيل؟ لأن شجرة العنب المقصود بها هذا وهو العنب الذي نحن نأكله، بخلاف شجرة النخيل ففيها فوائد متعددة غير ما نأخذه من الثمار والتمر وغيره وإنما فيها من فوائد متنوعة والله تعالى أعلم، هذا هو قوله.

فمعنى قوله تعالى هنا: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾، أولاً هذا ما يأتي به أهل الجنة استبرق، استبرق هو الحرير الخشن والسندس هو الحرير الناعم، فيما قاله بعض أهل التفسير، فإذن اسمه حرير سندس واسمه استبرق وهكذا، فإذن الاسم واحد، لكن الآن نأتي إلى أشياء أخرى الطعم والشكل، فبعضهم قال: شابهها في الاسم دون الطعم والشكل، قال بعضهم: لا، شابهها في الاسم وفي الشكل دون الطعم، هذه أقوال ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾، على أي شيء ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾، وقال بعضهم: يشبه بعضه بعضاً في الظاهر وفي الباطن مختلف، متشابهة قال: لو جاء لك في الجنة هذه اسمها حبة رمان هي بشكل وبوصف حبة الرمان، هذه تشبهها في ظهرها ولكنها مختلفة في الباطن، إذن صار عندنا ثلاث أقوال:

القول الأول: الاسم هذا موجود فإما هو الاسم مع الشكل دون الطعم.

القول الثاني: وإما الاسم دون الشكل ودون الطعم.

القول الثالث: وهو أنها تشبه بعضها بعضًا كلها يشبه بعضها بعضًا في الظاهر مع خلافها في الباطن.

هذه القاعدة لشيخ الإسلام رحمه الله عادة وكثيراً ما يحتج بهذه الآية على أن اشتراك الأسماء لا يوجب اشتراك المعاني، كيف؟ يعني دائماً يقول: هذه الآية حجة على أن الشيء قد يشترك اسمهُ مع اسمِهِ، يقال: فلان له يد مثلاً وفلان له يد، فيد هذا لا تشبه يد هذا، والدليل ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ اسمه يوم القيامة، هل هذا اسم حقيقي، يعني يوم القيامة اسم الاستبرق حقيقي ولا اسم مجازي؟ حقيقي، هو اسمه استبرق هو حقيقي، وهذا اسمه سندس، هذا الطعام اسمه عنب، هذا الطعام اسمه تفاح، هذا الطعام اسمه تمر، فهو اسمٌ حقيقي على هذا الشيء ولكن حقيقته تختلف عن حقيقة الآخر مع مشابهته في الاسم، التفاح اليوم ليس مثل تفاح الجنة وهكذا.

والقصد من هذا: مما يحتج به أهل العلم على ما ذكرنا، من أن مشابهة الأسماء لا تقتضي الاشتراك في الحقائق والمعاني.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا﴾، هذه تفيد الاستمرار والديمومة، ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا﴾، تكلمنا عن الرزق في مقدمة السورة التي بين أيدينا، ﴿قَالُوا﴾ أي من هم؟ الذين آمنوا، ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢٥]، قوله تعالى: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾، بحسب إما أن يقولوا: هذا الذي رزقنا به في الدنيا، مثل التفاح في الدنيا، فلما يأكله ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾، قال له: لا هذا مختلف ذق ستجد شيئًا آخر، وإما أن يقال على المعنى الأول: شابه بعضه بعضاً، يقول: كل ما أراه يشبه، يقول له: لا، كل وانظر سترى أن كل ثمرة تختلف عن الأخرى.

ولكن هنا ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾، هذا يدل على من هو الإنسان، حتى في الجنة الإنسان يبقى هو الإنسان، ولذلك أنصح إخواني من أجل علاج نفوسهم وعلاج مشاكلهم في الحياة مع أزواجهم مع أولادهم مع أصدقائهم مع العمال مع الذين تعملون عندهم الأساتذة والأسياد أن تكتبوا دائماً كل يوم وكل يوم تضعه بجانبك وتقرأوا هذا الحديث قبل أن تخرج من بيتك وقبل أن تتعامل مع أهل بيتك، وهو حديث: آخر دخول أهل الجنة الجنة وآخر خروج أهل النار النار، وهو أن آخر الناس خروجاً من النار يدخل الجنة فبعد أن يخرج ويتخلص من نارها وسمومها وعذابها، يقول: الحمد لله الذي أعطاني ما لم يعطي أحداً من العالمين، هذا هو الإنسان، فدائماً هو الافتخار وهو آخر واحد، لكن هو هكذا يظن نفسه، ولكن انظروا ينظر وإذا الجنة أمامه، فيرى هذا النعيم، فيطلب من الله عز وجل أن يقربه من باب الجنة فقط، يقول له الله عز وجل: (أرأيت أن أعطيتك هذا أتسألني غيره؟) قال: وعزتك وجلالك لا أسألك غيره، يحلف يمين الله عز وجل يقول له: طيب، فيقترب هذا حتى يرى الجنة هو في الباب لسه على الباب، فحتى إذا رأى نعيمها وما فيها سأل الله أن يدخله الجنة، فيقول: (يا عبدي ألم تقسم، ألم تعد إنك لا تسألني)، قال له: فقط أدخلني وعزتك وجلالك لا أسألك غيره، فالله عز وجل يدخله الجنة، فبعد أن يدخل الجنة

يرى القصر وهكذا حتى ينتهي به أن يقال (أما ترضى أن يكون لك مثل مُلك مَلكٍ من ملوك الدنيا، ومثل الدنيا، قال: لك ذلك وذلك وعشرة أمثاله).

فالقصد من هذا: أيها الإخوة الأحبة هذا هو الإنسان، إياك تقول: أنت قلت، أنت حلفت، أنت لن تعيدها، هذه ما في الإنسان لا يعيدها، هذه فقط عندكم يعني الإنسان هو إنسان لا تقول للولد: أنا نصحتك ألف مرة خليها ألف وكمان عشر آلاف، لا توعد مرة واحدة وتقول: انتهى قلت لهم وفهموها، لا تقل هذا، لا تقل: هذا أخطأ ولن يعيد إلى الخطأ، (كل ابن ادم خطاء)، كما وأنت تخطئ مع الله يغفر لك وتخطئ ويغفر لك وتخطئ ويغفر وهكذا، فالإنسان هو الإنسان.

فانظر إليه هنا في هذا الموطن، قال: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢٥]، وأنتم هنا أيها الإخوة الأحبة عليكم أن تتصوروا أن الحالة ليست فقط في أول دخول الجنة يا مشايخ، لأن القرآن يقول: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا﴾، فإما أن يكون الطعم يتغير في كل مرة، فيكون كلما أكلوا يقولوا: البارح أكلنا هذا العنب، وكل يوم أمامي عنب، فكل ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا﴾، يقول له: كُّل هذا عنب جديد، فيكون التغير ليس فقط تغيراً مرةً واحدة وهذا هو الصحيح، لا يكون التغير الثمرة تغيراً واحداً يعني العنب في الجنة هو العنب فقط واحد في الجنة إنما هو كل ما أكل منه المرء أكل شيئاً جديداً اسمه عنب ولكنه بطعمٍ آخر، فانظر إليه في كل مرة ينظر وهذا ستتكرر، ليست مرة واحدة يقولها يعني يأكل ومرة ثانية يقول: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا﴾ فيقول ما هذا؟ أريد شيء آخر، فيقول: ذقه، فيذوق فيعلم أنه قد اكتشف أنه شيءٌ جديد، وهذا لن ينتهي في كل مرة سيقول: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾، كل مرة يقولوا كل يوم عنب كل يوم، كل الإنسان هكذا.

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقوله: ﴿مِنْ ثَمَرَةٍ﴾، مما يدل على أن الثمار كثيرة ومتعددة، قال: ﴿وَأُتُوا بِهِ﴾ وسبب قولهم هذا ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ لماذا؟ لأنهم ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾، على ما قلنا من التشابه فيما قالوا.

والآن البني آدم هذا الإنسان هو يريد جنة يستظل بها وجنة تجري من تحتها الأنهار مما تلذ به أعينه، فكما قال إمامنا الشافعي رحمه الله: «ثلاثة يشفين المريض الماء والخضراء والوجه الحسن»، فهذا عنده ملك وتجري من تحتها الأنهار، وهذا الثمر الذي يأكله وجاءت أوصاف هذا الثمر في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: أنه يأكل ويأكل ولا يخرج منه إلا كرشح المسك، كيف ينتهي هذا الطعام في البدن؟ كرشح المسك يخرج منه كالعرق، ورائحة هذا العرق كالمسك، ليس هناك لا بول ولا غائط ولا غير ذلك مما هو من نجاسات هذه الدنيا ومشاكلها.

فبعد أن وصف الله عز وجل هذا الوصف وانظروا هذا الوصف الذي ليس هو فقط ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، هنا وصف وهذا إذا جازت هذه العبارة مما يستخدمها البلاغيون استطراد فإنما هو استطرادٌ لحمل هذه

النفوس على التشوف وعلى العمل من أجلها وعلى التعلق بها، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا﴾ [البقرة: ٢٥]، هذه آلية فقط، ماذا يعملون؟ هذه آليتهم، ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقوله: ﴿رِزْقًا﴾ ليس فقط على الثمر وإنما ما هو في كل شيء كما ذكرنا في الألبسة وغيرها.

وهنا بعد ذلك يأتي إلى نبذةٍ عظيمة، قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥]، قال: لم يقل طاهرة؛ ذلك لأن مطهرة أبلغ، أما أنها هي طاهرة فقد يقع منها غير ذلك الطهر ثم تطهر، فتكون حمله في الطهر، لا، قال: هي مطهرة، بمعنى أنه لا يقع منها ما يُسيء وما يمنع الطهر، فهنا جاء وصفه بأنها مطهرة.

وهذه الأزواج كلمة زوج تطلق في العربية على الذكر والأنثى فيقال: فلان زوج فلانة، ويقال: فلانة زوج فلان، ويصح كذلك أن يقال: زوجة، ووردت في كلام العرب أنه يطلق على المرأة كذلك زوجة، وزوج الشيء هو قرينه.

قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾، ما المقصود بالأزواج المطهرة؟ أولاً: نساؤهم، زوجته في الدنيا مطهرةٌ في الآخرة، لا يصيبها ما يصيب نساء الدنيا، وكذلك تطلق أزواج مطهرة على الحور العين، التي وعِدَ بها المؤمنون في الجنة فهن أزواج مطهرة.

هنا أيها الإخوة الأحبة أي نعيمٍ يقع ماذا يخشى منه الإنسان؟ الزوال والانقضاء، المرء مهما كان في نعمةٍ عظيمة وبالغة ومستوعبة حياته ووقته وجسمه وذهنه فإنه لابد أن ينغص بمجرد إخباره أنها ستنتهي، ولذلك يقال يا أحبتي: أن ملكاً طلب من وزير قال: أنا أريد أن تكتب لي على هذا الخاتم كلمة إذا كنت في سعادة نغصت علّي سعادتي، وإذا كنت في بؤسٍ أذهبت عني بؤسي، نفس الكلمة، -أعيدها- قال: أريد أن تكتب لي على هذا الخاتم كلمة فقط إذا قرأتها فكنت بئيس أن يذهب عني بؤسي وأفرح وإذا كنت فرحان يذهب عني فرحي فأحزن فماذا كتب له؟ كتب له هذه اللحظة ستنقضي، فلو كان حزيناً وقرأها فسيعلم أن هذه اللحظة ستنقضي فسيفرح، وإذا كان فرحاً نظر إلى هذه اللحظة ستنقضي فسيحزن.

فلذلك أعظم اللذات يهدمها الموت، وأعظم اللذات ينتهي جمالها وعظمتها بانقضائها وانتهائها، والمرء كلما تذكر انقضاء النعيم نُغص عليه هذا النعيم، فقال الله عز وجل: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)﴾، من أجل أن يعطيهم الضمانة أن هذا النعيم لا زوال ولا انقضاء وأن هذا النعيم إنما هو أبد الأبد والإنسان يتشوف إلى هذا تشوفاً عظيماً بل إن الإنسان مصدر قيامه على كل شيء الملك، محبة التملك والخلد، وهذا منفذ الشيطان إليه، ما هو مدخل الشيطان إلى آدم ليقترف المعصية ويأكل من الشجرة؟ ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠)﴾ [طه: ١٢٠]، فالإنسان مركب على غريزة الامتلاك، أول شيء قال: ﴿شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾، فلو قال له: ملك أولاً لخاف لقال:

بعدها يذهب، لكن قال له: خلد أنت اطمئن ما سيأتيك من النعيم أنت ستخلد فيه، وهذا هو المنفذ للإنسان هذا هو منفذه، وهذا لا يمكن أن يدوم لإنسان لا شيء يدوم، الْمُلك سينتهي لو دامت لغيرك ما وصلت إليك وكل الأشياء تنتهي إلى خراب هكذا كتب الله عز وجل، الثمرة تنتهي إلى خراب، المال ينتهي إلى زوال، الكبر والصحة تنتهي إلى الكبر والفناء والعجز وهكذا فهذا هو الإنسان.

ولذلك قال الله عز وجل من أجل أن يطمن هؤلاء في هذه البشارة الربانية العظيمة، هذه بشارة عظيمة هذه، ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)﴾ [البقرة: ٢٥]، كم مرة كررت ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾؟ كررت بعدد أبواب الجنة، الجنة كم باب لها؟ ثمانية أبواب، وكررت كلمة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ بعدد أبواب الجنة، ثمان مرات جاء في القرآن ذكر ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

بعد أن انتهى جل في علاه من ذكر هذا الأمر العظيم، بعد أن تقدم ما تقدم من سورة «البقرة» وبعد أن جاء إلى ذكر أمر أصل خلق الإنسان، لماذا خلق الإنسان ومقصد خلق الإنسان؟ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، ثم ذكر أمر هذا الكتاب، وأمر هذا النبي صلى الله عليه وسلم وتصديقه وحجاجه وتحديه لهم جاء ربنا سبحانه وتعالى إلى تقرير أمرٍ عظيم، يتعلق بمفاتيح تعامل الرب مع عبيده، وأن ميزان التعامل مع الله عز وجل ليس كميزان التعامل معكم ذلك لاختلاف الرب عن العبد.

ذلك لأن العبد إنما يأتي الأمور التي تعظمه، ويستنكف ويستحيي من الأمور التي تبخسه أو التي تنزل مرتبته أو التي تهينه، والأمور التي تهينه هي التي مهانة عند الإنسان، أي لو قال رجل لآخر: أنا أملك فأرًا فهذا يهان، لو قال رجل: أنا أملك ذبابةً، فهذا إهانة له، ولكن في التعامل مع الله عز وجل هناك شيءٌ آخر، سنأتي إلى سببه لماذا يكون هذا من باب العظمة في حق الله عز وجل ومن باب الإهانة في حق البشر هذا واحد.

الشيء الآخر قال بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، ربطوها في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]، أن هذا رد على من قال: ماذا هذا المثل استوقد نارا؟ فرد الله عز وجل عليهم هذا، والذي أعتقده أن الأمر أشمل من ذلك، ذلك بأنه بيانٌ لحق الله عز وجل في أنه ليس على ميزانكم، ولا ينبغي أن يقاس الله عز وجل عما تقيسونه من أمور حياتكم وشؤونكم في قيمكم في أحكامكم على بعضكم البعض، لأنكم أنتم إنما تنظرون إلى ميزانكم في الْمُلك، ولكن هل أنتم تخلقون؟ يعني بما يتم تعظيم المرء؟ بما يملك، وهذا الْمُلك يُنظر أهو مهان أم هو معظم، فحينئذٍ إذا ملك شيئاً معظماً يكون عظيماً وإذا ملك شيئاً مهاناً يكون مهاناً ولا يُلتفت إليه، ولكن الرب ليس حديثه فقط عما يملك ولكنه حديثٌ عما يخلق.

فمما يبين الاختلاف بين الحديث عن العبد والحديث عن الرب، أن الحديث عن الرب جل في علاه هو حديث عما يخلق، وإذا كان الحديث عما يخلق كان كل ما جرى على هذا المعنى عظيماً، ليس باعتبار الكِبر ولكن باعتبار حسن الصِنعة.

أنا أسلكم الآن لو ذهب ذاهب فأراد أن يشتري مثلاً تلفون فهل يذهب ليشتري تلفون بعرض اليد وبطول الذراع؟ لما الناس ترقوا في صناعة التلفون، هل ترقوا من الصغر إلى الكبار؟ أم ترقوا من الكبر من الصغر؟ ما هو الترقي عندهم؟ الترقي هو أن الشيء الكبير جعلوا يصغرونه حتى انتهى إلى ما يمكن أن يكون صغيراً، فالصغر هو منتهى جمال الخلقة في الإتقان، عندما يأتي إلى هذا المعنى وإن كان هناك أشياء هو عظمتها بالكبر هو عظمتها بأن تكون كبيرة، كما قال الله عز وجل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، أكبر ذلك لأن هذا العظم هو بذاته ينبغي أن يعتبر.

لكن لما كانت القضية قضية خلق فمن أشق، أن يخلق شيئاً عظيماً أو أن يخلق كل هذا الشيء العظيم بأجزائه موجودٌ في شيءٍ صغير يكاد يتناهى، فقال جل في علاه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، ذلك لأن كل ما يوجد في العظيم يوجد في البعوضة، تأكل أو لا تأكل البعوضة؟ تأكل، هل يدخل فيها الطعام، يدخل في جوفها الطعام فتهضمه وتنتفع به كما ينتفع به أعظم المخلوقات حياة، هل يجري منها كل ما يجري على الإنسان؟ بل فيها من القضايا والعمل ما يعجز عنه الكبير.

فهذه البعوضة بما فيها من خرطوم، انظر إلى هذا الخرطوم العجيب الذي يفرز مادةً لا يمكن لك أن تكتشفها إلا بعد قضاء حاجتها فيك، البعوضة تفرز على جسمك إذا أرادت أن تأكل وهي بعدها تأكل خلاصة ما تتعب أنت في تحصيله، هي لا تأتي إليك لتأكل كالذبابة، لتأكل مثلاً من حبة الحلوى هي تأتي إلى دمك، يعني تذهب إلى ما اجتهدت أنت في تحصيل خلاصته، بعد أن أكلت وبعد أن تعبت وبعد أن هضم بطنك إياه وبعد أن تأكسد وبعد ... إلخ، حتى إذا أردت أن تنتفع فيه في تمام الانتفاع، جاءت البعوضة لتأخذ هذا بطريقةٍ عظيمةٍ يعجز الإنسان عن ردها، تأتي تضع هذه المادة، هذه المادة تقوم بعملية اختبار أولاً لنوع دمك، يمكن يكون نوع دمك ليس من مأكولها، ثانياً: هذه بعد ذلك تلين الجلد حتى يدخل الخرطوم دخول لين، وكل هذا وأنت لا تشعر به، وأنت تنظر ولك عينان وهي تدخل وتقوم بهذه العملية وربما هذا يظن أنه سيد الوجود، الإنسان ماذا يكون ربما هذا الذي يقوم عليه الفعل يأمر وينهى ويظن أن الوجود كله تحت يديه ويسيطر على كل الوجود وهذه البعوضة تقوم بعملها في إذلاله وفي الأخذ منه وفي إهانته حتى إذا قضت حاجتها وطارت وانقضى فعلها، بدأ الإنسان يشعر أن ثمة شيء قد وقع عليه قبل ذلك.

فهذه الخلقة الإلهية وهذا الإبداع الإلهي وهذه العظمة الإلهية في هذه الخلقة لا ينبغي أن تقيس على أن تقول أنا أملك ذبابة أو بعوضة وأنا أملك سيارة، وأنا أملك طيارة أو أملك أنا صقراً، لأن الحديث عن الخلقة وما دام أن الله عز وجل قد خلق فهو يضرب الأمثال بما خلق، ذلك لأن كل شيءٍ خلقه الله فيه عظمةٌ خاصة فيه، وفيه ما يحقق في هذا المثل مراد الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، أي يمثل فيه، ونحن تكلمنا عن المثل، والمثل يأتي بمعنى آية، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾، أي آيةً عظيمة في الدلالة على خلقه، هذا معنى موجود، فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾، الحياء مَلَكَةٌ إنسانيةٌ عظيمة، ما الذي تؤدي إليه؟ ما منفعتها؟ هذه الملكة الإنسانية العظيمة تحقق أعظم ما خلق من أجله الإنسان؛ ذلك لأنها تبعدك عن كل الرذائل، وتدفعك لكل الفضائل، ومن هنا قال صلى الله عليه وسلم: (إن الحياء لا يأتي إلا بخير)، هذا الحياء يدفع الإنسان لأن يأتي بكل الفضائل، ذلك لأن الإنسان إذا استحيا يمنعه حياؤه أن يكون متخلفاً عن الآخر الذي يتقدم فهو يسارع من أجل أن لا يتخلف لأن لحيائه لو تخلف لكان في ذلك نقص، فيستحي منه، وإذا أراد أن يصنع الرذائل منعه حياؤه منها لأن الحياء لا يقبل أن يجتمع مع الرذيلة؛ ذلك لأن الإنسان يلحظ غيره فيما هو فيه، وأعظم الحياء هو أن يستحي من الله، قال صلى الله عليه وسلم: (استحيوا من الله حق الحياء).

والحياء هذا هو الذي يجعلك طاهراً في السر والعلن، لأنك إذا استحييت من الله عز وجل حق الحياء كنت حيياً منه وذلك في الحديث، عندما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يستر الرجل عورته إلا عن زوجه وما ملكت يمينه قال: يكون الرجل خالياً، هل يجوز أن يتعرى وهو خالي؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (فالله أحق أن يستحيا منه)، وهذا قمة ما يربى عليه الإنسان.

فلو تأملتم كل المعاصي في هذا العاصر التي يقترفها الملاعين والكفرة لوجدتم أن منشأها هو عدم الحياء، المرأة تخرج من بيتها سافرة يدل هذا على أنها لا تستحيي وأن زوجها أو والدها أو أخاها كذلك لا يستحيي، فلو كان يستحيي لما قبل لعرضه أن يُكشف هذا الكشف، كذلك تجدون الرجل هنا يمشي ويشرب الخمر ويشرب الدخان أمام الناس هو لا يستحيي، تجد الرجل يمشي وكذلك يلبس اللباس الفاضح أو اللباس السيء، تجده يتكلم الكلام الفاحش، لو كان يستحيي لما فعلها، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم في أخلاقه كالعذراء في خِدرها يستحيي، صلى الله عليه وسلم إذا رأى قبيحاً غض بصره، ولا يأتي منه القبيح، حياءً من الله وحياءً من الناس.

ولذلك لا يجوز لأحد أن يعتقد أن في الحياء ضعف، وللأسف في زماننا هذا إذا وجدت رجلاً حيياً ظننته ضعيفاً، فالحياء لا يعني عدم الشجاعة، لأن منبت الشجاعة هو الحياء، ما الذي يدفع المرء للإقدام، حياءه أن يقال عنه: جبان، ما الذي يدفع الناس للكرم: حياءه أن يقال عنه: بخيل، ألا يُبخل، فلذلك الحياء لا يأتي إلا بخير، وليس

الحياء الذي الناس يزعمونه وهو الجبن، لا، الحياء الذي هو حق، هل الله عز وجل يستحيي؟ هل الله عز وجل يجوز أن نصفه أنه يستحيي؟ الجواب: نعم، وفي الحديث: (إنَّ اللَّهَ حيِيٌّ كريمٌ يستحي إذا رفعَ الرَّجلُ إليْهِ يديْهِ أن يردَّهما صفرًا خائبتينِ)، إذا رفع المرء يديه لله عز وجل ودعا فإن الله يستحيي إن يرده، لئلا يقال: سألت كريماً فلم يعطني، فالله عز وجل يستحيي كذلك في هذا.

ولكن هذا الحياء الذي نفاه الله عز عن نفسه هو الذي يمنع إظهار الحق، وهذا الحياء كذلك مذمومٌ في البشر، لو أن رجلاً استحيا بأن لا يظهر الحق فهذا ليس هو الحياء، الحياء هو أن تكون قائلاً بالحق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ﴾، وقلنا: الضرب هو التأثير، وذكرنا الضرب كالنكت، لما جئنا للأمثال، يضرب الأمثال كالنكت أي الذي يمثل به، فالضرب هو ترك الأثر، ومن هنا سمي المشي في الأرض ضرباً لأن فيه التأثير، فقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ﴾، أي أن يمثل تمثيلاً يترك أثره في نفس سامعه، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ﴾، أي أن يقول لكم كلاماً وفي نهاية الكلام يؤثر فيكم، بماذا يمثل بهذا؟ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾، أي مثل هو يحقق مراد الله عز وجل فهو حق، قال تعالى: ﴿مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، هنا نقف عند قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا﴾ [البقرة: ٢٦]، ثم بعدها قوله تعالى: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، وإن شاء الله في درسٍ قادم نتم وبارك الله فيكم.

الأسئلة

السائل: النار ﴿أُعِدَّتْ﴾ بنية للمجهول؟

الشيخ: يعني هنا لما كان أمر العذاب، ونحن نعلم تذكرون في درسٍ متقدم ذكرت لكم بأن الأدب يتخفى في القرآن، تذكرون هذا الدرس، لما قلت لكم: بأن الأدب في القرآن يتخفى، الأدب يتخفى في العبارة، والأدب يُكشف في العبارة الخفية، وكما يقول الشافعي رحمه الله في كتابه «الرسالة»: «بأن أعظم ما في كلام العرب هو إخفاء المعاني»، والمعنى كلما كان خفياً في الكلمة كلما كان الكلام عظيماً، وإنما عظمة كلام الناس بإخفائه المعاني في داخله، وهذا الإخفاء لا يقع، انتبهوا لهذه الكلمة، فهذا الكلام وراءه شيء من كلام الشافعي، كلما كان المعنى خفياً، فهل يمكن للمرء أن يصل للمعنى الخفي دون أن يمر على خطوات من المعاني التي توصل إليه، يقول الشافعي رحمه الله في كتابه «الرسالة» –بالمعنى– يقول: إنما تكون عظمة الكلام بمقدار خفائه أي خفاء المعنى في داخله، كلما خفي المعنى كلما كان الكلام عظيماً.

وهذا الخفاء هل يمكن أن تصل إليه دون أن تمر على معاني توصل إليه؟ إذن ما المقصود؟ المقصود: كلما كان الكلام حاملاً للمعاني الكثيرة التي توصل للمعاني البعيدة الخفية في داخل الكلام كلما كان الكلام عظيماً، لأن الكلام الذي يُخفي المعاني البعيدة لا يمكن إلا أن يكون فيه معاني قريبة متعددة أوصلت لهذا المعنى البعيد، فقط هذه مقدمة.

وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾، هذا إجلال لربنا عز وجل من أن يذكر أنه هو الذي أعدها ذلك لأن الموطن هو موطن عقوبة، وإذا كان الموطن موطن عقوبة فلا ينسب إلى الله عز وجل هذا واحد.

الشيء الثاني: قوله: ﴿أُعِدَّتْ﴾، العرب إنما تُنّكر لأسباب، إما لأسباب التعظيم، تعظم الشيء فينّكر له، التنكير يأتي للتعظيم وللكثرة، واحد يسأل كيف التنكير يأتي للتعظيم؟ أي عندما أنت يكون المطروح أمامك ألف رجل يمكن أن يدخل في هذا الفعل يفعله، فإذا نُكر ولم ينسبه لواحد، ما الذي سيقضيه قلبك؟ ربما فعله هذا وهذا وربما كلهم فعلوا هذا الفعل، فيأتي هذا التنكير من أجل هذا التعظيم، لكن لو نسبه لواحد لانتهت هذه العظمة، فالتنكير يأتي لهذا التعظيم هذا المعنى موجود في هذا الباب، قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١)﴾، إنما هي إجلالاً لربنا أن يذكره في هذا الموطن وهو موطن عذاب وعقوبة.

المعنى الثاني: أن هذا دلالة على كثرة ما فُعل في هذا الأمر حتى صار عظيماً فعله الكثيرون مما فعلوا، والله تعالى أعلم.

السائل: شيخنا ذكرتم في موضوع الإعجاز على فئة من الناس بلغوا الذروة في اللغة هل كان فيهم السماع أم الفهم؟

الشيخ: لا يمكن لرجلٍ أن يدرك –هذه قاعدة خذها الآن نضرب لك أمثلة حتى بسيطة وساذجة تعرفها من نفسك– لا يمكن لرجل أن يدرك عظمة شيء حتى يفهمه، حتى يعرف ما فيه من معاني ومن تركيب، أنا أضرب لكم مثالاً غريباً جداً، فيما بين أيدينا، لو أنني أحضرت لك بيتًا تغنى فيه القدماء، وقرأته لك بالصوت الجميل والأداء الجميل وأشركته بالموسيقى، وأنت لا تفهم معناه هل تستلذ به؟ أنا أتكلم لك في البيت ليس بالموسيقى؟ لا، لابد أن تفهم معناه، فلماذا الناس يرددون كلمات يرددونها بما فيها من نغم لكن الترداد منشأه أولاً لما فيه من معنى، هذه النقطة الآن قد يقول قائل: لكن هم كفروا بالمعاني، قد يأتي السؤال الآن أول ما يطرأ على هذا الكلام فهم قد كفروا بالمعاني فكيف قد رأوا أن المعاني معجزة؟ المعنى العظيم الذي أذلهم أنهم علموا أن نفس متكلمه هو نفسٌ لا يمكن أن تكون بشرية، فما الذي جعلهم يخضعون أن متكلمه هو كلام إله؟ هو فهمهم للكلام وفهمهم لمعانيه.

وبالتالي جاءت هذه الكلمات في الآيات المكية جاءت على معنى القرع السريع، ترى أن السور المكية آياتها قصيرة من أجل أن تعطي هذا البلاغ السريع، لا يجلس يتفكر، لو أن رجلاً جاءته آية طويلة فهو يريد أن يجمع أولها مع آخرها فخلال إرهاقه في هذا المعنى وهو مُخالف بخلاف الذي يبحث عن الطويل ليستلذ لأنه مؤمن بما يقول فهذا شأنه آخر، يترقى في هذا التلذذ ترقياً مرةً بعد مرة، لكن رجل منكر يقول: لا أريد أن أجلس أفكر لك؟! لكنه فيعطيه المعنى، ﴿الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢)﴾ [القارعة: ١-٢]، انتبه ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢)﴾ [الفجر: ١-٢]، فالكائن ما تحتاج، ففوراً تلقي، فالمعنى السريع يوافق هذا الْمُخالف الذي يريد ان ينتهي.

القصد من هذا: بأن القاعدة لا يمكن لمرءٍ أن يستلذ بشيء دون أن يفقه معناه، وإن استلذ، استلذ استلذاذًا سطحياً سرعان ما يزول، وإنما يستقر هذا المعنى من التذوق والقبول بعد إدراكه للمعاني، وكلما رأى في الكلام تجدداً في المعاني كلما ازداد تلذذاً فيه.

السائل: شيخنا أريد ان اسأل سؤال خارج الدرس– تفضل– لماذا نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الجلوس بين الظل والشمس؟

الشيخ: هناك علة من علل النهي مفهومة جداً في شريعتنا هو عدم التشبه بالشيطان، الآن السؤال هل الشيطان يجلس هذا لمعنى خاص فيه أنه شيطان؟ نحن نقول: ربما أولاً، وإذا وجد هذا أي ربما دل على وجوده فربما فهمناه وربما لم نفهمه، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجلوس وليس تعرضك لعارض أو أن تكون مصليًا فيأتيك أو

تضطر إليه فتكون في داخل باص فتقول: أريد أن أغيره، لا، أن يقصد المرء هذا الجلوس فإنما نُهي عنه لأن هذه جلسة الشيطان، فهذا هو علة كافية بالنسبة إلينا، لكن الشيطان لماذا يفعلها؟ هذا أمرٌ آخر قد ندركه وقد لا ندركه.

السائل: العلة في وجود العنب، العنب الآن يعصر فالتمر لم يكونوا يستخدموا منه الخمر يعني؟

الشيخ: لا، العرب عامة خمرهم كان من التمر، عامة خمرهم، والأحناف يروهم، لكن عامة تمر العرب من الخمر، ينبذون التمر.

السائل: يجوز القصد عن كلمة لماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تسموه بالكرم)؟

فقط لأن هذا العنب هو ما يستخدم عامةً، وأنت تعرف أن مكة ما فيها عنب، حتى إذا أحضروه من الشام صار زبيبًا، وإذا أحضروه من الطائف يكون قليلاً، فإذن هو يحضر خمر، أهل مكة لا يعرفون العنب إلا بالخمر، ولكن التمر والنخيل بكثرة عندهم، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، السَكَر هنا المقصود به سكر.

السائل: شيخنا سؤال فقهي مأمومين دخلوا الصلاة مع الإمام فيعني فاتتهم ركعة أو ركعتين فلما قاموا لما انتهى الإمام –يعني هم مسبوقون بالصلاة–، فقاموا يكملون الصلاة فالمصلين الذين كانوا مع الإمام تذكروا الإمام أنه أخطأ بالصلاة، فقام أن يأتي بركعة، فالآن الذين كانوا مسبوقين بالصلاة ماذا يفعلون؟

الشيخ: السؤال قام المسبوقون لصلاتهم التي فاتت يريدون الإتيان بها وقضائها بمعنى الانتهاء منها، ثم ذُكر الإمام بأنه لم يتم صلاته فيريد أن يأتي بركعة أو ركعتين، هل يعود هؤلاء المسبوقون للإمام، هل يعودون له أم يتابعون صلاتهم؟ والصواب أنه هذا جائز وهذا جائز، لا يوجد ما يمنع والمسألة اجتهادية لا يوجد ما يمنع أن يعودوا لصلاة الإمام، كما أن الإمام خرج من الصلاة فيعود إلى الإمامة وكما أن الذين من المأمومين خرجوا من الصلاة بالسلام ثم تذكروا وعادوا، فمن باب أولى أن يكون المصلي أن يعود إليه، هذا وجه، الوجه الثاني: أنهم فارقوه فيجوز لهم أن يأتوا بصلاتهم وقد فارقوه، جاز لهم ذلك، فهذا له وجهه وهذا له وجهه وكلاهما متوجه القبول.

السائل: هل يكفر المبتدع الذي أصر على بدعته بعد إن قامة الحجة عليه كونه استحلها؟

الشيخ: يا مشايخ أول شيء كان من شُبه أهل الخلاف لا أقول أهل البدع وهم أهل البدع في الحقيقة، في قولهم بأن التشريع ليس كفراً، واستدلوا أنكم لماذا لا تكفرون المبتدع؟ قلنا: لا، هم لو قرأوا كلام الشاطبي رحمه الله في الاعتصام لعلموا أن البدعة هي تشريعٌ زائد وفي أصلها كفر وإنما منع التكفير بسبب التأويل، أن هذا متأول يظن أن هذه من الشريعة وتقربه إلى الله فامتنع التكفير بسبب التأويل، وقد استقر هذا المعنى أن البدعة هي تشريعٌ زائد، وأن التشريع الزائد هذا حكمه وامتنع وقلنا ما قلناه،

الآن يأتي إلى إقامة الحجة، السؤال هنا ما هو ضابط إقامة الحجة في مثل هذه المسائل التي هي كما تسأل عن مسألة بدعية يقع فيها الخلاف؟ يعني المخالف يراها شريعة، فكيف الزمته بالحجة؟ لا نريد أن نعطي الرجل لمجرد إنه ناظر امرءً فانقطع دليله أنه أقام عليه الحجة، الحجة لا تقام بهذا؛ لأن المرء قد يكون مُتبعاً ومقلداً ومتصلباً في باطنه ولكنه يظن أنه على الحق، فمثل هذه المرتبة في مسألة التشريع ومسألة الأحكام هذه ليست من المسائل القطعية التي يستطيع المرء أن يقول: قد أقمت عليه الحجة وبالتالي هو كفر لأني أنا ألزمته أو بينت له أن الشيخ الفلاني قال: بدعة.

فمثلاً الآن: لو جئنا لرجل يقول بالمولد النبوي، فيقول له: انظر لشيخ الإسلام يقول: بدعة، وانظر للشيخ الفلاني يقول: بدعة، ما هو عنده خمسين عالم يقولون له: طيب من السيوطي إلى غيره، فكيف تقول قد أقمت عليه الحجة؟ لكن هنا نقول: من بقي متعبداً بأمرٍ لم يعلم أن الله قد قال به ثم هو يقول: أنا أتقرب إلى الله بشيءٍ لم يشرعه الله وأنا أعلم –هكذا يقول– وأنا أعلم بأن هذا الأمر لم يشرعه الله وأتقرب به إلى الله فهذا لا يعُد من الكفر، ولكن المبتدع ليس كذلك، المبتدع يقول: أن قواعد الشريعة تقبل هذا الفعل، وهذا الفعل هو شرعي والفقه يقبله، وبالتالي هم لا يكفرون بهذا، فأنا أحذر من هذه الكلمة وهي أقمت عليه الحجة لأن إقامة الحجة قد تكون في المسائل خفية عويصة، لا يستطيعها مجرد أن تخبره بقول العالم.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثالث والثلاثون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وهلاً بالإخوة الأحبة في هذا الدرس الثالث والثلاثين من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾ [البقرة: ٢٦].

وقفنا عند هذه الآية وتكلمنا بما تكلمنا به ونعود إليها لأهميتها وهي تبين منهج هذا القرآن، هذه الآية تبين منهج القرآن في أهم قضيتين:

القضية الأولى: في بيانها نَفس الرب وأن الله سبحانه وتعالى لا يجوز لأحدٍ أن يجري على الله عز وجل من الأحكام ما يجري على البشر ذلك لأن البشر لهم معاييرهم، لهم مقاييسهم، لهم أحكامهم التي تنطبق عليهم كمخلوقين، وأما ربنا سبحانه وتعالى فخالق.

وكما ذكرت في الدرس الفائت فإن الناس يعظمون الشيء بما يملك وما له قيمة وبما يحصل به من معاوضة ومن شرف، وأما ربنا سبحانه وتعالى فإن أصل القضية تعود إلى خلقه والبعوضة كما قلنا بما فيها من أدوات تدل على أن قاعد الناس التي تدل عليها صنعتهم؛ أنه كلما دق الشيء كلما كان عظيمًا وكانت الصِنعة ذكية وكانت الصِنعة محكمة ومتقنة، فهذا بيان نفس الرب أنه جل في علاه لا يستنكف وهذا من معاني يستحيي لأن الحياء له قوة المنع، فالعبد يستحي من الله عز وجل فيمنعه هذا الحياء من أن يطلع الله عليه على معصية، فالحياء قوة منع، وكذلك قوة دفع، كمن يندفع للشجاعة وللكرم لئلا يتهم أو لئلا يعير في الآخرة أو في الدنيا، فهذا الحياء له قوة المنع وقوة الدفع، كبقية الأخلاق ولكن الحياء مَلَكة نفسٍ أقوى من كل مَلَكات النفس الأخرى في هاتين القوتين أي المنع والدفع.

فالله عز وجل لا يستحي، وهل مفهوم المخالفة موجود، قلنا في الدرس الفائت: نعم مفهوم المخالفة موجود، (إِنَّ اللهَ يسْتَحْيِ)، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ اللَّهَ حيِيٌّ كريمٌ يستحي إذا رفعَ الرَّجلُ إليْهِ يديْهِ أن يردَّهما

صفرًا خائبتينِ)، فالله حيي هذه قوة منعٍ الحياء في الله عز وجل أن يُسأل فلا يُعطي، وهذه مفهومةٌ في البشر، أن الكريم يستحي أن يُسأل فلا يعطي، وذلك لأن هذا مَظنة البخل، والله عز وجل كريمٌ جواد.

وهنا يجوز ضرب الأمثال لربنا فيما هو كريمٌ وحسن، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، ما المقصود بها؟ هو بيان قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [الروم: ٢٨]، فهذا بيان أن المالك لا يقبل الشرك، المالك من البشر لا يقبل الشرك، فهذا أولى في حق ربنا، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]، فدل هذا على أن العبد لواحد هو أسلم، فهذا في حق العبد الذي يعبد الله عز وجل في العبادة أولى، فهذه يجوز أن يضرب فيها ولكن الأمثال التي فيها التحقير والأمثال التي فيها رد الأحكام الشرعية ورد المقررات الإلهية هذه أمثلةٌ باطلة، قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، هذا هو المقصود.

فالمقصود: أن الله حيٌ ستير، أن الله حيٌ كريم وكذلك في الحديث الصحيح المتفق عليه عن الثلاثة الذين دخلوا إلى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعظ أصحابه فجاء أحدهم ورأى فرجةً فجلس فيها، وأما الآخر فجلس بعيدًا وأما الثالث فخرج، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فأَوَى إلى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ، وأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا، فَاسْتَحْيَا اللَّهُ منه، وأَمَّا الآخَرُ فأعْرَضَ، فأعْرَضَ اللَّهُ عنْه)، وهذا دليل على أن الحياء في الطاعات هذا حياءٌ مذموم، والحياء من بيان العجز، أمام الله مذموم، الحياء بالنسبة للبشر يمنعهم من إظهار النقائص ولكن إظهار الضعف والفقر أمام الله لا ينبغي أن يكون، فهذا استحيا، فاستحيا الله منه؛ فكان معيبًا في حقه، وأما الثالث فأعرض، فأعرض الله عنه، والمقصود قال: فاستحيا الله منه، فنسب الفعل إليه، وهنا في الحديث: (إن الله حيي كريم)؛ نسب الاسم فدل على أن من أسماءه الحيي، وهنا دل على الفعل أن الله استحيا منه، ولكن هنا في الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾، لماذا؟ لأنه دلنا على أن هذا إذا كان يؤدي المراد الإلهي فيضربه، وهذا يدلنا على شيءٍ آخر:

الأول: يدلنا على نَفس الرب –وهذا أنا أكرره في كل مقامٍ– على أن أعظم ما يفسر به القرآن هو أن يعرفنا من هو الله، وهذا أجّل ما يفسر به القرآن، فمقصود القرآن هو أن يعرفنا عن هذا الغيب العظيم، عن هذا الرب العظيم، أن يعرفنا وأن يعلمنا من هو جل في علاه بأسمائه وصفاته وعطاءه ومنحه وخير وو... إلخ.

الأمر الثاني: يعلمنا شيئًا آخر وهو من أحكامه ومن الآداب وهو أن المعلم لا ينظر إلى العوارض وإنما ينظر إلى المقصد الأصلي، يعني الناس يسمعون كلمة، فهذه الكلمة لو جردت لما أفادت معنًا كبيرًا وربما أفادت معنى التحقير لو جردت، لو قيلت البعوضة فإنها أول ما ينصبغ بها عقل السامع من هذه الكلمة أن ينظر إلى حقارتها، فلا ينظر

إلا إلى حقارتها ودناءتها ودنو شأنها، فهذا مانع من أن يقترب لوجود هذا المعنى في نفس السامع يمتنع المتكلم والمعلم أن يقترب منها؛ لئلا يحتاج المعلم أن يقفز عن هذا المعنى متجاوزًا إياه، وهذا يحتاج إلى جهد.

والمعلم عادةً لا يأتي من الطريق الشاق الذي يحتاج فيه إلى قفزات من أجل أن يوصل المراد بل يذهب إلى الطريق السهل الذي لا عوارض فيه من أجل أن يصل للمراد، وهذا الذي يقال: «فلان أبعد النُّجْعَة»، أي ذهب إلى مكان إحضار الماء البعيد وهو عنده، ولكن المعلم حين يكون المثل وحين يكون الأمر عظيمًا فإنه عليه أن لا يستنكف، بل يقتحم هذه الكلمة التي في ذهن السامع على هذا المعنى من التحقير ومن الدناءة، أن يقتحمها ذلك لأن المراد منها عظيم، والمراد منها أن يكسر طالب العلم أو المعلم أن يكسر هذا المعنى في نفسه لأنه حين يتحطم هذا المعنى في نفس السامع ثم يأتي ليثبت غيره دل على عظمة هذا الشيء.

فكما أن سلوك الطريق الشاق شاقٌ على المعلم وشاقٌ على السامع وينبغي سلوك الطريق الأسهل لكن سلوك الطريق الشاق بعد كسر الحواجز يعمق –بعد الوصول إلى المراد– يعمق أهمية ما وصل إليه، أي أنت لما تصل إلى مرادك بعد المشقة يصبح لهذا المعنى أو الذي وصلت إليه يصبح له جمال ويصبح له منفعة، فأنت هنا تقفز وتقتحم على هذا المعنى الغريب وتأتي به ولو أنك صادفت المشاق، فهو هذا يُعلم العالم أنه عليه ألا يستنكف من أن يقول الحق ولو كانت بداياته منكرة عند السامع، فعليه أن يأتيه لا بأس اذهب إليها.

والله عز وجل ضرب بالبعوضة كما هنا وضرب بالذباب في سورة «الحج» كما قال سبحانه وتعالى في أخرها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]، فلا يمكن، وانظروا هنا استحضار كلمة الذباب بما تحمل من دلالاتٍ في نفس السامع عما يقابلها من دلالات الاجتماع البشري الكامل، فلا يمكن أن يحدث في النفس البشر انفعال هذا المثل والتفاعل مع هذا المثل إلا بهذه المقابلة.

قال تعالى: ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾، هذه مقابلة بين الذباب الذي تحقرونه أنتم، أنتم عظماء، أنتم كبار، ليس الواحد منكم فقط ولكن لو اجتمعتم له، فانظر إلى هذه المقابلة، هذه الكلمة مقامها هنا هو مقام التحقير لهذا الجمع، في مسألة الخلق.

وضرب الله عز وجل مثلاً بالعنكبوت وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)﴾ [العنكبوت: ٤١].

فهنا المقام هو مقام عظيم، والقرآن هنا كما يبين يضرب بالبعوضة وبعض أهل العلم قال: بما هو أقل كما سيأتي، بأقل منها، والمقصود هو الرد على من يستنكر الأمثال ويتعجب منها ولذلك الأمثال طريق العقل وطريق الهداية،

وكان بعض السلف يقول: إذا قرأت مثل في القرآن فلم أفهمه ولم أعقله بكيت على نفسي لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣)﴾ [العنكبوت: ٤٣]، فأن لا تفهم المثل؛ هذا تخلف عن مرتبة العلم.

فهنا يقول ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾، لا يستنكف، لا يتوقف، لا يمتنع لمجرد أنكم تحتقرون الذباب ذلك لأن الله عز وجل خلقه وهو عظيمٌ عنده، وبعض أهل العلم أبعدوا في قضية سبب ورود هذه الآية، وبعضهم يشير إلى أنها كما رواية عن قتادة أو قريب مما يقول قتادة: بأنها مكية بأنها رد على الكافرين الذين نظروا في القرآن فوجدوا مثل الذباب وهي على خلاف مكية أو مدنية، فقال: هذا ردٌ عليهم وهذا بعيد، والصواب أن سورة «البقرة» هي مدنية كما تعلمون ولا ينبغي إخراجها.

قال بعضهم: هذه ردٌ على المنافقين، ذلك لأنهم اعترضوا على الأمثال التي ضربت فيهم، ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]، فلما قالوا: ما هذا يضرب لنا أمثال؟ فرجاء الرد عليهم، وقال بعضهم: هي ردٌ على كل من اعترض وليس المقصود به لا هؤلاء ولا هؤلاء، لا المنافقين ولا كفار قريش، والمقصود به كل من يعترض وإنما هي بيان لهذا الحكم الذي ذكرناه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً﴾ [البقرة: ٢٦]، ونحن قلنا لماذا ضرب، ضرب من الالصاق، والالصاق لابد من التأثير، فلما كان المثل يؤثر في السامع وينشئ لديه المعاني العظيمة وينشئ لديه الإرادات الكبيرة فسمي ضربًا لأن الضرب يؤثر، قلنا: الضرب لا يكون إلا بتأثير كالنكت في الأرض، ضرب الالصاق يلتصق بها يضربها ولذلك سمي المشي لما يترك من أثر، فهنا كأنه ضرب انظر كما أن تقول ضرب أي أثر بحيث كان في ذلك تأثير؛ فلذلك استخدام كلمة الضرب في المثل لقوة تأثيره، لما يحدث هذا المثل من تأثير كضرب اليد بالوجه، ضرب الإنسان بالعصا؛ فتترك أثرًا، فسمي سوق المثل ضربًا لما يؤثر، وهذا من أعظم ما يبين أهمية المثل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً﴾، هنا ﴿مَا بَعُوضَةً﴾ هل نقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا﴾، و ﴿مَا﴾ هنا تدل على التقليل والأقلية فتكون بعوضة بدلاً لها، أي ﴿يَضْرِبَ مَثَلًا مَا﴾، فأعطني مثلاً له يقوم مقام هذا ﴿مَا﴾، قال: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، وهذا وجهٌ قاله كثير من العلماء، أي ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا﴾، وهذا وجهٌ قوي في أن ﴿مَا﴾ هي سر الحكاية، وهذه ﴿مَا﴾ تدل على التقليل، الشيء القليل، فمثال الشيء القليل ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

وقال بعضهم: لا، ﴿مَا﴾ وإنما هي موصولة يعني ﴿مَثَلًا مَا بَعُوضَةً﴾، وهذا وجهٌ آخر، وقيل غير ذلك، قيل حتى أن بعوضة هنا مرفوعة عند بعض القراء وبعض النحويين، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً﴾.

والغريب جدًا أنني وجدت في بعض كلامهم أن أنواع البعوض في العالم ثلاثة آلاف نوع، والعجيب كم عين لهذه البعوضة العجيبة التي نستصغرها؟! يعني أنت بعظمك، والفيل بكبره كم عين له؟ كم عين لك أنت؟ لك عينان، البعوضة كم عين في رأسها؟ ستمئة عين!! والغريب أنها لا ترى بها في الليل إنما هي ترى بأحاسيس أخرى رادارية عجيبة!! وارجعوا إلى ما تكلم به أصحاب الصِنعة البيولوجية في عجائب هذه البعوضة الغريبة.

قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، ما فوقها العلماء لهم ثلاثة أقوال فيها:

القول الأول: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ في الصغر، أي هذه فوق صغرها، وذلك لِمَ يحتجون العرب لو أن رجلاً قال لرجل: فلان قصير، قالوا: وفوق ما تقول، يعني هو أقصر مما تقول، وهذا قاله جماعة من أهل العلم.

القول الثاني: قالوا: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي فوقها بالكبر والمقصود الكبر فيها.

القول الثالث: قال بعضهم: لما لم يأتِ ما يدل على أحد الوجهين دلت على كليهما، أي هي دالة على الكبير والصغير وهذا وجه، وهم يسمون هذا توجيه الاعتراض، لأنه في الحديث الشريف إذا عارض حديثٌ حديثا ولم يمكن الجمع ماذا يسمونه؟ المضطرب فيتساقطا، هنا إذا عارض وجهٌ وجهًا، فلم يمكن الجزم بهما دل على كليهما، وهذا من عظمة هذا الكتاب كما تقدم الكلام في قواعد التفسير بأنه قلما تشير إلى معنى واحد.

قال تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾، هنا أريد فقط أن أنبه على خطأ وهو التعمق بما لا يفهم دلالةً عند العرب، وذلك لِمَ انتشر عند بعضهم فوجدت البعض يتكلم قديمًا وحديثًا المقصود ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾، قال: هناك مخلوق فوقها وهذا بعيد لا يخطر في نفس السامع لكلام الله عز، وهذا كله من التمحل في التفسير وليس كذلك، ونحن على قاعدة الشاطبي رحمه الله وهي قاعدةٌ علمية قالها غيره: على أن الأصل إجراء القرآن على ما استقر في نفس العربي من المعنى وأما تصور الكيف فهذه مسألةٌ أخرى، نحن قد ندرك الكيف ما لا يدركه العربي، يعني العربي لا يدرك كيف ﴿لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣] ولكن هو يفهمها.

في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج: ٧٣]، العرب تفهم هذا المعنى في ظاهره، لكن هل يفهم كيفيته؟ لماذا لا يستنقذه منه؟ لا يدري، فيأتي مثلاً العلم الحديث يأتي هذا العلم المعاصر الذي كثرت فيه الأدوات فيقول لك: بأن الذباب لا يأكل ثم يهضم، بل إنه أول شيء يهضمه ثم يأكله، فبعد الأكل

لا يمكن إرجاعه بخلاف ما لو أكل التمساح مثلاً: أكل أحدًا، يمكن أن تعيده، لماذا؟ لأن هلكت هذا الطعام تتم وهضم هذا الطعام يتم بعد الأكل، لكن الذباب لا، يهضمه أولاً يذيبه ثم يأكله فهذا لا يعرفه العربي.

وهنا الحديث عن الكيف العربي لا يعرف الكيف، ولكن هل يفهم المعنى؟ يفهم المعنى، فلذلك إجراء الكلام على المعنى وليس على الكيف، فلذلك ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ العربي فهم منها الأكبر والأصغر على ما ذكرنا، وأما فوقها في وجود دابة أخرى فوق رأسها لم يفهموا فنبتعد عن هذا الفهم ليس من الكيف في شيء.

وقد يقول قائل: قال تعالى: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)﴾ [القيامة: ٤]، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: أي أن نجعل بنان الإنسان كحافر حمار أو كمخلب طائر، فيقول: لا، أنت تفسر بخلاف ما فسره ابن عباس رضي الله عنهما، نقول حديث ابن عباس عن الكيف، يعني ابن عباس جاء إلى الكيف بما تستوعبه ثقافته، وأما ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾، يعلم أن المقصود به البنان هو رؤوس الأصابع، يعلم ذلك، يعلم أن البنان على أن يسويها، فهو يعلم هذا المعنى ولكن يجهل الكيف إلا بمقدار ما تستوعبه ثقافته، فأجراه على الكيف الذي يستوعبه.

هل يجوز لأحد أن يجري هذا الكيف على ما يستوعبه في زمانٍ آخر؟ الجواب: نعم.

هذا المثل ما المراد منه؟ تقدم أن آيات الله عز وجل: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩]، صيب إي يصيب، نازل بقوة يعم الأرض ويصيب المراد، من إحياء ما في الأرض، لكن هل هناك ثمة خير في هذا الوجود ليس فيه فتنة؟ الخير فيه فتنة سواء كان هذا الخير من المعنويات أو من الأشياء والبضائع، كل شيء فيه فتنة، فأنت إذا أكلت الطعام هل فيه فائدة؟ وهل فيه كذلك قاذورات يستخرجها الإنسان بعد ذلك؟ وهل فيه آثار مادية أخرى تؤثر؟ فهذه حقيقة هذا الوجود، أنه لا يوجد شيء خالي من الابتلاء وخالي من الفتنة وخالي من الضرر.

وكذلك الخير، كل شيءً في الوجد يحصل به الخير ويحصل به الضرر وإنما العبرة بالأغلب، تدافع الحسنة والسيئة، فالعبرة بما كثر ليس بالسيئة بل بالحسنة، فالعبرة بالأكثر، الله عز وجل قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩]، هم نظروا فقط إلى هذه، لم ينظروا إلى الخير الذي فيه، الذي يحي به الأرض ويأكل الناس والأنعام منها، وهذا المثل انظروا إليه، لو خاطبهم خطابًا بلا مثل لكان ذلك كافيًا، لكنه ذهب إلى أعظم من خطابٍ بلا مثل وهو أنه جاء بالمثل.

فما مقصود المثل؟ تقدم، مقصود المثل هو تحقيق العبرة، أي إبلاغ السامع أعظم ما يريده المتكلم، من أجل التأثير، لأن المثل يتأثر به الإنسان، ولأنه يريد أعظم ما يريد المتكلم أن تصل إليه نفس السامع، مع هذا كانت آثاره عكسية على نفوس بعض الناس، لم تحقق المراد بل حققت العكس والسبب هذا كالدواء فإن البعض يأخذه ولكنه مرٌ في نفسه فلا ينظر إلا إلى المرارة فيلفظه ويتركه، وبعض الناس يشرب الماء الزلال، فهذا الماء ينقلب في نفسه إلى

قاذورات فيعافه لتعوده القاذورات من الشراب، فالماء أم الخمر؟ انظر كيف يشربون الخمر وكيف يتقززون ومع ذلك يشربونها!! ويرونها أجمل من الماء!! حتى قيل للأخطل في بعض حواراته، قال له: ماذا أشربك أتريد الماء؟ فقال: هذا شرب البقر، قال له: أتريد الحليب؟ قال: فطمتني أمي عنه، فماذا تريد؟ قال: الخمر، عاب الماء أنه شرب البقر وعاب الحليب أنه مفطوم عنه، وهو الفطرة، هو أراد الخمر!!

فالإنسان يبلغ من الجهل أن يعيب ما هو صواب، فهنا هذا المثل المقصود به العبرة والمقصود به تعظيم العلم، والمراد في نفس السامع، لكن انظر كيف انقلب.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦]، وهنا نأتي إلى مسألة أرجو أن تستوعبوها، هناك حالتان لتعظيم هذا الكتاب ليست إحداهما بأولى من الأخرى:

الحالة الأولى: أن تذهب إلى هذا القرآن بأنه كلام الله عز وجل، وفي نفسك تعظيمٌ لهذا الإله وتعظيمٌ لهذا الكلام، أنت ذهبت إليه لأنه كلام الله عز وجل، وأنت تعظم الله عز وجل وتعظم كلامه؛ فأنت تقرأه على جهةٍ من جهات الاعتبار والاتعاظ والتعظيم والاستفادة والاقتداء والالتزام، وهذه حالاتٌ تغلب على عامة أهل الإسلام،

الحالة الثانية: كذلك عليك أن تتمرن –وهذه لطلبة العلم خاصة– عليك أن تذهب إلى الكتاب خالي الذهن لتعلم منه أنه كلام الله عز وجل، هذا يعيدنا إلى مسألة الإعجاز، وهذا توافق في ذكر هذه بعد الإعجاز.

أي الذين أذهبوا هذه الآية وأرجعوها إلى المثل: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]، لو أرجعوها إلى الإعجاز لكان أقرب، لو أرجعوا هذه الآية لعلاقتها ولصلتها بالإعجاز لكان أقرب من قضية الرد، فمما ينبغي أن تتمرن عليه وأنا أدعو طلبة العلم لهذا الامر وهو أن يذهبوا إلى القرآن من أجل أن يروا فيه كلام الله، لا أن يذهبوا إليه وهو في نفوسهم كلام الله، فهذا معنى عظيم، لا ينبغي التقليل من شأنه، أن تأتي إليه وتقول هذا كلام الله، فأريد أن أعلم ماذا يتكلم وماذا يقول الله فيه هذه مرتبةٌ عظيمة ولا شك.

ولكن هناك مرتبة القليل من يذهب إليها من أهل الإسلام وأهل العلم، وأنا أقول لطالب العلم: عليه أن يتمرن عليها من أجل أن يتذوق هذا الكلام ليدله كما دل الصحابي الأول على أنه كلام الله، أي كيف أسلم الصحابي الأول؟ هل أهل بالطريقة الأولى أم الطريقة الثانية؟ الطريقة الثانية، أنه سمع الكلام، ويقول هو: هذا كلام الله فهو في لحظة توقف يريد أن يكتشف هل هو كلام الله؟ فذهب إليه باحثًا عمن تكلم؛ فبهذا الكلام علم أنه كلام الله عز وجل، تفكروا فيها وستفيدكم بمعاني كثيرة وستخرجكم من القراءة التي تقرأون بها للتعظيم إلى القراءة الثانية وهي للاكتشاف، تخرجون من القراءة الأولى وهي قراءة التعظيم، إلى القراءة الثانية للاكتشاف التي تبهر القلوب، ورغم

أنفك بعد أن تذهب إليها هذا المذهب ستصرخ الصرخة العظيمة هذا كلام الله، هذا كلام الله، ولا يتكلم به إلا الله، وهذه مقدمة لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦].

هنا نرجع إلى القضية هل ذهبوا إلى هذا المثال أنه كلام الله فصدقوه؟ أم أنهم ذهبوا إلى المثل ليروا ما فيه فاكتشفوا عظمته، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، ما هو الأقرب في هذا الباب؟ هذا المعنى الأول موجود، لكن ما هو الأقرب؟ هل المعنى الأول أم المعنى الثاني؟ المعنى الثاني هو الأقرب، أنهم لما رأوا هذا المثل العظيم أدركوا عظمته، فنطقوا أن هذا لا يكون إلا من رب ولا يدلنا إلا على معنى الحق، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، ذلك لأنهم رأوا في هذا المثل شيئًا لا يعرفوه من كلام البشر ولا من أمثالهم ولا من قدراتهم على ما تكلمنا فيه من أبواب العلم في الإعجاز عما تقدم.

فلو قال قائل: ﴿فَيَعْلَمُونَ﴾ فعل مضارع هذا فعل الحال ﴿فَيَعْلَمُونَ﴾، أنهم على الحال حين قرأوا وعلى ما استقبل بعد القراءة، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

وهذا أيها الإخوة الأحبة، قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، هذا أول دليلٍ في هذا القرآن على أن أعظم ما يتحقق به الإيمان هو العلم وأن العلم بالقرآن هو أعظم ما يحقق الإيمان، فانظر الناس عندهم الإيمان يقوم على التسليم، وكأن كلمة تسليم كأنها تسير بعدم المعارضة، وعدم المعارضة وكأنها إلى عدم المباحثة وعدم التفتيش خلاص هذا كلام الله، وهذه الآية ترد على هذا المعنى، ذلك لفقههم غور هذا الكلام علم أنه كلام الله؛ فحصل الإيمان بعد تفكرهم بهذا الكلام.

إذن ما هي صفة أهل الإيمان؟ هو التفكر، فبما يحصل صدق المثل؟ تذكرون فيما تكلمنا به سابقًا بأن المثل هو الضرب المحسوس لأنه أقرب ليتحقق المعنى الذهني، قلنا: إن عظمة المثل تكمن في إدراك المرء بالمحسوس فيضرب للمثل لأنه أقرب إلى فهم الإنسان؛ كون الإنسان أول ما يدرك في حياته المحسوسات ثم يرتقي إلى الذهنيات، يرتقي الى العقليات.

إذن المثل بما يثبت صحته؟ بتوافق ما استقر في النفس من فطرة مع ما ضرب من المثل المادي، إذن بما يحصل العلم؟ بهذين الأمرين بسلامة الفطرة القائمة على العلم والمباحثة بعد ذلك مع معرفته بالواقع، فالمثل اطر لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، ينبغي أن يعلم وما يضرب لها من معاني ذهنية، فإذن هذا هو العلم.

إذن علمنا من هذا:

أولاً: بأن الإيمان في القرآن ليس هو التسليم بلا إدراك ولا فقه، بل هو التسليم بإدراك وفقه ومباحثة.

ثانيًا: علمنا بأن هذه المباحثة إنما تقوم على ركنين اثنين:

الركن الأول: وهو سلامة الفطرة وعلومها.

الركن الثاني: وكذلك قوة معرفة المرء بالمحسوسات المادية، الواقع.

وكل هذا إفراز يؤدي إلى ما قاله العلماء هذا الفقه، ما هو الفقه؟ ما هي الفتوى؟ هو أن يعلم دين الله وأن يعلم الواقعة، فانظر ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، هل تتوافق كلمة ﴿فَيَعْلَمُونَ﴾ بلا مباحثة وبلا إدراك؟ هل تتحقق هذه؟ هذا انتبه له.

قال تعالى: ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، كلمة الحق في القرآن تنوعت وهي من أكثر الكلمات التي وردت في القرآن، وأكثر موطن ذكر فيها كلمة الحق في سورة «الأنفال» المقصود في موطنٍ واحد، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧)﴾ [الأنفال: ٧]، ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ [الأنفال: ٨]، فكلمة الحق في كمالها تعني ما هو موجود، والباطل هو الفراغ وعدم الوجود؛ ولذلك العوام إلى الآن لما يقولون عن واحد ليس لديه عمل يقولون: بطال، رجل بطال، أي لا وجود لعمل لديه، فالبطلان هو عدم الوجود، الحق هو الوجود.

ودائمًا لما نقول هذا الكلام لا تنصرف أذهانكم بل يجب أن ترقوا أذهانكم ليس فقط النظر إلى الماديات والمحسوسات بل ينبغي النظر إلى المعنويات، يعني الصدق حق، الشجاعة حق، الكرم حق، الصدقة حق، فلا ينبغي فقط لما نقول: الوجود، أن يذهب ذهنك فقط إلى ما هو محسوس ومادي بل ينبغي أن ترتقي في هذا.

فقوله تعالى: ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، يعني أنه هو الذي يثبت ويدوم ويحقق، وانظروا إلى ارتباط كلمة الحق مع الحقيقة وارتباط الحق مع يحقق، هذه مرتبطة، ببعضها البعض، فإذن كلمة الحق: يعني الذي يتوافق مع الصواب، والصواب هو أن تثبت ما له دليله فإما أن يكون فوق الدليل فيما يسمى العلم الضروري وإما أن يكون نظري يعني أن يتم به الصواب.

وأعظم الحق –هنا قال تعالى: ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، إذن هذا المثل توافق ما ضرب له من المعاني بما هو محسوسٌ وموجود، ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، هذا صواب.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، هذه «ال» الاستغراقية تدل على أن هذا المثل لا يوجد فيه شيءٌ باطل، لا يوجد فيه شيءٌ غلط، هذا المثل فيه كل الحق، وكما قال في كلمة الحمد لما قال أحد آل البيت: «لأن رد الله إلي راحلتي لأحمدنه حمدًا عظيمًا»، فلما حضرت؛ قال: «الحمد لله»، كانوا ينتظرون أن يقول شيئًا آخر، الحمد لله استغرقت، فهذا المثل استغرق كل الحق، لكن لماذا قال: ﴿فَيَعْلَمُونَ﴾؟ ما قال: فعلموا؟ لأن هنا يعلمون تدل على الدوام والاستمرارية، قال: ولأنه أثبت فعلموا لا تدل على هذا.

فقوله تعالى: ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، ثم قال: ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾، وهذه مسألةٌ مهمة ربما نقف في مواطن متعددة ذلك لأن معيار إثبات الحق بطرق: أولاً: أول ما يرى الحق بالنسبة للمسلم وهو أنه يكون صادرًا من الله عز وجل، بما يثبت الحق؟ بأنه صدر من الله عز وجل، هذه طريقة التسليم.

والطريقة الثانية: المباحثة، تمتحنه، فبعد ذلك يثبت أنه الحق، فإذا علمت أنه الحق لا يمكن أن يكون إلا من الله عز وجل، ومن هنا قال شيخ الإسلام رحمه الله ابن تيمية: «بأن كل دليلٍ عقلي ثبت صحته هو نقلي»، أي كل مثل حق فالله أولى به وكل دليل حق فالله أولى به؛ لأن الله خلق الخلق وأنزل الشرائع فالحق إما أن يثبت بهذا وإما أن يثبت بهذا فكله يعود إلى الله عز وجل، فكل حقٍ في الوجود يعود إلى الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٢٦]، انظر المقابلة تقضي أن يقول: وأما الذين كفروا فيقولون: إنه الباطل، لكن لم يقل هذا، لا يستطيعون، ولكن ذهبوا كما ذكرنا في قضية ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩]، وإنما ذهبوا إلى عواضه ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦]، وذلك إما بتحقيره بأنه من بعوضة وأما بدعواهم أن هذا المثل خفي لم نفهم منه المراد –وانتبهوا– دعوة عدم الفهم إسقاطٌ لقيمة الكلام، أي لو أن رجلاً مسئولاً وجه أمرًا لأحد رعيته فطلب منه أن يقوم بهذا العمل وجاء إليه بعد شهر، وقال: بماذا قمت؟ قال: كلامك غير مفهوم، فكلامه غير المفهوم هو من أجل اسقاط قيمة الكلام، فهؤلاء ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، هو أطلقها ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾.

وهنا كلمة المثل غير والمقصود به ماذا أراد الله بهذا معنى؟ ماذا أراد الله بهذا مرادا؟ فلم يذهبوا إلى إبطال المثل وإنما ذهبوا إلى إبطال معناه وإبطال مراده، إما بأنه تصغير وهذا لا يجوز في حق الله عز وجل، وهنا نأتي في هذا المعنى بأن عامة الملحدين بأسماء الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وشرائعه هذا منفذهم، يقال لهم: الله يرُى، يقولون: لا، لا يرُى، الله أجّل من أن يرُى، يقال لهم: الله عز وجل له يد، يقولون: الله أجّل من أن يكون له يد، يقال لهم: الله ينزل، يقولون الله أجّل من أن ينزل، يقال لهم: الله يستحي إن الله حيي، يقولون: الله أجّل من أن يستحي، وهنا لما ضرب الله مثلاً ببعوضة قالوا: الله أجّل من أن يضرب مثلاً ما ببعوضة، فردوا.

هم مرات يرفعون المراد بأن يبطلوا الشرائع بأنها لا تليق بالله عز وجل، يعني واحد من الملحدين يحدث عن عمه الملحد أو عن عم أبيه، قال: كنت أذهب إليه في رمضان وأنا صغير وهو وزير من الوزراء الملحدين، طبيب، فيقول للخادمة: أحضري له شراب، فكان يقول لعمه: أنا صايم، يقول له عمه: يا «فسفوس» هو الله محتاج لصيامك أنت يا «فسفوس»؟ فانظر يعني هو عنده الله أجّل من أن يُتقرب إليه بالامتناع عن الطعام والشراب، والمقصود بهذا اسقاط التكليف.

فهذه الدعاوى التي يقولها من يقولها هل تنتهي إلى هنا؟ لا تنتهي؛ لأن هذه العبادات يصرفونها لغير الله عز وجل، على معنى التعظيم لهم، أي هم يجّلون الله عز وجل عن هذه العبادة ثم يذهبوا إلى معبوداتهم الباطلة فيصرفون لها هذه العبادات تعظيمًا لها.

المقصود: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، هذا مبعثها الله أجّل من يقول هذا، لا تجعل ربنا عز وجل بميزانك أنت، استمع وافهمها ولا تضرب لله الأمثال بإسقاط ما قاله جل في علاه من الحق، فـ ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، هذا معناها، المعنى أنه لم نفهمها ما المراد؟ ولذلك قال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣)﴾ [العنكبوت: ٤٣]، ماذا يريد بهذا؟

فهذه وجه وهناك وجه كثيرة لرد المثل ولرد الحكم وهذا فقد هو من مثال من أمثلة مما ذكرنا من قضية تعظيم الله عز وجل على وجهٍ هم يتصورونه ويتخيلونه من أجل إسقاط الكلام ويقولون: لا يقول الله هذا ولا يليق به هذا ... وإلخ، كأن يقول: الله عز وجل أرحم، هذه من نظريات الفلاسفة، فأني لأني لم أصلي له بعد ذلك نارًا خالدًا فيها أبدًا!! الله أرحم من أن يفعل بي هذا، ألم يستخدموا هذا؟؟ فلا يتعاملون مع صفاته وأسمائه على الوجه اللائق به، لأنه سبحانه وتعالى رحيم وكذلك شديد العقاب، وعليك أن تطيعه فالله عز وجل رحيم على من يسعى، قال تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾ [الأعراف: ١٥٦].

فهؤلاء الذين يضربون لله الأمثال على هذه المعاني ليبطلوا بها شرعه يصح فيهم هذا، ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾.

كذلك من الأمثلة مما يقولون –أنا أريد أن أقول بأن ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، هذا لا ينتهي، لا تنتهي به الأمثال ولا تنتهي به الصور في الوجود، وتؤدي بهم إلى النهايات تؤدي بهم إلى الغايات المخالفة، النهايات الباطلة، وعامة كفر الناس في هذا الباب، باب القدر، كأن يقول: أين عدل الله عز وجل في هذه الدنيا بأن يسلط هؤلاء المجرمين على هؤلاء الضعفاء، أين عدل الله؟ فيؤدي إلى نفي عدل الله عز وجل ومبعث هذا هو الكفر باليوم الآخر، فقولهم: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، هذا لا تنتهي صوره في الوجود.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦]، وطبعًا هذا سؤال على جهة الاستنكار.

الله عز وجل رد عليهم بقوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ أي بهذا المثل ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾، لو قال قائل: لماذا لم يجعله على معنى أن يهدي به الناس جميعًا ولا يضل به أحد، هنا تنتهي الحكمة من الوجود، وينتهي الاختيار، بعد ذلك يصبح المعنى على معنى سَوق الناس إجبارًا أن يمشوا وراءه، ولا يمكن

أن يكون المثل الذي يضربه الله عز وجل من أحكامه ومن أمثلة القرآن ومن شرائعه ومن أخباره إذا جرت على البشر على معنى واحد منذ خلق آدم إلى يوم القيامة لا يمكن أن تجري إلا على معنى السوق لهم، الإجبار لهم، وأما لو ترك لهم الاختيار فالناس كلٌ بحسبه، منهم من يقبل ومنهم من لا يقبل، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾. والضلال ضد الهدى تكلمنا عنها في قوله تعالى: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الفاتحة: ٧]، وقلنا إن كلمة الضلال أغلب ما تكون على ترك الحق بعد معرفته، معرفة الحق ثم مخالفته، وهذا يحتج كما احتجنا به في سورة «النور».

المقصود: فقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾، المقصود به أن الناس يختارون هذا وهذا، وبلا شك علينا أن ننبه على قضية الإضلال؛ أن هناك مراتب للكفار في فعل الله عز وجل بهم:

المرتبة الأولى: أولاً: لا يهديهم الله، يمتنع عنهم الهدى، لا يسمعهم، يصرف عنهم ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، لا يستمعون القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤)﴾ [الأنعام: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥)﴾ [الشعراء: ٥]، وقال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢)﴾ [الأنبياء: ٢]، هذه مرتبة.

المرتبة الثانية: أن يسمع ويفهم، ولكن يمتنع عنه الهدى، الله عز وجل يمنع عنه الهدى حتى بعد أن يفقهها قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، علموها، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢)﴾ [الإسراء: ١٠١-١٠٢].

المرتبة الثالثة: أن يمدهم في طغيانهم يعمهون، قال تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾ [البقرة: ١٥].

فالمرتبة الأولى: ألا يسمعهم سماع الهداية والمرتبة الثانية: أن يمنع عنهم الهداية والمرتبة الثالثة: أن يمدهم في طغيانهم يعمهون، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، يزين ويمد، ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وهذه مراتب نسأل الله عز وجل العفو والعافية، يعني المرتبة الثالثة لا يرجى منه الشفاء ولا يرجى منه البُرء، بينما الأولى والثانية يرجى منه إذا غير وبدل، لكن نحن نعلم أن هذه المعاني لا تجري إلا على معنى عدل الله عز وجل وليس على معنى أن يسوقهم إلى الضلالة سوقًا لا اختيار لهم فيه، لا هذا لا وجود له ذلك لأنه عدل، ولذلك في بعض كتب المتكلمين استدلال بهذه الآية أو يتكلمون عن هذه الآية ردًا على المجبرة والمقصد بالمجبرة أهل السنة، المتكلمون عندهم هذه وربما نمر عليها في بعض ما هو أصرح من هذا الباب.

قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]، أي يمنع عنهم الحق ذلك لوجود ما في نفوسهم من الإعراض.

قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]، الضلال ضد الهدى ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ وهنا يهدي به أي يدلهم على مراد الله عز ل فيه، هنا نرى كثيرًا وكثيرة، وكثيرا تقابل قليلا، عادةً نقول: كثير وقليل، إذا أردنا أن نقول أكثرية وأقلية نقول: جمهور وانفرد، جمهور ناس وانفرد بعضهم ونقول: هذا كثير، وهذا في الحقيقة عند المقابلة وأما عندما لا تكون المقابلة فإنما ينظر إلى الشيء ذاته دون مقابلة، فقوله تعالى: ﴿كَثِيرَة﴾ بالنظر إلى نفسه، وقوله تعالى: ﴿كَثِيرًا﴾ هنا بالنظر إلى نفسه، هل هدى الله المؤمنين فكانوا كثيرين؟ هل المؤمنون كثيرون أم لا؟ كثيرون، هل الكفار كثيرون؟ كثيرون، وليس هذا يقابل هذا، وإنما النظر إلى ذاته، فهذا كثير وهذا كثير.

فلو أن رجلاً ورّث لابنين من أبناءه فقط الملايين، فأخذ هذا عشرين مليون وهذا عشرين مليون، هل تقول هذا قليل وهذا كثير؟ تقول: هذا كثير وهذا كثير، أو البنت تأخذ نصفه فهذا يرث العشرين مليون وابنته أخذت عشرة مليون، هل تقول: عشرة مليون قليل؟! هل يليق بك أن تقول عنه قليل؟ لا، إنما هو كثير، فذلك بالنظر إلى ذاته، وهذا بابٌ من العلم مهم، لا ينبغي أن ننظر دائمًا إلى المقابلة، بل ننظر إلى ذات الشيء، وهذا إن شاء الله نفصله عندما نتكلم عن الفوق وتحت، وهكذا في قضية أسماء الله وصفاته وإثبات الفوقية لربنا عز وجل فهذه مهمة احفظوها لأننا سنبني عليها فيما يأتي من الكلام.

وهنا الله عز وجل نسب الإضلال إليه قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾، لأن في ذلك إجلالٌ لحق الله عز وجل، إي عندما قال تعالى عن هؤلاء الكافرون ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦]، ما الذي يأتي على ذهن السامع ربما؟ لما قال الله عز وجل: ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢)﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وهذه قلت مثالها في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢)﴾ [الطلاق: ٢]، دائمًا هنا لابد من الالتفات إلى المعاني التي تنشأ من الحق وربما تنشأ معاني تحتاج إلى تقليم فيأتي القرآن لبيانها كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، قال بعدها: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ [الشورى: ١١]، لابد، هذا ترميم المفاهيم التي ينشئها المعنى وهذا أسلوبٌ قرآني عظيم.

ولما قال الله عز وجل: ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، هي لا تدل ولكن قد ينشأ أنه اجعلن كلامكن شديد وازجرن السامع، هذا المعنى قد ينشأ مع بعده، لكن قال بعدها من أجل أن يمنع هذا المعنى ويرمم هذا المعنى، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢)﴾ [الأحزاب: ٣٢]، أي لا يدفعكم هذا الأمر لمثل هذا السلوك ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾، الكلام ليس على المعنى الكلام على ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ﴾ فالكلام على طريقة الكلام وليس الكلام على المعنى، فالمعنى ينبغي أن يبقى في هذه الحالة وفي هذه الحالة ينبغي أن يكون جيدًا ومعروفًا، وهذا المعنى منتشر في القرآن.

فلماذا قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾؟ كأن القائل لم اتهم ربنا، في قوله تعالى: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦]، أراد به التنقيص، فنحن قلنا من معاني ما قاله في هذا المعنى أنه قال: أنا لا أفهم ما يريد؟ هذا بعيد، ما هذا المعنى!! غير بين!! فالله عز وجل قال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾، هو الذي أضلك هو الذي لم يرك ولم منك مكانةً ولا مرتبةً ولا فضلاً لإدراك ما يقول فأضلك في ذلك رد على التنقيص الذي يفيده قول هذا الكافر ماذا أراد الله بهذا مثلاًن وقال الله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾، أنت لا تستحقه، كأن يقول لماذا فعلت كذا؟ لماذا أعطيت وأعطيت؟ قال: لم تستحق أنت، فهذا إعادةٌ لما ينشأ في نفس السامع من كلام هذا الكافر.

قال تعالى: ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]، وهنا ﴿وَيَهْدِي بِهِ﴾ لم يأتي لتفصيلها وإنما أتى لتفصيل من أضله الله ذلك لأن الإيمان تقدم فقال تعالى: ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦]، هنا فصل يعلمونها وذلك بما قدرنا أن نفصل فيه، بما قدرنا فصل، علموا ودرسوا ... إلخ، المراتب المتعددة، سمعوه سمع الاعتناء، أجروه في نفوسهم مجرى العلم، قارنوه بما في حقائق الحياة بعد ذلك نزل على قلوبهم منزلة الرضا، بعد أن فهموه، لا يكفي انهم فهموه ورأوا جماله لابد أنهم التزموا بها لأن نفوسهم تتلاءم مع الحق، كل هذه المراتب نشأت في المؤمنين.

ولكن الذين لم يصبوا الحق وهنا نأتي إلى القضية قال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾ [البقرة: ٢٦]، وهنا نفتح بابًا مهمًا من الحديث وهو أن حجب العلم إنما يقع بالمعصية، هذه قضية مهمة جدًا، حجب العلم قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾ [البقرة: ٢٦]، هذه آية ينبغي أن تصبح لديك معيارًا في تقييمك لنفسك ذلك لأن الضلال، والضلال قد يطلق على العلم والعمل لكن هنا مع اقترانه بالفسق لا يفيد إلا العلم، لاقترانه بالفسق لأن الفسق أمرٌ عملي، فلا يكون الضلال إلا أمرٌ علمي، فقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾، هذه عليك أن تعلم أنك لا تضل في بابٍ من أبواب العلم فيغلب عليك الهوى فيه ويغلب عليك الجهل فيه وتغلب عليك المعاني الباطلة التي لا يحبها الله، لا تنشأ إلا بسبب المعاصي التي تمارسها، هذا أثر المعاصي على القلوب، أثر المعاصي على هداية العقل، أثر المعاصي على توجه القلب إلى المعاني الصحيحة.

ومن قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، اقتران الظن أي الجهل المخالف للحق بما تهوى الأنفس، هذا لا يتلاءم، هذا الدين وهذا الحق لا يدخل القلب إلا بوعاءٍ من إرادةٍ في القلب تقوم على الصلاح والصواب وموافقة الحق، لا يجوز أن تكون الإرادة متوجهة للمعاصي والمعاني متوجهة للحق، هذا وعاء القلب الذي تنشأ فيه المعاني فتنشأ عن هذه المعاني الإرادات إنما تتلاءم مع نوعٍ واحدٍ من الحق أو من القلب، تتلاءم مع نوع واحد من القلوب، ولذلك قال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ﴾ إي علمًا ﴿إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾ عملاً.

ولذلك عليك أن تخاف كلما نشأت شبهةٌ في قلبك فقبل أن تميتها ببحث الحق فيها عليك أن تميتها بتنوير القلب بالطاعات، عليك تكثر الاستغفار تقوم الليل تقرأ القرآن تكثر السجود تتصدق تحسن الظن بالمسلمين، تديم

النظر إلى الطاعات وتقلل النظر إلى المعاصي وهكذا، فإذا تجلى في قلبك نور العمل دخل فيه نور العلم، وهل يمكن أن يكون الأمر معكوسًا؟ أن يدخل على قلبك نور العلم فيُنشئ لديك نور العمل؟ الصواب نعم يمكن، هذا وهذا، ليس هذا سبب لهذا مطلق وكلاهما شيءٌ واحد يلتقيان، لا يمكن أن يكون هذا إلا معه هذا، فإذا غاب أحدهما غاب الآخر.

وبهذا نختم لكم، يكفي اليوم وجزاكم الله خيرًا، وبها نختم هذه الآية ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾ [البقرة: ٢٦]، فالله يضع الإضلال في قلب العبد لمن يستحق وهو الفاسق، والفسق أيها الإخوة الأحبة، هو الخروج عن الطاعة، قال: فسقت أي خرجت، ولذلك تسمى الفأرة بالفويسقة لأنها تؤذي ولأنها تخرج عن حدود المنفعة للإنسان، ثم جاء قول ربنا في تفسير -انظر هناك الكلام عن علم ثم جاء الكلام عن العمل- قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة: ٢٧] وسنأتي إليه إن شاء الله عز وجل.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الرابع والثلاثون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أيها الإخوة الأحبة أهلاً وسهلاً بكم في هذا الدرس الرابع والثلاثون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧].

قلنا فقط للصلة: بأن قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾، هذه هي التي ينبغي أن يلتفت لها كل مؤمن وينبغي أن يراعيها كل من يريد الهداية، فإن الضلال أمرٌ علمي والفسق أمرٌ إرادي هذا إذا اجتمعا، فدل هذا على أن الإرادة القلبية في توجهها إلى الباطل تؤدي إلى عِماية المرء عن رؤيته للحق وأن كثرة المعاصي تؤدي إلى فساد التصور، التصور هو مرآة القلب، فهذه المرآة تنكسر، تقذر، تتوسخ وتطمس بكثرة المعاصي، فإذا كثرت المعاصي ارتدت على هذه المرأة بإزالة مقصدها ومنفعتها، فحينئذٍ يضل المرء لا يرى الأشياء على حقيقتها، ومن ذلك العلم لا يرى الذي يخاطب به على وجهه الصحيح، والمثل لما كان عظيماً فإن إدراكه يحتاج إلى العلماء، ويحتاج إلى الفقه ويحتاج إلى البصيرة.

وبالتالي إذا عصى المرء ربه جل في علاه فإن هذه المعصية ترتد على القلب أثرًا، هذا أمرٌ مهم في حياتك، إذا علمت أنك حُجبت عن معرفة شيء فأعرف أنه بمعصيةٍ أصبتها، إذا حُجبت عن معرفة حقٍ أو الخروج من خلاف فعليك أن تكثر من تجلية هذه المرآة، ولذلك كان السلف إذا حال بينهم وبين أمر علمي ما، أكثروا من الاستغفار وعلموا أن الحجب الذي حصل إنما تم بمعصية ولعدم جلائها، فبالتالي يقومون إلى تجليتها تنظيف هذه المرآة، وأعظم ما يُنظف هذه المرأة هو الاستغفار.

ولذلك قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وهذا من عظمة القرآن، لو أنك قرأتها بارتباطها في السورة يكون لها معنى، لأن هذه هي خاتمة سورة «العنكبوت»، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا

فِينَا﴾، وبداية سورة «العنكبوت»: ﴿الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت: ١-٢]، فذلك وهنا ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾، مقيدة، فدل على أن كل بذل جهد يصح أن يكون في الله، ومن ذلك الصبر على البلاء،

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا﴾ [العنكبوت: ٢]، ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ فتحصيل الإيمان أول شيء يقولوا، فيرتقي هذا الإيمان بسبب مجاهدتهم، وأعظم العلم هو الإيمان، ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الروم: ٥٦]، الإيمان هو العلم، وتقرأ هذه الآية قراءة أخرى، نبهت عليها في بعض المواطن، تقرأ قراءة ملتحقة بما قبلها، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٦٨)﴾ [العنكبوت: ٦٨]، ما هي ارتباطها ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، لأنه قد يطرأ في ذهن السامع أنه يمكن للمرء أن يكفر لعدم وصوله إلى الحق، أي يمكن للمرء أن يبلغ قال الله أنه بعث رسوله أن هذا هو رسول الله، فيقول: أنا بذلت جهدي ووسعي كما يطرح اليوم بعضهم هذا السؤال على نفسه فيجيب إجابة باطلة، وكما يطرح على البعض من أجل أن يتلاعب به، فقال: ما هو شأن الكافر الذي بذل وسعه في إصابة الحق فلم يعرفه؟

يعني رجل جاء من أجل أن يقرأ الكتاب والسنة وهو يريد أن يعرف هل رسول الله صلى الله عليه وسلم حق أم باطل هل دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة هي دعوة صحيحة أم باطلة، فيقول: أنا بذلت وسعي وتبين لي التوقف لم أصل إلى نتيجة، هذا المقصر منقوضٌ عذره بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

دل هذا على أن مسألة التوحيد، وأن أصل التوحيد وهو وجوب عبادة الله وحده، وأن هذا هو رسول الله المبلغ عن الله عز وجل طريقة العبادة وما يحبه الله وما يبغضه، هذا أمرٌ يدركه المرء بمجرد بذل الجهد، لكن هناك مسائل تحتاج كلما دقت وغمُضت كلما احتاج المرء فيها إلى بذل جهدٍ أعلى، فهذه الآية ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، هي رادةٌ على من زعم أنه لم يصل الحق حتى بعد بذله الجهد، والقرآن يقول: هذا لا وجود له، القرآن يقرر أن هذا الصنف من البشر ليس معذوراً لأنه في الحقيقة ليس ممن بذل جهده في معرفة الحق.

قد يقول قائل: هذا في كل مسألة؟ الجواب: نعم، ولكن المسائل ليست على درجةٍ واحدةٍ من الأعذار فمثلاً قوله صلى الله عليه وسلم: (ما من يهودي ولا نصراني يسمع بي ثم لا يتبعني إلا كان من أهل النار)، فعلق الحجة بالسماع، قال: بمجرد أن تسمع ذلك لأن هذا من الحق وأن وضوحه والحق بمكان كعين الشمس مجرد أن تفتح ولو يكون فيك بصر ولو ضعيف ترى أن الدنيا نهارًا إلا أن تكون أعمى، أن يكون أعمى أي عقل له، أن يكون مجنونًا قد رفع عنه القلم غير مكلف، فهؤلاء لا وجود لهم، لا وجود في علم الله لأحدٍ سمع بالله وتوحيده وبالرسول ورسالته

وبعثته ثم لم يؤمن بسبب عجزه عن معرفة الحق لا وجود لهؤلاء، هذه لعب وتلعُب هذا، فلا وجود لهؤلاء، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، وهذا حق بينٌ واضحٌ وأجلى من عين الشمس.

هناك من الحق ما هو خفي، بعض من مسائل العلم فهذه الناس بحسبهم، هناك من يبذل جهده في استنباطه فيصل إليه، وهناك من يقصر وهناك من يقصر ويضطرب وهناك من يبحث في طريقٍ غير الطريق السوي، وهكذا هناك مسائل، يعني الآن المسائل بين الفقهاء، في مسائل الفقه، هل نطبق عليه هذه القاعدة؟ نطبق عليها القاعدة ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، فلماذا تعذرونه؟ ذلك لأن الناس ليسوا على مرتبةٍ واحدةٍ في القدرة، تحتاج إلى بصر شديد تحتاج إلى جهد شديد، أكثر من غيره، فهذا يقصر به السبيل فلا يصل، وهذا يواصل بقدرته وعلمه فيصل، لكنها ليست كالمسألة الأولى وهي التوحيد وهي أصل الدين.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، يناقضها أن كل معصية يصيبها المرء ترتد على علمه، ومن هنا فإن العالم يتوقى المعاصي، لماذا؟ لأنه إن لم يتوقى المعاصي ضل بعلمه، المعاصي تضله وتفسد عليه تصوره، تفسد عليه علمه المعاصي انتبهوا ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾ [البقرة: ٢٦]، لا تحسدوا الضلالة، الضلالة التي هي العظمى إلا بالفسق والخطأ يكون بسبب المعاصي أو بسبب التقصير، هذه قضية ينبغي علينا أن ننتبه لها وأن نراعي شأنها لأنها مهمة، أعلم أنك لا تصيب معصية، إلا وترتد على علمك، ستؤثر في علمك، فعليك أن تجليها بماذا؟ بالاستغفار، وأعظم ذلك الاستغفار أن تتوب إن الحسنات يذهبن السيئات يذهبنها ويعدنا تجلية المرآة على نقائها وصفائها فترى الأمور على حقيقتها من غير تضخيمٍ ومن غير تصغير أو من غير تشويش.

فمن هؤلاء وما هو أعظم نوع الفسق الذي يرتكبه الناس ويؤدي بهم إلى الضلال، قال سبحانه: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧]، أجل ما يفسر به القرآن هو القرآن، القرآن يفسر لنا من هؤلاء الذين يحجبون عن العلم بسبب معاصيهم وبسبب فسقهم، قال: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧]، النقض إخواني يأتي بمعنى الإزالة، وذلك حتى يقال: قض مضاجعي أي أبعدني عنها، عن النوم، أزالني عنها، ويقال: انقض، كما يقال انقض النجم أي زال عن مكانه، الذين ينقضون، النقض هو إزاله ما أُبرم إلى ما كان عليه قبل الإبرام، هناك إبرام والإبرام هو الربط، وهناك نقض له، فالنقض هو إزالة الإبرام ما كان مبرمًا فيزيله.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾، فانظر ماذا قابله ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾، فدل على أن النقض يناقض الإيثاق، ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾، ما هو الميثاق هو من الإيثاق وهو أوثق الشيء ربطه، أوثق ميثاقه كهذا من الإيثاق كما يقال: أوثقه أي ربطه، شد بعضه على بعض وهذا يدل على أن العهد أمرٌ عظيم وفيه شدة، انظر إلى لفظ ميثاق وأخذها من أصلها وهو إيثاق الشيء أي ربطه بشدة ليدل على وجود الارتباط بين شيئين، ذلك لأن الميثاق ربطٌ

بين شيئين، فأنت مربوطٌ به، فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ﴾ هؤلاء الفاسقون، ﴿الَّذِينَ﴾ مصدر منصوب على البدلية، من هم الفاسقون؟ ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ﴾، هذا تفسير لها.

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾، والعهد هو الشيء القديم والشيء القديم أي الأصل، يعني الأصل هو وجود العهد، ولذلك اختلف العلماء ما المقصود بهذا العهد هنا؟ فنظروا إما إلى أقدم عهدٍ في الوجود، وهو الميثاق الذي أخذه الله عز وجل على ابن آدم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وهو كل عقد ولكن جاء التنوع في تفسيره بالمثال، كما قلنا دائماً أن الأمثلة تتنوع بحسب ما يطرأ على العالم.

مثلاً: بعضهم قال: هو الميثاق الذي أخذه الله على الأنبياء عليهم السلام، بأنه لو جاء الرسول صلى الله عليه وسلم لصدقوه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾ [آل عمران: ٨١]، قال: هو أخذ الله الميثاق على كل أهل الكتاب بأنه لو جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتبعوه؛ لأنه ما من نبيٍ جاء إلا وقد أخذ الميثاق هذا الميثاق على أمته أن يتبعوا الرسول.

وقال بعضهم: إنما الميثاق الذي أخذه الله عز وجل على الناس بأن يتبعوا الرُسل بأنهم إذا جاءهم الحق أن يتبعوه وذلك لما فطروا عليه، وقال بعضهم: هو كل ميثاق، وبلا شك أنه كل ميثاق، ولكن ما هو أعظم ميثاق؟ هو أول ميثاق وهو أن توحد الله عز وجل إذا جاءك الحق أن توحده وأن تتبعه ولذلك كلمة العهد تأتي بمعنى ما هو على قدم الشيء، الشيء القديم، وكأن الشيء قد كان قديماً، فالإبرام هو الأصل.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة: ٢٧]، والعهد هو الميثاق، لا يكون عهدًا إلا بميثاق، أي أنت تعاهدت مع فلان أي تواثقت أنت وإياه، ولكن لماذا قال: ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾؟ ليدل على التعظيم لهم، ويدل على تصوره تصوراً تاماً لتقبيح إتيان ضده، فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾.

والضمير هنا ميثاقه يصح أن تعود على الله عز وجل، يجوز أن تقول: بعد ميثاق الله، لأن الناس إذا تعاهدوا تواثقوا بالله، ويصح أن تكون على العهد، أي من بعد ميثاق العهد، فيصح هذا الضمير عودته على هذا وعلى هذا، هنا انتبهوا هذه طريقة القرآن وهي طريقة معلومة لدى كل طالب علم يقرأ القرآن، إما أن يأتي المنهي عنه بصيغة الترك بأمر الترك، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾ [النحل: ٩١]، في أمر هنا نهى عن الترك فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١]، فأمر بها وهنا جاءت على طريقة التقبيح بذكر حكمه.

الأولى جاءت بطريقة الأمر والنهي، وهنا جاءت على طريقة التقبيح له بذكر حكمه، من هو الفاسق؟ الناس لا يحبون كلمة الفاسق، كلمة قبيحة، لأنها تدل على تجاوز الحد، تجاوز ما يعرفه الإنسان من إنسانيته، والإنسان من أصل خلقته، والإنسان مع عهوده فيما فطر عليه من إقامة الحق والتواصي بالميثاق.

وكذلك تأتي الصيغ القرآنية بمدح الفاعل، الذي يأتي بضده كقوله عز وجل في سورة «الرعد»: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [الرعد: ١٩-٢١]، فإما أن يأتي الأمر بما قلناه على هذه الآية وهو تقبيح تاركه، وإما أن يأتي بالأمر به وإما بأن يأتي بحكم تاركه، هناك مدحه الله، مدحه قال: ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، أي الذين يوفون بعهد الله إذا عاهدوا.

وهنا جاء البيان بحكم والتنفير بمن تركه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧]، طبعًا المؤمن تعلمون مأمور بأن يوفي بالعقود، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وكل عقد بين الناس هو تعاهد على أداء ما التزمه المرء لدى الآخر، كالبيع البائع يلتزم بأنه تعهد بأن يؤدي البضاعة للمشتري، والمشتري تعهد بأن يؤدي الثمن للبائع وهكذا، فكل عقدٍ فيه هذا المعنى.

ثم قال سبحانه وتعالى عن هؤلاء: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧] وقد جاء ضدها في سورة «الرعد» في قوله تعالى: ﴿يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢١]، هنا يقطعون وواضح ما معنى القطع، ومنه تأخذ القطعة، لماذا يقال القطعة؟ لأنها تقطع وتبين وتحد فمعنى القطع بين، قال: ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾، وأعظم ما أمر الله عز وجل به أن يوصل هو التوحيد، أن تصل بينك وبين ربك ألا تنقطع عن الله، ومن أعظم ما يصله المرء هو الرحم، لأن الله عز وجل لما خلق الرحم تعلقت بقوائم العرش وقالت: (هذا مقام العائذ بك من القطيعة)، فقال لها الله عز وجل بعد أن ذكر أنه اشتق لها اسمًا من اسمه الرحم وهو الرحمن، قال: (أما تقبلين أن أصل من يصلك، وأن أقطع من يقطعك)، فهذا هو أعظم ما ينبغي أن يوصل هو الرحم ذلك لضعفها.

لماذا يقال: توصل الرحم؟ لأن القطيعة ترك، ولا يكون الترك عظيمًا في الإثم إلا لما يؤدي من المفسدة للمتروك، يعني لو أن رجلاً ترك رجلاً معه المال ومعه الماء ومعه الطعام فهذا وأن كان تركه له معيباً لكن لا يكون عظيماً، لكن لو أن رجلاً ترك ضعيفاً في الصحراء فيكون الترك عظيماً، فالقطع لما يوصل يكون عظيماً في الإثم لِمَ يترتب على المتروك من أذاه، فلما كانت الرحم ضعيفة وكانت محتاجة فإن قطعها يؤدي إلى إيذائها، ولأن وصلها يكون إلى إزالة هذا الضعف، ولذلك أمر الله وقال: (إما ترضين أن أصل من يصلك وأن أقطع من يقطعك)، فهذا دل على أن صلة الرحم أمرٌ عظيم وذلك لحاجتها إليك، فهذا مما ينبغي أن ينتبه له. قال تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧].

هنا ينبغي أن ننتبه إلى قضية وهو قوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾، فدل هذا على أن الإنسان في هذا الباب في الصلة إنما يفعله على جهة التعبد، وليس على جهة فقط الفطرة، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ﴾، فدل على أن الصلة هي مما أمر الله عز وجل بها، وأن قوة أهميتها تنبع أنها صادرة من الله عز وجل.

وهنا نأتي إلى قضية مهمة جداً معيارية القيم، هذه مسألة مهمة جداً وهي التي يدور حولها الحديث في موضوع التشريعات والقوانين، بما تكتسب التشريعات والقوانين القوة، ليس فقط في كونها الحق، لأن هذه ثبتت في التاريخ أنها ضعيفة، بما تكتسب المواثيق والعهود والتشريعات القوة؟ لو كانت تكتسب من خلالها فقط بأنها الحق لكانت ضعيفة، لأن الناس سرعان في التاريخ ما نقضوها، ولم يهتموا لها ولم يقيموا لها شأناً، ويتفلتون منها، لكن ما الذي يعطي هذه التشريعات القوة؟ معيارية القيمة تنبع من أنها صادرة من الله الحق، وهذه القيمة من كون أن هذه التشريعات من الله سبحانه وتعالى فلذلك أن يخاطب الإنسان بأن الله هو الذي قال هذا، هذا مما يعطي هذه التشريعات القوة في نفس السامع.

فلا يوجد شيء اسمه ضمير إنساني، دعكم منه هذا، هذا ضعيف ولذلك في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (فأبواه يهودانه)، الفطرة موجودة، ولكن هل هي ضعيفة أم قوية؟ ضعيفة لا تقاوم، الفطرة ليس لها قوة الدفع، ليس لها قوة المقاومة، مع أنها مخلوقة وهكذا الإنسان مركب لكنها ضعيفة، وبقليل من الرياح سرعان ما تزول، وبقليل من الهوى تضعف، ولكن إذا قيل إن الله عز وجل قالها فإنها تتكسب القوة، وتكتسب المتانة ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ﴾، أولاً: لبيان هذا المعيار، الشيء الثاني: للتقبيح.

لماذا قال تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ﴾، ذلك لأن الفساد إنما وقع وعظمته من أجل التقبيح وقع لأن في ذلك نقضٌ لما أمر الله من أجل التقبيح ذكر ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾.

قال سبحانه وتعالى بعد ذلك ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧]، وسنأتي إلى علاقتها بما تقدم من أهمية ذكر العبادة ثم ذكر شؤونها، قال: ﴿وَيُفْسِدُونَ﴾، والفساد هو ضد الصلاح، ويفسدون في الأرض وهذا إطلاق، والفساد كذلك معياره إنما هو الشرع وليس النفس وليس الذات وليس اختيارات الناس، الناس يعدون الربا من الصلاح ويقولون: هذا اقتصاد جيد، وربما يعدون العهر والمتاجرة بالإبضاع يعدونه تجارة وتفريج عن النفس كما يفعل الآن الفاسدون، يمتعون الناس بالفساد بعرض العورات ويعدون هذا من الجمال والذكاء، يعدونه جمالاً ويعدونه من الفنون، فلذلك الفساد معياره هو ما قال الله وقال الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، انظر هنا أول الكلام قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾، وقال بعدها: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾، ثم وصل الأمر بهم على

أنهم عم الفساد منهم، كان الفساد منهم عاماً فأطلقها سبحانه وتعالى على كل معصيةٍ يصيبها الإنسان من جهة نفسه لأنها فساد في الأرض.

وحتى قيل بأن كل مفسدة يأتيها المرء إنما تؤثر على الأرض كلها، واحتجوا بقول تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، والفساد هو نقض نظام الكون، فالكون جرى على الصلاح أقامه الله على الصلاح، ويقع الفساد فيه أي نقض نظام هذا الكون يقع بما يرتكبه الإنسان من معاصي، ولذلك في الحديث: (فظهر فيهم من الأمراض ما لم تكن في الأمم التي سلفت)، بماذا أصابتهم هذه؟ (بما أحدثوا من فساد أعمال).

وهذا الربط بين المعصية وبين فساد الكون قد يدرك من جهة العقل، وقد لا يدرك إلا من جهة النقل، كيف هذا؟ يعني أنت تعلم أنك لو منعت الزكاة ستؤدي إلى الفساد، لأن الزكاة باب من أبواب إزالة الإحن بين الغني والفقير، يعني الفقير لو لم يعطى من المال لصار في قلبه الحقد والحسد على الغني، وهذا الحقد والحسد لا بد أن يُجمع، أن يجتمع شأنه مرةً فوق مرة ومرةً فوق مرة حتى يصل إلى درجة الانفجار بأن يقوم هناك الصراع في المجتمع فهذا شأنٌ معقول تدركه.

فالربا الآن نحن ندرك نتائج الربا، الربا نراه كيف يكون دولةً بين الأغنياء، وكيف أن الربا يؤدي إلى نظام الاقطاع، وإلى تجمع الثروة في أيدي أناس وتكون هذه الثروة بين أيدي ناس وأناس آخرين ليس لهم شيء وحتى الفتات لا يكون لهم، فهذا يؤدي إلى فساد الكون هذا ندركه. لكن كيف ندرك مثلاً أن الزنا يؤدي إلى منع قطر السماء؟ انتشار الزنا يؤدي إلى منع قطر السماء إلى منع المطر كيف هذا؟ هذا ربما ندركه وربما لا ندركه إلا بالنقل إلا بالنص، أن النص جاء به، ومن هنا «العلاقة السببية إما أن تدرك بالخبرة وإما أن تدرك من خلال النقل»، هناك أمور غيبية لا نعرفها.

مثلاً: قوله صلى الله عليه وسلم: (مَن سَرَّهُ أنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ، أوْ يُنْسَأَ له في أثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ)، ما هي العلاقة بين أن تصل الرحم وهذا مما أمر الله عز وجل به أن يوصل وبين أن يزاد رزقك؟ ما هي العلاقة؟ لو جئت إلى خبير اقتصادي أو خبير اجتماعي لا يستطيع أن يفسرها، ومن ذلك الدعاء، أنت تعلم أنت الآن تفسرها تفسيراً إلهيًا بأن تقول مثلاً: بأنك إذا وصلت رحمك فرحمك تدعو لك ودعاء الضعيف لله مستجاب لأن قلبه مكسور، فربما تقول: هذا هو الباب، لكن قضية الدعاء ما الذي علمك أن الدعاء وسيلة من وسائل الرزق ووسيلة من وسائل العطاء، ليس إلا النقل، الناس لا يعرفونها في حياتهم لا يعرفونها في أساليب حياتهم، وهذا قانون السببية، فقانون السببية لا يُعرف فقط من خلال الخبرة لابد من معرفة النصوص، لأن النصوص تكشف العلاقة الغيبية، كقوله صلى الله عليه وسلم لأسماء رضي الله عنها: (لا توكي فيوك الله عليك).

فما علاقة الإنفاق بالعطاء؟ الناس يعدون الإنفاق مفسدة النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (ما نقص مالٌ من صدقة) ليس مفسدة لا ينقص بل يزيد، فهذا قانونٌ إلهي، الأسباب هذه جاء الشارع ليعلمنا إياها ويبصرنا إياها والناس يروبها بعد ذلك، تصبح هذه بالخبرة يعني أولاً تكون بالنص ثم تكون بالخبرة الناس يرون كيف أن المنفق الله يعطيه، وأن البخيل الشحيح ينقطع عنه العطاء وهكذا.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧]، والفساد كما قلنا هو ضد الصلاح وهو أن يأتي المرء بكل عملٍ يفسد الوجود والفساد هو كل معصية.

قوله تعالى: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)﴾ [البقرة: ٢٧]، تقدم أنهم ضالون وأنهم فاسقون والآن هي الخاتمة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣)﴾، وهذه الخسارة يقينية في الآخرة وفي الدنيا كذلك، أما فهي يقينيةٌ في الآخرة أنهم سيخسرون، ستكون نتيجتهم الخسارة.

تقدم أيها الإخوة الأحبة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)﴾ [البقرة: ٢١]، وهو أول أمرٍ أمر الله به، وهذا من تفصيلات العبادة، هذا تقدم في السورة وهذا تفصيلٌ لهذه العبادة، هذا الذي تقدم من قوله: ﴿يَنْقُضُونَ﴾، هي تفصيلٌ لما يجب على المرء أن يكون عليه من أمر العبادة، وهي تبين في أغلبها العلاقة بين الناس، فالأولى هي العلاقة بين الله لكنها هذه في الأغلب هي العلاقة بين الناس كما يقولون.

وهذا نعود إليه نكر عليه بقولنا انتبه لهذه القضايا حتى تكون عالماً، فإن العلاقة مع الله عز وجل وعدم الفساد والعلاقة مع الناس إنما سبيلها سبيل العلم كما هو بين.

الآن يقول الله عز وجل :﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)﴾ [البقرة: ٢٨]، قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ هذا توبيخ، هو تقريرٌ لهم بأن لا يكفروا وهو توبيخٌ لهم إذا كفروا، هذا توبيخ من الله عز وجل، فهذا استفهام توبيخي تقريعي، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾، وتقدم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، فقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]، ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، وهنا يأتي تفسير عملية الخلق، كيف نشأ الإنسان؟

فهنا سورة «البقرة» تبدأ بتفصيل عملية الخلق وبداية الوجود، وهذه القضية كم تحدث الناس فيها ولا يتحدثون إلا بالظنون، هذه القضية وهي قضية كيف خلق الإنسان؟ هذه قضيةٌ ظنيةٌ بلا نص، وقضيةٌ يتمحل الإنسان معرفتها بلا دليل ويخبط خبط عشواء بلا نص، فجاء القرآن ليبين كيف خُلق الإنسان، فافتتح هذا الأمر بعد أن قال تعالى:

﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، فكيفية جريان هذا الخلق جاء التفصيل به هنا ثم سيأتي هذا التفصيل عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠]، إلى ما سيأتي إن شاء الله من ذكره.

فإذن هنا القرآن في هذه الآية يفتح الباب لبيان تطور خِلقة الإنسان، فقال سبحانه وتعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، هذا تقرير لقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، هذا تفصيله، هنا يأتي هذا التفصيل الذي مر في قوله تعالى.

هنا نأتي إلى معنى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾، وكل هذا تقدم ما معنى الكفر بالله إلى غيره تقدم هذا وسيأتي تفصيله كذلك في قضية التفريق بين الكفر وبين التكذيب، سيأتي إن شاء الله لأن الله عز وجل جمعهما في موطن كما سيأتي.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: ٢٨]، هنا اختلف العلماء ما معنى ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾، متى كنا أموات؟

القول الأول: بأن عدم الوجود هو الموت، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١)﴾ [الإنسان: ١]، فهذا هو الموت وهذا هو أقوى الأقوال مع ما سيأتي، هذا هو أقوى الأقوال أن عدم الوجود يجوز أن يطلق عليه ضده، ولذلك الموت في عرف الناس وفي ذهنهم إنما يكون بعد الحياة، لكن النتيجة واحدة، الموت يكون بعد الحياة وإذن هو زوالٌ بعد حياة، لكن لو كان بلا حياة أي لم يكن هناك ثمة وجود، وكان هناك عدم فهو يلتقي مع الموت في هذا المعنى، ونحن هذا تكلمنا فيه كثيرًا وقلنا: بأنه يجوز إطلاق اللفظ على ما يشترك مع غيره في أي حالٍ من الأحوال، فاشترك عدم الوجود بدون أن يسبقه وجود التقى مع عدم الوجود وقد سبقه وجود، التقيا فيه النتيجة وهو عدم الوجود، فلما اشتركا في هذا المعنى سمي بنفس اسمه، فقال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾.

والأقوال الأخرى إنما تجري على تسمية الموت عند تطور الإنسان، قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾، أي وأنتم في أموات أصلاب أباءكم، قال بعضهم: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ وأنتم أجنة في بطون أمهاتكم وهكذا، والقول الأول هو الأصوب.

وهنا نأتي إلى طريقة القرآن في هذا المعنى مثل قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام عندما قال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٧]، فكأن الظاهر أنه كان معهم فتركهم وهذا غير صحيح، هو لم يكن على دينهم قط، فإذن هذا يعني أن الترك لا يقتضي هذا المعنى، وهو أن يكون ثم يترك، فبمجرد الإعراض عنه وقد عرض عليه حتى ولو كان مقيماً في الأصل على ضده فيسمى ترك، يعني يوسف عليه السلام في أصله مقيم على التوحيد الذي كان عليه أبوه يعقوب عليه السلام هو على هذا التوحيد، وهذا التوحيد قد عرضت عليه عوارض، من ذلك أنه

طلب منه أن يكون على دين أهل مصر من الشرك، فلما أقام على ما كان عليه تاركاً لما عرض عليه، فقال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾.

ومن هنا وهذه قضية مهمة وهو أن المرء بمجرد نسبته إلى الشيء وقد أقام عليه يجوز أن يقال: كان على ضده فتركه، أو أنه مُحتمل أن يكون عليه فتركه، يعني يمكن ليوسف عليه السلام أن يكون مُحتمل أن يكون على هذا فتركه أو عرض عليه فتركه، أو أن يقال: على هذه الآية لم يكن عليه قط فتركه، ولو لم تأتي هذه المعاني لا بالعرض ولا بالاحتمال، وهذا البين في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، لم يعرض عليه حياة لم يكن هناك ثمة حياة ولا احتمال حياة لأنه عدمٌ محض.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)﴾ [البقرة: ٢٨]، فكم مرة هنا ذكر الموت؟ مرتين، وكم مرة ذكرت الحياة؟ مرتين وهذا هو تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، هذا تفسيرها هنا، كما أن الله عز وجل سيذكر الأربعين يومًا عن بني اسرائيل ثم تفصل ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، فجاء التفصيل في سورة «الأعراف» وفي سورة «البقرة» قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، من غير ذكر التفصيل، ومن هنا يأتي تفسير القرآن بالقرآن وأهميته.

فقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]، تقدم أن هذا الحديث عن الفاسقين والذين ينقضون عهد الله يشمل كل كافر، وهنا تعيرٌ لكل من يفكر في هذا الأمر وكل من يستسيغه وكل من يظنه أنه محتمل، القرآن يقول: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: ٢٨]، ونحن تقدم الكلام كثيراً على أن موجب التأليه أنه هو الرب وأنه هو الخالق، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ يقول الله: هو الذي خلقكم فكيف تملكون أنفسكم لغيره؟ وكيف يرضى الله عز وجل أن تعبدون غيره وهو الذي خلقكم؟ خلقكم من أجله، خلقكم من أجل عبادته فكيف يرضى لكم أن تذهبوا لغيره؟ والله هو الذي خلق فكيف تقبل أن تضع نفسك لغيره؟

قال سبحانه وتعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، وهنا نأتي إلى كلمة فقط الوفاة فإن الموت هو ما نعلمه، ويوم القيامة يؤتى بالموت على صورة كبش فيذبح فيموت الموت ينتهي، فإذن الموت هو ليس بالأمر العدمي هو أمر وجودي، والدليل أنه يحضر يوم القيامة هذا الموت العرض، الموت عرض من أعراض الإنسان، يعني إما أن يكون ميتاً وإما أن يكون حياً فعرض هذا يسمى العرض، العرض هو الشيء يتبدل يزول في الإنسان كما يقال: المال ولذلك يقال: على المال عرضٌ زائل لأنه يأتي ويذهب، يعني يملكه ويذهب، لأنه من الذي يعرض لك أي يأتي لك في طريقك فيصيبك ويخطئك.

فالموت إذن أمرٌ وجودي، شيء، فهو عرضٌ يأتي على الإنسان وليس بالأمر العدمي، لا يجوز أن يقال: الموت هو عدم الوجود، الموت هو خلقٌ إلهي، الموت هو شيءٌ خلقه الله عز وجل، إذن هو مخلوقٌ شيءٌ موجود، والدليل أنه يوم القيامة هذا العرض يؤتى به على صورة كبش؛ إذن هو شيء وجودي وليس بالشيء العدمي كما يقولون.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، وهنا لا يكون لهذه المقدمات قيمة إلا بالخاتمة، المقصود لو قال: كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا ثم يميتكم ثم يحييكم ويتوقف، فما هي النتيجة؟ ما هي القيمة؟ هو قال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فإذن قيمة هذه المقدمات بالخاتمة وإلا لم يكن لها قيمة فالله عز وجل قوي، إذن لماذا خلق ولماذا أحيا ثم أمات ثم يحيي؟ قال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، ودل هذا على أن الإنسان له مبتدأ وليس له منتهى، قال: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ ولكنه بعد ذلك أطلق قال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فما العاقبة في الرجوع؟ هو بقاء المسلم المؤمن في الجنة وبقاء الكافر في النار، فلذلك ختم هذا القول، بدأه بقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ لا وجود لكم، ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١)﴾ [الإنسان: ١]، لم يكن هذا الإنسان شيء، حتى أصل خلقته لا وجود لها، أي التراب مخلوق لم يكن له وجود، لكن أين النهاية؟ قال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، هذا هو المستقر وهذا تنبيه وهنا يسأل المرء، حين قال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فإنها تلقي في ذهن المرء الكثير من المعاني ليسأل عنها من أجل أن يشرحها القرآن بعد ذلك.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، ماذا سيكون في هذا الرجوع؟ هنا يأتي هذا الإطلاق من أجل أن تتشوف النفس البشرية إليه فتبحث عنه ويأتي بعد ذلك ذكر ما قاله سبحانه وتعالى في سورة «الفاتحة»، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ٤]، ما هو يوم الدين؟ فتتشوف النفس له، قال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ولو أنكم نظرتم أن الله عز وجل في هذه الآية قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، الموت الأول ليكون حياة هذه لا نعرف إلا أنها كانت فجأة خروج من عدم الوجود إلى الوجود، المرحلة الأولى ما هو شأنها؟ هو خروجٌ من عدم الوجود إلى الوجود، لو سألك السائل: لو إنه كان أول وجود الإنسان هو هذه النطفة التي فيه، متى خلقت؟ إنما خُلقت ببث الروح فيها، فكأنها وجدت على هذا المعنى من الفجأة، ولكن بين هذه الفجأة ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾، الإنسان يرى فيها هذا الطول الزمن بين الحياة وبين الموت ثم بين الموت وبين الإحياء بعد ذلك في القبر بعد أن يخرج إلى الحساب وإلى يوم القيامة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)﴾ [البقرة: ٢٨]، إذن هو الذي بدأ وهو الذي في النهاية يعود إليه كل شيء، فهو الرب سبحانه وتعالى، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]، وهذه كلها كما ترون مقدمات وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾، هو حديثٌ عن الإنسان وأنك مِلكٌ له، ولكن هناك لابد من بيان النعمة، أي هل الله عز وجل خلقك من غير شيء يحيط بك ويعينك على هذه الحياة.

فأنت لما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾، أنت كيف عشت؟ على أي معنى أنت عشت مع هذه الأشياء المخلوقة؟ ولذلك كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)﴾ [البقرة: ٢١]، ماذا قال بعد أن ذكر الخلق؟ قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾ [البقرة: ٢٢]، فلابد من ذكر النعمة بعد ذلك ليس فقط نعمة الخلق ولكن كذلك النعم التي تحيط بك من أجل إعانتك في هذا الخلق.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، خلق الله لنا ما في الأرض جميعا، إما خلقه على جهة الملك وإما خلقه على جهة النعمة والعطاء، هو ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، خلق لكم من أجل أن تملكوه، أو خلقه لكم من أجل أن يسخر لكم، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، كل ما في الأرض كل شيء في الأرض، سواء النبات، سواء كان الهواء، سواء كان الأشجار، سواء كان الماء إلى غير ذلك، قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ﴾، وهذا يبين ما قيل بأن الأدلة الموجبة لعبادة الله هو الخلق أي الإيجاد ثم الإمداد، ما هو دليل عبوديتك؟ هو أنك لم تجد نفسك أوجدك الله عز وجل.

وقد يقول قائل: أنا وجّدتُ هكذا، فيقال: إذن كيف؟ هل تستطيع أن تقوم على نفسك بنفسك؟ هل يوجد أحد في البشر يقوم على نفسه بنفسه؟! بمعنى لا يحتاج إلى الهواء، من الذي يستطيع أن يكون قيماً على نفسه بلا هواء، قيم على نفسه بوجود الحياة بلا هواء من يستطيع؟! من يستطيع أن يكون قيماً على نفسه بلا طعام؟! إذن هو دليل أنك عبد أنك محتاجٌ لغيرك.

أي عندما يأتي الإنسان يقول خلقته الأولى لا يعترف بها ويقول: أنا أوجدت نفسي، لو أن أحدًا ادعى هذه الدعوة كذباً وافتراءً، أنا أوجدت نفسي أو وجدت هكذا بلا موجد لي، لكن من أعظم تكذيب هذا هو أنك إذا كان عندك القدرة على إيجاد نفسك، فهل تستطيع أن تقوم على نفسك بنفسك؟ بعض الناس يفهمها فهماً ساذجاً ويقول: تقوم على نفسك بنفسك يعني لا تحتاج إلى غيرك فأنت تحضر الماء لنفسك وأنت تحضر الطعام لنفسك وأنت تحضر اللباس لنفسك، لا، وهذا خطأ، القائم على نفسه بنفسه أي الذي لا يحتاج إلى غيره في وجوده، والغريب أن هذا الذي وجد وإدعى أن وجوده بغير موجد، أو أنه أوجد نفسه بعد أن ثبت أنه لا يستطيع أن يقوم على نفسه بنفسه، هل يستطيع أن يديم وجوده بعد ذلك حتى مع وجود هذه المعونات والامدادات له، هل يستطيع؟! أنت تموت، فلماذا وقد أوجدت نفسك تمنع عنك إزالة هذا الوجود، لماذا لا تستطيع؟! فدل هذا على أنك لست إلا مخلوق.

بعد أن ذكر الله عز وجل الخلق وأنكم على هذا بعد ذلك دل على دليل الإمداد هذا الذي نعيشه والضعف الذي يبين لنا ما عليه الإنسان قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٩]، انتبه هذا الخلق الذي أوجده الله لنا تسخيراً له، هو سخره لنا لكن هل نحن على معنى الحاجة له؟ –انتبه لهذا الله– سخر لك، وبقيت على

معنى التسخير معنى الحاجة له أليس كذلك، يعني عندما رجل يملك شيئاً ربما يستغني عنه لأنه يملكه، لكن أنت تملك الشيء وفقيرٌ إليه، أنت الآن، الله سخر لك الهواء وأنت محتاجٌ له، هو سخره لك وأنت محتاج إليه، الطعام هو مُسخرٌ لك وأنت محتاجٌ إليه.

ومن هنا صح قول علمائنا: بأن فقر الإنسان ذاتي، ما معنى ذاتي؟ لا يمكن أن يرتفع عنه هذا المعنى، لا يمكن، معنى ذاتي لا يرتفع عنه، كما أن غنى الله ذاتي، أنت بما حصل لك الغنى لو اغتنيت؟ بشيءٍ أنت محتاج إليه، وستبقى محتاج إليه سواء بقي في يدك أو زال عنك، فأنت فقير، وأنت حصل لك الغنى بشيءٍ عارض يزول عنك، فلذلك فقرك ذاتي، وأما الله عز وجل فله الغنى الذاتي، الله هو غنيٌ بذاته هل لو زالت الأشياء، الله أزال الأشياء كلها، هل ينقص في مُلك الله شيء؟ هل يحصل له اضطراب؟ جل في علاه.

قال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، استوى إذا جاءت لابد أن نعرف العامل الذي جاء وراءها، فقال: ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال هنا: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، فقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾، إي قصد، استوى إليه أي قصده، ولكن استوى عليه أي استقر وعلا، وهذا سيأتي إن شاء الله عندما نأتي إلى قوله تعالى: ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وإنما هنا ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] أي قصد السماء.

وهذه الآية أيها الإخوة الأحبة دليلٌ لا مفر منه أن الأرض خلقت قبل السماء، قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، فهذا دليل كما قال علماؤنا: على أن الأرض خلقت قبل السماء، لكن هل العرش خُلق قبل الأرض والسماوات أم أنه لاحقٌ على خلق السماوات والأرض مع أن العرش هو سقف السماوات؟ الصواب أن العرش هو أول ما خلق الله، وفي حديث أول ما خلق الله القلم قالوا: المقصود به أي بيان الظرفية هي (أول ما خلقه الله القلم قال له)، وليس بيان الابتداء.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، إذن نحن تكلمنا سابقاً بأن كلمة سماوات، لا تأتي في القرآن إلا على معنى الطبقة التي خلقت وهي السماوات السبع، لكن كلمة السماء تأتي بمعنى العلو وتأتي بمعنى الطبقة التي خلقها الله عز وجل من السماوات السبع، فقوله هنا: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

وقد يقول قائل لماذا يخلق الله هذا الخلق العظيم وكذا؟ هو جل في علاه، هو العظيم وله الكبرياء، وأنتم تعلمون ولله المثل الأعلى، وهذا مما يدخل في جواز التمثيل من أجل التفهيم إن الملك العظيم إنما يحب أن يظهر عظمته بما يملك، فلماذا خلق سبع سماوات؟ بما فيها من ملائكة تسجد له لأن ربنا يحب أن يسبح ويحب أن يعظم ويحب أن

يذكر ويحب أن يسجد له ويحب أن يركع له، فخلق هذه الخلائق العظيمة لإظهار عظمته ولإظهار قيوميته ولإظهار عزته ولإظهار كبريائه ولإظهار قدوسيته، الله عز وجل يحب هذا فخلق الخلق جل في علاه من أجل أن يُسبح وأن يُعظم، وأن يعرف الخلق هذا، فقال: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾ [البقرة: ٢٩]، قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، هو على المعنى الذي ذكرناه في أكثر من درس، دائماً نقول: انتبه إلى عوارض المعاني التي ربما تنشأ في ذهن السامع من الغلط، فيأتي القرآن ليرمم هذه المعاني، ذكرنا هذا عدة مرات، وهذه قاعدة قرآنية، ذكرنا في دروس متعددة مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)﴾ [الطلاق: ٣]، فقلنا هذه عارض، لما قال: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، ومشى بعد أن يتوكل فلا تأتي النتيجة فيقول: ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)﴾، فهذا العارض يرمم بقوله: ﴿جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)﴾.

في قوله: رفلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض}، ينشأ عارض، حتى لا تخضع بالقول فتكلمي معه بشدة، قولي كلام جاف، نقول: لا، لا، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢)﴾ [الأحزاب: ٣٢]، الموضوع ليس متعلق بنوع الكلام وإنما بصيغة الكلام، وإنما بطريقة الكلام، فقال: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾، لأن هذا العارض يرمم بما يأتي إليه.

والعارض الذي يأتي هنا، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، بعد هذا الخلق في الأرض الذي ينتشر فيها كل شيء فيها ذرات الرمل وفيه ذرات الرياح، وفيه عدد قطر الماء وفيه هذه السماوات السبع وما فيها من خلائق والعرش وما فيه وقد يطرأ أن هذا شيءٌ عظيم، وربما خُلق فتمرد على خالقه، أو خرج من سلطانه خالقه لعظمته، والمرء قد يخلق الشيء لكنه قد يخرج عن سلطانه.

من الذي يطلق الرصاصة أنت لكن عندما تخرج هذه الرصاصة من فوهة البندقية من الذي يملكها؟ هل تستطيع أن تملكها أنت؟ لا تملكها، خلاص خرجت من سلطانك، صارت في سلطان آخر، أنت الذي ملكت إرادة أن تخرجها ولكن بعد أن خرجت من سلطانك، فقد أنت تثبت الخلق أن الله خالق ولكن بعد ذلك كما يقول العلمانيون: بعد أن خلق الله الخلق تركهم وشأنهم، فجاء هذا المانع ليقول: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾ [البقرة: ٢٩].

وقد يقول قائل: إن إثبات العلم لا يعني إثبات السلطان، لكن هذا المعنى منتفي في داخل الآية، يعني العلم بالشيء لا يعني السيطرة عليه، ولذلك حتى يقولون عن علم الله سابق وليس سائق، يعني الله يعلم إنك ستفعل كذا، هل ساقك إليه؟ فالعلم لا يعني السلطان، علمك بالشيء لا يعني أنك مسلطٌ عليه، بعض الناس يظن أن علمه بالشيء يعني يجعله سلطانًا عليه، وهذا من الجهل ينبغي أن نفرق، علمك بالشيء ليس سلطان لك على هذا الشيء.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فدل على إحاطة علمه جل في علاه لكل شيء، فأين السلطان؟ السلطان في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [البقرة: ٢٩]، التصرف في الشيء بعد وجوده يختلف عن إيجاد الشيء من العدم، إيجاد الشيء من العدم يقتضي السلطان لأنه هو الذي أوجده من العدم فهو لا يخرج عن ملكه، لكن تصرف الشيء بعد وجوده، تصرف الإنسان أو الحيوان بشيءٍ بعد ملكه يمكن أن يكون خارجاً عن سلطانه ولكن الخلق لا يمكن أن يتصور هذا المعنى، فلما كان خالقاً لهذا الأمر العظيم دل على خضوع هذا الأمر لسلطانه، وبقيت قضية العلم واتساعه فقال جل في علاه: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾ [البقرة: ٢٩].

ونحن نعلم أن العلم لم أوسع من الخلق، من أوسع العلم ولا الخلق؟ الخلق محدود لكن علم الله غير محدود، فالله عز وجل يعلم الشيء الذي لم يوجد، الشيء الذي لم يوجد يعلمه جل في علاه، وهذا بين ذكرناه في غير هذا الموطن.

قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، ولم يذكر السماوات مع أنه ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠]، ولكن الآن الحديث عن ما هو موجود عما أنت فيه أيها الإنسان، فقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾ [البقرة: ٢٩]، وتقدم لماذا خلقت السماوات؟ من أعظم علل وجود السماوات بيان عظمة الله جل في علاه، قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وتقدم الكلام عن القدرة، عندما قلنا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [البقرة: ٢٠]، وهنا جل في علاه ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾ [البقرة: ٢٩].

الآن بعد أن ذكر ربنا سبحانه وتعالى قضية الخلق سيتساءل الناس أول سؤال أعطنا خبر هذا الخلق؟ أول ما يطرأ على الذهن يقول: أعطنا هذا الخبر؟ بين لنا خبر كيف خلقت؟ وكيف خلق هذا الإنسان؟ أنت قلت: خلقتني؟ خلقكم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، فبين لنا يا ربنا ونحن لم نحضر؟ أشهدوا خلقهم؟ هل حضر الإنسان خلقه؟ لم يحضر الإنسان خلقه فجاء هذا في سورة «البقرة» بيان تاريخ الإنسان في الأرض وفي السماء، قبل نزوله إلى الأرض واستقراره فيها، وهذا بيان كل هذا الآن وقد جاء السؤال، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾، كيف أنت خلقتنا؟

فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، هنا بدأت قصة الإنسان وخلق الإنسان في السماوات والحديث القرآني الذي لا يمكن أن يعرفه البشر إلا من جهة النقل، هذا الحديث الذي جرى بين ربنا جل في علاه وبين الملائكة، هل يمكن لأحد أن يعرفه؟ الناس مقدار ما يبحثون عنه وأعظم ما يبحثون عنه كيفية بداية خلق الإنسان في هذه الدنيا، أعظم ما يريدونه كيف بدأ الإنسان في هذه الدنيا، فالله عز وجل من رحمته أعلمنا قبل أن ينزل هذا الإنسان إلى هذه الدنيا.

وهذا سؤال كبير يطرح نفسه، لماذا هذه الاستفاضة في مواطن متعددة هنا في سورة «البقرة»؟ وكذلك نرى هذه الاستفاضة هي سورة «الأعراف»، في الحديث عن قضية الشيطان وما جرى في السماء، وفي سورة «الحجر»، وفي سورة «ص»، فلماذا هذا الحديث الذي فيه بيان هذا الخبر في السماء ولماذا جرى هذا الأمر في السماء؟ هذا سؤال ينبغي أن ننتبه له، لماذا؟ ألم يكن هناك قدرة أو حكمة ما بأن يخلق في الأرض، الإنسان خلق من الأرض من الطين من التراب، وأن يجري الأحداث كلها في هذه الأرض وليس في السماء، ولماذا يأتي هذا الشيطان، فتذكر هذه القصة بين الشيطان وبين أبينا آدم، والحديث بين الله عز وجل وبين الشيطان كذلك، لماذا؟ يعني هذا باب لابد أن ننتبه له أن نعيه وإن شاء الله نفصل فيه فيما يأتي من الكلام.

ولكن هنا أنبه أن الحديث كما ترون فيه خفاء ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم، كما تقدم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ابتدأ بقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، وفي قوله تعالى: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ١-٤]، هناك ذِكر يتخلل هذه الآيات لعظيم، وهو شأنه مختلطٌ بالرسالة، ألا وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا تعظيمٌ له، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، هو ليس في الصورة التي الحديث حولها، ولكن الصورة هو موجودٌ في الحديث حول هذه القضية، وكأن الحديث ليس فقط على ما جاء به، ولكن الحديث كذلك حوله هو، وذلك تعظيمًا لشأن هذا الرسول وعادةً الشيء إذا أُخفي مع بروزه وظهوره دل على عظمته، وأنه حاضر في النفس، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

مع أن الحديث أيها الإخوة الأحبة هو حديثٌ عن نوع الإنسان، في الابتداء نقول: والأليق في الحديث عن الإنسان أن يقول الله للإنسان، ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [ص: ٧١]، لأن الحديث عنكم جميعاً، الحديث عن الإنسان جميعًا، فلا يليق أن يقول: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾، لأن الحديث عنكم، لكن لم يقل ربنا سبحانه وتعالى بل جعل كأن هذا الوجود معلقٌ بشخص هذا الرسول، قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾، ذلك لعظمة شأن الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الباب، ومن أدلة ذلك أن آدم عليه السلام أُخذ عليه الميثاق أن يؤمن بالرسول صلى الله عليه وسلم، وأن أبناء آدم من صلبه في حياته أخذ عليهم الميثاق أن يؤمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم، ثم ما من نبيٍ جاء إلا وأخذ عليه الميثاق أن يؤمن بالرسول صلى الله عليه وسلم، فحينئذٍ يستحق هذا الرسول أن يقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾، وكأن الكون كله إنما معلق بالإيمان به، وكأن الرسالة كلها متعلقة بالإيمان به.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١)﴾ [النساء: ٤١]، هذه الأمة شهيدة على كل الأمم، ومن شهيد ربنا على هذه الأمة؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا من أعظم مواطن مدح النبي صلى الله عليه وسلم، كما هو بينٌ في ذلك، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لما يحبه ويرضى.

وجزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم.

الأسئلة

السائل: شيخنا ذكرت لا يوجد من ذهب في أصل الدين ولم يصل هل هذا دليل على عدم العذر بالجهل؟

الشيخ: إلا السمع ثلاثةٌ فقط يعذرون أهل فترة لم يصل إليهم لم يسمعوا قط بالرسول أهل فترة، وطفلٌ مات قبل أن يصل مرحلة التكليف والمجنون الذي لا يفقه ماذا يقال له، وأما غير ذلك فإن أصل الدين تثبت الحجة به بمجرد السماع فقط، أن يسمع أحدًا من الناس في مشرق الأرض ومغربها أن هناك ثمة رسول بعث من عند الله عز وجل يبلغكم بتوحيده، وقوله صلى الله عليه وسلم: (لا يسمع بي)، فبمجرد السمع لأصل الدين أما القضايا الأخرى فبحسبها، بحسب مرتبتها في الدين.

وهنا نأتي لقضية مهمة جداً يا شيخ وهو أن الله عز وجل أقام من الأدلة على الشيء بمقدار أهميته، قدراً وشرعًا، كلما كان الشيء مهماً كلما كان منتشراً مستفيضًا وكلما كانت الحاجة إليه ضعيفة قليلة كلما كان قليل الوجود، والدليل على هذا من أهم في الوجود الماء أم الهواء؟ الهواء، فمن أكثر في الوجود الماء أم الهواء؟ الهواء، يعني الماء الناس يأتونه، الهواء يأتيهم، ما أكثر حاجة الإنسان حاجته إلى الطعام أم إلى الماء؟ الماء أكثر فكلما كانت الحاجة للشيء كثيرة كان بذله عظيماً أكثر هذا في القدر وفي العلم، فإن الله عز وجل أقام من الدلائل لوحدانيته ولصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يوجد أمام هذه الأدلة أي حجة تتصور في البشرية، لا وجود لها.

وأنت ترى المناظرين من إخواننا من أهل الإسلام لليهود والنصارى والذين يملكون العلم، فمن باب أولى الذين لا يملكون العلم من المشركين من الوثنيين، هل رأيت يوماً من الايام مسلماً يناظر نصرانياً فكانت حُجته ضعيفة؟ لا يمكن، أو هل رأيت نصرانياً قط عالماً من علمائهم وحبراً من أحبارهم يقدم ولو دليل يسير على نقض نبوة النبي صلى الله عليه وسلم؟ لا يوجد، لماذا؟ لأن الأدلة عظيمة لأن هذا الشيء مهم، وأدلته واضحة وبينة، والذين يطلبون الحجج، القرآن قرر وهذه قضية من قضايا القرآن، الذين يطلبون الحجج الكونية على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ثبت أنهم يطلبونها على جهة المجادلة، ولم يثبت أن أحدهم جاءته الحجة فأسلم، بل كانت تأتي الحجج إليهم فيزدادون كفراً، فدل على أنهم طلبوها على جهة المجادلة وعلى جهة المحاجة فقط.

فلذلك إن أصل الدين هذا تقوم الحجة عليه بمجرد السماع وتزول عنه هذا صفة أهل الفترة خلاص، ما في أهل فترة فيه، هذا الذي بلغه الحجة، فلذلك الذين يسألون اليوم لأننا هذا أرد به لوجود هذا السؤال اليوم يطرح يقال: هل معذور من نظر في الأدلة في صدق الرسول هل معذور؟ هذه نجدها بعض المشايخ يبحثون وينساقون ورائها،

ويتصورون وجودها والكثير من الأسئلة إنما يدور حول الخلاف لتصور وجودها وعدم تصور وجودها، والصواب أن القرآن ينفي وجودها، ولو كانت مهمة لذكرها في القرآن، لو كانت مهمة قضية الوجود الإلهي لذكرت في القرآن.

الطالب: حتى أصل الدين.

الشيخ: أصل الدين هو ألا نعبد إلا الله وأن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هو من عند الله، هذا هو أصل الدين.

وبعضهم سأل أجيب عليه هنا قال: ما هو حكم النصيرية؟ هل تعذرونهم بالجهل؟ من قال: نعذرهم بالجهل، نعوذ بالله، لأنهم نقضوا أصل الدين، النصيرية نقضوا أصل الدين.

انتبه لهذا: واحد نقض قال: أنا لا أعبد هذا الله لا أعبده وأعبد غيره، نقض أصل الدين من جعل مع الله شريكاً يعبد فهذا نقض أصل الدين، والذي يقول: أن محمداً ليس رسول الله نقض أصل الدين، خلاص، فالنصيرية ينفون عن النبي صلى الله عليه وسلم، النصيرية تقول: أن الله هو علي على خلاف بينهم، طائفةٌ تقول: إن الله هو علي تجلى في القمر، وطائفةٌ تقول: إن الله هو علي تجلى في الشمس، هذا خلاف بين طائفتي النصيرية.

الدروز لا يُسأل أن يعذروا بالجهل، لأنهم ليسوا مسلمين، السؤال عن العذر بالجهل -هذه قضية ما أكثر ما أرددها ولكن الناس يعاودون الأسئلة- الذي يقال: له مسلم يعذر بجهله أثبت له الإسلام أولاً، رجل قال: لا إله إلا الله ومحمد رسول الله، أو قال: أسلمت لله كما في حديث المقداد بن عمرو وأبي المعبد الذي ورد برواية الأكثرين عن الزهري، أنه قال: أسلمت لله، وروية رواياتٌ أخرى عن طبقةٍ ثانية: أرأيت يا رسول الله إن قطع يدي فألجأته إلى شجرة فقال: أسلمت لله أو قال: لا إله إلا الله، وأسلمت لأنها حادثة واحدة، فلا يتصور فيها الروايتين وإنما رويت بالمعنى رواه الراوي الآخر بمعنى يقول: لا إله إلا الله، فدل على أنه قال: أسلمت لله.

فلو أن رجلاً قال: إله إلا الله ومحمد رسول الله عالماً بمعناها أي أنه يقول: أنا لا أعبد إلا الله وأنا أتبع هذا الرسول، هذا رسول الله الذي أرسله لي لأتخذه إماماً، هذا هو أصل الدين، فإذا أثبت له أصل الدين فهو مسلم، حينئذٍ يقال: يعذر بالجهل، إما يأتي لرجل لم يسلم كالنصيرية والدروز هؤلاء لم يسلموا، هو أصلاً لم يسلم، لماذا؟ لعدم اتيانه بأصل الدين.

والخلاف مع بعض المعاصرين والخلاف في هؤلاء الجهلة، أنهم زعموا أن من أتى بأصل الدين، أي بلا إله إلا الله محمد رسول الله، فأثبتنا له الإسلام، فأتى بأمرٍ ظن أنه الشارع أتى به هل يعذر أو لا يعذر؟ هذه مسألة الذين يكفرون اليوم هؤلاء الذين ينقضون ويأتون بأعمالٍ هي شركيه في الشارع ظناً منهم أنها من عند الله، وأن رسول الله قد جاء بها وأن الله إذن بها ليس على المعنى الذي ينقض الأصل، هذه لو كفروا المخالف فيها لكفروا علماء كثر.

الشيخ ابن تيمية رحمه الله يعذر بالجهل، ويذكر في كلامه حتى مرات يتوقف يقول: «الله أعلم بهم»، وهم يكفرون الذي يتوقف، يعني مرات ابن تيمية رحمه الله يقول: الله أعلم بحالهم يوم القيامة، مرات يعذرهم، في ألفاظ له هنا وهنا، فهم يكفرون الذي يتوقف لأن المتوقف عادةً كما يقول شيخنا شيخ الإسلام الواقفة شرٌ مرات من النافية، مرات يقف بهم وكلامه موجود، ويكفرون ابن عبد الوهاب مع تشدده في هذا الباب إلى أنه لم يكفر القائمين على قبة الكواز، أنا أذكر من اشتغل بها من أهل العلم، لم يتكلم فيها ولكن من تكلم فيها من أهل هذه الصِنعة ومن هذه الأبواب والناس تبعاً لهم.

محمود شكري الآلوسي يقول في كتابه في الرد على النبهاني «غاية الأماني فالرد على النبهاني» يعذرهم بالنص، الشيخ المعلمي ارجعوا إلى كتابه الذي طبع بحسب متأخرًا وهو «رفع الاشتباه»، وهو إمام من أئمة هذه الصِنعة، وأعذرهم بالنص، حتى جاء هؤلاء الخلوف فزعموا أن من ثبت له الإسلام ثم أتى بعمل سماه الله شركًا، ولم يعلم هذا العابد أنه شرك، مع إتيانه بأصل الدين أنه كافر، ومن أعذره فهو كافر، طبعًا الآن نأتي لمن أعذر العاذر وأعذر العاذر وهكذا، التوقف لا يمكن، هم زعموا أن من أعذر المشرك فهو مشرك، ومن أعذر المعذر فهو مشرك لحد هذه وقفوا، لماذا وقفوا؟ لا ندري هذا من التحكم.

القضية تعود إذا جهل المرء أصل الدين لا يسمى مسلماً، ندخل في مسائل فقهية، يعني لا يسمى مشركاً، معذور يوم القيامة في الدنيا مشرك لا نستحل دمه حتى تقام عليه الحجة، المسائل الفقهية تدخل في ذلك، لكن لا، من لم يأتي بأصل الدين لا يقال: له مسلم ثم يبحث يعذر بالجهل أو لا يعذر هو ليس مسلم، نحن نتكلم عمن ثبت له الإسلام ثم أتى بما تقدم الكلام فيه.

السائل: شيخنا من هم الأرحام الذين أوجب الله صلتهم وما هو حجم الصلة؟

الشيخ: هذا خلاف بين أهل العلم والصواب وفي المسألة هو أن كل من بينه وبين المرء نسب، نسب يعني والده، جده عمه سواء كان من جهة النساء أو من جهة الرجال، أمه، أخته، ابنته، وابنة ابنته كل هؤلاء من الأرحام، وكما تعلم أن قاعدة الشريعة كلما المرء كما قال عمر رضي الله عنه: «المرء بسابقته والمرء بحاجته والمرء ببلائه»، فمن كان أقرب فهو أولى، يعني الأم أولى من الأب، والأم أولى من البنت، لأنها أقرب، ثم نأتي إلى قد تكون هي أقرب ولكنها أكثر حاجة، يعني قد تكون البنت وهي أبعد من الأم في الرحم قد تكون أكثر حاجة، فإذن يتقرب إليها أكثر لحاجتها وهكذا.

فالصواب: أن أولي الأرحام هم كل من متوا إلى الإنسان بصلة، حتى لو سألت: العم؟ نعم، ابن العم هو من الأرحام، وكما تروى أن هؤلاء عصبة يدفعون معك في الدم، ابن العم يدفع معك في الدم فكيف يقال: أنه عليه واجبات وليس عليه حقوق، هذا هو القول الصواب في المسألة وهو مما رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

كلهم والخال والخالة وابن الخال كلهم من الأرحام ولكن أنا أتكلم عمن بعضهم يجب صلته، فبعضهم مستحب، وبعضهم من مكارم الأخلاق وهذا بحسبه، بل لو قال: بأن الجار من هذه المعاني لصح، ينبغي أن تصله، الجار أن يصل جاره وهو ليس من الأرحام لكن ليدل على اتساع هذا المعنى.

السائل: بما يكون قطع صلة الرحم؟

الشيخ: من كان قريبًا مما أوجب الله عليه النفقة، يعني الآن الأم يجب عليها أن ينفق عليها، البنت يجب عليها أن ينفق عليها، الولد يجب عليها، الأب يجب عليه، وإن علا، الجد عليه أن ينفق، وإن سفل بنت البنت وهذا يجب عليه أن ينفق، فهؤلاء واجبٌ عليه أن ينفق، هناك لا مستحب لا يجب ابن العم لا يجب عليك أن تنفق عليه، إلا إذ تعين في صورة من التعين فيها، مثل مل ذكرنا في قضية الدية، هذه تعينت عليك أن تدفع فهذه مما يجب.

وهذه ينبغي أن ينظر إليها هل هذا مما يجب أو مما لا يجب، كيف يعرف؟ ممكن أن تعرفها عن طريق الزكاة، يعني من يجوز له أن يُعطى الزكاة، لا يجوز أن تُعطى الزكاة للأب لماذا؟ لأنه وارث ولأنه مما يجب عليه الإنفاق، والبنت لا يجوز لك أن تعطيها الزكاة على خلاف في مسألة أخرى، لكن هذا نتكلم عن الأصل، لكن هناك استثناءات، فشيخ الإسلام يرى جواز إعطاء الرجل مال زكاته لابنه على معنى في حالة استثنائية، ليس هذا موطن ذكرها، فمما يجب فيصبح واجب الصلة ومما يستحب مستحب الصلة، لكن هذا الكلام هو الأصوب والأليق.

السائل: اللحية هل يجوز الأخذ منها وما حد الأخذ منها إن جاز؟

الشيخ: اللحية الشرعية هي التي عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ من لحيته ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه أخذ من لحيته، وأما الصحابة كانوا يأخذون من لحاهم كما ثبت عن ابن عمر رضي الله عنه في الحج وثبت عن بعضهم أنه كان يأخذ في غير الحج، ولكن ولا شك أن معيار اللحية هو أقلها قبضة، هذا هو حد الواجب، هذا الواجب قد ينتقص يعني قد يكون كما ذكرنا في مثال الصلة قد يكون من الواجب أن تنفق على ابنك عشرين دينار في الشهر هذه حاجته، فلو أعطيت عشرة كنت أثماً بعشرة لكن كنت واصلاً بعشرة، فوجود اللحية بعض الناس يظن أن الحلق أولى من بقائها وهذا غير صحيح، أن يكون المرء لحية مما تسمى لحية وإن كانت ليست على الصفة الشرعية التامة خير من أن يحلقها المرء فيكون كالمرأة.

فالصواب: هو ألا يمس منها شيئاً، لا يأخذ منها لا من طولها ولا من عرضها.

وقد يقول قائل: اللحية بالمفهوم اللغوي هو ما كانت على لحييه، وليس التي تخرج في أسفل الذقن، هذا ليست من اللحية لغةً ولكنها في الشرع من اللحية، فهذا من اللحية الشرعية، فاللحية الشرعية غير اللحية اللغوية فلا يجوز الأخذ منها إلا بمقدار ما كان يفعله ابن عمر رضي الله عنه ويفعله بعض الصحابة وهذا هو الجائز، وأما القول: بأن

طول اللحية فوق القبض بدعة كما أفتى به بعض المشايخ، فهذا قولٌ: بدعة، هذا لم يقل به عالم قط، ولا يوجد عالم قط، وهذا كقولهم: بأن العشرين ركعة في الوتر بدعة في التراويح هذا قول لم يسبق عليه أحد، لا قاله عالم، فقط أول من أحدثه هو الشيخ المبارك فوري في «تحفة الأحوذي» وفقط، هو أول من أحدثه وهو من المعاصرين، يعني ليس من المتقدمين، فإحداث الأقوال المعاصرة هذا شر ما يأتي به الفقيه.

فالقول: بأن اللحية إذا طالت عن القبضة كانت من البدع، قوله: بدعة، وهنا هي واجب، وواجب أن تكون اللحية قبضة، ولكني أقول بوجوب إطالتها فوق القبضة لبعض الناس رداً على هذه البدعة، هذا استفادة مما قاله بعض أهل العلم وهذا كثير يكثر في الفقه إذا انتشر قولٌ مبتدع يجب الإتيان بمثله لبعضهم دلالةً على بدعته.

ومن ذلك مثلاً: ما نص عليه أئمة الشافعية من وجوب المسح على الخفين، إذا طرأ على ذهن المرء أو انتشر أنه بدعة، لو طرأ على ذهنك أن مسح الخفين يعني جائز ولا غير جائز قال: يجب عليك أن تمسح عليه، طرداً لهذا المعنى، ولو انتشر القول: بأن المسح الخفين بدعة يجب عليك أن تمسح إظهاراً له.

ولذلك أقول من الواجب اليوم من الواجب على بعض أهل العلم أن يطلق لحيته فوق قبضتين وما طالت رداً على هذا القول المبتدع، وهو قولٌ لم يقل به أحد، والفعل يدل على الجواز اصلاً يعني الأصل هو اعفوا، والإعفاء هو الترك، فما جاء بعد ذلك من الفعل دل على الجواز، هذا أصولياً، لكن نحن قد ابتلينا في هذا الزمان بضعف الأصول، هو مشكلتنا كما شرحتها في تعليقي على كتاب «مؤتمر النجف»، كيف تستطيع أن ترد على المخالف، هو عنده نصوص وعندك نصوص، لكن العبرة بالأصول، الأصول هي التي تبين مزالق الخطأ في النص الذي يحمله المخالف أو يحمله المخطئ.

فالحديث (اعفوا) فجاء الفعل من الصحابة رضي الله عنهم، أقصى ما يقال ماذا؟ ما هي دلالة الفعل في الأصول؟ يعني لا يمكن أن تدل على الوجوب، باتفاق الفقهاء إلا من خالفهم قلة، وأما جمهور أهل العلم فإن الفعل لا يرتقي إلى الوجوب، ولذلك أكرر واجبٌ على كثير من أهل العلم أن يشيعوا إطالة اللحية فوق القبضة والقبضتين رداً على هذه البدعة التي شاعت من قول بعضهم.

السائل: هل الشيخ وهو شافعي يرى صحة ما فهمه بعض العلماء من أن الشافعي يرى الجهر بالنية في الصلاة أم قول النووي شيخ الإسلام أصح؟

الشيخ: الشافعي رحمه الله قال: إذا صح الحديث فهو مذهبي، أنا شافعي على هذا المعنى وعلى أصوله، أنا شافعي على أصول الشافعي رحمه الله، ولكن لا يعني إني شافعي أقلد ما يقول وهو نهى ومن أشد الناس نهياً عن التقليد الإمام الشافعي كما يقول عنه تلميذه المزني عليه رحمة الله.

فالصواب: أن النية محلها القلب، وأن التلفظ بها لا معنى له، والدليل على أن النية إذا نطق المرء بها لا قيمة لها لو أن رجلاً قصد فأجرى الكلام على غير ما قصد، فما المعتبر؟ المعتبر ما قصد، الناس واحد واقف يصلي يقول: نويت أن أصلي أربع ركعات الظهر وهو واقف للعصر، لا قيمة لكلامه فالعبرة بما نطق به قلبه أو ما قاله قلبه، ليس ما قاله لسانه، ولذلك الجهر بالنية مُفسد ويؤدي إلى الوسوسة، وليس هو من سيرة الصحابة ضي الله عنهم ولا يعرف عنهم قط.

وتشدد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فيما ذكره البعلي في مختصر فتاواه أنه قال: من أصر عليه قتل، وهذا من تشدده عليه رحمة الله في هذا الباب ولعله أراد الزجر رحمه الله وليس الحكم.

السائل: هل القياس يجري في الرخص ومن القيد في ذلك؟

الشيخ: طبعًا بلا شك، أصل الرخص قيام العلة فيها، والحكم منوطٌ بعلته، فإذا علمنا العلة في باب أجرينا القياس فيها وهذا لا خلاف بين القياسيين فيه، الضابط هو ضابط العلة حيث تحقق الضابط هو ضابط القياس، ما الضابط؟ هو ضابط القياس حيث تحققت العلة المنضبطة الظاهرة البينة التي لم ينص على خلافها، فهذه العلة تطرد في الرخصة.

ومن أمثلة ذلك كثير المنصوص في الجهاد أن الناس يفطرون، وعل ذلك (فأنه أقوى لكم) فهل هذه العلة تطرد فيما يؤدي إلى القوة؟ الجواب: نعم.

السائل: ما رأي الشيخ في نسخ المصنف لابن أبي شيب؟

الشيخ: وأنا لا أعرف إلا النسخة القديمة التي طبعت في الهند هذه أنا ضعيف الآن بعد هذا طول المكث في السجن، وعدم متابعة الكتب، ما شاء الله هذه الأيام القائمون على التحقيق قد كثروا بعد أن استفرغوا في تحقيق الكتب القديمة فعادوا على الكتب بالتحقيق مرة أخرى، وأنتم ترون أن الكتاب يشكو إلى الله عز وجل من كثرة ما يحقق، ويكاد كل كتابٍ يقول: دعني، دعني، وهناك من التحقيق ما يستحق يعني من النظر، لكن هناك من التحقيق ما هو كثير منه تجاري.

فالآن انظروا كم مرة حقق رياض الصالحين، واليوم يأتي أحدهم ويقول: صحيح البخاري بتحقيق حتى، هو ولا يقصد أن هناك نسخة لرواية أخرى فيأتي إلى الرواية الموجودة ويحقق وهكذا، انظروا إلى «إعلام الموقعين» كم حقق، انظروا إلى مختصرات تفسير ابن كثير يعني يشكو ابن كثير يشكو المسكين، اتركوني، اهترئ بدني من كثرة ما اختصرتموه وهكذا، وكذلك يعني تحقيق ابن كثير كم مرة حقق، وفي كل مرة يأتي آخر ويقول: ومن سبقني عليه أخطاء، وهكذا.

وهذا الأمر لم أعد مشتغلاً فيه في مسائل تحقيق الكتب لأنكم شغلتمونا في مصائبكم، ولو ترك القطع ليلاً لنام، يعني أحب ما علينا المرء يجلس مع كتبه من غير مشاكل الدنيا ومصائب المسلمين وأحوالهم، فبالتالي أيها الأخ الحبيب ما عندي في الحقيقة أي خبرة اليوم بهذه الكتب المحققة الجديدة، فلا أعرف في المصنف إلا الطبعة الهندية القديمة التي هي منتشرة بين الناس واطلعت وهذا قبل السجن وقبل الأحوال هناك من طبع مجلداً ضخمًا هو عندي واطلعت عليه في نصوص لم تطبع في الطبعة الهندية القديمة، وأما طبعات أخرى فلا أعرف وإذا كان عندك طبعات أخرى فأنا أقبل الهدية.

السائل: يا شيخنا بارك الله فيكم ما رأيك في طلب العلم على غير مذهب أهل البلد؟

الشيخ: هذا يخالف ما نصح به الحكماء، الحكماء نصحوا بأن يقرأ المرء في بداية الطلب المذهب الذي عليه أهل بلده حتى يتقنه لأن الناس يميلون لهذا، لكن اليوم في الحقيقة أن عامة البلاد الإسلامية خرجت من التقليد إلا القليل مثلاً أهل القارة الهندية فيهم أهل الحديث فيهم الشافعية، يعني موجود شافعية في الهند وحتى كانوا يسمونهم أهل الحديث، ولكن نشأ أهل الحديث مما يقال لهم أهل الحديث وإن كان توزعوا إلى مؤسسات ارتزاق، وكذلك الأغلب فيهم الحنفية، لا يقبلون يعني لا يقول الفتوى إلا من الأحناف، وكذلك في باكستان التي هي القارة الهندية الإسلامية وأفغانستان، وما وراء النهر أغلبهم شافعية، تركستان وغيرها أغلبهم شافعية وإن كانت بدأت الشافعية في اليمن وإن كان أغلبهم الآن خرجوا من المذهب ولم يعد المذهب إلا مجرد انتساب سياسي، حتى يقال: زيود شافعية، وإن كان أغلبهم لا يتقيد بالمذهب، المالكية في المغرب وإن كان أغلب انتشار الكتب والعلماء والفتاوى العابرة للقارات من المشايخ بسبب قوة المال وقوة الدعوة وقوة النشر، فالناس يعني خرجوا كثيرًا من المذاهب.

ولكن الحكمة التي دعى إليها سلفنا بأن يبدأ المرء بما استقر عليه أهل بلده، لأنه هو الذي يُسأل عنه، يقول له: ماذا تقول في كذا ويريدون مذهب الشافعية ومذهب المالكية إلى غير ذلك، ولكن اليوم هذا ضعيف عما كان عليه الأوائل.

السائل: ما رأيكم في كتب الشيخ ضياء الدين القدسي صاحب التوحيد الخالص من الغلاة؟

الشيخ: الكتاب أنا أذكر اطلعت عليه قديمًا قبل السجن ولا أذكر عنه شيئاً، ولا أذكر عن هذا الكاتب شيئاً، لا أعرف، أما أذكر أني اطلعت عليه قديماً والآن لا يحضرني أي شيء عنه، ولا أظن أن هذا الرجل بمكان يعني وله كتب أخرى تجعل له حضوراً في النفس.

السائل: يقول شيخنا: ما هو حكم الذي لا يكفر أولياء اليهود والنصارى ولكن يصلي الفجر ويقيم أركان الإسلام التي فضائلها توجب الجنة، فما هو رأي الشيخ في ابن باز عِلماً بأنه مفتي الجيش السعودي الذي يفتي بما أنتم أعلم به منا وجزاكم الله خيرًا؟

الشيخ: واضح من السؤال، هذه أسئلة طبعاً تُخفي ...

أرى تحتَ الرّمادِ وميضَ جَمرٍ ... ويُوشكُ أن يكونَ لهُ ضِرامُ

واحد يقول: ما حكم من يوالي اليهود والنصارى، ويقصد أبا قتادة، أبو قتادة صار يوالي اليهود والنصارى، أو يقول ما حكم من يوالي المشركين؟ ويقصد مثلاً: من كره عملاً جهادياً ما، يعني واحد مثلاً من المشايخ قال: والله هذا الذي عملته القاعدة في أمريكا ليس شرعياً، فيأتيه واحد مسكين ويقول: ما حكم من والى اليهود والنصارى؟ كأن الشيخ إنما أطلق التحريم لسبب موالاة اليهود والنصارى، هكذا الناس يفعلون وهذه مشكلة وهذه وقعنا وانتهيت منها، هذه كنا صغاراً لما وقعنا فيها ظانين أن الناس يتكلمون باسم السنة، يأتي يقول ما حكم المبتدع الذي ينشر بدعته؟ فتقول له: هذا ينفر منه، وقال: ولو أن رجلاً لن تنقطع بدعته إلا بالقتل، وبدعته مغلظة وكبيرة، فأنت تفتح كتاب لابن تيمية تقول ومن لا تندفع بدعته إلا بالقتل، قتل، كالخوارج وكذا يقول هذا، فتقول له: هكذا يقول ابن تيمية، فيذهب ويقتل رجلاً، تقول: لما قتلته؟ يقول: هو يرفض لبس العمامة، ورفض لبس العمامة بدعة، ماذا تصنع في الناس؟

ومن هنا فإني أقول في موضوع الشيخ ابن باز انتبهوا هناك خطأ انتشر لا أريد أن أرد على هذا السؤال بما رددت عليه عشرات المرات، لكن أنبه على نقطة، يقولون: ما حكم بيعة المشرك؟ البيعة عقد، أنت تبايعه تعقد معه عقداً، متى يكون الرجل مشركاً، إذا بايع على أمرٍ شركي، لكن رجل يعلم أن هذا –انتبهوا لهذه القضية لأنها مهمة– رجل بايع حاكماً على الحكم بالإسلام، أين الشرك؟ لا يقال: أنه فعله كفر والناس درؤوا عنه الكفر للتأول، هو لم يفعل الكفر لأن بيعته هو عقد على ماذا قام؟ أبايعك على الكتاب والسنة، أين الشرك؟ أين الكفر حتى يحكم عليه؟ حتى يقال: هذه بيعةٌ كفرية صرفنا عنه الكفر للتأول.

هذا من التجوز وهذا لا يقال: التأول، عادةً التأول يطلق في هذا الباب على من أجاز شيئاً حرمه الشرع هذا هو التأول، أو ظن أن شيئاً ليس من الدين وهو من الدين، أو ظن أن شيئاً جائز وهو من الشرك، كما يذكر شيخ الإسلام رحمه الله عمن بايع حاكماً لم يعلم أنه من قواعد الشريعة ألا يبايع المشرك على نصرة دينه، يعني يبايعه على عمل على القيام بالأحكام، كأن يكون رجل بعيد، وهذا الذي حمله شيخ الإسلام على النجاشي، لم يصل له من الدين إلا القليل فعمل بما وصل إليه، هذا هو المكلف به.

فيأتي واحد يقول: هل بيعة الشيخ ابن باز لمرتدين هي من الشرك؟ يقول: نعم هي من الشرك ولكن ندرئ عنه الشرك بسبب التأول، هذا غلط، هذه خطيئة، هذا جهل؛ لأن الفعل ليس شركاً، هذا خطأ يا إخواني هذا لا ينبغي، بل ينبغي أن تحرر المسائل الفقهية.

أنا أسألكم: ابن باز لما بايع هؤلاء الذين هم على الردة، وهؤلاء مرتدون، بايع هؤلاء المرتدين، هل بايعهم على الحكم بكتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، هذا العقد ما حكمه في الشريعة؟

الطالب: جهل حالهم.

الشيخ: هذا موضوع آخر، أنا أفهم أنه جهل حالهم أنهم مرتدون وغير مرتدين، هذا لا يقال: ألا نكفرهم للتأول، أتكلم عن العقد، أتكلم عن عقد البيعة –انتبهوا– نحن نتكلم عن الفعل، جهل حالهم هذا موضوع آخر، أما نتكلم رجل بايع رجلاً ظنه مسلم، يعلم أنه مسلم هو في دينه وبايعه، أنا أتكلم عن البيعة على العمل بكتاب الله وسنة رسوله، أنا لا أتكلم عن جهله بحال الرجل، أتكلم عن البيعة عقد البيعة هل هو عقدٌ صحيح؟ أين الشرك؟ لكن متى يقال؟ يقال: رجلٌ بايع رجلاً على عملٍ شركي ولا يعلم أنه شركي كعقد الصوفية.

مثال ذلك: حتى نتصور هذه الصورة تصوراً صحيحاً، هناك من الأوراد ما هو شركي، قال: أبايعك، أعاهدك أن أقرأ هذا الورد كل يوم وأعتقد ما فيه، أنا أقرأه متعبداً عاملاً به، ما هو في هذا العقد، ما هذا المعقود عليه؟ هو شركي، حينئذٍ يعمل فيه، يقال: إن هذه البيعة شركية، ولكنه يُعذر بالتأول لعدم علمه أن هذا شرك، يمكن، لكن رجل بايع رجل –البيعة عقد– بايعه على أمرٍ أحله الشرع وليس فيه شرك، ففرق، فهذه لا يبحث عنها لئلا يقال: بأن من كفر على هذا العقد معذور لعدم تصوره الجهل في حق هذا العالم، لا، هو يخلط بين حال الرجل وبين المعقود عليه.

ومثال ذلك: يمكن أن يجهل المرء حال العاقد يمكن أن يجهل، والدليل أن أبا الطفيل بن عامر الليثي رضي الله تعالى عنه هل قاتل تحت راية المختار؟ الجواب: قاتل تحت راية المختار، جهل حاله، لكن أتكلم عقد أبي الطفيل مع المختار عقدٌ صحيح، أنه من أجل القيام بحق الدين ومن أجل نصرة آل البيت، يعني لماذا قام المختار؟ من أجل حق آل البيت، فقام لهذا الأمر فهذا عقدٌ صحيح، ولا يقال: ندرئ عنه الكفر للجهل، أنا أتكلم عن ندرئ عنه الكفر في عقده هذا العقد، أرجو أن تكون بينة هذه واضحة، وهذا خطأ، ويكفي لا أريد أن أرد على وما هو حكم مفتيهم والجيش فيهم وغير ذلك، أنا لا أريد أن أدخل في هذا الباب لأنه باب مُتسع ويطول ولكن نبهت على هذه، لأني وجدت الخوض فيها على غير الباب الذي يدور حوله البحث والله تعالى أعلم.

السائل: شيخنا ما رأيك بكتاب «فقه السنة»؟

الشيخ: الشيخ سيد سابق، كتاب «فقه السنة» هو من أوائل الكتب التي حاولت تقريب الفقه إلى الناس، تعرفون قبل كتاب «فقه السنة» لو أنكم نظرتم إلى كُتب الفقهاء لوجدتم أنها على طريقة المتون والشروح وفيها ما فيها، بالنسبة إلى المسلمين في هذا العصر الذين درسوا في المدارس الأكاديمية، يعني من المشقة بمكان اليوم هو أن تفسروا ألفاظ الفقهاء للمعاصرين والسبب هي أن طريقة قراءة المعاصرين وتدريس المعاصرين تختلف عن طريقة القدماء.

أي عندما أنت تأخذ متنًا وتأخذ شرحًا من شروح الفقه، أنت عليك أن تتجاوز عقبتين:

العقبة الأولى: أن تفسر النص، العقبة الثانية: أن تفهم المعنى، لماذا؟ السبب لأن طريقة صوغ النص لا تتلاءم مع المعاصرين، الطريقة التي تتعلمها الآن تذهب للمدارس الأكاديمية، كيف ترتب الأمور وكيف تقسم، لو ذهبت إلى كتب الأقدمين كتب المتون والشروح لوجدتها على غير هذا المعنى، ما الفضيلة التي قام بها الشيخ سيد سابق؟ هذه فضيلةٌ عظيمة، أول فضيلة عظيمة هو أنه سهل الفقه، بحيث لو أن المتعلم في المدارس الأكاديمية والمتخرج من الجامعات المعاصرة أراد أن يتعلم الفقه، فماذا تنصحه؟ لو أراد أن يقرأ ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤)﴾ [العلق: ٤]، يقول لك: أريد كتاب فقه، هل ترسله إلى متن أبي شجاع، إلى كفاية لا خيار وحله، هل ترسله إلى كتب الأقدمين، ما هو أفضل كتاب؟ أنا لا أتكلم اليوم عن كتب المعاصرة التي خرجت فإن الذي فتح بابها والذي ولج وأول ما ولج فيها هو الشيخ سيد السابق رحمه الله، قدمها للناس، فكان هذا من الرجل يعني عمل عظيم يشكر عليه هذا واحد هذه نقطة ينبغي أن نعرف الفضل لأهله كائنًا من كان خالفته وافقته لكن عظمة هذا الكتاب أنه فتح للناس هذا الباب المغلق، فسهل الفقه على طريقة المعاصرين بالترتيب الذي تجدونه.

النقطة الثانية: أنه ساهم في قضية كسر المذهبية، ومن طرق كسر المذهبية هو أن تعرض للفقيه أو تعرض للسائل الأقوال، وأن تقول: بأن هذه الأقوال ليست على درجة واحدة من الصحة كما يقول المذهبيون حين قالوا: «وكلهم من رسول الله ملتمس»، لأن المذهبية إما أن يسقطوا الآخر بالكلية ويجعلون الحق كله معهم، وإما أن يقولوا على طريقة الشعراني في كتاب «الميزان الكبرى»: أن كل المذاهب حق، وإنما يتفاوت الناس فيها على درجة التعبد، فهذا ما يقولونه، هو كسر هذا وقال: هناك قول قوي وقول ضعيف، والعبرة بالنص وليس العبرة بأني أنا صاحب هذا المذهب لأني شافعي، وهذه كسرت هذا المعنى في الناس.

هذه فضائل كتاب «فقه السنة» ولكن الناس عندما لا يهتمون بالأول وينظرون للمتأخر هذا من الظلم، وإنما الأوائل يحفرون بالصخر ويأتي الآخر فيبني، فالناس لا يرون إلا البناء العالي، الناس لا يعودون لكتاب «فقه السنة»، لا يعودون القليل من يعود إليه، والسبب هو أن الناس ارتقوا، ولكن من الذي بدأ الحفر؟ من الذي أنشأ هذا؟ هو كتاب «فقه السنة»، فرحم الله كاتبه رحمةً واسعة وجزاه الله خير الجزاء، وهو من الكتب التي يعني تعلمون أن هذا الدين له علاقة بالغيب، ويذكر العلماء عندما يذكرون انتشار كتاب يعزون الانتشار لإخلاص الرجل، لا تكاد تجد

مسجداً ولا بيتاً إلا وفيه «فقه السنة»، وأنت إلى الآن مهما كانت عندك الكتب وقعت في مسألة أسهل ما تذهب إليه كتاب «فقه السنة»، بعد ذلك تسأل فقيه، تسأل شيخ، لكن أول الأمر تذهب إلى «فقه السنة»، ونسأل الله أن يكون هذا دالاً على إخلاص الرجل وعلى جهده المبارك.

جزاكم الله خيراً وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الخامس والثلاثون

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين، حبيبنا وإمامنا وسيدنا رسول رب العالمين محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس الخامس والثلاثون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [البقرة: ٣٠].

أيها الإخوة الأحبة يعني هذه من الإخبارات الإلهية التي لا يمكن للبشر أن يدركوها بأنفسهم ولا أن تصل أخبارها إليهم عن طريق النقل البشري المجرد المحض، هذه من الأمور التي لا يمكن للبشر أن يعلموها إلا بإعلام علام الغيوب لهم وهو الله سبحانه وتعالى، لأنها لم تجري على هذه الأرض، فلا يمكن أن ينقلها بشرٌ عن بشر وإنما هي من إعلام الله عز وجل، لأنها جرت في السماء وما جرى في السماء لم يشهده البشر ولا يخبر الناس به الناس هذا واحد.

الشيء الثاني: هذه من الإخبارات التي وقعت قبل البشر، والله عز وجل يقول للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ [البقرة: ٣٠]، يعني قبل أن يجعله ولذلك هذا يدلنا على شيءٍ مهم إن هناك من الأمور ما لا يمكن للبشر أن يعرفوها من جهة أنفسهم، بل هي من نِعم الله عز وجل عليهم أن يخبرهم بها، كما قال الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم عن قريش: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا﴾ [هود: ٤٩]، وذلك عن أخبار قوم نوح وهناك أقوام أخبر الله عنهم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧)﴾ [الصافات: ١٣٧]، عن قوم لوط فعُلم أن قريش تعلم قوم لوط ولكنها لا تعلم أخبار قوم نوح عليه السلام، وهكذا، هناك أخبار يعرفها الناس ويتناقلها بعض عن بعض وكما يعرفون مدائن صالح فهم يعرفونها ولكن لا يعرفون مثلاً قوم نوح عليه السلام.

ومن هنا فإن هذا من الإخبار الرباني الذي لا يمكن للبشر أن يطلعوا عليه، والله عز وجل يخبرنا به لأمور ليس لمجرد العلم بها وإن كان العلم في نفسه عظيم، لأن العلم خير من الجهل فمجرد العلم بهذا هو منقبة وفضيلة ويُرغب به، ولكن ليس هذا من المقصد الإلهي فقط، بل هناك مقاصد أعظم يخبرنا الله عز وجل بها وخاصةً أننا نعلم أنه إذا تكرر ذكر الشيء فإن هذا يدل على أهميته، وقصة خلق آدم عليه السلام ذكرت في مواطن من القرآن، ذكرت هنا وذكرت في سورة «الأعراف» وذكرت في سورة «الحجر» وذكرت في سورة «ص» فذكر هذا الخبر مفصلاً هنا ومجملاً هنا ... إلخ.

كما ذكر ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، وعدم سجوده كما ذكر في سورة «الإسراء»، وذكر في سورة الكهف، أي أن هذا الخبر توزع في القرآن وتوزعه في القرآن يدل على أهميته.

إذن أولاً: هذا من الإخبار الإلهي، فهذا من كرامة الله عز وجل لهذه الأمة، أن يعلمها صفاء هذا الخبر كما هو دون أن يدخل فيه خلائط أفكار البشر كما نرى في التوراة، فإننا إذا رجعنا إلى التوراة إلى السفر الأول سفر التكوين نجد خرافات، هذه الخرافات هي التي جعلت الإلحاد ينتشر في صفوف من آمن بهذه الكتب بعد تحريفها، إنما هنا الله عز وجل منَّ علينا بأن أخبرنا، أخبرنا عن طريق رسولنا صلى الله عليه وسلم وسنبين هذه الفضيلة للرسول صلى الله عليه وسلم، إذن هذا أمر.

الأمر الثاني: أن التعداد يدل على الأهمية، التكرار يدل على الأهمية، والتكرار لا بد له من متعلق بمعنى لما يقول الله عز وجل: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾ [الرحمن: ١٣]، فأنه تذكر هذه الآية لذكر النعمة التي تعلقت بها ولذلك يكون معناها ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾، أي الألاء هذه وليس كل كلمة ألاء في سورة «الرحمن» هي نفسها في كل آية، يعني ألاء كل آية في سورة الرحمن لها معنى يختلف عن المعنى للآية التي تليها من ذكر كلمة الألاء، فإن التكرار له تعلق بما يتقدم به ذكره، ومن هنا فإن وضع هذا الأمر في أي سورة يكون له تعلق بما تقدم سياقه وسباقه من المذكور، ليتعلق به، ولفائدةٍ عظيمة سنأتي عليها.

فهنا مثلاً لماذا يذكر هذا الأمر هنا؟ بلا شك أن سورة «البقرة» هي السورة الجامعة، السورة الجامعة لأخبار القرآن والسورة الجامعة لأحكام القرآن، فأن يذكر فيها أمر الإنسان وكيفية خلق ابن آدم وكيف خلق آدم وكيف أنزل، وما حدث هذا لأن سورة «البقرة» يتعلق بها أصول الأحكام ويتعلق بها أصول الأخبار ولذلك جاء ذكرها.

الأمر الثالث: لو نظرنا إلى السياق فإن الله عز وجل قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، انظر فقط هنا في سورة «البقرة» كما تقدم ذكرت كلمة الموت قبل الحياة، وإن كانت ذكرت في غيرها كما في سورة «الحج» الإحياء ولم تذكر الإماتة، والله عز وجل قال: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، ذكرنا هذا، ولكن كيف كنا أمواتا؟ كيف كنا لا شيء؟ فجاء الذكر مفصلاً من ابتداء الأمر قبل خلق آدم، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: ٢٨]، كيف كنا أمواتًا، فالسؤال ليس فقط كيف خلقنا، ولكن السؤال كذلك فوق ذلك وهو كيف كنا أمواتًا؟ فجاء ذكر هذا الأمر كيف كنا أمواتًا، وماذا جرى مما يتعلق بنا من الموت، إذن يذكر هذا الأمر لأن سورة «البقرة» يتعلق بها أصول الأخبار ويتعلق بها أصول الأحكام فكان هذا الخبر هو يتعلق بنا، يتعلق بهذا الإنسان وكذلك ذكرت بهذا السباق لأن الله عز وجل ذكر مواتنا وذكر إحياءنا ثم ذكر إماتتنا بعد إحيائنا ثم ذكر إحياءنا بعد إماتتنا فجاء ذكر هذا الأمر كيف بدء.

السؤال الآخر الذي كذلك له تعلق بما نحن فيه، وهو لماذا تكرر هذا الأمر ما أهمية ذكر علاقة الإنسان بإبليس، علاقة ابن ادم بإبليس وما جرى في السماء؟ هذا من حكمة الله عز وجل إن الله عز وجل –كما تقدم ذكر هذا كثيراً في دروس التفسير وفي غيرها– إن الله عز وجل من رحمته ومن حكمته، وهذا تعليمٌ لنا في تعليم الخلق وفي الإبانة ألا نقذف إليهم الأحكام بلا مقدمات، وألا نقذف إليهم المقررات بلا مقدمات، لا بد أن نبدأ بهم بداية توصلهم إلى الحقيقة ثم تبين لهم الحقيقة فيكون الخبر الذي سيق يلائم المقرر الذي أراده الله عز وجل أو أراده المتكلم، ونحن نتكلم عن القرآن أي أراده الله عز وجل.

فالله عز وجل يريد أن يبين عداء هذا المخلوق، وأن الصراع يدور معه، وأن هذا المخلوق له صفات وله مقاصد عليكم أن تنتبهوا لها وأن تهتموا لها، وأن حياتكم كل حياتكم في هذه الدنيا إنما تدور حول هذه النقطة، وهي قضية من أخرجكم من الجنة وكيف تعودون إليها؟ وكيف سيسير مسار حياتكم في هذه الحياة الدنيا؟ ومع من؟ ومن هو خصيمكم؟ فهذا لو أن المرء يعقل على كلام ربه حين يسوق له هذه الأخبار العظيمة فأنه سيعلم عداء هذا المخلوق له، كما كان عداء هذا المخلوق لأبيه من قبل ثم سرت هذه العداوة إلى كل بنيه من بعده.

فإذن هي قضيةٌ مهمة هو أن تعلم من هو العدو، من هو عدوك في هذه الحياة الدنيا، من هو الذي جنى عليك؟ من الذي أنزلك إلى دار الشقاء؟ يخرجك من الجنة فتشقى، من الذي أشقاك وجعلك في هذه الحياة؟ وكيف تعود؟ وأن الصراع قائم، وماذا قرر هذا العدو؟ ما هي صفاته؟ وما هي منافذ الشر التي أوقعته في البلاء، فيجب عليك إن تجتنبها، أي كيف جنى إبليس على نفسه بأسباب وعليك أن تجتنب هذه الأسباب.

هذه قضايا كما ترون تشمل الحياة تشمل الوجود، تشمل حياتنا كلها، فهذا الذي ينبغي أن ننتبه له، إذن تكرار هذه القضايا، المقصد الأول هو هذا، ثم هناك تأتي مقاصد تبعية، المقصد الأصلي والمقاصد التبعية، فالمقاصد التبعية كثيرة، منها بيان هوان خلقنا في أصله، وكما سيأتي أن أصل خلقك لا قيمة له وإنما القيمة لما أعطيت له من العلم، فإن الكل يجمع على أنك لو لم تترك للروح التي نفخت فيك والعلم الذي عُلمت إياه فإنك مجرد طين لازب حمائم مسنون وأنت كذلك من ماء مهين إلى غير ذلك، فلا قيمة لك هذه من المقاصد التبعية التي علينا أن نهتم لها؛ لأن منافذ عداء الشيطان لنا ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، الاستكبار ومنافذ كل معصية كما قال الإمام مالك رحمه الله كل المعاصي تلتقي بالإباء والاستكبار والحسد، والإباء والاستكبار من إبليس والحسد من ابن ادم، هذه أركان المعاصي في الوجود.

فأركان المعاصي في الوجود هي الإباء والاستكبار والحسد، حين تذكر هذه المنافذ الشيطانية ويذكر أصلك أنت، ماذا أنت، فكيف يأتي الكبر؟ كيف يأتي الغرور؟ قد يقول قائل: فكيف نرد الحسد في ذلك؟ نرده بالقدر أن كل شيءٍ مقدر، ولذلك ماذا قال؟ أين القدر هنا؟ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]،

هو يخبرهم مع أن الحدث سيدور في السماء، وكأن الأمر مقدر قبل وقوعه في السماء أن ينتهي الأمر إلى الأرض، فهو مقدر، فإذا كان الأمر مقدراً فلما الحسد، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، هذا إثبات لقدر الله لعلمه السابق لما سيكون ولقدره المحكم الذي لا يخرج عنه أحد، بما قدر من عدله رحمته وعلمه وسابق علمه جل في علاه، إذن هناك مقاصد تبعية كثيرة تتبع الأمر.

الأمر الآخر أن كل سياقٍ يناسب قضيته، هذا الذي قلته في تعلق التكرار بما يذكر قبله، لماذا؟ يعني مثال ذلك: نحن نلاحظ في سورة «البقرة» أنها السورة الوحيدة التي لم يذكر فيها أصل ابن آدم، الآن لو أنه طُلب منا أن نجمع مواطن ذكر خلق آدم عليه السلام وما جرى في السماء وكيف أنزل وما جرى من حوار فرأينا المشتركات في جميع السور لرأينا هناك يعني حالة مشتركة وقسمةً مشتركة بين جميع المذكور في كل السور، ثم نجد أن كل سورة قد اختصت بأشياء.

مثال ذلك: ما نحن فيه، أن سورة «البقرة» لم تذكر أصل آدم، لم تذكر أنه من طين ولا من حمأ مسنون ولا خلقت بيدي ولا ... أبداً مع أنها تشريف، ولم يذكر فيها، وإنما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ولم يذكر كيف هو، وكيف خلق، لماذا؟ لأن تعلق سياق سورة «البقرة» إنما هو من أجل المدح الإلهي لهذه الخِلقة، ولذلك ذكر له الإسجاد، وذكر التوبة عليه بل لم يذكر لنا ماذا قال حين قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾ [البقرة: ٣٧]، لم يذكرها؛ ذلك لأن المقام هو مقام مدحٍ لابن آدم، ومقام ذكر أصله لا يتلاءم مع هذا الذكر، فلم يأتي.

إذن علينا أن ننظر وهذه قضية مهمة علينا أن ننظر في كل سورة سياق ذكر هذه القصة، لماذا ذكرت؟ فنعلم وجهها ونرى التناسق بين السياق وبين ما يذكر فيها من خصائص لم تذكر في غيرها.

والبحث في هذه الآيات أمرٌ عظيم، والبشرية لو تركت بنفسها تبحث في ابن ادم وكيف خُلق لما وصلت إلى حل، لما وصلت إلى نتيجة، ولما الناس يتركون من غير هداية الوحي والحق النازل من السماء، فإنهم يتخبطون ومن ذلك قولهم: بأن الإنسان صدفة، وبعضهم يقول: هو خلية نبتت من الأرض إلى غير ذلك، ولا يرون أن الإنسان كما هو نزل إلى الأرض، أن آدم عليه السلام كما هو نزل إلى الأرض بعد أن كونه الله عز وجل في السماء.

نعود إلى ما ذكر في هذه الآية: الله عز وجل يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠]، وهنا تقدم الكلام قليلاً وقد أشار إلى ذلك بعض المفسرين كأبي السعود رحمه الله في أن هذا السياق إنما هو مقام مدحٍ لرسولنا صلى الله عليه وسلم ولذلك الخطاب هنا مع أنه خطاب للبشرية إلا أنه خطابٌ لواحدٍ تنفذ منه المعالم التي تراد من هذا النص إلى البشرية، وكأنه هو المقصود الأصلي بالخطاب، وبقية البشر تبع له في المعرفة.

فحين تأتي الكرامة الإلهية لواحد لأن المقام مقام ... انظر لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، والخلافة مقام تشريف، لما تحمل من أعمال، يعني يمكن للمرء أن يخلف أحداً على أعمالٍ ليست جليلة وليست قيّمة، فلا يكون خليفة له قيمة، لكن إذا كان الاستخلاف من الله عز وجل فدل على أن هذا الخليفة يحمل كرامةً عظيمة من الذي استخلفه والله عز وجل الذي استخلفه فإذن المقام مقام تشريف، ويقول له والخطاب ليس لهم، مع أن الجميع، ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ هي لكل إنسان إلا أن الخطاب توجه إلى رسولنا صلى الله عليه وسلم إلى واحد، فكأن الكرامة منفذها إنما تقع باتباع هذا الرسول وبأخذ العلوم منه دون غيره وكأنه هو المخاطب الأصلي لعظمته وقيمته وأهميته ثم تكون بقية الأخبار إلى الغير تبعيةً له، ومن هنا يأتي مقام النبي صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠]، تقدم الكلام عن الرب وقوله الملائكة من غير تطويل والعلماء لهم كلام طويل في اشتقاق اللفظ لكلمة ملائكة منهم من قال: ملك، وهي مألك أصلها كشمائل من شمأل ولكن لما جمعت فقيلت شمائل فملك ملائكة، لأن أصلها مألك وهي من القوة، وقيل: من الألوكة، فالألوكة معناها لغةً الرسالة، فكان هو الذي يحمل الرسالة، وعلى كل حال فقد انتهى الخصام في الاشتقاق إلى أن الملائكة هم خلقٌ قد خلقوا من نور، ولهم مهمات وفيهم صفات مبحثها تُجمع من كتاب ربنا في أنهم لا يعصون الله ما أمرهم، أنهم خلقوا من نور، أنهم المسبحون الصافون إلى غير ذلك، وأنهم حملة الخيرات للبشر وحملة الوحي للبشر، لهم أعمال لا نريد أن نقف عندها وليس المبحث مبحث عقدي يتعلق بأعمال الملائكة واعتقاد المسلم في من هم الملائكة.

لكن هنا يبقى السؤال هل هذا إخبارٌ لجميع الملائكة؟ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ هل هذا إخبار لجميع الملائكة؟ أن الله عز وجل أمر جميع الملائكة بأن يعلموا هذا، أم أنه إخبار لبعض الملائكة دون بعض، في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص: ٧٥]، في هذه الآية بيان على أن هناك قسمٌ من الخلق ما لو وجد فيهم المخلوق لكان له الحق أن لا يسجد، لقوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾، فإذا كانت متوجهة إلى قسم فامتنع أحدهم فيكون قد استكبر، وإذا كان الأمر متوجه إلى جماعة وهناك جماعة أعلى منها لا يتوجه إليها هذا الأمر فيكون من العالين.

فالذي أعتقده في هذا أن الله عز وجل لم يأمر جميع الملائكة إنما أمر بعض الملائكة من هم لو أراد أحد الذين سخروا لخدمة الإنسان لأن هناك من الملائكة ما لا علاقة لهم بالإنسان خدمة وقد يكون لهم أعمال مع البشر كاستغفارهم للبشر وهذه ليست من الخدمة، يعني النبي صلى الله عليه وسلم يستغفر لأمته فهل استغفار النبي صلى الله عليه وسلم لأمته خدمة، تجعله متدنٍ عن بقية أمته؟ لا، فالله عز وجل أمر كما في سورة «غافر» وكما في سورة

«الشورى»، في سورة «الشورى» أمرهم بالاستغفار للناس وفي سورة «غافر» للذين آمنوا، وهذا مبحثه إن شاء الله عند كل موطنٍ إذا أتينا إليه.

فهناك من الملائكة ما ليس لهم من أعمال التسخير لابن آدم، ليس من أعمالهم أنهم سخروا لابن ادم لا لخدمته ولا للقيام بشأنه، والملائكة تُسخر لابن آدم ويعمل لها عملها، ولكن هناك من الملائكة ما ليسوا كذلك، وأنا أعتقد أن قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص: ٧٥]، تُخرج نوعاً من الملائكة أو نوعاً من الخلق، ولا يمكن أن يكون إلا نوعًا من الملائكة، هؤلاء النوع هم الذين لم يوجه إليهم الأمر بالسجود لآدم، فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠]، إنما هم للملائكة مخصوصين، والذي أخرجنا من هذا المأزق إمام الأصول الذي قال: «هذا عامٌ يراد به الخصوص»، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، والمقصود به بعض الناس الواحد أو الاثنين أو الثلاثة.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾، دل على أن الأمر قد قضي وانتهى فيخرج من ذلك أفهام بعض الجهلة المعاصرين من أن الله عز وجل استشار، لأننا نجد أن بعض المتكلمين بجهل في كتاب ربنا يقول: إن الله استشار الملائكة، وهذا جهل، فقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾، فهذا دليلٌ على أن الأمر قد انتهى ودل على أن الله عز وجل قد قضاه، وإنما يخبرهم ويعلمهم ويبلغهم فقط ولا يزيد الأمر عن ذلك، لا يستشيرهم.

والآن يأتي السؤال: فماذا كان نوع مقالهم فيه؟ إنما هو الاستفهام لا الاعتراض، الملائكة لا تعترض، يعني يستفهمون هم يريدوا أن يستفهموا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، وليس هذا من قبل هذا الاعتراض، الملائكة أعظم وأجل من أن يعترضوا على ربنا سبحانه وتعالى.

وفقط هنا للذكر تعرفون أن بعض الجهلة من المعاصرين زعم أن الملائكة لم يرد في القرآن قط أنهم يؤمنون، والله عز وجل قال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧]، فذكر ربنا سبحانه أن الملائكة يؤمنون به، وقد يقول قائل: كيف يؤمنون به وهم يرونه؟ فقال بعضهم: لا يرونه كما قال الزمخشري، قال: هذه الآية دليل على أن الملائكة لا يرون الله عز وجل، وبعضهم قال: إنما ذُكر هنا الإيمان للتشريف، على كل حال هم يؤمنون بالله عز وجل، وهذا ردٌ على هذا الجاهل.

فقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾، هو حسمٌ للأمر وإبلاغٌ للقضية وليس هناك ثمة استشارة ولا كما يقولوا الرأي والرأي الآخر، فبعضهم سمعته مرةً يقول: أن هذا يدل على وجود الرأي والرأي الآخر حتى في السماء، وهذا من منتهى الجهل ومنتهى الغباء ومنتهى المهانة في القلوب في حديثهم عن ربنا سبحانه وتعالى.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾، ولم يقل: إني خالق، ونحن تكلمنا مرةً في سورة «الأنعام» وربما ذكرتها هنا في تفسير سورة «البقرة» أن هناك فرق بين الخلق والجعل، وقلنا: الخلق هو الإيجاد من العدم، والجعل هو تحول الشيء من شيءٍ إلى شيء، أو أخذ بعضه، ليكون شيئًا، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ [النحل: ٧٨]، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾، أي أخذ منكم جزءاً مما خلقته وجعلته سمعًا وبصرًا وفؤادًا، كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، فالظلمات والنور متحولة من شيء إلى شيء، وأما السماوات والأرض فموجدة من غير شيء وهو بديعٌ بها جل في علاه، فالجعل هو على هذا المعنى والخلق على هذا المعنى، فانظر إلى قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ولم يقل: إني خالق، فدل هذا على أولاً على ما تقدم وهو أمرٌ مهم وقلت لكم وأكرر: إن أعظم ما يفسر به القرآن هو معرفة ربنا ومعرفة أفعاله ومعرفة أحكامه ومعرفة نفسه جل في علاه.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فدل هذا مع إنه يدور الحدث في السماء على أن الله عز وجل يعلم ما سيؤول إليه الأمر، وإذا كان هذا مما يعلمه الله عز وجل فهل يعاتب آدم عليه السلام على فعله؟ الجواب: نعم، قال تعالى: ﴿وَعَصَى (٢١)﴾، ربنا سبحانه وتعالى سمى فعله معصية، قال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢)﴾ [طه: ١٢١-١٢٢]، فقوله: ﴿فَعَصَى﴾، فإذن هو عصى ثم وفي آية أخرى ﴿فَغَوَى (١٢١)﴾ [طه: ١٢١]، فهذا مما يدل على أنه مؤاخذ، ولذلك في حديث الشفاعة يوم القيامة عندما يأتون إلى آدم عليه لسلام فيقولون: أنت أبونا فاشفع لنا، يقول: (أنا أذنبت واليوم غضب ربنا غضبًا لم يغضبه قط ولم يغضبه بعد، فاذهبوا إلى نوح)، فدل هذا على أنه عصى فدل على أن العلم لا ينفي تسمية المعصية.

لكن ما جرى من حوار بين موسى عليه السلام وبين آدم عليه السلام عندما عاتبه –وهذا له موطن فيما نحن فيه عندما– عاتب موسى آدم عليهما السلام بأنك أخرجتنا من الجنة والحديث في الصحيح، قال: (أنت أبونا وأنت أخرجتنا من الجنة)، فقال آدم لموسى: بما علمت أن الله كتب علينا أن نخرج من الجنة، بكم علمت هذا؟ قبل كم؟ قال: (بخمسين ألف سنة)، أي أن الله عز وجل كتب إخراج آدم من الجنة قبل أن يدخله الجنة بخمسين ألف سنة، فحج آدم موسى عليهما السلام سكت إذن هو مكتوب، فقالوا: هذه لا يجوز لأحد أن يحتج بها على أن القدر يسقط الذنب ويسقط الإثم ويسقط العقوبة؛ لأن كل شيء مقدر، فقالوا: إذن بما حج آدم موسى عليهما السلام؟ قال: حجه بآثار المعصية، الآثار ليست من فعلك، الفعل قد تكون له آثار تترتب عليه فهو غير مؤاخذ عليها.

فآدم عليه السلام مؤاخذ عما عصى، لكن ما جرى بعد ذلك من آثار تترتب على هذه المعصية ليست من فعل آدم عليه السلام، هو عصى فمؤاخذ بالمعصية ولكن لا يؤاخذ بما جرى بعد ذلك من آثارٍ عليها، فحجه أي في رده

لأن موسى عليه السلام لم يعاتب آدم عليه السلام في أنه عصى وإنما عاتبه في الآثار أنت أخرجتنا، أنا لم أخرجك، أنا عصيت ولكن الأثر ليس مني، هذا كتبه الله علينا أن نخرج، فقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، هو مقرر أن ينزل وذلك لا عتب على آدم عليه السلام في إننا في الأرض، إنما العتب على إبليس، وبعد ذلك الله عز وجل أوجد من الخيرات في الأرض ما يرد بها على الملائكة قبل أن يرد على غيرهم كما سيأتي من الحديث.

إذن قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾، لم يقل: إني خالق، فدل على أن الحدث سيدور أين؟ الخلق أصلاً أين سيدور؟ ما قال: إني خالق في الأرض خليفة، لو كان كذلك لكان أصل خلقته وزمان خلقته ووقت خلقته الأول يجري على الأرض، لكن لما كان خلقه سيكون في السماء ثم ينتقل هذا المخلوق من السماء إلى الأرض، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وهنا نحن أمام أمر وسنستبق الحديث لأنه يتعلق بهذا الكلام الذي نحن لدينا، وخاصةً أن الكثير يسألونه وهذا سؤال دائماً يتكرر من العوام والملحدين وبعض المطّلعين عند قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وعندما قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)﴾ [البقرة: ٣١-٣٢]، لما قيل لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾، فيعرفون معنى الجعل في الأرض فيعرفون من هي الأرض، وقوله: ﴿خَلِيفَةً﴾، يعلمون هذه الكلمات، يكفي أن نعلم أنهم يعرفون هذه الكلمات، لما قال الله لهم: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، قال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢]، لكن دل على أنهم يعلمون هذه الأسماء.

قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فدل على أن الملائكة تعرف مدلولات هذه الكلمات، أي تعرف الملائكة أنه هناك ثمة أرض، وهي كذلك وما فيها لأن هذا إجابة على قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، فإذن هم يعرفون الأرض ويعرفون ما هي ويعرفون معنى خليفة، فيعلمون أن الله عز وجل هو الذي يجعل الأشياء تتحول وتصير أو يُقتطع منها شيءٌ فيكون شيئاً آخر إلى غير ذلك يعرفون هذا، الملائكة تدرك ذلك وتراه، وكذلك يعلمون الأرض فدل هذا على أن الأرض مخلوقة قبل هذا الحوار كله وقبل هذا الحدث، وقطعاً أن هذا جرى في السماء؛ فدل على أن السماء والأرض مخلوقتان قبل أن يخلق ابن آدم، ولكن دل على أنهم يعرفون الأرض وتاريخ الأرض، يعرفون الأرض لأنه يقول: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ﴾ [البقرة: ٣٠]، إذن هم لا يعرفون فقط الأرض ولكن يعرفون كذلك تاريخها، هذا سيجيب على كثير من الأسئلة التي ستأتي.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾، بينا قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ونحن نعلم ما هي، قوله: ﴿خَلِيفَةً﴾، هنا العلماء لهم أقوال متعددة هناك قولان مشهوران مذكوران ولا يعيب أحدهما على الآخر بتبنيه وهناك قولٌ ثالث هناك عيبٌ ومعركة

حوله، قول ثالث يقول به البعض فجرت معركة بين النفاة وبين المثبتين، بخلاف القول الأول والثاني فإن المثبت والنافي على وفاق.

القول الأول: أن خليفة أي أنه يخلف بعضهم بعضاً، وفي ذلك نعيٌ لابن آدم يعني هذا أمرٌ يستطرد فيه دل على أن الإنسان منعيٌ قبل أن يخلق، هو نعي قبل أن يوجد، ذلك لقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، دل على أنكم لن تعيشوا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ﴾ [البقرة: ٣٠]، هذا على ماذا يدل ﴿مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ﴾، هل يدل على أن هذا الخليفة له عمرٌ طويل أم له عمرٌ قصير؟ له عمرٌ قصير، ودل هذا على أن الكثير يموتون بالقتل ولا يموتون خلقة ولا يعني قدراً هكذا بلا دخول مسببٍ خارجيٍ عليهم، فعلينا أن نعلم هذه السنة، هذه مهمة جداً أن نعلم أن سنة الحياة تقوم على التدافع، أن سنة الحياة في أصلها لا يمكن أن يتحقق فيها معنى السلام الذي يريده البعض جهلاً ويريد به التوافق بين البشر لا يكون هذا. ولذلك الله عز وجل جل في علاه كما سيأتي سكت عن قولهم مقرارًا له، ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، هذا أقرهم ولكن دلهم على شيء آخر لا يعرفونه، وأما هذا القول الذي قالوه فقد أثبته يعني أقره جل في علاه.

فإذن الخليفة المعنى الأول أن يخلف بعضهم بعضاً وهذا يترتب عليه ما تقدم مما قيل في أن هذا نعيٌ لابن آدم، أن ابن آدم منعيٌ قبل أن يخلق.

القول الثاني: أنه هذا خليفة لمخلوق قد سبقه وهم الجن، ذلك لأن الجن خلقوا قبل الإنس كما هو مقرر في كتاب ربنا عز وجل، فإذن خليفة أي خلف هذا الإنسان خلف غيره وبهذا استدل من استدل على أن الملائكة قالوا: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، لأنهم علموا –على هذا القول وسيأتي طبعاً إن شاء الله أقوال أخرى فيما قاله العلماء ولكن في قوله: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ من أين اتوا بهذا؟ قال: بعضهم إنما علموا ذلك بما شهدوه من الأرض، يعني كأنهم يقولون: يعني سنعود مرةً أخرى لما جرى، سنعود مرةً أخرى ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ فإذن لماذا تجعل فيها؟ لأنه قد جعل قبل ابن آدم في هذه الأرض هم الجن، كما ذكر ابن عباس أنهم نزلوا إلى الأرض ففسدوا فيها وقتلوا فيها، هذان القولان لا حرب بينهما، والذي يقول هذا لا يخاصم هذا وإنما يختار ويرجح.

ولكن الذين يقولون: خليفة الله، هنا تبدأ المعركة والطعن بين المثبت وبين النافي، ماذا يقول النفاة؟ النفاة والرافضون لكلمة خليفة الله يقولون: بأنه لا يكون الشيء خليفة إلا إذا غاب الأصيل؛ لأن الخلافة توكيل وكالة، كما أنت تخلف رجلاً يقوم على مصانعك، يقوم على تجارتك، يقوم على حماية مالك فتخلفه فتذهب، وأنت لا تخلفه إلا وقد

غبت، فإن الخليفة لا يكون إلا بالغياب، خلفه لأنه حل مكانه فلا يكون الخليفة خليفة إلا إذا حل مكان الأصيل، فقال هؤلاء: كيف يجوز لكم أن تعتقدوا بوجود الخليفة لله عز وجل؟ حين تجعلون في هذا المعنى الذي تقولونه كأن الله عز وجل غاب عن هذا الوجود فحل الإنسان بدلاً منه؟ وبالتالي هذه لا تصح، أي لا يجوز لأحد أن يقول: إن الإنسان هو خليفة الله في الأرض لهذا المعنى وهو أنه لا يجوز اعتقاد غياب ربنا، لا نتكلم هنا عن الغياب الشرعي كما يعتقد البعض يعني أن الله خلق الخلق ويديره ولكن لا دخل له في تشريعات، الله خلق لهم العقول فليديروا أنفسهم بأنفسهم هذا لا نتكلم عن هؤلاء ولكن نتكلم عن قضية القدرية.

الآخرون جاءوا إلى معنى لطيف ويمكن أن ينازعوا فيه ولكنه معنى لطيف، انتبهوا لدقة ما يقوله المخالفون، وهنا أنبه على قضية علمية مهمة جداً، ينبغي أن تكون عالماً بمذهب الخصم مثله، بل ربما تزيد عليه من أجل أن ترد عليه بإنصافٍ وعلم؛ لأننا نجد أن عامة من يرد على كثير من الأقوال لا يفهم الأقوال، لا يقرأها، يقرأ الجملة كمن يفعل الآن وهذا نراه كثيراً هذه الأيام وقد ملأوا السهل والواد، ملأوا الجرائد ملأوا وسائل الإعلام ملأوا وسائل الاتصال، المرء يقرأ العنوان وربما يكون العنوان ليس هو صاحبه، وإنما وضعه مغرض فيرد المرأة على العنوان وربما يقرأ جزءاً من الكلام ولا يقرأ الاستثناء ولا يقرأ الإضراب، ولا يقرأ التفصيل، وخاصةً في هذا الزمن الذي انتشر فيه الجهل ومن أعظم الجهل هو أن يضيق عقل المرء فلا يتسع إلا لموضوع، فإذا ادخل فيه آخر لم يتسع له، وهذا بسيط أن نشرحه كمن لا يتسع قلبه إلا لحب واحد فلا يتسع لحب اثنين، وهذا قلناه قديماً لما كانوا يقولون: «لا يتسع قلب امرئ لحب عثمان وحب علي إلا فحول الرجال»، أي أن تحب عثمان وأن تحب علي في وقت البعض يضيق جهلة، ولا يستوعبون لا يستطيع أن يحب هذا ويحب هذا في وقت، وهو يتصور أنه إذا أحب واحدًا فلا بد أن يغاضب الآخر، وهكذا تجد هذا كثيراً والناس لا يستوعبون التفاصيل.

ومن أسباب ذلك ما نحن فيه في أن الكثيرين لا يعرفون ما تقول فيردون على ما يفهمون وما يتصورون فيك، ويتوهمون من أقوالك، وليست هي من أقوالك في شيء ولذلك من العلم الذي يجب أن يعلم إن على المرء ألا يرد على أحد حتى يستوعب قوله، من هنا مُدح ابن تيمية رحمه الله، في أنه يعرف أقوال الخصوم أكثر مما يعرفها أهلها، وحين تعرف قول خصمك تعذره، هذا جانب آخر من جوانب العلم، أي أنت إذا فهمت دقائق كلامه تجد له مجالاً من النظر تعذره وخاصةً نتكلم في إطار ما هو اجتهادٌ إسلامي، أي قاله بعض المسلمين.

هل تتصور مسلماً يقول: أن الإنسان هو خليفة الله في الأرض معناها أنه قد خلفه وانتهى تقدير الله عز وجل وقدره في الأرض فصار الإنسان هو الذي يقدر، هل تتصور مسلماً يقوله؟!! لا يمكن؛ لأن هذا القول كفر وردة، أنت تلزمه به ولكن هو لا يقول به، فانظر إلى دقة ما يقولون وربما أنت تنفيه لعارضٍ أقوى منه هو المعنى موجود ولكن تنفيه لعارضٍ أقوى منه أو لمعنى يحصل في نفس السامع صعبٌ أن يستوعب هذا الدقيق فتنفيه، لماذا تنفى

الأمور؟ هل لأنها ليس لها وجه من الصحة؟ هذا لا وجود له في الشرع، وخلاف العلماء وأهل الإسلام، لا يوجد، وإنما ينفى قول الناس لأن المثبت عندك أقوى من المثبت عنده، هو صراع بين مثبت ومثبت بين قولٍ وقول، فهذا قول أقوى وهذا قول أضعف له وجه من النظر لكن هذا القول له ليس وجه له وجوه من النظر.

السبب الثاني الذي ينفي أنك لا تفعله، لا تقوله؛ لأن هذا المعنى الذي تريده وتقوله لا يمكن أن يخطر على بال السامعين لا يخطر على بالهم، لا يخطر إلا هذا المعنى فنفه، ومن هذا فإن النبي صلى الله عليه وسلم عندما جاء اليهودي فكان الصحابة يقولون: «ما شاء الله وشئت ويا محمد» ولا يعيب عليهم، لأنه مقرر في أذهان الصحابة أن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس مثل الله عز وجل نعوذ بالله، هذا عابدٌ وهذا معبود هذا مربوبٌ وهذا رب، هذا ربٌ وهذا عابد.

ولكن لما جاء اليهودي وقال: إنكم تشركون، قالوا: ماذا نقول؟ قال: تقولوا ما شاء الله وشئت يا محمد، فإذن حصل أنه يمكن أن يقوم هذا المعنى في نفس السامع حتى لو كان خصماً، هذا المعنى ليس في نفوس الصحابة رضي الله عنهم ولكنه نشأ في نفس يهودي، فقال: (صدق اليهودي، قولوا: ما شاء الله ثم شئت)، على الرغم أن ثم هذه لا يعرفها العربي اليوم، يعني أنت الآن لو ذهبت إلى المسجد قلت لهم قولوا: ما شاء الله وشئت أو ما شاء الله ثم شئت، ماذا يفترق عند العامي في هذه الأيام؟ بل عند كثير من المشايخ ماذا يفترق بين «ثم» و «و»؟ لا فرق فالمعنى عنده واحد وأنت تبدأ تفسر له ثم يعني أقل درجة حتى لا يختلط لأننا ثم للتراخي، لابد أن تجعل فجوة بين هذا وهذا ... إلخ. ولكن العربي فهمها.

فالقصد: أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك لماذا؟ لما ينشأ من معاني باطلة، فأنا أريد أن أريكم في هذه المسألة أن الذين جعلوا كلمة خليفة الله في الأرض تقتضي الشرك هذا ليس لمعناها في أصلها عند من أجازها، وإنما لماذا؟ لما ينشأ في أذهان بعض الناس هكذا يقولون، على الرغم أن هذا بعيد في الحقيقة يعني لا أحد يقول: والله الإنسان خليفة الله في الأرض أنا أتكلم عن المسلمين، لا أتكلم عن الملحدين الذين قالوا ما قالوا فيما تكلمنا، قالوا: إن الله خلق واعتزل، أن الله خلق وترك ولم يقم بشأن البشر، هؤلاء ليس الحديث يدور حولهم، والحديث بين أهل الإسلام في هذه المسائل.

نذهب إلى ما يقوله هؤلاء، أنا أطلت لأهميتها لأنها مهمة في بيان مناهج المشايخ والعلماء في البحث، ماذا قال الآخرون؟ قالوا: الله عز وجل أقام له مقام الربوبية في الأمر في طاعة الخلق له، الله عز وجل هو الرب لأن مقامه في الخلق أن يأمرهم فيطيعونه هذا كلام قدرًا، يقول: للشيء كن فيكون، أفعل فيفعل إذا أمره أمراً قدريًا، لا تفعل لا يفعل، مت فيمت، كن فيكون، لا يكون فلا يكون، للشيء كن وهو موجود ثم يفنيه لا تكن يذهب وينتهي، هذا هو مقام الربوبية في الخلق.

فجاءوا وقالوا: ولكن كثيراً من هذه المعاني قد تحققت باستخلاف الله عز وجل لهذا العبد في هذا الكون، يقول: للشيء فيما استخلف فيه إذناً قدرياً كن فيكون، على المعنى البشري وليس على المعنى الإلهي في أن يوجد ولا يوجد هذا ممنوع -أنا أتكلم فيما يحق للبشر- كيف؟ الله عز وجل حين سخر الأشياء للإنسان فبتسخير صارت طائعةً له يأمرها فتأتمر يزرعها فتنبت، هو يزرعها فتنبت، يجر الحمار فينجر، يزجر الكلب فينزجر، يستنبط الماء فتأتي الماء له، يشرب الماء فتعطيه الري، إذا أراد أن يحرك هذا حركه، أنا أريد أن أحركه وحركته، هذا كله من ماذا؟ قالوا: من استخلاف الله عز وجل للعبد في هذه المقامات، إن الله استخلف الإنسان في مقام كن فيكون فيما جاز للإنسان، أن الإنسان إذا أراد شيئاً حصل له وإن كان بالإذن الإلهي السابق حين الاستخلاف وبالإذن الإلهي الفردي حين وقوع الشيء، أي لو أن الله أذن لي أن أحمله ما حملته، مع أنه مأذونٌ لي في الأصل أن أحمله، فهذا هو الاستخلاف، هذا المعنى الذي قالوه، وهذا الذي هم أرادوا به تعظيم مقام البشر في هذا الإنسان هذا المعنى موجود معنى صحيح، ليس من الشرك في شيء ولا من الكفر في شيء.

لكن لو سألت سائل: هذا المعنى الدقيق الموجود يمكن أن يتحدث به العلماء، وممكن أن تحاور به العقلاء الذين يفهمون لكن كيف يمكن أن توصله للعامي، وهو إذا قلت له خليفة ربما تطرأ عليه من المعاني أشد من قوله: «ما شاء الله وشئت»، مع إنه لا يريد مسلم يجعل الرسول صلى الله عليه وسلم في مقام الرب إلا من الجهلة الصوفية الذين هم أشركوا وكفروا وجعلوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحتكم من العرش إلى الفرش، هذا لا حديث حوله إنما الحديث عن المسلم وعوام المسلمين الذين صفت عقائدهم وخلت من هذه البدع الضالة.

فحينئذٍ نقول: لا لمثل هذه المعاني الخفية والتي ربما تطرأ على ذهن المرء ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، خليفة الله يعني فيها ثقل ننهى عن ذلك، ولكن لا ينبغي أن تحمل على أنها شرك وكفر على ما يقوله الخصوم لمن يقول هذا المقال، وأما فهل هذا المعنى الذي قالوه صحيح؟ المعنى الصحيح، هل نرده؟ بما ردنا به؟ نقول هذا: معنى صحيح لكنه لا يقوى على دفع ما هو منه أو لمخافة حدوث معنى باطل في نفس السامع، وإلا فالله عز وجل ذكر في كتابه جل في علاه الخليفة كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، كما قال: عن عاد، وقال تعالى عن قوم صالح: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤]، فجعلهم خلفاء خلف بعضهم بعضاً وهكذا وكذلك الله عز وجل يجعل الناس خلائف في الأرض.

هنا انتهى هذا التقرير الإلهي ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، هنا فقط للذكر يعني يدل الحديث على وجود الملائكة على أن الله عز وجل يخاطبهم على أنهم يسمعون كلامه، النبي صلى الله عليه وسلم كان يسمع كلام الله عز وجل كما سمع موسى عليه السلام كلام الله عز وجل وسمي كليم الله، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤)﴾ [النساء: ١٦٤]، وكلم الله عز وجل محمد صلى الله عليه وسلم؛ فالله عز وجل

يتكلم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [البقرة: ٣٠] إذن هو يتكلم، قال لهم، وليس لما ينشأ –كما يقول الأشاعرة– ليس لما ينشأ في نفوسهم من معاني، وإنما الأصوات ممنوعة على الله هذا غير صحيح، الله عز وجل يتكلم كلاماً يليق بجلاله وبصوتٍ يليق بجلاله جل في علاه يسمعه من أراد الله عز وجل أن يُسمعه ومن ذلك الملائكة.

قال تعالى: ﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، تقدم الكلام دائماً الحوار يدور كيف عرف الملائكة ذلك، كيف عرفوا أن هذا الإنسان سيكون هذا مقامه، وكيف علم أنه سيكون لهم دماء؟ والحقيقة أن طالب العلم في هذا الباب لا يسأل ولا يهتم لماذا؟ لأن القاعدة المقررة من قواعد التفسير «إن كل ما سكت عنه القرآن لا أهمية له»، ولا ينبغي لطالب العلم أن ينشغل به، ماذا قال لما ذكر عددهم في سورة «الكهف» قال تعال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾، هذه قاعدة قرآنية كما قال ابن كثير: «هذه قاعدة قرآنية جليلة»، قال تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢)﴾ [الكهف: ٢٢]، فقال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ قطع ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيما معك من الحق، لأن الله عز وجل أخبر بقضايا من الحق تجدها في كتاب الله ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾، لم يقطع المراء بالمرة.

فنحن لا نجد نصاً صريحاً فيمن أهلك الله عز وجل من بني اسرائيل من أصحاب السبت، ويقول عكرمة البربري تلميذ ابن عباس يقول ناظرت أو راجعت ابن عباس ثلاث سنين هل أهلك الله الساكتين أم لا؟ فهذا من المناظرة بالحق، هذا الذي يدخل فيها ﴿إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾، ولكن هناك من الأمور التي لا تماري فيها ولا تجادل فيها، ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢)﴾ [الكهف: ٢٢]، وإياك أن تأخذ شيئاً منهم على جهة التسليم بما قال صلى الله عليه وسلم: (وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج)، لا تصدقوهم ولا تكذبوهم هذه قاعدة.

فقوله تعالى إذن: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، كيف تم هذا؟ العلماء لهم تجليات كثيرة وكلمات كثيرة، أذكر بعضها وأذكر مما يخطر على القلب وقد يكون صوابًا قد يكون خطأً ولكن اذكر ما يقولون، قال بعضهم في ما تقدم عندما قال: خليفة، فلما قال: ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فذكر الأرض وذكر أن خليفة فدل هذا على أنه كان في الأرض قومٌ قد ذهبوا والله يريد أن يجعل خليفةً لهم فأجروا ما سيأتي على ما مضى لأن الخليفة يخلف غيره فيما عمل فسيجري على سنته، وهؤلاء الذين مضوا جروا على هذه السنة يسفك الدماء ويفسدوا في الأرض، هذا معنى يتلاءم مع السياق، لما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فعلموا من هي الأرض وما جرى فيها وما هو تاريخها وماذا سيكون الخليفة، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠].

ولذلك قالوا: ما الذي كان قبل أن يكون الإنسان؟ وقال بعضهم: هو الجن كقول ابن عباس رضي الله عنه، وقال بعضهم: الحن، نعم نحن لا ندري من أين أتوا، كل هذه أقوال الله أعلم بها ربما جاءت من الإسرائيليات، وبعضهم قال في: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ

نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، قال بعضهم: لا، إن قوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، هي التي تكشف المعنى وليس ما تقدم، كيف؟ فما دام أننا نحن لا نصنع إلا الطاعات، وهم في السماء وفي الأرض، وهم يعلمون أن السماء أشرف، وأن الأرض أدنى من السماء شرفا، ولما كان هم أي الخلق لا يعصون الله عز وجل ولا يأتون بالمعاصي قط فدل على أن المخلوق الآخر له وجه آخر، فإنه مقررٌ في نفوسهم على أن هناك خيرٌ وشر فهذا هو الخير المطلق متجسدٌ بهم فماذا سيكون في الآخر؟ شر، هذا وجه، لقوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، فإذن علموا من نفس الرب أنه لا يخلق الخلق إلا من أجل تعظيمه الله يحب أن يُسبح ويحب أن يُعظم ويحب أن يُحمد، فما يعلمونه من نفس الرب من هذا الحب هم يفعلونه، فمن الآخر الذي سيكون إذن هو شيءٌ آخر لا يحبه الله، والذي لا يحبه الله يفسد في الأرض ويسفك الدماء.

قال: من أين أتوا بيسفك الدماء؟ قال: من قوله خليفة، إذن هو يخلف بعضه وهم لا يرون أن الملائكة يخلف بعضهم بعضاً لا يموتون، أحياء، فإذن هذا الخليفة إذن سيموت، ولما كان على الضد من الطاعة وعلى المعصية إذن سيقتلوا بعضهم بعضاً، فبهذا علموا ليس بما تقدم من تاريخ الأرض مع الجن ولكن بما أخبر الله عز وجل به فعلموا ذلك من نظرهم إلى واقعهم وواقع الحال الذي يعيشونه في الوجود فقط الذي يتمثل في الملائكة، هذا قولٌ آخر، يعني كلها تدور في الحقيقة حول هذين القولين إما باستقراء التاريخ.

وقولٌ آخر مشهور، قالوا: بأن الملائكة لهم حق الاطلاع على اللوح المحفوظ، يعني الله عز وجل كما تعلمون كتب كل شيء في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السماوات ولو بخمسين ألف سنة، فهم أهل السماء، ويطلعوا على اللوح المحفوظ، ولما أطلعوا نظروا فعلموا فلما حضر وقت ما قدر الله عز وجل من الخلق أخبرهم فرجعوا إلى ما علموه في اللوح المحفوظ، هم كانوا يعلمون أنه سيجري، لكن متى سيكون لا يعلمون؟ فلما أخبرهم وحضر وقته، ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾، يعني علمنا هذا فتجعل فيها.

كل قولٍ من هذه الأقوال عليه ملاحظات، يستطيع كل صاحب قول إن ينقض الآخر بنواقض ولكن في النهاية ما من قول إلا وعليه ملاحظات وعليه مراجعات ويمكن أن تراجعها ويمكن أن يرد عليها، فنكتفي بهذا لا نريد أن نزيد ما دام أن القرآن لم يخبرنا فنعود إلى القاعدة: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢)﴾ [الكهف: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، الذي عندي أن هذا الذي قالوه حق، وكما قلت وأكرر لوجود الجهل، إنما قالوه ليس اعتراضًا على الله عز وجل، وإنما هو استفسار ما هو المعنى، يعني ما هو معنى خلقك لهم؟ وهذا يدل لماذا قال الله عز وجل بعدها: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

(٣٢)﴾ [البقرة: ٣٢]، فإذن أثبت لهم علمهم هذا الذي أريد أن أقوله لما قال الله عز وجل: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أثبت لهم علماً فيما قالوه أنه حق ولكن غاب عنهم علمٌ آخر، لم يجهلهم فيما قالوه، ولكن جهلهم فيما لم يعلموه، لم يجهلهم فيما علموه ما قال: لهم هذا خطأ تجهيل ما تعلم أن تخطئه، وتجهيل ما لم تعلم أنت لا تعلمه كيف يخطئك.

فالله لم يخطئهم فيما علموه ولكن جهلهم فيما لم يعلموه، ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾، وهذا اعترفوا به، فإذن لما قال تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [البقرة: ٣٠].

هنا في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [البقرة: ٣٠] يعني لِمَ؟ يقال: هذه قيلت لهم –بعض أهل التفسير يقول– قيلت لهم: لأنهم تساروا فيما بينهم إننا أكرم ما خلق الله، فلما سيخلق الله غيرنا؟ فقال تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾، هذا من الأقوال غير ما تقدم، فالملائكة هم أكرم الخلق، وسيأتي معنى السجود وهل هذا تكريم للإنسان فوق الملائكة أم لا، سيأتي إن شاء الله، فكانوا يقولون فيما بينهم لما علموا هذا: أننا أكرم خلق الله فماذا سيخلق الله؟ فقال تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾، فهو ردٌ عما يدور بينهم من حديث أو ردٌ عما قالوه، إني أعلم هناك أمورٌ ومقاصد غير ما تريدونها.

ولو أراد المرء أن يعرف بعد ذلك، ما هو هذا الذي يعلمه الله ولا يعلمونه؟ هذا يعيدنا إلى قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، إذن علمت الملائكة أن الله عز وجل لا يخلق شيئاً إلا لعبادته، ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ هذا ضد العبادة، ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، فما هو العلم الذي قرروه وأقرهم الله عليه ولكن جهلهم فيما لم يعلموه، ما هو العلم الذي أقرهم عليه؟ إني لا أخلق خلقاً إلا لعبادتي، ما معنى كلامهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، ماذا تفيد هذه الجملة؟ أن الملائكة علموا أن الله عز وجل لا يخلق خلقاً في الوجود إلا لعبادته، ولذلك استغربوا أن يكون هناك ثمة مخلوقٌ يعصيه، فهل يخلق الرب خلقًا من أجل أن يعصيه.

إذن ما هي القضية الأولى التي هي مثبتة في أذهانهم؟ أن الله عز وجل لا يخلق خلقاً إلا لعبادته، هذا المعنى صحيح ومقرر في القرآن قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات: ٥٦]، لكن أين جهلهم؟ في وجوه العبادة، وجوه جديدة وأعمال جديدة للعبادة لا يعرفونها، وهذا ما سيأتي الخبر به، إذن هو أقرهم على مقصدهم وعلى عنوان كلامهم ولكنه نبههم إلى جهلهم بوجوهٍ من وجوه العبادة لا يقومون بها ولا يعلمونها، لأن المرء الله عز وجل لا يعلمه إلا بما يوجب عبادته، وبما لا ينفع العبادة فلا يعرفه به، والدليل أنه ثمة أسماء لله حُسنى لا نعلمها، لماذا لا نعلمها؟ لأننا لو علمناها فليس هناك من الأعمال التعبدية المكلفين بها ما يحقق هذه الأسماء، لو أراد الله عز وجل أن يعلمنا إياها لعلمنا لها عبادات تقوم بها.

قال تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [البقرة: ٣٠]، هذا الذي انتهيت إليه وأسأل الله عز وجل أن يغفر لي ولكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين وإلى دروس قادمة.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس السادس والثلاثون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أما بعد أيها الإخوة الأحبة فهذا هو الدرس السادس والثلاثون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [البقرة: ٣٠].

تقدم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وأنا أحاول أن أجنب السامع الكثير من الأقوال التي تقال وإلا ما قلناه فيه خلاف، يعني عندما قلنا: هل أعرض الله عز وجل وأبلغ أمره على جميع الملائكة أم على بعضهم؟ وهذا خلاف بين أهل التفسير قديمًا وحديثًا، ويوجد فيه خلاف فإن بعض أهل العلم قال: إن الله عز وجل أبلغ الملائكة جميعهم، وتكلمت فيما عندي بما فتح الله عز وجل علي به.

وكذلك اختلفوا في الأرض، فإن الجمهور قالوا: الأرض هي الأرض كما على ما تقدم من الكلام، وإن بعضهم قال: المقصود بالأرض وهي مكة هذه أقوال تقال في كتب التفسير وكما ترون فيها شيء من الغرابة وفيها شيء من العجز عن إثبات الدليل عليها حين التخصيص.

هنا في فقط وإن كان كما قلت في الدرس الفائت وفي درسٍ سابق فإن الله عز وجل لم يأتي في هذه السورة في سورة «البقرة» على ذكر أصل خِلقة الإنسان وكما تقدم فإن السبب لأن السياق هو سياق تكريم وهي إجابة على قضايا تتعلق بالعبادة وليست تتعلق بخبر الخلق، أي القرآن الكريم يحدثنا كثيرًا عن قضية الصراع بين إبليس وبين آدم عليه السلام وما جرى من حوار وما جرى من أفعال ولكن تفاصيل الخلق يأتي إليه بلمحةٍ سريعةٍ كقوله تعالى: ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣)﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١)﴾ [الصافات: ١١]، وكقوله تعالى: ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾ ... إلخ.

فإن الحديث عن خلق آدم عليه السلام هو قضيةٌ غيبية كيف جرت ولكن جرى أن بعض المشايخ المعاصرين ممن ليس لهم اعتناء بكلام السلف ولهم اعتناء باللغة وأقصد بذلك الأستاذ عبد الصبور شاهين رحمه الله يعني هو توفي إلى رحمة الله فإنه أخرج كتابا سماه «أبي آدم» ويقصد بهذا الكتاب أمرًا عجيبًا ذكره في المقدمة وقال: بأن ما يريد أن

يثبته في هذا الكتاب قد تعلق ذهنه به منذ سنين طويلة، وهو إثبات أن آدم عليه السلام هو أبو الإنسان وهو الإنسان الأول ولكنه ليس أبو البشر، ويفرق بين البشر وبين الإنسان، فيقول: بأن البشر شيء والإنسان شيءٌ آخر، والتفريق بينهما كالتالي:

الإنسان هو هذا المخلوق الذي سواه الله عز وجل عنده وسوي بهذه التسوية التي هي التسوية التامة والحكيمة والكاملة كما نراها في أنفسنا وكما خلق الله آدم عليه السلام على صورتنا وخلق صورتنا على صورة آدم عليه السلام، ولكن البشر عنده هم خلقٌ أولي، أخذ الله عز وجل من الأرض التربة ثم خلق بشرًا ثم من بين هؤلاء البشر اصطفى آدم، من بين هذا الخلق اصطفى آدم.

هذه المقولة مقولةٌ غريبة لا دليل عليها وهو جاء إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ [السجدة: ٩]، ثم فقبل التسوية كان شيءٌ آخر، هم البشر، وهذا شيء غريب كما تعلمون، ولو كان هذا الذي قاله دليلٌ أقوى مما في الكتاب لكان من حقه أن يظهره ولكن أن يكون أضعف مما في الكتاب!! يعني لو قال قائل: بأن القرآن لم يحسم هذه القضية من المعاصرين، وإن آدم ربما يكون هكذا وربما يكون هكذا، فلا يستطيع بأدلته التي عرضها بأن يثبت ما قاله، بل يكون ما قاله القدماء هو الأثبت؛ لأنه هكذا جرى عليه أهل التفسير، ونحن نعلم بأن القرآن في مثل هذه القضايا بأن الصحابة رضي الله عنهم إذا قالوا قولاً في كتاب الله عز وجل لا يجوز أن يحدث الناس قولاً ثانيًا، بل نعلم أنه لو كان للصحابة رضي الله عنهم قولان لم يختصما فيهما، فإنه لا يجوز أن نحدث قولاً ثالثًا.

ولكن لو اختصما؟ لو أنه صار خلاف بين الصحابة رضي الله عنهم في القولين، هل يجوز أن نحدث قولاً ثالثًا؟ قال بعضهم: يجوز، والجمهور على عدم الجواز، وآل تيمية في المسودة قالوا: وهذا الذي –هذا القول يعني– لا يرتضي أصحابنا غيره؛ وهو أنه إذا اختصما ليس هناك فرق بين الاختصام وغير الاختصام.

فإن هذا القول جديد –قول عبد الصبور شاهين– لم يقل به أحد، ثم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ [السجدة: ٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١)﴾ [ص: ٧١]، فقال: خلق بشرًا من طين ثم سواه أي صار آدم، اصطفاه، ويأتوا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)﴾ [آل عمران: ٣٣]، وهذا من الجهل، فالاصطفاء هنا ليس حديثًا عن الخِلقة، إنما هو اصطفاء في النبوة واصطفاء في المرتبة من جهة الرسالة ومن جهة الوحي ومن جهة العطاء الإلهي والكرامة، وليس من جهة الخِلقة، ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ﴾، يعني اصطفاه من بين أمثاله من البشر اصطفاءً قدريًا بأن سواه هذه التسوية التامة، هذا جهل ولم يقل به عالم وسياق الآية لا يقتضيه، بل لا يصح أن يقوله صاحب عقل ونظر في كتاب الله.

وإنما هو قول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)﴾ [آل عمران: ٣٣]، أي اصطفاهم اصطفاءً دينيًا شرعيًا، تتعلق بها بهذا الاصطفاء المحبة والقرب والتقريب، فهذا ينبغي أن ينتبه له.

أما قوله: إن الله جعل بشرا ثم سواه فهنا الكلام عن قضية تطور الخلقة، الكلام عن تطور الخلقة ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ [السجدة: ٩]، فلأن الله خلق آدم عليه السلام أولاً من تراب، ثم بالتراب مزجه بالماء فصار هذا التراب والماء تكونات أخرى متعددة، وكلها مما يدل على أننا منها؛ أنها جرت في القرآن على جري التفرق، كيف؟ بماذا يفيدنا هذا؟ يعني قال القرآن أنه خلقنا من تراب، ولم يقل من تراب ثم سواه طينا، ثم سواه صلصال من حمأ مسنون أو قبله من حمأ مسنون يعني له رائحة ثم صلصال من حمأ مسنون يجلجل ثم بعد ذلك ... لا، لم يقل القرآن هذا؟ لا نرى في القرآن هذا السياق.

إنما نرى في الخبر القرآني أن هذه المراحل التي خلق منها آدم عليه السلام جاءت على صفاتٍ متفرقة في الكتاب، بل جاءت صفة الخلق أنه من ماء مهين، قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٩)﴾ [السجدة: ٧-٩]، فدل على أن هذه الخلقة تتحدث عن شيءٍ واحد لا عن أشياء متعددة.

فقط هنا أريد أن أعرفكم بقاعدة، هذا خارج هذا السياق ولكن من المنافع في نظرنا لكتاب الله عز وجل، متى يأتي السياق القرآني تامًا في قضية قصةٍ واحدة؟ متى يأتي ومتى لا يأتي؟ يأتي القرآن في سياقٍ واحد لقصةٍ واحدة متى كان السؤال عنها، فإذا كان هناك ثمة سؤال عن قضية جاء الجواب دفقًا واحدًا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (٧)﴾ [يوسف: ٧]، ولذلك لما كان هناك سؤال كان هناك جواب تام كامل. لما قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، هنا سؤال فجاءها الخبر تامًا، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]، جاء الخبر تامًا.

فإذا كان هناك ثمة سؤال فيكون الجواب تامًا، لماذا؟ لأنه يكون في الجواب –وخاصةً أن الأسئلة تدور مع بني اسرائيل خاصة ومع الذين عندهم بعض علم الكتاب، فلو جاء بعض الأمر دون بعضه لأظهروا ما عندهم وقالوا عندنا علمٌ زائد عما تقولونه، أي لو أنه أظهر بعض العلم وأخفى بعضه ليأتي به في سياقٍ آخر وفي حالةٍ قادمة؛ لقالوا: أنتم قلتم هذا نحن عندنا علمٌ زايد عما تقولونه، فافتخروا أن عندهم هذا العلم الزائد والقرآن يريد أن يقمعهم ويريد أن يقول لهم: عندنا علمكم وتصحيح ما عندكم وزيادة عما عندكم، فيأتي السياق تامًا، بخلاف ما لو يخبر القرآن، فقضية بني آدم لم يأتي عنها السؤال، نعم ينشأ السؤال في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: ٢٨]، فكيف كنا أمواتًا؟ ولكن ليس منهم، وإنما هو من النص الذي أنشأ هذا المعنى ليأتي بالجواب عليه.

القصد: هذه فائدة ينبغي أن تبقى في أذهانكم عند النظر إلى طرق سياق القرآن في القضايا التامة.

نعود إلى ما نحن فيه، قلت: لو أن الكلام جرى واحدًا لربما جاء في الذهن الاحتمال أن هذا حديثٌ عن آم والأخبار الأخرى حديثٌ عن غيره، أن الله عز وجل خلق بشرًا من طين، هناك خلق بشر من طين، ولكن أن يأتي السياق تامًا في قضية، فنقول هذا سياقها وغيره سياقٌ آخر عن قضيةٍ أخرى، لو كان هكذا، لكننا علمنا أن قصة آدم عليه السلام سيقة متفرقة، فدل تفرقها كتفرق قصة موسى عليه السلام، بأنها حديثٌ عن شيءٍ واحد، لكنها من وجوهٍ مختلفة ومن أحوالٍ مختلفة.

وهذا سياق غريب حتى هذه الفائدة أريد أن أذكرها ليس فقط في اللفظ ولكنها في قضية نبرة الحديث النبرة عندما يقول الله عز وجل لأم موسى عليه السلام: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص: ٧]، كيف ترى السياق؟ سياقًا مترسلاً؛ لأنه حديث عن إخبارًا سيأتي، أنت تريد أن تخبر خبرًا سيأتي، فكيف سيكون إخبارك به؟ مترسلاً لا سرعة فيه، هذا رأيناه في سورة «القصص» مثلاً، رأينا إرسالاً في الحديث عن قصة موسى عليه السلام، لكن عندما جاء الخبر عن الحدث نفسه في وصفه كما جرى، كيف يقوله الله في سورة «طه»؟ أنظر إليه لما أراد أن يمن عليه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ [طه: ٣٧-٣٩]، انظر كيف ترى السياق؟ سريعًا؛ لأنه وصفٌ لما جرى بخلاف ما سيأتي الكلام عن خبرٍ سيجري، ليس فقط مجرد اللفظ هنا ولكن جريان السياق، هنا جريان السياق دفع سريع، ولكن هناك لا، حديثٌ عما سيأتي.

القصد: عندما في رأينا في قصة موسى التنوع والتعدد ولكنها لقصةٍ واحدة ولحدثٍ واحد، لكن كل سياقٍ له تعلق كما قلنا في الدرس الفائت له تعلق وله فائدة.

الآن لما نتحدث عن قصة آدم عليه السلام، الله عز وجل يتحدث عن آدم عليه السلام يتحدث عنه بمواطن متعددة لكنها كلها حديثٌ عن قصةٍ واحدة لكنها من وجوهٍ مختلفة ومن مراحل مختلفة، فدل هذا على أن السياق عن خلقٍ واحد وليس عن خلائق متعددة.

القصد: إذا أخذنا بالكتاب فهذا الذي يدل عليه، لكن في السنة ما يحسم القضية في الحقيقة.

في السنة ما يرد على الأستاذ عبد الصبور شاهين، وعبد الصبور شاهين تخصصه فقه اللغة، له اهتمام باللغة وهو مترجم لكتب مالك بن نبي، وفي السنة في حديث الشفاعة لما ذهبوا إلى آدم عليه السلام فسألوه أن يشفع لهم، ماذا قال له؟ قال له: أنت آدم أبو البشر، هذا اللفظ آدم أو البشر إذن البشر ليسوا أنواعًا كثيرة منهم آدم اصطفي الإنسان من هذا البشر بل آدم عليه السلام هو أبو البشر، فدل على أننا نحن بشر، فليس البشر هو شيء آخر غير الإنسان، إنما نحن بشر.

وهذا فقط أمر عليه سريعًا لكن مما قيل ويقال والرد عليه يسر وقد جادله بعض أهل العلم ورد عليه بعض أهل العلم ولكني ألمح إلماحًا فقط يسيرًا.

وقفنا عند قوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾، وهناك خلاف بين أهل العلم، أين خلق آدم عليه السلام؟ هل خلق في الأرض أم خلق في السماء؟ وبعض أهل العلم يقول خلق في الأرض، الله عز وجل أخذ من الأرض جميعها لآدم، ولذلك الإنسان هو جزءٌ من الأرض فمنها الأحمر ومنها الأسود ومنها الأبيض ومنها السهل ومنها الحزن ومنها الصعب ... إلخ، كما الأرض لأنه أخذ من جميع الأرض والأرض لها تنوع، فلما أخذ، فهل خلقه الله عز وجل في الأرض؟ ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وذكره الخلقة باليدين هذا دليل على التشريف والتعظيم، فهل خلق في هذه الأرض ثم بعد خلقته رفع إلى السماء فأدخل الجنة؟ أم أنه أخذت هذه التربة فخلق في السماء؟ هذا خلاف بين أهل العلم، والذي عندي أنه أخذ فخلق في السماء، وأنه لم يعرج به إلى السماء مرةً بعد أن تمت خلقته، ولكن هذا مما يمكن البحث فيه والمناظرة فيه ولكن ليس من الأمر في شيء بالنسبة لما بين يدينا.

بلا شك كما ترون أيها الإخوة الأحبة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وهذا يدل على التشريف، أي أن كونه خليفة إذن ليقوم بمهمات ما استخلف فيه، فدل هذا على الشرف والكرامة، مع ما تقدم من كلامنا وأنا في الدرس الفائت قلت: ما معنى خليفة على معنى يقول أنه خليفة الله، وهم عبروا بلفظٍ أسهل مما شرحته أنا، قالوا: يعني خليفة الله يعني يقوم بأمر الله في الأرض، كيف يقوم بما أمر الله؟ يعني بنفس المعنى الذي ذكرته ولكن المعنى الأول الذي تكلم فيه من تكلم فيه معنى الخفاء والجمال.

معنى خليفة الله بالأرض بأنه يقوم بأمره في الأرض، يعني الله عز وجل يطعم الفقير، فالإنسان يطعم الفقير، الله عز وجل يخرج من الأرض ينبت ويزرع فالإنسان ينبت ويزرع يقوم بمثل ما يريد الله عز وجل أن يقوم به في الأرض، والله عز وجل يكرم الناس، والإنسان يكرم الإنسان، في هذا خليفة الله فيها معنى المدح أي يقوم بأمر الله، ولكن الحديث هو حديثٌ عن أمرٍ قدري، فيبقى الحديث عما تكلمنا عليه البارحة ويكفي إن شاء الله، وأنا أرجو فقط في كل درس ربما تتم المراجعة لأشياء تخطر على ذهن من يسمع الكلام.

قال تعالى:﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، سفك الدماء هو من الإفساد في الأرض، ولكن ذكره بعد الإفساد وذلك للاهتمام به وتعظيمه وتقريره، لأن أعظم ما يجري على الأرض بعد الشرك من حقوقٍ تدور بين البشر هو سفك الدماء، ولذلك الحديث (أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الدماء)، وهو حديث صحيح، وخلاف حديث (أول ما يحاسب المرء عليه الصلاة) ذلك لأن الصلاة هي حق الله عز وجل، والدماء هي حقوق العباد، (وما زال الرجل في بحبوحةٍ من العيش ما لم يصب دمًا حرامًا)، ولذلك أعظم ما في الأرض

من مفاسد بين البشر هو سفك الدماء، فقال: ﴿مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، فإذن سفك الدماء هو أعظم ما يتم من الإفساد وإنما جاء هذا الخاص بعد العام لأهميته في ذكر التنفير عنه وفي بيان مقدار إجرامه وفساده في الأرض.

قوله تعالى عن هؤلاء الملائكة ﴿مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، قد يقول قائل: كيف علموا ذلك؟ فقلنا: لأن كلمة خليفة هي التي تفتح الباب، إما لأنهم علموا أنهم يخلفوا بعضهم بعضًا وإما لعلمهم بما كُتب في اللوح المحفوظ وإما لعلمهم لما سبق من جريان سالفهم، لكن هنا أريد أن أستعجل في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١)﴾ [البقرة: ٣١]، وكأن الله عز وجل يريد أن يثبت أنهم على ضد الصدق، وأنا ما قلت الكلمة الأخرى التي تعرض ما معنى ضد الصدق، تهويلاً لهذا الأمر وتعظيمًا لا ينبغي أن تقال مع أنها ربما تطرأ على الذهن قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾، يعني هم غير صادقين، وإنما المقصود هنا في صدقكم إصابتكم أي في قياسكم، أي إن كنت صادقًا بمعنى إن كنت مصيبًا، فالصدق هنا ليس ما يضاده الكذب وإنما الصدق ما يضاده الخطأ، وهذه لغة من لغات قريش، يقال: كذب فلان، بمعنى أخطأ، فقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾، أي أن كنت قد أصبتم القياس؛ لأنهم ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، إنما أخذوا هذا على القياس، أي أنه هكذا فعل القديم فهكذا سيفعل التالي، هكذا يفعل الخليفة سيفعل هكذا المستخلف.

فقال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾، إن كان قياسكم يصح، إن كان كلامكم يصح ويصدق على ما حكمت عليه من الإنسان.

قال تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، هذا القول الأول: القول الذي قلناه بأن سفك الدماء أنه تخصيصٌ للإفساد، ويمكن حمله على معنى آخر أجل ونحن نعلم أن هذا ليس من التعارض في شيء، قلنا: أنه لا تأتي آية تحمل معنى واحد، لا يوجد، يقرره العلماء لا توجد آية تحمل معنى واحد، لكن يمكن أن يقول قائل: إنما سفك الدماء يتعلق بحقوق البشر والإفساد إنما يتعلق بحقوق الله عز وجل، بمعنى ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، بمعنى أن لا يعبدك، وذلك لتقريرهم بعد ذلك ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، فدل على أن الفساد إنما يأتي بترك التسبيح وترك التقديس، وأعظم ما يجنيه ترك التسبيح والتقديس هو الشرك؛ لأن أساس الشرك هو الطعن في الربوبية، حتى الطعن في الألوهية هو طعنٌ في الربوبية، مآله الطعن في الربوبية، لا يمكن للمرء أن يتصور رجلاً يعبد غير الله وهو يقيم عبوديته من جهة الربوبية إقامةً تامة، لا يمكن هذا وشرحنا في موطنٍ آخر.

القصد: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ على هذا المعنى.

لكن قد يأتي قائل ويقول كيف علموا الدماء، هذا كلا كثير ما يقال كما قلنا في الدرس الفائت، والذي عندي أن الدماء بمعنى الأرواح، كقول الفقهاء: «لا دم له سائل»، فإنما يقصدون بسفك الدماء بسفك الأرواح وقتل النفوس البريئة.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، هذه أكرره في كل موطن يظهر هذا المعنى، عن أعظم ما يفسر به الكتاب هو أن نعرف نفس الرب، أي ما هو أجّل ما يفسر به الكلام؟ هو أن يعرفنا بالله عز وجل، يعرفنا ربنا جّل في علاه، يعرفنا بمن تكلم هذا الكلام، ويعرفنا بوصف ربنا، فنحن علمنا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، علمنا أن الله عز وجل يتكلم، أن الله عز وجل قال لهم وتكلم معهم، أسمعهم، ولم يوجد هذا المعنى في نفوسهم كما تقول الأشاعرة: أن الله أقام إلهامًا في نفوسهم، لا، إنما تكلم، قال، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾، الله عز وجل يقول.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] هو دل في الأرض مع أنهم يرونه أنه في السماء وجرت الأحداث في السماء، فدل على أنه ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾ [البقرة: ٢٩]، الآية التي قبلها، قال تعالى: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾ [البقرة: ٢٩]، فدل على أنه يعلم أنه سينزل إلى الأرض وسيكون مدار ابتلاءه وامتحانه وجريان الأحكام عليه إنما هي الأرض؛ فدل على علم الله عز وجل ودل على كلام الله عز وجل.

طبعًا في هذه الآية: ﴿مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، هذه يستفاد منها، فيستفاد منها في أن الله يكره هذا الأمر؛ لأن الله عز وجل لا يحب الظلم والإفساد الله عز وجل لا يحبه فدل على أن الله عز وجل لا يحب المفسدين، ودل على أن الله عز وجل يكره سفك الدماء بغير حق، وهذا بينٌ في دين الله عز وجل.

قال تعالى: قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، على ماذا يدل؟ يدل على أن الله عز وجل ما خلق الخلق إلا لهذا، ما خلق الخلق إلا من أجل أن يسبحوه سواء من الملائكة أو من غير الملائكة، من العرش، من السماوات والأرض ومن كل شيء، الله عز وجل ما خلق شيء إلا من أجل تسبيحه، ولذلك لما أراد موسى عليه السلام أن يستنزل رحمة الله بإضافة أخيه إليه في الدعوة ماذا قال؟ ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣)﴾ [طه: ٣٣]، ولذلك قال الله عز وجل عن الملائكة: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥]، ونحن قلنا في درسٍ فائت سبحان الله وبحمده، يسبحون بحمد الله هل هي جملتان أم جملة واحدة؟ أي هل يسبحون ويحمدون؟ أم أنهم يسبحون حمده؟ فإنه الحمد التام، والحمد التام لا يكون إلا وقد تقدس المحمود تقديسًا تامًا، فهل هي جملة واحدة على المعنيين أم أنهما جملتان؟

والعلماء على خلاف في هذا، وعلى قول أبي عبيد القاسم بن سلام رحمه الله: أنها جملة واحدة، يسبحون بحمد الله أي يسبحون الحمد، أي أن تسبيح الحمد بمعنى التنزيه، الحمد بمعنى أنه لا يلحقه نقص، أنت تسبح الله عز وجل بحيث لا يلحقه نقصٌ في ذاته ولكن حين تسبح حمده إنما تسبحه بأن لا يلحقه نقص ولا يلحق عطاءه لك نقص؛ لأن الحمد إنما يكون على جهتين، على جهة الجمال وجهة العطاء، فأنت تسبح الحمد بحيث أنك تسبح هذا المحمود بأن لا يلحقه نقص وكذلك تسبح عطاءه لك ألا يلحقه لك نقص، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

قوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، هذا معنى نسبح بحمدك.

ما هو التسبيح؟ التسبيح هو التنزيه، ويعني أنهم لا يذكرون الله عز وجل إلا بكلمات تليق بجلاله، يسبحون فالحمد من التسبيح والتهليل من التسبيح لأنه لا يجوز أن يكون له ند فيما يعبد، وكذلك في تكبيره ينزه جل في علاه، وذلك مقصد هذا الدين كله هو أن نسبح الله سبحانه وتعالى وأن نحمده على ما تقدم من الذكر.

قال: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، نحن قلنا: التسبيح هو التنزيه، والتقديس هل هو التنزيه؟ قال العلماء: ونقدس لك لها معنيان:

المعنى الأول: نسبح بحمدك ونقدسك فالتسبيح أمرٌ يتعلق بظاهر الفعل والتقديس يتعلق بالقلب، أنت تقو: قدوس ولكن في قلبك تقدسه، أي أنت تسبحه بلسانك وتقدسه بقلبك، فدل هذا على أن اعمال الملائكة ليست فقط ظاهرة ولكنها باطنة يسبحونه بألسنتهم ويقدسونه بقلوبهم، هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي نقدس لك أنفسنا بأن لا يكون فيها الشر، فإما أن يقدسون الله وإما أن يقدسون قلوبهم، والمعنى واحد، لكنه هكذا يذكر أهل التفسير: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي نقدس لك نفوسنا وقلوبنا ألا يكون فيها ما تغضب منه، وهذا شامل يسبحون أمرٌ والتقديس يتعلق بكل الطاعة، التسبيح يتعلق بجلال الله وعطائه والتقديس يتعلق بفعل العبد كله تجاه ربه.

فدل على أن الملائكة هذا، ودل على أن الملائكة يعلمون أن الله لا يخلق خلقًا لأي شيءٍ آخر سوى لهذا، فلماذا الناس يحضرون غيرهم في الوجود؟ الأب لماذا يحضر ابنه إلى الوجود؟ يحضر ابنه للوجود السبب الأول هو شعور النقص؛ لأنه يعلم أنه غير باقٍ، لو يعلم الإنسان أنه باقٍ وجاء من ينافسه حتى ابنه، لما أحضره، لما علم الإنسان أن ابنه سيرثه وهو أنه غير مخلد وبالتالي يحمل اسمه ويأخذ ميراثه سعى إلى إيجاده، لكن تصور أن الناس يلدون ولا يموتون، يلدون ويخلدون، من الذي يقبل أن يتزوج ويحضر ابنًا له؟ وينافسه ويأكل منه وو ... إلخ، من؟ لا أحد، ولذلك الآخر يحضره إما لحاجته، وإما لإعانته، فالحاجة ليؤنسه، وهل هذا يتصور في حق الله عز وجل؟!! فالله عز

وجل ليس بحاجة لأحد والله سبحانه وتعالى غني عن العالمين، ولذلك لماذا يحضرهم؟ ولماذا يخلقهم؟ إنما لعبادته وهو ليس بحاجةً لهم، فإذًا لماذا أقامهم؟ ذلك لأن الله عز وجل يحب المدح.

كلمة يحب المدح هي باب النفاذ في الرد على ابن حزم في نفيه العلل، ابن حزم رحمه الله هو من نُفاة القياس وينسجم في نفسه للقياس مع قوله بنفي العلة بخلاف المتكلمين، المتكلمون ينفون العلة عن الله ويثبتون القياس، يعني إذا سُئل الأشاعرة هل تثبتون لام التعليل في القرآن؟ ليفعل، لكذا؟ قالوا: لا، إنما هي لام العاقبة، كل لام في القرآن عندهم هي لام العاقبة، وليس عندهم لام التعليل، ومع ذلك يقولون بالقياس، والقياس أصله قيام العلة، أي هناك شيء مربوط لعلة، هناك شرع مربوط لعلة، وابن حزم رحمه الله منسجمٌ في هذا، يقول: لا علة في القياس، لا يوجد قياس عنده لأنه لا علة، فالله قد يحكم بالشيء وضده، هذا منطقه، ولذلك يقول: إن الله لا يخلق شيئًا لعلة.

ولو انتبهنا لهذا، الله خلق الخلق لأنه يحب الحمد مع أنه غني عنه، ولكن خلقهم لعلة الحمد، إذن هناك خلقٌ من أجل علة، لكن هذه العلة ليست حاكمة على الله عز وجل، لماذا خلق الله الخلق؟ لعلة أنه يحب أن يسمع زجل تسبيحهم ودعاءهم واستغاثتهم يحب فهذه إذن علة هي التي جعلت الخلق يكون، لكن هل معنى ذلك أن الله عز وجل بحاجة لهم أو أن هذه العلة حاكمة على الله عز وجل؟!! ليس كذلك.

إذن نحن أثبتنا العلة للفعل ولم نثبت لازمه الذي قاله ابن حزم بأن إثبات العلة يعني إثبات الحاجة، ابن حزم يقول: إثبات العلة القديمة يدل على أن هناك شيء قديم غير الله وهي العلة، وإثبات العلة يدل على أن الله بحاجة، وهذا كله من فساد القول؛ لأنه لا يعرف نفس الرب في هذه المسألة، وهذه المسألة فإن الله عز وجل يحب أن يرى عبادًا له يعبدونه، هذه المحبة هي علة خلق البشر، ولكن ليس بمعنى أن العلة حاكم على الله عز وجل، فلو أن البشر جميعًا كفروا أو لم يوجدوا أحصل نقصٌ في نفس الرب؟ أو في ملكه أو سلطانه؟ الجواب: لا.

قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وهل هذه جملة إسمية أم جملةٌ فعلية؟ ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾، بما ابتدأت؟ بضمير، والضمير هو من الأسماء، ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، فابتدأت باسم، فهي إذن جملةٌ اسمية، والجملة اسمية –تكلمنا أظن في موطنٍ آخر– على أنها أثبت الجمل وأدومها، جملة اسمية، ولما قلنا بأن سلام إبراهيم هو خيرٌ من سلام الملائكة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ [هود: ٦٩]، ﴿لأن الملائكة قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾، وسلام جملة اسمية وهم قالوا جملة فعلية، فدل على أن سلام إبراهيم عليه السلام أثبت من سلامهم، وهنا لما قالت الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، دل على أن هذا التسبيح لا ينقطع وأنه دائمٌ مقيم وليس زمنيًا، لا زمن ماضي ولا زمن حاضر ولا زمن مستقبل إنما هو فوق الأزمان كلها.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [البقرة: ٣٠]، ما هو الشيء في هذا الباب الذي لم تعلمه الملائكة؟ انتبه تقررت عنا قضايا هي منفذ الفتح والمعرفة، إذا علمنا أن الله لا يخلق خلقًا إلا لعبادته، الملائكة علموا هذا من الله عز وجل، هذه القاعدة: أنهم علموا أن الله عز وجل لا يخلق خلقًا إلا لعبادته، ولذلك الله عز وجل أقرهم، قال تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أقرهم على أنه لا يوجد خلق قد خلقه الله عز وجل من أنفسهم – من الملائكة– إلا من أجل عبادته.

إذن تقرر القصد الأول وهو أن الله عز وجل حين سيخلق خلقًا إنما ليحقق عبادته، إذًا على أي شيء يدور ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ على شيءٍ جديد غير وجود خلقٍ يريد أن يخلقه الله لعبادته أم لتحقق معاني جديدة في العبادة؟ هذا هو.

فقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [البقرة: ٣٠]، بعد أن أثبت جل في علاه أنه لا يخلق خلقًا إلا لعبادته وذلك من كلام الملائكة ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فأراد أن يقول لهم: لكني أعلم عبادات لا تقومون بها، أريد أن أراها في خلقٍ جديدٍ غيركم وأنتم الأكرمون، أريد أن أرى وأفرح وأحب عباداتٍ جديدة لا تحققونها أنتم بمثل هذه الخِلقة، هذه الخِلقة التي أنتم فيها لا تحققون هذه العبادة.

وقد يقول قائل: ما هي أعظم العبادات التي خلقنا من أجلها؟ التوبة، التوبة هذه لا تعرفها الملائكة، الملائكة لا عصي الله عز وجل فلماذا تتوب؟ هنا فقط يذهب الوجود لأمرين، في الحديث لا يوجد في الحديث إلا هذا:

الأمر الأول: قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى لا يُقالَ في الأرضِ: اللهُ اللهُ)، إذن ينتهي الوجود عندما تنتهي العبادة، فقد انتهت العبادة انتهى مقصد وجوده.

الأمر الثاني: ينتهي الوجود، قال صلى الله عليه وسلم: (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وأتى بأقوامٍ)، لذهب الله بكم؛ أي انتهى الوجود لا قيمة له، فدل على أن هذا الوجود إنما يقوم: قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال: ٣٣]، وتكلمنا سابقاً لماذا أتى بالفعل؟ ولماذا أتى بالمصدر؟ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾، هذا فعل، ﴿وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾، مصدر، ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾، لأن وجوده سينتهي فتعلق به الفعل، والفعل يمضي ويذهب وينقضي، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾، لأن تعلق منع هذه العبادة بفترةٍ زمنية وهو وجود النبي صلى الله عليه وسلم بينهم، ولكنه لما الاستغفار لا تعلق له بزمن؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾، فأتى بالمصدر لأن المصدر اسم وقلنا الجملة الاسمية أقوى وأثبت.

إذن الله عز وجل يهلك الوجود بعدم وجود العبادة وأعظم عبادة في الحديث هو الاستغفار، ومن ذلك هناك عبادات عظيمة أخرى منها الجهاد في سبيل الله، الجهاد، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ

بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، بل وإقامة الدعوة ولو شاء الله لأنزل عليهم آية قال تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾ [الشعراء: ٤]، ولكن الله عز وجل يقيم هذه الأحكام من أجل هذه العبادات في هذه الدنيا.

فقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾، أول شيء فيها إثبات أن علم الله عز وجل أزلي، وفيها إثبات أن الملائكة لا يعلمون كل، قول تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾، وهذه إذن هي شعار الوجود أيها الإخوة كما ترون هذه الآية العظيمة هي شعار الوجود، تمخض فيها وتحملت هذه السورة الجليلة المعاني العظيمة في الوجود الإنساني كله، أنبئتنا أن هناك ثمة زمنٍ حدث في السماء قد جرى فيه هذا الحوار بين الله عز وجل وبين ملائكته وحلت المعارف التي يتساءل عنها الناس لماذا خلقنا؟ وما هو سبب وجودنا؟ وكيف وجدنا ... إلخ؟ فهذه الآية أجابت على كل هذه الأسئلة، وهي تعرفنا بأعظم موجدٍ في هذا الوجود وهو الله عز وجل، ما الذي يحبه؟ وما الذي يريده منا؟ ولماذا خلقنا؟ هذه الآية أجابت على كل هذه الأسئلة كما ترون.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، أولاً: دل هذا على أنه لا يوجد معرفة ذاتية لدى الإنسان، وهذا جواب سؤال ربما اليوم لا يتساءل عنه الناس، لكنه شغل أهل النظر، قديمًا ما هي صيغة العلم في أنفسنا؟ هذا العلم الذي يطرأ في أنفسنا ما هو نوعه؟ كيف ينشأ؟ حتى قال بعضهم: إن العلم تذكر والجهل نسيان، هذا العلم يحدث هو تذكر، وكيف ينشأ العلم؟ وكيف تنشأ الأحكام؟ هذه سنأتي عليها كيف تنشأ الاحكام؟ مهمة جدًا في هذا الباب.

فقوله تعالى: وعلم آدم الأسماء دل على أن الأصل في آدم عدم العلم وليس فيه قوى ذاتية تحقق العلم، يعني الله عز وجل خلق آدم هل معه العقل؟ لما خلقه من أجل أن يأتيه العلم هل كان عنده العقل؟ الجواب: نعم عنده العقل، وإلا كيف عقل حديث الله عز وجل وتعليمه؟ فالعقل موجود، ولكن هذا العقل لم يُنشئ علمًا، ولم يُنشئ معرفة، وإنما احتاج هذا العقل إلى علمٍ يحط فيه فيتعامل هذا العقل من خلال هذا العلم.

إذن العلم شيء والعقل شيءٌ آخر، ما هو العقل؟ هو إدارة العلم وسياسته وتنميته هو الربط بينه هو إنتاج معرفةٍ من معرفةٍ موجودة فلا يوجد معارف خاصة تأتي بلا معارف سابقة؛ فدل على أن الإنسان لا يمكن أن يفقه إلا بعلم ولا يمكن أن يفقه إلا بعلم وليس بعقل، أنا أعطيكم مثال: المرء قد يكون قويًا لكنه يحتاج إلى غذاء، المرء موجود لكن هل يستطيع أن يعيش بلا هواء؟! هو حي ولكن لا تستطيع الحياة أن تقوم به إلا بشيءٍ يأتي عليه من الخارج.

إذن الخير الذي ينتج من الإنسان لا ينتج من داخله، إنما ينتج من خارجه، فكلما ازداد المرء أخذًا من خارجه وهنا ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾، والضمير هنا يعود على الله عز وجل؛ فدل على أنه كلما ازداد المرء علمًا بما يعلم عليه

كان له فضيلة، صار له فضيلة، وهل هناك فضيلة أخرى؟ نعم، وهي فضيلة امتحان هذا العلم والعمل به وتركيبه واستفادة المعاني منه.

فإذن العلم له مرتبتان:

المرتبة الأولى: هو أن تحفظه، أن تتلقاه.

والمرتبة الثانية: أن تنمي منه المعارف لأن هذا العلم درجات، وليس درجة واحدة.

إذن هذه حلت لنا المشكلة ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾، هذا واحد.

وهذا النوع من الإنسان هو كل إنسان، أي لا يقولن قائل: إن العلم الأول الذي سرى في الوالد سرى هذا العلم في الولد، هل ترون الحياة كذلك؟ ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، فالذي جرى على آدم الأول من القواعد يجري على ابن آدم إلى يوم القيامة، كل إنسانٍ تجري عليه هذه القواعد يخرج من بطن أمه كما كان آدم لا يعلم شيئًا، لكنه مؤهل لتلقي هذا العلم فتلقاه، هذا واحد.

النقطة الثانية: دل هذا على أنه لا يمكن للمرء أن يُنشئ أحكامًا إلا بعلمٍ سابق، وهذا الذي يسمى التفكر، ما هو التفكر؟ التفكر ليس إنشاء من لا شيء، لابد أن يكون العلم الذي به يتم التفكر، إذن التفكر كيف ينشأ، هل ينشأ لمجرد امتحان العقل بلا علوم أم بامتحان العقل بالعلوم؟ فإذن شرط حصول الفكر وجود العلم، والعلم من أين؟ هل هو منه؟ هل ينشئه من داخله؟ يُنشئه من الخارج، ولذلك ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، إذن التفكر لا بد له من معلومات سابقة.

هنا يأتي كلام الشيوعيين وكلام المثاليين، الماديون من هيغل إلى ماركس إلى من بعده ممن تبعه، يقولون: بأن الفكر هو سقوط المادة على العقل، المادة هي التي تُنشئ الفكر، بما ينشأ الفكر؟ بانعكاس المادة على العقل، سقوط هذه المادة على العقل، يعني ما الذي يُنشئ الفكر عند الشيوعية؟ المادة، تنعكس هذه المادة على العقل فتنشئ الفكر، إذن مادة تنعكس على العقل فينتج الفكر.

المثاليون القدماء قالوا: لا، هو انعكاس العقل على المادة، وهذه هي النظرية الافلاطونية أن العقل الكلي أفرز عقولاً في البشر، هذا العقل هو الذي ينتج المعرفة من خلال نظره للأشياء، إذن ما الذي ينتج الفكر عند المثاليين؟ العقل.

والصواب لا هذا ولا هذا، التفكر حالةٌ إنسانية لا توصل إلى المعارف إلا بوجود علمٍ يسقط عليها، وهذا العلم لا بد أن يأتي بالطرق ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾، كيف علمه بالإلهام بالإلقاء، هل تكلم الله عز وجل معه؟ يتصور كما تكلم الله عز وجل مع الملائكة، أنه علمه وأخبره وسمع صوت الله عز وجل أو أنه ألهمه فهذه طرق التعلم، وليس هناك نبيٌّ

سابق بالنسبة لآدم وإلا لقلنا كما نقول عن أنفسنا: نتلقى العلم عن طريق الأنبياء، فهم يعلموننا كيف نتلقى الأشياء أو نتلقى نحن العلم عن طريق آبائنا، نحن لما ننشأ ما الذي يعلمنا أسماء الأشياء؟ آباؤنا، البيئة التي نحن فيها آباؤنا يقولون: هذا كتاب، هذا بيت، هذا ماء هذا طعام، هذا إنسان، هذا أخ، هذا أب، فيعلموننا، أو ما تعلق بالأحكام ما تعلق به الأنبياء أي ما جاء به الأنبياء.

إذن لابد من وجود علم ليتحقق الفكر، هذه تقودنا إلى شيء بالنسبة لنا نحن هذا مما نستفيد منه؛ وهو أن الذي يتصور أن هناك ثمة تأملٍ ذاتي ينتج المعارف الكلية، هذا لا وجود له، لابد من وجود قواعد سابقة سبقتك وبنيت عليها، ومن هنا فإنه لا بد من القراءة الطويلة لتنتج علمًا جديدًا، ولا تقولن لاحد إياك أنصحك لله وأنا هذه أجربها مع هذه القراءات، إياك أن تحاكم أحدًا أن فكرته هذه جاءت من غيره، ذلك لأنه لا يوجد فكرة في الوجود إلا وهي مبنيةٌ على ما سبق.

واحدهم يقول مثلاً أقرأ كتاب الله، فأنت قرأت كتاب الله فهذه تنتج لديك معرفة، وربما قرأ كلمتك عالمٌ آخر وعاقلٌ آخر فأنتج منها معرفةً فإياك أن تعاتبه بأنه قد أخذها من غيره أو أن أساس القضية جاءت من هنا، ذلك لأن كل قضيةٍ جاءت في الوجود إنما جاء من يسبقها بالمقال، ولذلك نحن علومنا حتى ما ينتجه العالم أي عالمٍ من كتاب الله لم يكن لينتجه لولا أن رأى غيره قد سبقه في هذا الإنتاج وهو رسول صلى الله عليه وسلم.

يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا كيف نستفيد من كلام ربنا علمنا إياه فأنت تتعلم على هذا النسق وتكبر، وتكبر، وهذا الذي قلته في درسٍ سابق: بأن هناك ثمة ضرورة علمية وواقعية قدرية بأن نقرأ فقه الصحابة رضي الله عنهم، لماذا؟ لأن قراءتهم تعلمنا طريقة استنتاجهم، فلا يجوز لك وإياك أن تعيب أحدًا أن هذه الفكرة جرى عليها غيرك أو أنها من الطريق الذي سبقك بها عالم، لا، كل عالمٍ هكذا، لا يوجد إنتاجٌ ذاتي، أنا قصدي الأصل، لا يوجد إنتاجٌ ذاتي، هذه مهمة جدًا، عليك أن تقول: أنا استفدت من هذا، وعليك أن تأخذها فتنميها، إما أن تنبني عليها وإما أن تنتج لديك معرفةً في قضيةٍ أخرى، وهكذا.

فقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾، الأسماء يا إخوة هي كل شيء، يعني هل الفعل اسم؟ الجواب: نعم، أنت لما تقول: الكلمة ثلاثة اسم وفعل وحرف، لما تقول: هذا فعل «الفعل» كلمة «الفعل» وليس الفعل يفعل، الفعل هذا اسم أم غير اسم؟ هو اسمٌ دالٌ على معنى، والحرف اسم، فقوله تعالى: ﴿الْأَسْمَاءُ﴾، شاملة لكل أدوات ما يتخاطب به الناس.

فقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، رابعًا في هذه القضية وهي تدل على أن الشرف الإنساني لا يكون إلا بالعلم فلو ترك هذا الشرف لما بقي له مزيةٌ على غيره لا على الجن ولا على الملائكة، يعني لِمَ أسجد الله الملائكة لآدم؟ بعد أن نفخ فيه الروح من روحه، حصل لديه المعرفة علمه فأمر الإسجاد، وإلا فنوع الملائكة خيرٌ من نوع الإنسان.

من أجّل خِلقةً في أصله الإنسان أم الملائكة؟ الإنسان خلق من طين، والملائكة خلقت من نور، فأصل خِلقة الملائكة خيرٌ من أصل خِلقة الانسان، ولم يأتي ما يذم خلق إبليس ولا الجن، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥)﴾ [الرحمن: ١٥]، تعرفون ما هو المارج؟ هل نظرتم إلى نار ورأيتم هذا البياض المرتفع يتلألأ كأنه المرآة، هذا هو المارج، ليس اللهب، ولكن إذا نظرتم إلى النار ترى فوق اللهب الهواء الحار الشديد، الذي هو يتحرك، هذا هو المارج، هذا الذي خلق منه الجان.

أنا أتكلم عن النار، أتكلم عن هذا المارج، لم يأت في القرآن ذمًا لأصل خِلقة الجان، وجاء الذم للإنسان، ﴿حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦)﴾ [الحجر: ٢٦]، له رائحة، فلو رجعنا إلى أصل الخِلقة لرأينا أن أدنى الخلقة هو من خُلق من طين، أنا لا أتكلم عن الحيوانات أنا أتكلم عمن هو مكلف ومخاطب كالملائكة والإنس والجن، ولكنه أسجد له الملائكة لما حصل له من العلم؛ فدل هذا على أن أساس تكريم الإنسان هو العلم، فمن غيره يعود الإنسان إلى بقية ما خُلق من الدواب، لأن الدواب خلقت كذلك مما خُلق الإنسان، الدواب خُلقت من الأرض، فيعود الإنسان إلى خِلقة الدواب من غير العلم؛ فدل على أن العلم هو ما يشرف به الإنسان ويحصل له الأهمية في هذا الوجود ثم تأتي النقطة التي تليها دل على أن العلم هو الذي يحقق معنى الاستخلاف في الأرض.

فإذن أشرف ما يجتلي الإنسان ليس ما يأكله وما يشربه وما يلبسه، وإنما العلم ومن غير العلم لا يحصل له حق الاستخلاف في الأرض، أن يخلف غيره، حتى على كل المعاني، لا أن يخلف غيره فيما أقامه الله فيه، ولا أن يخلف الملائكة بقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [البقرة: ٣٠]، لأنه أراد أن يقول لهم: أريد عبادةً، ونحن اتفقنا في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي أني أريد عبادةً لا تستطيعون تحقيقها من أنفسكم، فإذن هذه العبادة لا يمكن أن تكون في هذا المخلوق إلا بالعلم، لا يمكن أن تقوم هذه العبادة إلا بالعلم؛ فدل هذا على أن ما يحقق العبادة التي يريدها الله عز وجل منا هو العلم، ومن غيرها نبقى كالدواب لا قيمة لنا، لا نحقق أمر العبادة.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، طبعًا كلمة آدم أنا عندي أنها تدل على الصفة يعني مأخوذة من الصفة من الأُدْمَة وهذا يدلنا على ما هي هيئة آدم عليه السلام، وأنه ليس هو الأبيض وليس هو الأسود ولكن الذي فيه يحقق الأُدْمَة، والأُدْمَة ما هي؟ يعني انظر إلى شخص يميني وأنا عندي أن آدم عليه السلام نزل في اليمن، ولا أريد أن أناظر في هذا ولكن أعتقد بأن البشرية قد انتشرت وانبثقت وبدأ اتساعها في الأرض بذوبان الثلوج في العالم فتقدم الناس والعشائر والقبائل ويزيدون خلال ملايين السنين أنها انطلق من آدم الذي نزل في اليمن على شبه خلقة اليمنيين.

طبعًا ينازع بعض الصوماليين والأحباش أنه منا والأمر قريب على كل حال من غير مضيق باب المندب ليس الامر بعيدًا، وبعضهم يقول: لا، الأسود هو آدم لأنهم يقولون: لأن الأسود يمكن أن يتحول لأبيض طلعت حوالي اسود والأبيض لا يتحول لأسود فأصل الألوان هو السواد، والذي عندي أنا هو الأُدْمَة وليس هو الأبيض الذي هو الأبيض وليس هو الأسود الذي هو الأسود وإنما هو آدم عليه السلام من الأُدْمَة، وهي الأرض المعروفة.

تبقى القضية أخيرة في قضية ﴿وَعَلِمَ﴾، شيخنا عبد القاهر الجرجاني في كتاب «دلائل الإعجاز» له كلمة – وفقط أنا أمر عليها ولا أريد أن أناقشها وأنا على الضد منها، مما يقوله رحمه الله مع أنه أراد الصحة ولكنه دلل بغير صحة– قال: بأن الإنسان تنشأ لديه معارف الأشياء ثم تأتي الأسماء، وهذا –معنى كلامه– وهذا على خلاف ما تحقق مع آدم عليه السلام فإنه نشأت لديه الأسماء ثم عرضت عليه الأشياء، فهو يقول: إن آدم عليه السلام تعلم الأسماء ثم علم الأشياء، ولكن الإنسان منا نحن عندما وجدنا إنما تعلم على مادة ثم جاءت الأسماء هو يقول هذا الكلام شيخنا وسيدنا عبد القاهر الجرجاني يقول هذا من أجل أن يبين حكمة المثل –هذا ذكرناه عند المثل، عندما ذكرنا عن المثل الناري والمثل المائي–.

فيقول: بأن المثل يقرب المعارف لأنها تعيده إلى أصل تعليمه، لو أنه خوطب بالمطلقات لكل وضعف ولم يتبين له الأمر، وإنما تبين له المطلقات الكليات والمعارف والحكم من خلال الأشياء فيقال: إذا أردت شجاعًا قلت: الأسد، ذلك لأن كلمة الشجاعة ليست بوضوح كلمة الأسد لأنه يرى الأسد، فما يراه أقرب إليه من ذهنه مما يتعلمه من الأسماء، وهو رؤية الشيء، فهو يقول هذا: بأن الإنسان بعد آدم جرت معارفه على التعريف المادي ثم المعنوي أو الأسماء، ولكن نرى في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣١]، فعلم آدم الأسماء ثم الأشياء، هكذا يقول وهذا الكلام عليه كلامٌ كثير ولا يهم.

ولكن الصواب أن آدم عرضت عليه الأشياء ثم الأسماء وكذلك الإنسان عرضت عليه الأشياء ثم الأسماء فيرتقي، فدل هذا –انتبه؛ هذه النقطة التي نريد أن نبني عليها– فدل على أن المعرفة التي يتعلق بها العقل أسمى من المعرفة التي تتعلق بها المادة، يعني ما الذي تحقق أولاً؟ معرفة الأشياء ثم جاءت الأسماء فالأسماء أرقى معرفةً من الأشياء، فبعد أن تحققت الأسماء وهي قضايا معنوية، تحققت الرفعة للإنسان، وإن كانت الأشياء المادية هي الأساس في المعارف، ولكن الإنسان لو وقف عندها لما ارتقى وما ارتفع وما تحققت قيمته في الوجود إلا بعد أن ترتقي مداركه من هنا نشأ حكماء الوجود.

هل الحكماء في الوجود لمعرفتهم بالأشياء أم لمعرفتهم بالمعاني الوجودية؟ من أسمى معرفةً في الوجود الحكيم أم الحداد؟! من أسمى في الوجود الحكيم أم النجار والزارع؟! الحكيم، فالحكيم هو الذي يتعامل مع القضايا الوجودية الكلية أهم، ومن هنا فإن العرب بإدراكهم لهذا سموا ما يعمل باليد مهنة وهي قريبةٌ من الإهانة أو قريبةٌ من الهين لا

أريد أن أجعلها إهانة، مهنة مما يهان، بخلاف الحكيم، فإنه بحاجةٍ أولاً إلى أن تسمو معارفه في الأشياء لترتفع أنظاره إلى ما يتعلق بقضايا الوجود الكلية من المعارف الذهنية، من هنا كانت قيمة العلماء.

لكن سؤال آخر، النقطة الأخرى التي تتبع هذه وكلها تابعة لنقطة واحدة، هل ثمة أسماء بلا حقائق؟ هل فقط هو العرض لقضايا المادة؟ أم لقضايا المعرفة؟ يعني عَلَمَ آدم الأسماء، هو فقط عرفه على الأسماء المادية قال له: هذا جبل وهذا سهل وهذه أرض وهذه سماء وهذا أب وهذا إنسان وهذا حيوان وهذا قرد ... إلخ، أم علمه وقال له: هذه شجاعة وهذا حلم وهذا كرم وهذه خسة وهذه دناءة وهذا صدق وهذا كذب؟ هل علمه الأسماء فقط المادية أم علمه كذلك الأسماء المعنوية؟

ولذلك الإنسان لا يرتقي فقط بمجرد معرفته للمادة وأسمائها لابد من معرفة القضايا المعنوية، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، كل الأسماء، ولم يقل: وعلم آدم الأسماء ولكن كلها، يكفي هذا اليوم وإلى درس قادم إن شاء الله تعالى.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس السابع والثلاثون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

هذا هو الدرس السابع والثلاثون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» ومع قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١)﴾ [البقرة: ٣١]، وإن شاء الله قد قدمنا شيئاً مما ينفع في قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾، وقلنا: بأن آدم عليه السلام هو أبو البشر وهو الإنسان الأول الذي خلقه الله سبحانه وتعالى وأنه نبي.

وهذا نزيده اليوم نقول: إن آدم عليه السلام نبيٌ مكلم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، ونوح عليه السلام هو أول رسول، أما آدم عليه السلام فهو أول نبي، والفرق بين النبي والرسول هذا كلامٌ يطول وفيه أقوالٌ متعددة جمعها بدون تفصيلٍ ولا شرح الشيخ الآلوسي في تفسيره وتصل ربما إلى ستة عشر قولاً ولكن أشهرها، هو أن الرسول هو من بُعث في حمل رسالةٍ إلى الناس، مع إنه نبي ينبئ، والنبي هو من نُبئ ولم يُرسل إلى أحد، هذا قول منتشر ومشهور.

والقول الثاني: أن النبي –وإن كان هذا فيه أقوال ولكن القول الصحيح أن كل رسولٍ نبي وليس كل نبيٍ رسول– أن النبي هو من بُعث برسالة سابقة، ونبئ وأرسل برسالة نبيٍ سابق كما هو شأن هارون عليه السلام وأنبياء بني إسرائيل فإنهم جاؤوا برسالة موسى عليه السلام وبالتوراة ولم يأتوا برسالةٍ جديدة، إنما جاءوا ليذكروا الناس وينبئوهم إلى ضرورة حمل الرسالة إلى غير ذلك، وأما الرسول فهو الذي أرسل برسالةٍ جديدة، نبئ وحمل رسالةً جديدة إلى الخلق وبالتالي فإن الرسول هو من جاء برسالةٍ جديدة إلى الخلق كشأن محمد صلى الله عليه وسلم وشأن موسى عليه السلام والأنبياء والرسل الذين ذكروا في كتاب ربنا سبحانه وتعالى.

فقوله سبحانه وتعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾، فآدم هو النبي الذي بُعث من أجل أبنائه الذين معه وليس لغيرهم، هو نبيٌ مكلم، وأما نوح عليه السلام فهو أول رسول لأنه جاء بشريعةٍ إلى قومه، ولا نريد أن نتحدث عن نوح عليه السلام وما يقال فيه ولكن نكتفي هنا بما هو شأن المذكور وهو آدم عليه السلام.

وقلنا: بأن آدم هو اسمه مأخوذٌ من الأُدمة والله تعالى أعلم، قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾، وهذه تكلمنا عنها وسألنا في كيفية تعليم آدم هل هو الإلهام، الإلقاء في الروح؟ أم أن الله كلمه؟ وهذا، وهذا، كلاهما يحتمل، والذي عندي أن الله عز وجل تكلم معه، الذي عندي وهو الأقوى بالرغم أن الكثير من المفسرين قالوا: ألهمه إلهاماً، الذي عندي أن الله عز وجل كلم آدم عليه السلام وعلمه والأسماء، أي أسماء الأشياء.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ [البقرة: ٣١]، الأسماء هو جمع اسم، والاسم إما يشتق من السمة وهي العلامة ولذلك لكل شيءٍ علامة ومن ذلك اسمه الخاص به، والأسماء الخاصة بها، فهذا حائط وهذا سقف وهذه أرض وهذا ماء وهذا إنسان وهذا جبل وهذه سماء، فهذه الأسماء أخذت من السمة لأن السمة هي العلامة، والعلامة هي التي يختص بها الشيء عن غيره، فسمي الاسم اسماً لأنه سمة.

وهناك قولٌ آخر: أن الاسم مشتاق من السمو وهو العلو، وذلك لأن الاسم به يبرز عن غيره وربما يكون الاسم عادةً فيه نوع مدح فهو السمة من العلو وقد تقال من العلو لأنه يبرز، إذا ذكر بُرز فبان دون غيره حين يذكر هذا الاسم، فقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ما هي هذه الأسماء؟ الله عز وجل قال: ﴿كُلِّهَا﴾، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، علمه جميع الأسماء، أعطاه القدرة على الكلام على النطق وعلمه أسماء الأشياء التي خلقها الله من أجل أن ينتفع بها ويتعامل معها، والمنفذ إلى الأشياء هو هذا: العلم بالشيء وباسمه يعطيك معرفةٍ به، وهذا هو أساس استخلاف الإنسان في الأرض، وهو أن يكون لديه العلم في هذا التكوين الذي خلقه الله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾، فعلمه البحر وعلمه السماء وعلمه الأرض والهواء والإنسان والحيوان وأسماء الحيوانات وهنا جاء التأكيد بقوله سبحانه وتعالى: ﴿كُلَّهَا﴾، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، يعني جميع الأسماء، وفي هذا دليل عند كثير من أهل العلم وهو الصواب إن شاء الله تعالى بأن اللغة توقيفية، هناك خلاف بين أهل الإسلام من العلماء هل اللغة توقيفية أم وضعية؟

ويقصدون بالتوقيفية: أي أنها مُنزلة من السماء وألهم الله آدم الأسماء واللغة وتعلم بها إلهامًا.

ويقصدون بالوضعية: أن الإنسان وضعها على طرقٍ متعددة على أقوال متعددة كيف وضعت لمن يقول بالوضع.

ولما كان أئمة اللغة في أغلبهم منذ سيبويه، سيبويه فيه نزعة اعتزاليه بخلاف الخليل بن أحمد الفراهيدي، فالخليل من أهل السنة ولا يُعرف عنه بدعة، لكن منذ سيبويه والكثير من أئمة اللغة هم معتزلة، إلا القليل ولكن الكثير فيمن حملها كانوا على الاعتزال، والمعتزلة يقولون: بأن اللغة وضعية، ولذلك شاع في كتب اللغة بأن اللغة وضعية، أي تواضع الناس عليها، كيف تواضع الناس عليها؟ هناك أقوال، يقول هناك مرةً تتخيلون أن جماعةً من الناس قد اجتمعوا واتفقوا على وضع هذا، وبعضهم يقول: تواضعوا عليها العقلاء وعلموها غيرهم وو ... إلخ.

ولكنهم حين يأتون إلى كيفية التواضع، يعني كيفية الاتفاق على وضعها، هنا اختلفت مذاهب الناس في كيفية وضع اللغة، فبعضهم قال: جرت على مجرى إما السمع لما تقول، وإما حركة اللسان، هذه مذاهب حركة الوجه فمثلاً لما يمر الهواء، -كما يمر الهواء في الزفير- فهذه قالوا ووضع: هواء، وهكذا أراد أن يعبر عن الهواء فصار يزفر من فهمه فهكذا وضع الهواء، فتجدون أن هناك توافق بين اللغة وبين الاسم وبين مسماها كالزقزقة، ضرب، الحاقة، هناك ثمة توافق عند أصحاب هذه المدرسة بين الاسم وبين صوته أو بين حركته، ووضعت مذهب في ذلك تعرف في فقه اللغة، تُبحث في مسائل فقه اللغة ليس هذا موضوعنا.

ولكن الذين يقولون: بأن اللغة توقيفية يستدلون بهذه الآية، الذين يقولون: أن الله ألهم آدم وبنيه بعده اللغة بهذا، ويترتب على هذا ما دام أن اللغة توقيفية، أنها وضعٌ إلهي وأوحيت إلى البشر فأنه يجب أن تعظم وتشرف، بغض النظر عن اسمها أو عن جنسها، فيجب أن تشرف اللغة سواء كانت هذه اللغة عربية أو لغة غير عربية لأنها وضعت من قبل الله عز وجل، الله هو الذي وضعها وألهمها لهؤلاء الخلق فلذلك يجب أن تعظم، من هنا فلا يجوز إهانة اللغة.

مثلاً: في هذا الزمان يأكلون على المصاحف، المصاحف هذا شيء معلوم لأن هذا إهانة لكتاب ربنا ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢)﴾ [الحج: ٣٢]، ولكن كذلك يأكلون على الصحف ولا يهتمون، يقولون: هذه الصحف مهانة وهذا لا يجوز، والصواب أنه لا يجوز إهانة الصحف سواء كانت عربية أو غير عربية، فلا يجوز أن يؤكل عليها ولا أن تهان بغض النظر عما فيها من كلام صحيح أو غير صحيح والسبب لأن اللغة توقيفية وأنها وضعٌ إلهي فيجب أن تشرف وأن تعظم لأنها وضعٌ إلهي.

فالصواب: عدم جواز إهانة الكتب، وإهانة الصحف وإهانة المجلات حتى مع ما فيها من كلامٍ ربما يكون حقاً وربما يكون صواباً وذلك لأن فيها اللغة، وهذه اللغة معظمة من قبل الله عز وجل، ويزداد الأمر أهميةً وقيمةً وضرورةً وتشريفاً لما يكون الأمر لغة عربية لأن هذه لغةٌ شريفة، وسنتكلم قليلاً عن هذه اللغة وتاريخها قليلاً بما يناسب الحال، ولكن هذه اللغة شريفة وفيها وضعٌ إلهي في تطورها لأن اللغات على الصحيح مع أنها وضعٌ إلهي، إلا أن فيها كذلك فعلٌ بشري، وتتطور بفعل البشر يعني الأصل أن اللغة قد وضعت من قبل الله عز وجل، ولكن هل اللغة لا تموت ولا تحيا هل هي كائن حي يعتريها النقص بفعل البشر من خلال النسيان والاسقاط، ويعتليها التطوير من فعل الإنسان نفسه؟ الجواب: نعم.

فالله عز وجل هو الذي خلق الشجر ومع ذلك الناس يفعلون به ويطورونه تجدون ما يسمى بالتركيب في الشجر تجد أن هذا مركب على هذا ومركب على هذا، وكذلك لما خلق الله الحصان خلقه حصانًا ولما خلق الحمار خلقه حمارًا، لكن الناس يهجنون فيخرجون البغل، وكذلك «العملس» فالكلب كلب، والذئب ذئب فإذا نكح أحدهم الآخر خرج حيوانٌ آخر أصبر من الكلب وأقوى وأشرس من الذئب.

فالقصد: أن هذا أصل الخِلقة ولكن هذه الخِلقة تتطور وتتبدل بفعل الإنسان، ولذلك اللغة العربية كانت تسمى قبل إسماعيل عليه السلام باللغة العروبية وهي لغة هجينة ضعيفة فيها هِنات بحسب الناس ولكن الذي طورها ودجنها وأصلح شأنها وجعلها بمثل هذا الكمال هو إسماعيل عليه السلام، ولذلك بالحديث الذي حسنه كثير من أهل العلم وتداوله أهل اللغة وهو قوله صلى الله عليه وسلم: (أول من فُتق لسانه بالعربية هو إسماعيل عليه السلام)، فإسماعيل أول من فتق لسانه بالعربية لأن أباه إبراهيم عليه السلام عبراني كما يقولون وإن كان هذا من التاريخ القديم الذي لا يمكن الجزم به ولكن هم يقولون: أن إبراهيم عليه السلام عبراني، وكلمة إبراهيم ممنوعة الصرف أي ليس عربية، فقط أربعة من الأنبياء أسماؤهم عربية، أما بقية الأنبياء فأسماؤهم غير عربية ولذلك هي ممنوعةٌ من الصرف، ممنوع من الصرف يعني لعجميتها، فلما نقول: عجمي المقصود غير عربي.

فإسماعيل عليه السلام لما وضعه أبوه خليل الله عليه السلام في الأرض المباركة وفي الوادي غير ذي زرع، فجاءت جرهم وجرهم قبيلة عربية فتزوج منها فحمل اللسانين لسان أمه وكان يأتي إليه أبوه فيكلمه إبراهيم عليه السلام وكذلك لغة قومه، فهجن هذه اللغة وأخرجها بمثل هذا الكمال الذي عليه الناس، حتى بلغت أعظم ما تكون في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وإجماع أهل اللغة أن اللغة العربية لم تكن بأعلى مما هي عليه كما كانت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وسبب هذا المقالة عندهم؛ لأن زمن التحدي الرباني للعرب بأن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يكون إلا في أرقى أوقات هذه اللغة.

يعني متى نزل التحدي؟ فلو كان التحدي نزل لقومٍ أقل فسيأتي الأقوى فيقول: عندي ما هو أبلغ مما تكلمت به فأنا أقوم بالتحدي، ولكن لما نزل التحدي لأعظم القامات قوةٌ وبلاغةٌ وشرفاً وتماماً في اللغة فهم أعظم من تكلم باللغة، هذا الزمن الذي نزل به النبي صلى الله عليه وسلم هم أعظم الناس عربيةً وأشرف الناس لغةً وأتم الناس كمالاً فيها، فلذلك نزل التحدي عليهم، فلذلك ليس من قبلهم بأعظم منهم بل هم أدنى منهم، وليس من بعدهم بأعلى منهم بل هم أدنى منهم، هؤلاء هم الذين نزل عليهم التحدي القرآني.

فهذه اللغة تتطور، اللغات تتطور وتطور اللغات له أسبابه، يعني القرآن الكريم طور لغة العرب طورها، والناس كثيرًا من الكلمات أسقطوها، وسقوط الكلمات في اللغة له أسبابه، منها مثلاً: أن هناك ألفاظ لها نشوز في السمع، ضربوا مثالاً على هذا كما ضرب ابن قتيبة هذا المثال وقال مثلاً: لماذا ذهبت كلمة البعاق بدل المطر وبقيت المطر وبقيت كلمة الغيث، لماذا؟ قال: لأن كلمة البعاق كلمة فيها نشوز على الأذن فالناس تركوها، فهذا هو الذي يقال: بأن اللغة في أصلها وضعٌ إلهي ولكن هذه اللغة تطورت بفعل الإنسان وتغيرت وربما تتزاوج الكلمات واللغات.

وتزاوج اللغات بعضها بعض بسبب ما، فنحن الآن العامة من الناس والعامة عادةً يميلون للتسهيل يبعدون الكلمات يختصرون من أجل أن يبلغوا بسرعة لا يريد أن يتكلم كلاماً طويلاً كما يتكلم البليغ من أجل يبين معاني

خفية في داخل الكلام، هو يريد أن يوصل المراد العامي ولذلك يسقطون الهمزات وربما يجعلون الحروف القريبة حرفاً واحداً كما هو الهمزة والعين «القرعان» يقولون العوام، وهذه العرب يفعلونها قديماً لأن الهمزة هذه صعبة على القرءة يقول قرعان ويمشي، فيسهلون الحروف أو يجمعون الحروف المتقاربة حرفًا واحدًا ليسهل لديهم.

فالقصد: قلت هذا لأن اللغة تتطور في أيدي الناس وبسبب اقتراب الناس تمتزج اللغات ويدخل بعضها على بعض، فلذلك تجد الآن العامي في بلادنا يتكلم لغته العربية ويتكلم لغة المستعمر التي جاءت إليه، وخاصةً كثيراً يتكلمون لغات تركية، ألفاظًا التركية ما، كما يجعلون النسبة في «جي» ويقولون: عربجي، مطعمجي، هذه «جي» هذه نسبةٌ تركية، كالنسبة التي عندنا، ثم تأتي دولة مستعمرة فيدخلون الكلمات يقول لك: «بالطوا» وهذه ألمانية يطلقونها على الجاكيت، لأن الألمان على هذه البلاد وحملوها، وهكذا، وكذلك تتداخل اللغات بسبب الأسماء الخاصة الجديدة، والتي لا تعرف عندهم.

ومنطق هذه القضية في قضية اللغات، وهذه ستأتي فيما يأتي ولكني أقدمها لأهميتها لأن الموضوع موضع لغة، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ [البقرة: ٣١]، هنا الضمير يعود لماذا؟ ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ [البقرة: ٣١]، الأسماء لا تكون حقيقة بل تكون أسطورة وأكذوبة أن لم يكن لها ثمة حقائق، والحقائق ليست فقط الأمور المادية التي تلمس ولكنها للمعاني التي تحس، يعني المعاني أسماء يعني هذا الحب هذا حقيقة، فهو شيءٌ معنوي في القلب لا يلمس لكنه يحس، لا يحس بالبدن ولكن يحس بداخل الإنسان ومشاعره، في أحاسيسه.

فإذن الاسم لا يكون له قيمة إلا بوجود حقيقة له، ولا تقام الأسماء لغير الحقائق، فإذا أقيمت أسماء لغير الحقائق كانت كذباً، فإذا لم يكن عند الناس هذه الحقيقة ليست موجودة فلا ضرورة لاشتقاق اسمها أو لإيجاد اسمها، لا يحتاجون إليها، ومن ذلك مثلاً: العرب لا يعرفون الحرير وليس من بلادهم، فإذا جاء إلى بلادهم لابد أن يأتي الحرير ويأتي معه اسمه، هم يعرفون الحرير العادي ولكن إذا جاء نوعٌ جديد له اسم يأتي معه اسمه فيقولوا: استبرق، ويقولوا: سندس.

وهذه إحدى نظريات أهل العلم في دخول اللغات على اللغات الأخرى؛ أنه إذا جاء الشيء جاء معه اسمه وبذلك يذكرون طرفة عربية جميلة وهي معبرة عن هذه الحقيقة أن عربياً سُئل عن ماء الطعام عندهم فقال: ما اسم ماء الطعام عندكم؟ قالوا نسميه السخين، وهو مأخوذ من السخن، فقالوا: هذا إذا كان حاراً فإذا برد ماذا تسمونه؟ قال: لا نتركه حتى يبرد، بمعنى ما دام أنه غير موجود وهو بارد فلا اسم له وهذه كشعار.

بعد هذا هل في القرآن الكريم كلمات غير عربية؟ الشافعي رحمه الله في كتابه «الرسالة» شدد تشدداً عجيباً وقوياً في الرد على من زعم أن في القرآن كلاماً غير عربي، طبعاً بلا شك مما يُجمع عليه أهل العلم لا يوجد في القرآن أي

تركيب لغوي غير عربي، وإنما هو لسانٌ عربي أي تراكيبه عربية، تركيب الكلام يعني مثلاً في اللغة الإنجليزية يقدم المضاف إليه على المضاف، العربية لا يوجد هذا يعني لو أنت أردت أن تنسب شيئاً وتقول: بيت عمر، فهم يقدمون عمر على بيت، يقدمون الأب على البيت، مثلاً: هذا بيت الأب يقدمون الأب على البيت، هذا من تراكيب الانجليزية عندهم، العربية لا تفعل هذا لا تقبله.

فإذن القرآن لا يوجد فيه تراكيب غير عربية أبداً هذا بإجماع أهل اللغة، لا خلاف بين المفسرين وبين علماء العربية على أنه لا يوجد فيه إلا التراكيب العربية، لأنه أنزل بلسانٍ عربِي مبين، فلو العربي نزلت بغير لغته تراكيب لعدها شذوذاً ونقصاً، لكن هل يوجد في القرآن كلمات غير عربية؟ هنا العلماء اختلفوا منهم من قال: لا يوجد أبدًا في القرآن إلا كلمات عربية، والشافعي يقول: هذا الذي تزعمون لغة استبرق أنها ليست عربية وأن ابن عباس رضي الله عنه جهل كلمة فطر حتى سمعها من إعرابِي آخر وإستبرق وكذا، فقال: أن السبب في زعم البعض أنها ليست عربية، ذلك لجهلهم باتساع لغة العرب، لأن لغة العرب يقول: لا يحيط بها إلا نبي كما لا يحيط بحديث النبي إلا نبي.

تعرفون أن العرب ليسوا لغة واحدة، هم لغة واحدة ولكن في كل قبيلةٍ عندهم من الكلمات الخاصة بهم، ومن ذلك لما أبو هريرة رضي الله عنه روى حديث سليمان وداود عليهما السلام في الأختين وقد اختصمتا ابن من أكل الذئب الكبرى أم الصغرى؟ كان هناك أختان، أخت صغرى وأخت كبرى، فجاء الذئب وأكل ابن الكبرى، فاختصمتا إلى من؟ إلى داوود فقضى للكبرى، فلما خرجتا من عنده قال سليمان: لو كنت أنا لقضيت بغير هذا، سمع داوود بالأمر، فأرسل إليهما وأحضر ابنه ليقضي بينهما، فقضى بينهما وقد عجز عن معرفة لمن الابن بأن يقسم قسمين، فقال: ائتوني بالسكين، فقال أبو هريرة وقد روى الحديث كان ذلك أول يوم سمعت بكلمة السكين، لا يعرف هو من دوس لا يعرف السكين، هو يعرف المديا أو يعرف الموسى، لا يعرف السكين، العرب يعرفوا هذا ولا يعرفوا هذا.

ومن هنا جاء القرآن على سبعة أحرف، لأنه لا يستطيع نطق هذه الكلمات العربية لو قتلته، لغته هي شرفه لا ينطق، كما أن الانجليزي اليوم لو قلت له: قل يحي يموت ولا يقولها، إلا في النهاية ينتهي إلى يهيى، الحاء من أشق ما يكون على لسان من لا يعرفه لا يوجد في لغته هذا الحرف، فالمقصود الحرف هو الكلمة، فكلمات لا يعرفوا نطقها، فيقول ماذا؟ سكين ماذا؟ يعني مرة ومرتين وثلاثة حتى يستطيع أن ينطقها.

فيقول: السبب بأن العرب تعرف بعض الكلمات ولا تعرف بعضها، فما لم تعرفه زعمة أنه ليس عربي، صحيح أن القرآن نزل بلغة قريش ولكنه كذلك تكلم به أهل القبائل الأخرى بلغتهم، ونزل على لغتهم على سبعة أحرف، والدليل انظر الحديث الذي صارت فيه الخصومة بين رجلين، بين أبي هريرة وبين عمر ليس بين رجلين من قريش، لما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم حديث الأحرف، الخصومة تمت بين شخصين من غير قبيلةٍ واحدة، لأن القبيلة

الواحدة تقرأ بلغةٍ واحدة وحرفٍ واحد، ولكن أبا هريرة قرأ فسمعه عمر من قريش وهذا من دوس فصارت الخصومة، فدل على أن هذا يقرأ بحرف غير هذا، فربما ينطق كلمات لا يعرفها هذا، لا يعرف يستأنس لا يعرف إلا يستأذن.

ولذلك قال الشافعي رحمه الله: بأن القرآن إذا جهل بعضهم أن هذا من لغة العرب فهو من لغةٌ أخرى، ولا يحيط بلغة العرب إلا نبي، ومن هنا فحين يجهلون يقولون هذه أعجمية، والصواب أنه لا يوجد في القرآن غير العربية وهذا هو الصواب، وبعضهم يقول: أنتم لماذا تقولون هذا فهل أسماء الأنبياء عربية؟ يقول: هذه الأسماء لا تقال عربية وغير عربية، أي لا يقال لأحد أن لغتك غير عربية وهو ينادي الرجل باسمه.

ولكن الذين يقولون: أن فيه لغات غير عربية يقولون بما قلنا به بأن هناك ثمة أشياء لا حقيقة لها عند العرب، فلما دخلت حقيقتها دخلت معها أسماؤها، مثلما ذكرنا السندس والإستبرق، فالعرب لا يعرفون السندس والإستبرق، فلما دخل السندس قالوا: ما هذا؟ فقالوا: هذا سندس، ولكنه مما ينبغي الاهتمام به أن الأمة القوية تحول الكلمة إلى لغتها.

مثلاً: كلمة كنغر أو كما يسمونه كنغرو هو الحيوان المعروف في استراليا، المستعمر لما دخل استراليا قال ما هذا؟ وكنغرو يعني ماذا تريد، فلما يسأل المستعمر أو المستكشف يسأل أهل البلدة يقول لهم ما هذا؟ كنغرو يعني ماذا تريد، فظنوا أنه كنغرو اسم الحيوان، ونحن لا نقول: كنغرو صعبة في نهايتها «او»، فالعرب قالوا: كنغر، فأخذنا الكلمة وعربناها وهذا يحصل.

مثلاً: لو واحد سأل أنتم أدخلتم كلمة وهي الفلسفة لأنه لا يوجد عند العرب فلسفة، فكلمة فلسفة ليست عربية، أصلها محب الحكمة في العربية، فيلسوف لا يوجد عندنا في العربية، ولماذا لا يوجد في العربية؟ لأنه لا يوجد عندنا هذا العلم، فلما دخل هذا العلم على العرب سألوا ما هذا العلم؟ قالوا: فلسفة، فسمي فلسفة، طبعاً ليست بهذا الاسم ولكن العرب عربوه، كما أن إذا دخلت الكلمة في لغتهم عربوها يعني مثلاً الآن كلمة طبيب هذه عربية دخلت الفرنسية فلا يستطيعون أن يقولوا طا، ما عندهم طا فقالوا تبيب، فأنت تجدها هذه، فتجد الكلمة إذا دخلت البلدة أو دخلت اللغة الأخرى ماذا تصنع؟ يحولونها باسمهم، وهكذا.

فالقصد: كل هذا يدل على أن اللغات تتطور، أول شيء أنها وقفية أو توقيفية وأن الله هو واضعها وأنه هو الذي علم آدم اللغة، فكيف حصلت هذه اللغات؟ بالانتشار والتحول والتغير، ما هي لغة التي نزل بها آدم؟ لا نعرف، هناك حديث رواه بعضهم منهم أبو نعيم في صفة أهل الجنة، وبعضهم يذكره في كتب التاريخ أن آدم عليه السلام لغته العربية وهذا غير صحيح، نحن رأينا أن اللغة العربية هي لغة متطورة عن اليعربية، والناس لما يتوسعون تتغير لغتهم، وكلما كان الرجل بعيداً عن حضارة الناس كلما كانت لغته أصفى، ومن هنا فإن قريش أن لغتها هي لغة لم

يدخلها شيء من العجمى لأنها بعيدة عن الحضارة، بخلاف طيء مثلاً طيء في الشمال وهي قريبة من الروم ولذلك فيها ما يستنكر عند العربي لأنهم اقتربوا من لغاتٍ أخرى صار هناك التناغم.

ولذلك تعدد اللغات في بلادٍ لا يكون فيها الاتصال، إذا كان الاتصال تسيح اللغات المتفرقة حتى تصبح لغة واحدة، لكن إذا افترقت الشعوب كثرت اللغات، ومن ذلك مثلاً تجد في الهند لغات كثيرة متعددة، لماذا؟ لأن التواصل بينها ضعيف فتجد كل بلدة لها لغتها الخاصة بها، ولكن إذا صار التواصل ماذا حدث انساحت، لو أنك مثلاً سمعت التونسي يتكلم بلهجته العامية فلا تكاد تفهمها، الآن أنتم اسمعوا في اللغة العامية المغربية لا تكاد تفهم العامية، لكن لو تكلم إليك مصري بعامية تفهمه ما السبب؟ هو التلفزيون، التلفزيون نشر اللغة المصرية فصارت سهلة علينا، ولو كان الإعلام المغربي قوي يصل إلينا التمثيليات كما هي طريقة نشر اللغة أو اللهجة المصرية، لانتشرت اللغة المغربية وصرنا نفهمها ولكن للابتعاد يكون قلة التواصل بين اللغات وغيرها.

وبلا شك أن اللغة العامية هي لغةٌ استعمارية ولغةٌ قبيحة والدعوة إليها دعوةٌ مجرمة، و الدكتورة نفوسة زكريا سعيد لها كتاب موجود وتتحدث عن تاريخ الدعوة إلى اللغة العامية اسمه «تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر» وأنا أنصح بهذا الكتاب وإن شاء الله نختاره في «مشروع ألف كتاب» وسنختاره إن شاء الله لأهميته، وتكشف هذه الباحثة الصادقة عن جريمة الدعاة إلى العامية وأن الدعاة للعامية كلهم من المجرمين ومن عملاء الدوائر الاستعمارية والاستشراقية وأن أغلبهم من النصارى، يعني من رواد الدعوة إلى العامية في لبنان سعيد عقل ومارون غصن وإسكندر معلوف، غضب الله عليهم هو نصارى يدعون إلى اللغة العامية يكتب بها وذلك الكتاب الآن الذي يكتب باللغة العامية هؤلاء لا يدرون أنهم وهم يكتبون، وربما المرء يتحدث بين الناس يسهل يتكلم ببعض الألفاظ العامية ولكن حين يكتب أن يكتب بالعامية هذه جريمة يجب أن يعلم أنها إثم ومعصية.

وهؤلاء مجرمون الذين يدعون اللغة العامية ويريدون أن يضعوا لها القواعد ويدعون لها، فهم يريدون تدمير القرآن من هنا فإن الله حين قال جل في علاه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر: ٩]، يعني نزلنا كذلك اللغة العربية وإنا لها لحافظون، لأنه لا يمكن حفظ القرآن إلا بحفظ اللغة، ولذلك اللغة محفوظة ولما كانت محفوظة، لما علمنا أن اللغة محفوظة، كما أن الله عز وجل حفظ القرآن، بما علمنا أن الله عز وجل حفظ القرآن بحفظ الأمة له، وكذلك حفظ اللغة هو من حفظ كتاب ربنا، ولذلك الكتابة باللغة العامية هو خيانةٌ للقرآن وهو إثم وجريمة، لا يجوز للمرء أن يفعلها يأثم.

ومن هنا فإن علماءنا كانوا يشددون الوطيء على من تكلم بغير العربية، كان الإمام مالك كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» أن الإمام مالك كان إذا

سمع رجلاً تكلم بالعربية في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم أمر الجند والشرطة أن تخرجه من المسجد وتطرده من المسجد عقوبةً له، فلا يجوز الكلام بغير العربية.

فلو قيل لك ولكن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم ببعض الأحرف الغير العربية؟ الجواب: نعم، تكلم ولكن هذا ليس كلاماً أن يجري الكلام بغير العربية وأن يصبح الكلام إنما هي كلمات تقال، كلمة من هنا وهنا والمرء قد يستخدمها، وهذا يدل على الجواز فالنبي صلى الله عليه وسلم استخدم بعض الكلمات غير العربية هذا ثبت عنه كما في الصحيحين فهذا يدل على أن يستخدم المرء الكلمة ربما يحتاجها في كلامه أو تكون من قبل التندر بها، ولكن أن يتكلم بغير العربية بغير ضرورةٍ وحاجة فهذا لا يجوز.

وكما يقول ابن حزم رحمه الله في كتابه «الإحكام في أصول الأحكام» يقول: بأن اللغة تبع للأمة، حيث هو تكون الأمة قوية تكون اللغة قوية، وحيث تكون أمة ضعيفة تكون اللغة ضعيفة، اللغة تبع للأمة في قوتها وضعفها، هذا كلامه عليه رحمة الله في «الإحكام».

فلذلك نحن لما كنا أقوياء كانت لغتنا قوية، وكان الناس يفتخرون أنهم يتكلمون بها وأن أوروبا تفخر بأن أبناء القسيسين أو أبناء الملوك يتكلمون اللغة العربية، كما نحن الآن يفخر الناس يتكلم باللغة الأجنبية اللغة الانجليزية والفرنسية، وأما اللغة العربية فلا يوجد لها الاعتناء، ولذلك من يقوم الآن بالحفاظ على اللغة العربية هو يقوم بجهده الشخصي بخلاف نشر اللغات الأخرى، ففرنسا تنفق على وزارة الثقافة بمقدار ما تنفق على وزارة الدفاع، لأن اللغة الفرنسية مستهدفة من قبل الفرنكفونية كما يسمونها الأدب الفرانكفوني الثقافة الفرنكفونية يعني الفرنسية مهددة من قبل أولاد عمهم الأنجلوسكسون، فبعد أن قامت أمريكا والناس فيها يتكلمون الإنجليزية فصارت الثقافة الفرنسية مهددة.

ولذلك قلت لكم: ينفق على وزارة الثقافة بمقدار ما ينفق على وزارة الدفاع، ويدفع لغير الفرنكوفونين مثل الأفرقة والعرب والآسيويين يدفع لهم من الجوائز أضعاف ما يدفع من الجوائز للفرنسيين الأصليين حين يتكلمون ويكتبون باللغة الفرنسية، يعني هناك جوائز كثيرة جدًا لغير الفرنسي الفرانكفوني، يعني غير الفرنسي الذي هو داخله فرانكفوني، السود في بريطانيا يسمون الذي في داخله غير أسود يسمونه «باونتي»، والباونتي هي الحلويات التي من الخارج شوكولاتة ومن الداخل جوز الهند، فمن الداخل أبيض ومن الخارج أسود فيسمون الأسود الذي هو أسود في ظاهره وفي باطنه أبيض «باونتي» مثل هذه قطعة الحلويات.

وكذلك الفرنكوفونية هو غير فرنسي ولكنه في الداخل ماذا؟ هو أسود تجده أسود أو تجده عربي أو تجده آسيوي لكنه في الداخل ماذا؟ فرانكفوني، فرانكفوني يفكر ويحلم، وأنا سألت أحدهم بما تحلم؟ وهو يتكلم الفرنسية كأهلها، وسألته يومًا ما بماذا تحلم بأي لغة تحلم؟ قال: بالفرنسية، يحلم بالفرنسية يعني حتى صار أحلامه بالفرنسية وهكذا.

وفي إحدى القصص لواحدة عراقية تتكلم عن الصدمة الانجليزية لما ذهبت من العراق إلى بريطانيا، تتكلم قصة، رواية، لكنها تتكلم على طريقتهم من الإجرام، كيف أنها اكتشفت أنها متخلفة قبل أن تدخل الثقافة الإنجليزية أو الأنجلوسكسونية كما يسمونها، فتقول لها المدرسة: لا يمكن أن تصبحي متكلمة باللغة الإنجليزية الجيدة حتى تحلمين باللغة الإنجليزية، يعني ما هي مشكلة كل صاحب ثقافة إذا تكلم بلغة غيره أنه يسمع الكلام بلغةٍ أجنبية لكنه يدخلها إلى عقله فيفهمه بلغته، فيجيب عليه بلغته ثم بلغته يحوله إلى اللغة التي يجيب عليها ثم يجيب، انظر إلى هذه العملية الطويلة من هنا يكون يعني يتلعثم ولا يتكلم بسرعة، لكنه إذا وصل إلى درجة التماهي والانسلاخ من لغته لا يحتاج إلى هذه العملية العقلية، لأنه يحلم باللغة الأجنبية، فيصبح «باونتي»، يعني تصح هذه الوصفة عليه.

من هنا أيها الإخوة الأحبة العامية هي جريمة طبعاً العامية نجحت، والسبب أنها صارت هي لغة الأدب، وحميت ووجد لها المسارح صار يتكلمون بالمسرح والسينما والشعر يتكلمون بالعامية والى غير ذلك، فلذلك دعمت، المصيبة الأكبر التي طرأت على اللغة وهي ليست فقط العامية هي أبقوا اللغة في ظاهرها ولكنهم أفرغوها من تركيباتها وجمالها وذوقها العربي وهو ما يسمى بالحداثة، صاروا يتكلمون الشعر الحداثي الذي قضوا فيه ودمروا وأبادوا ما يسمى الشعر الخليلي، وأوجدوا هذا الشعر الحر ثم بعد ذلك أوجدوا شعر سموه شعر التفعيلة ثم بعد ذلك أوجدوا الشعر الآخر وهو شعر النثر، وهو الشعر الذي لا قيمة له وقامت على هذا مؤسسات، شرحتها لما تكلمت عن «مجلة شعر» التي قام عليها يوسف الخال وأدونيس وخالد سعيد وهذا نصراني وهذا نصيري وكلهم من المقاطيع وكلهم من أعداء الأمة، وصار لهؤلاء داعمون.

بمعنى انظر الآن يوجد ما يسمى شاعر المليون والحمد لله بفضل الله عز وجل والشهادة لله لا أرى هذه البرامج أبدًا ولكن أقرء عنها ولابد أن أعرف الواقع، انظروا يتكلمون الشعر العامي ويغنوا ويعطونهم الملايين يدفعون لهم، ولو وجدت عدد المؤسسات التي تبذل الجوائز للشعر غير العربي للشعر الحداثي وشعر التفعيلة وشعر الحر وشعر النثر لوجدت لهم الأموال تبذل لهم الأموال الكثيرة جداً والجوائز ولكن أين الاهتمام بالشعر العربي، لا تجد هذا إلا قليلاً جداً من بعض، وليس المؤسسات وليست الدول، فالدول لا تهتم بها ولا المؤسسات إنما تجد أناسًا يشتغلون ديانة لله جزاهم الله خير الجزاء ويتعبدون الله بالحفاظ على العربية والحفاظ على الشعر ويدعمون هنا وهناك ولكن عامة ما يبذل له من الجوائز والعطاء والتدريب هؤلاء الذين يريدون كما سماها أدونيس تفجير اللغة، هذا سماه تفجير هذا أدونيس زعيمهم وديقانهم الأكبر،

فالقصد: بأن اللغة العربية الحفاظ عليها هو الحفاظ على كتاب ربنا وأي دمار للغة هو دخولٌ على القرآن، ولذلك كان الأستاذ مصطفى صادق الرفاعي رحمه الله عظيمًا عندما جعل الصراع بين القديم والحديث بين اللغة في قدمها وأصالتها وعظمتها وشرفها في زمن نزول القرآن وبين اللغة التي يريدون إيجادها من اللغات العامية والتسهيلات في سكن تسلم ولا نريد التفريق بين المؤنث والمذكر، هذا من الصور التي دعوا إليها، يعني لماذا المذكر والمؤنث خلاص في تساوي، هم لا يفعلونه في بلادهم وما زال هناك «She» «He»، ولكنهم يريدون هذا يريدون أن لا تبقى الحواجز اللغوية بيننا وبين الآخرين، فسمى الصراع بين الحديث والقديم بين اللغة العربية في زمن نزولها لما كانت شريفة وبين اللغة التي يريدون تدمير سماها معركة تحت راية القرآن، تحت راية القرآن لأن المقصود به القرآن، المقصود به الحديث النبوي، المقصود به الدين.

وللأسف من الأمور الخطيرة جداً في هذا الباب هو الدعوة والدعاية المنتشرة بأن اللغة العربية صعبة وأن الشعر العربي صعب وكل هذا كذب وافتراء، هناك فرق بين أن تبذل الجهد وهناك فرق بين أن تقول: صعبة لا تفهم، يعني ما هو الأصعب أن تأتي بشاب أو فتى عربي يتكلم اللغة في بيته وفي بيئته ومحيطه وتقضي به إلى مدرسة انجليزية يعلمونه اللغة الانجليزية أو الفرنسية وبين أن تشرح له العربية التي ينطقها، ما هو الأصعب؟ ولكنهم يصعبون العربية يجعلونها صعبة وأخ يكره العربية وأصبح يكره الرياضيات وصار يكره كل شيء، لماذا يكره كل شيء؟ لأنه يريد كل شيء سهلاً، يريد كل شيء أن يأتيه سهلاً لا تعب فيه ولا مشقة، ولكن تقول له: اجلس فقط اصبر حتى تتعلم هذا، فيرى أنها هذا تعِب ولذلك كل شيء الآن صعب لا قيمة له عندهم، ويريدون الاستسهال فتركوا العلوم كلها، في الحقيقة تركوا العلوم كلها، وكل علمٍ يحتاج إلى دربة عقل وإلى جهدٍ بشري صار الناس يكرهونه ويحبون الاستسهال، وهذا من دمارنا، علامة على ما للأسف من أن مدرسي اللغة العربية الكثير منهم لا يعرفوا سرها لا يعرفوا أهميتها.

ونحن نرى أن الذين تكلموا العربية بإخلاص مع اتقانهم للغاتهم تكلموا على العربية بتعظيم يعني عامة ائمتنا في اللغة هم من غير العرب ولم ينسلخوا من لغاتهم، بعض الناس يعني لما تأتي أنت إلى ابن جني هذا الإمام العظيم، أبو علي الفارسي، الزمخشري، الجرجاني، هؤلاء أئمة في لغاتهم يعني هناك كتاب أظنه ربيع الأبرار ذكره الأستاذ محمد محمد أبو موسى أنا لا أعرفه ولكن هو لاهتمامه ذكره الذي سنناقش كتابه عن الإعجاز البلاغي، ذكر في كتابٍ له مهم وأنا أنصح الإخوة بقراءته اسمه «علماؤنا وتراث الأمم » وهو رسالة الصغيرة ورقات قليلة وربما موجودة في داخل النت، أظن ذكر أن الزمخشري،، محمود بن عمر جار الله الزمخشري، لأنه جاور مكة، جاور في مكة مرتين، أن له كتاب أظن «ربيع الأبرار» إن لم تخني الذاكرة كتبه بلغتين باللغة العربية وتحته اللغة الفارسية فهم فرسان لغاتهم، ولكن لما تذوقوا العربية ورأوا جلالتها وشرفها وما فيها من جمال وما فيها من إبداع احتقروا تكلموا عن اللغة العربية بشيءٍ غريبٍ جداً.

فلذلك أيها الإخوة الأحبة يعني الآن معركة اللغة هي معركة الدين، معركتنا في قضية اللغة يجب أن نهتم لها وعلينا أن نعرف أننا عندما نحارب من أجل تثبيت لغتنا هذه العربية الشريفة التي أول من فتق بالحديث فيها جمالاً وإبداعاً وعظمة وتشريفاً هو سيدنا إسماعيل عليه السلام جد النبي صلى الله عليه وسلم نزداد تعلقاً بها، ويجب علينا أن نهتم بها، ولكننا نبقى على كل حال مأسورين لمن للقوة، أي نحن فقط الآن ندافع، لئلا تهدم حصوننا من الداخل كما يقول الأستاذ محمد محمد حسين في كتابه، للأسف لم اختاره وربما اختاره، عندما ألف كتاب «حصوننا مهددة من الداخل».

ونحن الآن أبناؤنا لا يتقنون العربية! أبناؤنا لا يتقنون قراءة القرآن!! نحن من الداخل أستاذتنا يتكلمون بالعربية بغير إبداع ولا يتذوقونها، عليهم أن يتكلمون مع اللغة بما فيها، لماذا وضعت؟ لماذا تذوق العربية أن يكون هكذا؟ لماذا يتذوق العربي أن يكون هذا مثل هذا؟ هنا يأتي تعليل اللغة، وهذا الذي فعله علماؤنا، لما تأتي إلى كتاب «الخصائص» لابن جني تدخل فيه ولما تقرأه تحس بمتعة اللغة، يجب على معلم اللغة أن يقرأ هذه الكتب التي تفسر لنا الحركات، تفسر لنا التركيب تفسر لنا الجمال تفسر لنا اللفظ لماذا ينشأ، عليك أن تعلمه وأنت تخاطب عقله، لا أن تضعه أمام م أمام طوبة خذها هكذا، لماذا هي هكذا؟ لو أنك أذقته كشفت له عن هذه في داخله أزلت هذا الغلاف من الصلب حوله كما أن الطيب يكون في داخل القارورة المغلقة، فتقول له: خذها هكذا، فينظر إليها ما هذه؟ لكن افتح له، أزل عنها هذا الغلاف، أذقه، نهاية علم العربية الذوق هذه كلمات ليست لي، هذه كلمات الكبار والأئمة، الذوق، نهاية هذا العلم هو أن تذوقه، أن تحسه.

أنا أعتذر لكنها لفتة مهمة بالنسبة لهذه اللغة العظيمة التي الله سبحانه وتعالى حفظها بهذا الكتاب العظيم، وهذا الكتاب الجليل، وأنا أظن أن القرآن يسري بين الناس لضعفهم فيه، ففي الحديث وإن كان فيه ضعاف ولكنه مفسر لما قاله أبو جعفر الطحاوي في عقيدته، منه بدأ وإليه يعود، في متن الطحاوية يقول: أبو جعفر الطحاوي عن القرآن: «منه بدأ وإليه يعود» ففسروا إليه يعود هو سريانه من الأرض لأن الناس يقومون ولا يجدون القرآن بين أيديهم خلاص يسري من صدور الرجال كما يسري من أوراقهم، يقومون بهذا المصحف فلا يجدون فيه شيئاً، ويبحثون عنه في قلوبهم فلا يجدونه، وأعتقد أن هذا إنما هو معنى من معاني ذهاب اللغة العربية، فإنه لا يسري إلا وقد سرت منه فائدته منهم لأنهم يقرؤنه ولا يفهمونه، لا يستطيعون قراءته.

كما أن في الحديث (تقوم الساعة وليس على الأرض رجل يقول: الله)، فكذلك ليس على الأرض يتكلم العربية، وبالتالي ليس هناك في الأرض أحد يقرأ القرآن، كل هذا يرتبط بعضه ببعض.

نعود إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، هل كل شيء؟ الجواب: نعم كلها، وهنا نأتي إلى قضية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ [البقرة: ٣١] نحن نعرف أن هناك أسماء وهناك أشياء كما قلنا: هناك أسماء وهناك

معاني هناك حقائق فدل على أن الحقائق موجودة قبل الأسماء، أولاً: الحقائق الذي ينشئ الأسماء بقوة هو الحقائق؛ فكل اسمٍ لا حقيقة له لا معنى له.

ومن هنا تأتي كلمة الحقيقة، ما هي الحقيقة؟ هو وجود الشيء، من هنا الكذب ضد الحقيقة لأنه لا وجود له، واحد يتحدث عن قصة لم تحدث لا حقيقة لها، فلما لا تكون لها الحقيقة تكون كذب، فالحقيقة هي وجود الشيء، أن يكون الشيء موجوداً، هذا معنى.

المعنى الثاني: أن يكون الشيء صائباً، الحقيقة عندما تقول أنت: كتاب، فالناس يعلمون أن كلمة كتاب حقيقة لأنها تعبر عن شيءٍ موجود، لما تقول أنت الشمس فأنت تعبر عن شيءٍ موجود، لكن لو أن رجل أتى بكلمة أي كلمة، ومما يذكر كانوا في امتحانهم لأئمة اللغة مرات يستغربون حفظ الرجل للكلمات ويسألونه فيجيب، فيأتون في الليل يبحثون عن كلمة غريبة لم يسمعوها قط، مثلاً: تعرفون أول ما تدرسونه في النحو بين المستعمل والمهمل، الكلمة المستعملة والمهملة مثلاً لو أنت جئت لكلمة زهر فحولتها تجدها زهر تجد رهز صحيحة زره، لكن هناك كلمات غير مستخدمة ويقال: مهملة يعني لو أنك حولت الكلمة لصيغة ما فلا تجد لها استخدامًا فيقال لها: مهملة يعني هي موجود في اللسان لكن مهملة لأنه لا حقيقة لها.

فكان بعضهم يستغرب مثلاً: يأتون إلى الفراء، يأتون إلى الأصمعي لهؤلاء أئمة اللغة الذين اعتنوا بجمع لغة العرب، لجمعهم الكلمات فيركبون كلمةً في الليل لا يعرفونها من أجل أن يمتحنوهم، ما معنى هذه الكلمة فإذا أجابهم عليها ولا حقيقة لها يعلمون كذبه، فمما كانوا يستغربونه أنهم يركبون كلمة في الليل فيسألونه فيجيبهم بمعناها ويوجد بيت شعر، فيقولون عنه: إن كان صادقاً فهو عجب! وإن كان كذباً فهو أعجب!! أي كيف في لحظته أوجد بيت شعر؟! إن كان صادقاً فهو عجب! هم في الليل أئمة يجمعون يريدون كلمة لا وجود لها فيسألونه، ويقول: نعم معناها كذا ويحضر بيت الشعر، فإن كان صادقاً فهو عجب! كيف يعرف هذه الكلمة ولا يعرفونها، وإن كان كاذباً فكيف ركب لها بيت الشعر في تلك اللحظة!!

القصد: بأنه لما قال الله عز وجل: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ [البقرة: ٣١]، أسماء الحقائق، فالحقائق موجودة ولكن جاءت الأسماء، وقلنا في الدرس الفائت وهو شيءٌ مهم: بأن قاعدة الاستخلاف في الأرض والقيام فيها حق القيام، أي القيام بأمر الله عز وجل في هذه الأرض لا يكون إلا بالعلم، وباب العلم أن تعلم أسمائه.

فنحن الآن لما نأتي نعلم مثلاً علم الحديث ماذا يعلمونه؟ مصطلح ما معنى المصطلح؟ يعني أسماء، ما معنى أسماء؟ الكلمات، ونحن قلنا: أن كل شيءٍ في الدنيا هو اسم، لما قلنا: حتى الفعل هو اسم، لما نقول: يضرب هذا نقول له:

فعل، لكن كلمة فعل هي اسمٌ دالٌ على شيء، والشيء هذا هو الفعل، فهو اسم، وكذلك نقول: الحرف لما نقول: «من» نقول هذا حرف، يقول كلمة الحرف هي اسمٌ ليدل على الحرف.

فأول العلوم هو أن يتعلم الأسماء، لا علوم إلا بالأسماء المدخل إلى معرفة الوجود هو الأسماء، قلنا: لما نتعلم علم الحديث أول ما نتعلم الأسماء، يقول: الحديث صحيح؛ هذا اسم، ما هو الحديث الصحيح؟ أن يعرفه يتصوره، هو لا يعرفه لا يتصوره، الذي لا يتصوره نقول له: حديث صحيح، يقول: هذا جيد مقبول لكن ما هو؟ كيف ينشأ هذا الحديث الصحيح هنا لا بد من الأسماء الحسن، المرسل، الضعيف، المنكر إلى غير ذلك.

وكذلك في الأصول نقول: نريد أن نتعلم أصول الفقه، ما هي الأصول؟ ولما نتكلم في الأصول نتكلم عن الإجماع، نتكلم عن القياس، نتكلم عن العام وعن الخاص وعن المؤول، نتكلم عن الترجيح ... إلخ، عن المجمل، فهذه أول ما يتعلم المرء الأسماء، فباب كل العلوم هو الأسماء، أولاً: لا يمكن أن تعلم المرء شيء حتى تعلم الأسماء، حتى الفتى لو ذهب يشتغل عند مصلح سيارات فإنه يعرفه بالأشياء أولاً يقول له: هذا مفتاح، هذا برغي، هذه عتلة، فيتعلم أولاً الأسماء؛ فالمدخل إلى كل شيء هو الأسماء، فأساس استخلاف المرء في هذه الأرض هو الأسماء.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، قال: ﴿ثُمَّ﴾، وانتم تعلمون أنا عندي أن ثم هنا يعني كان هناك ثمة وقت والدليل على أن التعليم يحتاج إلى صبر ويحتاج إلى معاناة، فلابد أن يبقى هناك وقت ليتعلم وهذا لا بد منه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ [البقرة: ٣١]، أي عرض الأشياء التي سماها الله عز وجل على الملائكة، عرضهم يعني وكأنه يقول لهم كما سيأتي: أنه أراهم هذه الأشياء أمامهم، فقال: هذه الأشياء أمامكم اذكروا، ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾، بعد أن علم آدم الأسماء كلها عرض هذه الأشياء على الملائكة.

وقلنا: بأن الأشياء تكون قبل الأسماء ولكن للدخول في الأشياء لابد من الأسماء، قال تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ﴾ [البقرة: ٣١] أي ربنا جل في علاه، ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ [البقرة: ٣١]، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١)﴾ [البقرة: ٣١]، هنا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، هل الملائكة يكذبون؟! لا، الصدق ليس الذي يقابله فقط الكذب، ولكن يقابله الخطأ، من لغة قريش يقال: كذب فلان أي أخطأ فلان، لماذا؟ لأن الكذب في أصل وضعه لابد أن يكون على شيئين، يطلق على شيئين قد اجتمعا معاً وهو أن يخطئ فيكون قد أخطأ، وأن يقصد ذلك أي أن يأتي بشيءٍ لا حقيقة له وهذا كذب، ونحن علمنا من جمال العربية وجلالها أن تستخدم الكلمة إذا كان فيه بعض معناه، فيه جزء من معناه، فجزءٌ من ذلك وهو أن يخبر بالحقيقة، وأما أن يقصد أو لا يقصد فليست من بابها.

فإذن لما يقول: كذب يعني أتى بالشيء على غير حقيقته، وأما أن يقصد أو لا يقصد فلا فلم يقصد، وإذا قصد كان الكذب في معناه الكلي، وإذا لم يقصد فيكون في معناه الجزئي، لكن السؤال لماذا يستخدمون هذا؟ هذا استخدامٌ له مقاصد كثيرة عند العرب، وسنأتي إلى بعضها عندما تأتي الكلمة بدل كلمة، لماذا توضع هنا دون غيرها.

السؤال هنا –وهو الذي يفتح الباب– لماذا وضعت هنا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ نحن قلنا: لابد له أسباب كثيرة ليس هناك سبب واحد هناك أسباب كثيرة، ما هو السبب هنا استخدام كلمة الصدق دون غيرها مثل إن كنتم عالمين؟ ولكن قبل أن نتكلم عن هذا، لماذا قال هذا؟ الذي عليه جمهور المفسرين –وقد تكلمت عنه سابقاً– إنما قال: هذا لما زعموه من أنهم خير الخلق، يعني نحن أكرم الخلق، كانوا يقولون بينهم وبين أنفسهم ويتحدثون: نحن أكرم الخلق، ونحن أكرم ما خلق الله؛ لأنهم خلقوا من نور، خلقوا من نور في أصل خلقتهم وأعمالهم ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فإذن أي شيءٍ أعظم مما سيكون، سواء كان في أصل الخلقة أو في فضل الفعل.

فأصل الخلقة هو أفضل ما خلق الله عز وجل النور ويكفي أن يقول تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، فخُلقوا من نور، وأعمالهم أفضل الأعمال ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، إذًا ما الذي يراد؟ هنا نسوا جوانب من الفضل وهي العلم، بل أعظم الفضل وهو العلم.

إذن لماذا قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾، أي فيما ادعيتموه أنكم أكرم الخلق خِلقةً، وأفضل الخلق عملاً، أفضل من غيرهم أي ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، فقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾، فيما قلتموه في هذه المقالة، فلماذا استخدمت كلمة الصدق هنا، وهي في أُفُقها الأعلى وفي تمام معانيها، تمام معناها أن يكون فيها المذمة، فلماذا؟ إنما أراد التقريع، وهذا خطاب العلوي إلى خطاب الأدنى.

وانظروا إلى هذا الامر العجيب أنه يقول لهم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١)﴾ [البقرة: ٣١].

أولاً: هو يشرفهم بالعلم وبالإخبار، فهذا شرف أن يبلغهم هذا البلاغ أن يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٣٠] هذا تشريف لهم.

ثانياً: يبلغهم لمهماتهم، لأننا قلنا: إحدى الاختيارات التي اخترناها بأن هناك يخبرهم من أجل السجود، يعني لكم أعمال انتبهوا أنا خلقته لتخدموه، خلقته لتسجدوا له، خلقته لتُسخروا له خدمةً وذكراً واستغفارًا له إلى غير ذلك، فأخبرهم بهذا المعنى وانظر إلى علوه والى عظمته لما قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، ذلك ليدل على أن هناك ثمة زجر ولو قليل لما قالوه، لماذا؟ لأنه خطاب أمرٍ علويٍ عظيم لعبدٍ

مهما اعتلى ومهما علا ومهما سمى فإنه عبدٌ، ولذلك جاء الاستخدام ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، هي ليس فيها الكذب أو قصدٌ للكذب، ولكن كان يقترب منه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، يقترب منه، لماذا؟ لأن في ذلك نوع الزجر.

كأن يقال: كذب فلان، كأن يقول: لماذا تتكلم فيما لا يعنيك، وأنت جاهلٌ فيه، مع أنه لا يتهمه بأنه قصد أن يأتي بضد الحقيقة، لم يتهمه، ولكن يقول: لماذا تتكلم فيما لا يعنيك؟

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ [البقرة: ٣١]، إذن هناك شمولٌ في النظر في أسماء هؤلاء كل الأشياء قد حضرت، وهنا شيءٌ عجيب في دلالة اللغة وأهميتها وقوتها وسطوتها، حضور الاسم يغني عن حضور الحقيقة، الذات، ما فائدة الأسماء، تصور أنك تريد أن تعبر لرجل عن رحلة أنت قمت بها من هنا إلى عمان مشيت، فلو أنك لا تملك أسماء الأشياء، فكل شيء تريد أن تعبر عنه لابد أن تحضره، لا بد أن تأخذه تقول له: أنا مشيت على هذا، هو لا يعرف الجبل، يريد أن يريه الجبل، يريد أن يريه الحجر، فلو أن واحد يريد أن يتكلم عن الحجر، يذهب المسكين إلى خارج البيت ويحضره له ويقول له: هذا هو.

فحضور الأسماء أغناه عن حضور الحقائق، انظر إلى إكرام الله عز وجل للبشر في قضية الأسماء، كيف أغنت؟ بل من أعجب ذلك في هذه اللغة، يقولوا: تختص هذه اللغة بالضمائر، في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، قالوا: كم ضمير لو أنه أتى بها؟! لو لم يأت بالضمير وذكر المذكور، كم سيأتي بذكره؟ فانظر إلى عظمة هذه اللغة، الضمير أغناك عن ذكر حتى الاسم، الاسم أغناك عن إحضار حقيقة الشيء، والضمير أغناك عن ذكر الاسم.

وانظر إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن: ١-٤]، انظر إلى أعظم ما أعطي هذا الإنسان وهو البيان، صار كأنه وهو يعلم الأشياء كأنه يسيطر عليها، وما سخرت له إلا لعلمه بها، لو لم يعلم ما الحمار لما سُخر له؛ فباب التسخير هو العلم، وباب العلم هو الأسماء، لم يُسخر شيءٌ للإنسان إلا وهو يعلم حقيقته، مثل ما لم يدجن كالأسود وغيرها، المرء لو لم يعلم أن هذا يدجن ما دجنه، وترك هذا لأنه لا يدجن لعلمه به ولخبرته به، لكن قبل الخبرة علم أسماؤه، فالأسماء أغنتك عن حضور الأشياء هذا هو باب العلم، أعظم ما تعطى، لا يمكن تسخير شيءٍ إلا بالعلم به، ولا يمكن العلم به إلا بمعرفة أسمائه.

من هنا هذا باب العلم الذي أعطي له الإنسان وشُرف به الإنسان ومُكن به الإنسان في الأرض، فقوله سبحانه وتعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١)﴾ [البقرة: ٣١]، أنا أحضرت هذا الكلام لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾، لو أنهم يعلمون الأسماء لما أحتاج إلى حضورها، لكنه لما كانت الأسماء غائبة أحتاج إلى عرضها إلى إحضارها لتعرض عليهم، ويقول لهم: ما هذه؟ لا يعرفون، لكن لو كانوا يعلمون الأسماء كما علم آدم لكان مجرد ذكرها فقط كافياً من أجل أن يتصورها العقل، فلا حاجة لإحضارها.

فقوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي﴾، للملائكة الذين اعترضوا فيما اعترضوا عليه، قال تعالى: ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ [البقرة: ٣١]، وانظروا إلى الضمير ﴿هَؤُلَاءِ﴾ ونحن قلنا: دائماً بأن ضمير المتكلم وضمير المخاطب لا يحتاج إلى مرجعه، لماذا؟ لأنني حاضر، أنا أقول فلا يحتاج إلى مرجع لأن المرجع هو الذي يتكلم، ولما أقول: تقول، أتكلم معك فلا يحتاج إلى مرجع، ما الذي يحتاج إلى مرجع؟ الضمير الغائب، فدائمًا تبحث عنه، تقول: قل هو الله، هو أين يعود؟ قل هو الله، تقول أين هو المرجع؟ يقول: لأنه حاضرٌ ولا يغيب، فمرجعه لا يقام له أهمية في أن يذكر أو لا يذكر لأنه حاضرٌ دائماً، فهو دائمًا ضمير الغائب هو الذي يحتاج لمرجع، فهنا قال تعالى: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾، هم لا يعرفونها إنما رأوها أمامهم عينانا، فقال تعالى: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١)﴾ [البقرة: ٣١]، يكفي إلى هنا.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثامن والثلاثون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

إخواني ما زلنا مع تفسير سورة «البقرة» في الدرس الثامن والثلاثون، ومع قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)﴾ [البقرة: ٣١-٣٢].

تقدم الكلام في الآية التي هي: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١)﴾، وهنا مسألة هو لم يعلمهم وأراد سبحانه وتعالى أن يقيم عليهم الحجة بأنه ليس لهم أن يتكلموا فيما لا يعلمون، وهذا قد أقروا به وهذا من أدبهم ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾، وقد أقروا بذلك، وهنا مسألة يذكرها ويحتج بهذه الآية البعض فيها بأن الله عز وجل كلفهم بغير المستطاع، ذلك لأنهم لا يستطيعون الإنباء إلا بما علموا فسألهم عن غير باب علمهم وهو غير مستطاع لهم، وهذا كلام غير صحيح؛ فالله عز وجل لا يكلفه إلا بالمستطاع ولكن هنا أراد جل في علاه أن يسألهم من أجل أن يبين حالهم وحال من أنكروا أو تساءلوا عن سبب خلقته.

فسؤاله سبحانه وتعالى من قبل إظهار العلم وبيان الحال الذي هم فيه والواقع الذي هم فيه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي﴾، والإنباء هو الأخبار، كما تعلمون في قوله تعالى كيف الأنبياء هم الذين يخبرون الغيب، فقال: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١)﴾، تقدم أن الصدق هنا بمعنى أن كنتم عالمين بما تقولون، من تفضيل أنفسكم أو من ذكر ما قللتموه في أنفسكم، وقال بعض أهل العلم لماذا تذهبون إلى ما لا يذكر في النص في ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾ لماذا تذهبوا إلى ما لم يذكر في النص، ما هو الذي لم يذكر في النص؟ وهو أنهم قالوا: في أنفسهم نحن خير منه ونحن كذا وكذا خلقنا من نور ونسبح وكذا، فمن هذا الذي خلق من تراب أو الذي سيخلق من الأرض، فقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾، هذا غير مذكور في النص فلما تعودون إليه.

فقال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي في قولهم ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١)﴾ [البقرة: ٣١]، في حال هذا المذكور الذي ذكرتموه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾

[البقرة: ٣٢]، أي الملائكة وهذا من إجلالهم لربهم ومن اعترافهم بعجزهم أمام علم الله عز وجل، وهنا يظهر الفرق بين علم الله عز وجل وعلم المخلوق، فعلم الله عز وجل من صفاته وهو أنه ذاتي قائمٌ به جل في علاه ليس بمكتسب، ولا ينقص ولا يزيد، بل هو سبحانه وتعالى يعلم كل شيء، وكل شيءٍ من المعدوم ومن الموجود، حتى المعدوم يعلمه جل في علاه، وأما علم غيره ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾، علم غيره مُعلم، وإنما العلم بالتعلم إما أن يتعلم من قبل جبريل وإما أن يتعلم من قبل الله عز وجل كما علم آدم، وإما أن يتعلم من قبل مُعلم آخر من البشر من قبل الرسول من قبل تابعٍ لرسول، أو من قبل حاذق، كسبها من حاذق غيره، أو من قبل حاذقٍ خبرها من شيءٍ خبره فإنما العلم بالتعلم.

ولكن علم الله عز وجل أزلي غير مكتسب، والقول في صفات الله عز وجل كالقول في الذات، كقولنا في ذاته أنه سبحانه وتعالى قائمٌ على نفسه بما كسبت، وقائمٌ على نفسه بما علم وهو غير محتاج لغيره، فكذلك هو سبحانه وتعالى علمه قائمٌ في نفسه بنفسه، ولا يحتاج إلى غيره جل في علاه.

فهنا قال تعالى لهم: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾، أي إن كان لديكم علم من جهة أنفسكم، فهم أقروا لله عز وجل أنهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله وهذا من الأدب، وهو أدبٌ مفقود، فقده العلماء قديماً، الإمام مالك رحمه الله كما ذكر القرطبي وغيره قال: أقل شيءٍ في زاماننا الإنصاف، أندر ما في زمانه كما قال: في زمننا الإنصاف، فقال صاحب «الجامع لأحكام القرآن»: إذا كان هذا في زمانه فكيف في زماننا؟!

ونحن نقول: إذا كان هذا في زمانه فكيف في زماننا؟!! والإنصاف ما هو يقتضي أن تذكر الشيء على ما هو عليه، ومن الشيء الذي هو عليه على ما هو عليه أن تعترف أنك إذا لم تعلم أنك لا تعلم، والملائكة هم أقرب الناس إلى الله عز وجل وهم يطلعون على كثير من الغيب الذي لا نعلمه، ومع ذلك اعترفوا ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢]، علمنا لا يقوم إلا بما تعلمنا إياه، وهم لا يتعلمون ولا يعلمون إلا ما علمه الله عز وجل اياه، فأعترف الملائكة فكيف نحن؟! هل نحن أشرف من الملائكة؟! هل نحن أعلم من الملائكة؟

فلذلك المرء إذا لم يعلم فسُئل فيقول: لا أعلم، وقال الإمام ابن عمر رضي الله تعالى عنه: «من أخطأ لا أعلم أصيبت مقاتله»، الذي يتكلم بما لا يعلم سيجد الناس في كلامه الثغرات التي يتهم بها، يتهم بالكذب، أنه كذب على الله عز وجل وكذب في العلم الذي تكلم فيه، أنه سيتهم بالافتراء لأن الكذب بالأولى ستؤدي إلى غيرها، والكذبة في الابتداء ستؤدي إلى الافتراء وغيره، يعني رجل لو قال كلمة، من أين جئت بها؟ سيكذب أخرى، متى قرأتها؟ متى سمعتها؟ فيبدأ الكذب يجر بعضه بعضًا، ولذلك الإنصاف أن تقول: لا أعلم، وهذه قليلة في زماننا، الناس إذا جلست إليهم يتكلمون بما يحبون وكلهم يعلم، والعالم لا يخجل ولا يستحي أن يقول: لا أعلم.

وهذا موسى عليه السلام قال له الخضر: إن عندك علم لا أعلمه، وإن عندي علم لا تعلمه، وطلب العلم موسى عليه السلام ﴿حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠)﴾ [الكهف: ٦٠]، لما سُئل من بني إسرائيل من أعلم الناس، قال: أنا، فالله عز وجل لم يرضى منه هذه الكلمة، وهو إنما أراد بني إسرائيل ولكن لم يرضى منه هذه الكلمة، فأرسله إلى رجلٍ آخر يعلم علماً لا يعلمه موسى عليه السلام وهو كليم الله، والنبي صلى الله عليه وسلم سُئل أسئلة فنسبها إلى الله عز وجل، ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]، أجلها حتى يسمع من الغيب، وهذا هو شأن العلماء، وهذا شأن الأتقياء الذي يتعاملون مع العلم أنه دين، فهؤلاء الملائكة هم أكرم خلق الله.

وهنا نأتي لمسألة هي تابعة لما بعدها في قضية السجود، من أعظم الملائكة أم البشر؟ اختلف أهل العلم إلى أقوال، كما هو الشأن الكثير من الأقوال اختلفوا إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن الملائكة هم أعظم، والله عز وجل قال عن ابن آدم ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)﴾ [الإسراء: ٧٠]، وهذه الآية في سورة «الاسراء» احتج بها كلا الفريقين، يعني أنا رأيت ابن حزم رحمه الله في مقدمة كتابه «الْمُحلى»، وتعرفون كتاب «الْمُحلى» لابن حزم في أوله ذكر عقيدته، فذكر منها مسألة تفضيل الملائكة ووافق في ذلك المعتزلة كما يسميهم أهل العلم القدرية، وكما قال أبو بكر الباقلاني، وافقهم في هذا أن الملائكة خيرٌ من البشر، لما قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ﴾ ابن آدم فضلهم على كثير ليس على كل، إذن بقي قليل، فمن هو القليل؟ قال: الملائكة.

وابن كثير لما جاء إلى هذه الآية في تفسيره احتج بها ولم يذكر القول الآخر، لم يذكر أن غيره قال بغير هذا القول أي بقول ابن حزم لم يذكر حتى احتجاج الناس من المعتزلة وغيرهم من وافقهم من أهل السنة كابن حزم وأبو بكر الباقلاني وغيرهم وعلى ما فيهم من كلام في بعض المسائل لكنه من أهل السنة ولا يوافقون القدرية والمعتزلة في معتقداتهم، اعتبروا أن هذه الآية دليلاً على أن الإنسان خير من الملائكة، قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ﴾، فيدخل في الكثير الملائكة، وماذا بقي؟ قال: بقي العرش، فهذا العرش، الناس ليسوا بأكرم من العرش، والملائكة يدخلون.

فانظر إلى الآية أنها صلحت عند الفريقين، وأنا أميل إلى كلام ابن حزم في هذا المسألة، لماذا؟ لوجود حديث، قال تعالى: (فإنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وإنْ ذَكَرَنِي في مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ في مَلَإٍ خَيْرٍ منهمْ)، إذا ذكر الإنسان ربه بين الناس ذكر الله في ملأ خير، من هو؟ الملائكة، فالملائكة خير هذا نص.

حتى الكلام عن الجنس أن جنس الملائكة خيرٌ من جنس البشر بأصل خلقتهم وبصفاء أعمالهم لا يعصون الله ما أمرهم، ولكن يبقى السؤال هل كل ملكٍ هو خيرٌ من كل بشر؟ هذا الذي عندي أنه يختص هنا يأتي الاختصاص،

بأن أصل الملائكة وجنس الملائكة خيرٌ من جنس البشر، لكن ليس كل آحاد الملائكة خيرٌ من كل آحاد البشر، فرسُل الله خيرٌ من رسُل الملائكة، وعُباد البشر من الصالحين خيرٌ من الصالحين من الملائكة، هذا أقرب للجمع بينهم.

وهناك من قال: جنس الإنسان خير واستدلوا بأن الله أسجد الملائكة لآدم، وآدم مفضل ولكن هل هذا الإسجاد هو لكل واحدٍ من البشر، أم أسجدوا لآدم على الخصوص دون غيره بلا شك أنه لآدم، وآدم مفضل.

وهناك قولٌ ثالث: السكوت وعدم الخوض في هذه المسألة والتوقف.

هناك قول إذن وهذا الذي قلته كما شرحت ذلك في سورة «الإسراء» والله تعالى أعلم على أن جنس الملائكة خيرٌ من جنس البشر ولكن ليس كل آحاد الملائكة خيرٌ من كل آحاد الناس على التفصيل الذي ذكر.

فالقصد: بأن الملائكة أسلموا أمرهم إلى الله عز وجل، ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾، أي نقدسك، وهذا أولاً: من أدبهم في العلم ثم هذه مسألة ذكرناها كثيراً وهي قضية الأدب في الخطاب، وقلنا: دائماً بأن الأدب في القرآن يتخلل في داخل الخطاب الإلهي، ومن ذلك قولهم هنا ﴿سُبْحَانَكَ﴾، فإنهم ابتدأوا الكلام في الرد بتسبيح الله، ولأن تسبيح الله عز وجل يعظمه الله ويحبه فيسكنه إن كان غاضباً، حمد الله وتسبيحه يسكنه إن كان غاضباً، من أين أتينا بهذا؟ حديث الشفاعة العظمى، كيف يسكن غضب الله بسجود محمد صلى الله عليه وسلم تحت قوائم العرش وتحميده ربه، يحمد الله عز وجل محامدًا لم يفتحها على أحد حتى يسكن غضب الله عز وجل فيبدأ الفصل بين العباد، فإذا أردت أن تسكن غضب الرب فعليك بهذا، في تسبيحه.

فالله عز وجل إذا هم نظروا فالله يقول: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾، وقلنا في الدرس الفائت: هذا الخطاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾، وإن كان مقصود الصدق ضد الصواب، لكن قلنا لماذا يستخدم؟ لمعاني، وهم لم يكذبوا ولكنهم أخطأوا ولكن استخدم الصدق هنا ليحمل معنى التنفير، ولذلك هم رأوا هذا في كلام ربهم لهم فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، فالله عز وجل يفرح لهذا، وانظر لما يونس عليه السلام خرج مغاضباً، الجمهور على أنه مغاضبًا ربه، ابن كثير استكره هذه الكلمة وهذا من منهجه، لما ذكرت أن المناهج تقرأ في داخل النص ولا توضع عناوين في كلام أهل العلم، هذه مسألة إن لم يفهما أحد لا يعرف قراءة كتب السلف، مناهج العلماء تقرأ من خلال كلامهم، وقال الباقلاني: ما يقوله العلماء لمحات عما يريدون، ولا يصرحون ما يريدون، لا يصرحون هنا لمحات عما يريدون.

فلذلك لما تأتي مثلاً لابن كثير فإن الذين يختصرون تفسير ابن كثير ليهتموا في منهجه، فهكذا دائماً تجدونهم ينظرون إلى الظواهر يقولون مثلاً: ابن كثير والإسرائيليات، وشرح هذا، يقولون: ابن كثير والحديث، أنه إذا صح الحديث ولم يأتي بإسناده أو لم يلتزم الإسناد، لا الكلام عن منهجية، عن كيف يثبت ولا يأتي بالآخر، ومن ذلك هنا أنبه لهذا لما جاء إلى قوله تعالى ﴿ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فلما جاء إلى ﴿مُغَاضِبًا﴾ لم يذكر أنه مغاضبًا لربه،

إنما مغاضباً لقومه، مع أن كثير من المفسرين القدماء أنه مغاضبًا لله، لكنه كره أن يقولها ابن كثير، لماذا؟ هل هي نفيٌ للعلم –هنا تأتي الدراسة– هل لم يعرج على هذا المعنى الثاني لترجيحه أم لأن كتابه أراده للعلماء ولغير العلماء؟ هنا تأتي الدراسة هنا يأتي دور المتكلم دور الباحث في منهج ابن كثير، من أراد أن يخاطب؟ فهذا من الأدب.

فلذلك –نعود إلى ما نحن فيه– لما يونس عليه السلام ذو النون أراد أن يرضي الله فماذا قال؟ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فاطفأ غضب الله عز وجل عليه بالتسبيح والتهليل والتحميد والاستغفار، ﴿سُبْحَانَكَ﴾، فكلمة التسبيح لإطفاء الغضب، وكذلك لزيادة الرضا، قد يكون راضياً فتزيده رضا، وكذلك قول نوح عليه السلام لما قال تعالى: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧)﴾ [هود: ٤٦-٤٧]، انظر إليه كيف خاطب الله عز وجل، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾، هذا هو الأدب.

وكما أن خطابه في الترقيق وهذا سنجده كيف موسى عليه السلام عند الأمور العظيمة يقول، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ﴾ [البقرة: ٥٤] متى يقول: يا قومي؟ ومتى لا يأتي بها؟ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا﴾ [المائدة: ٢٠-٢١]، ولكن لما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، فمتى يستخدم يا قومي؟ ومتى لا يأتي بهذا؟ سنجده بيناً واضحاً في الخطاب ونوعه.

فهنا أسكنوا غضب الله عز وجل لما رأوا هذا الخطاب الاستعلاء الذي يليق بالله عز وجل جلالاً ويليق به كبرياءً ويليق به عظمة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١)﴾ [البقرة: ٣١]، ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ [البقرة: ٣٢] والمقصود أنهم نزهوه، نزهوه عن ماذا؟ نزهوه عن أن يعتري في بعض كلامهم اعتراض أو بعض كلامهم تعالي على خطاب الله عز وجل، لأن هذا وقع من إبليس فيما سيأتي، أاسجدو، أنا تأمرني، فأسكنوا أن لسنا كذلك، ولا نعترض على كلامك ولسنا ممن يعلم من غير أن تعلمنا، فقالوا ﴿سُبْحَانَكَ﴾ نزهوا الله عز وجل، وهكذا ينبغي على المرء أن يأتي بها دائماً، أن يأتي بها سبحانك إني كنت من الظالمين وهكذا.

قال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢]، وهذا تقدم الكلام عنه في أن علم البشر كله مكتسب، قد يقول قائل: هذا علمٌ من جهته، فنقول: الله فتح عليه، فبالنهاية لا علم له من جهة نفسه، الإنسان لا ينشئ علمًا، والعقل لا ينشئ علمًا، العقل يرتب ما يأتي إليه من علوم ويستخرج منها المفاهيم ويستخرج منها الفقه ويستخرج منها المراد، لكنه لا ينشئ علمًا، فالعلم لا ينشأ من داخل الإنسان، العلم يأتي من الخارج.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾، نفوا أي علمٍ عندهم من غير أن يأتيهم من الله، ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، هنا ﴿عَلَّمْتَنَا﴾ هي التي تفتح الباب في قضية طرق العلم والاستفادة منها وأن العلم كله يعود إلى الله عز وجل، وهذه كما ترون هنا ينبغي الاهتمام بها، انظر إلى الله عز وجل ما الذي يحبه؟ يحب أن يمدح ويحب أن يحمد، فانظر إلى هذه الآية كيف اختصت فقط في ذكر الملائكة لعظمة الله عز وجل، انظر فقط لم تأتِي غير هذه الكلمات التي فيها تعظيم الرب هذا ليس تطويل، وهذا ليس استطرادًا كما يقولون، هو مراد كل شيء لا إله إلا أنت سبحانك، ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)﴾ [البقرة: ٣٢]، أتى بها تفصيلاً على ما قالوه ذلك لأن هذا ما يحبه الله، وهذا تعليم للناس في هذا الباب، أطنب وأكثر ولا تتوقف، لا تستعجل لا تظن أنك قد أطلت في الخطاب عند حمد الله، لا، بل أذكر ما شئت من المحامد وأكثر منها فهذا يحبه الله سبحانه وتعالى.

فانظر إليها هذه آية كاملة جاءت فقط في ذكر موقفهم في الخطاب، ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)﴾، وإحاطة الله عز وجل هنا دائماً نأتي إلى قضية تتعلق بما يسمى بالفاصلة القرآنية في التفسير، ما هي الفاصلة القرآني؟ الفاصلة هي التي كالروية في الشعر، الكلمة التي تختم بها الآية هذه هي الفاصلة، ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، هذه الفاصلة القرآنية، سميت بهذا الفاصلة لما تعلمون أنها تفصل بين الآيات، فهذه الفاصلة القرآنية ينبغي أن يهتم لها لأن فيها السر، لماذا جاءت ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾؟ ولم يأتِ ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ مثلاً؟ لماذا هنا قدم العلم على الحكمة؟ كما قدم العلم على الحكمة في سورة «يوسف»، وعادةً الأكثر في لقرآن ﴿الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾، الأكثر في القرآن الحكمة على العلم.

ولكن هنا قدم العلم على الحكمة ذلك لأن الخطاب هو خطابٌ عن العلم، هم يتكلموا عن ماذا؟ ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾، هو سألهم عن العلم، فلماذا ذكروا الحكمة ولم يذكروا شيئاً أخر، قال: ﴿الْعَلِيمُ﴾ وهذه الصيغة مبالغة للعلم، فهو سبحانه وتعالى العلام العليم وكذلك العالم، ولكن العليم صيغة مبالغة.

وقد يسأل سائل ما هو العلم؟ تعرفون هذا السؤال وقف عنده أصحاب الكلام، وأكثر من أفاض فيه استطرادًا وذكراً لمذاهب الناس وأقوالهم وهو الرازي في كتابه «المحصول»، ثم انتهى إلى القول: بأن العلم شيء معلومٌ في النفوس والخوض فيه لا يزيد من العلوم شيئاً، ما هو العلم؟ هو شيءٌ يُفطر في النفوس وتعريفه يزيده تعقيداً، هناك بعض الكلمات ما لو عّرفتها عقدتها، اتركها كما هي فهي معلومة لدى الناس.

مثلاً: تصور أنك تأتي لعربي وهو يرعى الغنم وتقول له: ما الغنم؟ أو ما البقر؟ وهو يرعى البقر طيلة عمره، فالعلم شيءٌ تعرفه النفوس، خلاص ما في ضرورة لنكثر منه، لكن هنا لماذا ذكر العلم أولاً؟ لما تقدم ذكره، وهو أن البحث يدور حول هذا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾، ولماذا ذكرت الحكمة ولم يذكر غيرها هنا؟ ذلك لأن الأمر متعلق بحكمة خلق الإنسان، يعني هنا ذكر القريب وهو العلم وذكر مبحث الكلام كله، الحديث الأقرب الذي تتحدث الملائكة بينه

وبين الله حول ماذا؟ ﴿أَنْبِئُونِي﴾، عن العلم، ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ عن العلم، لكن الحديث في ابتدائه يدور حوله حكمة الله عز وجل في خلقه آدم فلذلك ذكر ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

والحكمة اختلف الناس فيها واختلافهم ممدوح في هذا الباب لأن كل واحدٍ إنما عرج على جانب من الحكمة ذلك أن بعضهم قال: الحكمة من الإحكام، «أَبَنِي حَنِيفَةَ أَحكِموا سُفَهاءَكُم» من الإحكام، فكل شيءٍ أحكمت علمه أو أحكمت صنعته، أحكمته، ولذلك الحكمة هو إحكام الصِنعة، حكمة، أحكمت الشيء على ما في ذهنك فأحكمت المقال فيه، حكمة، أحكمته.

وقال بعضهم: الحكمة إنما هي من تفسيرات أصحاب القلوب في قوله: إن الحكمة هو شكر المنعم، وهذا تفسير الشيء ببعضه، شكر المنعم وهو الله هذا الحكمة، ولذلك لا يكون المرء حكيماً حتى يشكر المنعم حتى يشكر الله، ولذلك أول نصيحة نصحها لقمان الحكيم لابنه ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان: ١٢]، قالوا: فهذا هو الحكمة، وقال بعضهم: الحكمة هو وضع الشيء موضعه وهذا هو من الإحكام، وضع الشيء موضعه، فالسيف له مكانه، والكلمة لها مكانها وكل شيءٍ له مكانه فهذا هو الحكمة، أن تضع كل شيء مكانه الملائم له، فإذا وضعت الشيء في غير مكانه ولو كان جميلاً وأفضل في الإطلاق فلا يكون حكمة، السيف جميل في الإطلاق، والنصيحة جميلة في الإطلاق، لكن لو أنك نصحت رجلاً وحقه أن تعاقبه وتركت العقوبة لما كنت حكيماً، فالحكمة وضع الشيء موضعه.

وهنا الحكمة في فعل الله عز وجل، هو أنه خلق شيئاً لمقصد، خلق هذا الإنسان لمقصد عظيم فلذلك ليس من العبث، أحكمه لم يكن من العبث، ما هو الذي يضاد الحكمة؟ عدمها ما هو؟ العبث، أن تفعل شيئاً لا لمقصد هذا عبث وليس من الإحكام في شيء، لكن المرء يتفكر قليلاً لماذا سمى الله عز وجل الحكمة التي أعطاها للأنبياء صغارا سماها حُكما، يعني الله عز وجل عن يحيى عليه السلام ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢)﴾ [مريم: ١٢]، وكذلك عيسى عليه السلام ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ﴾ [مريم: ١٢].

والحكم فيه السلطان، ومن أقوى الحكم أم الحكمة؟ في واقع الأمر الحكم هو الأقوى وفي تقدير الجمال الحكمة أقوى، يعني قد يكون الرجل حاكماً ولا يكون حكيماً، وقد يكون حكيماً وليس له سلطان فكلاهما ضعفٌ من جهة وكلاهما له قوة من جهة، الحكمة قوتها من جهة نفسها، والحكم قوته من جهة سلطانه وقهره على الآخر على غيره، فلماذا جاء القرآن بذكر الحكم لهؤلاء الذين ليس لهم حكم إنما أراد الحكمة لو رجعت إلى التفسير ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢)﴾ [مريم: ١٢]، لوجدت الحكمة، فلماذا استخدم كلمة الحكم؟

هنا نأتي إلى الطريق القرآنية؛ أن القرآن يستعيض عن كلمةٍ بكلمة لحضور المعنى الأول فيكون مستقراً وتريد المعنى الثاني، هذا من قواعد تفسير القرآن.

أعيدها: لا يخطر على بال أحد أنه لما قال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أنه أراد الحكم أي السلطان لا يخطر على بال أحد، وليست هي من واقع هذا النبي وهذا الطفل، الذي سيكون نبياً، فإذن ما المراد؟ المراد الحكمة، فإذن مستقر في المعنى الحكمة، لكنه أراد شيئاً متقدماً فاستقر الأول ثبت خلاص لاتفاقه مع أصل الكلمة وهو المصدر الحكم، حَكَمَ حِكمة المصدر واحد لكن اختلف بعد ذلك التصريف، فاستقر المعنى الأول وهو الحكمة لكنه أراد شيئاً آخر وهو فوق الحكمة وهو سلطانه على الآخر في قهره في حكمته، يعني يأتيك واحد فله حكمة ولكنه لا يستطيع أن يقهر غيره في حكمته، هو حكيم لكنه لو جادل غيره وناظره لا يقدر عليه ليس له سلطان هذه الحكمة لا يقدر، ونقول له: حكيم، لكن ليس عليه له حكم، أي حكم؟ ليس حكم السلطان القاهر بالمادة بل السلطان القاهر بالحكمة، ولذلك الحكمة تحتاج إلى أدوات هي السلطان من أجل إقامتها الحجة من خلال هذا الشخص على خصمه.

إذن أولاً: لما قال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢)﴾ [مريم: ١٢]، أثبتت أن له الحكمة، لأن هذا هو المراد ليس له حكم، لكن الشارع والمتكلم وهو الله أراد شيئاً آخر فوق ما استقر من أساس الكلمة في مصدرها وهو شيءٌ آخر، وهو أن الله عز وجل آتاه الحكمة وآتاه سلطان الحكمة في غلبة خصمه ما لو تناظرا، ولكنه لو قال: وآتيناه الحكمة لما دلت في ذاتها على أنه أوتي سلطان هذه الحكمة في غلبة خصمه في مناظرته، وكثير من الناس عندهم الحكمة ولا يستطيعون إدارتها في الخصومة، يخبر بها فإذا جودل يقول: هذا الذي عندي وهذا الذي أعطيك فإن شئت أخذته وإن شئت لم تأخذه، ولا يعرف سياستها ولا يعرف كيفية استخدامها في سلطانها على ما يضادها من العبث والغلط.

فلما قال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢)﴾ [مريم: ١٢]، دل على أنه أعطي الحكمة وأعطي سلطان الحكمة القاهر في غلبته على خصمه إذا ما ناظره، وهذه نبه عليها علماء التفسير وهذا كثيراً ما يذكرونه في حروف المعاني لماذا تستبدل؟ لماذا يأتي بحرفٍ دون حرف؟ من أجل أن يقول: أثبتنا المعنى الأول الذي يقتضيه هذا الحرف وفيه زيادة.

لما أتوا إلى قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، وإن الواحد يرى فيه يقول لك: المعنى على، يقول له: صحيح هذه أثبتتها، ولكنه أراد معنى زائد، أثبتت على أنه صلبه على جذور النخلة أثبتتها، وإنما أراد شيئاً زائداً، وهو قضية البلاغ في الصلب فقال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾، شيءٌ زائد، فهنا يتم الاستعاضة بلفظ عن لفظ مع استقرار المعنى الأول من أجل ثبوت المعنى الأول وزيادة شيئًا آخر عليه.

إذن الله عز وجل حكيم، والقرآن ينبئنا على علم الله دائماً حتى في موطن القوة وأنا تركت هذا، لمحت إليه قليلاً لما جئنا إلى الآية التي تقدمت في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾ [البقرة: ٢٩]، مع أن السياق هو سياق القدرة، ولو أرادنا المقاربة هو سياق الحكمة، يعني لماذا خلقها؟ أما سياق القدرة فهو الذي خلق، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي

الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾، إما أن يكون الحديث عن قدرته في خلقه ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء التي خلقها، فالحديث عن القدرة، وإما الحديث عن الحكمة أنه لماذا خلقها؟ خلقها لكم فهو حكيم، ولكنه ختمها بالعلم.

وهذا المعنى الذي أجلته؛ في أن ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾ دلت بنفسها على القدرة، فالتنبيه عليها هو تنبيهٌ على شيءٍ مستقر، ولكنه يريد شيئاً زائداً أنه لما خلقها لم يتركها، فكان ذكر العلم بهذه الإحاطة هو تنبيهٌ على القدرة الشاملة لأنه لا يكون المرء عالماً بمثل هذه الإحاطة وهو بكل شيء عليم إلا وهو قادر لا يمكن، فلذلك العلم الشامل لا يمكن أن يكون إلا مع القدرة ولا يكون إلا مع الحكمة، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾ [البقرة: ٢٩]، فدلت على شمولها للقدرة وشمولها للحكمة.

قوله سبحانه وتعالى –وهذا من أسماء الله عز وجل– قوله: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)﴾ [البقرة: ٣٢]، وهنا انتبه إلى أن الخطاب –وهذه ذكرناها مرة ونذكرها– خطاب العبد لربه على الإفراد، وخطاب الله عن نفسه على طريقتين، إما الجمع كما سيأتي ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٤]، فهو خطاب الجمع للتعظيم والتشريف، وإما خطاب الفرد حين يكون الحديث عن ذاته ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]، ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾ [طه: ١٤].

ولكن حين يكون الخطاب من العبد لربه فلا يكون إلا على الإفراد ﴿إِنَّكَ أَنْتَ﴾، طيب أنت لماذا؟ لتؤكد المبتدأ والخبر، وهذا ما يسمى بضمير الفصل، ليفصل، لئلا يظن البعض أن بعضها صفة ولكنها خبرٌ ثابتٌ لا يتغير، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)﴾ [البقرة: ٣٢]، والكلام على الحكمة طبعاً ما تحدثنا عن وضع الشيء موضعه، هذا يكون في البشر ويكون في رب البشر والله عز وجل يخلق الشيء ويهديه لما خلق له، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾ [طه: ٥٠]، هذا من حكمته جل في علاه.

قال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)﴾ [البقرة: ٣٢]، وأنبه هذا من أدب الملائكة في تعظيم الله عز وجل ونسبة العلم كله والحكمة كلها إلى ربنا سبحانه وتعالى وليس لهم إلا أي لعبيده إلا التسليم.

هنا أراد أن يظهر ربنا سبحانه وتعالى بعد ذلك شرف هذا المخلوق الذي هم علموا أنه سيسفك الدماء وو ... إلخ، فأول مظهرٍ تجلى فيه فضل هذا المخلوق هو العلم وتكلمنا سابقاً في أن الملائكة هم خيرٌ في أصل خلقتهم من نور والنور خيرٌ من التراب، وثانياً: خيرٌ في أصل فعلتهم وهو التعبد، الاستغراق، ولكن هناك جانبٌ من جوانب حكمة الله في خلقه هذا المخلوق، وهو العلم أن الله جعله محطةً للعلم.

وقد يقول قائل وهنا نأتي إلى باب القدر الذي يسكت عنه كثيراً وربما يفتح للعابد منه روزنا كما قال عبد القادر الجيلاني ومدحها ابن تيمية في شرحه: فُتح لي منهم روزنا نازعته أقدار الحق بالحق للحق، فقد يقول قائل: يعني هل فضل آدم عليه السلام نشأ من ذاته ليميز عليهم أم أن الله عز وجل علمه؟ يعني عندما تريد أن تفاضل بين شيئين، لا تفاضل بما تعطي، فاضل بما عنده أصلاً قبل أن تعطيه لا يجوز لك انت البشر في الخلقة لو أحضرت ولدين من أولادك، فأعطيت رجلاً مائة دينار ولم تعطي للآخر شيئاً، فأنت جئت وقلت: من معه مائة دينار فهو خيرٌ من الآخر، فقال الآخر: أنا معي مئة دينار هل يصح منك هذا؟ لا يصح لأن منشأ هذا التفضيل منك أنت الذي حكمت.

ومنشأ تفضيل ابن آدم من الله عز وجل، ﴿أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣]، فعلموا فضله، هذا الفضل لم يكن من ذات آدم ليتفضل به على غيره، بأنه فضله على شيء هو الذي أعطى ولم يعطه للملائكة، الجواب: في أن الذي هم فضلوا فيه كذلك من الله، يعني أنهم خلقوا من نور، من الذي خلقهم من نور؟ لماذا لم يخلقهم من شيء قبيح؟ فهنا يأتي أنهم لو نازعوا في قضية أصل الخلقة لما كانت منهم وهذا الذي وقع فيه إبليس، من الذي خلقك من نار؟ الله عز وجل هو الذي أعطاك، فالذي ميز الملائكة من هذا الفضل عطاء الله عز وجل والذي ميز ابن آدم في الفضل هو عطاء الله عز وجل، فالمنازعة بين عطاءين فهو سبحانه وتعالى لا يُسأل عما يفعل، فلما يقول لك هذا خيرٌ منك لما أعطيته من فضل فلا تسأل.

وقد يسأل السائل: بما تم التفضيل؟ حينئذٍ يغلق علينا باب القدر، بما تم التفضيل؟ لماذا تم تفضيل ابن آدم في العلم على الملائكة؟ وتم تفضيل الملائكة في أصل الخلقة؟ هذا السؤال إذا ذكر القدر فأمسكوا لا ندري، نكت، وحين تأتي العبودية التامة في قضية التسليم للقدر وأساس القدر هو التسليم، هنا التسليم للقدر في باب العلم، والتسليم للقدر في بقية حياتك لماذا؟ للتقدير، أساس تسليمك للقدر في أوله هو العلم، لا أدري؟ لما جعل هذا مؤمناً فيقبل الحق، وعاش بين أبوين مؤمنين وعاش مؤمناً وهذا كافر ولو علم الحق، لماذا لم يهد قلبه؟ الله عز وجل نعلم أنه حكيم ونعلم أنه عادل، وأنه العدل جل في علاه ولا ندري هذه أمور لا لم نشهد خلقه، ولا نعرف كيف خلق، فنسلم لله عز وجل.

فأصل عبوديتنا لله في موضوع القدر أولاً في التسليم لعلمه، ثم في بقية حياتنا لأقداره نسلم لله عز وجل في أقداره، لماذا خلقت أنت طويل؟ لماذا خلقت فقير؟ لماذا خلقت من أبوين فقيرين؟ لماذا خرج من بطن أمه وهو أعور وهو أعمى؟ فهو تسليم لأقداره، وهذا هو أعظم أنواع التعبد في الوجود، أن تسلم لله وهو ابتلاء الخلق، الأنبياء عليهم السلام لم يبتلوا ولم يعرف عنهم في القرآن أنهم امتحنوا في الأحكام، جاءت بعض الأحكام فيها ابتلاء، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ولكن الأنبياء لا يعرف عنهم أنهم يعني لما هكذا؟ لا يعرف، ولكنهم في

باب الأقدار كثيراً ما سلموا ولم يفهموه إلا التسليم، فدل على أن امتحان الله عز وجل في الأقدار أشد من امتحانه في التشريع، ومن ذلك أنهم لم يفهموا كثيراً من الأقدار.

النبي صلى الله عليه وسلم بما أجاب الصحابة رضي الله عنهم في صلح الحديبية هل أجابهم بما يعلم أم أجابهم بأنه نبي فسلموا، (إني رسول الله ولن يضيعني الله)، «الزم غرزك» يقول أبو بكر لعمر رضي الله عنهما، فالأقدار هي الامتحان للخلق، الألم الذي تشعره فتسلم لله، المعاناة التي تعيشها فتسلم لله، التفاوت الذي يعيشه البشر بين غني وفقير وبين ظالم ومظلوم وبين منتصر ومهزوم هذا باب الابتلاء.

فإذن لا يجوز لأحد أن يقول: الله أعطى آدم وعلمه ثم قال لهم: انبئوني وهو لم يعلمهم، هم الذي قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، من هداكم لهذا؟ إذن تم التفضيل بعطاء الله عز وجل، فدل هذا على أنه لا لأحد يفضل على أحد في ذاته، إنما التفضيل بتفضيل الله عز وجل، لا يجوز لك أن تقول: أنا، ما في عندك أنا، لا يجوز، إذا فضل الله عز وجل أمراً تفضله، وقد يقول قائل: لما أنا علي الحق أن أطيع هذا العالم؟ الله أمرك، والعالم ليس من عنده، الله عز وجل الذي أعطاه العلم، لما الله عز وجل أمر الصغير إن يحترم الكبير؟ ويقول: هذا ليس منه هو ولد قبلي وهو لم يخرج من بطن أمه بإرادته الله أعطاه، لا يوجد شيء في الوجود يستحق التكريم من جهة ذاته، إنما من جهة عطاء الله له ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠].

فلذلك الملائكة هنا ما اعترضوا هل أعطيته ثم سألتنا؟! طيب أعطيني وعلمنا لترى! ربما نحن كذلك نجيب مثل ما يجيب! وهذا يجيب على أسئلة كثيرة يتساءل بها الناس.

مثلاً: الفقراء لما جاءوا للنبي صلى الله عليه وسلم وقالوا له: يا رسول الله يشركونا إخواننا في كل عبادتنا، نصلي كما يصلون ويصومون كما نصوم ويجاهدون كما نجاهد ويفضلون علينا بفضول أموالهم الزكاة، فعلمهم التسبيحات عقب الصلوات، فعلم الأغنياء ففعلوها فقالوا: يا رسول الله، ماذا أجابهم الرسول صلى الله عليه وسلم؟ قال صلى الله عليه وسلم: (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)، وهم عندهم كذلك مجاري من الخير، عندهم ميادين من الخير يستطيعوا السبق فيها، أي كما أن هذا شاكر هذا صابر، وكما أن هذا يفعل هذا يتمنى والتمني باب من أبواب الفضل والسبق.

فالقصد: (هذا فضل الله يؤتيه من يشاء)، لا تعترض، هذا من فقه الملائكة.

قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٢-٣٣]، الله علمه فأراد أن يقول لهم: هذا فضله أنه محط علمي، ليس لأنه عالم، ولكني أخترته أن يكون محطة لعلم ما يقوم به من الاستخلاف، ليس لأنه عالم ليس لأن آدم عالم ولكن لأن فضله أن الله عز وجل قد اختاره ليكون هو محطة علم الله عز وجل بما يلزمه من الاستخلاف.

قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فأنا لما أخترته جعلت فيه ميزات وأقدار يحمل بها ما يحصل به الاستخلاف في أنه خليفة وهو ماذا؟ العلم، هذا هو مراده، ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣]، أي أسماء ماذا؟ الأشياء التي عرضها عليهم، فأنبأهم فعلموا أن الله عز وجل قد أعطاه من الفضل كما أعطاهم من الفضل فهذا فضلٌ ينبغي أن يعتبر وبه تم استخلاف الإنسان في الأرض، واسجد له الملائكة الذين هم سُخروا له فيما ذكرنا سابقاً.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣]، لأن الله علمه، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾ [البقرة: ٣١]، ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، فدل هذا على وجود النطق، طبعاً العلم احتاج هنا وهنا هذا العلم لابد له من نطق، فإذن أعطي آدم كذلك النطق والعلم لا يمكن أن ينشأ من غير تصور، و﴿أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ هو يعلم الأسماء قبل حضورها فإذا حضرت أنباء عنها ولكنه لا يمكن أن ينبئ عن شيء قد حضر إلا وقد تصوره سابقاً.

مثلاً: لو أخذت كلمة جبل، فلو حضر لا تستطيع أن تقول: هو جبل، إلا أن يكون عندك عند أخذ هذه الكلمة التصور لهذه الكلمة فهذه مراتب العلم، التصور أول شيء وجود الحقيقة، التصور لهذه الحقيقة النطق بها وهذا هو الذي تتردد فيه معالم التأويل، التأويل، آلت، ما هو التأويل؟ هو انتقال الشيء من حالٍ إلى حال، من حال الحقيقة أو من حال اللفظ لحال التصور لحال الحقيقة، هذا هو التأويل، يعني عندما قال يوسف عليه السلام ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ماذا كانت؟ كانت كلاماً وتصوراً يسجد الشمس والقمر والنجوم ثم آلت صارت حقيقة، وقعت حقيقته فقال هذا تأويل يعني حقيقتها، هذا إن شاء الله نأتي إليه ربما نشرحه كثيراً عند كلمة التأويل في سورة «آل عمران» ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، فهذه هي مقدرة الإنسان في هذا الباب.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣]، الآن هم اعترفوا قال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)﴾ [البقرة: ٣٢]، قلنا: آية أخذت موضعها وشرحها وتفصيلها ومع ذلك بقي الخطاب الرباني له، من أجل أن تعلموا أن الله عز وجل يحب هذا الباب من التفصيل وهذا الباب من الإطناب وهذا الباب من الاستطراد –أنا أستخدم كلمات البلاغيين يعني مع ما فيها من محترزات–.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٣٣]، أين قال لهم؟ هم قالوها، ولكن دل على أن هذا من العلم الذي يحب الله عز وجل أن يُسمع عبيده به، مرة، بل مرات، كم مرة في القرآن ذكر هذا، ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨)﴾؟ كم مرة ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾، كم مرة ذكرت في القرآن؟ أول سببٍ لهذا التكرار أن الله يحبه، وعليك أن تحبه، يحب ذكره فأكثر منه ويحب أن يسمعه من عبده فطلب من عبده أن يقوله، وهنا كم ترى الفارق بين هذا

الخطاب، ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ متى قالها؟ قالها لما خلقهم فهم يعلمون هذا، ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾.

فما هو الاعتراض؟ الاعتراض أنه ما كان ينبغي أن يقول هذا حتى على جهة التساؤل في قولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ هذا لا ينبغي أن يقال، ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حتى هذه لا ينبغي أن تقال في حق الله، لا يقال: لِمَ، سلم، لا تقول: لِمَ، ولا تقول: ما العاقبة، سلم لله عز وجل، ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وهم قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، ولكن هنا جاء التفصيل أشد قال تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٣٣]، أي ما فيها وما هي عليه وما سيحدث فيها، يعلم غيب السماوات والأرض يعلم ما هي، ويعلم ما فيها ويعلم ما سيحدث فيها.

قال تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٣٣]، وكلمة السماوات ذكرنا أيها الإخوة الأحبة سابقًا ولا بأس أن نأتي عليها الآن، ذكرناها في تفسير سورة «الأنعام» وقلنا: إن كلمة السماوات في القرآن تأتي على معنيين:

المعنى الأول: إما بمعنى العلو.

المعنى الثاني: وهو الأغلب في القرآن على معنى الطباق، فالله خلق سبع سماوات، سبع سماوات طباق، ولكن كذلك السماوات تأتي بمعنى العلو، ولكن كلمة السماء في القرآن لا تأتي إلا بمعنى العلو، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨)﴾ [الفرقان: ٤٨]، فهذا دل على العلو، لكن السماء ربما تأتي بمعنى العلو وتأتي بمعنى الطباق المخلوقة سبع سماوات طباق هناك سماوات محيطة لهذا العلو وسماء أولى وسماء ثانية وسماء ثالثة فإما أن يقال: السماوات وأما أن يقال: السماء ولكن إذا أطلقت كلمة العلو فإنها لا تطلق إلا على كلمة السماء فكلمة السماء أوسع من كلمة السماوات، والسماوات لا تطلق إلا على معنى الطباق، هذا من استقراء القرآن مما قاله العلماء، هذا ليس مني وليس مما أخذته من نفسي ولكن هو من كلام أهل العلم وذكره جار الله الزمخشري في تفسيره وأخذه عنه الآخرون إقراراً لهذا الإخراج منه.

قال تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾ [البقرة: ٣٣]، الآن دل على أنه يعلم السماوات وما هي ويعلم ما فيها ويعلم ما سيجري فيها فبقي هذا المخلوق الآخر، يعلم ما يبدي وما يكتم، ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، هل هذا دل على أن الملائكة يكتمون؟

هنا نأتي لمسألة مهمة لما الله عز وجل قال عن الملائكة: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦]، هل تجردت إرادتهم عن الحركة كما تجردت الجمادات عن الحركة إلا بمحرك؟ أم أن لهم إرادة لكن هذه الإرادة يمكن أن تتوجه

للمعصية لكنها لا تتوجه للمعصية قط، فهمنا الصورتين؟ الصورة أنه هؤلاء الخلق هل يجرون على ما يجري عليه الخلق من قوله: كن، يعني الحجر يتحرك فلا يتحرك إلا بمحرك، لو أراد أن يتحرك من نفسه لا يتحرك، فلابد أن يحركه محرك، فهو يجري بالأمر القدري، لكن هل الملائكة يجرون بالأمر القدري ومع الأمر الشرعي، والأمر الشرعي لا يجري إلا على وفق الطاعة؟ أم أنهم يجرون كما تجري بقية الخلائق على وفق الأمر القدري بلا إرادةٍ شرعية؟ يعني هل الملائكة يستطيعون معصية الله قدراً لكنهم لا يفعلون الله عز وجل قال، خلاص أتينا طائعين؟ الجواب: نعم، أي لهم إرادةٌ في الفعل، ومن هنا حصل لهم الفضل.

فبقية الخلائق ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، تسبح، لكن على جهة ماذا؟ على جهة القدر، الله عز وجل يجريه على جهة القدر، وليس لهم إرادة في الترك هم يسبحونه، لكن الملائكة لهم إرادة ما لو شاءوا لعصوا؟ نعم، ما لو شاءوا لعصوا، لكنهم لا يعصون الله، ومن هنا حصل لهم الفضل أنهم لا يعصون الله.

فقد يقول قائل: بما حصل لهم؟ بالفضل الذي أعطوه، أن الله عز وجل جرده من الشهوات التي تميلهم عن الطاعة، وقد يكون هذا المدخل لمن رجح من العلماء حتى الطبري بأن إبليس من الملائكة، جمهور أهل العلم من المفسرين فيما بين أيدينا يجعلون إبليس من الملائكة، سيأتي هذا التفصيل، فإذن إبليس قالوا: من الملائكة فعصى، يعني كان للملائكة يعني ما زال وهذا يؤكد ما نقوله، وسيأتي الكلام عليه، الآن لا نبحث فيه، أن الملائكة عندهم قدرة على المعصية ورد الأمر ولكنهم لا يفعلون، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦]، وسيأتي هذا الكلام عليه.

إذن لما قال الله عز وجل: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾ [البقرة: ٣٣]، إذن هم يكتمون، يقولون أشياء فيما بينهم ويتحدثون فيما بينهم، وهذا يؤكد ما قاله بعضهم في أنهم كانوا يتكلمون فيما بينهم في فضلهم وفضل عبادتهم.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ﴾ [البقرة: ٣٣]، أراد أن يظهر فضله في حمل العلم وأن الله عز وجل جعله محطة لحمل العلم فيما هو مقدر في خلق السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾ [البقرة: ٣٣]، هنا ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾، لأن شيئاً جرى سابقًا فيما يوافق الخطاب الذي نحن فيه في كلامهم عن آدم عليه السلام.

وهنا انتهى هذا الخطاب وهذا الباب في كيفية ما جرى في السماء انتهى هنا الخطاب، أن الله عز وجل بين فضل آدم للملائكة وبين أنه خلقه وأن الملائكة كانوا قد خلقوا من قبل خلق آدم عليه السلام، وهذا الذي جرى في السماء، وهذا تنبيه على فضل هذا الإنسان، يعني الله عز وجل في هذه السورة لما أراد جل في علاه أن يبين فضل الإنسان، ونحن تكلمنا سابقاً وأنه مهيأ لحمل أمر التعبد لابد أن يبين الباب فيه، نحن سابقاً تكلمنا وقلنا سورة

«البقرة» ما مدارها؟ على العبادة، لو أراد المرء أن يعرف ما هي سورة «البقرة»؟ لوجد أنها كلامٌ عن عبادة الله في أحكامها، في تنوع الإنسان فيها في الجهاد في سبيل الله، في الاقتصاد في الاجتماع في الطلاق، فأراد أن يبين ربنا سبحانه وتعالى ما هيأ الله عز وجل به الإنسان خلقةً أولاً وكرامةً ثانياً في تنفيذ هذه الأوامر.

خلقةً؛ فيما كرمه الله، وتشريفاً؛ فيما أعطاه من العلم، فالمقدمة لهذا كله هو أن تبين هذه السورة، ثم كيف أجراها ربنا عز وجل، كيف أجراها قدراً جل في علاه في قضية خطابه مع الملائكة وما جرى في هذا الخطاب، هذا هو محلها من قضية سورة «البقرة» أن يجري هذا، ومع ذلك لم يذكر في هذه السورة خلقة آدم كما ترون، ما ذكرت الخلقة، الحديث كله عن فضل آدم عن فضله وعما هيأ له من العلم وما هيأت له خلقته من العلم.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٣٣]، طبعاً هنا السؤال سؤال استفهامي أم سؤال تقريري؟ ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾، هنا السؤال تقريري ليس حتى استنكاري، ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾، أقرر ألم اقرر لكم هذا، ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ومتى هذا جرى عندما خلقهم الله يعلم عبيده ما هو عليه من الأسماء الحسنى ومن العظمة عندما يخلقهم في ذلك، ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾ [البقرة: ٣٣].

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]، بعد أن علم الملائكة فضل هذا المخلوق، وبعد أن رأوا شيئاً لا يصدر من جهتهم بما أعطاهم الله من فضل، أراد أن يبين عظمة هذا المخلوق وفضله عليهم فبينه، ثم أراد سبحانه وتعالى أن يبين مقامه في الأرض وما هو حاله مع الملائكة، وسبب أن الله عز وجل أسجدهم لأنكم تعلمون أنه ما من شيءٍ في الوجود إلا وتجري فيه الملائكة، إذا نزل المطر بمن ينزل؟ بالملائكة وفي الحديث عن نوح عليه السلام أن الماء لم يأتِ على ملكه الموكل به إلا عند فيضان قوم نوح خرج، وإذا ولد الإنسان إنما يلد على جناح ملك، والله وكل بالإنسان الملائكة، وكل بالزرع ملائكة، وكل بالملك، ووكل بالشمس يجريها بالملائكة، الملائكة وكلهم في كل شيء في هذه الأرض.

فلذلك الملائكة هم الذين سيقومون برعاية هذا الإنسان، فإذن مقامه ماذا؟ مقامه العلم ومقامه في هذا العلم أن يُستخلف، ومقام الاستخلاف يقتضي أن تعمل الملائكة عملها فيما استخلفه الله عز وجل، فهذا معنى السجود، معنى السجود لغةً سجد: ذل وخضع، فبعد ذلك يأتي مظهر هذا الخضوع والتذلل هو أن يسجد وهي حركة البدن بما نعلم من كلام ربنا ما هو السجود، لكن كلمة سجد في اللغة تأتي بمعنى خضع وذل، فالله عز وجل أراد أن يبين من أجل أن يقوم ابن آدم بما عُلم في هذه الارض من الاستخلاف لابد من وجود الملائكة الذين يطيعونه فيما استخلف فيه، فاسجد له الملائكة يعني ذلل له الملائكة أن يطيعوه، لماذا؟ في جريان الأقدار التي يحتاجها فيما ذكرنا،

فأنت موكل بك ملك، يحمونك عندما تمشي وملك عندما تأكل، أنت الملائكة موكلة بك، الشمس تجري بملك موكل بها والمطر ينزل بملك به وهكذا.

فالله عز وجل أراد أن يبين حال الملائكة مع هؤلاء ليس فقط في فضله ولكن كذلك في عمل الملائكة، الآن له بيان ما هو دور الملائكة الذين سيسجدهم الله عز وجل لآدم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]، ذكرنا معنى السجود ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، وهناك كلام لبعضهم ممن يستنكر إسجاد الله قال: اسجدوا لآدم أي اجعلوه قبلةً لسجودكم، وهذا من أفسد ما يقال، مع أنه قاله بعضهم لكن هذا من أفسد ما يقال.

ورحمه الله ابن القيم وأظنه في «بدائع الفوائد» أو في «مفتاح دار السعادة» بيّن فساد هذا القول بياناً طويلاً وهناك فرق بين اسجد له أو اسجد إليه، هل نحن نسجد إلى الكعبة أم نسجد للكعبة؟ نسجد إلى الكعبة، يعني هي قبلتنا في السجود لله، لكن لما الله اسجد والدي يوسف وإخوان يوسف هل أسجدهم إليه أم أسجدهم له؟ أسجدهم له، أي جعلهم طائعين له خاضعين لأمره فأسجدهم له، فهناك فرق بين السجود إلى والسجود لي.

وهل كان السجود جائزاً على هذا المعنى من الخضوع والتذلل والاحترام؟ الجواب: نعم، كان جائزاً، ثم منع في ديننا وشريعتنا الخاتمة، قال صلى الله عليه وسلم: (لو كنت آمراً أن يسجد أحد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)، فخلاص انتهى، لا يجوز لأحد أن يسجد لأحد، وكل سجودٍ يفعله الناس بعضهم لبعض أو للمخلوقات إما أن يكون شركاً وكفراً إذا كان على معنى التعبد كمن يسجد للصنم أو يسجد للقبر أو كذا وإما أن يكون ضلالاً وبدعة كما يسجد قديماً اليوم لا وجود له، ولكن يركعون اليوم، فبعض الملوك يركع لهم، وركوعه سجود، الركوع هو سجود، إي من ركع فقد سجد.

كما ذكر بعض العلماء ذكر هذا القرطبي أن الصوفية يخرون لشيوخهم يسجدون لهم، وسمعت من أخبرني بأنه رأى بعض مشايخ الصوفية يفعلون هذا، أنا ما رأيت من الصوفية ذكروا عن شيخٍ صوفي في الغرب وهو تركي أو كردي الأصل فيدخلوا عليه أتباعه فيسجدون له سجود تام، إذا دخل سجدوا له، وكل هذا من الضلال والانحراف لا يجوز أبداً، وبل إن بعض أهل العلم نهى عن بعض ما يقارب منه، فنهى عن تقبيل اليد وسموه السجدة الصغرى، إن بعض أهل العلم نهى عن أن يقبل الابن يد أبيه أو الطالب يد شيخه وقالوا: هذه السجدة الصغرى، وهذا غير صحيح.

فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان بعضهم يقبل يده، وليس هذا من كبار الصحابة يعني لا يعرف عن أبي بكر ولا عن عمر يقبلون، ولكن ربما دخل الإعرابي فقبل يده، بل ربما قبل رجل النبي صلى الله عليه وسلم، ولم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ذلك، ولكن هذا لا يعرف من الكبار ولا يعرف من المصاحبين له على الدوام، لكن

عرف هذا، فدل هذا على الجواز وإن كان فيما قرأت ولا أدري أصح هذا عنه أم لا، لابن القيم قال: علم ابنك أن يقبل رأسك فهو أشرف لك وله، لا أن يقبل يدك فتعلمه التذلل، ذكرت هذه عن ابن قيم والله تعالى أعلم بصحتها.

والقصد: أن السجود لا يجوز، لا السجود ولا ما كان في معناه من الركوع.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]، فإذن هم سجدوا له ولم يسجدوا إليه يعني لمن ظن أي اتخذوه قبلةً في سجودهم لله، هذا لا يصح، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وإن شاء الله في الدرس القادم نبين من هو إبليس بحسب الأدلة والله تعالى أعلم وجزاكم الله خيرا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٣٣]، في هذه الآية كانت يعني مسألة يريد أن يعلم الملائكة مسائل هم جهلوها والآية التي تجيب عنها ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾ [البقرة: ٣٣]، فما صياغة هذه الآية؟

الشيخ: لما ذكر الله عز وجل ما ذكروا هم ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)﴾ [البقرة: ٣٢]، فاعترفوا والله عز وجل أكد هذا بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٣٣] على ما ذكر، طيب غيب السماوات والأرض ربما يقول ما هو ظاهر وما هو بيّن وهو خلقه لكن هل الذي يجري في النفوس من الخطرات يعلمه؟ ربما لأن هناك بعض الفلاسفة تعرف ماذا يقولون، يقولون: إن الله لا يعلم الصغائر، لا يعلم الدقائق، ولكنه يعلم العظائم وبعضهم حملها على معنى التعظيم، يعني الله عز وجل ما الذي يهمه أن يعلم دقائق الأمور وهم نسوا أن عظيم النار مستصغر الشرر، يعني الصغير هو الذي ينشأ منه الكبير.

فالله عز وجل أراد أن يبين حتى خطرات النفوس في الأحياء يعلمها، لأن هذا ربما يعتري بعض الناس أنه لا يعلمه، كيف هذا خطر في النفوس، يعلم الشيء الظاهر البين الذي يراه، يعلم السماوات ويعلم الأرض يعلم الجبال يعلم الريح يعلم الشمس يعلم القمر، لكن كيف يعلم ما تجد خطرات نفوسنا، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩]، ما هي خائنة الأعين؟ لما النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يقتل رجلاً ارتد عبد الله بن أبي السرح لما فتح مكة جاء به عثمان رضي الله عنه من أجل أن يعفو عنه لأنه أسلم ثم ارتد وكذب على النبي صلى الله عليه وسلم، إني كنت أضع القرآن من عندي فالنبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتله أينما وجد ولو وجدوه متعلقاً بأستار الكعبة، فجاء إلى عثمان رضي الله عنه فأمنه فجاء به عثمان رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليعفو عنه، فجعل يعني يستعطف النبي صلى الله عليه وسلم أن يعفو عنه والنبي صلى الله عليه وسلم يعرض عنه، فبعد ثلاث مرات عفا عنه، فسأل الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما أجلته؟ قال صلى الله عليه وسلم: (كنت انتظر أن يقوم أحدكم فيقتله)، قالوا: «يا رسول الله هلا أشرت إلينا بعينك»، أعطنا يعني حركة ما لندل، قال صلى الله عليه وسلم: (ما كان لنبيٍ أن يكون له خائنة الأعين)، فهذا دل على جواز أن يكون لغيره، أي يجوز للأمير أو للأب أن يغمز ابنه أو يغمز صاحبه اسكت أهدئ لكن لا يفعلها النبي صلى الله عليه وسلم، ما كان لنبي أن يقولها.

والقصد: خائنة الأعين، خائنة الأعين ما هي؟ الخيانة عادةً لا تكون إلا في الخفاء، ولما كانت خائنة الأعين عادةً لا تجري إلا فيما هو شر، فلو كان خيراً لأظهره، فدل خائنة الأعين أي تخفيه العين من كلامٍ يراد منه السر

فسمي خيانة، على معنى أن الخيانة لا تكون إلا بالسر، وقد تكون خيراً لكن الأغلب أنها تكون شراً، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩]، ما هي دلالتها، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧)﴾ [طه: ٧]، فهل هناك أخفى من السر؟ يعني السر هناك أخفى منه، نعم؛ لأن السر له معاني، أول ما يظهر السر بين إثنين، أول ما يظهر في كلمة السر على ما يجري بين إثنين، فما هو أخفى؟ ما لو كان لوحده، هذا إذن معنى.

ولكن لو قيل السر أي كل شيء يسر به حتى ما في نفسك، فما هو أخفى منه؟ ما هو أخفى من السر؟ قبل ظهور السر، لأن السر الذي ينشأ في نفسك لابد أن يسبقه أمر، أنت لا تعلمه لكن هذا السر الذي في قلبك لابد أن يسبقه أمرٌ هو أخفى منه فالله عز وجل يعلمه، فإذن كان السر بين إثنين فالله يعلم ما لو كان على واحد، هذا يجري هذا الخبر ويعلمه ما لو كان في نفسك قبل أن يكون السر الله يعلمه، فقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧)﴾ [طه: ٧].

فالله أراد أن يقول جل في علاه، أنا أعلم ما هو ظاهر وأعلم ما هو يجري في خطرات النفوس، ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾ [البقرة: ٣٣]، ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ أي من كلامكم، ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)﴾ أي ما كنتم تتحدثون به سراً بينكم أو ما جرت به خطرات نفوسكم.

السائل: ذكرت أن الملائكة يحمون ابن آدم، من ماذا يحمونه؟

الشيخ: يحمونه من الجن، يحمونه مما هو غير قادر عليه.

السائل: شيخنا ما طبيعة العلاقة بين الجن والإنس حتى يكنون له العداء؟

الشيخ: العداء موجود بين الجن، الجان يتلاعبون بالإنسان، ومعلوم من صفتهم وخلقتهم أنهم أصحاب لهو، حتى المسلم منهم، ولذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: الديّن فيهم أقل تدين من الإنسان والفاسق فيهم أكثر فسوقاً من الإنسان والكافر فيهم أكثر كفراً من الإنسان والساحر فيهم أكثر سحراً من الإنسان أكثر من سحرة الإنسان، ويسمى بالغول، الغول هم سحرة الجن.

القصد: أن الجن يتلاعبون كما أن الناس يتلاعب بعضهم ببعض، حتى المسلم منهم يتلاعب، فهم يتلاعبون فالله عز وجل حمى تلاعبهم هذا واحد.

الشيء الثاني: بعض الناس ينظروا إلى قوته فيما يفعل، ولكن لا يدري عما يجري في نفسه فيما يفسد عمله، يعني يمكن للإنسان أن يمشي ويظن أنه بمشيه مستقلاً يمكن أن يكون معتدلاً، نحن قلنا مرةً ونكرر هنا: هناك من الأمور الخفية ما لا جواب لها إلا القدر يعني الآن موضوع الإنسان مسير أو مخير، لا نستطيع أن نجيب عنها إلا بالجواب الخبري القادم من السماء، يعني لو قال إنسان: أنا الآن تكلمت غيري أمرني، أو يقول: لا، ما في أحد أمرني

أنا فعلت بنفسي أنا حركت يدي بنفسي، يقول قائل: لا، أنت لا تدري هناك من حركك وأنت لا تدري، يمكن، هذا لا يمكن هناك أمور غيبية لا جواب لها إلا الخبر، إلا أن يأتينا الخبر من السماء.

الآن السؤال وأنت تمشي ما الذي يمنع أن الذي أقام مشيتك غيرك من إن تكون معتدلاً لئلا تقع لئلا تؤذى ما الذي يمنع؟ الملائكة، الملائكة لهم دور في أشياء لا نعرفها في هذا الوجود ويكفي أنهم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]، يعني هذا عمل ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧]، وهكذا، فالملائكة لهم أعمالهم في هذا الوجود والله عز وجل أقامهم من أجل أمور غيبية كذلك، كإرسال الرسل للأنبياء كما هو شأن أمين الوحي وسيد الملائكة وهو جبريل وكذلك ميكائيل الذي مخصص بكيل ما في الأرض وغيرها وإسرافيل صاحب الصور، وهناك ملائكة لا نعلمهم، قال صلى الله عليه وسلم: (أَطَتْ السماءُ وحق لها أن تَئِطَّ ؛ ما فيها موضِعُ أربعِ أصابعَ إلا ومَلَكٌ واضِعٌ جبهَتَهُ لله ساجدًا).

السائل: هل الملائكة والجن يرى بعضهم بعض؟

الشيخ: لا أدري، لكن واضح من الآيات أنه نعم أن الملائكة والجن يرى بعضهم بعضاً، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩)﴾ [الجن: ٩]، الملائكة هم الذين منعوهم وطردوهم من الاستراق، فدل على أنهم أقوى.

السائل: هل للملائكة شريعة لا يخرجون عنها؟

الشيخ: يعني هل فيهم أمرٌ ونهي وكذا، ليس لهم شهوات وهو الشريعة نزلت إلينا لوجود المعصية لوجود الاستغفار ووجود الشرائع والطاعة وغيرها فهم يفعلون ما يؤمرون فقط، لكن هل لهم أعمال من الشرائع؟ هم لا يتزوجون، ولذلك لا يجوز أن نقول لهم جنس، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨)﴾ [النجم: ٢٧-٢٨]، فهم ليسوا جنساً من جنسنا ليقاس عليهم أنهم فيهم الإناث ويتزوجون، فأين شريعة التزويج التي هي بين البشر والحيوانات؟ وأين شريعة البيع والشراء والعقود والمعاملات؟ ليس عندهم هذا، هم فقط عملهم افعل ولا تفعل في الطاعة، بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرا والحمد لله رب العالمين.

ولكني أردت فقط التنبيه على أن الملائكة حين يفعلون لهم إرادة الفعل، ليس كقوله اذهب فيذهب بالأمر القدري لكن تتوجه إلى إرادته، الله يوجه أمره إلى إرادة الملك أن يذهب، ومن هنا يأتي فضل الملائكة علينا أن نفهم، هذا من فضل الملائكة أنهم يطيعون بالإرادة، والله يحب ذلك يحب أن يطيعه عبده بالإرادة وليس بالتكوين فقط.

السائل: صغنا العبارة أن الملائكة يأتمرون بأمر الله عبادةً وليس أمرًا قدريًا.

الشيخ: هذا هو، هذا الذي أردت، أي أن الله يوجه أمره إلى إرادةٍ لها قدرة على ألا تفعله، ومن هنا فيأتي بعض تفسير بعض المواطن من القرآن مثل قضية ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، لمن يقول بها؟ لمن يقول بأنهم ملائكة، لمن يقول؟ هذا يمكن توجيه هذا المعنى وسيأتي إن شاء الله تفصيله في هذا الباب.

السائل: هل هناك حديث السوء بداخلهم؟ أي هل تكلمهم أنفسهم بمعصية ولكن لا يفعلونها؟

الشيخ: يعني الله عز وجل يمنعهم من أمور يريدونها الجواب: نعم، ولكن إرادتهم لا تكون إلا لطاعة، ورد في ذلك الآثار، قال جبريل في حديث الذي رواه الإمام الحاكم في مستدركه (لو رأيتني يا محمد وأنا أضع الطين –الحمأ– في فم فرعون لئلا يقول: لا إله إلا الله)، وهذه إن شاء الله سنشرحها، وهي ليست من مسائل من أصول العلم ولكنها من ملحه كيف تحل المشكلات، كيف يطلب المرء الشهادة وبالشهادة يكون فيها قتل كافر لمسلم، مما يفرح الكافر، يعني أنت تطلب من الله الشهادة، ما هي الشهادة؟ أن يقتلك كافر، يعني أن تنفذ إرادة الكافر فيك، فكيف يصح أن تطلب أمراً فيه فرحٌ للكافر، وهذا من منافذ العلم إن شاء الله تشرح في بابها، وكذلك كيف أنت تتصور أن جبريل يضع الطين في فم فرعون لأن يمنعه من قول: لا إله إلا الله لئلا تنفعه عند الله، بالرغم أنها لن تنفعه.

هي سورة «يونس» تدور حول المعنى، وهذا إن شاء الله يشرح في بابه أن سورة «يونس» تدور حول هذا المعنى، قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨)﴾ [يونس: ٩٨]، فهذا هو المعنى الذي تدور حوله «يونس» في مجملها، يعني هو عمود السورة في هذا الباب، فهو لا ينفعه إيمانه، قال صلى الله عليه وسلم: (حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا)، فهو لا ينفعه إيمانه، ولكن الله لا يريد هذا لئلا تدركه الرحمة بهذا القول، قد يقول قائل: لماذا؟ هنا تأتي المعارضات كما ذكرنا معارضة حب الشهادة مع شيءٍ هو لا يحبه الله وهو فرح الكافر فيك، ولا يحبه المؤمنون، ولكن هكذا الدنيا، الدنيا هذا هو شأنها.

وهذه تنبيه أيها الإخوة الأحبة على أنه لا يوجد في الوجود –وهذه خذوها كقاعدة وذكرتها كثيراً– لا يوجد في الوجود علمٌ مطلق ليس فيه الضرر إلا ما تعلق في الله عز وجل في علم الغيب، وإلا في الدنيا فكل علمٍ يناقضه شيءٌ عقلي يناقضه انظر الآن انظر للشهادة، ذكرنا أمراً عظيماً وهو أمر الشهادة اعترضه معنى باطل، هذه الطريقة التي يستخدمها أهل البدع اليوم، إذا فعلت فعلاً يقول: لك انظروا ولكن هذا فيه إساءة، أنا أتكلم يعني أظن شيئاً بيناً ما من أمرٍ شرعي إلا ويأتي ويقول، فإذا قلت: الربا، يقول: ماذا نفعل؟ ومن أين نأكل ومن أين نشرب؟ وإذا قلت: الشهادة، يقول: يستهزئون بطلاب الشهادة من الشباب، يطلبون الشهادة هؤلاء يبنون الموت ولا يحبون الحياة هكذا يقولون، يقول الله بعث محمداً لبناء الحياة وأنتم تريدون بناء الموت، هؤلاء طلاب الموت ويعشقون الموت هكذا، وإذا

هاجروا وعاشوا في الجبال ليجاهدوا، قال: انظر هؤلاء يكرهون الحضارة هؤلاء طلاب الجبال ولا يعشقون إلا الجبال وهكذا، ما من أمرٍ فيه أمرٌ لتعظيم لله إلا ويضربون له الأمثال.

والله، والله أنه لو ترك لهم المجال لاستهزأوا بالحج، لاستهزأوا به واستهزأوا بالزكاة واستهزأوا بالصلاة واستهزأوا بالمساجد وكله يضرب له الأمثال على هذا المعنى، وهكذا أنت ترى أن البعض يأتي يقول يعني تصور، من أنت؟ هو لا شيء فهو يأتي يقول: مجنون أنت، يعني انظر إلى ماذا يقوله الزنديق وهو غير مقبول ولكنه بالتكرار سيكون مقبولاً يومًا من الأيام في رفع القرآن ورفع الإيمان، يقول لك: من أنت حتى الله عز وجل ينظر إليك فيهتم أنك لا تأكل لقمة خبز في رمضان، الله العظيم الجليل الذي خلق السماوات وعنده الملائكة وكذا يهتم لك أنت أبو متر ونص، من أجل أن لا تأكل لقمة خبز، هذا كل منافذ الشر، وكما رأينا هنا حتى الشهادة يعترض عليها بما يقال اليوم ويعترض على الجهاد بما يقال اليوم، يعترض على الدين بما يقال اليوم، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾ [البقرة: ٢١٦].

جزاكم الله خيراً وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس التاسع والثلاثون

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه إلى يوم الدين.

أيها الإخوة الأحبة هذا هو الدرس التاسع والثلاثون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)﴾ [البقرة: ٣٢].

ونحن انتهينا من تفسير هذه الآية ولكن نأتي فقط إلى قوله تعالى عن الملائكة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، هذا دليل على أن الملائكة يمكن أن يحملوا العلم بما علمهم الله عز وجل، قال تعالى عن الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، إذن عندهم علم وهذا العلم هو من الله سبحانه وتعالى ككل فضلٍ ونعمة وعطاء، ثم إن هذا كذلك يدل كما قلت: على أن الملائكة يمكن لهم أن يحملوا العلم الذي علموه، ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)﴾ [البقرة: ٣٢].

في الآية التي بعدها أيها الإخوة الأحبة قال تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣]، وهذه انتهينا منها، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ﴾، علامة أن الله عز وجل خاطب آدم وأن آدم عليه السلام سمع قوله، والقول شيءٌ معلوم لا يكون إلا كذلك أي أن يكون بحرفٍ ويكون بصوت، والله عز وجل تكلم بهذا القرآن والقرآن حروف، قال صلى الله عليه وسلم: (لا أقول ﴿أَلَمَّ﴾ حرف ولكن «ألف» حرف و«لام» حرف و«ميم» حرف)، فالقرآن حروف إذن تكلم الله عز وجل بهذا الكلام وهو القرآن والقرآن حروف، وكذلك تكلم الله عز وجل فاسمع غيره صوته، فدل هذا على أن الله عز وجل كلم آدم وسمع آدم كلام الله عز وجل، هذا مما تقدم.

بعد هذا المشهد أيها الإخوة الأحبة وهو مشهد جامع من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠]، هذا المشهد الجامع الذي دل أولاً على فضيلة آدم عليه السلام وبما فضل، وأنه فضل بالعلم ودل هذا على أن استخلاف الإنسان في الأرض لا يكون إلا بالعلم، وهنا نقول كلمة: إن الاستخلاف الذي أراده الله عز وجل إنما هو فضيلة، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فهذا الأمر وهو الاستخلاف هو أمرٌ محبوب وأمرٌ يحبه الله سبحانه وتعالى ويرضاه لعبيده، فدل هذا على أن الاستخلاف في الأرض هو مراد الله عز وجل وهو من المراد الذي يحبه الله سبحانه وتعالى، ودليل ذلك أن الله عز وجل أعطى آدم سراً وهو العلم الذي فضل به على بقية خلقه وأعظم خلقه وهم الملائكة.

فهذا المشهد دل على فضيلة آدم، دل على مقصد خلقه ووجوده لماذا خلقه الله، ودل هذا على أدوات هذا المقصد، مما هو مقصد وجوده؛ الاستخلاف، وما هي أدوات هذا الاستخلاف؛ وهو العلم، فهذا مشهدٌ عظيم ينبغي

الاعتناء به والاهتمام به كما تقدم، وكذلك يدل هذا على فضيلة الكلام وفضيلة العلم الذي أساسه هو معرفة المعلوم وأساس معرفة المعلوم هو معرفة أسمائه، أن تعرف اسمه لا يمكن أن تعرف شيء إلا باسمه، والإحاطة بالاسم هي باب الإحاطة بالشيء، كما قلنا وذكرنا: بأن الأسماء أنت حضور الشيء، إحضار الشيء شاق ولكن حين حضور الاسم يحضر الشيء إلى الذهن من غير ضرورة إحضار الشيء ومادته من أجل أن يستفصل عنه.

وبعد هذا المشهد العظيم الذي تقدم وإقرار الملائكة بما قال ربنا سبحانه وتعالى ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)﴾ [البقرة: ٣٢]، ثم هذا التفصيل الرباني بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾ [البقرة: ٣٣]، وتقدم أن قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١)﴾ [البقرة: ٣١]، هو لما كتموا في أنفسهم وما تحدثوا به بين أنفسهم من كلامٍ قالوه رد الله عز وجل عليه.

بعد هذا المشهد العظيم الذي هو كما تقدم ذكره قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [البقرة: ٣٤]، وقلنا: بأن السجود هو علامة الخضوع، والسجود لا يكون إلا بتذلل ولا يكون إلا لخضوع، وهو إما أن يسجد المرء خضوع القهر، وهذا معلوم بأن يقهر شيءٌ شيئًا فيسجد له من أجل قهره له، كأن تظهر آية عظيمة فتظل أعناقهم لها خاضعين؛ لأنها عظيمة فتقهرهم فيخضع لها، وإما أن يكون هذا الخضوع والتذلل للاحترام والتقدير.

إذن إما أن يكون هذا الخضوع للقهر أن تقهره هذه الآية فيسجد وإما أن يحترمها ويرى عظمتها وجلالها وجمالها فيسجد لها، والعرب كانت تفعل هذا، كانت تسجد للكلام العظيم، يأتيها الكلام العظيم فتسجد له، والله عز وجل بيّن، قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا﴾ [مريم: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ﴾ [الإسراء: ١٠٧]، فدل هذا على أن العرب كانت من سمتها إذا رأت شيئاً عظيماً جليلاً سجدت وخضعت له وأطاعته، والسجود هذا هو معناه في كلامهم.

ولا أريد أن أعرج وهذا ربما أرد عليه في أبوابٍ أخرى، لأن ابن حزم نرى أنه يأتي إلى هذا كثيراً في كلامه في المناظرات وخاصةً في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» نرى أنه لما يأتي مثلاً إلى تسبيح الخلائق لربنا فيقول: سبح يعني كما يقول سبحانه وتعالى عن كل شيء: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فهو يريد أن يقول: ليس هو التسبيح؛ لأن كلمة سبح لابد من أن تخرج بهواء من الجوف ومن الحنجرة فتخرج على هذا الوفق من السماع وهذا الوفق من الحروف، سين باء حاء فيقول: سبحوا هذا لا نعرفه يخرج منهم؛ إذن هو تسبيحٌ آخر، هو لا يقول تسبيحٌ آخر، يقول: شيءٌ آخر ولكن ليس هذا التسبيح.

وهذا كلامٌ لا ينبغي الالتفات إليه؛ ذلك لأن التسبيح إما أن يراد منه اللفظ، وإما أن يراد منه التعظيم، فالتسبيح إما أن يراد أنه قال: سبحان الله، والذي لا يعرف العربية يسبح الله بألفاظه، وليس شرط أن يخرج هذا اللفظ السين والباء والحاء ليس هذا هو الشرط إنما هو يسبح بهذا المعنى الذي سبح به، وهذا مهم جداً وأما تسبيح الحجارة فعندما نعلم حقيقتها نعلم كيفية كلامها لأن العلم بالصفة إنما هو فرعٌ من العلم بالموصوف، لا يمكن أن تعرف صفة شيءٍ ما حتى تعرف حقيقته، فلما جهلنا إرادة هذه الأشياء كيف تجري فيها، وهل هي لها معاني في أنفسها؟ فأخبرنا الغيب بها، أن الحجارة تفرح كما حن الجذع إلى ذكر الله عز وجل عندما تركه النبي صلى الله عليه وسلم ووقف على المنبر فحن الجدع وسمع الصحابة رضي الله عنهم حنينه، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم وضمه؛ فهو له معاني هنا فيها معاني، وهذه المعاني موجودة، وهذه المعاني حتى التي نتكلم بها من الرحمة هي معاني حق.

أي عندما يقول: إن الله عز وجل أنزل رحمة من رحماته؛ فهي رحمة معلومة المعنى، ولذلك التشنيع على الذين يقولون بهذا الظاهر لهذا المعنى الذي يقوله ابن حزم فهذا كلامٌ باطل لا يلتفت إليه؛ لأن الله عز وجل يتكلم لنا بلغتنا عما قاله الآخرون بلغتهم، يعني هنا نحن لا نبحث ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾ [البقرة: ٣٠]، هل قال هذا اللفظ أم أنه قال معنى هذا الكلام في كلامٍ آخر؟ نحن نرى أن الله عز وجل يتكلم عن لسان فرعون بكلام وفرعون لا يتكلم العربية، وإبراهيم عليه السلام الله يتكلم عنه كلاماً في كلامه لا يعرف العربية، إذن الله عز وجل يتكلم هذا الكلام عن فرعون بمعنى ما قاله وليس باللفظ الذي قاله، هذا مهم جداً فيه، ولا نريد أن نعرض على هذا ولكن تقتضيه الضرورة لأن البعض من الذين يشغبون على الحق يتخذون هذه الكلمات من الأئمة هذه المداخل.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ﴾ [البقرة: ٣٣] فخاطب آدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠]، فلم يلهمهم إلهاماً بل قال لهم، أسمعهم، وآدم عليه السلام سمع كلام الله، والذين يريدون أن يصرفوا هذا الكلام عن حقيقته أي عن قول ربنا عز وجل وعن حقيقة ما يقول، الذين يقولون: بوجوب صرف هذه الألفاظ عن ظاهرها، لا ينتهوا إلا إلى التعطيل، إما إلى تصور ما في النفس البشرية من معاني، وإما أن ينتهي إلى التعطيل، هذا هو المعنى كيف يقع في قلبك من المعاني هو الذي يريده الله عز وجل، وبلا شك أنه لما يكون الحديث عن الله عز وجل هو حديثٌ عما لا ندركه، قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ولكن ما يقع في القلب من المعاني التي يحبها الله عز وجل من تعظيم كلامه هي المعاني المطلوبة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]، هنا وتكلمنا في الدرس الفائت ونكرر بأن الله عز وجل أسجد الملائكة لآدم، أي ليس لأن آدم هو قبلة السجود لله، ولكن أسجد الملائكة لآدم احتراماً وتقديراً وتعظيماً لشأنه، ولا نريد أن نعود إلى ما تكلمنا عنه، هل أسجد الله جميع الملائكة أم أسجد بعضهم؟ ويكفي إلى هنا.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]، هنا أيها الإخوة الأحبة منفذٌ أصولي وهو قوله: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، فعل أمر، واختلف الأصوليون في فعل الأمر، هل يفيد الوجوب أم لا؟ والصواب إفادته الوجوب إلا لصارف، فقوله: ﴿اسْجُدُوا﴾ أمر، والأمر يفيد الوجوب، والوجوب هو أمرٌ علوي لا يسع المأمور إلا الطاعة، فإذا ترك الأمر كان عاصياً، فقوله: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، هذا أمرٌ إلهي لهم بالسجود، وما جرى ذلك دليل على أن الأمر ليس للمأمور فيه السعة أن يتركه أو لا يتركه أو أن يبحث –وهنا ما يقوله الأحناف مثلاً– أو أن يبحث عن قرينةٍ أخرى لتعرفه مرتبة هذا الأمر، يعني لما قال: ﴿اسْجُدُوا﴾، هل أراد بها الوجوب أم أراد بها السعة أم أراد بها كذا؟ وهكذا، هذا غير صحيح، فالأصل أن الأمر أنه يفيد الوجوب فإذا جاءت قرينة واضحة وبينة تفيد غير ذلك انصرف الأمر إليها ولكن الأصل هو أنه الوجوب.

قوله تعالى: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، واللام هنا بينة أنها له وليس إليه ولكن له أن يسجدوا له إي طاعةً وإقرارًا بفضيلته عليهم.

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، هذا اللفظ دليلٌ أولي عند من يقول: بأن إبليس من الملائكة، ونحن نذكر المسألة هناك قولان للعلماء في هذه المسألة أجلنا الكلام عنه لهذا الدرس، نذكر بعضه وإلا فكل كتابٍ من كتب التفسير تفرغ لهذه المسألة وتشرحها شرحاً طويلاً والحقيقة أنها من باب التصور، وليس لها أي علاقة بالتكليف، يعني هل معرفتنا بأن إبليس من الملائكة أو من الجن فهذا لا أهمية له في باب التكليف، إنما هي من باب التصورات، وبعضهم كمحمد عبده يقول: ليس هناك ثمة دليل في الكتاب كما يزعم فرق بين الملائكة والجن.

ومحمد عبده له تفسيرات وتأويلات بعيدة كما ذكر عنه تلميذه محمد رشيد رضا في «تفسير المنار»، ذكر عنه تفسيرات بعيدة في تفسير الجن وتفسير الملائكة إلى غير ذلك، بل ربما أجرها على المعاني النفسية، كما يفسر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥)﴾ [الفيل: ١-٥]، فقال: بأن هذا هو الحيوانات مثلاً الجراثيم هي التي أرسلها الله عليهم، ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤)﴾، فالطير هي الطير ولكنه جعل لها تفسيرات باطلة موافقةً لهجمة الغرب في نفي الغيب، وحضور الغيب لعالم الشهادة.

أين المشكلة لهم؟ هم يؤمنون بالغيب يعني لا نتهم محمد عبده على ما فيه أنه ينفي عالم الغيب، لا، لا يوجد أحد في الوجود يدعي أنه مسلم ينفي عالم الغيب لا وجود، لكن المشكلة عندهم في حضور عالم الغيب إلى عالم الشهادة، أيكون هذا أو لا يكون، ومن هنا مثلاً الجن هل يثبتونه؟ يثبتونه، لكن أن يحضر الجن وأن يكون للجن حضور في عالم الشهادة، أن يكون للملائكة حضور في عالم الشهادة، لا يستطيع مسلم يؤمن بالله وكتابه أن يقول: لا يوجد ملائكة، لا يستطيع، لكن هل للملائكة حضور في عالم الشهادة؟ يعني لما الله عز وجل قال للملائكة

﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢)﴾ [الأنفال: ١٢]، هل حصل هذا على المعنى الحقيقي أن الملائكة قطعت الأعناق حقيقة؟ وقطعت الأيدي الحاملة لسيوفهم على الحقيقة؟ نحن نؤمن بهذا والرواية تأييده، هم يقولون: حضور الغيب لعالم الشهادة ممتنع وذلك لتعظيمهم لعالم الكونيات.

ومن هنا يقول شيخ الإسلام رحمه الله المتكلمون أسدُّ في عالم الإلهيات، وأجهل في عالم القدريات، عالم القدر، هؤلاء المتكلمون الذين هم الأشاعرة وغيرهم، أما المعتزلة والقدرية فهم أسدُّ في عالم القدر وأجهل في عالم الإلهيات، يعني عندما يتكلمون عن الله عز وجل جهلة، لكن يتكلمون عن تصرفات القدر وكيف تجري الأسباب بمسبباتها كلامهم أسدُّ، وإن كان ليس هو الحق، ولكنه أقرب إلى الحق.

ما يهمنا هو هل يحضر الغيب لعالم الشهادة؟ الجواب: نعم، المعجزة هي حضور الغيب لعالم الشهادة، فقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣)﴾ [الفيل: ٣]، هنا الموطن ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤)﴾ [الفيل: ٤]، هذا حضور الغيب لعالم الشهادة، وما نزل على قوم لوط وحضور الغيب لعالم الشهادة، وثم قد يراه، قد تحصل الرؤية، وإن كان هذا خلاف الأصل، أي الناس لا يرون الملائكة فالملائكة من عالم الغيب نؤمن بها، لكن يمكن تجسد الملائكة بما يُعلم من البشر فيروا، كما رأوا جبريل عليه السلام (يدخل عليكم رجلٌ) في حديث (إنما الأعمال بالنيات)، (هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم).

فهل يحضر جبريل في خلقته التي خلقه الله عز وجل إياها إلى عالم الشهادة فيكون له أثر؟ الجواب: نعم، يعني هل يمكن للملائكة أن تقطع الرقاب دون أن يراها البشر؟ الجواب: نعم، كذلك الجن يحضهم الغيب، ولكن يحضرون لعالم الشهادة، ومن حضورهم لعالم الشهادة الوسوسة، وقد يتشكلون، الجن قد يتشكلون، فالذي ينكره المعاصرون ممن تأثر بالتفكير الغربي أو الفلسفة المادية أنهم لا ينكرون عالم الغيب، هذه مهمة جداً حتى ننصفهم ولكنهم ينكرون حضور عالم الغيب إلى عالم الشهادة، وأن يحصل لهم التأثير في عالم الشهادة، هذا ينبغي أن نهتم له.

الآن هو يقول: بأنه لا، وهذا غير صحيح، ففي الحديث الذي في صحيح البخاري من حديث عائشة أن الله أخبرنا أن الملائكة خلقوا من نور وأن الجن خلقوا من نار وأن آدم خلق مما ذكر لكم أي من طين، من تراب إلى ما ذكره الله عز وجل.

الآن قوله فسجد الملائكة كلهم إلا إبليس أبى قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤]، هنا هذا الاستثناء هو الذي حصل فيه الخلاف أهو استثناء لمن يعرف العربية –درستم أنتم– أهو استثناءٌ متصل أم منقطع؟ ما الفرق بين الاستثناء المنفصل والاستثناء المتصل؟ الاستثناء المتصل يكون المستثنى من جنس المستثنى منه، تقول: حضرة أهل المسجد إلا فلان، فهذا فلان الذي ذكرته يكون من أهل المسجد فهذا استثناء متصل، فيكون المستثنى من جنس

المستثنى منه، حضرت قبيلة فلان إلا ابنهم فلان فأبنهم منهم، ولكن إذا كان الاستثناء منقطعاً لا يكون المستثنى من جنس المستثنى منه، وهذا بيّن كثير وهذا كثيرٌ في القرآن وكثيرٌ في لغة العرب ومشهور.

فقوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤]، هل إبليس من جنس المستثنى منه وهو من الملائكة أم لا؟ نرى أن المفسرين على رأسهم إمام المفسرين ابن جرير الطبري وينسب هذا لابن مسعود، وينسبه في روايةٍ لابن عباس ولغيرهم من المفسرين يقولون: بأن إبليس ليس من الجن إنما هو من الملائكة، طيب كيف يعترض عليهم؟ سنعترض عليهم بأدلة من قال: إنه من الجن، كيف؟ ما هو الدليل؟

أولاً: فسجدوا الملائكة كلهم إلا إبليس، وقالوا: هذا دليل على أنه منهم.

ثانياً: الخطاب توجه للملائكة فلو لم يكن داخلاً في الخطاب لما كان في عدم سجوده إثم ولا معصية ولا رد للأمر، وهذا استثناءٌ متصل.

فماذا تردون على أدلة الآخرين؟ لننظر إلى أدلة الآخرين ونعرف كيف ردوا عليها، أول ما يظهر لطالب العلم وهو يبحث هذه المسألة الآية في سورة «الكهف»، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، فهو من الجن، هنا وقفوا، مواقف كثيرة:

القول الأول: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ قالوا: الجن المقصود أن هناك الملائكة أجناس -هذا قول بعضهم- أن الملائكة أجناس، كالبشر أجناس كالجن أجناس ومن الملائكة أجناس منهم أي من الملائكة من يدخل فيهم وهم أجناس من الجن ولكنهم من الملائكة، يعني ملائكةٌ هم اسمهم ملائكةٌ جنيون، هذا قول بعضهم.

القول الثاني: أن الجن هنا بمعنى الخفاء ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي كان من الذين يخفون، لأنه كما يقول أبو علي الفارسي: بأن اجتماع حرف الجيم مع النون تعني الخفاء دائماً جنين، جَنة، جِنة، جنون، كله خفاء، فالجنون ذهاب العقل وخفاؤه، جَنة هي التي من كثرة ما ألتف بها من الشجر فخفيت، وكذلك جِنة يعني من الجنون والجنين لأنه في بطن أمه، والجن سموا جن لخفائهم وهكذا، والجنان هو الضمير الذي في داخل إنسان، جنانه: قلبه أو ضميره الذي في صدره فهو خفي، فقال المقصود بهذا هذا، الجن.

وكما ترون هذا كلامهم وكله من أجل إمرار قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، أن الأمر متوجه إلى الملائكة فاستثنى إبليس وراء ذلك.

الدليل الثالث: الذي عندهم وهو ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠]، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ﴾ عمن؟ عن إبليس ذريته، وكذلك في سورة «الكهف» ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ﴾ [الكهف: ٥٠]، فجعل له ذرية، ولا يعرف هذا عن الملائكة أن لهم ذرية، يعني لا يتوالدون لا يتناكحون،

الملائكة لا يتناكحون ولا يتوالدون فما دام أن له ذرية يموتون ويحيون ويحصل فيهم ما يحصل في عالم التكليف، فدل هذا على أن إبليس ما دام أن له ذرية فإذن هو من الجن وليس من الملائكة؛ لأنه يعرف أن قسيم الإنسي هو الجني، يعني قسيمه ماذا؟ المقابل له في أصل خلقته مقابله، يعني هذا له ولد وهذا له ولد لكن جنسٌ آخر، هذا يتزوج وهذا يتزوج، هذا يتوالد وهذا يتوالد، وهذا لا يعرف في الملائكة.

رابعاً: قالوا: الله عز وجل قال عن الملائكة: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦]، وهذه معصية، فكيف وقعت؟ إذن هو ليس من الملائكة.

بما رد الآن في قضية ذريته أنا لم أقرأ لهم رداً في هذا، يعني عند قول: ذريته، لم أقرأ لهم في هذا، فهذه النقطة لم يردوا عليها بخلاف ردهم على ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦] هذه سهلة عليهم أن يردوا عليها، سهل يعني هي تتلائم مع هذا، أن يقال ما قلته سابقاً، بأن هؤلاء لهم إرادة فإرادتهم لا تعصي ولكن حصل استثناء، والاستثناء يقع إنما الكلام على الأغلب وإنما يقع ولذلك مما قالوه: ﴿بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، قالوا: هم من الملائكة أنزلهم الله عز وجل فتنة للناس أو على قول بعضهم: عصوا، بعد أن حصلت منهم المعصية فخرجوا وفسقوا عن أمر الله فصاروا يعلمون الناس الكفر أي السحر ﴿بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾، فهذا قولهم.

فهذان القولان يعني هذا ما أعرفه من أدلة هؤلاء وأدلة هؤلاء وربما يوجد لهم، كخلقه من نار فلما إبليس رد على الله عز وجل أمره ماذا قال؟ ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢)﴾ [الأعراف: ١٢]، والله عز وجل خلق الملائكة من نور، هذا يرد عليهم، هذا مما أثبتوه بحديث عائشة رضي الله عنها الذي ذكرته (أن الله خلق الملائكة من نور، وخلق الجان من نار) والملائكة خلقوا من نور وهذا من أدلتهم.

وطبعاً ممن رد هذا الذي رده محمد عبده فيما ذكرت عند هذا الموطن، وهذا كذلك قاله بعض المفسرين أظن البيضاوي مع أن الزمخشري في كشافه والبيضاوي يأخذ منه يقول بما قال به الصنف الثاني، وهو أن إبليس من الجن وليس من الملائكة، هذا مما يرجحه، فلعله البيضاوي يقول: المقصود من النور والنار نوعين من صنفٍ واحد ولكن هذا أكرم من هذا، ذلك لأن النار هي يحصل بها النور ولكنها ليست بصفاء النور وإن كان يحصل بها النور فهم مادة واحدة، بخلاف الإنسان فإنه من تراب، هذا ردهم، وهو كما ترون بعيد، وأكثر من تكلم في الرد عليهم في هذا الباب أنصح في «أضواء البيان» الشيخ محمد أمين الشنقيطي أكثر من رد على القائلين بأن إبليس كان من الملائكة.

طيب بقي السؤال الذي دار من أدلتهم غير ما تقدم ممن قالوا: أنه من الملائكة، دليلهم أنه بما توجه الخطاب إليه؟ أي حلوا لنا الذين تقولون: بأن الله عز وجل أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم، الملائكة، فإذا كان إبليس من الجن

فبما دخل معهم، والله يقول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٤]، هذا الذي هم وقفوا عنده، بما دخل إبليس في الخطاب إن لم يكن من الملائكة؟

العلماء لهم قولان في هذا، هذا الذين يقولون بأنه من الجن:

القول الأول: أنه قد ارتقى في عبادته وهو على نفس ما قالوه: بأن الملائكة فيهم صنفٌ يسموا بالملائكة من أهل الجنة، قريب من هذا ولكنه على معنى آخر، يقولون: بأن توجه الخطاب إلى إبليس معهم لأنه ارتقى في عبادته وفي تقواه إلى أن يكون مع الملائكة أن الله رفع مقامه القدري والمقامي إلى درجة أنه صار يخاطب بما يخاطب به الملائكة لما حصل له من العبادة التي تقارب فعل الملائكة، يعني ما هو شأن الملائكة في العبادة؟ ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فلما حصل من إبليس هذا المقام من فعله رفعه الله عز وجل في الخطاب إلى مقام الملائكة فصار خطاب الله عز وجل للملائكة خطابٌ له لما حصل له من الشرف قبل هذه الحادثة، هذا تخريج أولي لهم.

التخريج الثاني لهم: بأن الخطاب للأعلى هو خطابٌ للأدنى وكأنهم يقولون: لما خاطب الله الملائكة فمن باب أولى أن يخاطب من دونهم من الخلق وهم الجن عند حضورهم، والجن معروف أنهم خلقوا قبل الإنسان والدليل هذا الذي بين أيدينا أن إبليس كان موجوداً لما خلق الله عز وجل آدم فخطاب الله عز وجل للأعلى هو خطاب الأدنى.

فالقول الأول: هو خطاب لإبليس من جهة نفسه لأنه ارتقى إلى أن يخاطب مخاطبة الملائكة.

والقول الثاني: لا، أن إبليس هو داخلٌ في خطابه للجن فدل على أن الله خاطب الملائكة وخاطب الجن في إسجاده المأمورين لآدم، يعني الجن قد أمروا بالسجود لآدم، هذا تخريجهم في هذا.

وأنتم تعرفون دائماً في هذا الباب وأنا أنبه عليه كثيرًا، وهذا حل لمشكلات طالب العلم، هذه الإنسان يعانيها في طلب العلم، بعض الناس يظن أنه إذا اختلف السلف في مسألةٍ ما أنه لو أراد أن يبحث فيها يصل إلى درجة القطع بأن تنقطع أدلة المخالف قطعاً كلياً هذا يحسه بعض الطلبة في ابتداء أمرهم ويحسونه في أنفسهم يرتاحوا ويقولوا: هذا قولٌ صواب لا مرية فيه والأدلة الأخرى لا قيمة لها وباطلة، وهذا شأن الضعيف، عندما لا يعرف الأقوال، من هنا قولهم: «من قل علمه كثر اعتراضه»؛ لأنه لا يعرف إلا وجهاً واحدًا في المسألة، فإذا زاد علمه صارت المسألة عنده ليس على معنى اليقين هذا إذا اختلف السلف ليس بين الحق والباطل، إذا اختلفوا في مسائل.

فهذه مسألة اختلف فيها العلماء وأنتم ترون أساطين يعني ابن عباس له القول الأول وابن مسعود له القول الأول، ويكفي إمام المفسرين وهو ابن جرير اختار هذا القول، فإذا جئنا للثاني رأينا قولاً ثانيًا لابن عباس ورأينا مفسرين كثر يميلون لهذا القول كما ذكرنا من ذكرنا ونذكر كذلك ابن كثير لأن ابن كثير مال إلى أنه من الجن، فالآن

لا تقول: من هو دليله الصحيح الذي يقابله الدليل الغلط؟ لا يوجد، ولكن يوجد عندنا الدليل الأقوى الذي يقابله القوي، أو الدليل الأصح الذي يقابله صحيح، لو خلا قول الأوائل عن معارضيه لكان صحيحاً، ولكنه ضعف بالمعارضة والآن هو الموازاة بين الأمرين أن توازن بين الأمر الموازنة بين الأمرين، فأنت كما ترى أنه يمكن للآخر لو خلا أن يكون قوياً.

وبهذا أيها الإخوة الأحبة أؤكد كلمة قلتها سابقاً: عليك حين البحث أن تبحث أولاً عن الدليل الموجب الدليل النافي لا تهتم له ابتداءً، لا تهتم للدليل النافي، أولاً أثبت القول بما ثبت به الدليل، ما الذي أثبت هذا القول؟ فإذا ثبتت قوة الدليل المثبت فلا تلتفت للدليل النافي حتى لو وجد، وهنا نرى أن الدليل المثبت هو من الجن، هذا دليل مثبت نصي، وهذا التأويل بعيد أن يكون هناك قسم من الملائكة قد خلقوا على معنى أن يسموا بملائكة الجن أو أنهم من الجن، فلماذا هنا يأتي ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، فلا ننظر، لو أخذنا بقول كان من الجن، فلماذا خص إبليس بأنه من الجن، والملائكة كلهم من الجن؟!

وثانيًا: في ذلك الوقت من هو الجني بمعنى الجني على معنى الخفاء من هو؟ مقابل من؟ لأن هنا كلمة جني ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، حملوها على الصفة وليس على اسم الجنس، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، يعني على معنى الخفاء وليس على اسم جنسه، على من كانت هذه الصفة؟ من القوم الذين كان إبليس له هذه الصفة من الخفاء على من في ذلك الوقت؟ ولماذا أختص بها من دون بقية المأمورين بالسجود وهم الملائكة؟

فإذن لا يهم في الحقيقة لا يهم أن تأتي بالأدلة النافية وهذا يعني يؤكد ما قاله الشيخ الشنقيطي رحمه الله في «أضواء البيان» على أن القول لا ينبغي التردد فيه، مع وجود هذا النقاش العلمي المثمر الذي هو وإن كان يمكن للمرء أن يبدأ به حيث ينتهي، يعني يمكن للمرء أن لا يهمه كل هذا النقاش، يمكن للمرء أن يقول: لا يهمني هذا النقاش خلاص هو قال من الجن وانتهى الأمر، لكن هذا الحوار كما ترونه يثمر علماً، وإن قلنا في الابتداء: هذه المسألة في نهايتها مسألةٌ تصورية، ليس عليها كبير أمر، ولكن في النهاية هذا الحوار أنشأ علمًا وأنشأ طرق بحث وأنشأ تنمية للعقل، ولذلك الذي يميل إليه المرء أن إبليس كان من الجن وينتهي الأمر.

فماذا ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾؟ فانتهى، إذن هو هنا استثناء منقطع وأن إبليس من جنسٍ آخر، ويكفي أن نعلم أنهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم: ٦]، فدل على أن إبليس ليس من هذا الصنف من الملائكة وهو من شيءٍ آخر، فلما توجه إليه الخطاب؟ بما تقدم، وأن يرتفع المرء إلى هذا الخطاب فهذا بيانٌ لعظمة أمره ولشأنه، ولكنه أبى كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وهل إبليس هو اسمٌ جامد كما يرجح ذلك ابن عاشور في تفسيره، يقول: إن محاولة المفسرين إرجاع هذه الأسماء إلى مصادرها خطأ هكذا يقول: شيطان، إبليس هو اسمه، آدم هو اسمه، لكن في الحقيقة هذه الطريقة وإن كان

الشيخ ابن عاشور في تفسيره يعني هو عقلاني هو أشعري على كل حال، لكنه عقلاني ويتكلم كلام عقلانياً وهو بلاغي كذلك وتفسيره في البلاغة معتبر وفي اللغة معتبر، لكن من الأجمل هو أن تعيد الأسماء إلى معانيها التي تتلاءم مع من أطلقت عليه، أم أن تجردها من معانيها فتجعلها مجرد سمة لا علامة فيها في داخل الأسماء للصلة بينها وبين المعلوم والمذكور، ما الأفضل؟

فعندما يقول: إبليس، طيب هو يقول: هو كان اسمه إبليس قبل المحنة أو بعدها؟ ويمكن يحتج عليك بهذا، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤]، ونحن نقول: إبليس من الإبلاس وهو اليأس، عادةً هذه يقولها بعض أهل اللغة، بعض اللغويين يقولون: بأنك إن عجزت عن كلمة فابحث أقرب منها إلى ما تعلمه فتكون قريبة وهذا من أسرار هذه اللغة، قال تعالى: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢] مثلاً فيقول: ﴿وَاصِبًا﴾ ابحث أقرب ناصبة، يعني مقيماً له وهكذا يقولون.

فالإبلاس من الإياس وهكذا، هل هذا اسمه قبل أن عصى أم بعد أن عصى؟ وللذكر مما يقولون: لا يوجد واحد من أعمام النبي صلى الله عليه وسلم أسلم وفي اسمه تعبيدٌ لغير ربنا، إلا حمزة، العباس ليس لهم لا عبد الحارث، ليس لهم أسماء معبدة لغير الله، هل لهذا أسرار في عالم الغيب لا نعلمها؟ أي جرت الأسماء على معاني ما سيحصل لهم؟ هل جرى في الغيب شيءٌ على هذا المعنى لا نعلمه ومما يقال في القدر قوله صلى الله عليه وسلم: (إذا ذكر القدر فأمسكوا)؟ ممكن.

القصد: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤]، على ما قلنا.

قال تعالى: ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، هاتان الصفتان أيها الإخوة الأحبة هما مصدر كل شرٍ في الوجود زاد عليهما الإمام مالك رحمه الله، الحسد، والحقيقة داخل فيها، ولكن الحسد أضافه مالك أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ [المائدة: ٢٧]، قال: أساس كل معصية في الوجود هذا الكبر، هذا لا بد منه الكبر، الذي هو يمنع المرء من قبول الحق، أساس كل فساد في الوجود هو التكبر الارتفاع، وأنتم ترون أن في القرآن وفي ذكر القرآن لأعداء الله، تجد أن علة الإجرام هو الكبر، كما قال عن فرعون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧)﴾ [المؤمنون: ٤٧]، ما الذي منع إيمان فرعون لموسى؟ هو أن يصبح هو ومن يعبده في الحال سواء، وهم بني إسرائيل، فالكبر.

قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، فالكبر لا يقبله الله عز وجل لا من قليل ولا كثير، وقال صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل أحدُ الجنة وفي قلبه مثقال ذرةٍ من كبر)، الجنة لا تستقيم، الجنة ليس فيها إلا العُبّاد لله عز وجل، والكبر لا يستقيم مع العبادة انظر عبد مع كبر هل يستويان؟ فتناقض العبادة الكِبر من كل وجه.

وما هو الكبر؟ هو الترفع عن قبول الحق، وغمط الناس، غمط الناس أي احتقارهم، وعدم قبول الحق؛ لأنه لا يمكن للمرء أن يرفض الحق إلا وهو مترفعٌ إما عن المقالة نفسها لأنها تكسر كِبره، وإما أنه يترفع عن وسيلة الوصول إليه، والآن لماذا رفضوا الحق الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اقررهم به؟ إما لأنهم رفضوا الحق لما يحصل به من تواضع نفوسهم وهم يرفضون، يعني يريد أن يجعلني أنا وهذا العبد سواء، وأنا وهذا العربي سواء، فهذا يرفض، وإما أنه يرفضه الحق لأنه جاء من هذا الطريق، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف: ٣١]، أما أن يأتينا من هذا اليتيم غير مقبول.

وهذه محنة أيها الإخوة الأحبة، هذه محنة بمعنى أن يأتيك الحق على خلاف ما تشتهي أو يأتيك الحق من غير الطريق التي تحب أن يأتيك منها، وسهل جداً أن تأخذ الحق من إمامك إذا جاء لأنه يفرحك، لكن إن يأتيك الحق من خصمك أو يأتيك الحق ممن هو أدنى منك، هذه محنة، لا يوجد أحدٌ في هذا الوجود منذ أن خلق الله آدم إلى يوم القيامة يسلك طريق العلم إلا ويمتحن في هذا الباب.

أعيدها لأهميتها حتى المرء يحضر نفسه، لا يوجد أحد في هذه الدنيا يدخل طريق العلم والإخبار بالحق أنه يخبر بالحق أو كذا فلا يمتحن من سبيل أن يأتيه الحق ممن لا يحب، لابد أن يأتيه من غير طريق إمامه ومن يحب من أهله أو من أصدقائه أو من مشايخه أو من مذهبه يأتيه الحق، فهذا امتحانٌ عظيم والقليل القليل ممن ينجو منه، وإلا فكل الناس يعترفون بالحق إذا جاء من الطريق المحبوب، ولكنه لابد أن يفتن من أن يأتي الحق من غير الطريق المحبوب فيقبله ويصغي له ويذعن له ويقول: هذا هو الحق لأن عليه الدليل، ولا يهم إن جاءني من فلان أو من فلان.

ولذلك أيها الإخوة الأحبة كما قال صلى الله عليه وسلم: قال تعالى: (العزة إزاري والكبرياء ردائي)، من أكرم الإزار أم الرداء؟ الإزار الناس يلبسونه لما سفل، والرداء يضعونه شعاراً لهم لأن الناس لا ينظرون للإزار لا أحد ينظر للحذاء في الأسفل ينظرون للأعلى، فالرداء هو الذي يوضع في الأعلى ويشد نظر الناس إلى الرجل، فقال الله عز في الحديث القدسي: (العزة إزاري والكبرياء ردائي)، إذن من أعظم العزة أم الكبرياء؟ بل لا يكون الكبرياء الحق إلا بعزة، ولذلك يمكن أن يكون الرجل عزيزاً فيسميه الله عز وجل عزيزا، كعزيز مصر، فيمكن أن تقول للرجل: عزيز، فلان عزيز.

والعزة ما معناها؟ العزة إما أن تأتي بمعنى الندور، فتقول شيءٌ عزيز أي نادر، فالعزة المطلقة لا تكون إلا لله عز وجل، لأنه العزيز فلا يشبه أحد، ولذلك يقول ابن حزم في «الفِصل»: إن الواحد لاسمٌ لا يليق إلا بالله، لأنه ليس اثنين فإذا جاء اثنين كان لغيره، فإذن هو واحد، فالعزة الانفراد قد تكون مطلقة وهي لا تليق إلا بالله عز وجل، وقد تكون نسبية، نقول: الذهب عزيز أي نادر، فالذهب موجود ولكنه نادر، فهذا أمرٌ نسبي.

إذن العزة أولاً: بمعنى الندرة فهي تليق إذن جازت أن تطلق على البشر على معنى النسبية، أو أن يقال: العزيز بمعنى عَزّ أي ظهر، هما معنيان من معنى واحد العزة الندرة، والناس يتنازعون على مقامات الندرة، الناس يتنازعون على الملك؛ لأن الملك فيه ندرة، فالناس لا يتنازعون عن مجلسٍ يمكن أن يتسع لهم جميعاً، يعني لا يصبح هناك ثمة منازعة، فالعزة لا تكون إلا بالندرة فإذا حصلت الندرة حصل لها المقام، فإذن العزيز هو هنا من له المقام الأسمى، إذن هنا العزة، وهنا تأتي النسبية كذلك ويأتي الإطلاق، يعني يمكن للرجل أن يكون عزيزاً وأن يكون مكرماً، لماذا؟ لمقام الندرة التي توصل إليها، وإما أن يكون عزيز بمعنى الندرة، فهنا يصح أن يقال: فلان عزيز على المعنى النسبي.

لكن تعالوا إلى كلمة المتكبر، هل يصح أن تطلق على أحد من الخلق، هل يجوز لأحد أن يدعيها، ولذلك كان الكبرياء أجلى في الظهور في مقام الربوبية أكثر من مقام العزة، من أجلى في مقام الربوبية العزة أم الكبرياء؟ الكبرياء، لأنه مقامٌ لواحد لا يليق إلا به، بخلاف العزة يمكن أن يشارك فيها للندرة أو يكون للمقام الأعلى يشترك فيها ملك وملك وهكذا، يكون عزيزاً أي يكون معظماً مكرماً، ولذلك في الحديث القدسي: (العزة إزاري والكبرياء ردائي)، فالكبرياء مقامٌ لا يليق إلا بالله عز وجل؛ ولذلك جاء أنه رداء الله عز وجل، ولذلك لا يجوز لأحدٍ أن يتكبر، قال صلى الله عليه وسلم: (ولا يدخل الجنة أحد إذا كان في قلبه مقدار ذرة من كبر).

ومن كبرياء الله عز وجل أنه سبحانه وتعالى يجري هذا المعنى في مقاماتٍ كثيرة في الوجود وبعد انتهاء هذا الوجود، كيف؟ في هذا الوجود أن الله عز وجل قدر إلا يبقى أحد إلا ويميته، لا يوجد أحد يدوم له المقام، هذا من كبرياء الله، من مقام الله عز وجل ألا يكون أحد في مقام التفرد إلا وما يأتي أحد من ينازعه.

أولاً: مقام الإهلاك، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨)﴾ [الإسراء: ٥٨]، القرى والأشياء فلا شيء يدوم، كل شيء يتولد منه شيء، لكن هو يذهب ما في دوام إلا لله عز وجل.

ثانيًا: لا وجود لأحد يكون له مقام التفرد فيثبت فيه، ويشهد لهذا حديث ناقة النبي صلى الله عليه وسلم، فإن ناقته كانت لا تسبق أبدا حتى جاء إعرابيٌ على بعير على قعود له فسابقها فسبقها، فشق ذلك على الصحابة فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من شيء ارتفع إلا وكان حقاً على الله أن يضعه)، ما الذي حقا؟ لأنه الحق (كان حقا على الله أن يضعه)، لا يوجد أحد يبقى على مقامه، فكل شيءٍ لابد من هلكته، وكل شيءٍ لابد من ذهاب مقام عزته، كل شيء لا يبقى إلا الله عز وجل، هذا في الدنيا وفي الآخرة يكفي أن الله عز وجل يهلك الخلق جميعاً يوم القيامة، ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر: ١٦]، انظر هنا انظر إلى كلمة الواحد، تأمل في كلمة الواحد في هذا المقام، ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾، الذي لا يكون له اثنان لا يوجد له ثاني ما في، وأنه قهار سبحانه وتعالى وكل ما أمامه هو قهرهم وغلبهم ولا قيمة لهم أمام سلطانه وعزه وقهره جل في علاه.

إذن الكِبر أيها الإخوة الأحبة باب الكفر وباب المعصية وهو بابٌ يلج الناس، يلج باب الملوك ويلج باب الأثرياء ويلج باب العلماء، وهكذا، فلذلك على المرء أن يسده، ما هي طرق سد أبواب الكبر؟ هو أن تأتي بضده، ما فعله السلف، إذا جاءك الحق أذعنت له، هذه الصلاة التي تصليها أيها الأخ الحبيب هذه الصلاة التي تصليها أنت سجوداً لله عز وجل هذه من أعظم مقامات درء الكبر عن نفسك، انظر إليك وأنت تسجد وأنت تركع، ومن أعظم ذلك أن تصليها جماعة لأنك تتبع غيرك، فمهما علوت فتأتي الصلاة وتنقض هذا العلو النفسي الذي يحصل في نفسك.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، لم يجتمع في القرآن هذان إلا في هذا الموطن، الإباء والاستكبار وإلا ففي القرآن جاء الاستكبار في موطن كما في سورة «ص»، ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص: ٧٥]، وجاء الإباء في مقامٍ آخر، ولكن في هذه السورة فقد جاء اجتماع مقام الإباء والاستكبار، ما هو فرق بينهما؟ الإباء هو رفضٌ في الظاهر، والاستكبار هو بيان سبب الإباء في الباطن، الإباء هو بيانٌ للظاهر، والاستكبار هو بيانٌ لعلة هذا الظاهر وهو الباطن، أبى يعني رفض فهذا بيان ظاهره أنه رفض، ولكن استكبر هو بيان لسبب الإباء وهو الأمر الباطني، الإباء هو الرفض والاستكبار هو أن يرى المرء نفسه كبيراً لا كبير معه وكبيراً لا يليق به أن يدخل فيه طاعة غيره.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، بلا شك أن الله عز وجل فسر لنا عوامل هذا الإباء والاستكبار، كيف فسر هذا؟ كيف فسر الإباء والاستكبار؟ جاء ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢)﴾ [الأعراف: ١٢]، فإذن هو تفضل على غيره بما أعطاه الله عز وجل وإلا لم يخلق نفسه، وصحيح أن النار فيها شرف ما ليس في الطين، لكن هل هذا من كل جانب؟ فلو نظرنا إلى شرف الأصل إلى الشرف في نفسه لرأينا، وهنا نأتي إلى مسألة قبل أن نتكلم فيها وهي قضية هل خلق الله يتفاضل؟ الجواب: نعم، يعني عندما نقول: بأن الله خلق الملائكة من نور وخلق الإنسان من طين، هل أصل النور خير من أصل الطين؟ الجواب: نعم، وكلاهما قد خلقه الله.

هل الأشياء تتفاضل؟ بلا شك، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)﴾ [لقمان: ١٩]، من الذي خلقه؟ خلقه فاستنكره، ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، ولذلك ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾ [طه: ٥٠]، الله عز وجل أعطى الأشياء خلقتها فرفع هذا ووضع هذا، فلو نظرنا إلى النار في أصل خلقتها لرأينا فيها شيئاً من الفضل على التراب، لكن هل هذا من كل جانب؟ لا، يعني يذكر العلماء في ردهم على قياس إبليس ولقولهم: إن أول من قاس لرد النص هو إبليس، من أول من أستخدم القياس لرد الأمر الإلهي؟ هو إبليس، فهو قاس قال: النار خيرٌ من الطين، فإذن أنا خير.

فالعلماء ردوا عليه وقالوا: في جوانب الطين يكون خيراً ونافعاً من النار، فالنار وإن كان فيها السمو والارتفاع للأعلى، وإن كان فيها الهيبة، يعني التراب ليس فيه هيبة النار، ولا يوجد أحد علمنا عنه في يوم من الأيام أنه عبد

الطين كما هو طين نعم أخذه فصوره، لكن هل النار بذاتها عبدت أو لم تعبد، لهيبتها وقوتها وشأنها؟ فنظروا إليها نظرة، لكنهم لما ردوا عليه قالوا: انظر من شأن النار الفساد، فلذلك إنها إذا أتت على شيء أهلكته وفي إهلاكها يكون الهوج ويكون السفه يعني إذا أتت على شيء لا تفرق بين النافع وبين الضار تهلك كل الأشياء جميعاً، لكننا إذا جئنا إلى التراب وجدناه نافعاً، أنه يخرج الثمر وأن الناس يطؤونه، ومع أن النار تميل إلى الأعلى وترتفع إلى الأعلى علواً واستكبارًا إلا أن تواضع الطين في مشي الناس عليه مع نفعه لهم يدل على أنه أفضل يعني من جوانب وأن كان إذا نظرنا إلى المسألة كلياً فنرى أن للنار هيبة لا نراها في التراب، وأن للنار سطوة لا نراها في التراب، وأن للنار موقعٍ في القلب ليس للطين، هذا نعم، لكن هذا ليس بكل شيء.

وهذا تعليمٌ لنا بأن لا ننظر إلى عقولنا يعني إبليس نظر لعقله، نظر لأصله، والله عز وجل هو العالم هو الذي يعلم، ولذلك قالوا: بأن النار وإن سمتوا وعلت ولكنها فيها الكِبر والغرور والتراب فيه التواضع وفيه الخضوع والتذلل لكن فيه النفع، وهناك بيت شعر:

تواضعْ تكنْ كالنجمِ لاحَ لناظرٍ ... على صفحات الماء وهو رفيع

ولا تكُ كالدخّان يرفع نفسه ... إلى طبقات الجوّ وهو وضيع

تنظر للماء فترى البدر، ولا تكن كالدخان يعلو بنفسه في الجو وهو وضيع، فليس شرط أن كل ارتفاع يكون حسنة.

القصد: فالله عز وجل لم يذكر اجتماع الإباء والاستكبار إلا هنا في هذه السورة، إذن أبى هو بيان الظاهر والاستكبار بيان علة هذا الباطن وما سببه وعلل هذا الاستكبار فيما ذكر، وسنبين إن شاء الله عندما نأتي لآدم ما الفرق بين معصية آدم وبين معصية إبليس؟ لماذا افترقت معصية آدم؟ فالله قبل مغفرته ولم يقبل توبة إبليس، بل إبليس لم يأتي إلى التوبة، سنبين هذا فيما يأتي.

قال سبحانه: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، هنا السين واستكبر ما قال: وتكبر، أي طلب الكبر، طلبها وسعى إليها وهذا دليلٌ على أنه لا يستحقها، يعني هو طلب الاستكبار هو طلب أن يكون كبيراً فوق كل من ذكر لكنه لا يستحقها.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)﴾ [البقرة: ٣٤]، هنا أيها الإخوة الأحبة الكفر الذي وقع فيه إبليس لا علاقة له بما يسمى الاعتقاد، أي الذي له علاقةٌ بالخبر، أنتم تعرفون أن الطاعة تكون في تصديق الخبر وطاعة الأمر، الطاعة تكون في تصديق الخبر كما أخبرنا الله عز وجل، هنا إخبار فالطاعة هنا هو تصديق الخبر، وكذلك في طاعة الأمر، في تصديق الخبر وطاعة الأمر.

وهناك من الجهلة من لا يرى الكفر إلا ما تعلق في تصديق الخبر، ولذلك لا يرون الكفر إلا في رد الخبر، فإذا كان هناك أمرٌ له علاقة بالفعل لا يعدوه كفراً حتى ينظروا إلى قلب الفاعل فيه وما تعلق بالاعتقاد، ما اعتقاده؟ وهذا غلط، وأول كفرٍ في الوجود هو كفر إبليس لا تعلق له بالخبر البتة، أين كفر إبليس؟ هل له تعلق بخبر أخبر الله به فرده إبليس؟ وإنما تعلقه بالأمر، أمره فرفض، وهنا رفض إبليس ورفض آدم، كلاهما لم يطع الأمر، الله عز وجل أمره ألا يأكل من الشجرة فأكل، وأمر أن يسجد فلم يسجد، ما هو الأعظم في ديننا قبل أن نأتي إلى موطن هذا عندما نتكلم عن آدم؟ ما هو الأعظم الأمر أم النهي؟

قال صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: قال تعالى: (وما تقرب إلي عبدي بشيءٍ أحب مما افترضته عليه)، فالأمر أحب إلى الله من اجتناب النهي؛ لأن اجتناب النهي إنما هو ترك الإرادة، ترك الإرادة سهل على الإنسان، أن يصرف المرء إرادته عن شيء هذا سهل، لكن أن يوجه إرادته هذه تحتاج إلى شيءٍ آخر، فلذلك الأمر عند الله أحب إليه من ترك المنهيات، ما هو الأعظم عند الله اجتناب المنهيات أم إتيان المأمورات؟ ما هو الأقرب؟ كلاهما تعبد لله عز وجل لكن ما هو الأحب إلى الله عز وجل؟ الأحب إلى الله عز وجل هو إتيان الأمر.

ولذلك الله أمر إبليس أن يسجد، ونهى آدم أن يأكل، من هو الأضعف؟ هو صحيح أن جرم إبليس أعظم، لأنه رد على الله أمره كما سنبين، لماذا كفر؟ هل لتركه الأمر؟ أن يسجد فترك الأمر؟ أم لأنه رد على الله عز وجل أمره؟ أين الكفر ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)﴾ [البقرة: ٣٤] أين هو؟ انظر الله ما قال: أبى، إلا إبليس أبى، فلو أبى وترك الأمر ثم لو نظر إليه وسأله قال والله يا رب أمرك حق وأنا صاحب هوى لما كان كافراً، لكنه كفر برد الأمر، لكن هنا من أضعف في المعصية الذي عصى الأمر أم أتى المنهي؟ انظر الذي أتى المنهي هو الأضعف، فآدم هو أضعف في باب إتيان المنهي، يعني الأضعف ينبغي أن يكون أقل درجة لكنه أقرب إلى الله عز وجل مع إنه أضعف في ترك باب المنهي لكنه بسبب نوع الذنب الذي اقترفه، ولماذا اقترفه، كان أقرب إلى الله، ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، وسنبين ما هي الكلمات كما جاءت في سورة «الأعراف»، لأن القرآن يفسر بعضه بعضا.

إذن ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)﴾ [البقرة: ٣٤]، لماذا كفر؟ لتركه الأمر فقط أم لأنه رد على الله أمره؟ هذا يمكن أن يدخل فيما يسمى في باب الاعتقاد لكنه عادةً للأسف يفسرون باب الاعتقاد في قضية ما يتعلق بتصديق الخبر فقط، ولكنه هنا رد على الله عز وجل أمره بأن جعل أمره لا يليق في مقام العدل ولا يستقيم في مقام القدر، إذن كفر لهذا الباب، لماذا كفر إبليس؟ كفر لأنه رد على الله عز وجل أمره، وهذا الرد على الله أمره تقع صوره كثيرة من باب استحلاء المعصية، هذا رد على الله يقول هي حلوة، إذا قيل له: هذه معصية، يقول: والله أراها حلوة وهي أحلى من الحلال، كأن يقال: لماذا تزني؟ يقول: أنا جربت الزواج الحلال وجربت الحرام وجدت الحرام أحلى، فيزين

الحرام، كما ألف المجرم معروف الرصافي مثلاً في إتيان الذكران جعله أجمل من إتيان النساء، هذا رد على الله أمره، كمن يحلل الربا ويقول: الربا هو الذي تنشأ به الشعوب.

وهناك مجرم اسمه عبد الله القصيمي، هذا عبد الله القسيمي من القصيم نشأ على الإسلام ونشأ على دين السنة، وذهب إلى مصر فألف في وقته شيخ الأزهر رسالة في جواز إتيان القبور وغيرها مما يفعله الصوفية في مصر في الموالد، ألف كتاباً عجيباً في الرد على يوسف الدجوي، حتى قال بعضهم: إن هذا الكتاب لما ألف عبد الله القصيمي أخذ جواز السفر إلى الجنة، في رده عليه في بيان ضلال عُباد الأصنام والقبور والإشراك وغيرها من الصور الوثنية التي يفعلها بعض من ينتسب للإسلام، ولكن في زمنه كان انتشار الشيوعية والاشتراكية والإلحاد فألحد، وأول كتاب له سماه «هذه هي الأغلال» جعل الدين والأخلاق والإيمان بالله أغلال تعوق البشر، وألف كتاباً –وهذا الذي أنا أردته– «الإنسان يعصي لهذا يصنع الحضارات»، أي الحضارات لا تصنع إلا بالمعصية ما دام إنك تؤمن فأنت خامل لا قيمة لك والحضارات تصنع بالمعصية.

وله كتب أخرى لكن أردت هذا الكتاب لهذا المجرم، ومات كبيراً وصل ربما إلى التسعين أو قاربها ورد عليه الشيخ السعدي، والشيخ السعدي له كتاب في رد على الملحدين وأراد هذا لأنه من أقرانه في العمر، وأترابه في الزمن.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)﴾ [البقرة: ٣٤]، الكفر أيها الإخوة الأحبة هو التغطية في اللغة، لكن هنا فقط كلمة إبليس، من هو إبليس؟ الذي يرويه سلفنا وليس هناك نص يعني يجزم به، أنا أردت أن أتكلم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠]، هل الله عز وجل تكلم بالعربية؟ قلنا: لا، فتقدم الكلام عليه، وهل هذا خطاب بالعربية؟ الجواب: لا، العربية نعرف أنها تطور للغةٍ قديمة، فهل كلام أهل الجنة هو العربية؟ وقلنا هذا لا دليل عليه، وهناك أحاديث ضعيفة في ذلك لا يعتمد عليها.

فالكفر هو الستر في اللغة، فإذا ستر المرء حقاً أي كفره قال: أنت تكفر بحقه أو تكفر بحق فلان أي ترده ولا تعترف به ولا تظهره، ولذلك قال سبحانه وتعالى عن الزراع: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، لما ذكر الزرع ومكارمه وما سيحصل به، فقال: هذا الزرع الذي أنبته أي الصحابة، ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٢٩] من هم الزراع؟ يعني المؤمنون، ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، أي الذين يكرهون هذا الزرع، وهذه الآية احتج بها الإمام مالك رحمه الله على كفر من سب أصحاب رضي الله عنهم النبي صلى الله عليه وسلم أو أبغضهم.

وقلنا في الدرس الفائت: إن الله عز وجل يأتي باللفظ لمعناه ويزيد على معناه، هو القول ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ أي الزراع ولكنه أراد معنًا زائداً أنهم الكفار حين يكرهون الصحابة، لأنه كما يكره الزارع فضل ما يحصل من الزرع لغيره، فيسمى كافرا، فكذلك الذي يحصل في قلبه البغض لهذا الزرع من الصحابة الذين تحقق بهم الخير الكثير، فهؤلاء

كذلك كفار، هذا من عظيم ما استنبطه الإمام مالك وهو من أشد الناس نزعاً لأية كما كان يوصف رحمه الله، «أنزع الناس لأية».

لكن هنا الكفار ما هي حقيقتهم؟ أنهم يسترون الحق، فإبليس هنا ستر الحق، بما ستره؟ ستره بالكِبر، ما هو الحق؟ أمر الله عز وجل هو الحق، ولذلك أيها الإخوة الأحبة اختلف العلماء كثيراً في معنى البيان –أنا أجمع شيئاً بشيء لأهميته– اختلف العلماء في معنى البيان، ما البيان؟ ولذلك جاء الأئمة، أئمة كثر وعلى رأسهم أبو بكر الباقلاني وكذلك أيده تلميذه الجويني وقال به بعض الأحناف قالوا: «البيان هو الدليل»، هو الأصل كلمة البيان هو ظهور، ولذلك جاء بعضهم فسر البيان تفسيراً لغوياً أو تفسيراً عاماً، فقال: البيان هو خروج الشيء من حالة الخفاء إلى حالة الظهور، من بانة؛ ظهر، فخروج الشيء من حالة الخفاء إلى حالة الظهور هذا بيان، لم يرتضوه ورأوا أن هذا كلاماً عاماً إنما جاءوا إلى ما يحصل به البيان، أي كيف يحصل البيان؟ قالوا: الدليل، فلما جاءوا للدليل، قالوا: الكتاب والسنة، فصار الحق الذي يظهر في الوجود ويميت كل خفاه هو الكتاب والسنة، فالحق ما هو؟ هو الكتاب والسنة، ما هو الدليل؟ الكتاب والسنة، ما هو البيان؟ هو الكتاب والسنة، ما هو الروح؟ هو الكتاب والسنة، وهذا مهم جداً.

القصد: لما نقول كفر إي منع ظهوره منع بيانه، كفره، وهذا كل من رد أمر الله عز وجل فلم يعترف به كان من الكافرين، نأتي إلى كلمة مقابلة لها وهي كلمة الشرك، هل الشرك والكفر شيءٌ واحد؟ الجواب: نعم، في المآل الكفر والشرك نوعٌ واحد، ولكن هذا له وجهته وهذا له وجهته، لكن لا يكون هناك ثمة شرك إلا وهو كفر، ولا يكون هناك كفر إلا وهو شرك، كيف؟ الكفر هو طمس الحق، يعني واحد له حق فتطمسه، والله عز وجل له الحق أن نطيعه وأن نعبده بجميع أنواع العبادات، فإما أن يكفر أصل العبودية وهذا لا وجود له، لا يوجد أحد في الوجود إلا قلة من البشر وهم سفلة منحطون أنكروا أصل العبودية من كل وجه، وإلا فتاريخ البشرية يثبت أنهم عبدوا الله وعبدوا غيره، ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ [الشعراء: ٧٧]، إذن هو اعترف أنهم كانوا يعبدون غير الله، ويعبدون مع الله غيره، وهذا معروف.

الآن حق الله عز وجل ألا تعبد ألا إياه، فيأتي ويعبد غيره، إذن هو أخذ حق لله عز وجل وطمسه إذن هو كافر من جهة أنه أخذ حق الله عز وجل فأنكره فمن هذه الجهة كافر، طيب هذا القسم الذين نفاه عن الله عز وجل أين ذهب به؟ أذهبه إلى غيره، فعبد غير الله فهو أشرك، لكننا عادةً نطلق الشرك على نوع العبادة ونطلق الكفر على فعل الفاعل، ماذا نقول؟ هذا كفر، لكننا حين نأتي إلى نوع الفعل الذي مارسه نميز بين الإنكار وبين الإتيان بالفعل، نميز ما هو الأقوى في الباب، وقد يعترض على هذا باعتراضات نرد بعضها الآن لأهميتها.

إذن فقط أقرر أنه لا يكون هناك ثمة كفر إلا –كفر أي كفرٌ للحق– إلا وهو إعطاءه لغيره، ولا يكن هناك شرك إلا وقد طمس حقاً لله عز وجل، وقد يأتي واحد ويقول ماذا تسمي سب الله عز وجل؟ أي يريد أن يقول هذا السائل ويمكن أن يفهم على هذا الوجه أنه يمكن أن يكون هناك ثمة كفر ولا يكون شركاً، نأتي إلى سب الله عز وجل، واحد سب الله عز وجل، فماذا تسميه؟ هو فوراً أي واحد تسأله يقول: هذا كفر، طب هل هو شرك؟ أي أين صرف التعظيم؟ هذا الرجل الذي سب الله عز وجل، فقط لأن المسألة متطردة، وإن كان هذا المعنى خفيف وضيق ولكنه موجود.

فلو أن رجلاً سب الله –نعوذ بالله من الكفر– هل خلى قلبه من التعظيم الذي كان ينبغي أن يكون لله عز وجل؟ يعني ما هو الذي جعله يسب؟ هو ذهاب حق الله عز وجل من قلبه، ذهاب تقدير الله من قلبه ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، ذهاب تقدير الله من قلبه ذهب، هذا التقدير هل فرغ ولم يذهب لغيره أم ذهب لغيره؟ إذن هو الفعل، ما زلنا على أن الفعل ذاته هو كفرٌ بحق الله عز وجل، لكنه لم ينشأ هذا الكفر إلا وقد حصل شركٌ في قلبه أذهب حق الله لغيره، والمسألة فقط هي بيانية ومن يريد أن يُنازع فيها فالمسألة يسيرة جداً، فإن الكافر والمشرك هما سواء في خروجهما من الدين وإعراضهما عن أمر الله عز وجل.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)﴾ [البقرة: ٣٤]، انظروا هنا لابد من الاهتمام بشيء، وهو أن الذي يكسب الحق للأشياء هو الله عز وجل، يعني انظر الله قال: للملائكة اسجدوا، فكان أول كفر في الوجود هو ترك السجود، وجعل الله عز وجل السجود في هذه الأمة عبادة لا تجوز لغيره، وهو فعلٌ واحد، كان أول كفر هو عدم طاعة الله عز وجل في ترك السجود، والآن من سجد لغير الله عز وجل فقد كفر أو أشرك، ولذلك السجود لا يجوز إلا لله سبحانه وتعالى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٤]، هنا دائماً أنبه على هذه القضية لا بأس لمن لم يسمع الكلام في أوله قد يسمعه في آخره، فهنا قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾، هذا خطاب التعظيم، ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ خطاب التعظيم، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا﴾ ذلك لأن هذا الأمر فيه تعظيم فكان فيه خطاب، وما قال وإذ قال ربك للملائكة ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾، توجه إليهم في خطاب الجمع لأهميته، ولأنه باب تعظيم ربنا سبحانه وتعالى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ [البقرة: ٣٤-٣٥]، يكفي إلى ما هنا، وجزاكم الله خيرًا وإن شاء الله نتابع في الدرس القادم وبارك الله فيكم.

الأسئلة

السائل: عندما خاطب الله عز وجل الملائكة وقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤]، **هل يكون كما قلت شيخنا بدايةً أو آخر نقطة ذكرتها، قلت: يعني أن الخطاب من العلو والشرف يدخل من باب أولى ما هو دونه يعني هذا يجوز عند العرب، إذا قاموا القوم إذا قيل: لهم قوموا وقفوا فقام ضعفاء القوم معهم فاحتمال يعني بدايةً الاستدلال من هذه؟**

الشيخ: يعني لو كان الأمر لقوم أن يخرجوا لدخل فيه صبيانهم ودخل فيه عبيدهم وعبيدهم قد يكونوا ليسوا من القبيلة ويدخل فيهم الخطاب هذا احتجاجهم، احتجاجهم بمثل هذا أن الخطاب إذا توجه إلى جماعةٍ من الناس باسمهم فأنه يدخل فيهم من حضر وإن كان أدنى منهم لدخولهم في الخطاب، وإن لم يكونوا من جنسهم هذا الذي قالوه، ومن ذلك قولهم: إذا أمر قوم أن يخرجوا وأن ينزحوا فإنه يدخل فيه عبيدهم وإن لم يكونوا منهم، ويدخل فيه دوابهم وإن لم يكونوا منهم، أملاكهم، هذا الذي قالوه.

السائل: إن السجود لا يكون إلا لله، اللام هنا ما نوعها لله، قال تعالى: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]، **واللام هنا، قد يقدح في نظر الناظر أو في عقل الناظر أنها تفيد معنى من أنواع الشرك أن الله سبحانه وتعالى عبدهم لآدم طاعة له أو أسجدهم لآدم؟**

الشيخ: أما عبدهم فهذه لا يجوز البتة أن تطرأ على قلب موحد، قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)﴾ [الزخرف: ٤٥]، هذا من كبرياء ربنا أن لا يرضى لأحدٍ من خلقه أن يعبد سواه، أن يتأله سواه، ومن زعم أن الله عز وجل أجاز أن يعبد أحدٌ أحداً غيره فهو كافر، هذا يكفر يخرج من الملة بيقين من أجاز أنه جرى في الوجود يوماً سواء في السماء أو في الأرض إلى يوم القيامة أن الله أجاز أو أمر غيره من عبيده أن يعبد غيره من عبيده فهو مشرك كافر لا يجوز، الله عز وجل ما خلق الخلق إلا لعبادته، ولا يرضى لعباده الكفر، الله لا يرضى، كما قال سبحانه وتعالى في سورة «الزمر»: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، لا يرضاه لهم، فلا يجوز لأحد أن يتصور هذا.

لكن هناك أفعال لا تحمل إلا دلالةً واحدة، وهناك أفعال قد تحمل دلالات متعددة، ومن ذلك ما ذكرنا عن قضية القسم، أن يقسم بالله أو يقسم بغير الله، هذا تعظيم، والتعظيم ليس مرتبة واحدة، فقد يصل التعظيم إلى التأليه وهذا يقع فيه بعض الناس ولا يدرون، كأمرهم عندما يحلفون بالله فلا يصدقون فيحلفون بغير الله فيصدقون فهنا التعظيم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فهؤلاء عظموا ما حلفوا به أكثر من

تعظيمهم لله، وقد يكون للأسف يفعلونه ليس لسبب ما في قلوبهم، حتى نبين الصورة كاملة يعني، وإنما يفعلونه لغيرهم، يعني يعلم الرجل أنه لو حلف بالله لما صدق، فحلف بغير الله ليس لأن غير الله أعظم في قلبه، لكنه يعلم أن من عرّف الناس لو حلف بكذا سيصدق، فهذا له حالة ولكن نحن نقصد أن القسم له حالته، ولذلك كان الناس يقسمون بمحمد فنهاهم الشارع.

الآن كذلك السجود كان الناس يسجدون لبعضهم البعض ومما ذكرنا في الدرس الفائت من سجود أخوة يوسف ليوسف، ومن إسجاد الله للملائكة فهذا السجود احترام، إذن هذا الفعل له دلالات متعددة لكنه يقوم أصلاً على التعظيم، المرء يعظم، فسجود على التعظيم، لكن الله عز وجل أمر بأوامر من أجل القضاء عن دواعي الشرك وما يقرب من جناب التوحيد، وإن كان لا يدخل فيه أصالةً ولكن قد يصل إليه، فالله عز وجل أمرنا ألا نسجد، وقال صلى الله عليه وسلم: (ولو كنت أمرا لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)، فأمر ألا يسجد أحد لأحد.

هل هناك من يعصي الله عز وجل في هذا فلا يقع في الشرك؟ الجواب: نعم، كان في تاريخ الإسلام للأسف من الملوك المماليك وغير العرب يدخلون فيسجدون لملوكهم، ولا يرى العلماء أن هذا الفعل من الكفر ويرونه أنه معصية، كقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث (من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبو مقعده من النار)، ويتمثل له الناس قياماً المقصود به أن يكون جالساً وأن يقفوا حوله، كما يفعل الملوك والسلاطين والمتكبرون وهذا منهي عنه لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فالقيام قد يكون قنوت، ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ﴾، ليس مطلقاً لأن القيام يحمل دلالات متعددة، فلما كان لله قصره على القنوت ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)﴾ [البقرة: ٢٣٨]، لكن هذا قد يقع من أحد البشر لغيره فلا يقع مع القنوت ولكن مع طول المدة والزمان يصل لهذا.

كما أنه وقع الشرك في هذا في تاريخنا في هذا في تعظيمنا للصالحين حتى وصل إلى اعتبار معاني فيهم، يعبدونها ويتقربون إليها بأنواع القربات التي لا تجوز لله عز وجل، فهذا هو يعني ما ينهى عنه، المشكلة الناس الآن وهذا نقوله ونختم به وشرحته في الدرس الفائت في الرد على بعضهم أنه لا تقع العبادة إلا على معنى التعظيم، وهذا التعظيم قد يكون لأسباب كثيرة، لا يهمنا أن نبحث عنها، الأسباب لا تنتهي، فالبحث عنها لحصرها أو لجعل هذا الفعل محصور بالتعبد لهذا المعنى هذا جهل، لا تنتهي، معاني وأسباب الكفر لا تنتهي.

قال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨)﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٨]، فجعل هذا هو العلة وهذه حب الدنيا والآخرة لها مظاهر كثيرة.

السائل: سؤال خارج الدرس شيخنا.

الشيخ: دعونا في الدرس أولاً حتى نجلي هذه المسائل ثم إن شاء الله نأتي لخارج الدرس معنا وقت.

السائل: إبليس رفض الأمر وعلل، فلو أنه رفض الأمر بدون أن يعلل.

الشيخ: لا، أنا أقول لو كان لرفض الأمر علة غير رد أمر الله عز وجل وتحقيره وادعائه أنه لا يستقيم مع الحق هذا هو سبب الكفر، وليس لمجرد عدم إتيان الفعل، رد الأمر كفر، رد أمر الله عز وجل فكفر بهذا، لكن هب أن رجلاً أمر بالسجود كما يؤمر امرءٌ ما بالسجود، فلم يسجد، كما أن آدم عصى فلم يطع، فهذا يبقى في ضمن العفو الإلهي، الذي يسمى عندنا بالفاسق الملي، لكن لما سأله لما لم تسجد؟ ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [ص: ٧٥-٧٦]، ما الذي منعك أن تسجد؟ فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢)﴾ [الأعراف: ١٢]، أنا لا أسجد لما أمرتني، فالله عز وجل لعنه لهذا الأمر وهو أنه جعل أمره، يعني ما اختاره إبليس جعله خيراً مما أمره الله عز وجل، وهذا هو الكفر.

أما مثل آدم عصى، وما سبب المعصية؟ سبب المعصية الغفلة ﴿فَنَسِيَ﴾ [طه: ١١٥]، الهوى، محبة العاجلة وملك لا يبلى نسي الله قال: ﴿فَنَسِيَ﴾، الأمر وصل به، ما معنى نسي هنا؟ سنأتي إليها ولكن النسيان هو ذهاب الشيء، ذهاب الشيء أن يذهب ولكن ذهاب الشيء قد يكون بغلبة غيره عليه مع وجوده، فإذا ذهب الشيء إما أن تذهب حقيقته وإما أن يذهب تأثيره، فأمر الله عز وجل جاء، لم ينسى بمعنى هنا أنه لم يبق في ذهنه ذكرى أن هذه الشجرة هي شجرة المعصية ليس هذا معناه، ولكن جاء أمرٌ غلب عليه ما هو؟ الشهوة.

وبعد ذلك جاء العتب فاستغفر، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾ [البقرة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)﴾ [الأعراف: ٢٣]، فهو قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾، ما قالوا: أنت أمرك كان باطلاً وأنك خبأت عنا هذه الشجرة ولم تعلمنا أمرها، أما إبليس بقي على كفره، وإبليس كفر وأراد أن يدعو غيره للكفر بنفس الطريقة، ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، هذا الأصل غير.

الله عز وجل قال: هذه شجرة المعصية، هناك طاعة هناك أمر فبماذا يعارض؟ يعارض بما هو أفضل، والمعصية بماذا تعارض؟ بأنها نافعة، المعصية نافعة هنا المعصية التي اقترفها آدم أمر، بما عورض بأن هناك ما هو أفضل منه وأنه غلط هذا الأمر غلط وهناك ما هو أفضل منه، بما تُعارض المعصية التي اقترفها آدم وهي النهي بأن يقول: هذه المعصية فيها منفعة، فجاء إليه بنفس الطريق ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠)﴾ [طه: ١٢٠]،

الله سماها شجرة المعصية، هو ماذا سماها؟ ﴿شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠)﴾، فأطاعه ونسي، آدم نسي، وفي الحديث: (غوى فغوت أمته)،

ما معنى هنا النسيان؟ أي غلبة أمر على أمر، ما هو الأمر؟ هو محبة العاجلة وهذا هو السبب محبة العاجلة، آدم كيف عصى ربه أحب العاجلة، يذهب بسرعة يريد الملك، طبعاً هل غاب عقله؟ نعم غاب عقله آدم هنا غاب عقله عليه السلام وهذا هو أبونا ونحن كذلك، عند الشهوة يغيب العقل، يعني لو أراد أن يناقشها عقلياً لما وقع، كيف عقلياً، كان قال له: ما دام هي شجرة الخلد لماذا تسأل ربك أنت تقول له: أنذرني إلى يوم يبعثون، لماذا تسأل؟ اذهب وكل منها وخلاص يحصل لك الملك من غير استأذنه في الأمر أو طلبه للأمر، وعلى كل حال فهذا هو باب الإنسان.

أنا أقول أيها الإخوة الأحبة في هذا الموطن من سورة «البقرة» هذا هو سر الوجود، هذا الموقف من المشهدين، مشهد ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾ [البقرة: ٣٠]، ثم ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] وما ختم فيه من الأمرين، هذا هو سر الوجود، سر الوجود كله محاط ومعبأ في داخل هذين المشهدين، وما بعد ذلك هو تفسير لهذه الآيات، تفصيل لها من وجوه أخرى، ولكن سر الوجود لتعرف نفسك هذا هو، من هنا المدخل، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠)﴾ [الكهف: ٥٠]، لماذا يوثق الله؟ من أجل أن يذكرك، ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢)﴾ [الإسراء: ٦٢]، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ [الحجر: ٤٠]، وبعدها قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠)﴾ [سبأ: ٢٠]، طلعت القضية كلها أنه إبليس طلع صحيح، لماذا؟ (غوى آدم فغوت أمته)، لكن أين الباب؟ (ما زالوا يذنبون ويستغفرون فيغفر الله لهم)، هذا هو الباب هذا سر الوجود، ما هي حياتك؟ حياتك هذه هي.

حياتك في السماء كانت جنة مليئة بكل الخيرات، ما فيها غير شجرة واحدة معصية، شجرة واحدة، فترك كل هذه الخيارات وجاء إليها، اذهب واشرب الماء واشرب عصير التبن واشرب عصير الشعير فقط لا تقرب الخمر، يعني كم شراب محرم علينا؟ هناك شراب أصلاً تستقذره نفوسنا، واحد تقول له لا تشرب بول، لكن الخمر فلا تشرب الخمر، لكن كم ترك لك من الأشربة؟ أعطني شجرة واحدة في الأرض هذه محرمة لما هي عليه؟ ما في لا يوجد في هذه الأرض كلها، أعطيني شجرة، لكن الإنسان جاء لما انتفع به وحرقه وسواه حشيش وشرب، جاء إلى الدخان ترك كل شجرات أمريكا والخيرات وأتى بالدخان وما أكلها حتى، وجعل يعني يتفنن في إيذاء نفسه، يضعها هنا حتى إن لشجرة الدخان، يضعها هنا يسموه اللقمة أو كذا نسيت والله فتخرق له تراه يقول لي بعضهم: يرى والده أو جده وقد خرقت قطعة الدخان خرقت هذا كله فنفذت إلى جوفه، يعني كم طرق الحلال؟ أعطيني كم محرمات بيوع؟ طبعا تذكرها أربع خمس محرمات وانتهى الموضوع.

فهذا الوجود ما جرى في السماء جرى لنا هنا، وما يجري بالمعاصي والشهوات وكذا ثم يجري من التوبة، كل الأنبياء عليهم السلام جاءوا ليقولوا ما قال الله لآدم: لا تقرب هذه الشجرة، فقط، كل الأنبياء جاءوا من أجل ماذا؟ يقول لك: نزلت في الدنيا لا تصير مثل أبوك تأكل من الشجرة فتزداد بعداً عن الله، ولكن إذا وقعت فغلبت عليك شهوته، انظر كيف آدم؟ تاب فتاب الله عليه ورضي عنه وأحبه، فارجع، كل ما يجري في الوجود هو هذا المشهد، فإذا فهمنا وفقهناه، فقهنا سر الحياة سر الوجود، فقهنا كيف ننجو.

السائل: ما راجح عند الشيخ في مسألة أخذ الأجرة من صلى التراويح بالناس ويشترط مبلغاً معيناً وهل فيها متسع؟

الشيخ: أما أخذ الأجرة فلا يجوز، الأجرة ننتبه هنا يعني واحد أجر نفسه من أجل أن يقوم بالناس الليل في رمضان فأجر هذا لا يجوز، لا يجوز له وذهب عنه أجر القيام، والصواب هو كراهية الصلاة وراء هذا، من أجر نفسه، وأنا أقول: بالبطلان لكن أكره الصلاة وراء هذا، وربما تصل كلمة الكراهة إلى التحريم، ولكن أكره في الحقيقة أن يصلى وراءه، وأما هو فآثم وليس له أجر، أما الكلام عمن يعني يُجعل له الجعل من غير اشتراطه، فهذا لا بأس به.

فمثلاً: يأتي الرجل من منطقة إلى منطقة يركب وكذا فهذا نعم يُجعل له الجعل الذي يقضي به حاجته لتفرغه يعني لو ترك له الأمر لصلى في مسجد حيه، ولكنه يأتي إلى هنا فيركب ويفرغ وقته وربما يكون في مكان بعيد فيأتي فيجعل له الجُعل، فهذا لا بأس به، أما أخذ الأجرة على قراءة القرآن وأخذ الأجرة على الصلاة وأخذ الأجرة على العبادات فهذا لا يجوز البتة، واضح الفرق بينهما.

فقد يقول قال: فماذا نصنع لهؤلاء الأئمة الآن يأخذون؟ هذه ليست أجرة، من جعل ما يأخذه لإمامة المسجد، الراتب أجرة لصلاته وأجرة لصلاته بالناس وأجرة لإمامته فهذا جاهل وهذا لا يبعد عنه الفسق، ولكن هو لماذا؟ لتفرغه لقيامه بهذا الأمر وعدم قيامه بغيره والتزامه به، ولو ترك الأمر له لصلى في كل مسجد لكنه يحبس نفسه لهذا المسجد، فيأخذ الأجرة لهذا الحبس، وليس للصلاة وليس للإمامة فرق بينهم، نعم سؤال ثاني

السائل: كيف يرد على من طعن في نسبة كتاب «السنة» لعبد الله بن أحمد بن حنبل، وأي كتب السنة أي العقيدة أفضل؟

الشيخ: كتاب «السنة» لعبد الله بن أحمد لا يوجد أحد من طعن به، ولكن طعنوا في مؤلفه في جامعه في مصنفه كما طعن المتأخرون من أمثال الشيخ الكوثري رحمه الله وأمثال بعض المعاصرين يطعنون في عبد الله طعناً شديداً، أما أنهم يطعنون في نسبة الكتاب إليه، أنا لا أعرف أحدًا يعني طعن في نسبة الكتاب إليه، لكن كالعادة المخالفون إما أن يطعنوا في المصنف وهو عبد الله، وعبد الله ثقة ما أحد تكلم فيه بكلمة سوء أو أشار إليه بكذب

أو أشار إليه بوضع أو أشار إليه بنكارة حديث، وعبد الله هو راوي المسند يعني هو الذي روى المسند عن أبيه، وإما أن يطعنوا بشيءٍ آخر وهو الزيادة فيه، يقال يزاد عليه يكذبون عليه ... إلخ، وهكذا، لكن لا أعلم أحدًا طعن في الكتاب من جهة نسبته لعبد الله بن أحمد.

أما أفضل الكتب فنريد أن نعرف يعني هل هو يريد أن يسأل عن ماذا؟ يعني أنا أحب الكتب إلى هو «معارج القبول»، وذلك لسهولته ولجمع الأدلة مع ما فيه من أحاديث ضعيفة، فهذا من أحب الكتب للطلبة المبتدئين، أما من يريد مسائل محددة أو مناظرة المخالفين في مسائل، هناك كتب خاصة بهذا وأما للمبتدئ فأنا أنصح بكتاب «معارج القبول» للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي رحمه الله.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الأربعون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

هذا هو الدرس الأربعون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» وكنا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)﴾ [البقرة: ٣٤]، فقط هنا أنه لو لم يذكر الاستكبار لكان ثمة مجال لتفسير الإباء بأنواع متعددة أبى، وكما تعلمون فأن الله عز وجل قال: ﴿فَأَبَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، أي رفضن، فالرفض قد يكون له أسبابه قد يكون العجز، ونحن قلنا أن الإباء هو شرح لعمل الظاهر والاستكبار هو شرح لعمل الباطن، فالمعصية التي اقترفها إبليس يمكن في ظاهرها أن تفسر بكثير من التفسيرات، لكن لما قال الله عز وجل: ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾، دل هذا على القطع، بأن أمره هو منازعة الله عز وجل في أمره.

قوله تعالى هنا: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)﴾ [البقرة: ٣٤]، إن بعض الإخوة سأل هل هذا يدل على أنه كان بمعناها الماضي هذا وجهٌ من وجوه التفسير عند العلماء، هناك تفسيران لها:

التفسير الأول: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أي كان في علم الله أنه كافر، وهنا بيان في قوله تعالى: ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾، فهل كان هذا من الأمور التي ينبغي أن نحذرها؟ وأن يكون ثمة أمراض في قلوبنا خفية فإذا جاء البلاء والامتحان ظهرت وبانت، وهذا يعني يدعونا بأن نتقي الله عز وجل وأن نخاف العاقبة، وأن العلماء الصالحين كانوا يخافون العاقبة كثيراً لأن العاقبة فيها الامتحان ولأن الزمن مليء بالامتحانات فلا يدري المرء ماذا يأتيه من الأوراق التي فيها الابتلاءات، فينجح أو يرسب أو يخسر، فإبليس هذا الكبر كان خفياً في قلبه، وهذا هو إحدى المعاني، أن الكبر كان خفيًا في قلبه ولم يمتحن فيه.

ومن رحمة الله عز وجل ألا يمتحن المرء، بل على المرء ألا يمتحن نفسه وهنا يحضرني كلمة لشيخ الإسلام ابن القيم في مدارس سالكين سألها شيخه ابن تيمية هل يمتحن المرء نفسه كاشفاً عن عيوبه ليعالجها؟ هذا مدار الكلام في المدارج، فقال له شيخه: بأن الأصل أن تسلك ولا تلتفت فإن الكشف عن مساوئ النفس كالذي يمشي إلى مستقره إلى حاجة إلى هدف، وعلى جانبي الطريق أوساخ مستورة بالتربة فلو أنه انشغل بإصلاح القاذورات التي يمر عليها لما

وصل، فعلى المرء ألا يكتشف نفسه، يعني إلا يمتحنها ويدعو الله عز وجل إلا يبتليه؛ لأن المرء إذا زعم شيئاً لابد أن يبتلى هذه سنة الله، من قال: أنا متواضع لابد أن يبتلى بما يكشف الأمر.

كحال موسى عليه السلام لما ابتلاه الله عز وجل، عندما سألوه: من أعلم الناس؟ قال: أنا؛ فابتلاه الله عز وجل، فلا يقول المرء كلمة إلا ويبتلى، يقول: أنا كريم؛ سيبتلى، ويقول: أنا شجاع؛ سيبتلى، فالمرء عليه أن يستر نفسه وأن يدعو الله سبحانه وتعالى دعاء المستغيث به والباكي بين يديه، ألا يبتلى وألا يمتحن وأن يستره لئلا يكشف فيفضح.

فقال له شيخه: الحال الكاشف عن أمراضه كحال الكاشف عن جنبتي الطريق وفيها الأوساخ المستورة بالتربة، فكلما مر كشف عن الأوساخ وانشغل بإزالتها، فأنه لن يصل إلى مستقره ولا يصل إلى غايته، والمرء عليه أن يمضي ولا يلتفت فإذا جاء الابتلاء واجهه فليصبر وليحتسب وليؤدي أمر الله عز وجل في هذا الباب.

إبليس كان فيه الكبر، هل هذا الكبر يحاسب عليه؟ لا يحاسب عليه، لأنه لا ابتلاء فيه ولم يظهر له أثاره، لكن لما ظهر خلاص صار محقوقاً به، صار مُحاسباً عليه، ومن هنا فهذا هو القول الأول: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أي وكان في علم الله أن يكون كافرا؛ بما فشل فيه من الامتحان في بيان يعني امتثاله لأمر الله عز وجل.

وهنا باب يعني لابد أن نأتي إليه وهو ذكرته في الجملة فإن الحال الذي يوصف عليه إبليس قبل الابتلاء أنه كان عابداً مشهورًا بعبادته فارتقى في أمر عبادته إلى أن يخاطب بخطاب الملائكة، وهذا القول الذي اخترناه، بأن إبليس من الجن لكنه عبد الله عبادةً رفعت منزلته أن يخاطب بخطاب الملائكة، انظروا أنه لما كان الأمر أتياً من نفسه في عبادته كان سابقاً، ذلك لأن إبليس كان يسعه ألا يصل إلى هذه المرتبة، يمكن، أي هذه العبادة التي بذلها ليست من الواجب، وإنما هي من المستحب له، فبالمستحب بلغ الولاية، لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه)، فالولاية يبلغها المرء بالنوافل، فإذن إبليس بلغ إلى هذه المرتبة بالنوافل والمستحبات وكان يسعه أن لا يأتي هذه النوافل فيكون عابداً ويكون صالحاً ويكون مسلماً.

فلما كان الأمر من جهة نفسه كان مقبلاً، ولما جاء الابتلاء من غيره كان فاشلاً وخاسرًا، يعني في العبادة التي يأتيها من جهة نفسه أتاها من جهة نفسه راكضاً، لكن لما جاء إليه الأمر بأن يسجد رفض، فدل هذا على مشقة الأمر الذي يأتي من الفوق، مشقة الأمر، العبادة قد يأتي المرء إليها من جهة نفسه، يقوم بالعبادات من جهة نفسه، فإذا ابتلي ربما يخسر، وهذا نراه في الأولياء والصالحين، نراه في حياتنا، وحينئذٍ أنت تتعجب!!

ونحن نريد هنا توظيف ما نعلمه من الآيات في واقعنا وهذا هو المهم من قراءتنا لكتاب ربنا، من أهم وهي مهمات كثيرة، أما أعظم مهمة أن نتعبد الله في قراءتنا لكتابه، وأعظم المهمات أن نتدبر ما يقوله ومن مهمات قراءتنا لكتاب ربنا وتدبر فيه أن نوظفها في حياتنا، هذا يفسر لك حال الكثير من العابدين، فإنك تجده في نفسه عابداً،

تجده في نفسه قائماً لليل مصلياً ذاكراً صائماً للنوافل، فإنه إذا ابتلي من جهة الأمر في قضية وجوده في جماعة أيتنازل عن رأيه مقابل رأي إخوانه؟ تجده شيطاناً رجيماً، وهذا نراه، هذه الحالة الشيطانية الإبليسية التي نحن فيها، تفسر لنا هذه الحالة البشرية التي يتشبه بها البشر لإبليس.

فتجد رجلاً عابداً فإذا امتحن بشيءٍ زائدٍ عما يأتي من جهة نفسه وإنما من جهة غيره كالأمير أو الأب أو الأم أو الأخ والصديق فإنه ينفر ولا يأتي هذا العمل، ويكون هذا العمل في طاعة الأب وطاعة الأم للوالدين وطاعة الأمير وهو واجب فإنك تجده ينفر، وهذا الذي يكشف حال الكبر في نفس العبد، بل إذا طلب بالحقوق من جهة غيره لم يؤديها، وإنما إذا جاءت من جهة نفسه يتقرب بها ويفعلها؛ فدل هذا على أن أعظم العبادات ما شرحه الحديث، ماذا شرح الحديث؟ أحب ما يأتي العبد لربه ما افترضه عليه وأحب ما يأتي العبد أن يأتي بالواجبات؛ ذلك لأن الواجبات تأتي من جهة الغير الأمر من جهة الغير، والنوافل تأتي من جهة النفس.

فمراتب الواجب والمستحب هذا خلاف فيما هو الشرع، هذا شيءٌ آخر، وهو أنه ما أتى العبد به من نوافل من جهة نفسه وما أتى من الواجبات من جهة الأمر، فإبليس كان يأتيه بالنوافل من جهة نفسه، فإذا جاء الأمر كما رأينا استكبر، هذا الكبر الخفي، لا يحاسب المرء عليه إلا إذا أظهره وبان له، وذلك على المرء أن ينتبه.

أيها الإخوة الأحبة هذا إبليس طيلة حياته وهو على معنى العبادة فجاء أمرٌ واحد فشل فيه، ولذلك احذر أن يكون يومك هذا الذي أشرقت عليه الشمس أن يكون فيه ابتلاء على هذا المعنى فتفشل، كل أمرٍ يأتيك وكل حدثٍ يقع عليك كل خبر يقع على أذنك انظر إليه على هذا المعنى أنه ابتلاء وامتحان، كل أمرٍ يقع خبر وحاله تقع في بيتك مع إخوانك في عالمك كل يومٍ يقع لك الاختبارات فإياك أن تخسر كما خسر إبليس، العالم يأتيه الابتلاء الحق يكتشف الحق في مسألة، المرء يأتيه الحق من جهة خصومه، هذا ابتلاء ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، إياك وهذا، هذه المنزلة.

فالقول الأول: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)﴾ [البقرة: ٣٤]، إياك أن يكون قد سبق عليك الكتاب بهذا المعنى، فعليك أن تخاف، لا يقول أحد: أنا خرجت، كما قلنا: عن عبد الله القصيمي، قالوا عنه: أخذ جواز السفر إلى الجنة في كتابه هذا، وما دروا أنه سيموت ملحداً كافرًا إلى جهنم وبئس المصير، وهذا هو شأن إبليس إذا هذا التفسير الأول ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أي فيما سبق من علم الله فيه أنه من الكافرين، فجرى القضاء على ما كتب في القدر، هكذا قدر الله عز وجل فجرى القضاء في وقوع الأمر على ما قدر الله عز وجل.

التفسير الثاني: وكان هنا بمعنى وصار، أي وصار بفعله هذا من الكافرين، لأن كان تأتي بمعنى صار وكان أي بفعله هذا أي وصار بفعله هذا من الكافرين، فهذان قولان للعلماء في هذه المسألة.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ [البقرة: ٣٥]، ما زال الخطاب خطابٌ علوي ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ﴾، على الرغم أنه خطابٌ فيه تكريم أنه أدخله الجنة للكرامة لكن كذلك فيه خطاب تكليف، هذا الخطاب الرباني له هو خطاب تكريم أنه أدخله الجنة لأنه يستحقها، مع أن الله عز وجل قال في البداية: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وهنا نأتي إلى مسألة كثر فيها المقال ولا تجد عالماً يفسر هذا الموطن من القرآن إلا ويبحث فيه مسألة الجنة، أي أهي الجنة التي سيدخلها المؤمنون يوم القيامة، أم أنها جنة أخرى كقوله عز وجل عن أصحاب الجنة في سورة «ن»، ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧]، فالجنة هنا أرضية، وكذلك في قوله سبحانه وتعالى في سورة «الكهف»: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ [الكهف: ٣٢].

والقول الأول: لا، هي الجنة المعهودة التي إذا خوطب بها المسلمون في كلمة الجنة، وهنا اللام العهدية يعني الجنة فإنها لا تنصرف أذهانهم في الخطاب إلا لما سيؤول إليه المؤمنون بعد الحساب، فهنا مسألة ما هي الجنة؟ هذه مسألة كالمسائل التي تقدمت تفيدنا في النظر في السنة وتفيدنا في امتحان عقولنا وتفيدنا في الاستنباط والنظر والحجاج العلمي الذي يبين به وجه الحق.

وأما ما يترتب عليها من معاني فلها وجه غير ما تقدم، نحن قلنا: مثلاً بعض المسائل ربما لا يترتب عليها كبير معنى، المسائل التصورية والعلماء الأصوليون يقولون: «كل مسألة لا يترتب عليها عمل، فهي مسألةٌ من ملح العلم وليست من أصوله ولا من مهماته»، والمقصود هو كلام الأصوليين وليس الكلام مطلقاً، فهناك مسائل لا يترتب عليها عملٌ بدني لكن يترتب عليها عمل قلبي، وهذا لا يقصده الأصوليون، الأصوليون يتكلمون عن المسائل العملية، التكاليف الظاهرة لا يتكلمون عن التكاليف الباطنة، يعني أنت لا تجد في كتب الفقه مسألة تتحدث عن الحب، تتحدث عن الأماني، وإنما في كتب الفقه التي يتحدث عنها الأصوليون يتحدثون عن العمل الموجه إلى الأبدان.

فلذلك يقولون: كل مسألة أي في الأصول لا يترتب عليها عمل فهي ليست من أصول العلم، وإنما هي من مُلح العلم، وهذا خاص بهم ولكن علينا أن ننتبه أن هذه القاعدة لا ينبغي أن تنطبق على كل مسألة، لأن بعض مسائل التصور ليس لها كبير دور في عمل المرء أي لا يترتب عليها فقه عملي أفعل أو لا تفعل، أو مرتبة الفعل هل هو واجب أو مستحب أو مثلاً مباح، لكن هناك ثمة مسائل خارج مباحث الأصوليين لها تعلق بالقلب ولها تعلقٌ بأعمال القلوب.

هذه مهمة؛ لئلا نطبق قواعد الأصوليين التي قلناها من مما ذكرها الغزالي ذكر هذه المسألة وأفاض فيها الشاطبي في «الموافقات» أن كل مسألة لا يترتب عليها عمل فهي من مُلح العلم وليست من مهمات العلم ليست من أصوله،

لكن هذه المسألة ينبغي أن تطبق على ما نحن فيه، لأن هناك مسائل من التصورات ما لها أثر على مسائل الفقه العملية فيما ذكرنا: حلال، حرام، واجب مستحب، مكروه، حرام، لا تعلق لها بالأعمال في حكمها وإنشائها، وليس لها تدخل في مراتب هذه الأعمال، لكن لها تدخل في أعمال القلوب التي هي من أعمال الشريعة ولا يذكرها الفقهاء ولا يبحثونها، هذه مسألة مهمة علينا أن نهتم لها ولذلك تجد الكثيرين من بعض أهل العلم، يأتي إلى المسائل التصورية التي يقولها القرآن ويقول: لا يترتب عليها عمل فيطبق قواعد الأصول على قواعد التفسير، وهذا خطأ، هل هذه المسألة يترتب عليها عمل؟ سنرى.

وقبل أن نبحث هذه المسألة نبحث هل حقيقة الجنة التي أخرج منها آدم عليه السلام هي جنة الخلد؟ أم أنها جنةٌ أرضية على ما يقول؟ يحاول بعضهم وأنا بحثت في هذه المسألة فلم أرى هذا الوجه وإن قاله القرطبي رحمه الله، القرطبي حاول أن يجعل هذه المسألة قسمةً عقائدية بين المعتزلة ومن معهم ولكن الأساس هم المعتزلة وبين غيره من أهل السنة، وبعض المفسرين كذلك يقولون هذا، كيف؟ يقولون: بأن المعتزلة ومن معهم هم الذين يقولون بأنها جنةٌ أرضية، وأن أهل السنة يقولون: بأنها جنة الخلد السماوية، وهذه قسمةٌ غير صحيحة، في الحقيقة نعم المشهور عن المعتزلة كذا ولكن الكثير من أهل السنة يقولون مع المعتزلة: في أنها جنةٌ أرضية على ما تقدم ذكره، والكثير كذلك من غيرهم يقولون: بأنها جنةٌ سماوية.

الأدلة كثيرة جدًا ويكفي أن ابن القيم في «حادي الأرواح» استفرغ الكثير من الصفحات في بحث هذه المسألة، وأوسع الكتب بحثاً وجلباً للأدلة ومناقشتها هو ما فعله ابن القيم في «حادي الأرواح»، ومن الصعب في تفسير آية نمر عليها لما بعدها أن نستوعب كلما قاله ابن القيم، من الصعب، وكذلك في كتابٍ آخر له ذكرها ولكن ليس بتوسعه في «حادي الأرواح»، هو «مفتاح دار السعادة»، بحث هذه المسألة في «مفتاح دار السعادة»، وكأنني رأيت أنه فتح هذه المسألة في «مفتاح دار السعادة»، فرأى أنه لم يستوعبها فذهب إلى «حادي الأرواح» من أجل أن يستوعبها كعادته رحمه الله.

وابن القيم معروف كعادته أنه إذا أتى للمسائل أتى بها على وجهها التام، مع أنه في كثير من المرات يتركنا في حيرة، وفي هذه المسألة تركنا في حيرة، يعني لم يأتي بقولٍ يقضي به، ناقش هؤلاء وناقش هؤلاء وفي النهاية تركك لتختار بين القولين، هل فعل هذا من قبل في غير هذا الموطن؟ نعم، ابن القيم في «أعلام الموقعين»، أعلام، ولكن ليس جمع علم بمعنى شخص وعالِم، أعلام يعني بمعنى أسماء الأعلام الموقعين عن رب العالمين وليس هذا مراده وإنما الأعلام أي الصور والمنارات التي بها يهتدي الموقع عن رب العالمين، هذا هو الوجه الصحيح لهذا الكتاب.

القصد: بأنه أتى إلى كتاب القياس مبحث القياس، وفيه من رسالة أبي موسى الأشعري هو أتى بجراميزه كما يقول هو، وأتى بأقوال النافين للقياس وبأقوال المثبتين ثم انتهى إلى تركنا على حيرة، مع أنه يقول بالقياس ولكنه حين بحث المسألة من جهة أصولية وقف على شاطئها ويقول: يكفي أننا أمام هاتين الموجتين العظيمتين من أدلة كل قوم.

باختصار ما هي أدلة كل فرقة؟ لتقوم أدلة القائلين على أنها جنةٌ أرضية على مسألةٍ يسيرة وهي أن الجنة التي وعد بها المتقون أنها جنة الخلد، وأن الناس فيها لا يموتون ولا يحيون، وكل ذلك يدور حول هذا المعنى، يعني الجنة حين يدخلها الناس لا يخرجون منها وآدم قد أخرج منها، طيب جنة الآخرة لا ابتلاء فيها وآدم قد ابتلي بها، جنة الخلد دار جزاء وهذه دار ابتلاء وامتحان، يدور حول هذا ولهم احتجاجٌ آخر، وهو قوله صلى الله عليه وسلم عن الجنة: (فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر)، انظروا إلى قوله: (لم تخطر على قلب بشر) (وفيها ما لا عين رأت) ما لا عين، فآدم وحواء نظرا ورأيا الجنة، وأكلا منها، لماذا لا يخطر؟ لأنهما قد عاشا فيها، هذا تقريبًا هو مجمل ما يقولونه في الباب.

أما الذين يقولون: بأنها أي الجنة هذه التي أسكنها آدم أنها جنة الآخرة، اللفظ يدل عليه ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، أي جنة هذه، فإذا خوطب أهل الإسلام بهذا اللفظ فإن اللفظ في داخل كتاب ربنا لا يصار إلا إلى المعهود إلا إذا وجدت قرينة، فأين القرينة؟ فقوله تعالى: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، فإن المخاطب بها في كتاب ربنا لا يصير إلا إلى الجنة المذكورة في الكتاب، فهذا المعهود الذي يعهد فيه الخطاب، يعني إذا قال: الجنة لا تنصرف إلا إلى جنة، فلو قال عبدٌ «اللهم أسألك الجنة» فأين ينصرف ذهنك؟ إلى الآخرة فهناك قول: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾.

الدليل الثاني: وهو الحقيقة أنا أعتبره هو الدليل القاطع للمسألة وهو قوله صلى الله عليه وسلم في حديثين الحديث الأول وهو حديث الشفاعة، لما يأتي أهل المحشر إلى آدم ليشفع لهم عند ربهم ببدء الحساب، فيقول: إن الله غضب ... الحديث ... وقال: (وأنا الذي أخرجتكم من الجنة)، فالحديث: أنا الذي أخرجتكم منها فكيف أعينكم على العودة إليها، أنا لا أنفع لهذا، وكذلك قول موسى عليه السلام له في حديث الحجاج محاجة آدم لموسى، قال: (وأنت الذي أخرجتنا من الجنة)، فهنا نرى أن ثمة الجنة هي التي يتحدث عنها موسى عليه السلام وتحدث عنها قبله آدم عليه السلام فيما ذكرنا من دليل على أنها الجنة التي هي الأخروية.

الذي أعتقده هو القول الثاني وأنا لي أدلة أخرى غير ما ذكروا وذلك لأن هذين المشهدين في هذه السورة يبينان ما قلته في درسٍ فائت، يبينان حركة الحياة بأجماعها ويبينان ما عليه الإنسان ابتداءً وانتهاء.

تعالوا: الله عز وجل بين مقصد خلقة الإنسان وقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، طبعاً الآن تذكرت دليل ثالث لهم الذين ينفون وهو أنه يقول للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فكيف يكون دخول الجنة، هكذا قالوا، ومذكورٌ في بعض كتبهم.

أعود انظروا إلى هذين المشهدين على اشتمالهما على الحياة ابتداءً وانتهاءً، الله عز وجل بين مقصد خلق الإنسان فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ثم بين فيه أهمية هذا الإنسان لهذا الوجود، اسجد له الملائكة، أعطاه أدوات الاستخلاف وذلك بالعلم والفهم والعقل والإبانة، القدرة على الابانة، أنه يبين عن نفسه والعلم، أنه جعله سيد هذا الوجود بالنسبة للملائكة يخدمونه أعطاه، يعني ماذا سيفعل في هذه الدنيا، ثم بيّن عوائق هذه العبودية وهي ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أن يكون عبداً لله في هذه الأرض، بين له العائق، من هو؟ عدوه إبليس، بين له عدوه، أبان له، طيب أين المستقر؟ بيّن له ماذا سيقع له من عداوة وما سيقع له من محن وابتلاءات فأين المستقر؟ بيّن له الابتداء فأين المستقر والنهائي؟

المستقر هو هذا في قوله تعالى: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، هذا هو المستقر، ويكفي أن نعلم بأن النص شاهدٌ عليه، أن آدم تحدث أنني أنا أخرجتكم من الجنة فلو كانت لمجرد جنة دنيوية لما كان في ذلك تكريم، ثم بعد ذلك لو أنها جنة دنيوية لما قال: ﴿اهْبِطْ﴾، لو لم يكن في العلو لما قال: ﴿اهْبِطْ﴾.

وأما احتجاجهم بأن الجنة الأخروية لا ابتلاء فيها فكل هذا مقدورٌ عليه، ذلك لأنه دخل الجنة فقال له: كُل من كل شيء ليقع الابتلاء، والآن نعلم أن إبليس دخل الجنة، وكان في السماء ومع ذلك أنزل، ومع ذلك أهبط وطرد، الجواب: فكون أن هذه الجنة فيها ابتلاء هذه لوقتٍ، ووقتٍ محدد ثم يرتفع هذا الأمر، هذا لا يمتنع عن الله عز وجل أن تكون هذه الجنة العظيمة التي كلها رغد وكل ما فيها نعيم ثم يجعل الله عز وجل فيها شجرة –وسأبين رأي ما هي الشجرة فيما سيأتي في قولٍ جديد، لم يذكره المفسرون وأرجو أن أكون مصيباً في ذلك– أن الله عز وجل يجعل شجرة هناك فهذه الشجرة من أجل الابتلاء ثم إذا جاء أهل الجنة إليها سحبت هذه الشجرة، فلم يبق فيها ابتلاء.

ثانياً: بلا شك ابن القيم في شعره يبين أن هذه الجنة هي الجنة، التي وعد بها المتقون.

فالقصد: بأن تكون هناك شجرة ثم تزال هذا ليس بعيد عن الله عز وجل ولا يمنع مما وصف، هذا الذي عندي في هذا الباب، والذي يريد أن يبحث يجد المباحث كثيرة هناك ولكن يكفي أن نقول هذا.

لو أراد أحدهم أن يبّين ما هي فائدة هذا الخلاف، الذي أعتقد لو كانت جنة دنيوية لما كان في ذلك شوق، لو أنها الجنة دنيوية التي أخرج منها آدم عليه السلام لما كان فيها الشوق أن نعود إليها، ولكن أن يكون والدنا وأبونا

آدم عليه السلام دخلها ثم أخرجها هذا مدعاة للشوق أن نعود إليها، وأن نعمل من أجل العودة إليها، والله تعالى أعلم في ذلك.

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ﴾ [البقرة: ٣٥]، قوله تعالى: ﴿اسْكُنْ﴾، على ما فيه من معنى بيّن في ذهن السامع إلا أن فيه كذلك السكن، فدل على أن هذه الجنة ليس فيها فقط طعام ورغد العيش، ولكن فيها شيءٌ زائد وهو السكن، فربما يكون الناس عندهم الطعام والشراب ويأكلون ويتنعمون لكن لا يشعرون بالسكن فقوله: ﴿اسْكُنْ﴾، دل على أن هذه الجنة هي دار سكن والسكن يعني النعيم النفسي، بيان النعيم النفسي.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، في هذا دليل أيها الإخوة الأحبة وهو القول الصواب في المسألة لأن هناك من قال بغيره على أن الله عز وجل خلق زوج آدم التي هي حواء، خلق زوج آدم عليهما السلام قبل أن يدخل آدم الجنة، وهذا ردٌ على التوراة، وممن قال بالقول الآخر ربما تأثر بالتوراة لأنه ليس لهم ما يشهد لهم من النصوص، إنما هي أخبار إسرائيلية، التوراة تقول: بأن آدم دخل الجنة فشعر بالوحشة من عدم وجود أنيسٍ له وكان يحب الأنس كما هو شأن الإنسان، فالله عز وجل أكرمه بأن خلق له حواء، فهذا الدليل على أن –من كلام التوراة– أن حواء خُلقت لآدم في الجنة لحاجته إليها.

وهذه الآية كما هو بيّن ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، فدل على أن حواء خُلقت قبل أن يدخل آدم الجنة، هنا مسألة وهي المنتشرة عند الناس وهي عندي غير صحيحة ولا تامة، وهو أن حواء خلقت من ضلع صدري أو جنبي آدم عليه السلام، وهذا لا دليل عليه، هذا يقولونه، ويأتوا إلى حديث: (اسْتَوْصُوا بِالنِّساءِ؛ فإنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِن ضِلَعٍ، وإنَّ أعْوَجَ شَيءٍ في الضِّلَعِ أعْلاهُ)، ألا يستطيع الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يقول: خلقت من ضلع آدم، فلماذا نذهب إلى التوراة أو إلى كلام أهل الكتاب الذي لا نصدقه ولا نكذبه من أجل أن نقول: بأن حواء خلقت من ضلع آدم، والذي عندي أنها خلقت مما خُلق منه آدم عليه السلام، ونفخ فيها من روح الله عز وجل كما نفخ في آدم. فلا دليل.

في الحقيقة (خُلقت من ضلعٍ أعوج)، الله عز وجل أعلم أنه لما خلقها، خلقها على هذا المعنى، وانتبهوا إلى قوله صلى الله عليه وسلم: (وأعوج)، العلماء أهل السنة لا يحبون التأويل، ولكن يسمون اللاحق له مبينة ومفسر، ذلك مثل حديث: (مرضت فلم تعدني)، فهذا ربما يأخذه أهل وحدة الوجود، فماذا رد عليهم العلماء؟ ردوا عليهم بنهاية الحديث، وذلك بقوله في الحديث: (ولو زرته لوجدتني عنده)، فعلمنا أنه ليس العبد المريض هو الله، هذا نقاش بين أهل ما يسمى بالمجاز أموجود أم لا؟ يقولون: في نهاية الحديث يفسر أوله.

وهنا نحن نأتي إلى الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (خلقت المرأة من ضلع أعوج)، فلو كان المقصود هو الخلقة البدنية لانتهينا خلاص، خلقت من ضلع أعوج، وحين نبحث فإننا لا نجد في المرأة أي شيءٍ من الاعوجاج البدني الذي يخالف خلقة الرجل، لو كان الحديث عن أمرٍ بدني لأنهم يقولون: خلقت من ضلعه، فالضلع أعوج، فحواء خُلقت من ضلعٍ أعوج فهي عوجاء، إذن ينبغي الحديث أن يكون في الكلام عن بدنها وأن يكون هناك ثمة اعوجاج في خلقتها، وهذا غير موجود لا نعرفه، وربما لو وقفنا هنا لقلنا الله أعلم به، ولقلنا: ثمة هناك اعوجاج لا نعرفه، يعني لو بقينا على الظاهر من غير مجاز بين قوسين (من غير مجاز) من غير تفسيرٍ له على غير ظاهره، لقلنا: في النهاية أن فيها ثمة اعوجاج في خلقتها لا نعرفه، (خلقت من ضلعٍ أعوج) فهي عوجاء أي فيها عوج أي في بدنها، فلو قال أحدهم: أين الاعوجاج في بدنها؟ لقلنا الحديث هكذا يقول ولا ندري، ولا نعرف ونسلم له.

لكن أن يختم الحديث بقوله: (وأعوج ما في الضلع أعلاه)، ثم يأتي الحديث (فإذا ذهبت تصلحه كسرته)، وكسرها ماذا قال؟ طلاقها، إذن الحديث عن أخلاق، وليس الحديث عن أمرٍ بدني، ويكفي بهذه الرد.

إذن: (خُلقت المرأة من ضلعٍ أعوج)، المقصود به خلقتها في نفسها وتصوراتها وضعفها وحاجتها واختياراتها إلى غير ذلك، ويكفي أنها بالفعل أنها عوجاء في ذلك أن الله نزع منها الطلاق، نعم أعطاه حق القبول لكن الطلاق ليس للمرأة في شيء، ولما أعطيت المرأة حق الطلاق في الغرب انظروا المفاسد، لا يكاد بيت يستقيم.

فالمقصود بالحديث أن المرأة خلقت من ضلع أعوج ليس المقصود به الحالة المادية، وليس المقصود به التكوين البدني، المقصود به شيءٌ آخر وهو (إن ذهبت تصلحه)، ما هو تصلحه؟ هل هو شيء في رأسها، هل هو شيء في بدنها، كسرته قال: (وكسرها طلاقها)، كسر هذا الاعوجاج الطلاق، فدل هذا الحديث لا، لم تخلق لا من ضلع مادي، إنما هو حديثٌ عن الأخلاق، حديث عن الخلقة الفطرية فيما يتعلق من اختياراتها، إن اختياراتها إنما هي عوجاء فيها عوج هذا هو المقصود به، وليس شيءٌ آخر، فالقول: بأنها خلقت من ضلع آدم هذا زدنا عليه انظر الضلع تبين لنا أنه شيءٌ آخر، فإذا زدنا عليه آدم جئنا من عندنا، والحديث كان يكفي أن يقول: خلقت من ضلع آدم، إنما هو من تأثيرات التوراة على تفسيراتهم.

الأمر الثاني في هذا الباب: وهو أن القرآن يذكر دائماً الزوجة لاحق، ولا يذكر اسمها وهذا هو الواقع وهذه هو الحياة، يجب على المرأة أن تعترف، يعني المرأة حين تبحث لأن تكون حاضرة في الوجود نقول لها: ليس لك حضور، عندما الله خلقك وخلق آدم وحدثت الفتنة، الله عز وجل رحمك فلم يذكرك إلا على سبيل التبعية، ثم لما وقعت المعصية لم يُحملك إياها كما حملتك التوراة، التوراة تقول: سبب كل المعصية حواء، هي التي أغوته وهي التي أقنعته وهي التفت عليه، وهي سبب الفساد، ولذلك عندهم المرأة فاسدة وهذا باطل، لا يوجد قط في تاريخ البشرية ما

يثبت أن فساد العالم يقوم على المرأة، نعم هو فساد الرجل في المرأة، (هلكة بني اسرائيل في النساء)، لا لأن النساء فسدن بل لأن الرجال فسدوا.

ولذلك قال الله عز وجل: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧)﴾ [طه: ١١٧]، هو العمل عليه، المرأة ليست محملة لما يقع في الوجود، المرأة ما ترونه هو بسبب انحسار دين الرجل فامتد فساد المرأة فهذا هو السبب، وأما من يُعلق من الجهلة قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ [النور: ٢]، بأن الله قدم الزانية لأن الزنا هو فعل المرأة أكثر من فعل الرجل، فهذا من أبطل الباطل وأجهل من يقول به لا يعرف التاريخ، لأننا لما نقرأ التاريخ ونرى الفساد الذي يحصل من هذه الجريمة الشنيعة التي هي الزنا، لا نرى أن المبعث هو النساء نرى المبعث هو الرجال، الرجل هو الذي يأتي المرأة، لا تنظروا إلى حالة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز لا تنظر إليها كحالة متطردة، هذه حالة مركبة أصلاً على الباطل، كيف مركبة على الباطل؟ يكفي أن نعرف لما وقعت الفاحشة منها، ماذا قال لها زوجها؟ قال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ [يوسف: ٢٩]، هذا مقدار ما أتى به هذا الفاجر، مقدار ما أتى به أن قال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾، انظر فأين الفساد في المرأة أم في الرجل؟ الفساد في الرجل، وأبقى النار بجانب الوقود، بجانب «البنزين»، يعني هذا أي الفساد؟ لو أخذها وحبسها وأخذه وأبعده، ولكن الفساد لم يقع منها، الفساد وقع من الرجل لم يطبق فيها ما ينبغي من الحكمة، وهو إبعاد هذا الرجل عن هذه الزوجة وقد ظهر له البينات، فالفساد في الرجل.

فقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ [النور: ٢]، لماذا قدمها؟ ذلك لأن الجرم الواقع من المرأة أشد من الجرم الواقع في الرجل، وهذا تحذيرٌ لها أن غيرها إنما هو ذئب يريد أن يقتنصها فاعلمي أنه لو وقع الفجور لكان فجورك متعدياً بخلاف فجور الرجل، المرأة إذا فجرت في المعصية فإنها لا تصيب نفسها فقط، تصيب زوجها تصيب والدها تصيب ابنها تصيب عائلتها عشيرتها، فلذلك قدم الله أمرها لأهمية هذا الوقوع، هذه الفاحشة إذا وقعت من المرأة لأنها هي أهم، فيقول لها انتبهي القرآن يقول: الفجور منك أكبر، فانتبهي ذلك لأنه يقتنصك يريد الاقتناص هذا الرجل.

فلذلك أيها الإخوة الأحبة غياب المرأة، غياب المرأة حواء في هذا المشهد والخطاب كله لآدم بل في سورة «طه» يجعل أن الخطاب له، قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧)﴾ [طه: ١١٧]، الخطاب له، ثم إياك أن تشقى أنت الذي تشقى، ثم جعل المعصية متعلقة به ﴿وَعَصَى آدَمُ﴾، عصى ما ذكرها، ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢)﴾ [طه: ١٢١-١٢٢]، كأن المرأة غائبة وهذا هو حقيقة الوجود، يجب على المرأة أن تعترف، فإذا برزت للوجود حصل الفساد، حينئذٍ تحلى رجل عن مسئوليته حصل الفساد.

وهذه مسألة مهمة ومما ننتفع به في قضية خطاب القرآن بأن المرأة هي ظل الرجل في الوجود، ويجب أن تعترف بهذا، فإذا حاولت غير ذلك انتكس الوجود وحصل الفساد، هذا أمر مهم جداً في هذا الباب.

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، انتهينا، قوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]، هنا «من» للتبعيض، فلما يقول: ﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾ وقد يقال: بيانية، أي كلو من نوع الجنة ما تشاؤون، فإذا قلنا بأنها تبعيضيه فألغى الله ما يطرأ على النفس من تبعيضها من عدم تمام النعمة في قوله: ﴿رَغَدًا﴾، لو أخذناها على معنى التبعيض، ﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾ أي من بعضها فإن هذا حاصرٌ للنعمة ومقيدٌ لها وباعثٌ للنفس حين تسمعها على التقييد وعلى الضيق، فجاء القرآن لاغيًا لما يحصل في النفس من هذا المعنى فقال: ﴿رَغَدًا﴾.

طيب في سورة «الأعراف» الله عز وجل قال: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [الأعراف: ١٩] هناك قال: ﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾ [البقرة: ٣٥]، الواو عند العلماء على الصواب لا تفيد الترتيب وإنما تفيد مطلق الجمع، لكن في سورة «الأعراف» الفاء جاءت للتعقيب، فقال تعالى في سورة «الأعراف» ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: ١٩]، ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ ولم يقل: رغدا.

أولاً: لماذا الفاء هنا، ولماذا لم تأتِ الفاء هناك؟ تذكروا أن سورة «الأعراف» هي سورةٌ مكية، وسورة «البقرة» هي سورةٌ مدنية، كأن القرآن قد اكتفى أن ﴿فَكُلَّا﴾ هذا الترتيب أن الدخول ثم بعد ذلك يحصل الأكل فقد اكتفى القرآن بذكره في سورةٍ تقدمت، وهي سورة «الأعراف» وتقدم فلا ضرورة لأن يذكره على كل حال، وهذا نجده القرآن يقدم ويؤخر، فإذا جاء إلى البيان الذي فيه تقديم التأخير أظهره ظهورا بينًا، وإذا لم يكن هناك ثمة قيمة للتقديم والتأخير فإنه لا يهتم بعد ذلك بذكره، كما أن الله عز وجل قدم ثمود على عاد في مواطن، لماذا؟ لأن هذا لا يضر وقد قدم عاد في مواطن بينة أن عاد قبل هود، وهذا بين في سورة «الأعراف».

مثلاً: عندما قال الله عز وجل عن قوم ثمود ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [يونس: ١٤]، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤]، فخلاص ثبت هذا فما ضرورة إلى أن يذكره في كل مرة هذا وجه.

الوجه الثاني: أن سياق الحديث في سورة «البقرة» هو سياق ذكر النعم، فحين يكون ذكر سياق النعم لا ضرورة للتقديم والتأخير إنما يريد أن يبيّن النعم له، فهو يريد أن يذكر نعمة الله على آدم فلا ضرورة أن يعد، أنت تعد ربما تقول: أنا أعطيتك المال وأنا ربيتك صغيراً، لأن المراد به ذكر النعم وليس المراد ترتيبها وهذا بخلاف سورة «الأعراف» فإنه أراد أن يبيّن ترتيب النعم، ماذا حصل في النعم.

لكن السؤال لم يذكر رغدا في سورة «الأعراف» وإنما قال: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [الأعراف: ١٩]، ولم يقل رغدا، قلنا: لماذا ذكر الرغد؟ من أجل أن يذهب عن النفس السامعة نفس آدم، لو قال: ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ جعلنا ﴿مِنَ﴾ تبعيضيه ليذهب عنها ضيقها في أنها مقدرة، تنعم، خد من حيث شئت، وهذا هو الرغد، والرغد ما معناه؟ النعمة العظيمة الجزيلة الكبيرة، هذا معنى الرغد، فلما كان هذا المعنى في سورة «الأعراف» غير بيّن، قال: ﴿فَكُلَا مِنْ

﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ فجعل لهما مطلق الأكل من أي مكان فلا ضرورة لقوله: رغدا، فلطروء هذا المعنى جاء هذا القيد، ولما لم يكن هذا المعنى حاضراً فلا ضرورة للقيد، هذا وجه ما قالوه والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ [البقرة: ٣٥]، وبيّنا الرغد هو النعيم، والنعيم العميم والنعيم الواسع والكثير، قال تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، هذا معنى ثاني من الفرق بين هذا الموطن في سورة «البقرة» وفي سورة «الأعراف»، ربما تقتطف منها شيئًا في مكان وتأكلها في مكان، وأنت تأكل منها حيث شئت، فهنا ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، لا بياناً لمكان المأكول، وإنما هي بيانٌ لمكان الأكل، يعني رجل الآن ربما يقطف البطيخة أو على رأي المغاربة «الدِلا ع»، في مكان ولا يراه مكاناً جميلاً لأكله، فيذهب إلى مكان أجمل له منه، فقوله تعالى: ﴿رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]، هو بيان لمكان الأكل، ولكن قوله: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [الأعراف: ١٩]، هو بيان لمكان المأكول.

هذا بيّن قوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]، أنت تأكل حيث شئت، وهنا أن تأكل من حيث شئت، هذا هو الفرق بين الموطنين، وهذا من المواطن التي تعترض القارئ لهذين المواطنين، ومن هنا نعرف أنه لا تكرار ما في تكرار، التكرار في القرآن ممنوع، التكرار إنما يقع لبيان النعمة، هنا بيان نعمة انظر كيف تنوعت النعمة، هنا يبين الرغد بما فيه من طيب، وهناك يبين ما فيه من اتساع، لما يقول: كل من حيث شئت، وهنا يقول كل رغدا، فذاك بيانٌ لاتساع مكان الأكل أن يأخذ من حيث شاء، وهنا بيانٌ لنوع المأكول وقوله: ﴿رَغَدًا﴾ بيانٌ آخر.

وهناك بيانٌ من أنك تأكل من حيث شئت، وهنا بيان أن تأكل حيث شئت هذا هو من وجوه لما يسمى بتكرار القصة القرآنية وأنها تأتي بالحدث وتأتي به من جوانب متعددة وزوايا متعددة حتى تكتمل الصورة التي يريدها القرآن من الحدث.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ [البقرة: ٣٥]، هناك ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥] ما قال: حيث شئت، يعني نحن لما غيبنا صورة المرأة من حياة الوجود وتاريخ البشرية هذا شيءٌ مهم، لأن الواقع هو الرجل هو المسؤول عن حياة البشرية، الحروب قامت من الرجل، السلام قام بالرجل، انتشار الأفكار قام بالرجل، أين المرأة ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، إذا في طبيخ وفي أكل ونعيم وما يدار به البيت ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، لما يكون في قرار كبير أنت عليك هذا لكن إذا دخلت البيت فلا بأس ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، ما قال: حيث شئت، فلا بأس أن تتفق مشيئته كما مشيئتها.

فمثلاً: لو اختلف الرجل والمرأة مثلاً يشتري الستائر حمراء أم بيضاء؟ فالمرأة تقول: أحمر، الرجل يقول: أبيض، لا بأس أن يتفقا على قولٍ واحد وهو أن يقول: أحمر على رأي المرأة فهذا الأسلم، إذا في البيت وأكل ما في ضرورة

تعمل مشكلة فاجعل مشيئتك مشيئتها فلا بأس في هذا، وحينئذٍ تكون عاقلاً وتطبق الحديث (وأعوج ما في الضلع أعلاه)، يعني لا بأس في البيت اجعل المشيئة لها، ولكن الحياة لا تقوم بوجودها وظهورها في ساحة الحياة لا تقوم.

وأنا لا أريد أن أكرر ما كتبته عن بلقيس وأن المادحين لها من أجل إثبات أن المرأة يمكن أن تحكم قد غلطوا في فهم السورة وإذا مررنا عليها، إذا أتينا على سورة «النمل» إن شاء الله نبيّن الوجه الذي عندي.

قوله تعالى: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]، والكلام هنا في الحقيقة ينبغي الاستحضار والكلام عن نعم والمتع، فربما المرأة تكون في المتع أكثر دقةً منك، يعني لا بأس من التدليل على هذا الأمر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، لم يقل الله عز وجل: ولا تأكلا وهذا من أدب القرآن، ومن طرق وقاية الإنسان من المعاصي، ما قال: ولا تأكلا، قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾، لماذا؟ لأن عدم القرب داخلٌ فيه عدم الأكل، وعلى الرغم أن هذه يعني هذه الشجرة دائماً نحن نعلم كثيراً بأن الشيء الوحيد الذي أمرنا الله عز وجل بعدم النظر إليه هو فقط النساء، وأما يجوز للمرء أن ينظر إلى الوجود، ينظر إلى أي شيء، يعني ما دام أنه صاحبه باذله في العراء ينظر، لكن المرأة لو خرجت استسرفها الشيطان فيجب عليها المرء أن يغض بصره، لكن هنا ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾، حتى يمنع النظر إلى الشجرة، لأن القرب منها يؤدي إلى الدخول فيها.

وانظر هذه المقارنة الغريبة في كتاب ربنا، ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]، انظر هذا الاتساع ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، كل من حيث شئت وكل حيث شئت ولكن لا تقرب هذه الشجرة، انظر هذه المقارنة هذا الاتساع والفسحة الربانية لهذا العطاء، انظر بعد ذلك ماذا وقع.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ ليس الرجل وليس المرأة ولكن ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾، لا أنت ولا هي ﴿هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، قوله تعالى: ﴿هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾، دل على أنها ماثلة، لكننا في سورة «الأعراف» نرى ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٠]، ولما قال الله عز وجل عن الشجرة قال: ﴿تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، فلماذا إبليس استخدم هذه لقربها لتقريبها، لكن لما قال: تلك لإبعادها، فدل لما أشار ربنا سبحانه وتعالى إليها ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، كما في سورة «الأعراف» دل على أنها بعيدة وليست قريبة ﴿تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، إبعاداً لها في واقعها وإبعاداً لها في نفسها، أن تبعد في النفس أن تكون بعيدة.

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، دل على أنه أشار إليها وبينها وميزها، يبقى السؤال ما هي هذه الشجرة؟ ليس عندنا أدلة وكل من يقول إنما يأخذ من التوراة ومن كلام الأقدمين هناك من يقول: هي الحنطة، هناك من يقول: هو الكرم يعني العنب، والذي عندي أنها شجرة الحشيشة، وهذا نعم لم يقله أحد ولكن أعتقد بأنها الحشيشة هي هذه الشجرة التي منع الله عز وجل آدم من الاقتراب منها، الكرم لماذا الكرم؟ ولماذا الحنطة؟ وأي شيء

شرٍ فيها ونحن نعلم –أنا أرد هذه الأقوال بالأصول– ونحن نعلم أن الله عز وجل لم يمنع شيئاً لمجرد المنع منه، وإنما منع أي شيء من أجل ضرره، فأي ضررٍ في الكرم.

فلو كان في الكرم والكرم أخذ من الكرم على كل حال، معروف هذا ذلك لأنهم إذا شربوا جادوا ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تسمية العنب كرما، لأنهم يسمونه على تسمية ما يفعلون من الحسنات فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فخلينا على كلمة العنب، هل لمجرد المنع؟ أم لأن المنع فيه ضرر؟ الحقيقة المنع فيه ضرر، فإذا كان المنع فيه ضرر فلا بد أن تكون هذه الشجرة فيها ضرر، ولا يعرف في التاريخ شجرةٌ أضرت على البشر كما أضرت الحشيشة، وما من أمةٍ من الأمم إلا وعندها شيءٌ من هذا، عندها هذه المادة المخدرة، القنب الهندي، فطر المكسيك، وكل بلد فيها من الشر ما يقارب هذا فالذي عندي أنها الحشيشة.

والحقيقة أن مادة الحشيشة هي المادة التي بها تسقط مروءة المرء، حتى قال علماؤنا: إن من أعظم مفاسد الحشيشة هو التخنيث، ليس فقط أنها تضيع العقل ذكر سلفنا وهذا الحقيقة يعرف في الواقع وشيخ الإسلام قال: باستقراء الواقع –ليس هناك نص– باستقراء الواقع أن من يشرب الحشيش للأسف يصبح ديوث، أن شاربي الحشيشة فيهم الدياثة، وواقع الأمر يشهد لهذا، فلذلك لما أكلا من هذه الشجرة بدت لهما سوءتاهما، ظهرت أعراض التي بها يتم الإنسان، يتم هيبته ويتم سكونه، ويتم حفظ عرضه وحفظ عورته، ووقع هذا الأمر بأن كشفت سوءته والمرء لا يصل لهذا بأن تكشف، كيف تكشف سوءته سنأتي إليه هذا، هناك لابد أن نتصور وهذه طريقة قرآنية أنه يترك مجالات لحدوث الفعل.

فلما أكلا بدت لهما سوءاتهما، هل هناك سوءة؟ ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، بدت، لا يعني أنهما قبل أكلها لم تكن لهم سواء، بل ﴿بَدَتْ لَهُمَا﴾ فدل على أنها بدت، والكلام هل بدت لهم في أن آدم رأى سوءة حواء وتلك نعمة عظيمة لا أظن أن الله قدم منع آدم بالجنة من أن يأتي هذه النعمة العظيمة التي هي قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم: (حبب إليّ من دنياكم الطيب والنساء)، فلا أظن أن آدم كان ممنوعاً من هذه النعمة وهي نعمة أن يأتي أهله.

إذن بدت لهما سوءتهما ظهرتا على غير ما ينبغي أن يظهرا عليه، بالعراء ولا يكون هذا إلا بغياب العقل، ﴿بَدَتْ لَهُمَا﴾ يعني أنه لما غاب هذا العقل عن طريق هذه الشجرة بدت السوءات بطريقةٍ كما ترونها فيهم، لا نريد أن نفصل أكثر من هذا وهذا الذي عندي والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، الشجرة نفس الشيء من الاشتجار ومنها المشاجرة، لماذا تسمى مشاجرة؟ لما يحصل فيها من الاختلاط، هذا يدخل في هذا وهذا يدخل في هذا والحق يدخل في الباطل

والباطل يدخل في الحق، فالاشتجار فسميت شجرة لهذا المعنى، هذا إذا جعلناها كلمة مشتقة على ما تقدم من الكلام السابق، قلنا: إن بعضهم ينفي هذا، يقول: لا، هذا اسم علمٍ لا اشتقاق فيه، والصواب أن العربية على هذا المعنى أن فيها المعاني، الكلمات لها المعاني، يمكن أن يكون الاشتجار أخذ من الشجرة، والمشاجرة أخذت من الشجرة، يمكن هذا؛ لأن الخلاف قائم، هل الأصل فيها الأفعال أم المصادر؟ على ما يعرف بين البصريين الذين يقولوا: الأصل فيها المصادر والكوفيين يقولوا: الأصل فيها الأفعال.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، قوله ﴿هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾، فيها تأديب لنا وتعليم، يعني في العلم ما هو أعظم ما تبيّن به؟ أن تحضر له المادة أن تحضر له الشيء، فليس من العلم ولا من التفهيم والتعليم للآخر هو أن تذكر له المطلقات الذهنية في أمرٍ يتعلق بالأمر والنهي ولا يتعلق بالعلم ومطلقاته، فإذا أنت أردت أن تربي ولداً أره بيّن له علمه قل له: هذه لا تقربها، هذه قربها، هذا كذا، فهو أدعى من أن تتكلم معه كلاماً نظرياً في هذا الباب.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ [البقرة: ٣٥]، أقف عند هذا، وبارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: في مسألة خلق حواء من آدم، أثبت العلم الحديث أن الرجل يحمل في جسمه هرمونات أنثوية أو أن الرجل هو المسؤول عن تحديد الذكر من الأنثى والانثى تخلوا من هذا، فهذا مدعاة أن تكون خُلقت منه، فهل يكون العلم الحديث سبب من أسباب التفسير خاصةً بالأمور العلمية أو من أدوات التفسير؟

الشيخ: يعني أين الدليل أنها خلقت من ضلعه، هذا المقصود هو يقول: بأن الرجل فيه هرمونات أنثوية وذكورية والمرأة خالية من الهرمونات الأنثوية والله تعالى أعلم، لكن ليس بهذا تثبت الأمور الخبرية العظمية، وأريد إن شاء الله في موطنٍ آخر أبيّن لكم متى يحتج بالأدلة ومتى لا يحتاج وسأقرأ لكم كلام صاحب «البرهان» وهو الجويني فهو نافع في هذا الباب نأتي إليه إن شاء الله تعالى.

السائل: ذكرت أن الجنة تطلق على الجنة الآخروية والدنيوية، جهنم كذلك تكون نفس الشيء؟

الشيخ: نعم، يجوز أن يقال عن نارٍ عظيمة في هذه الدنيا أنه جهنم، لأن جهنم هي النار العظيمة، فيجوز أن يقال هذا وهذا، وأحدهم يستدل بقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾، وهذا من أعجب ما يستدل به قال في سورة محمد ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [محمد: ١٥]، وكذلك في سورة الرعد ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾، –وهذا من جهلهم بكلمة مثل– قال: كيف مثل وإذا قلنا: بأنها الجنة الاخروية فمثل الجنة لأي جنة مثلت بأي جنة؟ وإنما ليراد بها الحقيقة أي اسمها ولا يراد بها أنها تشبه جنةً خلقها الله عز وجل في الأرض هذا بعيد وخارج معنى كلمة المثل كما ذكر أهل اللغة.

السائل: ذكرت الدليل في الحديث القدسي: (أعددت لعبادي ما لا عين رأت) **ما الرد عليه؟**

الشيخ: الرد عليه يسير جداً، (ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر)، أنه مخصص، ودخول الخاص على العام ليس بمثل هذه المشقة التي يفرضها بعضهم، وإنما هذا من التخصيص، أن آدم عليه السلام وحواء رأوا الجنة وعاشا فيها وأكلا منها فيكون على غيرهما، (ما لا عينٌ رأت) غير آدم وحواء (ولا أذنٌ سمعت) ... إلى غير ذلك، والله تعالى أعلم.

ودائماً أنا ماذا أقول لكم؟ أنا أعيدكم إلى قضية في الاستدلال وهو أنه يكفي أن يأتي الدليل المثبت، يكفي، ونحن أثبتنا بالنص اللغوي في الآية والنص من النبي صلى الله عليه وسلم، فحينئذٍ سهل بعد ذلك الدليل النافي وهذا كثير يمكن أن يأتي به من يأتي به، ولكنه يمكن تخريجه بما ذكرنا.

السائل: المرأة إذا قادت تكون بداية السقوط؟

الشيخ: النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة)، وهذا كافٍ؛ لأن المرأة إذا حكمت أفسدت، وزعم الزاعمون بأن سبب الحديث يقصر المعنى وهذا باطل، قال: لأن هذا الحديث بأن ابنة كسرى ملكت بعد أبيها فذلك بعد قتله، فقال: (ما أفلح قوم)، أي الكسراويون أي أهل فارس وهذا باطل، (ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة)، فالقوم كلمةٌ مطلقة والإطلاق يطلق على من تلبس بالفعل أو الشرط.

السائل: أبهذا نستبشر خير بسقوط أمريكا إذا ولوا هيلاري كلينتون؟

الشيخ: نسأل الله سقوطها، في الحقيقة هم يعرفون والأمور بينّة وواضحة، بأن سقوطهم قادم بإذن الله وانتشار التوحش فيها، وأنها ستخرج من التاريخ كما دخلت منه، أمريكا ستخرج من التاريخ كما دخلت منه، وخروجها من التاريخ في قتل بعضهم البعض، وانفصال بعضهم على بعض وخلافهم مع بعض، وهذا لا تستبعدوه، وأمريكا في داخلها من التيارات المتعارضة والمتناقضة ما يكفي بأن تتفجر، فقط هم يزعمون شيئاً واحداً أن الرأسمالية فيها القدرة الذاتية على إصلاح نفسها خلال مسيرتها، خلال المسيرة تنشأ فيها الندوب وتنشأ فيها الحوادث وتنشأ فيها التشققات التاريخية والتشققات الاجتماعية إلى غير ذلك، فالرأسمالية فيها، فالله عز وجل يقول: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣)﴾ [القمر: ٤٣].

لماذا الرأسمالية اليوم، ألم يكن رأسمالية في زمن الرومان ولا اليونان؟! لماذا لم تصلح نفسها؟! دمروا وأبيدوا، الذي أعتقده أن خروج أمريكا من التاريخ سيكون بخروجها من الحياة وذلك بانتشار التوحش فيها والقتل فيها والدمار فيها والفساد فيها والحياة في مثل إمبراطوريات يكون السقوط يعني عجيباً، ويكون السقوط فيها خفياً داخلياً، قليل من الإمبراطوريات سقطت من الخارج، قليل إلا لما جاء الإسلام، أما الإمبراطوريات الكبرى تسقط من الداخل، وتباد وتتشتت من الداخل وهذا المحتمل في أمريكا، فإذا حكمت هيلاري كلينتون قد نرى يعني شيئاً من مظاهر وإن كانت بداية السقوط قد حصلت بفضل الله، لكن قد نراه الآثار البينة والواضحة في سقوطها.

السائل: ما صحة حديث (أن الله خلق آدم على صورة الرحمن)؟

الشيخ: يعني أنا لا أريد أن أتكلم لكن حديث (خلق الله آدم على صورته)، الذين يعيدون الضمير إلى الله ما لهم أدلة إلا أن يؤولوا وآخر ما قالوه وهو أن صورته يعني على ما فيه من كرم وما فيه من عطاء ... إلخ، خلق آدم على صورته يعني من الطاعة ومن الإحسان ومن الخير ومن ... إلخ، هذا خلاف كلمة الصورة، والذي عندي أن الضمير يعود على المضروب، وأن الفتى كان يُضرب على وجهه، فقال: (اتق الوجه فإن الله خلق آدم على صورته)، وقد أكرم الله آدم بإسجاد الملائكة له وبإكرامه، فينبغي إكرام هذه الصورة، هذا الذي عندي والحقيقة حديث: إن الله خلق آدم من سورة الرحمن هذا حديثٌ باطل، غلط من الراوي ووجه غلطه يحتاج إلى شرح، إذا قدر الله نبيّنه ولكن ليس هذا وقته.

السائل: هل يعتري الملائكة ما يعتري البشر مثل النسيان؟

الشيخ: ليس عندنا أدلة لذلك والله تعالى أعلم.

السائل: لما تكلمت عن الجنة التي عاش فيها آدم هي ليست الجنة التي بعد يوم القيامة، هذه الجنة ألا يعتبر فيها أن الله عز وجل يريد أن يبتلي فيها آدم فجعل له شجرة، من حشيش، يحتمل تكون شجرة وتكون مفيدة لكن أراد الله عز وجل أن يبتليه فيها، كالخمر نحن في هذه الدنيا محرم علينا لكن في الآخرة مباح؟

الشيخ: الجواب: على أمرين، أولاً: إن الخمر في الآخرة ليست هي الخمر في الدنيا، وإن تطابقا في الاسم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩)﴾ [الواقعة: ١٩]، لا يسكرون ولا يصيبهم صداع، وخمرة الدنيا يسكروا ويصيبهم صداع، فدل على أن اجتماع الأمرين تحت اسمٍ واحد لا يدل على اجتماعهما في المسمى.

وهناك شيءٌ آخر فإذن الخمر التي حرمت لسبب، هذا السبب في الجنة يزال مع بقاء اللذة التي يراها الناس ويحبونها من النشوة، لأن الخمر يصنع النشوة، وهذا جانب يحبه الناس، يريدون النشوة، يريدون أن ينتشوا ويريدون أن يفرحوا وأن يشربوا ... إلخ، تنشط أجسامهم إلى معاني من الفرح والغِبطة، فهذا المعنى يبقى لكن المعاني الأخرى مما يصدعون عنه وينزفون ما تصيبهم من السكر يصيبهم من الغثيان، يصيبهم من الأمور الباطلة هذه لا تكون، فإذن لا يحتاج هذا بهذا.

الامر الثاني وهو المهم أو الأول في الحقيقة ينبغي أن يكون شيخنا وهو أنني قلت لكم في الدرس الفائت وأكرره: إن هذه المشاهد القرآنية لما جرى في السماء هي تقدمة لما سيجري على الأرض، هذا ينبغي ألا ننساه في كل تفسيرنا لكل ما نفهمه، أن الله عز وجل أجرى هذا المشهد وهذا المشهد ومن خلال صوره المتعددة في القرآن كما في هنا وفي «الأعراف» وفي «طه» وفي «الإسراء» وفي «ص» وفي «الرعد»، هذه المشاهد إنما من أجل ما سيجري على الأرض من أحداث، ماذا سيجري على الأرض من أحداث جرى هناك من أجل أن يعطينا النموذج لما سيجري عليه.

فمن هنا يكون ما نهى الله عز وجل آدم عنه في الجنة هو على المعنى الذي سينهى عنه آدم وأبناءه في هذه الدنيا، هذا هو المعنى، فإذا فهمنا هذا علمنا أن الشجرة التي نهاه الله عنها فيها الضرر، وليس لمجرد الأمر أن يطيعه أو لا يطيعه، إنما كذلك مع فوق هذا الأمر التعبدي فيها معنى أنها تفسده، والذي قدره الله فيها قد حصل، ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [طه: ١٢١] ونحن قلنا السوءة موجودة، ومن دليل ذلك ﴿فَبَدَتْ﴾، علامة أنها كانت موجودة، فإذن ما هي المشكلة بدت.

وكان عندي مشروع مع أبنائي أيام السجن والخروج وكذا أن أبدأ بسورة «الأعراف» لأن الحقيقة أن سورة «الأعراف» فيها هذا المدار الذي أتكلم عنه وهو الحديث عن الجانب الجنسي في الحياة، وجانب الشهوة، يعني سورة

«الأعراف» في مطلعها كأنها تريد هذا الباب وهو أثر المعصية الجنسية في الوجود، ولذلك الله عز وجل قال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٦]، بعد أن تحدث عن هذا الخبر، وهذا مما يؤكد ما نقوله وينبغي القاعدة أن تبقى موجودة لنفهم السياق حتى في كل ما سيأتي من الآيات على هذا المعنى، لما ذكر الله عز وجل ظهور سوءة آدم ماذا قال؟

إذن السوءة التي ظهرت في السماء هي ما سيظهرها الإنسان في هذه الدنيا، هي نفس المعنى، وأن الإنسان حين يأكل هذه الشجرة ستبدو له سواءته حين يأكل أو لا يأكل، قد يأكل من الشجرة وهذا الذي يحدث أو لا يأكل من الشجرة فتتغير أفكاره ومذاهبه ودينه فيظهر فنفس المعنى سيظهر، ولذلك قال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾، ما هذا؟ كما وارى الله سوءته في الجنة، كل هذا الحدث في الدنيا هو ما جرى في السماء، كما وارى الله سوءته، أنت تواري سوءتك ماذا كان يواري؟ كانت كذلك توارى سوءته.

وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٧]، طبعاً ما جاء إبليس وإلى الآن لا يأتي إبليس يخلع الرجل ولا يخلع المرأة، الشيطان نزع اللباس كما نزع لباس أبوينا، إذن الحالة واحدة، إذن يعني آدم كان عليه لباس لسوءته في الجنة كان عليه لباس فنزعها إبليس، نزعها إبليس بماذا؟ بإطعامه هذه الشجرة فحصل النزع، وكذلك في هذه الدنيا إبليس سينزع لا يأتي إبليس فينزع وإنما يحدث بإتيان معصية الله شجرة المعصية بالخمر، كما كنا نتكلم أخذ المخدرات وأخذ الخمر وما شابه ذلك، أو بدينه بإفتانه كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٧].

هنا كل واحد يرى الآخر في غير الموطن، ومن هنا يعني الصورة واضحة وبيّنة أن الشجرة التي أكل منها آدم حصل فيها غياب إرادة الستر، وهذه لا يوجد في شجرة تشبهها في الدنيا إذا أردنا أن نقول إلا هذه الشجرة الخبيثة التي هي المخدرات، والناس لا يعرفون المخدرات المصنوعة قديماً يعرفون مخدرات النابتة من الأرض هي شجرة الحشيش ... إلخ، والله تعالى أعلم، أرجو أن أكون قد أصبت، هذه لم يذكرها أحد وهكذا يعني ما دام أنه لا يوجد نص فهذا ما يجعل لنا مجالاً للبحث والله تعالى وهذا من مفردات هذا العبد الفقير،

السائل: هل يمكن اعتبار أن حياة آدم عليه السلام المتمثلة فيما حدث معه في السماء في الجنة هي تمثل كذلك حياة كل فرد؟

الشيخ: هذا ما أقوله، أقول: إن الله عز وجل أجرى هذه الأحداث في السماء على ما سيجري عليه الحدث البشري في هذه الأرض، ومن أعظم المفاسد أولاً: أول مفسدة تغيير الأسماء، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]،

وتغيير الأسماء وهذا صحيح أن آدم سما الله له شجرة المعصية فجاء إبليس سماها شجرة الخلد، هذا تغيير الأسماء، هذا المؤرخون وبحاثة الأديان قالوا: إن أول هلاك بني اسرائيل كان في التأويل، والتأويل هو تغيير الأسماء، والآن يغيروا لنا الأسماء، الاسم يكون بينًا في كتاب ربنا فيجعلون هذا، مثلاً: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، يعني أنا أضرب بالمثل الأعلى ليفهم منه الأدنى، فيأتي مثلاً الخبيث محمد شحرور في كتابه «القرآن والكتاب» والجلباب يعرف إذا خاطب القرآن العربي يعرفه، فيقول: لا المقصود بجيوبهن الجيب هو ما كان شق بين شيئين وهذا لا يكون فقط إلا إلية من الخلف والفرج من الإمام فقط، هذا تغيير، انظروا أين بدأ هو؟ غير الأسماء، وإذا تغيرت الأسماء في القرآن وحملت على غير معانيها، انتهى الخطاب فسد الخطاب.

يقول صاحب «البرهان» الجويني وهو كتاب أنا ذكرت فضائله في مماته قال: أصل العلم اتحاد المخاطب والمخاطبة في المسمى، أصل العلم هو في الحقيقة في ليس أصل العلم فقط هو أصل الحياة، انظر هذا من فوائد قولنا إن اللغة توقيفية لا يجوز تتلعب فيها، يعني الأصل أنه لا تتلعب فيها ما تغيرها، الله سمى هذا جبلاً وسمى هذه سماءً وسمى ... هذه الأسماء لو تغيرت تغير القرآن، افرض أنه اخترنا كلمة سماء لمعنى الآخر وهي ليست في الصلاة ولا الزكاة لكن صار للقرآن معنى آخر،

ففساد البشرية، أولاً: في أدوات استخلافه في الأرض على وفق عبودية الله، ما هي أدوات استخلافه في الأرض؟ العلم، ما هو أول طريق لإفساد العلم؟ هو إفساد الخطاب بين المخاطِب والمخاطَب، من المخاطِب؟ هو ربنا عز وجل يعني هو الذي علمنا وهو الذي أمرنا والمخاطَب هو الإنسان فإذا فسدت هذه اللغة فسدت العلم، ومن هنا يأتي الدمار ومن هنا ترون الشيطان كيف يلعب في مجال اللغة، والشياطين كيف يلعبون في مجال اللغة، يدخل التأويل قديماً وحديثاً.

ولذلك يقول ابن القيم رحمه الله عن التأويل: «ما وجد صنمٌ في تاريخ الأمة أضر عليها من التأويل»، ما هو التأويل؟ هذا هو حمل الكلام على غير معناه الذي أراده الله، هذا فساد وإجرام، هذا أول فساد.

الفساد الآخر انظر هو ماذا؟ هو الحديث إلى مواطن محبة النفس دائماً إياك أن تحاول، هناك العلم ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، هنا جئنا لأمر قدري ماذا قال له هذا إبليس؟ قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠)﴾ [طه: ١٢٠]، الحديث هنا عن باب قدري، ومن هنا جاء الأمر بعدم مخالفة القدر، فيما قدر الله، ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩]، هذا أولاً ما تعلق بالعلم والشرع والأمر والنهي.

الأمر الثاني: هو كيف مدخل إبليس هو محاولة تغيير أقدار الله، ما هو الخمر؟ ما هو الحشيش هذه المخدرات؟ ما هو الربا؟ ما هي المعاصي؟ هو محاولة تغيير أقدار الله الجارية في الوجود، يعني الخمر ما الذي تصنعه؟ الأصل لنا عقل يبقى العقل موجود، الخمر ماذا تصنع فيه؟ تذهب العقل، هذا تغيير القدر، قال صلى الله عليه وسلم: (لعن الله من غير منار الأرض)، انظر منار الأرض، الأقدار يجب أن تبقى، وإذا تغيرت الأقدار في الوجود التي الله أقام عليها الأحكام، فالأحكام جاءت بأسماء، أسماء على ماذا؟ على أقدار، يجب أن تبقى كما هي.

ومن هنا تغيير قدر الله هو إفساد في الأرض، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١]، بتغيير الأقدار وتغيير الأقدار وصل إلى تغيير الجينات، يغيروا الجينات الآن يتلاعبون بالجينات، انظر إليهم الآن كيف أفاسدهم إذا وصلتم عن قديماً في الأدوات التي يملكونها، في الخمر في المخدرات في المعاصي، لكن اليوم يغيرون القدر ويلعبون به ويفسدونه، هذا أمر ثاني.

الأمر الثالث: الذي يتحدث عنه في هذا السياق في هذه المشاهد القرآنية الغيبية وهي قضية الجنس، هذه قضية خطيرة جداً في ديننا والقرآن أقام لها المرأة، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (فإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ)، وهذا جزء من قضية الأمر والنهي إذا فسدت المرأة فسد المجتمع انتهى إذا تم فساد المرأة تم فساد المجتمع وتدمر المجتمع سواء كان فيما ذكرنا في قضية تغيير الترتيب الاجتماعي أو في قضية فسادها من جهة الشهوة ومن جهة الجنس ومن جهة الظهور الذي لا يجيزه الله عز وجل ولا يحله، هذه هي معالم المعاصي في الوجود.

انظر شجرة الخلد وملك الحديث عن ماذا؟ الخلد والحديث عن الملك، الحديث عن ملك إياك أن تبحث عن الملك فيما لا يحل لك، سواء كان في تغيير قدره أو في غيره في أخذه من غير حله، الحديث عن الملك لأن البشرية والبشر ينزعون لهذا وهو موافق لفطرتهم في حب التملك حب السلطان، وهذا يعالجه القرآن، والشيطان يأتي إليه من هذا الباب، لو أردت أن استفيض أكثر من هذا في ذكر فوائد هذين المشهدين في القرآن، هذا المشهد وهو خِلقة آدم وما جرى بين آدم وإبليس في السماء يستوعب الدين كله ويستوعب البشرية كلها بل يستوعب التاريخ، التاريخ كله يدور حول هذا كل المشاهد في هذا كيف يدخلون الجنة، كلهم يدخلون الجنة، كل البشرية تدخل الجنة، ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ [الإسراء: ٥٨]، كلهم دخلوا الجنة كانت لهم، ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ١٥]، كلهم دخلوا الجنة، كلنا ندخل الجنة، كل الناس الله يعطيهم الجنة يعطيهم المال يعطيهم كذا فيبدأون بالفساد، فإذا فسدوا خرجوا من الجنة، خرجوا منها.

فمشهد دخول الجنة وخروج الجنة هذا مشهد يتكرر في حياتنا يتكرر في الإنسان يتكرر في النعمة التي تأكلها، يتكرر في الزوجة التي تعيش معها، يتكرر في كل شيء من شؤون حياتك في الدكان الذي تفتحه في المدرسة التي تدرس فيها، مشهد دخول الجنة هذا مشهد يتكرر في هذه الحياة، وأسباب الخروج والدخول ما زالت هي، هي،

ومشهد الحرام وجود الحرام الكامن هذه الشجرة مع الحل رغدًا موجود، أرجو أن أكون قد يعني أتيت وأن كان هذا الأمر يطول في الحقيقة وأكثر منه وربما نأتي عليه بتفصيل في سورة «الأعراف».

السائل: سؤال هل قصة إبراهيم عليه السلام في سورة «الأنعام» هي نظر في نفسه والكون أو مناظرة مع قومه؟

الشيخ: لا هي مناظرة، وإن شاء الله نأتي إليها ولها وجوه كثيرة، كيف قال: هذا ربي، نأتي إليها إن شاء الله لا نستعجل لكن هي مناظرة ومن أجل إقامة الحجة على قومه ولذلك قال الله فيها –القرآن يجيبنا–: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وليس من التأمل كما يقولون ولا من مرور إبراهيم في طور من أطوار الوثنية ثم انتهى إلى التوحيد لا، قال الله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ [الأنعام: ٨٣] فهي حجة من إقامة الحجة على قومه ولذلك أخطأ الشيخ أبو الحسن الندوي وسيد قطب لما كتب قصص قال إبراهيم: يبحث عن إله، هذا عنوان ينبغي أن يزال وأن لا يقال به.

السائل: كثير ما يدور حول النقاش في اللغة العربية وهو هل الصفة إذا قيلت من الله تعالى ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧)﴾ [النساء: ٨٧]، **أن الصفة تستخدم كاستخدام الأسماء كالمبتدأ والخبر أي أنها تدلل على حقيقة الشيء أنها صفة لازمة وليست صفة لتقريب الصورة والمعنى؟**

الشيخ: يعني الله عز وجل خاطبنا خطاب عربي، فلما قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧)﴾ [النساء: ٨٧]، الآن الكلام عن الصدق الله عز وجل يعني يقول الصدق، كما قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، ﴿صِدْقًا﴾ إذا جاء الخبر ﴿وَعَدْلًا﴾ إذا جاء الحكم، والوجود هو قائمٌ على خبر وأمر، وهذا إنشاء وهذا إخبار، والإنشاء هو الأمر والإخبار هو الإخبار، فالخبر الصدق فلما نقول الله عز وجل: هو له خبر الصدق له قول الصدق فهل هذا تقريب للمعنى؟! الذين يقولون بهذا يفتحون بابًا للخروج من الشريعة، وهو أنهم يجعلون هذه الكلمات أمارة على الحقائق لا أنها معبرة عن الحقائق تعبيراً تاماً، وهذا هو باب التأويل وباب الصرف وهذا باطل لا ينبغي أن يلتفت إليه.

ولا يخطر على بال العربي والله قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾، يعني أراد أن يقرب له معنى، لأنه ما المشكلة؟ المشكلة في خوفهم من التشبيه، فيقول: الله قرب المعاني ذلك لأن الغيب لو خوطب بحقائقه لما فهمها، لوجود ألفاظٍ تحمل ألفاظ أخرى لدلالتها على معاني أخرى.

أعيد، يقولون: بأن كلمة كتاب ففي الغيب كتاب، لكن كتابٌ لا نعرفه، فلو قال باسمه الذي هو سمي به لخطوبنا بكلماتٍ لا نعرفها، ذلك لأننا لا نعرف الحقائق ونحن قلنا سابقاً: عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ [البقرة: ٣١]،

ما الذي يُنشئ قيمة للأسماء؟ وجود حقائقها، فإذا لم يوجد لها الحقائق عدت عبثاً، والناس لا يخاطبون بكلمات لا يعرفون حقائقها، فزعم هؤلاء أنه لما غابت عنا الحقائق، فلو خوطبنا بأسمائها لما علمناها فماذا خاطبنا الله بأسماءٍ في هذه الدنيا تقرب لنا المعاني وليست حقائق عليها، هذا أساس ما قالوا، وهذا من أبطل الباطل.

أول شيء هنا يبرز الكلمة أنه إذا أستخدم المجاز جاز الكذب، يعني هذا أول ما يخطر على البال يعني هذا كذب، وهو تسمية الشيء بغير اسمه هذا كذب ومن هنا يعني العلماء قالوا: من إبطال المجاز في القرآن أن المجاز يحتمل الصدق والكذب، لما تقول: فلان أسد هذا أليس مجاز، فقد لا يكون أسدًا، لكن بخلاف ما قلت: فلان رجل فهي حقيقة، لا يمكن أن يخطر فيها الكذب لأنه رجل، لكن لو قلت: أسد، يمكن أن يكون أسداً ويمكن إلا يكون فجاز الكذب، فقالوا: لما استخدمنا المجاز جاز الكذب، وهذا ممتنع في حق الله عز وجل، هذا لا يجوز اعتقادنا فيه، فلذلك الله عز وجل لما سمى أشياء في الوجود بأسماء، فهذه أسماؤها ولكن العربية والناس يعرفون أن الاسم إذا أطلق ينبغي أن ينظر إلى معناه فاتحاد الاسم لا يعني اتحاد المسمى، وأنت تقول: هذه عين، وتقول: عن عين الماء، عين الماء والدابة لها عين، وإنما افترق العين عن هذا العين لافتراق الذات، الذات افترقت.

فهل يقول أحد أن العين في الإنسان هي على الحقيقة واستخدمت في الحيوان على المجاز على المعنى الذي قالوه؟! ما الذي أدراك؟ ما الذي علمك أن هذه حقيقة وهذه أخذت منها؟ لماذا لا تكون أسماء الآخرة هي الحقائق، أسماء الغيب هي الحقائق؟ وأسماء الدنيا هي المجازات؟ لو جاز هذا مصيبة كذلك وطامة لأسقطنا الشريعة.

فالجواب على هذا بأن الله عز وجل حين يسمي شيئاً باسمه أو يطلق على شيء بوصفه: فهو على الحقيقة، ولكن كلمة الحقيقة هذه تحتاج إلى بيان لا ينبغي أن نجعل كلمة الحقيقة شيئاً نعيد عليها، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ [الإسراء: ٧٢]، فيقول: يعني على الحقيقة أنت تقول الذي في هذه الدنيا أعمى الذي لا يرى بعينيه فهو في الآخرة أعمى، هل هذا المطلوب؟ فما هي الحقيقة، حينئذٍ نأتي إلى كلمة الحقيقة، قال بعضهم: الحقيقة هي أول ما يرد على الذهن ابتداءً هذه هي الحقيقة، لما تقول: رأيت أسدًا يخطب، ما الذي طرأ على ذهنك أولاً؟ أنه رجلٌ على المنبر فهذه هي الحقيقة.

فالحقيقة ليست بسبب الوضع لأننا نعرف متى وضع، من الذي بيّن لك أنه متى وضع حتى تجعل هذا هو الحقيقة وهذا الذي أُلحق به مجازاً أي ما جاز أن يقال لنوع اشتراكهما في المعنى، فما الذي أدراك؟ الجواب: لا ندري، فلماذا هي ليست عين للحيوان أصلاً واشتقت للإنسان مجازاً، لا ندخل في هذا الباب ويكفي أن نعلم أن الله عز وجل قد كلمنا بالحقائق ويجب علينا أن نصرف كل كلمة إلى حقيقتها على المعنى المتبادر للذهن ابتداءً في كلام العرب، والمعاني في الأسماء لا تؤخذ بالاستقلال، وإنما تؤخذ بالتركيب، أي الكلمة إذا استقلت يوضع لها معاني متعددة لكن إذا ركبت صار لها معنى وهذا المعنى هو الحقيقة، يكفي إلى هنا.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً الحمد لله رب العالمين.

الدرس الواحد والأربعون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة فهذا هو الدرس الواحد والأربعون من دروس التفسير، وما زلنا مع سورة «البقرة»، عند قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

وهنا فقط أريد أن أعود على نقطتين، جاء التساؤل فيهما وجاء التنبيه عليهما سابقاً وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وقلنا في كلامٍ سابق: أنه لم يأتي أيها الإخوة الأحبة اجتماع الإباء والاستكبار في موطنٍ من القرآن إلا في هذا الموطن، فالإباء جاء عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [البقرة: ٣٤]، وجاء عند قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص: ٧٥]، ولكن لم يجتمع الآباء والاستكبار إلا هنا.

وأظن والله تعالى أعلم أن السبب وهذا لم يتكلم فيه السابقون لم أرى من السابقين من تكلم وربما وجد ولكني لا أعلم، والسبب أنه لم يذكر في هذه الآية محاورة الله عز وجل لإبليس لِمَ لم تسجد؟ فجاء التقرير الإلهي لذلك، ففي المواطن الأخرى جاء السؤال ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢]، ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥]، وسنبين ما سبب الخلاف في موطنٍ قادم، لا أريد كل الآيات أن أبيّن وجه الاختلاف فيها، المقصود اختلاف اللفظ الذي يدل على تنوع الصورة وتعددها من جوانب مختلفة، فسنترك الكثير من الحديث فيها، عندما تأتي الآيات الخاصة بها، لكن لماذا؟

ذلك لأن هنا جاء تفسير الفعل من الله عز وجل؛ فلم يذكر المحاورة، لأن المحاورة التي جرت بين الله عز وجل وبين إبليس، ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾، ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾، تفسر سبب الإباء، يعني تلك المحاورات الواردة في السور الأخرى، فيها تفسير الاستكبار فلا ضرورة لذكره، أما هنا فلم تذكر هذه المحاورة، فلابد من ذكر تفسيرها، هناك قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢)﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣)﴾ [الحجر: ٣٢-٣٣]، فإذن بيّن هناك استكباره.

هنا كما ترون في سورة «البقرة» لم يذكر الله عز وجل هذه المحاورة؛ فلما لم يذكرها جاء بتفسيرها، هناك ذكر المحاورة فبيّن علة الإباء وهو الاستكبار، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [البقرة: ٣٤]، لماذا أبيت؟ قال: استكبرت، يعني ما فسر به فعله أني خير لم أكن لأسجد، فبين استكباره، لكن هنا في هذه السورة في هذا الموطن لم تأتي هذه المحاورة، وهذا يرجعنا إلى ما بدأنا به الكلام على هذين المشهدين، في أن الله عز وجل لم يذكر طينته وأصل وجرثومة خِلقة آدم، مما خلق؟ لم يذكر ربنا سبحانه وتعالى في هذه السورة أنه خُلق من طين أو من تراب أو من صلصال وحمأ مسنون ... إلخ، لم يذكر، وقلنا: السبب لأن الموطن هنا هو موطن التكريم والتشريف.

المسألة الثانية: عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، القرب هنا النهي على المنهي، والقرآن يؤكد هذا في مواطن، وقلنا: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ هي أشد من قول لا تأكلا، وهذا من رحمة الله عز وجل أنه إذا أمر بشيء فإنه يأمر بمقدماته، ويحض عليها وكذلك يأمر بما يُحافظ عليه، فلذلك أتى الله عز وجل بالفرائض المأمورة ثم أتى بالسنن وأتى بالفرائض وألحق بها الحسنات، كالصلاة أتى ربنا سبحانه وتعالى بالوضوء وغير ذلك والمشي إلى المسجد، فالله عز وجل إذا أمر بالحسنة فإنه يأمر بما يمهد لها، وما يحفظها، وإذا نهى الله عز وجل عن السيئة لم ينهى عن الفعل بذاته بل نهى عن مقدماته، ونهى عن دواعيه.

ومن ذلك الكثير ففي سورة «النور» إن الله عز وجل ما ذكر الزنا في أول السورة ذكر بعد ذلك النظر، وذكر عدم الدخول على البيوت إلا باستئذان وأمر سبحانه وتعالى بهذه المأمورات، ونهى عن هذه المنهيات لئلا يقترب المرء من حمى المعصية المقصودة وهذا من علم الله عز وجل بالإنسان لا يقذفه في الماء كما يقولون، ويقول له: إياك، إياك أن تبتل بالماء هذا، لا، هذا من كلام الزنادقة أن الله عز وجل نهانا عن الشيء بعد أن قذفنا في داخله بعد علمه بضعفنا، وهذا كذب على الله عز وجل أن قذفنا في الماء ثم قال: إياك، إياك أن تبتل بالماء هذا كذب على الله عز وجل.

الله عز وجل فتح لك -كما قلنا- أبواب الحلال العظيم في هذه الدنيا، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾، وهذا يفسر لنا موطنين من مواطن سورة «البقرة» كما سيأتي فإنه عند المنهيات يقول: ﴿لَا تَقْرَبُوا﴾، وعند المأمورات يقول: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾، في سورة «البقرة» عند قوله سبحانه وتعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]، لأن هذا منهي، لما كان لا تقرب ولا تأتي ولا تباشر فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]، لأن الأمر يتعلق بمنهي، فالمنهي لا تقرب.

لكن لما قال سبحانه وتعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ثم قال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، أجاز هنا بيّن الجواز، ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ

خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، لأن الموطن موطن إباحة فالمأمور به لا تتعداه، يعني الله عز وجل مثلاً أمرك بجواز هذا الجواز هذا هو الجائز فإذا تجاوزت هذا الجائز تجاوزته فقد تعديته، لكن الله عز وجل أمرك بهذا المنهي، فالمنهي عنه هو الاقتراب.

هذا هو سبب الفرق بين الآيتين، إذا كان هناك منهي فجاء بالنهي عن الاقتراب، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]، ثم قال بعدها: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)﴾ [البقرة: ١٨٧]، والتقوى في أصلها هو اجتناب ما يؤذي المرء، التقوى أصلها وإن كانت بعد ذلك دخل فيها إتيان ما أمر الله عز وجل حتى يجتنب غضب الله عز وجل، لكنها في الأصل التقوى هو الاجتناب، فالتقوى هو ترك المنهي، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)﴾ [البقرة: ١٨٧]، فعلمنا أن الموطن هو موطن المنهي عنه.

ولكن لما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، علمنا أن الحديث هو حديث ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، هذا ما أحببت أن أعلق عليهما في هذا الباب لمجيئهما.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ [البقرة: ٣٥]، هنا الظلم المقصود به ظلم أنفسهما، المقصود هنا في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩)﴾، أي ظلمكما لأنفسكما، والمعصية إنما تقع آثارها أولاً على فاعليها، قبل أن تقع على المحيط الذي فيه هذا العاصي، قبل أن تقع مثلاً على أهله على ماله قبل أن تقع على مجتمعه على أقاربه فهي أولاً تصيب صاحبها.

ولذلك لما تحدث القرآن عن ابني آدم، ماذا قال؟ قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)﴾ [المائدة: ٣٠]، من الذي خسر؟ هو قتل أخاه فأصبح هو من الخاسرين، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)﴾ [البقرة: ٥٧]، ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ [العنكبوت: ٦].

فلذلك ليس هناك أحد ينتفع بالطاعة أحد كما ينتفع بها فاعلها، وليس هناك أحد تضره المعصية كما تضر فاعلها، فالمرء إذا علم هذا اجتنبها فإن الإنسان لا يأتي ما يضره، وقد يقول قائل: كيف يقبل الإنسان على المعصية وهي تضره؟ وهذا ضرر يقيني، والتاريخ يثبت والواقع يثبت والقدر يثبت، ثم جاء الشرع بالإثبات، فلماذا يفعل؟ ذلك لأنه من فتنة هذه المعاصي التي تضر فاعلها أن جعل عليها الحلاوة العاجلة، كالسرقة فيها الحلاوة العاجلة؛ يأتيه المال يفرح، كآكل الربا تأتيه العاجلة فيفرح، فكل المعاصي التي يقترفها المرء جعل الله عز وجل لها الحلاوة العاجلة هذا فتنة، وكذلك الزاني تأتيه الحلاوة العاجلة، فكل المعاصي التي يقترفها المرء مع أن عاقبتها الخسران.

فأصبح أول شيء خاسراً قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)﴾ [المائدة: ٣٠]، ثم قال في الثانية: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)﴾ [المائدة: ٣١]، وعلى الصحيح هنا أنه ندم على ذهاب عقله لأن السياق حديثٌ عن تقدم الغراب في العقل والتفكير أكثر من الإنسان، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)﴾ [المائدة: ٣١]، يعني كأن الله عز وجل يقول لو أن أخاه مات ميتة ربانية لاهتدى هذا المرء إلى ما ينبغي أن يفعل مع أخيه أكثر مما اهتدى إليه الغراب، لاهتدى إلى كيفية ما يفعل، ماذا يفعل بهذه الجثة، لو أنه مات ميتة ربانية بلا اعتداء منه لاهتدى، لكن لما رأى أن الغراب صار أفقه منه وصار أعلى منه فندم، إذن ما الذي ندم عليه؟ انه صار أدنى من درجات الدابة، أو أدنى من درجات الغراب الذي ضرب به المثل في الضلال دون الهداية، حتى قالوا:

إذا كان الغراب دليل قوم فما على القوم إلا الرحيل

ويجعلون الغراب –وهذا من التوراة– أنه هو من أرسله سيدنا نوح عليه السلام ليرى شأن اليابسة، أظهر هناك يابسة أم لا؟ فذهب الغراب ورجع بالخبر السيء حتى أرسل الحمامة فجاءت إليه بالخبر الحسن، ولذلك يعدون الحمام فيقولون حمامة السلام وما شابه ذلك، علامة أنه هو الذي يأتي بالخير الحسن، وهذه كلها من أخبار التوراة لا نصدقها ولا نكذبها لعدم وجود النافي أو المثبت لها.

والقصد من هذا: أن المعاصي لها حسنة عاجلة ولكن العاقبة هي الشر، وهذا الأمر يترتب عليه فقه، أولاً: يجب أن لا ينظر إلى المصالح العاجلة في حل الأشياء يعني لما يتحدث الأصوليون وعلماء الفقه، لما يتحدثون عن المصالح لا يتحدثون عن المصالح التي تتحقق بها المعاصي، كما يتحدث بها بعض الفقهاء من معاصرينا، لما يقولوا: بأن الشرع مربوطٌ بالمصلحة، وإن مقاصد الشريعة مربوطة بالمصلحة، لا يتحدثون بالمصلحة التي هي هذه التي هي الحسنة العاجلة، هذا هو مذهب اللذة، العلماء الذين بحثوا بعيداً عن الشريعة والمفكرون الذين بحثوا بعيداً عن الشريعة في ضابط الحسنة والسيئة، ما هو ضابط الحسنة والسيئة؟ فقال قومٌ: الضابط هو اللذة، الشيء الذي تتحقق به اللذة هو الحسنة، والذي يتحقق به الألم هو السيئة، هؤلاء من المشركين ولا يعتد بهم وهم ليسوا من الإسلام في شيء وأصلاً لم يقل به أحد من أهل الإسلام، أو ممن يعرف من أهل الإسلام وإنما هي مذاهب الشرك.

في الشرع الحسنة هي ما قاله الله أنه الحسنة وهو الذي له العاقبة، وهو الذي له الاستقرار والبقاء ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، فهذا الذي له البقاء، أما الذين يريدون أن يجعلوا الشريعة مربوطة بالحسنة العاجلة، واللذة السريعة، ولا ينظرون إلى العواقب فهؤلاء ليسوا من الفقهاء في شيء، وغالبهم يبحث في هذه المسألة ممن يجيز المعاصي السريعة كالربا وغيرها، ويأتي إليه سائل فيقول له: أجزني، فهذه فيها المصلحة

فينظر فقط إلى المصلحة فيجيزها، فهؤلاء ليسوا من الفقهاء، فهنا ننتبه للعاقبة ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ [البقرة: ٣٥]، أول الظلم وقع على نفسه أنه إذا فعلتم هذا ستكونا من الظالمين، ويكفي هذا الظلم أنه أخرجا نفسيهما من الجنة، هذا أعظم الظلم وكذلك ما ترتب عليه من غضب الرب، غضب الله عز وجل على الإنسان، ﴿فَتَكُونَا﴾ أي فتصيرا من الظالمين.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [البقرة: ٣٦]، زل بمعنى انتقل تحول، ولكنها لا تأتي على المعنى الحسن، لو كلمة انتقل ربما ينتقل من شر إلى خير، ينتقل من مكان سيء إلى مكان حسن لكن زل لا تطلق إلا على الانتقال الذي فيه الشر وفيه السوء، فقال: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾، وقد تطلق على الزلل، أزلهما أي أوقعهما في الزلل.

قال سبحانه: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ [البقرة: ٣٦]، وفي سورة «الأعراف» قال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]، في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، انظر الألفاظ هنا ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾، و﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾، و﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ هناك دعوة، ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فهذا هو فعله، أو كقوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ [الإسراء: ٦٢]، هذه بمعنى لأخذنه كما تؤخذ الدابة إذا احتنكت؛ لأن الدابة إذا أخذت من جهة حنكها سُهل قيادها، فقال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢)﴾ [الإسراء: ٦٢]، لبيان كثرة ما سيقع، وإلا فالشيطان ليس له سلطان ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾، هذا قوله ويوم القيامة لا يكذب، ليس هناك كذب، فالشيطان لم يفعل لم يأخذه بيده لم يقده لكنه وسوس له.

فقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ [البقرة: ٣٦]، هو كقوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]، وإنما هنا ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾، أي لما وقع من العاقبة، ما هي العاقبة؟ أوقعهما في الزلل أو العاقبة أنه أخرجهما من الطاعة إلى المعصية العاقبة، لكن ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾، هي بيان طريقة الإيقاع، والحالة أن الوسوسة دعوة، في الأعراف ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٠] وهي كما ترى كقوله سبحانه وتعالى ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤)﴾ [الناس: ٤]، ونحن قلنا: أنه إذا جاء في الكلمة تكرارٌ الحرف فإنه يدل على التكرار، وسوس هنا انظر الواو تكررت والسين تكررت مع أن السين فيها الصفير، والوسوسة هي دعوة متكررة بخفاء، دعوة إلى الشر، لا تطلق الوسوسة على الدعوة إلى الخير، وسوسة لا تكون إلا على الشر، ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤)﴾ [الناس: ٤]، ولذلك هو جاء إليه بالخفاء دخل إليه بالخفاء.

قال سبحانه: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]، كيف؟ فيما قال الله عز وجل: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٠]، ولكن لم يذكر هنا ربنا سبحانه وتعالى بما أزلهما، ما هي الوسائل التي مناهما ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩]، فالباب الذي دخل الشيطان إليه للإنسان هو الأماني، الشيطان يدخل للمرء من باب الأماني، والأماني لا تقع إلا على ما يحب المرء، يعني الأماني هي من

مرغوبات الإنسان فالشيطان يدخل من باب الأماني، ما هي الأماني؟ من منه أنه إذا أكل منها يحصل له الملك، ﴿الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠)﴾ [طه: ١٢٠]، ونحن قلنا: بأنه سمى هذه الشجرة بشجرة الخلد وملك لا يبلى، وتقدم الكلام أنني أعتقد أن هذه الشجرة هي التي تشعر الإنسان بالخلد والملك الذي لا يبلى، وهي شجرة الكذب أي شجرة الحشيشة أو ما شابهها من الشجر الذي يغير في نفس المرء حقائق الوجود، تتغير في نفسه حقائق ينظر إلى أشياء على غير حقيقتها.

وباب فهم الشرع –هنا نأتي إلى نقطة مهمة– باب فهم الشرع لا يتأتى إلا بفهم القدر على وجه الصحيح، لا يُتصور أن تفهم الشرع على حقيقته حتى تفهم القدر على حقيقته، لا يمكن، فإن لم تفهم القدر على حقيقته لم تصب الشرع، وهنا نأتي إلى مسألة ذكرت وجهها كيف، وأنا أحب أن يلتفت المرء لجوانب أخرى من عظمة الشريعة ومن تعبده لله لما ذكرت لكم مرة هناك فرق بين أن تقرأ القرآن أنه كلام الله عز وجل –قلت لكم مرة– وهذا شيءٌ عظيم يعني أنت تأتي للقرآن أنه كلام الله عز وجل، فتبحث فيه على أنه كلام الله عز وجل، تأتي إليه معظماً، تأتي إليه مبجلاً، تأتي إليه خائفاً، تأتي إليه وجلاً، تأتي إليه طالباً لما أمر الله عز وجل وما نهى عنه وما بين وما أخبر فهذا شيء عظيم، لكن كذلك عليك أن تأتي إلى القرآن مرات لتعريف كلام من هذا –قلت لكم: مرة عليكم أن تلتفتوا لهذا– اذهب إليه لتكتشف في داخله أنه كلام الله عز وجل.

ومن هنا تنشأ لديك المعاني التي تحدث عنها العلماء من الإعجاز –هذا قلته لكم مرة– وهذا مما سنبينه الآن من وجهٍ آخر، أنك إذا أتيت إلى القرآن لتعرف كلام من هذا، أنت يعرض عندك الكلام، واحد يتكلم الشاعر يتكلم، الخطيب يتكلم، العامي يتكلم، يعني أنت تقرأ كلامًا هنا فأنت عليك أن تحلله لتعرف نفسية قائله من هو؟ ومنصب قائله، ومرتبة قائله، من هو؟ من هذا؟ وأن تعرف كذلك حاله وعلمه، هو جاهل أو عارف؟ أنت تقرأ الكلام وهذا ينبغي في هذا الزمن الذي يتخفى لا بأس الآن أنت تذهب إلى وسائل الاتصال المعاصرة إلى «النت»، فأنت عليك إن تقرأ الكلام قراءة ذكية لتعرف كيف تتسلل نفس القائل إلى هذا القول لتعرف ما هو؟ أنت لا تراه الرجل يرسل لك رسالة، يرسل لك كلمة، ربما من مية وأربعين حرف ربما من صفحة، فأنت تقرأ من هذا؟ فأنت تكتشف أن هذا الرجل مثلاً جاهل هذا عالم هذا يعرف يكتب وهذا لا يعرف، هذا رجل خبير له خبرة في هذا الباب الذي يتكلم به، أو ليس له خبرة هذا رجل مضطرب كلامه في الأول ينتقد مع آخره، وهكذا أنت تكتشف في داخل هذا الكلام المتكلم، فهذا فن يجب أن تتقنه، فأنت إذا ذهبت إلى الشعر عرفت نفسية شاعره، هذا جبان، هذا عاشق، هذا شجاع، هذا بليغ حكيم وهكذا العلماء كانوا يكتشفون كلام الشعراء من شعرهم.

فأنت تأتي إلى كلام الله عز وجل كما فعل العربي، يأتيه وهو صاد وهو نافي أن هذا الذي يتحدث، يتحدث كلام الله لكنه يسمع فيعلم أن هذا الكلام هو كلامٌ لا يخرج من البشر، وأنه كلام نفسٍ علويةٌ لا تليق إلا بواحد وهو

الله عز وجل، الآن لماذا هذه الفائدة؟ هذه الفائدة الآن لننقلها إلى ما نحن فيه، ونحن الآن بصفتنا مسلمين نذهب إلى القرآن لنعرف حقائقه وبعد ذلك نعرف حقائق الوجود، وهذه طريقة من أسلم ومن اتبع الحق، ونشأ في أوقات الحق، أي نشأ مسلماً، فهو يعرف الحق ينظر يعني يريد أن يعرف سنةً ما، تحدثنا عن سنة ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، فهو يأخذ هذه القاعدة من القرآن ويتحدث بها، ودليلها في نفسه هو القرآن، ذهب إلى القرآن ليتعلم قواعد الحياة.

الصحابة رضي الله عنهم، علموا الحق لما كانت نفوسهم عالمة لحكمة الوجود، فوجدوا حكمة الوجود في القرآن، فمن هنا الصحابة رضي الله عنهم هم لا يمكن لأمةٍ أو جماعةٍ أو جيلٍ من الأجيال يأتي مثلهم؛ ذلك لأن نفوسهم في معرفة الوجود وحكمته كانت سامية، فوجدوا هذه الحكمة في القرآن ثم ازدادوا حكماً لا يعرفونها، وهي كثيرة وهي الأغلب ولكن في الابتداء عرفوا أن الحق في نفوسهم أنه جاء هنا الحق فهذا هو الحق، شيءٌ يعلمونه من الحق فقاله القرآن فعلموا أن هذا الحق.

ونحن اليوم للأسف نأتي إلى القرآن بمقرراتٍ باطلة نشأنا عليها من خلال استمراء كلام بعض المشايخ أو استمراء الحياة كما يفعل الكثيرون ويبدؤون الأخذ من القرآن انتقاء وتحويراً للقرآن من أجل أن يلائم حكمتهم الباطلة، هذا سبب انحراف وتأويل القرآن؛ أنه يذهب إلى القرآن وفي نفسه مقررات الباطل، من أين نشأت مقررات الباطل؟ نشأت من الأغيار، من الأغيار أخذها، فجاء هو يحبك كذا ويشتهي، أين هو في القرآن؟ فيبحث فيجد الآية تحتمل فيأخذ هذه الآية ويبدأ -كما قال سيد- بتطويع النصوص، بلي النصوص من أجل أن تتلائم مع فكرته، وهذا من أبطل الباطل.

ولذلك المطلوب هو ارتقاء المرء مع القرآن، والمرء لا يرتقي مع هذا القرآن حتى تكون نفسه حكيمة على وجه الحق في معرفة الأقدار، فإذا علم الأقدار على وجهها جاء القرآن فحينئذٍ اجتمع فهمه لأمرين عظيمين فهم الشرع وفهم القدر، وهذا هو الإنسان الذي استوت عنده الحكمة الكاملة، وصح له أن يدخل في الوارثين، هذا مهم جداً.

فقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]، أي إما أنه حملهما من الحق إلى الباطل وإما أنه أوقعهما في الزلل، هذا وجه ما يقوله العلماء في معنى ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ وإنما يقع هذا عن طريق الوسوسة، الوسوسة تكرار الأمر الواو والسين وسوسة مرةً بعد مرة، ونحن نجزم أن كلمة ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٠]، تحمل وإن كان موطنها في سورة الأعراف تحمل دلالة على أنه لم يقع الفعل من آدم من أول مرة، وإنما وقع بعد تطويع، كما قال الله عز وجل في سورة «المائدة» عن ابن آدم، قال: ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ [المائدة: ٣٠]، ماذا تدل ﴿فَطَوَّعَتْ﴾؟ يجب أن نتغلغل في الألفاظ والكلمات لنعرف زمن الحدث.

فبعض الناس لا ينتبهون لزمن الحدث، في القرآن، والزمن شيءٌ مهم، الزمن هنا فائدة مهمة جداً علينا أن نتعلمها، فنحن لو قرأنا عن الناقة ﴿فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ [الشمس: ١٤]، والناس يقرأون النص ويظنون أن الزمن يتلاءم مع نفس سياق الكلام زمناً، وهذا للأسف الذي أتعب نفوسنا وأبعدها عن الصبر وعن دوام الحق؛ لأنه نحن نأتي الشيخ يفكر أنه إذا قام فخطب خطبة ودعى الناس إلى الهدى فإن لم يهتدوا حينئذٍ ينتظر العذاب، أو جلس أسبوع، وهذا من الباطل ومن الجهل أو أنه يظن أنه قام جهاد يعني الآن نحن نقول وصلاح الدين قام وجاهدهم ودخل بيت المقدس، السامعون لهذا الكلام يتجاوزون زمن الحدث، يظنون صلاح الدين جاء وبالنهاية قاتل نشأت معركة حطين وفي النهاية دخل بيت المقدس، ويتجاوزون زمن الحدث، هذا هو معقد سبب هلاك نفوسنا وعدم متابعتها والصبر على الفعل، ومعرفة الزمن الملائم للفعل يجب علينا أن نتعلم زمن الفعل.

انظر قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ [المائدة: ٣٠]، هذه طوعت ماذا تحمل؟ تحمل زمناً فيها تسليك كما أقول دائماً، أو كما يقول أهل السياسة: فيها تطبيع، ما معنى تطبيع؟ يعني أن يتم هناك الزمن طويل من أجل الوصول إلى حالة معينة وأن يعيش الناس بطبائعهم وليس بأديانهم وليس بتاريخهم بأطباعهم، ما معنى بأطباعهم؟ يعني كالدواب يأكلون ويشربون هذا معنى التطبيع، يأكلون بطبائعهم ويتعايشون بطبائعهم دون أديانهم ودون شرائعهم ودون حقوقهم ودون أديانهم.

فلما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ دل على وجود زمن حتى أطاعه، طوعه، أي كان معانداً كان رافضاً كان قاسياً لكنه بقي عليه ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾ بقي يحاورها حتى وقع هذا التطويع، فلذلك لابد من الزمن.

فلما قال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٠]، ليس من أول مرة، قال له: لا، ولذلك ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢١]، فلماذا قاسمهما؟ العرب كما يقول الجرجاني رحمه الله: أن المرء لا يحتاج إلى التأكيدات إلا وقد علم من نفس المقابل له أنه منكر ورافض، يعني أنت تقول: جاء فلان، انتهى الموضوع، يعني كأن تقول: إن فلان لقد جاء، من الذي يحتاج؟ إذًا هناك يجب أن تفهم أن هناك بيئة في بين المتحدث وبين السامع وأن شيئاً في نفس المتحدث ألزمه لهذه المؤكدات، ما هي؟ هو شيءٌ في نفس المقابل، المخاطَب، ما هو هذا الشيء أنه يرفض ويؤكد له لماذا يؤكد له؟ لوجود النافي، فهنا لابد أن نلاحظ الزمن في الحدث، هذا مهم جداً لأننا محتاجين أن نفهم سنن الله عز وجل في الوقوع كيف تقع، أتقع مجرد كلمة؟

فبعض الناس –أقولها دائماً هذه– بعض الناس يظن أن السحرة بعد ما كانوا في قمة الكفر فحصل أن رأوا العصا تتحول إلى أفعى وتلتقم فحصل لهم الإيمان، الحقيقة أن القرآن يبيّن على أن هناك ثمة خلل أصاب نفوس السحرة فأسلموا، ما هو هذا الخلل؟ قال تعالى: قول موسى عليه السلام لهم، قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢)﴾ [طه: ٦١-

٦٢]، ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ حصل هناك خلل، حصل هناك خصومة هذا قبل ذلك، قال: ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، هذه الكلمات العظيمة التي صدرت من نفسٍ عظيمة صادقة ومتيقنة على ما تقول: ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (٦١)﴾، القرآن قال: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾، فماذا حصل؟ حصل تشقق في جدار اليقين على ما هم عليه، هو الأصل كذب ولكن حصل خصومة، صار هناك خصومة ولكنهم عادوا الترميم وأما وقد حصل التشقق والترميم فدل على أن الجدار بدأ يختلف، وحينما جاء العلم اليقين لهم أسلموا، فالزمن مهم جداً وعلينا أن نكتشفه في داخل اللفظ، اللفظ هو الذي يعطيك الزمن كما نبين.

قال سبحان وتعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]، أي الشجرة، قال: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]، فهنا الفاء دل على أنه حصل شيء، أنهما خرج من الجنة، ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، أي من النعيم لأن الله عز وجل وصف ذلك بقوله: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ [البقرة: ٣٥]، فأخرجهما من الرغد، ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، أي الجنة التي فيها الرغد، خلاص من هنا حصل الانقطاع.

في مواطن أخرى بيّن ما الذي وقع لهم من أنهما كشف عن سوءاتهما، وبان لهما العورات التي كانا يحرصان على سترها ... إلخ وسيأتي هذا في السور الآتية وتكلمنا عنها في الدرس الفائت قليلاً في أن أول ما وقع من المعصية وهو كشف العورة، وكشف العورة يعني تسلط الشيطان، كشف العورة يعني أنه خرج المرء من إنسانيته، لأن الأصل في الإنسان هو الحياء، وأن الأصل في الإنسان هو أنه مستور، فإذا كشفت عورته صار سهلاً وصار صيده سهلاً، والشيطان صار له سبيل عليه، خلاص سيطر عليه، انتهى، ولذلك حصل هذا فقال: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾.

وهنا في الحقيقة أيها الإخوة الأحبة قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾ فيه بيان تمام الرحمة على الإنسان، هذا شيء غريب هنا، قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾.

أولاً: فيه بيان ضعف الإنسان، في داخل هذا اللفظ فيه ضعف الإنسان ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾، ولو كان هما من الشر بمكان لقال: فخرجا، أو قوله: فأخرجا ونحن نبحث بعد ذلك عن الفاعل وربما ننسبه إلى الله عز وجل، نقول: الله أخرجهما، ولكن انظر أولاً: إلى ضعف هذه الإنسان أن الشيطان أخرجهما، وكأن إرادتهما في الفعل كانت غائبة، فهذا أولاً: دليل على الضعف، فالإنسان إذا غلبت إرادته إرادةٌ أخرى دل على أن إرادته ضعيفة، هذا أول الرحمة، أنه قال: أنت ضعيف، والله عز وجل يتعامل مع الخلق بحسب ما خلقهم عليه، بخلاف البشر مع بعضهم البشر، البشر مع بعضهم ربما يكون المرء ضعيفاً فيحمله البشر فوق طاقته، لكن هل من رحمة الله أنه إذا علم أن المرء ضعيف حمله فوق طاقته؟ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فإذن ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾، دل على وجود الضعف في الإرادة، أن هذا المخلوق ضعيف فأخرجهما هذا أولاً.

ثانياً: نسب الفعل وكأنهما أزيحا ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾، فدل هذا على رفع الكثير من العاقبة ومن الإثم عنهما، انظر وهذا من الرحمة، أولاً: بيان الضعف بعد بيان الضعف فيه بيان الرحمة، قال: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]، فدل هذا كأنهما في ضعف والله سبحانه وتعالى هو الذي يتحدث، هو الذي يتكلم جل في علاه، هو الذي يقول ويخبر ولذلك قال: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾، وكأن الشيطان فعل أنه أخذهما بأيديهما وأخرجهما من الجنة، فهذا دل على ضعفهما، ولكن كذلك دل على رحمة الله عز وجل أن العقاب عليه أكثر، هو الذي وقع منه، ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، أي من النعيم في الجنة.

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ [البقرة: ٣٦]، هنا وقع إهباطٌ أولي وسيأتي إلى هنا وقع ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ مرتين، هنا في قوله: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ [البقرة: ٣٦]، ثم قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا﴾ [البقرة: ٣٨]، وهذا وقع كذلك في سورة «الأعراف» بصورةٍ أجلى، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣)﴾ [الأعراف: ١٢-١٣]، ثم قال: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨]، فهل دل على أن هل هناك إهباط أولي وإهباط ثاني؟ الأول إهباط معنوي بأن خرج من الجنة ثم تم ثانياً إهباطٌ حقيقي من خروجهما من السماء إلى الأرض وهو الهبوط أي النزول من الأعلى إلى أدنى هذا فيه خلاف بين أهل العلم، أم أن كلمة اهبطوا الثانية، ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا﴾ [البقرة: ٣٨] هي تأكيد لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ [البقرة: ٣٦]، هذا خلاف بين أهل العلم.

والله أعلم أنه وقع منه جل في علاه أمر الإهباط مرتين، خاصةً أن السياق واحد، ودلالة السياق على أنه وقع هذا القول ووقع هذا القول وأن الإهباط هو إهباطٌ مرتين، والإهباط الأول كأنه طردٌ من الجنة، وكأن الجنة، هنا يقول: أين اهبطوا؟ لأن الجنة معلومة لدينا أنها في السماء السابعة، أين الجنة؟ ونحن قررنا أن الأقرب إلى ما تقدم أين وضع آدم عليه السلام؟ وضع في الجنة، والصواب أنها الجنة التي هي ﴿جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥)﴾ [النجم: ١٥]، فدل هذا على أنه قد أهبط إهبطًا أولياً من الجنة، ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾ فحصل أن أُهبطا من الجنة، أين؟ الجنة في السماء السابعة فأهبطا إهبطًا أولياً في السماء، ثم وقع الإهباط الثاني إلى الأرض، والله تعالى أعلم هذا هو الأقرب.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]، أيها الإخوة الأحبة تقدم أن الحديث أنه قال أولاً: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وهنا قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [البقرة: ٣٦]، وتقدم الكلام هل إبليس هو اسم علم أم أنه كذلك فيه صفة الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله وكذلك الشيطان من شط أي بعد، ولذلك يقال: الشط لأنه بعيد، فالناس إذا كانوا في البحر رأوه وهم يسيرون إليه بعيداً ولهذا يقال: الشط، وقال: شط من الشيطان شططاً أي بعد، وهنا قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾، فجاء وصفان له الإبلاس وهو اليأس، وهذه قضية تتعلق به وهو اليأس من رحمة الله، لأن الكلام في الأول حديثٌ عما فعل لأنه قال: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ

أَبَى﴾ [البقرة: ٣٤]، فكان الأليق به هو الكلام عن رحمة الله أنه أُبلس أنه يأس من رحمة الله، لكن لما جاء الكلام عن فعله في غيره قال: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]، فدل على أن أمره بعيد، وانظر التوافق بين كلمة الشيطان –قلنا: شط بَعُد– وبين قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾، وقلنا: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أبعدهما أخذهما من مكان، ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾، أين أخذهما؟ بعيداً عن أمر الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ [البقرة: ٣٦]، والإهباط كما قلنا من العلو إلى الدنو، قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]، هذه هو الذي يقرر القرآن في أن العداء بين إبليس وجنده وبين الإنسان وضعفه وحالته وبين آدم وذريته، هذا العداء يجب عليك أن تستحضره في كل ما يأتي في نفسك من نوازع الشر أو وسوسة إبليس، أن تتذكر أنه عدو لك، قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠)﴾ [الكهف: ٥٠]، وقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧)﴾ [النساء: ١١٧].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا﴾، إلا استثناء، هذا استثناء فهو قاصر يدعونا إلا إناثا والإناث فيهن الضعف، ثم لما قال: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾، فدل على أنه لا يدعون إلا إناث، وثم ذكر شيئاً آخر وقال :﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾، انظر هذه المقابلة إناثًا فيهن الضعف وشيطان مريدا، والمريد، مرد الشيء هو من الأملس وفي الحقيقة الأمر هكذا يقال الذي لا ينبت فيه الشعر يقال: أملس، أمرد، وقال سبحانه وتعالى: في سورة «النمل» ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ [النمل: ٤٤]، لبيان حسن الصنعة، فقال: ﴿مُمَرَّدٌ﴾، فإن الشيء إذا كان قوياً كان على هذا المعنى، أي فيه حسن الصنعة، وإذا كان أمرد أي لا ينبت فيه الشيء، وقال تعالى: ﴿شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ أي شيطانًا قويًا وقد يقال معناه أنه يصيب ما أراد، ذلك لحسن الصنعة فيه.

فانتبه إلى قوله –وسيأتي هذا تفصيله هناك– ولكن نأتي إلى ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧)﴾ [النساء: ١١٧]، فكيف هنا دعا وجعلها استثناء في أمرين؟ وهو يستثني والاستثناء لا يكون إلا واحداً من المذكور أو لا يدخل فيه هذا وثم يستثني منه، فالصواب في ذلك ﴿إِلَّا إِنَاثًا﴾، ذلك لأنهم يسمون الملائكة إناثا هذا واحد، ولذلك هم يدعون إذا دعوا هم يدعون إناثا، أي إذا دعوا الملائكة إذا استغاثوا بالملائكة يدعون على ما يقولون إناثا، أو أننا نرى آلهتهم التي يدعون إنما سموها على أسماء الإناث ماذا قالوا؟ اللات العزى مناة هذه أسماء إناث، يعني هم سموا الأصنام أسماء الإناث، والعرب في دينهم وفي لغتهم أنهم إذا أرادوا التقليل من قوة الرجل أو قوة المرء قالوا: إنه إناث، يقللون قيمته بتسميته إناثا، يعني انظر إلى الغباء الذي وقعت فيه قريش أنهم حين جعلوا الألهة سموها إناثا، وحين أرادوا الملائكة وعبدوهم من دون الله سموه إناثا، والأصل أن يكون العكس أن تكون هذه ذكور، فهذا المراد إناثا أي بما سموا به آلهتهم.

وقوله تعالى: ﴿شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ ما معنى الشيطان مريدا؟ يعني في الحقيقة هم يسمونهم إناثا وفي حقيقته هو شيطانا مريدا أي يصيب منهم ما أراد، بحسن صنعته، والحسن هنا ليس وصفاً بالتحسين ولكن لقوته ولذكائه هذا الفعل الذي يأتي.

فإذن أيها الإخوة الأحبة قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]، هذا هو الذي ينبغي أن يتذكره المرء، يتذكر أن هذا الشيطان هو عدو له فحيث زين له وقاسمه وحلف له فعليه ألا يصدقه وليس هذا في شيطان الجن فقط بل كذلك في شيطان الإنس، نحن نرى في سورة «التوبة» قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٩٥]، ترى تكرار الحلف، وقال بعض أهل التفسير: «لم يكن في نفس آدم قط من تعظيمه لربه أن يأتي أحد فيقسم بالله كاذبًا، فكان هذا أدعى له للتصديق»، أي آدم لم يتصور أن يأتي أحد فيقسم بالله عز وجل يقسم كاذبًا لأنه حلف له، فدل هذا أيها الإخوة الأحبة على أن هؤلاء لا يكلون ولا يتوانون عن إتيان أعظم الشر في سبيل إيقاع المرء في المعصية، سواء من شيطان الأنس أو شيطان الجن، على المرء أن ينتبه لهذا أن يأتيه بالصورة المادحة أو يأتيه بصورة المتدين.

لأنه قضية ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾، ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾، المعروف عند الناس أن الحلف هو تعظيم للمحلوف، يعني المرء لما يريد أن يسحبك إلى جانبه، فإنه يحلف بشيء تعلم أن هذا المحلوف عند الحالف عظيم، والناس لا يحلفون بأشياء لا قيمة لها وإنما الحلف يدل على تعظيم المحلوف به، فلما يأتي هذا المرء يقول أو الشيطان يقول: بالله، فهو أول ما يخطر في بالك أن الله عنده عظيم، وهو في نفسك كذلك، ربما يحلف بأمه وأنت أمه ليست معظمة عندك هذا شيء، ولكنه إذا حلف بأمه ماذا تعلم؟ تعلم أن أمه عظيمة، لأن المرء لا يحلف بشيءٍ مهين، فلما حلف الشيطان أولاً: علم أن الله عنده عظيم، ثانياً: هو عظيم في نفس المحلوف له وهو آدم عليه السلام، ولذلك هذا ما أوقعه، وهذا من الأمور التي ينبغي أن ننتبه لها وهو قول بعض أعداء الدين قال: كم يخيفني الشيطان، –وهذه منسوبة لتشرشل على كل حال النصراني الخبيث رئيس وزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية– قال: «كم يخيفني الشيطان عندما يأتيني ذاكراً اسم الله».

برز الثعلب يوماً في ثياب الواعظينا ... فمشى في الأرض يهذي ويسب الماكرينا

فهذا هو.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ [التوبة: ١٠٧]، مسجد انتبه، هذا اتجاه بناء المؤسسات البديلة التي تحمل اسم الدين، هذا ينبغي أن تخاف منهم وإياك وهذه الظواهر الخادعة واحد لابس واحد لحية واحد ...إلخ،

لا يأتيك باسم الدين وهو يلبس لك ثياب الكفر والشر، لا، يأتي لك بثياب الواعظ، ولذلك من مداخل الشيطان إلى الشر هو أن يأتيك باسم الدين وسهل جدًا هذا، فينبغي على المرء أن ينتبه لهذا، هذا من أعظم مداخل الشيطان، واذهبوا إلى كتاب «تلبيس إبليس» ترون كيف يدخل الشيطان على المتدينين من خلال الدين وكما يدخل على المبتدعة من خلال الشرع وتعظيم الشريعة وكما يدخل على الخوارج من خلال تعظيم الشريعة والإيمان ويقتلون أهل الإسلام باسم الدين ويتبعونهم، وهذا كثيراً ما وقعت فيه أمتنا وما زالت تقع، أن الشيطان يأتينا ذاكراً اسم الله فنهلل.

نابليون دخل الأزهر ولأول مرة في تاريخ الأزهر تدخل الخيول فتطأ الأزهر وتقتل المصلين، وتروث فيه الروث وتفعل فيه الأفاعيل، ثم ضحك عليهم وقال: أسلمت وتبعه المشايخ وصار يسمى بأمير المؤمنين «الحجي» نابليون!! وهكذا يدخلون على الأمة باسم العرب، يدخلون عليهم باسم آل البيت، يدخلون عليهم باسم المشايخ، يدخلون عليهم باسم القرآن، فبعد ذلك تنكشف حقائقهم وإذا هم تحت الأسمال ذئابٌ ومجرمين.

القصد: أن عليك إن تنتبه هذا عدو، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]، وهنا العداوة يجب أن تكون متبادلة بعضكم لبعض، وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ﴾ [طه: ١١٧]، أنت لماذا عدو له؟

وهنا نأتي إلى قضية، في قوله ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، يعني علامة أن هذه العداوة لا تنتهي، من الإنسان ومن الشيطان، أما من الإنسان فإنه ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ﴾ [الحشر: ١٦]، هو بقي له عدو، يعني يؤزه إلى فساده وضلاله حتى يكفر وبعدها ...، هل لما كفر والاه؟ هل لم كفر نصره؟ ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٨]، ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ﴾، فليس فقط عداوة الشيطان إلى الإنسان إلى النهاية ولكن كذلك عداوة الإنسان إليه ستبقى إلى النهاية، سيبقى عدوٌ لك إلى النهاية.

ويوم القيامة معروفة خطبة إبليس في النار، التي هي في سورة «إبراهيم» عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وهذه سماها العلماء الخطبة النارية، اليوم إذا أرادوا مدحًا لخطبة ماذا يقولوا؟ خطبة نارية!! وفي الحقيقة الخطبة النارية هذه هي التي في سورة «إبراهيم» كما قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره.

القصد: أنه عدوٌ لك إياك أن تقبل منه، ولا تستمع له، كان الإمام أحمد رحمه الله من فقهه يأتيه الشيطان وينصحه في الوضوء، يقول له: أذهب وأتم وأحسن وضوئك، انظر حتى هذا الباب، يقول له: أحسن وضوئك،

فيقول: والله الخير لا يأتي منك لا أريد أن أتوضأ، وهو يريد منه أن يوسوس، يعني الشيطان يأتي إليك وأنت تتوضأ ويقول: ما المعنى أن تتوضأ مرة ثانية ولك الأجر؟!! هو عدو لك فعليك أن تفهم أن هذا الذي جاءك، لا شكرًا، فعليك أن تطرده، ولذلك إياك أن تستمع له في صغيرٍ أو كبير.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ [البقرة: ٣٦]، يعني الله عز وجل في علاه، وليس هناك ضميرٌ يعود إليه إلا الله عز وجل لأنه هو الذي بينه وبينهم الحديث، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦)﴾ [البقرة: ٣٦]، فبعد أن قال ﴿اهْبِطُوا﴾، قال: ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾، إذن ما هي الأرض بالنسبة إلينا؟ قال تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨]، ماذا يعني مستقر؟ مستقر بالنسبة للأحياء، ومستودع بالنسبة للأموات، وقال بعضهم: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾، المستقر هو ما في الأرض والمستودع هو ما في الأرحام على خلاف بينهم، والصواب هذا مستقر ومستودع، مستقر في الأرض ومستودع تحت الأرض، لبيان أن الإنسان إما فوق وإما تحت، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦)﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦].

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦)﴾، الله عز وجل إذن الأرض جعلها مستقر للإنسان، قال: ﴿وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦)﴾، إذن هي مستقر لهذا الإنسان وكذلك فيها متاع، وكلمة متاع هنا يعني من المتعة، فيها متاع لكن إلى حين مؤقت وليس بالدائم، فينبغي على المرء أن يعلم أن كل ما يصيب المرء في هذه الحياة وفي هذه الدنيا إنما هو ماذا؟ متاع إلى حين، وأعلم أيها الأخ الحبيب أنه لو كانت هذه الدنيا أن تأخذ منها جميع نعمائها، مقابل أن تخسر فقط –لا أن تدخل النار– مقابل أن تخسر النعيم المقيم لكان هذا غبنًا وجهلا وخسارة، فكيف إذا أخذت بهذا النعيم الذي على المعنى الحرام وكانت عاقبته النار الأبدية أي خسارة هذه؟! وذلك هذا كله نعيم ﴿وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أي إلى وقت معلوم، ﴿حِينٌ﴾ انظر إليها يعني وقت قريب وسينتهي.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، الكلمات هنا أولاً: هذا دليلٌ على عظم الكلمات، أطلقها هنا لم يعّرفنا إياها، لكن مجرد أن هناك ثمة كلمات، سميت بالكلمات فحصل بها توبة الله عليه دل على أن الكلام أمرٌ عظيم، أي لم يصفها الله عز وجل هذه التي حصل بها التوبة فتاب عليه، تاب عليه أي غفر له، رضي عنه، أزال عنه السخط والغضب أزاله، فلمجرد أن يطلق على هذا الفعل صدر من آدم عليه السلام إلى الله عز وجل فحصل به التوبة كلمات؛ دل على أن الكلمات عظيمة.

وهذا يشبه قوله سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام كما في سورة «البقرة» قال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وصف ربنا سبحانه وتعالى فعل إبراهيم عليه السلام في الطاعات التي أبتلي فيها ففتن أنها كلمات انظروا من أجل أن تعرف مقدار الكلام وأهميته، وفي هذا السياق الذي رأيناه من الأول من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠]، بعد أن تم المشهد في أنه قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ

أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣]، فلم يحصل الكلام -بعد العلم- لم يحصل الكلام منه إلا في هذا الموطن.

فلو قال أحد: لماذا لم يعلمنا ربنا في هذه السورة ما هي الكلمات مع إنه علمنا إياها في سورة «الأعراف»؟ سيأتي واختلفوا والصواب أن القرآن يفسره بعض بعضا، فالكلمات في سورة «الأعراف» بينة، قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)﴾ [الأعراف: ٢٣]، هذه هي الكلمات، لكن سيأتي هذا، إنما السؤال هنا: لماذا لم يأتي إلا على ذكر ما تقدم به آدم عليه السلام؟ لم يأتي إلا بوصف كلمات في هذا الموطن، لماذا؟ لأنه يناسب سياق ما بُجِّل وعظم وعزر به آدم عليه السلام عند الملائكة، أي لماذا ذكرت هنا كلمات ولم يذكر غيرها، لم يقل السياق الثاني، لماذا قال: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]؟ من أجل أن يدلل على عظمة ما أعطي آدم عليه السلام، ماذا أعطاه الله عز وجل؟ كلمات، بما بين للملائكة أمر تعظيم آدم بما؟ بما أعطي من كلمات؛ فدل هذا على أن آدم عليه السلام أعطي شيئاً عظيماً ألا وهي الكلمات.

وكان أول الكلمات التي حصل بها الفضل الذي يريده الله عز وجل من عبادة آدم هي هذه الكلمات، ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، إذن ما هي أول عبودية؟ لم يذكر الله عن آدم شيئاً أنه ماذا يفعل في الجنة إلا أنه يأكل ويشرب، ولكن أول عبودية حصلت له بالآلة التي كرم وشرف وعظم بها أمام الملائكة، أول عبادة هي عبادة التوبة إلى الله عز وجل وذلك بالكلمات، ذلك لتعظم قيمة الكلمات أولاً، إذا أطلق كلمات على شيء عظيم فعلامة الكلمة أنها شيء عظيم.

الشيء الثاني: أن أعظم هذه الكلمات التي يتعبد بها العبد من أجل أن يظهر فضل آدم عليه السلام على بقية الخلق هي كلمات التوبة، ولذلك لم يأت في السُنة ولا في الكتاب قط لذكر فرح الرب لشيءٍ كما ذكر فيه أي في السنة لتوبة العبد، يعني ذكر أن الله عز وجل يقابل الشهداء كفاحا، وأنهم أحياء وأنه يكلمهم وأنه يدخلون في حواصل طير الخضر ... إلخ، يذكر عن هذا، ويذكر عن قائم الليل، ويذكر عن نزول الملائكة، والله ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل، لكن هل هناك فضلٌ يعُظم ويكبر أكثر من قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي، (لله أشد فرحًا من توبة العبد من رجل... الحديث قال: لما وجد دابته: (اللهم أنت ربي وأنا عبدك)، النبي صلى الله عليه وسلم شبه فرح الرب بأشد من فرح هذا الرجل حين أخطأ، وأخطأ من شدة الفرح.

فهل هناك نصٌ يبيّن أو أن فيه أعظم من عمل هذه العبادة التي يعطيها هذا الإنسان؟ لا يوجد، فأعظم ما يتعبد به العبد في أصل وجوده في هذه الدنيا وما خلق إلا لهذه العبادة أصلاً هي أصل هذه العبادة وهي التي يتميز بها الإنسان عن الملائكة، لأن الملائكة ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦]، فلا يحتاجون إلى الاستغفار وأما الإنسان فيحتاج إلى الاستغفار بل لا يكفيه استغفار نفسه لنفسه، لا يكفي الإنسان استغفار نفسه لنفسه؛ ولذلك الله عز

وجل وكل الملائكة ليستغفرو للإنسان ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧]، وفي سورة «الشورى» قال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]، يعني لا يكفي الإنسان أن يستغفر لنفسه، ولكن كذلك لابد من استغفار غيره له، وهذا دل على أن أول عبودية تجلت في هذا الباب وهو هذا الأمر، بعد تعظيم آدم قال سبحانه وتعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، لكن هنا حالة بلاغية نتركها إن شاء الله إلى الدرس القادم، جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: آدم عليه السلام عصى الله سبحانه وتعالى ثم تاب إلى الله سبحانه والله سبحانه وتعالى بتوبته تاب عليه وعفا عنه ورضي عنه إلا أن هذا ما رفع العقوبة عنه إهباطه إلى الأرض؟

الشيخ: -هذه كنت أؤجل الحديث عنها ولكن لا بأس معنا وقت- أيها الإخوة الأحبة العقوبة، وتقدم شيءٌ من هذا في الكلام بأن العقوبة تقع على المرء بالمعصية، وتحدثنا عن قضية الظلم ظلم آدم وظلم الإنسان لنفسه إن عصى، قلنا: إن أول من يظلم نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)﴾ [المائدة: ٣٠]، هو الذي خسر، قتل أخاه في النهاية حصل الأمر القدري بخسرانه أخيه، وحصل الأمر القدري بأنه ذهب عنه عقله في معالجة مصائب حياته، لو مات أخوه موتةً ربانية أكانت مصيبة أو لا؟ لكانت مصيبة لقوله تعالى: ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ [المائدة: ١٠٦]، فالموت مصيبة، فهذه المصيبة لو لم تقع بالمعصية لكان له عقلٌ يفوق فيها على الغراب فيصلحها.

إذن ما نتحدث ابتداءً عنه أن المعاصي لها عقوبةٌ قدرية في هذه الحياة الدنيا، وكذلك لها عقوبةٌ شرعية وهي السيئة التي تسجل عليه فتؤجل ليوم القيامة من أجل أن يعاقب عليها، المعاصي إذا وقعت من الإنسان دل حدث آدم لما أهبطه الله عز وجل -وهذا مما قلته كثيرًا في الدرس الفائت والذي قبله- بأن هذين المشهدين في هذه السورة يمثلان حقيقة ما يقع في هذه الدنيا، ومن ذلك هذا أنه لما وقعت المعصية من آدم عليه السلام فإن الله عز وجل تاب عليه، فمسحت السيئة التي يعاقب عليها خلاص ما في معاقبة، لكن لم يمسح عنه العقوبة القدرية، وهذا نجده في الحياة، لو أن رجلاً شرب الخمر، فالخمر يحدث من الآثار السيئة في البدن، فلو تاب لا ترضي ما يحدث معه من أمراض، لو أن رجل أجلكم الله زنا فحملت منه المرأة فتاب، هذا التوبة لا تمسح الأثار؛ ولذلك عقوبة القدرية لا تمسح بالتوبة تقع، وهذا من عدل الله عز وجل ومن أعظم ما ينبغي أن ننتبه له، في أن المسائل القدرية أكثر صرامةً من المسائل الشرعية كيف؟

أنت إذا قمت لتصلي فلم تجد الماء فتيممت، فبغياب المال سقط الحكم الشرعي، لكن عند غياب الماء لا يُذهب عطشك إلا الماء، فلو تبت واستغفرت، لا يزول، لا يوجد عملٌ آخر سوى أن تشرب الماء، هنا لما لم تجد الماء ماذا فعلت؟ تيممت، لكن لا يذهب عطشك إلا الماء، فقد الماء يموت المرء؛ فدل على أن الأحكام القدرية أكثر صرامة من الأحكام الشرعية، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود: ٥٦]، والأحكام القدرية تجري على الجميع بلا استثناء، سواء فعلها المرء بنية وقصد أو بغير نية وقصد، والدليل على ذلك أن هناك من يقتل خطأ، ويقع

الفعل، يعني رجلٌ ضرب على شيء سواد في الليل ظنه دابة حيوان وحش فيموت ثم جاء إليه فوجده إنسان، وهو خطأ لكن الأمر القدري يقع مع أنه لم يقع منه الإثم، فدل على أن الأحكام القدرية ثابتةٌ لا تتغير لا تتبدل، لا لأحد الناس ولا لأنبياء ولا لغيرهم، ولذلك الأنبياء جرت عليهم عوارض البشر من المرض وهزيمة أعدائهم لهم، إلى غير ذلك والألم وإهانة أعدائهم لهم إلى غير ذلك.

فالأحكام القدرية هذه لا ينبغي للمرء أن يساوم عليها أو أن يجعلها هي هينا، لأنها أمورٌ لا تتبدل بحسن نية ولا تتغير بعد وقوعها بالتوبة خلاف الأحكام الشرعية.

بقيت مسألة ثانية وهي قضية معصية آدم في أنه كونه نبي فكيف وقعت منه المعصية؟ نؤجلها هذه من الأمور التي أجلت الكلام عنها إن شاء الله في الدرس القادم.

السائل: شيخنا أنت قلت إن لم نفهم القدر على حقيقته ووجهه لن نفهم الشرع على حقيقته؟ هل هذا بالعموم شيخنا أي هل يختلف العالم عن العامي؟

الشيخ: هذه أيها الإخوة الأحبة مسألة يعني موجودة في كتب أهل العلم لكن نحن نأتي بها على الوجه الذي يلائم قراءة الناس الأكاديمية وغيرها، الله عز وجل نصب الأسماء الشرعية على حقائق كونية، وقلنا في قضية ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ [البقرة: ٣١]: أن وجود الأشياء هو الذي يعطي للأسماء حقائقها وإلا فالأسماء حينئذٍ تصبح خرافة، تصبح كذب، واحد يسمي اسمًا من غير حقيقة، حتى لو سمى شيئاً على غير اسمه كان ضالاً منحرفًا، فالله عز وجل أطلق الأسماء أصلاً على الحقائق، ثم أقام الشرع على هذه الحقائق، يعني لما تكلم الشارع يقول: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨)﴾ [الفرقان: ٤٨]، كلمة ﴿طَهُورًا (٢١)﴾ هي كلمةٌ شرعية ولكنها مبنية على اسمٍ قدري وهو الماء وبوصفٍ خاص وهو النزول من السماء.

فإذن ما هو الشيء الأول؟ الشيء الأول: هو القدر، الخلق ثم بعد ذلك الأسماء ثم بعد ذلك الشرع، الآن لما نتكلم الله عز وجل ركب فينا وقال: ﴿ارْكَعُوا﴾، الركوع هو أمرٌ قدري بمعنى قدرة المرء على أن ينحني ركوعاً، السجود هو أمرٌ قدري، فعلٌ قدري يتعلق بالخلق، أي ما خلقنا فيه وما خلقت عليه قدراتنا إلى غير ذلك، فإذن لا يمكن للمرء أن يفهم كتاب الله حتى يفهم القدر.

ضربنا الأمثلة فيما هو واجبٌ على كل مسلم، لكن أنت الآن مثلاً لما يأمرنا الله عز وجل بالأعداد، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، كلمة ﴿وَأَعِدُّوا﴾ هذا أمرٌ شرعي، تنفيذها أمرٌ قدري، ما هو الإعداد؟ يعني أن يكون عندك سلاح، أن يكون عندك بدن ملائم للحرب، أن يكون عندك فكر يدير المعركة هذا من الإعداد أن تربي ناس يتعلمون كيف يديرون المعارك استراتيجية المعارك الالتفاف والتقدم والتأخر إلى غير ذلك، والأسلحة التي

يستخدمونها، كل الناس يظنوا ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ فقط يعني الذي هو الجانب العسكري في السلاح وهذا غير صحيح، المعارك تحتاج كذلك إلى إدارة تحتاج إلى عقل وحنكة في إدارتها وهذا من الأمر القدري.

الآن انظر إلى هذه الأمثلة، رأينا أن هناك ثمة أقدار لا يجوز الجهل بها، وهناك أقدار واجبٌ كفائي على الأمة أن تعرفها، يعني الآن هناك أمور مثلاً مكة والمدينة، متى يجب عليك أن تعرف أين مكة، ومتى يجب عليك أن تعرف أين عرفات، عرفات أمرٌ قدري مخلوق، والكعبة أمرٌ قدري مخلوق، فلو أن رجلاً جاء وقال: هذه ليست الكعبة، الكعبة مكانها هنا، هو ما الذي غيره؟ هو أطلق الأسماء على غير حقائقها القدرية كفر، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧]، ما هو النسيء؟ هو تسمية الأشهر بغير أسمائها التي قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٦] ثم قال: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧].

فإذن الله عز وجل خلق الشهور وأنزل أسماءها، ورتب على هذه الأسماء أحكاماً، إذا غيرنا الأسماء تغير الحكم، من هنا فالأسماء في القرآن والسنة لا يجوز أن نغيرها، كأن يأتي واحد ويقول: صليت، حتى ولو من قبيل الاستعارة، يقول له: ماذا صليت؟ يقول: صليت قصدت بها دعوت، لا يجوز، خاصةً عند العوام ربما يقول: صلوا على ابن أبي أوفى، يعني صلوا يعرفون معناها، ولكن عند العوام لو قال: صلي يعني يقوم يصلي عليه.

فلذلك الأحكام مرتبة على الأسماء والأسماء مرتبة على الحقائق، على الأمور القدرية البينة، –انتبهوا الآن– إذن الأحكام على الأسماء والأسماء على الأمور القدرية ونحن نعلم أن الأحكام مراتب هناك من الأحكام ما هي فرض عينٍ على كل أحد، فإذا كانت فرض عينٍ على كل أحد وجب عليه أن يعرف الأسماء الملائمة لها والأقدار الملائمة لها وهكذا، وإذا كانت الأحكام واجبة كفائية فيجب عليها واجب كفاية أن تكون الأسماء معرفتها وهكذا، يعني هناك أشياء كثيرة لا يعرفها عوام الناس لا يعرفونها، وهي موجودة في داخل الشرع وليست من واجبات العلم.

أذكر لك مثال لو أننا افترضنا أن قولي في ذي القرنين هو الصواب في قوله تعالى: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦]، فلما تذهب للمفسرين مثلاً كما في البيضاوي أن بعضهم يقول: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ يعني الشمس تذهب وتدخل في مكان هو عين حمئة، وليس المقصود أنها تغرب في آخر مكانٍ وصل إليه، كما نراها نقول: غربت الشمس في الجبال، فليس معناها أنها دخلت في داخل الجبال وإنما عندها، فالآن لما يأتي أحد ويقول: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ فهو فسرها على غير وجهها الصحيح، لكن هل يكون هذا علمٌ لو خالفه المرء واجتهد فيه وليس عنده أدلة عليه، فخالف فيه، هل يكون مخالفاً كمن جاء إلى قوله تعالى: ﴿مَاءً طَهُورًا (٤٨)﴾ [الفرقان: ٤٨]، وقال الماء، لا هذا علمٍ واجبٌ عيني إنكاره كفر، وهذا يجتهد الناس فيه بحسب علومهم بحسب عقولهم واختلافاتهم.

ولكن نحن نقول ونبين للناس: بأن المرء إذا كملت معارفه في الأقدار كملت معارفه في الشرع، يعني الصحابة رضي الله تعالى عنهم لماذا نراهم من أحلم الخلق في الدعوة؟ وأصلب الناس وأشدهم في القتال؟ -نحن عاكسينهم!!- لأنهم يعلمون حقائق الحياة، يعلمون أنك إذا أردت الدعوة إلى الله عز وجل فعامل الناس بالحسنى، ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]، لكن إذا وقعت المعركة وحصل الصدام لا تدر دبرك ولا تتعامل أنه هذا الرجل ممكن يهتدي خلاص انتهت هذه أمور الآن عليك أن تضعها في كيس وترميها في البحر، نحن نجعجع شيء كثيراً وإذا حضرت المعركة نصير نتكلم ونقول: لا، الجماعة عندهم خلق وعندهم دين وما شاء الله عنهم، يذبحوننا ويقتلوننا ومع ذلك نقول: لا، هم عندهم ناس يعني في داخلهم علينا أن نستعطفهم ونبقى نلين الكلام، والمعركة شغالة والدم للركب، ومع ذلك نتكلم حديث الوعظ!! وفي الوعظ نتكلم كأننا في معركة!! وهذا لجهلنا في الأقدار، وهذا صورة والصور كثيرة في هذه الحياة.

فمن هو الحكيم؟ الحكيم هو الذي تجتمع فيه ثلاث صفات،

الصفة الأولى: أن يعرف حقيقة الشيء على ما هو عليه، لا ينضحك عليه، أي يعرف الرجل المتلاعب من الرجل الصالح، يعرف الحقائق كما هي يعرف الحياة.

الصفة الثانية: يعرف ما يلائمه من الفعل.

الصفة الثالثة: ليس فقط أن يعرف ما يلائمه من الفعل ولكن يعرف كيف يديره فعلاً؛ لأن بعض الناس يعرفون الكلمات الكلية فإذا حضرت لا يعرفون إدارتها، هذه هي الحكمة،

إذن الحكمة: أولاً: أن تعرف الشيء على ما هو عليه، ثانيًا: أن تعرف الحكم الملائم له شرعاً وقدراً، ثالثًا: أن تعرف إدارة هذا الشيء لهذا الواقع لأن الأشياء تختلط لا يوجد إنسان سيء بالمرة ورجل صالح بالمرو وهكذا، كما قال الله عز وجل ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧)﴾ [الشورى: ٢٧]، هذه حكمة، هذه عامل بها الصالح والطالح، ولذلك هو سبحانه وتعالى الحكيم جل في علاه.

السائل: ما هو الضابط الذي نميز فيه أن قواعد اللغة العربية ما وضعت من قبل المرجئة؟ لأنهم يعتمدون على اللغة في تفسيرهم للقرآن بدرايتهم فكما أننا لا نأخذ أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن مجاهيل فلا تؤخذ قواعد اللغة العربية عن المرجئة ولو كانوا أئمةً أعلام وذلك لفساد منطقهم وبعود عقولهم عن الحكمة؟

الشيخ: يعني هذا باب طويل ولا أريد أن أطيل ولكن أعطي ما دام أن السؤال بهذا المستوى من العلمية لابد أن يكتفي المرء باللمحات، لا شك ولا ريب بأن أهل اللغة لهم آثارٌ فيما فسروا فيه اللغة وفهموها أن لها آثار على كتاب ربنا، هذا لا شك في ذلك، ولذلك نجد مثلاً الذين انتشرت عندهم قواعد لغوية ما على وجهةً ما، أنها

انصبغت بها تفاسيرهم لكتاب ربنا، فأنشأت عندهم هذا المعتقد الذي يقولونه، يعني هل دخول المبتدع في اللغة العربية أو دخول البدعة في اللغة العربية وتفسيرها له أثر على عقائد الناس؟ الجواب: نعم، هذه حدث. يعني لا نتحدث

مثلاً: نتحدث عن قضية المجاز، فهم المتكلم بالمجاز وصوره فإنها تنصبغ على فهمه لكتاب ربنا هذا واحد.

الشيء الثاني: يقول: هل يصح أن نأخذ قواعد المرجئة انتبه هنا فرق بين تفسير الكلام، لا يوجد مثلاً عالم من اللغة ذهب إلى حرف من كتاب ربنا أو حرف في الشعر العربية ففسره على وجه الابتداع، نحن لا نتكلم هنا عن التراكيب إنما نتكلم عن اللفظ، فلما نذهب إلى واضعي المعاجم اللغوية من أولهم إلى آخرهم، فإنهم يأتون إلى تفسير اللفظ ما وجهه، هل هذا يؤثر على كلام ربنا؟ الجواب: لا، إنما لو ذهبنا إلى الذين يبحثون عن البلاغة أي التراكيب، هل كلامهم أثر على تفسير لكلام ربنا؟ الجواب: نعم.

فإذن سؤال الأخ يقسم إلى شقين الشق الأول: قوله كيف نذهب إلى المرجئة فنأخذ كلامهم في اللغة، ما المقصود؟ إن كان المقصود الكلام في المعاجم، أي معاني الألفاظ، فلا هذا أمرٌ يتعلق بالرواية ما في أحد من العلماء قال: تفسير الألفاظ له وجهٌ قياسي، حتى الغزالي في كتابه «المستصفى»، قال: «اللغة لا تؤخذ بالقياس»، والمقصود أن معنى هذا اللفظ لا يؤخذ إلا على جهة الرواية، هكذا قال أهل اللغة هذا معناه.

الآن جئنا للتراكيب هذه التراكيب ما هي وجهها وكيف تفهم، نعم دخلت فيها المذاهب ودخلت فيها الأقوال ودخلت فيها الكلمات، فنحن نأخذ من المرجئة وغير المرجئة، لو أن امرؤ القيس فسر لنا لفظاً عربياً لأخذناه لأنه يتكلم عن اللغة، لأخذناه وفهمنا منه، وهذا الذي يفعله علماؤنا في استدلالهم بتفسير الآيات وألفاظ ما في القرآن بشعر العرب الجاهلي لم يستنكفوا لأنهم لا يرون أن دينهم يؤثر على معنى هذه الكلمات لكن التراكيب هو الكلام، هذا الكلام هو وجهه وجه المجاز أو وجه الحقيقة، ما معنى المجاز والحقيقة؟ يعني كيف يقع هذا اللفظ على النفس البشرية، ما هو المعنى الذي يثيره هذا اللفظ في النفس البشرية، هذه التركيبة المقصود هذا التراكيب كيف تقع، فهذا الذي يقع فيه ربما ما قاله الأخ السائل وجزاكم الله خيرا.

السائل: شيخنا عندما كنت تتكلم عن الأقدار ذكرت الذي قتل بأنه هذا الشخص لا بد أن تقع عليه أحكام الله القدرية، وهناك حديث (لا يرد القضاء إلا الدعاء)؟

الشيخ: هذا باب السؤال يقول: كيف لا يرد القضاء إلا الدعاء؟ وهذا أمرٌ يسير جداً، السؤال لماذا يذهب الناس إلى أعمالهم؟ يذهب المزارع إلى زراعته، يذهب الموظف إلى وظيفته، يذهب التاجر إلى تجارته، لماذا؟ من أجل أن يصنع قدراً يحبه، لو جلس في بيته لصار بحسب السنن له قدرٌ يلائم كسله، واحد جلس ما اشتغل صار فقيراً،

فماذا نقول؟ نقول: هو صنع قدره بيده، لكن هذا القدر نحن نعلم أنه لم يقع إلا بمشيئة الله عز وجل، وهذا القدر لم يكن إلا بما كتبه الله عز وجل، فهذه القاعدة.

فنقول نحن هذا الرجل يريد أن يغير قدره، يذهب إلى السوق فيشتغل ويبيع ويشتري فنرى قد رجع إلى البيت بالمال وتغير قدره، كان فقيراً لا يستطيع الأكل والشرب لا يستطيع التنعم في بيته فصار غنياً، فتغير القدر بما تغير القدر؟ بطلب الرزق، الله قال لنا: في أبواب لا تعرفونها، هذا بما اكتشفه الناس، هل هذا يعني يختص به أهل الإسلام؟ هذا الباب الذي ذكرناه ابتداءً وهو الذهاب إلى السوق الذهاب للوظيفة الذهاب إلى التجارة؟ فعلمنا أن المرء يغير قدره بيده فهذا أمر لا يتميز به أهل دين عن أهل دين، فجاء الشرع ليقول لنا: إن هناك من أبواب القدر ما يغير القدر مما لا تعرفونه، فعلمنا هذا القدر بالشرع؛ لأن الناس لا يستطيعون اكتشافه لأنه من عالم الغيب، وهذا هو الدعاء.

فكأنما الشارع يقول لك: كما أنك تذهب إلى السوق فتتسوق وتبيع وتشتري فيتغير قدرك من الفقر إلى الغنى، ما معك فلوس لما ذهبت للسوق ما معك قروش في جيبك، ورجعت ومعك قروش، تغير القدر، فأنت هنا ماذا تقول؟ تدعو علمك بابًا من أبواب القدر في كسب الرزق هو الدعاء، فقال: (لا يرد القدر إلا الدعاء)، يعني مما لا يعرفه الناس في عالم الغيب هذا كله من عالم الدنيا، فأنت تقول: يا رب أرزقني فيرتفع، يا رب ارحمني، يا رب رد عليّ ضالتي، يا رب انصرني ... إلى غير ذلك، فأنت إذا رفعت هذا بابٌ من أبواب تحصيل ما تسأل، لكنه أمرٌ غيبي لا تعرفه إلا من قبل الشرع لأن المرء لا يستطيع اكتشافه بنفسه لا يعرف، فقال: (لا يرد القدر إلا الدعاء)،

فضع الدعاء كالدكان يعني هنا دكان جديد آخر فتحته وهو الدعاء وله قواعده، كما أن الاكتساب له قواعده، كما أن التجارة لها قواعدها، كما أن الزراعة لها قواعدها لكسب الرزق، يعني قواعد كسب الرزق في التجارة غير قواعد كسب الرزق في الزراعة، فهذا له فنه وهذا له فنه، كذلك الدعاء له فنه وله طرقه وله اعتقاده، عالم من عالم الغيب فعلينا أن نكتشفه هذا فقط، أفهم إن الدعاء هو بابٌ من أبواب الخير التي أعطاك الله إياها، هو أسلحة، أعطاك أسلحة أعطاك أبواب لا تعرفها في حياتك إلا من قبل الشرع لأنها من أمور الغيب، هذا أعطيها المسلم ومن ذلك التوكل على الله، وليس فقط الدعاء، التوكل على الله، قال صلى الله عليه وسلم: (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً)، التوكل يأتي بالرزق، وقوله صلى الله عليه وسلم الأسماء: (لا توكي فيوك عليك)، يعني الأنفاق، (أنفق ينفق عليك)، هذا من أبواب الرزق من أبواب العطاء وهكذا.

القصد: أن هناك من أمور الغيب ما أعطانا الله عز وجل إياها من الخير التي يحصل بها تغيير القدر من باب إلى باب، وجزاكم الله خيرا وبارك الله فيكم.

السائل: ما قول شيخنا بمنكرين النسخ في القرآن الكريم؟

الشيخ: القرآن الكريم يعني إنكار الرفع بالكلية عن النسخ وما هو المقصود بالنسخ؟ رفع حكمٍ سابق بحكمٍ لاحق، رفع حكمٍ شرعي سابق بحكمٍ شرعي لاحق، يعني كما كانت الخمر حلالاً فالله عز وجل حرمها، على خلاف طبعاً هل هذا رفع الحكم الذي لم يأتي به نص فجاء حكمٌ يرفعه هل هو نسخ؟ هذا الإمام الطحاوي يستخدمه في كتابه «شرح المعاني»، يستخدم هذا على النسخ وهو خاصٌ به على كل حال، لكن على اعتبار أن الله عز وجل ذكر أن الخمر حرم شيئاً وراء شيء، أو كقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ١٥]، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: (خُذُوا عَنِّي، فقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لهنَّ سَبِيلًا ...) إلى آخر الحديث.

فالنسخ هذا ثابتٌ في الكتاب والسنة، يعني والرد عليهم سهل جداً لكثرة ما وقع، كيف نفعل بالآيات التي في القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم كقوله صلى الله عليه وسلم (كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها)، إلى غير ذلك يعني أحاديث كثيرة في النسخ وكذلك الآيات قال تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، فالوصية كانت تجوز مطلقاً للأقربين، ولكنه قال صلى الله عليه وسلم: (لا وصية لوارث)، فيعني هؤلاء المنكرين للنسخ لا قيمة لهم والعلماء مجمعون على وجود النسخ.

لكن السؤال الذي كتبته مرة هل يوجد رفعٌ كلي مع عدم وجود بقاء أثرٍ للمنسوخ؟ هذا الكلام حوله، فأنا قلت مرةً وإكرامًا للقرآن لا أعتقد وجود آية في القرآن، لأن النسخ ماذا ترتبت عليه؟ ترتب على النسخ صورٌ كثيرة منها: وجود نسخ الحكم مع بقاء اللفظ، كما ذكرت قوله تعالى في هاتين الآيتين، قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، فكيف تبقى هذه آيات في القرآن ولا نعمل بها فقط إنما نتعبد بتلاوتها، فسروا هذا بقولهم: لبيان نعمة الله، بقيت من أجل أن تبين نعمة الله عز وجل.

وعندي هذا بعيد يعني أنا أُجّل القرآن أن تبقى فقط آيات من أجل القراءة دون العمل، ولذلك ملت إلى أن هذه الآيات التي بقيت لها آثارٌ من العمل لها آثار، هذا مدخل ما قلته: أنه قد بقي آثار هذه الأحكام في وجهٍ من الوجوه وفي وقتٍ من الأوقات، وبقيت على هذا القول حتى وجدت كلاماً لابن القيم رحمه الله في «مفتاح دار السعادة» يقول هذا القول وله منفذٌ آخر في هذا الباب له منفذ آخر غير المنفذ الذي دخلت فيه، فهذا الذي أقوله والله تعالى أعلم، وأما رفع الأحكام وتغيرها ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾ [البقرة: ١٠٦]، فهذا ثابتٌ في كتاب ربنا سبحانه وتعالى ويكفي أن الله عز وجل أمرهم بالتوجه إلى بيت المقدس فجاء الأمر بنسخ هذا الحكم والتوجه إلى الكعبة فهذا منسوخ، فماذا يفعلون في هذا؟

لكن هل بقي آثار الحكم الأول؟ الجواب: نعم، وهو قول لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد بقي آثار شد الرحال إلى المسجد الأقصى وقيمته ولم يرتفع الحكم بالكلية ولا بعض معانيه.

السائل: شيخنا الشرائع المنسوخة هل نسخت لضررٍ فيها ولشرٍ فيها أم نسخت ابتلاءً من الله سبحانه وتعالى؟

الشيخ: الأحكام الشرعية يا شيخ يعني هنا نقطة مهمة، الحق المطلق في هذه الدنيا له وجود في جوانب المعتقدات والمعاني، ولكن في جانب الواقع أي أفعل أو لا تفعل فهذه تختلف باختلاف الناس، فربما أنت تمنع وبقي هذا في الشرع حتى في ديننا، في الشرع لابد من النظر إلى الواقع هناك مطلقات الصدق هو الحق، والعدل هو الحق، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [الحج: ٦]، فهذه المعاني ثابتة، لكن لما نأتي إلى الشرائع على الأرض، فحينئذٍ لابد من النظر إلى أمور، والنظر إلى هذه الأمور لها معاني متعددة منها: أن يقع الحكم الشرعي على جهة العقوبة لقوم فسدوا وفسدت أخلاقهم فكانوا إلى الحكم في العقوبة عليهم، فشرع عقوبةً لهم، وهذا بقي في شرعنا.

أعطيك مثال: النبي صلى الله عليه وسلم لمن يأخذ بهذا الحديث في منع الزكاة أنه تؤخذ منه نصف ماله وشطر ماله، فهذا حكمٌ خاص لآحاد الناس طب لما تقع به أمة من الأمم كاملة، فلما تقع به أمة يكون حكم لهذه الأمة، وكان الأنبياء يأتون إلى الأمم وبنو إسرائيل تأتيهم الأنبياء، وكانت تسوسهم الأنبياء، فبنو اسرائيل وقعوا في هذه المعاصي، فجاء الحكم ملائمًا لهم، اليد نعمة الله عز وجل يأمر بقطعها، قطع يد السارق، هذه نعمة سُلبها، لماذا سُلبها؟ لمعصيةٍ اقترفها، فيسلب المرء النعمة إذن المعصية، الله عز وجل يحرم عليهم طيبتاهم أحلت لهم، لماذا؟ لمعاصي اقترفوها استحقوا بها هذا، فعلوا المعاصي على وجهٍ من وجوه الغرور ومن وجوه ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، وبقيت هذه في نفوسهم يقولون: خلاص هذا، فيأتي الشرع ليعاقبهم عقوبة دنيوية لأن المعاصي ليست فقط عقوبة أخروية، يأتي الشرع مثلاً يقول لهم: إذا وقعت النجاسة على ثوب أحدكم عليكم أن تقرضوه، عقوبة لهم، أو على بدنكم عليكم أن تقرضوه، ﴿اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦]، لمحبتهم لها، فإذن هذا يلائم الشرع ويلائم الحكمة.

فالأحكام التي وضعت في الأقوام السابقين كانت تلائم الحال الذي هم فيه، ثم كانت الشريعة الخاتمة، التي اجتمعت فيها الخصال كلها على وفق ما عليه البشر من الرحمة، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فجاءت الشريعة هذه شفاء ورحمة، فجاءت شفاء لما فيه من غلط، ورحمة لما قبل الغلط، فيها التوسعة ومن الشفاء التقييد، فأنت الآن لو أدرت أن تعالج مريضاً فتمنع عنه بعض المحبوبات كالأطعمة والأشربة، فجاء الشرع ما فيه شفاء وفيه رحمة وكانت تقع بها الأمم فكانت تطبق عليه بالكامل، فجاءت هذه الشريعة جامعة لكل هذه الخصال، ورفعت الأحكام الكلية عن مجموع الأمة لتبقى الأحكام التي هي فيما يحب الله عز وجل دون عقوبة، فإذا وقعت المعصية اختصت بهم وهكذا والله تعالى أعلم.

جزاكم الله خيراً وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثاني والأربعون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس الثاني والأربعون من دروس التفسير وما زلنا مع قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾ [البقرة: ٣٥-٣٧].

أولاً: نعود فقط على بعض المسائل البلاغية فيما بين أيدينا وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]، فقلنا بأن المعنى أي أوقعهما في الزلل بسببها، المعنى هو أنه أي الشيطان أوقع آدم وزوجه في الزلل فأزلهما أي أوقعهما في الزلل، وقلنا يحتمل المعنى الثاني أي ﴿فَأَزَالَهُمَا﴾، وهذه قراءة مشهورة سبعية مشهورة ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾، قراءة سبعية مشهورة، ﴿فَأَزَالَهُمَا﴾ وهي قراءة حمزة ﴿فَأَزَالَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾، ونحن نعلم، أكرر قلته ربما مرتين في دروسٍ سابقة، «بأن كل قراءة هي وجهٌ من وجوه التفسير»، أي تتعدد القراءات فيتعدد التفسير، وتتعدد القراءات فيتعدد المعنى، وذلك دال على ما أكدته على أنه لا يوجد في القرآن آية واحدة تدل على معنى واحد، لا يجوز لأحد أن يتصور أن آيةً تحمل معناً واحداً إنما تحمل معاني كثيرة، من المعاني الكثيرة التي تحملها هو تعدد القراءات فيها إذا وجدت، وكذلك يمكن الاستفادة منها معاني متعددة، فهذا الذي نراه من تعدد المعاني التي تنشأ في نفس المفسر إنما سببها أن القرآن هو كذلك، وعلى الحقيقة تكون هذه المعاني حقيقية، لكن ليست متعارضة ولا متناقضة بل هي متعددة لتدل على توسع اللفظ القرآني إلى معاني متعددة.

فقوله تعالى: ﴿فَأَزَالَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]، حينئذٍ يقول: المفسرون إذا كان ﴿فَأَزَالَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ فحينئذٍ يكون الضمير في عنها إلى الجنة، أما في قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]، أي عن الشجرة فأزلهما أي أوقعهما في الزلل عنها أي بسببها، كان السبب هو الشجرة، فأزلهما، أما فأزالهما أي نقلهما فيكون التفسير فأزالهما عن الجنة، هذا مما قالوا: ﴿فَأَزَالَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾، فأخرجهما مما كانا فيه.

وهناك مسألة أريد أن أنبه عليها يعني مما نستقيده وهو الذي يسمى عند العلماء بالتوظيف، انظروا إلى قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ [البقرة: ٣٥]، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ [البقرة: ٣٥]، ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩)﴾، دل على لزوم الظلم لهما، فإذا أكلا فلم يقل فتكون من الظالمين إلا أن تتوبا، وهذا يأكد ما قلته في الدرس الفائت من قضية العلاقة القدرية والشرعية مع الإثم، ونأتي إليها هنا بهذا الدليل، فقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)﴾ [الأنعام: ٥٢]، دل على أن الظلم سيلبسهما لا محالة.

ولو أخذنا بفهم المعتزلة أو بفهم الخوارج فدل هذا على الظلم الشرعي، بأنه لا توبة لهما، وهذا لم يقع، فقد وقعت التوبة وارتفع مسمى الظلم عنهما فتاب الله عليهما قال: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، فإذن ارتفع اسم الظلم عنه، فإذا لا يحتج بها على ما يقولونه لأن هناك بعض التفاسير الإعتزالية التي تجعل ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، على وجه الإلصاق الذي لا ينفك، إذا حمل على المعنى الشرعي يعني الحسنة والسيئة.

والصواب أنه ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، على المعنى القدري وهو ما تكلمنا عنه في الدرس الفائت، والمقصود أنه سيصبح حالكما بعد المعصية على حالٍ من الظلم لأنفسكم، والظلم لأنفسكم بما وقع لهما من النزول إلى الأرض والهبوط إلى الأرض، وهذا لم يرتفع، الإثم ارتفع، مسمى الظلم الشرعي ارتفع، ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢)﴾ [طه: ١٢٢]، ارتفع الظلم خلاص لم يعد داخلاً في اسم الظلم خرج منه، لكن هل خرج من اسم الظلم القدري الذي أوقعته المعصية فيه، لا، لم يخرج.

ونحن قلنا في الدرس الفائت ربما الرجل يأخذ الخمر فيمرض فيتوب، فإن التوبة ترفع عنه الإثم، لكن لا ترفع عنه أثر الخمر على بدنه في الإيذاء، بل يبقى مريضًا بسببها، الذي يزني فيحبل المرأة الفاجرة العاهرة، فإنه إذا تاب ارتفع عنه إثم الظلم، لكن لا يتغير واقع المعصية، في أنه أحبل هذه المرأة، فقوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، ارتفع عنه اسم الظلم الشرعي، لكن بقي عليهم اسم الظلم القدري أنه ظلم لنفسه أنه في النهاية خرج من الجنة إلى هذه الأرض.

فقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ [البقرة: ٣٥]، إذن لا يجوز أن تحمل إلا على ما ذكرناه، إذن المقصود به الذي لا ينفك الظلم ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، خلاص، فانظر ﴿فَتَكُونَا﴾ أي تصيرا من الظالمين، فإذا حمل على المعنى الشرعي لا يجوز، إنما يحمل على المعنى بالقدري، ولكن لو حملنا على المعنى الشرعي قبل التوبة، ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، ما لم تتوبا، لقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾،

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ [البقرة: ٣٦]، هنا ثم تكرر قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨]، ما هو الإهباط الأول وما هو الإهباط الثاني؟ للعلماء ثلاثة أقوال ذكرها الإمام القرطبي في تفسيره:

القول الأول: أن هذا من التكرار الذي يدل على الزجر، كقولك للرجل قم، قم، اذهب، اذهب، فقال: له أهبط ثم قال: له أهبط، فهذا من التكرار الذي يدل على الزجر.

القول الثاني: وهو قوله: ﴿اهْبِطُوا﴾، وهنا ﴿اهْبِطُوا﴾، قالوا: لتغير حال الإهباط فإن الإهباط الأول كان من الجنة إلى السماء، أخرجهما من الجنة إلى السماء، ثم الإهباط الثاني من السماء إلى الأرض، تغير الحال.

القول الثالث: وهذا له دورٌ فيما تكلمنا عنه من التكرار في القرآن، قلنا: يتكرر اللفظ في القرآن ثم يتغير معناه بتغير متعلقه به مثال لذلك: شرحنا هذا عند في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وقلنا: الآلاء أي النعمة ليست نعمةٍ في هذه الآية هي نعمةٌ واحدة، إنما لها تعلق بالنعمة المذكورة، أي تذكر النعمة فيقول تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فتكرر اللفظ لكن تغير المتعلق بها، فتغير المتعلق أي يصبح للفظ معنى آخر، فقال العلماء: هنا نفس الشيء، قالوا: الإهباط الأول له متعلق أي ما تعلقت به هذه الآية يختلف عن المتعلق في الآية الثانية:

الإهباط الأول قال: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]، فالإهباط الأول تعلق ببيان عداء الشيطان للإنسان والإنسان للشيطان فهذا متعلقه، العداء.

وأما الإهباط الثاني: لبيان اتباع الهدى، قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨]، فالإهباط الأول تعلق بالإسماع، اهبطك فانتبه لعدائك، وانتبه لعدوك، عدائك أنت له، وانتبه لعدائه هو لك، الثاني اهبط وسأنزل معك ما ينبغي أن تتبعه وهذا هو حال الإهباط، يعني أنت تقول للرجل: اذهب إلى السوق، فاشتري لي طعاماً، ثم تقول له: تذهب إلى السوق فتحضر معك ماء، أو تحضر معك فلاناً أو تخبره فهكذا، يصبح الأمر واحد، ولكن له متعلق يختلف عن المتعلق الثاني.

هذا ما قاله أهل التفسير فيها والأقرب إلى هذا هو الثالث لأنه يجمع في الحقيقة، وأما قضية الإهباط من مكان لمكان ثم من مكان لمكان فإنما هو محاولة الخروج من هذا التكرار من غير دليل، لا يجود عندهم دليل يقول به، وأما القول الثالث فيحتمل القول الأول قم، قم، التكرار الذي يقع فيه الزجر ويكون فيه معاني جديدة.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦)﴾ [البقرة: ٣٦]، قوله هنا: ﴿مُسْتَقِرٌّ (٣٨)﴾، فهذا الذي قلناه، أي أنه يستقر أمركم إلى حين، وقوله: ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾، مما يحتج به على أن هذا الضابط وهو ﴿إِلَى حِينٍ﴾، قد يقع على المذكورين، وقد يقع على أحد المذكورات وهذا معروف، أي عندما قال سبحانه وتعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وبعد ذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، فقوله تعالى:

﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾، عندما حرم على بني إسرائيل ما ذكر ثم قوله: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾، هل هذه كلمة ﴿رِجْسٌ﴾، تعود على كل المذكور؟ أم تعود على آخره؟

وفي قوله تعالى في سورة «النور»: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤)﴾ [النور: ٤]، هذه ثلاث أحكام، ثم قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾ [النور: ٥]، فهل هذا يعود على المذكورات الثلاثة؟ أم فقط على الأخير؟ يعني هل يعود على قوله: فلا تجلدوهم، هل يعود على قوله: اقبلوا لهم الشهادة بعد أن تابوا، هل تعود إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، فقط أم على هذه الثلاثة؟

هذا خلاف بين العلم، والمسألة فيها تفصيل مثلاً: فقط أبو حنيفة قال: التوبة لا ترفع، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾، والدليل أنه لو تاب فإنكم تقيمون عليه الحد، وهذه وقع فيها خلاف، يعني المشهور بين الناس بأن الحدود لو تاب منها صاحبها فإنه لا ترفع عنه الحد، ولكن هذا القول فيه خلاف، للذكر، والأحناف أنفسهم يقولون: بأنه يرفع عنه الحد، وهذا ما يرجحه جمعٌ من المحققين، ويميل ابن القيم رحمه الله ومعه شيخه ابن تيمية رحمه الله: أن الواقع في المعصية التي فيها حد، لو أنه تاب قبل أن تصل إلى الإمام فيرفع عنه الحد، ما لم يكن فيه حقوق، وهذا الذي يميل المرء إليه، والأحناف يقولون هذا، ولكن الذين لا يقولون بهذا يحتجون على المخالف بأنه إذا تاب لا يرفع عنه ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾.

فماذا بقي إذن؟ بقي ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾، الأحناف يقولون: لا تقبل له الشهادة أبدًا، لقوله: ﴿أَبَدًا﴾، وضابطها عندهم قول هذا القيد ﴿أَبَدًا﴾، قالوا: هذا حكمٌ لا ينسخ ويمثلون له بأنه الحكم المحكم، والمحكم عندهم هو ماذا؟ الذي لا ينسخ، هو مُفسر ولا ينسخ، ثمانين جلدة هذا من النص، ثمانين لا يمكن أن تحتمل معنى آخر، لا يقال لها ظاهر هذا نص، و﴿أَبَدًا﴾، هذا يمنع النسخ، فيقولوا: هذا محكم، لا يجوز أن ينقض لقوله ﴿أَبَدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾ [النور: ٥]، فعلى ماذا تعود؟ فالأحناف قالوا: فقط على رفع حكم الفسق عنهم، في قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤)﴾ [النور: ٤]، فقط هذا الذي يرفع عنه، الجمهور قالوا: لا، ترفع، وحتى تقبل له الشهادة بعد ذلك إذا تاب.

وهنا في قوله تعالى: ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦)﴾ [البقرة: ٣٦]، ﴿إِلَى حِينٍ﴾، هل هي في المستقر أم المتاع؟ وبلا شك أنه كله إلى حين ولكن قوله تعالى: ﴿إِلَى حِينٍ﴾، كأنها مدة قصيرة فهي أقرب في لحوقها إلى المتاع وليس إلى المستقر، لأننا نعلم أن الذين في باطن الأرض هم في مستقر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦)﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦]، هذا مستقر، فإلى حين كأنها مدة قصيرة، يقولون: ما دام أنها مدة قصيرة فهي أقرب إلى المتاع كأنها متاع إلى حين، وأما ليس المستقر متاع إلى حين، رد عليهم الآخرون قالوا: لا، أصلاً كل الدنيا

هي قصيرة، قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢)﴾ [التكاثر: ١-٢] قصيرة، والحياة كلها ليست بالطويلة.

القصد: هذا مما وقع فيه الخلاف، هل كلمة ﴿إِلَى حِينٍ﴾ تعود إلى المستقر وإلى المتاع أم تعود إلى الآخر، وبحسب ما يأتون به ولا مانع من لحوقها إلى المعنيين أو إلى أحدهما أصالةً وإلى الثاني فرعًا، الأول المستقر أصالة وإلى المتاع فرع.

قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ﴾ [البقرة: ٣٧] قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى﴾ تدل على السرعة -وهذا مما أنبه عليه- قوله: ﴿فَتَلَقَّى﴾ يدل على أن توبته كانت سريعة، وأوبته كانت سريعة، فقال: ﴿فَتَلَقَّى﴾ والفاء تفيد التعقيب الفوري كما هو معروف، ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، ما هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه؟ فسرت في سورة «الأعراف»، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)﴾ [الأعراف: ٢٢-٢٣]، فالله عز وجل تكلم بعد أن استفاق آدم من معصيته وحصل ما حصل مما ذكرناه من قضية كشف العورة وغيره وأفضنا فيه بما يكفي لا أريد أن أعود إليه.

فلما عاتبه لم يتوقف ولم يتلجلج وهذا من صلاحه ومن نبوته، في أنه فورًا ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾، وقلنا: أن الله عز وجل يطلق على أمره ونهيه وعلى زجره وعلى موعظته لآدم بكلمات تدل على قيمة الكلمة، أنه سماها كلمات، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]، علينا أن نعرف قيمة الكلمة وأهمية الكلمة، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾، أي من العتب والمعاتبة والتذكير بما نُصح به وزُجر من الإتيان به.

قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾، يدل على أن آدم هو الذي تاب فتاب الله عز وجل عليه، من الذي تاب من المعصية؟ آدم؛ فحصلت التوبة من الله عز وجل عليه، التوبة، تاب أقرب ما يكون أنه آبَ، تاب بمعنى آب، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، من الذي تاب؟ الله تاب عليه، أنتم ترون هنا الخطاب كأن آدم غائب، كأنه لم يحدث منه شيء قوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾، فالفعل من الله عز وجل هو الذي ألقى الكلمات على آدم عليه السلام ثم قال: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾، وهذا فعل الله عز وجل على آدم، ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾، فالله عز وجل هو الذي تكلم، والله عز وجل هو الذي تاب عليه وآدم كأنه غائب، ما هو غيابه في السماع، ﴿فَتَلَقَّى﴾ أنه سمع، وما هو الفعل الثاني؟ منه أنه تاب.

لكن لماذا لم يذكر ربنا سبحانه وتعالى توبة آدم؟ ذُكرت في آياتٍ أخرى كما ذكرنا ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، ذكر أنه تكلم، لكن هنا لم يذكر شأن أنه آدم، فقال: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾، أي الله عز وجل تاب عليه، فأين آدم؟ لماذا لم يذكر هنا؟ الجواب: أنه لم يذكر أولاً: وانظر هذا ربط مهم جداً لصدر الخبر، أن الله عز وجل أراد تعظيم آدم، وعظم آدم بأن أسجد له الملائكة، وعلمه، مازال السياق في تعظيم أمر آدم، فقال: لما قال: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، كأن توبة آدم حاصلة، قال: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

المخفي هنا أن آدم قد تاب، ولا يخفي القرآن في سياق القصص والخبر شيئاً إلا وقد وقع بلا تردد، الخبر، أنت تمشي في الخبر فتجد أنه يتركك مع أخبار، لماذا يتركك؟ يتركك لأن الواقع لا يمكن الذي هنا الذي تملؤه لا يمكن أن يقع غيره.

مثال ذلك: ودائماً أضرب بهذا المثال في سورة «يس» ماذا قال ربنا سبحانه تعالى بعد مشهد الحوار بين صاحب يس وبين قومه ماذا قال؟ ماذا قال الله عز وجل في خبره عن هذا الرجل ماذا قال؟ قال تعالى: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)﴾ [يس: ٢٦-٢٧]، فما الذي جرى؟ لم يذكروا القرآن شيئاً مما جرى، إلا الحوار ثم بعد ذلك انتقل المشهد من الحوار إلى أنه في الجنة وأنه من المكرمين، لماذا؟ أين هذه الفجوة ما بين الحوار وبين دخوله الجنة؟ هذا شيءٌ مقرر لا يوجد خلافه، ما هو؟ أنهم قد قتلوه وأنه دخل الجنة، لا يوجد إلا هذا التفسير.

فلما يكون المذكور في الخبر شيءٌ لا يقع شيءٌ في ذهن السامع خلافه فالقرآن يستغني عنه؛ لأنه يكون ذكره من قبيل الزيادة التي لا ضرورة لها، هنا ما ذكر أن آدم قد تاب، لماذا؟ لأنه لا يتصور الذهن خلافه، فقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، دل على أن آدم قد تاب، لماذا لم يذكرها؟ لأن هذا هو شأن تعظيم آدم، لأنه يريد أن يبين أن آدم قد تاب، وبسرعةٍ يغفل ذكرها وكأنها قد وقعت على جهةٍ سريعة.

قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، وانظر إلى كلمة ﴿فَتَلَقَّى﴾، الناس يقولوا: لقيتك، واجهتك، والناس لا يقولون لشيءٍ إذا أطلقته ثم لم يجد له المقابل الذي يتلقاه، تلقاه، يعني ما قال ربنا: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾، إلا وقد أخذها آدم على جهة التلقي والقبول، انظر، فاستغناء القرآن عنها ما دام أنه قال: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾، ما معناها؟ أنه أخذها على جهة القبول والرضا والتسليم له، فقال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]، يعني تلقاها على أي معنى؟ على معنى ما أمر وزجر ونهى.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾ [البقرة: ٣٧]، وهنا نأتي إلى فاصل قرآني ﴿التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، هنا من الذي تاب؟ الله عز وجل، كيف تاب عليه؟ لما هو تاب بالإنابة إلى الله عز وجل، ماذا حصل؟ تاب الله عليه أناب عليه، هو عاد إلى الله عز وجل فعاد الله عز وجل عليه بالرضا والقبول، قال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢)﴾ [طه: ١٢٢].

قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾ [البقرة: ٣٧]، يذكر العلماء –ذكرها شيخ الإسلام في «منهاج السنة»– أن من أسباب عدم لحوق الإثم لفاعل المعصية عشرة، ففرقوا بين الاستغفار والتوبة، وذكر أن هناك ثمة فرق يسير بين الاستغفار أي أطلب مغفرتك، انتبه، ما الفرق بين الاستغفار والتوبة؟ الاستغفار طلب أن يغفر الله عز وجل لك، ما معنى يغفر؟ أن يمسح عنك هذا الإثم، أن يزيله عنك، فإذن الاستغفار هو طلب أن يغفر الله عز وجل لك، وما هي التوبة؟ التوبة هي أمرٌ أعظم من الاستغفار، أن يستغفر يقول أنا فعلته وأطلب منك أن تغفر لي، لكن التوبة أعظم من ذلك فيها أمور زائدة عن الاستغفار، من ذلك ما هو؟ أن ينوي ألا يعود إليها، أن يطلب من الله عز وجل أن يعيده إلى المقام الذي كان فيه، لأنه قبل المعصية كان على مقام، فإذا عصى نزل من هذا المقام، فيطلب التوبة يعني أن يتوب الله عليه أن يعيده إلى ما كان عليه، بل يعود إلى أكثر من ذلك.

فإذن التوبة أشمل من الاستغفار، وهناك أمور لا يصح فيها الاستغفار بل لابد من التوبة، مما يدل على أن التوبة أعظم، يعني الذي يكفر هل يقال: يستغفر أم يقال يتوب؟ يقال: يتوب، فإذن التوبة أعظم من الاستغفار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾ [البقرة: ٣٧]، التواب الذي يعود على العبد حيث يعود العبد إليه، والرحيم لا يحصل إلا بها أنه هو يرحمه، فإذن التوبة أن يعود عليه لكن إن يرحمه هو أمرٌ زائد، التوبة هو أن يعود عليه كما كان على الأمر الذي كان فيه يعني من الرضا وإزالة المعصية والسيئة عنه، لكن الرحمة ما هي؟ الرحمة أمرٌ زائد أن يعطيه فوق ما كان عليه، فإذن هنا ذكر ربنا سبحانه وتعالى العدل والفضل، والقرآن دائماً يأتي بهما معاً ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، ما هو العدل؟ هو العدل، هو الشيء مقابله الشيء على مقداره وما يتحقق به، لكن الإحسان أمرٌ زائد، فالتوبة هي العدل، الرحمة هي الإحسان الأمر الزائد، وهذا هو شأن ربنا مع العبد في قوله صلى الله عليه وسلم: (من أتاني يمشي أتيته هرولة).

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا﴾ [البقرة: ٣٨]، تقدم الكلام ﴿مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨]، وهنا المقصود بها الثلاثة، المقصود به آدم وزوجه وإبليس.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ﴾ [البقرة: ٣٨]، أول ما يطرأ على الذهن قبل كل شيء أن هذا الموطن من السورة في قوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَ﴾ ولم يذهب ذهنك دائما سورة «طه» قوله: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ [طه: ١٢٣]، أول ما يطرأ على الذهن لماذا ﴿تَبِعَ﴾ و﴿اتَّبَعَ﴾؟ لا أريد أن أزيد أريد أن أقرأ لكم ما قاله ابن الزبير الغرناطي في «ملاك التأويل» قال كلاماً رائعاً جميلاً جيداً في هذا الباب، هناك كلام طويل سأختصره بالشرح وهناك كلام قصير سأقرأه لأن من مهمات هذه الدروس هو أن نتعلم كيفية قراءة كتب السلف، يعني المرء يذهب من هذا التفسير إلى كلام أهل العلم فيجده مفهومًا لديه إذا كان شاقاً قبل ذلك، وقال كلاما رائعا وعظيماً،

في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨]، هذا كتاب ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي هو يبحث في هذه المعاني في بيان الفروق بين المتشابهات، يعني لماذا جاءت هذه الآية هنا؟ وجاءت هذه الآية هنا؟ وهكذا، هذا من فنون هذا الكتاب، وإذا أردتم الكتب الجامعة لذلك فهذا كتابٌ مهم في هذا الباب، وكذلك كتاب الإمام محمود جار الله الزمخشري «الكشاف» وبعض الكتب الأخرى، وابن كثير يأتي قليلاً عليها، ولكن هذا كتابٌ من أهم الكتب في هذا الباب.

إذًا لماذا أتى هنا ﴿تبِعَ﴾ و﴿اتَّبَعَ﴾؟ يقول: «هنا سؤالان ما فائدة اختلافهما –أي في ﴿تَبِعَ﴾ و﴿اتَّبَعَ﴾– وما وجه تخصيص كل موضع منهما بما اختص به؟» أي لماذا جاء هنا وجاء هنا، في الأول يقول كالتالي بسرعة والجواب عنه والله أعلم: «أن ﴿تبِعَ﴾ و﴿اتَّبَعَ﴾، محصلان للمعنى على الوفاء»، أي كلاهما فيهما معنى واحد، ولكن سنرى بما افترقا، يعني هم اجتمعا على معنى واحد وافترقا كل واحدٍ على وجه، على الوفاء، قال: «﴿تبِعَ﴾ و﴿اتَّبَعَ﴾ محصلان للمعنى على الوفاء، و﴿تبِعَ﴾ فعل وهو الأصل، و﴿اتَّبَعَ﴾ فرع عنه لأنه يزيد عليه، وهو منبئٌ عن زيادة معنى في الفعل».

إذن نحن نعرف قاعدة ودائماً نذكرها وهي صارت الآن مبتذلة ومشهورة، «إذا زاد المبنى زاد المعنى»، ما المقصود إذا زاد بناء الكلمة زاد معناها، وهذا بين في سورة «الكهف» مثلاً: يستطيع ويسطيع، ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾ [الكهف: ٩٧]، فعلمنا أن ﴿اسْتَطَاعُوا﴾ هي استطاعةٌ أكثر، تحتاج إلى استطاعة أكثر من ﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾، ما هو الأشق في ذلك الزمن؟ اليوم ما هو الأشق التدمير ولا أنك تجيب قنبلة أو متفجرة وتحطها في داخل الجدار وتزيله؟ اليوم الاختراق أسهل من الصعود، لكن في زمانهم ما في طرق إلا الطرق اليدوية في إزالة الجدار، فلما جاء إلى الصعود قال: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧]، لأنه أقرب إليهم أسهل، لكن لو أرادوا نحته وإزالته بأيديهم لاحتاجوا إلى قوة أشق وأكثر، فازداد المبنى بزيادة المعنى، الصعود إليه سهل من نقبه فقال: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾، أي يصعدوا على ظهره فينزلوا إلى أعدائهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾ [الكهف: ٩٧]، أشق، هذا من التنوع القرآني، بالرغم أنه لو جاءت أحدهما لوحدها دون الأخرى لما كان استخدم إلا استطاعوا، أي لو جاء فقط ذكر الصعود لما كان استخدام إلا استطاعوا، أي لو لم يوجد قضية الاختراق لما استخدم المتكلم إلا استطاعوا، هذه ذكرناها من قبل ذكرنا: «إذا انفرد كان على معنى وإذا اجتمع كان على معنى» وذكرنا هذا في قوله تعالى عندما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩)﴾ [الواقعة: ٦٩]، ثم قال: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ﴾ [الواقعة: ٧٠]، ما قال: لجعلناه، لكن لما جاء إلى قضية ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ﴾ [الواقعة: ٦٤-٦٥]، لما اجتمع الأمر هذا وهذا كان لابد من التفريق بينهما لاختلاف الحال، فإن حرق الزرع مقدور عليه من قبل الإنسان، ولكن إنزال الماء من

السماء مالحاً لا يستطيع عليه إنسان فما كان هناك ضرورة فقال هناك لما كان الأمر على سعة الإنسان، قال: ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ [الواقعة: ٦٥]، ولكن لما جاء إلى قضية لا يستطيعها الإنسان قال: ﴿جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]، ولكن لو انفرد كل واحد دون الآخر ليس في موطنٍ واحد، لما كان هذا التفريق له ضرورة، لكن إذا اجتمعا لابد من التفريق لبيان الاختلاف، وبيان الاختلاف مهم.

الله عز وجل يقول عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة: ١٢٧]، بعد ما انتهى من الخبر قال: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [البقرة: ١٢٧]، للدلالة على أن جهد ما يبذله والحال الذي يبذله إبراهيم عليه السلام غير الذي يبذله إسماعيل عليه السلام، لأنه لو كان على حال واحد لقال: وإذ يرفع إبراهيم وإسماعيل، ولكن لما كان الحال مختلف من جهد إبراهيم عليه السلام ومن جهد إسماعيل عليه السلام، فرق وقال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ هو الذي يرفع، ثم قال ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ يعني كأنه رديفٌ له مساعدٌ له، فإذا اجتمع الكلام في حال لابد من التفريق لبيان الحال، لبيان الفرق، وهذا في القرآن بيّن، قلنا: هذا من أجل زيادة المبنى وزيارة المعنى.

فإذن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وقوله: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ [طه: ١٢٣]، ماذا يقول؟ يقول: ﴿اتَّبَعَ﴾ فيها أمرٌ زائد، وإن كان كلاهما يدل على المعنى، الآن هذه النقطة بعد أن ينتهي منها يأتي إلى سبب لماذا زاد القرآن هذا اللفظ في سورة «طه»، ولم يأتي بهذه الزيادة في سورة «البقرة»، لماذا؟ هذا ابن زبير مما متع الناظر فيه والقارئ لكتابه المهم أنه يقول: فعلى هذا وبحسب لحظه ورعيه –يعني لازم تلاحظ هذا وأن ترعاه– ورد ﴿فَمَنْ تَبِعَ﴾ [البقرة: ٣٨]، و﴿فَمَنِ اتَّبَعَ﴾ [طه: ١٢٣] وتقدم في الترتيب المتقرر فمن تبع لإنبائه عن الاتباع من غيره»، انتبه هنا يأتي هذا الكلام هذا المهم:

يقول لك: ﴿تَبِعَ﴾ و﴿اتَّبَعَ﴾ فلما زادت في المبنى زادت في المعنى إذن ﴿اتَّبَعَ﴾ فيها مشقة زائدة عن ﴿تَبِعَ﴾، حين يتبع هنا ففيها معنى سهل مقابل ﴿اتَّبَعَ﴾ إذن هناك مشقة، لماذا المشقة في سورة «طه» أزيد من المشقة في سورة «البقرة»؟ هذا هو ما يبحثه هنا يأتي الفنون ليس كافياً أن تأتي إلى العمومات لابد أن تبحث كذلك عن خصوصية هذا العموم في هذا الموطن، لابد أن تبحث، يعني أنت تعرف أن هذا أشق، وأن زيادة المعنى تتبع زيادة المبنى، لكن لماذا؟ كما فسرنا في قضية ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾ [الكهف: ٩٧]، علمنا، فمعرفة الموطن من السياق الخاص هو الذي ينبئك عن هذا التغير.

انظر ماذا يقول: «وتقدم في الترتيب المتقرب ﴿فَمَنْ تَبِعَ﴾ لإنبائه عن الاتباع من غير تعمُلٍ ولا تكلف ولا مشقة، وأما ﴿اتَّبَعَ﴾ فإن هذه البنية، أي بنية الكلمة أعني بنية افتعل تنبئ عن تعمُلٍ ﴿اتَّبَعَ﴾ تعمُل وتحميل للنفس فيها مشقة، فقدم ما لا تعمُل فيه وآخر ﴿اتَّبَعَ﴾ لما يقتضي من الزيادة، ولم تكن إحدى العبارتين لتعطي المجموع

فقدم ما هو أصل وأخر ما هو فرع عن الأول وكلهما هدى ورحمة وورد كلٌ على ما يناسب ويلائم»، وهذه ما يناسب ويلائم هو من بعد يشرحها.

هو يقول: عادةً قدم الشارع أني أعطيك من الأوامر ما تقدر عليها سهلة، وهناك من الأوامر ما ينبغي أن تبذل فيها المشقة في البحث، كأنه يريد أن يقول: القرآن جرى على مجرى التربية لأتباعه، ماذا تجري تربية؟ هل تبدأ بالمشقة أم تبدأ بالسهل؟ التربية على ماذا تجري؟ تجري على وفق السهل أول حتى يرتقي فتقدم له الأعلى والأصعب والأشق، وقال: هكذا القرآن بدأ في قضية ﴿تَبِعَ﴾ لما هو سهل، فلا ارتقى به حتى أتى إلى ما فيه تعمل ومشقة وجهد وتكليف، ارتقى من الحال إلى حال، لكن وهو يأتي إلى الكلمة الأخيرة وقال: «ورد على ما يناسب ويلائم»، الكلام على قضية الترتيب أولاً أنه هذا جاء أول وهذا جاء ثانياً في ترتيب القرآن، فبدأ بالأسهل ثم انتهى إلى الأشق والأكثر تعباً.

فما يناسب؟ أي كيف تناسب الأمر في سورة «البقرة» مع ﴿تَبِعَ﴾، وكيف تناسب الأمر في سورة «طه» مع ﴿اتَّبَعَ﴾، كيف تناسب؟ انظر إلى كلامه الرائع، سأقرأ لكم فقرات الكلام طويل يبدأ في البيان، قال: «انظر إلى القرآن متى استخدم» هذا يجب أن نتعلمه، يجب أن نتعلم كيفية قراءة كتاب ربنا، الآن يبدأ في كشف متى أستخدم القرآن كلمة ﴿تَبِعَ﴾ في غير هذا الموطن، ومتى أستخدم كلمة ﴿اتَّبَعَ﴾ في غير هذا الموطن، يكشف هذه طريقة عظيمة يستخدمها كل المفسرين، في كيفية استخدام اللفظ متى يكون هنا ومتى يكون هنا؟ إذن ذهب إلى غير هذا الموطن من ﴿اتَّبَعَ﴾ في سورة «البقرة» إلى مواطن أخرى وذهب إلى ﴿تَبِعَ﴾ إلى مواطن أخرى في غير سورة «البقرة» ليرى متى يستخدم ﴿تَبِعَ﴾ ومتى أستخدم ﴿اتَّبَعَ﴾، انظر إلى الكلام الرائع.

وهناك كلام طويل فقد آتي إلى شرح ما تقدم، قال: «ألا ترى قول الخليل عليه السلام في إخبار الله تعالى عنه ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦]، حين أشار بقوله: ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ إلى الخاصة من سالكي سبيله باتباعه القديم فعبر بما يشير إلى غاية التمسك والقرب منه»، لما كان الحديث عن جماعة قريبين جداً منه ويعملون بالأوامر على جهة السهولة من غير مشقة قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، هو حديث عمن؟ عمن هو سالك مع إبراهيم قبل، فالسالك مع إبراهيم بما هو قبل دل على أنه يأتي بالأوامر سهلة عليه بلا مشقة، فإذن لما كان الحديث عن المقربين في الطاعة وعن المكثرين لها وعن المتعاهدين لهذه الطاعة عبر بمسلك السهولة ﴿فَمَنْ تَبِعَ﴾ [البقرة: ٣٨] ما قلنا سهولة ﴿تَبِعَ﴾ بلا مشقة.

قال: «فعبر بما يشير إلى غاية التمسك والقرب حين قال: ﴿مِنِّي﴾، فناسب ذلك قوله: ﴿تَبِعَنِي﴾»؛ لأنه يريد الجري على مقتضى الفطرة وميز الحق بديهةً بسابقة التوفيق من غير إطالة لكن انظروا طرف آخر من حال هؤلاء من قيل فيه قال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [القصص: ٥٠]، لما كان على قضية اتباع لهواه ومخالفة الشرع قال: ﴿وَمَنْ

أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [القصص: ٥٠]، علامة أن الأصل في الفطرة هو مخالفة ذلك، فحمل نفسه على اتباع هواه، الأصل في الفطرة أن تجري مجرى الشريعة ومجرى الأمر الإلهي، لكن هذه النفس إذا حملتها على المعصية إنما تحملها حملاً قسرياً شديداً، فلذلك لم يقل: ومن أضل مما تبع هواه، بل قال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، ففيها لي لهذه النفس وفيها مشقة.

إذن هذا تقرير لما تقدم، أن ﴿تَبِعَ﴾ غير ﴿اتَّبَعَ﴾، و﴿تَبِعَ﴾ تأتي على معنى السهولة واليسر و﴿اتَّبَعَ﴾ تأتي بمعنى المشقة.

الآن السؤال أين المشقة في موطن سورة «طه»؟ بعد كلامٍ طويل له يأتي إلى تفسير هذا الحال الذي شرحه في الموطنين قال: «وإذا تقرر هذا –لما تقدم الذي قلناه– فتأمل ما بين القضيتين أي الموطنين فأقول لما تقدم آية البقرة قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥] إلى قوله ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: ٣٨] ولم يرد فيها مما كان من إبليس سوى ما أخبر به تعالى عنه من قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦] من غير تعرضٍ»، ونحن قلنا في الدرس الفائت، في هذه السورة سورة «البقرة» لم يذكر لنا القرآن طريقة إبليس في إغواء آدم، ما ذكر سوى قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ لكن ﴿فَوَسْوَسَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ [الإسراء: ٦٢]، ما ذكرت هنا، فذكر فقد ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ [البقرة: ٣٦] أبعدهما، لكن كيفية هذا الإضلال، لم يرد هنا في هذا الموطن، ما ورد الكيفية، إنما ذكر فقط نتيجة الفعل، وأما كيفية وقوع الإغواء ووقوع الزلل ففي آياتٍ أخرى.

قال: «ولم يرد فيها مما كان من إبليس سوى ما أخبر به تعالى من قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]، من غير تعرضٍ لكيفية تناوله ما فعل، ولا إبداء علةٍ ولا كبير معالجة»، ما ذكر ولا معالجة ما قال: ﴿فَدَلَّاهُمَا﴾، ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾، في مشقة لأخذه من الطاعة إلى المعصية، يعني حين تذكر الأسباب يكون فيها المشقة هنا ما ذُكر، هنا ما ذكرت الأسباب الداعية ولا الوسائل المستخدمة من أجل إضلال آدم، فما ذكرت المشقة، قوله تعالى ناسب هذا ﴿تَبِعَ﴾، لما لم يذكر ناسب ﴿تَبِعَ﴾، لكن لما ورد في سورة «طه» ذكر الكيفية في إغوائه بقوله ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠)﴾ [طه: ١٢٠]، وقد حصل في هذا الإشارة إلى قوله تعالى في سورة «الأعراف» ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠)﴾ [الأعراف: ٢٠]، وقسمه على ذلك، ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١)﴾ [الأعراف: ٢١]، فكان هذا كله قد تحصل مذكوراً في أية طه بما تضمنته من الإشارة إليه فأفهمت الآية، أي في سورة «طه» قوة كيد اللعين واستحكام حيلته حين احتنك الكثير من ذريته وحملهم على عبادة الطواغيت إلى غير ذلك.

لما كان في سورة «طه» ذكر طرق العمل الشديد الذي عمله مع آدم عليه السلام من حلف الإيمان وكيف دلهما وكيف قاسمهما، إلى غير ذلك فدل على أن آدم عليه السلام وقع في مشقة كبيرة، فهذه المشقة الكبيرة ماذا تستدعي؟ افتعال الاتباع، يكون الاتباع شديد فقال: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ [طه: ١٢٣]، حينئذٍ الاتباع يكون شديداً ولا يكون مثل هذا الأمر لأنه لم يذكر فيه فقال: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: ٣٨]، هذا ما قال به ابن الزبير وهو كلامٌ عظيمٌ جميلٌ رائع.

طبعاً ذكر هنا الشيخ لماذا وقع قوله تعالى في سورة «طه» ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠)﴾ [طه: ١٢٠] بالجزم، ﴿هَلْ أَدُلُّكَ﴾، لكن في سورة «الاعراف» التي قرأناها قال تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠)﴾ [الأعراف: ٢٠] وقع الشك لماذا؟ لأن هذا حال وهذا حال، يعني في الأول هو شكك بعد ذلك جزم، في الأول شكك الوقوع ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾، لكن بعدها خلال الحوار قال لهم: هذا هو الواقع، وهذه هي الحقيقة، بعد أن أقسم لهما ما أقسم وحلف لهما الإيمان إلى غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨]، تقدم ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]، فذاك فيه ذكر المانع، ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ هذا فيه ذكر المانع الذي ينبغي أن يحذر منه، وهنا قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ فيها ذكر الطاعة، ما هو الأقسى على النفس، مصارعة اتباع الحق أم مصارعة ما يدعو إليه الشيطان؟ بلا شك أن ما يدعو إليه الشيطان هو الأشق على النفس فقُدم في الذكر، فقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]، تقدم هذا على قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨]، إلى قوله تعالى إلى أخر الآية.

قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨]، ما المقصود بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾؟ المقصود به القرآن، المقصود به كلام الله عز وجل، المقصود به الأوامر، المقصود به الأحكام الشرعية، يقصد به الإرشادات القرآنية، وهكذا، ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ البشرية ما يأتيها من الله عز وجل فهو فيه الهدى، وهنا لابد من مسألة، الرأس يسمى عند العرب بالهادي، يعني الذي يوصلك إلى المقصود، لماذا اختار القرآن لفظ هدى هنا، ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾، لماذا؟ هدى لأن تعود إلى الجنة التي أخرجت منها، فذكرت كلمة الهدى مناسبة لحال الطرد أنك أنت خرجت من الجنة بالمعصية، فسيأتيك مني وسائل وأوامر وتشريعات لأن تعود إلى الجنة، فهنا ناسب كلمة الهدى يعني يعرفك الطريق يهديك إلى الطريق، طريق لماذا؟ للعودة الى الجنة هذا هو المناسب لذلك والله تعالى أعلم.

قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨]، وهنا أكرر قلنا: الله عز وجل تكلم كلاماً حقيقياً مع هؤلاء الثلاثة، ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾، وهذا دليل على أن البشرية لا

يمكن أن تعرف الحق من جهة نفسها، فقصر الهدى عما يأتي من الله عز وجل، البشرية لا يمكن أن تعرف الطريق الهادي إلى الحق لا يمكن، إلا أن يأتيها هذا الحق من أين؟ ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾ [البقرة: ٣١]، فلابد من الأمر العلوي أن يأتيك من الخارج، وأما أنت فلا تستطيع أن تُنشئ من نفسك الحق، لا تستطيع أبدًا، ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾، هذا حصر لأن الهدى لا يأتي إلا من الله سبحانه وتعالى.

لكن هنا نحن نقول دائمًا: أن الفعل إذا جاء من الله عز وجل فإنه يأتي بصيغة الجمع، وإذا جاء الحديث عن التوحيد جاء بصيغة الأفراد، ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾ [طه: ١٤] لكن هنا ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ [يوسف: ٢] ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا﴾ [البقرة: ٣٨]، ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا﴾ أقال: يأتينكم منا، قال: ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي﴾ [البقرة: ٣٨]، ذلك لأنه واحد والحق واحد، فناسب الإفراد، لكن لما قال: ﴿قُلْنَا﴾، إنما هو خطابٌ علوي يراد منه التشريف والتعظيم والجلال، لكن لما كان الهدى واحداً ناسب أن يكون منسوباً لواحد فقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨].

هنا سؤال لماذا يقول: ﴿جَمِيعًا﴾؟ لماذا هنا تأتي كلمة ﴿جَمِيعًا﴾؟ مع أن الخطاب ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا﴾، والجمع يدل عليه، وعندي دل على وجود من يناكف، من هو هذا؟ هذا بابٌ واسع، من الذي يناكف؟ فقال قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ من أجل أن يدل على العموم ليقضي على المناكفة، ما قصدتني ما ذكرتني أنت مقصود ﴿جَمِيعًا﴾، وهو من ألفاظ العموم كما تعلمون.

قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: ٣٨]، هنا ما قال: فأما يأتينكم مني الهدى، ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾، لم يأت بكلمة الهدى، دل على تعدد الشرائع، عندي دل هذا على تعدد الشرائع، لأن الشرائع مختلفة بالنسبة للبشرية والخطاب لآدم عليه السلام، فدل على تعدد الشرائع النازلة على ابن آدم، قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: ٣٨]، هذا الوعد الأول قال: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾ [البقرة: ٣٨]، فهذا الوعد المذكور هنا وسنأتي إن شاء الله في السور القادمة على وعودٍ أخرى.

قال تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾ [البقرة: ٣٨]، ما الفرق بينهما؟ ما الفرق بين الخوف والحزن؟ إذا فاتك شيء أتخاف أم تحزن؟ فاتك شيء من الخير، ما الذي يصيبك، خوفٌ أم حزن؟ الحزن، لكن إذا كان شيء قادم تخاف فواته إن كان خيراً أو تخاف أن يصيبك إن كان شراً فهذا يقع عليه الخوف، فقوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣)﴾، لا يصيبهم حزنٌ لما فاتهم ولا يقع منهم خوفٌ لما سيأتيهم، وهذا وعدٌ دنيوي، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣)﴾، هذا لا يقع في الآخرة، إنما هذا وعدٌ دنيوي، لكل ما يقع لك، لا تخاف مما سيقع، ثم لماذا قدم الخوف على الحزن؟ لأن الناس حين يحزنوا قد ترطب قلوبهم لكن الخوف بما ترطب قلبه هو قادم عليه، ولذلك الأشد على النفس الخوف، الخوف أشد على النفس من الحزن، مع أنه هو الأصل أن

تقع كلمة الحزن لما فات قبل؛ لأن الحزن حديث عما فات والخوف حديث عما هو آت، فالذي فات هو الذي يقع عليه الحديث، لكن لما كان شأن الخوف أشد على النفس تقدم ذكره، والعرب أعنى في الذكر والتقدمة لما هو أهم.

فقوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، هنا هذا كله من الالتفات الذي ذكرنا هنا لما قال: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي﴾ [البقرة: ٣٨]، هنا تغير الخطاب من الجمع، قوله تعالى ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ﴾ [البقرة: ٣٨]، ﴿فَمَنْ تَبِعَ﴾ واحد، قال: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، رجع إلى خطاب الجماعة، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾ [البقرة: ٣٨]، هذا كله من التنوع في الخطاب من أجل معاني القرآن التي تقدم ذكرها.

قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾ [البقرة: ٣٨]، تقدم هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾ [البقرة: ٣٩]، هذا هو النوع الثاني من البشرية في تعاملها مع الهدى، تعامل مع الهدى أولاً الذين يتبعونها، والاتباع هو السير ورائها، المشي وراءها والأخذ بها، وأما الآخرون فذكر الله عز وجل نوعين من مناقضة الاتباع:

النوع الأول: قال سبحانه وتعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾، النوع الثاني: قال تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، ونحن قلنا دائمًا بأن الواو تقضي المغايرة لكن ليس شرط المغايرة الكلية، فقد تكون مغايرة في النسبة يعني هل الإحسان هو الإسلام والإيمان؟ نعم، ولكن هناك نسبة، ما أعظم؟ الإحسان والإيمان ثم الإسلام فقد يأتي، فهنا المفارقة بينهم ليست مفارقة كليا، لا تقول هذا أسود وهذا أبيض وهذا خير وهذا شر، وهذا أجود وهذا جيد، لا أنت تتكلم هنا عن مراتب، فقد تكون المغايرة في المراتب، وقد تكون المغايرة في الجنس، فإذن هنا قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [البقرة: ٣٩]، ما الفرق بين الكفر وبين التكذيب؟ ما دام أن بينهما فرق فلابد أن يذكر، وما دام أنهما قد ذكرا مع واو المغايرة دل على وجود الفرق بينهم، إذن ما الفرق بين كفروا وكذبوا، وهذا كثيراً ما يأتي في القرآن يأتي الكفر ويأتي التكذيب، ما هو الكفر وما هو التكذيب؟

التكذيب، هو معروف، فالأحكام الشرعية، أولاً ما هي الشريعة؟ كما يقولوا: إنشاءٌ وإخبار، الإخبار لما هو قصص وما هو خبر يتعلق بالتصديق والتكذيب، الخبر بما يجابه؟ إما بالتصديق أو بالتكذيب، الخبر أي أن يقول لك: هناك ملائكة هذا خبر، أن يقول لك: بعد الموت هنا الجنة ونار هذا خبر، أن يقول لك: هناك جن هذا خبر، أن يقول لك: هناك حساب هذا خبر، فهذا ما الذي يقابله إما التصديق أو التكذيب.

ولكن الأمر الذي يقول لك: افعل أو لا تفعل، لا يقال: التصديق والتكذيب، إنما يقال افعل أو لا تفعل متعلق به ماذا يقال الإنشاء، افعل او لا تفعل، فماذا يقابله؟ الطاعة أو المعصية، إذن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٣٩]، يتعلق بالطاعة والمعصية، ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [البقرة: ٣٩] يتعلق بالخبر، وكلام البشر عند أهل البلاغة وكلام كل

متكلم لا يخرج عن هذين الحدين، كل كلامٍ في الوجود لا يخرج عن الإنشاء والإخبار، أي لما تقرأ أنت في البلاغة أول بحث تدرسه، يقال لك: «الكلام إنشاءٌ وإخبار»، ما الإنشاء؟ الذي يتعلق به افعل أو لا تفعل، طبعًا وأنواعه كثير، والخبر يتعلق به التصديق والتكذيب، فالله عز وجل قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهذا يتعلق به الامر، ودائماً تعلق به الأمر لأن أول معصية وقعت في الأمر، إبليس اول معصية وقع فيها بالأمر، وأول معصية وقع فيها آدم عليه السلام لا تتعلق بالخبر، ما كذبوا خبراً، لا إبليس كذب خبر ولا آدم عليه السلام كذب خبر، إنما الذي وقع هو الأمر، فلذلك قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٣٩]، قال: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [البقرة: ٣٩]، فالتكذيب موجود في البشرية ولكنه على مرتبةٍ ثانية من قضية الإعراض.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾ [البقرة: ٣٩]، ﴿تَبِعَ﴾ هي قسيم الكفر والتكذيب، يعني كقوله عز وجل في سورة «النجم»، قال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)﴾ [النجم: ٢٣]، فالحق لم يذكر له وصفان، إنما ذكر له وصف واحد الهدى، لكن الباطل يتنوع، فالاتباع والهدى تقابل ماذا؟ تقابل الكفر وتقابل التكذيب، الهدى بالنسبة إلى ما تتلقى من أخبار هو أن تصدق، والهدى بالنسبة إلى ما تتلقى من أحكام أن تمتثل، هذا هو الهدى الذي يوصلك إلى مرادك في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة،

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾ [البقرة: ٣٩]، قوله: ﴿أَصْحَابُ﴾، دلت على الملاصقة، أنه في صحبة، على ماذا يدل هذا المعنى؟ يدل الكلام على الخلود، فقوله: ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧)﴾، فدلت على الخلود الأبدي، لأن الصحبة هذا مقتضاها، فكأنه صار صاحبًا لها، وقوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، لم تذكر كلمة التأبيد بالنسبة للكافرين إلا في ثلاثة مواطن، وذكرت كلمة التأبيد لأهل الجنة في ثمانية مواطن، كم مرة ذكرت ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ بالنسبة لأهل الجنة؟ بعدد أبواب الجنة ثمان مرات، كم مرة ذكرت ﴿أَبَدًا﴾ للكفر وللكفار وفي جهنم؟ ثلاث مرات فقط، وإنما ذكرت في السور التالية ذكرت في سورة «النساء» و ذكرت في سورة «الأحزاب» وذكرت في سورة «الجن»، هذه السور ثلاثة التي ذكرت فيها ﴿أَبَدًا﴾ وهذا دليل على أن أهل النار يخلدون أبدًا كما يخلد أهل الجنة فيها أبدا، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم، وإن شاء الله نكمل في الدرس القادم والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: شيخنا قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾ [طه: ١٢١]، **فما المقصود بعصمة الأنبياء؟**

الشيخ: نعم، كنت أريد أن أقف عندها، الآن من المباحث التي تذكر في هذا الموطن وهو أن آدم نبي هذا بلا شك، ولا يُخالف في ذلك إلا الجهلة فإنه سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن آدم فقال: (نبيٌّ مكلم)، قال بعضهم: كيف عصى، فبعضهم قال: هذا قبل النبوة، وبعضهم بحث هل الأنبياء يعصون الله سبحانه وتعالى، فمما متفق عليه وهذه من الأدلة العقلية، يعني لم يأتي بها نص، وهذا مذكور في كتب أهل العقائد أن موضوع العصمة هي من المباحث العقلية التي العقل يوجبها، ولا يجدون لها أدلة أن الأنبياء لا يعصون الله، كما ذكر في الملائكة، الملائكة ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦]، لكن لم يذكر هذا النص عن الأنبياء.

فقالوا: ولكن هناك ثمة عصمة لا تتصور من غير نبي، فإذا انتقضت؛ انتقضت النبوة ومن ذلك العصمة من الكذب، هذا مجمع عليه لا خلاف فيه أن النبي لا يكذب، فلو أنه كذب لانتفت عنه النبوة ولم يحصل هذا طبعًا، لم يحصل أن نبيًا قد كذب، لأن هذا يؤدي إلى الشك في الشريعة، ويؤدي إلى زوال العصمة فيها؛ فيبقى الاحتمال موجود، فالعصمة من الكذب يعني هذا شيءٌ متفق عليه، فوق ذلك حصل الخلاف بين أهل الإسلام، فقال أهل السنة: بأن الأنبياء معصومون من المعاصي الكبرى الكبائر، لا تقع منهم الكبائر، وهل تقع منهم الصغائر؟ على خلاف بينهم، وبعضهم قال: لا تقع منهم إلا ما يقدح في مقاماتهم على قاعدة أبي سعيد الخراز التي ناقشها ابن القيم في «مدارج السالكين»، حسنات الأبرار سيئات المقربين، وقال هذه كلمة باطلة حسنات الأبرار سيئات المقربين يعني ما يتقرب به الأبرار من حسنات، لو وقعت من المقربين لكانت سيئة، هذا كلام غير صحيح بلا شك، ومرفوض هذا الكلام.

ولكن يحملها بعضهم على المعنى الحسن، أن ما كان جائزاً في حق البشر فلا يفعله الأنبياء، وما يقع من الأنبياء هو خلاف الأولى، ومن ذلك ما وقع من إبراهيم عليه السلام وقال: (كذبت ثلاث كذبات) كما يقول، ولم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات فحملوها على هذا المعنى ولها محامل أخرى، لا أقف عندها ولكن أتكلم عن موضوع عصمة الأنبياء، فإذن المجمع عليه هو أن الأنبياء لا يكذبون أبدًا، لا يتصور فيهم الكذب لأن الكذب نقيض الرسالة والنبوة، وأما الكبائر فعند أهل السنة لا يقع فيها واختلفوا في الصغائر، والله تعالى أعلم.

السائل: قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٥-٣٦]، **الخطاب دائماً**

لاثنين ولكن في النهاية لما قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، هنا أتت فقط على آدم، ولماذا يعني إذا آدم هو الذي عصى فأنزل منها حواء؟

الشيخ: ولذلك قال الله عز وجل في سورة «طه»: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧)﴾ [طه: ١١٧]، وقلنا في درس فائت: بأن التبعة الكبرى في الوجود والمعاصي والإحسان والفساد يعود على الرجل، لأنه هو أصل الخطاب وهو القيم على النساء، ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ﴾ [النساء: ٣٤]، فأغلب ما يقع الخطاب عليهم في صلاح العالم وفساده، قلنا هذا تقدم الكلام فيه بما يكفي، أن البشرية يتعلق الصلاح والفساد فيها بقيام الرجل وقوامته وقيامه على شؤون الحياة وأما المرأة فتابعة له في هذا الباب والذي يزعم أن النساء هن سبب الفساد فجاهل، وحديث (أول فساد بني إسرائيل في النساء)، قلنا: السبب فساد الرجال في النساء، وليس النساء أن يفسدن والرجل يعني صالح إنما حصل الفساد بهن بسبب فساد الرجال وتقدم الكلام عليه.

إذن الخطاب دائماً له لأنه هو الذي عليه التكاليف الأكثر وعليه الاهتمام الأشد وبالتالي هو المسئول، هو الأب فهو مسؤول وهو الزوج وهو القيم وهو الجد وهو ... إلخ، والمرأة إنما هي تبع في هذا الباب، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧)﴾ [طه: ١١٧]، فإذا خرجت المرأة للشقاء فسد العالم، وإذا تولت المرأة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يفلح قوم ولو أمرهم امرأة)، فهذا هو الجواب.

السائل: يعني أن نزولها من الجنة لأنها تتبع.

الشيخ: هي تبع له، ولكنها عوقبت لأنهما كلاهما، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢] فكلاهما وقع منه المعصية، أما قول التوراة: بأن المعصية في آدم وقعت بسبب إغواء حواء فهذا كذب، القرآن يرفضه، كما تقدم في سورة «طه» الخطاب كله لآدم، المرأة تبع له مسكينة ماشية وراءه، وليست هي سبب الإغواء هذا كذب، وكذب على كتاب ربنا وعلى الحياة.

السائل: هل ممكن للنبي عليه الصلاة والسلام أن يقع عليه القتل مع أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]؟

الشيخ: الأنبياء يقع عليهم القتل وقتل بعض الأنبياء كما قتل يحي عليه السلام، فأما النبي صلى الله عليه وسلم فمعصومٌ من ذلك للآية التي ذكرتها قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وفي الحديث كان النبي صلى الله عليه وسلم له حارس أمام بيته، فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، أمره بأن ينصرف، والله عز وجل قد عصمه فأخذ منها المقصود ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ﴾ أي من القتل، وليس من دونه يعني ليس من الإيذاء ليس من الجرح وليس ... إلى غير ذلك، وإنما هو معصوم من القتل وليس من دونه.

السائل: وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

الشيخ: هنا الكلام على احتمال قبله أو الاحتمال الذي يتصور في النفس، ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، لما وقع من قلوبكم من احتمال القتل أنه قد قتل، أفرأيتم لو قتلوا انقلبتم على أعقابكم؟، فهو من بيان الاحتمال، وأما هل هذا الاحتمال يقع أو لا يقع؟ فدل على عدم وقوعه، لكن الكلام على الاحتمال لو أنه زال عنكم بسبب الموت أو بسبب القتل، أكنتم ترتدوا على أدباركم؟ إنما لاستيعاب كيف ينصرف المرء من هذه الحياة.

السائل: سؤال شيخنا وقد ترددت فيه، قلت: لو تاب الرجل يرفع عنه الحد؟

الشيخ: نعم، هذا كلام الأحناف وبعض الأئمة في مذهب أحمد وثم رأيت بعض الشافعية يقول بهذا إن لم تخني الذاكرة، نعم، وهو اختيار ابن القيم، وابن القيم يميل إليه كما في كتابه «الطرق الحكمية» يميل إليه، ونقله عن شيخه أن الحدود إذا لم تكن فيها حقوق البشر، كالقصاص وغيره فإنها إذا علمت عن الرجل والمرأة التوبة ثم رفعت إلى القاضي ومع الشهادة وغير ذلك فعلمت التوبة ترفع، نعم وأذكر لك بعضها، وذكر هذا في حديث في سنن النسائي بسندٍ صحيح، المهم لو أن امرأةً زنت أو أن رجلاً زنا فتاب فبعد قيام يعني كما يحدث الآن، يأتي ليقول: أنا زنيت قبل عشرين سنة ويكون أمره مع المجاهدين، أو يكون أمره متديناً صالحاً فإنه يسقط عنه الحكم.

قد يقول قائل: كيف النبي صلى الله عليه وسلم أقام الحد على ماعز؟ قالوا: هو طلبه، لأن المرء يسقط عنه الإثم بأمرين بالتوبة وإقامة الحد، إذا أقيم الحد على العبد عن هذه الفواحش سقط عنه إثم يوم القيامة خلاص أخذ جزاؤه في الدنيا فلا يعاقب عليه يوم القيامة، فماعز أراد هذا أراد التوبة وزيادة أن يقام عليه الحد لئلا يسأل عنه يوم القيامة، فهو أمرٌ خاص به، واحتجوا بقوله: (هلا تركتموه)، لما مست الحجارة ماعز وأذته، فقام يركض، وقال: غررتم بي غررتم بي، فقال: (هلَّا تَرَكْتُموهُ لعلَّهُ أن يتوبَ فيتوبَ اللَّهُ عليهِ)، أي يأتي وأقبل منه أن لا يقام عليه الحد هذا مما فسره هؤلاء على هذا المعنى، غيرهم فسروا تفسيرات أخرى.

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم ألا تركوه أن يعود إليه لئلا يقيم عليه الحد ويقبل منه مجرد التوبة لينصرف عنه الإثم.

السائل: ويوجد حيث شيخنا عند قطع يد السارق الذي أتوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فَهلَّا قبل أن تأتيَني بِهِ).

الشيخ: كله هذا يعني حمله سهل لما أرادوا أن يشفعوا له في حد، هلا يعني أنه عفوتم عنهم أو لم تخبروني فهذا، نعم، لكن هل موجود في داخل الحديث أنه تاب وأناب وكذا لا يوجد، فوجود الاحتمال يمنع الاستدلال.

السائل: شيخنا ما هو حد شتم النبي صلى الله عليه وسلم في دار حرب أصبحت دار إسلام الآن هل يقام عليه الحد؟

الشيخ: والله يا شيخ للأسف هذا من النوازل العظيمة التي ابتليت بها الأمة، يعني تأتينا أسئلة المرء يسكت عنها ويتقي الله وما يدري ماذا يقول يعني تأتي أسئلة أشد من ذلك، لا يدري المرء ما يقول فيسكت، يقول: أحدهم في سؤال –لا بأس أن أذكره– يقول هناك بعض القادة من الجيش الحر يسبون الله، ونحن في منطقة ضعاف، **يقول الأخ السائل: نحن سرية صغيرة في منطقة، ولو أننا قاتلنا لوحدنا لأُبِدنا ولو لم نقاتل مع هؤلاء لذهبنا، فهل نقاتل معهم أم لا؟** هذا سؤال في الحقيقة أهرب منه وكل يوم يأتون: أجبنا، أجبنا، أقول: ماذا أجيبكم، أهرب منه أخرج فمثل هذا الآن يأتوا انتشار سب الله والرسول في بلاد المسلمين وللأسف في سوريا الظاهر بسبب حكم البعث يعني منتشر بكثرة في القرى، وبعض أصلاً لا يدري أن هذا معصية يجري على لسانه يعني كلمات سيئة، والحقيقة يعني أتصور هذا لما أرى السفلة الذين يعلقون في تويتر أو كذا، ترى السفالة منهم والانحطاط تجد أن للأسف هذا منتشر.

ويقول أحد القضاة لو أننا أقمنا هذا الحد على كل شاب ممكن في اليوم نقيم على عشرة خمسة عشر واحد، الجواب: لا أدري إنا لله وإن إليه راجعون يعني تترك لمن يتحمل مثل هذه الأمور العظيمة، فللأسف يعني إنا لله وإنا إليه راجعون يعني الأمة قد سُلكت في الكفر، صار المرء يعني مثل هؤلاء الذين خرجوا في مظاهرات نحن المرتدين، يعني هل هؤلاء في قلبوهم الورع لهذه الكلمة أن يقولوا: نحن مرتدين، يعني لو أن المسلم الذي عنده شيء من التقوى لو قيل له قل: أنا كافر، على معنى من المعاني لا يقولها، يعني لو قيل له قل: أنا كافر وأقصد بها في نفسك أنا كافر بدين الطاغوت، لا يقولها، فهذه الكلمة لا يقولها المرء، لكن هؤلاء لا يعرفون، مشايخ أولوا لهم، قالوا: نحن مرتدين يعني المرتدين عن دينكم الذي تدينون به، لا أعيب عليهم لأنه في الحقيقة الطامات كبيرة.

فالقصد: أن سب الرب سب الإسلام سب دين المجاهدين، كل هذه الأمور للأسف الآن شاعت بين المسلمين وانتشرت، وكنت قديمًا أقول: لو أن الناس قتلوا واحدا مثلاً: واحد ماشي فوجد واحد سب الرب وسب الرسول صلى الله عليه وسلم فقتله فأقول سيُقضى على هذه المعصية، طلع هذا كلام وهم لظني أن هذه المعصية معصورة يقولها البعض، للأسف بعضهم يخرج من المسجد ويقولوها، يعني نسأل الله العفو والعافية، إن الله عز وجل صبور يعني أنه هو الصبور الحليم جل في علاه، أنه هو الصبور الحليم، يصبر عليهم ويطعمه ويسقيهم ويحلم عليهم لئلا يعاقبهم وإلا يعني الطواغيت واحد يتكلم كلمة عليهم ينتقد كلامهم ماذا يفعلون؟ يحملونه وراء الشمس، يرمونه في السجون لكلمة

انتقاد ولا يسبون، لكن يسب الله عز وجل ويسب الرسول صلى الله عليه وسلم، والله يصبر عليه وقادر جل في علاه أن يخسف بهم الأرض.

القصد: أن مثل هذه الفتاوى وهذا الكلام أنا لا أقترب منه لخطورته وأترك الناس وما هم فيه، الآن بعض الجماعات الإسلامية لو سببت الأمير ربما تسجن سنة أو تضرب حتى يعني يعرف عنك الألم في كل بدنك، وإذا سببت الرسول صلى الله عليه وسلم ممكن أن يسجنوك ثلاث شهور أو يعاقبوك عقوبة مالية، إنا لله وإنا إليه راجعون.

صدقني حدثني أخوة عن بلد عربي أنه في الصباح الأم والأب والأولاد الصغار عمره خمس سنوات ويبدؤون بالسب والشتم والمقصود بسب الله، ويطعمهم ربنا عز وجل ويسقيهم ولو قلت عن هؤلاء كفار، مشايخ، يقول لي ابني حضر محاضرة للرد على التكفيريين في الجامعة يقوم بها هيئة علماء الأردن، طبعًا ما نسمع عنهم غير في المناسبات، قال: من أجل الرد على التكفير، فسُئل الشيخ ماذا تقول في ساب الله والرسول؟ وهذه هي في الحقيقة ما فيها أعذار، ما فيها أعذار لعدم تصور وجود العذر، واحد يسب ألا يعرف ما معنى السب!! يعني ماشي في الطريق ما في إكراه، ما في تأويل، ما في جهل، لا يتصور لا الإكراه ولا الجهل ولا التأويل ولا عدم قصد اللهم أنت عبدي ... لا يتصور هذا!! يعني العلماء لا يقبلون هذه الموانع لعدم تصورها في الفاعل، ما في تصور!! فقال: هذا كفر، انتفض الذي أمامه انتفض كيف رجل في الدنيا يقول عن شيء يعلمه وهو من أهل بلده أنه كفر، لا، لا قف قليلاً!! والمقصود!! يعني يُعلم ويؤدب.

يا عمي كفر وردة وخرج من الدين وصار أبو جهل وأبو لهب، أقسم بالله أن أبو جهل وأبو لهب أقسم بالله أن مرتبتهما في جهنم أقل من مرتبة ساب الله وساب الرسول، لأنهما لم يصلا إلى هذه الدرجة من الكفر في سب الله وسب الرسول، يسب بسبات عجيبة جدًا تقال عن الله رب العالمين، فيبدأ الشيخ لا، لا، لا تقول: كفر، كأن كلمة الكفر يجب أن تمسح من الكتاب والسنة ومن خطاب المشايخ، مجرد في الدروس أن تقولوا وهذا كفر يبدأ الناس بالنظر!! يعني كأنك أتيت كفرًا!! والناس هذا الباب الذي هم فيه، ولمجرد أن تقول: تارك الصلاة كافر، كافر! يعني كافر! هو كافر! ساب الله والرسول خرج من الملة صار أبو جهل وأبو لهب، صار ملعون عدو لله ولرسوله وللمؤمنين صار نتنياهو أطهر منه، النتن أطهر منه، ومع ذلك لا يريدون، المشايخ لا يريدون الحديث في هذا الباب، فقط تطلب منهم وزارة الأوقاف احكوا عن الزبالة في الشوارع ما شاء الله عنهم، احكوا عن السواقة الآن يتكلموا عن السواقة، عن الأدب في السواقة انظر ما شاء الله المشايخ جلستهم هكذا!! إنا لله وإنا إليه راجعون.

جزاكم الله خيرا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثالث والأربعون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

هذا هو الدرس الثالث والأربعون وما زلنا مع سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩]، فقط هذا الأمر الذي قدمه الله عز وجل في هاتين الآيتين هما محتوى الدين كله، أي الدين كله في هاتين الآيتين ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، الخوف لما هو آت والحزن لما ذهب كما قلنا، وقدم الخوف على الحزن؛ لأن الخوف أشد رهبتًا وأثرًا على الإنسان من الحزن، لأن الحزن في النهاية ينقضي بالزمن ولكن الخوف ما دام المرء يعيش في هذه الدنيا فهو على هذا المعنى.

لكن هتا لماذا ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؟ وهذا ختام لما تقدم من ألم آدام عليه السلام ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧]، فدعوا بأن يغفر الله لهم، فالله عز وجل يقول حتى بعد المعصية: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾، ومن هداه أن يستغفر المرء ربه إذا عصى، فإذا تاب واستغفر علمنا أن الله عز وحل رفع عنه الخوف والحزن وعليه أن يبتعد عن الخوف والحزن، وهذا دليل على أن الخوف والحزن ليسا مما يطلبا في الشريعة؛ لأن بعض أهل العلم ظن أن الحزن -وكتب في ذلك بعض الصوفية- أن دوام الحزن من الطاعة وهذا غير صحيح، الحزن ليس من العبادة وأن يبقى المرء حزينًا ليس من العبادة. الخوف هنا المطلوب هو أن يبقى المرء خائفًا من الله عز وجل خائفًا من سوء العاقبة خائفًا من العذاب لما يقع من معصية كون المرء لا ينفك عن المعصية قال صلى الله عليه وسلم: (كل ابن آدم خطاء)، فلابد أن يخطئ المرء.

وتقدم الكلام بأن الله عز وجل خلقنا من أجل عبادة التوبة، هذا ينبغي أن نذكره دائمًا لأنه يبعد اليأس ويطرده، وهنا نقطة مهمة: المطلوب منا الخوف الشرعي وليس الخوف الذي يؤدي إلى اليأس، فنحن نرى أن الصحابة رضي الله عنهم يجمعون بين شعورهم بعزتهم الإيمانية بين شعورهم بأن الله عز وجل ناصرهم وأن الله عز وجل رحيمٌ بهم فكيف يجتمع هذا بالخوف الذي يصل إلى درجة اليأس؟!

إذن الخوف الذي يصل إلى درجة اليأس هو الذي ينبغي ألا يكون، وبعض الناس يخاف حتى لا يتحرك وهذا لا يجوز أما الخوف الذي يؤدي بك إلى دوام الاستغفار هو الخوف الذي يؤدي بك إلى عدم الكبر والغرور، أول توجيهات القرآن لنبينا صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦)﴾ [المدثر: ٦]، بمعنى أنك إذا استكثرت ونظرت إلى فعلك أنه كثير صرت مانًا به على غيرك، وهذا مخالف، فالمرء عندما يخاف من ذنبه لا يستكثر ما يأتي به من الفعل لأنه يخاف من الله سبحانه وتعالى، لكن المقصود هنا لا يجوز للمرء أن يخاف خوف اليأس الذي ينقطع به الرجاء ولا الخوف المثبط عن العمل، الإسلام يرفع درجة الإيمان في المؤمن إلى أن يصادم الجبال ولا ييأس.

وهنا نقطة لما جاء ربنا سبحانه وتعالى إلى الإيمان جعله حالة واحدة وهي الاتباع فقال تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: ٣٨]، لكن لما جاء إلى المعصية قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [البقرة: ٣٩]، فصّل؛ لأن المعصية كما قلنا تقع إما من جهة الخبر وإما من جهة الأمر والنهي الذي سمي عند علماء اللغة بالإنشاء والإخبار، فالإنشاء هو الذي فيه الأمر والنهي والإخبار هو الذي فيه الخبر التصديق أو التكذيب.

الذي أريد أن أقوله بأن هذه الآية ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: ٣٨]، دليلٌ على أن الأخبار أحكام وهذه قضية أصولية ينبغي أن نهتم بها وأنا ذكرتها كثيرًا في الدروس، أعيدها؟ أن الأخبار الربانية التي جاءتنا في القرآن أو جاءتنا في السنة النبوية هي أحكام ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾، فجعل الحق شيئًا واحدًا ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾، والخبر هل هو من الهدى؟ الجواب: نعم، لماذا؟ لأنه حكم، عندما يخبرنا الله عز وجل مثلاً عن مصائر الكافرين هذا حكم، بأنه إياك أن تقترف هذا الفعل، عندما يخبرنا الله عز وجل عن قصة بني اسرائيل من أجل أن يبيّن مناقبهم التي ينبغي أن نقتدي بها ومعاصيهم التي ينبغي أن نبتعد عنها.

فالمقصود بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾، لم يفصل بين الخبر والأمر كما فصل في المعصية، فجعله شيئًا واحدًا ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾، كيف اتبع الهدى إذا كان خبرًا؟ دل على أن الخبر أمر، أن الله عز وجل إذا أخبر بخبر ففيه الأمر الذي ينبغي أن تأتيه على جهة العاقبة، أن تنظر هذا الخبر أين انتهى أهله؟ فإن انتهوا إلى المدح الإلهي فدل على أن فعلهم طيب وينبغي أن تسلكه، وإذا دلت العاقبة على أن الله عز وجل يبغضه وأن الله عز وجل يعذب فاعليه دل على أن الطريق الذي سلكوه ينبغي ألا يؤتى.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾ [البقرة: ٣٩]، هنا نرى أن قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾ [البقرة: ٣٨]، أطلق؛ فدل على أن هذا الوعد الإلهي شاملٌ للآخرة والدنيا.

فلو واحد سأل: قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾ [البقرة: ٣٨]، هل المقصود في الدنيا أم الآخرة؟ الآية قد أطلقت ذلك، لكن لما قال سبحانه وتعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾

[البقرة: ٣٩]، ما تكلم عن الدنيا، فإذن الإطلاق الأول دل على شمول الدنيا والآخرة، أنهم لا يخافون في الدنيا ولا يحزنون في الدنيا، الوعود الإلهية كثيرة لهم في الدنيا والوعود الإلهية كثيرة لهم في الآخرة.

وقلنا هاتان الآيتان هما معيار الوجود، هما شعار القرآن، هما شعار المسلم، ولذلك ينبغي على المرء أن يحفظ هذا الأمر، ماذا نستفيد؟ الاستفادة هو أنك تسلك هذا الطريق الذي فيه السعادة ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾ [البقرة: ٣٨]، هكذا هو الشعار، كل ما في القرآن أيها الإخوة الأحبة داخلٌ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: ٣٨]، كل ما في القرآن داخلٌ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [البقرة: ٣٩]، هذا طريق السالك بالطاعة وهذا طريق السالك بالمعصية؛ فكل ما في القرآن شامل لهاتين الآيتين.

إذن الآن رأينا أيها الإخوة الأحبة المشاهد القرآنية في سورة «البقرة» فيما تقدم تدور حول هذا الأمر، أولاً ذكرت السورة في مطلعها مراتب الناس مع الإيمان، ذكرت المؤمنين وذكرت الكافرين وذكرت المنافقين، ومثلت لنوع المنافقين الأمثلة، المثالين: المثال الناري والمثال المائي، ثم جاء القرآن بالحديث عن خلق الإنسان، هذه أول سورة في القرآن وهي سورةٌ مدنية كما نعلم، فبعد ذلك تحدثت عن خلق الإنسان، كيف بدأ؟ وما هو أصله؟ وكيف نشأ في خلقته؟ وما الذي جرى؟ ومن هو عدوه؟ ومن هو الذي يريد به الخير وإلى غير ذلك.. وعلاقته مع الوجود، علاقته مع الوجود أنه خليفة، وعلاقته مع الخلق مع الجن، مع الشياطين، علاقته مع الملائكة أنهم سخروا له وأمرهم الله عز وجل أن يسجدوا له.

وختمت هذه المشاهد القرآنية بهذه الكلمات العظيمة في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾ [البقرة: ٣٨]، هذا المشهد، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾ [البقرة: ٣٩].

الآن في القرآن بيان بماذا يكفرون؟ ما هي الآيات؟ طبعًا هنا كلمة لابد أن ننبه ما المقصود بالآيات هنا، هل المقصود بالآيات التشريعية أم التكوينية؟ بلا شك المقصود بالآيات هنا الآيات التشريعية، فالآيات التكوينية لِمَ؟ هل داخل فيها الجواب؟ نعم، لكن المقصود هنا بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾ [البقرة: ٣٩]، الآيات التشريعية، أين الآيات التكوينية التي في القرآن؟ إنما هي إشارات وعلامات على صدق الآيات التشريعية، ما أقيم في القرآن من آيات كونية، خلقية، تقديرية، أقامها الله عز وجل من أجل بيان دلائل الآيات التشريعية، ولذلك ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [البقرة: ٣٩]، هو مع أنه يرى الآيات التكوينية لكن من لم يعرف مقصدها ويعرف الدلالة منها فهو كافرٌ بها؛ لأن الشيء يكفر به إما من جهة إنكار أصله، هذا غير موجود، هذا تكذيب لأصله، وإما تكذيبًا لمهمته.

مثلاً: نحن نرى النجوم في السماء، وهي لها مقاصد ومن مقاصدها أنها زينة والناس يقرون بهذا، لا يختلف الناس في أن ما يرونه من نجوم السماء أنه زينا، لكن لا يقروا كل الناس بأنها رجوم للشياطين، أي لو جئت للكافر وقلت له: ما هذا النيزك كما يسمونه؟ ما هذا النجم الساقط؟ يقول لك: اختل توازنه والجاذبية الأرضية ... انفلت من مداره وانتهى، لو قلت له: أن هناك ثمة شيطان رجم به أراد أن يسترق السمع من السماء فينكر؛ فهذا مكذب لآيات الله عز وجل.

التكذيب الأول: مكذب لوجود ينفي وجود الجن كأن يقول: لا يوجد جن، كونه من عالم الغيب، فينفي الجن وينفي الملائكة لأنها من عالم الغيب.

التكذيب الثاني: هو أن ينفي مقصدها الذي خلق له، كما ضربنا المثال، هنا نفى مقصد ذكره القرآن عنها وأنها رجوم للشياطين.

التكذيب الثالث: تكذيب في دلالتها.

إذن التكذيب الأول: في وجودها، الثاني: في عملها ومهماتها، ما هي مقاصدها الخلقية؟، الثالث: في دلالتها.

فمن لم يرى في هذه الآيات التكوينية على أنها صادقة من الْمُرسِلِ والْمُرسَل والرسالة فهو مكذبٌ بها؛ لأنها أصلاً ما أقيمت إلا لهذا، فحتى السبب الثاني الآن فيما ذكرنا في أنها رجوم للشياطين، لماذا؟ لتعلقها بالرسالة والرسول الْمُرسِل، الْمُرسِل هو الله عز وجل والرسالة هو القرآن والرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم، فمن لم يرى في هذه الآيات ولم يعتبر بها ولم يهتدي بأنها دالة على هذا المعنى فكذلك هو مكذبٌ بها، فالتكذيب داخل ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ داخل، إما تكذيب وجودها وإما تكذيب بمنافعها التي خلقها الله عز وجل قدرًا وإما تكذيب في دلالتها على الرسالة والْمُرسِل والرسول.

إذن هذا المشهد القرآني خُتم بهذا، ورأينا الكلام على التشريع، أي الذين آمنوا، كفروا، منافقون، رأينا هذه الأصناف، فهذه أحاديثٌ عن التشريع، ولما تكلم عن آدم تكلم عن القدر والتكوين، كيف خلق الله عز وجل آدم؟ كيف حدث؟ فحديثٌ عن القدر والتكوين، وكذلك عن التاريخ، لكنه تاريخٌ في السماء، الآن نأتي إلى الآيات التي فيها حديثٌ عن التاريخ الأرضي، وبالتالي الذين يقولون: –وكلامهم صحيح من جانب– بأن القرآن فيه الآيات التكوينية والآيات التشريعية، كلامهم صحيح ولكن فيه تقصير لأنهم لا يشرحون أن من الآيات التكوينية هي الآيات التاريخية، فالتاريخ في القرآن ومن أعظم ما ساقه القرآن من أدلة على صدق الحق وعلى صدق النبوة، بل لو أراد المرء أن يرى ما هو أقوى دليل على صدق النبوة؟ لا يجد إلا الدليل التاريخي أقوى دليل، نعم هناك أدلة كثيرة لكن لا يجد

أقوى من هذا الدليل، ما هو؟ الدليل إي تاريخ النبوة، تاريخ الإيمان، تاريخ المؤمنين، وما ناقضهم من غيرهم من الكافرين من المنافقين إلى غير ذلك.

فالتاريخ ينبغي أن يوضع من أجل التفصيل أن يقال: أن القرآن شاملٌ للأدلة التشريعية، الدلالة التشريعية والمسائل التشريعية وفيه الآيات التكوينية وكذلك فيه الآيات التاريخية، مع أنهم يدخلون التاريخ في القدر وهو صحيح، لأن القدر علم الله عز وجل وكتابته وإرادته وخلقه، فالتاريخ ما يحدث في الكون هو داخلٌ في هذا، لكن ينبغي التفصيل من أجل أن يعرف الناس هذه الآيات على وجهها الصحيح، أقصد السياق التاريخي.

فالتاريخ أيها الإخوة الأحبة هو من أعظم الأدلة على صدق القرآن، التاريخ هو من أعظم الأدلة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، التاريخ هو من أعظم الأدلة على صدق آثر الإيمان في الوجود، وبالتالي ما نقرؤه في القرآن من قصص من أجل بيان صدق الحق.

إذن ما هو أعظم دليل؟ هو التاريخ، ولو سأل سائل ما هي أعظم دلالة في هذا الدليل العظيم؟ أعظم دلالة على أن الإيمان دائمًا ينتصر مع كل المقومات التي لا تلتقي سننيًا وواقعيًا مع النصر، وفي هذا بيان ارتباط الحق بعالم الغيب، لا اقصد أنه فاقد كليًا لأدوات السنن الكونية، لكنها على الجملة لو درست في عالم الواقع -العالم الواقع المنظور- من غير فعل الإيمان وأثره في الحياة لوجدنا أن هذا لا يستقيم مع تاريخ الإيمان، لا يستقيم.

إذًا ما هو أعظم دليل على صدق النبوة؟ هو تاريخ البشرية، التاريخ، تاريخ النبوة، وما هو أعظم دلالة في هذا الدليل؟ أعظم دلالة في هذا الدليل هو انتصار الإيمان، وبالتالي الأدلة التاريخية يجب أن تقرأ من هذا المنظور، والله عز وجل دائمًا يسوق قصص الأنبياء عليهم السلام من أجل هذا البيان.

لكن هنا نأتي إلى نقطة مضطر إليها وإن كانت في الحقيقة ستأتي في أغلب ما ستذكر وتشرح في سورة «الأعراف»، لكن أستعجل الكلام فيها الآن لأهميتها: أكبر خطأ، أكبر خطأ يمارسه المسلمون اليوم في قراءتهم لتاريخ الإيمان المنتصر ضد أعدائه أنهم يظنون أن نوع النصر شيءٌ واحد، وأن طريقة انتصار الأنبياء عليهم السلام هي حالةٌ واحدة، وبالتالي واحد يسأل أين هذا؟ يعني أنت لما تقرأ عاد، ثمود، مدين، لوط عليه السلام، إبراهيم عليه السلام، لما تقرأ كيف انتصر؟ فإنك ترى تدخل عالم الغيب، تقرأ تدخل عالم الغيب، عالم الغيب يتدخل ويحسم المعركة، فإما أن يأتيهم الماء كما آتى قوم نوح عليه السلام ويهلكهم والله عز وجل ينصر نوح عليه السلام بأن نجاه من هذا الماء، وإما أن تأتي الرياح الشديدة وإما أن يأتي الحر الشديد ... إلخ، يوم الظُلة، وإما أن يقلب الله عز وجل عليهم الأرض، فعالم الغيب هو الذي يتدخل.

ونحن لا نرى هذا، فيظن الظان وكأن سياق هذه الآيات لرسوله صلى الله عليه وسلم المقصود منها هل أن يبيّن له كيفية الانتصار أم يبيّن له النتيجة أنه منتصر؟ لو كان الأمر الأول أنه يبين له كيفية الانتصار، لانتصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالطريقة التي حصلت مع الأنبياء السابقين، لم يحصل أن الله عز وجل نصر رسوله على هذا الوجود وحكم دينه وأبقى دينه في الأرض بالطريقة التي حصلت مع الأنبياء السابقين، إذن حديث الانتصار النبوي في القرآن وحديث انتصار الإيمان في القرآن ليس المقصود به بيان كيفية الانتصار.

وهذا بعض الجماعات للأسف تدخل فيه وتعيش معه وتتماهى معه وكثير من الخطباء يتحدثون عن النصر الإلهي بهذه الطريقة، والمقصود هو بيان أن الله عز وجل سينصر الإيمان، لكن كيف ينصره؟ فرأينا أن أعظم نموذج يقارب انتصار النبي صلى الله عليه وسلم هو انتصار موسى عليه السلام، أقرب نموذج لانتصار النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته وانتصار الإيمان في شخص النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه هو حالة النبي موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، ولهذا الباب ولهذا الامر لمشابهة الأمر، الله عز وجل دائمًا يقص على النبي صلى الله عليه وسلم قصة موسى عليه السلام بألوان وطرق مختلفة كلها من أجل بيان هذه الدلالة، كيفية حصول النصرة الإلهية لموسى عليه السلام في جوانب متعددة وصور مختلفة لكيفية حصول النصر.

ومن هنا فيما نرى في هذه السورة بعد الحديث عن هذا الأمر ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩]، وكيف انتصر الإيمان؟ فبدأ الحديث عن بني إسرائيل، ولكن الحديث هنا عن بني اسرائيل في هذه السورة هو حديثٌ عن مجتمع قائم، أي سنرى الآن هو حديثٌ عن بني إسرائيل، يعني ليس عن عملية انتصار فيما سنقرأ في سورة «البقرة» الآن لا يوجد فيها الحديث الذي نراه في السور الأخرى، وهو حديث انتصار موسى وانتصار بني اسرائيل على فرعون لا نرى هذا الحديث، لا نراه مسوقًا من أجله.

مثلاً: لما نقرأ سورة «الشعراء» الحديث مسوق ابتداءً من أجل بيان انتصار موسى وبني إسرائيل على فرعون، لكن هنا نرى هذا الخبر لكنه ليس ضمن هذا السياق ولكن ضمن سياق المنة على بني إسرائيل.

الفرق: في سياق سورة «البقرة» نرى أن ما يتحدث به القرآن: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩]، ليس من أجل الخبر التاريخي بل من أجل المنة الإلهية، إذن هنا حديث القرآن في سورة «البقرة» عن بني إسرائيل هو حديثٌ عن مشكلة المجتمع المسلم مع إمامه ومع قيم الإيمان التي يدعو إليها، لأنها تتلائم مع سورة «البقرة»، فسورة «البقرة» هي سورة مدنية تتحدث عن مجتمع مدني، إذن هي حديثٌ عن مجتمع، علاقة مؤمن مصطفى هو رسول مع مجتمعٍ مؤمن يحدث فيه معه هذه الأمور التي حدثت من بني إسرائيل، هذا هو الإنسان حتى في داخل الصف المؤمن، وحديثٌ عجيب! إذا سيق على معاني متعددة.

وأول معنى يساق في هذا الباب وهو أنه ينفر المؤمنين إياكم أن تسلكوا سلوك بني إسرائيل، وكل هذه المعالم التي تذكر هنا في بني إسرائيل من أجل أن يتجنب المسلمون إي المقصود به الخطاب الأول للصحابة رضي الله عنهم أنه يخاطب الصحابة، اجتنبوا ما وقع به بنو إسرائيل، وقد اجتنبوا، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم: أتريدون أن تقولوا؟ أتريدون أن تكونوا؟ لعن الله اليهود ... وهكذا، يبين لهم لئلا يقعوا فيه.

الأمر الثاني: هي لبيان تصبير قلب النبي صلى الله عليه وسلم، من أجل أن يعرف أن الأمة هذا هو وضعها، هذا الناس هذه أحوال الناس، الناس هكذا فيهم، سيقع منهم هكذا، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لقَد أوذيتُ في اللهِ وما يؤذى أحَدٌ)، من أجل أن يعرف الناس والأئمة والعلماء وكذلك القادة أنه في المجتمعات ما يقع، هذه مشكلة ليست فقط معكم ولكن وقعت مع أمة عظيمة اصطفاها الله عز وجل اختارها على العالمين وكانت مؤمنة وفيهم الصالحون، ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)﴾ [الأعراف: ١٥٩]، مع ذلك وقع منهم كل هذا الفعل من أجل أن يفهم المرء أنه يتعامل مع بشر.

فسياق الإيمان الفردي رأيناه، رأينا صورته، ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة: ١-٢]، أنت ترى كلامًا صافيًا في وصف المؤمنين صافيًا من دخن وغلط الباطل لا تجد إلا الحق المطلق موصوفًا بكلمات بينة، قال تعالى: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾ [البقرة: ١-٥]، هذا خطاب مجرد عن كل الخطأ، مجرد عن كل الدنس، مجرد عن كل ما يشينه، ولكن هذا في الخطاب العلوي وأما في الخطاب الواقعي فانظر، والدليل هو اقتران ما وقع من آدم عليه السلام بما سيقع به بنو إسرائيل.

أي هل آدم عليه السلام يدخل في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة: ٢]، يدخل أو لا يدخل؟ يدخل، لكن هذا حديثٌ علوي، ولكنه مع ذلك وقعت منه المعصية، فهذا هو البشر، البشر في أفقه العلوي والنهائي يكون بهذا مؤمنًا الصفاء، لكنه في مسيرته البشرية يكون بشرًا، يقع منه الخطأ ويقع منه غير ذلك.

الأمر الثاني: أن البشرية قد تجتمع باختلاط الحق والباطل وهذه هي مسيرة الناس، في مسيرة البشرية هذا هو الإنسان، ولذلك كثرة الحديث في القرآن عن بني إسرائيل لنبينا صلى الله عليه وسلم في معاملتهم مع موسى عليه السلام؛ تطمينًا لنا، أن هؤلاء اختارهم على العالمين، أعمل فيهم كذا ورأوا الآيات وو ... ومع ذلك هكذا كانوا يتعاملون وهذه حياتهم وهذه بشريتهم وهذا هو الإنسان.

ويمكن معرفة هذا كذلك بجوانب أخرى، يمكن للمرء أن يقول: من أجل بيان تفضيل الصحابة رضي الله عنهم، يعني انظر إلى أصحاب موسى وهم الحواريون وهم الذين ذهبوا من أجل أن يذهبوا ليأتوا معه بالألواح ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وكان فيهم ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وكل هذا وهم حواريون وعظماء وأمة موسى، وانظروا إلى من يقابلهم من هذه الأمة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فأين هؤلاء من هؤلاء؟ يمكن وضعها ضمن هذا السياق؛ من أجل بيان فضل الصحابة رضي الله عنهم.

ولكن المقصود هو بيان حال البشرية في إيمانها وفي أخطائها وفي سقوطها في داخل المجتمع المسلم، هذا الذي نريد أن نقوله.

إذن عرفنا ما هو الرابط بينما تقدم والآن؟ آدم أخطأ أي بنو إسرائيل عن الصورة، صورة النبوة مع البشرية، صورة الإنسان في أخطائه وإخفاقاته وصلاحه وإيمانه، صورة العطاء الإلهي للأمم كيف تعطى وكيف تكرم، وكذلك يمكن وضع جوانب كثيرة، طيب إذا كان بنو إسرائيل مع كل هذه الإخفاقات كان يغفر لهم ويرفعهم، فما بالكم لو خلوتم من هذه الإخفاقات؟ كيف سيكون حالكم من النصر والتأييد؟

يكفي هذا فيما تقدم ندخل الآن للآيات الجديدة وقد تقدم هذا الذكر.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، طبعًا كلمة إسرائيل يعني الذي قلته مرةً ما أدري في درس تفسير أو في غيره، نرى أن الأسماء التي سيقت وفيها «ئيل» لها جذرٌ يقترب من المعاني العربية، ومما يدل على أن هذه اللغة التي كان يتكلم بها بنو إسرائيل، سواء قالوا: العبرية؛ لأن المشهور هو أنهم كان يتكلموا بالعبرية، وبعضهم يقول: لم يكونوا يتكلموا بالعبرية بل يتكلموا بالسريانية، وهكذا، يعني هذا بابٌ في التاريخ لم يأتي ما يدل عليه، وهو من التاريخ قبل المكتوب أي ما كتب، فلذلك كله مأخوذ من أخبار أهل الكتاب من التوراة فلا ننسى أن نعرف.

ولكن التأمل في «إسرائيل، جبرائيل، ميكائيل» نرى الجذر العربي، لكن على معنى ما تقدم، ليس الجذر العربي النقي وإنما ما يقترب منه، فنرى مثلاً: إسرائيل، أسر والأسر هو العبد، فهي أقرب ما تكون عبد الله، هذا أقرب، كذلك الأسر هو القوة، دعكم من قضية اللفظ كيف إسرائيل وأسرائيل هذا يحتمل لوجوده في تغيره، فتأتي معنى أسره قوة، شديد الأسر أي شديد القوة.

الأول عبد الله يليق، أسر عبد الله، «ئيل» هذه كلمة عربية وتنطق بها العرب، أي لم تذهب ولم تبلى هذه الكلمة «ئيل» وئيل، ولذلك كما في الأثر لما جاء أهل مسيلمة وأسلموا بعد قتال الصديق لهم، لما قال: قال: اقرأوا عليّ شيئًا

من قرآن مسيلمة هذا، فقال: «هَذَا كَلَامٌ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ إِلّ وَلَا بِرّ» إِلّ، إله، والقضية التشابه بين اللغة العربية والعبرانية الأمر قريب على فكرة، العبرانية المعاصرة الموجودة لأن بعضهم يرى أنها أصلاً موضوعة في الوقت العربي، وهي من اللغات العروبية، وهذا باب لا ينتهي باب اللغات لا ينتهي، يعني بعضهم يرى أن اللغة العبرية المعاصرة أصلاً إنما أنشئت في زمن الأندلس، بعضهم يقول هكذا ولا يراها قديمة، وبعضهم يقول: لا، العبرانية هي قديمة ولكن لو تأملتها تجدها قريبة من العربية التي نحنا قلنا العربية أخذت من العروبية، لما ذكرنا وقلنا كيف ترقت عند تفسير قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ [البقرة: ٣١].

والفرق في كثيرٍ من الكلمات بين العربية والعبرية تعود إلى شيئين فقط: إلى الإعجام والإهمال، وثانيًا بين وجود حروف العلة، الآن أضرب لكم مثالاً، لو أردت أن تكتب كلمة سلام من غير أن تنقطها يعني تبقى مهملة، ومن غير حروف العلة، وحرف العلة فيها الألف، كيف ستكتبها؟ سين لام ميم، سلم، فحينئذٍ لو أنت لا تعرف هذه الكلمة وقلنا لك: نقط هذه الكلمة المكتوبة ولا تعرفها، مكتوبة ولكن لا تعرف كيف تنطق فأنت تجتهد في وضع حروف العلة كما يطرأ على اجتهادك، وكذلك تضع النقاط كما يطرأ على اجتهادك، أين يمكن للنقاط أن توضع؟ الميم لا توضع عليها نقطة، اللام لا توضع عليه نقطة، السين ممكن أن تبقيها كما هي وممكن تعجمها فتضع الشين، فتصبح شلم، اللام ممكن تضع شا، شو، ممكن تضع شي، بين الحرفين ممكن، المهم في اجتهاده خرجت شالوم، بدل سلام خرج شلوم، أزل حرف العلة وأزل النقاط الجذر واحد في العربية وفي العبرية طبق هذا.

مثلاً: لو أنا قلت لك: قديش ماذا تصبح معك –بعد إزالة النقاط–؟ قديس، يعني لم يغلط في حرف العلة وغلط في التنقيط، ومركبة التي هي أشهر دباباتهم ميركافا، شو هاي؟ أزل حروف العلة والنقط، تصبح مركبة، هي مركبة واسمها مركبة، وهكذا، فالفرق بين العربية وبين العبرانية في ماذا؟ في أمرين في التنقيط الإعجام والإهمال وفي حروف العلة توضع أو لا توضع وهكذا، وطبعًا بلا شك هناك كلمات عربية قديمة لم نستخدمها بعد بقيت عندهم، كلمات عربية نحن لا نستخدمها ولا نعرفها.

مثلاً: الناس يمزحون مع بعضهم دائمًا وواحد يقول لواحد اسمه علّي: علوش، وعلوش معناه الخروف، فأنت إذا فتحت المعجم لتعرف هل كلمة علوش موجودة في العربية أم غير موجودة، فتجدها علوش بمعنى خروف، مثلاً: أحدهم جاء إلى كلمة نشمي، بحث عليها وإذا هي مأخوذة قريبة من رائحة الثور المنتن، فالآن معاني مختلفة لها.. وهكذا.

فيوجد كلمات عندهم عربية ولكنها معدلة بما ذكرنا لكنها ماتت، فابحث عنها أزل عنها تجد هذا الأمر، ذكرنا هذا من أجل أن نعود لكلمة إسرائيل.

إذن أسر معناها قوة، قوة الله، ذلك كقولك رح الله، الآن روح الله ما المقصود بها؟ نسبة التشريف والتعظيم وإلا هي مخلوقة عيسى عليه السلام هو رح الله، لكن هل هو جزء من الله يعني؟!! المقصود هو أنها منسوبة إلى الله نسبة التشريف كقولك بيت الله، وبعدها نأتي إلى قضية النسبة متى نعرف نسبة التشريف ونسبة الصفة؟ هذه تعرف في أبواب العقائد وليس هذا بابها.

فالقصد: إسرائيل يليق به بأن يقال: عبد الله ويليق به أنه قوة الله، وهذا صحيح، ومن هنا والله أعلم لما ذكر في سورة «ص» عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، قال تعالى: ﴿عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥)﴾ [ص: ٤٥]، فسماه على أنه قوي، وهو من؟ هو إسرائيل، ومن هو إسرائيل؟ هو يعقوب عليه السلام.

لو أخذنا جبريل، جبرائيل متسهل والهمزة عادةً العربي لا ينطقها لأنها من أقصى الجوف فمرات يحولها إلى عين ومرات يزيلها، مثل بدل قرآن يقول قرعان القرآن هذه لغة موجودة، الهمزة صعبة يرجع لك إياها أن يأتي بها من أقصى الحلق فأقرب حرف لها العين فيفعل هذا، يفعلون الناس هذا، وفي كلمة الهواء يزيلها يريح حاله منها، فجبريل هو جبرائيل من أين الجبر؟ الجبر تأتي بمعنى العبد، وتأتي بمعنى –لا يجبر المرء إلا إذا كان ذا قوة– جبرائيل معناه القوة، تأتي بمعنى الذي يجبر الأشياء وهو من يساعدهم، أي الذي جبرائيل الذي يساعدهم، فهو كذلك له القوة وله كذلك المساعدة الذي ينزل بالخيرات على الناس ... إلخ.

وإسرافيل، إسرا، فيل، نفس الشيء، ميكائيل من الكيل، وأنتم تعرفون أن الألف والميم تقوم بدل الألف واللام، حتى أنهم ينسبون حديثًا لا يصح سنده، أنه «ليس من امنبر الصيام في سفر»، يعني «ليس من البر الصيام في السفر»، فاللام يحولونها إلى ميم وهذا إلى الآن يفعلها العوام، يقولون: امبارح من أين جئت بمبارح؟ هي البارح لكن اللام تحولت إلى ميم، فهذا التحول موجود في اللغة.

فالقصد: هذا يدل على أن بني إسرائيل كانت لغتهم إحدى اللغات التي هم يسمونها بالسامية، والحقيقة هذه لا وجود لها، والمقصود بالسامية: أنهم يقسمون الناس إلى حام وسام، أن أولاد نوح عليه السلام سام وحام، فنحنا أولاد سام الذين هم الشرقيين جمعتنا العرب واليهود وكذا هؤلاء هم الساميين والحاميين هم أولاد غير العرب أو غير الساميين وهذه الحقيقة لا قيمة له هذا الكلام تقسيم التوراة وليس من العلم في شيء والتاريخ لا يشهد له أبدًا، إلا ما تقوله التوراة ولذلك ينبذ ولا يلتفت إليه.

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة: ٤٠]، هذا النداء الرباني والقرآن في الحقيقة وأنا قلت لكم مرة: لا يوجد في القرآن نداء إلا بحرف الياء، يعني مثلاً «أ» حرف نداء الهمزة حرف من حروف النداء ولكن لا يوجد في القرآن نداء

على الصحيح لا يوجد نداء في القرآن إلا ﴿يَا﴾، وقد يزال حرف النداء أو أداة النداء قد تزال كقوله صلى الله عليه وسلم: (صبرًا آل ياسر)، والمقصود ياء آل ياسر، لكن مجيئها يدل على العناية بما وراءها.

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، هنا هو تعاملٌ مع عائلة، فما قال: يا يهود، ولا قال: النصارى، وإنما هو تعاملٌ مع عائلة، ما السبب؟ مع أن اليهودية الآن هي خارج إطار بني إسرائيل، أي ليس شرط كل يهودي اليوم من بني إسرائيل، لكن نرى القرآن يخاطب اليهود بقوله يا بني إسرائيل ما السبب؟ وأكرر مع أن اليهودية اليوم ليست قاصرة على بني اسرائيل أي ليس كل اليهود اليوم يقال له: يا بني إسرائيل، يخاطب ببني إسرائيل وإن كان هو يدخل فيهم لدخوله في اليهودية لدخوله في دينهم، والسبب: أن اليهود زمن النبي صلى الله عليه وسلم كلهم من نسل إسرائيل، كلهم من نسل يعقوب، اليهود الذين عاشوا في زمن نزول القرآن هم من بني إسرائيل، أما اليوم دخل كثير من الأقوام في اليهودية وليسوا من بني إسرائيل وعامة اليهود اليوم يجزم المؤرخون بأنهم من يهود الخزر، يهود روسيا، وليسوا من بني إسرائيل، عامة هؤلاء اليهود المشرقيين الذين يأتون من الشرق يعني من البحر الأسود وما حوله، هم تهودوا وليسوا من بني إسرائيل.

أي الذين نزل القرآن في زمنهم من اليهود هم من بني إسرائيل، وهم القبائل التالية: بنو قريظة بنو قينقاع بنو النظير وبني قريظة، غير أهل خيبر، هؤلاء هم اليهود حول المدينة، إذن دل على أن هؤلاء من بني إسرائيل ومن أدلة ذلك أن صفية بنت حيي بن أخطب أم المؤمنين رضي الله عنها هي من نسل هارون عليه السلام فاجتمع فيها الفضل بأنها زوجة نبينا صلى الله عليه وسلم ونسبها من نسب نبيٍ عظيم هو هارون عليه السلام، وهي من بني إسرائيل، فاليهود الذين نزل القرآن في زمنهم وهم كانوا يعيشون نزول القرآن كانوا من بني إسرائيل ولذلك جاء الخطاب إليهم ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

السؤال هنا لماذا لم يأتي الخطاب إليهم خطاب الدين الذي يدينون به؟ أي لماذا جاء الخطاب إلى أبيهم؟ إلى إسرائيل؟ وهذا كله من ترفق القرآن وهذا مما ينبغي أن نستفيد منه؛ ذلك لأنه حين خاطبهم بأعظم نسبة يحبونها وهو أنهم من بين إسرائيل من أجل أن يترفق بهم، لأنه دعوة هنا ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ [البقرة: ٤٠]، فهو حديثٌ عن المنن الإلهية عليهم بأنهم كانوا من أتباع وأبناء نبيٍ عظيم وأنه حصل مع أباهم هكذا، وهذا أدعى للقبول، ما الأدعى للقبول هو أن تخاطب حين تكون المنن والعطاء الإلهي بخطاب أنك من قوم كذا المتدينين، من قومٍ على دينٍ ما؟ أو أنك من أبناء هؤلاء القوم؟

ذلك لأن الناس يرون أن المنة والعطاء الذي يقع على الأب هو يقع على الابن، فلآن هل الابن يخاطب بالمنن التي وقعت على أبيه؟ يخاطب، ألا يقال له: ألم نحسن إلى أبيك فيكون إحسان إلى أبيه وإحسانٌ إليهن فجاء الخطاب هنا بنسبتهم إلى أبيهم لأنه أدعى إلى القبول، ولأن في ذلك تذكير بأن المنن التي وقعت على آباءهم وما وقع من

آباءهم حتى انه يعير به الابن، هذا أدعى هكذا فعل آبائكم هكذا وقع من الخير على آبائكم، فجاء الخطاب ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة: ٤٠]، أنتم أبناءهم فما وقع على أباءكم هو خيرٌ لكم كذلك، وما وقع من أباءكم فعليكم أن تحذروه وعليكم أن تتبرؤا منه إذا كان من الشر.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾ [البقرة: ٤٠]، كم خطاب هنا؟

الخطاب الأول: قال تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

الخطاب الثاني: قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ [البقرة: ٤٠]، بعد التذكير بالنعمة بيان الأمر.

الخطاب الثالث: قال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾ [البقرة: ٤٠] وهو بيان العاقبة.

إذن هذه الجمل الثلاثة كما نراها هي حاوية لكل ما يخاطب به المرء على هذه الجهة، فأولاً: قال تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، فذكرهم بالنعمة، وهذا كقول يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، اذكر نعمة الله عليك، ذلك لما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه، ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣)﴾ [مريم: ٤٣]، فهو لابد من ذكر النعمة أولا، وماذا قال يوسف عليه السلام للمساجين كذلك؟ ذكرهم بما يحسن إليهم، لما قالوا ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: ٣٦-٣٧]، فلا يمكن أن تذكره بالنعمة إلا وقد فعلتها، ففي هذا بيان لأمرين:

أنك قبل أن تقدم الكلمة الطيبة عليك أن تقدم النعم الطيبة، قبل أن تقدم الكلمة الطيبة للآخر قدم له السلوك الحسن الذي به يتم قبول الكلمة بعدها، هذه فائدة، فالله سبحانه وتعالى له حق العبادة علينا من غير موجب لمجرد أنه خلقنا من غير النعم التي أعطينا إياها يجب علينا أن نعبده، فلو قال: أنا ربكم وأنا خلقتكم فاعبدوني لكان في ذلك الكفاية، ومع ذلك ربنا سبحانه وتعالى يزيد ويبيّن أنه أنعم وهو الله جل في علاه، أليس من باب الاولى أن يكون هذا في فعل البشر بين بعضهم البعض؟ فتصور أن رجلاً يقدم الشر قبل أن ينصح، متجهم الوجه قبل أن يعظ، سيء اليد على الآخرين قبل أن يتكلم قبل أن يخطب قبل أن يدعوهم إلى الدين، يعني من غير نعمة تكون الدعوة ناقصة، فكيف لو كان ضد النعمة.

ولذلك لما قال الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، أقل حاجة لا يكرهونه، لا يعادونه، لا يبغضونه، ولكن لا يجالسونه، يقول عنه: هو رجل جيد وما شاء الله عليه كلامه كله خير وحق، وما يدعونا إليه من خير وحق، نذهب لنصلي؟ فماذا يفعلون؟ يذهبون، ناقصنا

مشاكل نجلس معه واحد مسكين جالس تعب يقول له: لماذا جالس؟ ما عندك أدب؟ يتبهدل، إذا جلس تبهدل، وإذا قام مسكين وقال: عنده مشوار فجلس خمس دقائق والجلسة عشر دقائق فأراد أن يخرج من نصف الجلسة كذلك يتكلم فيه، إلى أين تذهب؟ لن تجد أحسن من هذا المجلس اجلس يا ابن الحلال، فمن أول قبل أن يبدأ المجلس، وإذا تكلم قال له: ما في عندك أدب أنا أتكلم اسمع مني يا رجل، اجلس اهدأ، أنت ما زلت ابن البارحة اذهب واشرب الحليب ونام. ماذا قال القرآن؟ ما قال: عادوك، ما قال: قاتلوك، ما قال: تركوا الدين لأن الإيمان في قلوبهم عظيم، لكن أقل شيء قال: ﴿لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، تبحث عنهم فلا تجدهم.

ولذلك انتبهوا إلى الجانب الآخر أنهم من شوقهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحبهم لم يأت النهي أن يذهبوا إليه فيجلسوا معه، ولكن جاء النهي أن لا يجلسوا معه حتى يتعبوه، نهاهم أن يدخلوا بيته حتى يؤذن لهم، فإذا أُذن لهم لشيء يجب عليهم إذا قضيت الحاجة مما أذن لهم أن يخرجوا، أذن لهم بالطعام حتى يأكلوا، أذن لهم بالشيء فقط لمجرد الإذن ويخرج، هذا على ماذا يدل؟ يدل على حبهم له، يدل على أنهم لا يريدون القيام من عنده، إذا قال قائل: قال تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١١]، هذه ليست لعظماء الصحابة وليست لكبارهم، كان هناك سراع الناس يجلسون ويخرجون لعادتهم، وهؤلاء من الصحابة العظام ولكن لم يؤثر عنهم نشر العلم ولا يؤثر عنهم صحبة طويلة، كانوا من عظماء الصحابة إذا طلب منهم الجهاد قاموا وجاهدوا، طلبت الزكاة يزكون، ولكنهم خارج إطار العلم والقرب والفضيلة فيما سماه النبي صلى الله عليه وسلم: (دعوا لي أصحابي)، الذين هم مقربون له.

فإذن أولاً ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، هذا من بيان، وهذا أعظم المنن من الله عز وجل، يعني لما إنسان يمن على إنسان هذا يذهب فضلها وقيمتها، لما أنت تأتي وتقول له: فعلت لك، وفعلت لك، فالمن من البشر على البشر لا يجوز، لكن مَن الله عز وجل على عباده، يفرح، لما قال تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، وهذا كقول موسى عليه السلام: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]، لما أراد أن يقدم لهم الطلب بأن يدخلوا الأرض المقدسة ذكرهم بنعمة الله عليهم، ليس بنعمته هو ما قال لهم شيء عن فعله معهم ولا أن الله أنقذهم وهكذا.

ولذلك في الحديث لما الانصار عتبوا على توزيع الغنائم بعد فتح الله عز وجل على النبي صلى الله عليه وسلم بعد حنين، ثم أموال غطفان جاءت فأعطى، أعطى المؤلف وأعطى الأنصار الفقراء وأعطى المهاجرين الفقراء وترك الأنصار، فعتبوا، فقال: (ادعوا لي الأنصار ولا يدخلوا إلا أنصاري)، هؤلاء الصفوة، فلما دخلوا ماذا قال لهم؟ خلاصة الحديث، قال: (لهم اذكروا ما لكم؟) قالوا: «لله ولرسوله المنا»، خجلوا، وقالوا: «نحن قاتلنا ودمائنا وخربنا البيوت وو ... إلخ، وبالتالي لا يأتي لنا شيء كلها تعطى للآخرين، الذين قاتلناهم»، هؤلاء الصفوة لا ينفع معهم الخطاب العادي، ينفع معهم الخطاب الإيماني المرتقي، فلذلك صار الحديث عن الجانب الآخر قال: (واللهِ لَو شِئتُم لقُلتُم

فصدَقتُم وصُدِّقتُم: جئتَنا طريدًا فآوَيناكَ، وعائلًا فآسَيناكَ، وخائفًا فأمَّنَّاكَ، ومَخذولًا فنصَرناكَ)، فقالوا: «الْمَنُّ للهِ ورسولِهِ»، لا ،لا نعد ولا نذكر، وبعدها ذكر مِنة الله عز وجل عليهم به، أتيتكم، أتيتكم، وهكذا، جعل يومٌ علي فحتى أقروا بهذا، ثم ذكر ما ذكر صلى الله عليه وسلم في بقية الحديث.

القصد: أن العبد لا ينبغي أن يمن على العبيد ولا على أهله، ولكن ينبغي أن يذكرهم بنعمة الله عز وجل، أن الله عز وجل أنعم عليكم، أن الله عز وجل أنعم عليكم بي، وهكذا لما أراد موسى أن يستثير بني إسرائيل ذكرهم بآبائهم ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾، انظر: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ لم يكونوا كلهم أنبياء، ولكن ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾، جعلهم كلهم ملوك، لأن ابن الملك ملك، شقيق الملك ملك وهكذا، فهم كلهم ملوك، لأنهم ملكوا الأرض ولأنه حصل لملوكهم ما حصل لهم وحصل لهم ما حصل ملوكهم فكأنهم كلهم ملوك.. وهكذا.

فالله عز وجل بدأ في هذا الخطاب بأمرٍ عظيم وينبغي أن نتعلمه وهو أن يقدم المرء نعمته، وتقديم الله عز وجل نعمته دالٌ على الفضل، أن يفرح، كما أيوب عليه السلام لما اغتسل يومًا عريانًا وهو يغتسل نزل عليه فراشٌ من ذهب وهو عريان فأخذ ثوبه وجعل يجمع الفراش من ذهب على ثوبه فناداه الله عز وجل: ألم أغنيك عن هذا يا أيوب، أي ما معك ألا تأكل وتشرب ألا يكفيك، فقال: ليس لي بغنى عن رحمتك.

قال صلى الله عليه وسلم: (بيْنَما أيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيانًا خَرَّ عليه رِجْلُ جَرادٍ مِن ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَحْثِي في ثَوْبِهِ، فَنادَى رَبُّهُ: يا أيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قالَ: بَلَى، يا رَبِّ، ولَكِنْ لا غِنَى بي عن بَرَكَتِكَ).

هذا الحديث فيه الدلالة على أنه على المرء أنه إذا حصل فضلٌ خاص أن يستأثر به ولا يؤثر به غيره، مثلاً: لنعتبر أن رجل حصلت له فضيلة كرامة بأن نزل طعام له من السماء، أسقاه الله عز وجل، هذه لا يعطيها للآخرين، هذه يستأثر بها، بعد أن يأخذ منها يعطيها للآخرين، فإذا حصل من هذا النوع من الفضل عليه أن يأخذ منه، ليس كالطعام العادي، هذا لا بأس لو آثر به غيره لا بأس، لكن ما يحصل من الفضل هذا ينبغي على المرء أن يختص به، لماذا؟ لأنه فيه نعمة خاصة، لأنه فيه فضلٌ خاص.

فقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، وهنا أيها الإخوة الأحبة يعني ترون الخطاب خطابٌ مباشر، ما قال: يا بني إسرائيل اذكروا نعمة الله، هنا، وإن جاء هذا في آياتٍ أخرى، لكن ما الأقرب؟ أن ينسب النعمة إليه وأنه يخاطبهم بنفسه، وهنا اذهابٌ لشخص الرسول، مع أن الخطاب في الآية الثانية ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١]، الخطاب من أجل الرسول، لكنه تغييب لشخص الرسول، ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، وهو يريد أن يقول لهم: اتبعوا الرسول ولكنه يخاطبهم خطابًا، ما قال لهم اذكروا نعمة الله ما قال لهم. قل يا محمد اذكروا لبني اسرائيل اذكروا نعمة الله ما قال لهم هذا، إنما هو خطابٌ مباشر من الله عز وجل لهم، لأنه أدعى للقبول، وغيب شخص الرسول من أجل أن يبيّن أن ما يدعوكم إليه الرسول

هو الذي أدعوكم أنا له، وهذه يستفاد منها الكثير؛ يستفاد منها الترقق في الخطاب، يستفاد منها أنك ينبغي أن تغيب نفسك وأنت تخاطب، لا تقل له: هذا الحق أنا جئتك به وأنا الذي علمته، المرء لا يقبل، لا يقبل منك بمعنى لو أنك جئت إليه وقلت له: هذا الحق أنا اكتشفته وعليك أن تتبعه، يعني هو يقول: ما دام جاء منك الله يعطيك العافية لا أريده، هذا أدعى للرفض، ولكنه إذا بيّن أنه ليس منه وهكذا يفعل.

فمرات كثيرة نجد العلماء وأنا استغرب منهم لماذا يحتجون بكلام المخالف مع أنه بيّن؟ لأنه أدعى للقبول ولأنه أدعى للتواضع، مما ذكر عن تواضع الإمام الْمُزني في مختصره على كتاب الأم، قال: قال: الشافعي –وذكروا هذا عنه– قال الشافعي: الماء طهور، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨)﴾ [الفرقان: ٤٨]، قالوا: هو لا يستطيع ان يضعها إلا وقال الشافعي؟!! أي هو عادي الماء طهور، الكل يقوله فلماذا تقول: قال الشافعي؟!! ولماذا تذكر هذه الآية والآية الشافعي وغير الشافعي يستدل بها على هذا الباب، لماذا؟ لأن هذا أولاً أدعى للتواضع، تغييب النفس، وثانيًا أدعى لقبول الآخر، لا أقول لك، يقول أمامك، فجيد أنت وأنت تخاطب أن تقول هذا قول الله عز وجل، والله أنا حامل له، ولذلك رأيت من الشافعي رحمه الله كلامًا، لما تحدث في الام تحدث عن قضية هل يجوز استرقاق العربي أو استرقاق مرء من آل البيت أي واحد من قريش هل يجوز استرقاقهم؟ فذكر أن بعض أهل العلم وأقصد بها أبا حنيفة رحمه الله أنه لا يجوز، وقال: ولو كان الأمر يعود إلى النفس فنحن أولى بهذا القول منه، كون هذا عجمي وهذا قرشي، أي يعجبنا هذا الكلام، لكن الكلام لا يدور حول هذا، لا على ما يعجبني ولا على ما يكرهني لا على عشيرتي ولا على قبيلتي وإنما الكلام يدور حول الحكم الشرعي وهذا أدعى أن تقول له: لو كان الكلام إلي والله لتنازلت، ولو كان الأمر لي لتنازلت ولكن هذا أمر الله عز وجل، فهذا أدعى للقبول، قال تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، الله عز وجل يتحدث عن نفسه.

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، ما هي النِعَم؟ هنا أطلقها، أي نِعَم هنا؟ نِعَم عظيمة جاء تفصيلها في القرآن، من أعظم النِعَم التي عليهم هو أنه اختارهم على العالمين، وفضلهم الله عز وجل على العالمين، قال تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾ [البقرة: ٤٧]، ما المقصود بالعالمين؟ أيعني كل البشرية؟ لا، المقصود بذلك العالمين في عصرهم، لما فضلوا وكانوا في طاعة الله ففضلهم على العالمين، أن اختاره الله عز وجل لهذا.

وهنا نأتي لمسألة مهمة جدًا، يعني هذه عنصرية، يعني لماذا يفضلهم؟ ما الذي فيهم؟ فالله عز وجل يرد على ذلك بقوله في سورة «القصص» في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨)﴾ [القصص: ٦٨]، انظر الآية متكاملة وأنا ذكرت لكم مرة أن كل آية توهم باطلاً في بعض جوانبها تأتي الآية في الرد عليه هذه قاعدة، قلناها هذه القاعدة كثيرًا وهنا من إحدى شواهدها، «كل وهمٍ باطل يظنه الظان وهو

يقرأ الآية تأتي الآية لإبطاله» وبيّن هذا وذكرته مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق: ٣]، لئلا يظن أنه بمجرد التوكل يأتي النصر لا كل شيءٍ بوقته، قد يقول قائل: أين النصر؟ يقول: سيأتي، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: أوعدتك هذا العام؟ ما قلت لك هذا العام سنفتح وندخل ونصلي في المسجد الحرام.

فهنا انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، لأن الاختيار عادةً يوجب لعظمة النفس، ويوجب لغرورها، يقول: الله اختارني، نقول له: ليس لك، ليس منك شيء لم يحصل أن هذا الاختيار كان لسببٍ خاصٍ فيك أنت أنشأته، ومن هنا فالمعروف عند أهل السنة وعند أهل الإسلام إلا من خالف وشذ ولا يلتفت لهم بل هم زنادقة، أن النبوة اختيار، النبوة اصطفاءٌ واختيار، بعض المتصوفة والفلاسفة من تأثر من المسلمين وغيرهم اعتبروا أن النبوة اكتساب أنه حصل لهم، حتى أنهم يعتقدون أن النبي صلى الله عليه وسلم لما كان يذهب إلى التعبد في غار حراء أنه بهذا التعبد حصل له النبوة والاصطفاء، وهذا كفر، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، البشر لا دور لهم في هذا الاختيار، فقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، ماذا قال بعدها حتى لا يأتي هذا الوهم والمعنى؟ ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، فإن نسبوا الخيار لغيره ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨)﴾ [القصص: ٦٨]، الآية لتدل على تمام المعنى في أن الله عز وجل يعطي من يشاء.

فلو قال قائل: لماذا فضلوا؟ أولاً: الاختيار ليس من قِبلهم فلا يجوز لهم الغرور ولا الرفعة، الأمر الثاني: وهو أهم ما في الباب وهو أنه لا يقع اختيار إلا بتكليفٍ يقابله، لا يقع اختيار من الله عز وجل لأمة أو لأحد الناس إلا بمشقةٍ تقابله، سيدفع ثمن هذا الاختيار، لا يقع اختيار من الله عز وجل ولا عطاء ولا مِنَّة على أحد من البشر أو على مجموعة من الناس إلا وبهذا الاختيار يقع التكليف الشديد الذي به يتم دفع الثمن لهذا الاختيار، وهل يرفض الاختيار؟ نعم، بنو إسرائيل الله عز وجل فضلهم على العالمين، هل حصل في أجيال منهم وأقوام منهم أن رفضوا هذا الاختيار؟ حصل، بماذا؟ بتركهم ما كلفوا به من اختيار، يعني لما يقول: أنا اخترتك ملكًا ولكن لا يمكن أن تصل إلى الملك حتى تقطع هذا السبيل من المشقة وو ... إلخ، فمن يقبل يصل، ومن لا يقبل ينتكس ويرجع.

ومن هنا من أعظم الناس بلاءً؟ أعظم الناس بلاءً هم أعظم الناس فضلاً، الذين اختارهم الله فضلاً على غيرهم أعظمهم ابتلاءً، الصحابة رضي الله تعالى عنهم هم أعظم الناس بعد الأنبياء وهم أعظم الناس مشقة، لم يلقى أحد ولا أمة من الأمم من البلاء ما لقي أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، أبدًا، لا يوجد، والنبي صلى الله عليه وسلم هو خير الأنبياء وهو أعظم الناس بلاءً من الأنبياء، وأمته أعظم الأمم لأنها أعظم الناس بلاءً، فما ترون من هذه الأمة في البلاء إنما هو لسبب خيريتها، فالقضية لما واحد يأتي يقول: أنا فضلت هذا لم تفضل لتجلس، وإذا جلست يذهب عنك الفضل.

ومن هنا هذا الكلام يجتمع مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ﴾ أي الذين اختارهم الله عز وجل ليكونوا أكرم الخلق هم الذين سلكوا طريق هذا الاختيار وهو التقوى، إذن هل هذا دينٌ عنصري؟!!

وهنا مسألة ثالثة وهي مهمة جدًا هل يمكن للمرء أن يدخل وهو في الأصل ليس من المختارين مع المختارين بسلوك طريقهم؟ تقدم الكلام في إبليس بما وقع الخطاب له، مما اخترناه، بما وقع الخطاب له مع الملائكة لما ارتقى ودخل معهم، فيمكن للمرء أن يدخل، والناس يدخلون فيهم، والله عز وجل قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، الكلام على القوم، يعني على قريش ثم من يليهم، فالخطاب معهم إذن هو فضل الله عليهم، هل هناك من قريش من لم يدخل ورفضوا هذه الكرامة؟ والذين دخلوا مع قريش في هذا الباب وصلوا إلى وصلت قريش، قال صلى الله عليه وسلم: (سلمان منا آل البيت)، هذا كله يُذهب ويفسد نظرية العنصرية، هذه لا قيمة لها.

بقيت مسألة رأيت البعض يخوض فيها من المعاصرين، هل الاختيار الإلهي في أمرٍ تشريعي يعني وجود الاختيار الإلهي في الأمر القدري عند التكوين؟ معنى السؤال: الله عز وجل اصطفى محمدًا صلى الله عليه وسلم على العالمين، وهو اصطفاء ديني، النبوة أمرٌ ديني، فلو سأل سائل: هل النبي صلى الله عليه وسلم في تكوينه يختلف عن البشر؟ في تكوينه؟ الجواب: نعم، للفضل في التقدير حصل الفضل في التشريع.

مثال: والأمثلة على ذلك كثيرة، ففضل النبي صلى الله عليه وسلم تكويني، أعظم من فضل بقية البشر في التكوين، والدليل أنهم يستشفون ببصاقه، يستشفون بريقه، فبدنه غير أبدان البشر، فهو في التكوين مميز فحصل له كذلك الاصطفاء في التشريع، الآن مكة والمدينة حصل لها الاصطفاء التشريعي، بأن الله عز وجل جعل مكة خير بقاع الأرض، والمدينة هي مهجر النبي صلى الله عليه وسلم ومهوى فؤاده صلى الله عليه وسلم، فهل مكة في تربتها وخلقتها مميزة عن بقية الأرض؟ الجواب: نعم، زمزم لما فضلت تشريعيًا هي مفضلة، ولذلك لا يقع فضلٌ تشريعي إلا لفضلٍ تكويني، هذا يجيب على السؤال وهذه ليست عنصرية، نحن قدمنا وجاوبنا على العنصرية ورددنا عليها.

فهل بهذا لما اختار الله عز وجل العرب ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ابتداءً الخطاب مع أنه خطاب للعالمين، الخطاب لكل العالم لكنه ابتداءً خطاب لمن؟ وإنه ﴿لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، فهنا مع أنه ممكن أصولنا غير عربية كما كان يقول الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله مع أنه ألباني ولكنه كان يقول هذا وهذا هو كلامٌ منصف وكلام العلماء ومع أن الكثير من العلماء ليسوا كذلك لكن هذا يثبت فضل العرب خلقةً على غير العرب، نحن نتكلم هنا عن النسل، عن نسل إسماعيل، نسل قحطان، وهكذا، أما من دخل على العرب من أصولٍ أجنبية فهذه خلقته قد يلتقي معهم في النسب وفي الصهر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤)﴾ [الفرقان: ٥٤].

فإذن لا يقع فضلٌ تشريعي إلا بفضلٍ تكويني، إذا فضل الله عز وجل مكانًا أو رجلاً أو كذا فيه فضلٌ تكويني، وقد يرتقي غيره إلى هذا الفضل لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد يسأل سائل كيف أهناك أماكن قد ترتقي إلى درجة مكة والمدينة؟ نقول له: نعم، في أماكن يحصل فيها من الفضل أفضل من بقائك في مكة والمدينة، لماذا؟ لما فيها من أعمال، الآن ما الأفضل الرباط في مكة والمدينة من أجل العبادة أو الرباط في الجهاد؟ أرض الجهاد فيها فضل الإقامة على غيرها، لكن مع بقاء التربة مختلفة ولكن ارتقت هذه بالعمل على غير هذه، وهذا كله في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

قلنا النِعَم أيها الإخوة الأحبة كثيرة مذكورة في هذه السورة، الله عز وجل فضلهم على العالمين، الله عز وجل أنزل عليهم المن والسلوى، الله عز وجل أقام لهم الآيات، اختار لهم نبي سماه كليمًا هذا وعظمة موسى عليه السلام وتكريم موسى عليه السلام هو تكريم لقومه، ألا ترون أنه إذا أكرم زعيم القوم كأنه إكرام للقوم؟ كذلك الله عز وجل أنقذهم في الماء أنه أقام لهم هذه الآية العظيمة أن الله عز وجل جعل الماء جبال ومشوا في وسط الماء، أخرجهم من بين فرعون ومن جنده وهم الضعفاء المساكين إلى غير ذلك، كل هذا من الآيات العظيمة التي أعطيت لهم، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرحمنا برحمته وإن شاء الله نتم في الدرس القادم، بارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: شيخنا ذكرت أن الحزن غير مطلوب شرعًا لكن الآيات تذم الفرح قال تعالى: ﴿اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص: ٧٦].

الشيخ: سؤال إذا الله عز وجل ذم الفرح فكيف يعني أن الحزن غير موجود؟ هذه ثنائية! فهل القسمة ثنائية في الوجود يا شيخ؟ إما أن تفرح فرحًا نهى عنه الشارع أو تحزن حزنًا مطلوب الشارع؟ لا، هناك حالة التي يعيشها الناس، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يبتسم، هذا ابتسام مشروع، النبي صلى الله عليه وسلم كان يفرح إذا جاءه خبر مفرح، ديني أو دنيوي، فالمقصود ليس كل فرح، قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥)﴾ [غافر: ٧٥]، انظر ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، قيدها، ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥)﴾، ولماذا المرح أطلق؟ لأنه في ذاته مذموم، ما هو المراح؟ هو السير بغير هدى من أجل المتعة فقط، السير من غير فائدة، هذا مرح، كما ترى الناس يذهبون للعب وغيره هذا مراح مذموم؛ لأنه لا يوجد له ضابط بأن يكون مع الحق.

ولذلك في الحديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يلاعب إلا في ثلاث لما فيها من المنفعة لنفسه ولأمته، ولكن الفرح المذموم قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، إذن يمكن أن يكون الفرح بحق، كيف يفرح بغير الحق؟ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا﴾ [آل عمران: ١٨٨]، هذا فرح مذموم، ما هو الفرح المذموم؟ أنهم فرحوا بأن صدق المسلمون كذبهم؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، فلما جاءت العرب إلى بني اسرائيل وسألوهم من خير الأديان؟ ديننا أم دين محمد؟ هذا سبب نزول الآية كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، فقال اليهود لهم: دينكم خير من دين محمد، فأعطوهم المال، ففرح اليهود أنهم صُدقوا وأخذوا أجرة على ضلالهم، فقال الله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٨٨]، هذا فرح مذموم وهذا من أشد أنواع الفرح المذموم.

وكذلك من الفرح المذموم قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢)﴾ [الأنبياء: ٢]، هذا من الفرح المذموم وهكذا، واستخدام آلات المعاصي وهذا باب واسع يعني لكن هذا الذي نقوله إن شاء الله.

السائل: يعني شيخنا الآن تسمية اليهود غير اليهود في الأزمنة الماضية؟

الشيخ: نعم، فاليوم لا تستطيع أن تميز الإسرائيلي من اليهودي العام بالاعتقاد وعامة اليهود اليوم مثل ما قلت لك هم يهود إلى الشرق الذين تهودوا في القرون المتأخرة.

وهنا نأتي إلى كلمة مهمة جدًا وهي أهم مما تكلمنا فيهم وهو أن دين اليهودية عنصري، بالمفهوم العنصري المصطلح، كما الروافض، ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا﴾ [البقرة: ٨٠]، فهذا هذا التميز الذي جعلهم ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، وهذا لظنهم أن بهذا حصل التميز ومن غير أن يؤدوا ثمنه فهذا هو سبب هذه العنصرية ولذلك اليهود من أقل الناس دعوةً لدينهم، لا يحبون أن يشاركهم في هذا الفضل أحد، وإذا دخل غيرهم شككوا فيه، يعني يهود الفلاشا الذين نقلوا من الحبشة إلى فلسطين في زمن النميري وأخذ عليهم الملايين ثمنًا لذلك، إلى الآن يرفض الحاخام اليهودي الأكبر أن يدفنهم على الطريقة اليهودية، يعني يشغلونهم زبالين وكذا يهود من الدرجة الثالثة والرابعة ولا يحترمونهم ويرفض أن يعترف بيهوديتهم، فاليهود عندهم عنصرية، يعني هذا اليهودي من عرق يهودي ولا ينبغي أن يدخل فيه غيره لئلا يشاركهم، وهذه العنصرية المرفوضة.

نحن عندنا يأتي الرجل ويسلم ويصبح أخًا لنا ولا يوجد في تاريخ أمةٍ من الأمم أن أمة مهزومةً دخلت في دين المنتصر ثم حكمت المنتصر إلا في تاريخ الإسلام، يعني بعد ذهاب الدولة الأموية وهي دولة عربية صافية، من الذي حكم؟ الفرس، هم الذين حكموا جاء بعد ذلك المماليك وحكموها، والعرب لم يحكموا، فالعثمانيون جاءوا من شرق آسيا وهم ليسوا عرب وحكموا والناس كانوا يحبونهم كحبهم لأنفسهم، إلا بعد أن ظهر الدين القومي والفكر القومي الشركي العفن.

السائل: ذكر الله عز وجل في سورة «الجمعة» وقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ [الجمعة: ٦].

الشيخ: وهنا انتبه ما سماهم يهود ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾، فهو صفة لهم، لا زالت هي صفة لهم، وإن شاء الله نبيّن أصل كلمة يهود، وهادوا نبينها إن شاء الله.

السائل: كون وجود الإيمان في نفس الشخص مغير من واقع الحياة التي يعيشها هل هذا خارج عن السنن الكونية والقدرية أم خارج عنها؟

الشيخ: أنا فهمت السؤال وأرجوا أن يكون فهمي صحيحًا، أقول لك كلمة واحدة فقط وهذه يقين مما لا خلاف فيه بين أهل الإسلام: لا يوجد في هذه الحياة الدنيا شيءٌ خارج السنن، فكل ما يقع في هذه الحياة إنما يقع ضمن دائرة السنن الإلهية، قد يقول قائل: فما بالك بالمعجزة؟ نقول: هي ضمن السنن –وهنا النقطة– وأثر الإيمان في جانب من الجوانب لا يعني أن هذا الفعل الإيماني خارج السنة، لكن الآن نأتي إلى كلمة السنة، السنة هنا هي ارتباط النتيجة بالسبب، ولا يوجد –وهذه صرح بها الأئمة في كتبهم– لا يوجد نتيجة في الوجود إلا بسبب.

الآن الكلمة التي في ظني يدور كلامك حولها وهي: هل الأسباب التي يعرفنا بها الإيمان من أجل الواقع وتغيره هل هي خارج السنن أما أنها للفعل التشريعي فقط تغير؟ الجواب: أن الأحكام الشرعية والأدلة الشرعية كاشفة للأدلة القدرية وليست منشئة لها.

أعيد الكلمة: أن الأسباب الشرعية التي ذكرت في الكتاب والسنة، الكتاب والسنة ليس مُنشئًا لها، ولكنه كاشفٌ لها، دعنا نذهب إلى كلمة نقولها والنبي صلى الله عليه وسلم علمنا إياها وهو: أن الدعاء سببٌ شرعي، هل الدعاء أنشئه الكتاب والسنة؟ أي عند نزوله أنشئه ولم يكن قبل ذلك في علم الله عز وجل وقدره؟ لا بل هو في علم الله عز وجل حيث خلق الله السماوات والأرض أن الدعاء سببٌ قدري لإحداث نتائج، ولكن الشرع كشفها لنا، قال لنا: أنتم لا تعرفونها من جهة أنفسكم، فأنا أعرفكم إياها.

مثلاً: الاستغفار، ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١)﴾ [نوح: ١٠-١١]، هذا الاستغفار هل هو لما نوح عليه السلام أخبر قومه بها؟ هل نشأ حينئذٍ سبب الاستغفار لهذه الأعمال؟ أم أن الاستغفار حيث خلقت السماوات والأرض هو سببٌ قدري لإحداث هذه النتائج؟ الجواب: نعم، الجواب هو الثاني، وهو أن الاستغفار حيث خلق الله السماوات والأرض أنشأ سببًا اسمه الاستغفار من أجل هذه النتائج، إذا كان هذا هو الجواب فما كشفه الشارع لنا من أسبابٍ لا نعرفها من خلال ممارساتنا من خلال الاستقراء من خلال التجربة إنما هي كشفٌ لها وليس إنشاءٌ لها.

الآن لما نحن نقول الإيمان هو يغير الحياة، بلا شك، وهنا نقطة وأنا ذكرتها كثيرًا، لا يوجد في تاريخ البشرية شيءٌ له أثرٌ في تاريخها كما هو الإيمان، وأقصد به ما يضاده وما يأتي به، لا يوجد، وهذا الذي أنا قلته في حديثي عن التاريخ، لا يوجد في تاريخ البشرية شيءٌ يؤثر في وجودها واستمرارها أو زوالها أو قيامها كما يؤثر الإيمان، أنا أتكلم عن البشرية بمجموعها وأتكلم عن البيت في داخل البيت، يعني استغفارك، استغفار المرء في بيته، طاعته، صلاته، صيامه، تقواه، أكل الحلال، أكل الحرام، وأنت ترى هذا بينًا أن الأمم بالطاعة تدوم ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨)﴾ [يونس: ٩٨]، تدوم حتى يأتي أمر الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ [الإسراء: ٥٨]، ﴿مُهْلِكُوهَا﴾ لجريان عامل الزمن، كما أن أنا وأنت نهلك سواء كنا طائعين أو عاصين يدخل علينا عامل الزمن ويكبر المرء يكون عشر سنين عشرين سنة ...إلخ، ثم يموت لعامل الزمن، وإما أن يهلكه الله عز وجل، يُنزل عليه هلاك، فالأمم لها كذلك أزمنة والبيوت لها أزمنة وكل شيء له أزمنة، إما أن يسبق عليه كتاب العذاب وإما أن يمشي فيه عامل الزمن والأقدار تمشي فيه كالأمراض ككبر الزمن، قال صلى الله عليه وسلم: (أنزل الله لكل شيءٍ دواء)، (لكل داءٍ دواء إلا السَّام)، ما هو السَّام؟ الهرم، فالعاقبة والموت بنتيجته بسببه، فهذا يموت المرء به، وإما أن تأتي إليه الأمراض التي تصيب الناس فتهلكه، وكذلك البشرية في مجموعها.

السبب الأخلاقي الذي يرفض العلمانيون اعتباره وهذا باب واسم وهو إحدى معاركنا مع العلمانيين، يعني أنت تذكر السنة الماضية صارت الفيضانات في جدة، فيضانات وقتلت ناس وهذا، فالناس يعني أي طالب علم أو أي مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ويتقي الله لا بد أن يربطها بسببٍ ظاهري وباطني، كما هو الشأن يعني، قال تعالى: ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤)﴾ [الطور: ٤٤]، فأنت ممكن أن تفسره تفسيرًا كونيًا، والناس يفسرون الشيء بنفسه كما يقال: مات، قال: ما سبب موته؟ قال: سكتة قلبية؟ ما هي السكتة القلبية هي الموت، فالبارحة عزينا برجل عمره أربعين سنة واقف يصلي صلاة الضحى فسقط، ليس فيه أي علة مرضية، فمات، ما سبب موته؟ الموت، الناس يقولون: سكتة قلبية يعني سكت قلبه فمات، ما هو الموت سكوت القلب، أنا أتكلم عما يقع في الوجود.

أنت الآن فسرت هذا وتفسره تفسيرًا دينيًا، لماذا يقع هذا؟ موت فجأة، مات وهو يصلي الحمد لله، الله أراد أن يقبضه وهو يصلي، تفسرها تفسير ديني، فلما وقع هذا الحدث في جدة الناس ذهبوا يرون المعاصي، يقولون: هذا وقع بسبب معاصي، فقام العلمانيون والدولة نفسها حذرت من يفسر هذا التفسير بأنه سيعاقب، واعتبرت أن هذا الكلام تحريض على الفتنة وأنه كذا وكذا، يريدون أن يلغوا عامل الإيمان في حركة البشرية وحركة الكون ومقادير السماء ومقادير الأرض، لا يريد للإيمان أن يتحدث، وهذا إحدى معاركنا مع الآخرين.

معاركنا الآن الأمة تعذب، لما يأتي واحد يقول: الأمة عذبت بتركها الجهاد، هذا تطبيق لقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فترك الجهاد موت، فالناس يقولون لهم: قوموا، لا تجاهدون فأنتم ستموتون، يأتي الآخر يقول: أنت تفسر تفسير ديني، أليس هذا ما يقولوه لنا في كل صحفهم وكذا، هذا تفسير ديني، التفسير الديني لا يعني ربط كل شيء في السماء دون الأرض، وهذا تكلمت عنه في أوقات كثيرة، كيف ندرك التفسير الغيبي في عالم الأرض وكيف يرتبط به؟ وهذا باب واسع ولكن يكفي.

القصد من هذا: أن أعود فأقول: ما من شيءٍ في الوجود إلا لسبب وهذا السبب قد نكتشفه من خلال الملاحظة والتراكم المعرفي، وإما أن يعلمنا به السماء، وأن ما علمنا به السماء هو كشفٌ له لا إنشاء له وأن هذا ينبغي أن نؤمن به وأن نفسر تفسير القرآن في بناء الأمم وسقوطها وحياتها وموتها إلى غير ذلك، والله تعالى أعلم، جزاكم الله خير.

السائل: بالنسبة للسورة شيخنا، يعني الآيات المتقاربة تتكلم عن آدم ثم انتقل إلى بني إسرائيل وأنت قلت مدنية والله عز وجل ربط قصة موسى كثيرًا بواقع المدينة وخصوصًا بني قريظة وبني قينقاع وهؤلاء اليهود، السؤال: لماذا هذا الربط مع بني إسرائيل، هل السبب أنه كان هناك طوائف من بني يهود؟ أم هم أسوء صورة من البشرية من قتلهم للأنبياء عليهم السلام وكفرهم بعد أن تبين لهم الحق؟

الشيخ: السؤال هذا ذكرني بشيء مهم جدًا وكنت دائمًا أريد أن أتكلم عنه، وربما كان سيأتي، وفي الحقيقة هو لم يكن في ذهني ولكن هو مهم جدًا، جزء من القضية في حديث القرآن عن بني إسرائيل، لماذا تحدث القرآن كثيرًا عن بني إسرائيل خارج هذا الإطار وهو إطار أن هذه الأمة بما تكلمنا، نحن قلنا: بأن تجربة النبي صلى الله عليه وسلم مع أمته أقرب ما تكون لتجربة موسى عليه السلام مع أمته، يعني أقرب التجارب، لكن في جانب مهم جدًا وهو لماذا هذا الحديث القرآني الكثير والشديد عن بني إسرائيل مع أنه تاريخيًا النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة لم يعاني منهم المعاناة التي استغرقت معاناته مع قريش؟ يعني الحرب الحقيقية كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش، ودخل اليهود بعد ذلك في المدينة دخولاً رديفًا لقريش رديف، فلماذا هذا الحديث المتسع عن بني إسرائيل؟

الأجوبة كثيرة وكلها صحيحة،، ولكن أعتقد بأن الأثر اليهودي في العالم سيكون في أخلاقهم وفي قوتهم الإعلامية وفي تحالفهم مع الأقوياء وفي نهاية هذه الأمة كيف تتعامل معهم، أعتقد بأن هذا من المهم أن ننتبه له، بأن عددهم قليل وبأن قتالهم العسكري قليل وضعيف ولكن الأثر على الوجود كثير، يعني تاريخ البشرية يشهد أن اليهود لهم تأثير في البشرية، أن أخلاق اليهود دخلت في البشرية، أن استغلال اليهود للأقوياء والتحالف معهم ضد المسلمين كثير في البشرية، فهذا جانبٌ مهم، وهو أن الله عز وجل أراد أن يعلمنا هؤلاء القوم الذين لنا صلات معهم مباشرة مرات كما في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وبعد ذلك لا يوجد في التاريخ الإسلامي، تقرأ في التاريخ الإسلامي لا يوجد قتال بين المسلمين واليهود أبدًا بعد أن انتهى أمرهم وأخرجه عمر رضي الله عنه من خيبر وانتهت قوتهم في دخول النبي صلى الله عليه وسلم خيبر ثم أخذه أموالهم إلى غير ذلك وثم اشتغالهم بالمزارعة في أموالهم ثم أخرجه عمر رضي الله عنه من جزيرة العرب فانتهى في التاريخ لا تقرأ، تبحث في كتب التاريخ لا تجد صراعًا يهوديًا.

لكن اليوم تجد صراعًا يهوديًا والحديث أنت تعرف قولي وأرجو أن أكون على صواب في أن هذا هو العلو الأول، أي هذا العلو في بني إسرائيل الأول، وهذه المعاناة التي يعيشها العالم بسبب علو اليهود، لكن هل كان اليهود في بُعد عن تأثيرهم على مجريات الحدث مع خفائهم؟

الحقيقة يحدثنا القرآن عن وجود يهود، يعني مثلاً عبد الله بن سبأ اليهودي، عبد الله بن سبأ ابن السوداء، فمذهب الشيعة في قضيته غلو الشيعة ليس فقط الشيعة بمعنى علّي الذي نقاتل معه ضد معاوية، ولكن فكرة تأليه علّي وتعظيمه لهذه الدرجة هي فكرة يهودية، أنشاءها يهودي، هذا مهم.

هل اليهود لم يكن لهم دور في تأجيج معارك جانبية؟ هذا يحتاج إلى دراسة، أي هل كان لهم دور مثلاً في الحروب الصليبية؟ أنا في الحقيقة لم أطلع، لكن هل كان لهم دور؟ أتباع اليهود من الروافض في تحالفهم مع الصليبيين وتحالفهم مع التتار، معروف ابن العلقمي الذي أرسل رسالة لهم وفتح لهم بغداد، فإذن اليهود لهم وجود ولهم تأثير، ولكن بلا شك أن تأثيرهم في بداية الدعوة فقط كان موجود بما ذكرت السيرة وتأثيرهم اليوم معاصر فيما ذكر القرآن عن علوهم،

فالاهتمام القرآني بهم هو من هذا الجانب، غير الجوانب الأخرى التي نحن نستفيد من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وطريقه فيما استفاده وعلمه الله عز وجل من قصة موسى عليه السلام،

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الرابع والأربعون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة فهذا هو الدرس الرابع والأربعون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)﴾ [البقرة: ٤٠-٤١].

قلنا: بأن الخطاب هنا خاطب الله عز وجل بني إسرائيل والمقصود بهم اليهود، وتقدم الكلام يسيراً في أنه كيف يدخل اليهودي غير النسب لإسرائيل عليه السلام في هذا الخطاب لأنهم تبع، يعني اليهودي الذي لا يكون من بني إسرائيل وعامة اليهود اليوم ليسوا إسرائيليين فإنهم يدخلون تَبعًا لهم، وقوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، هذه عند بعض أهل العلم تفيد وجوب شكر المنعم، هذه من المسائل العقائدية وهي هل يجب شكر المنعم عقلاً أم شرعًا، وهذا يترتب عليه التكليف قبل البلاغ قبل النبوة، هذه المسائل لا نريد أن نخوض فيها كثيرًا لكن نبين فقط ما يدور حولها من معاني.

فهناك المعتزلة يقولون: وجوب شكر المنعم عقلاً؛ لأنها مما فطر عليه الخلق، فإذا عصى ولم يشكر العبد ربه على نعمه عليه حتى قبل ورود الرسالة فهو معاقب؛ لأن شكر المنعم يجب من جهة العقل، والكثير أهل السنة يقولون: لا، يقولون: وجوب شكر المنعم شرعًا، بمعنى أنه لا يثبت وجوب الشكر إلا بالشرع، والصواب في المسألة أن العقل موجبٌ فقط من جهة الدلالة لا من جهة الإثم، ما معنى هذا الكلام؟

معناه أن العقل يفيد هذا الإيجاب لوحده؛ لأن الإنسان مفطور على شكر من أحسن إليه، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠)﴾ [الرحمن: ٦٠]، مفطور، وعقله وفطرته تقتضي هذا المعنى أنه من يحسن إليه عليه أن يشكره، فالعقل يوجب هذا، ويدل عليه، لكن هل يترتب على هذا الإيجاب العقلي عقوبة إذا لم يأت بها؟ فهذا في الحقيقة لا يجوز أن نقول كما قال المعتزلة، المعتزلة قالوا: فلو لم يشكر لكان عاصيًا، ولذلك يرتبون الإثم على العاصي حتى قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم، من لم يشكر الله عز وجل قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم عندهم عاصٍ

ومعاقب، ونحن عندنا النص، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)﴾ [الإسراء: ١٥]، حتى لو أن العقل أوجب شيئاً أو دل عليه وقامت الأمارات على صدقه أو على إثباته فإن الله عز وجل لا يعذبه إلا بنص، لا يعذب إلا بعد الرسالة، لا يعذب إلا بعد إقامة الحجة، والحجة هي الرسالة، وليس العقل.

المعتزلة يقولون: الحجة هي العقل، نحن نقول: الحجة هي الرسالة، الرسول صلى الله عليه وسلم، النبي.

وهنا قوله تعالى ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة: ٤٠]، ونحن نذكر أن الخطاب كان عامًا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، والآن جاء خاصًا لبني إسرائيل، ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة: ٤٠]، وتقدم الكلام لماذا خُص هنا الكلام على بني إسرائيل دون الكلام على غيرهم، وفي الحديث في صحيح البخاري قال صلى الله عليه وسلم: (لو أسلم عشرة من يهود أسلمت اليهود)، والحديث بعض أهل العلم حمله على اليهود في زمان النبي صلى الله عليه وسلم، بمعنى أنه لو أسلمت عشرة من اليهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لأسلم كل اليهود، وبعض أهل العلم قال: لا، لو في وقت من الأوقات في زمن من الأزمان، أسلم عشرة من اليهود فقط لأسلم كل اليهود، فهذان قولان لأهل العلم في هذا الحديث.

وهذا الحديث فيه دلالة على أن اليهود هم أكثر الناس عتوًا وإجراماً وإعراضاً عن الحق، لم يقل عن النصارى، لأن الكثير من النصارى أسلموا، بل النصارى في بلاد الشام وفي مصر خاصةً وفي اليمن أسلموا، لما دخل الإسلام أسلموا، نصارى الغساسنة الكثير منهم أسلموا، بقي منهم على الكفر لكن أسلموا، النصارى المصريون القِبط أسلموا ودخلوا في الإسلام، وعامة أهل مصر من المسلمين أصولهم نصرانية، واتباع أريوس الذين كانوا في الجبال وكانوا رهبانًا وكانوا في الأديرة أو الديارات، هؤلاء أسلموا، لما جاء الإسلام أسلموا ودخلوا في الدين عامته، فأسلم الكثير من النصارى في وقت من الأوقات ونحن في هذا الزمان نشهد الكثير من دخول النصارى في الإسلام، لكن اليهود لا يدخلون، ولذلك لما ربوا عليه من قضية العتو والإعراض، يعني هذا شيء بارزٌ في هؤلاء الناس.

فهنا نذكر مسألة مهمة جداً ذكرتها في مرات ومناسبات كثيرة، هل هناك جينات خلقية تدل على معاني قيمية؟ أي هل الإنسان يُخلق يوم يُخلق بجينات ما لا يستطيع الانفكاك عنها؟ لا، يقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: الله عز وجل يقول: (إني خلقتُ عبادي حنفاءَ فاجتالتْهم الشياطينُ)، فالأصل أن الناس كلهم على الفطرة، لقوله صلى الله عليه وسلم: (ما مِن مَوْلُودٍ إلَّا يُولَدُ علَى الفِطْرَةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أوْ يُنَصِّرَانِهِ، أوْ يُمَجِّسَانِهِ)، لا فرق بين ابن اليهودي ولا ابن النصراني ولا ابن المسلم، لكن أبواه، فكيف يكون اليهودي بالتربية؟ بالتسليك، يسلك على قيم معينة فينشأ على هذا المعنى، والنصراني يسلك على قيم معينة فينشأ على هذا المعنى، والمسلم يسلك على قيم معينة فيثبت له الإسلام.

إذًا ما هي الصفة الأبرز في اليهود؟ أنهم يربون أبناءهم على أنهم خير الخلق، ومع جواز استخدام كل الشر مع الخلق، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فهذه النفسية ومع العزلة شعور العظمة، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، فهذه النفسية تجعل فيهم شعور التميز الذاتي، والعنصري الدموي على الخلق، وكذلك ما تعلمهم شرائعهم من جواز استحلال الخلق بلا موجب الهداية بلا موجب الدعوة.

وقد يقول قائل: أنتم المسلمون تجيزون غزو الشعوب وتغنمون أموالهم، نقول: نحن بموجب، وهو موجب الدعوة إلى الله والنصح لهم ودعائهم للإسلام، لا هم يجيبونهم لمجرد الخلقة، أصل الخلقة أنك كذا فأنا كذا إذن يجوز لي أن أخذ مالك، أنا خيرٌ منك لما جبلت عليه من أصل الخلقة، فهذا هو الذي يجعل هذه النفوس تأنف من قبول الحق تتكبر وتعرض قبول الحق.

قال تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ [البقرة: ٤٠]، إذن نقول: هذه تبين أنه يجب على المرء أن يشكر من ينعم عليه والله عز وجل هو المنعم لكل شيء، وحين ترى يد الإنعام من الخلق فعليك أن تتفكر على المنعم الأول، يعني هذه النعمة التي تأتي إليك من أبيك لو لم يخلقها الله أصلاً لتكون نعمةً لك، فلن تصل إليك، فعليك أن تفكر دائماً على المنعم الأول.

ثانياً: عليك أن تفكر من الذي أجرى إرادة الإنعام في قلب المنعم عليك، أي بعد قضية النظر إلى المنعم الأول عليك أن تنظر إلى إرادة الله عز وجل التي أنشئها في قلب هذا من رحمة في أن ينعم عليك، فحينئذٍ أنت تعلم أن كل حمدٍ يقع منك لأحد إنما ينبغي أن يكون مرده إلى الله عز وجل، هو المنعم الأول، لكن هنا التذكير بالنِعم على بني إسرائيل لأن هناك نِعماً خاصة أعطاهم إياها الله عز وجل، ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾ [البقرة: ٤٧]، في نِعَم خاصة أعطي هؤلاء القوم، وتحدثنا بما فيه الكفاية أن الخيرية يلزمها التكليف.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، الله عز وجل أخذ عليهم الميثاق ألا يعبدوا إلا الله، وستأتي الآيات في بيان المواثيق التي أخذها الله وكما ذكر ذلك في سورة «النساء»، أخذ عليهم الميثاق وأقام عليهم الحجج في أمورٍ متعددة، في أن يتبعوا أمره وأعظم المواثيق التي أخذت عليهم بعد الأوامر التي أعطيت لهم في قيامهم على أمر الله أنهم إذا جاءهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم أن يتبعوه، أخذ الله الميثاق على الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾ [آل عمران: ٨١]، فأخذ الله على النبيين وبالتالي الأخذ بالميثاق على النبيين أخذ بالميثاق على أتباعهم، الذين اتبعوهم.

وكذلك الله عز وجل خاطب بني إسرائيل على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فلذلك هو يذكرهم بهذه المواثيق والعهود، الله عز وجل عهده لهم هو وعده، العهد هو رابطٌ بين اثنين والتزام، أنا أتعهد أي التزم، العهدة علي أي اللازم لما يوجب هذا علي، فالعهد هو الالتزام، فالله عز وجل أخذ عليهم العهد أي ألزمهم بتنفيذ ما أخذ عليهم، وأما عهده فهو وعده، هنا قابل الكلمة بنفسها مع اختلاف المعنى، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، فالله سبحانه وتعالى ليس لأحدٍ على الخلق عليه موجب إلا ألا يعذبه إلا إذا اتبع الرسول.

قال معاذ بن جبل: (كنتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على حمارٍ، فقال لي: يا مُعاذُ، أتدري ما حَقُّ اللهِ على العِبادِ، وما حَقُّ العِبادِ على اللهِ؟ قُلتُ: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ، قال: حَقُّ اللهِ على العِبادِ أن يَعبُدوه ولا يُشرِكوا به شَيئًا، وحَقُّ العِبادِ على اللهِ ألَّا يُعَذِّبَ مَن لا يُشرِكُ به شيئًا)(١).

إذن حق العبد على الله ألا يعذبه، فقط، وليس من حق العبد على الله عز وجل أن يدخله الجنة، فقط إلا يعذبه، فما فوق هذا هو من النعمة، فكيف يكون وعدَ ذلك لأن الوعد هو كرامةٌ من الله عز وجل، فسماه هنا عهد وذلك من قبيل المشاكلة، ومن قبيل المقابلة بين شيءٍ ونفسه، أي أنتم تنفذون أوامري وأنا أوفي لكم بما وعدتكم به، ماذا وعدهم؟ هناك وعود دنيوية وهناك وعود أخروية لبني إسرائيل، كما هي وعودٌ لكل الناس أنه إذا نفذوا أمره أن يقدم لهم وعودًا دنيوية، الوعود الدنيوية أن ينصرهم أن يرزقهم بالاستغفار أن ينفذوا أمره فيعطيهم، يمنعهم، يؤمنهم، وكذلك الوعود الأخروية هو بأن يدخلهم الجنة.

وقوله جل في علاه ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، يدل على إيجاب ربنا على نفسه أن يُنفذ الوعد، ولذلك الوعد واجب بخلاف الوعيد، يعني الآن الناس يقولون: الله عز وجل لعن فلان وفلان الذين يفعلون كذا ويفعلون كذا، وأقام وعيده على من عصاه، من شرب الخمر أُشرب طينة الخبال، من أكل درهم ربا كان له كذا وكذا، فالمعاصي هناك وعيد عليها، لكن هذه قد تقع وقد لا تقع بحسب الرحمة الإلهية والعدل الإلهي والحكمة الإلهية، والسؤال الآن هل كل وعيدٍ في القرآن والسنة يقع على كل فاعل؟

طبعاً الناس على خلاف، الخوارج والمعتزلة يقولون: يجب إنفاذ الوعد والوعيد، المعتزلة يقولون هذا وهذا إحدى مبادئهم الخمسة، المعتزلة عندهم مبادئ خمسة العدل، أول شيء العدل والتوحيد، لأن العدل موجب عقلي، التوحيد، والعدل، ومنزلة بين المنزلتين التي هي الفاسق الملي، ووجوب إنفاذ الوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، المهم فعندهم يجب إنفاذ الوعد والوعيد هذه مبادئ المعتزلة الخمسة، ماذا يعني إنفاذ الوعد والوعيد؟ يعني إذا وعد الله

((١)) خلاصة حكم المحدث: [ثابت] | التخريج: أخرجه البخاري (٢٨٥٦) ، ومسلم (٣٠) باختلاف يسير.

عز وجل بأمر عبيده المؤمنين يجب أن ينفذه، وهذا أهل السنة يتفق عليه، والموجب ليس منا، الموجب أوجبه الله على نفسه، من الموجبات ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، هو أوجب على نفسه.

ولكن هل إنفاذ الوعيد واجب؟ قالوا: لا، لا يجب، لماذا؟ لأنه من الكرامة والرحمة ألا ينفذ صاحب الوعيد وعيده على من هدده، كيف؟ يضرب له مثال يقول: لو أن رجلاً وعد ابنه لو نجح مثلاً أن يعطيه هدية ما، يعطيه خمسين دينارا، فلو تخلف عن هذا الوعد لكان في ذلك قدحٌ فيه أنه لم يعطيه ولم ينفذ فهذا خلاف للوعد، لكن لو هدده لو أنه رسب لضربه ثم عفا عنه، هل يكون في العفو منقبة أم أن تكونوا فيه منقصة كمنقصة ترك إنفاذ الوعد؟ تكون منقبة رحمة، رحمه، ولذلك أهل السنة لا يجيبون إنفاذ الوعيد، إنما يوجبون أنفاذ الوعد.

وبهذا نعلم ودائمًا نقول كما يقول أبو جعفر الطحاوي رحمه الله في متن عقيدته يقول: ولا نجزم لأحدٍ بجنة ولا نار، المقصود به أهل الإسلام ذلك لأن الفاسق إما أن يعذب وإما أن يعفو الله سبحانه وتعالى عنه، الذي يعصي إما أن يعذبه الله وإما أن يعفو عنه، هو في المشيئة إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، لا نجزم لأحد، لكن هل نجزم أن الكافر إذا مات، مثل الكافر النصراني، مات رجلٌ نصرانيًا، هل نجزم أنه من أهل النار؟ هذا يقيناً، الكلام عمن؟ الكلام عن المسلم، لأننا لا نعرف باطنه لا نعرف قبول الأعمال عنده.

فقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ [البقرة: ٤٠] المقصود به أوامره وشريعته، هذا على المعنى العام، والمعنى الخاص المقصود بقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، وذلك بما أخذ الله عز وجل من العهد والميثاق أن يتبعوا النبي إذا جاء إلى الأرض، إذا جاء إلى الوجود، أنهم يتبعونه، فهو تمهيد كما ترون هنا تمهيد لما بعدها، ما الذي بعدها؟ ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١]، هذا تمهيد لها.

قوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾ [البقرة: ٤٠]، يعني ومهما يكن من فعل كما قال بعض المفسرين: ومهما يكن من فعلٍ فإياي فارهبون، كما ترون هنا الوعد والوعيد، ما هو الوعد؟ هو التبشير بالخير، الوعيد هو التبشير بالشر، فهذا هو الأصل، لكن هل يمكن أن تقام كلمة الوعد على معنى الوعيد تبكيتًا؟ هذا يجوز في اللغة ذكرنا كثيرًا لاشتراكهما في الحال، في اشتراكهما في بعض المعاني، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان: ٤٩]، فكلمة ﴿الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ما هي؟ هل هي على المعنى الحقيقي أم على معنى الإذلال والتبكيت؟ هو ليس بعزيز، فهنا كذلك قد تقوم كلمة الوعد مقام الوعيد من أجل التبكيت يعني هذا وعدتك به، كأن تضرب أحدًا وتقول: هذا الذي وعدتك به.

قوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾ [البقرة: ٤٠]، دلت على كذبهم، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)﴾ [آل عمران: ٢٤]، هذه دلت على هذا المعنى وذلك

لأنهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، بمعنى أن الله لن يعذبهم، لماذا؟ لأنهم أبناء الله وأحباؤه، لماذا لا يعذبهم؟ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤]، فقالوا هذا القول، فالله عز وجل قال: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾ [البقرة: ٤٠]، دل على أن الله عز وجل إذا غضب عليهم سينفذ فيهم ما ينفذه في غيرهم.

انتبهوا المقابلة، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، هذا على ماذا يقوم على مجانب الخير، الوعد جانب الخير، ماذا بقي؟ الترهيب أول يقع على الترغيب على الطاعة، وهنا يقع على الترهيب، قال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾ [البقرة: ٤٠]، أي أمرهم بأن يخافوه، والرهبة هي الخوف في القلب، فقال: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾.

وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، تقدم بأن تقديم المفعول به على الفاعل يدل على الاختصاص، لماذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؟، لو قال: نعبد إياك، لما دلت على اختصاص العبادة، إنما دلت على مطلق الأمر، لو قال: نعبد إياك ونعبدك، فلا يكون فيها نفي العبادة عن غيره، بيّنا هذا في تفسير سورة «الفاتحة»، لكن لما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فدل على أنهم لا يعبدون سواه، وهنا قال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾ [البقرة: ٤٠]، دل على أنه لا ينبغي لهم أن يرهبوا إلا الله، على اختصاص الرهبة أن لا يخافوا إلا الله سبحانه وتعالى.

فهل هؤلاء القوم يخافون غيره؟ الجواب: نعم، القوم أصلاً تاريخهم يدل على وجود الرهبة الشديدة من غيرهم وأنهم يتبعون الأقوياء ويسيرون معهم فيمن ينفذ لهم مقاصدهم، ينفذ لهم مرادهم، وهم أهل الفن في هذا وهو التحالف مع الأقوياء من أجل تنفيذ مرادهم.

إذن هذا هو الأمر الأول الذي مهده الله عز وجل وهذا هو المطلع: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾ [البقرة: ٤٠].

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)﴾ [البقرة: ٤١]، قوله تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١]، دل على أن أولى الناس باتباع الأنبياء، هو من شهدت معارفهم على صدقه، انظروا ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾، لما يشابه الشيء شيئًا؛ ينبغي التعامل معه بنفس الصيغة، يعني عندما أنت يأتيك أمر وقد جاءك من قبل هذا الأمر مثيل له كيف تتعامل معه؟ بنفس التعامل، بنفس الصيغة.

الآن لما جاءهم موسى عليه السلام بالبينات وبالدلائل، ما هي دلائله؟ دلائل صدقه وكذلك دلائل شرعه وسمته كما سنبين، السمة التي جاء بها فلما كانت هذه الخصال موجودة في نبيهم موسى عليه السلام ثم في سمات بقية أنبيائهم ووجدوا هذه السمات وهذه الصفات وهذه الخصائص موجودة في رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، يدل على أن الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم هو من نفس المشكاة التي أتى بها موسى عليه السلام، وهذا الذي

اهتدى به ورقة بن نوفل، قال: «إنه الناموس الذي أتى إلى موسى»، لما سأله عن خصال عرفه، نظر إلى خصال ما وقع عليه من الوحي كيف يفعل، مثلاً: أنه لا يأتي والنبي صلى الله عليه وسلم في فراش أهله، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يختل عقله يكون واعياً لما أخبر به، بماذا يأمرك؟ كما استدل هرقل، ماذا يأمركم؟ ماذا ينهاكم؟ هل كان من آبائه من ملك؟ وذكروا الخصال الموجودة في حديث هرقل المشهور من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، فعلم هرقل أن المشكاة التي جاء بها الأنبياء من قبل، هي نفس المشكاة التي خرج منها وجاء منها النبي صلى الله عليه وسلم، فدل على الصدق.

فالله عز وجل يقول: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١]، فالذي جاء به القرآن هو يصدق ما جاء به الكتاب الأول الذي لهم وهو التوراة يشابهه، وما جاء من أمورٍ أخرى تخالفه إنما جرت على مجرى النعمة، يعني أصول الشريعة التي جاء بها القرآن هي نفس أصول الشريعة التي جاء بها موسى عليه السلام، ولو رجعنا مثلاً: هذه التوراة مع فيها من أغاليط ومع ما فيها من تغيير وتبديل، إلا أننا لو نظرنا إلى مثلاً سِفر التثنية في التوراة والشرائع التي جاء بها، مع ما فيها من تغيير لوجدنا التشابه الكبير بين ما جاءت بها الشريعة الموساوي مع الشريعة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، تشابه، ولو رأينا خصال الأنبياء المذكورة في التوراة تشابه خصال النبي صلى الله عليه وسلم، كأن يكون له أزواجاً وذرية كما ذكر الله في سورة «الرعد»، قال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

والآن مثلاً: الفسقة والفجرة والكفرة المعاندون للنبي صلى الله عليه وسلم يتهمونه مثلاً بكثرة الزوجات، وكم من نبي ذكرت له كثرة الزوجات، ففي التوراة يذكر لسليمان أكثر من ألف وسبعمائة زوجة، إبراهيم عليه السلام يذكر له أربع زوجات في التوراة، ما من نبي إلا وذكرت له زوجات وذكر له أولاد، فما الذي تعيبونه على النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، هل من نبيٍ لم يأكل الطعام ولم يمشي في الأسواق، النبي صلى الله عليه وسلم كان يرعى الغنم، ما من نبيٍ إلا ورعى الغنم، ما من نبيٍ إلا وكان له أعداء ثم انتصر عليهم، وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم محمد كان له الأعداء فانتصر عليهم، وهكذا.

أما الشرائع التي جاء بها، أغلب الشرائع التي كانت في الشريعة التي جاءت بها التوراة هي نفس الشرائع التي جاء بها القرآن، ماذا اختلف؟ اختلف في شيء واحد وهو أنه رفع الإصر والأغلال عنهم، أن الله عز وجل قال: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، إذن أنا أقول: أن هناك ثمة محرمات كانت عليكم، لماذا حرمت عليهم؟ حرمت عليهم عقوبةً لهم لما كانت تقترف أيديهم، فجاء القرآن ورفعها؛ لأن الله عز وجل جعل هذه الشريعة سمحة لكل البشرية، لبني اسرائيل ولغير بني إسرائيل، فقال الله عز وجل: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١].

والموضوع هنا ليس فقط موضوع عقائد وفي هذه الآية دليل على أن كلمة الإيمان لا تقتصر على معنى التصديق؛ لأن الأولى بها الإيمان والاتباع، قال تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾، لو كان المقصود به التصديق لكان كل من صدق الرسول مؤمنا وداخلاً في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، والصواب ليس كذلك، اليهود لما جاءوا للنبي صلى الله عليه كما رواه أبو داوود في سننه، جاءوا وسألوه تسعة أسئلة، فأجابهم عنها فقالوا: «نشهد أنك لرسول الله»، فقال: (ما يمنعكم من اتباعي؟» ولم يعتبر أن مقالتهم هذه دالة على إسلامهم، يعني فقد صدقوا أنك أنت رسول الله، فقال لهم: (ما يمنعكم من اتباعي)، يعني أنتم لم تدخلوه في الإسلام بعد، فقالوا: أخذ علينا الميثاق ألا نتبع نبيا إلا من بني يعقوب أو من بني إسرائيل.

فإذن دل قوله تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١] على أنه ليس فقط صدقوا، فهم مصدقون، لو قال: وآمنوا بما أنزلت يعني صدقوا فهم مصدقون أم مكذبون للنبي صلى الله عليه وسلم؟ يصدقونه، إذن ما هو الإيمان هنا؟ هو الاتباع، ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ﴾، أي اتبعوا، وليس فقط تصدقوا وأن تقولوا: أنه رسول الله، هم يصدقون، وكما قال الله عز وجل: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فهم يعرفون هذا ولكنهم لا يتبعون فدل على أن الإيمان هو الاتباع.

قال تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١]، ودل هذا على اتحاد المشكاة، وعلى أن المشكاة واحدة من جهة ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ومن جهة ما جاء به أنبياءهم من قبل قال: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾، قوله: ﴿لِمَا مَعَكُمْ﴾، هنا هذا دليل على أن التوراة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم التي كان يقرأها اليهود فيها من الحق، الذي ينبئهم على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿لِمَا مَعَكُمْ﴾ وهذا خطاب لليهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، فدل على أن التوراة كانت معهم.

والتوراة لغةً معناها الشرائع، والعلماء أهل السنة على اختلاف، هل هذه التوراة التي بين أيدينا تسمى بالكتاب المقدس، الذي هو العهد القديم، يسمونه المقدس، العهد القديم، هل هي فيها أصل الحق الذي أرسل به الأنبياء؟ أصل الحق الذي نزلت به التوراة أم أنها باطلة؟ العلماء على قولين، هذه التوراة التي هي موجودة الآن المترجمة ترجمةً فاسدة بالية، الإيطاليون أخذوا إبراهيم اليازجي وهو نصراني من لبنان وكان يحب العربية جداً وهو إمام من أئمة العربية في الحقيقة، فأخذوه إلى إيطاليا ليترجم العهد القديم إلى العربية ترجمةً جيدة وترجمها، ولكن هذه الترجمة مفقودة أخذوها وأبعدوها ورموها، وذكر إبراهيم اليازجي عن نفسه قصته مع الذين أمروه بترجمة التوراة، قال: كنت إذا كتبت ترجمةً ما بلغة عربية، لأنه أمام من أئمة العربية إبراهيم اليازجي معاصر طبعًا، فكانوا يبدلونها ويحرفونها، يجعلونها لغة سقيمة ركيكة سيئة، وبالتالي من يقرأ التوراة بالعربية يراها لغة سقيمة سيئة، لم يحبوا أن تترجم بالترجمة الجيدة الراقية، الظاهر حتى أنهم أنفوا أن يكون كتابهم فيه تربية لذوق اللغة وقيمتها.

القصد من ذلك: أن العلماء على قولين فيما بين أيدينا من التوراة، هل هي هذه التوراة التي بين أيدينا باطلة من أصلها؟ أم أنها صحيحة في أصلها ودخل فيها التحريف؟ على قولين:

القول الأول: هو قول ابن حزم رحمه الله: أن هذه باطلة من أصلها.

القول الثاني: هو قول ابن تيمية رحمه الله: أن التوراة هذه أصلها صحيح وفيها تحريف.

وقول شيخ الإسلام ابن تيمية هو الأقرب للصواب، أن أصلها صحيح ولكنها غيرت وبدلت ووقع فيها تحريف، كيف وقع التحريف في هذا الكتاب؟ وقع التحريف لما سبا نبوخذ نصر اليهود قضى على مدائنهم الصغيرة في فلسطين وأخذهم إلى فارس وهناك استخدمهم سخرة واستخدمهم عمالاً وعبيدًا، فجاء كورش وأحب امرأةً يهودية –وهذا موجود في داخل القصة وهذه في داخل الأسفار، غير الأسفار الخمسة الأولى التي يزعم اليهود أنها هي التي أنزلت على موسى عليه السلام الأسفار الأولى الخمسة، البقية يعتبرونها تبع– فأحب امرأةً يهودية وتزوجها وعن طريقها عطف على اليهود وأرجعهم إلى فلسطين، لما رجعوا كانت التوراة مفقودة، غير موجودة، فأعادوا كتابتها على المشكلة التي ذكرناها لكم، تذكرون المشكلة الدرس الفائت، حروف العلة والتنقيط، والأماكن كيف هذا المكان وهذا المكان ... إلخ، فوقع ما وقع في ذلك من التحريف والتبديل، مع ما يأتي من قوله تعالى؛ لأن الله لعنهم لما يكتبون به الكتاب بأيديهم، سيأتي هذا التحريف كيف وقع.

المهم ما يهمنا هنا الآن أنه قال: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١]، فدل هذا على أن وقت نزول القرآن كانت التوراة التي تشهد بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم بين أيديهم، فهذان القولان ذكرناهما، والدليل على هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم كما في الصحيح أمر بإحضار التوراة، لما جيء باليهوديين وقد زنيا، فاليهود أحضروا اليهوديين إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ليقيم عليهما الشرع، فقال: (أحضروا التوراة)، فجاءوا إلى التوراة فأمرهم بأن يقرؤونها فلما جاءوا إلى آية الرجم وضعوا أيديهم عليها، فآية الرجم للزناة موجودة إلى الآن موجودة في التوراة موجودة في سفر التثنية.

ولكنهم بعد ذلك كانوا يقيمون الحد على الفقير ويتركونه عن الغني وأبناء الملوك والسادة، فاتفقوا بعد ذلك على التحميم، يعني أن يسودوا وجه الفاعل ويطوف به، يسموه عندنا التجريس، لماذا أخذ بالتجريس؟ من الجرس، ليست هي من العقوبة الشرعية ولكن أوجدها بعض ملوك وسلاطين الإسلام في أنهم إذا غضبوا على أحد أتوا به وأركبوه على حمار بالمقلوب وسودوا وجهه وطافوا به في المدينة ويصيحون حوله هذا الذي فعل كذا ... إلخ، يعيبون عليه ما فعل، كما فعلوا بابن القيم رحمه الله، فلما وقع من اليهود هذا الله عز وجل لعنهم كما سيأتي، ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)﴾ [البقرة: ٦١].

المهم أن الله عز وجل قال: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١] فدل على أن التوراة التي بين أيدي اليهود زمن نُزل القرآن كانت صحيحة مع ما يأتي من قضية وجود التحريف فيها والتبديل وأنهم يكتبون الكتاب بأيديهم قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾ [البقرة: ٧٩]، سيأتي هذا وسيأتي التحريف على أي وجهٍ وقع، هل وقع فقط على التفسير؟ هل وقع على الإنشاء الجديد؟ هل وقع التحريف بتغيير الآيات؟ سيأتي هذا إن شاء الله.

فهل هذه التوراة التي بين أيدينا هي التوراة التي كانت زمن النبي صلى الله عليه وسلم؟ الجواب: نعم، التوراة التي بين أيدي الناس اليوم هي التوراة زمن النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن الترجمة تحدث ما تحدث، الترجمة يلعبون بها ويغيرون بها الألفاظ وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١]، والقرآن لا يقيم حجةً غائبة، قوله: ﴿لِمَا مَعَكُمْ﴾، لا يقيم عليهم حجة غائبة بل يقيم عليهم بحجةٍ حاضرة، فقوله تعالى: ﴿لِمَا مَعَكُمْ﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة: ٤١]، ونحن نعلم أن أول كافرٍ بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم هم قريش، من أول من كفر به؟ قريش، عشيرته، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾، ما معناه؟

المعنى الأول: أنه إذا سبق المرء في الكفر كان كالأول، نضرب مثالاً في الخير لوضوحه: نحن نعلم أن عمر رضي الله عنه تأخر إسلامه عن كثير من الصحابة رضي الله عنهم، لكن لما سبق في الخير كان كالمتقدم فيه، فكأنه أول، بمقدار تقدمه حتى لو تأخر زمانياً، فمن تقدم في الفعل كان كالمتقدم في الزمن، فقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾، أو لا تكونوا في صدر من كفر به سبقًا وفعلاً، وقد وقع منهم هذا، من أكثر الناس كفراً بهذا الكتاب؟ هم اليهود، مع أنه تأخر كفرهم به زمانياً، هذا يمكن ويمكن شيء أخر.

المعنى الثاني: أنه وقع منهم الكفر حتى قبل أن يقابلهم النبي صلى الله عليه وسلم، ونحن نعلم أن قريش لما كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعوهم في مكة، ذهبوا إلى اليهود في المدينة يسألونهم عن دين محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا ذكرناه في الدرس الفائت، فذهبوا يسألونهم من خير الأديان؟ ديننا أم دين محمد، فقالوا: دينكم خير من دين محمد فكانوا كالأول، لأن الذين عادوه زمناً كانوا تبعاً لهم في الفعل هذا معنى.

المعنى الثالث: وهو مهم، وهو ولا تكون أول كافرٍ به على الصيغة التي كفرتم بها، لأن الصيغة التي كفروا بها صيغةٍ مختلفة عن الصيغة التي كفرت بها قريش، ما هي الصيغة؟ الصيغة التي قوله تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٤١]، وقريش ليس عندها ما تصدق به، فأنتم تكونوا أول كافرٍ به على هذه الحجج التي عندكم وليست عند غيركم، أنتم تكونوا قد كفرتم كفراً سبقتم به يعني أول كافرٍ به على هذا المعنى، لأن من كفر غيركم لم يكن هذا المعنى موجوداً

عندهم، لم يكن عندهم الحجج ولا عندهم كتاب يصدق، ولذلك الذي يكفر من أهل الكتاب، هو أشد كفراً ممن كفر من غير أهل الكتاب، والسبب في هذا أن عنده الدلائل على الصدق أكثر مما عند غيره، وإذا قويت الدلائل قويت الحجة، وقوي العذاب إذا كثرت الدلائل على المرء، فهم أول كافرٍ به لما عنده من الدلائل، وغيرهم ليس عنده، فيكون كفر الآخرين على معنى مختلف عن كفركم أنتم وأما هذا الكفر الذي تكفرونه فأنتم تكونون أول كافرٍ به، وحينئذٍ يكون النصارى تبع لكم فيما يكفرون.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة: ٤١]، المقصود هنا هو الضمير، كقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١]، المقصود به الرسول صلى الله عليه وسلم، ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ يعني بالرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك بالقرآن، وكل هذا معنى صحيح وهما شيء واحد.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)﴾ [البقرة: ٤١]، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وهذا فيهم وفي غيرهم دل على أن كثيراً مما يكفر به الناس يكون سبب الكفر الخوف من ذهاب الدنيا، ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧]، أنتم لا تشتروا، لا تبيعوا هذا الحق، وهذا معنى، والمعنى الثاني ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ أي إذا سئلتم عن الحق كتمتموه، إذا سئلتم عن صدقه كتمتموه، وقلتم بغيره لما يعطى لكم من مال ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

لأنهم حين يتبعون النبي صلى الله عليه وسلم يظنون أنهم قد صاروا تَبعًا لغيرهم فتذهب عنهم مناصبهم وتذهب عنهم أمورهم فإذا جاء الحق في هذا المعنى كأنهم يخافون أن يتبعوا مخافة الذهاب، فبقاؤهم على الباطل كأنهم اشتروا الباطل بما معهم من مناصب ما معهم من أموالهم ما معهم من دنيا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١]، هنا هذا تهديدٌ ووعيدٌ لكل من باع من دين الله عز وجل من أجل الدنيا، ولذلك هذا الخطاب ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة: ٤١]، ترونه خطابًا لمن علم، يعني العالم من أهل الإسلام يصح فيه، ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾، فمن ظهرت له حقيقة الحق في باب عليه أن يتبعه، وكذلك من جاءه الحق من غيره عليه أن يتبعه وكل ذلك مبسوط فيما سيأتي من الآيات، هذا تهديد كذلك لأهل العلم من هذه الأمة، هذه الآيات تهديد لأهل العلم من هذه الامة لأنهم أدعى في دخولهم في هذه الآية.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١]، قال: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، يمكن يخالف البعض ويقول: أين ثمن قليلا؟ الذي يبيع الدنيا الآن يعطوه سيارات أو في الدنيا وقد يكون ملك وقد يكون مقدم وقد يعطى له الذهب يعني ليس ثمن قليلا، فمن يكفر ربما تعطى له الأشياء الكثيرة، الله يقول: ﴿قَلِيلًا﴾ مقابل غيره

فيما لو أتبع الحق يكون ثمناً قليلا، هذه الدنيا، لعاعة من الدنيا بقايا أشياء لا قيمة لها فهي مهما علت وكثرت في أيدي الناس فهي ثمنٌ قليل.

قال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)﴾ [البقرة: ٤١]، وقد تقدم معنى التقوى وهي الأدعى لقضية اجتناب الباطل، اجتناب البعض، قال: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾، فاتقون أي اجتنبوا الباطل، فدل هذا لما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا﴾، بماذا ختمت؟ بالنهي، ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾ فهذا منهيٌ عنه، والمنهي عنه ماذا يقال له؟ اتقيه، هذا وتقدم الكلام، لأنه منهيٌ عنه فقال اتقيه، كما قلنا في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)﴾ [البقرة: ١٨٧]، أي يجتنبوا ما نهيتهم عنه، وكما قلنا في الآية المتقدمة ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾ [البقرة: ٤٠]، دلت على أنه لا ترهب إلا إياه، وهنا ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)﴾ [البقرة: ٤١] فلا تتق إلا أمره ولا تهتم لغيره فيما أمر، هذه أوامر ونواهي، قال: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١]، كلها توجيهات.

والآن جاء إلى الذي يحيط بهذه التوجيهات في قوله من معاني أخرى قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)﴾ [البقرة: ٤٢]، حالة المعاندين للحق على طريقتين، والأغلب فيمن عنده علم تغلب عليه الحالة الأولى كما سنبين، إما أن يأتي إلى الحق فيلبس هذا الحق الباطل، ما معنى يلبسه الباطل؟ أي يزين به، الحق نفسه أما أن يزينه بما يدفع به، يأتي هذا الحق فيدفع هذا الحق بدوافع من الباطل فكأنه ألبسه الباطل ليُدفع به، الحق إذا عرض كما هو فإن النفوس تقبله، فطريقة صرف الناس عن الحق ما هي؟ أن يلبس هذا الحق بالباطل بأن الحق هذا باطلٌ تكره النفوس والأمثلة تدل عليه.

مثلاً: نتكلم عن قضية مثل الزواج من أربع، والزواج من اثنتين أو التعدد هذا حق، فما هي الطريقة للتنفير منه؟ هو أن يعرض للناس على وجهٍ من الباطل، يأتي المجرم ويقول: هذا الزواج هذا التعدد هذا ظلم للمرأة!! هو حق لأن الشارع قد أتى به ولأنه يلائم الفطرة، ماذا سماه؟ هذا ظلم، ويبدأ بنسج خيوط الباطل حوله حتى تنفر منه النفوس، قضية إقامة الحدود، مثل قطع يد السارق، هذا حق، مثل رجم الزاني المحصن هذا حق، كيف يصور للناس؟ يصور للناس على أنه باطل على أنه ظلم على أنه إجرام على أنه وحشية، فإذن الحق يُلبس بكلمات الباطل، والحق يبقى في داخله حق ولكن الكلمات هي التي تزوره، والكلمات هي التي تفسده، وهنا قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا﴾، بماذا تَلْبِسُوا؟

انظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم وانتبه لهذه الطريقة من التصوير القرآني والنبوي، قال صلى الله عليه وسلم: (الْمُتَشَبِّعُ بما لَمْ يُعْطَ كَلابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ)، انظر، المشكلة ليست في حقائق الأمر، المشكلة فيما يُلبس هذا الحق، كيف

يُعرض، ومن هنا يأتي هذا كله أيها الأخوة الأحبة دليل على قضية ما تكلمنا عنه، وهو أن الكلمات يجب أن توضع على حقائقها فإذا وضعت على غير حقيقتها كان مفسدة، ما هي أول طريقةٍ لإفساد إبليس لما أفسد آدم، ماذا؟ أنه ألبس الباطل ثوب الحق، ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠)﴾ [طه: ١٢٠]، فألبس الحق بالباطل.

فالكلمات التي تطلقها تلبس الشيء إما لبوسه الحقيقي بأن تصورها كما هي، وإما أن تزينها وتدثرها وتلبسها لبوسٍ آخر؛ حينئذٍ خلاص أفسدت على الناظر رؤيته وأفسدت على الباحث عقله أنه ينظر إليه فهو يكون الحق في نفسه ولكنه كلابس ثوبي زور، الثوب الأول يفسد عليه نفسه، والثوب الثاني يفسد على غيره، (الْمُتَشَبِّعُ بما لَمْ يُعْطَ كَلابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ)، الثوب الأول يفسد عليه نفسه هذا له شرح، الثوب الأول يفسد إذا كذب المرء في أمر أول ما يفسد يقع الإفساد على نفسه، نفسه التي تتأثر، بعض الناس يتحدث متمتعاً عن شيء ولا يكون معه ولكنه يضحك على نفسه، مثل ما يقول الناس: «يضحك على نفسه»، هل يقع هذا؟ نعم يقع، (الْمُتَشَبِّعُ بما لَمْ يُعْطَ كَلابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ)، الثوب الأول يفسد نفسه ورؤيته، والثوب الثاني يفسد على الناس رؤاهم وحقائقهم.

فقال تعالى: ولا تلبسوا الحق بالباطل، هنا الحق الذي بينه ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١]، هو حق، ولذلك أيها الإخوة الأحبة من أفسد الطرائق التي يستخدمها خصومنا حين يغطون ما تقوله التوراة والكتاب المقدس، يحدث أن يكون بعضهم منصفًا، ومنتشر هذا الفيديو ولكن الناس للأسف نشروه خطاءً على معنى الخطأ، أحد مقدمي البرامج أحضر العهد القديم وجعل يقرأ ما فيه من عقوبة في الحروب وفي المعارك، ماذا ينبغي على المنتصر أن يفعل، أنتم تعرفون كلام التوراة في قضية الحروب شديد، وفيه شدة على المخالف.

تقول التوراة بأنه إذا انتصرت -يخاطب النبي- إذا انتصرت على مخالفيك فماذا تفعل؟ احرق كل شيء حتى الدواب، لأنه كان غير مقبول الغنائم، الغنائم غير مقبولة، فيجمع الغنائم ويحرق كل شيء، الذهاب والفضة والثياب والبيوت والمواشي ويقتل ويبيد ولذلك من الغنائم الأولاد من الغنائم النساء، فعليه أن يحرق كل شيء، فهذه شيءٌ الله عز وجل رحمنا نحن، رحمنا بأن أحل لنا الغنائم، فكان هذا واحد منهم صحفي وجعل يقرأ ماذا ينبغي على النبي أن يفعل ويقرأ لهم والمستمعون لا يعرفون.

للذكر أنا جالست نصارى وبعض القسيسين بل كثير من القسيسين لا أعرف واحداً منهم قرأ الكتاب (المقدس) كاملاً، وكان مرات يحاجج وبعضهم يقول: يعني أنتم قرأتم القرآن؟ هو متعجب أن الكثير من المسلمين، مئات ألاف المسلمين يحفظون القرآن غيباً، أقل مسلم يقرأ القرآن في رمضان مرة، أقل المسلمين يقرأ القرآن مرة، فكان هذا يقرأ لهم والناس تكاد عيونهم تنفجر غضباً مما يقوله هذا الكتاب يظنون الحديث عن الإسلام والقرآن فبعد ذلك يقول: أنا أعتذر، أي كتابٍ هذا أنا كنت أريد أن أتناول القرآن فينظر وإذا هو، التوراة، وبعض الناس نشر هذا الفيديو قال:

يعني أنهم اخطأوا، لا، هو يريد أن يستهزئ بهم، أنتم تسبون المسلمين -بعضهم منصف- تسبون المسلمين كتابكم يقول بأشد من هذا، طبعاً دعك من تاريخهم، وتاريخهم فوق ذلك، جز الرؤوس، قتل النساء، بقر البطون، حرق الأطفال الصغار، تاريخهم دموي في هذا.

القصد من هذا: إذن أولاً: طريقة صرف الناس عن الحق هو عرضه بما لا يلائم الحق فيه وبما ليس هو عليه، يعرضه بغير ذلك، فهذا تنفر منه النفوس، وفعلتها قريش مما يذكر عن الأعشى صناجة العرب هذا من أحد أصحاب المعلقات، فلما جاء جعلوا ينفرونه من الإسلام بالأحكام التي جاء بها، وذلك بأنه يساوي بين البشر، الرجل الذي نشط طيلة عمره وهو يرى أن هناك أناس من صفوة الخلق كما يؤمن البوذية، كما الهندوسية، الهندوسية بماذا تؤمن؟ تؤمن أن البشر في أصل خلقتهم إما عظماء وإما وضيعون، فيقولون: أن الإله الذي عندهم خلق أناس من رأسه وهم من؟ وهم حكماء الديانة والملوك والسلاطين، ولذلك لا يجوز الخروج عليهم لأن هؤلاء قد خلقوا من هذا، وهناك أناس خلقوا من كتفه وذراعيه وهم من؟ القادة العسكريون وأصحاب المهن الشريفة، وهناك أناس من قدميه وهما المنبوذون، وبالتالي المنبوذ عندهم منبوذ في أصل خلقته، فهذا الذي نشأ على هذا الاعتقاد إذا قلت له: أن الناس كلكم لآدم وآدم من تراب، يستنكره، لماذا؟ لما أصيب به من ضررٍ في أحكامه، كمن يصاب في ضرر في عينه لا يرى، كمن يصاب في ضرر في شمه فلا يشم وهكذا.

فالملكات البشرية تتبدل بفعل التسليك (فأبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه) إذن يعرض عليهم بطريقة تنفرهم فالواجب علينا وهذه طريقة ينبغي أن نفهمها، إياك أن تَلبِس باطلاً بحق وإن كان في نصرة دينك، لأن هذا سيرتد عليك، يعني بمعنى لا يجوز لك أن تدعو إلى الدين الحق بباطل لا يجوز، ولا يجوز أن تغير الحقائق حتى لو كانت لنصرة حق، في المواضيع العلمية لا يجوز هذا يجب أن تعرضها كما هي، لأن هذا الباطل الذي نصرته سيرتد عليك يوماً من الأيام في إبطال حقٍ عندك، سيرتد عليك، فالواجب هو لا تَلبِس الحق.

فالحق عليك أول شيء أن تعرفه لابد التمييز بين الحق والباطل، لابد أن تعرف الحق وتعرف وجهه وأصوله وقيمه ومعاييره وعلى أي وجهٍ هو، وبعد ذلك عليك إن تقدمه بلباسٍ من الحق هذا واجبٌ علمي، ولا يجوز للمرء أن يستخدم الباطل في نصرة الحق، فهذا أول الطريق.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢]، طبعاً لما يقول: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا﴾ [البقرة: ٤٢]، فيها دليل على قدرتهم على الإلباس، فيها دليل على أن لهم القدرة على الصناعة في هذا الباب، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن من البيان لسحرا)، بعض أهل العلم أجرها على معنى الذم وهذا غير صحيح، وإنما جرت على معنى المدح إلا إذا أستخدم هذا السحر في الباطل، من أجل أن يزينه، فالرجل لما مدح، مدح بأجمل ما عنده، ولما ذم، ذم بأقبح ما عنده وكان مصيباً في هذا ومصيبًا في هذا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن من البيان لسحرا)، وهذا ينبغي

أن يعلمنا في كيفية إلباس الحق أثواب الجمال، أن يعلمنا، عليك أن تتعلم، لا أن تترك الحق عارياً، بل عليك أن تلبسه بأثواب الجمال.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢]، هنا كلمة الحق مقابل الباطل، كلمة الحق يا إخوة والحقيقة تطلق على معنيين، المعنى الأول: وهو المراد هنا الحق بمعنى في أفقه العلمي وهو الصواب، والحق يأتي بمعنى ثبوت الشيء على الواقع والحقيقة حتى لو كان باطلاً، كيف؟

رجلٌ أجلكم الله سرق، فالسرقة باطل، لكنه حين يسرق هي ماذا؟ حقيقة، فأنت عندما تقول: هذا سارق، قد نطقت بالحق فهي تشير إلى وجود الشيء، حتى لو كان باطلاً من جهة الشرع، لكنه من جهة القدر، لكن كلمة الحق الأولى إنما هي الوجود القدري مع الحكم الشرعي، الوجود القدري يعني هي موجودة، ولذلك كلمة الباطل التي تروها ماذا تعني كلمة الباطل؟ هي ما ينطقها العوام في بلادنا، ماذا تعني كلمة باطل في بلادنا؟ لو سألت رجلاً يعمل يقول لك: والله بطل، ماذا يقصدون؟ لا يعمل، فما هو الباطل هو لا الشيء، هو الذي لا وجود له، هذا معنى الباطل.

فاتهام رجل بالسرقة وهو غير سارق لا وجود له فهذا باطل، فالباطل هو الذي لا وجود له على جهة القدر، ونفس المعنى قد يكون شيء فعله باطل من جهة الشرع لكنه حق من جهة القدر، الرجل حين يسرق فعله باطل من جهة الشرع لكنه حق من جهة القدر، فلذلك قد يتوافق الأمر القدري مع الأمر الشرعي وقد يختلف الأمر القدري مع الأمر الشرعي.

وهذا دليل أيها الإخوة على قضية مهمة ذكرتها في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ [البقرة: ٣١]، على أنه لا وجود للأسماء من غير حقائق، فإذا وجدت كلمات أو أسماء من غير حقائق فهي باطلة، لا يجوز تسمية شيءٍ لا وجود له باسمٍ له تقيمه عليه وهو لا، غير موجود، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، وقد تأتيهم بمعنى ولا تلبسوا الحق، بما يقع التزوير؟ هنا تزوير، بما يقع تلبيس الحق بالباطل؟ بأن يتجاور حتى يخفى كل واحدٍ عن الآخر في نظر الناس هذا من الباطل، قوله لا تلبسوا الحق بالباطل فلو أنه اجتمع الحق والباطل في باب، وضعا في باب واحد فحينئذٍ يلتبس أمرهما على الناس يلتبس الحق بالباطل، أن تقدم الحق مع الباطل في ثوبٍ واحد فيلتبس هذا، هذا التباس.

ولذلك أمر الشارع بالتمايز، قال صلى الله عليه وسلم: (لاَ تراءى ناراهما) المسلم والكافر، أمر الشارع بالتمايز، لم يأذن لنا أن نصلي في أديرتهم ولا في شعانينهم ولا نحضر وهكذا، وأمرنا أن نتمايز بألبستنا وهكذا، فلا ينبغي الاجتماع لئلا يقع الالتباس، فإذن هذه الطريقة الأولى، قال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢]، ما هي أعظم

هذه أم التي تليها؟ وقوله تعالى: قال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢]، من أشق؟ الأولى، ونحن نقول وأهل العلم يقولون: بأن العاصي يمكن له أن يتوب، أي أن الحق يمكن أن يظهر يوماً، يغيبه فيظهر يوماً، لكن إذا عاش الناس وقد اختلط عندهم الحق بالباطل ولا يميزون بينهما حينئذٍ قالوا: أهل البدعة لا يتوبون، ولذلك جاء للنص من كلام أهل العلم: بأن المبتدع لا يتوب، ما السبب أن صاحب البدعة لا يتوب؟ هل في الشريعة ما يمنع توبة التائب؟ لا، لكنه لا يتوب قدراً، لماذا؟ لأنه يظن أنه يعمل الحق، المبتدع يظن أنه يعبد الله.

مثلاً: أنت تذهب إلى الصوفي يرقصون طوال الليل فهو يظن أنه يفعل الحق، مثلاً الذي يشتغل في تَبعاً لشيخ، شيخ يقول له: قاتل مع الجماعة الفلانية كما يفتون لهم بالقتال مع العلمانيين والمرتدين في بلاد المسلمين، هو يذهب شيخ له لحية ويقوم الليل ويسبح ويقرأ القرآن ويقاتل في سبيل الباطل، فهذا اكتشافه للحق صعب، لكن رجل لا يعلم الحق فإذا جاءه ميزه، ولذلك قدم الله عز وجل إلباس الحق بالباطل على كتمان الحق، فقال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢].

قال سبحانه: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)﴾ [البقرة: ٤٢]، فيها دليلٌ أيها الإخوة الأحبة على عدم تعذيب الله عز وجل إلا بعد إقامة الحجة؛ لأن المرء قد يكتم الحق لأنه لا يعلمه، فهذا غير معاقب، وهذا أمرٌ مشتهرٌ سنراه في كتاب ربنا دائماً وأبدا، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ [محمد: ٢٥]، فشرط إقامة العذاب على الخلق هو علمهم به، أن يعلموه، فقال هنا: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)﴾ [البقرة: ٤٢]، لأنه لو كتم الرجل حق لعدم علمه به لأنه لا يعرفه فهو غير معاقب حتى يعلمه، هذا دليلٌ على أن الحجة الرسالية لا تقام إلا بعد العلم بها، وأما مسألة مرتبة الحجة ودلالتها فتلك مسألةٌ أخرى كيف؟

هل كل أمر علمي الحجة فيه بنفس المستوى أم تختلف مستويات الحجة الإلهية بمقدار وضوح المسألة علمياً؟ يعني هل مسألة توحيد الله عز وجل البينة الواضحة في أن الله عز وجل هو الذي خلق وأنه هو المعبود بحق دون سواه جل في علاه، هل هذه المسألة كالمسائل الخفية التي أختلف فيها الإسلام في ربهم؟ لا، هذه مسائل خفية تخفى على أحاد الناس وضعفائهم وأما مسألة توحيد الله فلا يجهلها أحد، وهذه قاعدة من قواعد الوجود «كلما اشتدت الحاجة لشيء كان دليله أوضح، وكان وجوده أكثر»، دائماً نضرب هذا المثل نقول: الناس بحاجة إلى الهواء أو الماء أكثر، الهواء فلذلك وجوده أبذل مبذول أكثر من الماء، طب ما أشد الحاجة الماء أم الطعام؟ الماء أشد الحاجة إليه من الطعام، فهو أبذل أكثر بذلاً، حتى العربي، قالت ماذا تريد؟ قال: «أهون ما في بيتكم»، فعلمت فذهبت وأحضرت إليه الماء، أهون ما في بيتكم، أهون شيء الماء.

فكلما كثرت الحاجة لشيء كانت مبذولاً أكثر وبالتالي كلما كان الشيء للإنسان حاجة فيه من العلم كانت أدلته أوضح وأبين وأظهر، فالآن هل يجهل أحد من صدق الرسول؟ القرآن لم يتحدث أبدًا على أدلة توحيد الله عز

وجل، ما تحدث أنه خالف فيها أقواماً، وذكرت مناظرة إبراهيم عليه السلام للنمرود، ولكن على الجملة أن توحيد الله عز وجل هو من قضايا الفطرة البشرية التي لا تحتاج إلى أدلة، الناس يعرفون خالقهم بفطرتهم.

ويذكر في كتب المقالات أن أحدهم دخل نيسابور من أجل هذا يقولوا: «يا ليتنا نموت على فقه وعلى دين وعلى عقيدة عجائز نيسابور»، وكلمة نيسابور ضيعها الناس، الناس يقولوا عجائز فقط، أما هي عادةً في كتب أهل العلم يعني يتمنى العلماء الموت على فقه عجائز نيسابور، ويذكرون هذه القصة سببًا لها: أنه دخل عالم نيسابور فجعل الناس يحتفون به، فسألت عجوز: من هذا؟ قالوا: هذا العالم الفلاني الذي أقام كذا وكذا دليلاً على وجود الله، قالت: وجود الله لا يحتاج إلى أدلة، وتوحيد الله لا يحتاج إلى أدلة، فقالوا: هذه المرأة من عجائز نيسابور أفقه من هذا الرجل، لا يحتاج إلى أدلة فهكذا.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)﴾ [البقرة: ٤٢]، لا يجوز أيها الإخوة الأحبة لا يجوز أن يسمى أحدٌ بأحكام الشرع وأسمائه إلا بعد إقامة الحجة عليه، بعد هذه التقريرات الإلهية فيما يتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم، طبعاً تلبيس الحق بالباطل مع النبي صلى الله عليه وسلم معروف كتمه الحق، كم كتموا الحق في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم؟ ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)﴾ [البقرة: ٤٢]، ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، يعلمون صدقه.

فما سبب إسلام عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه؟ أنه كان يسمع بصدق النبي صلى الله عليه وسلم ويسمع أهله وآباؤه وأعمامه وأجداده بأخبار نبي سيأتي، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وحدث هذا الحديث وهو الذي حدث أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل قال: (أيها الناس أطعموا الطعام وأفشوا السلام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام)، قال عبد الله بن سلام: هذا أول ما قاله رسول الله لما دخل المدينة، ذلك لأن عبد الله بن سلام جاء ليرقب شخص النبي صلى الله عليه وسلم هل هي الأخبار والصفات المذكورة عندهم عنه، فجعل ينظر إليه فوجد أن كل الصفات المذكورة عندهم موجودة في شخص النبي صلى الله عليه وسلم، إلا شيء خفي عليه لا يظهر إلا بالبحث وهو خاتم النبوة، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم فأراه إياه خاتم النبوة على كتفه، وهو كزر الحجلة سواد فيه بعض شعرات هذا خاتم النبوة، وطبعاً ورد في أحاديث كثيرة أن بعض الأطفال كانوا يلعبون به، يجلس فيلعبون بهذا الخاتم في ظهر النبي صلى الله عليه وسلم.

القصد: أن صفات النبي صلى الله عليه وسلم يعرفونها فهم كتموا هذا الحق، لبسوا الحق بالباطل كم جمعوا بين الحق والباطل في واد إلى غير ذلك مما يعرف عنهم.

بعد أن استفرغ هذا في قضايا العلم بشخص النبي صلى الله عليه وسلم ودينه وما أتى به والأدلة البينة على أن شخصه بهذا الاسم بأنه محمد وأنه أحمد وبصفاته وخصاله التي تميز بها خَلقا وخُلقاً وبما جاء به من شرائع كلها تدل على صدقه، بعد ذلك جاء إلى الأوامر المباشرة له التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم وهي في دينهم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [البقرة: ٤٣]، قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ بينة، وقد تكلمنا عن الصلاة في مطلع السورة في بيان من هم المتقون.

لكن قوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [البقرة: ٤٣]، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، هذه دعوة للجميع، ولكن قوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ هي دعوةٌ بيّنة وواضحة بأن يدخلوا مع الصحابة، أي اذهبوا فكونوا مع هؤلاء الذين يركعون مع النبي صلى الله عليه وسلم، ويأتي هنا ركوع كقوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [آل عمران: ٤٣]، قد يطلق على الشيء على بعضه لأهميته والمقصود به الكل، أي تسمية الكل باسم الجزء لأهمية هذا الجزء، يعني ما المقصود ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾؟ هل فقط الركوع تركعوا معهم أم المقصود كل أعمال الصلاة؟ المقصود وصلوا مع المصلين، لكن سمي الكل وهو الصلاة الكل باسم الجزء؛ لأهميته، فالركوع هو من أعمال الصلاة العظيمة أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: شيخنا قلت في صفات لأهل الحق والرسل عرفها ورقة بن نوفل عرفها هرقل شيخنا السؤال –كان موضوع نقاش لفترة– الإمام الذي سيملئ الأرض عدلاً في الأرض نشوف الأسئلة يعني خلص بس باقي السؤال لبعض الأسئلة، أنتم تشاركونا في الأجوبة إن شاء الله شيخنا، صفات خلقية أم خلقية؟

أما أدلة صدق النبي فهي أعظم من قضية المعجزة، وأنا ذكرت لما شرحت كتاب النبوات لابن تيمية رحمه الله أنه أشار إلى خطأ المتكلمين وعلى رأسهم الحقيقة الإمام الباقلاني هو الذي أرسى هذه القاعدة وهو أن النبوة لا تُعرف إلا من خلال المعجزة، والمعجزة هي الدليل الوحيد على صدق النبوة مع الأدلة الأخرى لكن من غير معجزة لا يكون هناك نبوة، وهذا خطأ، الصواب أن المعجزة ليست هي الدليل الوحيد ولا القوي ولا الأقوى في صدق النبوة، الأدلة الأخرى هي أقوى وذلك بالنظر إلى ما جاء به ومن أدلة ذلك أن هرقل لم يسأل قط أبا سفيان عن معجزة، لم يسأله عن معجزة، لما أراد أن يتوثق أن هذا الذي جاءت من عنده الرسالة (أسلم تسلم) لم يسأل عن معجزة ماذا أتاكم؟ هل فعل؟ هل أنشق القمر؟ هل أتاكم بخروج الماء من يديه لم يأتيه؟ لم يسأله بل سأله عن صفاته، وسأله عن تعامل القدر وهو يد الله عز وجل الفاعلة في الكون معه، هذا مهم جداً وهذا هو القرآن شرحته هذا في الدرس الفائت، وقلت: بأن أعظم دلائل صدق الأنبياء هو نصرة الله لهم، أنهم ليس عندهم أدوات النصرة، حيث يبدون ضعاف واحد في مكة يمشي ثم ينتشر دينه هذا الانتشار هذا لا يمكن إلا أن يكون نبيًا يعني مؤيداً منصوراً من السماء، بيدٍ قاهرة فوق أيدي البشر وفوق قواهم وكيدهم وتآمرهم.

فلذلك الأدلة على صدق الأنبياء أولاً: هو معرفة الناس من صدقهم، معرفة الناس مما أتوا به، معرفة الناس بأقدارهم التي يجرون بها، وجعفر لما ناظر ولما أراد أن يثبت للنجاشي صدق النبي صلى الله عليه وسلم لم يذكر له معجزة ولكن ذكر له الخصال التي أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم، الخصال، بماذا أتى، وهذا يدل على شيء آخر في المقابل الذي يسمى عند العلماء بالمفهوم، أنه في الحقيقة ما من أحدٍ يخرج عن مشكاة النبوة يمكن له أن يأتي – هذه عجيبة هذه في القدر عجيبة يجب أن نتأملها– لا يمكن لأحدٍ أن يخرج عن مشكلة النبوة فيأتي بالحق المطلق إلا ويضل.

أضرب لكم أمثلة معاصرة، العرب كلهم كانوا يصفقون لأعظم ثوري في الوجود، من هو؟ ماو تسي تونغ أو جيفارا، يعني هؤلاء يعتبرونهم رسل وثوار البشرية وثوار السلام ولو يجاز لهم لقالوا: هؤلاء هم المجاهدون حقًا، ماو تسي تونغ علم من صفاته أخس أفعال البشر، لا يفعلها أخس أنواع البشر كان كل أسبوع هذا ماو تسي تونغ هذا الزعيم

الماوي الصيني المشهور الشيوعي المشهور، كان كل أسبوع تقدم له بنت عذراء من الشعب الصيني، تُأتى له من الشعب يأخذونها و ....

الفلاسفة، أشق فيلسوف هذا فريدريك نيتشه يعني لو تقرأ كتابه مثلاً «هكذا تكلم زارديشت» عندما تقرأه تذهل تخاف ترتعد لهذه الشخصية الصلبة الحديدية، تعجب، لكنه مات مصابًا بالسفلس، مات بمرضٍ جنسي، وأصيب بذهان وفي رواية أنه انتحر.

يعني أريد أن أقول: ما من أحدٍ يخرج عن مشكاة النبوة فيثبت له وجه الحق من كل جهة إلا تكون فيه صفات تنفر منه، تدل على كذبه تدل على ضلال تدل ... إلخ، يعني زعماء الشيوعية بريجينف لأنه هذا نذكره نحن هذا عشنا زمنه ونسمع به، هذا مات وعنده أكبر معرض سيارات خاص به، يعني كان يُسئل ما هوايتك شيوعي هذا، ما هوايتك قال: جمع السيارات، يعني هو واحد فقير يجمع طوابع، جمع صراصير، جميع المسامير، أما شيوعي ويجمع السيارات، فما من أحدٍ خرج عن مشكلة النبوة من الضالين، فالله عز وجل لم يقم –وهذا من رحمة الله على الخلق– لم يقم الأدلة على فساد دينه ليعلم الناس أنه على الباطل، والدليل ما وقع كذلك في زمن النبي صلى الله عليه وسلم من مسيلمة، مسيلمة وقع منه أخس الأخلاق وأسوئها لينفر الناس منها، بخلاف غيرهم فهذا هو الجواب في هذا.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الخامس والأربعون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

هذا هو الدرس الخامس والأربعون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» ومع خطاب الله عز وجل لبني إسرائيل عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [البقرة: ٤٢-٤٣].

من وجوه تفسيرها ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢]، «الباء» هنا للاستعانة، أي لا تستخدموا الباطل لأن يكون الحق مُلتبساً غير بيّن وغير واضح، ومن وجوهه ما ذكرنا، كيف؟ قلنا: أن من لبس الحق بالباطل هو أن تخلط بينهما أن تجمعهما في صعيدٍ واحد وألا تفرق بينهما، فهذا من وجوهه وليس هناك أي معارضة.

القصد: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢]، إحدى وجوهها ألا تستخدم الباطل من أجل أن يلتبس الحق، وإذا التبس الحق يعني المقصود به في العقول، التباسه في العقول يلتبس الحق بغيره من الباطل بأن لا يعرف على وجهه الصحيح أو أن يقدم بصورة خفية لا يعرفها الكثيرون، أو أن يخلط معه الباطل من أجل أن يمرر الباطل باسم الحق، كل هذه وجوه أيها الإخوة للتفسير.

قلنا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢]، أولاً: أعظم الجرائم هو القول على الله بغير علم ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، من القول على الله بغير علم، والافتراء على الله عز وجل الكذب، أن يُلبس الناس الحق بالباطل هذا من القول على الله بلا علم، الافتراء على الله عز وجل، وهذا أعظم الكفر، والله عز وجل قال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الأعراف: ٣٣]، ماذا قال بعدها؟ جعل أعلى من الشرك هو ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾ [الأعراف: ٣٣].

قال ابن القيم رحمه الله في تفسير هذه الآية من سورة «الأعراف»، قال: ذكر الله عز وجل ما يكره على جهة تصاعدية من الأدنى إلى الأعلى، فبدأ بأن الله عز وجل نهى عن المعاصي، ثم نهى عن الكفر ثم جعل أعلى من الكفر ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾ [الأعراف: ٣٣]، لا يجوز، يعني اسكت فإما أن تسكت وإما أن لا تقول إلا الحق، لا يجوز لك شيءٌ أخر، لا يوجد خيار ثالث، إما أن تسكت لأسباب كثيرة منها إنك لا تعلم، هذا سبب

أولا أنك لا تعلم فتسكت، والعلماء كما قال ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: «إذا أخطأ العالم لا أدري أصيبت مقاتله»، خلاص عرض نفسه للأخطاء، والأخطاء ستقع عليه.

ومن أسباب عدم القول بالحق عدم القدرة عليه يعني المرء يخاف، ويسعى الناس أن يسكتوا في بعض المواطن أن يسكتوا، ومن أسباب السكوت عن الحق أن يكون السائل مُبطلا، ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢]، الشارع هنا ربنا سبحانه وتعالى وعظ رسوله ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، يجوز للعالم أن يعرض إذا سُئل على الوجه الذي يسأل عنه المبطلون المتلاعبون، قال تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩٧]، لا تعلمهم، إذا تعلموا شيئاً من الحق جعلوه سبيلاً إلى الباطل.

ومن هنا نهى أهل العلم أن يُعلم بعض العلوم لبعض الأشخاص، أنس رضي الله تعالى عنه ندم أن علم الحجاج حديث العُرنيين، لأن الحجاج كان سفاكًا للدماء، والنبي صلى الله عليه وسلم قتل العرنيين قتلةً فيها القصاص الشديد لما فعلوه مع الأعرابي الذي كانوا معه يشربون من أبوال الإبل وألبانها وبعد أن قويت أجسامهم، قاموا فقتلوا الأعرابي وأخذوا زوجته وساقوا الإبل، فالنبي صلى الله عليه وسلم لما قدر عليهم أخذهم فسمل أعينهم، وقطعوا أطرافهم ثم رماهم في الحرة يستسقون الماء ولا يسقون، فهذا الحديث فيه طريقة شديدة في القتل وهي كالقصاص هكذا فعلوا مع الراعي، راعي إبل النبي صلى الله عليه وسلم، إبل الصدقة، فهذا الحديث ساقه أنس رضي الله عنه للحجاج، فالحجاج وجده حُجة فندم أنس أن علم هذا الحديث للحجاج.

كذلك أن تُعلم المتلاعب أن تُعلمه طرق الحجاج، طرق المناظرة فيتخذها من أجل اللعب، كما قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ [الجاثية: ٩]، بطرق الهُزُل المعروفة الكثيرة.

فإذن القصد: أن هناك أسبابًا كثيرة تدعو المرء ألا يتكلم بالحق في ظروف معينة، لأسباب معينة، فإذن المرء أما بين هذه الحالة أن يقول لا أدري وإما أن يسكت، أما أن يقول الباطل فلا يجوز له، لا يجوز للمرء أن يقول الباطل وسيأتي في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، سيأتي التفصيل.

في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)﴾ [البقرة: ٤٢]، قلنا في الدرس الفائت: هي شرطٌ في إقامة الحجة، أن الله عز وجل لا يُعذب إلا بحجة، قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فإما أنها تقرير على جهة الخبر، أي أنكم تفعلون هذا الفعل ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾، لأنه متعين عليكم فيصبح عيبًا ويصبح جريمة، إذا تعين الحق على أحد فسكت كان سكوته جريمة، وكان سكوته سيئة وإثم، فلا يجوز للمرء أن يسكت إذا تعين قول الحق عليه، أو لم يكن هناك موجب لكتمه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)﴾ [البقرة: ٤٢]، قلنا في الدرس الفائت: بأن الله عز وجل لا يعذب إلا بحجة، ولذلك هناك شرط العلم لابد من العلم، الله عز وجل لا يعذب إلا بعد إقامة حجة، ومن ذلك من الذين يعذرون عند الله ولهم حجة يوم القيامة، رجل نشأ في فترةٍ بين نبيين فلم يصل إليه الحق، فهذا لم يصل إليه الحق فالله عز وجل لا يعذبه إلا بحجة، وهذا قلناه.

وقد تأتي بمعنى هنا ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، هي إخبار من الله عز وجل على أن اليهود يعلمون الحق ويفعلون هذه الأفاعيل، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، قد تكون على جهة لا تفعلوا وأنتم تعلمون فتكون ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حالية وإما أن تكون خبرية أي أنكم تفعلون هذا وأنتم تعلمون ما تفعلون.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [البقرة: ٤٣]، قلنا في الدرس الفائت: الركوع من الصلاة، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، والركوع من الصلاة فلماذا جاء به على جهة الخصوص؟ قلنا في الدرس الفائت: بأن هذا من باب ذكر الخاص بعد العام لأهميته، وما هي أهميته هنا؟ أهميته هنا ما ذكرناه في بداية الكلام في أن قوله: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، هي أمرٌ لليهود بالدخول مع الراكعين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)﴾ [التوبة: ١١٩]، فالأمر مع الصادقين أن يدخل المرء فيهم هذا أمر إلهي، لم يكتفي ربنا بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ ولكنه قال: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، ولا يتحقق هذا الوصف فيهم إلا إذا جاؤوا فركعوا مع من صفتهم الركوع وهم الصحابة.

وقال بعض أهل العلم وليس على ذلك أدلة: بأن قوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، أي ادخلوا في دين محمد صلى الله عليه وسلم لأن الصلاة عند اليهود لا ركوع فيها، قال بعض أهل العلم هذا، قال: فخص ذكر الركوع هنا لأن صلاة اليهود لا ركوع فيها، وبالتالي قال: افعلوا ما يفعل هؤلاء على طريقة هؤلاء فكونوا تابعين لهم، وهذا هو الذي أغضب اليهود أن يكونوا هم تَبع، ولا يكونوا أئمة، وعادتهم في الوحي أنهم فضلوا على العالمين فالناس يدخلون وراءهم، ولكنهم مع هذا الدين صاروا تَبع للعرب، وهذا شيءٌ انكروه ولم يحبوه ووجدوا النكارة في قلوبهم منه والكبر في أن يتبعوه، ولذلك كان من أسباب كفرهم.

إذن قوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، لما ذكرناه والأولى أن تكون على معنى ما تقدم وهو أن الله عز وجل يأمرهم أن يدخلوا في صلاة من صلى عند نزول هذه الآية، والمقصود بهم الصحابة رضي الله تعالى عنهم، بعض أهل العلم قال: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، يعني المقصود به الطاعة أي واطيعوا طاعةً تامة.

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [البقرة: ٤٣]، وهنا سؤال أيها الإخوة الأحبة هل هذه الأوامر التي تقدم ذكرها هي للتذكير لدين اليهود، لما هو مأمورٌ عندهم في التوراة، أم هي إنشاءٌ لأوامر

جديدة؟ يعني هل هذه الأوامر الذي تقدمت هي أوامر استئنافية، أم أنها مبنيةٌ على شريعتهم؟ الصواب أنها مبنية على شريعتهم هذه، وليس فيها شيءٌ جديد إلا الأمر باتباع الدين الجديد كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة: ٤١]، فإن هذا دالٌ على أن الله عز وجل قد أقام الحجة عليهم من دينهم وبما رأوه من خصال النبي صلى الله عليه وسلم.

قول تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾ [البقرة: ٤٤]، هنا الله عز وجل يقرر ويُقرع، أما أنه يقرر فإنهم يفعلون هذا، ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾، هذا تقرير أنهم يفعلونه، ويُقرعهم بهذا الخطاب لماذا تفعلون هذا الفعل الشنيع، وهذه الجريمة المنكرة؟ فإذن هو يقرر أن هذا الفعل يقومون به ويأتونه ويقرعهم على هذا الفعل، يكبتهم عليه بأنهم على هذه الصفة، قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾، ما هو البر؟

قال أهل العلم: الله عز وجل يقول: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ [البقرة: ١٨٩]، هذا هو البر، ما هو البر؟ ﴿مَنِ اتَّقَى﴾، ولذلك قال أهل العلم: البر كلمةٌ جامعة لكل أنواع الخير، البر هو كلمة جامعة لكل أعمال الخير، فالله عز وجل أمرنا بالتقوى فلا يكون المرء من المبرورين حتى يكون متقياً لله عز وجل أو يكون تقياً، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾.

وكلمة ﴿النَّاسَ﴾ هنا عادةً كثيراً ما تطلق من أجل المغايرة، مرات تطلق من أجل بيان الجنس، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١]، تفريقاً لهم عن غيرهم من الملائكة، فيخاطب عموم خلقه الذين يدخلون تحت هذا المسمى جنس الناس، لكن مرات تأتي بمعنى المفارقة للمخاطبين، مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]، ما المقصود بها؟ المقصود بها غير قريش، كأنه يقول لهم: افعلوا ما يفعل غيركم في هذا الباب، لأن قريش كانت المقصودة عند نزول هذه الآية، وقريش كانت لا تترك الحرم إلى عرفات وتقول: «نحن أهل الحمس» أي أهل الشرف، أهل القوة، أهل البأس، أهل الحرم، فهؤلاء كانوا لا يصعدون عرفات، وعرفات معروفة أنها من الحل، فكان الناس يصعدون إلى عرفات في الحج، وقريش تقف عند وادي محسر ولا تصعد إلى عرفات، وتقول: نحن أهل الحرم لا نخرج منه، فالله عز وجل أمرهم وقال: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾، يعني اصعدوا إلى مكانٍ يحصل به إفاضة ما يحصل من الناس من الإفاضة، قال: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]، وهذا يفيد أنه لا يمكن الإتيان به إلا بالإتيان بالمأمور به ولكنه ذكر اللازم له، كيف؟ قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾، لا يمكن تحقق هذا الفعل، إلا بالوقوف على عرفات، فلم يأمره الشارع بأن يقفوا على عرفات، على جهة اللفظ الظاهر ولكنه أمرهم أن يفيضوا

من حيث أفاض الناس، فدل هذا على أنه يجب أن يصعدوا حيث صعد الناس إلى عرفات، وهذا من باب بيان اللازم بالملزوم، يعرف هذا المأمور به بأنه لا يتحقق إلا ببيان لازمه.

فإذن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]، أفاد غير قريش، أي كلمة الناس هنا أفادت المغايرة، ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾، قريش من الناس؟ نعم قريش من الناس ولكن هو المقصود به بيان المغايرة، كأنه لما يقول أحد: الناس كأنه لا يعني نفسه، ولا يعني جماعته، ولا يعني طائفته، فقوله تعالى هنا: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ [البقرة: ٤٤]، إذن المقصود به غير اليهود، يعني اليهود يقولوا: نحن نأمر الناس يعني هم خارج هذا الأمر، فقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾، دل على أنهم يأمرون غير اليهود بالبر.

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، النسيان هذه أنا دائماً أكررها حتى نفهم لغة العرب، لأنها كثيراً ما تقع، يعني الناس في فهم الكتاب والسنة يخطئون من جهة اللغة، فقوله تعالى: ﴿وَتَنْسَوْنَ﴾، النسيان ما هو؟ النسيان يقع جامعاً بين أمرين نسي بمعنى ترك، يدخل فيها الترك، واحد نسي أن يأكل يعني ترك الأكل، نسي أن يحمل متاعه يعني ترك متاعه، وفيها معاني أخرى، لكن النسيان يدخل فيه الترك، فتستخدم كلمة النسيان لبعض معانيها، هذا أكرره دائماً، فقوله تعالى: ﴿وَتَنْسَوْنَ﴾، ليس المقصود به كلمة النسيان في جميع معانيها الداخلة في هذا اللفظ، المقصود به الجزء الأكبر من المعنى وهو الترك وتتركون أنفسكم.

لكن دائماً السؤال، هذا لا يكفي، أهل البلاغة لا يقبلون هذا فقط، يقولون: خلاص، ولكن السؤال دائماً يطرح لماذا أستخدم هذا اللفظ هنا دون الكلمة الأصلية له؟ هذا فنٌ هو الذي ينبغي أن يقف عنده البليغ، ويقف عنده الناظر لكتاب ربنا عز وجل، لماذا قال هنا؟ لماذا قال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]؟ لماذا لم يقل: ويمكرون وينتقم الله؟ لماذا قال: ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾؟ هذه يقف عندها البليغ، هنا هو باب البلاغة ليس فقط في رفع العبارة العامة، رفع العبارة العامة الآن مقررة، كما نقول دائماً: أن المقدم هو الأكثر أهمية، لماذا هنا أكثر أهمية؟ دائماً أقول: «الواو» تفيد المغايرة، قال تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، مع أن كل هذه المذكورات الكفر والفسوق والعصيان تعود إلى أصلٍ واحد وهو الإعراض عن أمر الله على درجات، فلماذا ذكر هذا؟

فينبغي على البليغ والمتأمل لكتاب ربنا أن يجيب على هذا السؤال، لماذا استخدم هذا اللفظ هنا؟ يعني أنا دائماً أقول: لماذا يأتي دائماً الظن –والعلماء يمرون عليه ولم يتكلموا عنه– لماذا يأتي الظن بمعنى اليقين؟ ويأتي الظن المذموم، ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ [الجاثية: ٣٢]، ويأتي الظن بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾ [البقرة: ٤٦]، لماذا يستخدم الظن؟ العبارة الشهيرة أن كلمة الظن من معانيها الظن المرجوح، الظن الراجح اليقين، يقولون: هذا وينتهوا يمشوا، هذا غير كافي، يعني استخدام هذا اللفظ دون غيره مع أنه لا يفيد معناه الكلي إذن دل على أن المعنى الذي يفيد هذا اللفظ يريده الشارع، يريد أن يستخدمه لجانب من الجوانب، وهذا من فضل الله قلت

في أكثر من موطن في صبغة الله الصمد وغيرها أن السبب: هو الالتفات إلى معاني هذا اللفظ غير المراد الأصلي كذلك، كيف؟

في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، هناك يقين لكن كلمة الظن هنا مرادة، الظن هو دائماً يستخدم على الشيء المرجوح، هو الأصل يعني شيء غير يقين لم يثبت لديه لكنه يلوح في ذهنه، طب لماذا ذكر اللفظ هنا؟ سبب ذكر هذا اللفظ هنا ليس لقضية قدوم الساعة ولكن لشيءٍ آخر يتعلق به المؤمن بالساعة وهو علمه بوقتها، فيقول: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾، هم على يقين أنهم سيلاقونه فرغن منها هذه معروفة من خلال الآيات، لكن لماذا ظن؟ لأنهم لا يعرفون متى يلاقونه، فجاءة كلمة اليقين، فاستخدمت الظن لأننا بحاجة إليها لجانبٍ مهم جداً، لما نقول وهم على يقين على ملاقاة ربهم هذه قد يقع في نفس الناظر أنهم كذلك يعرفون وقتها، متى يلاقون الله عز وجل إما الملاقاة الجزئية وهو بالموت وإما الملاقاة الكلية بقيام الساعة، فمن أجل هذا الوهم الذي هو وهمٌ غير صحيح يصرف باستخدام كلمة الظن، هذا شيء مهم.

هذه أنا شرحته عندما قال: ﴿عَسَى﴾، شرحت كلمة ﴿عَسَى﴾، لما جئتها في شرح وتفسير سورة «الإسراء» المجمع عليه –مع خلاف يسير– أن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال: موجبه، عسى موجبة يعني عسى عادةً للترجي في لغة العرب للترجي، فلماذا تستخدم هنا كما ذكرنا في الظن، ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء: ٨]، هو سيرحمكم موجبة، يقينا ستقع، لكن متى ستقع؟ فلابد بالإتيان بأنك لا تعرف، ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾، فهي مُقرة لما أراد من اليقين وكذلك مبيناً لما يقع على هذا اليقين من وقت وكمية وكيفية إلى غير ذلك مما يعتلي هذا الفعل من ظروف وأحوال.

فهنا لماذا قال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، النسيان هنا قلنا: بمعنى الترك وتتركون أنفسكم، والنسيان هنا لا يقع بقصد، عادةً النسيان يقع بغير قصد، هو يريد فينسى، ولا نريد أن نأتي الآن إلى قواه تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، نأتي إليها ربما في الحديث، لكن يكفي هنا أن نأتي إلى هذا، فلماذا قال: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾؟ هذا أمرٌ عجيب مما يقع في الذهن أولاً أن هذا إشارة إلى استمراء هذا الفعل، قال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، لو قال: وتتركون أنفسكم، لما أفادت الدوام، لأنه يمكن يتركوه مرةً ولا يتركون مرة، لكن النسيان شبهةٌ تعرض في المرء ولا يقدر على دفعه، هذا أول معنى يطرأ على الذهن أنهم نسوا فحينئذٍ ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾، وكأنهم في حالة تركٍ تام، هذا واحد.

الأمر الثاني: واعتبره كذلك مهم كالأول، –وهذه يغفل عنها الكثير من الناس– أن المعاصي تبدأ بإرادة، فتنتهي بشغفٍ وعشقٍ يغلُب على الفاعل، خلاص، العلماء يختلفون هل العشق الذي يوصل درجة الوله أي الجنون مثل مجنون ليلى، هل المرء محاسبٌ عليه؟ يعني تاه عقله خلاص جن ومشى، فهل المرء مسؤول عنه؟ محاسب عليه؟

الصواب: أنه محاسبٌ على سببه، بعد أن يغلُب عليه جُن، خلاص مجنون ارتفع التكليف، لكن هو الذي أتى هذا الفعل، كالذي يشرب المخدرات، هو يشرب بإرادته فهو محاسبٌ عليه بعد ذلك ارتفع عنه القلم لارتفاع عقله، فالمرء يبدأ الأمور بنفسه أي بإرادته هو الذي يقرر أفعل أو لا أفعل، هو صاحي وذاكر، فإذا استمرأه غلب عليه.

وهذا أفسره بقوله صلى الله عليه وسلم: (ومازال الرجل يكذب، ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا)، أن يكتب عند الله كذابا، بعض الناس يقف عنده ويقول: الكتابة إنما هي كتابة الحكم، هذا ليس كافياً، لا أقول: غير صحيح، أقول: ليس كافياً، في الحقيقة لا يكتب الله أنه كذاب حتى يصبح كذاباً حقيقة، يعني لا يصدق أبداً لماذا؟ لأن ميزان الصدق عنده ذهب، ما ظل عنده، بماذا؟ هل بإرادته أو بغير إرادته؟ أنا عندي بغير إرادته، يصبح المرء يكذب بغير إرادته، لما استمرأ عليه من الكذب، كيف؟ لأن الصدق هو إخبارٍ عما يقع على النفس من الحوادث والنواسب.

مثال: رجل يذهب إلى السوق فيجد رجلاً سرق ويرى فهذا خبر وقع في نفسه، فهو أول يلوي إرادته بأن تكذب، يقال له: من سرق فالذي سرق هو «سين» من الناس وهو يقول: «صاد» هذه لوا نفسه، فلكنه بعد ذلك يختل ميزان النظر عنده، لا يستطيع أن يصدُق لا يرى الأشياء على حقيقتها، بعدها يقول: «كيف صارت هيك، هيك» وهكذا، حتى يختل عنده ميزان النظر، ويجلس معك ويسمع ولا يستطيع أن يخبر بالحقيقة، حتى إن الخبر ليقع على نفسه على وجه الخطأ، لأن النفس مرآة، فإذا بقيت تصقلها بالاستغفار والتوبة والإخبار بالحقيقة بقيت النفس مصقولة فتقع عليها وعلى سمعها وعلى بصرها يقع على لسانها ما يقع عليها على الحقيقة، فلا يرى إلا هذا الوجه.

من هنا المرء عندما يكذب في الابتداء ترى على وجه تعرفه، لأن النفس تخبر بشيء وهو يمر هذا الخبر من النفس التي تراه على وجهٍ صحيح تحت النور تحت الشمس بيّن، فيمر هذا الخبر على نفسه يريد أن يلويه، فتجد عنده الاضطراب، يحمر وجهه ويضطرب، فتقول له: والله وجهك وجه كذاب، هذا ليس صحيح، لكن الكذاب هذا مازال يكذب ويكذب حتى إنه وهو يتكلم تعجب من أي كتاب يقرأ مع أنك تعرف أنه يكذب، لكنه من كتاب نفسه الذي اختلت عنده الصور فصار يخبر بالصور المقلوبة لماذا؟ لأن مرآة النفس ذهب صقلها وصارت خربانة، ولذلك لما قال: (حتى يكتب عند الله كذابا)، ليس فقط كتابة الحكم، ولكنها كتابة الوصف كذلك، أنه يصفه (مازال الرجل يكذب حتى يصبح كذابا)، كيف يصبح المرء كذاب؟ لا يخبر بالحقيقة، لأن مرآة النفس قد ذهب صقلها اختلت، خلاص تشوشت صارت كالمرايا المحدبة والمرايا المقعرة، فالمرايا المقعرة تصغر والمرايا المحدبة تضخم، تضع المرآة بتطلع بتشوف أنف الرجل كأنه سطل، كأنه الجدار، خلاص اختلت عنده، مرآة النفس قد ذهبت.

فإذن قوله تعالى: ﴿وَتَنْسَوْنَ﴾، قلنا ابتداءً أنها دالة على دوام هذا الأمر خلاص نسوا، صار ناسيًا، بما يقع هذا؟ ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، ذلك لأن هذا صار صفة لازمة لهم، بما وقع؟ أنهم نسوا أنفسهم، وهذا ترونه في

الحقيقة في المشايخ، ممن أخذ طريق اليهود، لأنه هذا كله شرح لقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، ترى المشايخ، فتتعجب!! هو يتكلم عن الصدق ولا يصدق، يتكلم عن أداء الأمانة ولا يؤدي الأمانة، يتكلم عن الجهاد ولا يجاهد، يتكلم عن قول الحق ولا يقول الحق، يتكلم عن صلاة الجماعة ولا يأتي صلاة الفجر، وعادي يتكلم بها ولا يشعر بالخجل ولا يشعر بالعار!! وهو يتكلم بلا شعور بالذم!

فإذن هذا الذي نقوله: هذا خطاب ما زال اليهود، قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ [البقرة: ٤٤]، أي بمجامع الخير، ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، أي تتركونها من أداء الخير الذي أمرتم به.

قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٤٤]، ماذا يدل؟ ﴿تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، تنبيه على قضية ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾، العلماء يقولون: بأنه مقصد قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٤٤]، أي أن الله أمركم بأن تقولوا الحق وأن تعملوه فخالفتموه، فقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٤٤]، بيان أنهم قد خالفوا هذا الأمر وهو أنهم يأمرون الناس بالبر فهذا حق، ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، هذا باطل فأنتم خالفتموه لما جاء في الكتاب.

الوجه الثاني الذي أقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٤٤]، هي تنبيه لقوله: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، أنا أسألكم الآن: الناس وهم يسمعون الخطب ويسمعون الدروس والمواعظ، يعني بمعنى أنه يرتفع عنهم صفة النسيان، ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١)﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فهم يتذكرون، فلماذا هذه الخطب والمواعظ أنت لا تجد أثرها على السامع؟ لماذا؟ فأراد إن يبين أن النسيان قد تلبسوا به مع أنهم يتلون الكتاب، لأن تلاوة الكتاب تعني التذكر، فهذا بيانٌ لنسيانٍ غريبٍ جداً ليس المقصود به أن لا يذكر ولكن المقصود به ألا يأتي المقصد، ليس المقصود به إلا يذكر.

والآن لو سألت أي رجل عن الربا، اسأل أي مسلم يأكل الربا ما حكم الربا؟ يقول لك: حرام لكن هو وصل لدرجة النسيان بأن لا يأتيه، يعني أنه إذا ذكر بما في الكتاب لا يرتفع عنه وصف النسيان، إذن هو نسيانٌ آخر، هو نسيانٌ نفسي آخر لا يتعلق بقضية أنه نسي فتذكر، ولا أنه إذا نسي ذُكر فتذكر، ولكنه نسيانٌ آخر؛ أن حضور هذا الأمر في ذهنه وعدمه سواء، لا قيمة له.

قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٤٤]، أي إن هذا النسيان ليس المقصود به أنكم لا تعرفون؛ لأن المرء إذا نسي شيئاً فهذا يرفع، قال صلى الله عليه وسلم: (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكره عليه)، فالله عز وجل يعافي عن النسيان، ولكن ليس المقصود به هذا، هو نسيانٌ آخر لا يحصل به تذكر لغلبة الهوى والشهوة عليه، وكأنه قد تلبس بها صفةً دائمة كما قلنا.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾ [البقرة: ٤٤]، هو بيان لما قلناه، المشكلة ليست هنا في هذه الحالة، هذه الكلمة الربانية ليس لها أي علاقة إلا بقضية ميزان العقل، ميزان تعقلون، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وأنا قلت أكثر من مرة: بأن كلمة العقل غير موجودة في القرآن، هذا قلنا في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾ [البقرة: ٣١]، وقلنا: غير موجودة كلمة العقل، لماذا؟ لأن كلمة العقل لا تحمل أي دلالة علمية ولا مكرمة هي مَلَكةٌ في النفس موجودة عندي وعندك العقل، لكن بما يتميز عقل فلان عن عقل فلان؟ بما يوضع فيه من علوم ومعارف.

فالعقل كما قال الحارث المحاسبي وهي كلمة له وبعضهم يقول: لم يقلها أحد من قبل، ورأيت شيخ الإسلام ينسب هذه الكلمة لأحمد ولكن غير موجودة، إنما يقول أهل السنة كالحارث المحاسبي وأحمد: «أن العقل مَلَكة»، الصواب أننا لم نجدها إلا عند الحارث، هذه له تحسب له «أن العقل مَلَكة»، ماذا تعني مَلَكة؟ يعني كالقوة في البدن، فهذه تنمى من خلال العطاء وتموت، أما هي في ذاتها لا تحمل دلالة علمية، العقل لا يحمل دلالة علمية، وهذا رد على الذين يقولون: بأن العقل يستطيع أن يحكم، العقل لا يستطيع أن يحكم، العقل يستطيع أن يميز إذا وضعت فيه العلوم أن يستخدمها استخدامًا صحيحًا بخلاف عقل الحيوان، الحيوان لو أعطيته علوم لا يستطيع أن يبني عليها مفاهيم ونتائج، لكن العقل الإنساني يستطيع إذا أعطيته العلوم أن يميز، أما قبل إعطاء العلوم فلا يملك أي قوة ممدوحة في التفريق بين الناس.

وبلا شك هذه الْمَلَكة الربانية يختلف الناس فيها، فهي قدرات ككل الملكات، أي واحد ينشأ ضعيف البدن، ولكنه يستطيع أن يدرب نفسه ويتقوى، واحد ينشأ قوي البدن فيمكن رجل يتميز بقوة عقله وإدراكه عن غيره ولكن يمكن للضعيف أن يسبقه وهذا يميت مَلَكة العقل لديه، كما يميت قوي البدن بدنه من خلال عدم رعايته.

وهنا نأتي إلى قضايا عدة في هذه السورة:

القصد: أن قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾ [البقرة: ٤٤]، دل هذا على ما ذكرناه أن القضية هي قضية وجود الحق ومعرفتهم له ولكن وصل إلى درجة النسيان كحال من ينسى كأنه غير موجود.

الأمر الأول: العلماء يذكرون تحت هذه الآية مسائل عدة، أهم هذه المسائل: هل لا يجوز للمرء أن يأمر وينهى إلا بعد أن يعمل؟ فلو أمر ونهى ولم يعمل هل يُعاب؟ هذه لابد من التفصيل فيها، في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (يجاءُ بالرجُلِ يَوْمَ القيامَةِ فيُلْقَى في النارِ، فتَنْدَلِقُ أقتابُهُ، فيدورُ بها في النارِ، كما يدورُ الحمارُ برحاهُ، فيُطِيفُ بِهِ أهلُ النارِ، فيقولونَ: يا فلانُ! ما أصابَكَ؟ ألم تكنْ تأمرُنا بالمعروفِ وتنهانا عنِ المنكَرِ؟ فيقولُ: بلَى، قَدْ كنتُ آمرُكُم بالمعروفِ ولَا آتيهِ، وأنهاكُم عَنِ المنكَرِ وآتِيهِ)، فدل هذا على أن الذي يعلم الحق ثم يخالفه أعظم إثمًا وعذاباً من غيره، الذي يعلم بخلاف من لا يعلم، هذا معاقب أكثر من غيره.

لكن هل يعني هذا أن المرء لا يجوز له أن يأمر بالمعروف حتى يأتيه؟ إذا كان المقصود بأنه قد استوفى شروط الفعل فلم يأتِ فهذا الذي يدخل فيه هذا النهي وهذه النكارة وهذا الترهيب، كيف؟ رجل معه مال، وحال عليه الحول وهو قادر ولا يزكي، فلو أمر الناس بالزكاة هذا يقع عليه، لكن لو أن رجلاً لا يملك المال فهل يجوز له أن يأمر الناس بالزكاة؟ هذا هو التفصيل وهو سهلٌ يسير جداً ولا ينبغي الخلط فيه، من استوفى شروط الفعل قدراً فقصر في الشرع فهو معاقب، ويزداد المرء عقوبة لأسباب، كالمتبوع مثلاً يعاقب أكثر، أي الرجل الإمام الذي يقتدون به الناس لو فعل معصية، فهذا معاقب أكثر من الرجل الغير متبوع، الداعي إلى البدعة أشد من المبتدع، وهذا مفرق في الشرع بينهما.

فالمعصية التي لا تعرف فينشئها المرء إنشاءً جديداً هذا معاقب أكثر من غيره، لأنه أنشأ هذه المعصية ولذلك عمرو بن لحي الذي أول من سيب السوائب وأحضر الأصنام إلى مكة هذا عذاب أشد؛ لأنه هو أول من ابتدع هذه البدعة، المرء الذي يبتدع البدعة ويأتي بالمعصية التي لا يعرفها الناس ويفتحها لهم، قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، هذه قالها الله عز وجل بعد: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ [المائدة: ٢٧]، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من قاتلٍ يقتل إلا وعلى ابن آدم الأول كِفلٌ من قتله)، لأنه هو أول من سن القتل، فالمرء يزيد إثمه لأسباب متعددة.

ومن هنا المرء إذا حصل عنده القدرة على الفعل تحققت شروط الفعل وانتفت موانعه، ووجد اللازم والأسباب لهذا الفعل فلم يأتِ هذا، فيدخل في هذا في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، وهل هذا يكون أشد عذاباً؟ الذي يأمر الناس بالفعل ويخالفه؟ هل هو أشد عذابًا؟ نعم، لماذا؟ لأن فعله هذا موجبٌ لالتباس الحق مع الباطل، فالناس تَبع، يقولوا: لو كان حقاً ما يأمرنا به لكان أول من يأتيه، فلما تركه دل على أنه غير صحيح، وأنه غير موقنٍ به فيكون هذا سبباً لإماتة الحق في نفوس الناس، ولذلك هو من أكثر الناس عذاباً ويكون من أشد الناس عذاباً، الذي يأمر بالمعروف ولا يأتيه وينهى عن المنكر ويأتيه من الصفة التي ذكرناها على الوجه الذي ذكرناه، فهذا من أشد الناس عذاباً؛ لأنه بفعله هذا يميت قيمة الحق من نفوس الناس الناظرين إليه.

ويقول قائل -هنا المخرج-: هل الرجل يأمر بالمنكر؟ لا، عليه أولاً الواجب أن يترك الباطل، ولا يوجد باطل في الوجود يحتاج إليه الناس، على جهة الدوام والسنة لا يوجد باطل، يقول: أنا لا أستطيع أن أتركه، ما أمرك الله عز وجل إلا وقد قدرت على فعله، الله عز وجل لا يأمرنا بما لا نستطيع، فيجب على المرء أن يتركه.

الأمر الثاني: لو فعله واقترف هذه القاذورات وغلبت عليه فأقل القليل أن يستتر، (فكل الناس معافى إلا المجاهرون)، ومن هو المجاهر؟ أن يفعل رجل معصية في الليل وقد ستره الله في الليل فيصبح يحدث فعلت كذا وكذا، هذا من المجاهرة، الله سترك، ولذلك كل الناس معافى أي الله يعفو عنهم، لأن فيهم الحياء والحياء أساس الطاعة،

والحياء هو أساس خروج المرء من المعصية، المرء إذا بقي في نفسه الحياء يوماً من الأيام سيترك هذه المعصية، فإذا مات الحياء المعصية تصبح ملائمة للنفس فلا تستنكرها، ما دام أنه يفعل هذا الفعل في الستر وعنده الحياء لابد أن يتركه يوماً، يبقى شاعراً أن هذه معصية ونافراً منها لكنه متلبس بها لسبب من الأسباب لأنها غلبته ... إلخ.

لكن إذا اقترف المرء المعصية وأتى بها جهاراً لم يعد في نفسه الكراهة لها خلاص استمرأها، صارت حبيبة إلى نفسه، وإذا صارت حبيبة لنفسه الإقلاع عنها صعب، لا أقول مستحيل لكن الإقلاع عنها صعب.

ومن هنا فأولاً: يجب عليه الإقلاع، فإن لم يقدر يجب عليه الستر، فإياك أن تهتك ستر الله عز وجل عليك بأن تجاهر في المعصية، الله سترك فاسترها، ومن هنا كذلك من الواجب على الآخرين أن يستروه، إعانة له على تركها، (هلا سترته بردائك)، عليك أن تستره.

وهل هناك أسباب تدعوك للفضيحة؟ نعم، مرات إذا رأيت رجلاً على معصية يجب عليك أن تفضحه مثل معصية الخيانة، رجل يخون المسلمين ولابد هذه الخيانة أن يأتيها على جهة الستر، فهذا يجب فضحه، رجل يأتي بفاحشة تفسد الآخرين كمن يأتي بالمعاصي الخبيثة ويفسد أطفال المسلمين ونساءهم وبناتهم فهذا يجب فضحه، ويجب منعه من دخول البيوت والتشهير به، إذن هنا تأتي الموازنة.

قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، هذه المسألة الأولى، يكفي هنا الكلام حول من الذي يُعاقب ويُعاتب بهذه المعاتبة بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾.

هنا كذلك مسألة أخرى: هو أن هذه الآية تبيّن لنا أنه لا يجوز للعالم ولا للفقيه أن ينظر إلى الفعل فقط لابد أن ينظر إلى بيئته، يعني لو واحد قال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، أي رجلٌ قام فقال للناس البر، فرجلٌ أنكر عليه أن يقول للناس البر داعياً إياهم، يقول له: اجلس لا يحق لك أن تتكلم بهذا الحق، الناس يجلسونه ويبكتونه اجلس لا تتكلم أنت آخر من يحق لك أن تتكلم، فهل يجوز لأحد أن يقول له: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠)﴾ [العلق: ٩-١٠]، هو يأتي بفعل لماذا تنهاه وتنكر عليه.

الجواب: لأن هذا الفعل أتى على غير وجهٍ صحيح وهو لا بد من إتمام الآية، ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، يعني يجب أن تنهى هذا أن يقوم وأن يمثل قول الحق في الناس وهو يقترفه عياناً والناس يعرفونه، من هنا يأتي دور البيئة، لا ينبغي فقط أن تقول: الرجل يقول الحق اتركه يقول الحق، لا، هذا لا ينبغي أن يقول الحق، يأتي آخر يتفلسف ويفسد عليك دينك ويقول: كيف تنهى الناس أن يأمرون، قال صلى الله عليه وسلم: (بلغوا عني ولو آية)؟ لا، هذا لا يبلغ يجب أن يمنع.

فإذن هنا يأتي دور البدعة كما لما أحدهم دخل على المسجد فرأى رجل يصلي في وقت التحريم فنهاه، فقال له: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠)﴾ [العلق: ٩-١٠]، قال: أنا ما نهيته عن الصلاة أنا نهيته أن يفعل البدعة، هذه الصلاة ليست هي المقصودة في دخوله ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠)﴾، ليست هذا المقصود، هذه الصلاة لا تدخل في هذا الباب، هذه الصلاة اسمها بدعة فينهى عنها.

إذن قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، لابد من إتمام الكلام، لابد من النظر إلى حالة الفعل وليس فقط إلى مجرده الظاهر البريء من ظروفه المحيطة به.

قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، هنا أيها الإخوة الأحبة أمرٌ مهم جداً لم يتكلم الشارع عن اليهود هنا في قضية إتيان المعاصي، ولكن تكلم عن الإتيان بالمأمور به، قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، هل هو حديث عن اقترافهم المنهيات؟ أم هو حديثٌ عن تركهم المأمورات؟ يعني هنا الحديث عن تركهم المأمورات، وليس الحديث عن اقترافهم المنهيات؛ وذلك لأن الخطاب علوي وأجّل وأعظم، يعني كأنه لا يتحدث لهم أنهم يقترفون المعاصي، ولكنهم يتركون الطاعات وأنتم تعلمون أن الله عز وجل يحب إتيان الطاعة أكثر من ترك المعصية، وأن الإتيان بالطاعة أشق على النفس من ترك المعصية.

ما الأصعب على النفس؟ إقامة الإرادة أم ترك الإرادة؟ المنهي ترك الإرادة عدم النزوع خلص ما في عندك إرادة لا لشرب الخمر ولا لأكل الربا ولا لإيذاء الناس، فهذا موت الإرادة فهذه ليست هي المشقة، المشقة العظيمة هي إنشاء الإرادة لأن فيها جهد وفيها تعب وفيها مشقة، ولذلك جاء هنا الأمر بما هو أجلى وأعظم وأهم، فقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، هذا وجه.

الوجه الثاني: قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، مما يحتمله قوله تعالى: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾، أنهم يأتون بالضد، كأن يأمرهم بالقناعة ويأتون بالضد، يأكلون الحرام الربا، أكل الربا هو ضد القناعة، كأن يأمرهم بالستر ويأتون بالفضيحة، وهكذا، فإذن ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾، قد تحتمل هذا المعنى.

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٤٤]، هنا قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، أيها الإخوة الأحبة فيها إشارة وتعليم لنا أن قراءة الكتاب من غير الإتيان بأوامره حجة علينا يوم القيامة، قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، لم يذكرها ربنا عز وجل على صيغة المدح، إنما على جهة إقامة الحجة، ولا ذكرها سبحانه وتعالى على صيغة الذم، ما واحد يقول: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، يعني مذموم، ما ذكرت على جهة الذم، إلا لاقترافها بماذا؟ لاقترافها بعدم أداء أوامر هذا الكتاب.

فإذن هذا دل أيها الإخوة الأحبة على أن الذين يقرأون الكتاب ولا يعملون به يدخلون في هذا الذم، القرآن أنزل من أجل التدبر، الكتب السماوية أنزلت من أجل التدبر ومن أجل العمل بها، فإذا خلت عن هذا المقصد لم تعد إلا كما يفعلون اليوم، ماذا يفعلون اليوم في هذا الكتاب؟ يقرؤونه من أجل التغني ومن أجل افتتاح الحفلات وافتتاح المهرجانات، يفتحون الكتاب هذا القرآن فقط ولا أحد يسمع وإن سمعوا إنما سمعوا للصوت من غير تدبر، فقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، دليل على أن مجرد قراءة الكتاب ليست بشيء إن لم يقم المرء بواجباتها.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾ [البقرة: ٤٤]، وهذا دليلٌ على أن أوامر الله عز وجل في هذا الباب بينة لكل صاحب عقل وأن الحجة قائمة عليه، هنا تقدم ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)﴾ [البقرة: ٤٢]، وهنا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾ [البقرة: ٤٤]، فهنا لابد من النظر إلى ميزان العقل في حال، ولابد من النظر إلى ميزان العلم في حالٍ آخر، ميزان العلم الذي يقتضيه البشر، هل في ميزان البشر جميعاً أن الذي يأمر بشيء من الخير عليه أن يأتيه؟ سواء كان هذا يعلم الدين أو لا يعلم الدين؟ فمن ميزان العقل هذا، فلذلك جاءت هذه الخاتمة بهذه الفاصلة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة: ٤٥]، أول ما يخطر على البال المقارنة بين هذه الآية وبين الآية في سورة «البقرة» ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)﴾ [البقرة: ١٥٣]، ختمت الآية التي ستأتي في خطابه للمؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)﴾، وختمت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾، ما الفرق بين هذه وهذه؟ ولماذا كانت اللازمة والفاصلة هنا في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة: ٤٥]، وهناك الحديث عن الصبر، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)﴾ [البقرة: ١٥٣]، الآية التي ستأتي في سورة «البقرة»، فما الفرق بينهما؟

تذكروا أن هذا الموطن خطابٌ عن بني إسرائيل، فهو يلائم حالهم، قال اليهود هذا ورد عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: «زعم اليهود أنهم لا يوسوسون في صلاتهم»، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «وأي خيرٍ في قلوبهم ليوسوس فيها الشيطان»، أي الشيطان لا يأتي إلا على البيوت العامرة، فالبيوت الخربة بنفسها هي قائمة بنفسها على الخراب وتوسوس، فإذن حال اليهود في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة: ٤٥]، بيانٌ لحال اليهود كما قال أهل التفسير، فجاءت الموعظة لهم بهذا، قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا﴾، أي الصلاة، الحديث عن الصلاة ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، وسنأتي إن شاء الله إلى أهمية هذين الأمرين ولكن لبيان الفرق بين الموطنين في سورة «البقرة».

فلما كان الحديث عن بني إسرائيل وأن عِلم الله عز وجل قد تم عليهم بأنهم لا يقومون إلى الصلاة إلا وهم كسالى وأنهم لا يأتون الصلاة إلا على كراهية ... وإلخ، فالله عز وجل لما علم ذلك منهم قال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى

الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة: ٤٥]، تنبيه عما يقع في قلوبهم من كراهية الصلاة، أنها كبيرة، ما معنى كبيرة؟ أي عظيمة، أنها عظيمة الشأن عليهم حتى يكرهونها، ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة: ٤٥]، فالمفهوم أن الصلاة على الخاشع محبوبة، ومن هنا قال صلى الله عليه وسلم: (حبب إليّ من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة)، قال أهل العلم: «لا يقدروا على قيام الليل المنافق»، المنافق لا يقدر على قيام الليل، والصلوات كلما اشتد شأنها بان شأن النفاق.

والنفاق حالة مرضية هذا تكلمنا عنه، لنتصور هذا الجسم قطعة حديد إذا كانت مريضة فيكشف مرضها بأقل الضغط عليها وكلما اشتد الضغط بان الضعف الملائم لهذا الضغط، فلا يعرف النفاق في درجاته إلا بشدة الضغط فبمجرد الأمور السهلة لا تُظهر النفاق، من غير جهاد لا يظهر النفاق، من غير صلاة الجماعة، صلاة العشاء والفجر لا يظهر النفاق، من غير انفاق لا يظهر النفاق، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ [العنكبوت: ٢]، أي من غير امتحان وابتلاء، ﴿أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت: ٢]، إذن الفتنة من أجل بيان هذه القطعة على القلب ما فيه، هل هو ضعيف، هل هو قوي، فإذن كلما اشتد البلاء فصبر المرء خرج من النفاق.

ومن هنا فأشد الصلوات على المنافقين صلاة الفجر وصلاة الليل، صلاة الفجر وصلاة العشاء، مع أن الفجر ليست من صلاة الليل لكن ملحقة بها تَبعاً، صلاة الفجر هي من صلاة النهار لأن الفجر يخرج، لكنها تابعة لصلاة الليل بالقرب منها، والشيء يُلحق بما هو قريب منه تَبعاً يلحق به، فهل يقوى المنافق على قيام الليل؟! ولذلك إذا أردت أن تخرج من النفاق فالزام هذه الصلاة، الزم قيام الليل.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة: ٤٥]، ذلك لأن الموطن هنا حديثٌ عن اليهود فعلم الله ما في قلوبهم فأخبر عنها، أي ما تعانونه من كراهية الصلاة إنما سببها عدم الخشوع، والسؤال: لكن الخشوع بنفسه يحتاج إلى مشقة حتى يقدم؟ نفس ما تكلمنا في العشق، تبدأ المسألة بالمعاناة ثم تصبح مَلَكة، تبدأ الأمور بالمعاناة، ثم تصبح له مَلَكة بعد ذلك يأتي الفعل خاشعاً ولا يتصور منه إلا الخشوع.

الأمر الثاني: دليل على أن الفعل لا يؤتي ثماره إلا بشروطه، يعني الصلاة عظيمة عند الله ع زوجل، ولكن لا تتحقق منافعها إلا بالإتيان بشروطها، ولذلك قال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾، يعني يمكن أن يأتي بها غير الخاشع، ولكن لا تؤتي ثمارها، سيبقى بينه وبين الصلاة كراهة ومشقة وبعد، فهنا شرط أن الله عز وجل إذا أمر بأمرٍ يجب أن تأتيه على وجهه ليتحقق منه الفعل.

ومن هنا يبدأ الكلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، والناس يرون أن الصلاة لا تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، لأن الصلاة لم يأتي الناس بها على وجهها المأمور، يعني الذي يصلي ويقرأ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الفاتحة: ٧]، ويقول: ﴿اهْدِنَا﴾، وهو يتأمل ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

(٦)﴾ [الفاتحة: ٦]، هو يطلب في الربع ساعة أو العشر دقائق في الصلاة يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦]، فلو تأملها خاشعاً خائفاً من ربه ومن عاقبتها، ويقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦]، ثم إذا خرج من الصلاة أتى الصراط الضال وصراط المغضوب عليهم والضالين، بعد هذا ماذا سيرى من نفسه؟ لن تغيره، لكن إذا تأمل هذا لابد أن يتغير، حيائه من الله، خوفه من الدار الآخرة من عاقبة الدار الآخرة، خوفه عندما يقرأ القرآن من عاقبة الأمم الذين عصوا، لابد أن يترك.

ومن هنا ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، إذا أتاها المرء على وجهها، ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة: ٤٥]، فهذا بيانٌ على أن الفعل الإلهي لا يحقق نتائجه إلا إذا أتى به المرء على وجهه المأمور به، وإلا كأنه لم يكن.

ولماذا قال تعالى هناك في الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)﴾ [البقرة: ١٥٣]، لأن ذلك الموطن من سورة «البقرة»، ماذا قال بعدها؟ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤)﴾ [البقرة: ١٥٣-١٥٤]، فالخطاب هو خطاب الأمر بالصلاة في ذلك الموطن في خطاب الذين آمنوا أي الصحابة ومن بعدهم هو خطابٌ من أجل الصبر، وإنما سيقت الصلاة تَبعاً لأنها تعين على الصبر، هنا الكلام حديثٌ عن الصلاة، الحديث هنا في هذا الموطن حديثٌ عن الصلاة فأمر بها وبين وجهها، وحديث عن اليهود فبين حالهم معها لكن في ذلك الموطن حديثٌ عن الصبر.

كما نرى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٣-١٥٤]، حديثٌ عن ألم وعن مشقة وعن مصيبة، مصيبة الموت، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾ [البقرة: ١٥٤-١٥٥]، فالمقصود من السياق حديثٌ عن الصبر، والصلاة جاءت من أجل إعانة المرء عما سيقع عليه من البلاء، لكن هنا الحديث عن ماذا؟ الحديث ليس عن الصبر، الحديث هنا عن الصلاة، فلذلك جاء الشرح بها.

ثانياً: هناك حديث للصحابة رضي الله عنهم، والصبر أيها الإخوة منزلة عظيمة، منزلة فوق، منزلة عالية، ولذلك لاءمت الحديث عن الصحابة محبة الله لهم، وهنا حديث عن اليهود، فتلى هذا الحديث عما في نفوسهم بقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة: ٤٥]، وهو تلميحٌ أنها كبيرة عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، نحن نرى في كتاب ربنا عز وجل أن الله عز وجل دائماً يأمر بالفعل السنني المدرك من جهة البشر ويأمر معه بأمرٍ شرعيٍ داعمٍ له لا يعلم إلا من جهة الشرع، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥]، كما قال الله عز وجل: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، دائماً نرى في الأمر الشرعي في القرآن، أن القرآن لا يتجاوز السنن القدرية المدركة من جهة الاختبار والامتحان، ومن جهة العادة لا يلغيها.

والمشايخ اليوم والكثير منهم ممن تأثروا بالصوفية وغلبت عليهم النزعة الدينية على غير وجهها السنن يقع منهم الخطأ، فيتحدثون عند الأمور القدرية على الوجه الشرعي الذي هو داعمٌ للوجه القدري، فيأتون بما هو فرعي داعم ويجعلونه الأصل ويميتون الأمر القدري الذي يدركه العقلاء والناس ولا يختلف حوله البشر.

من أمثلة ذلك كل ما وعدنا الله عز وجل من بُشريات إذا أتينا بالفعل السني ومن ذلك التمكين في الأرض، التمكين في الأرض هو فعلٌ قدري، له أسبابه السننية التي يعرفها الكفار والمسلمون، التمكين في الأرض فعلٌ يسعى إليه ويأتيه ويحصل لدى الكفار ولدى المنافقين، ولدى المسلمين، لكنه له وجهٌ سنني وهو سلوك سبيله يعرفه الناس، يعرفوه من خلال عقولهم ومن خلال تجربتهم ومن خلال التاريخ والقراءة والزمن وسيرورة الحياة، ويأتي أمرٌ آخر مساعد له عندما تريد أن تقيم وتمكن لدين الله يأتيك أمرٌ آخر، وهو لابد أن تكون عابداً ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤١]، إذا جاهدت طريق الانتصار طريقٌ سنني، وهو ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فهذا طريق سنني.

لكن الشارع يأمرك، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، فإذن ذكر الله هل هو في القيام أصلي أم تبعي في هذا الباب؟، نتحدث عن النتائج السننية، هل هو أصلي أم تبعي؟ تبعي، ولذلك قدمه الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، قدم الثبات، وهو أعنى بالأمر ولا يقدم الشيء إلا لأنه أولى في الذكر وأعنى في الأمر وأهم في الباب.

وهنا يقول الله عز وجل: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وسنبين الصبر وأنواعه في هذا الباب، الصبر ليس نوعاً واحداً، ولا يوجد صبر في ديننا هو صبر البهائم، صبر البهائم لا وجود له إلا في أذهان المتصوفة، لا تظن كلمة المتصوفة فقط لمن يرقص ومن يأخذ الخرقة ومن يمارس الطريقة الصوفية، لا، الذهن الصوفي والعقل الصوفي ذهنٌ يغلب على المسلمين حتى على من رفع شعار السلفية، يعني يأتونه ويفعلونه، العقل الصوفي الذي يرى أن الوجود لا يحتاج إلى حالةٍ سننية، مثل الكلمة المشهورة «أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقوم لكم على أرضكم»، هذه يقولونها ولا يسعون لإقامة الدولة، لو أنهم قالوها وهم يسعون لإقامة الدولة بطريقة سننية لكان كلامهم محمولاً وجوبًا على المعنى

الصحيح، لكنهم يجعلون الدولة التي يناشدونها عطاءاً إلهيًا بحتاً لا سعي لهم فيه، فمن هنا اضطررنا أن نفسر التفسير الجبري، لأنه هذا واقعهم يشهد لهم الواقع.

فإذن القصد من هذا: بأن الله عز وجل يأمر أولاً بإتيان الطريق السنني للفعل، يأمرك سبحانه وتعالى بالصيام، فلما يقول ربنا سبحانه وتعالى في سورة «البقرة» ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]، يعني الصيام أمرٌ شرعي وهو حالةٌ قدريةٌ كونية الامتناع عن الأكل، المريض إذا امتنع عن الأكل مات، الشرع لا يريد منكم هذا، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فهل الشارع جاء ولغى هذه الحالة السننية، أن المريض إذا أمر الشارع عليه ألا يلتفت إلى أي حالة سننية وعليه أن يصوم؟ أم أنه أجرى الصيام الشرعي على وفق الحالة القدرية التي يعرفها الناس أن المريض لا يقدر على الصيام؟ وأن المريض لابد أن يأكل ويشرب حتى لا يزداد مرضه وحتى لا يموت؟ فإذن الشارع لا يلغي الحالة السننية بل يثبتها، هذا هو ديننا.

في كل حياة النبي صلى الله عليه وسلم وفي كل حياة البشر الذين يتحدثون عن الحالة الدينية الشرعية التي هي مساعدة للحالة القدرية هم معطلون للقرآن، ومعطلون لسنة النبي صلى الله عليه وسلم، ولن يحصل منهم الخير، أولاً: لابد أن تأتي بالحالة القدرية، ثم عليك أن تمدها بما لا يعلم الناس من العطاء الإلهي من الأمر الشرعي، الناس لا يعرفون أن الصلاة لها قيمة في درء المصائب، وأن لها أهمية فقال سبحانه وتعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والآن نأتي لكلمة الصبر، أولاً للأسف أريد أن أقول كلمة: ليست المشكلة في وجود كتاب ربنا بين أيدينا، لكن المشكلة في الذين يفسرون كتاب الله من المعاصرين أنهم لا يعرفون مدلولات المصطلحات القرآنية، ولذلك باب قراءة القرآن أن تعرف المصطلح القرآني من وجهه الصحيح، يعني هناك من يفسر التوكل تفسيراً باطلاً التوكل كلمة قرآنية، الإيمان كلمة قرآنية، التقوى كلمة قرآنية، إذا فسرت على غير وجهها بقي القرآن قرآنًا، ولكن الفهم منكوسٌ مقلوب، غير سوي، فإذن باب حصول الفائدة من القرآن هو أن تقرأ المصطلحات القرآنية من خلال معاني القرآن الشرعية، وإلا حصل الغلط والباطل.

أضرب لكم مثالاً: مما ذكره العلماء القدماء عن قضية أهل البدعة مثلاً المعتزلة أو الصوفية، يأتون إلى القرآن يفسرونه تفسيراً باطلاً، القرآن بين أيديهم، لكن يحملون ألفاظه على غير وجهها الصحيح، كذلك يحصل في هذا الزمن، هذا يحصل كثيراً في هذا الزمن.

فإذن لما نأتي لكلمة الصبر أول ما يخطر على بال الناس الصبر هو الركون والترك لما لا نهاية، ولا يخطر على بالهم الصبر الشرعي، وهذا سماه ابن القيم رحمه الله هذا الصبر وهو إذا وقع عليك البلاء صبرت بمعنى سكنت وتركت الدفع له يسميه «صبر البهائم»، هذه ليست تسميتي، هذه تسمية ابن القيم رحمه الله في «طريق الهجرتين»، يقول: هذا

الصبر لا وجود له وكذلك يشرحه في «مدارج السالكين» في مقام الصبر عندما يتكلم أبو إسماعيل الهروي عن مقام الصبر يأتي إلى هذه المعاني.

الصبر أيها الإخوة يفسر عند أهل العلم على وجهين:

الوجه الأول: الصبر على إتيان الفعل، وهذا المقصود هنا، العلماء يقولون عن الصبر يقول ابن القيم أظن في «بدائع الفوائد» يقول: «إن الصبر يدخل في كل أمرٍ إلهي»، ما في أمر إلهي إلا فيه الصبر، لأنه لا يقع الفعل إلا بالصبر على الفعل أن تصبر على الفعل، فقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ [البقرة: ٤٥]، هو لا يتضمن فقط الأمر بالفعل، هو يتضمن الأمر بالفعل حتى ينته الفعل إلى منتهاه وإلى تحصيل مقاصده ويأمر بأن لا تقوم بالفعل إلا على وجهه الأعلى؛ لأن وجه الأدنى لا يحتاج إلى كلمة الصبر، هو يحتاج إلى القليل من الصبر يكفي بعضه، أم أن يحتاج إلى الصبر فلابد أن تأتي بالفعل على وجهه الأكمل.

إذن الصبر أفادت أن تأتي بالفعل على وجه الأكمل، وأفادت أن تنتهي إلى الفعل إلى منتهاه، لأنك لو أتيت بالفعل وقصرت في آخره بأن لا تجني نهايته، الشهد الأخير هذا، فقد بطل عنك ولم تتحقق فيك صفة الصبر، لم تتحقق، إذن هذا الصبر على الفعل ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ﴾ [طه: ١٣٢]، ولم يقل واصبر ونحن قلنا كثيراً هذا ولكن لابد من التذكير به، أنه «كلما زاد المبنى زاد المعنى»، فقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، ما قال واصبر فزاد الجرعة، زاد جرعة الصبر بزيادة المبنى في الكلمة؛ فدل على أن إتيان الفعل هو الصبر، هذا الأمر الأول.

فقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ [البقرة: ٤٥]، ما المقصود بها؟ يعني ائتي الفعل الذي يراد منك في هذه الحياة، أي المأمور به، إما على جهة الشارع أمرك به، وإما على جهة ما أجراه الله عز وجل من الأقدار في هذه الحياة كطلب الرزق، مأمور به كالجهاد، مأمور به كالصلاة، مأمور به كالصوم، مأمور به كالزكاة، هذا مأمور به، وإما أن تقوم به على جهة ما تقتضيه الحياة، من طلب الرزق مثلاً، من طلب الدواء، فالله يأمرك بأن تصبر عليه، فهذا المعنى الأول من الصبر.

إذن ما هو المعنى الأول من الصبر؟ هو إتيان الفعل السنني، وليس على وجهه الضعيف بل على وجهه الأكمل، وليس على أن تقوم ببعضه وتترك البعض بل إلى نهايته، ولذلك في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (مَثَلي ومَثَلُ الأنْبِياءِ مِن قَبْلي كمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنى بُنْيانًا فأحسَنَه وأكمَلَه، إلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِن زاوِيَةٍ مِن زواياه، فجعَلَ النَّاسُ يَطيفون به ويَعْجَبون منه، ويَقولون: ما رأَيْنا بُنيانًا أَحسَنَ مِن هذا، إلَّا مَوضِعَ هذه اللَّبِنَةِ، فكُنتُ أنا تِلْك اللَّبِنَةَ)، فالجمال ليس فقط في الابتداء، وإن كانت البدايات تحتاج إلى مشقة، هذا أنا شرحته في «الأربعين الجياد» ويرجع إليه، ولكن الجمال يكون في الكمال وفي النهايات، ودليل ذلك (وكنت أنا اللبنة)، (مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كرجل بنى بيتا

إلا لبنة واحدة)، فكان الناس يدخلون عليه يقولون ما أجمل هذا إلا موطن هذه اللبنة يمدحونها إلا هذه اللبنة الأخيرة، (وكنت أنا اللبنة) وهو أكرمها وأفضل اللبنات وهو أعظمها شأنا وأفضلها كرامة لأنها النهاية.

ما قيمة الرجل المطلوب منه أن يمشي إلى أن يصل البيت فقبل أن يصل البيت جلس واستراح حتى ذهب عنه ما طلبه من هذا البيت، ما قيمة المئة كيلو التي مشاها؟ القيمة في النهايات، ولذلك قال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ [البقرة: ٤٥]، أي آتوا بالفعل على وجهه التام الكامل وعلى وجهه النهائي، هذا الأمر الأول بالصبر.

فإذن المطلوب أولا هو إتيان الفعل الشرعي والسنني لما أردته، انتبهوا هذا ليس الصبر الذي الناس يتحدث عنه، يعني الآن مثال لنذهب إلى واقعنا هذا لأننا لا نريد فقط نتحدث في الْمُثل، عندما يتحدث المشايخ عن صبر الطواغيت والحكام، عندما يتحدثون أي صبر يتحدثون عنه؟ صبر البهائم!! اسكتوا، لا تنشغلوا بهم، حتى لا تنشغلوا بالدعاء عليهم، ولكن اتركوه حتى يقضي الله أمره، الله عز وجل أمرك بالجهاد، الله عز وجل أمرك بأن تقول كلمة الحق، الله عز وجل أمرك بإصلاح الوجود بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أين هذا؟! وكل هذا يتركه من أجل الصبر وهو ترك الفعل! هذا الذي تحدث عنه ابن القيم هذا هو صبر البهائم، هذا أولاً.

وهذا الحديث الذي ذكرته من السنن هذا شيء آخر، يعني ما من فعلٍ في الوجود إلا ويحتاج إلى صبر خاص به، يعني نحن تحدثنا عن الصبر أن تأتي به على وجهه الأكمل، وكذلك الصبر في البحث عن منافذ الوصول إلى المطلوب، هذا صبر، صبر على الفعل، الذين صبروا من أجل صناعة السلاح مثلاً، هؤلاء صبروا فحققوا المراد، فيروز الديلمي عندما قتل عدو الله الأسود العنسي، احتاج إلى الصبر، ما هو الصبر الذي احتاجه؟ هو الإتيان بالفعل على وجهه الصحيح تجميع الناس، الحديث معهم، اختراق إلى ابنة العم، ابنت عم فيروز والحديث معها.

القصد: أن صبرك في البحث الدؤوب، هذا صبر ولو أنه أنت ربما لا ترى أملاً، لكن الصبور يجلس الرجل المكيث هذا يجلس ويأتي ويبحث حتى يبحث عن منفذ ليصل إليه ويصبر ويبني الأمر لبنةً، لبنة، حتى ينتهي منه، هذا كله من الصبر في إتيان الفعل على وجهه الصحيح، هذا معنى أول للصبر وهو لا يحتاج إلى شرح، وفي الحقيقة ما من شيءٍ في الوجود إلا وله صبره الخاص به.

ما الصبر الثاني؟ الصبر الثاني: وهو عندما يفرغ المرء عن القدرة –انتبه هنا حتى لا يلتغي المفهوم الأول– عندما يفرغ المرء عن القوة في إتيان أي فعل فيصبر على البلاء من أجل أن يثبت نصر الإيمان، الآن ما هو الصبر الذي أتى به أهل الأخدود؟ الصبر الذي أتى أهل الأخدود هو أنهم تحملوا الألم ولم يكن عندهم القدرة على الدفع، أطفال ونساء ومستضعفون وليس عندهم شيء، فصبروا من أجل أن ينتصر الإيمان، فتحققت النتيجة –وهذه النتيجة ليست إلقاء للأولى– النتيجة ما هي؟

انتصر الإيمان عليهم، وماتوا مؤمنين وهذا من أعظم النصر، فإذن هذا هو الصبر، هذا صبرٌ آخر عندما تفرغ اليد من القدرة ويفرغ الإنسان من قدرته، ومن أي وسيلة من أجل الخروج مما هو فيه، فحينئذٍ عليه أن يصبر على ذلك على أمر الله ويصبر على الحق الذي عنده وعليه أن يتحمل نتائجه وتبعاته ويقع منه بعد ذلك العطاء الإلهي إما أن يموت مؤمناً شهيداً وإما أن يأتي الله بالفرج، ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ [المائدة: ٥٢]، ﴿فَعَسَى﴾ هذه موجبة، إذن انتهينا هنا.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة: ٤٥]، ما زلنا مع هذه الآية إن شاء الله في الدرس القادم نكمل، بارك الله فيكم.

الاسئلة

السائل: مسألة العشق، الذي يأتي العشق من باب محرم، لكن الذي يأتي العشق من بابٍ محلل كبريرة وزوجها فهل هذا لا يحمله شيئاً من الوزر؟

الشيخ: الذي عندي أنه لم يصل العشق والوله في مغيث لبريرة لما تحدثنا عنه، أن يسقط تكليفه، أن يتوه ولا يدري ماذا يفعل ويمشي في الصحراء، ولكن بلا شك أن المغيث كان يحبها لأنها تزوجها وعاش معها وعشقها إذا جاز، والعشق صحيح يجوز هنا، لكن ليس لدرجة الوله الذي به يصبح المرء مجنوناً كما يسمى مجنون ليلى، لكن هذا العشق الذي وقع من مغيث رضي الله تعالى عنه لبريرة إنما هو عشقٌ شرعي وغلب عليه وبلا شك عذره النبي صلى الله عليه وسلم، كما يقع المرض، المرض قد يقع على المرء بفعله، كمن يأخذ المخدرات، كمن يؤذي نفسه فيقع فيه المرض، كمن يُردي نفسه من علٍ فيقع فيه المرض من فعل نفسه؛ فيأثم لما أتى من فعل ويأثم لما أتى من نتيجة، وقد يقع المرض في جائحة إلهية ليس له فيها شيء، كأن يذهب فيجد أنه أصيب بأمراض ... إلخ.

السائل: قضية تفصيل فعل المأمورات وترك المحظورات يستغلها البعض ويستغلون كلام جمهور العلماء بأن تكفير من ترك الأفعال، ولكن فعل المحظورات تكفيري كالاستهزاء بالدين أو الاعتداء على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المصحف فهي كثيرة في النقل عن الملة، والمأمورات إذا تركت يعني إلا الصلاة بعض العلماء قال بها، يعني بعضهم والباقون على أنها ليست كفر، فهم يستغلون هذا؟

الشيخ: بلا شك أن المكفرات في المعاصي أكثر من المكفرات في الترك، المكفرات في الفعل أكثر هذا واقع، لماذا؟ لأن دلالات الكفر في الفعل أكثر، يعني الآن كلمة استهزاء كلمة تحقير كلمة أعراض فتفسيرها مما لا يستوعبه البشر لا يمكن أن يخطه أحد بكتاب، لا يمكن، في كل وقت وفي كل صورة من الاستهزاء، ممكن يقول لك: إلقاء مصحف القاذورات، يمكن يقول لك: الدوس على ... فالتعبير عن هذا الاحتقار طويل جداً، وهذه الدلالات المتعددة تعود إلى أصول واحدة، فلما يذكرونها في المكفرات يذكرونها كصور، فأنت إذا نظرت، نظرت إلى أن هذه المنهيات كثيرةٌ جداً وهي معبرة عن حالة واحدة، كأن تقول: الاستهزاء بالشريعة، استهزاء بالدين، إذا فتحت كتاب للمكفرات تجد الكثير من الصور، الكثير من الكلمات إذا قال فلان، إذا قال فلان، إذا قال فلان، وكلها تدخل ربما في نمطٍ واحد وفي مجموعةٍ واحدة وهو الاستهزاء بالشريعة.

إنما ترك المأمورات بلا شك أن المأمورات عند الله أحب، (وما تقرب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضته عليه)، فالمأمورات أحب إلى الله عز وجل، ولكن المأمورات في الشريعة مقسمة، هناك ما هي أركان، هناك ما هي

واجبات، هناك ما هي مستحبات، فلماذا لا ندخل قول: «لا إله إلا الله» في المأمورات؟ يعني الناس يتكلمون دائماً عن المأمورات فقط التكليفية للبدن، لماذا لا يدخلون المأمورات في قضايا، مثل قول: «لا إله إلا الله»؟ طيب التصديق القلبي، لو خلا القلب كلياً من تعظيم الله، لو أردنا الآن أن نقول: ومن المأمورات تعظيم الله، خلا القلب من تعظيم الله هذا كفر، إذا خلا القلب من تعظيم الله كفر.

فانظر لو أردنا أن نفصل كما يفصل في الحالة الأولى، لوجدنا صوراً كثيرة، لو خلا المرء من الطاعة بالكلية التي هي ترك الأعمال جملةً، جنس العمل، وكذلك في عمل القلب لماذا يتركونه؟ لو خلا القلب من الخوف من الله؟ لو خلا القلب من الحب لله؟ نبدأ نفصل، ونذكر صوراً، صور خلو القلب فنكثر من الصور، كما أننا نكثر الصور في المنهيات نكثر؛ فنجد أن الأمور كثيرة.

القصد من هذا: بأن الصورة خادعة بسبب أن الناس ينبهون عما هو ظاهر من المنهيات فيكثر فيها الأمر، ولكن لو أتينا إلى التفصيل في المأمورات لوجدنا كذلك تفصيلات كثيرة جداً، لكنها من قبيل القلب أغلبها ومن قبيل اللسان إلى غير ذلك، مع ذلك بلا شك أن الصحابة رضي الله عنهم لم يجمعوا على شيء تركه كفر إلا الصلاة، والمقصود به الأعمال الظاهرة، ولم يتحدثوا عن الباطن، لأن الباطن أمره إلى الله عز وجل، لما قال الله عز وجل: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، هو حديثٌ عن الفعل الظاهر أم حديثٌ عن فعل القلب؟ عن فعل القلب.

السائل: تبقى مسألة سبحان الله! قضية النسيان، الشبه بين الذي ينسى حقيقةً، مثل ينسى صلاة الظهر، أي ينسى فعل أمر واجب حقيقةً، ما هو وجه الشبه بينه وبين من يقول عنهم الله عز وجل: أنهم نسوا، وهم لا ينسون، أنهم هم لا يجدون في أنفسهم حرجًا من هذا الفعل فيتعاملون وكأنه نسي نسيان حقيقي، فتجد الرجل إذا ما صلى مثلاً وهو يصلي لكنه إذا ما صلى ناسيًا؟

الشيخ: الفرق بينهما شيخنا يسير وهو أن الحالة هي واحدة، الحالة واحدة.

السائل: وهنا شيخنا مسألة تبع أريد أن أتكلم عن أولئك الذين يخرجون على المنابر، فيتكلم في قضايا أجمع الناس عليها ويكون يتكلم كأنه هو صاحب الحق، هل هذا يدخل في الذين نسوا أمر الله عز وجل أنه إذا تكلم عن من لم يحكم بما انزل الله، يقول: كفرٌ دون كفر، ثم يتعامل مع هذا الذي كفرٌ دون كفر كأنه ولي أمرس تجب طاعته ويجب الإحسان إليه ولا يجب الطعن فيه، فيجعل من هذا الذي هو على الأقل على قوله الذي هو أراد أن يحرف دين الله عليه أنه كفر دون كفر، يجعلهم من الاولياء يجعله صالحًا، ثم إذا خطب على المنبر يقرع الناس استمرأ هذا الأمر في نفسه حتى ما عدت، سبحان الله! المنافق عليم اللسان.

الشيخ: النسيان هي كلمة مذمومة في المرء؛ لأنها ضعف، فاستخدام القرآن لها في عملية الترك، هي بيان لتكريس لهذا المعنى، والفرق بين النسيان الشرعي الذي يعني يعذر به المرء أنه إذا ذُكر تذكر، يعني رجل نسي الصلاة فإذا ذُكر صلى، الآخر بالفعل تجد تارك الصلاة كأنه ناسيها، يعني لو قيل له: الصلاة، يقول: أي صلاة، الصلاة طيب، وبعد ذلك يبقى على كفره، ولكن هو ناسي الصلاة، كذلك المذكي هو كالذي ينسى، هو نسي الزكاة، فإذا ذُكر لا يتذكر، بخلاف المؤمن ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ٢٠١].

ولكن استخدام كلمة النسيان هي تكريس لقضية فرق بين أن يكون الفعل قدراً للإنسان، كيف قدر للإنسان؟ يعني المرء لابد أن يمرض، والمرء لابد أن ينسى، وأن يصبح هذا حالة عامة له، مذموم لها لأنه أتى هذا الفعل الضعيف فكرسه في نفسه وتلبس به على وجهٍ مذموم، وهذا الذي عندي في هذا الباب والله تعالى أعلم.

السائل: بالنسبة لإتيان المأمورات وترك المنهيات هل فيها نسبة وتناسب بالمسألة، يعني أنت فقلت: إتيان المأمورات هي أصعب وأشق على النفس من ترك المنهيات، وأنا فهمت منك أن على الإنسان أولاً أن يأتي بالمأمورات، ولكن نرى الكثير من الناس الظاهر منهم يأتون بالصلاة والزكاة، ولكن صعب أن يتركوا المعاصي كالربا ومعاصي أخرى، وكالفجور مع النساء وكذا، مع أنه تجده في الصفوف الأولى في الصلاة، فهل فالمسألة نسبة وتناسب؟

الشيخ: لا، لا أعتقد أنه يفعلها لأنها أقل كلفة، وهي أقل كلفة الترك أقل كلفة، يعني رجل لا يأكل ربا أقل كلفة، نحن نتكلم على الحالة الطبيعية ليس الاضطرار وكذا، أقل كلفة، والزنا أقل كلفة، أن يبتعد المرء عن أسبابه أقل كلفة، لأن الشارع لما أمر بشيء أمر بالابتعاد عن أسبابه، فهذا فرق بين أن تقول له: أذهب فجاهد، أذهب فزكي، ما أصعب في قضية مالية واحدة؟ عندنا الربا له تعلق بالمال، والزكاة له تعلق بالمال، ما هو الأشق على النفس أداء الزكاة أم ترك الربا؟ الزكاة إخراج مُلك أنت تعبت فيه، ويعني جاهدت حتى تحصل لديك فأخرجته، لكن الربا مازال أمل، من أجل هذا لما ذكر سبحانه وتعالى قال: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾ [البقرة: ٣٨]، الذي تم وانتهى أُخر لحزن، لكن الذي آتي هو الأصعب، فما هو الأشق أن تخرج مال بين يديك وتخرجه؟ أم أنك تقطع أملك من مالٍ قادم؟ فرق بينهم.

ومن هنا وأنا أنبه عليها وهذه في الأصول تشرح، هل الترك عند أهل السنة فعل؟ نعم يحتاج إلى إرادة، الترك عند أهل السنة فعل والأدلة ستأتي في القرآن، هذا بيّن إن شاء الله، الترك فعل، والترك من جهة المأمورات من جهة ما أمر بتركه، ولكن الأمر بالترك هو عدم إنشاء الإرادة بخلاف الأمر بالفعل فأنه متوجه إلى إنشاء الإرادة وهو أشق، فلا

يحتاج فقط إلى إرادة، يحتاج إلى سلامة الآلة، الفعل يحتاج إلى سلامة الآلة، يعني عندما نقول له: صلي، فهو يحتاج إلى بدن، عندما نقول له: زكي، يحتاج إلى مال لابد من وجود الآلة، ولكن الترك لا يحتاج إلى آلة.

السائل: لماذا حين تقدم معنى أمر الصبر على الصلاة جاء بلفظ الصبر ولما قدمت الصلاة على معنى الصبر جاء بلفظ الاصطبار وهل في هذا فائدة؟

الشيخ: نعم هو ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ [طه: ١٣٢] هو الأمر بالصلاة الأمر أولاً بالصلاة، الأمر متوجه إلى الصلاة هنا المتوجه إلى ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾، فلأمر متوجه إلى الصلاة، أما قوله: ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، ثم ذكرنا لأن الأمر يحتاج ليس إلى صبر، يحتاج إلى اصطبار لأنه أداة للفعل، السؤال هنا: ما هو الأشق على النفس، الصبر على أمرٍ تقدر على تركه؟ أم الصبر الذي لا تقدر على تركه؟

اضرب لكم مثالاً: ما هو الأشق على النفس؟ لو أن لك جار يؤذيك، فأنت تصبر على إيذائه معه قدرتك على رد أذاه، أم الصبر أنك لا تقدر على رد أذاه وصبرت، ما هو الصبر المطلوب أكثر في الأولى من الثانية؟ نعم الصبر في الأولى الذي تقدر على رد أذاه، غير الذي لا تقدر رد أذاه، ولذلك قال العلماء في سورة «الشورى» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى: ٤٣]، ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ﴾، جاء باللام المؤكدة، قالوا: لأن الموطن حديثٌ عمن يقدر أن يدفع، يقدر أن يدفع ويرد على الظالم ظلمه ويبطش به ويفعل ولذلك يسبق، قالوا: هذا جاء ذكر اللام لأن هذا الواقع وهذه الحالة تحتاج إلى صبرٍ أشد.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

الدرس السادس والأربعون

إن الحمد لله نحمد تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وصفيه وخليله بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، وتركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على المحجة البيضاء والطريق الواضح ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ولا يتنكبها إلا ضال.

أما بعد ...

فأهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة في الدرس السادس والأربعون من دروس التفسير ومازلنا مع سورة «البقرة» في خطاب ربنا عز وجل لبني إسرائيل، وقد تكلمنا عن بعض الآيات المتعلقة في هذا الباب من سورة «البقرة» في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾ [البقرة: ٤٠-٤٦].

تكلمنا فيما مضى عن خطاب الله عز وجل لهؤلاء القوم، وافتتح الله عز وجل الخطاب بذكر النعمة كما ترون، نعيد بعض ما تقدم:

افتتح الله عز وجل الخطاب بذكر النعمة والنعم التي أعطها الله عز وجل لبني إسرائيل كثيرة وختم إنكار النعمة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾ [البقرة: ٤٠].

أولاً الفرق بين النِعمة والنَعمة: أن النِعمة بالكسر هي التي يحصل بها الإنعام من امرءٍ لآخر، أو من واحدٍ لآخر، فهي النِعمة، فرجلٌ أنعم فهي نِعمة كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢)﴾ [الشعراء: ٢٢].

وأما ما يتنعم به المرء فهي النَعمة بالفتح كقوله تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧)﴾ [الدخان: ٢٧].

فافتتح الله عز وجل خطابه لبني إسرائيل بذكر النِعم، وهذه الطريقة أيها الإخوة الأحبة سبيلٌ قرآني في وعظ الناس وفي سوقهم إلى الحق، أن تكون قد قدمت إليهم أولاً نِعمة أن تكون أحسنت إليهم، أهديت إليهم، تصدقت

عليهم، أكرمتهم، فإن هذا الإحسان يذل النفوس ويوطئ هذه النفوس على قبول ما تعظهم به بعد ذلك، وهذا دائمًا نضرب بقصة يوسف عليه السلام الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، أنه عليه السلام قدم ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)﴾ [يوسف: ٣٦].

والنبي صلى الله عليه وسلم في دعوته لقريش كان يجمعهم في بداية الأمر على الطعام ثم يعظهم ويبين لهم الرسالة، ولذلك هذه طريقةٌ قرآنية، علينا أن نتبعها، لا نقدم إلى الناس الشر أي من سوء العمل وسوء القول، ثم بعد ذلك نطلب منهم أن ينساقوا وراء ما نقول، هذا صعب وليس هو من سنن الحياة؛ لأن النفوس مجبولةٌ على حب من أحسن إليها، والله عز وجل يقول: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠)﴾ [الرحمن: ٦٠]، فإذن الله عز وجل ذكرهم بنعمه، فإذا هو أنعم عليهم.

ثانيًا: لا بأس من أن يذكر الفاضل المفضول بهذه النعم على هذا المعنى، الفاضل على المفضول، وأما من كان مساويًا فإن التذكير بالنعم قد يسيء له، لكن لما يذكر الأب مثلاً ابنه بالنعم هذا لا يسيء له، لما يذكر الأخ الأكبر الأصغر النعم التي فعلها معه لا تسيء له، لما يذكر الأمير الرعية ما قدم لهم هذا لا يسيء لهم، ولكن إذا كان الأدنى هو الذي أنعم لسببٍ ما أو كان المساوي الكفء، فمن هذا يكون من السوء التذكير بالنعم لأنه يأخذه على معنى المن ومما يعوق قبول ما تريد. فلذلك أنت عليك أن تستره.

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَم قَد كَفَانِي ... حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الحَيَاءُ

لا تذكر فهو إذا كان كريمًا سيذكر هذا دون أن تذكره له.

والقصد: أن هذا الموضوع في تذكير النعمة ليس مضطردًا، على حالٍ واحد، بمعنى أن المرء دائمًا إذا أراد شيئًا قدم النعمة وقدم ما ذكر، هذا ليس من الأمر المضطرد، ولكن على الجملة أنك إذا قدمت النعمة دون أن تذكرها فهذا خير، وإذا كانت المسألة تحتاج إلى تذكير فهذا خير، وإذا رأيت أن التذكير يسيء ويعوق ما تريد من الخير فأعرض عنه، ولكن المقرر بأن تذكير الفاضل على المفضول ليس مما يضر، لأنه لا يضر، الناس عندما يعلمون أن هذا الفاضل قدم خيرًا للمفضول، فالمفضول لا تتأذى نفسه، لأن هذا شيءٌ جرت به العادة، أن الأب ينعم على ابنه، والأمير ينعم على رعيته، والأم تنعم على أبنائها، فهذا شيءٌ مقرر، لكن العكس ليس من المقرر وليس من العادي، وبالتالي يكون التذكير به كأنه على معنى المن فينبغي الإعراض عنه.

فإذن الله عز وجل أولاً قدم ذكر النعمة: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال: ﴿نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، لأنه الله، وإنكار النعمة نهايته ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾ [البقرة: ٤٠]، فإنكار النعمة

يحتاج إلى الزجر في قوله: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾ [البقرة: ٤٠]، لكن لما ذكر لهم الأمر قال: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ لأن إنكار النعمة يحتاج إلى تخويف والتذكير يؤدي إلى الاعتراف، أنتم تنكرون فيهددهم من النكران.

ولكن لما ذكر بعد ذلك الأوامر فقال: ﴿وَآمِنُوا﴾ [البقرة: ٤١]، قال: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)﴾ [البقرة: ٤١]، لأن الاتباع هو التقوى، والإعراض عن الاتباع هو عدم التقوى، فتلاءمت الرهبة في انكار النعمة؛ لأنه يخوفهم، وأما التقوى فتلاءمت مع امتثال الأمر، والتقوى هي امتثال الأمر واجتناب النهي، ولذلك قال لهم: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)﴾ [البقرة: ٤١].

ثم بعد أن ذكر لهم النعمة ومهد لما يطلبه منهم بهذا الأمر، وهذا هذه سنةٌ مقررة مع بني إسرائيل، موسى عليه السلام لما أراد منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة، ماذا قال لهم؟ ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ﴾ [المائدة: ٢٠] وسنرى أنه لما يأتي من كلام موسى عليه السلام ﴿يَا قَوْمِ﴾ يكون في الطلب مشقة، فنرى أنه إذا قال: ﴿يَا قَوْمِ﴾، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)﴾ [البقرة: ٥٤]، الأمر فيه مشقة ﴿اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾، فقال: ﴿يَا قَوْمِ﴾ تقربًا وتحببا.

لكن لما جاء إلى قضة ذبح البقرة ليست بهذه المشقة، ذبح بقرة، فلم يقول: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، ولما جاء إلى قضية دخول الأرض المقدسة فيها جهاد وتحتاج إلى شجاعة وإلى مواجهة لهؤلاء العماليق، فقال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٢٠]، ومهد لهذا الطلب بذكر ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠)﴾ [المائدة: ٢٠]، وهذه تفسر قوله ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾ [البقرة: ٤٧]، كما سيأتي.

إذن بعد أن مهد بذكر النعم أتى إلى ذكر الأمر ويلائم الامر قوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)﴾ [البقرة: ٤١]، ثم بعد قوله: ﴿وَآمِنُوا﴾ [البقرة: ٤١]، ماذا تضاد؟ تضاد الكفر، يعني كأنه يقول: لا تكفروا، أي لا تتبعوا باطل، فقوله تعالى: ﴿وَآمِنُوا﴾، أمرٌ باعتزال الباطل، وهنا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢]، أمرٌ بعدم الإضلال والإغواء، الأولى ﴿وَآمِنُوا﴾، أمرٌ بعدم الضلال، ألا تَضل، لا تكفر، أما هنا ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، لا تُضِل، ولذلك ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ﴾ [الأنعام: ٢٦]. ينهون غيرهم وينأون بأنفسهم عن الحق، ينهون غيرهم عن اتباعه وينأون بأنفسهم عن اتباعه، فقوله تعالى: ﴿وَآمِنُوا﴾ نهيٌ عن النأي وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، نهيٌ عن النهي عن الحق.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢]، هذا الإضلال له وجهان:

إما أن تأتي إلى أدلة هذا الحق فتبطلها، وإما أن تكتم الحق ذاته، ما هو الإضلال؟ كيف تضل الآخر؟ رجلٌ يُصدق تصديقًا ما، وهذا التصديق يقوم على أدلة وبراهين لديه، فانت تأتي إلى هذه الأدلة والبراهين فتبطلها، هذا هو الإلباس، أن تشرك الحق مع الباطل، ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ «الباء» هنا إما أن تشرك الحق بجعل الباطل معه، وإما «الباء» هنا للاستعانة وهذا قواه كثيرٌ من المفسرين، قال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ﴾، أي باستخدامكم الباطل في حججكم، إما ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، إي لا تجمعوا الحق مع الباطل فإن جمع الحق مع الباطل يُذهب التميز والخصائص والخصيصة له، وإما أن يقول: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، أي لا تستخدموا الباطل في إلباس الحق على الناس.

فإذن لما جاء لقضية الإضلال ذكر أمرين: إما أن تلبس الحق بالباطل أن تصرف الناس وإما أن تدمجه وإما أن تزوره ولذلك ضروري الفرقان، القرآن ما هو؟ قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، فالفرقان هو الذي يفصل، فمن مهمات الأنبياء ومهمات الكتب السماوية ومن حكمة الله عز وجل في الوجود أن يفصل بين الحق والباطل لئلا يلتبس.

ومن هنا قال صلى الله عليه وسلم: (لا تَرَاءَى نَارَاهُما)، أي الكافر والمؤمن، لا يجوز للمسلم أن يجاور الكافر حتى تختلط نار هذا مع نار هذا فيلتبس أمر الاشتراك على المجاهدين، وهنا كذلك لا تجمع الحق مع الباطل في وادٍ واحد، لا في معانيه ولا في وجوده القدري، لأن هذا يؤدي إلى الباطل يزور الحق، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ هذا أولاً، ثم ثانيًا قال تعالى: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢]، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢]، أي ولا تكتموا الحق.

فهؤلاء إما أن يبطلوا الأدلة، وإما أن يجمعوها مع الباطل، وإما أن يمنعوا الحق بأن يبين ويظهر، وكيف حدث هذا من بني إسرائيل؟ فيما كتموا الحق؟ أولاً كيف لبسوا الحق بالباطل؟ الله ذكر عنهم بعد ذلك، قال تعالى: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩]. فالتبس على الناس ما يكتبونه من كلام الله، وأما كتمان الحق فمن كتمانهم أن هذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فكتموا، وكذلك كتمهم لشرائع الإسلام التي جاء بها موسى عليه السلام ومنها الرجم، لما وضعوا أيديهم على آية الرجم في الكتاب فكتموها، فالله عز وجل نهاهم عن ذلك.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢]، إذن الحق يقابله إما التلبيس اجتماعه مع الباطل حيث يلتبس وإما غيابه، وكلاهما من الباطل، فإما أن يلتبس الحق بالباطل فهذا يؤدي إلى الباطل وإما أن يكتم الحق فلا يبقى على الواقع في نظر الناس إلى الباطل.

تكلمنا هذا وقلنا: أمرهم الله عز وجل بعد أن ذكر لهم النِعم، ذكر لهم الشرائع، وقبل الشرائع ذكر هذه العقائد كما بيّنا، ثم ذكر لهم الشرائع وقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [البقرة: ٤٣]، وقلنا: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، ليست من باب ذكر الخاص بعد العام فقط، لمن يقول به في هذه الآية، وإنما هي زائدة لمعنى آخر وهو الدخول مع الصحابة رضي الله عنهم، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، ادخلوا مع الصحابة، من هم الذين يركعون؟ هؤلاء.

وقوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، مما يدل على أنهم لا يركعون، إما أنه ليس في صلاتهم الركوع، وإما أنه كان في صلاتهم الركوع فغيروا وبدلوا، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، فدل على أن هذا الأمر مخصوصٌ لصنفٍ من الناس مميز، ولم يكن هناك إلا الصحابة رضي الله عنهم،

قوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [البقرة: ٤٣]، والصواب أن آية ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [آل عمران: ٤٣]، فهم يعرفون الركوع ولكنهم بدلوا وغيروا.

فبعد أن ذكرهم بالنعمة وهي الممهدة لما أمر ورتب الأوامر لما قال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢]، كما يقول سيبويه: «العرب تقدم ما هو أعنى» ما هو أولى، فإلباس الحق بالباطل أكثر جرمًا من كتمان الحق، لو كتم الحق فإنه إذا ظهر اتبعه الناس، لكن إذا التبس الحق مع الباطل تبقى الشبهة قائمة؛ فهي أشد وأعظم فقدمت في هذه الآية.

ثم ذكر سبحانه وتعالى أمر الصلاة وأمر سبحانه وتعالى بالزكاة، فدل هذا على أن من دينهم الصلاة والزكاة، وهما أعظم شرائع الأديان النبوية إي الإسلام.

وبعد ذلك أتى سبحانه وتعالى إلى زاجرٍ عظيم في أنفسهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾ [البقرة: ٤٤]، نحن قلنا: وهذه لا أدري هذه مررنا عليها أم لا– قلنا: كلمة الناس ينبغي دائمًا الاعتناء بها على وجهٍ معين، وقلنا: إما أن تأتي على معنى التعظيم مثلما تقدم في قوله تعالى: ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣]، فكأن غيرهم ليسوا من الناس، وهذا مقرر، وكذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]، تمييزًا لهم عمن تميز عنهم، تمييزًا لهم أي الناس عمن تميز عن الناس، لأن قريش كانت تقول: «نحن الحُمس» تميزوا عن باقي الناس بأن

تميزوا بخصلتهم وهو عدم الخروج من الحرم إلى عرفات، فالله قال: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾، أي ممن تميزتم عنهم ارجعوا إليهم.

هنا الان يقول الله عز وجل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾ [البقرة: ٤٤]، المقصود به من تميزتم عنهم؛ لأنهم تميزوا عن بقية البشر وخاصةً العرب المشركين، فهؤلاء تميزوا عنهم، فقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾، أي غيركم ممن تميزتم عنهم، والمقصود بذلك عند نزول الخطاب هم العرب، وهم يرون العرب وغير العرب، «الغوييم» الأميين ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فهم تميزوا عنهم، فالله عز وجل أعادهم لهذا، فقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقلنا: ان كلمة البِر هي لفظٌ جامع لكل معاني الخير ولكل أنواعه، كلمة البِر هي كلمة جامعة لكل معاني الخير، وأما البَر فهو اسم من أسماء الله عز وجل، البَر هو الذي يعطي البِر جل في علاه، فالله عز وجل ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)﴾ [الطور: ٢٨]، والبِر هو من عطاء البَرّ جل في علاه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾، هذا السؤال تقدم أنه سؤال استنكاري، مع أنه تقريري كذلك، كيف تقريري واستنكاري؟

تقريري: أي يقرر هذا الذي بعده أنه يقع، قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ [البقرة: ٤٤]، أي يقرر أنكم تأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم، يقرر هذه الحقيقة.

وأما استنكاري: فهو ينكر عليهم هذا الفعل، والحق أن الاستنكاري لا يكون إلا بالإقرار، أي يكون بالسؤال الإقرار، يعني كيف تستنكر على امرءٍ لم يقع منه؟ وربما تستنكر عليه ما لم يقع احتمالاً لوقوعه منه على معنى الوقوع، احتمال قوي أن يقع منه على معنى الوقوع، فلذلك قال ﴿أَتَأْمُرُونَ﴾، فدل على وقوع هذا منهم والله عز وجل ينكر عليهم ذلك.

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ [البقرة: ٤٤]، كلمة الأمر أيها الإخوة الأحبة عادةً نطلقها في الخطاب الأصولي على أنها صادرة من الأعلى إلى الأدنى، لا يكون الأمر في الشريعة إلا من الأعلى إلى الأدنى وهو الله عز وجل والمبلغ هو رسوله صلى الله عليه وسلم، فهنا الامر فيه نوع استعلاء، لوجود نوع الاستعلاء أو الوجود الاستعلاء في نوع الأمر الشرعي؛ كان الأمر محمولاً عل الوجوب.

لماذا يجب حمل الامر على الوجوب؟ لأسباب كثيرة منها:

دلالة الأمر في ذاته أنه لا يدل إلا على الطلب وحتمية الطلب، الطلب اللازم، وإلا لا يكون حاملاً لمعنى الأمر، ومن دلالةٍ حتمية أنه يصدر من الأعلى إلى الأدنى، من الله عز وجل إلى عبيده وخلقه، ومن هنا يأتي الأمر بهذا، لكن إذا كان الأمر على غير هذه الصيغة، كيف؟ إذا كان من الأدنى إلى الأعلى فيحمل معنى الرجاء والدعاء والطلب،

أي السؤال، فلما الابن يطلب من أبيه شيء على أي معنى يطلبه منه؟ على معنى الرجاء، الاستغاثة، الدعاء، وقد يكون من المساوي على معنى الرجاء، أو على معنى الاستحباب أن يفعله، لكن لا يكون على معنى الوجوب.

فهنا لما قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ [البقرة: ٤٤]، فيها دلالة، الدلالة الأولى: في حقيقتها أنهم يأمرونهم فيها أمر فمما يدل على أن هؤلاء القوم يشعر بهذا المعنى أنهم في الأعلى دون من في الأدنى، فهم يوجهون إليهم الطلب على معنى الأمر، لماذا؟ لأي سبب؟ لاستعلاء نفوسهم على غيرهم، لاستعلاء نفوس بني إسرائيل على غيرهم وهذا شيء مقرر عندهم، يرون أنهم شعب الله المختار.

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، هنا النسيان تكلمنا كثيرًا في الطريقة العربية مع الألفاظ المشتركة في بعض معانيها، وهنا لما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾، ما هو أول النسيان؟ هو سقوطه من الذهن، فإذا سقط من الذهن سقط من العمل، واحد نسي الصلاة هي ذهبت من ذهنه فلم يقم بها عملاً، فكلمة النسيان جامعة لأمرين يا مشايخ.:

الأمر الأول: سقوطها من الذاكرة من الذهن، **والأمر الثاني:** سقوطها عن العمل.

إذن جزءٌ منها سقوط عن العمل فلما يكون الشيء حاملاً لبعض معانيه يجوز إطلاقه وإن لم يدل على كل أطلاقه، يعني الأصل كلمة نسيان يقول لك: نسي، لماذا لم تفعل؟ يقول: نسيت، أي لم أفعله وذهب من ذهني فهذا الأصل، لكن هل يجوز إطلاق كلمة النسيان على أحد المعنيين؟ الجواب: نعم يجوز.

فهنا النسيان هل نسوه بمعنى سقط من أذهانهم؟ الجواب: لا، لم يسقط من أذهانهم، هو حاضرٌ في أذهانهم ولكنه سقط من فعلهم فسمي هذا نسيانًا، ومن هنا قال الله عز وجل: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، وهذا المعنى، هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني نحن قلنا: وهذه قضية جديدة، يعني قليل من ذكرها، أنا لا أعلم من ذكرها ولكني بالتتبع والبحث وجدتها في كتاب الله وذكرت هذا خاصةً عند تفسير سورة «الاسراء»، ولماذا استخدم لفظ النسيان دون غيره؟ كما سيأتي لماذا استخدم لفظ الظن؟ كما قال ربنا عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾ [البقرة: ٤٦]، لماذا لم يقل: الذين يوقنون بلقاء ربهم؟ لماذا جاء بكلمة الظن؟ وهنا لماذا قال وتنسون أنفسكم؟

لأن المعنى الأول حاضرٌ كذلك، نحن قلنا: النسيان سقوطه من الذهن، والشيء الثاني سقوطه من الفعل، المعنى الأول حاضر، أين حضوره عندما قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، المرء يترك حتى ينسى.

وقد يقول قائل: كيف يأمرون وينسون ما هم يأمرون الناس بالبر؟ لا يكون في أذهانهم حضور أن هذا الأمر موجهٌ إليهم بل هو موجه إلى الناس، وهذا نراه في الخطباء والمدرسين، نراه فيمن تشبه ببني إسرائيل من هذه الأمة، أنه

يمكن أن يتحدث عن الذكر للناس، فالناس ينتفعون بما يقول، ويذكرون الله وهو يشعر أن الكلام لهم وليس له، كأنه لا يسمع، هو يتكلم ولا يسمع، ويذكر الناس ولا يتذكر، فلذلك قال: ﴿نَسُوا﴾، هذا معنى هذا واحد.

الشيء الثاني: أن النسيان حالة إشباع ما معناه؟ أي أن النسيان هو إسقاطٌ للفعل بالكلية، فلما أمروا الناس بالبر، قال تعالى: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، أي معناه لم يأتوا بأي شيءٍ من أعمال البر، لا على وجه الآحاد في أنواع البر ولا على وجه الجزء من نوع البر؛ فنسوا لم يحدث شيء، فلذلك قال تعالى: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾، يعني ماذا؟ أي لا يقع منهم الخير البتا، ولا يقع نوع الخير على المعنى الجزئي أي الذي يدخل في الصلاة ويأتي بجزئية، هو ناسٍ لها ولكن ليس لها كلها وإنما لبعضها، لكن هؤلاء نسوها بالكلية ونسوا أفرادها كذلك، فلذلك قال الله عز وجل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٤]، ماذا أعطتك كلمة ﴿وَتَنْسَوْنَ﴾؟ الإشباع الكامل، ﴿وَتَنْسَوْنَ﴾، كأنهم لا يذكرونها البتا أنها موجها إليهم، ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾.

قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٤٤]، هذه فسرت ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾، فيما بعدها يقول القرآن عنهم: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، وإحدى معاني ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾، كما سيأتي وهو أجلى معانيها أنهم لا يقرؤن القرآن إلا بألسنتهم، لا يجاوز حناجرهم، ﴿أَمَانِيَّ﴾، الأماني هي القراءة وسيأتي دليلها من مدح الشاعر لعثمان رضي الله عنه.

وانتبه إلى هذه التركيبة الغريبة وانتبه إلى هذه الثلاثية الغريبة في هذه الآية، قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾ [البقرة: ٤٤]، وكأنها متعارضة هذه، وهي ليست كذلك، إنما هذه الثلاثية الغريبة التي تدل على تناقض هؤلاء القوم وعلى إقامة الحجة عليهم، التناقض الغريب الذي يعيشونه، وكذلك في إقامة الحجة عليهم، هم يُعلمون الناس فهذه حجة، ويقرؤونها في الكتاب فهذه حجة، لكن ما هي الحجة الأقوى أنهم يقرؤونها في الكتاب أم يعلمونها للناس؟ يعلمونها لناس التعليم للناس أقوى حجة، ولذلك قدمت.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾، وهنا نبهنا إلى كلمة تأمرون، ما قال: أتعظون الناس بالبر، ما قال: أتذكرون الناس، بل قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ﴾، وتقدم هذا، فقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾، هذا فيه استعلاء لمن تميزوا عنهم من الناس ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾، انخلع مع طول الأمد ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]، الزمن عامل الزمن أيها الإخوة عاملٌ محايد.

فقوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ [الحديد: ١٦]، ليس لطول الزمن فقط حصل لهم قسوة القلب، ليس لهذا، وإنما للنسيان والمعصية واستمراء المرء عليها فطال فعلهم خلال الزمن فقست قلوبهم، وإلا الزمن لمن يعمل الصالحات ماذا؟ يجليه ويرفع أمره، الزمن يجلي حال المرء مع الإيمان والطاعة إذا قام بها، فكل يوم يزداد رقي، (اقرأ وارتق)، في كل يوم يزداد، ولذلك الزمن عاملٌ محايد في هذا الجانب، وليس على إطلاقه، هذه شرحتها في صِبغة الله الصمد،

ولكن نتكلم هنا الزمن في هذا الباب عاملٌ محايد، لكنه عاملٌ مهمٌ جدًا ونسيان عامل الزمن يوقع المرء في فسادٍ عظيم، وخاصةً في فهمه لجانب الأمر والنهي والوعد وكذلك الوعي، لكن ما يهمنا هنا الوعد، كيف في جانب الأمر والنهي والوعد؟

يعني لما أنت تقرأ عن نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)﴾ [القمر: ١٢]، هل جريان الأمر القدري بزمن هذه الكلمات؟ يعني ذكر قصة نوح عليه السلام في هذه السورة، هل جرى الأمر الزمني منذ أن نزل نوح عليه السلام، فحصل العذاب ثم انتهى الأمر بزمن هذه الكلمات؟ هذه الكلمات استغرقت ألف سنة إلا خمسين عامًا، والوعد حاضر.

ولما دعا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، هذا الدعاء كم استغرق للإجابة له والتحضير ليقع؟ ليقع لابد من هذه الشروط، يعلمهم، فلو جاء على قومٍ لا يتعلمون لن يعلمهم، فلابد أن يلتقي المعلم مع من يستحق التعليم، فهذا أُجل حتى جاء قدره، فلابد عامل الزمن، ولو لم يأت هؤلاء ما حصل هذا الوعد.. مثل ماذا؟

مثل: الجنين في بطن أمه، لماذا يخرج الجنين ميتًا؟ صحيح لعدم اكتماله، لكن كذلك لعدم حضور رزقه، نسمة الهواء التي مقدر أن يتنفسها ليحيى غير موجودة في الحساب تبعه، في الحساب تبعه ليس له نصيب أبدًا في نسمة هواءٍ واحدة، فلذلك إذا جاء الولد في وقت حضور نسمة هوائه التقى القدر مع القدر فعامل الزمن مهم جدًا، عامل الزمن مهم في الحياة.

وهذه النبتة الصغيرة علماء المنطق يقولون: فيها قوتان، قوة بالفعل حاضرة فيها قالوا: وقوةٌ كامنة، يعني الآن حبة القمح هل هي سنبلة أم لا؟ هي سنبلة، لكن ليس الآن لابد من عامل الزمن، الشجرة حتى تثمر لابد من عامل الزمن، فعامل الزمن مهم، نحن في نظرنا لوعد الله عز وجل لا ننظر لعامل الزمن، للأسف، نسأل أين وعد الله؟ ما جاء زمنه، لم يأتي زمنه فعليك أن ترتقبه حتى تأتي أسبابه في الدنيا ليكون هذا الوعد حيًا حقيقيًا، وإلا لو أنك أردته في غير وقته كمن يسقط الجنين من بطن أمه استعجالاً للولد، ينزل ميتا.

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾ [البقرة: ٤٤]، ما المقصود بالتلاوة؟ التلاوة هذه كلمةٌ تدل على الكثرة، لأنها مما تَلَّى الأمر، تقول: هذا تَلَّى أي تبع، وسميت التلاوة تلاوة لأن الحرف يتبع الحرف والكلمة تتبع الكلمة فيقال: تَلَّى الرسالة، تلاها أي جمع الحرف مع الحرف فكانت الكلمة، ثم جمع الكلمة مع الكلمة فكانت الجملة، فمن هنا تلاها، قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، فدل على الدوام.

ومن هنا فإننا نجد إن صحت الرواية أن عيسى عليه السلام لما كان يدخل بيت المقدس على هؤلاء الذين يسموا في كتابهم المقدس بالأنبياء أو يسموا بالأحبار يوجد لهم هزيج يذكر في التاريخ لهم هزيج لكثرة قراءتهم للتوراة، يتلونها كثيرًا، لكن أماني، لا منفعة لها، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ [المائدة: ٦٨]، وهنا نكر كلمة ﴿شَيْءٍ﴾ ما قال: لستم على الشيء لنعرف من هو، قال تعالى: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾، أي كل ما تفعلونه كأنه لا شيء بل هو لا شيء، لأن الشيء إذا فقد ركنه لا قيمة لبقية أعضائه، ما قيمة الإنسان من غير رأس؟ هل يكون إنسانًا من غير رأس؟ الرأس مهم، فلذلك لما تقول: ذهب الرأس فذهب الإنسان كله، وقال الله عز وجل: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾.

فقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، هذه جملةٌ إسمية، والجملة الإسمية دالة على الثبات والدوام، ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، هم دائمًا يتلونه وهذا لم ينفعهم، والمقصود بالكتاب هو التوراة.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، خطاب واضح، أي هم يعرفون الحق، فتلوا الكتاب لمعرفتهم به، علموه الناس، فالناس لا يعلموا الناس إلا ما يعتقدوا أنه الحق ومع ذلك نسوه، فهذا يضاد العقل، لأن ما يقرؤونه من الكتاب من الوعيد يعلمون أنه يرتد عليهم، وما يقرؤونه في الكتاب من الأوامر يعلمون أنهم مكلفون به، وهكذا، قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وهذا دال على أنهم لا يعقلون.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة: ٤٥]. يعني الله عز وجل أمرهم في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، وتقدم الأمر ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [البقرة: ٤٣]، ثم جاء هنا بأمرٍ آخر، هو نفس الأمر في ظاهره، لكن له تعلقٌ آخر، ونحن قلنا في درس فائت لا يوجد تكرار إلا لأسباب، التكرار المجرد من المعاني سوى أن تتكرر لا وجود لها، هذه قاعدة مقررة، «التكرار الخالي من المعاني الجديدة لا وجود له في القرآن»، لا فقد يقع التكرار لتغير المتعلق به، مثل ما قلنا في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾ [الرحمن: ١٣]، كل آيةٍ فيها هذا السؤال ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، كل آيةٍ لها تعلق بالنعمة، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ﴾ أي النعمة التي تقدم ذكرها في هذه الآية، فكل آيةٍ لها تعلق بنعمةٍ معها، بنعمةٍ لها.

فهنا لما قال: ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾ [البقرة: ٤٥]، وفي البداية قال: ﴿وَأَقِيمُوا﴾ [البقرة: ٤٣]، فدل أولاً على ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، على أنه أمر للفعل الصادر من الله عز وجل إليهم، هو أمر لهم هكذا ينبغي أن تصلوا، لكن الآن صلاةٌ أخرى هذه صلاة أخرى، الأولى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، يعني التي أمرتم بها هذا حق الله عز وجل، لكن لما قال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، لتعلق الصلاة بأمرٍ آخر وهو أنها إعانةٌ لشيء، وما هو الإعانة لهذا الشيء الذي هو فيه؟ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾ [البقرة: ٤٤]، نحن قلنا وهذا القول كان مهم للترتيب أن هذا أمر متناقض وغريب وعجيب فلما يقع؟ ذلك لوقوع الإنسان فيه بسبب الشهوة،

ووقع الإنسان فيه بسبب الغفلة، فمن أجل درء ذلك كله قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، أي لتنفيذ أمر الله عز وجل الذي أمرتم به فوقعت في خلافه ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

وهنا نأتي لقضية ذكرناها كثيرًا ولكني أنبه عليها هنا كذلك لأهميتها، القرآن لأنه قرآنٌ عظيم وكتابٌ مكنون، مكنون مستور، لا بد أن تزيل عنه ما أكن به، تزيله حتى تكشف عنه، القرآن لا يقول أمرتكم بهذا في الآية الثانية لتعينكم على هذا أو جواب عما يحصل من خطاءٍ لكم، لا توجد هذه الطريقة القرآنية، هذا دورك أنت، ولذلك الناس حين يقرأون القرآن ولا يربطون بين الآيات والتناسب بينها، يظنون أن الآيات منقطعة بعضها عن بعض، لكن من تأمل وجد أن هذه الآية جواب عما يحدث في النفس، يقرأ المرء الآية فيحصل في نفسه معاني وغالبًا ما تكون هذه المعاني غالبًا لمن يقرأ هذه الآية، فتأتي الآية التي تليها لتعالج هذا الذي يقع في القلب من المعاني.

أو هذه الآية تُنشئ أسئلةً، فتأتي الآية التي تليها لتصلح هذه الأسئلة، أو لتجيب عليها، أو هذه الآية تُنشئ معاني ليست مرادًا، فالقرآن يبينها -وهذا ذكرنا كثيرًا منه-.

فلنأتي إلى صورة من هذه الصور انظروا إلى قوله تعالى في سورة «العنكبوت» لما قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)﴾ [العنكبوت: ٧-٨]، أول ما يخطر على البال هو انقطاع أول ما ينشأ من علاقات بينه وبين أقرب الناس إليه، الإيمان قطع علاقة، قطع أعظم علاقة تنشأ وأول علاقة تنشأ في الوجود، أول علاقة تنشأ في الولد والطفل عندما يلد معه ومع أهله وهذه العلاقة تبقى قائمة والقرآن يقررها ويحميها وهنا حماها، وإلا في جهات هي ألغيت لوجود ما هو أعظم منها يضادها وهو الإيمان، إذا تعارضت علاقة الإيمان بين العبد وبين ربه وبين علاقة الإنسان والعبد وبين أبيه عليه أن يقطع علاقته مع أبيه بمقدار، ليس بكل شيء، لا يقطعها قطيعة كاملة، ولكن يقطع بمقدار ما تعارضه علاقة العبد بربه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، فانقطعت هذه العلاقة، الإنسان أقل شيء يبقى وحيد.

وطبعًا إذا المرء في هذا الظرف قُطعت علاقته مع أبيه فمن باب أولى أن تقطع العلاقة مع المجتمع كله، يعني حالة هذا الشخص إذا كان والده وأمه قد أنكرا عليه وطرداه قالا له: أخرج لا نريدك لهذا الأمر وفي هذا البيت ما دمت متعلق بهذا الدين، فقد قطعت علاقته، إذًا هنا نشأت مشكلة، وهي القطيعة، ما الواجب القرآني؟ أن يُنشئ علاقة جديدة، فبعد أن قطع علاقة المرء مع أبيه وأمه وبالتالي مع غيره، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩)﴾ [العنكبوت: ٩]، هذه الآية التي تليها، لو سأل سائل لماذا هذه؟ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾، من أجل أن تعالج هذه الحالة التي نشأت.

كذلك من الأمثلة الأخرى في سورة «التوبة» لما قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، فمن أين نأكل؟ هذه مكة ليس فيها لا زرع ولا تجارة ولا شيء، والتجارة التي فيها من أجل هؤلاء نضحك عليهم بثياب الحُمس ونبيع ونشتري من أجلهم، إذا وقفت ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ﴾ [القصص: ٥٧]، من أرضنا لا يوجد شيء لا ناكل ولا نشرب، هذه لابد من علاج، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، ماذا قال بعدها؟ قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)﴾ [التوبة: ٢٨]. فكيف يغنينا؟ قال تعالى في الآية التي تليها: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾ [التوبة: ٢٩]، فآتى الله عز وجل لكم بباب آخر.

وهكذا، هذه طريقة قرآنية، والأسئلة يجب أن تنتمي لهذا، من هنا سلفنا لما جاؤوا إلى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧)﴾ [البقرة: ١٣٧]، ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ [الشورى: ١١]، قالوا: لماذا السميع البصير؟ حتى لا ينشأ النفي الكلي، لما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، إذن لا يجوز أن تنسب إليه أسماء ما تنسب إلى البشر، فقالوا: لا، لا، ليس هذا، قال السلف: لم يُرد هذا، والدليل أنه سمى نفسه السميع البصير والإنسان سميع بصير، ولكن دل على نفي المثلية وليس نفي الأسماء، وهذا كثير، يعني في القرآن بل لا تجد آية إلا على هذا المعنى، قلما ينشأ معنى إما أن يكون تتمة للموضوع أو ترتيب عليه أو بناء عليه أو كما قلنا فتح الأقواس من أجل البيان لما تأخر ذكره فتفتح الأقواس وإما تكون على هذا المعنى.

إذن هنا قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، نستعين من أجل ماذا؟ علامة أن ما تقدم أمره عظيم، ليس من السهل على بني إسرائيل أن ينخلعوا مما هم فيه، ليس سهلاً على بني إسرائيل أن يتركوه عما استمرأوه، ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، ليس سهلاً عليهم، ليس سهلاً أن يأتي ورجل علم عنه عشرات السنين وهو على حالة من الأمر ثم ينقلع من هذه الحالة إلى حالةٍ أخرى، فجاء الأمر بقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، ونحن تكلمنا عن الصبر في الدرس الفائت –هذا كله إعادة كما ترون لأشياء جديدة–.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾، قلنا: الصبر إما على أداء الأمر وإما على المقدور الذي لا تستطيع دفعه، هذا صبر عظيم، والصبر على المأمور منه والصبر عليها، الصبر على الجهاد، الصبر على طلب الرزق، الصبر على ما أمر على الصلاة، على الزكاة، على انتظار الصلاة بعد الصلاة، الأوامر على الزكاة، كل هذه الأوامر تحتاج إلى صبر، الصبر على الفعل، وإما الصبر على المقدور الذي لا يستطيع المرء دفعه، واحد يقع عليه جائحة، يقع عليهم مرض، يقع عليه أكلة في رجله، عمى في عينه فعليه أن يصبر.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، ودل على أن الصلاة هي من أعظم المقويات على تجاوز محن المرء في هذه الحياة، إذا فات المرء هذا المعنى من الصلاة فاته خيرٌ عظيم، وقلنا: بأن هذا الأمر الشرعي خاصٌ بأهل الدين، الدعاء والاستغاثة بالله عز وجل، الله عز وجل يخفف، الله عز وجل يرحم، ينزل من الرحمات بمقدار ما ينزل من البلاء.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة: ٤٥]، هنا أيها الإخوة الأحبة شيءٌ عجيب، لا يدلنا عليه إلا القرآن، ولو تركنا لاضطربنا ولعجزنا عن فهمه الفهم الصحيح، –انتبه لهذه التركيبة– إذا أردت قضاء الحوائج وإزالة الهموم وتخفيف ما عليك من ملمات وغمرات وواجبات فاستعن بالصلاة، إذن الصلاة هي أمرٌ مريح، لكنها جاءت في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾، هذا الذي تستعين به كان ينبغي أن يكون هينًا عما أنت فيه من المشقة، لكن الله عز وجل جعله عظيمًا، على من؟ جعله عظيمًا على من لم يأت به على الوجه الذي يتحقق به الدفع، الصلاة التي يتحقق بها الدفع في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾، أي يتحقق بها الاستعانة ليست أي صلاة، ولو خلت من شرطها الذي أوجبه الله عز وجل وأمر به، لكانت مشقةً زائدةً على العبد فوق ما هو عليه من البلاء.

فإن الصلاة التي تنفع لدفع البلاء، لأن القرآن يقول: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾، مشقة، قد يقول قائل: أين المشقة في الصلاة؟ في الحقيقة الأوامر الدينية شاقة على النفوس لأنها تخالف الهوى، حتى لو كانت قليلة، لأنها عظيمة، بعظم ماذا؟ بعظمها لأنها مخالفة للنفس، ولماذا كبيرة على النفس؟ لأنها تناقض ما عليها النفس من الهوى، وكبيرة بوسوسة الشيطان في تعظيمها على النفس، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (كَلِمَتانِ خَفِيفَتانِ علَى اللِّسانِ، ثَقِيلَتانِ في المِيزانِ، حَبِيبَتانِ إلى الرَّحْمَنِ: سُبْحانَ اللَّهِ العَظِيمِ، سُبْحانَ اللَّهِ وبِحَمْدِهِ)، كم يأتي بهاتين الكلمتين من البشر مع خفتهما على اللسان؟ القليل، القليل، فلذلك هي شاقة لأنها مخالفة للنفس وشاقة لثقل الشيطان في وسوسته، وشاقة لمخالفة الهوى الذي عليه الإنسان وبالتالي هي كبيرة.

ولكن انتبه هنا بعد أن قال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، فأراد القرآن أن يَصدُقنا والله جل في علاه هو الحق المبين فقال: وهي كبيرة كذلك، أنتم لا تدفعون ما عليكم من البلاء بشيءٍ هين ولكن بكبيرة إلا على الخاشعين، إذًا يجب عليكم أن تأتوا بها على وجهها الصحيح؛ لتصلح سلاحًا لدفع مع عليكم من البلاء، وهذا فيه دلالة، فيه دلالة خفية وهي أن الصلاة هينة على الخاشعين، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة: ٤٥]، فيه دلالة على أن الصلاة هي سلاحٌ طيعٌ هينٌ على الخاشعين. وبهذه الصلاة الهينة على الخاشعين اللينة على الخاشعين تصلح أن تكون دافع لما عليه من البلاء.

إذن فقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، فإذا قال لك: صليت، ولذلك في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة إن الله لا يستجيب للاهٍ)، واحد يدعو ولا يدري ماذا يقول!!

واحد يصلي ولا يدري ماذا يقول!! ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦] لا يدي ماذا يقول!! إذا صلى لا يدري كم صلى، هذه لا تصلح، وهو يدعو أن يهديه الله الصراط المستقيم، لا يهديه الصراط المستقيم لأنه لا يدعو على وجهٍ صحيح وليس خاشعًا في طلبه، ليس حاضر القلب في وقوفه بين يدي الله عز وجل.

وأنا أدلكم على أعظم ما يحصل الخشوع وهنا يأتي شيءٌ آخر غير التفسير، شيء آخر غير الفقه، شيء آخر غير اللغة، شيءٌ آخر، وهو فيما يتعلق كيف يحصل الخشوع؟ هنا شيءٌ آخر، لو قال المرء ما هو الخشوع؟ حضور القلب وأول درجات حضور القلب أن تعرف ماذا تقول، أن تجري الكلمات على لسانك وأن تفهم ماذا تقول، تفهم ماذا تردد، ما هي هذه الكلمات وما معناها؟ تصور أن رجلاً ربما يقرأ سورة كاملة في صلاته فإذا سُئل عن السورة التي قرأها في صلاته لا يعرف!! تصور أن بعض الحفاظ ربما يقرأ سورة من الطوال وبعد أن يأتي إليها بعد ساعة قرأها أم لم تقرأها؟ لا يدري أنه قرأها، فهو لا يدري ماذا جرى على لسانه!! وربما يقرأ المرء كمن يقرأ سورة «الكهف» يوم الجمعة لو قيل له: أنت على أي آيةٍ مررت يقول: لا أدري والله!! قف قليلاً حتى أعرف أين أرجع، لا يدري فأول درجات الخشوع هو أن يدري المرء ماذا يجري على لسانه من الكلمات، ما معناها أولاً؟ ما معنى هذه الكلمات؟

والدرجة الثانية: أن يتفكر فيها، يتفكر في معانيها.

الدرجة الثالثة: أن ينفعل بهذا المعنى.

الدرجة الأولى والثانية يا مشايخ درجة مقدورٌ عليها بلا مشقة شديدة، الدرجة الثالثة هذه لا تحصل إلا بالعطاء الإلهي، فليس من السهل البكاء ربما المرء يستبكي، ربما المرء يتباكى، يطلب البكاء يتباكى أو يستبكي يطلب البكاء، فلا يأتيه، ما هو السبب؟ السبب أن هذا القرآن لم يؤثر في قلبه التأثير اللازم، وهذا يحتاج إلى طول عهدةٍ مع القرآن وطول عهدةٍ مع الطاعة، هذه لا تأتي.

يقول الإمام الزهري رحمه الله ومشهورة عنه هذه الكلمة قال: «ربما يبكي المرء في عامه مئة مرة، فلا يكون صادقًا إلا مرة» ولذلك لما يرون المرء في المسجد ويرونه يُنزل دموع، قال: ليس هذا هو البكاء، ما هو البكاء والخشوع؟ هو أن يغلبك هذا البكاء والخشوع، حتى لو أردت دفعه لا يندفع، لا تستجلبه، وهذا يتم عن طريق طرد المعاصي من أجل أن يتلقى القلب، كثرة الذكر من أجل أن ينور، كثرة الاستغفار من أجل أن يزال ما عليه من ران، وما فوق الران، فالقلب يصل إلى الإقفال كما يقول قتادة، يقول قتادة: «أشد ما يقع القلب هو القفل»، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾ [محمد: ٢٤].

فهذا في المرء بينه وبين، فعليه أن يعرف مرتبة نفسه، فهذا الخشوع على المرء أن يتحصله بعمل السر، لا يتحصل فقط في الطاعات الواجبة، أن يذهب للمسجد فيصلي الفريضة ويرجع، لا، لا يأتي هذا، هذا لابد من أعمال السر،

(اقرأ وارتق)، (وما يزال الرجل يتقرب إلي بالنوافل)، لابد من الإدامة وهذا بعد ذلك هو يتعجب كيف يأتيه! يتعجب كيف يصبح بكاءً، كيف يصبح خاشعًا، كيف يصبح مراقبًا لربه، كيف يناجي الله عز وجل فيشعر بالرحمة، من هنا في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة: ٤٥]، نعرف لماذا الصالحون يطيلون العبادة، ولا يرونها صعبة على أنفسهم.

نحن الآن نسمع أن فلانًا يقوم ثلث الليل ويقرأ حزبه من الليل يقرأ إذا حزب جزء أو حزبه جزئين أو حزبه أربعة أو خمسة بحسب جزئه، وتتعجب منه!! وهو في الحقيقة ليس شاقًا عليه؛ لأنه اعتاده أولاً ولأن الله عز وجل هون عليه ذلك، ولأنه خاشعٌ فيه يحبه، وإذا فاته كأنه فقد ولده.

وانتبهوا هذا في طول الزمن الشيطان يأتي خطوةً، خطوة، ما كنت تنكره اليوم ستفعله غدًا إذا اقتربت منه، قال صلى الله عليه وسلم: (ومازال الرجل يتأخر حتى يؤخره الله)، فأنت في الأول تكون تقرأ أربعة أجزاء بعدها ثلاث بعدها اثنين بعدها واحد بعدها لا تقرأ سورة بعدها لا تقرأ صفحة من القرآن في اليوم، وأنت تبدأ بصفحة فتنتهي بجزء، فتنتهي بجزئين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد: ١٧]، لذلك الخشوع هي أعلى مرتبة يُهدى إليها المرء بعد طول مسيره في طاعة الله والإكثار من طاعة الله، هي آخر هدية تعطى لك، فإذا حصلت هذه المرتبة في القلب هانت عليك الطاعات، خلاص صارت لينة وصارت محبوبة للنفس، والمرء يتمنى أن ينفرد ليقوم بها، يتمنى مجيء الليل ليأوي إلى ربه، وهذه على المرء أن يسعى إليها لأنه مرتبة عظيمة.

فلذاك الحديث عن الخشوع هو حديثٌ آخر غير حديث الفقه، وموجود في بعض كتب الفقه يعني موجودة في «المغني» هذه المسألة، موجودة في بعض الكتب، لكن عند الكلام عن الفقه عادةً الأمور الباطنية لا تكون مفصلة، الله عز وجل يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)﴾ [المؤمنون: ١-٢]، فالمؤمن قد يفلح وقد لا يفلح، فإنه يفلح متى؟ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قد المؤمن لا يفلح لا ينتصر، لا يستعين فيذهب عنه الخير، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)﴾ [المؤمنون: ١-٢].

والكلام عن الخشوع لا يوجد في كتب الفقه، في كتب الفقه ما هي أركان الصلاة؟ يقول لك: التكبير، قراءة الفاتحة الركوع، والاطمئنان، وهكذا، لكن لا يتكلم عن الخشوع، ولكن الله عز وجل جعل شرط الفلاح لهذا العبد المؤمن في الدنيا والآخرة هو الخشوع، هو شرط.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة: ٤٥]، فهل هذا الخشوع هو مظهرٌ باطني أم مظهرٌ ظاهري أم كلاهما؟ الصحيح أنه كلاهما، يعني الخشوع لابد من حضور خضوع البدن

وسكونه ولابد من خشوع القلب، لابد كذلك من اطمئنان القلب وتفكره واعتباره وتأثره، فمن هؤلاء الذين يهدون هذه الهداية؟ وهي هداية الخشوع؟

أيها الإخوة الأحبة قد يسأل سائل: هل هو عطاءٌ إلهي أم قدرةٌ بشرية؟ الصواب: أنه ليس قدرة بشرية، الخشوع ليس قدرة، أنا أتكلم لأن يبكي وأن ينفعل وأن تقشعر أبدانهم، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، هذه المرتبة هداية إلهية ولكنها لا تُهدى إلا بسعيٍ بشري منك، أي أنت لا يمكن أن تقول: أريد أن أخشع!! هذه هداية ربانية، لكنها لا تعطى إلا بسعيٍ منك، لابد أن تسعى أنت بنفسك إليها، فلا تعطى هكذا بلا ثمن وبلا سبب.

يقول علماؤنا: لا يوجد ما يقع في هذه الدنيا ولا في الآخرة شيءٌ بلا سبب، لا يوجد، الله عز وجل لا يعطي شيئًا بلا سبب إلا كل شيء بسبب، كل شيء بسبب في الدنيا والآخرة، حتى الرحمة إنما تعطى لسبب، لمن يكتب الرحمة؟ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد: ١٧]، وقال صلى الله عليه وسلم: (وما يزال الرجل يتأخر حتى يؤخره الله)، فأنت الذي تبدأ، فاذا جئت إلى الله مشيًا أتاك هرولة، فإذن تبدأ منك الحالة ثم بعد ذلك يحصل ما أمر الله عز وجل وما هداك الله وما وعدك.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة: ٤٥]، من هم؟ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾ [البقرة: ٤٦]، إن شاء الله نبدأ في تفسير هذه الآية في الدرس القادم، لأهميتها ولما فيها من معاني.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله يا رب.

الدرس السابع والأربعون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أيها الإخوة الأحبة أهلاً وسهلاً بكم في الدرس السابع والأربعون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة»، ومع خطاب الله عز وجل لبني إسرائيل ووصلنا إلى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦]، قلنا: بأن الصبر إما على أداء الأفعال واجتناب النواهي وإما على المقدور الذي لا يمكن دفعه بالاحتساب، والصلاة لا تكونوا كبيرةً على الخاشعين، والسبب هو ما يحصل لهؤلاء القوم من متعة فيها فإذا لم يكن خاشعاً كانت شاقة وتكلمنا بما فتح الله عز وجل علينا في هذا الأمر.

والمعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وحزبه أي أشتد عليه وشق عليه، وكذلك الصلاة عند نزول البلاء، فهذا كذلك مما يدخل في هذا الباب، أنه يستعين بالصلاة دعاءً لرد البلاء كما عند الخسوف والكسوف، وعند نزول المصائب فالمرء يفزع إلى الصلاة، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يفعله وأصحابه رضي الله عنهم يفعلون ذلك، فقد ورد ابن عباس رضي الله عنهما جاءه خبر وهو في سفر موت أخيه أو أخته اختلفت الرواية، فاسترجع ثم مال إلى جانب الطريق وصلى وجعل يقول: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وهذا الاستحضار للآيات عند وقوع سببها أو موجبها، هذا يحتاج إلى إيمان، ونوع الإيمان في هذا الباب هو حضور الآيات في قلبه، أي أن يكون تالياً لها، أن يكون عالماً بها، فلا يمكن للمرء أن يستحضر الآيات إلا إذا كان مديم النظر في كتاب ربنا، وألا يكون ناسيًا هذا واحد.

الشيء الثاني: فلا يمكن للمرء أن يستحضر الآيات الموجبة للفعل اللازم عند الوقوع إلا بالنظر لكتاب الله عز وجل تفكرًا، وأما الذي يمر عليه دون أن يتفكر فلا يدري ما هي، فإذا حضر سببها لا يتذكرها؛ لأنها لم تحصل في قلبه علماً، فأولاً: لابد من حضورها، حضوراً وشهادة، ثانياً: لابد من حضورها علماً.

والأمر الثالث: الذي يحتاجه المرء لحضور الآيات عند وقوع الفعل التي تعالج الفعل، وهو لا بد من حضور الإيمان والخوف من الله عز وجل، ومعرفة منافع ذلك، هذا ما يعني يدل عليه الأمر.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ [البقرة: ٤٥]، أي عظيمة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة: ٤٥]، وتكلمنا بأن الخشوع هو أمرٌ قلبي، لكن يظهر على المرء وعلى حركته وعلى سكونه، والخشوع إنما هو السكون، ثم فسرت الآية، ما معنى الخشوع؟ فسرته بنفسها، وهذا أيها الإخوة الأحبة من أعظم التفسير وهو أن يفسر القرآن بعضه بعضاً، ولذلك قال: من هؤلاء الخاشعون، وما هو السبب الرئيس الذي يحصل به الخشوع، قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾ [البقرة: ٤٦].

والظن أيها الإخوة الأحبة في اللغة يطلق إما أن يكون هناك اليقين وإما أن يكون هناك الترجيح الميل، وإما أن يستوي الطرفان في القوة، فهذا الاستواء هو الذي يقال له: الظن، فالاستواء هذا إما أن يكون له ميل إلى أحد الطرفين، فإذا كان ميله إلى السلوب كان نفياً كما قال الله عز وجل: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢)﴾ [الجاثية: ٣٢]، فهذا ميلٌ إلى السلوب، إلى الترك.

وإما أن يكون الظن ميلٌ إلى الوجوب أو إلى الإيجاب، فهذا يعني ميلٌ إلى الإثبات، وبهذا يقال: يعمل بالظن، ويزاد عليه لبيان أنه ظنٌ للوجوب أو الإيجاب، يقال: يعمل بالظن الراجح، يعني هو قريبٌ من الاستواء، ولكنه مال إلى أحد الطرفين فهذا هو الظن، وإذا مال إلى السلوب فكان ظناً مرجوحاً، وحينئذٍ قد يكون هذا المرجوح على صفة وعلى معنى العدم.

فمثلاً: من شك في يوم القيامة شك، فكأنه كذب، وهو شك فيه ولكن هذا الشك بمعنى العدم، وإن كان لم يصل إلى درجة النفي، ولكنه في ديننا إلى معنى العدم، وإذا كان ظناً راجحاً أنه قد يحمل على معنى اليقين لأنه كافٍ للدلالة على المراد، والحياة أغلبها تقوم على الظن، ولذلك الأحكام الشرعية في درجة ثبوتها وخاصةً الأحكام الفرعية فيما ليس عليه الإجماع، أغلبها تقوم يقول علماء: على الظن، وللأسف هذه الكلمة قد تحمل على معنى الصحيح، وقد تحمل على معنى سيء، يعني يقولون: بأن الفروع مبناها على الظن، فماذا يقصد بها؟ فلا بد من الاستفسار، إذا كان المقصود بأنها تثبت بالأحاديث التي لا تصل إلى درجة اليقين فهذا مقبول هذا المعنى، وإذا كان المقصود بها كذلك أن تثبت بألفاظٍ تفيد هذا المعنى إفادةً ظاهرة وليس على معنى النص فهذا مقبول كذلك؛ لأن دلالة الألفاظ على المعنى ليست على مرتبة واحدة فإما أن تكون نصاً وإما أن تكون ظاهرًا، الظاهر فيه احتمال ولكنه احتمالٌ راجح، وفيه احتمالٌ مرجوح وهو المنفي، ولذلك هذا معنى صحيح.

ولكن للأسف الكثير من المتكلمين يحملون معنى الظن في الأحكام الشرعية من أجل أن يثبتوا ما يقابلها من اليقين، واليقين عندهم ليس ما يفيد في النص، ولكن ما يدل عليه العقل، واضطرد هذا القول عندهم حتى جعلوا دلالة الكتاب والسنة على المراد الإلهي دلالة ظنية، وجعلوا براهين العقل فيما يزعمون دلالة يقينية، وبالتالي إذا تعارض كما يقول سيدهم وأمامهم الرازي: إذا تعارض الظني الذي هو قادمٌ من النص مع القطع الذي قادم من العقل كما

يقولون لابد من تأويل النص ليلائم العقل، لماذا؟ لقدرة الفقيه على تأويل النص، كون النص ظاهر، وكون اللغة تحمل دلالات متعددة، فنبحث عن دلالة في اللفظ تلائم ما يقوله العقل، وهذا هو سبب الفساد والشر.

فإذن هذه الكلمة وهو القول بأن الكتاب والسنة دلالتهما ظنية على المراد الإلهي هذا قولٌ باطل بهذا المعنى، لأنه يجُر إلى معنى باطل، وهذا مرجعه وتستطيعون أن تراجعوا شيخ الإسلام رد على هؤلاء وله مقالات واسعة في هذا الباب مهمة جداً وموجودة وفي كتاب «الاستقامة» أشار لهذا إشارةً جيدة.

إذن المقصد: بأن الظن يطلق على أحد الجهتين، فإما أن يكون ظناً مرجوحاً وإما أن يكون ظناً راجحاً، والشيء بالمجاورة يحمل حكم المجاور، يعني لما كان الظن راجحاً ذاهباً إلى الإيجاب فحمل حكمه، ولما كان الظن مرجوحًا فحمل حكم السلوب، فالشيء بالمجاورة يحمل حكمه حتى في اللغة، هذا حكم المجاورة وفي اللغة كما يقولون ويستدلون دائماً الفقهاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾، ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾، ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ [المائدة: ٦] قالوا: الكسر هنا جاء للمجاورة، أي التحقا بها للمجاورة مع خلافه في الحكم، ويستدلون بقول الشاعر: «سقيتها تبنا وماء»، وإنما السقي يكون بالماء وليس بالتبن، لكن لما جاوره التحق به، «رأيت أباك في الوغى متقلدا سيفا ورمحا»، والرمح لا يتقلد، ولكنه لحق به حكمه، فالمجاورة لها أحكامها.

وهذا بيّن هنا ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٤٦]، يعني هنا الذين يتيقنون، لكن دائماً نحن نقول وهذا بابٌ لابد من الاعتناء به، لأنه يفتح أبواباً عظيمة في طريقة القرآن، ويفتح أبواباً عظيمة في التفكر في اللفظ القرآني لمعرفة إعجازه، لماذا هنا جاء ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ ولم يقول الذين يتيقنون؟ فهذا تكلمنا عنه، تكلمنا في دروس ولكن نقف عنده: لأن هناك شيءٌ من الظن عند لقاء الله، لا يتعلق بلقاء نفسه لكن يتعلق بشيءٍ يجاوره وشيءٍ يلابسه، وهذا بيّن.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، هناك شيءٌ من الظن في قلوبهم حول هذا اللقاء، لا لكون اللقاء مشكوكٌ فيه، ولكن لأن أشياء هناك أخرى تكون ملازمة لهذا الاعتقاد، ما هو الشيء هذا؟ الوقت، ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾، متى سيلاقونه؟ لا يعرفون، فلما كانوا على وهمٍ في هذه المسألة وعلى ظنٍ فيها، استخدم هذا ليبيّن في أن إحاطتهم لهذا اللقاء ليست إحاطة يقينية، فقال: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾، فلو قال: الذين يوقنون أنهم ملاقو ربهم، لا، ربما توهم السامع أنهم يعلمون كل شيءٍ يتعلق بهذا اللقاء، فلما كان الأمر خلاف ذلك جاءت كلمة الظن لتملئ وترد على هذا المعنى، فقال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾، هم على يقين أنهم سيلاقونه، ولكن متى؟ اليوم، غداً، متى؟ يوم القيامة، سواء كان تعلق يوم القيامة بأنفسهم أو تعلق يوم القيامة بعموم الخلق في يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، لقاء الله عز وجل هذا يحمل معاني كثيرة، الناس عندما يموتون إنما هم يلاقوا الله عز وجل، يلاقونه، والمقصود بذلك ﴿أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾، انظر ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو﴾، لم يقل ربنا سبحانه وتعالى: الذين يظنون أنهم سيلاقون ربهم، ولكن أستخدم هنا ﴿مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾، استخدم هنا المصدر، ونحن نعلم أن قوة المصدر أقوى من قوة الفعل، لأن المصدر وهو اسم يحمل الثبات، ودائماً علماؤنا يقولون: «الجملة الاسمية أثبت من الجملة الفعلية»، الجملة الفعلية يحصل فيها التغير والتبدل؛ لأن الفعل لا يدوم، بخلاف الاسم فأنه كالصفة تستقر على الحال الذي هو عليه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، فدل هذا على ثباته وأنه شيءٌ مستقر ويقيني ولا يتبدل ولا يتغير،

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾ [البقرة: ٤٦]، الآن ﴿مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ كافية أنهم ﴿إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، يعني عندما يلاقي الله عز وجل هو إليه راجع، هل هذا المعنى كُلي؟ بمعنى هل اعتقاد المرء أنه راجعٌ إلى ربه هو على نفس أنه سيلاقي الله عز وجل أو أنه ملاقٍ ربه ولابد؟ يعني هل معنى ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، هو نفس معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾؟ الجواب: لا، فإن اللقاء لا يقتضي أنه كل شيءٍ يعود إليه، مجرد اللقاء لا يحمل هذه الدلالة، رجلٌ لقي رجلاً لا يعني أنه قد صار تحت سلطته ولا تحت إمرته، ولا أنه محاسبٌ عنده لا تحمل هذه الدلالة، فلما كانت كلمة اللقاء عاجزة عن بيان ما سيحصل بعد هذا اللقاء من حساب، من جزاء، من عطاء، من منع، من عذاب، من عفو، من مغفرة إلى غير ذلك، فقال: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾ [البقرة: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾ [البقرة: ٤٦]، يدل على أن هناك ثمة أصل حصل عليه طارئ، يعني كان الأصل أنه موجود، فحصل طارئ من الغياب فرجع، فدل هذا على أن الأصل هو أنك لست من أهل هذه الدنيا، وأن الغيب هو أصلك، وهكذا، قال سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١)﴾ [الإنسان: ١]، أنت لم تكن حاضرًا، كنت غائباً في عالم الغيب، وعالم الغيب عند الله عز وجل هو كعالم الشهادة، هو بالنسبة إليك مختلف، وإنما هو تنوع الأحوال، يعني أنت حالك في هذه الدنيا في حضورك مع الله عز وجل، ليس على خلاف في حضورك مع الله عز وجل بعد الموت، وليس حالك وأنت في عالم الغياب في علم الله مختلفٌ عن علمه فيك وأنت في عالم الشهادة ولا ما بعد الشهادة، فالحال واحد، فأنت عند الله عز وجل علماً وكنت عند الله عز وجل قدراً مكتوبا، وبعد ذلك عدت إلى أمر الله عز وجل.

فقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾ [البقرة: ٤٦]، دل على أن الأصل هو ليس هذه الحياة وإنما هذه الحياة أمرٌ طارئ، رجع، خرج مما هو طارئ إلى ما هو أصلي، فقال: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾، أي إلى ربهم.

وشرح الخشوع أنهم على هذا المعنى ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾ [البقرة: ٤٦]، دل أيها الإخوة الأحبة على أن أعظم ما يحصل به الإيمان ويحصل به التجرد لله عز وجل في الأعمال والإقبال على الله

بالصلاح وترك الفساد والمعاصي هو اليقين على لقاء الله عز وجل، دل هذا على أن الخشوع لا يمكن أن ينشأ إلا باليقين على لقاء الله عز وجل، دل هذا على أن الأعمال ثقيلة، ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾، دل هذا على أن الأعمال كبيرة على الإنسان ما لم يوقن لقاء الله عز وجل.

إذن نقول دائماً أيها الإخوة الأحبة: إن أركان الشخصية المسلمة لا تكون إلا على ثلاثة عُمد:

العماد الأول: هو الإيمان بالله أنك عبد.

العماد الثاني: الإيمان بالرسول وأنك متبع.

العماد الثالث: من أركان الشخصية هو الإيمان باليوم الآخر.

لا يستقيم فقه المرء ولا اختياراته ولا حركته لا تستقيم إلا مع الإيمان باليوم الآخر، الناس يظنون –وهذه أكررها كثيراً– الناس يظنون أن موضوع اليوم الآخر له تعلق فقط في الموعظة، يعني يعظونهم بلقاء الله، يعظونهم بالخوف من القبر، يعظونهم بالخوف من الوقوف بين يدي الله عز وجل للجزاء والحساب، يعظونهم فقط ويأخذوا هذا الجانب ولا يدرون أن اعتقاد المرء باليوم الآخر هو مناط حركة المسلم كلها، كل الحركة، يعني الفقيه إذا لم يستحضر اليوم الآخر سيخطئ في فقهي واختياراته الفقهية، الحاكم إذا لم يكن لديه الإيمان باليوم الآخر ستكون اختياراته العملية فاسدة.

اليوم الآخر أيها الإخوة الأحبة هو مناط حركة الإنسان المهتدي، فإذا غاب الإيمان واليقين عن اليوم الآخر فسدت الحياة، ولذلك موسى عليه السلام لما بين سبب فساد فرعون ماذا قال؟ قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾ [غافر: ٢٧]، ما هو سبب الكِبر؟ عدم الإيمان باليوم الآخر، ما هو سبب فساد المرء في السياسة، فرعون، عدم الإيمان باليوم الآخر، وهنا ما هو سبب فساد المرء في عبادته وعدم قيامه بها حق القيام على المعنى الصحيح؟ هو عدم الإيمان باليوم الآخر، كيف تستقيم اختيارات المرء العلمية والعملية؟ إنما هو بالإيمان باليوم الآخر.

وهذا الإيمان أيها الإخوة الأحبة ليس قضيةً عقلية فقط، الإيمان باليوم الأخر ليس قضية عقلية، يحاول البعض أن يناقشها قضية عقلية هي في الابتداء قضيةٌ يدركها العقل ويتفهمها ويعرف وجوهها وكيفية وقوعها ومعناها لكنها لا تكون إلا في القلب والدليل ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة: ٤٥]، قلنا مستقر الخشوع هو القلب، فعمل الخشوع يكون في القلب، فلذلك ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾ [البقرة: ٤٦]، هو عملٌ قلبي.

وكيف يقوى هذا الإيمان؟ بزيادة أسبابه والبعد عن موانعه، البعد عن موانعه يعني أن تبتعد عن المعاصي، لأن المعاصي هي بريد الكفر، وإضعاف العلاقة مع الله عز وجل، وإضعاف الخوف منه، وإنما العلاقة مع الله عز وجل

والخوف منه مربوطة بهذه القضية، وهي اليوم الآخر، فقال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦].

إذا لم يستقيم القلب على استحضار الموت والقبر والبعث والنشور والحساب والجزاء بعد مع ذلك الجنة والنار هذا لا تستقيم عبادته، ولا يستقيم خشوعه ولا يستقيم إيمانه ولا تستقيم أعماله، وسترى إما أن تزول هذه الأعمال يوماً ما وإما أن يصلح الله قلبه فيستقيم على الطاعة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦]، وهنا أيها الإخوة الأحبة حديثٌ عن الله فقط، وليس عما يفعل، ولكن جاء في القرآن حديثٌ عما يفعل ﴿أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، إلى أين راجعون؟ إما إلى جنة وإما إلى نار.

فالحديث هنا لم يكن عما يفعله الله بهم، إنما هو حديث عن لقاء الله عز وجل نفسه، وهذا المعنى أيها الإخوة الأحبة هذا يجعل الحياء من الله عز وجل، أنه حديث عن لقاء الله عز وجل، لا تتحدث فقط عن أنك ستقابل الملكين ليسألنك من ربك؟ ما دينك؟ لا هو حديث عن لقاء الله عز وجل، لا يبدأ الحديث في أنك ستلاقي جنة ونار ولكن ستلاقي الله عز وجل، أنك ستقابل ربك عز وجل وحينئذٍ المرء يشعر إن كان في قلبه الحياء وفي قلبه التعقل فإنه سينشأ لديه الكثير من النظر إلى نعم الله عز وجل، يعني من هو الله عز وجل الذي سأقابله؟ وهذه الدرجة هي التي جعلت العلماء حتى مع يقينهم أن الله عز وجل سيغفر لهم ذنوبهم، تُنشئ لديهم الندم الشديد والبكاء، هب أن الله عز وجل غفر لنا، يعني لو أن الله عز وجل غفر لنا، فكيف سنقابله؟ هذا أمرٌ زائد عن قضية الاستغفار، هذا أمرٌ يتعلق بالحياء، يتعلق بالحياء من الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾ [البقرة: ٤٦]، بعد الذي تقدم والمواعظ في الحديث عن بني إسرائيل وتقدم الشرح لها في أنها ابتدأت في ذكر النعمة، وتذكيرهم بالنعمة وتذكيرهم بالعقد الأول والعهد الأول، ثم بعد ذلك الحديث عن الإيمان بالله، وبما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم، والحديث بعد ذلك عن الصلاة إلى غير ذلك، تقدم كل هذا ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾ [البقرة: ٤٧]، تقدم الكلام أنه حديثٌ عنهم ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهذا من قبيل التحبب، وتسمية بما يشرفهم فإن نسبتهم لإسرائيل عليه السلام وهو يعقوب عليه السلام، فهذا من قبيل التحبب، الله عز وجل يتحبب إليهم مع كل ما علم منهم من شر وإعراض فإنه يناديهم بما يحبون من الأسماء.

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧]، تقدم القول في الآية التي سبقتها في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ [البقرة: ٤٠]، وهذا أيها الإخوة الأحبة التذكير يعلمنا بأن ذكر النعمة أمرٌ مهم، يعني العلماء يقولون: من أشرف الركوع أم السجود؟ يقولون: الأشراف والأعظم هو السجود، (فإن أقرب ما

يكون العبد إلى ربه وهو ساجد)، ثم قالوا: علمنا أن السجود أعظم أنه في كل ركعة يكون سجودان، ولا يكون إلا ركوع واحد، فتكرار الأمر أيها الإخوة الأحبة يعني فضيلته يعني أهميته يعني قيمته عندما أنت تكرر الأمر فدل على أهميته.

ومن هنا أيها الإخوة الأحبة عندما نرى أن القرآن يتحدث عن شيء حديثًا موسعاً، مثلاً: نجد الحديث عن الصلاة القرآن، كم مرة الحديث عن الصلاة في القرآن؟ الكثير، لماذا؟ لأهميتها، الحديث عن الزكاة لأهميتها، الحديث عن اليوم الآخر لأهميته، فإن الشيء أيها الإخوة الأحبة إذا عظُم شأنه تكرر ذكره.

الله عز وجل افتتح بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧]، فهذا دليل على أنك عليك أن تستفتح عند الخطاب من أجل التمهيد للقبول هو ذكر النعمة، وكذلك عند انتهاء الخطاب، أو في وسطه عليك أن تكرر هذا الأمر من أجل تبقي اصغاء السامع لك على المعنى التام، فالله عز وجل ابتداء بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، ثم توسط الحديث ما زال الحديث عن بني إسرائيل، سيأتي، ثم وسطه بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧].

في الأولى قال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ [البقرة: ٤٠]، ربط تذكير النعمة بالوفاء بالعهد، وهنا له تعلقٌ آخر، وقلنا: إن التكرار وإن كان فيه فائدة الترسيخ، لكن فيه فوائد النظر إلى الموجب الذي أنشأ هذا التكرار، هذا شرحناه.

فالله عز وجل هنا يقول: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧]، فهنا جاء تعلقٌ آخر في قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾ [البقرة: ٤٧]، ما معنى ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، نحن نعلم أن أعظم الأمم هي أمة محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١)﴾ [النساء: ٤١]، فكل قومٍ عظمتهم بعظمة إمامهم، من أعظم الأئمة؟ رسولنا صلى الله عليه وسلم من بين الأنبياء فأمته عظيمة بعظمته، وفي الحديث أن الله يستشهد بهذه الأمة على كل الأقوام، يستشهد على قوم نوح أنه بلغهم، يستشهد بهذه الأمة أن نوح عليه السلام بلغهم بما قرأوا من كتاب الله، فهذه الأمة هي أعظم الأمم، وعلمنا من الحديث أن هذه الأمة هي أول الأمم دخول الجنة، وعلمنا أن هذه الأمة هي نصف أهل الجنة، (وإني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة)، فهذا من المعلوم.

فإذن كيف هذا يكون متلائماً مع قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾ [البقرة: ٤٧]، هذا الاعتراض ينشأ لو كانت كلمة العالمين تعني كل العالمين عند بعضهم، لكن لما علمنا أن العالمين المقصود بها أي من حضرهم في زمانهم لما كانوا على الحق، أي عندما يكو بنو إسرائيل على الحق فيكونوا خير العالمين في زمانهم، ولما علمنا أن بني

إسرائيل -هذا على المعنى الديني- ولما علمنا أن بني اسرائيل لم يكونوا على الحق في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكونوا أفضل العالمين في زمانهم هذا، وإنما غيرهم.

إذن المقصود بالعالمين عندما يكون بنو إسرائيل على الحق وعلى الهدى فيكون هم خير أهل زمانهم، فالقول بالعالمين هنا ليس المقصود به العموم، وإنما المقصود به العهدية حين تتحدث عن رجلٍ في زمانه عما كان من الحق هذا معنى.

المعنى الثاني وهو المشهور: أنه لا، المقصود أنهم أفضل العالمين، ليس بفضلٍ فيهم، لذلك قال تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾ [البقرة: ٤٧]، فالفضل لم يحصل منهم، وإنما الفضل حصل فيهم، ولو تفكرنا لوجدنا أن بني إسرائيل فضلوا بما لم تفضل أمةٌ قط، وهذا معنى آخر، كيف؟ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]، فالله فضلهم بفضائل أي عطايا ومِنح وكرامات لم تعطى لأمة، وأعظم ذلك أنه جعل فيهم من الأنبياء ما لم يجعل في أمةٍ أخرى قط.

فقوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾، أي أعطيتكم من الفضل ما لم أعطي أمة أخرى حتى أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فقد وجد فيها من الأنبياء ما لم يوجد في أمةٍ أخرى قط، وهذا من التفضيل، فهذا معنى آخر أي أنهم أُعطوا، هذه صحيح فيها منقبة لكن كذلك فيها مذمة، يعني منقبة هي من قبيل المِنَة إني أرسلت إليكم نبياً بعد نبي، كيف لا تكون منقبة من الجهة الأخرى؟ أنه كثر فيهم الفساد، ولذلك من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال: قال صلى الله عليه وسلم: (لو كان في أمتي محدثون لكان عمر)، لماذا لا يوجد في هذه الأمة محدث؟ «لعدم حاجتها إليه»، يعني كان يوجد الأنبياء لقوة طمس الحق، ولعدم وجود واحدٍ منهم من العلماء يقوم مقام النبوة، في البلاغ والبيان وشرح الحق وإظهاره، فالله عز وجل يرسل النبي لإظهار هذا، لكن هذه الأمة مختلفة.

ولذلك القول: بأن «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»، المعنى صحيح وإن كان ليس حديثاً، «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»، علماء هذه الأمة كأنبياء بني إسرائيل، أي يقومون بما قام به الأنبياء، ما الذي قام به الأنبياء؟ قال صلى الله عليه وسلم: (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي أرسل الله نبياً آخر)، تسوسهم، هذه الأمة الله عز وجل سآساها من قبل علماء ومن قبل حكام على طاعةٍ عظيمة حصل فيها من الخير ما لم يحصل من بني إسرائيل.

إذن على كثرة العطاء الإلهي في تفضيلهم لم يحصل منهم الفضل، على كثرة عطاء الله عز وجل لهم فضلاً لم يحصل منهم الفضل، فهذا معنى آخر.

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾ [البقرة: ٤٧]، نعلم أيها الإخوة الأحبة أن الفضل الإلهي يعطى للناس ويقابل هذا الفضل دائماً التكليف، فإما أن يكون المفضل عليه قائماً بهذا التكليف وإما أن يكون مقصراً فيه، يعني دائماً الناس يسألون -هذه شرحتها- بعض الناس يظن أنه إذا فضل قوم -كما فضل الأنبياء، الأنبياء مفضلون- بعض الناس يظن أن هذا التفضيل هو فقط لمجرد الاصطفاء، دون وجود موجب ودون وجود جزاء، يترتب عليه، وهذا باطل، ولذلك في الحديث: من أفضل الناس هم الأنبياء، لكن أكثر الناس بلاء؟ الأنبياء، من أكثر الناس جهداً وطاعة وعبادة؟ الأنبياء من أكثر الناس تكليفاً في الوجود؟ الأنبياء، بل أنهم في الأمور القدرية أشد من غيرهم، قال صلى الله عليه وسلم: (إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم)، يعني حتى لما يصيب النبي صلى الله عليه وسلم الرشح، أو تصيبه الحمى فإنه يشق عليه ويتألم أكثر مما يتألم الواحد منا، بل كرجلين منا، يعني هذا تكليف.

ولذلك هناك واجبات بعض العلماء ذكر واجبات على النبي صلى الله عليه وسلم ليست على الأمة، ومن ذلك قيام الليل، بعض العلماء يرى أنه كان واجباً على النبي صلى الله عليه وسلم وإن اختلفوا بعد ذلك هل نسخ هذا التكليف، هل نسخ هذا الوجوب، لكن انظروا عليه واجبات أكثر مما عليكم، فالناس يظنون أن التكليف هو مجرد العطاء للابن دون أن يكون هناك مقابل له، وهذا خطأ.

فقوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾ [البقرة: ٤٧]، هذا ذكر للمنة الإلهية، الجواب: هل قاموا بها أو لم يقوموا؟ الآن جاء الحديث القرآني بعد ذلك، عما يفعلون سيأتي هذا التفصيل العجيب فيما حدث من بني إسرائيل من التغير والتقلب والسمع والسماع وعدم الطاعة سيأتي كل هذا بيناً، أنهم لما فضلوا بالعطاء الإلهي لم يكونوا على مقداره، وإن كان ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)﴾ [الأعراف: ١٥٩] وإن كان فيهم هذا، وبنو إسرائيل أول قوم فرض عليهم الجهاد، لم يكن الجهاد قبل موسى عليه السلام، الجهاد لا يعرف قبل موسى عليه السلام، أول أمة فرض عليها الجهاد هم بنو اسرائيل في زمن موسى ايه السلام وليس قبل ذلك.

يقول الله عز وجل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾ [البقرة: ٤٧]، بلا شك لا يقولن أحد اليوم أنهم فضلوا على العالمين لأن أعظم الفضل هو ما يتعلق بالدين، فلما كذبوا الرسول خرجوا من مجرد الفضل، وعدم القيام به.

اليهود أيها الإخوة الأحبة أخذوا هذا الأمر على معنى الثبات وعدم التغير حتى مع ما فيه من تغير، ولذلك اليهود يعتقدون أنهم هم شعب الله المختار، ولذلك قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، القرآن رد عليهم، قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ١٨]، فالله عز وجل رد عليهم أنه ليس هناك ثمة علاقة بينه وبين البشر إلا التقوى،

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، أن يعطيك فضلاً امتحانًا وابتلاءً، أن يعطيك فضلاً لعظم التكليف الذي عليك، يعني الله لا يكلف بشراً أو أحدًا إلا ما وسعه، فالله إذا كلفك بأداء الزكاة يعطيك المال، فإذا ليس لديك المال فالزكاة غير مكلف بها، فإذا فضلك بفضل دل على عظم التكليف، قمت به أو لم تقم.

لكن اليهود أيها الإخوة الأحبة يعتقدون أن هذا الفضل يسري فيهم على أي وجهٍ كانوا، ومن هنا فدينهم دينٌ عنصري، بل هذه العنصرية أفرزت عقيدةً فاسدة، هذه العقيدة الفاسدة أفرزت الحسد بأن يمنعوا أي أحدٍ يدخل في دينهم، يعني الديانات عادةً فيها نوع تبشير لأنهم يعتقدون أن هذا الذي عندهم هو الحق فيدعون غيرهم للدخول في هذا الدين، والأديان تقوم على الأفكار أو تقوم على المعاني العلمية، ثم يتبعها الناس بحسب أجناسهم، إلا اليهود فإنهم يعتقدون أن علاقتهم بالرب هي علاقة قومية، تتعلق بنسبهم ونسلهم، ولذلك يقولون: هم شعب الله المختار، الأرض مُلكٌ لهم والبقية «غوييم» والبشر بهائم خلقوا لخدمتهم، هذه أركان العقيدة اليهودية، ثلاث كلمات يجب أن نعرفها: اليهود شعب الله المختار، والأرض مُلكٌ لهم، والبشر بهائم خلقوا لخدمتهم.

وهذا أمر عندهم يضطرد في نسلهم حتى لو غير دينهم، الأحبار منهم يقولون ويصرحون: بأن المرء يبقى يهودي عندهم حتى لو أعلن خروجه من اليهودية، فاليهودية نسب وليست اعتقاد عندهم، اليهودية نسب، سُئل الكثير منهم في جلسات، الملحد من اليهود هل يبقى يهودي؟ قالوا: نعم، يبقى يهودي، يعني لا علاقة لها بالاعتقاد إنما لها علاقة بالنسب، والعلاقة مع الله نشأت، كيف هذا الفساد نشأ؟ نشأ لفساد التوراة التي غُيرت وبُدلت على أن إبراهيم عليه السلام أعطي الفضل له ولأبنائه وأعطيت الأرض المقدسة له ولأبنائه وهم أكرم الخلق على الله وهكذا.

ولذلك هذا الاعتقاد أنشأ فيهم الحسد كما قلت بحيث تخلفت الديانة اليهودية عن التبشير، ديانة لا تبشير وفيها لا يبشرون، نعم، الكثير من غير اليهود من الوثنيين مثل يهود الخزر كانوا من الوثنيين فدخلوا في اليهودية، ولكن الأصل في هذا الدين أنه لا يقبل غيره وإذا جاء إليهم داخلاً فيبقوا على احتراز منهم، بل ربما لا يقبلونه، يعني يهود القلاشة الذين استقدموا من الحبشة زمن النميري وأرسلوا إلى دولة اليهود إلى الآن يرفض الحاخامات دفنهم على الطريقة اليهودية، لا يقبلونهم ولذلك، لعدم التبشير هم قلة، لا يبشرون بديانتهم، بخلاف النصرانية تبشر مع وجود النصوص التي عندهم «أنني بعثت إلى خراف بني إسرائيل الضالة»، لكن التبشير عندهم موجود، المسلمون يبشرون لأنهم يعتقدون أنه الحق وأن الجنة لا يدخلها إلا مسلم.

ومن حسد اليهود أنهم رفضوا أن يكون هناك نبيٌ من غير شعبهم من غير قومهم، ولذلك لما اليهود جاءوا وسألوا النبي صلى الله عليه وسلم أسئلة ليتوثقوا من نبوته اعتقدوا أنه هو الرسول، قال: (فما يمنعكم من اتباعي)، فذكروا أن الذي يمنعنا من اتباعك أننا لا نقبل إلا نبي من قومنا، هو دين قومي، وهذا من فسادهم.

وانظر المسلم ينظر أنه من خير أمة لما فيها من فضلٍ في العمل فإذا نشأ الفضل من العمل أنشأ التواضع، أي لو سألت المسلم قلت له: من خير أمةٍ في الأرض؟ قال: المسلمون هم خير أهل الأرض، من خير الأديان ديناً؟ الإسلام، فهذه الكلمة العميقة التي يقولها المسلم، يعلم المسلم معها ومن تفسيرها أن المرء يكون عظيماً بمقدار التزامه بالإسلام، لأنه يعلم معها قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، هذا المعنى الذي يُنشئ الأفضلية بالعمل يُنشئ التواضع، هذا الاعتقاد الناشئ أن الأفضلية تنشأ بالعمل والتقوى تُنشئ التواضع فلا يفخر، مع اعتقاده أنه الأفضل فلا يفخر، ويعامل الآخرين بالحسنى.

لكن إذا كانت الأفضلية كما يقول الجاهليون وكما يفعل الجاهلون على رأسهم اليهود، إذا كان هو يعتقد أن أفضليته بسبب نسله لهذا الأب أو بسبب انتمائه لهذه العشيرة أو بسبب انتمائه لهذه القبيلة، كيف يكون افتخاره على الآخرين؟ هل ينشئ التواضع كما أنشأه الافتخار بسبب العمل أو الأفضلية للاعتقاد الأفضلية بسبب العمل؟ إنما يُنشئ الجاهلية، فلا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد، وسبب هذا هو أن تكون أمة هي أربى من أمة، الله منع الظلم إذا كان السبب منشأه هو أن تكون أمة أربى يعني أقوى أغنى أفضل في هذه الدنيا، أن تكون أربى من أمة.

فالقصد: بأن هذا الدين هو دينٌ عنصري، وهذا الاعتقاد من وجود الأفضلية وما جّر إليه من أمور جعل العالم يكرهه، هذا الاعتقاد هو الذي جعل العالم يكره هذه الفصيلة، ونشأت ما يسمى في الغرب بالمسألة اليهودية، ومنشأ المسألة اليهودية هي هذه القضية، ما هذه القضية؟ هو أن اليهودي ضعيف لأن دينه ليس تبشيري، يملك المال وسيأتي وأنهم أحرص الناس على الحياة، شعور الأفضلية لديهم الغرور، وهم قلة، ما النتيجة؟ سحق الشعوب لهم، ما حل المشكلة؟ ما في حل، فأنتجوا لهم هذه القضية وهو عزل اليهود في «كيبوتسات» في مناطق أخرى بعيداً عن مشاكلهم مع الشعوب، فأخرجوا لهم قضية فلسطين، يعني فلسطين قضية اختلفوا فيها أين نذهب بهم؟ كان الاختيار إلى أرجنتين مرة بعضهن أقترح الأرجنتين، إرسال اليهود إلى الأرجنتين، بعضهم اقترح موزنبيق، ثم بعد ذلك وجدوا أنه لابد من وجود أرضٍ لها علاقة بالدين، فأنتجوا قضية فلسطين، وبعض الباحثين يقول: إن هذه القضية وهي قضية فلسطين أنشأها يهود الخزر.

ما يهمنا هنا قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾ [البقرة: ٤٧]، أي بعطاء الله لهم الذي أنكروه كما ستبين الآيات التي تلي والتي تبين هذا.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧]، أذكروها وهذا الذكر يؤدي إلى العمل، ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾ [البقرة: ٤٧].

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)﴾ [البقرة: ٤٨]، تقدم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، إذن ما هو مناط الحديث في تخويف الناس؟ يعني ينبغي هذا مما أن نوظفه، فبعض المشايخ يخوفونك إذا عصيت بذهاب المال، يخوفونك باضطراب النفس في البيت كل هذا حقيقي وصحيح، يخوفونك بعدم البركة في المال، إذا لم تقم بالطاعة، كل هذا صحيح، ولكن هذا إذا اقتصر عليه كان فاسداً، والأصل ألا يخوف المرء إلا بالله عز وجل، بل ألا تُنشط إرادة المرء إلا بهذا الأمر.

ولذلك لما جاء الأنصار وبايعوا النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: «فما لنا يا رسول الله»، والأمر في بدايته أي لم تكن بعد قضية ما يسمى عند المعاصرين بالتربية، يعني البعض من المشايخ اليوم يرفض التكاليف إلا بعد التربية، ولذلك يقولون الجهاد بعد التربية، ما تعرفونه، كل هذا طبعاً فاسد ولا قيمة له، الصحابة هؤلاء لم يتربوا بعد، يعني إلى الآن لم يعطوا العهد والميثاق للنبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: «يا رسول الله فما لنا»، يعني إذا نحن بايعناك وقدمنا صدورنا ونحورنا لخدمة هذا الدين وفزعنا وخوفنا وقطع عنا الميراث، يعني ما وقع من حياتهم رضي الله تعالى عنهم، «فما لنا يا رسول الله»؟ قال صلى الله عليه وسلم: (الجنة)، قالوا: «رضينا».

فالعلاقة يجب أن تكون صريحة من الابتداء، ويجب أن تعلم الناس أن القضية هي الجنة، إذا أبقيت هذه القضية حاضرة يكون لها الأثر في حياة الناس، لا تخوف الناس بغير هذا، ولا ترغب الناس بغير الجنة، لا تخوف الناس بغير الله عز وجل، ولا ترغب الناس إلا برضا الله عز وجل وما تبع ذلك، الرضا وبعد ذلك الجنة والتخويف وبعد ذلك النار، من الابتداء على الناس أن يعرفوا هذا، لأنهم إذا فهموا هذا استقامت حياتهم وربطوا الأحكام كلها بمناطٍ صحيح، المناطات الأخرى ضعيفة تزول وتضعف لكن ذكرى الدار الآخرة والخوف من الله وحضور الجنة والنار في قلب المرء هذه قضيةٌ عظيمة، لا تقف أمامها الجبال، فالله عز وجل قال: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦].

ولما خوف بني إسرائيل في ابتداء الأمر وأراد أن يبين وجوب التزامهم بما يأمر فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ [البقرة: ٤٨]، اليوم هو اليوم الآخر، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾، ولماذا نُكر؟ لحضور معناه، فما قال: واتقوا اليوم وإنما هو يوم ولكنه مع نكارته في اللفظ حاضرٌ في الذهن حضوراً عظيماً هذا واحد، الشيء الثاني: نُكر لعِظم ما فيه، فلو أنه عرف لربما ذهب الذهن إلى شيءٍ واحد فيه، فلما نُكر قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾، ما الذي في داخل هذا اليوم؟ أشياء كثيرة، أمورٌ مهولة عظيمة، هذا اليوم هو يوم القيامة وهو لقاء الله عز وجل.

بما يدفع المرء الشر عن نفسه؟ أي ما هي الطرق في الحياة لدفع الشر عن نفسه؟ إما أن يدفع المال مقابل الشر، يعني واحد له على واحد حق في قطع يده في قلع عينه، فيدفع القلع والقطع والسوء والجلد بالمال، يقول: هذا مال مقابل هذا الإيذاء، فيدفع عنه هذا الايذاء بالمال.

الشيء الثاني: يدفع بالشفاعة، الآن الشفاء ما هي؟ مثل عندنا يسموها اليوم «العطوة»، هذه شفاعة، هي معنى الشفاعة، أنت تريد من رجل زوجة فتذهب وتأتي بالجاه، هذه شفاعة، أنت تريد من رجل أن يقضي حاجتك فيتصل فيه فلان فهذا يشفع، والشفاعة سنبين بعض أحكامها فيما يكفي هنا، ولكن الشفاعة من الشفع وهو ضد الوتر، لماذا؟ لأن المرء في مصيبته واحد، فإذا جاء الآخر عاونه صار ضد الوتر صارا اثنين فسميت شفاعة، من هنا أخذت لها، يعني هذا من عجائب العربية.

واليوم العوام يسمون «طنيب»، ما هو «طنيب»؟ أخذ من الطنب، ما هو الطنب؟ هو عمود الخيمة، وذلك لأن طنيب يعني اللاجئ إلى كنف هذا المسؤول أو الكبير أو الشيخ أو القائد يدخل فيربط نفسه في عمود الخيمة يقول له: أنا ماسك في الطنب، فسمية «طنيب»، وكذلك سميت الدية بالعاقلة لماذا؟ لأنهم يعقلون يأتون بالدية فيعقلونها أمام البيت يربطونها فسميت عاقلة، من العقل ما هو العقل؟ الحبل، وسمي العقل عقلاً، لأن الحبل يمنع، لما أنت تريد أن تمسك دابة ماذا تفعل؟ تربطها بالحبل وتعقلها، فسمي العقل عقلاً هو الأصل ليس اسمه عقل، يعني أخذت هي من الحبل إلى العقل، لأننا لو قلنا بأن العقل هو الأصل، لما استفدنا من الأمور الأخرى، كيف تسمى المرأة تسمى العاقلة لماذا تسمى المرأة العاقلة؟ من الحبل، لماذا سمي العقل الذي هو ضد الجنون عقلاً لارتباطه بالحبل، الربط فعقله يعني ربطه، فسمي العقل لأنه يربط من السفاهة، وسميت المرأة عاقلة لأنها تربط في البيت، عقيلته يعني ربطها في بيته ما خلاها سائبة، كما تفعل النساء في هذا العصر وهكذا في اللغة.

فالقصد: أن الشفيع سمي لأنه ينقض الوتر، فيكون المرء في مصيبته واحداً منفرداً يتلقى المصيبة لوحده، فيأتي آخر ويقول: أنا أريد أن أساعدك فيصبح هذا شفيع له شفاعة، من هنا أخذت الشفاعة.

إذن ما هي طرق دفع الشر عن المرء؟ إما بالدفع وهذا هو العدل ومن أين أخذ العدل؟ العدل هو من الإمالة، تقول عدل عن الطريق، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)﴾ [الأنعام: ١]، يميلون، فالأصل فيها الإمالة، لماذا الإمالة؟ هي أخذت من عدل الدابة، لما تحضر أنت الدابة وتضع عليها الحلس، فلابد إذا وضعت واحدًا ماذا أصبح؟ ميل، فهذا عدلها، تضع من هنا كيس ومن هنا كيس وتربط بينهم وتوازي بينهم فاسمه العدل، من هنا أخذ العدل لأنه موازاة بين الأمرين، فإذا مال كان عدلاً كان مائلاً.

مثلاً: الآن واحد له حق على واحد مئة دينار ما هو العدل؟ أن يدفع له هذا، وإذا واحد قلع عين رجل العدل أن يقلع عينه، إذن هذا العدل، إذن بما يدفع الشر بما يقابل العدل، إما أن يدفع المال ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]، ويقابله ما فعله إما من جنسه وإما من قيمته، ولذلك الفقهاء يقولون: مثلي ولا قيمي، يعني في أشياء مثلية يمكن أن تؤدي مثلها، وهناك أشياء لا يمكن أن تؤدى مثلها وإنما تؤدى قيمتها، فإذن الفقهاء يقولون: هذا مثلي ولا قيمي.

فإذن إما أن يدفع هذا الشر بوجود الدفع الذي يعادله لهذا الشر الذي وقع منه، وإما أن يأتي شفيع له يتحمل معه يقول: أنا جئتك شفيعاً لأدفع هذا الشر عنك، واحد يقتل واحد يقول له: جئتك شفيعاً تنازل عنه، واحد له على واحد خمسين دينار فيحضر رجل له دالة له قبول عند الدائن فيقول له: أسقط الحق فيشفع له.

فهذه هي الصور المقابلة لكن هناك صور الغلبة، هذه صور مقابلة الشافعة والعدل لكن لابد من صورة أخرى وهي صورة الغلبة واحد يدفع عن نفسه الشر بماذا؟ بالقوة، وإما أن تكون قوة منه وإما أن تكون قوة معه ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، تتقدم لما تأتي الآيات التالية في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)﴾ [البقرة: ٤٨]، سنبين الفرق بينهما لأنه فرق مهم.

والأحوال تختلف فعندما تكون المسألة عظيمة كبيرة جداً، فلابد أن العدل أو النصرة، إذا كانت المسألة قليلة يمكن أن تقبل الشفاعة لا تقبل الشفاعة مثلاً في ديننا هل تقبل الشفاعة في حد من حدود الله؟ لا تقبل، لماذا؟ لأنها حق الله عز وجل، فالناس كيف يسقطونها ليست لك، وكلما عظمت الجريمة لا تقبل الشفاعة، تقبل الشفاعة بالتخفيف لكن ليس بكل الإزالة.

فقال الله عز وجل: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، مطلقا انظر، لا تأتي لو جاءت شفيع لا تقبل منها ترد، ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، أي ما يقابلها، ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)﴾ [البقرة: ٤٨]، قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)﴾ [الصافات: ٢٥-٢٦]، لا ينصر بعضهم بعضا، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦)﴾ [عبس: ٣٤-٣٦]، لماذا بدأ بالأدنى إلى الأعلى مع أن الأمر عظيم؟ قال تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١)﴾ [المعارج: ١١] ماذا قال؟ الافتداء انتبه الفرق بينهما، قال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤)﴾ [عبس: ٣٤]، بدأ بالأدنى ﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦)﴾ [عبس: ٣٥-٣٦]، بالأدنى إلى الأعلى، لما يكون الفرار، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ﴾ [عبس: ٣٤]، في فرار، أي لو جاءوا إليه يطلبون منه النجاة ويطلبون منه المساعدة فيفر منهم، فبدأ بالأدنى.

لكن قال سبحانه وتعالى: ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١)﴾ [المعارج: ١١]، ابتدأ بالأعلى، ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣)﴾ [المعارج: ١١-١٣]، لماذا لما كان الافتداء بدأ بالأعلى ببنيه؟ ولما كان الهروب بدأ بأخيه بالأدنى، لماذا؟ ما لفرق؟ الفرق بينهما أنه بدأ بالأدنى لأنه فرار، هروب من عدم نجدتهم، لكن لما كان الأمر يتعلق بنجاته هو، هو لما يفر هم طلبوا النجاة منه ففر، لعظمه، ولما كان الأمر بالافتداء بدأ بأعظم ما يقدم.

لما كان الأمر هروب من التكاليف من الطلب جاءوا إليه فبدا بالأدنى، ثم ثناه حتى وصل أن يفر من صاحبته وبنيه وكما يقول شيخ الإسلام له لفتة هنا في هذه الآية يقول: ذلك لأن الهروب من الزوجة وعدم نجدتها من أقبح ما يطرأ على نفس العربي، يعني يموت ولا يهرب، كيف يهرب؟ فلما كان الأمر هروبًا يعني هروب من التكاليف بدأ بالأدنى لكن لما كان من أجل النجاة، لما كان النجاة ضحى بأعظم ما عنده وهو بنيه، ﴿لَوْ يَفْتَدِي﴾، أي ينجو وهذا يدل على أن حال النجاة لا تكون إلا وقد ثبتت عليه التهمة، وثبت عليه العذاب، لما يرى العذاب يتمنى في هذه اللحظة لو يقدم ابنه.

لكن لما يكون الفرار الآن هو بعد ما ثبت عليه شيء، فهؤلاء يقولوا له أنجدنا، أنجدنا، فيفر، فاختلاف الحال بين النجاة وبين الفداء هذه حالة، واختلاف حال المسؤول هذا يفتدي عند من؟ عند أي حالة؟ وقد ثبتت عليه الجريمة ورأى النار وعاينها ورأى جحيمها وعذابها، فيتمنى أن يفتدي حينئذٍ بأعظم ما عنده ببنيه وأعظم ما يدافع عنه المرء.

القصد: فقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ [البقرة: ٤٨]، اتقاء هذا اليوم باتقاء أسباب العذاب وبعمل موجبات الرحمة، أي لما يقول: ﴿وَاتَّقُوا﴾، كيف يتقي؟ فلو أخذته على ظاهره قال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ يعني ابتعد عنه، ليس هذا المراد، فلما نقول: اتق الزنا يعني ابتعد عنه لا تقربه، اتق الربا يعني لا تقربه، فقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾، أيعني ابتعد عنه؟ لا، المقصود اتقي هذا اليوم بأن تهرب من عذابه وأن يحصل لك موجبات رحمة الله فيه، فتتقي هذا اليوم بأن تكون فيه سعيداً وتكون فيه ناجياً وذلك بالإتيان بأسباب هذه الأمور.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾ [البقرة: ٤٨]، يوم القيامة قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾، وذلك هذا مما كفر به قريش، عندما قالوا كما في سورة «العنكبوت» قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢]، هذه إحدى معوقات سلوك طريق الحق، لأنه في سورة «العنكبوت» أول معوق في سبيل الحق هو وجود الأبوين، فقال سبحانه وتعالى فيها: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [العنكبوت: ٨]، فالأول يقف أبوك وأمك ثم يأتي الأصحاب، والأصحاب غروه

بقولهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢)﴾ [العنكبوت: ١٢]، لا يحمل أحد.

واللاحقون قالوا للسابقين قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١)﴾ [سبأ: ٣١]، ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)﴾ [الأحزاب: ٦٨]، وكما في سورة الأعراف قال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: ٣٨]، يعني السابق واللاحق.

فالقصد: قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨]، لا يمكن لأحد، تجزي المقصود الجزاء، لا يؤدي أحدٌ جزاء غيره بل يؤدي نفسه، وهل يمكن للمرء أن يكون عليه ذنبه وذنب غيره؟ الجواب: نعم، من دعا إلى هدى كان له الأجر مثل عمله وعمل من تبع به على الهدى، ومن دعا إلى ضلالة كان له عليه من الوزر ما عليه وعلى من تبعه من المعصية، فلذلك قال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: ٣٨]، يعني أنتم أئمة لغيركم كما أن غيركم إمامٌ لكم فحملتم ذنوبكم وحملتم ما ورثتموها لغيركم أو علمتموها لغيركم هذا موضوع آخر.

ولكن أن يأتي أحد فيحمل جزاء غيره!! يوم القيامة يقتاد من كل أحدٍ بما عمل، ويُسئل كل أحدٍ عن عمله ولو التفت حوله فلا يجد إلا النار، فقال صلى الله عليه وسلم: «فاتقوا النار ولو بشق تمرة»، لا يجد أحد يدافع عنه إلا عمله، ومن هنا فإن من فضائل قراءة القرآن كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن سورة «البقرة»: (يأتيان يحاجان عن صاحبهما)، أنت بحاجة يوم القيامة إلى من يحاج عنك، وذلك من أعمالك وذلك من يقينك وذلك من اعتقادك، فالله عز وجل لا يحاسب أحدًا بذنب أحد إلا إذا كان هو سببه، إلا إذا كان هو الذي أعان عليه، إلا إذا كان هو الذي دعا إليه.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي﴾ [البقرة: ٤٨]، تجزي يعني الجزاء، الجزاء هو المقابل، ولكن المقابل إما أن يكون بعطاء وإما أن يكون بعذاب، قال: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾ [البقرة: ٤٨]، يعني الأب لا يجزي عن ابنه، الابن لا يجزي عن أبيه، الزوجة لا تجزي عن زوجها ولا تجزي عن ابنها، كل نفس لا تنفع، ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾، قال: ﴿شَيْئًا﴾، هنا نكرت لقلتها ولو مقدار نقير لا تجزي، كل واحد يؤدي.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، لو أتى أحد يوم القيامة لو أتى أحدهم بملء الأرض ذهباً لا يقبل منه، قال: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)﴾ [البقرة: ٤٨]، من الذي ينصرهم يوم القيامة؟ الله عز وجل يميت الخلق جميعاً ثم يقول: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، من يستطيع أن ينصره؟!! والنصرة إنما تكون لمن قدر على الغلبة، ومن يغلب ربنا عز وجل؟!! وهو الغلاب جل في علاه، ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)﴾ [البقرة: ٤٨]، نكتفي إلى هنا إن شاء الله، ونتابع الدرس في أيامٍ قادمة نسأل الله عز وجل أن يغفر لنا ذنوبنا ويرحمنا برحمته.

وجزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثامن والأربعون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلا وسهلاً بكم أيها الإخوة الأحبة في الدرس الثامن والأربعون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» وعند قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)﴾ [البقرة: ٤٧-٤٨]، هنا يحضر هذه الآية أنها كررت في موطنٍ آخر قادم في سورة «البقرة»، ولكن مع تقديمٍ وتأخير فما قدم هنا أخّر هناك، وما تأخر هنا تقدم هناك، في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣)﴾ [البقرة: ١٢٣]، فما هو وجه الفرق بينهما؟

هنا ننبه على قضية مهمة وهو أن هذا الاجتهاد الباحث في الآيات المتشابهات بحثٌ يدل على رقي النفس وكذلك على اختلاف الوجوه، أي العلماء يبحثون عن وجوه الإعجاز والتنوع في القرآن، لماذا هنا؟ فهذا كله من قبيل التدبر لكتاب ربنا، وقد تختلف الأقوال فيما لا يتعارض القول مع القول الآخر، لكنها عملية حفرٍ ونبطٍ لاستخراج الفائدة، ليقينهم أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون فيه حرف إلا وقد تكلم الله عز وجل به على وجهٍ من وجوه المعاني اللازمة للتدبر واللازمة للفهم، وبها يرقى القارئ لكتاب ربنا والمتدبر له يرقى رقيًا متنوعًا، وأول الرقي هو رقي القلب، في علاقته مع الله عز وجل، ولا يمكن أن يحصل رقي القلب إلا برقي العقل، أي الفهم، لابد أولاً من الفهم.

فهذا التدبر أول درجاته الفهم عن الله عز وجل، فإذا حصل الفهم حصل التذوق، هذا التذوق يتشربه القلب، فإذا تشربه القلب انفعل به البدن وانفعلت به الإرادة حبًا لله عز وجل وقرباً له وطاعةً له وإخباتاً وحسنات، وبالتالي درجات عند الله ورضا، ولذلك ما يقرأه طالب العلم من وجوه النظر في مثل هذه المواطن من كتاب ربنا، من تنوع الخطاب هو من هذا القبيل، أن الناس يركضون، فالعلماء يركضون في بلوغ الغاية واستطلاع المعالم ولا يثرب واحدٌ على آخر، لأن هذا من العلوم التي بها يرقى المرء، وبالتالي رقي كل واحدٍ من جهة لا يعني إغلاقه الجهات الأخرى، بخلاف المسائل الفقهية.

المسائل الفقهية المقصود بها العمل فلا ينبغي التعارض في العمل، ينبغي أن يكون العمل شيئاً واحداً وصورةً واحدة ولذلك التفرق وإن كان له أسبابه المعتبرة في الشرع والتي يقع بها الإعذار فمن اجتهد وأخطأ فله أجر، ولكن العمل الواحد محبوب إلى الله عز وجل بخلاف الرقي العلمي، فإن الناس يختلفون فيه ويتنوعون فيه تنوعًا يحصل مقصود الشارع بأن الشجرة الواحدة أو أن الفرع الواحد، يُنبت الكثير من المعارف، أي تنوع المعارف التي يقولها العلماء من وجوه هذا النظر في المتشابهات القرآنية، يدل على أن هذا القرآن شجرة وارثة كثيرة الخير لا تتوقف.

ومن هنا تحصل كلمة علّي رضي الله تعالى عنه: «ولا يخلق من كثرة الرد»، ما معنى ولا يخلق من كثرة الرد؟ أي لا يبلى، كلما جاء إليه عالم أخذ علماً آخر وأخرج منه فائدة أخرى، ومن هنا تظهر درجات العلماء.

أضرب لكم مثالاً حتى أدخل في هذه الآية في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، الذي اخترته أن استخدام هذه اللفظة دون الذين يوقنون بلقاء ربهم، هو أن الظن يقع على بعض معاني اللقاء، وليس على اللقاء نفسه، وبعض العلماء لم يقل هذا، هذا الذي أنا وقع في قلبي.

فبعض العلماء يقول كالتالي وهذا قول البقاعي في «نظم الدرر»، يقول: إذا كان الظن الراجح لو وقع في القلب على لقاء الله وعلى الجزاء أي الحساب بالعذاب أو بالإحسان والنعيم، فإذا كان مجرد الظن ينبغي أن يدفع المرء ما دام أنه يظن يغلب على ظنه، مع وجود المعارض وقلنا الظن الراجح مع وجود المعارض هكذا هو مجرد في الاصطلاح، وإذا كان مجرد الظن قد وجد في القلب فأنه كافٍ لهذا القلب بأن يدفعه إلى الطاعة وإلى الإخبات واجتناب المعاصي وإلى الإقبال على الطاعات مجرد لو وقع في قلبه الظن بأنه سيقع هذا العذاب الذي أنذر الله به عبيده، وهذا الجزاء الذي وعد الله عبيده، فمجرد الظن كافٍ بأن يحصل العبادة، فكيف لو وقع اليقين، -انظر- فقال: فجاء بلفظ الظن أنه كافٍ لتحصيل الذين يظنون أنهم كافٍ ليحصل لهم المعاني.

وهذا من وجوه النظر الذي يمكن للمرء أن يتأملها وهذه لا ينبغي للعبد أن يقف عندها، لا يقف على ما قاله واحد، ولا تقول هذا يعارض هذا، ومن هذا ما نحن فيه.

فقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨]، هذه أربع مراتب، ونحن قلنا في الدرس الفائت ثلاثة ولكن الآن نحن نضطر أن نقول: بأنها أربعة للزوم الأمر، هذه أربع مراتب لدفع الضرر عن الإنسان:

المرتبة الأولى: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾، وسنبين ﴿تَجْزِي﴾ أي تفدي، يحصل بها أن تقدم نفسها لدفع الضر عن الآخر بأن يقع عليه، وهذا نفاه الله عز وجل كما قلنا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢]، فلا تجزي نفسٌ عن نفس شيء، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ

مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر: ١٨]، لا يحمل أحد عن أحد، ولا يجزي ولدٌ عن والده شيئا، ما أحد يجزي فهذه مرتبة.

المرتبة الثانية: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، أن الشفيع لا ينفع في دفع الضُر عن العبد يوم القيامة، فيما لزمه من العذاب.

المرتبة الثالثة: العدل ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، والعدل هو المقابل، ما يعادله أي ما يكون له ثمنًا من نوعه أو من غير نوعه، وقلنا: بأنه قد يكون الشيء مثلياً وقد يكون قيمياً.

المرتبة الرابعة: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)﴾ [البقرة: ٤٨]، لا يستطيعون نصرهم.

الآية التي ستأتي في سورة «البقرة» قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا﴾ [البقرة: ١٢٣]، فماذا اختلف الوضع بين الآيتين؟ في قضيتين:

القضية الأولى: هذه قدمت الشفاعة على العدل، والآية الثانية قدمت ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾، على الشفاعة.

القضية الثانية: أن الآية هذه قالت: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، الآية الثانية قالت: ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، فما سبب الاختلاف؟

أولاً: مما يكاد يتفق عليه المفسرون والبلاغيون على أن هذا الترتيب هو الذي يقع في الواقع، ويقع على أي معنى كما قال ابن الاسكافي في «الدرة» قال: يقع هذا المعنى على جهة من له أنفة، يعني الرجل إذا كان أصحابه لهم أنفة وقوة وعزة فإنهم أول ما يدفعون بأن يقوموا بنصرته بفداء أنفسهم دون نفسه، فلو أن رجلاً هوجم مثلاً من قبل خصومه وأعدائه فأول درجات هؤلاء القوم أصحاب هذه الأنفة أنهم يدفعون عن نفسه بأنفسهم ولذلك قدمت هذه ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾، أي لا يصلح بأن يتقدم أحد ليقول: أنا أقدم نفسي عن غيري هذه متفق عليها أن هؤلاء أصحاب الأنفة.

ثم بعد ذلك تنزل الدرجة بأنهم لا يستطيعون أن يجزوا بأنفسهم عن نفسه فيبدأ بأن يقولوا: نشفع له، لأن هذه الأنفة، الأنفة لا يقول ندفع المال، ولكن يقدمون جاههم لأن الشفاعة هي تقدمة الجاه، والعدل تقديمة المال، الشفاعة أن تقدم جاهك وكلمتك ووجهك وقيمتك من أجل أن تُقبل عند صاحب الحق لتدفع عنه البلاء قبل أن تقدم المال فإذا رفض جاهك، تقدمت إليه بالمال فإذا لم ينفع المال ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ رجوت له الفكاك والنصرة بعد ذلك، أن تقع النصرة بعد ذلك، هذا الوجه الذي قالوه وهو وجهٌ مقبول، فلماذا جاء التغير؟

القول الأول: الذي قاله بعضهم، وهو قول صاحب التحرير ابن عاشور ولم يبحث فيها وهذه طريقة عند ابن عاشور في تفسيره وأنا يعني أراها معوقة عن الدراسة العميقة للباب الذي هو فيه، هو كثيراً ما يقول: «وهذا من باب

التنوع من أجل درء السآمة ومن أجل التغير في الخطاب»، ولا يبحث عن سببه، لماذا؟ هو يقول: جاءت هذه الآية هنا على هذا المعنى، على هذا السياق وجاءت في موطن آخر من أجل فقط التنوع في الخطاب، والتنوع في الخطاب نوع من أنواع البلاغة، ومن أجل أن يدع السآمة حتى لا تتكرر آية على وجهٍ واحد، هذا يأتي به وهذا في الحقيقة يعني لا يراه المرء من كمالات النظر في هذا الباب، مع إنه يكرر كثيراً الشيخ ابن عاشور.

القول الثاني: وهو قول أبي حيان الأندلسي في «البحر المحيط» قال: «وهذا بحسب مراتب الناس أنفةً وقوة، فإذا كان الطالب لهذا المبتلى إذا كان من أصحاب المال فأنه يطلب المال فيقدمون إليه المال، لكنه إذا كان من أصحاب الحمية فإنهم يقدمون له الوجه»، الناس ليس بحسب المجزي ولكن بحسب طالب الجزاء، ليس بحسب المجزي الذي طالب ولكن بحسب الذي يطالب بالجزاء، فربما بعض الناس لا يريد المال وإنما يريد أن تأتي إليه الوجوه، من أجل أن تشفع فهو يقدم الشفاعة فالناس حينئذٍ يقولون: ما الذي يريده هذا الطالب؟ يريد المال، يحب المال، قدموا له المال، فإذا كان من هذا النوع فقدم المال على الشفاعة، وإذا كان هذا الطالب ممن لا يقيم شأنًا للمال مقابل الوجوه ومقابل الحمية والشرف، فأنه يحب أن يدخل عليه الوجوه، ويدخل عليه الشفعاء فيطلبون منه فهو يفرح أن كبار القوم قد جاءوا وسعوا إليه، انظر هذا وجه ما قاله، وهو قول أبي حيان قلت لكم في البحر المحيط.

القول الثالث: هو قول ساقه السيوطي ولم ينسبه لنفسه وقال: أنه قولٌ وصل إليه والحقيقة وهذا في كتابه «الإتقان في علوم القرآن» يعني نقل عن غيره قولاً غير ما تقدم وهو وجهٌ جميل في الحقيقة، والشيخ الشعراوي مال إليه في تفسيره الذي كان يلقيه على الناس ولم ينسبه، وهو في الحقيقة من «الإتقان»، وكثيرًا ما يأخذ الشيخ الشعراوي في تفسيره كثيرًا ما يأخذ من مصدرين، المصدر الأول كثيراً ما يأخذ من «تفسير الرازي»، كثيراً ما يأخذ منه، بل لعله يقتصر في قراءته للتفسيرات بتفسير الرازي، والحقيقة «تفسير الرازي» ظلم بقولهم: أن فيه كل شيء إلا التفسير ظلم، في الحقيقة فيه التفسير لكنه يتوسع في أبوابٌ أخرى لا علاقة لها بالتفسير ولا من قريب ولكن من بعيد ربما، ويأخذ كذلك من «الإتقان» الشيخ الشعراوي.

ففي «الإتقان» ماذا يقول السيوطي نقلاً عن غيره وليس هو له بحسب نصه؟ يقول: لا، يقول: «النفس الأولى التي تقدمت في الآية ليست هي النفس الأولى التي تقدمت في الآية الثانية، والنفس الثانية التي تأخرت في الآية الأولى هي التي تقدمت في الآية الثانية».

أنا أشرح هذا الكلام نحن عندنا ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾، فعندنا نفسٌ جازية أي مقدمة لنفسها للجزاء ونفسٌ مجزية ليدفع عنها البلاء، عندنا نفسان، ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾، فالآية الأولى المقصود بالنفس الأولى هي النفس الجازية التي تبذل نفسها لدفع الضرر عن النفس المجزية، وأما في الثانية النفس هذه ولا تجزي نفس، هذه النفس الأولى هي نفس الثانية في الآية الأولى أي نفس المجزية وليس الجازية.

وقال: فإذا كان الأمر كذلك فالنفس الجازية ماذا تبذل أولاً، اتبذل مالها أم تبذل جاهها؟ تبذل جاهها؛ لأنها تقدم نفسها، فهي تقدم جاهها قبل أن تقدم مالها، لكن بخلاف النفس المجزية التي وقع عليها البلاء هل تقدم الجاه أم تقدم ما معها؟ قبل أن تقدم الناس تقدم الذي معها، فهي تقدم المال، أي النفس الجازية الأولى تقدم جاهها قبل مالها تقدم الجاه لأنه هو الأكرم ثم تقدم المال، أو أنها إذا رفض الجاه تقدمت النفس المجزية بالمال، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، رفضت الشفاعة حينئذٍ تبرز النفس المجزية بتقدمة المال.

أما في الثانية فإن النفس الأولى لا تجزي نفس عن نفس المقصود النفس المجزية فإنها أولاً قبل أن تذهب للناس من أجل أن يشفعوا لها تقدم المال، فإذا رفض المال جاءت بالوجوه لحصول الشفاعة، هذا وجه قاله السيوطي.

وهذا مما قيل من كلام أهل العلم فيبقى موضوع يقبل وتنفعها، فإنها في هذه الآية ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، يقبل، الثانية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا﴾ [البقرة: ١٢٣].

نرجع إلى ابن الإسكافي قال: من يحصل أولاً القبول أم النفع؟ القبول، فإذا قُبل حصل النفع، فقال ابن الإسكافي: هذا الترتيب على وجه ما يقع في القدر، فقدم ما يقدم وجودًا ويؤخر ما يؤخر وجودًا، فأولاً لا يقبل منها شفاعة فلا يقبل، فهذا هو الذي يحصل أولاً، لكن ثانياً ولا تنفعها هذا وجهه.

أما السيوطي فحين نقل ما تقدم ذكره من قوله في قضية التفريق بين النفس الأولى والثانية، ووضعه كل واحدٍ مكان الأخرى، قال: «هذا التفريق بين القبول وبين النفع له علاقة بما تقدم من نصره لقوله»، كيف؟ إذا كانت النفس الأولى هي نفس المجزية فأنه لا يقبل منها، لأنه ما الذي تقدم؟ تقدمت الجازية، فحين تتقدم لا يقبل منها، وأما إذا كانت النفس المجزية هي تقدمت فلا تنفعها، تلك لا يقبل منها لأنها هي التي تقدمت، وتلك لا ينفع لأنها هي التي قدمت غيرها، هنا قدمت نفسها فلا تقبل وفي الثانية لا تنفعها لأنها قدمت غيرها لا تنفعها.

قال: وهذا دليل في هذا التفريق بين تقبل وتنفع على أن النفس الأولى في الأولى ليست هي النفس الأولى في الثانية، وهذا يقوي بهذا المعنى يقوي ما نقله السيوطي من الكلام، وبعض أهل العلم تكلم كلاماً كثيراً يعني ربما لا تجد كبير طائلٍ تحته يعني في «ملاك التأويل» لأبا الزبير الغرناطي لما جاءها تكلم كلامًا لا تستطيع أن تضبط منه شيئاً، له وجه مما نحن فيه، ويكفي هنا.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)﴾ [البقرة: ٤٨]، هذا وإن كان ضمن السياق مع بني إسرائيل لكنه عام لكل الناس، فإذا كانت النفس

لا يقبل منها شفاعة، وكذلك لا تنفعها شفاعة، فهل هذا إنكارٌ للشفاعة؟ نعم، بعضهم قال: نعم في هذه الآية وهي تنفع المعتزلة، الذين لا يؤمنون بالشفاعة، تنفعهم، ولذلك الزمخشري في «الكشاف» وقف عندها على طريقته عندما تكون الآيات في ظنه تخدم قوله في هذا الباب، فقال: لا، وأنكر الشفاعة.

وأهل السنة يثبتونها لما يثبته القرآن لأنه هنا ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا﴾ [البقرة: ١٢٣]، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ [البقرة: ٤٨]، مقيدة، في قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فهناك استثناء، فهذا الاستثناء دل على الوجود، إذن الشفاعة ليست منفية على مراد ما يقوله المعتزلة، وما قاله بعض المعاصرين.

وللأسف حمل بعض المعاصرين وحمل كبرها الدكتور مصطفى محمود، والدكتور مصطفى محمود يعني هنا نأتي إلى قضية التمييز بين الشخص فيه كأنه شخصيات متعددة، فإنه مثلاً في حواره مع الملحدين ينفع، وكلامه نافع، وكذلك في كثير مما يقوله في العلم والإيمان تحت باب الإعجاز العلمي الذي يسميه البعض بالإعجاز العلمي ينفع كلامه، ولكن هؤلاء للأسف الكثير منهم بعد أن يروا أنفسهم يتحدثون في الدين حديثاً عاماً مقبولاً في إطار الشرع كما يتحدث به العامي، يعني العامي لو جئت إليه فهو يدفع شبهات الكافرين، إما بالرد والصد وليس بالعلم، يقول له: انصرف، ما تقوله باطل، فيقبل منه هذا، لكنه حين يسأل عن مسائل الدين ومسائل الشريعة لابد أن يكون لديه العلم فيها ليتكلم فيها، وبعلم وبطرق أهل العلم ليس فقط بالعلم ولكن عليه أن يفسر الشريعة بتفسير أهل العلم وبقواعده.

فهؤلاء للأسف الكثير منهم يتحدثون مثلاً عن التاريخ الإسلامي، فتجد لكلامهم صدى وتجد عندهم إبداع في البحث وإنزال التاريخ على الواقع ويتأثر بهم الناس وبعد فترة وإذا هو قفز إلى الحديث عما لا يتقن، ولذلك قال العتابي: «لو سكت من لا يعلم عما لا يعلم لذهب شرٌ كثير»، يعني اسكت شيء لا تعلمه لا تتكلم فيه، نجد رجلٌ يتكلم في التاريخ فيحسن والناس يحبونه ويتلاقونه، فبعد ذلك وإذا هو قفز على مسائل الشريعة والدين وو ... إلخ، وبدأ يتكلم كلامًا الباطل، تسقط قيمته عند الله وعند الخلق، لأنه تكلم في غير فنه، ولأنه لا يستطيع أن يرد شبه الملحدين في هذه الفروع، فيتأثر بهم ويصبح في سبيلهم، مع أنه على الجملة لا يقبل كلامهم في الكفر والإيمان والإلحاد وغير ذلك، وهكذا.

فمثلاً: لما بدأت كتب مصطفى محمود على ما فيها، كانت جيدة في بابها على جزءٍ معين وهي الرد على الملحدين، لكنه لما صار يتكلم عن فروع الشريعة ومسائلها خبط خبطة عشواء وقال كلامًا سيئاً جداً لا يقال، ومن ذلك أنه في أخر عمره قامت معركة في قضية إنكار الشفاعة، وكان من حججه، كما هي حجة الكثيرين أن الشفاعة «واسطة» وربنا لا يقبل «الواسطة»، وهذا قولٌ قبيح.

أولاً: «الواسطة» من الرحمة وهي مسألة عند البشر الواسطة التي هي الشفاعة عند البشر مكرمة وليست مذمة، وخاصةً في إسقاط العقوبات أو في إسقاط التكاليف، يعني رجل على رجل مئة دينار فرجل يشفع ليسقط عنه هذا الحق هل يذمم أم يمدح؟ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان رسوله ما يشاء)، فالنبي صلى الله عليه وسلم أمر بها والناس يحبونها والناس يستخدمون الجاه لأنه من نعم الله ومن كرم الله على الخلق كما يستخدمون المال، فعندما يأتي رجل له جاه وله اسم وله كلمة يدخل على رجل من أجل أن يسقط حقاً أو يزيل عقوبة فهذا استخدم شيئاً مما أكرمه الله به.

فإذن هذه كلمة «الواسطة وربنا لا يقبل الواسطة» هذه كلمة قبيحة، الواسطة عندما ترسم في أذهان الناس على ما يقع من الباطل في أزمانهم، هذا لا ينفي أن تكون الواسطة في بعض وجوهها وفي أغلب وجوهها خيراً وحسنة، الناس نعم الآن يشتغل واسطة كلمة قبيحة لأنها تجري على معنى الباطل وتجري على معنى أكل الحق وتجري ... إلخ مما يراه الناس، ولذلك الناس يكرهونها لكن في الحقيقة الشفاعة أمر شرعي ومطلوب وممدوح في الخلق.

ونحن نعلم ما يسمى بقياس الأولى، أي ما كان كرامةً عند البشر ليس على معنى ما يقع منهم من التعبد، بأنهم عبيد أي العبد لا ينفع معه من كرامته ألا يكون متكبراً، فعلى معنى العبد العبودية فما كان كرامةً وفضيلة في حق البشر فهو في حق الله أولى إلا إذا كان على معنى التعبد، فالإنسان يسمع وذهاب السمع عنه نقص، فالله عز وجل أولى بالسمع، فلما كانت الشفاعة في حق البشر مكرمة وفضيلة فهي في حق ربنا أولى، ولكن لابد من وجود موجبها وأسبابها.

متى تكون الشفاعة قبيحة؟ إذا كانت في إسقاط حقوق من لم يتنازل مثل الآن يشفعون في الميراث في عدم ميراث النساء، يذهبون إليه بالحياء والخجل والكلام يسقط عنه الحقوق، في قضية إسقاط الدية، وأولياء القتيل صغار، هذه شفاعة باطلة، شفاعة في إسقاط حد من حدود الله، النبي صلى الله عليه وسلم رد على أسامة وقد شفع في المخزومية، وقال: (اتشفع في حدٍ من حدود الله؟)، فالشفاعة الباطلة منفية في دين الله.

لكن الشفاعة ما هي صورتها في الشرع؟ أولاً: أعظم درجة في الشفاعة هي الشفاعة العظمى يوم القيامة وهي المقام المحمود والذي اختص الله عز وجل بها محمد صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق، فهذه ما معناها؟ معناها أن يرحم الله عز وجل الخلق ببدء الحساب، ذلك لما هم فيه من العذاب وقرب الشمس عليهم حتى يغرقوا في عرقهم بمقدار أعمالهم، هذه منقبة، ثم ما هو مقصدها كذلك؟ فوق ما فيها من الرحمة على الخلق فيها بيان مقدار عظمة محمد صلى الله عليه وسلم،

فانظروا حال الشفاعة كيف هي:

الأمر الأول: يأتي الناس إلى الأنبياء فيردونهم، لماذا؟ لأمرين لشدة غضب الله، فأنه غضب غضباً لم يغضبه قط ولن يغضبه قط من شدة الغضب، وشدة الغضب تقتضي أن يكون الشفيع عظيماً من أجل أن يرد هذا الغضب فيبتعد عنها الأنبياء، لإظهار مقام محمد صلى الله عليه وسلم.

الأمر الثاني في قضية إظهار مقام النبي صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل يريد أن يظهر مقام النبي صلى الله عليه وسلم فالغضب شديد ولا يدفعه إلا مثل هذا العبد العظيم عند ربه حتى يزيل هذا الغضب ويعرف كيفية إزالته في معرفته بنفس الرب سبحانه وتعالى فإنه يسجد تحت قوائم العرش فيفتح الله عليه من المحامد ما لم يفتحه على عبدٍ قط ولا على عبدٍ بعد ذلك قط، ما فتح على أحدٍ من قبل ولا من بعد من المحامد حتى يسكن غضب الله عز وجل.

فإذن من الذي يقوم بها؟ يقوم بها من هو مقبول عند الله عز وجل فهذه هي الشفاعة، وهذه الشفاعة تقع للكافر والمسلم، لأنها لبداية الحساب وهذه لا يشارك النبي صلى الله عليه وسلم فيها أحد، ثم تقع الشفاعات الأخرى ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم يشفع عند الله عز وجل بتخفيف العذاب على بعض أهل العذاب من الكفار كشفاعته لعمه أبي طالب، فإنه كان يدفع عنه، ولما مات سمي هذا العام لشدة ما وقع من قريش من إيذاء سمي بعام الحزن بعد موته وموت خديجة، فالله عز وجل يقبل شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم بأن يخفف عنه العذاب، كما في الحديث الصحيح.

وكذلك الشفاعات لأقوامٍ من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فالشفاعة في الحديث (شفاعتي لأهل المعاصي من أمتي)، هل معنى ذلك أن الصالحين ليس لهم شفاعة، لا، لهم شفاعة وذلك برفع درجاتهم فهذه شفاعة مخصوصة، هناك من الناس من لهم درجة في الجنة بأعمالهم فيشفع لهم النبي صلى الله عليه وسلم فترتفع درجاتهم في الجنة يعني الأصل موجود، الخير موجود ولكن ترتفع درجاته، وهناك من العصاة من يشفع لهم فيخرجون من النار بسبب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم مع وجود إيمانه مع وجود السبب.

فذلك الشفاعة الله عز وجل قيدها إلا بعد أن يأذن الله، لا أحد يتجرأ، لماذا قيدها إلا بعد أن يأذن الله؟ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، لماذا هذا القيد إلا بإذنه؟

السبب أن الشفاعة قد يدخل فيها معنى الدالة الغالبة مع أنها لا تكونوا كذلك على العادة لأنها لو فيها معنى القوة والغلبة لأخذ ما يطلب منه بالقوة والعزة، لكن مرات تقع الشفاعة من الأعلى عند الأدنى، يقع هذا في الوجود، يعني أن تذهب برجلٍ أعظم إلى رجلٍ أدنى من أجل أن تستخلص منه شيئاً يقع هذا المعنى، فالشفاعة فيها معنى الدالة، وهذا الله عز وجل يريد أن ينفيه، لا أحد يتجرأ فيكون فيه هذا المعنى بأن يأخذ من الله عز وجل على هذا

المعنى حتى مع صلاحه، حتى مع عبوديته حتى مع كرامته على الله، فإن الله هو المتكبر جل في علاه لا يقبل هذا المعنى، فقال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨)﴾ [طه: ١٠٨]، ما أحد، وقال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر: ١٦].

وهكذا جاءت الشروط على هذا المعنى من الشفاعة وهي ثابتة يؤمن بها أهل الإسلام وقد جمع أنواع الشفاعة وصورها وأحوالها ابن أبي العز الحنفي في شرحه عن الطحاوية واستقصى ذلك بإذن الله عز وجل.

أما البقية فلا يحصل منها شيء ولا يؤخذ منها عدل لا يوجد يوم القيامة إلا الحسنات والسيئات، ما في تعامل يوم القيامة لا بدرهم ولا دينار ولا ذهب ولا فضة فلا يدفع أحد عن أحدٍ شيئاً.

أما ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨]، قد يعترض عليه بالحديث التالي وهو أن الله عز وجل يجعل لكل عبدٍ من عبيده ممن خلق له مقعدٌ في الجنة ومقعدٌ في النار، لكل رجلٍ أو لكل امرءٍ أو لكل مخلوقٍ من البشر خلقه الله له مقعدان مقعدٌ في الجنة ومقعدٌ في النار فأما المؤمن فيأخذ مقعد الكافر، وإما الكافر فيأخذ مقعد المؤمن في النار يأخذ مقعده في النار، وهذا ليس من الجزاء، لأن الجزاء يقصد به الدفع هنا لا يحصل به الدفع، أرجو أن نكون قد استقصينا شيئًا مما قاله أهل العلم في هذا الباب والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)﴾ [البقرة: ٤٩]، الله عز وجل، جل في علاه يواصل حديثه عن مِننه على بني إسرائيل وقد تقدم قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧] وهنا جاء التفصيل، ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾، هم يعرفونها، فهنا جاء التفصيل ما هي النِعم؟ وهي نِعم عظيمة وكثيرة، منها ما ذكرت في القرآن ومنها ما لم تذكر وهم يعرفونها، ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، ومن نعمه على بني إسرائيل أنها لا تحصى.

ولكن يذكر هنا النِعم العظيمة التي اختصوا بها، وليس مقصود ذكر ما حصل لهم من النِعم التي حصلت كذلك لغيرهم من الاشتراك، وهنا نِعم خاصة كانت لهم، هذا واحد فهي تفصيل لقوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧]، وكذلك هي تفصيل: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾ [البقرة: ٤٧]، على معنى ما تقدم من التفضيل، لا نريد أن نعود إليه، فهذا ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩]، هذا من التفضيل، فكثير من الأمم لم تنجى من عذاب أسيادها، ومن ذلك: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤)﴾ [البروج: ١-٤]، أصحاب الأخدود لم ينجوا من عذاب أعدائهم.

ولكن الله عز وجل من على بني إسرائيل بمنن خاصة بهم وفضلهم بهذه العطايا التي توجب الشكر وتوجب العمل وتوجب زيادة التكليف.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩]، هنا في هذه الآية ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾، وفي سورة «الأعراف» ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف: ١٤١]، هنا جاءت بالتضعيف والعلماء على ما يقولون، وليس هناك يعني كبير أمرٍ يبحث في هذا الباب كما تقدم من الآية السابقة، وإنما يقولون: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾، هنا على معنى ذكر النِعم وتضعيفها لأنها في سياق ذكر النِعم وبيان ما هم فيه، وتقدم هذا الأمر من أجل بيان كثرته ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾، فجاء هنا الأمر بالتضعيف وقالوا: التضعيف كذلك يلائم قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ [البقرة: ٤٩]، لقوله: التضعيف جاء ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] يتلاءم مع قوله بعد ذلك ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ [البقرة: ٤٩]، لهذه المناسبة بين اللفظين في قضية التضعيف.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩]، آل الرجل قالوا: هم أهله، حتى أن بعض أهل العلم قال: آل أصلاً هي مأخوذة من أهل، ولذلك يجمعون آل قال: يصغرونها على أهيل، قال بعضهم: لا، إنما هي مقلوبة من الواو، ولذلك يقال: اؤيل يصغرونها على اؤيل، ويعني هذا من الكلام الذي فيه، ولكن آل الرجل أهله عزوته قوته ولهم في ذلك كلام طويل، أكثر من أفاض فيه على طريقته صاحب «البحر المحيط» أبو حيان الغرناطي الأندلسي.

قال: ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، فرعون هنا هو اسم علم عجمي وليس عربي ولكن العرب لما صار اسم فرعون مختصاً بخصال ومختصًا بسلوك معين فاشتق منها صفة، فصار يقال: فراعنة، وصارت تطلق كلمة فرعون على معنى الصفة وليس على معنى الاسم الدال على علم معين، فصار يقال: فلان فرعون، وتدل على صفة وليس فقط على اسم، وقالوا: اسم فرعون أطلق على كل ملك من ملوك مصر، ومن عجائب كتب التفسير وهي ربما تقوي قول من قال: أن مصر هذه ليست مصر القرآن، أن فرعون جعلوه اسمًا على ملك العماليق وليس على ملوك مصر، لماذا؟ يعني هذا لا يمكن أن يستقيم ودائماً يطلق القرآن اسم فرعون ملكاً لمصر، فلماذا يجعلونه ملكاً للعماليق هذا شيء غريب جداً في كتب أهل العلم، والغريب أن كثيراً من أهل العلم يسمونه أسماءً عربية، بعض يسميه وائل، أسماء عربية.

ولذلك بعض الباحثين يقول: مصر هذه ليست مصر القرآن، ويمكن أنا أن استدلهم بأمور غير ما ذكروها، ولكن هذه من المسائل التي يعني تحتاج إلى تنقيب وبحث واختلفوا في ذلك، فمثلاً: يرى كمال الصليبي وهو مؤرخ لبناني، في كتابه التوراة جاءت من جزيرة العرب وليست من مصر، لأن التوراة قال: ليست من مصر هذه وإنما مصر في جزيرة العرب، وهناك كذلك الأستاذ صاحب كتاب «الكشف عن الحقيقة الصوفية» الذي بحثناه، له كتاب اسمه «مصر ليست مصر»، ضمن ما يسمى جغرافية القرآن الكريم، له كتاب اسمه «جغرافية القرآن الكريم» يمكن أن يراجع ويبحث في هذه المسألة وليست من المهمات الكبيرة.

ولكن يقولون: مصر هذه إنما هي القِبط، لأن الغرب مازال يقول: إيجبت «Egypt »، وإيجبت يعني القبط، وليست مصر وإنما سميت هذه مصر بمصر لما تحرفت التوراة بعد السبي البابلي، لأننا نعلم أن التوراة حرفت بعد السبي البابلي بعد أن سباهم «نبوخذ نصر» وذهبت التوراة تاهت، ولما رجعوا كتبوها، كتبها الأبناء والأحفاد ولم يعرفوا الأماكن فجعلوا مصر هذه مصر التي بين أيدينا والله أعلم، ومن أدلتهم التي يقولها أنه لا يوجد قط في التاريخ ما ذكر عما ذكره القرآن من أخبار مصر، لم يذكر في تاريخ مصر، «هوميروس» الذي أرخ لمصر أو مؤرخ الذي يسمى شيخ التاريخ العالمي فإنه لم يذكر المجاعة التي حصلت مع يوسف عليه السلام، ويقول: بأنه لا يوجد قط في الرُقم، والرُقم هي الكتابة على الجدران وعلى المسلات المشهورة في مصر اليوم، يقول: لا وجود أبدًا لكلمة فرعون لا وجود لها، وهذه مما يقولونه والمسألة تترك لأصحاب الدراسات التاريخية ودراسات الآثار والرُقم وما شابه ذلك.

القصد: أن فرعون –فرعون موسى عليه السلام هذا الذي أنجى الله عز وجل بني إسرائيل منه– يجعله اسما عربياً، والقبط لم يكونوا عربًا، هذه مما يزاد على أدلتهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]، ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ من السمة والسمة هي العلامة فلما قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩]، دل هذا على أن العذاب كان يؤثر فيهم أو كان هذا العذاب سمة على وجه الصفة التي لا تنفك ولا ترتفع عنهم، يعني استخدام كلمة ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾، فيها هذان المعنيان:

المعنى الأول: يسمونهم حتى يؤدي هذا العذاب إلى الشدة التي تقع فتصبح علامة.

المعنى الثاني: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، هذا العذاب صار سمة دائمة متكررة في الأبناء والأحفاد ومتكررة في الأزمان. فقوله: ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾، السوء ضد الخير، فسوء العذاب، ولم يقل يسومونكم العذاب فقط، قال: ﴿سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥)﴾، لأن العذاب درجات فكانوا يسمونك أشد أنواع العذاب وهو سيئة وشره وأكثره.

قال تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾، هنا فسر سوء العذاب فسره بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾، وفي سورة «إبراهيم» قال تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦]، في سورة «إبراهيم» واو يعني جعل سوء العذاب شيئاً آخر غير ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾، فلماذا؟ العلماء لهم مخارج في هذا السيوطي يقول في «الإتقان» وأنا هذا الكتاب أحبه على ما فيه من اختيارات ربما المرء لا يقبلها في مسائل تتعلق بالأحكام وتتعلق بطرق قراءة القرآن، لكنه كتاب جامع على طرق كتب الإمام السيوطي ومنافعها، يقول: وإنما جعلت الواو في سورة «إبراهيم» لأن سورة «إبراهيم» فيها بيان ذكر النِعم، فالتعداد له فائدة، جيدة، لا يقول له: أنا أنجيتك من سوء العذاب، ومن سوء العذاب أن يقتل أبناءك، لا، تصير تعد عليه، انجيتك من سوء العذاب ومن تذبيح الأبناء وو ... إلخ، يعني أنها كانت للزيادة.

وغيره قال غير ذلك وقال: إن المقصود أنه لما كان الأمر في سورة «إبراهيم» بعدم التفصيل الذي وقع في سورة «البقرة» في ذكر قصصهم فإنه استعاض عن هذا التفصيل بهذه الإشارة إلى الكثرة، هذا بذكر الواو لأنه لم يفصل في سورة «إبراهيم» عن شأن بني اسرائيل كما فسر هنا وكما فسر وشرح في سورة «الأعراف» فاستعاض عن ذلك بذكر الكثرة بقوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾،

هنا قوله: ﴿سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥)﴾، ما هو ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾؟ ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ وفي سورة «الأعراف» ﴿يَقْتُلُونِ﴾، ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٤١]، ما هو الفرق؟ الذبح هو بيان صفة القتل، فجاء هنا بالتفصيل فاستعاض عنها يبيّن كيف يقع القتل، وذلك بذبحهم، ولما وقع هذا المعنى واستقر فبعد ذلك ذكر القتل لأن التفصيل قد وقع هنا، فلا ينبغي أن يكررها على هذه الصفة ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ أي يبيّن كيفية القتل فأنه قد تم بيان صفة القتل كيف هي؟ وهي الذبح فأكتفا في سورة «الأعراف» في قول: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٤١]، هذا وجه من وجوه ما ذكروه في هذا الباب.

وما هو سوء العذاب؟ قال: يذبحون الأبناء، الأبناء يذبحونهم لأنهم لا يحتاجونهم إلا على معنى قليل، فيبقون بعضهم هذا معنى يبقون بعض الرجال من أجل السخرة وهذا ما وقع لأنه لما جاء موسى لم يكن قد قتل كل الرجال ولكنه كان يقتل بعض الرجال ويبقي بعضهم من الأبناء الذكور هذا معنى.

والمعنى الثاني ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ هي إشارة لما وقع من فعل فرعون لما جاءه المنجمون والكهان بأنه سيولد ولد من بني إسرائيل وسيقتل وسيزيل ملكك، فأمر بقتل كل مولود وهذا الذي وقع من أمر الله عز وجل لأم موسى بأن تضعه في سرير ثم ترميه في النهر إلى ما ذكر من تفصيل ذلك في سورة «القصص».

فقوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾، إما على معنى أنهم يقتلون الكثير ويبقون ما يكفيهم من السخرة والخِدمة وإما على معنى يذبحون يستأصلون لا يبقون ولدًا في العام الذي أنبأه الكهنة أنه سيلد لبني إسرائيل ولداً يزيل ملك فرعون.

قال: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]، للخدمة لأنه لا يُخاف من النساء، النساء لا يخاف منهن فيستحيون النساء أي يبقون النساء أحياء، والنساء هناك كما ترون النساء تطلق على الصغيرة والكبيرة لأنه يستحيي النساء أي يستحيون البنات، فكلمة النساء دالة على الصغيرة والكبيرة، كلمة النساء وهي جمع لا مفرد له، ما مفرد النساء؟ مفردها امرأة، فـ ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾، أي يبقوهن أحياء، أي ويبقون حياة النساء بعدم قتلهن.

قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)﴾ [البقرة: ٤٩]، هنا قضيةٌ مهمة وهي أنه لا يقع عذاب في هذا الوجود من أحدٍ على أحد إلا بإذن الله عز وجل ولسببٍ من الأسباب، ولذلك الفعل الإجرامي منسوبٌ لهم أي

لآل فرعون، ومعذبون عليه وهم يوم القيامة سيسألون عنه، لكن هذا لم يكن ليقع على بني إسرائيل إلا لأنه بلاء من الله عز وجل، ما قال: وفي ذلكم بلاء من آل فرعون، لم يقل ربنا عز وجل هذا.

قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)﴾ [البقرة: ٤٩]، أي أن هذا الفعل هو بلاءٌ من الله، وقع من الله عليكم بتسليط بني إسرائيل، بتسليط بني اسرائيل بهذا الفعل الذي وقع منهم، إذن هو له أسبابه لأن الله عز وجل لا يعذب إلا بسبب في هذه الدنيا.

العذاب في الدنيا يقع على معنيين، على معنى أول: على معنى الابتلاء، والثاني: على معنى الجزاء، العذاب في الدنيا ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، يقع البلاء من الله على العبيد إما بلاءً وابتلاءً من أجل أن يمحصهم، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)﴾ [آل عمران: ١٤٦]، فهذا بلاء من الله عز وجل ليقع التمحيص، قال تعالى: ﴿الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت: ١-٢].

إذن البلاء قد يقع على معنى الابتلاء، ليبتلي الله وهذا لا يحصل به الاستئصال، هذا البلاء فيه معاني أولاً للتفريق بينه وبين الثاني الذي سيقع وهو على معنى الجزاء، أولاً: هذا بلاء لا يقع به الاستئصال، فمثلاً: ما وقع من عذاب الله عز وجل الذي أوقعه على المسلمين في بغداد عند غزو التتار هذا ليس على معنى الابتلاء لكنه على معنى الجزاء، لماذا؟ لحصول الاستئصال لما حصل من القتل العظيم، فالقتل الذي يؤدي به إلى الاستئصال والضعف وزوال الملك والسلطان والإهانة إنما يقصد به الجزاء.

وأما إذا كان على معنى، كما قال أبو سفيان يومٌ نساء ويومٌ نسر، يوم لنا ويوم علينا، يوم هنا ويوم هنا ثم العاقبة تكون العاقبة للمتقين، فهذا على معنى الابتلاء الرباني، يريد أن يبتليه كما وقع في أحد، فما وقع في أحد على معنى الابتلاء، وقد يختلط الابتلاء مع الجزاء، قد يختلط أن يكون ابتلاءً وأن يكون جزاءً، وقد يستقل أحدهما بالآخر.

أما إذا وقع على معنى الاستئصال والإهانة وإزالة الملك والسلطان فهذا لا يقع إلا على معنى الجزاء، وهذا الذي وقع على بني إسرائيل ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]، أي أن الله عز وجل أوقع هذا البلاء بإذنه، على بني إسرائيل، طيب قد يقول قائل يعني الله أوقع البلاء على بني إسرائيل بفرعون، فما فرعون إلا آلة من آلات الله فلماذا يعاقب؟ الجواب: هذه حكمة الله، كقوله صلى الله عليه وسلم: (فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له)، فإما أن تكون أداة طاعة

لله عز وجل فيوقع منك كالفعل بلاءً على أعداء الله، فأنت حينئذٍ يد الله التي يكرم بها البشر أو يعز بها البشر، فأنت حينئذٍ لك الرفعة، ويحصل بها قوله صلى الله عليه وسلم: (كنت يده التي يبطش بها).

وأما إذا وقع على معنى العاصي أن الله يسلط العاصي والفاسق على غيره أو على مثله فحينئذٍ هذا يكون هو الرجل بنفسه معاقب ومؤذى، فإذا قام المرء بعذاب غيره امتثالاً لأمر الله كان طائعاً، إذا قام المرء بعذاب غيره كأن يرجمه بسبب الزنا المحصن، كأن يقطع يده بسبب سرقته، أغزوا نغزو معك، وأرسل جيشاً نرسل خمسة أضعاف معه، فهذا لأنه يطبق أمر الله فهو يجمع بين الأمر القدري وبين الأمر الشرعي، لكن إذا كان عاصياً لله في العذاب أي لم يطبق أمر الله فحينئذٍ هو مطابق لأمر الله القدري ومخالف لأمره الشرعي.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)﴾ [البقرة: ٤٩]، يحصل الوقوف هنا في قضية مهمة جداً، وهي أن بعض الخلق وأشار إلى ذلك ابن تيمية رحمه الله في كتابه «التدمرية» وفي بعض كتبه وأشار إليها ابن القيم رحمه الله في «مدارج السالكين»، بعض الناس ينظر إلى الجانب القدري دون الجانب الشرعي، وهذا يغلب اليوم على الصوفية وعلى جماعة التبليغ، يعني أراهم كثيراً يغلب عليهم هذا المعنى، ما هو؟ وهو النظر إلى الجانب القدري دون الجانب الشرعي، يغلب النظر أن الله يقول لما وقع العذاب، فيغلبون وقوع القدر ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ﴾ هذا من الله، ولا يلتفتون إلى الجانب الشرعي، ما هو الجانب الشرعي؟ هو وجوب دفعه، ووجوب الخروج من أسبابه.

أولاً: الأسباب لماذا وقع العذاب؟ ما سبب وقع الذلة بين المسلمين؟ هو تركهم أسباب العزة، فالواجب هو دفع هذا الأمر القدري وعدم الاستسلام له، بأي طريق؟ بالطرق التي يدفع فيها هذا البلاء الذي أمر الله به، فالله عز وجل لم يأمر العبيد حين وقوع العدو أن يأتي جيش من العدو ليذلنا أن نصلي فقط، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، فدائما النظر إلى الأمر إلى السبب الشرعي الدافع لهذا الفعل، ثم بعد ذلك ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾، النظر للسبب الشرعي في مراقبة الله والاحتساب.

فالنظر إلى الجانب القدري دون النظر إلى الجانب الشرعي يؤدي إلى مزيد من الذلة والعذاب، ويخرج المرء من الهداية النبوية في رد الأقدار عنه، ولذلك دائمًا نكرر كلمة عبد القادر الجيلاني: «نازعت أقدار الحق بالحق للحق»، يجب منازعة أقدار الله عز وجل التي هي أقدار الحق بالحق أي بأقدارٍ حقٍ، الله شرعها وعلمها الخلق وللحق أي احتسابًا لله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)﴾ [البقرة: ٤٩] إذن هي توجب معاملتين:

المعاملة الأولى: مع فرعون بمنازعته هذا البلاء، والمعاملة الثانية: مع الله عز وجل لرفعها عنا، والمعاملة مع الله عز وجل هو أن تدفعها لله عز وجل، أولاً لأمر الله عز وجل، نعم، قد يقوم المرء فطرة لدفع البلاء ولا يحتسب عند الله

هذا لا يحصل به التعبد، إنما يحصل التعبد أن يدفع هذا الأمر وإن كان مما يدفع على جهة الفطرة، وبداهة العقل ولكن كذلك لتكون مؤمناً فيه طائعاً لله أن تدفعه على جهة استجابتك لأمر الله عز وجل، ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، حتى يدفع هذا الأمر من قبل الله عز وجل عنكم عليك أن تستجب بدفعه سننياً وأن تدفعه كذلك شرعياً بإحسان علاقتك مع الله عز وجل.

الآن كيف نستفيد من هذا؟ نستفيد أننا نرى أناساً يقع عليهم البلاء ويريدون جمع الناس على الأمر السني دون أن يجمعوا الناس على الأمر الشرعي، لما يقع البلاء عليك ينبغي أن تنظر إلى أمر الله ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، لأنكم عصيتم الله، وهذا العصيان أول شيء هو قطع علاقة مع الله على وجهٍ من الوجوه، وأهم هذه الوجوه أنكم قطعتم العلاقة مع الله في دفع هذا الأمر بالطرق السننية، لكن كذلك من الأمر الثاني ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، فإذن لابد من ذكر الله للمؤمن.

الذي يريد البعض فعله في هذا الزمان هو أن يشترك الناس في الدفع دون أن يصلحوا علاقتهم مع الله على وجهٍ من الوجوه لا يريدون دفعها على معنى الشهادة ولا على معنى الجهاد ومن أغرب ما تقول الناس، تقول الناس: قوموا قاتلوا في سبيل الله وادفعوا، تقول للناس للمسلمين: قوموا ادفعوا هذا العذاب وهذا البلاء بسم الله جهاداً في سبيل الله، فيقول لك: إن رفع كلمة الجهاد في سبيل الله والشهادة وتحقيق أمر الله تعوق اجتماع الناس في دفع هذا البلد، ولا يريد رفع هذا الشعار، والله يقول: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)﴾ [البقرة: ٤٩]، يجب أن تصلح علاقتك مع الله وأن ترفعه جهاداً في سبيل الله.

وهنا فرق كبير وواحد وهذه نقطة مهمة نحن نراها اليوم وما يحصل من جهاد اليوم للأسف يقع فيه كثير من الخلط في هذا الباب وهو كالتالي: أنهم يريدون ثورة لدفع الظلم فقط، فتقول لهم: ارفعها جهاداً في سبيل الله من أجل تحقيق دين الله حتى يرتفع البلاء، فيقول لك: هذا يعوق الدفع، وأصل المصيبة أنها بلاءٌ من الله لا ترفع إلا بإحسان علاقتك مع الله، وبإصلاح علاقتك معه.

والفرق بينهما كالفرق بمن وقع عليه الفقر، فيأتي واحد يقول: علينا أن ندفع هذا الفقر هذا بلاء من الله ويقوله بحسب اعتقاد هذا بلاء، فيقال له: اذهب وأدفع هذا البلاء بما أمر الله من طلب الحلال، من أجل أن تتحقق الطاعة لأنه بلاء من الله ما وقع من الفقر هو بلاء من الله وابتلاء، فادفعه بالطاعة وذلك بطلب الحلال، وبنية الإنفاق وبنية أداء الزكاة حين يحصل لك الخير وموجب الزكاة وسببها، فيقول لك: لا، المطلوب الآن هو أن ندفع الفقر فقط، وبأي سبب؟ بسبب قدري حتى لو أكلنا الربا، هذا الحال، هذه هي الصورة في الفرق بين الحالتين وبعضهم كلما قلت له: ارفعها جهاداً في سبيل الله، يكذب ويقول: ما يحصل من الدفع هو جهاد في سبيل الله، وهو يعلم أن غيره

لا يريده جهاداً في سبيل الله، أي لا يريده من أجل إقامة دين الله، ولكنه يضحك من أجل أن يقول لك: هو يجاهد في سبيل الله وأن لم يقصد، لأنه مجرد الدفع هو في سبيل الله.

فالذي يطلب الرزق من الحرام لا يجاهد في سبيل الله، ولا يدفع هذا القدر طاعة لله، وإلا لسلك سبيل الشرع في دفع هذا القدر، هذه ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، توجب على المسلم أن يصلح علاقته مع الله، وهو أن تدفع بلاء فرعون أو أي بلاء طاعة لله ومن خلال حكمه ورفع أمر دينه هذا هو المطلوب، إذا جاء غيرك ليساعدك هذا موضوع ثاني، هو جاء ليساعدك في ماذا؟ في أن يحرفك معه من أجل أن تصبح مرابياً لتدفع الفقر، هذا الذي يطالبونه، الآن انضموا واجتمعوا وتمالؤا على هذه الصورة ما هي؟ ادفعوا العذاب، لماذا ندفع العذاب من أجل ماذا ندفع العذاب؟ وأصل العذاب الذي وقع من قبل هذا فرعون أصل العذاب هو أنكم عصيتم الله، أصل العذاب هو ترك هذا الفرعون لحكم الله هذا هو أصل العذاب.

ما هو أصل البلاء؟ هو أنه حصل تغييرٌ لشرع الله فحصل هذا التغيير، فزاد البلاء من الظلم والبلاء وغيره، فإذن القضية لا ترفع إلا بمطالبة تحكيم شرع الله وأن يكون هو الشعار الذي يرفعه كل مسلم من أجل أن يرضي الله فيرتفع البلاء، وإلا فأنت تقاتل الفروع، أنت تقاتل فرعون والبلاء من الله واقع، فقد يذهب فرعون بسبب قوتك ولكن يأتيك أفرعن، أيصح أفرعن؟ أيصح أن نشتق منها ونقول أكثر فرعونية؟ أفرعن منه؟ يأتي من هو أشر منه، وهذا الذي وقع.

لما جاءنا المستعمر فغزا بلادنا دفعناه لمجرد الدفع في أنه غريب سارق لخيراتنا مفرق لشملنا قاتل لأبنائنا فدفعناه دون النظر إلى الراية، ولم نشترطها، ودعا الناس إلى هذا، هذا وقت الاجتماع لرد هذا العادي ولرد هذا المجرم، فماذا حصل؟ جاء من هو أسوأ منه وهؤلاء يريدون إزالة هذا الطاغية فرعون ليأتي فرعون آخر يحكم اسمه فرعون، ليأتي ويحكم بغير شرع الله عز وجل، وفي هذا كفاية إن شاء الله تعالى.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس التاسع والأربعون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس التاسع والأربعون من دروس التفسير وما زلنا في سورة «البقرة» ومع قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢)﴾ [البقرة: ٤٩-٥٢].

لعلنا شبه انتهينا من تفسير قوله تعالى فيما قدرنا عليه: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩]، وهنا ذكر هذه النعم التي أنعم الله عز وجل بها على بني إسرائيل، هو تفصيل كما قلنا لقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، فالتفصيل لهذه النعم والله نجى بني إسرائيل من فرعون ومن ملأه، وأخرجه من مصر على يد موسى عليه السلام وثم جاء التفصيل ماذا جرى في هذا الإنجاء.

وهنا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾، فقط لتعلموا شأن العربية أنه من النجوى، النجوى هو الارتفاع، ولذلك يقال للحصى الصغيرة: نجوى، ومنه أخذت كلمة الاستنجاء لأنه يستخدم هذه الحجرة، فالنجوى هي الحجر فلما يهرب المرء من الغرق إلى هذه النجوى، فيصبح ناجيًا ومن هنا أخذت النجاة لأنها مأخوذة من هذا الارتفاع الذي يحصل به الهروب من الغرق أو من الطارد له أو الطالب له.

والله عز وجل نجاهم فماذا جرى في هذه النجاة من الأمور العظيمة المهولة التي هي من الآيات الكبار التي أراها الله عز وجل لهذا الشعب وهو أراها لبني إسرائيل، ماذا جرى لهم؟ بعد أن انتهينا من تفسير قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)﴾ [البقرة: ٤٩]، وتكلمنا عن قضية أن هذا كله بقدر الله عز وجل عقوبة، وأن هذا القدر الإلهي يُدفع بالطاعة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠)﴾ [البقرة: ٥٠]، وأنا انظر في هذه الآية هذا اليوم فوجدت توافقًا لابد من التحدث به وأسأل الله عز وجل أن يكون علامة خير لما نقوم

به من تفسير كتاب ربنا، وهو أننا اليوم في تاسوعاء وغدًا عاشوراء، وعاشوراء هو اليوم الذي نجى الله عز وجل فيه موسى عليه السلام، ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾، فاليوم هو اليوم العاشر، نحن دخلنا اليوم العاشر اليوم الثلاثاء هو اليوم العاشر والذي فاتنا هو اليوم التاسع مع أن ابن عباس رضي الله عنهما يرى أن عاشوراء من شهر محرم الذي يصام هو اليوم التاسع من محرم، وهذا انفرد به ابن عباس رضي الله عنهما عن بقية الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وقال: بأن عاشوراء من شهر الله محرم أنه هو اليوم التاسع، وبلا شك أن عاشوراء هو اليوم العاشر من محرم.

وحتى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، قال بعض أهل التفسير ولست موافقًا لهم ولكن نذكرها قال كثيرٌ من أهل التفسير بأن قوله تعالى: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، لأنها في آيةٍ أخرى ثلاثين ليلة واتممناها بعشر في سورة «الأعراف» قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]، قالوا: الثلاثين يوم هي شهر الله عز وجل ذي الحجة، شهر ذي الحجة، والعشرة هي الأولى من محرم، فيعني أسأل الله أن تكون هذه من التوافق القدري الذي في الحقيقة لم أعلمه إلا قبل قليل من هذا الدرس قبل دخول المغرب فالحمد لله رب العالمين.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٠]، وهنا أيها الإخوة الأحبة فاتنا أن نقول في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾، ﴿وَإِذْ﴾ هنا يقول أهل العلم كما تعلمون: أنها ظرفٌ زماني، يعني وقت فرقنا بكم، زمان فرقنا بكم، زمان الفرق والنجاة، فإذن ﴿وَإِذْ﴾ ظرفٌ زماني وكذلك «إذا» ظرفٌ زماني، فما الفرق بينهما؟ الفرق بينهما بيّن في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤)﴾ [المدثر: ٣٣-٣٤]، «إذ» تأتي لما يستقبل من الزمان و«إذا» لما مضى من الزمان، فقال ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾، و«إذ» يعني انقضى، و«إذا» إذا جاء، ولذلك قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١)﴾ [النصر: ١]، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤)﴾ [المدثر: ٣٣-٣٤]، فالليل قد أدبر فجاء الصبح.

فـ «إذ» إذن ظرفٌ زماني لما ذهب، و«إذا» ظرفٌ زماني لما هو يأتي، وإذ غاب عنك هذا المعنى فتذكر هذه الآية ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤)﴾ [المدثر: ٣٣-٣٤]، فإن الصبح لا يسفر إلا بعد ذهاب الليل، فكان ذهاب الليل باستخدام ظرفه إذ.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾ [البقرة: ٥٠]، الفرق هو الفصل، ومن أخذت ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤)﴾ [المرسلات: ٤]، يعني الملائكة لأنها تنزل فتفرق بين الحق والباطل وتنصر الحق على الباطل، والقرآن هو الفرقان لأنه يَفرُق بين الحق والباطل، وكذلك الناس يسمون يفرق الشعر أي أنه يفصل بعضه عن بعض، فالفرق هو الفصل. فالله عز وجل قال:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾، أي فصل بعضه عن بعض، هو أجزاء بسبب سنة الله وقدره في المياه أن تكون مائعة ملتصقة متماوجة، فالله عز وجل فرق هذا البحر وجعله سبيلاً لمرور بني إسرائيل فيها.

وهذا اليوم ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾، نقف فقط عند قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ﴾ والعلماء وقفوا وقالوا: لماذا لم يقل لكم؟ والأصل أن يقال: وإذ فرقنا لكم البحر، يعني هذا من أجلكم، لأجلكم، فإن الواقع من قضية أن يكون كل فرقٍ كالطود العظيم، أن يكون من أجلهم ولكن كيف يقول ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾، «الباء» هنا اختلف أهل العلم فيها فقال بعضهم: «الباء» هنا لسببية، أي أن بني إسرائيل صاروا هم سبب، الآلة التي فرق الله عز وجل بهم البحر، ووقفوا عند هذا المعنى كثيرًا.

فبعضهم قال: أي جرى البحر على هذا المعنى من الفرق حيث وضعوا أرجلهم وذلك من تمام النعمة، هناك فرقٌ بين أن يفرق لك طريقًا فأنت تسلكه من غير اختيارٍ لك لطريق، وفرقٌ أن يفرق الطريق بك أي حيث تمشي، فكان من تمام النعمة أن فرق بهم حيث يمشون، وحيث يمشون هنا وقف على موقف وهو أن الله عز وجل لم يفرق بهم طريقًا واحدًا، ولكن فرق لهم فِرقا، فكان كل فرق أي كل انحياز لهذه المياه ولكل فصلٍ لهذه المياه كان كالطود العظيم كالجبال، هذا ما قاله العلماء.

نقل رشيد رضا عن شيخه محمد عبده أنه: لا، لم يقع إلا طريق واحد، لم يقع إلا فرق واحد وإنما سمي هذا الفرق الواحد الكبير بالفِرَق قال: لعظمته والتكثير، وجاء التكثير من أجل بيان العظمة فيه، وهذا بخلاف ما قاله كثير من المفسرين بل لا يعرف هذا القول، لا أعرف أن أحدًا قاله من السابقين وربما قالوه لكن لم أطلع، إنما هو منسوب للشيخ عبده من كلام ونسبة تلميذه محمد رشيد رضا.

قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ [الأعراف: ١٦٠]، فهنا قالوا: أن كل فريق من هؤلاء رفض أن يشارك غيره في الطريق؛ لخصوماتٍ بينهم، فحيث كل واحد أراد أن يسلك طريق فُرِق به حيث أراد، هذا معنى القولين، هذا إذا كانت «الباء» سببية، كانت بسببهم، وهذا من تمام النعمة أن يمشي الطريق بحسبك لا أن يوضع الطريق لك فتمشي بحسبه، وإنما هنا بيان النعمة.

وقال بعضهم «الباء» هنا للمصاحبة، والمصاحبة يمكن أن يفرق الله لهم الطريق من غير حضورهم، أي قد تقع عليك النعمة وأنت غائب، كأن تلد زوجك ولدًا وأنت غائب، ولكن هذه النعمة وقعت عند حضورهم، فهذه النعمة صاحبتهم، فالباء هنا للمصاحبة، هذا هو قول أهل العلم في هذا الإعجاز البياني والبلاغي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ [البقرة: ٥٠]، ويمكن أن نقول بالقولين معًا.. فتدل على النعم العظيمة وبيان النعم التي أراد الله عز وجل أن يذكر بني إسرائيل بها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾، ودائمًا نحن نتكلم عن قضية صيغة الجمع، أنها صيغة للتعظيم والمراد بها كثرة الفعل، أن هناك ثمة أفعال متعددة وقعت بأمر الله عز وجل وبإرادته، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ [البقرة: ٥٠]، هذا الفرق أيها الإخوة الأحبة وقع كما نعلم في يوم عاشوراء، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عباس في الصحيحين سأل اليهود لماذا يصومونه؟ فقالوا «هذا يومٌ نجى الله فيه موسى من الغرق، فنحن نصومه شكرًا لله» فقال صلى الله عليه وسلم: (أنا أحق بموسى منكم) أو (أولى) وكلاهما ورد، حتى في رواية (أنا أحق وأولى بموسى منكم).

وهنا فقط شيءٌ زائد عما نحن فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم صدق اليهود بخبرهم من جهتين، من الجهة الأولى: في تاريخ وقوع هذا الحادث، صدقهم، مع أن صيام عاشوراء في كلام أن العرب كانت تصومه، وقريش كانت تصومه، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يصومه والظاهر أنهم ورثوا ذلك، وإن كان ورد روايات أخرى أنهم ورثوه تعظيمًا لهذا اليوم من إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، إلا أنه يصومه وكان يأمر بصيامه ثم جاء إلى المدينة ورأى اليهود يصومونه، فظاهر نشأنا هذا اليوم كم يذكر ابن رجب في «لطائف المعارف» أن الأنبياء كانوا يصومونه حتى أنه ذكر بأن نوح عليه السلام كان يصومه.

لكن صدق اليهود من جهتين، صدق اليهود من جهة كوني تاريخ النجاة هذا اليوم، فهو سألهم لماذا يصومونه؟ يمكن أن يقول قائل من أهل العلم: بأن سؤاله من أجل الامتحان، امتحان صدقهم في سبب الصوم، ويمكن أن يقول: من أجل الاستخبار، قال تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]، فممكن أن يقال هذا وهذا، ولكن صدقهم، وهذا يدل على أن ما بين يدي اليهود من كتابهم الذي يقدسونه وهو التوراة ليس كله أغاليط وأكاذيب، وهذا ينصر كلام ابن تيمية رحمه الله على كلام ابن حزم رحمه الله فيما نذكر دائمًا، أن ابن حزم يرى أن الكتب التي بين أيدي الناس من اليهود والنصارى كلها مغلوطة وكذب وليس فيها حرفٌ صحيح، ويخالفه ابن تيمية في أن الكتب التي بين أيدي الناس فيها الصواب والخطأ، فلعل هذا القول ينصر ما قاله ابن تيمية على ما قاله ابن حزم.

إذن هو صدقهم من جهة التاريخ.

ثانيًا: أنه وافق بأن النعمة تقتضي الصيام، بمعنى عند حدوث النعمة يقتضي الطاعة، ولذلك الذين قالوا بأن – قرأتها لبعضهم– الذين قالوا: بأن يوم عرفة لا يصح صيامه وبعد أن ضعفوا الحديث تشغيبًا وتهويشًا، تهويشًا قالها صاحب الصحاح على كل حال الجوهري وأنكرها بعضهم قال: تهويش لا وجود لها في كلام العرب وأثبتها صاحب الصحاح وقال: تشويشًا، فبعد أن شوشوا على صحة الحديث، ذهبوا يشوشون على درايته، وقالوا: بأن هذا اليوم يوم عرفة هو يوم عيد، فكيف نصومه؟ هذا يرد عليهم بهذا، بأن النعمة وهي المغفرة تقتضي العبادة فلابد لهذه العبادة أن

يسبقها شيء من أجل بعد ذلك تكون نعمة الفرح، ونعمة الفرح تكون في يوم الأضحى وقبلها للحجاج يكون في عرفة بالمغفر، فما الذي يُعطى من رحمة الله لغير الحاج؟ الصيام، ولذلك هذا يكفر السنة وهذا يكفر العمر كله أي صيام يوم عرفة.

القصد: بأن تصديقه صلى الله عليه وسلم لهم يدل على أن في كلامهم الحق الذي ينبغي أن يراعى ولا يرد، ومن هنا فقوله صلى الله عليه وسلم عن هذا: وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ [البقرة: ٥٠] هنا أريد أن قول شيئًا في هذا الباب نحن نرى أيها الإخوة الأحبة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥١] وإن كنت أستبق بهذا ولكن حتى نمشي عندما ذكر الله عز وجل عن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥١] على ما فصل في سورة «طه»، طبعًا ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ موجودة في هذه السورة في سورة «البقرة» موجودة في سورة «الأعراف» وموجودة في سورة «يونس» وموجودة في سورة «الشعراء»، يعني هذه مواطن ذكر هذا الكرم الإلهي على بني إسرائيل.

لكن نحن نرى أن النبي الله عز وجل موسى عليه السلام قد خرج ببني إسرائيل قبل أن يربيهم، وخرج بهم هذا الخروج الكبير قبل أن يربيهم وهذا رد دعاة التربية الذين لا يريدون أن يقذفوا بالأمة في الطاعات ويقذفوها إلى المهمات المكلفة بها حتى تربى، وموسى عليه السلام خرج بهم وحدث كذا وكذا ...إلخ مما تعرفون، هذا ينبغي أن نقف عنده مما ينبغي أن نستغله وأن نوظفه فهو من كتاب ربنا سبحانه وتعالى ومن سنن الأنبياء ما قال ربنا عز وجل لموسى ربي هؤلاء بعد هذه المدة الطويلة التي مكثوا فيها تحت حكم بني إسرائيل فتغيرت أخلاقهم وساءت صفاتهم وحدث معهم كذا وكذا، فعليك أن تربي هؤلاء القوم قبل أن تقذف بهم في مهمات هذه الهجرة الطويلة من مصر إلى دخول الأرض المقدسة، وقبل أن يكلفوا بدخول الأرض المقدسة، فعليك أن تربي هؤلاء.

قد يقول قائل: ولكن هذا الأمر ثبت أنه غير ناجع وذلك بأنه لم يدخلوا الأرض مقدسة، هذا الكلام ليس لك، المهم أنه طبق الأمر والعبرة بتطبيق الأمر لا بالنتائج.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ [البقرة: ٥٠]، البحر أيها الإخوة الأحبة هو ما دل على الاتساع من المياه، فليست البركة الصغيرة يقال لها بحر، الناس تقريبًا يسموها بحيرة وهذا من ذكاء العرب حتى العوام، يا بحيرة، يسمونها بحيرة والعوام يقولون هذا، إذا أرادوا التحبب أو أرادوا التشبه، والعرب تطلق على الشيء الذي بلغ منتهاه في الكثرة والعطاء يسمونه بحرًا، ولذلك يسمونه الكريم كأنه البحر أي في عطائه، والنبي صلى الله عليه وسلم سم فرس أبي طلحة الأنصاري زوج أم سليم أم أنس بن مالك لما سمع جلبةً في المدينة صوتًا عظيمًا فخرج الصحابة يمشون يذهبون إليه وإذا النبي صلى الله عليه وسلم على فرسٍ عري ليس تحته شيء وهو فرس أبي طلحة، قال: (وجدناه بحرا)، المهم قال

في الأول لهم: (لا يروعكم) طمأنهم أن الأمر يسير ثم قال عن الفرس: (وجدناه بحرا) وهذا أول ما سُمع من كلام العرب في تسمية هذا الفرس بالبحر.

فالقصد: أن البحر يدل على العظمة، وهنا ذكره ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ [البقرة: ٥٠]، فلو أنه نجا من ماءٍ يسير لما عد كرامة ولما عد معجزة ولكن أن تذكر كلمة البحر فدل على الإعجاز أن هذا أمرٌ مهول.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٠]، قبل الفرق خرجوا من مصر خرجوا منها ليلاً والتفاصيل في آيات أخرى، وهنا استعير كلمة للشيخ الشعراوي عادةً يستخدمها في تفسيره، يقول: بأن المواطن للقصة القرآنية إنما هو ذكر مشاهد حتى لو جمعت كونت المشهد كله، ولا يمكن لمشهدٍ في آية أن يغني عن مشهدٍ آخر لا بد أن يكون فيه زيادة لابد أن يكون فيه شيءٌ زائد، لا يمكن لخبرٍ في قصة أن يلغي خبرًا آخر، وإن بدا لنا أنه نفسه فلا يكون كذلك.

وهنا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٠]، هذه المسافة وهذا الأمر قد جرت فيه أحداث كثيرة أغلبها مذكور في سورة «الشعراء»، وكذلك ذكر في غيرها، خرج بهم ليلاً، أنه سرى ولذلك قال تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ [طه: ٧٧]، والسرى كما تعلمون لا يكون غلا بالليل، قال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وذلك لأن الليل مهمات الخير ومهمات الشر، السراق أين يذهبون؟ في الليل، طبعًا السراق أقصد السراق التقليديين، وإلا السراق اليوم يجلسون على المكاتب، أما عادةً السراق يذهبون في الليل.

وكما يقول ابن القيم رحمه الله في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١)﴾ [الفلق: ١]، وذلك هو الصبح ذلك لأن الصبح هو الذي يكشف الحياة ويكشف المستور، فيكشف الطائع على طاعته ويكشف الفاسق على فسقه، وعادةً جرت سنة الله عز وجل أن الآيات العظمى تجري في الليل كما ذكرنا ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١].

فالليل هو مكان الآيات العظمة، فخرجوا ليلاً، ولكن بني إسرائيل قاموا فأدركوهم مصبحين، أدركوا بني إسرائيل في الصباح وهم وقوف، ومما ذكر في كتب الحديث وهو عند مستدرك الحاكم، بأن بني إسرائيل تاهوا في الطريق، فلما تاهوا في المسير، فتراجعوا بأنهم علموا في الميثاق بينهم وبين أنبيائهم أنه إذا خرجوا لا يخرجون إلا بعظام يوسف، من قبل يوسف عليه السلام أم موسى عليه السلام؟ يوسف عليه السلام، كما قال موسى عليه السلام لهم كما في سورة «غافر» قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ [غافر: ٣٤]، فإذن يوسف عليه السلام قبل.

ومن قبل داوود وسليمان عليهما السلام أم موسى عليه السلام؟ موسى عليه السلام كما في سورة «البقرة» قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، ثم في نهاية القصة ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فموسى عليه السلام قبل داوود وسليمان عليهما السلام ويوسف عليه السلام قبل موسى لأن يوسف عليه السلام ابن يعقوب الذي هو إسرائيل.

فتاه بنو إسرائيل فلما تاهوا تراجعوا كيف يحلون فتذاكروا بأنهم تاهوا لإعماء الله لهم لأنهم لم ينفذوا الطلب أنهم إذا خرجوا على من أن يخرجوا عظام يوسف عليه السلام –هكذا ورد في الحديث عظام في مستدرك الحاكم– فقالوا: أين قبره؟ وسبب الحديث عجيب إن صح الحديث وبعضهم يصححه يعني والأمر فيه يسير من الأخبار والمواعظ أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل على رجلٍ فأكرمه فقال له: (إن جئتنا أكرمناك)، فجاء الرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأراد أن يكرمه فقال: (سل تعطى)، قال: أسألك راحلة وعنزة فالنبي صلى الله عليه وسلم عجب من طلبه، يعني أنا أسألك (سل ما تريد) ثم تطلب رحل وعنز، فقال: (هلا كان أحدكم كعجوز بني إسرائيل)، فلما سألوه عن خبر عجوز بني إسرائيل، أخبرهم بهذه القصة صلى الله عليه وسلم: أنهم لما خرجوا تاهوا ثم تذاكروا بأن سبب التيه والضلال هو تركهم لعظام يوسف عليه السلام فسألوه من يعلم قبر يوسف؟ فقال: لا تعلموا بالقبر إلا عجوز، فجاءوا إلى العجوز –هنا عجوز بني إسرائيل– وسألوها، قالوا لها: أين القبر؟ قالت: لا أدلكم عليه إلا أن تعطوني ما أسأل، فقال لها موسى عليه السلام: سلي، قالت: أسألك مرافقتك الجنة، من هنا قال صلى الله عليه وسلم (هلا كان أحدكم كعجوز بني إسرائيل)، فقال لها موسى: لا، رفض، فأوحى الله إليه أن اقبل، فقبل وهكذا فهذا كما ترون وكما يقول علماؤنا: يدل على معالي الأمور، البحث عن شرف المطالب.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٠]، طبعًا تكلمنا ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ أي حصلت النجاة، كم فرق؟ قلنا: اثنتي عشرة اسباط وعلى ما تقدم من الكلام، وقيل من العجائب عن بني إسرائيل أنهم وهم يمشون، طبعًا كما يقول بعض العلماء: نعم، ﴿كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)﴾ [الشعراء: ٦٣]، لكن الأرض بقيت يابسة أنها بقيت رطبة؟ قال: لا، ﴿طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧]، يعني حتى الطريق يبس انظر هذه النِعم العظيمة هذا كله تبينه الآيات وتشرحه، أنها كانت يابسة فمشوا من غير إيذاء ولم يعلق في ثيابهم ولا في أحذيتهم ولا في أرجلهم الطين.

وستأتي في الحقيقة الآيات كيف خرجوا وماذا خرجوا وكم تركوا اليهود من جنات وعيون؟ وهكذا فستأتي إن شاء الله في موطنها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠)﴾ [البقرة: ٥٠]، فلما نجا موسى عليه السلام وقالوا مما ذكر من نِعم الله أن الأسباط أو أن الفرقة التي كانت معه من بني اسرائيل العائلة التي

كانت معه من بني إسرائيل، قالت أين إخواننا؟ فكشف لهم الحجب، فكشفت لهم المياه من هنا ومن هنا يروا ويرى كل فريقٍ الآخر حتى يطمئنوا ويسيروا بلا خوف.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠)﴾ [البقرة: ٥٠]، الله عز وجل أغرق فرعون وجنده ويذكر في ذلك قصص كثيرة، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾، ما معنى ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾؟ يعني هذه الآية تكون عظيمة إذا شهدتها وتكون نِعمة إذا شهدت مهلك عدوك، فهذا ليدل على أعظم النِعم، أن الله عز وجل لم يهلك آل فرعون وفرعون لم يهلك فرعون ومن معه وجنده وآله، لم يهلكهم بعيدًا عن بني إسرائيل، نعم هم سيفرحون إذا جاءهم الخبر، لكن في الحديث: (ليس الخبر كالمعاينة)، فشهدوا الهلكة فحصل في قلوبهم السرور العظيم من هذا الحدث وهذه النِعمة أن الله عز وجل أغرقهم.

وهذه دليل على: أولاً: أنها نعمة عظيمة خارقة للعادة يعني حتى محمد عبده -لا بأس أن نعرج عليه اليوم عرجنا عليه هذه المرة الثانية- أن محمد عبده كما ذكر عنه رشيد رضا في «تفسير المنار» أنه قال: أن هذه معجزة وخارقة للعادة وإن كان للأسف جاء بتتمة كلامٍ لا يصلح وهو أن خوارق العادات قد انتهت بزمن النبي صلى الله عليه وسلم وهذا كلام باطل لا يصح.

والقصد: بأن هذه آية عظيمة، يقول هو ينقل عن بعض المتهورين وبعض الفاسدين من إنكارهم هذه المعجزة، بأن المعجزة حدثت وقت الجذر، فصار هناك فجوات فمشوا!! وأين الجذر؟!! وكان كل فرق كالطود، قال تعالى: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)﴾ [الشعراء: ٦٣]، الطود يعني الجبل العظيم، فكل هذا من الأكاذيب ومن إنكار عالم الغيب وإنكار المعجزات.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾، نجوتم أنتم، ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠)﴾ [البقرة: ٥٠]، وجاء بعض تفصيل الغرق في سورة «يونس» إلى وقته إن شاء الله والله العزيز الموفق.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠)﴾ [البقرة: ٥٠]، قلنا المعنى الأول أي تنظرون إليهم ليحصل في القلوب السرور بتمام هلاك الخصم الذي أتعبك والذي عذبك والذي شق عليك، هذا معناه ويصح أن يكون هناك معنى ثاني أي ينظر بعضكم إلى بعض، والناس عادةً ينظر بعضهم إلى بعض لما يرون من العجب، أي عندما يتعجبون من شيء ينظر بعضهم إلى بعض، إي شيءٍ هذا؟! وكأنهم يريدون التوثق، أنه لا ينظر فقط الواحد منهم دون الآخر، يعني لم تسكر أبصاره، مثل قوله تعالى: ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ [الحجر: ١٥]، لم يقع السحر!! وإنما ينظر كأنه يقول له: أوقع هذا فكأنه يقول: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾، يعني أن يوثق بعضكم بعضًا والحدث، ليس بخافٍ عنكم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، ﴿وَإِذْ﴾ تكلمنا عنها إن شاء الله ويراد بها بما مضى كما تقدم، ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى﴾، والوعد هو التبشير بالخير أو التنبيه والإخبار بالخير هذا الوعد، أن يؤمله بالخير بخلاف أوعد، ولذلك لا يقال: أنا أوعدتك، كما كثير من الناس يقول لما يقال له: أحدث معك كذا؟ يقول: كلا! بالرغم من أن كلا أداة زجر!! لكن الناس يحبوا أن يتكلموا نحوي مرات، فيقولوا: كلا!! أتزجرني!! لماذا تزجر؟! قل: لا ويكفي، وإنما كلا للزجر، وهنا يقول بعض الناس أوعدته، لا، هنا إنما هو أوعدت، وهذا مبحث الوعد والوعيد في كتب العقائد فيما يتعلق بقضية الفاسق الملي كما تعلمون.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، البعض يقول: أن موسى أخذت من «المو» وهو البحر و«سى» وهو الشجر على أساس أن اللغة العبرية كما تعرفون أنها لا تنقط، فالأصل أنها «موشى»، نحن نعرف من فروق العربية والعبرية هو التنقيط زوال التنقيط كما شلام، قديش، شلوم، هذه الحروف المنقطة، وقال: بعضهم أصل موسى هو «موشى» وهي مركبة مما حدث معه من الماء والشجر، عندما وضع في الماء وعندما حصل الحديث عند الشجرة فسمي «موشى» والله أعلم، وفي الحقيقة هذا الكلام لا ينبغي التعريج عليه كثيرًا وإنما فقط للعلم، وإلا فإن الأعلام لا قياس فيها، ولذلك لما تذهب إلى كتب الأنساب في كتب الرجال يقولون: الأسماء لا قياس فيها، تذهب مذهب تتعجب لماذا يقال هذا؟ فلا تجد، ولماذا هذا الاسم؟ لا تدري، وخاصةً أننا أمام أسماء غير عربية، وإن كانت العبرية من اللغات السامية كما يقول أصحاب الدراسات اللغوية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، هنا سؤال قد يظن ظان لماذا يساق هذا في مساق المِنَّة على بني إسرائيل وهو حديثٌ عن موسى؟ يقال: انتظر، فإن المِنَّة آتية، قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [البقرة: ٥١]، فالمِنَّة قادمة، فانتظر ولا تستعجل.

وقد يقول قائل: ونحن نعلم ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أن الوعد الأول جاء بثلاثين قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وهذا أمر أنا أريد أن أقف عنده قليلاً، ليس لأهميته ولكن لا بأس يعني، لا يمكن أن نتصور أن يقول الله له: بعد ثلاثين –أي أن يقول له هذا بهذا اللفظ وهذا التحديد– بعد ثلاثين يومًا سأنزل عليك الألواح، فامشي إلى طور سيناء الذي كلم الله عز وجل فيه موسى عليه السلام وأنزل عليه الألواح بعد أربعين ليلة وعده من أجل إنزال الألواح عليه كما في سورة «الأعراف»، يقول له: بعد أربعين يوم امشي ثلاثين يومًا إلى المكان الفلاني وبعد ثلاثين يوم سأنزل عليك الألواح، ثم إذا وصل، قال: انتظر عشر أيام، لا يمكن!! لأن هذا إخلافٌ للوعد، إخلافٌ للخبر، وهذا لا يتصور في حق الله عز وجل.

لكن واعدناه ثلاثين ليلة؛ لأمر، ثم أتممناه عشرًا؛ للأمر الذي ذكر، لماذا يقع هذا؟ عندما وقعت أعظم الفتن القدرية على الصحابة رضي الله عنهم غير ما وقع في أُحد وغير ما وقع مؤتة، لكن من أعظم الابتلاءات التي يشترك

فيها الأمر القدري بالبلاء والأمر العلمي بالامتحان في العلوم وقع في صلح الحديبية، الله عز وجل أرى رسوله صلى الله عليه وسلم، رؤية ورؤية الأنبياء حق لا تحتاج للتأويل، لأن تأويلها وقوعها، رؤية الأنبياء تأويلها أن تقع كما هي، فلذلك إن الله يأمرني، فلما رأى أنه سيدخل المسجد الحرام، ولم يذكر فيه متى، لكن الجمال لهذه الرؤية هم فسروا الباقي أو تأملوا الباقي، وقالوا: بأنهم سيدخلوا المسجد الحرام هذا العام، والأحداث فهموا منها ذلك بالرغم أن التصريح غير موجود، أن النبي صلى الله عليه وسلم أعلن أنه سيعتمر، فذهبوا ومشوا إلى العمرة، وهو أخبرهم أنه سيدخل المسجد الحرام، ولم يذكر كيف سيدخلون؟ أيدخلونه معتمرون؟ أم يدخلونه مسلحون، فاتحون؟ لم يذكر، لكن الأمور فتنة هنا، أن الله عز وجل وعدهم أنهم سيدخلون مع رسولنا صلى الله عليه وسلم، فلما حدثت الفتنة وتأخر –انتبه أن هذا الأمر احتاج إلى وقت حتى يقع– جاء الفعل بأن الله عز وجل سيدخلهم المسجد الحرام ويدخلونه وهم فرحون مستبشرون، فتأخر الأمر.

هذا يشبه ما نحن فيه، وذلك أن الله عز وجل وعد موسى عليه السلام ثلاثين ليلة، والآن سنذكر لماذا ذكرت ليلة ولم يذكر يوم؟ هناك نكتة مهمة جدًا، ثم أتمها الله بعشر، وهذا هو امتحان الصبر، أول شيء امتحان القدر لتراجع علمك، الذي وقع في الصحابة لما جاء يقول له عمر رضي الله عنه: ألم تعدنا ان ندخل المسجد الحرام؟ قال له: (نعم، لكن أقلت لك في عامنا هذا؟)، وهو قول أبي بكر رضي الله عنه نفسه، أي قال بنفس القول، أقال لك يدخل هذا العام؟ ابتلاء.

وأنت لما تعد واحدًا بوعدٍ عظيم جميل مفرح للنفس تقول له: خلاص، يعني انتظر هذا الوعد سيأتي، وأنت تفهم من عموم أنه يشتغل لك ليعطيك إياه بعد ساعة، ثم يؤخرك يومًا، بخلاف ما لو أخرك يومًا، فإنه يقع على النفس الشدة والبأس، ومن هنا يأتي التطهير.

فهل تظنون عند موسى عليه السلام وقد واعده الله ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر، أترون أن الثلاثين يوم اشق على موسى من العشر أم العشر أشق عليه من الثلاثين؟ العشرة أشق عليه من الثلاثين من أجل أن يصفوا أن يصل إلى درجة الصفاء، وانظر إلى هذه القيمة العظيمة التي حصلت في صلح الحديبية، فقال الله عز وجل: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفتح: ١]، سمى الحديبية فتحًا، وأعظم ما فيها هو الصبر، هو صلى الله عليه وسلم قال: (هلك الناس)، ونجوا بمشورة أم سلمة رضي الله تعالى عنه، قالت له: يا رسول الله اصبر على الناس ...كذا وكذا، فدلته على مشورةٍ عظيمة، دلت هذه المشورة على حكمتها وعلى رجاحة عقلها رضي الله تعالى عنها.

فهذا يقع أن المرء يأمل بشيء فيتأخر هذا الشيء فيكون البلاء العظيم على النفس، يتأخر وهذا التأخر يكون للتصفية ويكون من أجل الوصول إلى أعلى درجات الكمال من أجل تلقي هذا الوعد الإلهي، لأن هذا وعدٌ عظيم، وهذه المراتب دائمًا نراها في القرآن، نحن نرى هذه المرتبة في قضية ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، أول

شيء الناس امتحنوا، هذا امتحان ﴿فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾، أي أخرج جنودًا، لنعتبرها هذه ليست واحدة، ولكنه لما جاء ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فبعد النجاة ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، يعني ناس صبروا على محنة ما لكن لم يصبروا على المحنة الأخرى لابد من الصبر على المحن كلها، صبروا على محنة أن لا يطعم الماء ولكن لما رأوا الجنود والموت وكما قال الله عز وجل عن الموت: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)﴾ [آل عمران: ١٤٣] فهذه لم يصبروا عليها، قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٩].

كذلك نرى هذا في قصة قارون، هذه المراتب ماذا قال له؟ ﴿قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ [القصص: ٧٦]، الكل اشترك في الموعظة لما الموعظة والكل يتكلم فيها ما شاء الله، ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)﴾ [القصص: ٧٦-٧٧]. ولكن لما خرج على قومه، ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩)﴾ [القصص: ٧٩]، ﴿قَوْمِهِ﴾ هم الذي قالوا قبل قليل ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، لكن المحنة أشد، المحن تتوالى صعودًا في النفس وفي البشر وفي البشرية.

بعض الناس يظن أن الأمور تبدأ صعبة ثم تنزل هدوءً، لا، لا، هذا لم يقع حتى في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، يعني كل معركة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم كانت أشق من التي قبلها، والدليل أنه بعد فتح مكة وقعت حنين، ووقع صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة، لتروا أن الفتن والابتلاءات تتصاعد، بعض الناس يظن أن الفتن تبدأ كبيرة ثم تبدأ بتلاشي وتنتهي، نعم هي زمانها يقترب من انقشاعها ويقترب من نهايتها ولكنها في الكمية تزيد وتشق وتتعب.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، وموسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل، من هم أولي العزم من الرسل؟ الذين ذكروا في سورة الأحزاب، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، فهؤلاء الخمسة من الرسول أولي العزم وموسى عليه السلام منهم وموسى عليه السلام له مرتبة عظيمة وشأنٌ عظيم عند الله عز وجل، وهو أعظم أنبياء بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ [المائدة: ٢٠]، فأنبياء بني إسرائيل كثر، ولكن خيرهم وأعظمهم وأصلبهم وأصبرهم وأجلهم هو موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، وهنا سؤال، هل للأربعين معنى محدد بحيث يُقتضى به؟ لا يوجد حديث في فضل الأربعين يوم، لا يوجد، لا مع التبليغ في الأربعين ولا مع غيرهم لا يوجد فضل، يقولوا: الخروج أربعين يوم

أو يقول: من صلى أربعين ركعة أو صلى أربعين صلاة في المسجد النبوي أو صلى أربعين يومًا في المسجد مع تكبيرة الأحرام تفتقت الحكمة من قلبها، وكل ذلك لا يصح، والله أعلم هذه الأربعين لا نعرف حكمتها هنا.

قوله: ﴿لَيْلَةً﴾ جل في علاه، ذلك لأن العدد يكون بها لا يكون بالنهار، أي العدد يكون عندنا الشهور تكون والأيام تكون قمرية ولذلك تعد بالليل ولا تعد بالنهار كما تفعل التقويمات الشمسية، فالتقويم الشمسي يعدها بالنهار، لذلك عندما يبدأ الثانية عشر يدخل اليوم القادم، وعندنا لا، يكون العدد بالليالي، فإذا دخل الليل دخل اليوم، فالعد يكون بها والصيام يكون بها، فقط اليوم الذي هو يكون بالشمس الذي هو صلاة الظهر والعصر تكون مرتبطة بالشمس وأما بقية الأحكام من الصيام والزكاة والحول والحج يعني أشهر الحج التي هي شوال وذي القعدة وذي الحجة على الصحيح، وبعض أهل العلم قال: عشرة من ذي الحجة، إنما هي تكون بالليالي وليست بالأيام أو بالنهار.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، كلمة الوعد أي أنه أراده الله عز وجل لخير، ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى﴾ يعني هذه تدل أنه أراده لخير، ونعلم أن هذا الوعد وقع أنه تلقى الألواح، وحدث بعد ذلك في بني إسرائيل ما حدث مما سيأتي أنهم عبدوا العجل كما في سورة «طه» وكما في سورة «الأعراف» ذكر أنهم عبدوا العجل وماذا فعل السامري و ... إلخ.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥١]، و ﴿اتَّخَذْتُمُ﴾ تأخذوا مفعولين، أي اتخذتم العجل ماذا؟ إلهًا، ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ [طه: ٨٨]، ذلك لأنهم زعموا أنه لما ذهب موسى عليه السلام هو ذهب عنده ثلاثين يومًا، أخبرهم أنا على الموعد على ثلاثين يوم، فلما زادت المدة قالوا: تاه موسى عن ربه وربه هنا فصنع لهم العجل، قالوا: لا إله هناك ذهب يبحث عمه هناك وهو هنا، فصنع السامري لهم العجل بما هو مذكور في سورة «طه» مفصلاً وكذلك في سورة «الأعراف».

قال تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥١]، هنا أقف وقفة يسيرة جدًا مع أحدهم الذي زعم أن اتخاذ الإله كلمة باطلة فيما زعم، وزعم أن اتخاذ الإله معناه أي صناعة الإله صناعة المعبود من غير الله قال: هذا خلق للإله، وبالتالي يزعم أني لما ناقشته في موضوع الإله والرب، قال: إن هذا يلتقي مع عقيدة العلمانيين في قضية صناعة الإله، هو يريد أن يلزم الخصم باعتقاده في معنى الإله، يعني ماذا يقول العلمانيون علماء النفس المجرمون على رأسهم فرويد وكذلك بعد ذلك ماركس بنى نظريته على هذا الأساس وأصلها هو نظرية أصل الأنواع الذي قال بها داروين، وإن كان كما يقول الأستاذ محمد قطب: داروين لم يُرِد هذا، أي لم يُرِد أن الإنسان بلا خالق، ولكنهم هؤلاء كلهم أخذوها ووظفوا هذا الاعتقاد أن الإنسان نمى ونشأ عن طريق النشوء والاختيار والتطور، الإنسان تطور من المادة الصغيرة التي تكونت ... إلخ، ولم يكن هناك ثمة خالق، لم يرد به هذا المعنى داروين، ولكن أخذها كل واحدٍ بحسبه، فماركس قال: لا يوجد إله وبنى نظريته المشهورة اقتصاديًا.

يقول العلمانيون: بأن الإنسان يخلق إلهه الذي يعبده وليس هناك ثمة خالق، ولكن الإنسان لضعفه يوجده؛ لأنه ينشأ وله أب وأم ويسيطران عليه ويطعمانه فلابد أن يبقى عنده الحاجة، ومن هذا رد عليهم هذا كلام أئمتنا كذلك الفقر الذاتي، فمن أجل فقره وشعوره بالضعف ينتج خالقًا ويقول: بأن الله خلقه، أي من الذي أوجد فكرة خلق الإنسان؟ الإنسان، الإنسان خلق إلهه، وبالتالي رد العكس قالوا: علينا أن نميت هذا الإله الذي خلقه عابده.

فإذًا ما هي قضية أصل القول بأن العلمانيين خلقوا الإله، أن الناس أو المجتمعات خلقت الإله، أي أوجدت خالقًا؟ لما تقدم ذكره، وهذه القضية هل تلتقي كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]، من الذي أوجد الإله المعبود الباطل؟ هل وجوده الحق؟ هم يزعمون العلمانيون يقولون: المؤمن كائنًا من كان أوجد خالقه، هل هذا الخالق حق أم باطل؟ حق لكن يزعمون انه باطل فأوجده الإنسان، فالكلام انتهينا منه، فهم يزعمون أن الإنسان خلق خالقه الذي لم يوجد، عندهم لا يوجد، العلمانيون يقولون: أن هذا غير موجود.

ونحن نقول المسلمون: من الذي خلق الإله المعبود من دون الله؟ هل هو إلهٌ حق؟ أم إلهٌ باطل خلقه الإنسان كما يخلق الصنم، خلقه؟ فنحن نقول: الإنسان يخلق إلهه الباطل، وهذه كلمة صحيحة، الناس يخلقون، ولذلك قريش هي التي صنعت هذه الألهة المعبودة من دون الله، هذا الفرق بينهما والفرق بيّن، نحن نقول أي أهل الإسلام: أن المشركين يخلقون آلهتهم أي معبوداتهم الباطلة، هذا هو دين الله.

العلمانيون يقولون: المؤمنون يخلقون خالقهم الباطل وهو في الحقيقة حق، أنه موجود، فزعم –انظر إلى اللعب– زعم أن الذي يقول: إن الناس الذين يخلقون آلهتهم المعبودة الباطلة هو عين ما يقوله العلمانيون من أن المؤمن يخلق خالقه الذي يؤمن به، أنه الخالق البارئ الرازق المحيي المميت، هو يتهم بأن المؤمن الموحد الذي يقول: بأن من عبد غير الله فقد خلق إلهه الباطل هو عين ما يقوله العلمانيون!! منتهى الافتراء، لا أريد أن أقول الجهل، منتهى الافتراء.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥١] اي إلهًا تعبدونه من دون الله، وكما قال الله عز وجل عنهم ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠)﴾ [هود: ٥٠] ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [البقرة: ٥١]، أي من بعد من؟ الضمير يعود لمن؟ من بعد خروج موسى إلى ميقات ربه، أي الأربعين يوم كما ذكر، ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١)﴾ [البقرة: ٥١]، وظالمون لما فعلتم، ظالمون لأنفسكم بأنكم اتخذتم العجل بما فيه من سفاهة وما فيه من جهل وما فيه من نسيان نِعم الله عليكم، وبنو إسرائيل فيهم هذه النزعة كما نرى في كتابهم في التوراة، أنهم يميلون إلى التجسيد، التجسيد بمعنى أنهم يرونه محصورًا يمكن أن يحويه المخلوق، يرون الإله يمكن أن يحصره المخلوق، ولذلك يصورون أن الرب نزل إلى الأرض فصار يعقوب أو صار إبراهيم، هو محصور.

ولما نجوا قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ

أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠)﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠] وذكر ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف: ١٤١]، فكان ينبغي أن لا يقع منهم هذا وقد رأوا آيات الله التي علموا من موسى أنها من الله عز وجل، سأل الله ليس الذي على الأرض يمشي وليس الذي يتجسد في صورة حيوان عجل، فبنوا إسرائيل فيهم هذا التشبيه ويملون إلى حصر الإله في داخل مخلوقاته، هذا شأنهم في هذا الباب.

ولذلك يقولون بأن المجسمة أي الذين يقولون: إن الله جسمٌ يحصر في داخل مخلوق وحدٌ محدود يمكن أن يحويه بصر الخلق، والله عز وجل يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، يتصورون إلههم على هذا المعنى.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١)﴾ [البقرة: ٥١]، وقد رأيتم هذه الآيات ولم تنسبوا شيئًا منها لله عز وجل، فأتم عليهم النعمة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١)﴾ [البقرة: ٥١]، يعني قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، هي والله أعلم أن الألواح نزلت عليه في الليل، ولم يقل أحد هذا لكن هذا الذي يميل المرء إليه، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، أن وقت الليل هو وقت تنزل الآيات العظيمة لله عز وجل ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢)﴾ [الضحى: ٢]، وهكذا.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٥٢]، يعني هذه الجريمة الكبرى التي اقترفتموها وهي شركٌ وكفرٌ بالله عز وجل، ولا شك أن هذا كفر بأنهم اتخذوا العجل وعبدوه وجعلوا يسألونه ويطوفون حوله ويستغيثون به، وأرادوا قتل هارون عليه السلام لما أراد منعهم، ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: ١٥٠]، فبعد أن جاء موسى عليه السلام وفعل به ما فعل من هذا العجل، حرقه ورماه حتى أنه أمر بعدم الانتفاع به.

وفي ذلك فوائد فقهية ربما نأتي إليها بأنه يجوز إهلاك آلات المعصية حتى لو كان يمكن الاستفادة منها تبكيتًا لصاحبها، أي أنت يمكن تأتي لكأس الخمر ويمكن لهذا الكأس أن تغسله وأن تستطيبه وتشرب فيه الماء القراح الجائز الحلال، ولكن من أجل التبكيت والإنكار على صاحبه يمكن أن تأخذه وتكسره، يجوز كسره ولا يضمن، لأن التابع تابع، هو أنت تريق الخمر وإن كان بعض الفقهاء للأسف أنكر هذا ولكن ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا يفسدون الآلة حتى لو كانت في ذاتها طيبة ولكنها لما استخدمت للباطل يفسدونها إنكارًا لها، كما أحرق عمر رضي الله عنه بيت خمار كان يهودي فاحرقه، فقد يقول قائل: لما أحرق الساج؟ ولما أحرق الخشب؟ ولما أحرق البيت؟ فيقال: لأن التابع تابع ولأن اتخاذه للمعصية إنكار له.

ومن ذلك يدخل حديثه صلى الله عليه وسلم لما لعن رجلٌ الدابة، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزل عنها وأن يخلى بينه وبينها أن ينزل من عليه الرحل وتمشي، تركوها لأنها ملعونة، فهذا تبكيت له وعقاب له، فيمكن أن تهلك التابع الذي لا يصل المعصية إلا به أو تستخدم المعصية به كما ذكرنا، فموسى عليه السلام أتى بالعجل وحرقه

ثم أخذه وأخذ ما خرج منه من التبر وخرج منه من قطع الحديد أو قطع الذهب التي أخرج بها بنو اسرائيل من القبط من المصريين وضرها في الماء عقوبةً لهم، وفي ذلك معاني أخرى غير العقوبة وذلك لإماتة الأثر حتى لا تشتاق النفس إليه.

ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن استخدام الحنتم والنقير والمزفت، لماذا؟ لأنها إذا شرب المرء بها ونفوسهم ما زالت تتوق إلى الخمر تذكروا الخمر وثارت رغبة الخمر في نفوسهم، هاجت واشتاقت، فلذلك أبعده، حرم استخدامها حتى لا تشتاق نفسه إليها، لما المرء يرى الذهب يبقى يتذكر الذهب هذا الذهب الذي عبدنا به العجل هذا الذي كذا فحتى يقطع عليهم هذا السبيل، وكل هذا من بيان سد الذرائع ومن بيان حفظ جانب الطاعة والتربية النفسية لهذا الموضوع.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٥٢]، العفو أيها الإخوة الأحبة، النار تسمى العافية، لماذا؟ لأنها تعفو، والعفو هو المسح والإزالة، فالعفو هو الإزالة، ولذلك يسمى ما زاد عن الشيء عفوا لأن العفو هو الإزالة، فأنت تأتي مثلاً إلى هذه الطاولة فما زاد من شيء أخذته فأنت أزلته فما زاد عن حاجتك يسمى العفو، سمي عفو لماذا؟ لأنه يزيد، وما هو العفو هو الإزالة؟ فكأنه إزالة أصل الشيء.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا﴾ [البقرة: ٥٢]، عفونا أي غفرنا لكم والمغفرة هي الستر، من هو أشد العفو أم المغفرة؟ العفو هو الإزالة، المغفرة وقد تكون ستر، ومن ذلك نقول خذ المغفر، لأنه يستر.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة: ٥٢]، وذلك أنهم تابوا، أمرهم موسى عليه السلام بالتوبة والإنابة والرجوع عما هم فيه من اتخاذهم العجل فتابوا إلى الله عز وجل فتاب الله عليهم فعفا عنهم، وفي هذا دليل أيها الإخوة الأحبة على أن الله عز وجل يغفر الذنوب جميعا، هل يغفر الشرك؟ نعم، يغفر الشرك بالتوبة عنه، يعني لما قال الله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ [النساء: ٤٨]، أي يغفر بأمورٍ غير الاستغفار من هذا الباب فيغفره وممكن أن يعرض للمغفرة.

ما معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، أي إما أن يغفره رحمةً به، يعني الزاني معرض للمغفرة من غير أن يستغفر، وقد يغفر له زناه بالحج، الكبائر تغفر بالحج، وهكذا، قد يعمل صدقة كبيرة عظيمة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعثمان: (لا يضر عثمان ما صنع بعد اليوم)، كقوله عن أهل بدر: (اعملوا ما شئتم)، فقد يُغفر للعبد بغير الاستغفار من هذا الذنب، إما رحمةً إلهية تسبغ عليه ويختص بها في العطاء، وإما لعملٍ صالحٍ يقوم به، وإما استغفار شامل فيغفر الله عز وجل له، إلا الشرك في هذا لا يُغفر، أي الشرك لا يغفر إلا بأن تستغفر منه على الخصوص، هذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨].

فهل يغفر الله للمشرك إذا تاب من شركه؟ هذا بلا شك وإلا بما يسلم الناس؟! بالتوبة من شركهم، والمقصود أنه لا يغفر أن يشرك به بما تقدم ذكره ولا نريد أن نعيد، فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة: ٥٢]، لما تابوا من هذا الشرك لاتخاذ العجل ويبقى حديث أبي واقد الليثي أن النبي صلى الله عليه وسلم، لما مروا على قوم يعلقون سيوفهم على ذات أنواط فالحديث نأتي إليه إن شاء الله في الدرس القادم.

وبارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الخمسون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس الخمسين من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)﴾ [البقرة: ٥١-٥٤].

تقدم بعض الكلام فيما قدرنا عليه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، وقلنا: إن سبب العدد بالليل هو ما جرى عليه أهل الدين ممن يربطون عبادتهم بالأشهر القمرية وهذا شأن الأنبياء جميعاً، لأن العبادات الحولية مربوطةٌ بالليالي لكني وجدت –وهذه فائدة– ولكني وجدت لبعض أهل العلم كلاماً يعني يقف المرء عنده من أجل بيان بعض نماذج التفسير التي ينبغي أن يعتني بها المرء فهمًا لها قبولاً أو رداً فهو ما يسمى بالتفسير الإشاري أو ما يمكن أن يأخذ على معاني من معاني التربية التي يحتاجها الداعي إلى الله عز وجل.

فبعضهم قال: وهذا رأيته عند ابن عطية رحمه الله نقلاً عن بعض السلف ونقل عن أبيه، ابن عطية نقل عن أبيه، ربما نقرأ كلامه لما فيه من فائدة، أن ليلة هي إشارة إلى صيامه المتواصل به، ولذلك قال: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، فالنهار مجزوم بصومه، قالوا: محسومٌ أنه قد صام نهاره، فهل صام ليله أي هذه الأربعين؟ فقالوا: هذه إشارة أنه كان يواصل الصوم ليلاً ونهارًا، فقال: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، ليبيّن بأنه كان يصوم كذلك من الليل، أي يصوم الليل.

وذهبوا بعد ذلك خطوة أخرى الذين قالوا هذا التفسير وهذه من كلام أبيه لابن عطية في تفسيره «المحرر الوجيز»، يقول: بأن موسى عليه السلام لما ذهب من أجل مقابلة الخضر قال: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢]، فشعر بالجوع لأنه في رحلة إلى البشر، لكنه لما كان في رحلةٍ إلى الله لم يشعر بالجوع، بقي قوياً وصائماً صياماً متواصلٍ ثمانين أي ثمانين بالليل والنهار ثمانين يكون ليل ونهار.

وهذا يفتح لنا بابًا من الحديث اليسير فيما نقدر عليه مما يسمى بالتفسير الإشاري، أنتم تروا المعاني جميلة، تروا أن المعاني رائعة سواء كان قلنا بأن المواصلة في الصيام تجوز وهذا فعل كثير من السلف، فالنبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الوصال لما يضعفهم فمن لم يشعر بالضعف فاختلفوا هل يجوز له الوصال أم لا، أم يكره؟ وقال بعض أهل العلم: يجوز، وأقرب الكتب في بحث هذه المسألة حتى لا أبعد بها كثيراً هو «جامع العلوم والحكم» لابن رجب في شرحه الأربعين مع زيادتها إلى الخمسين.

فإنه ذكر عن بعض السلف وعلى رأسهم من المشهورين بالوصال هو عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما فإنه كان يواصل من الصيام، ومن عجب الأمر أنه كان يواصل اليومين والثلاثة لكن الله أعطاه من القوة حيث لو وضعت رجل شاه في يده لهرسها مع إنه صائم، وعبدالله بن الزبير يعني من شجعان المسلمين ودواهيهم في الحرب رضي الله تعالى عنهما، وبخلاف ما يشيع عنه الكلاب الروافض، فإني رأيت لهم كلاماً في تعظيم شأن المختار الثقفي الذي هو الكذاب تعرفون أن المختار الثقافي هو الكذاب فيعظمون المختار الثقفي ومن أجل تعظيم المختار؛ لأن الذي قتل المختار هو مصعب يعني بأمر عبد الله بن الزبير لأنه كان قائداً لجيوشه في العراق.

فعبيد الله بن زياد قطع رأس الحسين ونحن في عاشوراء قطع رأس الحسين، فجاء المختار وقطع رأس عبيد، جاء مصعب بن الزبير وقطع رأس المختار وجاء الحجاج وقطع رأس مصعب بن الزبير يعني هذا هو الملك كما قال عبد الملك بن مروان: الملك عقيم، قاله: لما اختصم مع أحب الأصدقاء والإخوان إليه وهو عبد الله بن الزبير، كان عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير أخوان لا يفترقان لكنهما اقتتلا على الملك فقال: الملك عقيم، أي لا ينجب محبةً ولا أخوة.

القصد: فتروا أن هذا الكلام جميل لأنه يتحدث عن جمال ورحلة الشوق إلى الله عز وجل، في أنه يتحدث عن ثمانين يوم وهو صائم لكنه في شوقه لملاقاة الملك وسماع كلامه وهو الله جل في علاه فنسي هذا، كلامٌ جميل لكن هل ما يحتج به صحيح؟ يعني الدلالة العلمية لا يكفي أن يكون المعنى صحيح بل ينبغي أن يكون الاستدلال صحيحًا، قد تكون المعلومة صحيحة لكن استدلت على غير وجهها في بابٍ من الأبواب، وهذا ما يخاف منه في فتح باب الإشارة، فينبغي الانتباه في موضوع ما يسمى بالتفسير الإشاري.

وأكثر الكتب مقاربة للسنة في موضوع ما يسمى بالتفسير الإشاري هو «تفسير الآلوسي»، والالوسي في تفسيره لمن قرأ كتابه يرى فيه نفسين لا نفساً واحداً، لأنه كتبه في أوقات متباعدة، شهاب الدين الآلوسي وعائلة الآلوسي من العلماء الكبار في العراق، ولهم نفسٌ عظيم أنا أحب آل الآلوسي لأنهم فيهم اختصاص، لا بأس هذا من الاستطراد الذي فيه الفوائد وأن لم يكن من عين التفسير وصلبه، آل الآلوسي أحبهم لأنهم استطاعوا بذوقٍ عجيب وعلمٍ من

عجيبٍ راقٍ أن يجمعوا بين التصوف بين قوسين (التصوف) في حالته المعتدلة أقصى ما يكون وبين السلفية في معناها العلمي ليس المعنى المؤسسي المعاصر.

الحالة العراقية في هذا الباب وهم آل الآلوسي فيهم هذا النفس، وورثه كثير من علماء العراق عن الآلوسين يعني عندما تقرأ لشهاب الدين الآلوسي صاحب التفسير فتجد فيه نفسًا علمياً دقيقاً وهو من المعظمين لابن عربي المكي الطائي صاحب «الفصوص» و«الفتوحات المكية» يعظمه، ولكنه لا يتابعه في كل شيء يعني عندما جاء إلى إيمان فرعون ناقش ابن عربي ومع احترامه له، وه من علماء يعني محمود شكري الآلوسي في كتابه «غاية الأماني في الرد على النبهاني»، اقرؤوه كتاب من مجلدين مهم جداً، هذا الكتاب يناقش فيه يوسف نبهاني في رده على دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب في قضية الاستغاثة وعلى ابن تيمية في قضية الاستغاثة والتوسل وهذه المسائل المشهورة.

وهذا الصنف من العلوم يكاد اليوم لا يوجد يعني أن يكون المرء أثريًا قحاً وتجد عنده النزعة التربوية الراقية التي تجدها عند المشايخ، مشايخ التربية، هذه قليلة اليوم إما أن يكون شيخاً مربياً مخرفاً أو بعيداً عن التقيد بالكتاب والسنة، وإما أن تجده أثريًا لكنه لا تجد فيه مسحة التعبد ولا سمة المربين، ولا نريد أن أتكلم أكثر من هذا.

فالقصد: بأن التفسير الإشاري وعمدته بين التفاسير السنية لأن هناك تفاسير إشارية يعني التفسير المنسوب إلى ابن عربي وهو له هذا تفسير كُفري، وإن لم يكن –نقول كما قال السلف– وإن لم يكن فيه كفر فلا يوجد كفر في الدنيا، وهو هناك كذلك من هذه التفاسير التي على هذا المعنى من الضلالات التي هي الإشارية وخاصةً الكتب الرافضة، كتب الرافضة فيها التفسير الإشاري وكثير، مثل: والتين والزيتون الحسن والحسين!! كيف الحسن والحسين؟!! لا تدري، فتجد فيها البعد والشطط.

القصد: بأن التفسير الإشاري معانيه صحيحة، ولكن هل تدل عليه الآيات؟ هذا ما ينبغي الانتباه له، يعني قد تدل عليه دلالات ضعيفة فتقبل، لكن إذا كانت الدلالة بعيدة فلا ينتبه لها ولا يهتم بها، وهذا من التفسير الإشاري الجيد، ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، في أنها إشارة إلى التعبد وأنه أراد بالليلة، فيها الربط وإن كان ضعيفًا لقضية التعبد أربعين يوماً وأنه واصل الصيام فسماها ليلة واعده بالليل وفيها معنى أن الشوق إلى الله عز وجل يذهب أثر التعب والنصب والمشقة حتى الجوع، بخلاف رحلته إلى الخضر فإنه قال: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢]، ولم يقل هنا: آتنا غدائنا، لم يقل له، ففي هذه المعاني ويستحسن الإشارة لها والتربية لها وهذا من الغوص على المعاني مع دقته وخفائه.

ولكن ينبغي الحذر مما قلناه: بأنه أولاً: يجب أن يكون المعنى صحيح، أما المعنى الباطل باطل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] يقول: عائشة رضي الله عنها، هذا معنى باطل، فبالتالي الدليل الذي احتج به لا يفيد هذا المعنى، فالمعنى باطل، لا يفيد هذا المعنى.

فينبغي إذن القضية التالية لصحة التفسير الإشاري: أن يكون المعنى المستفاد قد قررته الشريعة هذا واحد، الشيء الثاني: أن يكون ثمة ارتباط ولو ضعيف بين المعنى المستفاد وبين الآية وبين النص ولو ضعيف على معنى من المعاني، فحينئذٍ يصح ما يسمى بالتفسير الإشاري وإلا فيرد إذا كان المعنى باطل أو كان المعنى مستفاد بطريقة، حتى المعنى الصحيح ولكن الدلالة عليه لا تمت إلى النص بصلة فهذا لا يلتفت إليه وينبغي التحذير منه والتنبيه على غلطه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [البقرة: ٥١]، العجل هنا نقف عند مسألة من مسائل السحر، يعني نحن نعلم أنه لا خالق إلا الله، والخالق يأتي بمعنيين، المعنى الأول: وهو الإيجاد من العدم على غير مثالٍ سابق، فهذا خلق وقد يكون على مثال ولكن خلق أوجد من العدم وهذا لا يمكن تصوره في الخلق أن يفعلوه، لا يمكن أن ينشأ منهم، ولا يمكن أن يقوم بأيديهم، ولا يمكن أن يكون من قدرتهم، فالعباد لا يخلقون، ما معناه؟ نحن نتكلم عن الماديات أما أنهم يخلقون بمعنى يكذبون فيخلقون.

ولذلك يجب التنبيه عندما نستدل بالحقائق الكونية على المواضيع المعنوية ومن ذلك قولهم عندما تخرج إشاعة لا دخان بلا نار كذابين، نعم هي لا تخرج دخان بلا نار في المعنى المادي، لكن هل تخرج إشاعة بلا حقيقة كلية، ممكن أن يقارب بينها لكن ليس على معنى الحسم، ومن هنا ينبغي التحذير في هذا الباب واكتشاف الخطأ فيه لئلا نقع في نسق الخصوم في هذا الباب، نسق الأعداء الذين يريدون الإفساد، فلا يخلق إلا الله لا يمكن.

إذن لما يقول العلماء السحر له حقيقة فماذا يقصدون؟ هل يقصدون أن الساحر يُنشئ نشأةً جديدة؟ العجل خُلق من قبلهم يعني صنع على المعنى الآخر صنع من بني إسرائيل من الحلي الذي خرجوا فيه من بني إسرائيل، ولذلك قال تعالى: ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾ [الشعراء: ٥٨-٥٩]، لكن في سورة «الدخان» ما قال وكنوز، قال: ﴿وَزُرُوعٍ﴾ [الدخان: ٢٦]، وقال: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨)﴾ [الدخان: ٢٨]، هذا خارج لكن أنبه عليه.

من أين أتى العجل الذي صنع من حليهم عجلاً، ولذلك الله قال: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾، ونسب الحلي إليهم، من أين جاء هذا الحلي، وهم كانوا لا يستطيعون وهم عبيد وسخر لما خرجوا من مصر أخذوا ذهب الأقباط المصريين معهم سرقوها، ولذلك قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨)﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٨]، لما جاء لذكر الكنوز قال: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾ [الشعراء: ٥٩]، لأنها أورثت لبني إسرائيل كنوز، لكن لما جاء للزروع أورثت لقوم أخرين ليس لبني إسرائيل.

ومع ذلك قال الله عز وجل: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨]، فنسب الحلي إليهم فاعترف الشارع بملك بني إسرائيل لهذا الحلي، يعني أخذها بنو إسرائيل من المصريين على جهة اللصوصية والسرقة، وليس على جهة الغلبة

ولا على جهة المعاوضة، أخذوها خلسة لما خرجوا، ومع ذلك الله أثبت لهم الملكية ونسبة الملكية مع الإقرار دليل على صحتها، نقف إلى هنا ولا نزيد.

ومما استغربته أنه كان البعض يسأل لأن المشايخ في فلسطين لا يجيزون سرقة، بين قوسين (السرقة) لأن الصورة هي سرقة ولكن التكييف الشرعي لا تسمى سرقة، هي الصورة سرقة يعني الأخذ خفية، ما معنى السرقة ما الفرق بينها وبين المحاربة؟ ما بينها وبين النهب؟ ما الفرق بين السرقة والنهب؟ السرقة ما أخذ على وجه الخلسة، النهب، لا، الصيال مختلف تأخذه أمام الناس وهذا حكمه أشد الذي يؤخذ على جهة الصيال وعلى جهة النهبة وعلى جهة الظهور هذا أشد عند الله عز وجل ولذلك حكم المحارب أشد من حكم السارق، فالله جمع بينهما –أرأيتم– في سورة واحدة وهي سورة المائدة، فجمع بينهم في مكان واحد ففرق بين الحكمين تفريقًا كبيراً.

فالقصد: أنهم أخذوها على جهة السرقة ومع ذلك نسب الله الملك لهم، قال: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ وهذا يكفي إلى هنا.

ونعود إلى قضية العجل، السحر له حقيقة يقول العلماء، وهل العجل صار لحمًا ودماً؟ نجزم أن: لا، وإن كان بعض أهل العلم قد قاله ولكن هذا يناقض أصل عقيدة المسلم في أنه لا يخلق اللحم من التبر ولا يخلق اللحم بأن تصبح الحجارة أو يصبح الميت أن يصبح حياً وعجلاً جسد، ولذلك قال الله: ﴿جَسَدًا﴾، ولما قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: ٨]، أي خِلقةً، أي ما خلقهم الله خِلقةً لا يأكلون الطعام، ولذلك قال: ﴿جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، جسد يعني ليس العجل الذي نعرفه من لحمٍ ودم ويخور خور الحياة.

فإذا كان هكذا طيب كيف له خوار؟ هذا من سحره، كيف من سحره؟ يسأل السائل هل لما نقول من سحره لم نقل من أفانينه التي هي خفة اليد والخداع فقلنا من سحره، ما الفرق بينهما؟ البعض يقول: بأن السحر لا يكون إلا على جهة الخداع البصري بلا حقيقة وهذا خطأ، تسمية السحر فقط مما يصنعه مما يسمون بخفيف اليد تسمية السحر وقصره على هذا المعنى غلط غير صحيح، هو إحدى أنواع السحر لكن هناك أنواع من السحر التي لها تعلق بعالم الغيب.

ونحن دائماً نتكلم بأن الفارق بين السني والبدعي في هذا الباب عندما تكلمنا عن المعجزة والكرامة قلنا ليس الفارق بينهما في أن خصومنا من المسلمين كأمثال محمد عبده كأمثال صاحب التفسير طهطاوي لما يفسرون ليس لأنهم ينكرون الغيب، يعني لا يوجد إنكار، مسلم أنكر الغيب لا يبقى مسلماً، ولكن الفرق بيننا وبينهم أنهم ينكرون تدخل عالم الغيب لعالم الشهادة، وأن يصبح له أثر هذه النقطة ينبغي أن ننتبه لها هم يقولون: انتهى، أن يتدخل عالم الغيب لعالم الشهادة انقطع خلاص، كان قبل ذلك، أما لما جاء القرآن انتهى هذا التدخل فينكرون الكرامة والمعجزة وما شابه ذلك.

إذن يمكن السحر أن يكون خفة يد، وأن يتلاعب كما يفعل الحواء اليوم وغيره، لكن يمكن أن يكون السحر استحضار عالم الغيب على معنى من المعاني وهو الذي قال عنه الله عز وجل في سورة «البقرة» ﴿بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، يعني تدخل الشياطين مع هذا الساحر عندما يكفر فيستخدم الشياطين قوى لا نعرفها، هذا بابٌ لا يمكن الوقوف عنده لأنه ليس من عالم الأسباب لندركه، ونحن إلى الآن لم نكتشف من عالم الأسباب إلا القليل عالم الظاهر يعني الآن كيف يضحك علينا ما زلنا أطفالاً إلى الآن، إلى الآن بعض الناس يشيبون ويحضرون الصور المتحركة، والصور المتحركة ما هي؟ هي صور مرسومة ثابتة لكنها تتحرك بسرعة معينة تمنع العين من اكتشافها وتبدو على أنها حركة، بالرغم أن بين هذا الجزء من الحركة وهذا فيه جزء مخفي غير موجود، لكن لأنه فوق ما تدركه العين من الحركة فتبدو أنها متواصلة، هذا عالم من عالم الأسباب اكتشفوه فعملوا به على مستوى لا ندركه، الناس لا يدركونه وكم من عالم الأسباب ما لا ندركها إلى اليوم، لماذا يحدث هذا؟ وقد يفسر الماء بعد جهدٍ بالماء.

فإذا كان عالم الشهادة الكثير منه مخفياً، فما بالك بعالم الغيب، فإذن الشياطين أي الجن لهم عالم ولهم قوى يعني من قدرتهم التشكل، أنت لا تستطيع الاختفاء، لكن الجن يستطيع أن يظهر ويختفي له قدرة، الجن هل يستطيع أن يدخل فيحدث أصوات؟ الجواب: نعم، والدليل ما ذكره علماؤنا، لمن قرأ كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لابن تيمية رحمه الله يذكر قصص كثيرة، والآن آتي لنقطة مهمة في الباب لماذا لا تظهر اليوم الشياطين، انتظروا هذه سيأتي ذكروني إذا نسيتها، يعني لماذا كانت تظهر في وقت ولا تظهر في وقت مثلاً اليوم والقليل يظهر، وإن كانت ما زال الناس من السحرة يستخدمون الجن ويستخدمون الشياطين.

فلذلك في حديث الذي هو موقوف على ابن الخطاب الفاروق عمر رضي الله عنه كما في مصنف ابن أبي شيبة، بعضهم قال: مرفوع والرفع ضعيف، (إذا تغولت الغيلان فأذنوا)، ما هي الغيلان؟ هي سحرة الجن يعني إذن عندنا نحن أناس بسطاء مثلنا لا يعلمون شيئاً من عالم الشهادة الذي فيه السحر، وكذلك في الجن مع هذه القدرات العجيبة عندهم، عندهم سحرة يستخدمون قوة عندهم لا يعرفوها عامة الجن، فقال: (إذا تغولت الغيلان٩، ما هي الغيلان؟ الغيلان هي سحرة الجن.

فإذن السحر ليس فقط قاصراً على الفهلوة وخفة اليد ولكن له تعلق بعالم الغيب في استخدام الشيطان للإنسان والإنسان للشيطان وفي العلم قدرة الإنسان أقوى، وفي القدرة عالم الشياطين والجن أقوى من عالم الإنسان، وهذا ذكرناه مرة ولا أريد أن أعرض عليه الآن أو أميل إليه لأن الكلام فيه يطول.

فإذن لما نقول للسحر حقيقة وهو قول عامة أهل السنة وإن كان بعض أهل السنة لم يثبتوا وجعله كله حيل يعني مثال ذلك الدخول في النهر، كان يقولوا: يدهن نفسه بدهن الضفادع، يدهن نفسه بشيء من الدهون لا تؤثر وهكذا، يعني يجعلون من الفنون الكيميائية واللعب الفيزيائية التي تعرف في عالم الشهادة، والصواب: أنها ليست فقط

كذلك، وأن عالم السحر عالم له تعلق بعالم الغيب عن طريق استخدام الشياطين، كيف؟ لهم قدرات، إلى الآن لا أفهم، يعني أفهم كيف تدور لكن كيف؟ لو يسأل واحد يقول كيف هؤلاء الرفاعية الصوفية يأخذون السيف ويضعونه في بطونهم، ولا يحصل الدم، وربما فقط قطرة يسيرة وليس على المعنى الذي تخرق به الأجسام عادةً؟ هذا له تعلق بالجن مئة بالمئة، الجن يدخلونها يزيحونها، كيف هذه القدرات؟ لا نعرفها عالم من فيزياء الجن وليس فيزياء الشهادة، عالم يعني المادي فيزياء معناها المادة، أعتذر لاستخدام هذا اللفظ لاشتهاره هذه الأيام.

فإذن هنا نقف ونقول: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦]، -هذه يقف عندها- هذا السامري أنه أخذ قبضة، يعني المشهور في كتب التفسير وسنأتي إليها بالتفصيل بأنه أخذ من أثر موطن البراق الذي كان عليه جبريل، هل فيه شيء، هل فيه أثر لما وضع رجله هل ترك أثرًا ما؟ هذا لا ندري عنه، السامري سامري يعني عنده فنون في هذا والجن يخبرونه بأمور هو له علاقة معهم، ولكن السحر لا يمكن أن يتعلمه المرء على هذا المعنى حتى يكفر، والعلماء أغلبهم المالكية والأحناف يقولون: بقتل الساحر ويطلقون، الشافعي فرق بين السحر على المعنيين، السحر بمعنى الفهلوة وخفة اليد، والسحر بالمعنى الأول، السحر بالمعنى الأول تقتل السواحر، مع الحديث والخلاف في رفعه ووقفه، (حد الساحر ضربةٌ بالسيف)، خلاف في رفعه وإن كان الصحابة رضي الله عنهم قد فعلوه.

إذن لما نقول السحر فقط يذهب ذهننا إلى الأمرين، فالشافعي فرق بين الأمرين فقال: أن السحر الأول، وأما أن يقتل أو لا يقتل قال: فإن قتل به يقتل، وإن كفر به يقتل، وأما أنه على معنى الخفة فليس بشيء، هذا كله في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [البقرة: ٥١].

بعض الناس يسأل يقول: الآن لا نرى السحرة إلا بخفة اليد أغلبهم ويستخدمون بما يسمى الخدع البصرية؟ الجواب: الذي علمته بأن الجن لا يتدخلون في عالم الشهادة إلا في موطنين، الجن المقصود الكفرة، لا يتدخلون ولا يصدرون إلى الناس إلا في موطنين، الموطن الأول ظهور الحق وقوته، كما ظهروا زمن النبي صلى الله عليه وسلم، النبي صلى الله عليه وسلم يصلي فخرجت الشياطين تنزل من الجبل منهال عليه والشيطان معهم بعمد من النار يريدون أن يحرقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، لماذا؟ من شدة حقدهم لظهور الحق.

فإذا كان أولياؤهم من الإنس يقومون بالمهمة لماذا يظهرون؟ وإذا كان أولياؤهم من إنس أكثر مكراً منهم وخداعاً وشيطنة منهم، فلماذا يظهرون؟ وإن كانوا أغبياء كما يقول شيخ الإسلام أن الجن فيهم غباء، لما جاء لحديث الذي في صحيح مسلم الذي قتله الجني الأفعى الذي قتلها فقتلته، تعرفون الحديث الرجل الذي تزوج كان يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في عودته إلى بيته وقد تزوج بنى بأهله يعني قريبًا، فذهب يوماً وجد زوجته على الباب فاختلاطها بالسيف فحالت عنه قال انظر من خلى انظر من في البيت فدخل وإذا أفعى كبيرة مقعية على سريره، فاختلاطها بالسيف فقتلها، فقالت المرأة: لا أدري أيهما أسرع موتاً الأفعى أم الرجل مات هو، فقال أهل العلم وهذا قولهم وهو

قول مصدق: بأن الجن قتلوه انتقاماً لقتل صاحبهم الجني، فقال النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك قال: (إن إخواناً لكم من الجن قد أسلموا فمن رأى فلينذره ثلاثاً)، على خلاف، هل هذا خاص بزمن النبي صلى الله عليه وسلم؟ هل هذا خاص بالمدينة دون بقية المدن؟ هل هذا ثلاثًا ثلاث مرات أم ثلاث أيام؟ كلها مبحوث في مواطنها وليس هذا مكانه.

فإذًا متى تظهر الشياطين؟ عندما أولاً يقوى الحق ولا يقوم أتباعهم بالمهمة حينئذٍ هم يخرجون من حقدهم ليقوموا بالمهمة، ومن هنا يظهر الفرق لما قال النبي صلى الله عليه وسلم (ما سلك عمر وادياً إلا سلك الشيطان واديًا آخر)، لماذا؟ ولماذا لم يهرب الشيطان من النبي صلى الله عليه وسلم، يعني الشيطان إذا كان عاقل يقدر المعركة ويهرب لكن إذا أصابه الحقد حتى أعمى بصره هجم وهو جاهل، فلذلك حقده على النبي صلى الله عليه وسلم أشد من حقده على عمر، حقده على عمر ما زال مالكاً لعقله فلذلك يهرب منه ما بدو مشاكل، يذهب وينشغل بشيء ثاني، لكن حقده على النبي صلى الله عليه وسلم أعمى بصره أنه ماذا ستكون العاقبة فهجم عليه، ينبغي التنبيه لهذا حتى لا يظن أحد أنه كيف يهرب من عمر ويهجم على النبي صلى الله عليه وسلم، لما يعمى البصر يعني يقع المحظور والقدر.

الحالة الثانية التي تظهر فيها الشياطين حالة ظهور القوة، الحالة الثانية هو موت الحق ولذلك في آخر الزمان تظهر الشياطين للناس وهم الذين يظهر لهم الشيطان، يقول: ماذا تفعلون؟ يقول: ماذا تريد؟ فيحضر لهم الأوثان فيعبدونها من دون الله، فلذلك أنتم ترون أن الجن يظهرون في هذين الموطنين، يظهرون الجن في أماكن الشرك، أماكن الوثنية أماكن القذارة تجد الجن ينتشرون ولهم أثر.

ولا ندري حالياً يعني أنا أفكر كثيراً فيما يتحدث به الذين يشتغلون اليوم فيما يسمى بالرقية الشرعية، مع التنبيه أن أمثال هذه العلوم كالرقية الشرعية وتفسير الرؤى الذي نعتقده أنه لا يقوم بها إلا العلماء الأفذاذ والعباد، لا يقوم بها إلا الصالحون، وأنت تجد الآن كأنها أهون أنواع علوم الدين على الرغم أن اختلاف العلماء هل علم تعبير الرؤيا هل هو من الإلهام أو من التعلم؟ يعني فيه شيء من الإلهام، ونحن نعرف قصة ابن سيرين كيف صار ملهماً في تعبير الرؤى، قصة عطاء من الله وكيف منَّ الله على يوسف من بقية الأنبياء بتعبير الرؤيا، اليوم تجد أنها مهنة تعبير الرؤية هي مهنة من لا مهنة له، ما لاقي شغل معطل قاعد فيعمل بها.

وللأسف لا يقوم بها العلماء المشهود لهم بالفقه والبصيرة بالدين ومعرفة القرآن وحفظه والتلاوة والقيام به في الليل والنهار لا تجد، وكذلك الرقية كذلك هي مهنة من لا مهنة لها، يعني الآن تجد الرجل ربما يشرب الدخان وحالق اللحية ومع ذلك هو راقي يأتي الناس عليه بالطوابير ويجلسون عنده ويبيعهم العسل يذهب إلى السوق فيشتري أردى

أنواع العسل ويضع فيه المادة المنشطة جنسياً ويبيعها على أنها رقية نافعة، يعني أنا أنبه لهذا أن هذه لا يقوم بها إذا لم تراه عالماً جهبذًا عظيماً فلا تصدقه وإن بدى لك غير ذلك.

والآن أنا أتسال دائمًا يأتيني إخوة يقول: رأسي يؤلمني آتي لي راقي كذا، فرأيت الراقين على العموم ينسبون هذا إلى الجن، داخل فيه جن وهذا فيه جن وخمسة عشر جني وطالعت جني بقي أربعة عشر، وهذا جنه يهودي وهذا جنه أزرق، حقيقةً هذا مما يشغل فكري يعني هل حقيقة وصل الناس إلى هذه الدرجة من سيطرة الشياطين عليهم؟! أم أنهم يكذبون، نتركها للناس هم يجيبونا عنها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١)﴾ [البقرة: ٥١]، هنا أيها الإخوة الأحبة لابد من الاستفادة من قضية مهمة في توظيف هذه الآية أن الداعي والعالم والقائد والأمير لا ينبغي أن يترك جماعته على الحال الذي هم فيه كثيراً وطويلاً، ونحن تكلمنا في الدرس الفائت وقلنا: بأن خروج موسى مع بني إسرائيل من مصر هو ضربة لقضية ما يسمى بالتربية، يعني لم يقل: لهم تربوا، بالرغم أنه عمل معهم، أمرهم كما في سورة «يونس» ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [يونس: ٨٧]، أمرهم بأوامر تدل على أنه أراد منهم أن يخرجوا من مخرج التيهان الذي يعيشونه في مصر، الانفرادية ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [يونس: ٨٧]، أراد أن يوحدهم، أراد أن يجمعهم على شيء واحد، أراد أن يشعرهم بأنهم أمة واحدة، فأعاد لهم خطاب الجمعي حتى في أمر العبادة.

لكن لم يصلوا فكل الدلائل تدل على أنهم لم يصلوا إلى مرتبة تحمل تكليف الخروج، والدليل أنهم قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء: ٦١]، وحصل ما حصل وبعد تجاوزهم قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨)﴾ [الأعراف: ١٣٨]، يعني الآن تجاوزوا البحر ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾، الآن جاءوا هذه كلها الحالة النبوية الموسوية تدل على أن موضوع التربية لا وجود له، لما يزعمه البعض المعاصر في أنه لا ينبغي رمي الأمة بالمهمات وغمرات الأعمال العظيمة، قبل أن تتربى، هذا لا يدل، وأنت تأخذهم إلى طاعة الله وتمشي بهم، والدليل على هذا أن عامة من قام بجهاد المرتدين ليسوا على الطريقة التي يفرضها المشايخ اليوم المعاصرون من قضية ما يسمى بالتربية.

لكن هنا نقف عند قضية أن غياب موسى عليه السلام أثر عليهم بالرغم أن هارون عليه السلام كان بينهم، ولما خرج موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)﴾ [الأعراف: ١٤٢]، فجعله خليفةً له، ولا نريد أن نتكلم عن هذا الأمر بالنسبة لما يقوله الشيعة فكتب أهل العلم طافحة فيه وطالب العلم المبتدئ يستطيع أن يصل إلى مراده في هذا الباب في الرد على الروافض.

لكن هارون عليه السلام مما يذكره المؤرخون وأهل التفسير أن هارون عليه السلام كان أرحم وأرأف وأرق من موسى عليه السلام في تعامله مع بني إسرائيل، فكانوا يعني يحبون هارون عليه السلام أكثر من محبتهم لموسى عليه السلام، يعني هذا لا يدل على أن هارون أعظم، نحن قلنا في الدرس الفائت أن موسى عليه السلام هو أعظم أنبياء بني إسرائيل وهو من أول العزم من الرسل، وما هارون إلا حسن من حسنات موسى، يعني تصور هذه النعمة العظيمة التي قدمها موسى لهارون ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩)﴾ [طه: ٢٩]، هو حسنة، هنيئًا لهم، على ما قلنا في الدرس الفائت: عن العجوز (هلا كان أحدكم كعجوز بني إسرائيل)، وراح الرجل طلب، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: (أطلب)، فطلب راحلة وطلب شاه، قال صلى الله عليه وسلم: (هل كان أحدكم كعجوز بني إسرائيل)، ماذا طلبت عجوز بني إسرائيل من موسى؟ طلبت منهم مرافقة موسى الجنة.

القصد: أن موسى عليه السلام ترك بني إسرائيل وتغير هؤلاء القوم على ما فيهم، وهذا يدلنا وإن كان على المرء أن يتخول الناس بالموعظة ولكن ينبغي وجود الإيمان ووجود النموذج الذي يجمع بين الأمرين بين الهيبة وبين كذلك الاحترام، هم يحترمون موسى عليه السلام ويقدرونه، ولذلك لما هارون ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤)﴾ [طه: ٩٤]، ماذا قالوا قبلها؟ ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١)﴾ [طه: ٩٠-٩١].

فانظر يعني هيبة هذا العظيم كانت تمنعهم، فلا يُمدح هارون عليه السلام أنه في هذا الباب أنه أحسن من موسى عليه السلام، لا يقال هذا، هو أرأف ولكن الذي يلزم في بيان الحق موسى وليس هارون، والدليل أنه بوجود موسى ذهب الشر وبوجود هارون لم يذهب الشر بل جاء، لنعلم أن المسألة ليست لمقدار ما تحب ولكن لمقدار ما يحصل بك من الخير، تحب أم تكره كما قال عمر رضي الله عنه وقد قال له أحدهم إني لأبغضك قال: «إنما يضر البغض والحب النساء»، الذي يتأثر في أحبك ولا أحبك هذه النساء، ينبغي أن تقول الحق الناس يكرهوك يحبوك بعد ذلك الله يرفع شأنك إذا قلت الحق مخلصاً لله، ما يهمك حبوك كرهوك ما يضر.

القصد: بأن موسى عليه السلام غاب عنه فتغيروا، وهذا يدل على أن الناس لابد من وجود إمام له هيبة يمنع الناس من اقتراف الباطل، وهذا ما حدثته كتب التاريخ عن الفاروق فإن عثمان رضي الله عنه كان خيراً للناس من عمر رضي الله عنه، يعني عمر رضي الله عنه كان في زمانه التقشف ولما جاءت الأموال خاف من فتنتها ولكنهم كانوا يهابونه، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما وقد قيل له: لِمَ لم تخالف في مسألة، مسألة الحج، قالوا: لِمَ لم تظهر قولك زمن عمر؟ قال: هبته وكان مهيباً، لا أقدر أن أقول أمامه، فهيبة عمر كانت تمنع الناس، لكن انظر لعثمان رضي الله

عنه، كان عثمان خيراً للناس يعني خير العطاء من عمر رضي الله تعالى عنهما، ولا شك يعني نحن لا نقارن عثمان بعمر رضي الله عنهما وإن كان يعني كلاهما عظيم بلا شك.

القصد: أن هيبة عمر رضي الله عنه كانت تمنع الناس، انظر لما جاء عثمان رضي الله عنه، ولا نقول الضعيف نعوذ بالله، هذا كذب على عثمان رضي الله عنه، عثمان رضي الله عنه لم يكن ضعيفاً، لكنه كان على منهج هارون عليه السلام لنقل، كان أرق وأعطى الناس وتوسع فيهم، تجرؤوا عليه وقتلوه، وهذا في الصدر الأول ما زال الصحابة حضور.

وهذا يعلمنا أيها الإخوة الأحبة أن الأمير والإمام لابد له من هيبة ولابد له من حضور فإذا غاب حصل ما يحصل ولا ينبغي للعالم أن يوافق الناس، وهذا يعلمنا كذلك أنه لا ينبغي ابتعاد عالم صاحب الهيبة، وكذلك الإمام صاحب الهيبة عن الناس فينبغي أن يعيش بينهم من أجل أن يروه، هذه مسألة في هذه القضية تفيدنا في قضية تغير بني إسرائيل في عبادتهم العجل.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥١] يعني إلهًا، المفعول به الثاني هنا محذوف والحذف هنا من الإعجاز كما تعلمون، لأسباب يعلمها أهل العلم، ومن ذلك هنا في قوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾، ماذا؟ أطلق النفس ليدل أنهم اتخذوا شيئاً عظيماً، وكأن الله عز وجل أراد أن يجل أن يسمى هذا إلهًا في هذا الموطن.

وهناك بقيت مسألة في هذا الباب نعرج عليها لأهميتها ولكن تكلمت عنها كثيرًا في السابق، وهو زعم الناس أن الوحدة أهم من التوحيد، ويزعمون هذا حين يحتجون بهارون عليه السلام ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤)﴾ [طه: ٩٤]، فيقولوا: أن هارون عليه السلام هنا قَبِل منهم عبادة العجل على ألا يفترقوا، يعني هذا من الكذب على الله، فإن الله عز وجل قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ولو كانت الوحدة على الكفر صحيحة وجيدة لما جاء محمد صلى الله عليه وسلم وجعل الناس فرقتين يقتلوا الأب ابنه وابن العم يقتل عمه وهكذا، فرق بين الناس، فهذا من الكذب على الله، لكن كيف نرد عليهم في هذا الباب، ما هو الأجل في هذا الباب؟

انظروا إلى القضية موسى عليه السلام عاتب هارون وسأله لماذا لم تتبعني؟ لماذا لم تأتي إلي؟ هو ذهب وطلب منه أن يلحق به، قال: ما منعك من أتباعي، ما منعك من أن تمشي ورائي، هم ماذا قالوا له؟ ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١)﴾ [طه: ٩١]، ماذا قال هارون ﴿اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: ١٥٠]، ﴿كَادُوا﴾، وكاد الشيء أي اقترب منه، اقترب كادوا أن يقتلوه، واستضعفوه رأوه ضعيفاً لا يوجد معه أحد يدافع عنه ولا ينصره، لو كان الرجل هكذا ماذا يصنع؟ ما هي الحالة التي يصنع بها؟ أنه الآن موجود بينهم وهم مجتمعون، وهو لا يستطيع أن يفعل شيئًا، ولو تركهم لما صنع شيئاً لبقوا على ما هم عليه، ولو خرج بينهم لا يدري ماذا يحدث بعده.

فلو قال لك قائل –وهو النبي هنا، نحن نتكلم عن النبي وهو موسى عليه السلام وليس عن فقيهٍ دجال، وليس عن شيخٍ مفتري– لو قال لك قائل: اسمع أنت جئتنا بهذا الكلام، لو قال: اجتمع الناس على باطل وكذب من الأكاذيب حتى على مسألةٍ من الشرك اجتمع الناس عليها، فأنت جادلتهم بينت لهم ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ [طه: ٩٠] جادلهم بالحق، وهم لم يردوا عليه شيء، ما ردوا عليه إلا أننا نرتقب موسى، فقال لك: اسمع انتظر لا تتكلم فإننا لا نأخذ من قولك حتى يأتي إلينا العالم الفلاني وهو بمنزلة قول الحق، –في حالة موسى– فماذا تفعل؟ ما هي الطريقة الحكيمة التي تقوم بها حتى تحل هذه المشكلة؟ هو أن تصبر حتى يأتي لأنك تعلم أنه إذا جاء سيزيل هذا الهم ولا يحصل.

فإذن لم يكن هناك خيار في قبول هارون للباطل الصورة التي تطرح اليوم أنه قَبِل هارون الباطل واختاره لما كان الأمر بين توحيد لله بعدم عبادة العجل وبين ماذا؟ هل هو اختيار؟ كان يمكن لهارون أن يقول: يا قوم إما أن تختاروا الوحدة وإما أن تختاروا التوحيد، فقالوا: نحن نختار الوحدة وهكذا مجردة، فهل يبقى معهم يقرهم على ما هم عليه، ولو جاء رجل إلى قوم من الناس فقال لهم: أدعوكم إلى التوحيد فصار معه قوم وخالفه قوم، أمن حقه في دين الله أن يقول: عودوا على ما كنتم عليه من الشرك لتكون الوحدة والتوحيد دعوها عنكم؟ أهكذا كان حال هارون؟ أي هارون ليس له اختيار، هل لهارون اختيار في قبولهم الشرك أم الاختيار في ماذا؟ أخرج من عندهم أو لا أخرج، العتاب بين موسى وهارون عليه السلام في أنه تتبعني، لماذا لم تتبعني؟ لماذا لم تمشي لم تتأتى ورائي، فقال: خشيت، انظر الخيار هنا لماذا خرجت أو لم تخرج، قال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤)﴾ [طه: ٩٤]، ما انتظرت ماذا سأقول أنا، ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤)﴾، من الذي يرقب قوله كذلك؟ بنو إسرائيل ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١)﴾ [طه: ٩١].

فإذن عندما يأتي هؤلاء الحقيقة الضالون ويقولون: بأن هارون اختار الوحدة مع الشرك على التوحيد مع التفريق!! وكأن الأمر بخياره!! كأن الأمر بخيار هذا النبي العظيم!! لم يكن بخياره، هم قالوا: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾ سنبقى عباد لهذا، وقالوا: ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١)﴾، هو فكر أن ألحقه أن أمشي وراءه وأتركهم، أم أبقى حتى يرجع موسى؟ هذه هي الصورة ولم يكن خياراً، فما قال: لهم ابقوا كما تريدون، كمثل الآن أن يأتي داعي ويقول لهم: قوموا بتوحيد الله وعليكم بالسنة، حتى لو في باب السنة والبدعة فقال لهم: قوموا بالسنة، فافترق الناس أخذوا بالسنة وناس أخذوا بالبدعة بحسب مرتبتها قد يكون مرتبة الخصومة الشديد وقد يكون مرتبتها الإعذار، أن يعذر كل واحدٍ الآخر، فهل لأحد أن يقول: لا تختلفوا، انسوا هذه السنة لا نريدها وعودوا إلى ما كنتم عليه من الغلط والبدعة، من قال بهذا!! هذا فقهٌ أعوج لا ينبغي أن يعرج عليه ولا يلتفت إليه.

لكن ولا شك أن الحكيم لو أن رجلاً دعا وكان على حالة من مرتبة من العلم قليلة فحدث الناس بالحق فطلبوا منه اصبر حتى يرجع إلينا العالم الفلاني فنسأله وهو يعلم أن هذا العالم لا يقول: إلا الحق وهو أعلم منه في هذا الباب كحال موسى مع هارون، فيقول: لا بأس نصبر حتى يرجع إذا لم تستمعوا لي ولا تعتبرون، لأن الناس لا يأخذون فقط الدليل وهذا مما يجهله الكثير، حين يتحدث الشيخ لا يتحدث بالدليل ولكن الدليل يتحدث به إنسان، أليس في قدرة الله أنه لو أراد أن يعلم الناس الحق أن ينزل عليهم كتباً من السماء وأن ينزل عليهم خطاباً سماويًا من الملائكة؟ أنزل بشراً ولما أرسل هؤلاء أرسل بشراً ولما أرسل بشراً للناس أرسلهم على هيئةٍ معينة لا يمكن أن تتهم من أجل أن يرد الحق بهذا الاتهام، لا يمكن أن يرد الحق بهذا الاتهام لو اتهموا به.

يعني أن يأتي إليهم رجل وقد كذب عمره كله وعُرف بالكذب، فجأة يخرج من الظلام ليقول لهم: أنا النبي وجئتكم بهذا الحق ويكون على المعنى الصحيح، لا يتصور هذا لأن حاله حاجبٌ لأخذ من الحق والله عز وجل يزيل الحواجب، ويزيل الحواجز بين الناس بينهم وبين هذا الحق، هذا شيء مهم فلا ينبغي أن تقدم الحق للناس مع حواجز تمنع أخذ هذا الحق.

ومن هنا يأتي دور ليس فقط الكلمة أن تكون حقاً فقط، ينبغي أن يكون حاملها كذلك ملائم لهذا الحق الذي يحمله للناس، دائمًا نكرر هذا كلمة يوسف عليه السلام لما قالوا ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)﴾ [يوسف: ٣٦]، تركهم ما تحدث معهم عن شيء حتى علموا إحسانه، لأنه في السجن التقوا لا يعرف أحدهم الآخر إلا في السجن بخلاف من يعيش بينهم، انتظر تعلم أما أن تأتي إلى الناس وهم لا يعرفون عنك شيئاً من العلم وتريد أن يتبعوك على أشياء يسمعون من كبار المشايخ غير ما تقول، هذا لا ينفع.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [البقرة: ٥١]، والضمير يعود لموسى عليه السلام ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١)﴾ [البقرة: ٥١]، ظالمون لأنفسكم ولا شك، وظالمون باتخاذكم العجل.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة: ٥٢]، الله عز وجل عفا، وتكلمنا عن قضية الشرك ومتى يعفى عنه بما يكفي في الدرس الفائت فارجعوا إليه إن شاء الله في الدرس تسعة وأربعين، ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، أي من بعد ما اقترفتم هذه الجريمة وقلنا: بأن الله يغفر الشرك إذا تاب منه المرء، وإنما قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، أي بأعمال غير التوبة عن الشرك، يعني لو أن رجل قام بكل الأعمال الصالحة وهو مشرك لا تكفي للتكفير عن الشرك، فهذا هو معنى ما تقدم.

قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢)﴾ [البقرة: ٥٢]، سبحانه وتعالى هنا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ هذه اللام التعليلية ولا شك أن هذا يثبت أن لام التعليل هي موجودة في القرآن وليس على ما قاله نفاتها يعني ممن ينفون تعليل أفعال الله عز وجل وعلى رأسهم الجهمية وكذلك يقول الأشاعرة مع إثباتهم القياس لكنهم ينفون التعليل وكذلك ابن حزم، ابن

حزم ينفي التعليل وللأسف كلامهم يعني لا يلتفت إليه لأنهم يظنون أن إثبات التعليل هو وجود قدرة أخرى من العلم حاكمةٍ على فعل الرب!! وهذا تصور بعيد على التزام ربنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود: ٥٦]، الله عز وجل لا يقول إلا الحق، فهذا هو أنه يفعل أفعالاً للحق ويقول أقوالاً من الحق ويفعل أفعالاً من الحق لأنه هو الحق، وليس لأن هناك حقٌ آخر من جهةٍ أخرى تفرض نفسها كما يتصور في قول نفاه التعليل.

فقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢)﴾ [البقرة: ٥٢]، دل هذا على أن الله عز وجل يطلب منهم في هذا العفو أن يشكروه، وأعظم نعمة للشكر كما قال موسى عليه السلام، بعد أن قتل القبطي، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧)﴾ [القصص: ١٧]، فأعظم أنواع الشكر لله في النِعمة هو أن تعيد إعمال هذه النِعمة في طاعة الله، هذه النِعمة التي أنت كفرت بها ورددتها من نِعمة التوحيد أن تقوم بها في موطنٍ يعز الله عز وجل بك التوحيد وكذلك أن تشكره بهذا النوع.

وهنا تكلمنا نحن في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢]، في التفريق بين الحمد والشكر فيرجع إليه، ما الفرق بين الحمد والشكر وكما قلنا: هناك بينهما عموم وخصوص فلابد من شكر الله عز وجل على النِعم، وأعظم أنواع الشكر هو العمل كما قال سبحانه وتعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، فينبغي للمرء أن يعمل الشكر لأن الشكر يكون باللسان ويكون بالقلب ويكون بآلةٍ زائدة عن الحمد وهي الجوارح.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢)﴾ [البقرة: ٥٢]، قال تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)﴾ [البقرة: ٥٣]، هنا أيها الأخوة الأحبة قوله تعالى: ﴿الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾، فالواو عادةً تعني المغايرة، ولكن هنا لابد أن أقف وذكرت هذا سابقاً ولكن نقف عنده بشيء من التفصيل الزائد، المغايرة بالإجماع أن الواو تقتضي المغايرة بالإجماع، لكنها لا تفيد شيئاً آخر كالترتيب مثلاً أو غير ذلك وإنما هي تفيد المغايرة ومطلق الجمع كما يقول أهل البلاغة، ولكن مما ذكرنا أن المغايرة قد تكون مغايرة مع عدم لزوم الشيء ووجود الأخر، كقوله تعالى: ﴿خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، فهنا مغايرة بين السماء والأرض ولكن ليس هناك تلازم بين السماء والأرض.

لكن لما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، فهنا واو طاعة الله غير طاعة الرسول وطاعة الرسول غير طاعة الله، ولكن بينهما تلازم لا يصح طاعة الله من غير طاعة الرسول، ولا يصح طاعة الرسول من غير طاعة الله بينهما تلازم بخلاف الأول، وقد تكون المغايرة بذكر الشيء وذكر جزئه بعده لأهميته، كأن تقول صلي واركع، الركوع جزء من الصلاة، لكنه نبه على جزء منها لأهميته وهذا موجود ذكرنا أمثلته، وقد تكون الواو هنا التي هي للمغايرة للشيء وصفته تكثير الصفات كأن تقول: الله والغفور والرحيم وهكذا، الله عز

وجل الخالق والبارئ والمصور فأنت هنا ذكرت شيئاً واحداً ذكرت معنًا واحداً وهو الله ولكنك عددت صفاته ولا شك أنها تعود إلى واحد وهو الله لكن مع مغايرة بين هذه المعاني وإنما هي تفيد الإشارة إلى ذاتٍ واحدة.

فهنا قوله تعالى: ﴿الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾، من أين نوع؟ فبعضهم قال: المقصود ﴿الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾، هو من النوع الرابع وهو أن الفرقان هو الكتاب، ولكن الكتاب فيه فرقان، قال بعضهم: كما ذكرناه في المعنى الرابع وهو ذكر الشيء وصفاته المتعددة مع وجود واو العاطفة، فيمكن أن نقول: هنا ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ [البقرة: ٥٣]، يعني الكتاب الذي فيه الفرقان وإنما هي صفةٌ زائدة، وهذا مع أن البعض قاله لكنه بعيد.

ما هو أجلى ما يمكن أن يقال؟ يمكن أن يقال: الكتاب وهو التوراة بلا شك، قال بعضهم: أعطي الكتاب وأعطي الفرقان، يعني أعطي النصر، أن الله نصره على أساس أن موسى عليه السلام وقومه هم أول من فرض عليهم الجهاد في سبيل الله، فأعطاه الله الكتاب والنصر كما سمى الله عز وجل يوم بدر يوم الفرقان هذا معنى.

ومعنى آخر أنه أوتي الكتاب والفرقان وهذا الذي أميل إليه، والفرقان ما يحصل في القلب من معرفة الحق واقعاً كما أن الكتاب هو معرفة الحق شرعاً، وهذا قاله بعضهم على هذا المعنى ولكن ليس بهذا اللفظ الذي قلته لكم، أعيدها يعني الكتاب عندنا القرآن يفرق بين الصدق والكذب، يفرق بين الإيمان وبين الكفر، يفرق بين الظالم وبين العادل يفرق الكتاب وأنت تعرفه، وأنت تفرق بينهما علماً كما أثبته الكتاب، لكن أن تفرق بينهما واقعاً لو حصلت الأمور عندك، لو حصلت هذه الأمور، قد يكون المرء عالماً بالكتاب غير عالم بما يقع من وقائع في الحياة، ومن هنا دور القاضي أن يكون متوسمًا أن يكون من المتوسمين أي بمعنى أن يكون عنده القدرة على معرفة الحق والباطل إذا وقع أمامه اشتباه وخصومة.

هذه الحكمة هذا من معاني الحكمة فيما ذكرناه سابقاً، لماذا ذكر الله الكتاب والحكمة؟ يعني لا يكفي أن تكون عالماً بالحق في عالمه المطلق ينبغي أن تكون كذلك عالماً به في عالم الواقع، فلو أن رجلاً علم الكتاب ولكنه لم يفرق بين الحق والباطل واقعاً، بين الجماعة التي فيها الحق والجماعة التي فيها الباطل، لو أنه جاء إليه رجلان وقد اختصما فلم يستطع أن يعمل الحق فيهما، لم يعرف من هو المحق من هو المبطل، لا يحصل به الفضل.

ولكن موسى عليه السلام أوتي الكتاب الذي علم به الحق كما هو في نفسه، وكذلك عَلم الحق والباطل في واقعه على ما تعامل به، هذا أقوى ما يمكن أن يقال وهذا من تمام النِعمة، لا يكفي للمرء أن يكون عالماً في نفس الأمر كما هو في مرتبة العلم وقدره، لكنه ينبغي أن يكون عالماً بالحق في الناس، أن يعلم المبطل من المحق أن يعلم جماعة الصواب من جماعة الباطل وهكذا يعرف الناس، فالله عز وجل مَنَّ على موسى السلام بهذا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٥٣]، أي التوراة، والتوراة أيها الإخوة الأحبة معناها الشريعة لغةً، وسيأتي شرح ذلك عندما تذكر باسمها، وأما قوله: ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ فهو كما قلنا: هي مَلَكةٌ ربانية تعطى في القلوب لمعرفة الصواب من الخطأ كما هو في الواقع، أي أن تطبق الكتاب على الواقع في تسمية الحق بأسمائه الواقعية.

قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)﴾ [البقرة: ٥٣]، لأن الهداية لا تحصل إلا بالكتاب وبهذا نقف إن شاء الله نتابع في الدرس القادم جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: هل التفسير الإشاري هو إنشاء معاني ثم الاستدلال عليها بالآيات أم استنباط المعاني الباطلة من الآيات؟

الشيخ: ولا شك أن للتفسير الإشاري لا تُنشئه الآيات، يعني هذه جيدة إنما هي أولاً تكون موجودة فيستدل لها، يستدل لهذه المعاني من الكتاب، ولكن هذه الطريقة ليست سيئة في الاستدلال، وإنما يستخدمها العلماء بمعنى لو أن رجلاً امتحن تلاميذه أين تجدون في كتاب الله هذه المسألة؟ فقد يكون هو هذه المسألة فهمها من السنة، لكن أين هي من الكتاب، يعني هذا يقع، ولذلك قال ابن القيم رحمه الله في كتاب «بدائع الفوائد» يقول: بأن أعظم العلماء علماً من استدل أو من اكتشف -بمعنى كلامه- من استنبط الأحاديث من الآيات، يعني هذا الحديث أين هو في كتاب ربنا؟ فإذن هو يعلم الحق ويعلم الصواب ويبحث له في الكتاب، فهذه ليست سيئة.

ولكن نعود إلى موضوع التفسير الإشاري، عادة التفسير الإشاري لا تنشئه الآيات، وإنما هي معاني تنشأ في النفس على الحق وهكذا فيجد لها ويبحث لها عن دليل في الكتاب فيجد هذا المعنى الضعيف الذي قلنا له، وأما إذا كان على المعنى الذي قاله السائل وهو المعاني الباطلة فحينئذٍ مستحيل أن يُنشئ القرآن المعنى الباطل في النفس، إنما هي المعاني الباطلة تنشأ في الخارج ثم يبحث عنها في الكتاب كاذباً مفترياً مدعياً عما في الكتاب.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

فهرس المحتويات